الساحة والبرج

الشبكات والسلطة من الماسونيين الأحرار إلى فيسبوك

نِيَل فِرجسن

ترجمة

حسام نايل




TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

إشارات المترجم

1

ما الذي يحدث حين تُهاجِمُ شَبَكةٌ نظامًا هَرَميًّا؟

يسعى هذا الكتاب - الصادر فى طبعته الإنجليزية الأولى يناير 2018 - إلى إيجاد طريق وسط بين التيار السائد فى علم التأريخ المائل إلى التقليل من دور الشبكات، وبين مُنظِّرى المؤامرة المعتادين على المبالغة فى دور الشبكات.

فيقترح روايةً تاريخية جديدة، يمكن من خلالها فَهْمُ التغيُّرات الرئيسية الكبرى بوصفها تحدياتٍ مُدمِّرة طرحتها الشبكاتُ networks على التسلسلات الهَرَميّة hierarchies القائمة.

كما يتحدّى الكتابُ أيضًا الفرضيات الواثقة لدى بعض المُنظِّرين اليوم القائلة بوجود فائدة إيجابية أصيلة في تدمير الشّبَكة للنظام الهَرَمي.

لذا، ينشغل المؤرّخُ البريطاني نِيَل فِرْجسن بالسؤال الرئيسي الآتي:

ما حجم التهديد الذى تُلحِقه شبكةُ التعقيد الاقتصادى والمالى والتكنولوجى، الراهنة، بأنظمة الحُكْم القومية الهَرَميّة، عند مقارنته بالتهديد الذى ألحقته مؤخرًا شبكاتُ التعقيد السياسى بالأنظمة السياسية القومية الهَرَميّة عام 2011 فى الشرق الأوسط، وعام 2014 فى أوكرانيا، وعام 2015 فى البرازيل، وعام 2016 فى بريطانيا وأمريكا؟ أو بصياغة أخرى: هل يمكن للعالَم الشّبَكى أن يُقدِّمَ بديلا ً عن النظام الهَرَميّ؟

(كما وَرَدَ في نهاية الفصل 57).

وللإجابة عن هذا السؤال، يلجأ نِيَل فِرْجسن إلى تطبيق نظرية الشبكة بتحليلا تها الجديدة، على نطاق تاريخى واسع يمتد من أوائل القرن السادس عشر حتى تدخُّل الاستخبارات الروسية عبر وسائط الشبكة الإلكترونية فى الا نتخابات الأمريكية عام 2016؛ مُستقصيًا العلاقةَ بين البراديم الشّبَكى و البراديم الهَرَمى، بكل ما يشوبها من لحظاتِ توترٍ صراعى أو تكافلى، فيتنقل بين شبكة التنظيمات السرّية فى زمن الإمبراطورية الألمانية، وشبكات الإصلا ح والتنوير والمحافل الماسونية والاستكشاف وصعود شبكات المال فى أوربا ، حتى يصل إلى الشبكات المالية والاقتصادية الراهنة وشبكات تكنولوجيا المعلومات الجديدة، فيُراوح بين شبكات الإرهاب والتخابر البشرى والإ لكترونى، وأخيرًا شبكات الهجوم الإلكترونى التى باتت على أُهْبَة الاستعداد في الصين والولايات المتحدة الأمريكية الآن.

وسيلحظ القارئ أن فكرة نِيَل فِرْجسن اللامعة تكمن فى أن التوترَ بين الشبكات المُوزّعة والنُّظُم الهَرَميّة المُرَكّزة قديمٌ قدم البشرية نفسها. فالتوترُ بينهما قائمٌ بغضِّ النظر عن حالة التكنولوجيا، وإن أثّرت التكنولوجيا فى أيّهما

له اليد العليا. لذا، من المحتمل بدرجة كبيرة أن تمتد أهمية عمل فِرْجُسن إلى ث
لاثة عقود قادمة في أقل تقدير، هذا إنْ لم تقع كارثةٌ كبرى تذهب بالجميع.

ولعل أهمية الكتاب لنوعيّات مختلفة من القرّاء فى مجالات عديدة هى التى فُرَضَتْ علىّ التوسُّعَ فى إضافة هوامش إيضاحية وشارحة أسفل الصفحة حتى تتيسر متابعة القراءة دون استشكال. وأما بخصوص متن الترجمة أو هوامش المؤلف أسفل كل صفحة، فوَضعتُ تدخُّلى فيهما بين معقوفين هكذا [ ]، وكلٌّ ما هو بدون اقواس فهو للمؤلف.

والله ُ وَليٌّ التوفيق.

حسام فتحي نايل القاهرة،

ديسمبر 2018

I

القسم الأول

الشّبكات والتسلسلات الهَرَميّة

1
سِرّيةُ المُتنوِّرين وغموضُهم

ذاتَ يومٍ، قبل قرنين ونصف تقريبًا، وُجِدَتْ شَبَكةٌ سِرّيةٌ secret network حاولتْ تغييرَ العالَم. تأسّسَ هذا التنظيم organization فى ألمانيا قبل شهرين فقط من إعلان ثلاث عشرة مستعمرة أمريكية استقلالها عن بريطانيا[1]، وعُرِفَ باسم المُتنوِّرين Illuminatenorden: نظام المُتنوِّرين the order of Illuminati.

أهدافُ التنظيم ساميةٌ نبيلة. وأطلَق عليه مؤسِّسُه، فى البداية، اسمَ Bund der Perfektibilisten، [جَامِعة أو عُصْبَة الواصلين إلى الكمال] (the League of the Perfectibles). وكما يذكر أحدُ أعضاء التنظيم قَوْلَ مُؤسِّسه، الهدفُ منه أن يكون:

جَمْعيّةٌ association غايتُها نَصْرُ الفضيلة والحِكْمة على الغَبَاوة والخُبْث بأبرع الأساليب وأحْكمها تأمينًا؛ جَمْعيّة ستقوم بأهم الاكتشافات فى كل مجالات العِلم، وستُعلِّمُ أعضاءَها ليصيروا نُبَلاء وعُظَماء، وستضمن لهم يقينَ الفَوْز بكمالهم فى هذا العالَم، كما ستحميهم من الاضطهاد والمصائر الكارثية والظُّلْم، وستُكبِّلُ أيدى الاستبداد والطُّغْيان [الحُكم المُطلق] despotism بجميع أشكاله[1].

هدفُ التنظيم النهائى «تنويرُ الفَهْم بوَسَاطة شمس العقل التى ستُبدِّدُ غيومَ الخرافة والتحيُّز». وقد أعلن مؤسِّسُه قائلا ً: «غايتى إعطاء العقل اليد العليا»[2].

أساليبُ التنظيم، فى وجهٍ من وجوهها، تعليميةٌ. ف«هدفُ العُصْبة league الوحيد هو التعليم، لا بوسائل خطابية انفعالية بل بمساندة الفضيلة ومكافأتها»، كما وَرَدَ فى قوانينها العام 1781 (General Statutes)[3]. وفوق ذلك، كان المُتنوِّرون [إلوميناتى] يعملون بوصفهم أُخَوِيّة سِرّية secret fraternity صارمة.

فتَسمّى الأعضاءُ بأسماء شفرية [كُوْديّة]، ذات أصل يونانى أو رومانى قديم

---

[1] وَقَعَ الانفصالُ القانونى للمستعمرات الثلاث عشرة الأمريكية عن الإمبراطورية البريطانية فى الثانى من يوليو عام 1776 عندما صَوّتَ الكونجرسُ القارّىُّ الثانى بموافقته على الا ستقلال، وتمّ إقرارُ صيغة وثيقة إعلان الاستقلال النهائية والتوقيع عليه فى الرابع من يوليو عام 1776. ويستنتج معظمُ المؤرّخين أن التوقيع على وثيقة الإعلان النهائية حَدَثَ بعد شهر تقريبًا من هذا التاريخ - المترجم.

غالبًا: المؤسِّسُ نفسُه تسَمّى ب«الأخ سبارتاكوس» Brother Spartacus. وكان يوجد ثلاثُ رُتَبٍ أو درجاتُ عضويةٍ: مُبتدِئ Novice، ومنيرفال[2] Minerval، ومنيرفال مُتنوِّر Illuminated Minerval. ولا تعرف الرُتَبُ الأدنى فى التنظيم سوى فكرة غامضة عن أساليبه وأهدافه [الكبرى]. ابتكر التنظيمُ طقوسَ تلقينٍ دقيقة للوافدين الجُدُدِ إليه، من بينها حَلَفُ اليمين على السِّرّية، ومَن يَحْنَثُ بيَمِينه يموت بأبشع طريقة. وكلُّ خليّةٍ مبتدئين معزولةٍ تُقدِّمُ تقريرًا للأعلى رُتبة، دون أن يعرف أفرادُها هُويّتَه الحقيقية.

فى البداية، كان المُتنوّرون قليلى العدد. لم يكونوا سوى بضعة أعضاء مُؤسِّسين، معظمُهم طَلَبَة[4]. ثم بعد عامين من تأسيس التنظيم، بلغ إجمالى العضوية خمسة وعشرين عضوًا فقط. ومع أواخر ديسمبر عام 1779، زاد أعضاؤه إلى ستين عضوًا. ثم ارتفعت العضوية فى خلال بضع سنين إلى أكثر من 1,300 عضو[5].

اقتصر التنظيم، فى أيامه الأولى، على [مُدن] إنجولشتات Ingolstadt وآيشتيت Eichstätt وفرايزنج Freising، بالإضافة إلى بضعة أعضاء فى ميونيخ[3] Munich[6]. ثم امتدت شبكة المُتنوّرين، مع بواكير ثمانينيات القرن الثامن عشر، لتشمل أنحاء كثيرة فى ألمانيا. الأكثر من هذا، انضمامُ قائمة مثيرة من الأمراء الألمان إلى التنظيم: فيرديناند Ferdinand أمير برونزويك - لينبُرْج - فولفينبُتِل Brunswick- Lüneburg -Wolfenbüttel ؛ تشارلز Charles أمير هيسّه كاسيل Hesse-Cassel ؛ إرنست الثانى Ernest II دوق زاكس - كوبورج - ألتنبرج Saxe- Coburg -Altenburg ؛ تشارلز أوجُسْت Charles August دوق زاكس - فايمار - أيْزناخ Saxe- Weimar -Eisenach الأكبر[7]؛ بالإ ضافة إلى عشرات النبلاء من أمثال: فرانس فريدريك فون ديتفورت Franz Friedrich von Ditfurth؛ رجل الدين فى رينِلاند Rhineland، الصاعد نَجْمُه، كارل تيودور فون دالبيرج Carl Theodor von Dalberg[8].

---

[2] التلميح إلى منيرفا Minerva، الاسم الرومانى لإلاهة الحكمة [المُسمّاة فى الأساطير اليونانية باسم] بالاس أثينا [أو أثينا]. وتتألف شارةُ المُتنوّر [أو إلِوميناتى] من بومة، رفيقة ا لإلاهة، تجلس على صفحات كتاب مفتوح - المؤلف.

[3] إنجولشتات: مدينة تابعة لمحافظة بافاريا العُليا فى ولاية بافاريا بألمانيا، كانت محل إقامة أميرها دوق بافاريا. آيشتيت: بلدة ألمانية تقع في منطقة إيشتيت..

فرايزنج: بلدة ألمانية تابعة لمقاطعة بافاريا، تقع شمال مدينة ميونخ. أما ميونخ فهى ثالث أكبر مدن ألمانيا وعاصمة ولاية بافاريا، تقع جنوب ألمانيا على نهر إيسار، على بُعْد 103 كيلو متر من جبال الألب، ويُطلَقُ عليها أحيانًا العاصمة الخفية لألمانيا - المترجم.

والمُتنوِّرون الأرفع مكانةً الذين عملوا بوصفهم مُرْشِدين ومستشارين، كانوا أعضاء آخرين في التنظيم[9].

المثقفون أيضًا صاروا مُتنوِّرين، ولا سيما مُتعدِّد المعارف يوهان فولفجانج جوته Johann Wolfgang Goethe، والفيلسوفين: يوهان جوتفريد هيردر Johann Gottfried Herder وفريدريك هاينريك ياكوبى Friedrich Heinrich Jacobi، والمترجم يوهان يوآخيم كريستوف بوده Johann Joachim Christoph Bode، والتربوى السويسرى يوهان هاينريك بيستالوتسى Johann Heinrich Pestalozzi[10].

ورغم عدم انضمام الكاتب المسرحى فريدريك شيلر Friedrich Schiller إلى التنظيم، فقد رَسَمَ شخصية بوزا Posa الثورى الجمهورى فى مسرحيته «دون كارلوس»[4] Don Carlos (1787)، مستلهمًا عضوًا قياديًا فى تنظيم المتنوِّرين[11]. وأحيانًا، يُلتَمَسُ تأثير التَّنَوُّريّة [إلِومينيزم][5] illuminism فى أوبرا فولفجانج أماديوس موتسارت Wolfgang Amadeus Mozart «الناى السحري» The Magic Flute (1791)[12].

ولكن، فى يونيو عام 1784، أصدرت الحكومة البافارية Bavarian government أولَ ثلاثة مراسيم تحظر فيها، بلهجة متشدِّدة، [تنظيم] المُتنوِّرين مُتَّهِمةً إياهم بأنهم «خائنون ومُعادون للدين»[13].[وعلى الفور]، بدأت لجنة تحقيق فى تطهير الأكاديمية والجهاز الإدارى من أعضاء التنظيم. فَرَّ البعضُ من بافاريا[6] Bavaria، وآخرون فقدوا وظائفهم أو نُفُوا، وسُجِنَ اثنان على الأقل. المؤسِّسُ نفسُه سعى إلى اللجوء إلى جوتا[7] Gotha. وأما عن

---

[4]دون كارلوس: تراجيديا تاريخية من خمسة أجزاء، كتبها شيلر بين عامىْ 1783 و1787، وأُنْتِجَتْ لأول مرة فى هامبورج عام 1787. الشخصية الرئيسية فيها كارلوس أمير أستورياس، وتعود أحداثها التاريخية إلى القرن السادس عشر فى عهد فيليب الثانى ملك إسبانيا - المترجم.

[5]التنوُّريّة: زَعْم المرء أنه وصل إلى حالة من التنوُّر يتعذر بلوغها على جُمْلة البشر. وتُرَادِف، أحيانًا، كلمةَ enlightenment [التنوير] بمعناه الفلسفى بوصفه الحركة التى بدأت فى أعقاب «الثورة المجيدة» فى إنجلترا عام 1688، ثم تواصلت فى فرنسا حتى بدايات الثورة الفرنسية عام 1789 وما بعدها - المترجم.

[6]بافاريا، أو جمهورية بافاريا: إحدى الولايات المكوّنة لجمهورية ألمانيا الاتحادية. عاصمتها وكبرى مدنها ميونخ - المترجم.

[7]جوتا: بلدة ألمانية تقع فى تورينجن أو ولاية تورينجن المستقلة إحدى ولايات ألمانيا - المترجم.

مقاصد المُتنوِّرين وأهدافهم، فتوقفوا عن العمل من أجلها بحلول نهاية عام 1787. ورغم ذلك، طاردَهم سوءُ السُمْعَة ولحقهم الخزيُ لوقت طويل. فقد حُذِّرَ ملكُ بروسيا[8] Prussia فريدريك ويليام الثانى King Frederick William II من أن المُتنوِّرين لا يزالون قوةً تخريبية خطيرة فى جميع أنحاء ألمانيا. وفى عام 1797، نَشَرَ عالِمُ الفيزياء الإسكتلندى المرموق جون روبيسون[9] John Robison كتابَه «أدلةُ وجود مؤامرة ضد كل أديان أوربا وحكوماتها، يتواصل تنفيذُها فى اجتماعات الماسونيين الأحرار والمُتنوِّرين وجمعيّات القراءة السرّية» Proofs of a Conspiracy against All the Religions and Governments of Europe, carried on in the Secret Meetings of the Free Masons, Illuminati, and Reading Societies. فزَعَمَ فى هذا الكتاب أنه «فى غضون خمسين عامًا، وتحت ذريعة تنوير العالَم الخادعة بشُعْلَة الفلسفة، وبذريعة تبديد غيوم الخرافات الدينية و المدنيّة،... تحمّستْ جَمْعيّةٌ association بشكل مُمَنْهَج [لتنفيذ هذه المؤامرة]، حتى صار من المُتعذّر، تقريبًا، مقاومتها لشدة إغوائها»، هدفُها «اقتلاع كل المؤسسات الدينية وإسقاط كل الحكومات القائمة فى أوربا». وطبقًا لروبيسون، توّجَت الجَمْعيّة مجهوداتها بإشعال الثورة الفرنسية French Revolution. وقد ادّعَى الادِّعاءَ نفسَه يسوعىٌ فرنسىٌ سابق يُدْعَى أوجُستين دو باروِيل Augustin de Barruel فى كتابه «مُذكِّرات إيضاحية حول تاريخ اليعقوبية»[10] Memoirs Illustrating the History of

---

[8]بروسيا: اسم يُطلَقُ فى الأصل على المقاطعة الألمانية التى أُطلِق عليها لاحقًا «بروسيا الشرقية». وسُمِّيت المنطقة على اسم السكان الأصليين البروسيِّين من ذوى الأصول البلطيقية. ارتقت مملكة بروسيا، بدءًا من عام 1701، إلى مرتبة قوة أوربية عظمى، فأزاحت مملكةَ النمسا القيصرية عن قيادة الدول الألمانية، وأسّست عام 1871 الإمبراطورية القيصرية الألمانية التى أصبحت بروسيا العضوَ الاتحادى المسيطر فيها - المترجم.

[9]جون روبيسون: (1739 - 1805)، عالِم رياضيات وكيميائى وفيزيائى ومخترع من مملكة بريطانيا العظمى، من أصل إسكتلندي - المترجم.

[10]اليعقوبية: مذهب سياسى ثورى شديد التطرف أثناء الثورة الفرنسية. يرجع فى الأصل إلى النُّواب المُعادِين للمَلَكيّة. كانت التسمية الأولى «جمعيّة أصدقاء الدستور»، ثم تغيّرت لاحقًا إلى «جمعيّة اليعاقبة أصدقاء الحرية والمساواة». وتعود الصفة «يعقوبى» إلى أنهم استأجروا ديرَ يعقوب فى شارع سان أونوريه فى باريس مقرًا لاجتماعاتهم، فأطلق عليهم أعداؤهم السياسيون اسمَ اليعاقبة على سبيل السخرية. كما يُعْرَفون أيضًا باسم «نادى اليعاقبة»، وهو النادى السياسى الأكثر تطرفًا أثناء الثورة الفرنسية، الذى استطاع السيطرةَ

Jacobinism، المنشور أيضًا عام 1797. «ذُرّية الأشرار عميقى التدبير خطّطوا سلفًا وبَيّتوا النِّية، ثم اجتمعوا معًا وترَصّدوا.... كى يقترفوا أفظع الأعمال أثناء الثورة الفرنسية». ويقول بارويل إن اليعاقبة Jacobins أنفسُهم هم وَرَثة المُتنوّرين. هذه الادّعاءات التى امتدحها إدموند بيرك[11] Edmund Burke[14]، سرعان ما شقّتْ طريقها إلى الولايات المتحدة، فتبنّاها من بين آخرين تيموثى دوايت Timothy Dwight رئيس جامعة ييل Yale [الثامن][15]. وعلى امتداد معظم القرنين التاسع عشر والعشرين، لعب المُتنوّرون دورًا غير مقصود بوصفهم المتآمرين النموذجيين الأصليين conspirators-Ur ، فيما أسماه ريتشارد هوفستاتر[12] Richard Hofstadter على نحو لا يُنْسَى «أسلوب البارانويا» فى السياسة الأمريكية، حين زَعَم الدُعاة أنهم سيصمدون فى الدِّفاع عن عامّة الناس العُزّل ضد «شبكة تآمرية دولية هائلة، خبيثة وشريرة، نفوذُها خارقٌ، تُصَمِّم على اقتراف أكبر الآثام الشيطانية»[16].

ولنُعْطِ مثالين فقط على هذا، الملامح التى ظهرت بها شخصية المُتنوّر فى مطبوعات جمعيّة جون بيرش[13] John Birch Society المُناهِضة للشيوعية؛ وفى كتاب المسيحى المُحافِظ بات روبرتسن[14] Pat Robertson «النظام العالمي الجديد» New World Order (1991)[17].

استمرت أسطورة المُتنوّرين حتى يومنا هذا. صحيحٌ أن بعض الكتابات

على مقاليد الحكومة الثورية فى فرنسا من منتصف عام 1793 إلى منتصف 1794. حَكمَ اليعاقبةُ البلادَ بالإرهاب فيما عُرِفَ ب«عهد الإرهاب»، وأبرز زعمائهم روبسبيير. قُضِىَ عليهم بعد إزاحة روبسبيير عن الحُكم وإعدامه مع 21 من رفاقه - المترجم.

[11]إدموند بيرك: (1729 - 1797)، مفكر سياسى أيرلندى. من أشهر أعماله «تأملات حول الثورة الفرنسية» عام 1790. عبّر فيه عن امتعاضه من وَلَع الثوريين المثير للفتنة والا ضطراب. ورغم تحذيره من تبعات الثورة الفرنسية فقد كان من المؤيدين للثورة الأمريكية - المترجم.

[12]ريتشارد هوفستاتر: (1916 - 1970)، مؤرّخ أمريكى. انتقل من تبنِّى رؤية يسارية متطرفة للتاريخ إلى رؤية توافقية فى خمسينيات القرن العشرين، فأصبح رمزًا للمؤرّخ التوافقي الليبرالي بعد الحرب - المترجم.

[13]جمعيّة جون بيرش: مجموعة تصف نفسَها بأنها مُحافِظة ومُناهِضة للشيوعية. وتُوصَفُ أيضًا بأنها تنظيم يميني راديكالي. تأسّست في ديسمبر 1958 - المترجم.

[14]بات روبرتسن: من مواليد عام 1930، قسّ معمدانى جنوبى، ترشّحَ فى انتخابات الرئاسة الأمريكية عام 1988. ادّعَى أن الله يقف بجانبه ضد خصومه، ووصف الطوائف البروتستانتية الأخرى بأنها مُعادية للمسيح، كما وَصَفَ الحركات النِّسْوية الغربية بأنها مُعادِية للأسرة. يمتلك سجلا ً واسعًا من التصريحات المسيئة للإسلام - المترجم.

المستوحاة من التنظيم صُرّحَ بأنها أدب [خيال]، ولا سيما ثلاثية «المُتنوّر» [إلِوميناتوس][15] Illuminatus المنشورة فى سبعينيات القرن العشرين لمؤلفيْها روبرت شاى Robert Shea وروبرت أنطون ويلسن Robert Anton Wilson، ورواية أومبيرتو إيكو Umberto Eco «بندول فوكو» Foucault's Pendulum (1988)، وفيلم «لارا كروفت: تومب ريدر» Lara Croft: Tomb Raider (2001)، ورواية دان براون Dan Brown المثيرة «ملائكة وشياطين» Angles and Demons (2000)[18].

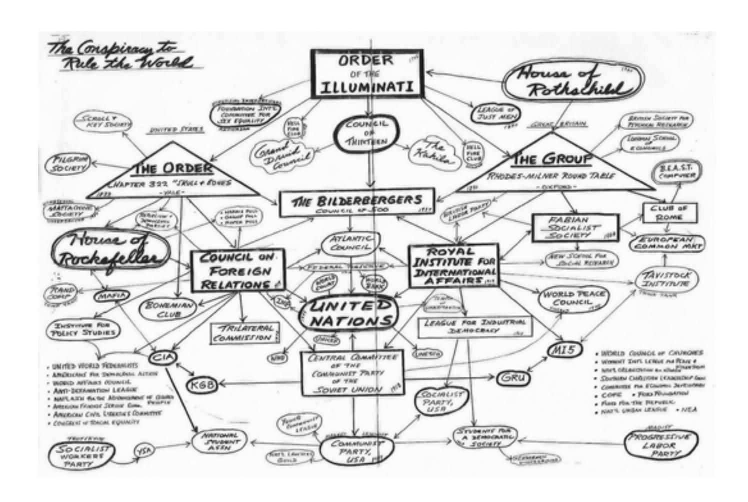
الأصعب على الشرح والتفسير هو الاعتقاد المنتشر بأن المُتنوّرين موجودون فعلا ً اليوم، وبالقوة نفسها التى اعتزم مؤسِّسُهم أن يكونوا عليها. فتزعم مواقعُ إلكترونية حاليًا أنها تمثل المُتنوّرين، ولا موقع منها يتسم بالا حترافية[19].

ومع ذلك، يُزْعَمُ أن عددًا من رؤساء الولايات المتحدة كانوا أعضاء فى تنظيم المُتنوّرين: جون آدامز John Adams وتوماس جيفرسن Thomas Jefferson[20]، بل باراك أوباما Barack Obama أيضًا[21]. تصِفُ خطبةٌ طويلة، نموذجية نوعًا ما، (وهذا نوع وفير) المُتنوّرين بأنهم «نُخْبَة حاكمة غنية تطمح إلى خَلَق مجتمع من العبيد»:

يمتلك المُتنوّرون كل البنوك الدولية، وشركات النفط ومعظم الشركات الأقوى فى الصناعة والتجارة، كما يتسللون إلى السياسة والتعليم، ويَتملّكون معظمَ الحكومات، أو على الأقل يسيطرون عليها. بل يَمتلِكون هوليوود وصناعة الموسيقى... المُتنوّرون يقودون صناعةَ تجارة المخدرات أيضًا... أفضل مُرشّحى الرئاسة يُختارون بعناية من أسلاف سِرّيين [غامضين] ينحدرون من ثلاث عشرة عائلة مُتنوّرة... هدفهم الرئيسى إنشاءُ حكومة عالمية واحدة، يكونون على رأسها لحُكم العالم بالاستعباد والديكتاتورية... إنهم يريدون خَلَق «تهديد خارجى»، أو غزو أجنبى مُلفّق، حتى تكون بلاد هذا العالم على استعداد للتوحُّد بوصفها بلدًا واحدًا.

---

[15]ثلاثية المُتنوّر أو إلومیناتوس: صدرت أجزاء الرواية بين عامىْ 1969 و1971، وتُصَنّفُ على أنها خيال علمى ساخر متأثر بروح ما بعد الحداثة، لا تخلو من حسٍّ المغامرة و التشويق وعناصر تتضمن أدوية نفسية وممارسات جنسية وسحر أسود، وكل هذا فى سياق نظريات مؤامرة تحوم حول جماعة الإلِوميناتى. عناوين الأجزاء الثلاثة على الترتيب هي: «عين في الهرم»، «التفاحة الذهبية»، «اللفياثان» - المترجم.



<u>**الشكل رقم1: «مؤامرة حُكم العالَم».**</u>

تربط الرواية النموذجية لنظرية المؤامرة بين المُتنوّرين وعائلة روتشيلد Rothschild، والمائدة المستديرة Round Table[16]، ومجموعة بيلدربيرج[17] Bilderberg Group، واللجنة الثلاثية[18] Trilateral Commission؛ ولا ننسى مدير صندوق الاستثمار [المحفظة الوقائية] hedge fund والمانح السياسى ورجل البرّ: جورج سورس George Soros[22].

هذه النظريات محلُّ اعتقاد، أو على الأقل يَتبنّاها بجديّة عددٌ كبير من الناس

---

[16]سيأتى الحديث تفصيليًا عن عائلة روتشيلد والمائدة المستديرة وأدوارهما الداخلية و الخارجية فى متن الكتاب وفى بعض الهوامش القادمة، وكذلك عن جورج سورس - المترجم.

[17]مجموعة بيلدربيرج: تأسّست عام 1954 بمبادرة عدد من أثرياء العالم وأصحاب السلطة والنفوذ. ويعود الاسم إلى فندق بيلدربيرج بقرية أوستيربيك بهولندا، محل انعقاد أول اجتماع للمجموعة عام 1954. يمثل الأوربيون ثلثى الأعضاء والبقية من الولايات المتحدة. معظم الأعضاء من أقوى رجالات السياسة والأعمال والبنوك نفوذًا فى العالم. تتسم نقاشات المجموعة بالسرّية الشديدة حول العديد من الموضوعات العالمية والاقتصادية و السياسية والعسكرية. يوجد فى هذه المجموعة ما يُسَمّى «أعضاء النُّواة الصلبة الخفية» - المترجم.

[18]اللجنة الثلاثية: مجموعة نقاش غير حكومية وغير حزبية. أسّسها ديفيد روكفلر عام 1973 لتعزيز التعاون الوثيق بين الولايات المتحدة وأوربا واليابان، وتتخذ من واشنطن وباريس وطوكيو مقرات رئيسية لها. يرى أصحاب نظرية المؤامرة أن هذه اللجنة أحد أهم أدوات الماسونية العالمية والتكتلات المَصْرفية الكبرى لإدارة العالم والسيطرة عليه وفق نتيجة تصبو إلى حكومة عالمية مُفترَضة - المترجم.

بشكل ملحوظ[23].

ما يزيد قليلا ً على النصف (51%)، من ألف أمريكى شملهم استطلاعٌ فى عام 2011، وافقوا على أن «معظم ما يحدث فى العالم اليوم تُقرّره مجموعةٌ صغيرة سرّية من الأفراد الكتومين»[24].

ووافق رُبْع عيّنة أكبر تشمل 1.935 أمريكيًا على أن «الأزمة المالية الجارية دبّرتها سرًا مجموعةٌ صغيرة من المَصْرفيين فى وول ستريت Wall Street لبَسْط سُلْطتهم على [البنك] الاحتياطى الفيدرالى Federal Reserve، بل لبَسْط سيطرتهم على اقتصاد العالم أيضًا»[25].

وتقريبًا، وافق واحدٌ من كل خمسة (19%) على أن «الملياردير جورج سورس وراء خطة خفيّة لزعزعة استقرار الحكومة الأمريكية والسيطرة على وسائل ا لإعلام [الميديا] ووضْع العالم تحت سيطرته»[26].

سورس نفسُه على علاقة روتينية بتنظيم المُتنوّرين، فيما يقول منظِّرو المؤامرة الشّعْبيون من أمثال أليكس جونز[19] Alex Jones[27].

قد يكون هذا التفكيرُ نوعًا من الخَبَل، ولكنه خَبَلٌ يجتذب أكثر من مجرد مجموعات هامشية. ويَخْلُصُ مؤلِّفو دراسة أكاديمية حديثة عن انتشار نظريات المؤامرة إلى الآتي:

يتفق نصفُ الأمريكيين مع [نظرية] مؤامرة واحدة على الأقل... وبغضّ النظر عن أن المنظورَ التآمرى تعبيرٌ شاذٌ لدى بعض غُلاة السياسيين أو نِتاجُ تضليلٍ جسيم، فهو يُمثِّل فى السياسة اتجاهًا واسع الانتشار عبر الطيف الأ يديولوجى بأكمله... فالعديد من أنساق الاعتقاد السائدة فى الولايات المتحدة، سواء كانت مَرْويّات مسيحية عن اللّه God والشيطان Satan... أم مَرْويّات الجناح اليسارى عن الليبرالية الجديدة...، تستند إلى فكرة وجود قوى غير مرئية، وعَمْدية، تصوغ الأحداث المعاصرة[28].

---

[19]أليكس جونز: من مواليد فبراير عام 1974، صحفى ومذيع ومخرج وممثل أمريكى، يقيم فى مدينة أوستن بولاية تكساس الأمريكية. يملك أليكس جونز إذاعة InfoWars [حرب المعلومات]، وقناةً على اليوتيوب باسمه. اتهمَ جونز حكومةَ الولايات المتحدة بالضلوع فى تفجيرات أوكلاهوما سيتى وهجمات 11 سبتمبر عام 2001، إذ يتبنّى فكرة أن هجمات 11 سبتمبر عملٌ داخلى بقيادة عناصر إجرامية فى الحكومة الأمريكية وليس من تدبير القاعدة. يُصنّفُ جونز على أنه من أتباع نظريات المؤامرة. فمنذ بداياته الأولى عمل على فضح النُخْبة العالمية والجماعات السرّية التى اغتالت جون كينيدى، ومن ضمنها الحركة الماسونية. فى بداية حياته المهنية، تمكنَ من تصوير أعضاء «نادى البستان البوهيمى» الذى يضم كبار رجال الدولة فى الولايات المتحدة ورجال الأعمال والصناعة والإعلام المخضرمين، وهم يقيمون أحدَ طقوس الديانة البابلية القديمة - المترجم.

وليست هذه الظاهرةُ بشاذةٍ فى الولايات المتحدة. فأثناء حرب العراق، اعتقدتْ نِسَبٌ كبيرة من الجمهور الألمانى أن المسؤولية عن هجمات 9/11 تقع على عاتق «شبكات مصالح راسخة، تتصف بالتداخلية والتواصل الوثيق، بل انتشارية [غير مركزية] وعابرة للحدود أيضًا، وليست هذه المصالحُ نتاجَ قصْدية فردية أو جَمْعيّة بالضرورة...»[29].

فى بريطانيا والنمسا أيضًا، تؤمن أعدادٌ كبيرة من الناخبين بنظريات المؤامرة، بما فيها نظرياتٌ اخترعها باحثون[30].

وينجذب الكُتّاب الرُّوس، بشكل خاص، إلى نظريات مؤامرة بقيادة أمريكية[31]، ولا مكان فى العالم يُضارع العالَم المُسْلِم Muslim world الذى تتفشّى فيه «نزعة تآمرية» conspiracism منذ هجمات 9/11 [32].

ينطوى هذا النوع من الاعتقادات على عواقب مأساوية. فأحد منظِّرِى المؤامرة الأمريكيين، ميلتون ويليام كوبر[20] Milton William Cooper، أطلقت عليه سلطاتُ الاعتقال النارَ أثناء مقاومته القبض عليه بسبب تهرُّبه الضريبى وجرائم حيازة أسلحة نارية. وقد استند كوبر فى مقاومته لقوات الشرطة إلى إيمانه الجازم بأن الحكومة الفيدرالية يسيطر عليها المُتنوِّرون[33].

وبالاحتكام إلى إحصائيات عالمية عن الإرهاب ودوافعه، نجد أن المُسْلِمين المؤمنين بوجود مؤامرة صهيوأمريكية ضد دينهم، من المرجّح لجوئهم إلى العنف أكثر من لجوء الأمريكيين «الذين يَشكّون فى التفسير العام المقبول لحدثٍ ما، معتقدين جَزْمًا بوجود مؤامرة رسمية لإخفاء التفسير الحقيقى» American «Truthers»[21].

يقدِّم تاريخُ المتنوِّرين مثالاً نموذجيًا للمشكلة الرئيسية فى الكتابة عن الشبكات الاجتماعية، وبخاصة الشبكات التى ظلت سِرّية. ولأن الموضوع يستهوى المهووسين، فمن الصعب على المؤرّخين المحترفين أن يحملوه على مَحْمل الجدّ. وحتى مَن يفعل ذلك منهم، يضطر إلى مُجَاهَدة مشكلة نُدْرة

---

[20]ميلتون ويليام كوبر: من مواليد كاليفورنيا 1943، أصيب بطلق نارى يوم 5 نوفمبر عام 2001 أدّى إلى وفاته. مُقدِّم إذاعى أمريكى يؤيد نظرية المؤامرة، ومؤلِّف كتاب «انظر الحصان الشاحب»، الذى يرصد فيه قائمة بالكثير من المؤامرات العالمية، بعضها مبتكر يتعلق بكائنات فضائية. يرى كوبر أن مرض الإيدز وباء صَنَعَه الإنسانُ لاستهداف السود واللاتينيين والمِثليين، وأن علاجه متوفر قبل انتشاره - المترجم.

[21]لم أعثر على كلمة واحدة أتَرْجِمُ بها كلمة truthers فآثرتُ ترجمتَها شرحًا إلى: «الذين يَشكّون فى التفسير العام المقبول لحدثٍ ما، معتقدين جَزْمًا بوجود مؤامرة رسمية لإخفاء التفسير الحقيقي» - المترجم.

احتفاظ هذه الشبكات بأرشيفات متاحة. المُؤرْشِفون البافاريون احتفظوا بأوراق الحملة ضد المُتنوّرين، بما فيها الوثائق الأصلية التى تم الاستيلاء عليها من أعضاء التنظيم. وفى الآونة الأخيرة فحسب، قام الأكاديميون - بشكل منهجى ومَشَقّة كبيرة - بتحرير ما تبقى من مراسلات المُتنوّرين ومبادئهم التنظيمية، التى تتألفُ من مجموعة لقطات متنوعة ومختلفة، بما فيها أرشيفات المحافل الماسونية Masonic lodges[34].

ويُفسِّرُ هذا النوعُ من عوائق تناول الموضوع السببَ فى إصرار أحد مُؤرّخى أكسفورد Oxford البارزين على أنه لا يستطيع سوى الكتابة «عن ما يُعتقَد ويُقال بشأن الجَمْعيّات السرية secret societies، وليس عن الجَمْعيّات السرّية نفسها»[35].

ومع ذلك، ما من حالةٍ تُوضِّح الأهميةَ التاريخية للشبكات networks أفضل من حالة المُتنوّرين. فهذا التنظيم بحد ذاته لم يكن حركةً مهمةً. فالمُتنوّرون لم يتسبّبوا، يقينًا، فى إشعال الثورة الفرنسية، أو حتى الكثير من المتاعب الحقيقية التى خاضتها بافاريا. ولكنهم صاروا مُهِمّين لأن صِيتهم انتشر كالفيروس، فى الوقت الذى حَدَثَ فيه اضطرابٌ سياسى عَجّلَ به عصرُ التنوير Enlightenment ووصلت ذروته الثورية إلى جانبىْ المحيط الأطلسى؛ والتنويرُ إنجازُ شبكةِ مُفكّرين network of intellectuals ذوي تأثير هائل.

يسعى هذا الكتاب إلى إيجاد طريق وسط بين التيار السائد فى علم التأريخ historiography المائل إلى التقليل من دور الشبكات، وبين منظّرِى المؤامرة المعتادين على المبالغة فى دور الشبكات. ويقترح روايةً تاريخية جديدة، يمكن من خلالها فَهْمُ التغيُّرات الرئيسية [الكبرى] - التى يرجع تاريخها إلى عصر الاستكشاف Age of Discovery وعصر الإصلاح Reformation إنْ لم يكن أسبق - بوصفها، أساسًا، تحدياتٍ مُدمِّرة طرحتها الشبكاتُ networks على التسلسلات الهَرَميّة hierarchies القائمة. كما يَتحدّى الكتابُ أيضًا الفرضياتِ الواثقةَ لدى بعض المُعلِّقين اليوم القائلة بوجود فائدة إيجابية أصيلة في تدمير الشّبَكة للنظام الهَرَميّ.

ويتأمل تجربةَ القرنين التاسع عشر والعشرين لتحديد الطرق التى تنقل بها الشبكاتُ الطاقاتِ الثوريةَ التي تحتويها.

2
عصرنا الشبكي

الشبكاتُ منتشرةٌ فى كل مكان، اليوم. فى الأسبوع الأول من عام 2017، نشرت صحيفة نيويورك تايمز New York Times، 136 قصةً ورَدَتْ فيها كلمة «شبكة» network. أكثر من ثلث القصص عن شبكات التلفزيون، وثمة اثنتا عشرة قصة عن شبكات الكمبيوتر، وعشر قصص عن شبكات سياسية متنوعة ومختلفة، بل هناك قصص أيضًا عن شبكات النقل والشبكات المالية، وشبكات الإرهاب وشبكات الرعاية الصحية، ناهيك عن الشبكات الاجتماعية والتعليمية ، وشبكات الجريمة، وشبكات التليفون والراديو والكهرباء، وشبكات التّخَابُر. وتعنى مطالعةُ كل هذا أن «كلّ شىءٍ في عالَمِنا مُتّصِلٌ ومترابط». بعض الشبكات تربط بين النُشَطاء [المناضلين أو المقاتلين]؛ وبعضها الآخر بين المُسْعِفين؛ وثمة شبكات أخرى تربط بين ماكينات الصّرف الآلى. هناك أيضًا شبكة السرطان، وشبكة الجِهاد، وشبكة الأوركا [حيتان قاتلة تعيش فى مجموعات] orca. بعض الشبكات دولية وتوصف غالبًا بأنها «ضخمة هائلة»[36]، وشبكات أخرى إقليمية [أو جَهَويّة أو محليّة]؛ بعضها أثيرى، وبعضها الآخر تحت الأرض[22].

ثمة شبكات فساد وشبكات أنفاق وشبكات تجسُّس؛ بل حتى شبكة تلاعُب بنتائج المباريات. مُهاجِمو الشبكة يتعاركون مع المدافعين عن الشبكة. وكل ذلك تُغَطِّيه، على نحو لاهث، شبكةُ كابلات أرضية وشبكة أقمار صناعية.

فى رواية «المنزل الكئيب»[23] Bleak House كان الضباب ينتشر فى كل مكان. واليوم، توجد الشبكاتُ - ولنقتبس من ديكنز Dickens - عند مَنْبع النهر ومَصَبِّه.

وكما نطالع فى [دورية] هارفارد بيزنس ريفيو Harvard Business Review[37]: «بديل الشبكات [والتواصل الشّبكى] هو الفشل». وتؤكد الدوريةُ نفسُها أن

---

[22] الشبكات الأثيرية كشبكات الهاتف المحمول والأقمار الصناعية وما أشبه. والشبكات تحت الأرض مثل كابلات الإنترنت وما أشبه - المترجم.

[23] المنزل الكئيب: رواية كتبها تشارلز ديكنز (1812 - 1870) أعظم الروائيين الإنجليز فى العصر الفيكتورى. اكتمل نشر الرواية فى سبتمبر عام 1853، وتدور أحداثها فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر تقريبًا. حفّزت الروايةُ الحركاتِ الساعيةَ إلى إصلاح القانون والقضاء فى سبعينيات القرن التاسع عشر - المترجم.

«السبب فى تخلُّف النساء عن القيادة أنهن أقل تواجدًا فى شبكات واسعة تدعَمهنّ وتُشجّعهنّ بوصفهن قائدات محتملات»[38].

تُبيّنُ مقالةٌ أخرى فى الدورية نفسها أن «مديرى الصناديق الاستثمارية يراهنون، بشكل أكبر تركيزًا، على الشُرَكاء الذين جمعتهم صلاتٌ وروابط عبْر شبكة التعليم»، وأن هذه الاستثمارات تحقق عوائد أفضل[24] من المتوسط[39].

ولكن ليس معنى ذلك استنتاجَ أن شبكة «الأولاد القِدامى»[25] old boys هى قوة حميدة، تستحق أن تُقلِّدها الفتياتُ القِدامى.

فى التعاملات المالية، بعض «شبكات الخُبَراء» تكشّفتْ عن كوْنها قنوات للتداول الداخلي أو المضاربة بسعر الفائدة[40].

اعْتُبِرَت الشبكاتُ أيضًا مسؤولةً عن الأزمة المالية العالمية global financial crisis عام 2008؛ وعلى وجه التحديد، الشبكة متزايدة التعقيد التى حوّلتْ بنوكَ العالَم إلى نظامِ تداولِ خسائر القروض العقارية عالية المخاطر فى الولا يات المتحدة وتضخيمها[41].

العالَم الذى وصفته ساندرا نافيدى[26] Sandra Navidi فى كتابها «المحاور الفائقة» Superhubs قد يبدو فاتنًا للبعض. وعلى حدِّ تعبيرها: «قِلّة مُختارة» - تُحَدّدِها باثنى عشر شخصًا فقط - «تُدير الأصولَ الأقوى حَصْريًا: شبكة علا قات شخصية فريدة تمتد عبر الكرة الأرضية». وتتركزُ هذه العلاقاتُ وتُصَاغُ فى أقل عدد من المؤسسات: معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا Massachusetts Institute of Technology، جولدمان ساكس Goldman Sachs، المنتدى الاقتصادى العالمى World Economic Forum؛ وثلاث

---

[24]كان العائد 21% عندما تزامل مديرُ المحفظة الاستثمارية والمديرُ التنفيذى فى الجامعة نفسها وحصلا على الدرجة نفسها بقدر من التداخل الزمنى، مقارنةً ب 13% حين لا يوجد مثلُ هذا الاتصال والترابط - المؤلف.

[25]الأولاد القِدامى: شبكة أو جمعيّة، وتُسَمّى أيضًا «نادى الأولاد القِدامى». يشير التعبير إلى الروابط والصلات القديمة بين تلاميذ المدارس الذكور فقط. وقد نشأ المصطلحُ بين النُخبة البريطانية بهذه الدلالة. وينطبق أيضًا على شبكة خريجى مدرسة واحدة، بغضّ النظر عن جنسهم، التى تُعْرَفُ ب«جمعية الخريجين». كما يشير أيضًا إلى شبكة الروابط والصِّلات الا جتماعية والتجارية بين خريجى مختلف المدارس المرموقة. يُسْتعمَل التعبيرُ للإشارة إلى الحفاظ على النُخَب الاجتماعية بوجه عام - المترجم.

[26]ساندرا نافيدى: محامية دولية واستشارية ومتحدِّثة عامة. تُصَنّفُ كتبُها فى قوائم الأكثر مبيعًا. مؤسِّسة ورئيسة تنفيذية لشركة BeyondGlobal للاستشارات الإستراتيجية الدولية - المترجم.

كيانات خيرية، من بينها مبادرة كلينتون العالمية Clinton Global Initiative، ومطعم فور سيزون Four Seasons في نيويورك[42].

بل إن إحدى الرسائل الجوهرية في حملة دونالد ترامب Donald J.

Trump الانتخابية الناجحة فى عام 2016 أن «المصالح الخاصة العالمية» تقف خلف «المؤسسة السياسية الفاشلة والفاسدة» التى تُجسِّدها هيلارى كلينتون Hillary Clinton، مُرشّحة الرئاسة التي هزمها ترامب[43].

ولن يكتمل تفسير انتخابات الرئاسة الأمريكية عام 2016 دون مناقشة الأدوار التى لعبتها شبكات الميديا media networks، بدءًا من فوكس نيوز Fox News، مرورًا ب فيسبوك Facebook، انتهاءً ب تويتر Twitter: شبكة اختيار المرشّح المنتصِر[27].

إحدى المفارقات العديدة فى هذه الانتخابات أن حملة ترامب المَقودَة شَبَكيًا وَجّهَت الكثيرَ من نيرانها إلى شبكة نُخْبة هيلارى كلينتون: شبكة انتمى ترامب نفسُه إليها ذات يوم، ويشهد على ذلك وجودُ الكلينتونيين فى حفل زفافه الثالث. قبل الانتخابات بسنوات قليلة، وُجِدَ كيانٌ يُسَمّى «شبكة ترامب» The Trump Network - أُنْشِئ فى عام 2009 لبيْع منتجات مثل مُكمِّ لات الفيتامين بموافقة من ترامب - قد أشهر إفلاسه.

لو خسر ترامب الانتخابات، كان سيُطلِقُ شبكةَ تليفزيون «ترامب تى فى» Trump TV. وأحد الأسباب العديدة لعدم خسارته [فى الانتخابات] أن شبكة ا لاستخبارات الروسية بذلت قصارى جهدها لتدمير سُمْعة منافسته، باستخدام موقع ويكيليكس WikiLeaks الإلكترونى وشبكة تلفزيون آر تى RT أدواتٍ رئيسيةً لها. ووَفْقَ تقريرٍ غير مُصنّف، نوعًا ما، فى وكالة الاستخبارات الأ مريكية، «أمَرَ الرئيسُ الروسى فلاديمير بوتين Vladimir Putin بتوجيه حملة تأثير فى عام 2016»، بهدف «تشويه سُمْعة وزيرة الخارجية الأسبق هيلارى كلينتون والإضرار بحملتها الانتخابية ورئاستها المحتملة»، الأمر الذى يعكس تفضيل الكريملين Kremlin الصريح لترامب. طبقًا لهذا التقرير:

فى يوليو عام 2015، «اخترقت المخابرات الروسية شبكات اللجنة الوطنية الديمقراطيةDemocratic National Committee (DNC)، واستمرت فى هذا ا لاختراق حتى يونيو عام 2016 على أقل تقدير»، ونشرت بشكل مُمَنْهَج رسائلَ البريد الإلكترونى التى حصلت عليها، عبْر موقع ويكيليكس. وفى الوقت نفسه، أسهمتْ «آلةُ الدعاية [البروباجاندا] التى تُديرها الدولةُ فى روسيا -

---

[27]أثناء العمل على هذا الكتاب، كان لدى دونالد ترامب 33.8 مليون مُتابِع على تويتر. وهو نفسه كان يتابع 45 شخصًا أو مؤسّسة فقط - المؤلف.

المكوّنة من جهاز إعلامها الداخلى وقنوات كشبكة آر تى RT وسبوتنيك Sputnik، تستهدف جماهير عالمية، وشبكة متصيّدين [إلكترونيين] trolls شِبْه حكومية - أسهمت فى حملة التأثير، من خلال عملها بوصفها منصةُ الكريملين التي تبثُ إلى الجماهير الروسية والدولية»44.

غير أن سببًا آخر لفوز ترامب هو الشبكة الإرهابية الإسلامية المعروفة باسم [تنظيم] الدولة الإسلامية Islamic State التى نفّذَتْ عِدّة هجمات على مدى اثنى عشر شهرًا قبل الانتخابات، منها هجومان فى الولايات المتحدة (فى سان برناردينو San Bernardino وأورلاندو Orlando). وقد عزّزتْ هذه الهجماتُ جاذبيةَ تعهُدات ترامب ب«فضْح»، و«اجتثاث»، و«استئصال... شبكات دعم الإسلام الراديكالى Radical Islam فى هذا البلد... واحدةً تلو الأ خرى»، و«تفكيك شبكة الإرهاب العالمي الإيراني تمامًا»45.

وباختصار، نحن نعيش فى «عصر الشبكة»46. وهو ما أسماه جوشوا رامو[28] Joshua Ramo «عصر سُلطة الشبكة»47.

ويُفضِّلُ إدريان لافرانس Adrienne Lafrance تسميته ب«عصر التشابكات المعقدة»48. بل يقترح باراج خانا[29] Parag Khanna فرعًا معرفيًا جديدًا - علم الكونِّكتوجرافى Connectography - لرَسْم خريطة «ثورة الشبكة العالمية»49. وطبقًا لمانويل كاستِلس[30] Manuel Castells: «يمثل مجتمع الشبكة تغيُرًا نوعيًا في الخبرة الإنسانية»50.

الشبكات تُحوّلُ المجالَ العام والديمقراطيةَ نفسَها51. لكن هل إلى الأفضل أم إلى الأسوأ؟ كتَبَ مدير جوجل Google للأفكار جارد كوين[31] Jared Cohen

---

28جوشوا رامو: من مواليد ديسمبر عام 1968، نائب رئيس مجلس الإدارة والرئيس التنفيذي المُشارك ل«كيسنجر أسوشِيتس» التي أسّسها كيسنجر نفسه.

مؤلِف العديد من الكتب، بما فيها كتابان من أفضلها مبيعًا هما: «عصر ما لا يمكن تصوره»، و «الحاسّة السابعة» - المترجم.

29باراج خانا: من مواليد يوليو عام 1977، خبير العلاقات الدولية الأمريكية الهندية، و المؤلف الأكثر مبيعًا. شريك إداري ل FutureMap - المترجم.

30مانويل كاستِلس: من مواليد عام 1942، بروفيسور وكاتب فى الاتصالات، يشغل كرسى ا لأستاذية للاتصالات والتكنولوجيا والمجتمع فى مدرسة أننبرج التابعة لجامعة جنوب ك اليفورنيا بالولايات المتحدة، ومدير مشروع إنترنت كتالونيا فى جامعة أوبرتا بإسبانيا - المترجم.

31جارد كوين: من مواليد عام 1981، ينتمى إلى أسرة يهودية أمريكية. حصل على ماجستير الفلسفة فى العلاقات الدولية من جامعة أكسفورد، ويجيد اللغة العربية بطلاقة.

ورئيسها إيريك شميت[32] Eric Schmidt قائليْن: «تكنولوجيا الشبكة الحالية... تُسانِدُ المواطنين فعلا ً». «لم يحدث من قبل أنْ تواصلتْ كثرةٌ من الناس عبْر شبكة ذات استجابة فورية»، بما ينطوى عليه ذلك من آثار «تغيير اللعبة» changing-game بالنسبة إلى السياسة فى كل مكان[52]. ثمة وجهة نظر مغايرة تقول بأن الشركات العالمية، مثل جوجل، تُحقِّقُ بشكل مُمَنْهَج «هيمنةً هيكليةً»، مُستغِلةً الشبكات فى العمل على تآكل السيادة الوطنية والسياسة الجَمْعيّة، كلما أمكنها ذلك[53].

ويمكن طرح السؤال نفسه بخصوص تأثير الشبكات فى النظام الدولى: هل إلى الأفضل أم إلى الأسوأ؟ ترى آن مارى سلوتر[33] Marie Slaughter-Anne أنه من المعقول إعادة تشكيل السياسة العالمية بالجَمْع بين ديبلوماسية «رقعة الشطرنج» التقليدية بين الدول، وبين «نظام تواصل معقد... عبْر الشبكات»، باستغلال مزايا الشبكات (كالشفافية، والقدرة على التكيُّف، وقابلية التوسُّع[54]. وتقول إن سَيِّدات الدولة stateswomen فى المستقبل ستَكُنّ «فاعلات فى الويب web فيمارسن السلطةَ والقيادةَ مع الحكومات» ب«إستراتيجيات الا تصال»[55]. ويتطلع باراج خانا بنوع من النشوة إلى «عالَم سلسلة الإمداد أو التجهيز» chain world-supply تكون فيه الشركاتُ العَوْلمية والمدنُ الكبرى أو الضخمة megacities و«الإيروتروبوليس» [مدينةُ المطار] aerotropolises و«الكومنولثاتُ الإقليمية» regional commonwealths مُشاركةً فى لعبة «شدِّ حَبْلٍ»، لانهائية، ولكنها سِلمية فى جوهرها، تُشْبِه «لعبةً هائلة متعدِّدة اللا

يشغل حاليًا منصب الرئيس التنفيذى لشركة چيجسو Jigsaw (واسمها السابق أفكار جوجل Google Ideas). ضمّته كوندوليزا رايس لوزارة الخارجية ضمن طاقم تخطيط السياسات كأصغر عضو في تاريخ الحكومة الأمريكية. ركّزَ كوين على مكافحة الإرهاب و التطرف وشؤون الشرق الأوسط وجنوب آسيا والشباب والتكنولوجيا. وفى عام 2008، أدار خطةً رسمتها وزارةُ الخارجية الأمريكية، سُمِّيَتْ «تحالف الحركات الشبابية»؛ تُركِزُ الخطةُ على كيفية استخدام المواقع الإلكترونية الاجتماعية مثل «فيسبوك» بوصفها أداةً لتعزيز التنظيمات والنشاطات الشبابية فى الأنظمة القمعية. وحسب نيويورك تايمز، يُعَدُّ كوين أحد المُصَمِّمين الرئيسيين لما عُرِفَ عام 2010 ب«صناعة الدول فى القرن الحادى و العشرين» مع ريتشارد بولى وآخرين فى وزارة الخارجية الأمريكية. يوصف كوين بأنه مهندس الديمقراطية الرقمية والثورات المخملية. كوين واحد من مئة مُغَيِّر للعبة game changers - المترجم.

[32]إيريك شميت: من مواليد عام 1955، رئيس شركة جوجل، ومدير تنفيذى سابق لها، وعضو سابق في مجلس إدارة شركة أبل - المترجم.

[33]آن مارى سلوتر: من مواليد سبتمبر عام 1958، محامية وأستاذة جامعية أمريكية، أدارت جامعة برنستون وهارفارد - المترجم.

اعبين»[56].، من أجل المنافع الاقتصادية. ومع ذلك، يبدو محلّ شك - لدى جوشوا رامو، بل لدى أستاذه هنرى كيسنجر Henry Kissinger أيضًا - أنْ تعمل مثل هذه الاتجاهات على تعزيز الاستقرار العالمى. قال كيسنجر إن «انتشار الاتصالات الشبَكية فى القطاعات الاجتماعية والمالية والصناعية و العسكرية»:

قد أحدث... ثورةً فى قابلية الحساسية [التأثير والتأثر]. وتتجاوز هذه الثورةُ معظمَ القواعد والنُظُم (بل الفَهْم التقنى لدى العديد من المُنظِّمين)، خالِقةً، من بعض النواحى، حالةُ الطبيعة state of nature التى وفّر الخلاصُ منها - وفقًا لهوبز[34] Hobbes - قوةً دافعة إلى إنشاء نظام سياسى... [اللا] تماثلُ ونوعٌ من اضطراب عالمى، مُركّبٌ تلقائيًا داخل العلاقات بين القوى الإلكترونية [السّايْبرانية] فى الدبلوماسية وفى الإستراتيجية على حدٍّ سواء... وسيعمل الالتباسُ فى بعض قواعد السلوك الدولى على نشوء أزمة من صميم ديناميات النظام الداخلي[57].

وكما يَدّعى البعضُ، إذا بدأت «حرب إلكترونية عالمية أولى» first world cyberwar، فستكون حربًا بين الشبَكات[58].

الاحتمال الأكثر إثارةً للقلق من كل هذا أن وجود شبكة عالمية واحدة سيُؤدّى ، فى النهاية، إلى جعْل الإنسان العاقل [الهومو سابينز Homo sapiens] زائدًا عن الحاجة، ومن ثمّ منقرضًا. فى كتابه Homo Deus، يقول يوفال هِرارى[35] Yuval Harari إن عصر «الشبكات التعاونية الضخمة»، واسعة النطاق، المعتمدة على اللغة المكتوبة والنقود والثقافة والأيديولوجيا - [التى هى] مُنْتَجات الشبكات العصبية البشرية المعتمدة على الكربون - سيُخْلى مكانَه لعصر جديد من شبكات الكمبيوتر المعتمدة على السِّليكون المستند إلى الخوارزميات algorithms.

فى هذه الشبكة، سرعان ما سنجد أنفسَنا مهمّين للخوارزميات بقدر أهمية

---

[34] توماس هوبز: (1588 - 1689)، عالِم رياضيات وفيلسوف إنجليزى، أحد أكبر فلاسفة القرن السابع عشر فى إنجلترا. أسهم فى التأسيس لكثير من المفاهيم التى لعبت دورًا كبيرًا على مستوى النظرية السياسية والتطبيق السياسى، وعلى رأسها مفهوم العقد الا جتماعى، ومنها أيضًا مفهوم الحق الطبيعى الذى فسّر به الكثير من القضايا المطروحة فى عصره. وضع كتابُه «اللفياثان» الصادر عام 1651 الأساسَ لمعظم الفلسفة السياسية الغربية من منظور نظرية العقد الاجتماعي - المترجم.

[35] يوفال نوح هِرارى: من مواليد عام 1976، مؤرّخ إسرائيلى، وأستاذ فى قسم التاريخ بـ الجامعة العبرية فى القدس. مؤلِّف كتاب «العاقل: تاريخ مختصر للجنس البشرى»، وغيره من الكتب - المترجم.

الحيوانات لنا فى الوقت الحالى. وسيعنى قَطْعُ الاتصال بالشبكة الموتَ بـ النسبة إلى الفرد، فالشبكة ستحافظ على صِحّتنا على مدار الساعة. ولكن الا تصال سيعنى فى النهاية انقراضَ النوع البشري: «المقاييس التى على أساسها تُقدِّس أنفسَنا ستتّهِمُنا بأننا التحقنا بالماموث [فيل عملاق منقرض من حقبة البليستوسين] ودلافين النهر الصينية فى بحر النسيان»[59]. وعلى أساس تقييم هِراري الكئيب للماضي البشري، فسيبدو هذا ما نستحقه[60].

هذا الكتاب [كتابنا الحالى] عن الماضى أكثر منه عن المستقبل، أو على الأدق كتاب يسعى إلى التعرُّف على المستقبل من خلال دراسة الماضى أساسًا، بدلا ً من الانخراط فى التحليق الخيالى أو الإسقاط العَفْوى لاتجاهات جديدة على المستقبل. ثمة مَن يتشككون (ولا سيما مِن وادى السِّليكون[36] Silicon Valley) فى أن التاريخ لديه الكثير ليُعلِّمهم إياه، أثناء مثل هذه الاختراعات التكنولوجية المتسارعة[61].

بل يفترض معظمُ النِّقاش الذى لخّصتُه للتوّ أن الشبكات الاجتماعية ظاهرةٌ جديدة، وأن انتشارها الراهن لم يسبق له مثيل. هذا غير صحيح. فحتى ونحن نتحدث باستمرار عن الشبكات، ليس لدى معظمنا سوى فَهْم جِدِّ محدود للطريقة التى تعمل بها، وتقريبًا لا معرفة لدينا بشأن مِن أين جاءت. نحن نتجاهل، إلى حد كبير، مدى انتشار الشبكات فى العالم الطبيعى، والدور الرئيسى الذى لعبته فى تقدُّمنا بوصفنا نوعًا، وأنها جزء لا يتجزأ من الماضى البشرى. ونتيجةً لذلك، نميل إلى التقليل من أهمية الشبكات فى الماضى، ونُخْطِئُ في افتراض أن التاريخ ليس لديه ما يُعلِّمُنا إياه بشأن هذا الموضوع.

لم تكن توجد مثل هذه الشبكات الهائلة التى نراها فى عالمنا اليوم. ولم تكن تدفقات المعلومات جدّ متسارعة بهذا الشكل. ولكن الحجم والسرعة ليسا كل شيء.

ينبغى ألا نُعوِّلَ على شبكات وقتنا الراهن الرشيقة السريعة - وبخاصة أن معرفتنا محدودة بشأن ما إذا كان عصر الشبكة سيكون تحريريًا مُبْهجًا أم أناركيًا [فوضويًا] anarchic مُريعًا - إلا بعد دراسة شبكات الماضى الأصغر والأ بطأ؛ فمع صِغَرها وبُطئها انتشرت فى كل مكان أيضًا، بل كانت قويةً للغاية

---

[36]وادى السِّليكون: صار اسمًا للمنطقة الواقعة جنوب خليج سان فرانسيسكو فى كاليفورنيا بالولايات المتحدة، بسبب وجود عدد كبير من مُطوِّرى ومُنْتجى شرائح أو رقاقات السِّليكون (الدوائر المتكاملة)، وحاليًا تضم المنطقة جميع أعمال التقنية العالية فصار اسمُها مرادفًا لمصطلح التقنية العالية. وادى السِّليكون هو الأول فى مجال التطوير والاختراعات التكنولوجية المتطورة، ويسهم فى ثلث العائدات الاستثمارية فى مجال المشاريع الجديدة بالولايات المتحدة الأمريكية - المترجم.

أحيانًا.

3

شبكات، شبكات في كل مكان

يَتكوّنُ العالَمُ الطبيعى - إلى حد محيّر - من «شبكات متشعِّبة أقرب إلى الكمال فى كل مكان»، على حدِّ تعبير الفيزيائى جيفرى ويست[37] Geoffrey West، بدءًا من نظام الدورة الدموية البشرية حتى مستعمرة النمل، وكلها تتطور لتوزيع الطاقة والمواد بين خزّانات تُرَى بالعين المجردة [ماكروسكوبية] macroscopic ومواقع مجهرية [ميكروسكوبية] microscopic فيما يزيد على سبعة وعشرين نظامًا مدهشًا من حيث الحجم. الأنظمة الدموية و التنفسية والكُلَويّة والعصبية لدى الحيوانات هى كلها شبكات طبيعية. كذلك ا لأنظمة الوعائية النباتية والشبكات الميكروتوبية[38] microtubial و الميتوكوندرية[39] mitochondrial داخل الخلايا أيضًا[62].

دماغ الدودة الخَيْطية «الرّبْداء الرشيقة»[40] caenorhabditis elegans هو الشبكة العصبية الوحيدة التى رُسِمَتْ بشكل كامل، وأما الأدمغة الأعقد فستُعطى فى الوقت المناسب الاستعراضَ نفسَه[63]. ومن أدمغة الديدان إلى سلاسل الغذاء (أو «شبكات الغذاء»)، تكتشف البيولوجيا الحديثة شبكاتٍ فى جميع مستويات الحياة على سطح الأرض[64].

تسلسل الجينوم كشَفَ عن «شبكة تنظيمية للجينات»، «العُقَدُ [فيها] هى الجينات، والروابط هى سلاسل التفاعلات»[65]. دلتا أيِّ نهرٍ شبكةٌ أيضًا، وأطلسُك المدرسي يرسم خرائط هذه الشبكة. الأوراق تُشكِّل شبكاتٍ.

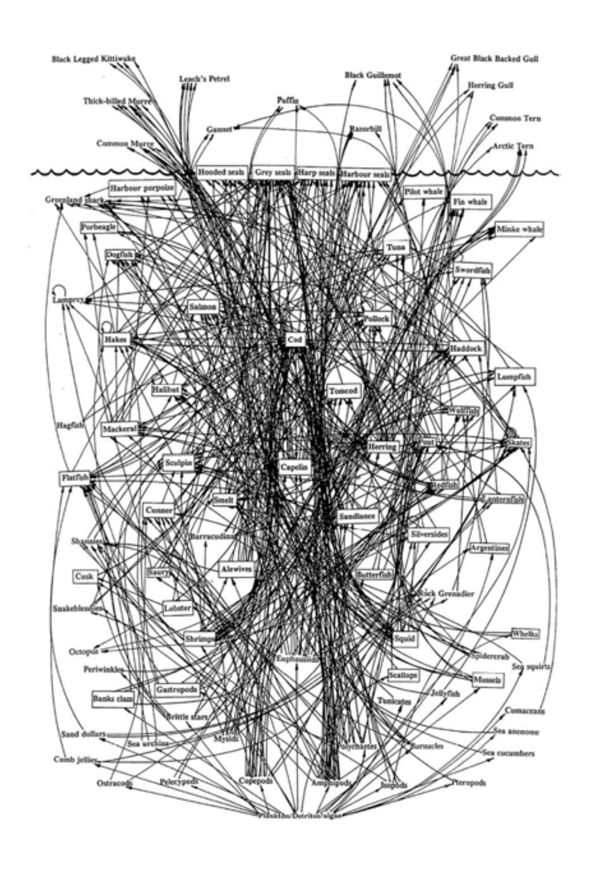
---

[37]جيفرى ويست: بريطانى من مواليد عام 1940، أستاذ الفيزياء النظرية، وأحد كبار العلماء الذين يعملون على نموذج علمي للمدن - المترجم.

[38]الميكروتوبيا: بنية أنبوبية مِجْهرية موجودة بأعداد فى سيتوبلازم الخلايا، وأحيانًا تتجمّع لتكوين أبنية أعقد - المترجم.

[39]الميتوكوندريا: عُضيّة موجودة بأعداد كبيرة فى معظم الخلايا، حيث تحدث العمليات الكيميائية الحيوية اللازمة للتنفس وإنتاج الطاقة. لها غشاء مزدوج. والطبقة الداخلية مطويّة إلى الداخل لتشكل طبقات أخرى - المترجم.

[40]الرّبْداء الرشيقة: أحد أنواع الديدان الأسطوانية الشفافة، يبلغ طولها 1 مم، تعيش فى بيئة التربة الرطبة معيشة حرّة دون تطفّل على غيرها من الكائنات. مدة حياتها من ثلاثة إلى أربعة أسابيع، وعدد جيناتها حوالي 19000 جين تقريبًا - المترجم.



<u>الشكل: 2 - شبكة غذاء جزئية ل«الجرف الإسكتلندي» Scotian Shelf فى شمال غرب المحيط الأطلسى. اتجاه الأسهم من الأنواع «القَريسة» إلى الأ نواع «المُفترسة».</u>

وبعض المشكلات لا يمكن حلها إلا بالتحليل الشّبكى network analysis. يسعى العلماء إلى شرح تزَهُّر الطحالب الذى أصاب خليج سان فرانسيسكو San Francisco Bay فى عام 1999 لرَسْم شبكة الحياة البحرية قبل تمكّنهم من تحديد السبب الحقيقى. وكان من الضرورى رَسْم خريطة مماثلة للشبكات العصبية لتحديد أن الهيبوكامبوس hippocampus[41] هو مكان الذاكرة البشرية[66]. السرعة التى ينتشر بها مرضٌ مُعْدٍ تتماشى مع البنية الشبكية للسكان المُعَرّضين للإصابة، بالقدر نفسه الذى تتماشى به مع حدّة المرض، كما أظهر ذلك وباءٌ انتشر بين المراهقين فى مقاطعة روكديل Rockdale County بولاية جورجيا Georgia منذ عشرين عامًا[67]. إن وجود عدد قليل من محاور متصلة اتصالا ً وثيقًا يُسيِّب انتشارَ المرض ليزيد زيادةً أُسِّيّة بعد مرحلة

[41]الهيبوكامبوس أو الحصين: حوافّ متطاولة على أرضية جوانب الدماغ، يُعتقد أنها مركز العاطفة والذاكرة والجهاز العصبي اللاإرادي – المترجم.

أولية من النمو البطيء[68].

ولنَصُغْ ذلك بشكل مختلف: إذا كان «عدد التكاثر الأساسى» (كمّ الأشخاص الآخرين المصابين حديثًا بوَسَاطَة شخص مُصاب نموذجى) فوق واحد، فسيصبح المرض متوطِنًا [وبائيًا]؛ وإذا كان أقل من واحد فسيميل إلى الاختفاء. لكن عدد التكاثر الأساسي تُحدِّده بنيةُ الشبكة التى يصيبها بقدر ما تُحدِّده عَدْوَى المرض الطبيعية[69]. أبنية الشبكة تُحدِّدُ أيضًا السرعةَ والدقةَ التي يُشَخّصُ بها المرض[70].

فى عصور ما قبل التاريخ، تطوّرَ الهومو سابينز [الإنسان العاقل] بوصفه فردًا تعاونيًا، ذا قدرة فريدة على إنشاء شبكة - للتواصل والفعل الجَمْعى - تُميّزنا عن كل الحيوانات الأخرى. وعلى حدِّ تعبير عالِم الأحياء التطوُرية جوزيف هنريك[42] Joseph Henrich، نحن لسنا بكل بساطة شمبانزى أكبر دماغًا وأقل شَعْرًا؛ سِرُّ نجاحنا بوصفنا نوعًا عاقلا ً «يكمن... فى الأدمغة الجَمْعيّة لجماعاتنا»[71]. فعلى خلاف الشمبانزى، نحن نتعلم بشكل اجتماعى، عن طريق التعلُّم والمشاركة.

وطبقًا للأنثروبولوجى التطوُرى روبن دُنْبار[43] Robin Dunbar، دماغنا الأكبر، بقشرته المُخيّة الأكثر تطورًا، قد تطوّرَ لتمكيننا من العمل فى مجموعات اجتماعية كبيرة نسبيًا من حوالى 150 فردًا (مقارنةً بحوالى 50 لدى الشمبانزى)[72]. بل ينبغى أن يُسَمّى نوعنا العاقل ب هومو ديكتيوس Homo dictyous («الإنسان الشّبَكى» network man)؛ لأن «أدمغتنا» - ولنقتبس من السوسيولوجييْن نيكولاس كريستاكيس[44] Nicholas Christakis وجيمس فاولر[45] James Fowler - «تبدو مبنيةً بطريقة تناسب الشبكات الا

---

[42] جوزيف هنريك: من مواليد عام 1968، أستاذ فى قسم البيولوجيا التطورية البشرية بجامعة هارفارد - المترجم.

[43] روبن دُنبار: من مواليد يونيو عام 1947. عالِم أنثروبولوجيا بريطانى وأخصائى علم النفس التطوري ومتخصص فى سلوك الرئيسيات. يشغل حاليًا منصب رئيس مجموعة أبحاث علم الأعصاب الاجتماعية والتطورية بقسم علم النفس التجريبى فى جامعة أكسفورد - المترجم.

[44] نيكولاس كريستاكيس: من مواليد عام 1962. طبيب أمريكى وباحث اجتماعى من أصل يونانى، وبروفيسور فى جامعة هارفارد، عُرِفَ بأبحاثه فى الشبكات الاجتماعية، و المُحدِّدات الاجتماعية الاقتصادية، والاجتماعية الحيوية، فى ما يخص السلوك والصحة وطول العمر - المترجم.

[45] جيمس فاولر: من مواليد فبراير عام 1970. عالِم اجتماع أمريكى متخصص فى

اجتماعية»[73].

والمصطلح الذى صاغه الإثنوجرافى إدوين هاتشينز[46] Edwin Hutchins هو «الإدراك المُوَزّع»[47] distributed cognition. أسلافنا الأوائل كانوا «ملتزمين بـ التعاون عند شنّ الغارات»، فاعتمد أحدهم على الآخر للحصول على الطعام و المأوى والتماس الدفء[74].

ومن المرجّح أن تطوُّرَ لغة الحديث، وكذلك التطورات المرتبطة بها فى قدرة الدماغ وبِنْيته، جزءٌ من هذه العملية نفسها، التى تطورت عن ممارسات [اجتماعية] شبيهة بممارسات القرد كالاستمالة[48] [75]grooming. وهو ما يمكن قوله أيضًا عن ممارسات كالفنّ والرقص والطقوس[76].

وعلى حدِّ تعبير مؤرّخين من أمثال ويليام مَكنيل[49] William H. McNeill وجى. آر. مَكنيل[50] J. R. McNeill، ظهرت «أول شبكة عالمية» منذ حوالى 12,000 سنة.

لقد وُلِدَ الإنسانُ بشبكته العصبية التي لا مثيل لها ليكون متواصلا ً شبكيًا.

وإذن، الشبكات الاجتماعية social networks هى أبنية [أو هياكل] يُشكِلُها البشرُ تلقائيًا، بدايةً من المعرفة وصور التمثيل المتنوعة التى نستعملها لإ يصال هذه المعرفة، وبطبيعة الحال أيضًا الأشجار العائلية family trees التى

الشبكات الاجتماعية والتعاون والمشاركة والجينات السياسية، أىْ العلم الذى يدرس السلوك السياسى على أساس جينى. حاليًا، أستاذ الوراثة الطبية فى كلية الطب، وأستاذ العلوم السياسية في شعبة العلوم الاجتماعية، بجامعة كاليفورنيا - المترجم.

[46] إدوين هاتشينز: بروفيسور، وسابقًا رئيس قسم العلوم المعرفية بجامعة كاليفورنيا. أحد المُطوّرين الأساسيين لفكرة «الإدراك المُوزّع» - المترجم.

[47] الإدراك الموزّع: نظرية تُركِزُ على جوانب الإدراك الاجتماعية بوصفها إطار عمل يقوم على التنسيق بين الأفراد والعناصر المادية والبيئية. ظهرت فى منتصف ثمانينيات القرن العشرين - المترجم.

[48] الاستمالة الاجتماعية social grooming: سلوك تقوم فيه الحيوانات الاجتماعية، بما فى ذلك البشر، باستمالة الآخر من نفس النوع عبر الرعاية والاهتمام. فهى نشاط اجتماعى كبير يتم من خلاله تعزيزُ الهياكل الاجتماعية والروابط العائلية وبناء الرُفقة - المترجم.

[49] ويليام مَكنيل: (1917 - 2016)، كاتب ومؤرّخ أمريكى كندى من أصل إسكتلندى. متخصِّص في الحضارة الغربية - المترجم.

[50] جون روبرت مَكنيل: من مواليد أكتوبر عام 1954، مؤرّخ ومؤلف أمريكى بيئى، وأستاذ بجامعة جورجتاون - المترجم.

ننتمى إليها كلنا حتمًا، حتى لو كان البعض مِنّا، فقط، على معرفة بتفاصيل النّسَب. تشمل الشبكاتُ أنماطَ الاستيطان والهجرة وتمازج الأجناس [الزواج المختلط] الذى وَزّعَ نوعَنا عبْر سطح العالم، وكذلك عبادات وطقوسًا لا تُعَدُّ و لا تُحْصَى نُنْتِجُها دوريًا بحدٍّ أدنى من التعمُّد والريادة. وكما سنرى، تتكون الشبكات الاجتماعية بجميع الأشكال والأحجام، بدءًا من الجَمْعيّات السرّية الحَصْريّة exclusive secret societies إلى الحركات مفتوحة المصدر open - source movements[51]. بعض الشبكات لها طابع تلقائى ذاتى التنظيم، وشبكات أخرى أعقدُ منهجيةً وتنظيمًا وهَيْكلةً. وكل ما حَدَثَ - بدءًا من اختراع اللغة المكتوبة - هو أن التكنولوجيات [التقنيات] الجديدة قد سَهّلت اندفاعنا الفطري القديم نحو الشبكة [أو العمل من خلال الشبكة].

ومع ذلك، يوجد لغز. فى معظم التاريخ المُدوّن، تَسَيّدَت التسلسلاتُ الهَرَميّة hierarchies على الشبكات networks، من حيث نطاقها وحجمها. فنُظِّمَ الرجالُ والنساءُ فى أبنية هَرَميّة [هيراركية أو تراتبية] hierarchical، ذات سلطة مُرَكّزة عند القمة [أعلى نقطة فى التسلسل الهَرَمى] فى أيدى زعيم أو لورد أو ملك أو إمبراطور. وفى المقابل، قُزّمَتْ شبكةُ الأفراد المتوسطة من حيث نطاقها. الفلاح النمطى - وهى كلمة تصف ما كان عليه البشرُ فى معظم التاريخ المُدّون - كان عالقًا فى عنقود صغير يُسَمّى عائلة، داخل عنقود أكبر قليلا ً يُسَمّى قرية، دون أى روابط تقريبًا بالعالم الأوسع. تلك هى الطريقة التى عاش بها معظم البشر فى الآونة الأخيرة قبل مئة عام. وحتى اليوم، يتواصل سُكان القرى الهندية، فى أفضل الأحوال، عبْر «لحاف اجتماعى. اتحاد من زُمَر صغيرة، كلٌ زُمْرة clique منها كبيرةٌ بما يكفى فقط لدعم التعاون بين جميع أعضائها بحيث تتشابك الزّمَر معًا»[77]. ويلعب الدورَ الرئيسى فى مثل هذه الجماعات المعزولة أفرادٌ «ذوو مركز انتشارى

---

[51]الحركات مفتوحة المصدر: فى شبكة الإنترنت، حركاتٌ تدعم استخدام تراخيص مفتوحة المصدر لبعض أو كل البرامج، وهى جزء من المفهوم الأوسع للتعاون المفتوح. يُسْهِمُ المُبرْمِجون الذين يدعمون فلسفةَ الحركة فى مجتمع المصادر المفتوحة بالكتابة الطَوْعيّة وتبادل التعليمات البرمجية لتطوير البرمجيات. ويتيح هذا الأسلوب فى تطوير البرامج لأى شخص الحصول على كود مفتوح المصدر وتعديله، ثم تُوَزّعُ هذه التعديلات مرة أخرى على المُطوّرين داخل مجتمع المصادر المفتوحة. وفى النهاية، يُكْشَفُ عن هُويّات جميع الأفراد المشاركين فى تعديل الشفرة، فيُوَثّقُ تحويل الشفرة بمرور الوقت؛ وهو ما يترتب عليه صعوبة إثبات مِلكية جزء معين من الكود؛ الأمر الذى يعمل على تعزيز إنتاج برامج عالية التقنية، وفى الوقت نفسه تعزيز فكرة العمل التعاونى مع آخرين على مستوى المهارة نفسها - المترجم.

central – diffusion[52]»، يُعْرَفون عادةً باسم العَرّاب gossip[78].

الشبكاتُ التقليدية ذات النطاق الصغير قمْعيّةٌ، إلى درجة أن بعض الأفراد يفضِّلون التراجع إلى عزلة كاملة. وتحتفى غنائيةُ روبرت برنز[53] Robert Burns، «لا أحد» Naebody، بالاعتماد على الذات بوصفه نوعاً من العُزْلة الجسورة. فهؤلاء الأفرادُ المنفصلون، بدءًا من فيلم «الحارس الوحيد»[54] Lone Ranger حتى فيلم «جَوّال السهول العالية»[55] High Plains Drifter، أبطالٌ متكرّرون فى سينما الوسْتِرن. فى فيلم الأخوين كوين[56] the Coen brother «الدم البسيط»[57] Blood Simple، يعيش الراوى عالمًا من الفردية الجامحة الوحشيّة، وقد جاء على لسانه:

«اذهب واشْتكِ، أَخْبِرْ جارَك بمشاكلك، واطلب المساعدةَ، وستراه يهرب. الناس فى روسيا Russia قاموا بتنظيم أنفسهم بحيث يساندون بعضهم البعض: هذه هى الفكرة على أية حال. ولكن ما أنا خبير به هو تكساس Texas. فهنا... أنت بمفردك»[79].

ولكن هذه النزعة الفردية المتفشِّية هى الاستثناء، وليست القاعدة. وكما قال

---

[52]المركز الانتشارى: مصطلح يُستعمَل عادةً لوَصَفِ مركز شبكة اجتماعية هَرَميّة محدودة، ولكنه لا يناسب الشبكات الاجتماعية الضخمة والمعقدة - المترجم.

[53]روبرت برنز: (1759 - 1796)، شاعر إسكتلندا الوطنى، مؤلف العديد من القصائد باللغة الإ نجليزية ولهجة الأراضى المنخفضة. من ألقابه الشاعر الفلاح وشاعر آيرشير، يُلَقب فى إسكتلندا ب«الشاعر». تميّز بإدخاله الإسكتلندية الدارجة فى شعره. من أشهر أشعاره «نشيد الوداع» - المترجم.

[54]«الحارس الوحيد»: فيلم مغامرة أمريكى من إنتاج عام 2013، يدور حول قضية «العدالة» - المترجم.

[55]«جَوّال السهول العالية» أو «هاى بلينز دريفتر»: من أفلام الوسْتِرن الأمريكى، أُنْتِج عام 1973 - المترجم.

[56] الأخوان كوين: هما جويل ديفيد كوين وإيثان جيسى كوين، يكتبان أفلامهما ويُخْرجانها ويُنتجانها سويًا، كما يقومان بمونتاج أفلامهما تحت اسم مستعار هو «رودريك جينز» - المترجم.

[57]«الدم البسيط»: فيلم جريمة أمريكى من إنتاج عام 1984. عنوان الفيلم مستمد من رواية داشييل هاميت «الحصاد الأحمر» المنشورة عام 1929. من الإشارات التى يحملها عنوان الفيلم الإشارةُ إلى عقلية الناس المُدمّرة والخائفة نتيجة الاستغراق لفترة طويلة فى سياقات عنيفة - المترجم.

جون دون[58] John Donne فى كتابه «صلوات فى الظروف الطارئة» Devotions upon Emergent Occasions:

ليس الإنسان جزيرة [معزولة]، كلُّه لنفسه؛ كل إنسان جزء من قارة، جزء من القوة الحية. إذا تآكلت اليابسةُ بفعل البحر فستَقِلُّ أوربا، كذلك أيضًا إذا تآكل نتوءٌ خليجى، وكذلك إذا تآكلت مزرعةُ صديقك أو مزرعتُك. موتُ أى إنسان ينتقص مِنّى لأنى أشارك فى الجنس البشري؛ ولذا لا تُرْسِلْ فى طلب معرفة لمَن يدق الجرس؛ فهو يدق من أجلك.

الإنسانُ، فى حقيقة أمره، حيوانٌ اجتماعى، أما المُستوحِش [عدو الإنسان] فيجتنب الناسَ ويجتنبونه أيضًا. اللغز هو لماذا وكيف نكون مُسْتَعْبَدين بتسلسلات هَرَميّة ذات طابع مؤسّسى مُهْيَكلة رأسيًا على نحو صارم، مع أننا شَبَكيون بحُكْم الطبيعة؟

كلمة hierarchy [التسلسل الهَرَمى] مشتقةٌ من كلمة يونانية قديمة تعنى حرفيًا «حكم رئيس الكهنة» rule of a high priest، واسْتُعْمِلَتْ فى البداية لوصْف مراتب الملائكة وأوامرهم السماوية، ثم على نحو أعمّ لوَصْف نظام الحُكْم التراتبى الروحى أو الزمنى. وعلى النقيض من ذلك، لم تدلُّ كلمة «شبكة» network - حتى القرن السادس عشر - على أكثر من شبكة منسوجة من خيوط متداخلة. وكان شكسبير يستعمل أحيانًا كلمتىْ net وweb بشكل مجازى: مؤامرةُ إياجو Iago ضد عطيل Othello «شبكةٌ ستصطادهم جميعًا»؛ أما كلمة network بحد ذاتها فلم تظهر في أيٍّ من مسرحياته[80].

وقد فَطِنَ العلماءُ، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، إلى وجود شبكات فى الطبيعة، بدءًا من شبكات العناكب حتى نظام الدورة الدموية البشرية بأوردتها وشرايينها. ثم بدأ فى القرن التاسع عشر، وليس قبله، استعمالُ الكلمة بمجازية أكبر لدى الجغرافيين والمهندسين لوَصْف الممرات المائية والسكك الحديدية، ولدى الكتّاب لوَصْف العلاقات بين الناس. فتحدّث الشاعر كوليردج[59] Coleridge (1817) عن «شبكة مِلْكيات خاصة»، وتحدّث المؤرّخ

---

[58]جون دون: (1572 - 1631)، من أبرز الشعراء الإنجليز فى القرن السابع عشر، كاهن فى الكنيسة الإنجليزية، وُصِفَتْ مواعظه بأنها أفضل مواعظ ذلك القرن - المترجم.

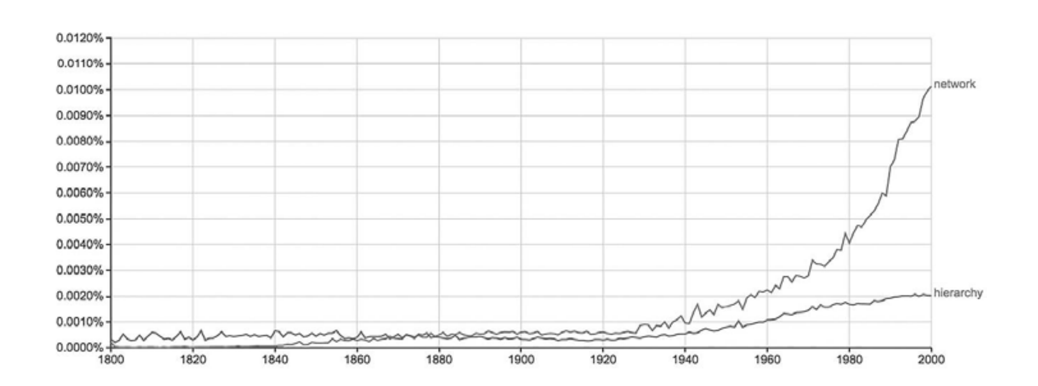
[59]كوليردج: (1772 - 1834)، شاعر إنجليزى وناقد ومشتغل بالفلسفة. أعلن مع زميله وردزورث بدءَ الحركة الرومانتيكية فى إنجلترا بديوانهما المشترك «الأناشيد الغنائية» - المترجم

فريمان[60] Freeman (1876) عن «شبكة حيازات إقطاعية»[81].

ومع ذلك، فحتى حوالى عام 1880، نُشِرَتْ كتبٌ بالإنجليزية احتوت على كلمة «hierarchy» [تسلسل هَرَمى] أكثر من كلمة «network» [شبكة] (انظر الشكل 3).

---

[60]فريمان: هو إدوارد أوغسطس فريمان (1823 - 1892)، مؤرّخ إنجليزى مات بمرض الجدري - المترجم.



الشكل: 3 - قياس مُحَرّك بحث جوجل لتردُّد ظهور كلمتيْ «network» و «hierarchy» في مطبوعات باللغة الإنجليزية بين عاميْ 1800 و2000.

ومن الممكن إخضاع العلاقات السياسية والاجتماعية التى تُصوّرها روايةُ أنتونى ترولب[61] Anthony Trollope «فينياس فين»[62] Phineas Finn، المنشورة عام 1869، للتحليل الشبكى network analysis بأثر رجعى[82]، مع أن كلمة «شبكة» لم تظهر فى النص إطلاقًا. بدأت كلمة networks [«شبكات»] فى الانتشار أواخر القرن العشرين فقط: أولا ً شبكات النقل والشبكات الكهربية، ثم شبكات التليفون والتلفزيون، وأخيرًا شبكات الكمبيوتر وشبكات التواصل الاجتماعى عبر الإنترنت online social networks. ثم اسْتُعْمِلَت كلمة network فى عام 1980، وليس قبله، بوصفها فعلا ً يُفِيدُ معنى الطابع ا لاجتماعي الهادف والمُوجّه.

---

[61]أنتوني ترولب: (1815 - 1882)، روائي إنجليزي من العصر الفيكتوري - المترجم.

[62]فينياس فين: نُشِرَت الرواية مسلسلة بدءًا من عام 1867 حتى عام 1869 فى مجلة سانت بول، ثم في كتاب. وفينياس فين هو اسم شخصيتها الرئيسية.

تتناول الرواية موضوع السياسة البرلمانية البريطانية فى ستينيات القرن التاسع عشر والإ صلاحات الانتخابية - المترجم.

4

لماذا التسلسلات الهرمية ؟

لا بد أن يُخَصِّصَ السائحُ الذى يزور مدينة فينيسيا Venice إحدى فترات ما بعد الظهر لزيارة جزيرة تورتشيللو Torcello الجميلة الرائعة. فهناك، داخل كاتدرائية سانتا ماريا أسونتا Cattedrale di Santa Maria Assunta يوجد تصويرٌ كامل لما نعنيه بالتسلسل الهَرَمِي (انظر اللوحة الاتية): فُسَيْفِساء من القرن الحادى عشر تُصَوّرُ الحسابَ الأخير Last Judgement فى خَمْسة مستويات، المسيح في الأعلى، ونيران الجحيم في الأسفل.



وهذه، تقريبًا، هى الطريقة التى يفكر بها معظم الناس فى التسلسلات الهَرَميّة: تنظيمات مُهَيْكلة رأسيًا تتميز بقيادة وسيطرة واتصال ذى طبيعة مركزية من أعلى إلى أسفل. من الثابت تاريخيًا أن التسلسلات الهَرَميّة بدأت مع العشائر والقبائل المستندة إلى العائلة، ومنها (أو مقابلها) تطوّرتْ مؤسساتٌ أعقد ذات تصنيف طبقى وتقسيم منهجى ورُتَب أو درجات عَمَل[83]. فمن بين تنويعات التسلسل الهَرَمى التى انتشرت فى الفترة ما قبل الحديثة، تكويناتٌ سياسية حَضَرية منظّمة للغاية تعتمد على التجارة، ودول أكبر - مَلَكيّة فى الغالب - تعتمد على الزراعة؛ ونُظُم دينية تُدَارُ مركزيًا تُسَمّى كنائس؛ وجيوش وأجهزة إدارية [بيروقراطيات] داخل الدول؛ ونقابات تسيطر على عضوية

الحِرَف ذات المهارة؛ وشركات مستقلة - منذ بواكير الفترة الحديثة - تستهدف استثمار اقتصادات الحجم والنطاق[63] economies of scope and scale عن طريق استيعاب عمليات السوق التجارية؛ ومؤسسات أكاديمية كالجامعات؛ ودول مُتَعَمْلِقة عابرة للحدود تُسَمّى إمبراطوريات.

كان الدافعُ الحاسم إلى تفضيل نظام التسلسل الهَرَمى أنه يجعل ممارسةَ السلطة أكفأ: سيطرة مركزية فى أيدى «الرجل الكبير» big man الذى يلغى، أو على الأقل يُقلِّلُ الوقت المُستغرَق فى مناقشات حول ما يجب فعله، والتى قد تتصاعد في أية لحظة إلى صراع مُهْلِك[84].

وطبقًا للفيلسوف بِنْوَا دوبِروى Benoît Dubreuil، كان تفويضُ السلطة القضائية والجزائية - سلطة عقاب المُنْتهكين [أو الآثمين] - لفرد أو نُخْبة حلا ً أمثل فى المجتمعات الزراعية التى تفرض على غالبية الناس أن تصمت وتكدح فى الحقول[85]. وأما بيتر تورتشين[64] Peter Turchin فيُفَضِّلُ التأكيد على دور الحرب، بحجة أن التغييرات فى التقنية [التكنولوجيا] العسكرية شجّعتْ على انتشار دول وجيوش منظّمة هَرَميًّا[86].

الأكثر من هذا، القول بأن الحُكم المطلق[65] absolutism هو مصدر التماسك الا جتماعى. يوضِّح الشُرَطى القيصرى نيكيفوريتش Nikiforych للشابّ مكسيم جوركى[66] Maxim Gorky حوالى عام 1890 قائلا ً: «ثمة خيط غير مرئى،

---

[63]اقتصادات الحجم والنطاق: بينما تعمل اقتصادات الحجم على تخفيض متوسط التكلفة لكل وحدة بزيادة حجم الإنتاج لنوع واحد من المنتجات، تعمل اقتصادات النطاق على خفض متوسط التكلفة بإنتاج المزيد من أنواع المنتجات - المترجم.

[64]بيتر تورتشين: روسى أمريكى من مواليد عام 1957، متخصص فى التطور الثقافى و النمْذجة الرياضية والتحليل الإحصائي لديناميات المجتمعات التاريخية - المترجم.

[65]الحُكم المطلق: يشير من ناحيةٍ إلى مَلَكية مطلقة absolute monarchy، يحكم فيها المَلك دون قوانين أو معارَضة منظّمة قانونيًا، ولا سيما فى الفترة من عام 1610 حتى عام 1789 فى أوربا. كما يشير، من ناحية ثانية، إلى الاستبداد المستنير enlightened absolutism المتأثر بعصر التنوير فى القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر فى أوربا. ويشير، من ناحية ثالثة، إلى الأوتوقراطية autocracy أو الاستبداد السياسى political absolutism، وهى نظرية سياسية تقول بأن شخصًا واحدًا ينبغى أن يقبض على السلطة - المترجم.

[66]مكسيم جوركى: (1868 - 1936)، أديب وناشط سياسى ماركسى روسى، مؤسِّس مدرسة الواقعية الاشتراكية التي تُجسِّد النظرةَ الماركسية للأدب - المترجم.

كشبكة العنكبوت، يخرج مباشرةً من قلب جلالة الإمبراطور ألكسندر الثالث[67] Alexander III». «وهناك خيط آخر يمر عبر جميع الوزراء، من خلال سعادة الحاكم نزولا ً إلى الرُتب الأدنى حتى يصل إلىّ ثم إلى أصغر جندى. كل شيء مترابط ومُحْكمٌ معًا بهذا الخيط... بقوته غير المرئية»[87].

وقد عاش جوركى حتى رأى ستالين Stalin يُحوِّلُ هذا الخيطَ غير المرئى إلى أسلاك فولاذية للسيطرة الاجتماعية فاقت أحلامَ أعنف القياصرة.

ومع ذلك، عيوب الاستبداد autocracy واضحة أيضًا. فلا أحد، بغضِّ النظر عن مدى موهبته، بقادرٍ على التصدِّى لكل تحدِّيات الحُكم الإمبراطورى، وتقريبًا لا أحد بقادرٍ على مقاومة الطموحات الفاسدة لدى أى سلطة مطلقة. الا نتقاداتُ الموجّهة للدولة الهَرَميّة سياسيةٌ واقتصاديةٌ على حدٍّ سواء. ومنذ القرن الثامن عشر، تبنّى العالمُ الغربى رؤيةً للديمقراطية أكثر إيجابية من رؤى المنظِّرين السياسيين القِدامى ومنظِّرِى عصر النهضة، أو على الأقل رؤية أكثر إيجابية للحُكم المُقيّد بمحاكم مستقلة وبشكل من أشكال الهيئة التمثيلية [النيابية] representative، وإن اعْتوَرتها نكساتٌ. وبغضِّ النظر عن الجاذبية الكامنة فى الحرية السياسية، ارتبطت التكويناتُ السياسية الأشمل [التى تتضمن عددًا من الأفراد أكبر] بتطوير اقتصادي أكثر استدامة[88].

وهى أقدر بشكل أفضل أيضًا على التعامل مع تعقيداتٍ كنموّ السكان والتقدم التكنولوجى. كما أنها أقل تأثرًا بقَطْع الرأس decapitation: عندما يحكم رجل واحد، يُؤدِّى اغتياله إلى انهيار مفاجئ للنظام الهَرَمى بأكمله. وفى الوقت نفسه، يقول الاقتصاديون منذ آدم سميث[68] Adam Smith إن نظام السوق الحرة العَفْوى أفضل بطبيعته فى تقسيم الموارد من محتكر وحيد خاص أو حكومة قوية جدًا.

ومن الناحية العملية، تركت نسبةٌ كبيرة من الحُكّام الأوتوقراطيين [الا ستبداديين] فى التاريخ قدرًا كبيرًا من السلطة للسوق، وإنْ نظّموا الضرائب، أو تدخلوا أحيانًا فى عمليات السوق. ذلك هو السبب فى أن مدينةً من طراز

---

[67]ألكسندر الثالث: (1845 - 1894) من أسرة رومانوف، إمبراطور روسيا السابع عشر، حَكمَ من عام 1881 حتى عام 1894. لم تخُضْ روسيا فى عهده حروبًا كبيرة، فسُمِّى «صانع السـ لام» - المترجم.

[68]آدم سميث: (1723 - 1790)، فيلسوف أخلاقى وعالِم اقتصاد إسكتلندى. مؤسِّس علم الا قتصاد الكلاسيكى، ومن روّاد الاقتصاد السياسى. اشتهر بكتابيه الكلاسيكيين «نظرية الشعور الأخلاقى» عام 1759، و«بحث فى طبيعة ثروة الأمم وأسبابها» عام 1776، المعروف اختصارًا ب«ثروة الأمم» - المترجم.

نموذجى فى العصور الوسطى أو بواكير العصر الحديث - مثل مدينة سيينا Siena فى [إقليم] توسكانى Tuscany - نجد فيها البُرْج tower، الذى يمثل السلطة العَلمانية [الدنيوية]، يقف بجوار الساحة square بل يُلقى بظلاله عليها، حيث تجرى عمليات السوق التجارية وأشكال أخرى من التبادل العام (انظر اللوحة الاتية).



لذا، من الخطأ متابعة فريدريك هايك[69] Friedrich Hayek فى تصوُّره لوجود ثنائية بسيطة بين الدولة والسوق. وذلك لأن نظام الحُكم يُحدِّد الإطارَ القانونى الذى يعمل من خلاله السوق، بالإضافة إلى أن الأسواق و البيروقراطيات أيضًا - كما قال فيما بعد ماكس بِوايزت[70] Max Boisot - هما بحد ذاتهما نمطان مثاليان من أنماط شبكات تبادل المعلومات، كالعشائر أو الإ قطاعيات[89].

لكن الشبكات غير الرسمية مختلفة. ففى شبكات من هذا النوع - طبقًا لعالِم اجتماع السلوك التنظيمى والتر باوِل[71] Walter Powell - «لا تحدث العمليات التجارية عبْر تبادلات منفصلة ولا عبْر أمر إدارى، بل من خلال شبكات أفراد يشاركون فى أفعال تبادلية وتفضيلية يدعمونها بالتبادل... ولا تنطوى على

---

[69]فريدريك فون هايك: (1899 - 1992)، اقتصادى ومنظِّر سياسى نمساوى بريطانى، عُرِفَ بدفاعه عن الليبرالية الكلاسيكية والرأسمالية القائمة على أساس السوق الحر ونقده للفكر ا لاشتراكي والجماعي خلال ستينيات القرن العشرين - المترجم.

[70]ماكس بِوايزت: (1945 - 2011)، منظِّر تنظيمى وأستاذ الإدارة الإستراتيجية فى كلية إدارة الأعمال ببرشلونة - المترجم.

[71]والتر باوِل: من مواليد عام 1951، عالِم اجتماع أمريكى، وأستاذ بجامعة ستانفورد منذ عام 1999، يشتهر بإسهاماته فى نظرية التنظيم، ولا سيما المؤسّسية الجديدة new institutionalism ونظرية الشبكة - المترجم.

معيار صريح للسوق، كلا ولا على الأبوية paternalism المألوفة فى التسلسل الهَرَمى»[90].وقد أدرك دارسو حَوْكمة [إدارة] الشركات corporate governance ، منذ وقت طويل، دور شبكات مجالس الإدارة المتداخلة فى بعض الا قتصادات. مجموعات كيرتسو[72] keiretsu اليابانية هى إحدى مجموعات عديدة من شبكات التجارة والأعمال. وتستدعى تنظيماتٌ من هذا النوع ملا حظةُ آدم سميث الشهيرة بأن «أهل التجارة الواحدة نادرًا ما يجتمعون معًا للهو والتسلية، بل لمحادثة تنتهى إلى مؤامرة ضد العامة، أو من أجل رفع الأ سعار»[73]. وبصعوبة، يدرك بعض علماء السياسة أيضًا أن الشبكات تحتل منطقة وسطى[91]. هل المشاركون فى شبكة ما، يتاجرون خِلسةً، حتى لو كان ما يُتَبادَلُ عطايا بدلا ً من الأوراق النقدية؟[92] وهل الشبكات هى شركات مُهَيْكلة بطريقة سائلة؟[93] حاول منظِّرو الشبكة التفتيش عن إجابات هذه الأ سئلة على مدى سنوات عديدة، ومع ذلك كان عملهم يُتَجاهَلُ معظم الوقت، و لا سيما من المؤرّخين حتى وقت جِدِّ قريب.

---

[72] كيرتسو: مجموعة شركات ذات علاقات تجارية متشابكة ومساهمين متشابكين بلا ترتيب هَرَمى. وكل شركة منها لها حصة فى الأخرى، وتتمركز حول بنك أساسى. يساعد هذا النظام على عزل كل شركة عن تقلبات السوق ومحاولات الاستحواذ. حافظت كيرتسو على هيمنتها على الاقتصاد الياباني في النصف الثاني من القرن العشرين - المترجم.

[73] «ثروة الأمم»، الكتاب الأول، الفصل 10. فى الترجمة الحرفية تعنى كلمة Keiretsu تجمّعًا بلا قيادة. وهذا هو الاسم الذى يُطْلَقُ على هيكل الشركة التى تترابط فيها معًا عِدّة تنظيمات، عادةً عن طريق حصص صغيرة تبادلية. وغالبًا ستكون الشركات المعنية شركاء، مثلا ً في سلسلة الإمداد supply chain - المؤلف.

5

من الجسور السبعة إلى الدرجات الست

يعود تاريخ الدراسة المنهجية للشبكات إلى منتصف القرن الثامن عشر، أيام مجد مدينة كونيجسبرج[74] Königsberg عاصمة بروسيا الشرقية East Prussia، موطن الفيلسوف إيمانويل كانط Immanuel Kant. مِن بين مشاهد مدينة كونيجسبرج سبعةُ جسور عبر نهر بريجيل Pregel River تربط بين ضفتىْ النهر وجزيرتين فى وسطه، كما تربط الجزيرتين معًا أيضًا (انظر الشكل 4).

كان لغزًا مألوفًا لدى مواطنى المدينة استحالةُ المَشْى عبر الجسور السبعة كلها مرة واحدة، دون العبور مرة أخرى على أيٍّ منها[75]. وهى المشكلة التى جذبت انتباه عالِم الرياضيات السويسرى الكبير ليونهارت أويلر[76] Leonhard Euler، الذى ابتكر فى عام 1735 نظرية الشبكة network theory ليبرهن منهجيًا على سبب استحالة هذا المَشْى. فى الرسم البيانى المبسّط (انظر الشكل 5)، توجد أربع «عُقَد» nodes تمثل ضفتىْ النهر الرئيسيتين والجزيرتين الصغرى و الكبرى، وسَبْع «حوافٍّ» edges تمثل الجسورَ التى تربط بينها. برهن أويلر منهجيًا على أن احتمال وجود مسار يَعْبُر كل حافّة، مرة واحدة فقط، لا بد أن يعتمد على درجة العُقَد (عدد الحوافِّ التى تُلامِس كل عُقْدة). والرسم البيانى إما أن يحتوى على عُقْدتين بعدد حوافٍّ فردى أو لا يحتوى. ولأن الرسم البيانى لجسور كونيجسبرج يحتوى على أربع عُقَد من هذا النوع (عُقْدَة

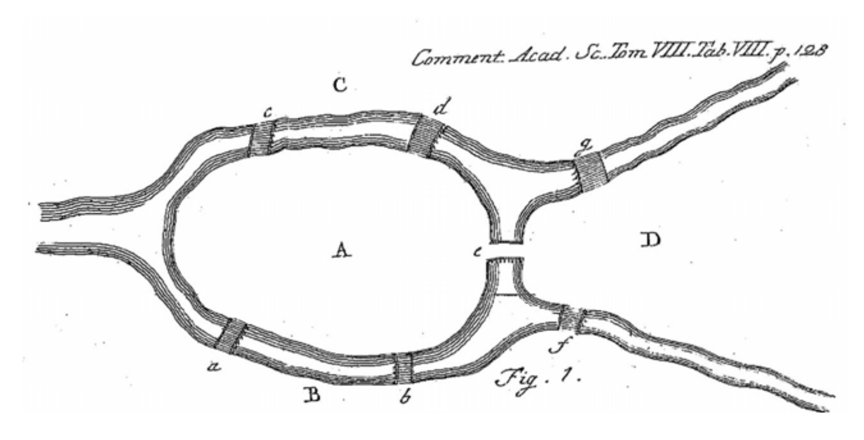
---

[74]كونيجسبرج: عاصمة بروسيا الشرقية أواخر القرون الوسطى فى أوربا الشرقية. استمر فيها الحُكم التابع للإمبراطورية الألمانية حتى الزعيم النازى أدولف هتلر، إلى أن سقطت المدينة عام 1945، فضَمّها الاتحاد السوفييتى إليه بتسمية جديدة هى كالييننجراد - المترجم.

[75]من المخيب للآمال أن تمشية كانط اليومية - التى كان الناس يضبطون ساعاتهم عليها بكل دقة - لم تشمل الجسور السبعة. وطبقًا للشاعر هاينريك هاينه Heinrich Heine، فَضّلَ كانط المشى ثمانى مرات صعودًا وهبوطًا فى شارع تصطف على جانبيه الأشجار، عُرِف بعد ذلك باسم «طريق الفيلسوف» - المؤلف.

[76]ليونهارت أويلر: (1707 - 1783)، رياضياتى وفيزيائى وعالِم فلك ومنطق ومهندس سويسرى. أحد أبرز الرياضياتيين فى القرن الثامن عشر وفى تاريخ البشرية لاكتشافاته المؤثرة فى التحليل الرياضياتى ونظرية المُخطّطات، ولإسهاماته الريادية فى الطوبولوجيا ونظرية الأعداد التحليلية - المترجم.

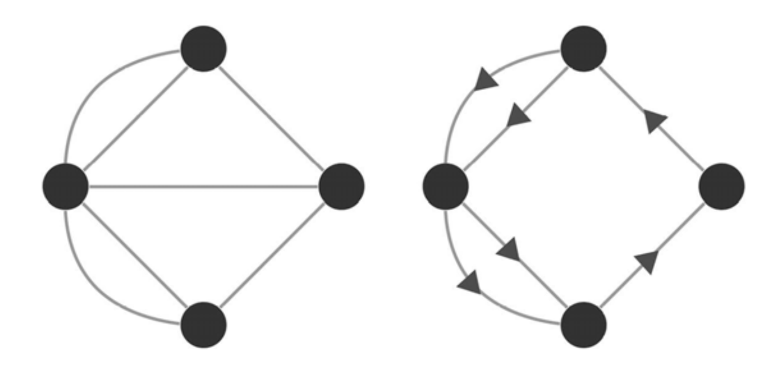
بخَمْس حوافٍّ وثلاث عُقد بثلاث حوافٍّ)، فلا يمكن أن يوجد مسار أويلر. إن المشى عبر كل جسر، مرة واحدة فقط، سيكون ممكنًا فقط، لو أُزيلَتْ حافةٌ واحدة: الجسر الذى يربط بين الجزيرتين. وعندئذٍ، سيكون لعُقْدتين فقط درجة ذات رقم فردى. منذ زمن أويلر، الوحدات الأساسية فى نظرية الرسم البيانى - التى ابْتَكرَ لها اسمَ «هندسة الموقع» - تحتوى على عُقدٍ nodes (أو رؤوس vertices) وحوافٍّ edges (أو روابط links).



الشكل: 4 - شكل أويلر رقم 1 من كتابه

.(Solutio problematis ad geometriam situs pertinentis (1741

مَن يريدون اختبار نظرية أويلر لن يمكنهم ذلك حرفيًا؛ لأن جسريْن من الجسور السبعة الأصلية لم يبقيا بعد قصْف المدينة في الحرب العالمية الثانية ، وهُدِمَ جسران آخران بعد أن سُمِّيَت المدينة باسم كالينينجراد Kaliningrad تحت الحُكم السوفييتي.



الشكل: 5 - رسم بياني مبسّط لمشكلة جسر كونيجسبرج عند أويلر.
فبإزالة الحافّة الوسطى (الجسر الذى يربط بين الجزيرتين فى الشكل 4) تُحَلُّ المشكلةُ.

قام علماء القرن التاسع عشر بتطبيق هذا الإطار على كل شىء، بدءًا من رسم الخرائط مرورًا بالدوائر الكهربية انتهاءً بأيسومرات[77] isomers المركّبات العضوية[94].

وقد خَطَرَ فى بال بعض كبار المفكرين السياسيين فى ذلك العصر وجودُ شبكات اجتماعية، ولا سيما جون ستيوارت مِل John Stuart Mill، وأوجست كونت Auguste Comte، وأليكسيس دى توكفيل[78] Alexis de Tocqueville؛ وقد أدرك توكفيل أن الحياة الجماعية الثرية فى بواكير الولايات المتحدة كانت حاسمةً فى تشغيل الديمقراطية الأمريكية. ومع ذلك، لم يحاول أحدٌ منهم إضفاء طابع منهجى على هذه الرؤية. لذا، ربما يُؤرّخُ لدراسة الشبكات ا لاجتماعية بعام 1900، حين نشر العالِم الاجتماعى، الهاوى والمدرّس بإحدى المدارس، يوهانس ديلتش Johannes Delitsch مصفوفةً تُصوّر صداقات ثلا ثة وخمسين تلميذًا كان يُدَرّسُ لهم في فصله الدراسي عام 1880 - 1881 [95].

لقد حدّد ديلتش علاقة وثيقة بين تقاربات التلاميذ الاجتماعية وترتيبهم الأ كاديمى الذى كان فى تلك الأيام أساسَ الجلوس فى الفصول. عملٌ مماثلٌ إلى حد ما، تمّ بعد ثلاثة عقود فى نيويورك New York، عندما استعمل الطبيب

---

[77]الأيسومرات: النظائر، فى الكيمياء، جزيئات لها الصيغة الكيميائية نفسها، وغالبًا بنوع الروابط نفسه بين الذرّات، لكنها تختلف فى ترتيب المجموعات الوظيفية التى تشكل هذه المركّبات. أو بتعبير أبسط: عدة مركبات عضوية لها الصيغة الجزيئية نفسها، وتختلف عن بعضها البعض بخاصّتها الفيزيائية والكيميائية - المترجم.

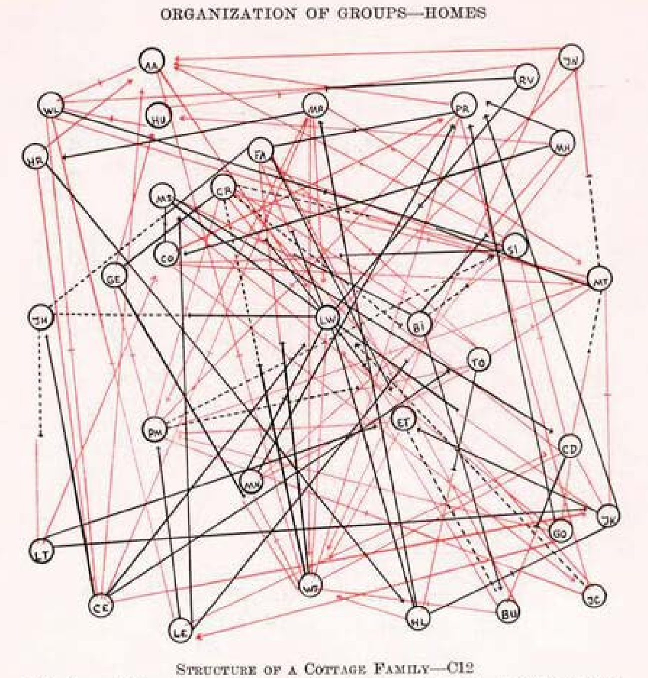
[78]أليكسيس دى توكفيل: (1805 - 1859)، مؤرّخ ومنظِّر سياسى فرنسى، اهتم بالسياسة في بُعْدها التاريخي - المترجم.

النفسى جاكوب مورينو[79] Jacob Moreno - نمساوى المَوْلد ولكنه ضد الفرويدية – السوسيوجرام[80] sociograms لدراسة العلاقات بين الفتيات «الجانحات» في مدرسة إصلاحية في هدسن Hudson بولاية نيويورك.

ويُبيِّن بحثه المنشور فى عام 1933 - تحت عنوان «مَن سيبقى؟» Who Shall Survive؟ - أن الزيادة المفاجئة فى عدد الفتيات الهاربات [المتشرّدات] فى عام 1932 يمكن تفسيرها من حيث مواقع الهاربات فى شبكة «الجذب و الطرد» الاجتماعية للمدرسة، التى كانت عِرْقيةً وجنسيةً معًا (انظر اللوحة الا تية).

[79]جاكوب مورينو: (1889 - 1974)، طبيب نفسى رومانى أمريكى، مؤسِّس علم النفس الدرامي وأول رائد في العلاج النفسي الجماعي - المترجم.

[80]السوسيوجرام: فى علم النفس الاجتماعى هو تخطيط أو رسم بيانى يمثل العلاقات الا جتماعية بين أعضاء جماعة معينة سواء كانت إيجابية أم سلبية. ويُعَدُّ مورينو رائد هذا المجال - المترجم.



هنا، يزعم مورينو أن «القوى الاجتماعية تهيمن على البشر». واعتقد أن الكِتَابَ «كتابٌ مقدس جديد للسلوك الاجتماعي والمجتمعات البشرية»[96].

ثم بعد ثلاثين عامًا، قام عالِمُ اللغويات والببليوجرافى يوجين جارفيلد[81] Eugene Garfield بابتكار تقنية بيانية مماثلة لتصوير تاريخ الحقول العلمية عن طريق إنشاء «تأريخ» للاقتباسات. لقد وُجِدَتْ فهارسُ الاقتباس و«عوامل التأثير» منذ أن صارت إجراءاتٍ معياريةً للإنجاز الأكاديمى فى العِلم. وهى أيضًا طريقةٌ لرَسْم خريطةِ عمليةِ الابتكار العلمى، إذ تكشف مثلا ً عن «الحشود غير المرئية» المُضَمّنة فى شبكات الاقتباس، التى تختلف اختلافًا كبيرًا عن الحشود الفعلية التي يستعملها معظم العلماء[97].

---

[81] يوجين جارفيلد: (1925 - 2017)، عالِم لغويات ورجل أعمال أمريكى، متخصص فى دراسات الحاسوب - المترجم.

وتُبيّنُ هذه المقاييس مَيْلَ العلماء إلى الاستشهاد بعمل علماء يُماثِلونهم فى التفكير. وكما يقول المثل القديم، الطيور على أشكالها تقع. ما ينطبق على الا قتباسات ينطبق على نحو أعمّ. عندما ترتبط عُقْدتان بعُقْدة ثالثة فثمة احتمال أن ترتبط كل عُقْدة بالأخرى، لأنه (على حدِّ تعبير الاقتصادي جيمس راوتش[82] James E. Rauch) «شخصان على معرفة بى، من الأرجح أن يعرف أحدهما الآخر، بخلاف شخصين يُختاران عشوائيًا»[98].

وأىُّ ثلاثى يتواصل أفرادُه بمشاعر إيجابية، يقال إنه «ثلاثى متوازن» يُجسِّدُ فكرة أن «صديق صديقى هو صديقى». أما الثلاثى الذى لا يعرف اثنان منهما أحدهما الآخر، رغم معرفتهما بالشخص الثالث، فيُسمّى أحيانًا «الثلاثى المقطوع». (والثلاثى المتخالف، الذى فيه شخصان متحابّان والثالث خَصْم لأ حدهما، يمثل حالةً غير مريحة عندما «يكون خَصْم صديقى هو أيضًا صديقي»)[99].

الهوموفيلى[83] homophily - مَيْلنا إلى الانجذاب إلى أشخاص مشابهين لنا (ما يُعْرَفُ أيضًا ب التجانس assortativity) - يمكن اعتباره إذن القانون الأول للشبكات الاجتماعية social networks.

إيفرت روجرز[84] Everett Rogers ودِيليب بوميك[85] Dilip Bhowmik كانا أول سوسيولوجييْن يشيران إلى أن الهوموفيلى لا ميزة له، لأنه يُضيّق نطاقَ بيئة الفرد؛ ويفترضان أنه كان يوجد «الهيتروفيلى [الاختلاط] الأمثل»

---

[82] جيمس راوتش: من مواليد عام 1959، أستاذ الاقتصاد بجامعة كاليفورنيا، سان دييجو - المترجم.

[83] الهوموفيلى، أو المَيْل إلى المُماثِل أو المُطابِق: من كلمتين يونانيتين قديمتين هما homou التى تعنى «معًا» وphilia التى تعنى «الصداقة». تشير الهوموفيلى إلى مَيْل الأ فراد إلى الاقتران بآخرين مُماثلين لهم، كما يُعبّر عن ذلك المثلُ السائر «الطيور على أشكالها تقع». اكْتُشِفَ وجود الهوموفيلى من خلال دراسات الشبكة network studies. وتشمل عناصرُ التشابه أو التماثل: العمر والجنس والطبقة والدور التنظيمى، والمعتقدات والقيم و التعليم وغيرها، بما يجعل التواصل وتكوين العلاقة أسهل. وعكس الهوموفيلى homophily هو الهيتروفيلى heterophily أو intermingling التى تعنى الاختلاط و التمازج. دُرسَت الهوموفيلي على نطاق واسع في البيولوجيا التطورية - المترجم.

[84] إيفرت روجرز: (1931 - 2004)، عالِم اجتماع أمريكى، وأحد أبرز مُنظِّرى الاتصالات وتبادل المعلومات. كان أستاذًا فخريًا متميزًا فى قسم الاتصالات والصحافة بجامعة نيو مكسيكو - المترجم.

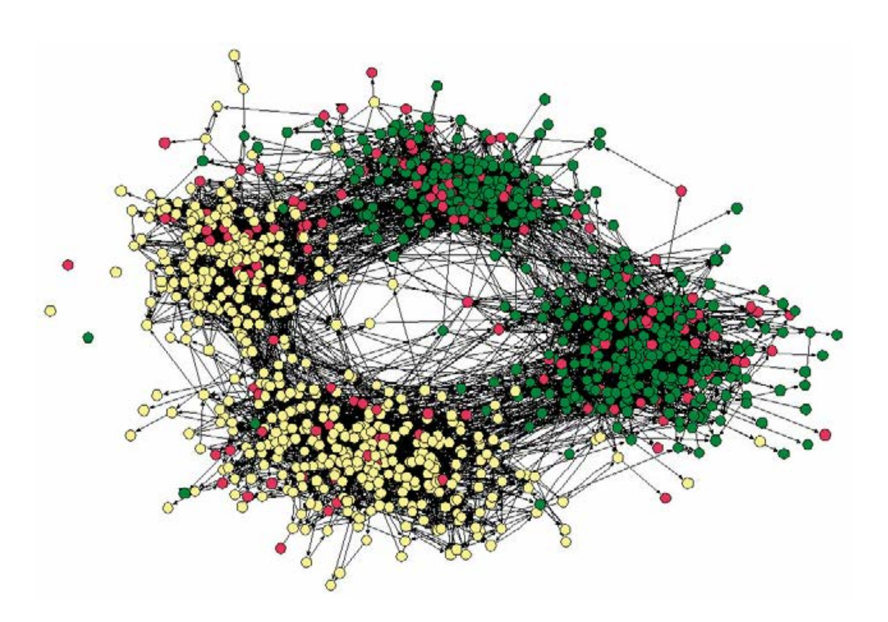
[85] ديليب بوميك: أستاذ مساعد فى قسم السوسيولوجيا بجامعة فيسك، ناشفيل تينيسى - المترجم.

.optimal heterophily

فهل كان الهوموفيلى نوعًا من عَزْل الذات أو تمييزها؟ فى سبعينيات القرن العشرين، رسم وَين زاكرى Wayne Zachary شبكةَ الصداقة بين أعضاء نادى الكاراتيه الجامعى. فكشف بوضوح عن وجود تجمُّعين [عنقودين] متمايزين داخل النادى. يقوم الهوموفيلى على أساس المكانة المشتركة (صفات موروثة مثل العِرْق أو السلالة أو الجنس أو العمر، وصفات مكتسبة مثل الدين أو التعليم أو المهنة أو أنماط السلوك)، أو قيم مشتركة يمكن تمييزها عن السمات المكتسبة[100].

المثال المألوف هو مَيْل تلاميذ المدارس الأمريكية إلى فَصْل الذات وتمييزها بـ السُّلالة والعِرْق (انظر الوحة الاتية)، رغم أن الأبحاث الحديثة تشير إلى تفاوت هذا المَيْل، بشكل كبير، فيما بين المجموعات العِرْقية[101].

هل تُبيّن لنا رسومٌ بيانية من هذا النوع أىّ الأفراد مُهِمّين؟ لم يحدث حتى القرن العشرين أنْ عَرّفَ الباحثون وعلماء الرياضيات الأهميةَ importance منهجيًا بأنها «تمَرْكُزيّة» centrality.



مقاييسُ الأهمية الثلاثة الأهمُّ فى تحليل الشبكة المنهجى هى درجة التمَرْكزية[86] degree centrality، والتمَرْكزية البَيْنية[87] betweenness centrality، وتمَرْكزيّة التجاور أو القُرْب[88] closeness centrality. تُحَدِّدُ درجةُ التمركزية - أىْ عدد الحوافِّ المنبعثة من عُقْدة معينة - ما يُسَمَّى المخالطة الاجتماعية [المؤانسة أو حبّ الاختلاط بالآخرين] sociability: عدد

---

[86] درجة التمَرْكزية: تُعَرّف فى نظرية الرسم البيانى بأنها عدد الروابط الواقعة عند كل عُقدة ، أو ما تمتلكه كل عُقدة من روابط. ويمكن تفسير الدرجة من حيث الخطورة المباشِرة للعُقدة فى اصطياد كل ما يتدفق عبر الشبكة (كالفيروس أو معلومات ما). فى حالة وجود شبكة موجّهة (عندما يكون للروابط اتجاه)، نحدِّدُ عادةً مقياسين مختلفين لدرجة التمركزية، هما indegree التى نحسب بها عددَ الروابط الموجّهة إلى العُقْدة، وoutdegree التى نقيس بها عددَ الروابط التى تُوجّهها العُقْدةُ إلى أخريات. عندما تتعلق الروابط ببعض المظاهر الإيجابية كالصداقة أو التعاون، تُفَسّرُ ال indegree غالبًا بأنها شكل من أشكال الرواج والشعبية، وال outdegree بأنها معاشرة وألفة - المترجم.

[87] التمَرْكزية البَيْنية: مقياس فى نظرية الرسم البيانى للتمركزية فى رسم بيانى قائم على أقصر المسارات. فلكل رأسين أو عُقدتين فى رسم بيانى متصل، يوجد على الأقل مسارٌ واحد أقصر بين الرؤوس أو العُقد بحيث يصل عدد الحوافِّ التى يمر عبرها المسار (فى الرسومات البيانية غير المتوازنة) أو مجموع توازنات الحوافّ (فى الرسومات البيانية المتوازنة) إلى حده الأدنى. والتمركزية البَيْنية بالنسبة إلى كل رأس أو عُقْدة هى أقصر هذه المسارات التي تمر عبر الرأس أو العُقْدة - المترجم.

[88] تمركزية التجاور أو القرْب: فى رسم بيانى متصل، قُرْبُ تمركزية عُقْدة يقيس التمركزيةَ فى الشبكة، ويتم حسابه بوصفه مجموع الطول المتبادل لأقصر المسارات بين العُقْدة و العُقد الأخرى فى الرسم البيانى. ومن ثمّ، كلما كانت العُقْدةُ تمركزيةً كانت أقرب إلى جميع العُقد الأخرى - المترجم.

علاقات فرد ما، البسيط، بالآخرين.

أما التمركزية البَيْنية التى مَنْهَجَها السوسيولوجى لينتن فريمان[89] Linton Freeman فى أواخر سبعينيات القرن العشرين، فتقيس مدى انتقال المعلومات عبر عُقْدة محددة. تمامًا كالرُّكاب الذين يبحثون - كلٌّ على حِدة - عن أقصر الطرق إلى وِجْهتهم، فيُركِّزون حركةَ المرور فى عدد قليل من تقاطعات الطرق المكتظة، كذلك أيضًا حال الناس فى شبكةٍ ما، إذ يعتمدون غ البًا على أفراد رئيسيين لرَبْطهم بأفراد أو مجموعات بعيدة. الأفرادُ ذوو التمركزية البَيْنية العالية ليست لديهم معظم الروابط بالضرورة، ولكن لديهم الروابط المُهمّة. (وبكلمات أخرى، لا يهمُّ كم عدد مَن تعرفهم، بل المهم مَن تعرف). وأخيرًا، تقيس تمركزية التجاور أو القُرْب متوسطَ عدد «الخطوات» التى تتطلبها عُقْدةٌ للوصول إلى كل العُقَد الأخرى، وتُسْتَعْمَلُ غالبًا لاكتشاف مَن لديه أفضل وصول إلى المعلومات، على افتراض أنها مُوزّعة على نطاق واسع[102].

والأفراد فى شبكات اجتماعية ذات درجة تمَرْكُزيّة عالية أو تمركزية بَيْنية أو تمركزية التجاور، يعملون - بطرقهم المختلفة - بوصفهم «محاور» hubs.

شَهِدَ منتصف القرن العشرين، أيضًا، تقدُّمًا مهمًا فى مدى فَهْمنا لخصائص الشبكة الإجمالية، التى هى غير مرئية غالبًا من منظور أية عُقْدة مفردة. فى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا Massachusetts Institute of Technology، اقترحَ آر دنكان لوس[90] R. Duncan Luce وألبرت بيرى Albert Perry استعمال مُعامِلات «التجميع»[91] clustering coefficient لقياس مدى ا لاتصال بين مجموعة عُقَد، بمجموعة صغيرة تُكوّنُ الحالةُ القصوى التى ترتبط فيها كل عُقْدة بجميع العُقَد الأخرى فى الشبكة (من الناحية التقنية، مُعامِلُ

---

[89]لينتن فريمان: (1927 - 2018)، عالِم اجتماع أمريكى، متخصص فى علم الاجتماع البنيوى، مشهور بأعماله الرائدة فى دراسة الشبكات الاجتماعية. كان أستاذًا فخريًا بجامعة كاليفورنيا - المترجم.

[90]آر دنكان لوس: (1925 - 2012)، عالِم اجتماع ورياضيات أمريكى. شغل فى أخريات حياته منصب أستاذ البحث المتميز في العلوم المعرفية بجامعة كاليفورنيا - المترجم.

[91]مُعَامِل التجميع: قيمة دالة على درجة تجمُّع العُقَد مع بعضها البعض. أثبتت الدراسات وجود مَيْل عام فى الشبكات الواقعية عمومًا والشبكات الافتراضية خصوصًا نحو تشكيل مجموعات صغيرة من العُقَد المترابطة بقوة فيما بينها بعدد كبير نسبيًا من الحوافِّ. وهو مقياس لاحتمال ارتباط اثنين مُقرّبين في عُقْدة ما.

ويشير مُعامِل التجميع الأعلى إلى اتحاد أكبر - المترجم.

التجميع هو نسبة الثلاثيات الاجتماعية المتصلة اتصالا ً كاملا ً، بمعنى أن كل عضو فى الثلاثى متصل بالعضوين الآخرين). و«كثافة» الشبكة[92] density of network هى مقياس مماثل للترابط [الاتصال التفاعلى] interconnectedness.

وقد ظهرت أهميةُ مقاييس من هذا النوع فى عام 1967، عندما أجرى السيكولوجى الاجتماعى ستانلى ميلجرام[93] Stanley Milgram تجربته المعروفة: أرْسَلَ خطاباتٍ إلى سكان مُختارين عشوائيًا فى ويتشيتا Wichita وكانساس Kansas وأوماها Omaha ونبراسكا Nebraska. وطلب من المُستلِمين إعادة توجيه الرسالة مباشرةً إلى المُستلِم النهائى المقصود - على التوالى: زوجةُ دارسٍ لاهوتٍ فى هارفارد Harvard وسمسار بورصة فى بوسطن Boston - إذا كان هذا الشخص معروفًا بشَخْصه لهم؛ أو إعادة توجيه الرسالة إلى شخص يعتقدون أنه يعرف المُستلِم الأخير، شريطة أن يعرفوا هذا الوسيط باسمه الأول، كما طلب أيضًا أن يرسلوا لميلجرام بطاقة بريدية «للمتابعة» تخبره بما فعلوه. وأخيرًا، طبقًا لميلجرام، 44 رسالة من 160 رسالة من نبراسكا وصلت في نهاية المطاف[103].

(وأشارت دراسةٌ أحدث إلى أنها 21 رسالة فقط)[104]. أتاحت السلاسل المكتملة لدى ميلجرام حساب عدد الوسطاء المطلوبين لوصول الرسالة إلى هدفها: فى المتوسط خمسة[105].

وهذه النتيجة توقّعها الكاتب المجرى فريجايس كارينثى[94] Frigyes

---

[92]كثافة الشبكة: نسبة الروابط المباشرة فى إحدى الشبكات المتعلقة بإجمالى العدد المحتمل. أو بصياغة أخرى: العُقدة فى شبكة ما قد تكون شخصًا أو جهاز كمبيوتر أو نصًا تشعُبيًا، وتُسمّى الاتصالاتُ أو الروابط بين العُقد «صلاتٍ» أو «حوافًا»، وتصف «كثافةُ الشبكة» ذلك الجزءَ من الاتصالات المحتملة في شبكة ذات صلات فعلية - المترجم.

[93]ستانلى ميلجرام: (1933 - 1984)، عالِم نفس اجتماعى أمريكى، من أشهر بحوثه الإذعان للسلطة الذى أنجزه خلال ستينيات القرن العشرين أثناء عمله فى جامعة ييل، والذى تأثر فيه بأحداث الهولوكوست ومحاكمات أدولف أيخمان. أما بحثه الآخر الذى أعطاه شهرةً، تعزّزتْ فيما بعد، فهو تجربته المُسمّاة «العالم الصغير» التى قادت العلماءَ إلى النظر فى ميكانيزمات الشبكات الاجتماعية والبحث فى العلاقة الرياضية التى تُفسِّرُ درجةُ الترابط ومبدأ درجات الانفصال السِّت - المترجم.

[94]فريجايس كارينثى: (1887 - 1938)، مؤلِف مجرى وكاتب مسرحى وشاعر وصحفى. كان أول دُعاة مفهوم أو مبدأ درجات الانفصال السِّت فى قصته القصيرة «سلاسل». وهى فكرة مفادها أن كل الكائنات الحية وكل شىء آخر فى العالم يبتعد عن غيره بمقدار سِتّ خطوات، بحيث يمكن عمل سلسلة «من صديق لصديق» بحدٍّ أقصى سِتّ خطوات لرَبْط

Karinthy فى قصته «سلاسل» Lancszemek (المنشورة عام 1929): شخصية تُراهِنُ رفاقَها على أنه يستطيع رَبْط نفسه بأى شخص يختارونه على سطح الأرض من خلال ما لا يزيد عن خمسة من معارفه، على شرط أن يعرف أحدهم شخصيًا. وهو ما أثبتت صحتَه، أيضًا، تجاربُ منفصلة أجراها علماء آخرون، ولا سيما العالِم السياسى إيثيل دى سولا بوول[95] Ithiel de Sola Pool وعالِم الرياضيات مانفريد كوخن[96] Manfred Kochen.

تحتوى الشبكة التى تربط بين عُقدتين عبر خمسة وُسطاء على سِتِّ حوافٍ. وعبارة «سِتّ درجات انفصال» six degrees of separation لم تُصَغْ حتى مسرحية جون جُوَرى[97] John Guare التى تحمل هذا العنوان والمنشورة عام 1990، ولكنها ذات تاريخ طويل. فشأنُها شأنُ مفهومِ «عالَم صغير» small world (الذى أكسبته شهرةً نزهةُ ديزنى لاند Disneyland المبتكرة فى عام 1964)، أو المفهوم الأكثر تقنيةً عن القُرْب. لقد لخّصت العبارةُ بدقة نموّ الإ حساس بالاتصال والترابط فى منتصف القرن العشرين. فثمة منذ ذلك الحين تنويعات عديدة على هذه التيمة: سِتٌ درجات مارلون براندو Marlon Brando، وسِتٌ درجات مونيكا لوينسكى Monica Lewinsky، وسِتٌ درجات كيفين بيكُن Kevin Bacon (التى صارت لعبة طاولة)، وسِتٌ درجات لويس وايسبيرج Lois Weisberg (أمّ أحد أصدقاء مالكوم جلادويل Malcolm Gladwell)؛ ونظيرها الأكاديمى سِتٌ درجات عالِم الرياضيات بول إيردوس[98] Paul Erdös، وهو نفسه رائد نظرية الشبكة، كما رأينا[106]. تشير البحوث الحديثة إلى أن التغير التكنولوجى منذ سبعينيات القرن العشرين أقل تغيُّرًا

شخصين ببعضهما. صار هذا المبدأ يُستعمَل مرادفًا لـ«العالَم الصغير» عند ميلجرام - المترجم.

[95] إيثيل دى سولا بوول: (1917 - 1984)، شخصية ثورية فى مجال العلوم الاجتماعية، أجرى بحوثًا رائدة فى التكنولوجيا وأثرها على المجتمع. صاغ مصطلح التقارب لوصف تأثير مختلف الابتكارات العلمية على المجتمع فى المستقبل. كان يعطى توقعات دقيقة ومذهلة بخصوص علاقة التكنولوجيا بالمجتمع - المترجم.

[96] مانفريد كوخن: (1928 - 1989)، عالِم رياضيات نمساوى أمريكى، له بحوث رائدة فى الشبكات الاجتماعية ونظرية سِتّ درجات انفصال، من أهم أعماله «العالَم الصغير» و«نموّ المعرفة» - المترجم.

[97] جون جُوَري: كاتب مسرحي أمريكي من مواليد عام 1938 - المترجم.

[98] بول إيردوس أو إيردوش: (1913 - 1996)، عالِم رياضيات مجرى غريب الأطوار. اشتهر بـ العمل على التوافقيات ونظرية المُخطّطات ونظرية الأعداد والتحليل الرياضى ونظرية المجموعات ونظرية الاحتمالات - المترجم.

مما هو شائع[107]. ومع ذلك، درجات الانفصال عند مديرى ثروة ألف شركة 4.6 .[108]

وبالنسبة إلى مُستخدِمى الفيسبوك كانت 3.74 عام 2012 [109]، و3.57 فقط عام 2016 [110].

6
روابط ضعيفة وأفكار فيروسية

ما يجعل هذا النوعَ من النتائج مثيرًا للاهتمام مَيْلُنا إلى التفكير فى شبكات ا لأصدقاء بوصفها مجموع

ات صغيرة أو زُمَر صغيرة نسبيًا مكوّنة من أناس متماثلين ومتشابهين فى التفكير، معزولةً عن مجموعات أخرى ينطوى أعضاؤها على تقاربات مختلفة مع بعضهم البعض. وحقيقة أننا رغم كل شىء على بُعْد سِتِّ درجات فقط من مونيكا لوينسكى[99]، أمرٌ يوضحه ما أسماه السوسيولوجى مارك جرانوفيتر[100] Mark Granovetter، على نحو فيه مفارقة، «قوة الروابط الضعيفة»[101] [111] the strength of weak ties.

فإذا كانت كل الروابط كالروابط الهوموفيلية القوية [الروابط المقتصرة على المُماثِل أو المُطابِق] بيننا وبين أصدقائنا الحميمين، فإن العالم سيكون بـ ا لضرورة متشظيًا. لكن الروابط الأضعف - ب«معارف» لا يُشْبهوننا كثيرًا - هى المفتاح الرئيسى لظاهرة «العالم الصغير» small world. كان تركيز جرانوفيتر الأوّلى على الطريقة التى يبحث بها الناس عن وظائف يساعدهم فى الحصول عليها المعارفُ أكثر من الأصدقاء المُقرّبين، ثم فى وقت لاحق، ركّزَ

---

[99] مونيكا لوينسكى: أمريكية من مواليد عام 1973، تورّطَ معها الرئيسُ الأمريكى الأسبق بِلْ كلينتن فى فضيحة جنسية، عُرفتْ إعلاميًا ب«فضيحة مونيكا» منتصف تسعينيات القرن العشرين - المترجم.

[100] مارك جرانوفيتر: من مواليد عام 1943، عالِم اجتماع أمريكى وأستاذ بجامعة ستانفورد، اشتهر بعمله فى نظرية الشبكات الاجتماعية وعلم الاجتماع الاقتصادى؛ ولا سيما نظريته حول انتشار المعلومات فى الشبكات الاجتماعية المعروفة ب«قوة الروابط الضعيفة» - المترجم.

[101] قوة الروابط الضعيفة: الروابط الضعيفة كما يُعَرّفُها جرانوفيتر هى: علاقات اجتماعية تتصف بالاتصال النادر، وغياب القُرْب العاطفى وعدم وجود تاريخ من الخدمات المتبادلة. فالمعارف ضمن الروابط الضعيفة هم الأشخاص الذين يقعون فى شبكتك الواسعة. وصلا ت الروابط الضعيفة موجودة أكثر بكثير مما نظن.

فيلجأ معظم الناس إلى شبكاتهم الواسعة. ومعظم شبكات الأعمال تقوم على صلات الروابط الضعيفة نسبيًا. ومن هنا تأتى قوتها، ولا سيما حين ترتبط بمفهوم «الجسر» الذى هو عبارة عن فرد تملأ روابطُه الضعيفة فجوةً بنيوية فى الشبكة فيُقدِّم الرابطَ الوحيد بين فردين أو مجموعتين، وهو ما يتضمن أقصر الطرق عندما يتعذر تطبيق الطريق الأطول بسبب مخاطرة عالية - المترجم.

على فكرة أنه فى مجتمع ذى روابط ضعيفة قليلة العدد نسبيًا «ستنتشر الأ فكار الجديدة ببطء، وستُعاق الجهودُ العِلمية؛ أما المجموعات الفرعية المعزولة بسبب العِرْق أو السُّلالة أو الجغرافيا أو أية خصائص أخرى فستُواجِه صعوبةً فى التوصُّل إلى تسوية مؤقتة تضمن تعايشًا سِلميًا modus vivendi»[112]. وبكلمات أخرى، الروابط الضعيفة هى الجسور الحيوية بين مجموعات مختلفة لا سبيل إلى اتصالها إطلاقًا[113].

كانت فكرة جرانوفيتر عبارة عن ملاحظة سوسيولوجية قائمة على مقابلات وبيانات متماثلة، وتعرّضت للتنقيح على أساس دراسات ميدانية. فكشفت هذه الدراسات، مثلا ً، أن الروابطَ القوية مُهمّةٌ للفقراء أكثر من الروابط الضعيفة، الأمر الذى يشير إلى أن الشبكات مُحْكَمَة التماسك فى العالَم البروليتارى تميل إلى إدامة الفقر[114]. وقد أَظْهَرَ فى عام 1998، وليس قبله، عالِما الرياضيات دُنْكِن واتس[102] Duncan Watts وستيفن ستروجاتس[103] Steven Strogatz السببَ فى أن عالَمًا يتميز بمجموعات [هوموفيلية] مقتصرة على المُطابِق أو المُماثِل هو عالَم صغير. لقد صنّفَ واتس وستروجاتس الشبكات من حيث خاصّتين مستقلتين نسبيًا: متوسط تمركزية التجاور فى كل عُقْدة ومُعامِل التجميع العام فى الشبكة. بدآ بشبكة دائرية ترتبط فيها كلُّ عُقْدة بجاراتها الأ ُوَلِ والثوانى الأقرب فقط، فبَيّنا أن الإ ضافة العشوائية لعدد قليل من الحوافِّ الزائدة كفَتْ لزيادة القُرْب بين كل العُقَد، دون زيادة كبيرة فى مُعامِل التجميع الكلى[115]. بدأ واتس عمله بدراسة صوت الصراصير المتزامن، ولكن آثار نتائجه ونتائج ستروجاتس على البشر كانت واضحة. وعلى حدِّ تعبير واتس: «الاختلاف بين رسم بيانى لعالَم كبير وعالَم صغير هو مسألة بضع حوافٍّ عشوائية مطلوبة، وهو تغيير لا يمكن اكتشافه عند مستوى الرؤوس [العُقَد] الفردية... ويُؤدِّى الطابعُ التجميعى العالى فى الرسومات البيانية لعالَم صغير إلى حَدْس بأن مرضًا معينًا «بعيدٌ»، على حين أنه بالعكس جدّ قريب»[116].

وبالنسبة إلى علماء الاقتصاد، أيضًا، انطوى التقدُّم فى علم الشبكة على آثار

---

[102] دُنْكِن واتس: من مواليد عام 1971، باحث أسترالى المولد، يعمل فى مركز أبحاث مايكروسوفت في الولايات المتحدة - المترجم.

[103] ستيفن ستروجاتس: من مواليد عام 1959، عالِم رياضيات أمريكى وأستاذ الرياضيات التطبيقية فى جامعة كورنيل. معروف بإسهاماته فى دراسة تزامن ديناميكية النُّظم و البيولوجيا الرياضية ونظرية الشبكة المُعَقّدة - المترجم.

مهمة. تخيّلَ الاقتصادُ المعيارى[104] standard economics أحيانًا أسواقًا غير متمايزة مأهولة بوكلاء فرديين بأعلى درجة من المنفعة وبمعلومات كاملة. كانت المشكلةُ - التى حَلّها الاقتصاديٌ الإنجليزى رونالد كوَس[105] Ronald Coase، الذى أوضح أهمية تكاليف المُعامَلات[106] – إيضاحَ السبب فى وجود الشركات. (نحن لسنا كل عمّال الميناء، تُستأجَر ويُدْفَع لنا طول اليوم مثل مارلون براندو فى فيلم «على الواجهة البحرية»[107] On the Waterfront، لأن توظيفنا بانتظام داخل شركات يُقلِّلُ التكاليفَ التى تنشأ عند استئجار عُمّال على أساس يومي).

لكن إذا كانت الأسواق شبكات، يُشكِّل معظمُ الناس فيها مجموعاتٍ مترابطةً تقريبًا، فسيبدو العالِمُ الاقتصادى جِدّ مختلف، لأن تدفق المعلومات ستُحدِّده هياكلُ الشبكات[117]. العديد من المبادَلات ليست مجرد صفقة لمرة واحدة يكون السِّعرُ فيها مسألة عرض وطلب.

الائتمان هو وظيفة ثقة، ويكون بدوره أعلى داخل مجموعة أناس متماثلين (مثلا ً، جماعة مهاجرين). وينطوى هذا على آثار ليس بالنسبة إلى أسواق العمل [التشغيل] فقط، وهي الحالة التي درسها جرانوفيتر[118].

---

[104]الاقتصاد المعيارى أو التقليدى يُعَرّفُ بأنه مبدأ الفرد الذى يسعى إلى تعظيم دور المنفعة، حيث تكون المنفعةُ دالةً على كمية السلع والخدمات التى يستهلكها هذا الفرد. ومن ناحية أخرى، يشير إلى مجموعة المعارف والنظريات والنماذج الاقتصادية كما يتم تدريسها فى الجامعات، التى يقبلها الاقتصاديون بشكل عام بوصفها أساسًا للمناقشة، بالمقارنة مع الا قتصاد غير التقليدي الذي يشمل مدارس أو مناهج مختلفة يقبلها مؤيّدوها - المترجم.

[105]رونالد كوَس: (1910 - 2013)، عمل أستاذًا فى مدرسة لندن للاقتصاد، ثم شغل مناصب حكومية قبل الحرب العالمية الثانية وأثنائها، ثم عاد إلى التدريس مرة أخرى - المترجم.

[106]يجادل كوَس فى «مشكلة التكلفة الاجتماعية» (1960، 15) قائلا ً بأنه «من أجل تنفيذ مُعامَلة فى السوق، من الضرورى اكتشاف مَن الذى يرغب المرءُ فى التعامل معه، وإعلام الناس بأن المرء يريد التعاملَ وبأية شروط، وإجراء مفاوضات تُؤدِّي إلى صفقة، ووَضْع عَقْد وإجراء تفتيش ضرورى للتأكد من مراعاة شروط العَقْد، وهكذا». ومُنظّمات - ك الشركات بل الدول حتى - توجد لخَفْض أو إلغاء تكاليف هذه المُعامَلات، مثلا ً، بعقود توظيف موحّدة طويلة الأجل.

الوحدات الأكبر يمكنها عمل ذلك بكفاءة أكبر، ومن ثمّ «وُفُورات الحجم أو اقتصادات الحجم أو اقتصادات السِّعَة» economies of scale - المؤلف.

[107]على الواجهة البحرية: فيلم دراما وجريمة أمريكى، من إخراج إيليا كازان. صدر الفيلم في يوليو عام 1954، وحاز على 12 ترشيح لجائزة الأوسكار، فاز بثمانية منها - المترجم.

شبكات التُّجار المغلقة يمكن أن تتواطأ ضد الجمهور وتمنع الابتكار. أما الشبكات الأكثر انفتاحًا فتشجّع الابتكار بوصفه أفكارًا جديدة تصل إلى المجموعة بفضل قوة الروابط الضعيفة[119]. وقد أثارت هذه الملاحظات - فى المقام الأول - السؤالَ عن كيف تتشكل الشبكات على وجه الضبط[120].

من الناحية العملية، يبدو واضحًا كيف تتكوّن الشبكات. لقد أنتج العلماء و الباحثون - بدءًا من التُّجار المغاربة فى البحر المتوسط[121]، القرن الحادى عشر ، الذين درسهم أفنر جريف[108] Avner Greif، إلى رُوّاد الأعمال والمديرين فى العصر الحديث الذين درسهم رونالد بيرت[109] Ronald Burt - أدبياتٍ غنية عن دور شبكات الأعمال[110] business network فى توليد رأس المال الا جتماعى[111]وتشجيع الابتكار أو إحباطه. بمصطلحات بيرت، التنافس بين الأ فراد والشركات تُهَيْكِله الشبكاتُ، مع وجود «ثغرات هيكلية» [فجوات بنيوية][112] structural holes [122] - بين المجموعات بسبب غياب الروابط الضعيفة - مثل «الفُرَص الرّيادية من أجل الوصول إلى المعلومات والتوقيت و التشاورات والسيطرة»[123]. والوُسَطاء brokers - وهم أُناس قادرون على «سدِّ الثغرات» - «يُكافَأون (أو ينبغى أن يُكافَأوا) على عملهم التكاملى»، لأن موقعهم يجعلهم يمتلكون أفكارًا إبداعية على الأرجح (أو أقل تعرُّضًا للمعاناة من التفكير الجماعى think-group). ففى المؤسسات الابتكارية، هؤلاء الوُسَطاءُ محلُّ تقدير دائمًا. ومع ذلك، فى معظم التنافسات بين وسيط مُبتكِر وشبكة تميل إلى «الانغلاق» (أىْ: الانعزالية والتجانس) تنتصر هذه الشبكة غ

---

[108] أفنر جريف: من مواليد عام 1955، إسرائيلى متخصص فى التاريخ الاقتصادى - المترجم.

[109] رونالد بيرت: من مواليد عام 1949، عالِم اجتماع أمريكى وأستاذ علم الاجتماع والإ ستراتيجية فى جامعة شيكاغو. اشتهر ببحوثه فى الشبكات الاجتماعية ورأس المال الا جتماعي، ولا سيما مفهومه عن الثقوب الهيكلية في الشبكات الاجتماعية - المترجم.

[110] شبكة الأعمال [البيزنس]: شبكة معقدة من الشركات تعمل معًا لتحقيق أهداف معينة، وهي أكثر بكثير من الأعمال التجارية نفسها - المترجم.

[111] رأس المال الاجتماعى فى أبسط تعريف له هو: القيمة التى يحصلها فرد أو مجموعة من الشبكة الاجتماعية - المترجم.

[112] الثغرة الهيكلية أو الفجوة البنيوية: انقطاع فى الشبكة بسبب غياب الروابط الضعيفة، ويرتبط سدُّ الثغرة أو الفجوة بمفهوم الجسر الذى هو عبارة عن رابط ضعيف يملأ الثغرةَ واصلا ً بين فردين أو مجموعتين - المترجم.

البًا[124]. وينطبق ذلك على الفلاسفة الأكاديميين بقدر ما ينطبق على موظفى شركة إلكترونيات أمريكية[125].

«السلوك التنظيمى» organizational behavior، وهو حقل فرعى كامل، يحتل الآن مكانة تأسيسية فى معظم برامج الماجستير فى إدارة الأعمال. ومن بين نتائجه الحديثة أن المديرين شَبَكيّون على الأرجح أكثر من غير المديرين[126]؛ وأن «الشبكة الأقل هَرَميّة هى الأفضل للتعاون الإنتاجى و التجانس فى ثقافة تنظيمية»[127]؛ وأن الوُسَطاء ينجحون على الأرجح فى سدِّ الثغرات الهيكلية إذا «تلاءموا ثقافيًا مع مجموعتهم التنظيمية»، فى حين أن أولئك «المُضمّنين هَيْكليًا» ينجحون أفضل حين «يتمايزون ثقافيًا».

وباختصار، «الوسطاء المتجانسون» و«المُنشقُّون المتكاملون» يميلون إلى الفعل بطريقة أفضل من نظرائهم[128] هنا، أيضًا، تُقدِّمُ نظريةُ الشبكة أفكارًا تنطوى على فائدة أبعد من محلِّ الشركة النمطى الذى يَسْخَرُ منه ريكى جيرفَيس فى مسلسله التليفزيونى «المكتب»[113] Ricky Gervais's The office.

وفضلا ً عن ذلك، نادرًا ما تكون شبكاتُ المكاتب كبيرةً جدًا. ولكن حجمَ الشبكة مهمٌ بسبب قانون ميتكالف Metcalfe's Law - المُسمّى باسم مخترع ا لإيثرنت[114] Ethernet، روبرت ميتكالف Robert Metcalfe - الذى ينصُ (فى صورته الأصلية) على أن قيمة شبكة اتصالات عن بُعْد تتناسب مع مربع عدد ا لأجهزة المتوافقة التواصل. وينطبق ذلك على الشبكات بوجه عام، ولنقل ذلك ببساطة: كلما زاد عددُ العُقد فى الشبكة زادت قيمة الشبكة بالنسبة إلى العُقد فى مجموعها. وكما سنرى، ينطوى ذلك على عوائد مذهلة بالنسبة إلى الشبكات الكبيرة المفتوحة، وفى المقابل عوائد محدودة بالنسبة إلى الشبكات السرّية و/أو الحَصْرية. بل وحتى فى الشبكات الأكبر ثمة عُقدٌ تعمل بوصفها وُسَطاء أو محاور.

عبارة «الانتشار الفيروسى»[115] to go viral أصبحت قولا ً سائرًا، كأسًا

---

[113]المكتب: مسلسل هزلى بريطانى ألفه ريكى جيرفَيس بالاشتراك، أُذيع عام 2001 فى المملكة المتحدة على بى بى سى 2، يتناول الحياة اليومية لموظفى المكاتب فى إحدى الشركات بشكل فُكاهي - المترجم.

[114]الإيثرنت: نظام لتوصيل عدد من أنظمة الكمبيوتر لتشكيل شبكة محلية أو إقليمية، بإجراءات تحكّمٍ فى تمرير المعلومات ومَنْع الإرسال المتزامن من قبل نظامين أو أكثر - المترجم.

[115]الانتشار الفيروسى: تُستعمَل العبارة فى الإشارة إلى محتوى الإنترنت الذى يمكن تمريره

مقدسة لدى المُعْلِنين والمُسوِّقين[129]. ومع ذلك، يُقدِّم علمُ الشبكة network science الطريقةَ المُثلَى لفَهْم السبب فى انتشار بعض الأفكار بسرعة كبيرة. فـ الأفكار - بل الأحوال والظروف الوجدانية شأنها شأن السِّمْنة - تنتقل من خلال شبكة اجتماعية كالفيروس المُعْدِى contagious virus. أما الأفكار (أو «الميمات»[116] memes، إذا استعملنا اللفظة الجديدة لدى المؤمنين بالنشوء و الارتقاء) فهى، بوجه عام، أقلُّ عَدْوى من الفيروسات. تقوم الفيروسات البيولوجية وفيروسات الكمبيوتر عادةً بـ«انتشار واسع تلقائى» عبر شبكة، لأ ن هدفها هو نشر نفسها بأقصى ما يمكن، مستهدفةً جميعَ ما يُجاوِرُ كلَّ عُقْدة أصابَتْها. أما نحن فنختار أعضاء شبكتنا التى نريد توصيل فكرة لهم أو نتلقى منهم فكرةً بوصفها فكرةً موثوقة[130]. سُمِّى الإسهامُ المبكر [فى هذا السياق] «تدفق نمط الاتصال عبر خطوتين»[117] step flow of communication-two

---

عبر البريد الإلكترونى ومواقع الشبكات الاجتماعية؛ فالصورة أو مقطع الفيديو أو الرابط الذى يُعَادُ إرساله ويتشاركه مُستخدِمو الإنترنت فينتشر بينهم يوصف بأنه «فيروسى»، وتوصف سرعة انتشاره بأنها «انتقال فيروسي».

ومن أمثلة الموضوعات التى تنتشر انتشارًا فيروسيًا فى مجتمعات الإنترنت: المحتوى السياسى القوى، أخبار المشاهير، أخبار الكوارث، مقاطع فيديو منزلية مسلية، الدعابة الجنسية الفجّة - المترجم.

[116]الميم، والجمع ميمات: لفظ استحدثه، عَرَضًا، عام 1976 عالِم البيولوجيا ريتشارد داوكنز ، ويشير إلى «وحدة معلومات ثقافية» أو «العنصر الثقافى» الذى ينتقل من عقل إلى آخر بطريقة مشابهة لانتقال الجينات من فرد إلى آخر خلال عملية التكاثر، حيث الجينات هى وحدة معلومات وراثية. ثم ظهر لاحقًا علم يُدْعَى علم الميمات memetics أو «علم التطوُّر الثقافى» الذى يُعْنَى بدراسة هذه الفكرة وتطبيقاتها. تنتشر الميمات معًا بوصفها مجموعة أو زُمَر متكاملة تعمل معًا ويشار إليها بـ«مَعْقد الميمات». وتفترض بعض النظريات والأ فكار أن الميمات تتطور من خلال عملية اصطفاء طبيعى بطريقة مشابهة لأفكار تشارلز داروين فيما يخص التطور البيولوجى. وفى منتصف ثمانينيات القرن العشرين، ظهر الولع بالميمات فيما يُعْرَفُ بـ«الحركة الميماتية الجديدة» على يد دوجلاس هوفشتادر، ومن أبرز سماتها أن معظم ناشطيها من خارج إطار علم الاجتماع وعلم الإنسان، بل من غير الأ كاديميين أصلا ً. ثم فى عام 1993 عاد ريتشارد داوكنز ليستعمل مصطلح الميمات، مرة أخرى، فى مقاله «فيروسات العقل» ليشرح ظاهرة المعتقدات الدينية وسمات الديانات المنظّمة - المترجم.

[117]تدفّق نمط الاتصال عبر خطوتين: يقول بأن الأفكار تتدفق من وسائل الإعلام إلى قادة الرأي الذين يُضْفون عليها تفسيرَهم الخاص ثم يُمرّرونها إلى الناس.

وذلك فى مقابل التدفق عبر خطوة واحدة الذى يؤكد أن معظم الناس يتأثرون مباشرةً بوسائط الإعلام - المترجم.

model، المرتبط بعالمىْ الاجتماع بول لازارسفيلد[118] Paul Lazarsfeld وإليهو كاتس[119] Elihu Katz، اللذيْن قالا فى خمسينيات القرن العشرين إن الأفكار تتدفق من الميديا إلى الجمهور الأوسع بوَسَاطة «قادة» الرأي[131].

وقد حاول باحثون آخرون، فى أواخر القرن العشرين، قياسَ السرعة التى تنتقل بها الأخبار أو الشائعات أو الأفكار الجديدة. وثمة بحث أحدث، أظهر أنه حتى الأحوال الوجدانية تنتقل من خلال الشبكة[132].

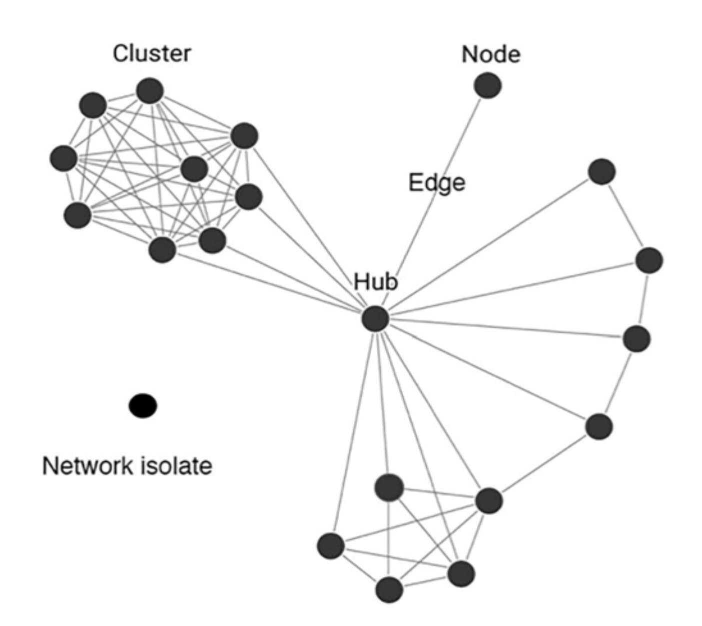
ورغم أن التمييز بين تأثيرات الشبكة الداخلية والخارجية أبعد ما يكون عن السهولة[133]، فالدليل على هذا النوع من العَدْوَى واضح: «الطلبة الذين لديهم رفاق مُولَعون بالدراسة يصيرون أكثر وَلَعًا بالدراسة. تناولُ العشاءِ مع أشخاص أكولين يدفع إلى تناول المزيد من الطعام»[134]. ومع ذلك، لا يمكننا، طبقًا لكريستاكيس Christakis وفاولر Fowler، نقل الأفكار والسلوكيات إلى أبعد من أصدقاء أصدقاء أصدقائنا (وبكلمات أخرى، عبر ثلاث درجات انفصال فقط). وذلك لأن نقل فكرة واستقبالها، أو سلوك، يتطلب اتصالا ً أقوى من إعادة إرسال رسالة (كما فى حالة تجربة ميلجرام)، أو تواصلا ً يُتيح فرصةً اشتغال محدّدة.

مجرد معرفة الناس ليست هى المعرفة التى نستطيع بها التأثير فيهم كى يدرسوا أكثر أو يُفْرِطوا فى تناول الطعام. المحاكاة، فى حقيقتها، هى صورة التملُّق الأصدق، حتى حين تكون بلا وعي.

---

[118] بول لازارسفيلد: (1901 - 1976)، عالِم اجتماع نمساوى أمريكى، جامعة كولومبيا - المترجم.

[119] إليهو كاتس: من مواليد عام 1926، عالِم اجتماع ونظريات تواصل، أمريكى إسرائيلى - المترجم.



الشكل: 6 - المفاهيم الأساسية فى نظرية الشبكة. كل نقطة فى الرسم البيانى هى عُقدة، وكل سطر هو حافة. والنقطة التى تمتلك أعلى درجة تمركزية وتمركزية بَيْنية تُسَمّى محور. والعُقد التى تمتلك كثافة أعلى أو مُعامِل تجميع موضعى أعلى من الأجزاء الأخرى فى الرسم البيانى تُسَمّى «تكتل» أو «تجمُّع».

النقطة الرئيسية، كما هو الحال مع الأمراض الوبائية، أن بنية الشبكة تنطوى على أهمية تُعادِلُ أهميةَ الفكرة نفسها فى تحديد سرعة الانتشار ومداه[135]. و الدور الرئيسى فى عملية الانتشار الفيروسى تلعبه العُقدُ التى ليست مجرد محاور أو وُسَطاء فحسب، بل «حُرّاس بوابة»: أناس يُقرّرون ما إذا كانوا سينقلون معلومات إلى طرفهم فى الشبكة أم لا[136]. وسيعتمد قرارهم، إلى حد ما، على اعتقادهم بمدى انعكاس المعلومات عليهم. وسيتطلب قبول فكرة، بدوره، أن تُنقلَ بوَسَاطة أكثر من مصدر أو مصدريْن. فعلى عكس مرض وبائى بسيط، تحتاج العَدْوَى الثقافية المعقدة، أولا ً إلى تحقيق كتلة حرجة من المُتبنِّين الأوائل ذوى درجة تمركزية عالية (أعداد كبيرة نسبيًا من الأ صدقاء المؤثِّرين)[137]. وعلى حدِّ تعبير دُنكان واتس، مفتاحُ تقدير احتمالِ وجودِ تتابعٍ شبيه بالعَدْوَى هو «التركيز على بنية الشبكة التى يُصِيبُها الحافزُ، وليس على الحافز نفسه»[138].

وفيما يتعلق بكل فكرة تنتشر فيروسيًا، يساعد هذا على إيضاح السبب فى أن هناك أفكارًا أخرى لا تُحْصَى تتبدّدُ فى الظلام لأنها بدأت من العُقدة أو التكتل أو الشبكة الخطأ.

7

أصناف الشبَّكة

لو كانت كلُّ أبنية الشبكة الاجتماعية واحدةً، لَكُنّا فى عالَم مختلف تمامًا. مثلا ً، العالَم الذى تتصل فيه العُقَدُ إحداها بالأخرى عشوائيًا - بحيث تكون أعدادُ حوافِّ كل عُقْدة مُوزّعةً عادةً على شكل مُنْحَنى الجرس - سينطوى على خواصِّ «عالَم صغير»، ولكنه لن يكون مثل عالَمنا[120]. وذلك لأن العديد من شبكات العالَم الحقيقى تتْبَعُ توزيعاتٍ شبيهة بتوزيع باريتو Pareto: شبكات تنطوى على المزيد من العُقَد بعدد حوافٍّ جِدِّ كبير، والمزيد من العُقَد بعددٍ أقل كثيرًا مما فى شبكة عشوائية. وهو ما يُعَدُّ نسخةً مما يُسمِّيه السوسيولوجى روبرت ميرتن[121] Robert K. Merton «تأثير مَتّى» the Matthew effect، تيمُّنًا بإنجيل القديس مَتّى: «لأن كل مَن له، يُعْطَى فيزداد؛ ومَن ليس له، فالذى عنده يُؤْخَذُ منه»[122] فى العِلم، النجاحُ يُولِّدُ النجاحَ: مَن لديه جائزة بالفعل، سيُعْطَى المزيد من الجوائز. ويمكن الوقوف على شىء مماثل فى «اقتصاد النجوم والمشاهير»[139]. وبالطريقة نفسها، كلما توسّعت العديدُ من الشبكات الكبيرة، اكتسبت العُقَدُ حوافًّا جديدة بما يتناسب مع العدد الذى لديها بالفعل (درجتها أو «كفاءتها»). ثمة باختصار «إلحاقٌ تمييزىٌّ»[123] preferential attachment. ونحن ندين بهذه الفكرة للفيزيائى لازلو باراباسى[124] László

---

[120]الشبكات العشوائية دَرَسَها أولا ً عالِما رياضيات غزيرىْ الإنتاج، ويُستشهد بهما كثيرًا، هما بول إردوس Paul Eerdös وألفريد رينيه Alfréd Rényi، أحد مشاركيه العديدين فى التأليف. يتكون الرسم البيانى العشوائى بوضع العُقَد n على مسطح مستو، ثم رَبْط كل زوجين منها معًا بشكل عشوائى عن طريق حوافّ m. ويمكن اختيار العُقَد أكثر من مرة، أو عدم اختيارها أصلا ً- المؤلف.

[121]روبرت ميرتن: (1910 - 2003)، عالِم اجتماع أمريكى فى جامعة كولومبيا. طوّرَ مفاهيم عديدة مثل «العواقب غير المقصودة» و«المجموعة المرجعية». اشتهر بمصطلح «النبوءة التى تُحقِّقُ نفسَها»، الذى يعنى تحديدًا خاطئًا لموقف يستدعى سلوكًا جديدًا، بما يجعل الفكرة الخاطئة أصلا ً«تتحقق» - المترجم.

[122]متّى: الأصحاح 25، الآية 29 - المؤلف.

[123]الإلحاق التمييزى أو التفضيلى: أىُّ نوع من العمليات تُوَزّعُ فيه كميةٌ ما، على عدد من الأ فراد وفقًا لما لديهم بالفعل - المترجم.

[124]لازلو باراباسى: من مواليد عام 1967، فيزيائى مجرى، أستاذ متميز ومدير مركز جامعة نورث إيسترن لبحوث الشبكة المعقدة، وعضو مشارك فى مركز نُظُم السرطان، معهد دانا فاربر للسرطان، جامعة هارفارد - المترجم.

Barabási والفيزيائية ريكا ألبرت[125] Réka Albert، فهما أول مَن افترضا أن معظم شبكات العالم الحقيقى تتبع توزيعات قانون الرّفع[126] power law distribution أو تكون «حُرّة النطاق»[127] scale – free[128]. الشبكات بحد ذاتها تتطوّرُ، وعُقدٌ قليلة فيها تصير محاور hubs ذات حوافٍّ عديدة أكثر من عُقد أخرى[140]. وأمثلة هذه الشبكات وفيرة، تتراوح من مجالس إدارة ثروة ألف شركة إلى الاستشهادات فى مجلات الفيزياء والروابط من صفحات الويب وإليها[141]. وعلى حدِّ تعبير باراباسي:

ثمة تسلسل هَرَمى للمحاور يحفظ وجود هذه الشبكات معًا، عُقْدة متصلة اتصالاً عاليًا يليها عن قُرْب عِدّةُ عُقدٍ أقل اتصالاً، متبوعة بعشرات العُقد الأصغر. ولا توجد عُقْدة مركزية فى وسط الشبكة العنكبوتية، تتحكم فى كل رابط وعُقْدة وتراقبهما. لا توجد عُقْدة مفردة تُؤدِّي إزالتُها إلى هَدْم الشبكة.

---

[125] ريكا ألبرت: من مواليد عام 1972، عالِمة مجرية، أستاذة الفيزياء وعلم الأحياء فى جامعة ولاية بنسلفانيا. اشتهرت بنموذج «باراباسى - ألبرت»، وببحوثها فى الشبكات حُرّة النطاق وتمْذجة الأنظمة البيولوجية - المترجم.

[126] قانون الرّفع فى الإحصاء هو علاقة داليّة بين كميتين، حيث يتسبّبُ التغيُّرُ النسبى فى كمية فى تغيُّر نسبى للكمية الأخرى بشكل متناسب، بغضّ النظر عن حجم الكميتين الابتدائي. وينطبق هذا على الظواهر الطبيعية والبيولوجية والبشرية - المترجم.

[127] الشبكة حُرّة النطاق: ثمة ادعاء رئيسى فى علم الشبكات الحديث يقول بأن شبكات العالم الحقيقى تكون عادةً «حُرّة النطاق أو الحجم»، أىْ تتبع قانونَ الرفع. ولكن الأدلة التجريبية لهذا الاعتقاد مستمدة من عدد صغير نسبيًا من شبكات العالم الحقيقى. فالدراسات الإحصائية تثبت وجود4% فقط من الحالات التى تُقدِّم دليلاً على وجود بنية أو هيكل حُرّ النطاق. وإذن، الشبكات الاجتماعية هى، فى أحسن أحوالها، ضعيفة النطاق، فى حين أن عددًا قليلاً من الشبكات التكنولوجية والبيولوجية يمكن أن توصف بأنها حُرّة النطاق. وتؤدِّى هذه النتائج إلى تقويض عالمية الشبكات حُرّة النطاق، كما تكشف عن أن شبكات العالم الحقيقى متنوعة تنوعًا بنيويًا ثريًا على نحو يتطلب أفكارًا وآلياتٍ جديدةً لشرحها - المترجم.

[128] التوزيعاتُ التى تتبع قانون الرفع «سمينةُ العَجُز» fat tails، لأن الاحتمال النسبى للدرجة العالية للغاية والمنخفضة للغاية أعلى مما لو كانت الروابط مُشَكلة عشوائيًا. من الناحية التقنية، يشير مصطلح «حُرّ النطاق أو الحجم» scale - free إلى حقيقة «أن التكرار النسبى لعُقد من الدرجة d، مقارنةً بعُقد من الدرجة d´ هو نفسه التكرار النسبى لعُقد من الدرجة kd مقارنةً بعُقد من الدرجة kd´، عند إعادة القياس بوَسَاطة عامل عشوائى k > o». فى شبكة حُرّة النطاق لا توجد عُقْدة نموذجية، ومع ذلك يُبيّنُ «قياسُ» الاختلاف بين العُقد الشىءَ نفسَه في كل مكان. وبعبارة أخرى، يتميز العالم حُرّ النطاق بهندسة فراكتيلية:

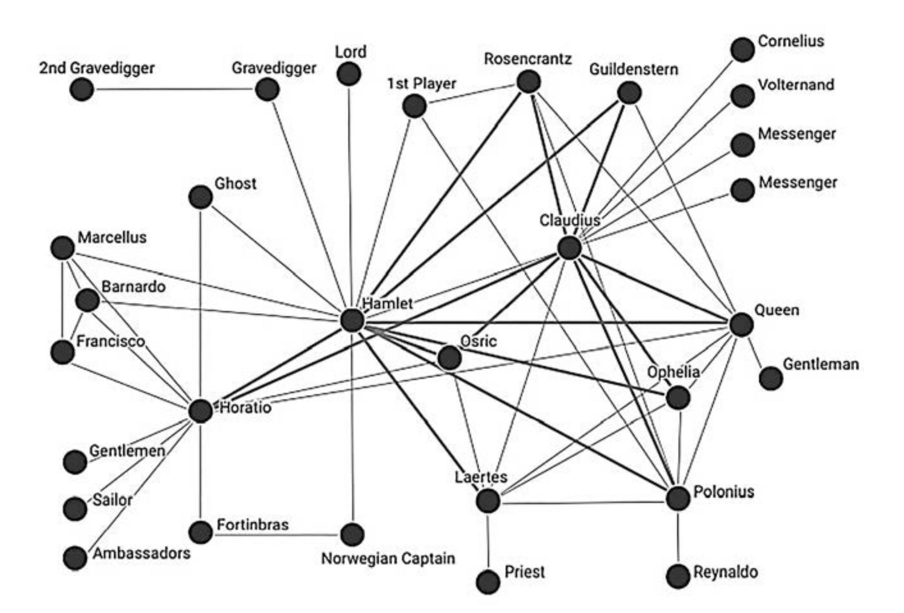
البلدةُ هي عائلةٌ كبيرة، والمدينةُ بلدةٌ كبيرة، والمملكةُ مدينةٌ كبيرة - المؤلف.

الشبكةُ حُرّةُ النطاقِ هي شبكة دون عنكبوت[142].

فى الحالة القصوى (أىْ نموذج «الفائز يأخذ كل شىء» takes-the winner - all model)، تحصل العُقْدَةُ الأنسب على كل الروابط، أو كلها تقريبًا. وفى أكثر الأحيان، يوجد نموذجُ «اللائق يَغتنى» fit get rich، إذ توجد «عُقدةٌ متصلة اتصالا ً عاليًا تليها عن قُرْبٍ عِدّةُ عُقد أقل اتصالا ً، متبوعة بعشرات من العُقَد الأصغر»[143]. توجد أيضًا أبنيةٌ أخرى للشبكة المتوسطة: مثلا ً، شبكات صداقة المراهقين الأمريكيين ليست عشوائية ولا حُرّة النطاق[144].

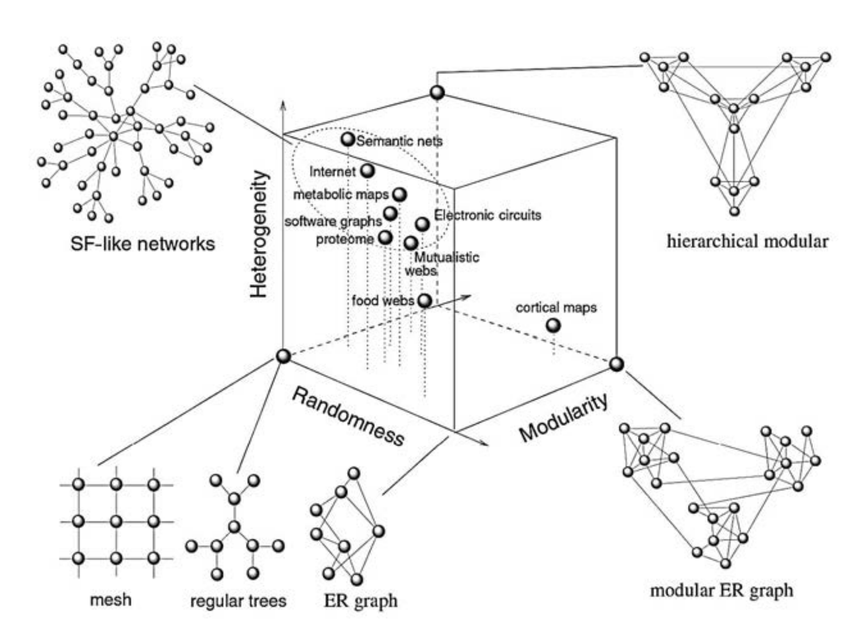
فى الشبكة العشوائية، كما بَيّنَ إردوس ورِيناى منذ وقت طويل، تحتوى كل عُقدة داخل الشبكة على عدد الروابط نفسه بالعُقَد الأخرى. وأفضل مثال على شبكات العالم الحقيقى هو شبكة الطرق السريعة المحلية فى الولايات المتحدة، فمن خلالها تحوز كلٌّ مدينة رئيسية عددَ الطرق السريعة نفسه الذى يربطها بالمدن الأخرى.

والمثال على الشبكة حُرّة النطاق هو شبكة النقل الجوى بالولايات المتحدة، التى يرتبط فيها عدد كبير من المطارات الصغيرة بمطارات متوسطة الحجم، ترتبط بدورها بعدد قليل من المحاور الضخمة المكتظة. وثمة شبكات أخرى مركزية للغاية دون أن تكون بالضرورة حُرّة النطاق. إحدى طرق فَهْم التراجيديا [المأساة] التى تتكشّفُ فى مسرحية شكسبير «هاملت» Hamlet تتمثل فى رَسْم شبكة العلاقات بين الشخصيات، التى فيها يحوز هاملتُ وزوجُ أمِّه كلوديوس Claudius درجةَ التمركزية الأعلى (أىْ عدد الحوافّ: انظر الشكل 7).



الشكل: 7 - شبكة بسيطة ولكنها تراجيدية: «هاملت» شكسبير. هاملت يقود من حيث درجة التمركزية (ستّ عشرة مقارنةً بثلاث عشرة لدى كلوديوس). وتشمل «منطقةُ الموت» فى المسرحية الشخصياتِ المتصلةُ بكلٍّ من هاملت وكلوديوس.

ولنضَعْ فى الحسبان، الآن، كلّ الطرق التى يمكن بها لشبكة أن تختلف عن النسخة العشوائية (انظر الشكل 8).



الشكل: 8 - أصناف الشبكة (SF: حُرّة النطاق؛ ER: إيردوس - ريناى، أىْ عشوائية).

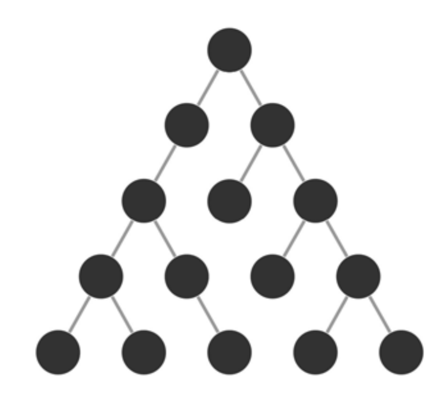
من الممكن أن تكون الشبكةُ عاليةَ التحديد وغير عشوائية، مثل تعشيقة mesh أو شَعيريّة lattice الكريستال، حيث كل عُقْدة لها عددُ الحوافِّ نفسُه كسائر العُقد الأخرى (يسارًا من أسفل). ويمكن أن تكون الشبكةُ شبكةَ وحدات modular؛ أىْ يمكن تقسيمها إلى عدد من التجمُّعات المنفصلة رغم ترابطها معًا بعدد قليل من الحوافِّ التجسيرية (يمينًا من أسفل).

ومن الممكن أيضًا أن تكون الشبكةُ غيرَ متجانسة، فتتفاوت كلُّ عُقْدة فيها تفاوتًا كبيرًا من حيث الأهمية التمَرْكزيّة، كالشبكات حُرّة النطاق التى تُميّزُ الجماعات على الإنترنت (يسارًا من أعلى). وبعضُ الشبكات هَرَميّةٌ وذاتُ وحدات، كالنُّظُم الجينية المُعَقدة التى تُنظِّمُ عمليات التمثيل الغذائى [الأيْض] ، والتي توجد فيها نُظُمٌ فرعية تحت سيطرة نُظُم أخرى (يمينًا من أعلى)[145].

يمكننا الآن بشكل واضح فَهْم أن التسلسل الهَرَمى - وبعيدًا عن كوْنه نقيضَ الشبكة - هو مجرد نوع خاص من أنواع الشبكة. فكما يُبَيّنُ الشكلُ 9، الحوافُّ فى شبكة هَرَميّة مثالية تتبع نمطًا منتظمًا، كنمط الشجرة المقلوبة (أو جذور الشجرة). لبناء شبكة هَرَميّة، ابدأ بعُقْدة عُليا، وأضِفْ عددًا معيّنًا من العُقد التابعة.

وإلى كل عُقدة تابعة أَضِفْ عدد العُقد التابعة ثانيةً، وهكذا. المفتاح هو الإ ضافة الدائمة لعُقدٍ من الأسفل، ولكن لا تقُمْ أبدًا بتوصيل العُقد أفقيًا. الشبكات المَبْنيّة بهذه الطريقة لها خواصٌّ محددة. إذ لا توجد دورات، بمعنى أنه لا مسار يخرج من العُقدة عائدًا إليها. ثمة مسار واحد فقط يربط بين أى عُقْدتين، الأمر

الذى يوضح سلاسل القيادة [السيطرة] والاتصال. الأهمُ أن العُقدَة العُليا تنطوى على تمركزية بَيْنية وتمركزيةِ تجاورٍ أعلى: أىْ يُصَمّمُ النظامُ ليزيد من قدرة العُقْدة على الوصول إلى المعلومات والتحكم فيها معًا، بأقصى ما يمكن. وكما سنرى، تُحقِقُ تسلسلاتٌ هَرَميّة قليلةٌ هذه السيطرةَ الكلية على تدفُق المعلومات، وقد اقترب الاتحاد السوفييتى فى عهد ستالين Stalin من ذلك. معظمُ التنظيمات هَرَميّةٌ فى الممارسة العملية، جزئيًا فقط، وتُشْبِه «التسلسلاتِ الهَرَميّةَ التعاونية» فى العالم الطبيعى[146]. ومع ذلك، من المفيد التفكير فى التسلسل الهَرَمى البحت بوصفه «مُناهِضًا للعشوائية» بمعنى ما؛ حيث تُحْظَرُ فيه الاتصاليةُ غير الشرعية [الاختراقية] المرتبطة بالشبكات، كما يُحْظَرُ فيه قبل كل شيء التجمُعُ أو التكتل.



الشكل رقم: 9 - التسلسل الهَرَمي نوع خاص من الشبكات. في المثال الموضّح هنا، العُقدة في القمة تمتلك أعلى تمركزية بينية وأعلى تمركزية قُرْب أو تجاور. ويمكن للعُقد الأخرى أن تتواصل مع معظم العُقد الأخرى من خلال هذا المحور الحاكم.

ينبغى ألا يُنْظَرَ إلى أصناف الشبكة تلك، بوصفها تصنيفات جامدة [إستاتيكية]. فالشبكات نادرًا ما تتجمّد بمرور الوقت. الشبكاتُ الكبيرة أنظمةٌ معقدة، تنطوى على «خواص طارئة»؛ فالأبنيةُ والأشكال والخصائص الجديدة تميل إلى التعبير عن نفسها من خلال «نقلات مرحلية» لا يمكن التنبوء بها. وكما سنرى، يمكن لشبكة عشوائية أن تتطور بسرعة مذهلة إلى شبكة هَرَميّة. فعدد الخطوات بين الحشد الثورى والدولة التوتاليتارية [الشمولية][129] totalitarian state ثَبَتَ، أكثر من مرة، أنه عدد قليل بشكل مذهل. وعلى المنوال نفسه، أبنية النظام الهَرَمى الصلبة [الجامدة] تتفكّك بسرعة مذهلة[147]. ولا يصدم هذا دارسي الشبكات.

فنحن نعرف الآن أن إضافة عدد جِدِّ صغير من الحوافِّ الجديدة، بشكل عشوائى، يُقلِّلُ بشكل كبير معدّلَ الانفصال بين العُقد. ليس مطلوبًا الكثيرُ من الحوافِّ الإضافية فى (الشكل رقم9) لتدمير احتكار العُقدة الحاكمة للتواصل. ويساعد ذلك على تفسير السبب فى أن الأباطرة والملوك، خلال التاريخ، يَقلَقون من المؤامرات.

---

[129] الدولة التوتاليتارية أو الشمولية: تتبنّى نظامًا سياسيًا تندمج فيه الدولةُ بالحياة الوطنية كلها، فتسيطر بشكل صارم على جميع الأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية و الثقافية والدينية والنقابية، فى إطار أحادية السلطة وأحادية رؤية العالم، مع استعمال التقنيات الحديثة فى مجالات التنظيم والاتصال والإدارة. وانطلاقًا من هذا المفهوم، ينبغى على الفرد أن يذوب فى الكل، أىْ فى الدولة التى تشكل جسمًا كليًا مكونًا من مجموعة الخلايا أىْ من الأفراد. وينطبق مفهوم التوتاليتارية على النظام النازى والفاشى، وأحيانًا على الأنظمة الشيوعية - المترجم.

العُصَب [أو الجَمْعيّات السريّة][130] cabals، وبطانة المستشارين camarillas و الخلايا cells والزُمَر cliques والشِّلل coteries: كل هذه الكلمات لها دلالاتٌ شِرِّيرةٌ فى سياق البلاط المَلَكى. لقد أدرك الهَرَميون [الهيراركيون] hierarchs منذ وقت طويل أن التآخى بين الأتباع يمكن أن يكون مقدمةً لانقلاب القصر[131] palace coup.

[130]الكِبال أو العُصْبَة أو الجمعية السرية: مجموعة صغيرة من الناس متّحِدة عبر تنظيم وثيق، تُرَوّجُ عادةً لوجهة نظرها الخاصة أو اهتمامات أيديولوجية معينة، عن طريق المؤامرات غالبًا. ولا يكون أفراد العُصْبة أو التنظيم معروفين لغيرهم. يحمل استعمال هذه الكلمة دلالات سلبية ذات غرض سياسي وتآمري - المترجم.

[131]انقلاب القصر: إزالة رأس السلطة باتفاق مجموعة من العاملين معه، وفى الغالب لا تصحبه اضطراباتٌ اجتماعية - المترجم.

8

عندما تلتقي الشبكات

التحدِّى المفاهيمى الأخير - والأهمُّ عند المؤرّخ - هو النظر فى كيفية تفاعل شبكات مختلفة إحداها مع الأخرى. افْتَرَضَ العالِمُ السياسى جون بادجيت John Padgett، ومشاركوه فى التأليف، وجودَ تناظر بيوكيميائى، مجادلين بأن التجديدَ التنظيمى والابتكار كليهما نتاجُ التفاعل بين الشبكات، ويتخذ ثلاثة أشكال رئيسية: «التحويل أو التعديل»، «إعادة التوظيف»، «التحفيز»[148]. الشبكة الاجتماعية المرنة ستميل ميلاً تلقائيًا إلى مقاومة تغيير قواعدها الإنتاجية وبروتوكولات الاتصال. أما حين تُنْقلُ شبكةٌ اجتماعية وأنماطها، من سياق كي يُعادَ توظيفها في سياق آخر، فسيحدث التجديد بل الابتكار[149].

وقد استعمل بادجيت هذه الفكرة، كما سنرى، لشرح التغيُّرات فى بنية مدينة فلورنسا Florence الاقتصادية والاجتماعية فى عهد آل ميديتشى[132] Medici، عندما أُدْمِجَت الشَرَاكات المَصْرفية فى سياسة المدينة. ومن الواضح أن لفكرة بادجيت تطبيقات أعمّ. الشبكات مُهِمّة لا بوصفها آليات نقل أفكار جديدة فقط، بل بوصفها مصادر الأفكار الجديدة نفسها. ولكن ليست كلُّ الشبكات حاضنةُ تغيير؛ إذ تميل بعض الشبكات ذات الكثافة التجميعية إلى مقاومة التغيير. ولكن نقطة الالتقاء بين شبكات متنوعة هى المحل المناسب للبحث عن الجِدّة[150]. السؤال هو ما طبيعة نقطة الالتقاء تلك. ربما تتلاقى الشبكات وتنصهر سِلميًا، ولكنها قد تهاجم إحداها الأخرى أيضًا، كما حدث (فى مثال سيُناقَشُ أدناه) حين نجحت المخابرات السوفييتية فى اختراق شبكات طلبة جامعة كمبريدج فى ثلاثينيات القرن العشرين. فى تنافسات من هذا النوع، الذى سيُحدِّدُ النتيجةَ نقاطُ القوة والضعف، النسبية، فى الشبكات المتنافسة. ما مدى قابليتها للتكيُّف والمرونة؟ ما مدى قابليتها للتأثُّر بعَدْوَى مدمِّرة؟ ما مدى تعويلها على واحد أو أكثر من «المحاور الفائقة»، وتدمير أو ا

---

[132] آل ميديتشى: أحد أشهر عائلات فلورنسا فى إيطاليا التى لعبت الدور الأهمّ اجتماعيًا وسياسيًا وثقافيًا بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر. كان أفراد العائلة فى الأصل تجار صوف، ثم عملوا فى القطاع المَصْرفى فاكتسبوا ثروةً طائلة وسُلطة واسعة، فكان مَصْرفُ ميديتشى أحدَ أكثر المصارف احترامًا وازدهارًا فى أوربا. اكتسبت العائلةُ السلطةَ السياسية فى فلورنسا بادئ الأمر ثم على نطاق أوسع فى إيطاليا وأوربا. باستثناء فترات قصيرة حَكمَ آل ميديتشى فلورنسا من عام 1434 حتى عام 1737. كما اشتهر آل ميديتشي برعايتهم للفن والفنانين - المترجم.

لإمساك بما يقلل من استقرار الشبكة ككل؟ قام باراباسى وزملاؤه بمحاكاة هجمات على شبكات حُرّة النطاق فوجدوا أنها تستطيع الصمود أمام خسارتها لجزء كبير من العُقد أو لمحور واحد. أما الهجوم الاستهدافى على محاور متعددة فيَهْدِمُ الشبكةَ تمامًا[151]. بل الأكثر دراميةً من هذا، أن الشبكة حُرّة النطاق تسقط بسهولة تامة ضحية فيروس مُعْدٍ يفتك بالعُقد[152].

لكن لماذا تهاجم شبكةٌ شبكةً أخرى، بدلاً من أن تتصل بها اتصالاً سِلْميًا؟ ا لإجابة هى أن معظم الهجمات على الشبكات الاجتماعية لا تبدأ من قِبل شبكات أخرى، بل تُؤمَرُ [بالهجوم]، أو على الأقل تُشَجّعُ عليه من قِبل كيانات هَرَميّة. ويُعَدُّ التدخُّل الروسى فى انتخابات عام 2016 الأمريكية مثالاً نموذجيًا على هذا: طبقًا للمخابرات الأمريكية - كما ذكرنا أعلاه - كان التدخُّل بإذن من الرئيس بوتين Putin، أحد الحكام الأوتوقراطيين الأكثر تبجُّحًا فى العالم، ولم يُوَجّه التدخُّلُ إلى اللجنة الوطنية الديمقراطية Democratic National Committee فحسب، بل إلى مُرَكّب شبكات الميديا الأمريكية بأكمله. وهذا يوضح الفرق الأساسى بين الشبكات والتسلسلات الهَرَميّة. ف الشبكات بسبب بنيتها اللامركزية نسبيًا، وبسبب طريقتها فى المزج بين التجميع والروابط الضعيفة، ولأنها تستطيع التكيُّف والتطوُّر، تميل إلى الإ بداعية أكثر من التسلسلات الهَرَميّة. ومن الثابت تاريخيًا، كما سنرى، أن الا بتكارات تتولدُ من الشبكات أكثر مما تتولدُ من التسلسلات الهَرَميّة. المشكلة هى أن الشبكات لا تُوجّه بسهولة «نحو هدف مشترك... وهو ما يتطلب تركيز الموارد مكانيًا وزمانيًا داخل تنظيمات كبيرة كالجيوش والبيروقراطيات و المصانع الكبيرة والشركات ذات التنظيم الرأسي»[153].

الشبكاتُ إبداعيةٌ بشكل عَفْوى ولكنها ليست إستراتيجية. الحرب العالمية الثانية the Second World War لم تفُزْ فيها شبكةٌ، حتى وإنْ لعبت شبكاتٌ فائقة (شبكات علماء الذرة أو التشفير) دورًا مهمًا فى انتصار الحلفاء Allied. ليس هذا فحسب، بل إن الشبكات قادرة على إبداع الأفكار السيّئة ونَشْرها كقدرتها على إبداع الأفكار الجيدة ونَشْرها سواء بسواء. فى حالات العَدْوَى ا لاجتماعية أو «اندفاعات» الأفكار، يمكن للشبكات نَشْر الهَلَع والرُّعب بالسهولة التي تستطيع بها توصيل حِكْمة الحشود wisdom of crowds:

تجْزع من أجل حَرْق الساحرات بالسهولة نفسها التى تتهوّس بها من أجل صور القطط.

صحيحٌ أن شبكات اليوم مُصمّمة بشكل أفضل من شبكة الكهرباء الأمريكية فى تسعينيات القرن العشرين التى كانت هشّةً جدًا إلى درجة أنْ تسبّبَ فشلُ خطِّ طاقةٍ واحد، غرب ولاية أوريجون Oregon، فى تعثُّر مئات من الخطوط

والمُولِّدات. ولكننا نعرف أنه حتى الشبكة القوية يعتريها خللٌ وظيفى كلما نَمَتْ وتطوّرت:

الازدحام وحالات التأخير المعتاد فى المطارات الأمريكية يُعَدُّ مثالا ً على ذلك، حيث تتنافس شركات الطيران على محاور الخدمة، ولكنها تنتهى إلى عَرْقلتها[154]. ولو نَحَّيْنا الإنترنت تمامًا، فلا شك فى أن هجومًا يستهدف البنيةَ التحتية للنقل والكهرباء فى الولايات المتحدة سيكون له عواقب تخريبية مدمِّرة. وكما قالت إيمى زيجارت[133] Amy zegart، الولايات المتحدة هى الفاعل الأقوى والأضعف، فى آنٍ معًا، على مسرح حربٍ إلكترونية [سايْبرانية]. وتُحذِّرُ قائلةً إن «تهديدات الغد الإلكترونية ستَشُلُّ السيارات التى نقودها و الطائرات التى نركبها، وستقطع الطاقةَ أو المياه عن المدن فى جميع أنحاء البلاد لأيام أو أسابيع أو أكثر، ويمكن أن تُصيب جيْشَنا بالعَجْز أو حتى تُحوّل أسلحتَنا ضدنا»[155]. ولكن الولايات المتحدة «تبدو غير مستعدة للاعتراف بالحقائق الأساسية فى التكنولوجيات الإلكترونية الجديدة أو هشاشتنا الإلكترونية، ناهيك عن اتخاذ التدابير الضرورية لرَدْع هجمات مستقبلية و الدفاع»[156]. وباءُ مايو عام 2017، حين أصاب هجوم واناكراى الإلكترونى[134] «WannaCry «ransomware» مئات الآلاف من الحواسيب فى 150 دولة، إذ شَفّرَ محركات الأقراص الصلبة hard drives مُطالِبًا بدَفْع فدية بعُمْلة بيتكوين Bitcoin - هذا الهجوم فَضَحَ هشاشةَ البلاد الأوربية، بل، ويا لسخرية القدر، هشاشة روسيا أيضًا، أمام الهجمات الإجرامية.

والحقيقة أنه من الصعب استكناه آثار نمو الشبكات فى زمننا الحالى. ففى كل مقالة تُمجِّدُ تأثيراتِها الإيجابيةَ من حيث تمكين الشباب وتنشيط الديمقراطية - مثلا ً، الثورات العربية منذ عام 2010 حتى عام 2012 - كان ثمة تحذير آخر من تأثيراتها السلبية المتعلقة بتمكين قوى خَطِرة كالإسلام السياسى مثلا ً. وكلُّ كتاب يُبَشِّرُ ب«وحدة فريدة» حيث ينشأ من الإنترنت «دماغ عالمى» أو «كائن خارق كوكبى»[157]، توجد فيه نبوءةٌ أخرى بالانهيار والانقراض[158].

تتوقع آن مارى سلوتر أن «الولايات المتحدة، وقوى أخرى، ستكتشف تدريجيًا

---

[133]إيمى زيجارت: من مواليد عام 1967، أكاديمية أمريكية، تعمل مديرةً مُشاركة لمركز الأمن والتعاون الدولى بجامعة ستانفورد، وأستاذة الاقتصاد السياسى فى كلية الدراسات العليا للأعمال بالجامعة نفسها - المترجم.

[134]هجوم واناكراى الإلكترونى: هجوم ببرمجية الفِدْية، بدأ فى الساعات الأولى يوم 12 مايو عام 2017. ويُسمّى أيضًا فيروس الفِدْية، لأنه يقوم بتشفير جميع البيانات على الحاسوب مع رسالة تفيد بوجوب دفع فِدْية مقابل الإفراج عن البيانات المشفرة - المترجم.

المعنى الذهبى لقوة الشبكة: ليست مُركزة جدًا وليست مُوزّعة جدًا»، وتتطلع إلى ظهور «نظام أكثر تسطُحًا [أفقيةً] وأسرع وأكثر مرونةً، نظام يعمل على مستوى المواطنين وكذلك الدول»[159].

قبل [هجمات] 9/11، كان جراهام أليسن[135] Graham Allison يكتب واثقًا نسبيًا فى أن الولايات المتحدة ستحوز أفضلية ذاتية فى عالم الشبكات المُعَوْلَمة[160]. أما جوشوا رامو فأقل تفاؤلا ً بكثير، إذ يقول: «الفكرة البسيطة التى كانت جذّابةً يومًا، أن الاتصالَ تحريرٌ، هى فكرةٌ خاطئةٌ». «الاتصال الآن معناه غِشاء من التوتر الحاد الديناميِ».

عَجْزُ القادة الكبار القدامى عن فَهْم عصر الشبكة Network Age هو «السبب فى شرعيتهم... وهو الفشل، هو السبب فى أن إستراتيجيتنا الكبرى غير متماسكة، وهو السبب فى أن عصرنا ثورىٌ حقًا». ويرى أن «التهديد الأساسى للمصالح الأمريكية لا يأتى من الصين أو تنظيم القاعدة أو إيران، بل من تطوُّر الشبكة بحد ذاته»[161].

يبدو أن هناك توافقًا فى الآراء من ناحية واحدة فقط: قِلَةٌ من علماء المستقبليات يتوقعون نجاح التسلسلات الهَرَميّة المستقرة - ولا سيما النُخَب السياسية التقليدية، بل الشركات المستقرة منذ فترة أيضًا - بشكل جيد جدًا فى المستقبل[162]. ويقول فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama، بشكل غير معتاد، إن التسلسل الهَرَمى لا بد أن يسود فى نهاية المطاف، لأن الشبكات بمفردها لن تستطيع توفير إطار مؤسّسى مستقر للتنمية الاقتصادية أو النظام السياسي. ويقول:

بل «التنظيمُ الهَرَمىُ... هو الطريقة الوحيدة التى يُنَظّمُ بها مجتمعٌ منخفض الثقة[136] trust society-low »[163].

وفى المقابل، يفترض السياسى البريطانى المتمرّد دومينيك كامينجز[137] Dominic Cummings أن دولة المستقبل ستضطر إلى الاشتغال بطريقة نظام

---

[135] جراهام أليسن: من مواليد عام 1940، أستاذ علوم سياسية أمريكى بجامعة هارفارد. اهتم منذ سبعينيات القرن العشرين بتحليل سياسة الأمن القومى والدفاع الأمريكية، مع اهتمام خاص بالأسلحة النووية والإرهاب - المترجم.

[136] مجتمع منخفض الثقة: مجتمع تكون فيه الثقة بين الأشخاص منخفضة نسبيًا، حيث لا يتشاركون فيما بينهم أية قيم أخلاقية - المترجم.

[137] دومينيك كامينجز: من مواليد عام 1971، مستشار سياسى وإستراتيجى بريطانى. أدار حملةَ التصويت على مغادرة المملكة المتحدة للاتحاد الأوربي Vote Leave - المترجم.

المناعة البشرية أو مستعمرة النمل أكثر مما ستضطر الدولة التقليدية. أىْ، الا شتغال بطريقةِ شبكةٍ ذات خواصٍّ طارئة، وقدرة على التنظيم الذاتى، دون خطط أو تنسيق مركزى، بالاعتماد على احتمالية التجريب وتعزيز النجاح ونَبْذ الفشل، وتحقيق مرونة نوعًا ما من خلال الوَفْرة[164]. ربما يكون هذا تقليلا ً من شأن مرونة التسلسلات الهَرَميّة القديمة ومواطن ضعف الشبكات الجديدة على السواء، ناهيك عن قدرتها على الانصهار لتشكيل أبنية سُلطة أجدّ، تتسم بقدرات أكبر حتى من قدرات دول القرن الماضى التوتاليتارية [الشمولية].

9

سَبْعُ بصائر

«أفكار ثاقبة»

وإذن، بالنسبة إلى المؤرّخ، تنطوى استبصارات نظرية الشبكة بكل صورها وأشكالها على آثار عميقة. وقد حاولتُ تلخيصها فى سبعة عناوين على النحو الآتي:

1/ ليس الإنسان جزيرة ً.

حين يُنْظَرُ إلى الأفراد بوصفهم عُقدًا فى شبكات، يمكن فُهْمُهم من حيث علاقاتهم بالعُقد الأخرى: الحوافّ التى تربط بينهم. وليست كلُّ العُقد متساويةً. فالفرد من حيث موقعه فى الشبكة، يمكن تقييمه لا بدرجة تَمَرْكزيّة العُقْدَة (عدد علاقاتها) فقط، بل بتَمَرْكزيّتها البَيْنية أيضًا (احتمال كوْنها جَسْرًا بين عُقد أخرى). (وتشمل المقاييس الأخرى مقياس التمركزيّة المُتّجِهة ذاتيًا[138]، الذى يقيس قُرْبها من عُقد عالية الاتصال أو ذات اعتبار، ولكن هذا لن يظهر فيما يأتى[165]). وكما سنرى، المقياس المهم الذى يقيس أهمية الفرد التاريخية، ولكنه مقياس مُهْمَلٌ، هو مدى كوْن هذا الفرد جَسْرًا شبكيًا. ويتضح أحيانًا، كما فى حالة الثورة الأمريكية American Revolution، أن الأدوار الحاسمة لا يلعبها القادة بل الروابط connectors.

2/ الطيور على أشكالها تقع.

بسبب الهوموفيلى [المَيْل إلى المُماثِل والمُطابِق]، يمكن فُهْم الشبكات الاجتماعية، إلى حد ما، من حيث الانجذاب إلى الشبيه. ومع ذلك، ليس بديهيًا دائمًا أن تُؤدّى الصفات المشتركة أو التفضيل المشترك إلى تجميع الناس معًا. وعلاوة على ذلك، يجب أن نكون واضحين بشأن طبيعة روابط الشبكة. هل الروابطُ بين العُقد علاقاتُ معارفٍ أم تقاهُم؟ هل ننظر فى شجرة عائلة أم دائرة أصدقاء أم تنظيم سِرّى؟ هل يُتَبَادُلُ شىءٌ آخر سوى المعرفة - مال أو غيره من الموارد مثلا ً- داخل الشبكة؟ لا يوجد رسم بيانى لشبكةٍ يمكنه تبْيين حقيقة ثراء تعقيد التفاعلات الإنسانية، لكننا نعرف أحيانًا ما يكفى

---

[138] التمركزية المتجهة ذاتيًا eigenvector centrality: اتصال العُقدة المَعْنية بعُقد عالية الاتصال، الأمر الذى يجعلها ذات تمركزية أعلى من حالة اتصالها بعُقد منخفضة الاتصال - المترجم.

للتمييز بين اتجاهات الحوافِّ (مثلا ً، «أ» يعرف «ب»، ولكنه ينام مع «س»)، وأوزانها (مثلا ً، «أ» يقابل «ب» أحيانًا، ولكنه يرى «س» كل يوم).

3/ الروابط الضعيفة قوية ً.

من المهم أيضًا مدى كثافة الشبكة، وطريقة اتصالها بتكتلات أو تجمُّعات أخرى، حتى لو بوَسَاطة عدد قليل من الروابط الضعيفة.

وهل هى مُكوّن فى شبكة أكبر؟ وهل توجد «عوازل شبكية»، أىْ عُقد «تفصل الشبكة» تمامًا مثل [الإنسان] المُسْتوحِش لدى برنز Burns؟ وهل هناك وُسَطاء يسعون إلى استغلال ثغرات بنيوية فى الشبكة؟ هل الشبكة تعرض خصائصَ «عالَم صغير»، وإذا كان كذلك فكيف يكون هذا العالَمُ صغيرًا (أىْ ما عدد درجات الانفصال التى توجد بين العُقد)؟ وعلى أىِّ نحوٍ تكون الوحدات التى تُكوّن بنيةَ الشبكة؟

4/ البنية تحدد سرعة الانتشار [فيروسية الانتشار].

لا يزال العديد من المؤرّخين يميلون إلى افتراض أن انتشار فكرة ما، أو أيديولوجيا، هو وظيفة [دالّة] محتواها الأصيل فى سياق محدد، غامض نوعًا ما. ومع ذلك، لا بد من الاعتراف بأن بعض الأفكار تنتقل فيروسيًا بسبب خصائص بنيوية فى الشبكة التى تنتشر عَبْرها. ومن المحتمل أنها أقل انتشارًا فى الشبكة الهَرَميّة المحكومة من أعلى إلى أسفل، حيث تُحْظَرُ روابط النِّد للنِّد peer- to -peer الأفقية [تُحْظَرُ الروابط الأفقية وليست الرأسية أحادية ا لاتجاه].

5/ الشبكات لا تسكن أو تنام.

الشبكات ليست إستاتيكية بل دينامية. وسواء كانت عشوائيةً أم حُرّةَ النطاق فهى عُرْضة لانتقالات مرحلية. إذ يمكنها أن تتطوّرَ إلى أنظمة متكيّفة معقدة ذات خواصٍّ ناشئة. فحدوث تغييرات جِدِّ صغيرة - كإضافة بضع حوافٍّ فقط - يُغيِّر سلوك الشبكة تغييرًا جذريًا.

6/ الشبكات تتشابك.

عندما تتفاعل الشبكات تكون النتيجةُ تجديدًا وابتكارًا. وعندما تُعطِّلُ شبكةٌ تسلسلا ً هَرَمَيًّا متحجِّرًا، يمكنها الإطاحة به بسرعة التقاط الأنفاس. وحين يُهاجِمُ تسلسلٌ هرميٌّ شبكةً هشّة تكون النتيجةُ انهيارَ الشبكة.

7/ الغني يصبح أغنى.

بسبب الإلحاق التمييزى [أو التفضيلى]، لا تُحقِّق معظمُ الشبكات الاجتماعية المساواةَ على نحو عميق.

حين نفهم هذه الاستبصارات الجوهرية فى علم الشبكة، سيبدو تاريخُ البشرية مختلفًا تمامًا: ليس أن «شيئًا سخيفًا وراء شىء سخيف آخر»، بِ التعبير المضحك لدى الكاتب المسرحى ألان بينيت[139] Alan Bennet[166]، ولا حتى شىء واحد وراء شىء سخيف، بل إن مليارات الأشياء يرتبط أحدها با لآخر، بطرق لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى (ومنها الاتصال الجنسى، وهو ليس وحده إطلا قًا في ذلك).

وعلاوة على هذا، عندما يوضع الزمن الراهن فى سياقه التاريخى الصحيح، سيبدو غيرَ سابق على نحو أقل إثارة للأعصاب وأكثر ألفة. وكما سنرى، فى عصر الويب الثاني، الذى تتَحدّى فيه شبكاتٌ جديدةٌ المؤسساتِ الهَرَميّةَ العتيقة، يَتضخّمُ تأثيرُها بوَسَاطة التكنولوجيا الجديدة. وعلى أساس القياس التاريخى، كما سيتضح، سنتوقع، ربما، تعطيلا ً مستمرًا تقوده الشبكاتُ للتسلسلات الهَرَميّة التى لا تستطيع إصلاح نفسها، لكن ثمة أيضًا احتمال استعادة النظام الهَرَمىّ حين يتضح أن الشبكات بمفردها لا يمكنها تفادى السقوط في الفوضى [الأناركية] anarchy.

---

[139]ألان بينيت: من مواليد عام 1934، ممثل وكاتب سيناريو وكاتب مسرحى وكاتب يوميات بريطاني - المترجم.

10

المتنورون ينورون

حين نضع نصب أعيننا استبصارات نظرية الشبكة، نستطيع إعادة النظر فى تاريخ المُتنوِّرين [إلِوميناتى] (ليس على طريقة نظرية المؤامرة). كان مُؤسِّس التنظيم، فى حقيقة حاله، أكاديميًا مغمورًا من جنوب ألمانيا يُدْعَى آدم فايسهُبت Adam Weishaupt. كان عُمْره ثمانية وعشرين عامًا عندما أسّسَ التنظيم. وُلِدَ فايسهُبت عام 1748، ابنًا يتيمًا لأستاذ قانون فى جامعة إنجولشتات في وسط بافاريا.

وبفضل رعاية البارون جون آدم إيكستات[140] Baron Johann Adam Ickstatt الذى عيّنه رئيسًا للجامعة الناخبُ ماكسميليان الثالث جوزيف[141] Maximilian III Joseph بأمر رسمى لإصلاح الجامعة التى يهيمن عليها اليسوعيون[142] Jesuit، استطاع فايسهُبت أن يسير على خطى والده. ففى عام 1773، عُيِّن أستاذ قانون كنسى canon law، [كما كان والده]، ثم بعد عام صار عميدًا لكلية القانون[167].

ما الذى دفع البروفيسور الشاب، بعد ثلاث سنوات، إلى تأسيس جمعيّة سِرِّية، ومن نواحٍ عديدة، ثورية؟ الإجابة هى أنه بتأثير من إيكستات، أصبح فايسهُبت قارئًا متحمّسًا لأعمال أكثر الفلاسفة راديكاليةً فى التنوير الفرنسى French Enlightenment، ولا سيما كلود أدريان هِلفتيوس[143] Claude

---

[140]البارون جون آدم إيكستات: (1702 - 1776)، مثقف ألمانى ومدير جامعة إنجولشتات، أحد أكبر مؤيّدي حركات الاستنارة في بافاريا، والأب الروحي لآدم فايسهُبت - المترجم.

[141]ماكسميليان الثالث، ناخب بافاريا: (1727 - 1777)، تولى منصبَ أمير ناخب، وهو منصب فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة أوجبه المرسومُ الذهبى الذى يقضى بوجود عدد محدود من الأمراء يشكلون المَجْمَعَ الانتخابى الذى أُسْنِدَ له منذ القرن الثالث عشر انتخابُ الإمبراطور الروماني المقدس - المترجم.

[142]اليسوعيون أو الرّهْبنة اليسوعية: إحدى أهم الرهبانيات الفاعلة فى الكنيسة الكاثوليكية ، تأسّست على يد القديس إغناطيوس دي لويولا فى القرن السادس عشر فى أسبانيا أيام البابا بولس السادس، بوصفها جزءًا من الإصلاح المضاد. تُعَدُّ من أقوى تنظيمات الكنيسة الكاثوليكية المؤثرة. اصطدمت أواخر القرن الثامن عشر ببعض السلطات الأوربية، الأمر الذى أدّى إلى حلِّها عام 1773، وهو القرار الذى أُلغِى عام 1814 على يد البابا بيوس السابع. يقع مركزها الرئيسي في روما، وتتبع نمط الإدارة اللامركزية - المترجم.

[143]كلود أدريان هلفتيوس: (1715 - 1771)، فيلسوف وموسوعى فرنسى، له نظرية تقول إن كل الناس وُلِدوا بقدرات متساوية، ولكن ظروف التربية والتعليم تجعلهم متفاوتين.

Adrien Helvétius، وكتابه الأشهر بعنوان «عن الروح» De l'esprit (1758)، وبول أونرى تيرى[144] Henri Thiry-Paul مؤلِّف كتاب «نظام الطبيعة» Le Système de la nature (1770) باسمه المستعار بارون دولباخ Baron d'Holbach. حين كان فايسهُبت صبيًا تعلم على يد اليسوعيين، وهى تجربة لم تكن ممتعة له. لقد أثارته، بدرجة كبيرة، الميولُ الإلحادية لدى هلفتيوس ودولباخ. ولكن فى بافاريا المُحافِظة، حيث يُحَرّضُ رجالُ الدين الكاثوليك الرومانيون على «مُناهَضة التنوير» Enlightenment-counter ، كانت الآراءُ من هذا النوع الإلحادى خَطِرةً. كان فايسهُبت الشاب الذى مُنِحَ كرسيًا [فى الجامعة] - احتكره فيما مضى اليسوعيون [الجيزويت] - يعيش تحت ضغط. لذا، بَدَتْ فكرةُ تأسيس جمعيّة سِرّية، تُخْفى أهدافُها الحقيقية حتى عن أعضائها الجُدُد، فكرةً منطقيةً. وقد قال فايسهُبت نفسه إنه تلقّفَ الفكرةَ من طالب بروتستانتى يُسَمّى إرنست كريستوف هينينجر Ernst Christoph Henninger، تحدّثَ معه عن الجَمْعيّات الطلابية فى يينا Jena وإرفورت Erfurt وهالي Halle ولايبزيج Leipzig، حيث دَرَسَ سابقًا[168].

وعلى نحو فيه مفارقة، تَشَكّلَ المُتنوّرون على غرار اليسوعيين، واليسوعيةُ شبكةٌ قوية وبعيدة عن الشفافية فُكّكها البابا كليمنت الرابع عشر Pope Clement XIV عام 1773. المُخطّطُ الأوّلى لدى فايسهُبت كان «مدرسةُ الإنسانية» A School of Humanity، مُتصوّرًا أنْ يحتفظ كل عضو بدفتر يوميات يُدوِّن فيه أفكارَه ومشاعرَه، ثم يرفع لرؤسائه موجزًا عنه؛ كما ستوجد مكتبةٌ ورعاية صحية وتأمين أو حماية، وغيرها من الفوائد للأعضاء[169]. لو وصفنا طريقة تفكير فايسهُبت بأنها انتقائية فسَنَبْخَسُه حقه؛ إذ اشتملت خططه الخاصة بالتنظيم، أيضًا، على عناصر من أسرار إليوسيس اليونانية[145] Greek Eleusinian mysteries القديمة، وعناصر من

سبّبَ له كتابُه «عن الروح» مشاكل مع القساوسة المسيحيين الذين اعتبروا كتابَه مُهَرْطِقًا خطرًا - المترجم.

[144] بول أونرى تيرى: (1723 - 1789)، اسمه المستعار بارون دولباخ، فيلسوف وموسوعى فرنسى ألمانى. عُرِفَ بكوْنه أحدَ روّاد عصر التنوير الفرنسى، كما عُرِفَ بارتياده الصالونات الأدبية وبإلحاده. له عدة كتابات ضد الدين. تأثر ماركس بأفكاره - المترجم.

[145] أسرار إليوسيس اليونانية القديمة: طقوس تُقام كل عام لعبادة ديميتر وبيرسيفونى، وتمثل هذه الأسرارُ أسطورةَ اختطاف بيرسيفونى من والدتها ديميتر على يد ملك العالم السفلى هاديس، وتتجسّدُ فى ثلاث مراحل هى: الهبوط، البحث، الصعود. ظلت هذه الطقوس والاحتفالات والمعتقدات الدينية من الأمور السرّية، فكان يُحَافَظُ عليها بطريقة متشددة منذ العصور اليونانية القديمة، ومنها انتقلت إلى روما. يعتقد بعضُ العلماء أن ممارسة هذه الأسرار كانت تتم من خلال تعاطي مواد تُسبّب الهلوسة - المترجم.

الزّرَادشتية[146] Zoroastrianism (منها استعمال التقويم الفارسى القديم). ثمة مصدر إلهام آخر هو الألومبرادوس [المُتنوّرون الإسبان][147] Alumbrados، وهي حركة روحية في إسبانيا القرن السابع عشر.

لو بقى المُتنوّرون مخلصين لمخطط فايسهُبت الأصلى، لَكُنّا نسيناهم منذ زمن بعيد، ولم يكن ليسمع بهم أحدٌ إطلاقًا. مفتاح نموّهِم، وشُهْرَتهم لاحقًا، جاء من تسلُلهم إلى المحافل الماسونية الألمانية German Masonic lodges. ورغم أن جذور هذه المحافل ترجع إلى أخويّات البَنّائين فى القرون الوسطى، فبحلول القرن الثامن عشر كانت الماسونيةُ Freemasonry نفسها شبكةً سريعة النمو، بدأت فى إسكتلندا وإنجلترا، وقدّمت مَأنَسة[148] ذكورية تمتعت بجو الإثارة والجلال بسبب الميثولوجيا والطقوس التى تُمَارَسُ فيها، حيث تحرّرَ الأعضاءُ من فوارق المكانة الاجتماعية بين الأرستوقراطية و البرجوازية[149]. ثم سرعان ما انتشرت الماسونية فى جميع أنحاء ألمانيا، بما فيها الولايات الألمانية الجنوبية، رغم جهود الكنيسة الكاثوليكية الرومانية Roman Catholic Church لمَنْع الكاثوليك من أن يصبحوا ماسونيين Masons[170]. وكان أن اقترحَ فرانس سافير تسفاك[150] Franz Xaver Zwackh، أحدُ تلامذة فايسهُبت، جَعْلَ المُتنوّرين أعضاء فى المحافل [الماسونية] الألمانية، مستغلا ً الاستياء المتزايد لدى العديد من الماسونيين من حركتهم.

---

[146] الزرادشتية، وتُعْرَفُ أيضًا ب«المجوسية»: ديانة إيرانية قديمة وفلسفة دينية آسيوية. معظم معتنقيها اليوم فى الهند وإيران وأفغانستان وأذربيجان، بالإضافة إلى مهاجرين من هذه المناطق إلى الولايات المتحدة وأوربا وأستراليا وكندا وسنغافورة. يُصَنِّفُها بعض العلماء ضمن الديانات التوحيدية لأن أفكار زرادشت، مؤسِّسها، أدّت إلى تصور وجود إله واحد هو «أهورامازدا» الذى يعنى «الحكمة المضيئة». من المحتمل أن يكون اليهود قد تعلموا بعض الأفكار الزرادشتية خلال السّبْى البابلى، وعلى يدهم انتقلت عناصر زرادشتية إلى الديانات الإبراهيمية، فيما يعتقد علماء الأديان بشكل واسع. كتاب الزرادشتية المقدس يُسمّى «الأفيستا»، وهي كلمة فارسية تعني الأصل أو المتن - المترجم.

[147] الألومبرادوس، أو المتنوّرون الإسبان: جماعة تُمارسُ شكلا ً من التصوف المسيحى فى إسبانيا بدءًا من أواخر القرن الخامس عشر، بعض مذاهبها تتبنّى وجهات نظر هرطقية. قُمِعوا بشدة، فكانوا بعض الضحايا الأوائل لمحاكم التفتيش الإسبانية - المترجم.

[148] المَأنَسَة: حفلة تقام لتوثيق أواصر المودة بين أعضاء جماعة ما - المترجم.

[149] بخصوص مناقشة كاملة للماسونية، انظر الفصل الثاني - المؤلف.

[150] فرانس سافير تسفاك: (1756 - 1843)، عضو مجلس ولاية بافاريا المَلَكى وأول رئيس لمنطقة ولاية بافاريا - المترجم.

أواخر سبعينيات القرن الثامن عشر، انتشر نوع من التذمُّر داخل الماسونية الألمانية German Freemasonry، إذ اعترض بعض الصّفائيين[151] purists على عدم الالتزام بالسرّية وأزعجهم تراجعُ احترام أسطورة انحدار الماسونية من فرسان الهيكل[152] Knights Templar، كما يؤكد «طقس الانضباط الصارم»[153] Rite of Strict Observance[171]. أحد أولئك المُستائين من انحطاط التعاليم الماسونية، الظاهر، إلى مجرد حفلات تناول طعام، لاهية بلا معنى - هو أدولف فرانس فريدريك لودفيج[154] Adolf Franz Friedrich Ludwig، [المُلَقّب ب] بارون فون كنيجه Baron von Knigge، ابن موظف كبير فى هانوفر Hanover، تلقى تعليمَه فى جامعة جوتِنجن Göttingen، والتحق بـ الماسونية منذ عام 1772[172]. طمح كنيجه إلى شىء أحْكم وأسمى مما يُقدّمُ فى المحافل التى تردّدَ عليها فى كاسيل Cassel وفرانكفورت Frankfurt، وهى رغبة أعرب عنها لماسونى أرستوقراطى آخر هو الماركيز كوستانزو دى كوستانزو Costanzo di Costanzo فى عام 1780. وقد أُصيب كنيجه بـ الذهول حين أخبره الماركيز دى كوستانزو بوجود مثل هذا التنظيم النُّخْبوى بـ

---

[151] الصّفائيون، فى هذا السياق، تعنى أشخاصًا يُصِرُّون على الالتزام المطلق بالقواعد والأبنية التقليدية الأصلية - المترجم.

[152] فرسان الهيكل أو فرسان المعبد، المُلقبون أيضًا ب«جنود المسيح وهيكل سليمان الفقراء»: أحد أقوى التنظيمات العسكرية التى تعتنق الفكر المسيحى الغربى، وأثراها وأكثرها نفوذًا، وأحد أبرز ممثلى الاقتصاد المسيحى. دام نشاطهم قرابة قرنين من الزمان فى العصور الوسطى. ذاع صيت التنظيم بعد أن صادقت عليه الكنيسةُ الكاثوليكية حوالى عام 1129. شارك جناحُه العسكرى فى الحملات الصليبية بوصفه إحدى أمهر الوحدات العسكرية وأخطرها. أما جناح التنظيم المدنى فأدار بنيةً تحتية اقتصادية واسعة النطاق فى أنحاء العالم المسيحى الغربى، ويُعْزَى إليه الفضلُ فى ابتكار طرق مالية صارت اللّبنات الأولى لنظام المصارف والبنوك الحديث. فى عام 1307، قام فيليب الرابع ملك فرنسا باعتقال أعضاء التنظيم فى فرنسا ومصادرة ممتلكاتهم وإعدام الكثير منهم. وفى عام 1312، قام البابا كليمنت الخامس، تحت ضغط من الملك فيليب، بحلّ التنظيم. أدّى كل هذا إلى تفكيك التنظيم واختفائه المفاجئ، فانتشرت الأقاويل والأساطير حول ماهيته وأساليبه التنظيمية، الأمر الذي جعل اسمه باقيًا حتى اليوم - المترجم.

[153] طقس الانضباط الصارم: فى القرن الثامن عشر، نشأت هيئةٌ داخل الماسونية أرادت إعادةَ التماسك والتجانس عبر الالتزام بطقس انضباط صارم يُحدِّدُ معاييرَ ترقِّى الأعضاء داخل التنظيم. لذا، يُعَدُّ «طقس الانضباط الصارم» بمثابة هيئة إصلاحية داخل التنظيم - المترج

[154] أدولف فرانس فريدريك لودفيج، بارون فون كنيجه: (1752 - 1796)، كاتب ألمانى ماسوني وعضو بارز في جمعيّة المُتنوّرين - المترجم.

الفعل، وأنه عضو فيه باسم مستعار هو ديوميدس Diomedes. بعد عام 1777 ، وفى محفل ميونيخ Munich «كُنْ حذرًا» Zur Behutsamkeit، بدأ فايسْهُبت يُكرّسُ توصيفًا دقيقًا للمُتنوّرين مُفادُه أنهم «شبكة سرّية وجزء لا يتجزأ من الماسونية... كالنبات الطفيلي»[173].

وقد نشأ تنظيم طفيلى مماثل، أيضًا، هو «الصليب الوردى»[155] Rosicrucianism، وهو حركة أكثر اقتصارًا من تنظيم المُتنوّرين على فئة معينة من الناس، كُتِبَ عنها الكثيرُ فى بواكير القرن السابع عشر، ولكنها اتخذت شكلا ً متماسكًا تحت اسم «الصليب الذهبى والوردى» the Golden and Rosy Cross داخل عدد من المحافل الماسونية الألمانية، فى التاريخ نفسه تقريبًا [أيْ بعد عام 1777].

كان تجنيدُ كنيجه نقطةَ تحوُّل لسببين. الأول أن اتصالاته وارتباطاته أفضل من فايسْهُبت. وثانيًا أن كنيجه يستوعب ما يطمح إليه الماسونيون الأ رستوقراط المماثلون له فى التفكير[174]. كنيجه الذى تَسمّى باسم فيلو Philo بعد انضمامه إلى المُتنوّرين، رَوّعَه اكتشافُ مدى بدائية خلايا التنظيم (وكذلك مدى تراجع بافاريا حين زارها)[175]. وقد اعترف له فايسْهُبت بصراحة قائلا ً: «إن التنظيم لم يُوْجَدْ بعد إلا فى ذهنى... فهَلّا غفرت لى خُدْعتى الصغيرة تلك؟». لم يغفر كنيجه لفايسهُبت فقط، بل استحوذ على المبادرة بحماسة، متصوّرًا المُتنوّرين أداةَ إصلاح جذرى للماسونية نفسها[176]. فقام بتنقيح جذرى للهيكل التنظيمى الذى تَصَوّرَه فايسْهُبت، وتوسيعه بتقسيمه إلى ثلاث مراتب أو طبقات من المُتنوّرين، وإضافة قدر كبير من الطقوس الماسونية. فقسّم طبقة المينرفال الابتدائية إلى درجتين:

المينرفال Minerval والمينور المُتنوّر Illuminatus Minor.

وقسّم الطبقة الماسونية الثانية إلى درجتين أيضًا: ميجور مُتنوّر Illuminatus major أو «المبتدئ الإسكتلندى» Scottish Novice، وقادة المُتنوّر Illuminatus drigines أو «الفارس الإسكتلندي» Scottish Knight.

أما الطبقة السرّية الثالثة فزادت درجاتها إلى «درجة الأسرار الأدنى» Lesser

---

[155]الصليب الوردى، أو روزا كروز، أو الروزيكروشيون: تنظيم سرّى عُلِمَ بوجوده لأول مرة أوائل القرن السابع عشر، يزعم أعضاؤه أنهم يمتلكون حكمةً سِرّية مقتصرة على قِلّة منهم، وأن هذه الحكمة انحدرت إليهم من عهد موغل فى القِدَم، وأن مُنْشِئ جمعيّتهم فارسٌ ألمانى زار عددًا من بلدان الشرق، وعلى وجه التحديد سوريا ومصر والمغرب، فاقتبس منها الأساليب السرّية فى التنظيم. من أهداف هذا التنظيم الكبرى مساعدة البشرية على التطور الروحى. رمْزُه إكليلٌ من الورد بداخله صليب، يرمز الورد إلى الروح، والصليب إلى المادة - المترجم.

Mysteries (درجة كاهن presbyter أو زعيم princeps) و«درجة الأسرار الأ عظم» (وفيها درجات المجوسى[156] magus أو «الدوسيتى» [الظاهرى][157] docetist، والمَلِك rex أو «مُحِبّ الفلسفة» philosophus).

ومنذ أن وضع المُتنوِّرون هذه الدرجةَ الأخيرة لفتوا انتباه أعلى الموظفين مكانةً فى النظام [الحاكم وقتئذٍ]: المفتشون الوطنيون، وكبار المسؤولين فى المديريات والمقاطعات، وكُبَرَاء الكهنة. حلّتْ هذه الدرجات الأعلى محلّ الدرجة الأصلية الأعظم فى منظومة درجات فايسهُبت، «الأ ريوباجوسيين»[158] 177 Areopagites.

وفى الوقت نفسه، عندما ابْتُكِرَتْ هذه «الدرجات» التفصيلية المعقدة صارت البنيةُ التنظيمية، فى التنظيم المتعاظم النمو، أعقدَ، وذات «طوائف منيرفال» محلية متعدِّدة ترفع التقارير إلى «المديريات» و«المقاطعات» و «التفتيشات»178.

وإذن، كانت المفارقة الأولى فى التَنوُّرية [الإلِومينيزم] Illuminism أنها شبكة طمحت إلى بنية هَرَميّة معقدة، مع تنديدها بالتسلسلات الهَرَميّة القائمة. لقد حدّدَ فايسْهُبت، فى خطبته عام 1782 التى يُحَقِّرُ فيها قادةَ المُتنوِّرين، رؤيتَه للعالم. فى حالة الطبيعة، كان الناس أحرارًا ومتساوين وسُعَداء؛ أما التقسيم إلى طبقات وظهور المِلكية الخاصة والطموح الشخصى وتكوين الدولة، فقد جاءت لاحقًا، بوصفها «العوامل الرئيسية الكبيرة والعِلل غير الشريفة التى تسبّبتْ فى تعاستنا وبؤسنا». كفّت البشريةُ عن أن تكون «عائلة واحدة كبيرة، وإمبراطورية واحدة» بسبب «رغبة الرجال فى تمييز أنفسهم، أحدهم عن الآ خر». لكن التنوير Enlightenment، الذى ينشره نُشَطاء الجمعيّات السرّية، بمقدوره التغلّب على هذا التقسيم الطبقى للمجتمع، ومن ثمّ «سيختفى الأ مراء وستختفى الدول من على سطح الأرض دون أى حاجة إلى العنف، وسيصبح الجنسُ البشرى عائلةً واحدة، وسيصبح العالَمُ موطنَ كائناتٍ عقلا

---

[156] المجوسى: أحد «الحكماء الثلاثة» الذين حملوا الهدايا إلى المسيح عند ولادته فى بيت لحم، وقدّموا له فروض الاحترام - المترجم.

[157] الدوسيتى أو الظاهرى: من أتباع الظاهرية المسيحية القائلة بأن المسيح كان غير ذى جسد، وأن موته على الصليب ظاهريٌ ليس إلا - المترجم.

[158] الأريوباجوسيون، وواحدهم الأريوباجوسى: فى الأصل، الأريوباجوس تلّ كانت تُعْقَدُ عليه جلساتُ المجلس الأعلى فى أثينا القديمة فسُمِّيَ ذلك المجلس باسمه نسبةً إليه. والأ ريوباجوسيُ عضوُ هذا المجلس - المترجم.

انية»[179]. ولا تتوافق هذه الرؤية بسهولة مع حملة كنيجه الناجحة لتجنيد ماسونيين من طبقة الأمراء والنبلاء في التنظيم[180].

وأما المفارقة الثانية فى الإلِومينيزم [التنوُّرية] فهى علاقتها المزدوجة بـ المسيحية. كنيجه نفسه يبدو رُبوبيًا[159] Deist (كان كنيجه معجبًا بإسبينوزا Spinoza، مع أنه نشر أيضًا مواعظ كان قد ألقاها). وربما شاركه فايسهُبت هذا المَيْل، ولكنه تبنّى وجهة النظر القائلة بأن نُخْبَة التنظيم فقط - الذين يحملون رُتْبَة ملك rex - لهم أن يُعلِنوا تعاطفهم مع دولباخ. وفى بعض كتابات فايسهُبت، يُصَوِّرُ يسوعُ المسيح على أنه «مُحرِّرُ شعبه وكل البشرية»، ونبى «عقيدة العقل»، التى هدفها الأسمى «تقديم الحرية العامة والمساواة فيما بين الناس دون أي ثورة».

حُجّة كنيجه فى «درس القاعة الأولى» Lesson in the First Chamber أن كهنة المُتنوّرين [الأوائل] حملوا رسالة المسيح الأصلية الداعية إلى المساواة بصورة عامة، ولكنها شُوِّهِتْ على مَرّ القرون[181]. لم يؤمن أيُّ رجل بذلك إيمانًا حقيقيًا؛ بل كان كل شىء «تظاهرًا بالوَرَع» (كما اعترف كنيجه شخصيًا)، ويتضح ذلك عندما يبلغ المُتنوّرُ الدرجةَ الأعلى. وهكذا، كان هدفُ المُتنوّرين النهائى «إصلاحَ العالم» إصلاحًا شِبْه دينى بالاستناد إلى أفكار التنوير Enlightenment[182].

على هذه الصخور - التنظيمية والدينية معًا - تأسّسَ المُتنوّرون، وقد تذمّر كنيجه من «الطابع اليسوعي لدى فايسهُبت».

اثنان من مُتنوّرى جوتِنجن البارزين، هما يوهان جورج هاينريك فيدر[160] Johann Georg Heinrich Feder وكريستوف ماينرس[161] Christoph Meiners، اتهما فايسهُبت بالميل نحو نظريات جان جاك روسُّو Jean - Jacques Rousseau السياسية الراديكالية. مُتنوّرٌ آخر هو فرانس كارل فون إيكارتسهاوزن[162] Franz Carl von Eckartshausen، استقال عندما صار

---

[159] الرُّبوبى: شخص يؤمن بالله من غير اعتقاد فى ديانات مُنَزّلة. والربوبية إيمان بدين طبيعى مبنى على العقل لا على الوحى، يؤكد وجوب الأخلاق الحميدة، وينكر تدخُّل الله فى نواميس الكون. ظهرت الربوبية فى أوربا القرن السابع عشر، ويُعَدُّ مونتسكيو وفولتير وروسُّو من أبرز الداعين لها - المترجم.

[160] يوهان جورج هايرنيك فيدر: (1740 - 1821)، فيلسوف ألماني - المترجم.

[161] كريستوف ماينرس: (1747 - 1810)، فيلسوف ومؤرّخ ألماني - المترجم.

[162] فرانس كارل فون إيكارتسهاوزن: (1752 - 1803)، فيلسوف ولاهوتى وكيميائى ألمانى -

واعيًا بإعجاب فايسهُبت بهلفتيوس ودولباخ. وبوصفه المسؤول عن أرشيف تشارلز تيودور Charles Theodore، أمير بالاتينه الناخب Prince Elector Palatine الذى ورث عضوية المَجْمع الانتخابى البافارى Bavarian Electorate عند وفاة ماكس جوزيف Max Joseph فى عام 1777، كان إيكارتسهاوزن فى منصب ٍ يُمكِّن الضغط لحظْر التنظيم. وفى عام 1784، وبعد مناقشات طويلة فى فايمار Weimar (بعضها بحضور جوته Goethe)، أُجْبِرَ كنيجه على الاستقالة[183].

فسَلَّمَ فايسهُبت القيادةَ إلى الكونت يوهان مارتين تسشولبرج روسلا Count Rossla-Johann Martin zu Stolberg ، الذى يُعْتَقَدُ أنه حَلّ التنظيم فى أبريل 1785، بعد شهر واحد فقط من المرسوم البافارى الثانى ضد الجمعيّات السرّية[184]، رغم أن هناك بعض الأدلة على استمرار النشاط حتى منتصف عام 1787، كما لم يتخلّ يوهان يوآخيم كريستوف بوده عن فكرة إحياء التنظيم فى فايمار حتى عام [185]1788. ومن الواضح أنه حتى لو لم يُحْظَر المُتنوِّرون، لَكانوا حَلُّوا أنفسهم قبل عامين من بداية الثورة الفرنسية. فايسهُبت نفسه قضى بقيةَ حياته تحت حماية إرنست الثانى Ernest II، دوق زاكس - جوتا - ألتنبرج Atenburg- Gotha -Saxe ، أولا ً فى ريجِنسبورج Regensburg ثم فى جوتا نفسها، يُحرّضُ بمؤلَّفات تبريرية طنّانة مثل «التاريخ الكامل لا ضطهاد المُتنوّرين فى بافاريا» A complete History of the Persecutions of the Illuminati in Bavaria (1785) و«صورة الإلِومينيزم» A Picture of Illuminism (1786) و«اعتذار للمُتنوّرين» An Apology for the Illuminati (1786).

وعلى الرغم من وجود بعض الاستمرارية، من المُتنوِّرين إلى الاتحاد الألمانى عند كارل فريدريك بارت Karl Friedrich Bahrdt's German Union، فينبغى ألا يُبَالَغ فيها. وكما أشار كنيجه فى عمله الذى دافع فيه عن نفسه «تفسير فيلو النهائى» (Philo's Endliche Erklärung (1788، كان المُتنوِّرون منذ البداية متناقضين من حيث إنهم تنظيم يخدم التنويرَ على حين يُكفّنُ نفسَه بأحابيل السرّية والغموض.

ومع ذلك، كانت توجد لدى المدافعين عن الماسونية السائدة وخصوم الثورة الفرنسية، حوافز قوية لتضخيم ثقل المُتنوّرين وضررهم. فى كتاباتهما [الدعائية] عام 1797، اضطر كلٌّ من جون روبيسون John Robison ورئيس الدير باروبل Barruel، أن يركنا إلى بعض المصادر الألمانية، واسعة الخيال، لتوجيه اتهاماتهما ضد المُتنوّرين بحيث تبدو ذات مصداقية، ولا سيما الادعاء

المترجم.

بأنهم تسبّبوا فى الثورة الفرنسية. وأقرب شىء إلى وجود رابط جدير بـ التصديق بين المُتنوّرين والثورة هو أن أونوريه جابرييل ريكيتى[163] Honoré Gabriel Riqueti المعروف بالكونت دى ميرابو comte de Mirabeau قابَلَ يعقوب موفيون Jacob Mauvillon - الذى أصبح مُتنوِّرًا بتشجيع من يوهان يوآخيم كريستوف بوده - عندما زار الكونت دى ميرابو برونزويك Brunswick في منتصف ثمانينيات القرن الثامن عشر.

ولكن فكرة أن المحافل الماسونية الفرنسية French Masonic lodges كانت قنوات نقل الأفكار الثورية إلى باريس من إنجولشتات لا يمكنها الصمود أمام أي فحص دقيق. فعلى الرغم من كل شىء، نشأت الأفكار الثورية فى باريس. وأما خطوط الاتصال الحقيقية فكانت من صالونات العاصمة الفرنسية إلى بافاريا، عبر مكتبات المسؤولين المستنيرين من أمثال إيكستات، أستاذ فايسْهُبت، وليس العكس. وكما سنرى، كانت توجد شبكة دولية تربط بين الفلا سفة وعلماء آخرين عبر جميع أنحاء أوربا، بل امتدت عبر الأطلنطى إلى أمريكا الشمالية. لكنها شبكة نَشْرٍ وتبادل كتب ومراسلات فى المقام الأول. وقد لعبت المحافل الماسونية والجمعيّات السرّية دورًا ما؛ لكن الصالونات ودُور النشر والمكتبات لعبت الدور الأهم.

لذا، يجب ألا يُفْهَم تنظيم المُتنوّرين بوصفه مؤامرة قديرة مدعومة بوسائل شريرة على مدى أكثر من قرنين، بل بوصفه هامشًا أَرْهَصَ بتاريخ التنوير. ويُعْطِى تنظيمُ فايسْهُبت - بوصفه شبكة ضمن شبكات الماسونية والفلسفة الفرنسية الأكبر - مثالا ً على عصرٍ كان من المُخاطَرة فيه التعبيرُ عن أفكار تتحدّى الوضعَ الديني والسياسي القائم [حينئذٍ].

السرّية كان لها معنى. ولكن السرّية، فى النهاية، جعلت السلطات الحاكمة تُضَخِّمُ من حجم التهديد الثوري الذي يُشَكِّله المُتنوّرون.

والحقيقة أن شبكة التنوير network of Enlightenment الأوسع هى التى انطوت على احتمال ثورى، لأن الأفكار المطروحة تمّ تداولها بحُرّية كاملة فى كتب ومجلات، وكانت ستنتشر فيروسيًا فى أوربا وأمريكا حتى وإن لم يوجد فايسْهُبت.

لقد ناضل المؤرّخون لكتابة هذا التاريخ، لأن المُتنوّرين - شأنهم شأن شبكات

---

[163] أونوريه جابرييل ريكيتى، المعروف بالكونت دى ميرابو: (1749 - 1791)، ثورى فرنسى وكاتب وصحفى وديبلوماسى وسياسى وخطيب الثورة الفرنسية. كان ميالا ً إلى نظام مَلَكى دستورى على غرار نموذج المملكة المتحدة. أدار مفاوضات سرّية فاشلة مع النظام المَلَكي الفرنسي للتوفيق بينه وبين الثورة - المترجم.

عديدة - لم يتركوا وراءهم أرشيفًا واحدًا منظمًا، بل سجلات متفرّقة، وظل الأمر هكذا حتى أُتيحت أرشيفاتُ [محفوظات] المحافل الماسونية، إذ كان الباحثون يعتمدون أساسًا على مذكرات ووثائق صُودِرَتْ ونشرها خصوم التنظيم. ومن بين المواد التى قيل إنها كانت فى حوزة فرانس سافير تسفاك Franz Xaver Zwackh، أختامٌ حكومية تُسْتعمَل فى التزوير وأطروحات للدفاع عن الانتحار وخطوات إرشادية لصناعة غاز سامٍّ وحبر سِرّى، وتعليمات لحفظ الأوراق السرّية وحمايتها، ووصفات تُسبِّبُ الإجهاضَ، منها وَصْفة لصُنْع نوع من الشاى يُسَبِّبُ الإجهاض. ونحن نعرف الآن أن كل هذا لم يكن ضمن نشاطات التنظيم[186]. والأهم من كل هذا، المراسلاتُ بين بوده والمُتنوِّرين الذين جنّدهم فى بلدة ثُورنجن، التى تكشف التوترات الأساسية الكامنة فى جمعيّة سرّية تستهدف إشاعة التنوير: شبكة هَرَميّة تتوقع بوحًا ذاتيًا حميمًا من المبتدئين، فقدّمت لهم خُزَعْبلات في المقابل[187].

وحين واجهتهم قوةُ الدولة البافارية الهائلة التى يسيطر عليها الناخب تشارلز تيودور Elector Charles Theodore سُحِقَ المُتنوِّرون سحقًا. مع أن الناخب نفسه كان يعيش فى وقت مستعار [الوقت الضائع]. فبعد عشر سنوات فقط من حَظْره الجمعيّات السرّية، اجتاحت جيوشُ فرنسا الثورية [إقليم] بالاتينات[164] Palatinate الذى كان يحكمه تشارلز تيودور أيضًا، وتقدّمتْ نحو بافاريا. ومنذ عام 1799 حتى عشية معركة لايبزيج[165] Battle of Leipzig فى عام 1813، كانت بافاريا تابعةً لما أصبح يُسَمّى إمبراطورية نابليون. وفى الأثناء نفسها، فى جوتا - حيث وَجَدَتْ بقايا المُتنوِّرين مأوىً لها - كان أوجستس Augustus ابن الدوق إرنست Ernest ووريثه، يُبْلى بلاءً حسنًا بتملُّقه الطاغية الفرنسي [نابليون].

لم يتسبَّب المُتنوِّرون فى الثورة الفرنسية، ناهيك عن صعود نابليون، مع أنهم استفادوا منه (فجميعهم، باستثناء فايسْهُبت، عُفِىَ عنهم، وصار بعضهم أقوياء جدًا، ولا سيما دالبيرج Dalberg). وبغضِّ النظر عن استمرار مُخَطّطهم [الخفى] لحُكْم العالم إلى الوقت الحاضر، فقد كفّوا عن العمل فى ثمانينيات القرن الثامن عشر، والجهودُ المبذولة لإحياء التنظيم فى القرن العشرين زائفةٌ

---

[164]بالاتينات: منطقة ألمانية جنوب غرب ألمانيا تحت الولاية القضائية لبالاتينه - المترجم.

[165]معركة لايبزيج أو معركة الأمم: أكبر معركة قبل الحرب العالمية الأولى، دارت رحاها فى أيام 16 - 19 أكتوبر عام 1813، على أرض ألمانية، وهُزِمَ فيها نابليون هزيمةً ساحقة - المترجم.

إلى حد كبير[166]. ومع ذلك، فقصتهم جزء لا يتجزأ من العملية التاريخية المعقدة التى قادت أوربا من التنوير Enlightenment إلى الثورة Revolution إلى الإمبراطورية Empire، عملية لعبت فيها الشبكات الفكرية دورًا حاسمًا دون شك.

وبالاعتماد على أفضل المعارف الحديثة، يسعى هذا الكتاب إلى تخليص تاريخ الشبكات من براثن مُنظِّرِى المؤامرة، وإيضاح أن التغيير التاريخى يمكن فَهْمه، غالبًا، من خلال هجمات من النوع الذى تقوم به الشبكة ضد الأنظمة الهَرَميّة، وينبغي أن يُفهَم كذلك.

---

[166] قام ليوبولد إنجل Leopold Engel بإحياء المُتنوّرين فى مارس عام 1901 إلى جانب تيودور رويس Theodor Reuss، الذي أصبح لاحقًا مساعد السيد الأوكيولتى [النُخْبوى المستنير] occult البريطانى الشهير أليستر كراولى Aleister Crowley. وأثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها، جاء دور الاقتصادى السويسرى المُسَمّى فيلكس لازاروس بينكوس Felix Lazerus Pinkus وخبّاز يُدْعَى هيرمان جوزيف ميتزجر Hermann Joseph Metzger لإحياء الاسم. وحتى وفاة آن مارى آيشباخ Annemarie Aeschbach كانت تزعم أن قرية ستاين Stein السويسرية فى كانتون أوْتر أبِنزل Canton of Outer Appenzell هي الموطن الحديث للمُتنوِّرين - المؤلف.

II القسم الثاني
أَباطِرةٌ ومُسْتكشِفون

11

تاريخ موجز للتسلسل الهَرَميّ

فى فيلم [المخرج الإيطالى] سرجيو ليون[167] Sergio Leone، «الطيب و الشرير والقبيح» The Good, the Bad and the Ugly، وهو من نوعية أفلام سباجيتِّى وِسْترن[168] spaghetti western، يسعى كلينت إيستوود Clint Eastwood وإيلاى وولِك Eli Wallach وراء ثروة منهوبة من ذهب الحكومة الكونفدرالية.

الكنزُ الذى اكتشفاه، مدفونٌ تحت شاهد قبر فى مدافن قتلى الحرب الأهلية Civil War الهائلة. ولسوء الحظ، لا فكرة لديهما عن شاهد القبر. وبعد أن اتّخذ إيستوود حَيْطَته، فى وقت سابق، فأفرغ مسدسَ وولِك، التفتَ إليه متلفِّظًا بكلمات خالدة: «فى هذا العالم يوجد نوعان من الناس، يا صديقى. نوع يحمل المسدسات، ونوع يحفر. احْفُرْ».

يُعَدُّ هذا الموقفُ مثالا ً حديثًا لحقيقة قديمة. ففى معظم فترات التاريخ، كانت الحياةُ متسلسلةً هَرَميًّا. قِلّةٌ من الناس تستمتع بالامتيازات التى تأتى من احتكار العنف، أما كلُّ مَن عداهم فهو يَحْفُر.

لماذا سبقت التسلسلاتُ الهَرَميّةُ hierarchies الشّبَكاتِ networks فى التاريخ ؟ الإجابة الواضحة هى أنه حتى مجموعة الهُوْمِينُوِيَدز [أشباه الإنسان] hominoids الأقرب، فى عصر ما قبل التاريخ، وُجِدَ لديهم تقسيمٌ للعمل وتسلسلٌ هَرَمىٌ للقوة الجسدية ومقدرة عقلية بحُكم الطبيعة. ولهذا السبب، كانت القبائلُ البدائية، ولا تزال، أقربَ شبهًا بالتسلسلات الهَرَميّة التعاونية منها إلى الشّبَكات المُوزّعة[188] فحتى «الالتزام بجَمْع الطعام التعاونى» يحتاج إلى قيادة[189].

---

[167]سرجيو ليون: (1929 - 1989)، مخرج إيطالى اشتهر بإخراجه أفلام سباجيتى وِسْتِرن، أي أفلام الوِسْتِرن ذات الإنتاج والإخراج الإيطالي - المترجم.

[168]سباجيتِّى وِسْترن: يشير المصطلح إلى مجموعة أفلام تدور أحداثها فى الغرب الأ مريكى، ظهرت على الشاشة خلال ستينيات القرن العشرين. مخرجوها إيطاليون بالتعاون مع شريك إسبانى فى غالب الأمر، وتُصَوّرُ فى إيطاليا أو إسبانيا، بطاقم ممثلين ثانويين، وفريق تقنى من الإيطاليين والإسبان، إلى جانب نجوم أمريكيين. كان الهدفُ خَفْضَ كُلْفة التصوير وأجور الممثلين مقارنةً بهوليوود، وتدور موضوعاتها حول الثورة المكسيكية و المناطق الحدودية بين الولايات المتحدة والمكسيك. من أشهر أفلام هذه الفئة ثلاثية «رجل بلا اسم» بطولة كلينت إيستوود - المترجم.

شخصٌ يضطر إلى اتخاذ قرار متى يتوقف عن الاستمالة [العناية والرعاية] و البدء فى الصيد. وشخصٌ يضطر إلى توزيع غنيمة الصيد وضمان حصول الصبى الضعيف والعجائز على نصيبهم. وشخص آخر يضطر إلى القيام بـ الحَفْر.

عندما بدأ البَشَرُ فى تشكيل مجموعات أكبر والاشتراك فى المزيد من أشكال الصَّيْد وجَمْع الطعام المعقدة، طوّروا فى وقت مبكر الأ ُطُرَ المفاهيمية الأ ولى - أساطير تفسيرية عن آلهةٍ ذات قوى بشرية فائقة تتحكم فى الطبيعة - كما طوّروا ممارساتٍ وموادًا لتحسين القدرة العقلية[190]. تعلموا أيضًا أولى فنون الحرب البدائية، فانتخبوا نوعياتٍ رائعةً من الأسلحة الأساسية كـ البلطات والأقواس والسِّهام[191]. واضطرت الجماعات الزراعية الأولى فى العصر الحجرى الحديث [العصر النيوليثى] Neolithic Age (بدءًا من حوالى 10,200 ق. م.) إلى تخصيص موارد كبيرة للدفاع عن نفسها ضد المُغِيرين (أو تنظيم غارات على المُغِيرين عليها). يبدو أن تقسيم المجتمع إلى سادة وعبيد، وإلى محاربين وعُمّال، وإلى كهنة ومُتَوَسِّلين، قد بدأ فى وقت مبكِر. ومع تطور الكتابة الرمزية من الرسم على جدار الكهوف، وُلِدَ الشكلُ الأول لتخزين بيانات [أو معلومات] خارج الدماغ، ووُلِدَتْ معه طبقةُ مُتعلِّمين جديدة.

وبكلمات أخرى، على الرغم من تنوُّع الهياكل السياسية الباكرة - فبعضُها أكثر أوتوقراطية [استبدادية] autocratic وبعضها أكثر تشاركية [جماعية] corporate - فقد انطوت، بوجه عام، على تقسيم اجتماعى طبقى جوهرى. كانت سلطة مُعاقَبة المُنْتهِكين تُفَوّضُ دائمًا، تقريبًا، لبعض الأفراد أو لمجلس من كبار السِّنّ.

وصارت القدرةُ على شَنّ حرب ناجحة صفةُ الحاكم الرئيسية. كانت الدولةُ، فيما يُقَالُ، «نتيجةً مُتوقّعة لطبيعة الإنسان»[192]. وهكذا أيضًا، مَهّدَ سباقُ التسلُّح والابتكارات فى التكنولوجيا العسكرية - أَسِنّة الرماح الأقوى والخيول بوصفها مَرْكبات هجومية - طرقًا مختصرة إلى السلطة والثروة[193]. لذا، ظهر «نوع جديد من التسلسل الهَرَمىّ يُهيمن عليه «رجلٌ كبيرٌ» Big Man لم يكن فى حاجة إلى قوة جسدية، بل يكفى أن يكون ثريًا كى يدفع [المال] لعُصْبَة صغيرة من الأتباع المُسلّحين الموثوق فيهم»[194].

ينطوى التسلسل الهَرَمىُ على فوائد عديدة، فى الاقتصاد وكذلك فى الحُكم. وثمة أسباب وجيهة لكوْن السياسات العملية منذ العالم القديم حتى أوائل الفترة الحديثة هَرَميّةُ البنية، فى أغلبيتها الساحقة. وكالشركات corporations فى عصر لاحق، سعت الدولُ الباكرة إلى استغلال اقتصادات

الحجم[169] economies of scale، وخَفّضِ تكاليف المُعامَلات [التجارية]، ولا سيما فى مجال العمل العسكرى. وُجِدتْ أيضًا أسبابٌ وجيهة لمَسْعَى عدد كبير من الأوتوقراطيين الطموحين إلى تعزيز شرعيّتِهم بمطابقة أنفسهم مع الآلهة. التسلسل الهَرَمىُّ جَعَلَ الأقنانَ [الهيلوت][170] helots يَتكبّدون المشقةَ صابرين حين يُؤمَرون باسم الآلهة. ولكن حُكْم الرجل الكبير انطوى، ولا يزال، على مساوئ مُزْمِنة، ولا سيما إساءة توزيع الموارد لإرضاء شهيّة الرجل الكبير وذُرّيته وأتباعه المُقرّبين. المشكلةُ المتكررة، وشِبْه العالمية، فى التاريخ القديم، تنازُلُ مواطنى الدول المُتحاربة عن صلاحيات مُفْرطة لنُخَب المحاربين بالوراثة، وللنُّخَب الكهنوتية أيضًا التى وظيفتُها غَرْسُ العقائد الدينية وغيرها من الأفكار التشريعية. وأينما حَدَثَ هذا، كانت الشبكات الا جتماعية social networks تخضع لصلاحيات التسلسل الهَرَمىّ hierarchy وامتيازاته. كانت معرفةُ القراءة والكتابة امتيازًا. أما نصيب الرجل العادى و المرأة العادية فهو الكدْح. كانوا يعيشون فى قراهم، «معزولين حرفيًا» (بتعبير إرنست جيلنر[171] Ernest Gellner) عن الجميع باستثناء جيرانهم الأقرب؛ وهى حالة انعزال عَبّرتْ عنها بحِدّة روايةُ كازو إيشيجورو[172] Kazuo Ishiguro «العملاق المدفون» The Buried Giant[195]، بوصفها نوعًا من الضباب العقلى الدائم. النُّخْبة الحاكمة، وحدها، هى القادرة على تعزيز روابط شبكية عبر المسافات: مثلا ً، امتدت شبكات الفراعنة المصريين، فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، من الحُكّام الكنعانيين المحليين إلى نظرائهم فى مدن مثل بابل Babylon وميتانى Mitanni [173] [196]. لكن حتى شبكات النُّخْبة تلك، كانت

---

[169] اقتصادات الحجم أو وُفُورات الحجم: انخفاض متوسط التكلفة الكلية فى الأجل الطويل كلما ارتفع حجم إنتاج الشركة، وهو مصطلح مرتبط باقتصادات الإنتاج واسع النطاق، حيث تُؤدِّي الزياداتُ المُطّردة فى الإنتاج إلى انخفاض متوسط التكاليف على المدى الطويل - المترجم.

[170] الهيلوت: فئة الأقنان فى إسبرطة القديمة التى تحتل منزلةً وُسْطَى بين العبيد و المواطنين، أو هم عبيد الأرض في المجتمعات الزراعية - المترجم.

[171] إرنست جيلنر: (1925 - 1995)، فيلسوف بريطاني وأنثروبولجي اجتماعي - المترجم.

[172] كازو إيشيجورو: من مواليد عام 1954. روائى يابانى بريطانى حائز على جائزة نوبل. صدرت روايته «العملاق المدفون» عام 2015، المُصَنّفة ضمن فئة روايات الفانتازيا - المترجم.

[173] بابل أو البابلية: تعنى بالآكادية «بوابة الإله»، دولة بلاد ما بين النهرين القديمة، جنوب بغداد حاليًا. أما مملكة ميتانى ففى شمال الهلال الخصيب فى سوريا، توثقت علاقتُها بـ الفراعنة أيام رمسيس الثانى. وهاتوسا أو حتوساس هى عاصمة الحيثيين، تقع فى وسط

مصدر خطر على النظام الهَرَمى hierarchical order: نقرأ فى أقدم المُدوّنات التاريخية عن مؤامرات conspiracies وخُطط خفيّة plots، كالمؤامرات ضد ا لإسكندر الأكبر[174] Alexander the Great: تجمُّعات ظلامية حاقدة داخل الشبكة[197].

لم يكن هذا عالمًا يُشَجّعُ فيه المُجَدّدون أو المُبْتَكِرون، بل عالمًا يُحْكَمُ فيه بِ الموت على المارقين. لم يكن عالمًا تتدفق فيه المعلومات من أسفل إلى أعلى أو بشكل أفقى، بل عالمًا تتدفق فيه المعلومات من أعلى إلى أسفل، هذا لو تدفقت أصلا ً. ومن ثمّ، تشكّلَ التاريخُ القديم النموذجى على غرار تاريخ سُلالة أور الثالثة Third Dynasty of Ur (حوالى 2100 - 2000 ق. م.)، فى جنوب بلاد النهرين Mesopotamia، التى استطاعت بناء نظام رَيٍّ على نطاق واسع، ثم عجزت عن مواجهة مشكلة تملُّح التربة وانهيار المحاصيل الزراعية[198].

(وفى وقت لاحق، حَلّ مصيرٌ مماثل بالخلافة العباسية، التى فشلت فى الحفاظ على بنية الريِّ التحتية، فيما هو الآن جنوب العراق، بسبب الصراعات المتكرّرة على الخلافة. وهذه أمراض شائعة فى التسلسلات الهَرَميّة الوراثية)[199].

وبطبيعة الحال، وُجِدَتْ تجارب ذات أبنية سياسية أكثر توزيعًا للسلطة - «العالَم الصغير» فى الديمقراطية الأثينية Athenian democracy[200]، و الجمهورية الرومانية Roman Republic - ولكن هذه التجارب لم تصمد طويلا ً. يقول رونالد سايم[175] Ronald Syme فى دراسته الكلاسيكية «الثورة الرومانية» The Roman Revolution إن الجمهورية أدارتها أرستوقراطيةٌ رومانية سمحت خلافاتُها لإيطاليا بالانحدار إلى حرب أهلية. ففيما يلاحظ سايم الذى أضْفَتْ عليه جامعةُ أكسفورد روحَ سخريةٍ: «السياسة العملية و الممارسات لدى الشعب الرومانى Roman People وَجّهتْهُما الأوليجاركيةُ [القِلّة الحاكمة] oligarchy، فكُتِبَتْ سجلاتُ الأحداث بروح أوليجاركية». «نشأ التاريخ من مُدوّنات القنصليات وانتصارات النُّبَلاء، ومن الذاكرة المتناقَلة لأ صول عائلاتهم وتحالفاتها وخلافاتها».

تركيا إلى الشرق من أنقرة - المترجم.

[174]الإسكندر الأكبر: (365 ق. م. - 323 ق. م.)، هو الإسكندر الثالث المقدونى أحد ملوك مقدونيا الإغريق وأشهر القادة العسكريين الفاتحين عبر التاريخ - المترجم.

[175]رونالد سايم: (1903 - 1989)، مؤرّخ نيوزيلندي بريطاني - المترجم.

جاء أوغسطس[176] Augustus إلى السلطة ليس لأنه كان موهوبًا فقط، بل لأ نه أدرك أهمية وجود «حلفاء... وأتباع» أيضًا. فمن خلال تعزيز أتباعه فى «فريق القيصرية» Caesarian party، استطاع أوغسطس تركيزَ السلطة فى يديه تدريجيًا، رغم أنه استعاد «الجمهورية» اسميًا. يقول سايم: «فى جوانب معينة، كانت زعامته نقابية». «الإطار القديم والتصنيفات القديمة» استمرت: كانت مَلَكيّةُ أوغسطس Augustus's monarchy، شأنها شأن الجمهورية قبله، واجهةً تحكم من ورائها الأوليجاركية[201].

وُجِدَتْ فى العصور الرومانية أيضًا طُرُق الحرير[177] Silk Roads، وهى على حدِّ تعبير بيتر فرانكوبان[178] Peter Frankopan:

«شبكة تنتشر فى كل اتجاه، طرق يتنقل عبْرها الحُجّاجُ والمحاربون والبدو و التُّجار، حيث تُنْتَجُ البضائعُ وتُبَاع وتُشْتَرى، وتُتَبادَلُ الأفكارُ فيحدث تبنِّيها وتنقيحها»[202]. ولكن هذه الشبكة ساعدت على انتشار الأمراض بقدر ما ساعدت على التبادل التجارى، أما المحاور الحَضَريّة المزدهرة على طول هذا الطريق فكانت عُرْضةً دائمًا لهجمات بدوية من أمثال الشيونجنو[179]

---

[176]أوغسطس: (63 ق. م. - 14 م.)، رجل دولة رومانى وزعيم عسكرى. أول إمبراطور يسيطر على روما الإمبراطورية من 27 ق. م. حتى وفاته. أكثر القادة فاعليةً وإثارةً للجدل في تاريخ البشرية - المترجم.

[177]طُرُق الحرير: بالجمع فى الأصل الإنجليزى، والمقصود دلالات «طريق الحرير» الذى هو، فى أصله، عدة مسارات محددة أو مجموعة من الطرق المترابطة، من الصين وأقاصى آسيا إلى أواسط آسيا وشمال أفريقيا ووسط أوربا. سُمِّى بهذا الاسم لأنه بدأ بتصدير الحرير من الصين إلى أرجاء العالم، ثم سرعان ما انسربت معه بضائع كثيرة. كان لهذا الطريق تأثيرٌ بعيد فى ازدهار الحضارات القديمة كالصينية والمصرية والهندية والرومانية - المترجم.

[178]بيتر فرانكوبان: من مواليد عام 1971، مؤرّخ بريطانى ومدير مركز الدراسات البيزنطية بجامعة أكسفورد - المترجم.

[179]الشيونجنو: اتحاد كونفِدرالي قديم بين شعوب بدوية سكنت سهول شرق آسيا منذ القرن الثالث قبل الميلاد حتى أواخر القرن الأول الميلادى وفقًا للمصادر الصينية، فصاروا قوةً مهيمنة حتى شمال شرق آسيا فى المنطقة التى عُرِفَتْ لاحقًا باسم منغوليا. كانت علا قات الشيونجنو مع السلالات الصينية المجاورة معقدة تتناوبها المعاهدات والنزاعات. وهُويّة أصل الشيونجنو العِرْقى محلٌ عديد من الفرضيات، ومطابقتهم بقبائل «الهون» أو «الهونا» فرضية مثيرة للجدل - المترجم.

Xiongnu (قبائل الهون[180] Huns) والسيثيين[181] Scythians[203].

الدرس الجوهرى فى النظرية السياسية الكلاسيكية أن السلطة ينبغى بناؤها هَرَميًّا، وأن السلطة كلما تركّزت فى أيدى القِلّة صارت وحدةً سياسية أكبر. وبدرجة لافتة للنظر، تطوّرت الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية سلالتىْ تشين - هان[182] Han-Qin بطرق متماثلة، على الأقل حتى القرن السادس، ذلك أنهما واجهتا تحديات متشابهة[204].

وبمجرد أن بدأت تكاليف التوسُّع الإقليمى تتجاوز الفوائد منه، كانت علةُ وجود raison d'être النظام الإمبراطورى حفظَ السلام والنظام الذى يُوفِّره جيشٌ إمبراطورى كبير وجهاز بيروقراطى [متشعِّب]، وقد تمّت تغطية هذه التكاليف بالجَمْع بين الضرائب وتخفيض قيمة العملة[183].

فلماذا، إذن، لم تتمكن الإمبراطورية فى جانب أوراسيا Eurasia الغربى من البقاء، على حين بقيت فى جانبها الشرقى؟ الإجابة الكلاسيكية هى أن روما لم تستطع الصمود أمام ضغوط هجرات - وسيقول البعضُ غزو - القبائل الجرمانية[184] Germanic tribes المتزايدة. والأكثر من هذا، وعلى خلاف الإمبراطورية الصينية، كان على روما أن تتعامل مع تأثير دين جديد أدّى إلى

---

[180] الهون: مجموعة رُعاة رُحّل، ظهروا من وراء نهر الفولجا فى روسيا حاليًا، هاجروا إلى حدود أوربا الشرقية عام 370م وقاموا ببناء إمبراطورية هناك، ثم انهارت الإمبراطورية بوفاة مؤسِّسها أتيلا الهونى، فانقرضت هذه القبائل. يربط المؤرّخون القدامى عادةً بين الهون الذين ظهروا على حدود أوربا حوالى القرن الرابع الميلادى وبين الشيونجنو المهاجرين من منغوليا في القرن الأول الميلادي، ولا يوجد دليل على هذا الرّبْط - المترجم.

[181] مملكة سيثيا: تميزت بوجود شعب بدوى متنقل ينحدر من أصول إيرانية هم السكوثيون الذين تمكنوا من تأسيس إمبراطورية قوية استمرت لقرون عديدة.

وصفهم المؤرّخ اليهودى فلافيوس يوسيفوس بأنهم شعب مأجوج، لأنهم كانوا يثيرون إعجابَ جيرانهم وخوفهم لخِفّة حركتهم ومهارتهم في ركوب الخيل.

تمركزوا في المنطقة التي تُعْرَفُ اليوم بشبه جزيرة القرم - المترجم.

[182] سلالتا تشين وهان: تشين هى السلالة الإمبراطورية الأولى الحاكمة فى الصين، تلتها سـ لالة هان، وتُعَدُّ هذه الفترات عصرًا ذهبيًا في تاريخ الصين - المترجم.

[183] تخفيض قيمة العملة الذهبية بزيادة ما تتضمنه من معدن خسيس - المترجم.

[184] القبائل الجرمانية أو التيتونيون: شعوب وقبائل تتحدث باللغات الجرمانية وتنحدر من أصل عِرْقى واحد. استوطنوا المناطق المحاذية للإمبراطورية الرومانية، وكانوا مصدرَ إزعاج دائم لها، حتى صاروا أحد الأسباب الرئيسية في سقوطها - المترجم.

تمزيق أوصال الإمبراطورية، هو المسيحية، نشرته فرقةٌ يهودية مُهَرْطِقة عَبْر العالم الرومانى بفضل جهود شاول الطرسوسى Saul of Tarsus (بولس الرسول the apostle Paul)[185] بعد هدايته على الطريق إلى دمشق حوالى 36 - 31 ميلادية.

وقد خلقت الأوبئةُ التى انتشرت منذ منتصف القرن الثانى حتى منتصف القرن الثالث الميلادى فتحًا لهذه الشبكة الدينية، لأن المسيحية لم تكتفِ بتقديم تفسير للكوارث، بل حثّتْ على محاسن السلوك أيضًا (كأعمال البِرّ ورعاية المَرْضَى)، الأمر الذى أدّى إلى عَيْش المؤمنين بها فى بيئة غير متجانسة[205].

كانت الإمبراطورية الرومانية نظامًا متسلسلا ً هَرَميًا حقيقيًا، ذا أربع رُتَب اجتماعية رئيسية - مجلس شيوخ، فرسان، إداريين، عامة الرومان - لكن المسيحية تغلغلت في كل فئة من هذه الفئات[206].

كانت المسيحية أنجح أشكال الهَوَس الدينى الذى اجتاح الإمبراطورية الرومانية: عبادة إله العاصفة جوبيتر دوليتشينيس Jupiter Dolichenus القادمة من شمال سوريا التى انتشرت أيضًا من شمال سوريا إلى جنوب إسكتلندا منذ أوائل القرن الثانى الميلادى، بسبب تبنِّى ضباط الجيش الروماني لهذه العبادة[207].

الهجرة والدين والعَدْوَى: عملت هذه التهديدات التى ولّدتها الشبكةُ - والتى لم يُخطِّط لها أحدٌ أو قادَها، ولكنها انتشرت فيروسيًا - على تدهور بنية الحُكم الإ مبراطورى الرومانى الهَرَميّة بحلول القرن الخامس، فما تركت سوى بقايا نظام قديم ظل يُسَاوِرُ خيالَ الأوربيين لقرون قادمة. وبدءًا من القرن السابع، اندلع من صحارى الجزيرة العربية دينُ تسليمٍ توْحيدىٍّ جديد - الإسلام - تبدّلَ بين مكة والمدينة، من مجرد عقيدة يقودها نبىٌّ إلى أيديولوجيا سياسية مُحاربة تفرض نفسَها بالسيف.

ومع أن كلتا الحركتين التوحيديتين الكبيرتين [المسيحية والإسلام] أسّسهما نبيّان كاريزميان فقد كانتا تشبهان الشبكةَ من حيث انتشارهما الفيروسى. ولكنهما بسبب تدهور الحُكم الرومانى، على جميع المستويات، آلتا إلى إنتاج تسلسلات هَرَميّة ثيوقراطية [دينية] theocratic فى بيزنطة وبغداد. المسيحية الغربية Western Christianity - التى انقطعت عن الأرثوذكسية بالا

---

[185]شاول الطرسوسى أو بولس الرسول: يُعْرَفُ أيضًا ب«القديس بولس» و«رسول الأمم»، أحدُ قادة الجيل المسيحى الأول، وثانى أهم شخصية فى تاريخ المسيحية بعد يسوع نفسه، بشّرَ بالمسيحية في موطنه آسيا الصغرى، وأوربا. دُفِن خارج أسوار روما - المترجم.

انشقاق العظيم[186] Great Schism عام 1054 - خضعت لشكلها الخاص فى السيطرة الهَرَميّة بصعود البابوية الرومانية والنظام الكنَسِى الطبقى. ومع ذلك ، ظل الغرب المسيحى Western Christendom، من الناحية السياسية، أكثر شَبَهًا بالشبكة:

انبثقت، من أنقاض الإمبراطورية الرومانية فى الغرب، هندسةٌ فراكتيلية للدول، معظمها صغير، وقليل منها كبير؛ أغلبها مَلَكيّات وراثية، وبعضها أرستوقراطيات من حيث الممارسة، وحفنةٌ منها دولُ مدينة states-city تُديرها أوليجاركيات. من الناحية النظرية، ورث الإمبراطورُ الرومانى المقدس السلطةَ على معظم هذه الكيانات. ومن الناحية العملية، بعد انتصار البابا جريجورى السابع Pope Gregory VII على الإمبراطور هنرى الرابع Henry IV فى نزاع التنصيب[187] Investiture Controversy، امتلك الكرسىُّ الرسولى[188] Holy See السلطةَ المرجعية الأعظم عبر الحدود، فسيطر على تنصيب الأساقفة والكهنة، وأخضع كلّ مكانٍ لقانونه الكنَسِى (إحياء قانون جوستنيان[189] Justinian Code من القرن السادس). وتوزّعتْ السلطة الزمنية ، فى جوهرها، من خلال نظام سندات مِلكية الأرض المتوارثة والجيش أو الا لتزامات الأميرية المعروفة باسم الإقطاع feudalism. هنا أيضًا، كانت السلطة يُحدِّدها القانونُ: المدنى (المستمد من القوانين الرومانية) فى القارة [الأوربية] وإسكتلندا؛ والعُرْفي (على أساس سابِقةٍ) في إنجلترا.

وعلى النقيض من ذلك، كان الدرس المستفاد فى الصين من تجربة الممالك

---

[186] الانشقاق العظيم: انشقاق كنائس الشرق والغرب عن بعضها البعض، مشكلةً بذلك فرعًا غربيًا لاتينيًا (كاثوليكيًا) وفرعًا شرقيًا بيزنطيًا (أرثوذكسيًا)، نتيجة فترة طويلة من الجفاء بين المسيحية اللاتينية والمسيحية اليونانية. وله أسباب تتعلق بسلطة البابا الزمنية وأسباب عَقدية وطقسية - المترجم.

[187] نزاع التنصيب: أهم صراع بين الكنيسة والدولة فى أوربا القرون الوسطى. ففى القرنين الحادى عشر والثانى عشر تحدّتْ مجموعةٌ من الباباوات سلطةَ الممالك الأوربية فى السيطرة على التعيينات والتنصيبات الخاصة بالمراتب الكنسية - المترجم.

[188] الكرسى الرسولى: كيان سياسى قانونى معترف به دوليًا يرأسه «أسقف روما» أو رأس الكنيسة الكاثوليكية، المعروف باسم بابا روما أو الحَبْر الرومانى. وتمثل الإدارةُ الباباوية الرومانية الحكومةَ المركزية فى الكرسى الرسولى، التى هى عبارة عن مجموعة إدارات وهيئات كنسية يرأسها البابا - المترجم.

[189] قانون جوستنيان: مجموعة قوانين، أمر الإمبراطورُ البيزنطى جوستنيان الأول بعضَ رجال الدين المسيحى بانتقائها من بين مجموعة قوانين رومانية. يُقال إنها من أكبر الإ سهامات الرومانية في مجال الحضارة - المترجم.

المتحاربة أن الاستقرار لا يمكن تحقيقه إلا فى إمبراطورية واحدة متجانسة، ذات ثقافة (الكونفوشية Confucianism) تقوم على طاعة الوالدين [تقوى الأ بناء] (شياو xiao). لم تكن هناك سلطة دينية متفوقة على الإمبراطور[208]. لم يكن يوجد قانون سوى قوانين الإمبراطور[209].

والسلطة الإقليمية والمحلية تُرَاجِعُها بيروقراطيةٌ إمبراطوريةٌ مُعيّنة ومُرَتّبة على أساس الجدارة والكفاءة، بنظام اختباراتِ خدمةٍ مدنيّةٍ تتيح للشباب التّرقِّى فى المناصب على أساس الموهبة وليس المَوْلِد. ومع ذلك، فى كلا النظامين الغربى والصينى، كانت العقبةُ الرئيسية أمام تكوين دولة مستقرة استمرارَ الشبكات العائلية أو العشائرية أو القبَلِيّة[210].

إذ أدّت التنافسات بين شبكات من هذا النوع - للسيطرة على الريوع التى يجلبها الحُكم - إلى حروب أهلية دورية، تميزت بأنها صراعات سُلالية.

وعلى مدى قرون، فُكّرَ الحكماء وأصحاب العقول الراجحة فى استحالة وجود نظام دون سلطة مطلقة تقريبًا. وكتبوا أفكارهم على الرّق أو الورق، بالأ قلام أو الرّيَش، وهم يعرفون حَقّ المعرفة أن أقلية ضئيلة من رفاقهم سيقرأونها، وأن أفضل أملهم فى الخلود أن تُنْسَخَ كتاباتُهم وتُحْفَظَ فى مكتبة أو أكثر من مكتبات ذلك العصر العظيمة. ولكن مصير مكتبة الإسكندرية - التى دُمِّرتْ فى سلسلة هجمات بلغت ذروتها فى عام 391 ميلادية[190] - بَيّنَ مدى هشاشة تخزين المعلومات فى العالم القديم. كان الافتقار الكامل تقريبًا إلى التبادل الفكرى بين أوربا والصين فى العصور القديمة والوسطى يَعْنى أن العالم لا يزال جِدّ بعيد عن كوْنه شبكةً واحدة؛ إلا في ناحية واحدة مُمِيتة.

---

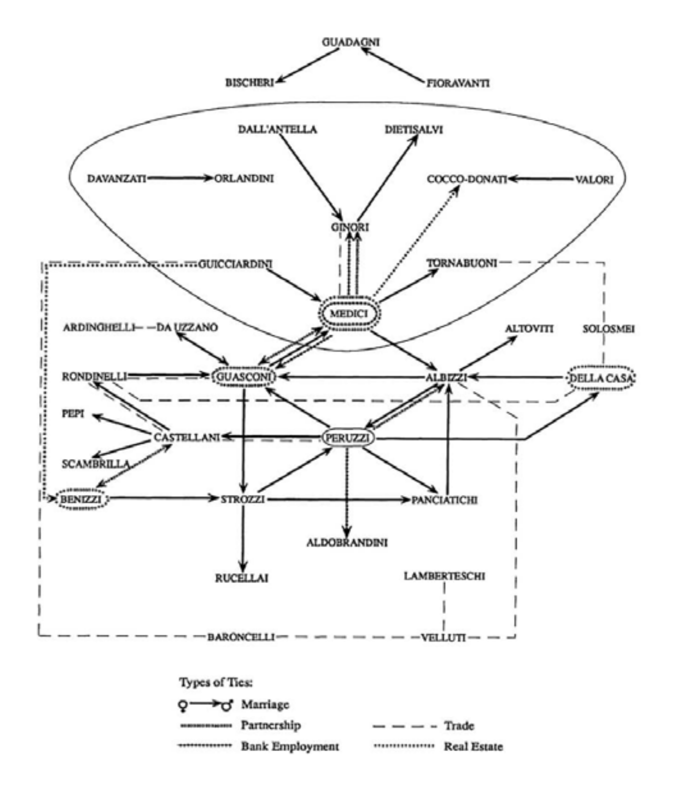
[190]فى عام 391، أمر الإمبراطور الرومانى ثيودوسيوس الأول بتدمير مكتبة الإسكندرية - المترجم.

12

العصر الشَّبَكي الأول

الأراضى الأوراسية بأكملها، اجتاح سُكّانَها، فى القرن الرابع عشر، الموتُ الأسود [الطاعون الأسود] Black Death، أو الطاعون الدّبْلىّ bubonic plague الذى تتسبّبُ فيه جرثومةُ يرسينيا Yersinia Pestis البكتيرية، التى ينقلها البرغوث. انتقل هذا الوباء المُمِيت على طول شبكات التجارة الأوراسية الموصوفة أعلاه. ولأن هذه الشبكات كانت متناثرة - ولأن الروابط بين مجموعات السكان المقيمين قليلة - استغرق هذا المرض شديد العَدْوَى أربع سنوات كى ينتقل عبر آسيا بسرعة أقل من ألف كيلو متر فى السنة[211]. لكن الوَقْعَ فى أوربا كان جِدّ مختلف، إذ هَلَكَ نصفُ السكان تقريبًا (بمَن فيهم، ربما، ثلاثة أرباع سكان جنوب أوربا) مقارنةً بآسيا.

مثلا ً، بدا أن نقصَ الأيدى العاملة أحدُّ فى أقصى الغرب، الأمر الذى أدّى إلى ارتفاعات كبيرة فى الأجور الحقيقية، وبخاصة فى إنجلترا. ومع ذلك، تمثّلَ الاختلافُ المؤسّسى الرئيسى بين غرب أوراسيا وشرقها بعد عام 1500، فى أن شبكات الغرب تحرّرتْ نسبيًا من الهَيْمنة الهَرَميّة أكثر منها فى الشرق. لم تتكرّرْ ثانيةً امبراطوريةٌ متجانسة فى الغرب؛ إذ انتشرت إماراتٌ عديدة، ضعيفة غالبًا، فى ظل وجود بابوية وإمبراطورية رومانية مقدسة Holy Roman Empire ذات بنية رَخْوة، هى البقية الباقية من السلطة الإمبراطورية الرومانية، وفى الوقت نفسه اعْتَبَرَتْ بيزنطةُ نفسَها وريثَ الأباطرة الحقيقى. فى مقاطعة رومانية سابقة - هى إنجلترا - كانت سلطةُ المَلِك محدودةً، إلى درجة أن تُجار العاصمة فى القرن الثانى عشر تمتعوا بحرية إدارة شؤونهم الخاصة من خلال نقابة مستقلة. وفى الشرق، كانت الشبكاتُ المهمة عائليةً فى معظمها: روابط عشائرية. أما فى أوربا الغربية الأكثر شعورًا بالفردية، فثمة أشكال أخرى من الترابط هى الأهمُّ: الأ ُخوّة الاسمية بدلا ً من الحقيقية[212].



الشكل: 10 - شبكة ميديتشى: إستراتيجية سُلالة القرن الرابع عشر جعلت عائلةً واحدة تُهيمن في فلورنسا.

وينبغى علينا، مع ذلك، أن نكون حريصين على عدم التأريخ ل«تباعد كبير» بين الغرب والشرق، يظل هو السمة الألفت للانتباه فى التاريخ الاقتصادى بين أواخر القرن الخامس عشر وأواخر القرن العشرين[213]. لو ظل شعبُ أوربا الغربية محصورًا بشواطئه - أو لو تقدّمَ الغُزَاةُ المغول Mongol، فى القرن الثالث عشر، غربًا إلى ما وراء السهل المجرى - لاختلف تاريخ أوربا الغربية تمامًا. تتضح استمرارية الشبكات السُلالية، فى أوربا القرن الرابع عشر، من خلا ل صعود عائلة ميديتشى Midici فى فلورنسا Florence، التى احتل أفرادُها موقعًا فريدًا بوصفهم وُسَطاء brokers داخل شبكة العائلات الفلورنسية Florentine النُخْبوية، مستغلين الثغرات الهيكلية المتنوعة فى النظام (انظر الشكل 10)[214].

كان صعود آل ميديتشى، إلى حد ما، مسألة زواج إستراتيجى (يشمل هذا الزواجُ أيضًا أفرادَ العائلات المتعادية كعائلات ستروزى[191] Strozzi

[191]ستروزى: من أغنى العائلات النبيلة القديمة الفلورنسية، بدأت فى تجارة الأعمال المَصْرفية قبل انتقالها إلى السياسة وسيطرت على مدينة سيينا، ولم يكن ينافسها سوى عائلة ميديتشى سياسيًا وماليًا التى كانت تسيطر على فلورنسا، وانتهى التنافس بينهما بتبادل الزيجات، الأمر الذي أعطى تفوقًا في النهاية لآل ميديتشي - المترجم.

وباتسى[192] Pazzi وبيتى Pitti): وهنا، كما فى معظم المجتمعات قبل الحديثة، الشبكة الأهم هي شجرة العائلة[215].

ومع ذلك، فى الفترة التالية على ثورة تشيومبى[193] The Revolt of the Ciompi

(1378 - 1382)، أدّى صعود مَصْرفيين من أمثال آل ميديتشى، إلى مصافِّ النُّخْبة السياسية الفلورنسية، إلى ابتداعٍ اقتصادىٍّ كبير: نقل أساليب طائفة محلية متخصصة فى فن الصِّرافة Arte della cambio (المَصْرفيين bankers) إلى مستوى دولى يهيمن عليه حتى الآن تجار القماش Arte della Calimala، وظهور الشّرَاكة بوصفها أساسَ نوعٍ جديد من الرأسمالية المالية finanacial capitalism[216].

ثم مع مجىء حُكم آل ميديتشى عام 1434، وُلِدَ «رجلُ النهضة» Renaissance man، مُتعدِّدُ المعارف الذى يشارك فى المال والتجارة و السياسة والفن والفلسفة معًا: «جزء منه رجل أعمال، وجزء منه سياسى، وجزء منه بطريركي[194] patriarch، وجزء منه ذوّاقة فكري»[217].

---

[192]باتسى: عائلة نبيلة توسكانية تخلّت عن ألقابها كى يُنْتخَبَ أفرادُها للمناصب العامة. كانت تجارتُهم الرئيسية خلال القرن الخامس عشر مَصْرفيةً. ارتبط اسمُ العائلة ب«مؤامرة باتسى» لاغتيال جوليانو دى ميديتشى بالتزامن مع محاولة قتل شقيقه لورينزو دى ميديتشي في يوم 26 أبريل عام 1478 - المترجم.

[193]ثورة تشيومبى: ثورة شعبية فى فلورنسا، العصور الوسطى المتأخرة، بقيادة عُمّال الصُّوف الإيطاليين المعروفين باسم «تشيومبى» للمطالبة بأصوات لهم فى إدارة البلدية - المترجم.

[194]بطريرك: كلمة ذات أصول يونانية، وترجمتها الحرفية «الأب الرئيس»، تشير إلى مَن يمارس السلطةَ بوصفه الأب، على مستوى العائلة. والنظام المُعتمِد على سلطة الأب يُسمّى «النظام البطريركي» - المترجم.

13

فَنٌ صفقةِ النّهْضة

رغم أن بنيديتو كوتروجلى[195] Benedetto Cotrugli أقلُ شهرةً من ميديتشى ، فهو يعطى مثالا ً نموذجيًا للأساليب التى تطوّرت بها الشبكاتُ الأوربية فى عصر النهضة: أساليب خلقت طبقة كوزموبوليتانية جديدة من الأفراد المترابطين فيما بينهم. «كتاب فنّ التجارة»[196] Book of the Art of Trade الذى ألّفه ونشره كوتروجلى، يُغْرينا بافتراض أنه النظير فى القرن الخامس عشر لكتابٍ ألّفه دونالد ترامب Donald Trump تحت عنوان «فنّ الصّفقة»[197] Art of The Deal.

لكن كوتروجلى لم يكن ترامب. فمن بين العديد من النصائح الحكيمة التى يُقدِّمُها كوتروجلى، نجده يُحذِّرُ التجارَ من توريط أنفسهم فى السياسة، إذ يقول: «لا يُنَاسِبُ التاجرَ أن يكون له علاقة بالمحاكم، وفى المقام الأول ألا يُورّطَ نفسَه فى السياسة أو الإدارة المدنية، لأن هذه الأمور محفوفة بـ المخاطر»[218]. كان كوتروجلى - بغضّ النظر عن تفاخره وتباهيه بالثروة بأسلوب مبتذل - نصيرًا للنزعة الإنسانية ومتعلمًا تعليمًا راقيًا، ويُجسّدِ التاجرُ المثالى عنده فضائلَ كلاسيكية لدى المواطن العادى، كما تصوّرها اليونانيون القدماء والرومان وأعاد اكتشافَها العلماءُ والباحثون الإيطاليون فى عصر النهضة.

اعتنى كوتروجلى، فى شبابه، بحضور الدروس فى جامعة بولونيا Bologna [فى إيطاليا]، ولكن (كما يُلاحِظُ بأسفٍ) «اتفق المصيرُ وسوءُ الحظ على أنه

---

[195] بنيديتو كوتروجلى: (1416 - 1469)، تاجر واقتصادى وعالِم وديبلوماسى، من أنصار النزعة الإنسانية - المترجم.

[196] «كتاب فن التجارة»: سرد حيوى لحياة تاجر من حوض البحر المتوسط فى بواكير عصر النهضة، كُتِبَ عام 1458. يُمثِّل دفاعًا حارًا عن مشروعية الممارسات التجارية، كما يتضمن ا لإشارة العلمية الأولى إلى «مَسْك الدفاتر مزدوجة القيْد». تُرَكِزُ أقسامُه الأربعة الأولى على: تقنيات المُتَاجَرة والتداول؛ من المحاسبة إلى التأمين؛ ثم أخيرًا حياة التاجر العامة وشؤونه العائلية - المترجم.

[197] «فن الصفقة»: كتاب ألّفه رجل الأعمال دونالد ترامب بالاشتراك مع الصحفى تونى شوارتز، ونُشِرَ عام 1987. يتكون الكتاب من جزءين هما: مذكرات ونصائح. حصل على المركز الأول فى قائمة النيويورك تايمز لأكثر الكتب مبيعًا فى ذلك العام. ويقول ترامب إنه كتابه المفضل الثانى بعد الكتاب المقدس. بعد انتخابات الرئاسة الأمريكية عام 2016، أصبح ترامب رئيس الولايات المتحدة الخامس والأربعين - المترجم.

من الصواب، فى غَمْرة مُتْعة الدراسات الفلسفية، أن أكفّ عن الدراسة وأُصْبِحَ تاجرًا، فالتزمتُ بممارسة التجارة، وتخلّيْتُ عن مسرّات الدراسة ومباهجها التي كنتُ قد كرّست نفسي لها تمامًا...»[219].

عاد كوتروجلى إلى مُباشَرة أعمال عائلته التجارية فى راجوزا Ragusa (حاليًا دوبروفنيك Dubrovnik)[198]، فهَالَه تردِّى المستوى الثقافى فى بيئته الجديدة. وفى غياب أيّ نوع من التعليم التجارى المنهجى، لم يكن يوجد أكثر من نظام معرفة مكتسبة فى مهنة التجارة «غير كافٍ، وعشوائى، واعتباطى وعتيق، إلى درجة أثارت شفقتى، وقد آلمنى أن هذا النشاط المفيد والضرورى وَقَعَ فى أيدى أُناس أجلاف غير منضبطين، يمارسونه دون اعتدال أو نظام، ويتجاهلون القانونَ وينحرفون عنه»[220].

يُعَدُّ «كتاب فنّ التجارة»، من نواحٍ عديدة، محاولةً من كوتروجلى لإثارة قضية معايير التعليم التجارى، ورَفْع مكانة الأعمال التجارية نفسها أيضًا. وعلى الرغم من أن الكتاب معروف للباحثين جيدًا بوصفه العملَ الأ َبْكر لوَصْف نظام مَسْك الدفاتر مزدوجة القيْد double- entry book -keeping ، إذ نُشِرَ قبل رسالة لوكا باتشولى[199] Luca Pacioli الأشهر De computis et scripturis (1494) بأكثر من ثلاثين عامًا - فإن «كتاب فنّ التجارة» هو الأبرز من ناحية اتساع موضوعه وطريقة عَرْضه. قدّم فيه كوتروجلى أكثرَ من مجرد نصيحة عملية عن المحاسبة. إذ عَرَضَ أسلوبَ حياة كامل. فهو ليس كتابًا دراسيًا جافًا، بل نُصْحًا لزملائه التجار كى يرتقوا إلى مَصافِّ رجال أعمال عصر النهضة.

يُعْطى كتابُ كوتروجلى القارئَ الحديثَ، أيضًا، لمحةً رائعة عن عالَمٍ تلاشَى. كوتروجلى وشقيقه ميكيل Michele المولودان فى راجوزا، كانا يستوردان الصوف الكاتالونى، وكذلك الأصباغ، ويدفعان بالفِضّة البلقانية، أو الأكثر شيوعًا صكوك مقايضة. وفى غضون مزاولته لمهنة التجارة، قضى وقتًا فى برشلونة Barcelona وفلورنسا Florence والبندقية Venice، وأخيرًا نابولى Naples، حيث عاش من عام 1451 حتى عام 1469. كانت حقًا حياةً

---

[198]راجوزا أو دوبروفنيك: جمهورية بحرية تركزت فى مدينة دوبروفنيك (بالإيطالية واللا تينية: راجوزا) فى دالماسيا (اليوم فى جنوب كرواتيا الحديثة)، وصلت إلى ذروتها التجارية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر تحت حماية الدولة العثمانية قبل أن يغزوها نابليون بونابرت عام 1808 - المترجم.

[199]لوكا باتشولى: (1447 - 1517)، عالِم رياضيات إيطالى، يُنْسَبُ إليه الفضل فى وضع أصول علم المحاسبة. كانت أعماله فى الرياضيات - رغم قلتها - القاعدة لعلماء الرياضيات في القرن السادس عشر - المترجم.

مُتَوسِّطية [نسبةً إلى حَوْض البحر الأبيض المتوسط]؛ فعَرَفَ كوتروجلى البحرَ بما يكفى لكتابة كتاب آخر عن الموضوع تحت عنوان «عن الملاحة» De navigatione، أهداه إلى مجلس شيوخ البندقية Venetian Senate. كما خَدَمَ أيضًا فرديناند Ferdinand ملكَ أراجون Aragon [شمال شرق إسبانيا]، بوصفه سفيرًا إلى راجوزا ومُعلِّمًا دَربًا فى نابولى. ولكن الحياة فى القرن الخامس عشر محفوفةٌ بالمخاطر أيضًا، حتى بالنسبة إلى تاجر ناجح. ففى عام 1460، اتُّهِمَ كوتروجلى بمحاولته تصدير سبائك ذهبية بطريقة غير مشروعة، ثم بُرِّئ من التهمة. ألَّفَ كوتروجلى كتابَه «فنّ التجارة» فى ريف سوربو سيربيكو[200] Sorbo Serpico، التى لجأ إليها هربًا من تفشِّى الطاعون فى نابولى. كان فى أوائل الخمسين من عمره حين مات عام 1469.

ومع ذلك، عاش كوتروجلى حياةً طيبةً. ربما فاتته مكتبات بولونيا، ولكنه كان فخورًا بمهنته التجارية ودعوته إلى الارتقاء بها. بل إن أجزاء من كتابه «فنّ التجارة» يمكن قراءتها بوصفها دفاعًا عن التُّجار ضد تُهَمٍ - كالرِّبا والجشع و الطمع - وجَّهها لهم متعصِّبون دينيون فى ذلك الوقت. أعلن كوتروجلى نفسُه «اندهاشَه من أن العديد من اللاهوتيين يُدِينون الصِّرافةَ، مع كوْنها جِدّ مفيدة، ويسيرة وضرورية تمامًا لإدارة الشؤون البشرية»[221]. (فى الوقت الذى كان فيه الرِّبا لا يزال غير شرعى، حرص كوتروجلى على تعريف المُرابين بأنهم «أولئك الذين - عند أوان الدّيْن - لن يَمُدُّوه دون فوائد على المقترضين العاجزين عن الدفع فورًا»)[222]. وبالإضافة إلى ترسيخ [فنّ] المُحاسَبَة الدقيقة، آمَنَ كوتروجلى فى وقت مبكر بالتنويع بوصفه أسلوبًا فى الإدارة وتقليل المخاطر. فكان يفترض أنّ على التاجر الفلورنسى الدخولَ فى شرَاكات متنوعة مع تجار فى البندقية وروما وأفينيون[201] Avignon، فيستثمر بعضَ رأسماله فى الصوف وبعضَه الآخر فى الحرير. يقول: «بعد أن وضعتُ يدى على العديد من الصفقات بأسلوب منظَّم وآمِن، لن أكسب شيئًا سوى الا ستفادة منها جميعًا، فاليد اليسرى ستساعد اليمنى»[223]. ويضيف قائلا ً: «يجب ألا تُخاطِرَ بالكثير مرةً واحدةً، برًّا أو بحرًا: قد تُغْنيك حمولةُ سفينة بخمسمائة قطعة ذهبية على الأكثر، أو ألف قطعة لألواح طباعة كبيرة»[224].

كان كوتروجلى عُقْدَةً فى شبكة ائتمان وقروض تجارية مزدهرة؛ ومن هنا إدانته ل«أولئك الذين يُمْسِكون بعمود واحد للحسابات، وكمْ يُدِينهم هذا ولا يُدِين الآخرين الذين يتوقعون منهم ذلك»، وهُم مَن أسماهم «نموذج التاجر الأ

---

[200] سوربو سيربيكو: بلدة في مقاطعة أفيلينو، جنوب إيطاليا - المترجم.

[201] أفينيون: بلدية في إقليم فوكلوز جنوب شرق فرنسا - المترجم.

أسوأ، الأكثر انحطاطًا وجَوْرًا»[225]. يقول كوتروجلى: «ينبغى على التاجر أن يكون الأكثرَ عالميةً بين الرجال، والأقدر - أكثر من زملائه - على التعامل مع مختلف الرجال والطبقات الاجتماعية». ف«كلٌ معرفة قد يعرفها الرجل مفيدةٌ للتاجر»، بما فى ذلك الكوزموجرافيا [علم أوصاف الكون] cosmography والجغرافيا والفلسفة وعلم مواقع النجوم واللاهوت والقانون. وباختصار، من الممكن قراءة «كتاب فنِّ التجارة» بوصفه بيانَ [مانيفستو] مجتمعٍ شَبَكيٍّ جديدٍ مُتعدِّدِ المعارفِ أيضًا.

14

المُستكشِفون

التقدُّم الذى تحقّقَ فى إيطاليا Italy، وما يحيط بها، يُبَيّنُ أن أوربا - من حيث التطور الثقافى والاقتصادى - اختلفت عن بقية العالم قبل نهاية القرن الخامس عشر. ولكن التقدُّم [الاختراق] المفاجئ الحاسم، الذى اسْتَبَقَ عصرَ الهيمنة الأوربية على العالم، لم يكن النهضةُ الإيطالية بقدر ما كان عصر الا ستكشاف الأيبيري[202] Iberian age of exploration.

فابتداءً من عهد هنرى [هنريك] الملاح Henrique the Navigator [203] (1415 - 1460)، بدأ البحارةُ البرتغاليون مغامرةَ الإبحار أبعد من أوربا، أولا ً جنوبًا بمحاذاة ساحل غرب أفريقيا، وثانيًا على طول الطريق عبر المحيطين الأ طلنطى والهندى، ثم أخيرًا المحيط الهادى. خلقت هذه الرحلاتُ الاستثنائية الخَطِرة والطموحة شبكةً طرقٍ تجارية جديدة عبر المحيطات، عَجّلَتْ بتحويل الاقتصاد العالمي من أسواق إقليمية إلى سوق عالمي واحد.

ورغم الرعاية المَلَكيّة للمستكشفين، فقد كانوا بحدِّ أنفسهم شبكةً اجتماعية، تتشارَكُ معرفةَ بناء السفن والملاحة والجغرافيا والحرب. وكما يحدث غالبًا فى التاريخ، استحثّت التكنولوجياتُ الجديدة ظهورَ هذه الشبكات الجديدة التى عملت، فى الوقت نفسه، على تسريع مُعدّل الابتكارات. أفضلُ السفن، وأفضلُ الأ َسْطُرلابات astrolabes، وأفضلُ الخرائط، وأفضلُ البنادق - أسهمت كلُّها فى إنجازات عصر الاستكشاف المثيرة. كذلك أيضًا، انتقلت عبر ا لأطلنطى الأمراضُ الأوراسية إلى الأمريكيين الأصليين Native Americans الذين لم يكن لديهم مقاومةٌ لها. تكفّلَتْ هذه الأمراض، فى العالم الجديد New World أكثر من آسيا، بأن يكون عصرُ الاستكشاف عصرَ غَزْوٍ أيضًا.

بدايةً من عام 1434، عندما نجح جيل إينس[204] Gil Eanes فى عبور رأس

---

[202]عصر الاستكشاف الأيبيرى: الاستكشاف، بوجه عام، بدأ مع أوائل القرن الخامس عشر، واستمر حتى نهاية القرن الثامن عشر، حيث قام الأوربيون باستكشاف واسع النطاق خارج القارة، ويراه البعضُ بدايةً ال عَوْلمة. افتتحه البرتغاليون والإسبان، ومن هنا صفة «الأ يبيري» - المترجم.

[203]هنرى [هنريك] الملاح: (1394 - 1460)، أمير برتغالى، الابن الثالث لملك البرتغال آنذاك. حصل على اسم «الملاح» بسبب تنظيمه للرحلات التى استكشفت أراضىَ جديدةً. يُعَدُّ الشخصية التي بدأت التوسُّع الاستعماري الأوربي - المترجم.

[204]جيل إينس: ملاح ومستكشف برتغالي - المترجم.

بوجادور[205] Cape Bajador - «الرأس المنتفخ» لما صار ساحلَ الصحراء الغربية الشمالى - مَدّ البحارةُ الذين توقفوا عند جرف ساجريس[206] Sagres، تدريجيًا، نطاقَ ملاحتهم البرتغالية، فقاموا بمغامرات أبعد من مرأى الأرض. فى ربيع عام 1488، وصل بارتولوميو دياز[207] Bartolomeu Dias إلى ما يُحاذِى كوايهوك[208] Kwaaihoek، وتُسمّى اليوم الرأس الشرقية Eastern Cape، فاستكشفَ فى طريق عودته إلى البرتغال رأسَ الرجاء الصالح Cape of Good Hope. ثم بعد عقد من الزمان، واصل الرحلةَ فاسكو دا جاما Vasco d Gama إلى موزمبيق Mozambique، ثم عَبَرَ المحيط الهندى - بصحبة مُرْشِدٍ محلى - إلى كاليكوت[209] Calicut (كوزيكود Kozhikode) فى ولاية كيرالا[210] Kerala. وفى فبراير عام 1500، انطلق فى أعقابه بيدرو ألفاريس كابرال Pedro Álvares Cabral، ولكنه أبحر إلى الجنوب الغربى، متجنِّبًا حالات الركود الاستوائى[211] فى خليج غينيا Gulf of Guinea، حتى وصل فى نهاية المطاف إلى ساحل البرازيل. لم يَقْنَعْ كابرال بما استكشفه فتَقَدّمَ إلى كاليكوت ، ومن هناك - بعد مماحكة عنيفة مع التجار المسلمين المنافسين - أبحر أبعد جنوبًا إلى كوشين Cochin (كوتشي Kochi)[212].

205رأس بوجادور: على الساحل الشمالى الغربى للصحراء الغربية، تحت حكم المملكة المغربية - المترجم.

206جرف ساجريس: جنوب البرتغال، ويُعَدُّ أقصى جنوب غرب القارة الأوربية. كان بالنسبة إلى الأوربيين يُمثِّل نهاية العالم - المترجم.

207بارتولوميو دياز: (1450 - 1500)، مستكشف برتغالى، وأول أوربى يُبْحِرُ حول طريق رأس الرجاء الصالح في عام 1488 - المترجم.

208كوايهوك: رأس صخرى على ساحل خليج ألجوا فى مقاطعة الكاب الشرقية جنوب أفريقيا - المترجم.

209كاليكوت: مدينة في ولاية كيرالا، جنوب الهند، على ساحل مالابار - المترجم.

210كيرالا: ولاية استوائية فى الهند، على الساحل الجنوبى لشِبْه القارة الهندية. تطل على المحيط الهندي، وبها قنوات مائية وغابات استوائية - المترجم.

211الركود الاستوائى doldrums: تعبير مستمد من الاستخدام البحرى التاريخى، يشير إلى تلك المناطق فى المحيطين الأطلنطى والهادى المتأثرة بمنطقة منخفضة الضغط حول خط الاستواء، حيث تكون الرياح السائدة هادئة، وهو ما لا يساعد على الإبحار الجيد - المترجم.

212كوشين أو كوتشى: من أهم الموانئ البحرية الهندية بولاية كيرالا، مقاطعة إيرناكولام -

بين عامىْ 1502 و1511، أنشأ البرتغاليون، بطريقة نظامية مُمَنْهَجة، شبكةَ مراكز تجارية حصينة، شَمَلَتْ جزيرةَ كيلوا كيسيوانى[213] Kilwa Kisiwani (تنزانيا Tanzania)، وممباسا[214] Mombasa (كينيا Kenya)، وكانور[215] Kannur (كيرالا Kerala)، وجوا Goa، ومَلَقا[216] Malacca (ماليزيا Malaysia)[226]. تلك هى كل الأماكن التى لم تكن تعرفها أجيالُ الأوربيين الأ سبق.

فى أغسطس عام 1517، رَسَتْ ثمانى سفن برتغالية قبالة ساحل جوانجدونج[217] Guangdong. وتستحق هذه المناسبة أن نستفيض فيها، لأ نها أحدُ أول الاتصالات بين الأوربيين والإمبراطورية الصينية منذ زمن ماركو بولو[218] Marco Polo أواخر القرن الثالث عشر[219]. كان قائد الأسطول البرتغالى الصغير فيرناو بيريس دى أندرادى[220] Fernão Peres de Andrade،

المترجم.

[213] كيلوا كيسيوانى: جزيرة على ساحل أفريقيا الشرقى، تتبع حاليًا جمهورية تنزانيا، ويفصلها عن بقية الأراضى التنزانية مضيقٌ بحرى عرضه 3 كم. تردّدَ العربُ عليها للتجارة منذ العصر الأموى واستوطنوها، الأمر الذى أدّى إلى انتشار اللغة العربية التى تحوّرتْ لا حقًا إلى اللغة السواحيلية - المترجم.

[214] مومباسا: ميناء رئيسى فى كينيا يطل على المحيط الهندى، ويقع تقريبًا على خط الا ستواء - المترجم

[215] كانور: مدينة هندية بولاية كيرالا، تطل على المحيط الهندي – المترجم

[216] مَلَقا: ثالث أصغر أقاليم ماليزيا، فى الجهة الجنوبية من شبه جزيرة مالايو، تطل على مضيق يحمل اسمها - المترجم.

[217] جوانجدونج: مقاطعة صينية تقع فى جنوب البلاد على ضفاف بحر الصين، أهم سهولها دلتا «تشو» أو «نهر اللؤلؤ» - المترجم.

[218] ماركو بولو: (1254 - 1324)، تاجر إيطالى ومُسْتكشِف وكاتب. من أشهر كتبه «عجائب العالم» المعروف ب«رحلات ماركو بولو». يصف فيه للأوربيين الإمبراطوريةَ الصينية، وعديدًا من المدن الآسيوية - المترجم.

[219] أول تاجرين وصلا إلى الصين فى هذه الفترة هما: جورج ألفاريس Jorge Álvares فى عام 1514، والإيطالى رفائيل بِريستريلو Rafael Perestrello فى عامىْ 1515/ 1516 - المؤلف.

[220] فيرناو بيريس أندرادى: (1458 - 1552)، تاجر برتغالى وصيدلى ودبلوماسى رسمى، كُلِف باستئناف الاتصال الأوربي مع الصين بعد التوقف منذ زمن ماركو بولو - المترجم.

ومعه ضِمَن الطاقم أيضًا الصيدلىُّ تومى بيريس[221] Tomé Pires، الذى كان مبعوثَ التاج البرتغالى إلى بلاط المينج Ming court [أسرة مينج أباطرة الصين].

ولعل السبب فى أن البعثة قد لَفّتْها - إلى حد كبير - غياهبُ النسيان أنها لم تُسْفِرْ عن شىء. بعد المتاجرة فى تونمِن Tunmen (حاليًا، ناى لينجدينج أيسلاند Nei Lingding Island [222] الواقعة عند مَصَبِّ نهر اللؤلؤ Pearl River، غادر [الأسطول] البرتغالى الصغير مرة أخرى فى سبتمبر عام 1518. وبعد أحد عشر شهرًا، عادت ثلاثُ سفنٍ برتغالية، هذه المرة بقيادة سيماو دى أندرادى Simão de Andrade، شقيق فيرناو. وفى يناير عام 1520، أقلع تومى بيريس باتجاه الشمال على أمل النجاح فى مقابلة الإمبراطور تشنج دى[223] Zhengde ، ولكنه سُوِّفَ كثيرًا، ثمّ مع وفاة الإمبراطور يوم 19 أبريل عام 1521، وَجَدَ نفسَه واقعًا في الأسْر.

ثم بعد وقت قصير، وَصَلَ أسطولٌ برتغالى آخر بقيادة ديوجو كالفو Diogo Calvo، رَسَا فى تونمِن. طلب المسؤولون الصينيون من كالفو المغادرة، وعندما رَفَضَ نَشَبَ القتالُ. ولم يستطع كالفو، حتى بعد وصول سفينتين إضافيتين من مَلَقّا، أن يتفادى هزيمةً مُهينة على أيدى الأسطول الصينى بقيادة أميرالي المينج [عميد بحري] وانج هونج Wang Hong.

كلُّ الزوارق البرتغالية غرقت، عدا ثلاثة. ثم بعد عام، فى أغسطس عام 1522، حاول البرتغاليون مرةً أخرى فوَصَلَتْ ثلاثُ سفن إلى تونمِن، بقيادة مارتيم كوتينهو Martim Coutinho. ومع أن لجنةً مَلَكيّة صاحبت السفنَ البرتغالية بغرض عَقْد السلام، نَشَبَ القتالُ مرة أخرى، وأُغْرقَتْ سفينتان برتغاليتان. قُيِّدَ البحارةُ البرتغاليون المأسورون بالكانجات[224] cangues. (أطواق خشبية ثقيلة)، ثمّ أُعْدِموا فى سبتمبر عام 1523. وأُجْبِرَ تومى وأعضاء آخرون فى البعثة الديبلوماسية الأصلية على كتابة رسائل إلى وطنهم تُفيدُ بطلب

[221]تومى بيريس: (1465؟ - 1524 أو 1540)، صيدلى برتغالى. ترأس أولَ سفارة أوربية إلى الصين خلال عهد أسرة مينج أباطرة الصين - المترجم.

[222]لينجدينج: جزيرة في مقاطعة جوانجدونج، جنوب شرق الصين - المترجم.

[223]تشنج دى: (1491 - 1521)، إمبراطور الصين الحادى عشر من سلالة مينج. سُمِّى عهده باسم «الفضيلة الحقة» - المترجم.

[224]الكانج: أداة استُخْدِمَتْ فى الإذلال العلنى والعقاب البدنى فى الصين، وفى بعض المناطق شرق آسيا وجنوب شرق آسيا حتى أوائل القرن العشرين. تتكون من مستطيل خشبي أو طوق خشبي ثقيل تنفذ منه رأس الأسير أو المُعَاقَب - المترجم.

السلطات الصينية أن يعيد البرتغاليون مَلَقًا إلى مالكها الشرعي.

وباختصار، لم يكن ما حَدَثَ شيئًا سوى تذكير بأن التوسُع الأوربى عبر البحار ليس عمليةً سَلِسَةً وهيّنةً. بل من السهل التغاضى عن المخاطر التى تعرّضت لها جميع الرحلات البحرية المذكورة أعلاه. ففى رحلة فاسكو دا جاما الأولى إلى كاليكوت، خسر نصف طاقمه، بمَن فيهم شقيقه. لقد رَسَا كابرال باثنتى عشرة سفينة فى عام 1500، عادت خَمْسُ سفن منها فقط. فلماذا يتكبّد البرتغاليون، إذن، مخاطرَ كبيرةً من هذا النوع؟ الإجابةُ أن المكاسب التى ستُجْنَى من إنشاء - ومن ثمّ احتكار - طريق جديد للتجارة مع آسيا تستحق المخاطرة. فمن المعروف جيدًا أن الطلب الأوربى على التوابل الآسيوية مثل الفلفل والزنجبيل وجوزة الطيب والقرنفل وغيرها، تنامى بسرعة فى القرن السادس عشر. فروق السعر بين الأسواق الآسيوية والأوربية كانت هائلةً فى البداية. ولكن المعروف بدرجة أقل، مدى ما وصل إليه البرتغاليون من شَقِّ طريقهم بالقوة فى التجارة القائمة داخل آسيا. ما كان يتدفق إلى الصين فى عهد سُلالة المينج Ming China لم يكن الفلفل من سومطرة فقط، بل الأفيون والمكسّرات (لاستخلاص حمض الطنطاليك tannin المستخدم فى الطب الصينى بوصفه دواء قابضًا)، والزعفران والمرجان والقماش والصبغة القرمزية والزئبق والخشب الأسود، والبوتشوك putchuck (الباتشاك pachak) من أجل البخور، واللبان والعاج، أيضًا. أما الذى كان يتدفق من الصين فكان النحاس والملح والرصاص وحجر الشبّ وخيوط الكتان، والكابلات [حزم أسلا ك معدنية] ومشغولات الحديد والقارّ والحرير ومشغولات حريرية (مثل مواد تزيين المفارش والساتان والتطاريز)، والخزف، والمسك والفضة والذهب وحبّات اللؤلؤ الصغيرة وقطع زخرفية مطلية بالذهب والخشب المذهّب وأطباق المائدة ومراوح اليد المزركشة[227]. ولا شك فى وجود دوافع أخرى للإ بحار على طول نصف الطريق حول العالم.

كانت المعرفة الطبية الصينية متفوقة، من بعض النواحى، على المعرفة الأ وربية فى ذلك الوقت، وكان تومى بيريس [الصيدلىُّ فى الأساس] يأمل فى معرفة المزيد عنها. ثمة أيضًا الدافع الدينى لنشر المسيحية، الذى نما بشكل أكبر مع وصول اليسوعيين إلى آسيا، فتأسّستْ شبكةٌ كاثوليكية رومانية بوَسَاطة الجندى الإسبانى إجناسيو دى لويولا[225] Ignacio de Loyola. فى ثـ لاثينيات القرن السادس عشر. وأخيرًا، وُجِدَتْ دون ريب فوائد من إقامة علا

---

[225] إجناسيو دى لويولا: (1492 - 1556)، أو إغناطيوس بالنطق اللاتينى. أسّس نظامًا دينيًا عُرِفَ باسم «اليسوعية»، بوصفه جزءًا من الإصلاح المضاد، أخذ على عاتقه التبشير بـ المسيحية في العالم الجديد - المترجم.

اقات ديبلوماسية مع الإمبراطور الصينى. ومع كل ذلك، لولا الحتمية التجارية ، لم تكن الدوافع الأخرى ستكفى لحثِّ الرجال على تحمُّل مشاقِّ تلك المسافات الهائلة وتكبُّد المصاعب والأذى.

لم يصل البرتغاليون بمنتجاتهم العديدة ليعرضوها على المستهلكين الآسيويين (وإنْ جلبوا معهم بعضَ العبيد والذهب من قواعدهم الاستيطانية فى غرب أفريقيا). لم يكن ذلك غرضهم. كلا، ولم يأتوا بوصفهم غزاةً عازمين على كسب أراضٍ أو رعايا جُدُدٍ لمَلِكهم. فما كان لدى البرتغاليين هو سلسلةُ مزايا تكنولوجية جعلت محاولتَهم إنشاء شبكة تجارية جديدة ومتفوّقة، قابلةً للتحقيق[228]. لقد تمكّنوا بعد دراستهم للنصوص العربية والعباسية و الهندية من تعلُّم الاستخدام المنهجي الصحيح للرُّبْعيّات[226] quadrants.

والأَسْطُرلابات فى نصوص مثل Regimento do Estrolabio do Qoudrante (1493) وال Almanach Perpetuum (1496) للفلكى السفاردى أبراو [أبراهام] زاكوتو[227] Abraão Zacuto، أحد اليهود الذين استقروا فى البرتغال بعد طردهم من إسبانيا في عام 1492.

فأتقن الحِرفيّون البرتغاليون المَهَرة - من أمثال أجوستينو دى جوس رابوسو Agostinho de Goes Raposo، وفرانسيسكو جويس Francisco Gois، وجواو دياز João Dias - تشييدَ سفن ومُعِدّات بَحَرية كبيرة. الكارافيل البرتغالى[228] caraval، وأخلافه الناو الكبير the great nau (1480) والغليون galleon (1510) - كانت سفنًا أفضلَ كثيرًا من سفن الإبحار الأخرى فى ذلك

---

226 الرُّبْعيّات ومفردها الرُّبْعيّة: هى ذات الرُبْعيّة: أداة تُستخدَمُ فى الفلك والمِلاحة لقياس الارتفاع، وتتألّف من قوس مُقسّم إلى تسعين درجة - المترجم.

227 أبراو [أبراهام] زاكوتو: (1452 - 1515)، عالِم رياضيات وفلك ومؤرّخ يهودى إسبانى. عقب طرد اليهود من إسبانيا لجأ زاكوتو إلى البرتغال حيث عُيّن مؤرّخًا وفلكيًا فى البلاط الملكى. لعبت مؤلفاته دورًا كبيرًا فى عصر الاستكشاف. ثم اضطر إلى مغادرة البرتغال إثر تحوُّلات قَسْرية حوالى عام 1497، واستقر فى الإمبراطورية العثمانية حيث مات. وصِفَةُ السفارديم أو السفاردى ترتبط فى الأساس باليهود الذين تعود أصولهم الأولى إلى أيبيريا (إسبانيا والبرتغال)، ثم طُردوا منها لتحوّلات قَسْرية وتفرّقوا فى شمال أفريقيا وآسيا الصغرى والشام، وكثير منهم كانوا من رعايا الإمبراطورية العثمانية فى المناطق الخاضعة لها - المترجم.

228 الكارافيل البرتغالى: سفينة شراعية ذات قدرة عالية على المناورة، طوّرها البرتغاليون فى القرن الخامس عشر للقيام برحلاتهم الاستكشافية على مدى القرنين الخامس عشر و السادس عشر - المترجم.

الوقت. ثم أخيرًا، مع خريطة كانتينو[229] Cantino Map عام 1502، حققَ البرتغاليون تقدمًا مفاجئًا في رسم الخرائط [الكارتوجرافيا] Cartography:

---

[229] خريطة كانتينو: أقدم خريطة تُصَوّرُ الاكتشافات الجغرافية البرتغالية فى الشرق والغرب ، وهي أقرب خريطة بحرية تُصَوِّر الأماكنَ وفقًا لخطوط العرض المُرَصّدة فلكيًا - المترجم.



أول إسقاط حديث لجغرافية العالم، برسومات دقيقة - إلى أبعد حد - لقارات العالم الرئيسية، باستثناء أستراليا والقارة القطبية الجنوبية [أنتاركتيكا] Antarctica.

يتضح مما حَدَثَ - عندما سَعَتْ هذه الشبكة الديناميية والابتكارية الاستثنائية إلى إقامة «عُقْدة» جديدة فى جنوب الصين - مدى الفشل حين تُواجِه شبكةٌ تسلسلا ً هَرَميًّا حصينًا ذا طابع مؤسّسى. كان الإمبراطور الصينى يَحْكم من الأعلى [رأس الهرم]. كتب الإمبراطور يونجلى[230] Yongle إلى حاكم أيُودِيها Ayudyha فى تايلاندا Thailand عام 1419 الآتى: «لقد تحمّلتُ بوقار تفويضَ السماء وأنا أحكم الصينيين وشعب يى Yi. ومن خلال حُكْمى، أجسِّدُ المحبةَ بين السماء والأرض والاعتناء برعاية كل الأشياء، وأنظرُ إلى الجميع على قدم المساواة دون تمييز بين شىء وآخر». أما الحُكّام [عدا الإمبراطور الصينى] الأ قل منزلةً فدورُهم السليمُ «احترام السماء وخدمة الأرفع مقامًا» بالالتزام بنظام الوفادة[229]. الإمبراطور يونجلى يُفضِّل الملاحة فى المحيطات. ففى عهده، قاد الأميرالى تشنج هى[231] Zheng He أسطوله الكنز بمحاذاة ساحل شرق أفريقيا[230].

---

[230]يونجلى: (1360 - 1424)، إمبراطور الصين الثالث فى أسرة مينج، تولّى الحُكْمَ من عام 1402 حتى عام 1424 - المترجم.

[231]تشنج هى: (1371 - 1433)، ويُسمّى بالعربية حجّى محمود شمس، بحار صينى مسلم، من أسرة مسلمة تُدْعَى «ما»، في مقاطعة يونان جنوب غرب الصين.

قام بسبع رحلات بحرية استغرقت 28 عامًا، زار فيها البلادَ الواقعة على ساحل المحيط الهندى وجنوب آسيا وأفريقيا، كما وصل إلى منطقة الخليج والبحر الأحمر ومكة المكرمة، حاملا ً معه بضائع كثيرة من المنسوجات الحريرية والمجوهرات والعقاقير الطبية الصينية - المترجم.

ولكن خلفاء يونجلى استسلموا لتفضيل البيروقراطية الإمبراطورية الاكتفاءَ الذاتى [الانعزالية]، إلى درجة حَظْر التجارة [الخارجية] عبر البحار رسميًا. فى رأى أسرة المينج، المُتطفِّلون البرتغاليون هم «فو لانج تشى» Chi- Lang -Fo (من الكلمةِ الهندىِ جنوب شرق آسيوية «فرنجي» ferengi، المستمدة من الكلمة العربية التى أُطلِقَتْ على «الفرنكيين»[232] Franks فى الحملات الصليبية). ولم تُغَيِّر العبارةُ التى أطلقها الصينيون [فو لانج تشى] عن أية مَوَدّة. لقد اعتبر الصينيون الأجانبَ «أصحابَ قلوب قذرة». وانتشرت الشائعات بأنهم يَشْوون الأطفال ويأكلونهم.

لم يُخْطِئ البرتغاليون فى أن الصين قدّمتْ فرصةً اقتصاديةً حقيقيةً. ازدهرت التجارة غير المشروعة مع كلٍّ من سَيَام Siam [تايلاند الآن] ومَلَقّا عَبْرَ يو كانج Kang-Yueh (القريبة من مدينة زهانجزهو Zhangzhou فى مقاطعة فوجيان Fujian). وإذ بينما أرادَ كبارُ موظفى الإدارة الإمبراطورية - الحُكّام والقضاةُ العُلماءُ من أمثال كيو داو لونج long-Qiu Dao وهى آو He Ao - تقليلَ الاتصالات الأجنبية، اشْتَهَى الخِصْيانُ - المسيطرون على البلاط الإ مبراطورى - الوارداتِ الأجنبيةَ [المجلوبة من الخارج]، وكذلك الفضة الأجنبية من التجارة. وأما البرتغاليون فحاولوا عمل أكثر مما يَقْوون عليه. تجاهل سيماو دى أندرادى الحساسيات المحلية مستهترًا بها. فقام - دون موافقة المسؤولين الإمبراطوريين - ببناء حصن فى تونمِن، وشَنَقَ بحارًا برتغاليًا مُنْتَهِكًا القانونَ الصينى، وأقصى السفنَ غير البرتغالية عن الميناء، وعندما جُوبِه بما فعل أسْقَطَ قبعةَ موظف كبير. شراؤه المُتكرّر للأطفال الصينيين بوصفهم خدمًا، عَدّى الشكوكَ بأن الفو لانج تشى [الفرنجة] من أكلَة لحوم البشر فعلا ً. وتعاملت البيروقراطية الصينية من جانبها، مع تومى بيريس، بازدراء وغطرسة. فبعد أن أتمّ بيريس ورفاقه رحلتَهم الطويلة الشاقة إلى بكين Beijing، أُمِروا بالذهاب والوقوف خَزَايا أمام سور المدينة المُحرّمة[233] Forbidden City فى الأول والخامس عشر من كل شهر قمرى. كان الإمبراطور

---

[232] الفرنكيون أو الفرنجة أو الفرنسيس: مجموعة من الشعوب الجرمانية، وَرَدَ ذكرهم لأول مرة فى المصادر الرومانية فى القرن الثالث. شكلوا ما عُرِفَ باسم «تحالف القبائل الجرمانية»، واستوطنوا المناطق الشمالية من بلاد الغال (حاليًا فرنسا وأجزاء من غرب ألمانيا)، مكوّنين فيها إمارةً شِبْه مستقلة. واسم «فرنسا» الحديثة مأخوذ من هذه القبائل. تشير الكلمة في السياقات العربية الحديثة إلى كل ما هو أوربي عمومًا - المترجم.

[233] المدينة المُحرّمة أو المدينة القرمزية المحرّمة أو القصر الإمبراطورى: من المعالم التاريخية الكبرى فى مدينة بكين، ويقع القصر الإمبراطورى فى قلب بكين. مقر الأباطرة من أسرتيْ «مينج» ثم «تشينج» - المترجم.

تشينج دى Zhengde، المجهول لهم، سادرًا فى غِيِّه، إلى درجة أنه لم يفكر لحظةً في السماح لهم بالمقابلة التي يريدونها.

وأما غلطة البرتغاليين الكبرى فكانت عدمَ تقديرهم نظام الوفادة[234]. فجوهرُ البنية الهَرَميّة يعنى امتداد تأثير الإمبراطور الصينى إلى أبعد من الحدود الإ مبراطورية. وقد اعتبر البرتغاليون محورَ مَلَقّا التجارى الحيوى مِلكًا لهم. ولم يكن ذلك رأى محمود شاه ملك بينتانج Raja of Bintang (جزيرة بينتن Bentan [فى إندونيسيا]، ابن ملك مَلَقّا. فحذّرَ سفيرُه فى بكين السلطاتِ الصينيةَ من تآمر البرتغاليين «ليكون البلد لنا... وأننا عصابة [لصوص]»، على حدِّ تعبيرٍ وَرَدَ فى رسالة كتَبها كريستوفاو فييرا Christovão Vieyra أحدُ البحارة البرتغاليين، وقد اعتقله الصينيون لاحقًا. وَجَدَ هذا التحذيرُ صدىً لدى المسؤولين الإمبراطوريين:

محمود شاه تابِعٌ جديرٌ بالثقة يدفع الضرائب[231].

فلماذا إذن ساد البرتغاليون فى نهاية المطاف، إلى درجة أن جعلوا ماكاو[235] Macau جزءًا من شبكتهم فى عام 1557، فاستحوذوا عليها واستمرت فى أيديهم لأكثر من أربعمئة سنة؟ الإجابة هى أن شيئين قد تغيّرا. أولا ً، الحَظْر الصينى على التجارة ثبَتَ أنه غير قابل النفاذ. فالرجلان الواصلان لتوِّهما من البرتغال - ليونيل دى سوزا[236] Leonel de Sousa وسيماو دى ألميدا Simão d'Almeida - نجحا فى تثبيت أقدام البرتغاليين فى تجارة جواندونج. ومع التحفيزات الملائمة، استطاع مسؤولون من أمثال وانج بو Wang Po النائب

---

[234]الوفادة: نظام صينى فى العلاقات الديبلوماسية والتجارية مع الأجانب يفرض عليهم ا لإعراب عن تعظيم الإمبراطور وإجلاله بتقديم الهدايا الثمينة ودفع ضرائب مقابل أنشطتهم التجارية - المترجم.

ماكاو: إحدى منطقتين إداريتين خاصّتين (والثانية هونج كونج) تابعتين لجمهورية الصين الشعبية. مساحتها أقل من 30 كم، وتقع على سواحل الصين الجنوبية. ظلت ماكاو مستعمرةً برتغالية حتى يوم 20 ديسمبر 1999. تتميز ماكاو حاليًا بوجود العديد من الكازينوهات وانتشار القمار المُرخّص قانونًا - المترجم.[235]

[236]ليونيل دى سوزا: فى عام 1554، استطاع التفاوض مع السلطات المحلية فى جوانجتشو وعَقد اتفاقية تسمح بالتصديق الصينى الرسمى على الأنشطة التجارية البرتغالية مقابل دفع ضرائب. فتحت هذه الاتفاقيةُ الطريقَ أمامه لتحويل ماكاو إلى ما يشبه مخزن بضائع برتغالية خلال ثلاث سنوات. وفى عام 1558، صار ليونيل دى سوزا فى رُتبة تُعادِلُ «حاكم ماكاو». يُعَدُّ فاتحَ حقبةٍ جديدة من العلاقات البرتغالية الصينية بعد الحَظْر الصيني لأنشطة البرتغاليين منذ عام 1522.

وتدريجيًا، تحولت ماكاو إلى مستعمرة برتغالية - المترجم.

المُفوّض لدائرة الدفاع البحرى فى جوانجدونج، أن يتحول من موقف الخَصْم إلى موقف الشريك التجاري.

وثانيًا، رغم انتصار الصينيين فى المواجهات البحرية الباكرة على البرتغاليين، فإنهم قدّروا تفوّقَ السفن والمَدَافِعِ البرتغالية. والذى حَسَمَ الأمرَ أن كبار مسؤولى أسرة المينج اعتبروا البرتغاليين أقلّ شرًّا، بالمقارنة مع قراصنة شرق آسيا من السكان المحليين. فى يونيو عام 1568، ساعد تريستام فاز دا فيجا Tristam Vaz da Veiga القواتَ البحريةُ الصينية فى الدفاع عن ماكاو ضد أسطول قراصنةٍ عددُه حوالى مئة سفينة[232]. وبعد عام 1601، ستُحَاربُ القواتُ البرتغالية والصينية معًا لصَدِّ مُتطفِّلين جُدُدٍ من هولندا.

15

بيزارو والإنكا

مع انتشار الشبكة البحرية البرتغالية فى الشرق، ذَهَبَ الإسبانُ إلى الغرب و الجنوب. ثمّ بموجب معاهدة توردسيلاس[237] 1494 (Treaty of Tordesillas)، طالبت إسبانيا بالأمريكيتين إلى جانب البرازيل. وثمة فرق ثانٍ بين البرتغاليين والإسبان. إذ بينما قَنَعَ المُستكشِفون البرتغاليون، فى الأغلب الأعمّ ، بإنشاء شبكة مراكز تجارية حصينة[238]، طمح نظراؤهم الإسبان إلى التوغُّل في عمق الأراضي المُستكشَفة بحثًا عن الذّهب والفضة.

الفرق الثالث أن الإمبراطوريات الآسيوية التى واجهها البرتغاليون استطاعت الصمودَ أمام غاراتهم، الأمر الذى لم يَنتج عنه سوى تنازلات إقليمية طفيفة، على حين انهارت الإمبراطوريات الأمريكية التى هاجمها الإسبان بسرعة مذهلة. حَدَثَ هذا الانهيارُ السريع بفضل الآثار التدميرية الناتجة عن الأمراض الأوراسية المُعْدِية التى جلبها الإسبان معهم عبر الأطلنطى، أكثر من كوْنه نِتاجَ أى مزيّة تكنولوجية. ولكن من نواحٍ أخرى، ما حَدَثَ حين توَاجَه فرانسيسكو بيزارو[239] Francisco Pizarro وأعوانه الـ 167 مع أتاوالبا[240] Atahualpa إمبراطور الإنكا[241]، فى معركة كاخاماركا[242] Cajamarca نوفمبر

---

[237] معاهدة توردسيلاس: توردسيلاس مكان اللقاء بين ولى عهد البرتغال وتاج قشتالة (إسبانيا)، وهى حاليًا فى مقاطعة بلد الوليد إسبانيا؛ بمقتضى المعاهدة قُسِّمت الأراضى المستكشفة حديثًا خارج أوربا على خط الطول 370 فرسخ غرب جزيرة الرأس الأخضر خارج الشاطئ الغربى لأفريقيا، بحيث تنتمى الأراضى المتجهة شرقًا إلى البرتغال، والأراضى المتجهة غربًا إلى إسبانيا. أما الجزء الآخر من العالم فسيُقسّمُ بينهما بمقتضى معاهدة سرقسطة (ساراجوسا) التى وُقِّعَتْ يوم 22 أبريل عام 1529. النسخ الأصلية للمعاهدات محفوظة فى الأرشيف الإسبانى العام فى إندياس، وفى المحفوظات الوطنية البرتغالية في توري تومبو - المترجم.

[238] بمعنى أن البرتغاليين اكتفوا بتحصين مراكز تجارية لهم على السواحل فى الأراضى المستكشفة - المترجم.

[239] فرانسيسكو بيزارو، النطق الإسبانى فرانثيسكو بيثارو: (1478 - 1541)، مُستكشِف إسباني، غزا إمبراطورية الإنكا، وأسّس مدينة ليما عاصمة بيرو الحالية - المترجم.

[240] أتاوالبا: آخر ملوك الإنكا، هزمه بيزارو ثم أعدمه مخالفًا اتفاقًا بينهما بعد حصوله على الفدية، غدرًا وخيانةً. حُكِمَ عليه بالموت خنقًا وأُحْرِقَتْ جثته - المترجم.

[241] الإنكا: أكبر الإمبراطوريات وأقدمها فى العصر قبل الكولومبى. بَنَتْها شعوبُ الهنود

عام 1532، يُمَاثِلُ ما حَدَثَ فى جواندونج [بين البرتغاليين والصينيين] قبل عقد سابق: شبكةٌ أوربيةٌ هاجمت تسلسلا ً هَرَميًّا غير أوربي.

الغُزَاةُ عصابةٌ متنافرة [من أصول مختلفة]. وكانوا قساةً غِلاظًا، لأن مسيرتهم الطويلة جنوبًا جِدُّ شاقّة، كأيّ عبور للأطلنطى. كانوا أيضًا، بخيولهم وبنادقهم (الأرْكَويبسّه arquebuse)[243] وسيوفهم المصنوعة من الفولاذ، مُسلّحين أفضل من شعوب بيرو الأصليين بهراواتهم الخشبية. الإسبان شأنهم شأن المستكشفين البرتغاليين، حافزُهم الأوّلي اقتصاديٌّ:

لم يأتوا بغرض التجارة، بل نَهْب الذهب والفضة الوفيرين فى إمبراطورية الإ نكا. أسفرت حملة بيزارو الأولى، وحدها، عن 13,420 رطل ذهب من قيراط 22.5، بما يساوى اليوم 265 مليون دولار أمريكى، و26,000 رطل فضة (بما يساوى اليوم سبعة ملايين دولار). وكما فعل البرتغاليون، جلب الإسبان معهم رجالَ الدين المسيحى (ستة رهبان دومينيكان، بقى منهم واحدٌ على قيد الحياة). وكالبرتغاليين أيضًا، استخدم الإسبانُ العنفَ للتغلب على المقاومة، بما فى ذلك التعذيب والاغتصاب الجماعى والحَرْق والقتل العشوائى. ولكن أبرزَ سمات الغُزاة اللافتة للنظر نزوعُهم الطبيعى إلى الشجار، الدموى غالبًا، فيما بينهم. العَدَاءُ بين شقيق بيزارو، هيرناندو Hernando، ودييجو دى ألماجرو Diego de Almagro أحدُ عَداءات كثيرة. لم تكن قوة الغُزاة الإسبان هى التى قضت على إمبراطورية الإنكا، بل ضَعْفُ الإمبراطورية [هو الذى قضى عليها].

وكما تُبَيِّنُ هندسة الباتشاكاماك[244] Pachacamac، وكوزكو[245] Cuzco

---

الحمر فى أمريكا الجنوبية. تشمل أرض الإنكا بوليفيا وبيرو والإكوادور وجزءًا من شيلى و الأرجنتين. عاصمتها «كوزكو»، مدينةٌ مترفة مليئة بالمعابد والقصور على جبال الأنديز، أطلق الهنود الحمر عليها اسم «مدينة الشمس المقدسة» - المترجم.

[242] معركة كاخاماركا: كمين خداعى غير متوقَّع، حاصر فيه بيزارو - بقوته صغيرة العدد المسلحة بالبنادق - إمبراطور الإنكا بحشده الكبير غير المسلح تقريبًا، فقتل بيزارو وقوته الصغيرة الآلافَ من أعوان أتاوالبا ومستشاريه وقادته غير المسلحين فى الساحة الكبرى غدرًا وخداعًا. وبالقبض على أتاوالبا ثم إعدامه بدأت المرحلة الافتتاحية لغزو حضارة الإ نكا ما قبل الكولومبية في بيرو - المترجم.

[243] الأرْكَويبسّه أو القربينة: سلاح نارى مُبَكِّر يُعبّأ من الفوهة، اسْتُخْدِمَ بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، يتميز عن سابقه اليدوى بأن له فتيل. أول سلاح نارى يمكن حمله ويعطي بعضَ الدقة في التسديد ومداه المؤثر 50 مترًا - المترجم.

[244] الباتشاكاماك: موقع أثرى جنوب شرق ليما، بيرو، فى وادى نهر لورين. تمت تسوية الموقع لأول مرة حوالى عام 200 بعد الميلاد، وسُمِّى على اسم الإله «خالق الأرض»: باتشا

وماتشو بيتشو[246] Machu Picchu الباقية حتى يومنا هذا، حَكمَ أباطرةُ الإنكا حضارةً ثريّة ومتطورّة، أطلقوا عليها «اتحاد الأربعة» [أربع مقاطعات تحت حُكم الإنكا] Tahuantinsuyo.

فعلى مدى قرن، سيطروا على أكثر من 14.000 ميل مربع من أراضى الأنديز، بسُكّانها الذين تُقدِّرهم حاليًا بما بين 5 إلى 10 مليون نسمة. اتصلت مملكتهم الجبلية معًا بشبكة طرق ومُدرّجات وجسور، لا يزال العديد منها يُستخدَم إلى اليوم[233]. زراعتهم، القائمة على صوف اللاما والبطاطس، كانت كافيةً. وكان مجتمعهم غنيًا نسبيًا، رغم أنهم استخدموا الذهب والفضة فى الزخرفة وليس بوصفهما مالا ً، مفضِّلين استخدام كويبكمايوك quipucamayoc (المصنوعة من حبال بها عُقَد) للمحاسبة والأغراض الإدارية[234].

جوهرُ حُكم الإنكا هَرَمىٌ صارم. عبدوا الشمسَ بالتوازى مع التضحية البشرية والعقوبات الوحشية. وعاشت الأرستقراطية على الفائض الذى أنتجته طبقة الهيلوت [الأقنان] helot. لم تكن حضارة الإنكا متطوّرة كتطوّر حضارة الصين: إذ افتقرت إلى لغة مكتوبة، ناهيك عن أدب أو مدوّنة قوانين[235].

وعلى ما يبدو، لم يكن انتصار بيزارو ورجاله عليهم بسبب التفوق العددى فى معركة كاخاماركا، الذى بلغ نسبة 1:240. فثمة نقطتا ضَعْفٍ أثبتتا أنهما قاتلتان.

الأولى والأهم، مرضُ الجُدَرى الذى أهْلَكَ القسمَ الأعظم من السكان الأصليين، إذ انتشر بسرعة جنوبًا، مُتحرّكًا أسرع من حركة الإسبان الذين جلبوه معهم إلى العالم الجديد New Work. والنقطة الثانية هي الانقسام؛ ففى وقت الغزو الإسبانى، كان أتاوالبا يَشُنُّ حربَ استخلافٍ ضد أخيه غير الشقيق، هواسكار Huáscar، على أيّهما الوريث الشرعى لإمبراطور الإنكا واينا كاباك Huayna Cápac. ولم يجد بيزارو صعوبةً في تجنيد مساعدين محليين له.

لكن هل «الغزو» conquest هو الكلمة الصحيحة لوصف ما حَدَثَ؟ لا شك فى

كاماك. كان مزدهرًا حتى غزو الإسبان لبيرو - المترجم.

[245]كوزكو أو كوسكو: مدينة فى جنوب شرق بيرو، بالقرب من وادى أوروبامبا بجبال الأنديز. عاصمة إمبراطورية الإنكا المعروفة بعبادة الشمس. وهى البقعة الأكثر احتواءً على الأشعة فوق البنفسجية في كوكب الأرض - المترجم.

[246]ماتشو بيتشو: اسم مدينة يعنى باللغة الإنكية القديمة «قمة الجبل القديمة»، أو القلعة الضائعة. تقع فى كوزكو بين جبلين من سلسلة جبال الأنديز، وعلى كلا جانبيها هاوية سحيقة - المترجم.

أن بيزارو أذلّ وسَلَبَ، وأخيرًا قَتَلَ أتاوالبا، ثم قَمْعَ تمرُّد مانكو إنكا[247] Manco Inca فى عام 1536، وهى سلسلة أحداث صَوّرها بشكل حيوى كتابُ فيليبى جوامان بوما دى أيالا Felipe Guaman Poma de Ayala [248] المعنون ب «البداية الأولى الجديدة والحُكم الصالح» Nueva Corónica y Buen Gobierno (1600-1615).

واسمُ مؤلِّف الكتاب نفسُه، المزيج من لغة الإنكا والإسبانية، يحكى قصتَه الخاصة. فعلى العكس من الوضع فى أمريكا الشمالية، كان الاندماج فى أمريكا الجنوبية شأنًا يوميًا، حيث السكان الأصليون أقلُّ عددًا والمستوطنون الأوربيون أكثرُ عددًا. ولنضرب مثلا ً واحدًا، اتّخذَ فرانسيسكو بيزارو خليلةً أخت أتاوالبا الأثيرة، وأعطاها شقيقُها له بالزواج. وبعد موته، تزوّجتْ من فارس إسبانى يُدْعَى أمْبُيرو Ampuero وغادرت إلى إسبانيا، ومعها ابنتها فرانسيسكا Francisca التى اكتسبت الشرعيةُ بمرسوم إمبراطورى. ثم تزوجت فرانسيسكا بيزارو يوبانكى Francisca Pizarro Yupanqui من ابن عمِّها هيرناندو بيزارو Hernando Pizarro، في إسبانيا في أكتوبر عام 1537.

بيزارو أيضًا كان له ابن غير شرعى هو فرانسيسكو Francisco من زوجة أتاوالبا التى اتخذها خليلةً. ذلك هو نموذج الطريقة التى أقام بها الجيلُ الأول من الغُزاة «شبكةً عائلية متعددة الثقافات» جديدة، بهدف إضفاء الشرعية على موقعهم في أعلى الأنظمة الهَرَميّة التي استولوا عليها (الشكل 11).

ولعل المصطلح الأنسب من الغزو هو «الاختلاط» mingling-co (المؤرّخ الأشهر للغزو الإسبانى جارسيلاسو دى لافيجا Garcilaso de la Vega، هو نفسه ابن أحد الغُزاة وأميرة الإنكا بالا تشيمبو أوكلو[236] Palla Chimpu Ocllo). استراتيجياتٌ مماثلةٌ اتبعها مستوطنون أوربيون آخرون فى العالم الجديد؛ كالمزارعين الفرنسيين وتُجّار الفَرْو الذين استقروا فى كاسكاسكيا[249]

---

[247]مانكو إنكا: (1516 - 1544)، مؤسِّس نيو إنكا المستقلة، باتفاق وتبعية للإسبان، وهو أحد أبناء واينا كاباك والأخ الأصغر ل واسكار، حاول التمرد على الإسبان لاحقًا - المترجم.

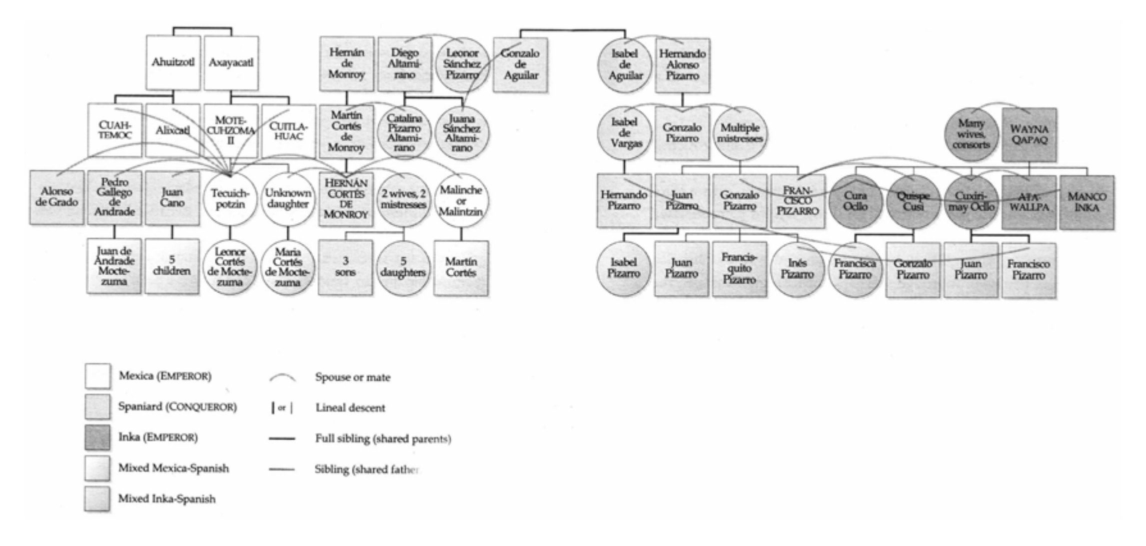
[248]فيليبى جوامان دى أيالا: (11535 - 1616)، أحد نبلاء كيتشوا، عُرِفَ بتأريخه وإدانته لمعاملة الإسبان السيئة لسكان الأنديز. وكتابه عبارة عن مخطوطة بخط اليد، كتبها دى أيالا لملك إسبانيا فيليب الثالث، بغرض إعطاء وصف تاريخى لجبال الأنديز منذ عصر الإنسان الأول حتى عصر الإنكا والغزو الإسبانى، كما يُعَدُّ الكتاب أيضًا دعوةً إلى ضرورة الانتباه إلى المشاكل العميقة التي تُسبّبها الحكومةُ الإسبانية في المنطقة - المترجم.

[249]كاسكاسكيا: إحدى قبائل الهنود الحمر الاثنتى عشرة التى شكلت اتحاد إلينوى فى أمريكا الشمالية، وكان وطنهم القديم فى منطقة البحيرات الكبرى. أول اتصال لهم بالأوربيين كان بالقرب من جرين باى الحالية فى ولاية ويسكونسون، الولايات المتحدة -

Kaskaskia، [بالولاية الأمريكية] إلينوى Illinois، فى العقد الأول من القرن الثامن عشر[237].

لم يَسْتولِ «الغُزاة» الأوربيون على أنظمة الإدارة [السياسية] القائمة وإدارة الأراضي فقط؛ بل انصهروا وراثيًا في المجتمعات الأصلية[238].

المترجم.



<u>الشكل: 11 - شبكة «الغزو»: تزاوج الغُزاة وعائلات النُخْبة من الأزتيك والإنكا.</u>

ومع ذلك، لم يكن الإرثُ المستمر لهذا النَهْج فى أمريكا الجنوبية ثقافةً تعترف بحقيقة الامتزاج الجينى[239]، بل كان ثقافةً تُصَنِّفُ الناسَ طبقًا لـ«نقاء الدم» (limpieza de sangre)، وهو مفهوم جلبه الإسبان معهم إلى العالم الجديد من إرث طرد المغاربة واليهود.

تصنيفات كاستا[250] casta المُصوّرة فى لوحات القرن الثامن عشر، من إسبانيا الجديدة[251] New Spain، تبدأ بالمألوف تقريبًا - «مِن رجل إسبانى وامرأة هندية يُولَدُ ميستيزو mestizo»، و«مِن رجل إسبانى وامرأة سوداء يُولَدُ مولاتو mulatto») - لكن هذه التصنيفات سرعان ما تصبح غريبةً. فمثلا ً، عند تهجين إسبانى مع امرأة مولاتو يُطلَقُ على الناتج موريسكو Morisco (ينطبق مصطلح المورى [المغاربى] Moorish فى إسبانيا على المسلمين السابقين الذى تحوّلوا إلى المسيحية بعد الاسترداد[252] reconquista). أما تهجين مولا

---

[250]كاستا: مصطلح لوصف الأفراد ذوى الأعراق المختلطة فى أمريكا الإسبانية، الناتجين عن تزاوج الأوربيين البيض الإسبان بالهنود الأمريكيين والأفارقة. وقد انطوت التصنيفات العنصرية على عواقب قانونية واجتماعية، حيث كانت المكانة العِرْقية مبدأً مُنَظِّمًا فى الحُكم الاستعمارى الإسبانى، فخلقت النُخْبة الإسبانية الاستعمارية نظامًا هَرَميًا معقدًا لتصنيف العِرْق فى إسبانيا الجديدة التى امتدت من أسفل ألاسكا حتى برزخ بنما، بالإ ضافة إلى البحر الكاريبي - المترجم.

[251]إسبانيا الجديدة: تشمل الأراضى التابعة لحُكم التاج الإسبانى أو ما أُطلِقَ عليه المستعمرات الجديدة فى جنوب أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وشمال أمريكا الجنوبية - المترجم.

[252]الاسترداد، أو حروب الاسترداد والاستعادة كما تسميها المصادر الإسبانية: استرداد الإ

اتو مع هندية فيُنْتِج كالبامولاتو Calpamulato.

وقد اشتملت المتغيّرات الأخرى فى سلسلة اللوحات السِّتّ عشرة التى قدّمها فى عام 1770 الفنان المكسيكى خوسيه خواكين ماجون José Joaquín Magón على فئات: لوبو Lobo (التى تعنى حرفيًا «الذئب»)، وكامبوجا Cambuja، وسامبَهيجا Sambahiga، وكوارتيرون Cuarteron وكويوتى Coyote، وألبِرازدو Albarazado. وُجِدَتْ أيضًا فئةٌ تُسمّى Tente en el Aire («المُعَلّقُ فى الهواء» Air-Suspend in Mid)[240]. ويتراوح عدد أنواع التكوين الوراثى الظاهرى، المختلفة، فى تلك التصنيفات، بين ستة عشر وعشرين نوعًا عادةً، ولكن بعض المصادر فى أوائل القرن التاسع عشر تضع قائمةً تزيد على مئة فئة. كان نظامُ كاستا [فى التصنيف العِرْقى] أكثرَ من مجرد اهتمام أنثروبولوجى، وإنْ عَكسَ محاولةً أصيلة لتطبيق نظريات الوراثة المعاصرة. وعلى الرغم من وجود إمكان «التنقية» [العِرْقية] - فالميستيزو يمكنه بالزواج من إسبانيةٍ نقيةٍ إنتاجَ كاستيزا Castiza، الذى بدوره يمكنه إنتاجَ إسبانى بـ الزواج من إسبانية - فإن النظام ككل يعنى ضمنًا تمييزًا ضد ذوى الأصل الإ سبانى الضعيف أو المنعدم تمامًا (لأنه لم يُدْمَجْ رسميًا فى المدوّنة القانونية ا لاستعمارية). وهكذا، فُرِضَ نوعٌ جديد من التسلسل الهَرَمى على مَهْد القط في تزاوجه الذي أوْجدَ أمريكا الإسبانية.

إسبان لأراضيهم من المستوطنين المسلمين، أو سقوط الأندلس كما تسميها المصادر العربية. ظهر مفهوم الاسترداد أو الاستعادة المسيحية لأول مرة مع نهاية القرن التاسع المي لادي، وانتهى بتوسيع الممالك المسيحية وتسليم مفاتيح غرناطة عام 1492 - المترجم.

16

عندما يتلاقى جوتنبرج مع لوثر

كانت شبكة المُستكشِفين والغُزاة، الأيبيرية، إحدى شبكتين غيّرَتا العالم الحديث الباكر. ففى أوربا الوسطى Central Europe، فى الفترة نفسها، ساعدت التكنولوجيا الجديدة على إطلاق العنان لاضطراب دينى وسياسى هائل، تعْرفه بأنه الإصلاح[253] Reformation، وكذلك تمهيد الطريق أمام الثورة العلمية Scientific Revolution وحركة التنوير Enlightenment، وغيرها، مما كان مناقضًا للهدف الأصلى من الإصلاح. لقد وُجِدَت الطباعةُ فى الصين قبل القرن الخامس عشر بكثير، ولكن أية طابعة صينية لم تستطع تحقيق ما فعله يوهان جُوتِنبرج[254] Johannes Gutenberg الذى خلق قطاعًا اقتصاديًا جديدًا تمامًا.

تأسّستْ مطبعةُ جُوتِنبرج الأولى فى ماينتس[255] Mainz فى الفترة بين عامىْ 1446 و1450. وسرعان ما نَشَرَ الألمانُ المَهَرَةُ هذه التكنولوجيا الجديدةَ المُتحرّكة [أىْ الطباعة الميكانيكية المتنقلة] فى دوائر مُتّحِدة المركز حول

---

253 الإصلاح: حركة بدأت فى القرن السادس عشر هدفها إصلاح الكنيسة الكاثوليكية بعد انتشار أفكار باطلة وتصرفات غير لائقة داخل جسم الكنيسة، أبرزها بيع صكوك الغفران، وشراء المناصب الدينية بدءًا من أدناها وانتهاءً بكرسى البابا. فى عام 1517، أعلن مارتن لوثر أطروحتَه فى انتقاد الكنيسة الكاثوليكية التى شملت: صكوك الغفران، المَطْهر، الدينونة، شراكة مريم فى الخلاص، شفاعة القديسين، معظم الأسرار الكَنَسِيّة، سلطة البابا. نشأ عن حركة الإصلاح مذهبٌ مسيحى جديد هو البروتستانتية التى تعنى «الاحتجاج». وانحدرت أهم الجماعات البروتستانتية الإصلاحية من اللوثرية والكالفينية والمشيخية و المعمدانية والأنجليكانية. دفعت هذه الحركةُ الكنيسةُ الكاثوليكيةُ لاحقًا إلى إعطاء الفرصة أمام حركات إصلاحية داخلية برعايتها تفاديًا لحدوث انشقاق جديد، وردًا على البروتستانتية، وهو ما عُرفَ بالإصلاح المضاد - المترجم.

254 يوهان جُوتِنبرج: (1394 - 1468)، حدّاد وصائغ وفنّى طباعة وناشر ألمانى. قام بابتكار ما يُعْرَفُ بالطباعة الميكانيكية المتحرّكة، الأمر الذى غَيّرَ بنيةُ المجتمع على مستوى التداول غير المقيّد للمعلومات - بما فيها الأفكار الثورية التى تجاوزت الحدودَ وهدّدت السلطات السياسية والدينية - وكسَرَ احتكارَ النُخْبة المتعلمة ودَعَمَ الطبقةَ الوسطى الناشئة. وقبل قرون من هذا، ابتكر الصينيون الطباعةُ ولكن اختراعهم لم يبلغ أوربا - المترجم.

255 ماينتس: عاصمة وأكبر مدن ولاية راينلاند بالاتينات بألمانيا. تشتهر بأنها المدينة التى طبع فيها جوتِنْبرج أولَ كتاب في تاريخ أوربا - المترجم.

مدينةماينتس، لأنه من المُفضّل اقتصاديًا وجود طابعات محلية متعدِّدة بدلا ً من الإنتاج المركزى، بسبب ارتفاع تكلفة نقل المواد المطبوعة. وبحلول عام 1467، أسّسَ أولريك هان Ulrich Hahn المطبعةُ الأولى فى روما Rome [إيطاليا]. ثم بعد سِتّ سنوات، افتتح هاينريك بوتيل Heinrich Botel وجورج فون هولس Georg von Holz مطبعةً فى برشلونة Barcelona. وفى عام 1475، بدأ هانس وورستر Hans Wurster الطباعةُ فى مودينا Modena [مدينة فى الشمال الإيطالى]. وبحلول عام 1496، أنشأ هانس بيجنيتزر Hans Pegnitzer وميناردِ أُنْجات Meinard Ungat مطبعةً فى غرناطة Granada، بعد أربع سنوات فقط من تنازل محمد الثانى عشر[256] Muhammad XII، آخر ملوك بنى نصر [من ملوك الطوائف]، عن قصر الحمراء Alhambra لفرديناند Ferdinand وإيزابيلا Isabella. ثم بحلول عام 1500 تقريبًا، اعتمدت خَمْس مدن سويسرية ودنماركية وهولندية وألمانية على الطباعة[241].

تخلّفَتْ إنجلترا، ولكنها لحقت بالرّكب فى النهاية. ففى عام 1495، أنتجت إنجلترا ثمانية عشر عنوانًا فقط. ثم بحلول عام 1545، تأسّسَتْ خَمْسُ عشرة مطبعة، وارتفع عدد العناوين المطبوعة سنويًا إلى 119 كتابًا. ومع عام 1695، أنتجت مؤسّساتُ الطباعة السبعون، 2092 كتابًا.

دون وجود جُوتِنْبرج، لربما صار لوثر[257] Luther مجردَ مُهَرْطِقٍ آخر ممن أحرقتهم الكنيسةُ على الخازوق، مثل يان هوس[258] Jan Hus[242].

---

[256] أبو عبد الله محمد الثانى عشر، المُلقّب ب«الغالب بالله»: (1460 - 1533)، آخر ملوك الأ ندلس، حَكَمَ مملكةَ غرناطة فى الأندلس فترتين. انتصر فى أحد المعارك على الإسبان، ثم لحقته هزائم متتالية، قام على إثرها بتسليم مفاتيح غرناطة لملك إسبانيا فرديناند وزوجته إيزابيلا يوم 2 يناير عام 1492. بعد التسليم، انتقل إلى مدينة فاس، وعاش هناك حياةً لم يعرف أحدٌ عنها شيئًا حتى مات، مُتّهمًا بالعار والخيانة والتفريط - المترجم.

[257] مارتن لوثر: (1483 - 1546)، راهب ألمانى وقسيس وأستاذ لاهوت، ومُفتتِح عصر الإصلا ح فى أوربا بعد اعتراضه على صكوك الغفران. نشر فى عام 1517 رسالتَه الشهيرة المؤلفة من خمس وتسعين نقطة تتعلق أغلبها بلاهوت التحرير وسلطة البابا. طلب منه البابا ليون العاشر، والإمبراطورية الرومانية المقدسة مُمَثلةً فى الإمبراطور شارل الخامس، فى عام 1520، التراجعَ عن نقاطه الخمس والتسعين، ولكن لوثر رفض، الأمر الذى أدّى إلى نَفْيه وحرمانه الكنَسي وإدانته بالهَرْطقة - المترجم.

[258] يان هوس: (1369 - 1415)، مفكر دينى وفيلسوف ومصلح تشيكى. اتهَمَ الكنيسةَ بِ الخروج عن مبادئ الدين، والقساوسةَ والمطارنةَ بانحرافهم عن واجبهم الحقيقى واهتمامهم بمصالحهم الشخصية واستغلالهم المادى للناس البسطاء. التفّ حوله الكثيرُ من الناس، فقامت الكنيسة الكاثوليكية بتكفيره واتهامه بالزندقة، نُفِّذَ فيه الحُكمُ حرقًا بالنيران على الخازوق يوم 6 يوليو عام 1415 - المترجم.

أطروحات لوثر الخَمْسُ والتسعون المُبْتَدَعَة هى، فى المقام الأول، انتقادٌ للممارسات الفاسدة كبَيْع صكوك الغفران، أرسلها أساسًا بوصفها رسالةً إلى مطران ماينتس يوم 31 أكتوبر عام 1517. وليس من الواضح تمامًا إذا كان لوثر قد أرسل، أيضًا، نسخةً منها إلى كنيسة جميع القديسين 'All Saints Church [في مدينة] فيتنبرج[259] Wittenberg، ولكن هذا غير مهم.

المهم فعلا ً أن هذه الطريقة فى النشر قد حلَّتْ محلَّها طريقةٌ أخرى. ففى غضون أشهر، طُبِعَتْ نُسَخٌ من النص اللاتينى الأصلى [لأطروحات لوثر الخمس والتسعين] فى بازل[260] Basel ولايبْزيج Leipzig ونورمبرج Nuremberg. وبحلول الوقت الذى أُدِينَ فيه لوثر رسميًا بالهَرْطَقة بمرسوم وورمز[261] Edict of Worms في عام 1521، كانت كتاباته قد انتشرت كلُّها في جميع أنحاء أوربا الناطقة بالألمانية.

وبعمله مع الفنان لوكاس كراناخ Lucas Cranach وصائغ الذهب المسيحى دورينج Döring، أحَدَثَ لوثر ثورةً فى المسيحية الغربية، بل فى الاتصال نفسه أيضًا. ففى القرن السادس عشر، أنتجت الطابعات الألمانية ما يقرب من 5000 طبعة لأعمال لوثر، ويمكن أن نضيف إليها 3000 طبعة إذا أدخلنا مشاريع أخرى شارك فيها لوثر كالكتاب المقدس اللوثرى[262] Luther Bible. ومن بين هذه النُسَخ البالغ عددها 4,790 نسخة [باللغة الألمانية]، كان 80% منها تقريبًا فى ألمانيا، بدلا ً من اللغة اللاتينية التى كانت اللغة العالمية لدى النُخْبة الإكليريكية[243].

لقد حسمت الطباعةُ نجاحَ الإصلاح. فالمدن التى وُجِدَتْ فيها مطبعةٌ واحدة على الأقل فى عام 1500، كان احتمالُ تبنِّيها للبروتستانتية[263]

---

[259]فيتنبرج: مدينة في ولاية سكسونيا أنهالت، ألمانيا - المترجم.

[260]بازل: ثالث مدن سويسرا بعد زيورخ وجنيف، على حدود ثلاث دول على النهر الراين شمال غرب البلاد. لايبزيج: ثاني أكبر مدن ولاية سكسونيا شرق ألمانيا.

نورمبرج: ثاني أكبر مدن ولاية بافاريا في ألمانيا - المترجم.

[261]مرسوم وورمز: أصدره الإمبراطور شارل الخامس يوم 25 مايو عام 1521، يحظر فيه على أى شخص تفضيلَ أقوال مارتن لوثر إما بالأقوال أو الأفعال. وتقع مدينة «وورمز» جنوب غرب ألمانيا - المترجم.

[262]الكتاب المقدس اللوثرى: ترجمته الألمانية للكتاب المقدس من العِبْرية واليونانية القديمة - المترجم.

[263]البروتستانتية: أحد أشكال مذاهب الإيمان فى الدين المسيحى. وتعود أصولها إلى

Protestantism أكبرَ من المدن التى لم يوجد فيها مطبعةٌ، أما المدن التى تعدّدتْ فيها مطابعُ متنافسةٌ فكان من الأرجح تحوُّلها إلى البروتستانتية[244].

لقد أُطلِقَ على المطبعة «نقطة اللاعودة الحاسمة فى التاريخ البشرى»[245]. فالإصلاحُ أطلق العنانَ لمَوْجَة تمرُّد دينى ضد سلطة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

وانتشرت الموجة من رجال الدين والعلماء ذوى التوجُّه الإصلاحى إلى النُّخَب الحَضَرية وإلى الفلاحين الأميين، فألقت بألمانيا أولاً، ثم بكل شمال أوربا الغربية فى أتون الاضطراب والفوضى. ففى عام 1524، اندلع تمرُّدُ الفلاحين جميعهم. وبحلول عام 1531، وُجِدَ من الأمراء البروتستانت ما يكفى لتشكيل تحالف (اتحاد شمالكالدى[264] Schmalkaldic League) ضد الإمبراطور الرومانى المقدس تشارلز الخامس[265] Charles V. ورغم هزيمة الأمراء البروتستانت فقد كانوا أقوياء بما يكفى للحفاظ على [مكتسبات] الإصلاح فى أقاليم متناثرة. وفى ظل صُلح أوجسبرج[266] Peace of Augsburg (عام 1555)، وُضِعَ مبدأٌ حاسم هو:

«لكلِّ حاكمٍ الحقُّ فى اختيار دينه» cuius regio, eius religio[267] (صاغه فى

الحركة الإصلاحية التى افتتحها مارتن لوثر أوائل القرن السادس عشر. وهى اليوم أحد الانقسامات الرئيسية فى العالم المسيحى جنبًا إلى جنب الكاثوليكية والأرثوذكسية الشرقية. ومع أن الأنجليكانية ترجع إلى اللاهوت اللوثرى فأحيانًا تُعَدُّ الكنيسة الأنجليكانية مستقلةً عن الكنيسة البروتستانتية - المترجم.

[264] اتحاد شمالكالدى: تحالف دفاعى تشكّلَ من الأمراء اللوثريين داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة، واتخذ اسمه من مدينة تأسيسه شمالكالدن فى تورنجن بألمانيا، يوم 27 فبراير عام 1531. الغرض منه الدفاع عن أراضى الأمراء البروتستانت فى حالة تعرُّضها لهجوم من الإمبراطور الروماني تشارلز الخامس - المترجم.

[265] تشارلز الخامس، أو كارلوس الخامس: (1500 - 1558)، إمبراطور رومانى من آل هابْسبورج. حَكمَ إمبراطوريةً مترامية الأطراف ومُوزّعة على ثلاث قارات، حتى قيل إن الشمس لا تغيب عنها - المترجم.

[266] صُلح أوجسبورج: معاهدة وُقِّعَتْ بين الإمبراطور فرديناند الأول، الذى حلّ محلّ أخيه تشارلز الخامس، وقوات اتحاد شمالكالدى بمدينة أوجسبورج فى بافاريا بألمانيا. أنهت المعاهدةُ الصراعَ الدينى بين البروتستانتية والكاثوليكية، وأقرّت انفصالاً شرعيًا دائمًا للمسيحية داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين كاثوليكية وبروتستانتية، وأكدت استقلال الأمراء بأراضيهم ومذهبهم الديني - المترجم.

[267] الترجمة الأفضل إلى الإنجليزية هى: to each ruler, the religion he chooses [لكل حاكم الحق فى اختيار دينه]. سمحت المعاهدةُ للأمراء على اختلافهم فى الإمبراطورية

عام 1582 الفقيه القانونى الألمانى يوآخيم ستيفانى Joachim Stephani)، وقد ترك هذا المبدأ للملوك والأمراء تحديدَ ما إذا كان رعاياهم سيكونون لوثريين أم كاثوليك رومان. ومع ذلك، استمر الصراع الدينى على نار هادئة، حتى انفجر مرة أخرى فى حرب الثلاثين عامًا[268] Thirty Years' War، التى حوّلتْ أوربا الوسطى إلى ثلاجة لحِفْظ جُثث المَوْتى.

ثم بعد صراع دموى طويل، استطاع ملوك أوربا إعادة فَرْض سيطرتهم على الطوائف البروتستانتية الجديدة، ولكنها سيطرة لم تكن كاملة كسيطرة البابا. ورغم استمرار الرقابة، لم تكن صارمةً، فتَمكّنَ أكثرُ المؤلِفين ابتداعًا من إيجاد شخص يطبع أعمالَهم. وقد ثبَتَ استحالةُ توطيد الكاثوليكية الرومانية من جديد، ولا سيما فى شمال غرب أوربا - إنجلترا وإسكتلندا والجمهورية الهولندية - حتى عندما قَلَبَتْ روما تكنولوجياتِ الإصلاح وإستراتيجيتَه الشّبَكيةَ ضد الإصلاح[269]، فضلا ً عن اتِّباعها أنظمة تعذيب وعقاب أكثر وحشيةً ظلت لفترة طويلة سببَ قوة الكنيسة.

لماذا كانت مقاومةُ البروتستانتية شديدةً للقمع؟ ثمة إجابة واحدة عن هذا السؤال هى أن الطوائف البروتستانتية - التى انتشرت فى جميع أنحاء شمال أوربا - طوّرتْ أبنيةً [هياكل] شَبَكيّة مَرنة بشكل مذهل. لقد عانى البروتستانتيون من اضطهاد شديد فى إنجلترا أثناء عهد مارى الأولى[270] Mary I، ومحاكماتٍ ومِحَنٍ خُلِّدَتْ ذكراها فى أعمالٍ ككِتاب جون فوكس[271]

الرومانية المقدسة أن يختاروا إما اللوثرية أو الكاثوليكية داخل إقطاعياتهم التى يحكمونها. نقطة الضعف الرئيسية فى الاتفاق أنه استبعد صراحةً تيارات أخرى فى البروتستاتية مثل الكالفينية Calvinism - المؤلف.

[268]حرب الثلاثين عامًا: (1618 - 1648)، سلسلة صراعات دامية مَزّقتْ أوربا، بدأت معاركُها أولا ً فى أوربا الوسطى، ثم اشتركت فيها تباعًا معظمُ القوى الأوربية فى ذاك العصر. ولم تتورط فيها إنجلترا ولا روسيا - المترجم.

[269]وهو ما يُعْرَفُ باسم الإصلاح المضاد الذي قادته الكنيسة الكاثوليكية الغربية - المترجم.

[270]مارى الأولى أو مارى تيوْدَر أو مارى الدموية: (1516 - 1558)، ملكة إنجلترا التى واجهت الأفكار البروتستانتية بكل عنف، وأخمدت العديدَ من التمردات التى استهدفتها شخصيًا بإجراءات عنيفة أدّت إلى إعدام الآلاف - المترجم.

[271]جون فوكس: (1516 - 1587)، مؤرّخ ورجل دين إنجليزى، اشتهر بتسجيله لتاريخ شهداء المسيحية، ولا سيما معاناة الإنجليز البروتستانت. وقد استند المصلحون الإنجليز إلى كتاب فوكس المنشور عام 1563 فى تشكيلهم رأيًا عامًا إنجليزيًا مُعاديًا للكاثوليكية - المترجم.

John Foxe «أفعال وآثار» Acts and Monuments («كتاب الشُهداء» Book of Martyrs). الأشخاص البالغ عددهم 377 بروتستانتيًا ملتزمًا الذين راسَلوا فوكس أو تلقوا منه رسائل أو ذُكِروا فى رسائله وفى مصادر متصلة [بِالموضوع]، شكّلوا شبكةً قويةً تمركزت فى عدد من «المحاور» الرئيسية: شهداء من أمثال جون برادفورد John Bradford، وجون كيرليس John Careless ونيكولاس ريدلى Nicholas Ridley وجون فيلبوت Jhon Philpot[246].

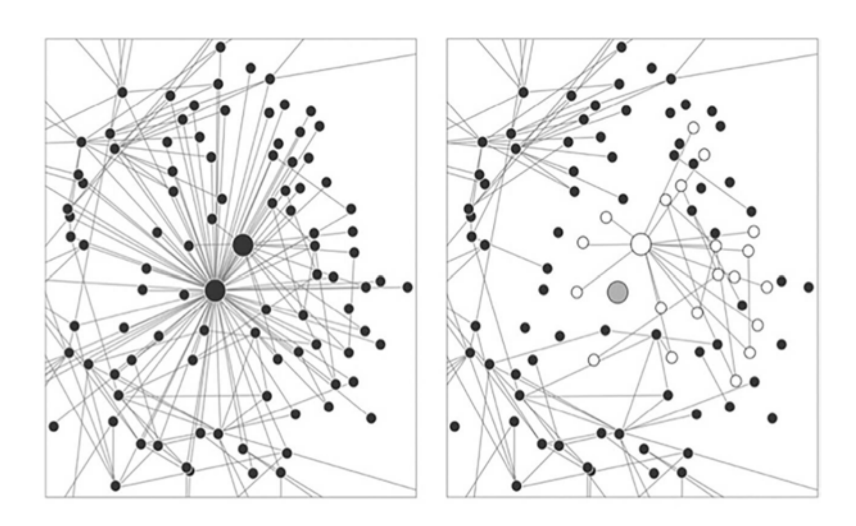
إن إعدام ما لا يقل عن أربع عشرة عُقْدة من العُقَد العشرين الأعلى (مُرَتَّبةً حسب التَّمَرْكزيّة البَيْنية)[272] قد خَفّضَ، دون ريب، الاتصالَ بين الآخرين الباقين على قيد الحياة، ولكنه لم يدمِّر الشبكة؛ لأن شخصيات أخرى ذات تمركزية بَيْنية عالية، كناقلى الرسائل والداعمين الماليين من أمثال أوجستين بيرنر Augustine Berner ووليام بونت William Punt، اضطلعوا بالأمر[247].

وثمة أحداثٌ قليلة ترمز إلى أزمة النظام الهَرَمىّ فى القرن السادس عشر، لعل أقواها المحاولات العقيمة التى بذلتها ابنة هنرى الثامن[273] Henry VIII الكبرى [الملكة مارى الأولى] لتفكيك الثورة الدينية، والتى اغتنم والدُها الفرصةَ السانحة كي يُطلِّق أمّها.

---

[272]ملحوظة: هذا هو مقياس مدى أداء عُقْدة لوظيفتها فى الربط بين أقسام مختلفة فى الشبكة، بمعنى أنها تعمل بوصفها محورًا - المؤلف.

[273]هنرى الثامن: (1491 - 1547)، ملك إنجلترا منذ يوم 21 أبريل عام 1509 حتى وفاته. ثانى ملوك أسرة تيوْدَر خلفًا لوالده هنرى السابع. اتصف بشخصية كاريزمية، وعَارَضَ سلطةَ البابا مستقلا ً بالقرار الدينى والسياسى داخل إنجلترا، فتزوج رسميًا سِتّ مرات، وقاد حركةَ الإصلاح الإنجليزى. كانت قضية طلاقه تجسيدًا لرغبته فى الانفصال الدينى و السياسى عن الكنيسة الكاثوليكية فى إيطاليا. أجرى تغييرات واسعة فى الممارسات الدينية التقليدية، من أكثرها دلالةً استعمال اللغة الإنجليزية فى الطقوس الدينية بدلا ً من اللاتينية - المترجم.



الشكل: 12 - الشبكة البروتستانتية الإنجليزية قبل إعدام جون برادفورد (يسارًا) وبعده (يمينًا) في يوم 1 يوليو 1555. أدّى موت برادفورد (العُقدة الكبيرة الملوّنة بالأسود على اليسار، وباللون الرمادى على اليمين) إلى عَزْل شبكة بديلة بكاملها تمركزت حول أمِّه (العُقد الملونة بالأبيض على اليمين).

لقد مرّ الآن نصفُ ألفيةٍ منذ وصول السفن البرتغالية إلى ساحل جوانجدونج، ومنذ أن أرسل لوثر أطروحاته إلى باب كنيسة جميع القديسين فى مدينة فيتنبرج.

وإذ بينما تجرى اضطرابات الاكتشاف والإصلاح الأوربى، كان العالمُ فى عام 1517 عالمَ أنظمةٍ هَرَمِيّة. الإمبراطور [الصينى] تشنج دى وإمبراطور الإنكا هويانا كاباك، كانا مجردَ عضويْن فى نُخْبة طُغَاةٍ عالمية. وفى عام 1517، انتصر السلطان العثمانى سليم الأول - سليم العابِس[274] Selim the Grim - على السّلْطنة المملوكية التى امتدت من شِبْه الجزيرة العربية إلى سوريا وفلسطين ومصر نفسها.

وأما فى الشرق فقد حَكمَ الشاهُ إسماعيل الصّفَوى كلّ المناطق التى يُطْلَقُ عليها حديثًا إيران وأذربيجان وجنوب داغستان وأرمينيا وخراسان وشرق الأناضول وبلاد ما بين النهرين. وفى الشمال، حَكمَ تشارلز الأول Charles I - وريثُ عائلات هابْسبورج Houses of Habsburg، وفالوا - بورجندى Valois - Burgundy وتراستامارا Trastámara - الممالكَ الإسبانية فى أرَجون Aragon وقشتالة Castile وكذلك هولندا Netherlands؛ وفى غضون عامين، بوصفه

---

[274] سليم العابِس: تاسع سلاطين الدولة العثمانية، يُلَقّبُ عند الأتراك ب«سليم الغازى أو القاطع» نظرًا لشجاعته وتصميمه فى ساحة المعركة. ويُلَقّبُ عند الإنجليز ب«العابس» نظرًا لتجهُّم وجهه الدائم. ويُلَقِّبه الفرنسيون ب«سليم الرهيب» - المترجم.

تشارلز الخامس Charles V، سيُنتخَبُ أيضًا إمبراطورًا رومانيًا مقدسًا خلفًا لجَدِّه لأبيه ماكسيمليان الأول Maximilian I. وكان البابا فى روما، ليو العاشر Leo X، الابنَ الثانى ل لورينزو دى ميديتشى Lorenzo de' Medici. وإذ بينما كان فرانسيس الأول Francis I يحكم فرنسا، حَكمَ هنرى الثامن Henry VIII إنجلترا حُكمًا مطلقًا أيضًا؛ وبدافع من نزواته تبنّت المملكةُ الإصلاحَ اللوثرى (وإن بطريقة مُجَزّأة وبلا تناسق). وكما رأينا، لم يكن التسلسلُ الهَرَمىُ سوى شبكة من نوع خاص، تتمتع فيها تمْركزيةُ العُقْدة الحاكمة بأعلى الدرجات. وتُوَضِّحُ الشبكةُ الاجتماعية المستنبطة من «أوراق دولة تيوْدَر»[275] Tudor State Papers التى تحتوى على خطابات أكثر من 20 ألف شخص، تُوَضِّحُ هذه النقطة. ففى عهد هنرى الثامن، كان الشخصُ ذو الدرجة الأعلى توماس كرومويل[276] Thomas Cromwell (الأمين العام للمَلِك، وكاتم السرّ وحافظ الخَتْم المَلَكى ووزير الخزانة) بحوالى 2,149 مراسَلة، يليه المَلِكُ نفسُه 1,134 مراسَلة، والكاردينال توماس وولسى Cardinal Thomas Wolsey مستشار المَلِك 682 مراسَلة. أما من حيث التمركزية البَيْنية فالمَلِك يأتي أولا ً[248].

السمة اللافتة فى هذا العالَم الهَرَمىّ هى تشابه ممارسة السلطة فى كل تلك ا لإمبراطوريات والممالك، رغم هشاشة الاتصالات بين العالَمين الأوربى وغير ا لأوربى، هذا إنْ وُجِدَتْ أصلا ً. (أما خارج أوربا حيث انخرط الملوك فى دورة حروب وعلاقات عائلية ديبلوماسية دائمة، فلم تكن توجد شبكةُ طُغَاةٍ). سليم العابس اشتهر بالقسوة تجاه أعوانه الكبار، فأعدم منهم الكثيرَ، إلى درجة أن صارت عبارةٌ مثل «قد تكون وزيرًا لسليم» لعنةً تركيةً. وتعَامَلَ هنرى الثامن مع وزرائه وزوجاته بقسوة أقل، أما فاسيلى الثالث[277] Vasili III، أمير موسكو المُعَظَّم، فكان على استعداد لإصدار أحكام بالإعدام على أقوى أفراد حاشيته المَلَكيّة؛ ومثل هنرى طلّقَ زوجتَه الأولى حين فشلت فى إنجاب

---

[275] تيوْدَر: عائلةٌ ملكية حَكمَتْ إنجلترا بين عامىْ 1485 و1603، ذات أصول ويلزية تخللها خمسةُ ملوك، أولهم المؤسِّسُ الملك هنرى السابع وآخرهم الملكة إليزابيث الأولى. سجل المحفوظات الرسمي لملوك آل تيودر متوفر على شبكة الإنترنت - المترجم.

[276] توماس كرومويل: (1485 - 1540)، محامى إنجليزى ورجل دولة، شغل منصب رئيس الوزراء فى عهد هنرى الثامن، ولعب دورًا مهمًا فى حركة الإصلاح الإنجليزية. أُعْدِمَ يوم 28 يوليو عام 1540 - المترجم.

[277] فاسيلى الثالث: (1479 - 1533)، أمير موسكو المُعظّم، وقيصر عموم روسيا منذ نوفمبر عام 1505 حتى وفاته - المترجم.

وريث. أما فى شرق أفريقيا فقد شَنّ إمبراطور أثيوبيا دُويت الثانى[278] Dawit II حربًا على إمارة العادل المُسْلِمة[279] Muslim Emirate of Adal بطرق لا تختلف كثيرًا عن الصراعات بين الحُكّام المسيحيين والمسلمين التى احتدمت لفترة طويلة حول المناطق الساحلية على البحر الأبيض المتوسط. ويُسَلِّمُ المؤرّخون اليوم بوجود أكثر من ثلاثين إمبراطورية ومملكة ودوقيّة كبيرة، ذات رقعة ممتدة وتمَاسُكٍ يقترب من فكرة الدولة، فى عَالَمِ عام 1517. وفى كل منها - حتى جمهورية البندقية Venice - تركّزت السلطةُ فى أيدى فردٍ واحد، رجل عادةً (الأنثى الوحيدة الحاكمة فى ذلك العام هى جُوانا [أو خُوانا] ملكة قشتالة Queen Joanna of Castile).

بعض الملوك وَرثوا عروشَهم بالمَوْلِد. واعتلى آخرون العرشَ بالانتخاب (ولكن لم يُنْتَخَبْ أىٌّ منهم ديمقراطيًا). صَعَدَ البعضُ، من أمثال جُنْغجونغ ملك جوسون[280] Jungjong of Joseon (كوريا)، إلى عروشهم بالعنف. ووُجِدَ ملوكٌ أطفالٌ أيضًا (جيمس الخامس James V ملك إسكتلندا كان فى الخامسة من عمره، فى عام 1517)، وثمة ملوك عجائز (زيجْمونت الأول Sigismund I ملك بولندا Poland ودوق ليتوانيا Lithuania الكبير، عَمّرَ حتى واحد وثمانين عامًا).

ووُجِدَتْ قِلّةٌ من الحُكّام حاملى اللقب [الاسميين] ضِعافًا، ولا سيما الإمبراطور جو - كاشيوابرا Kashiwabara-Go فى اليابان، إذ تركزت السلطة الحقيقية فى أيدى الشوجون[281] shogun أشيكاجا يوشيكى Ashikaga Yoshiki. وقد تفاوتت سلطةُ مُلاك الأراضى الأقل، من مكان إلى مكان. بعضُ الممالك

---

[278] دُويت الثانى: (1496 - 1540)، إمبراطور أثيوبيا الخامس والعشرون، خاضَ عدّةَ معارك ضد سَلْطنة العادل الصومالية التى كانت تتلقى دَعْمًا من الإمبراطورية العثمانية، الأمر الذى دفع الإمبراطور الأثيوبي إلى طلب الدعم من البرتغاليين - المترجم.

[279] إمارة العادل المُسْلِمة: مملكة فى القرن الأفريقى، ازدهرت منذ حوالى عام 1415 حتى عام 1577. حافظت على علاقات تجارية وسياسية قوية مع الإمبراطورية العثمانية - المترجم.

[280] جُنْغجونغ مَلِكُ جوسون: (1488 - 1544)، مملكة جوسون هى كوريا حاليًا، وحصل جُنْغجونغ على العرش بانقلاب عنيف على أخيه غير الشقيق أطاح به - المترجم.

[281] الشوجون: لقبٌ يُطْلَقُ على الحاكم العسكرى فى اليابان منذ عام 1192 حتى عام 1868 - المترجم.

مَعيشتُها سِلمية، مثل ريوكيو[282] Ryukyu في عهد الشوشين ShõShin.

وممالك أخرى - وبخاصة إسكتلندا - مَزّقتها النزاعاتُ. ولكن معظم المَلَكيّات فى الفترة الحديثة الباكرة تمتعت بنوع من السلطة الشخصية غير المُقيّدة - بما فيها سلطة إحياء الرعايا وإماتتهم - كالتى تُوْجَدُ اليوم فى عدد قليل من دول وسط آسيا وشرقها. وعلى الرغم من انفصال حُكّامٍ أوتوقراطيين آسيويين ناجحين من أمثال كريشنادفاريا Krishnadevaraya إمبراطور فيجاياناجارا Vijayanagara - الحاكم الهندوسى الأقوى فى الهند أوائل القرن السادس عشر - بآلاف الأميال عن أوربا، فقد تصَرّفَ بأساليب مماثلة لمعاصريه فى أوربا زمن عصر النهضة، على نحو لافت للنظر، وتفاخر ببراعته العسكرية والقضائية، وبرعايته للفنون والآداب.

منذ بواكير العقد الأول من القرن السادس عشر، تعرّضَ عالمُ التسلسل الهَرَمى هذا، لِهَجمات مزدوجة من الشبكات الثورية. فقد أبْحَرَ «المُسْتكشِفون» و «الغُزاة» من أوربا الغربية إلى قارات أخرى، بأعداد متزايدة، مُسخِّرين تكنولوجيتهم البحرية المتفوقة، سعيًا إلى فُرَصٍ تجارية جديدة، فأطاحوا - بمساعدة مُسبِّبات الأمراض التى حملوها معهم - بكل الحُكّام الراسخين فى ا لأمريكيتين، وأسّسوا شبكةً مراكز تجاريةٍ حصينة، عالمية، عملت ببطء على تآكل سيادة الأنظمة السياسية الآسيوية والأفريقية. وفى الوقت نفسه، بذروا من خلال الطباعة، ومن خلال المُبَشّرين، فيروسًا دينيًا، عُرِفَ باسم البروتستانتية التى مَزّقت التسلسلَ الهَرَمى الكنَسى الذى يرجع نَسَبُه إلى القديس بطرس[283] St Peter. لقد جُرِّبتْ عواقبُ الإصلاح فى أوربا أولاً، وكانت رهيبةً بالفعل[249].

بدءًا من عام 1524 حتى عام 1648، أنزلت الحروبُ الدينية المتكرّرة الخرابَ بالممالك، وفيما بين مملكة وأخرى. لقد نجح تحدِّى سلطة روما، وشَهِدَ شمالُ

---

[282]ريوكيو: سلسلة جزر فى المحيط الهادى جنوب شرق الجزيرة اليابانية كيوشو - المترجم.

[283]القديس بطرس، أو سمعان بطرس: أحد تلاميذ المسيح الاثنى عشر، يحتل مكانةً بارزةً فى أناجيل العهد الجديد وفى سفر أعمال الرسل، شقيق أندراوس أحد التلاميذ الاثنى عشر أيضًا. يُعَدُّ فى التقاليد الكنَسِيّة أولَ باباوات الكنيسة الكاثوليكية. أسّسَ كنيسةً أنطاكية وظلّ بها سبع سنوات قبل أن يذهب إلى روما ويؤسِّسُ كنيستها التى ظلّ بها رُبْع قرن. قُتِلَ مصلوبًا خلال اضطهاد المسيحيين أيام الإمبراطور نيرون عام 67م. جثمانه مدفون في كاتدرائية القديس بطرس - المترجم.

أوربا وباءَ التجديد الدينى: فاللوثريون سرعان ما تحدّاهم الكالفينيون[284] Calvinists والزوينجليون[285] Zwinglians، الرافضين رأى لوثر فى طقس القربان المقدس، القائل بأن عناصر الترسيم، الخبز والنبيذ، هى جسد المسيح ودمه الحقيقيان.

وعلى عكس الانشقاقات الأسبق داخل المسيحية (الخلاف حول الآريوسية[286] Arianism فى القرن الرابع، والانشقاق الكبير بين مسيحية غربية ومسيحية شرقية فى عام 1054، وفترة الباباوات المتنافسين بين عامىْ 1378 و1417)، تكاثرت انقساماتُ عصر الإصلاح على نحو جعل الانقسامَ إحدى سماته المميزة له. المثالُ الأبرز على هذا، القائلون بتجديد العماد [الأُنابابتستيون][287] Anabaptists الذين تمسّكوا بوجوب أن تكون المعموديةُ baptism طقسًا قصديًا [واعيًا] وطَوْعيًا، وأن الأطفال أصغر من أن يخضعوا له.

فى فبراير عام 1534، استولت جماعةٌ من القائلين بتجديد العِماد، بقيادة جان بوكيلسون Jan Bockelson (قائد قُدّاس العِماد فى لايدن Leiden[288]) وجان

---

[284] الكالفينيون: أتباع جون كالفن (1509 - 1564) الذى انفرد عن لوثر بالقول بالقَدَريّة وسيادة الله بشكل مطلق دون اعتبار لمسؤولية الإنسان عن أفعاله - المترجم.

[285] الزوينجليون: أتباع زوينجلى هولدريتش (1484 - 1532) الذى شجع على القيام بإصلاحات أكثر تطرفًا من إصلاحات لوثر. أثرت تعاليمه فى إنجلترا وفرنسا وإسكتلندا، ويُعَرَفُ أتباعُه في إنجلترا باسم «البيوريتانيين»، وفي فرنسا باسم «الهوغونيين» - المترجم.

[286] الآريوسية: مذهب مسيحى لم يعد له وجود فى الوقت الراهن، يُنْسَبُ إلى آريوس (250 م - 336م) أحد كهنة الإسكندرية الذى حصر صفات الألوهة المطلقة فى أقنوم الأب فقط. كان من النتائج غير المقصودة لحركة آريوس تسييس اللاهوت وتدخل الأباطرة فى شؤون الكنيسة - المترجم.

[287] القائلون بتجديد العِماد أو الأنابابتستيون: حركةٌ مسيحية إصلاحية ظهرت فى القرن السادس عشر فى ألمانيا وهولندا وسويسرا بالتزامن مع بداية الإصلاح البروتستانتى. تدعو إلى عدم تعميد الأطفال لأنهم عاجزون عن الالتزام الدينى أو الإيمان بحُرّية، ووجوب تجديد تعميد البالغين الذين عُمِّدوا أثناء طفولتهم.

تختلف الحركة عن اللوثرية والكالفينية بنَبْذها للسلطة الكنَسيّة، فكانت المساواةُ واللا هَرَميّةُ صفتين أساسيتين في الجماعات المنتمية إلى هذه الحركة - المترجم.

[288] جان بوكيلسون أو جون لايدن: (1509 - 1536)، قائد قُدّاس التعميد فى لايدن، هولندا. فى عام 1533، انتقل إلى مونستر شمال ويستفاليا بألمانيا - إلى جانب رفيقه جان ماتيس - وصار مُلهِمًا ومؤثرًا وقائدًا لانتفاضة مونستر. أعلن نفسَه ملكًا على مونستر عام 1534. قُمِعَتْ انتفاضتُه بعد حصار المدينة المحصنة، وقُبِضَ عليه وعُذّب ثم أُعْدِمَ - المترجم.

ماتيس Jan Matthys، على السلطة فى مدينة مونستر الويستفالية Westphalian town of Münster، وأسّسا ما يُمكِننا تسميته «دولة مسيحية»:

مساواة كاملة تمامًا، نظام حُكم تمرُّدى وثيوقراطى يستند إلى حَرْفيّة الكتاب المقدس. أحرق القائلون بتجديد العِماد جميعَ الكتب باستثناء الكتاب المقدس ، وأطلقوا على مونستر «القدس الجديدة»، وشَرّعوا تعدُّدَ الزوجات، واستعدوا لشَنّ حربٍ على غير المؤمنين تحَسُّبًا لمجىء المسيح الثانى[289] Christ's Second Coming. وبحلول منتصف القرن السابع عشر، فى فترة الكومنولث ا لإنجليزى[290] English Commonwealth، شَكّلَ المُنْشَقّون البروتستانت - الذين رفضوا «الطريق الأنجليكانى الوَسَط» بين اللوثرية والكاثوليكية - طوائفَ متنافسةً عديدةً، أبرزها «خامِسُ المَلَكيين» Fifth Monarchists (وفقًا لنبوءة سفر دانيال Book of Daniel القائلة بأن أربع مَلَكيّات قديمة ستسبق مملكة المسيح)، والمَجْليتونيون Muggletonians (سُمُّوا باسم لوودويك مَجْليتون Lodowicke Muggleton، أحد خَيّاطيْن فى لندن زَعَمَا أنهما آخر الأ نبياء المُتَنبّأ بهم فى سِفْر الرؤيا Book of Revelation)، والكويكرز Quakers («المرتجفون أمام كلمة الرب»)، والرانترز Ranters (سُمُّوا بذلك لتَبَتُّلِهم الصاخب المثير للمتعة فيما يزعمون).

---

[289] المجىء الثانى للمسيح: عودة متوقعة ليسوع المسيح بالاستناد إلى نبوءات فى علم ا لأخرويات المسيحي والإسلامي على السواء - المترجم.

[290] الكومنولث الإنجليزى أو كومنولث إنجلترا: أسّسَه أوليفر كرومويل عام 1653 وترأسه. وما لبث أن هزم المَلَكيين فى الحرب الأهلية الدائرة بين أنصار الملك وأنصار البرلمان - المترجم.



هل كان الإصلاحُ كارثةً؟ بحلول عام 1648، وهو تاريخ صُلح ويستفاليا Peace of Westphalia[291]، كان الإصلاح مسؤولا ً - دون ريب - عن صدمة أعداد الموتى المقتولين بطرق عنيفة قاسية ووحشية غالبًا. أما فى الجزر البريطانية ، فقد تسبّبَ الإصلاحُ - فى نهاية المطاف - فى ثورة سياسية. بدأتْ - طبقًا لأ حد التفاسير المبتكرة - بوصفها نتيجة لدسائس إيرل بيدفورد Bedford و البيوريتانى إيرل وارويك Warwick (أىْ البروتستانتى المُتشدِّد)، إذ سعى كلا هما إلى تقييد الملك تشارلز الأول King Charles I لأسباب سياسية بقدر ما هى دينية. ولم تكن تطمح هذه «الطُغمة» الأرستقراطية إلى ثورة دينية، بل إلى جَعْل ملك إنجلترا أكثر قليلا ً من رئيس قضاة البندقية، خاضعًا لأ وليجاركيتهم[250].

ثم تصاعدت الأمور بعد توترات عام 1642 بين «أنصار المَلَكيّة» و«أنصار البرلمان» - وبين إنجلترا وإسكتلندا وأيرلندا - إلى حرب أهلية، خسرها المَلِك.

---

[291]يُشَار بشكل متكرر إلى صلح ويستفاليا على أنه لحظة أُعِيدَ فيها فَرْضُ الأبنية الهَرَميّة على أوربا بعد اضطراب حرب الثلاثين عامًا. وهو يتألف من ثلاث معاهدات متميزة، واحدة بين الجمهورية الهولندية وإسبانيا، وواحدة بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة وفرنسا وحلفائها، وواحدة بين الإمبراطورية المقدسة والسويد وحلفائها. ومع أن أكثر من مئة وفد شارك فى المفاوضات فى المدن المجاورة لمونستر الكاثوليكية وأوسنابروك اللوثرية Lutheran Osnabrück إلى حد ما، فيُقَالُ عادةً إن صلح ويستفاليا دشّنَ إطارًا قائمًا على سيادية دول متعايشة معًا، ولكنها متنافسة، وتوافقت على عدم التدخل فى شؤون بعضها البعض الداخلية (أىْ الشؤون الدينية). كان هذا المبدأ قد تأسّسَ بالفعل فى صلح أوجسبورج قبل قرن تقريبًا، ولكنه تم التأكيد عليه ثانيةً في ويستفاليا - المؤلف.

ثم بعد قطع رأس المَلِك يوم 30 يناير عام 1649، أعلنت إنجلترا أنها «كومنولوث» جمهورى. ووَفْقَ توقعات النظرية السياسية الكلاسيكية، لم يدم ذلك طويلا ً: ففى عام 1653، حَلّ الجيشُ النموذجى الجديد New Model Army ما يُسمّى «برلمان الرامب» Rump Parliament وسَمّى أوليفر كرومويل Oliver Cromwell «اللورد الحامى» Lord Protector. لم تدُمْ أيضًا هذه المؤسسةُ طويلا ً؛ ففى مايو عام 1660، بعد موت كرومويل بعامين فقط، أعلن برلمانٌ جديدٌ أن تشارلز الثانى Charles II هو الملك الحقيقى منذ إعدام والده. ما يقرب من مئة ألف شخص، فى إنجلترا وويلز Wales، فُقدوا حياتهم في الحرب الأهلية[292] Civil War.

كانت معدلات القتلى أعلى فى إسكتلندا، ربما، وأعلى بكثير فى أيرلندا. بل عانت أيرلندا من خسائر فى الأرواح أكثر من خسائرها فى المجاعة الكبرى[293] Great Famine أربعينيات القرن التاسع عشر، فعانتْ - بكل تأكيد - بقدر ما عانت ألمانيا في حرب الثلاثين عامًا.

لا ريب فى أن الحروبَ والاضطهادات التى أطلق عنانها عصرُ الإصلاح، أبعدُ ما يكون عمّا قَصَدَه لوثر. فَضْلُ الكاثوليك الرومان أنهم أبقوا، بإصلاحهم المُضَاد، البروتستانتيةَ خارج جنوب أوربا (وخارج الإمبراطوريتين الإسبانية و البرتغالية)، وكان المَغْزى جِدّ واضح: التحديات التى تُواجِه الهَرَمِيّةَ البابوية وا لأسقفية، وفَرَضَتْها شبكةٌ تُسَمِّى نفسَها «كهنوت كل المؤمنين»[294] priesthood of all believers، أدّتْ إلى فوضى دموية bloody anarchy فى وقت قصير. ولكن الأرستوقراطيين البريطانيين تعلموا درسًا مختلفًا. إذ خَلَصُوا، بعد محاولة جيمس الثانى[295] James II استعادة الكاثوليكية

---

[292] الحرب الأهلية الإنجليزية: سلسلة صراعات مسلحة وسياسية بين البرلمانيين والمَلَكيين ، امتدت الأولى منها بين عامى 1642 و1646، وامتدت الثانية بين عامى 1648 و1649، و الثالثة بين عامي 1649 و1651. وأثناءها أُعْدِم الملك تشارلز الأول وكرومويل - المترجم.

[293] المجاعة الكبرى، أو مجاعة البطاطس الكبرى: فى أربعينيات القرن التاسع عشر أصابت آفةٌ زراعية محاصيلَ البطاطس فى كل أوربا، ولكن أيرلندا تضرّرتْ بشكل أكبر، بسبب اعتماد أكثر من ثلث السكان على البطاطس لفقرهم، فتفاقمت فيها الخسائر البشرية. غيّرت هذه المجاعةُ المشهدَ السكانى والسياسى والثقافى فى أيرلندا إلى الأبد، وأصبحت نقطة تاريخية فاصلة في حياة البلد - المترجم.

[294] كهنوت جميع المؤمنين: يعتقد البروتستانت أنه من خلال المسيح قد تمّ منحهم إمكانَ الوصول المباشر إلى الله دون الوسائط الموجودة في الكاثوليكية - المترجم.

[295] جيمس الثانى: (1633 - 1701)، آخر ملوك الرومان الكاثوليك، حَكمَ إنجلترا وإسكتلندا وأيرلندا فى الفترة من عام 1685 حتى الإطاحة به فى الثورة المجيدة عام 1688، وهى

الرومانية المحكوم عليها بالفشل، إلى ضرورة تقييد سلطات الملك، دائمًا، بـ البرلمانات التى سيطروا عليها بوَسَاطَة شبكات الرعاية والكفالة، وإلى ضرورة تقييد «الحماس» الدينى بوَسَاطَة الكنيسة الأنجليكانية التى ترسم الطريقَ الوَسَطَ بين البيوريتانية Puritanism و«البابوية» Popery. ثمة قدر كبير من الحقيقة فى كلتا الرؤيتين. ولكن أولئك الأرستقراطيين تغافلوا عن الفوائد المساواتية والحيوية، غير المقصودة، فى الاضطراب الذى أطلق لوثرُ له العَنانَ.

الثورة التي أقرت مبدأ ألا يحكم الملك إلا بموافقة البرلمان - المترجم.

III القسم الثالث
رسائل ومحافل ماسونية

17

عواقب الإصلاح الاقتصادية

كان لفشل الإصلاح المضاد[296] Reformation-Counter فى إحباط «الكالفينية الدولية»[297] Calvinist International00 [251] نهائيًا، عواقبُ اقتصادية وثقافية بعيدة المدى. قبل الإصلاح، كان ثمة القليل نسبيًا لتمييز أداء شمال غرب أوربا الاقتصادى عن الأداء الاقتصادى - مثلا ً - فى الإمبراطوريتين الصينية أو العثمانية. ثم بعد ثورة لوثر، بدأت الدول البروتستانتية تُظهِرُ علامات على دينامية اقتصادية أكبر. لماذا؟ الإجابة هى أن الإصلاح - بغضّ النظر عن رغبة لوثر فى تنقية الكنيسة - أدّى إلى إعادة توزيع شاملة للموارد، من النشاطات الدينية إلى النشاطات العَلمانية. أُغْلِقَتْ ثلثا الأديرة فى ألمانيا البروتستانتية، أما الأراضى والأصول الأخرى فقد استولى عليها الحُكّام العَلمانيون وباعوها للرعايا الأثرياء، وحَدَثَ هذا فى إنجلترا أيضًا. أقلعت أعداد متزايدة من طلبة الجامعة عن أفكار الحياة الرّهْبانية، وحَوّلوا اهتمامهم إلى مهن أكثر دنيويةً. قَلّ بناءُ الكنائس، وزادت الأبنية العَلمانية. وكما لُوحِظَ حقًا، كان للإصلاح عواقب غير مقصودة بتاتًا، فمِن خلال كوْنه «حركة دينية، أسهم فى عَلمَنة[298] أوربا Europe's

---

[296]الإصلاح المضاد: يُعْرَفُ أيضًا ب«الإصلاح الكاثوليكى» أو «الإحياء الكاثوليكى». حركة دينية استهدفت إصلاح الكنيسة الكاثوليكية وفى الوقت نفسه مُناهَضة الإصلاح البروتستانتى. تضمنت الحركةُ إعادة تشكيل الهيكل الكنسى وتأسيس معاهد دينية لتدريب الكهَنة، وإصلاح الحياة الدينية من خلال إعادة النُظُم الدينية إلى أصولها الروحية الأولى، بالتركيز على الحياة التعبُّدية والعلاقة الخاصة بالمسيح، الأمر الذى أدّى إلى ظهور الصوفيين الإسبان والمدرسة الفرنسية الروحانية - المترجم.

[297]الكالفينية: مذهب مسيحى بروتستانتى يرجع تأسيسه إلى المصلح الفرنسى جون كالفن الذي ألّفَ بين عاميْ 1536 و1559 كتابَه «مبادئ الإيمان المسيحي».

يعتقد كالفن - مثل لوثر - بأن الخلاص يحدث بالإيمان فقط وليس بالأعمال، ولكنه انفرد عن لوثر بالقول بالقَدَريّة المطلقة ونفي مسؤولية الإنسان عن أفعاله.

تفرّعَ عن الكالفينية المذهبُ البيوريتانى أو الطّهورى. سعت البروتستانتية بكل ما تفرع عنها من مذاهب، ومنها الكالفينية على وجه التحديد، إلى بناء مفهوم موضوعى يرى الإنسانَ «زاهدًا نشيطًا» لديه دوافع إيمانية روحانية وربّانية للعمل والكفاح والثراء دون تعارض حتمى مع روحانية الإيمان. فالنجاح الدنيوى المادى مرغوب أيضًا بوصفه طريق الخلاص الأخروي وعلامة على النجاح في تحقيقه - المترجم.

[298]العَلمَنة: عملية تاريخية يفقد فيها الدينُ أهميتَه الاجتماعية والثقافية. وتشير أطروحةُ العَلمَنة إلى أنه مع تقدُم المجتمعات، فى إطار التحديث، يفقد الدينُ سلطتَه فى جميع

«secularization»[252].

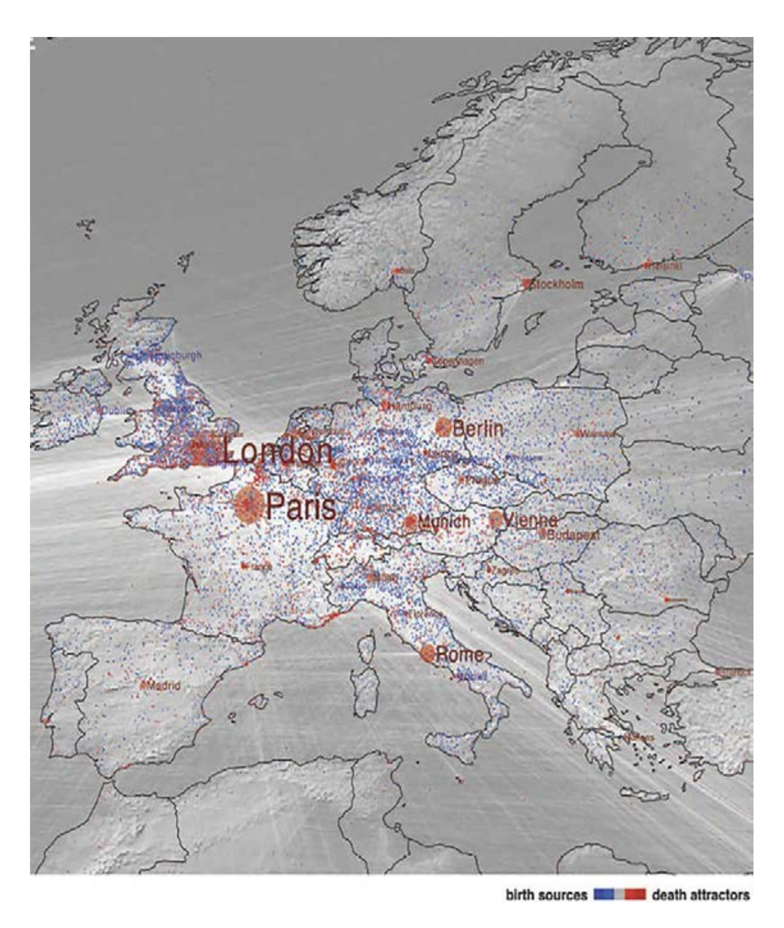
وفى الوقت نفسه، انطوت ثورةُ الطباعة، التى جعلت الإصلاحَ ممكنًا، على عواقبها غير المقصودة [أيضًا]. بين عامىْ 1450 و1500، انخفض سِعْرُ الكُتُبِ بمقدار الثلثين، واستمر انخفاض السعر بعد ذلك.

فى عام 1383، كانت التكلفة تعادل أجْرَ كاتبٍ لمدة 208 يومًا، كى يكتب قُدّاس صلاة واحد (كتاب الخدمة) لأسقف وِسْتمِنسْتَر Westminster [مدينة فى إنجلترا]. وبحلول أربعينيات القرن السابع عشر، بِيعَ فى إنجلترا، بفضل الطباعة، ما يَرْبُو على 300 ألف روزنامة شعبية سنويًا، كل منها من 45 إلى 50 صفحة طويلة تقريبًا، بتكلفة بِنْسَيْن فقط، فى الوقت الذى كان فيه أجْرُ العامل غير الماهر 11.5 بِنْسًا يوميًا. فى المتوسط، انخفض سعر الكتب الحقيقى فى إنجلترا بنسبة 90% بين أواخر العقد الأول من القرن الخامس عشر وأواخر العقد الأول من القرن السادس عشر[253]. لقد حَدَثَتْ أكثر من مجرد طفرة فى الكتاب. فبين عامىْ 1500 و1600، نَمَت المدنُ التى أُنْشِئَتْ فيها مطابع، أواخر العقد الأول من القرن الخامس عشر، بما لا يقل عن 20% (وربما بما يعادل 80%) أسرع من مثيلاتها التى لم تُنْشَأ فيها مطابع مبكرًا. استأثر انتشارُ الطباعة بما بين 18% و80% من النمو الحَضَرى بين عامىْ 1500 و1600[254]. وقد ذهب ديتمار Dittmar إلى حدِّ القول بأن «تأثير ازدهار الكتاب المطبوع كان يعادل 4% من الدّخْل بحلول أربعينيات القرن السادس عشر ، و10% من الدّخْل بحلول منتصف العقد الأول من القرن السابع عشر؛ وهذا أكبر بكثير من تأثير ازدهار الكمبيوتر الشخصى فى عصرنا، المُقدّر بما لا يزيد عن 3% من الدّخْل فى عام 2004[255]. لقد اتّبع الانخفاضُ فى سعر الكمبيوتر الشخصى بين عامىْ 1977 و2004 مسارًا مماثلاً تمامًا للانخفاض فى سعر الكتاب بين تسعينيات القرن الخامس عشر وثلاثينيات القرن السابع عشر. فى الماضى، كلما أبطأت ثورةُ تكنولوجيا المعلومات أثّرتْ تأثيرًا اقتصاديًا أكبر. وأفضل تفسير لهذا الفرق هو دور الطباعة فى نشر معرفة أساسية - غير متاحة حينذاك - لتشغيل الاقتصاد الحديث. أول نص مطبوع فى الرياضيات كان Treviso Arithmetic (1478).

وفى عام 1494، نُشِرَ فى البندقية كتابُ لوكا باتشولى Luca Pacioli's Summa de arithmetica, geometria, proportioni et Proportionalita، الذى يُعَظِّمُ منافعَ مَسْك الدفاتر مزدوجة القيْد. سرعان ما تلاه نَشْرُ كُتُبٍ عن تكنولوجيات التصنيع مثل تخمير الجِعَة وتصنيع الزجاج، الأمر الذى كفَلَ

جوانب الحياة، وإن كانت بعض اتجاهات العَلْمَنة المعتدلة تشير إلى بقاء الدين فى أُطُرٍ فردية فقط - المترجم.

سرعةُ انتشار أفضل الممارسات.



ولم يكن هذا كلّ شىء. فقبل الإصلاح، تمركزت الحياةُ الثقافية فى أوربا تمركزًا قويًا حول روما Rome. ثم بعد ثورة لوثر، تغيّرَت شبكةُ الثقافة الأوربية تغيُّرًا كاملا ً. وبالاستناد إلى بياناتِ أماكنِ ميلاد المفكرين الأوربيين ووفاتهم، نستطيع تتبُّع ظهور شبكتين متداخلتين: نظام حُكْمِ «الفائز يأخذ كل شىء»، المتمركز بشكل هائل حول باريس Paris، ونظام حُكْمِ «القادر يصبح أغنى»، حيث تتنافس مراكز بديلة أحدها مع الآخر فى مجموعات عبر جميع أنحاء أوربا الوسطى وشمال إيطاليا[256]. بعد عام 1500، لم تعد كلُّ الطرق تُؤدِّي إلى روما.

18

تداول الأفكار

بينما كان البعض يَقتُلُ ويَذبَح، كان آخرون يدرسون. ورغم الاضطرابات التى أطلق لها العنانَ الإصلاحُ - والتى ظلت تستحِثُ تمرُدًا إسكتلنديًا، أواخر عام 1745، لدعم سلالة ستيوارت[299] Stuart dynasty الكاثوليكية المخلوعة - تميّزَ التاريخُ الفكرى الأوربى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بتتابع موجاتِ تجديدٍ تقودها الشبكاتُ، أهمُّها الثورة العلمية Scientific Revolution والتنوير Enlightenment. وفى كل حالة منهما، أنتجَ تشَارُكُ الأفكار الجديدة داخل شبكات العلماء تقدُمًا كبيرًا فى العلوم الطبيعية وفى الفلسفة. وعلى الأ صح، كما هو الشأن فى انتشار تكنولوجيا الطباعة، ثمّة نمط جغرافى لانتشار العِلم، يمكن إعادة بنائه على أساس مجرى حياة العلماء الفردية. فى القرن السادس عشر، كان محور الشبكة العِلمية الرئيسى مدينة بادوفا[300] Padua، التى كانت مركز مجموعة مدن إيطالية أخرى بها جامعات. ووُجِدَتْ روابط تمتد من هذه المجموعة إلى تسع مدن رئيسية أخرى فى جنوب أوربا، كما امتدت إلى أوكسفورد Oxford وكمبريدج Cambridge ولندن London البعيدة. كانت هناك عُقدَتان ألمانيتان - فيتنبرج[301] Wittenberg وييينا[302] Jena - تتصلان إحداهما بالأخرى فقط. ثم فى غضون القرن السابع عشر، رُبِطَتْ بادوفا بأربعة محاور نشاط عِلمى أخرى، هى: لندن، لايدن[303] Leiden،

---

[299] سلالة ستيوارت: ترجع أسرة ستيوارت فى أصولها إلى أحد المغامرين البريتانيين (نسبةً إلى مقاطعة بريتانى فى فرنسا) هو آلان فيتزفالد، الذى جاء إلى بريطانيا مع طلائع جيش ويليام الأول الفاتح النورمندى. حَكمَت الأسرةُ فى إسكتلندا ثم بريطانيا فى الأعوام من 1371 حتى 1714 - المترجم.

[300] بادوفا: مدينة إيطالية فى إقليم فينيتو شمال البلاد، بها جامعة بادوفا التى تأسّستْ عام 1222، والتى تُعَدُ من بين أقدم الجامعات فى العالم، وثانى أقدمها فى إيطاليا - المترجم.

[301] فيتنبرج: مدينة ألمانية فى ولاية سكسونيا - أنهالت، على نهر إلبى. كانت مقرّ ناخب ولا ية سكسونيا. ويرتبط العديد من أماكنها بمارتن لوثر وفجر الإصلاح البروتستانتى - المترجم.

[302] ييينا: مدينة فى ولاية تورنجن بألمانيا. وفيها واحدة من أقدم الجامعات الألمانية هى «جامعة ييينا» التي تأسّستْ عام 1558 - المترجم.

[303] لايدن: مدينة هولندية فى الجنوب على ضفاف نهر الراين. وبها جامعة لايدن أقدم

باريس، يينا. ثم صارت كوبنهاجن[304] Copenhagen واحدةً من عِدّة عُقد جديدة على المحيط الجغرافي[257].

تتيح لنا شبكات المراسلة رؤيةً أعمق لتطوُّر الثورة العِلمية. كان إسماعيل بوليوو[305] Ismaël Boulliau فلكيًا وعالِمَ رياضيات فرنسيًا، اهتمّ بالتاريخ والا لاهوت والدراسات الكلاسيكية أيضًا. مراسلاته غزيرة:

4,200 رسالة على مدى السنوات من 1632 حتى 1693، بالإضافة إلى 800 رسالة واردة إليه أو صادرة عنه غير مُدْرَجَة فى «مجموعة بوليوو» Collection Boulliau. امتدت مراسلاته على نطاق واسع أيضًا، أبعد من فرنسا ، إلى هولندا وإيطاليا وبولندا والدول الإسكندنافية Scandinavia والشرق الأ دنى Near East[258]. ويمكن مقارنتها من حيث الحجم والنطاق بمراسلات هنرى أولدنبورج[306] Henry Oldenburg، سكرتير أول الجَمْعيّة المَلَكيّة[307] Royal Society، الذى كتَبَ أو تلقّى 3,100 رسالة بين عامىْ 1641 و1677. فبا لإضافة إلى إنجلترا، شملت شبكةُ أولدنبورج فرنسا وهولندا وإيطاليا والشرق الأدنى وعددًا من المستعمرات الإنجليزية[259]. من ناحية الكمّ، لم يكن ذلك شيئًا جديدًا. فالشخصيات الرائدة فى عصر النهضة والإصلاح أنتجت كمًّا من الرسائل متقاربًا: أكثر من 3000 رسالة بقيت من إيرازموس[308] Erasmus، وأكثر من 4000 رسالة من لوثر Luther وكالفن Calvin، وأكثر من 6000 رسالة من إغناطيوس لويولا Ignatius Loyola مؤسِّس جمعيّة يسوع Society of

---

جامعات هولندا - المترجم.

[304]كوبنهاجن: تأسّست فى القرن العاشر بوصفها قرية لصيادى السمك، ثم أخذت تزداد أهميتها بسبب مينائها حتى أصبحت عاصمة مملكة الدنمارك منذ منتصف القرن الخامس عشر تقريبًا - المترجم.

[305]إسماعيل بوليوو: (1605 - 1694)، عالِم فلك ورياضيات، اهتمّ أيضًا بالتاريخ واللاهوت و الدراسات الكلاسيكية وفقه اللغة. كان عضوًا نَشِطًا فى «جمهورية الآداب»، وهى جماعة فكرية تتبادلُ الأفكارَ - المترجم.

[306]هنرى أولدنبورج: (1619 تقريبًا - 1677)، ديبلوماسى وفيلسوف طبيعى ولاهوتى ألمانى. حَازَ شبكةً مراسلات واسعة فى أوربا القرن السابع عشر. وعند تأسيس الجمعية المَلَكيّة تولّى مسؤولية المراسلات الأجنبية - المترجم.

[307]الجمعيّة المَلَكيّة: هى «جمعية لندن المَلَكيّة لتطوير المعرفة الطبيعية»، تأسّستْ عام 1660 بوصفها هيئة تعمل على نشر العِلْم - المترجم.

[308]إيرازموس: (1466 - 1536)، فيلسوف هولندى، من روّاد الحركة الإنسانية فى أوربا. حاول التقريب بين مبادئ الكاثوليكية والحركات الإصلاحية الجديدة - المترجم.

Jesus. وثمة أعداد كبيرة من الرسائل، بشكل ملحوظ، أنتجها بعضُ التجار وا لأرستوقراطيين[260]. ولكن الفرق يكمن فى أن المراسلات العِلمية، مع ظهور مؤسّسات مثل الجمعيّة المَلَكيّة، بَدَتْ كما لو أنها مَسْعَى جَمْعيٌّ.

ولعل المثال الجيد على الطريقة التى انتشر بها العِلم عبر هذه الشبكات هو بحث أنتونى فان ليفينهوك[309] Antonie van Leeuwenhoek فى علاج النقرس [داء التهاب المفاصل] الذى كشف عن علاج فعّال، لُوحِظَ للمرة الأولى فى مستعمرة باتافيا Batavia الهولندية (هى الآن جزء من إندونيسيا). تقرير ليفينهوك إلى الجمعيّة المَلَكيّة نَشَرَ المعرفةَ الجديدة بين أعضاء الجمعيّة، بل أبعد منهم أيضًا. المراسلات إلى غير أعضاء الجمعيّة - وهى روابط ضعيفة كلا سيكية - منحتهم فرصةَ الولوج إلى المجموعة الفكرية التى تشكّلتْ فى لندن وما حولها[261].

كان ميثاق الجمعيّة المَلَكيّة صريحًا فى مَنْح رئيسها ومجلسها وأعضائها وخلفائهم حريةَ «التمتُّع بتبادل المعلومات والمعرفة مع الغرباء والأجانب على اختلافهم، سواء كانوا أفرادًا أم جامعات، أصحاب أعمال أم سياسيين، دون أى مضايقة أو تدخُّل أو إزعاج من أى نوع»[262]. الشرط الوحيد هو أن يُفيدَ تبادلُ المعلومات الجَمْعيّةَ ومصلحتَها. وبدءًا من أولدنبورج، لعب أمناءُ الجمعيّة [السكرتير الأول] المتعاقبون دورًا حاسمًا (وإنْ بدرجات نجاح متفاوتة) فى إدارة مراسلات الجمعيّة على نطاق واسع. فى ظل إدارة إدموند هالى Edmond Halley، تراكمت الرسائل الواردة (ومن بينها رسائل ليفينهوك) دون قراءة، أما حين أصبح خليفتُه الفيزيائى جيمس جورين James Jurin سكرتيرًا أول، بَدَت الجمعيّةُ محورَ شبكة علماء دولية، بمَن فيهم الجراحون وا لأطباء وأساتذة الجامعات ورجال الدين والصيادلة، رُبْعُهم فى أوربا، وحوالى 5% فى المستعمرات داخل أمريكا الشمالية. فى ديسمبر عام 1723، قرأ جورين «مقترحَه بشأن أرصاد جويّة مشتركة»، دعا فيه إلى تنسيق مراقبة الأرصاد الجويّة عبر شبكة مُتَراسِلين. كانت فرضيته أن «نظرية الطقس الحقيقية لا تتحقق بمعرفة التغيُّرات المتعاقبة فى مكان واحد»، بل «تتطلب تعاونًا مشتركًا بين مراقبين عديدين [في أماكن مختلفة]»[263].

وخلال الأشهر التالية، تلقّى نتائج مراقبات من برلين ولايدن ونابولى وبوسطن ولونِفيل Lunéville وأوبسالا Uppsala وسان بطرسبرج St

---

[309]أنتونى فان ليفينهوك: (1632 - 1723)، عالِم هولندى من العصر الذهبى للعلوم و التكنولوجيا الهولندية، يُعْرَفُ ب«أبو الأحياء الدقيقة»، وأحد أوائل علماء الميكروسكوبولوجى والميكروبيولوجى. اشتهر بعمله الرائد فى الفحص المجهرى وإسهاماته في إنشاء علم الأحياء المجهرية بوصفه مجالا ً علميًا - المترجم.

.Petersburg

وعلى النقيض من الجمعيّة المَلَكيّة [فى إنجلترا]، كانت أكاديميةُ العلوم الفرنسية[310] Académie des sciences فى باريس مِلكيةً خاصة للتاج المَلَكي أساسًا.

فعندما اجتمعت للمرة الأولى يوم 22 ديسمبر عام 1666، كان الاجتماعُ فى مكتبة المَلِك، ووَضَعَ لها سياسةً عامة تتصف بالسرّية. كل المناقشات والمداولا ت خاصة، فمُنِعَ غير الأعضاء من حضور الجلسات[264].

وبذلك عُزِلَ أعضاؤها عن شبكة عموم أوربا متسارعة النمو التى عجّلت بـ الثورة العلمية. وتشَابَه الموقفُ فى كثير من أنحاء أوربا الكاثوليكية. فلم يكن من قبيل المصادفة أن يُوصَفَ المفكرون البرتغاليون، الذين تمكّنوا من الا لتحاق بالشبكة العلمية الأوسع، بأنهم estrangeirados، التى تعنى «الأ جانب»[265]. لقد تلاءَمَ ظهورُ شبكة عِلمية كوزموبوليتانية وَلَّدتْ نظريةُ الشبكة نفسها، مع انشغال أويلر Euler بمشكلة جسر كونيجْسبِرج Königsberg [عاصمة بروسيا الشرقية] (انظر المقدمة). وُلِدَ أويلر فى بازل Bazel، حيث دَرَسَ تحت إشراف يوهان بيرنولى[311] Johann Bernoulli، ثم ترقّى إلى الشُهْرَة بعد حصوله على المركز الثانى فى مسابقة جائزة أكاديمية باريس Paris Academy Prize Problem وهو فى العشرين من عمره فقط. كان أويلر يعمل فى أكاديمية العلوم الروسية الإمبراطورية[312] Imperial Russian Academy of Sciences فى سان بطرسبرج، عندما حَلّ لغز كونيجْسبِرج، ثم انتقل إلى برلين بدعوة من فريدريك العظيم[313] Frederick the Great فى عام 1741 (لكن الرجلين لم ينسجما، فعاد أويلر لاحقًا إلى روسيا).

---

[310] الأكاديمية الفرنسية للعلوم: جمعيّة عِلمية تأسّسَتْ عام 1666، فى عهد لويس الرابع عشر باقتراح من جان باتيست كولبير، بهدف تشجيع روح البحث العلمى الفرنسى وحمايته - المترجم.

[311] يوهان بيرنولي: (1667 - 1748)، عالِم رياضيات سويسري - المترجم.

[312] تأسّسَتْ في عام 1724 - المترجم.

[313] فريديريك العظيم: (1712 - 1786)، هو فريدريك الثانى من سلالة هوهنتسولرن، اشتهر بدهائه فى الحملات العسكرية. وكان من دُعاة الحُكم المطلق المستنير، قام بتحديث البيروقراطية البروسيّة والخدمة المدنية وعزّزَ التسامحَ الدينى فى أرجاء مملكته. عُرِفَ برعايته للفنون والفلاسفة والعلماء. يقال إنه لعب دورًا كبيرًا فى شبكات الماسونية - المترجم.

لم تكن النّظَرَات الرياضية mathematical theorems وحدها هى التى تُبُودِلَتْ فى القرن الثامن عشر. الشبكات التى خلقتها التجارةُ والهجرة عبر الأطلنطى تمَتْ باطراد فى ذلك الوقت أيضًا، إذ استغل التُّجارُ والمستوطنون الأوربيون الانخفاضَ السريع فى تكاليف النقل، ووفرة الأراضى [بلا مقابل] فى أمريكا الشمالية، وكذلك عمالة الرقيق الرخيصة فى غرب أفريقيا. لقد وُصِفَ الاقتصادُ الأطلنطى فى القرن الثامن عشر بأنه «شبكة تجارية ضخمة، يعرف فيها كلُّ شخصٍ الشخصَ الآخر، بل كلّ أصدقاء هذا الشخص وأصدقاءَهم أيضًا»[266]. ولعله من الأدق التفكير فى وجود شبكات متعددة الاتصال و الروابط، ذات موانئ رئيسية تعمل بوصفها محاور[267]. المثال الجيد لهذا هو الطريقة التى لعب بها التجار الإسكتلنديون دورًا مهيمنًا فى تجارة النبيذ فى جُزُر ماديرا[314] Madeira أثناء القرن الثامن عشر. فبحلول عام 1768، كان ثلثُ الثلاثة والأربعين تاجرًا أجنبيًّا المقيمين فى ماديرا إسكتلنديين، بمَن فيهم خَمْسٌ من أكبر عشرة مُصدِّرى نبيذ. وعلى الرغم من أن بعض تُجّار النبيذ على صلات ببعضهم البعض، فإن معظم الروابط فى الشبكة كانت بين «المُراسِلين» correspondents و«الروابط» connections. صحيح أن السيولة النسبية لهذه الروابط انطوت على عيوب، فأصحاب الأعمال يواجهون صعوبات معتادة فى توصيل التوجيهات لوكلائهم. كما أن تدفُّقات المعلومات غزيرةٌ، ولكن معظمها تشوبه الشائعاتُ المُضيّعة للوقت؛ وتكاليف الصفقات عالية لأن التجار يُقاوِضُ أحدُهم الآخرَ باستمرار[268]. لكن من ناحية أخرى، كانت هذه الشبكةُ ديناميةً ومتجاوِبةً مع تغيُّرات السوق[269].

أحد الحلول هو الجمع بين فوائد التواصل الشّبَكى وبعض عناصر الإدارة الهَرَميّة. من الناحية الرسمية، سيطر مديرو شركة الهند الشرقية[315] East India Company (EIC) فى لندن على جزء كبير من التجارة بين الهند وأوربا الغربية. ولكن كما تُبَيّنُ سجلاتُ ما يزيد على 4,500 رحلة لتُجّار الشركة، قام قُبَاطِنَةُ السفن برحلات جانبية غير مشروعة، فاشتروا وباعوا لحسابهم

---

[314] ماديرا: مجموعة جُزُر فى المحيط الأطلنطى شمال غرب أفريقيا تتبع البرتغال - المترجم.

[315] شركة الهند الشرقية: تأسّسَتْ يوم 31 ديسمبر عام 1600 بمرسوم من ملكة إنجلترا إليزابيث الأولى، ومنحتها سلطات احتكارية على تجارة الهند وجميع مستعمراتها فى جنوب شرق آسيا. تاجرت الشركةُ أساسًا فى القطن والحرير والشاى والأفيون، أطلق العامةُ عليها «شركة جون»، وأطلق عليها أهل الهند «شركة بهادور». ولكن الشركة تحولت من مشروع تجارى إلى مؤسسة تحكم جميع الولايات الهندية ومستعمرات التاج البريطانى في المنطقة بدَعْم سياسي وعسكري من بريطانيا - المترجم.

الخاص[270]. وبحلول أواخر القرن الثامن عشر، زاد عدد موانى الشبكة التجارية الناتجة إلى أكثر من مئة ميناء، ما بين مركز تجارى مفتوح كمدينة مِدْارس Madras [تشيناى الهندية] إلى أسواق منظّمة كمدينة كانتون Canton (جوانزو[316] Guangzhou)[271].

بل وفّرت التجارةُ الخاصة روابطَ ضعيفة وَصَلَتْ بين مجموعات محلية لم تكن لتتصل فيما بينها بطريقة أخرى[272]. وقد انطوت هذه الشبكةُ على حياتها الخاصة التى لم يسيطر عليها مديرو شركة الهند الشرقية فى لندن. بل كان انفلاتُ السيطرة هذا، أحدَ المفاتيح الرئيسية لنجاح الشركة؛ لأنها كانت شبكةً أكثر منها تسلسلاً هَرَميًّا. أما مُنافِسَتُها الهولندية فقد حَظَرَتْ على موظّفيها التجارةَ الخاصة. وربما يساعد هذا على تفسير السبب فى أنها حلّتْ محلّها[273]. فبمجرد أن وَاجَه تجارُ شركة الهند الشرقية موانىَ منظّمة تنظيمًا هَرَميًّا، كميناء باتيكالُوا[317] Batticaloa - الذى احتكرته العائلةُ المَلَكيّة السينهالية Sinhalese - فُشِلَتْ إستراتيجيتُهم الشبكيّة في التعامل[274].

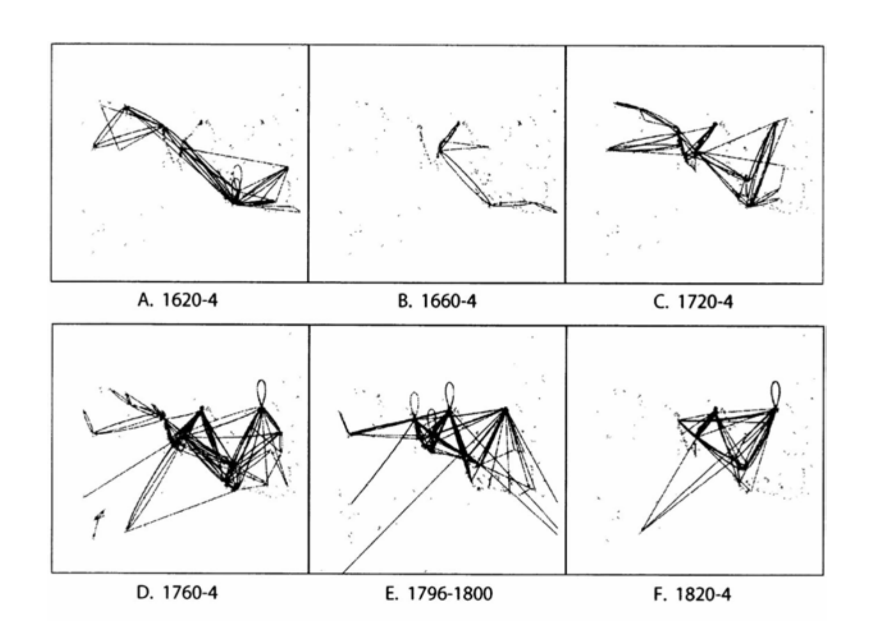
عندما انسحبت شركة الهند الشرقية من التجارة داخل آسيا لتُركِّزَ على تجارتها بين آسيا وأوربا أثبتت كثافةُ شبكتها البحرية أنها حاسمة[275]. ثم بمجرد تغيُّر أسلوب الشركة فى إدارة الأعمال من التجارة إلى فَرْض ضرائب على الهنود صارت بنيتُها أكثر هَرَميّةً. ثم بحلول زمن إدارة روبرت كلايف[318] Robert Clive، اتخذت شركةُ الهند الشرقية طابعَ حكومة استعمارية ذات قدرة كبيرة على شَنِّ الحرب.

---

[316] جوانزو أو جوانجتشو: تُعْرَفُ أيضًا باسم «كانتون»، مدينة فى جنوب الصين تقع على ضفة نهر اللؤلؤ شمال غرب هونج كونج، وشمال ماكاو. محطة رئيسية فى طريق الحرير البحري، وميناء، ومركز نقل حتى اليوم - المترجم.

[317] باتيكالُوا: إحدى مدن سريلانكا على الساحل الشرقي - المترجم.

[318] روبرت كلايف: (1725 - 1774)، ضابط بريطانى، كان له الفضل فى إقامة السيادة العسكرية والسياسية لشركة الهند الشرقية وتأمين الثروات المكتسبة لصالح التاج البريطاني - المترجم.



الشكل: 13 - شبكة تجارة شركة الهند الشرقية البريطانية بين عامىْ 1620 و 1824. استفاد التجار من البنية التحتية للشركة، أما الشركة فاستفادت من قدرة التجار على بناء شبكة بين موانى متعددة.

وبالنسبة إلى عائلة طموحة ومُغامِرة، كانت ذات يوم عاميّةً فى الأراضى الإ سكتلندية المنخفضة[319] Scottish Lowlands، اعتُبِرَ هذا العالَم عالمًا من الفُرَص[276]. تدفّقَ آل جونستون Johnstones من ويسترهول Westerhall فى دَمفيرشير Dumfriesshire، التى وَصَفَها دانييل ديفو[320] Daniel Defoe بأنها «منطقة برّية جبلية، لا يُتَوَقّعُ منها سوى الخراب والكآبة».

أبناء جيمس وباربارا جونستون James and Barbara Johnstone الأحد عشر، الذين ظلوا على قيد الحياة حتى سنّ البلوغ، قضى جميعُهم تقريبًا جزءًا كبيرًا من حياتهم خارج إسكتلندا. الأخوة الأربعة، جيمس James ووِيليام William، وجورج George وجون John، انتُخِبوا أخيرًا فى مجلس العموم[321] House of Commons؛ ومنذ عام 1768 حتى عام 1805، وُجِدَ دائمًا أحدُ أفراد عائلة جونستون على الأقل فى البرلمان. اشترى الابن الثانى، ألكسندر Alexander، مزرعةً كبيرة فى جرينادا Grenada أسماها

319منطقة تاريخية وثقافية في إسكتلندا - المترجم.

320دانييل ديفو: (1660 - 1731)، تاجر إنجليزى وكاتب وصحفى، مِن بين مؤسِّسى الرواية الإنجليزية - المترجم.

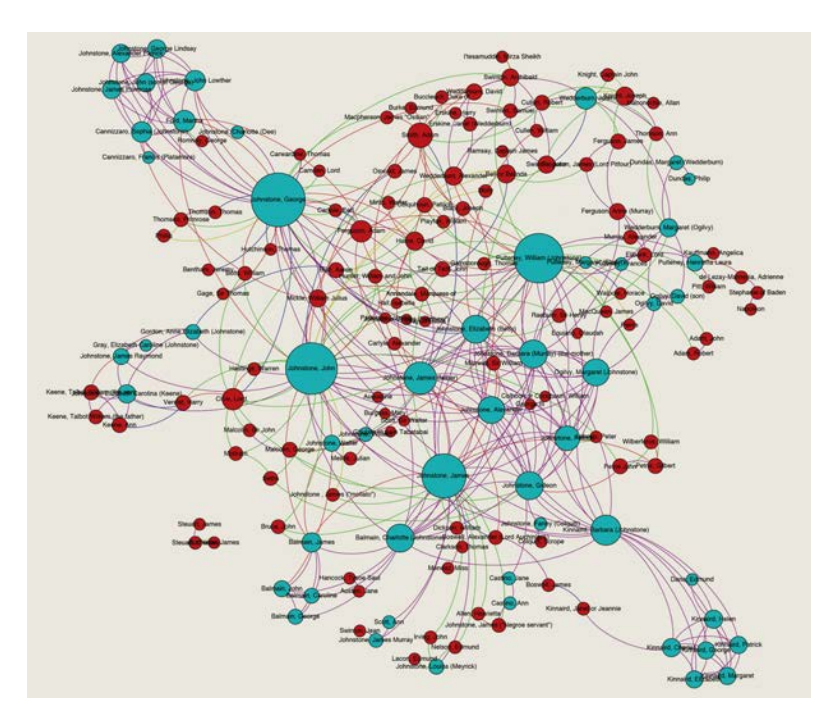
321مجلس العموم البريطانى: يشغل الغرفةَ السُفْلى من برلمان المملكة المتحدة، وأما الغرفة العليا فيشغلها مجلسُ اللوردات - المترجم.

«ويسترهول» Westerhall. وقاد أخوه الأصغر، السير ويليام جونستون بولتينى Sir William Johnstone Pultney، رابطةً مستثمرين واشتروا فى عام 1792 جينسى تراكت Genesee Tract، وهى منطقة فى غرب ولاية نيويورك تبلغ مساحتها أكثر من مليون فدان. وبحلول وقت وفاته، تَرَاكَمَتْ لديه أيضًا ممتلكات فى دومينيكا Dominica وجرينادا، وتوباجو Tobago وفلوريدا Florida. أما الأخوة الثلاثة الأصغر - جون John وباتريك Patrick وجيديون Gideon - فقد أمضوا جميعُهم وقتًا فى شِبْه القارة الهندية فى وظائف بشركة الهند الشرقية. ازدهرت حياة جون، وبَرَعَ فى اللغة الفارسية و البنغالية وكدّسَ ثروةً كبيرة. أما باتريك فهَلَكَ عن تسعة عشر عامًا فى «ثقب كالكوتا الأسود»[322] Black Hole of Calcutta عام 1756.

خَدَمَ آل جونستون أيضًا فى المستعمرات البريطانية فى أمريكا الشمالية: حَكَمَ جورج فلوريدا الغربية West Florida، وألكسندر ضابطُ جيشٍ فى كندا وشمال نيويورك، وجيديون ضابطٌ بحرىٌ على ساحل المحيط الأطلنطى. أصغر عائلة جونستون أمضى وقتًا أيضًا فى البَصْرة وموريشيوس Mauritius [جزيرة فى وسط المحيط الهندى] ورأس الرجاء الصالح Cape of Good Hope. وعند مرحلة فى مسيرة حياته المهنية، أدار شركةً تبيع المياهَ من نهر الجانج Ganges [أحد أكبر أنهار الهند] إلى الحُجّاج الهنود[277].

(بخصوص تمثيل بياني لشبكة آل جونستون، انظر اللوحة الاتية).

[322]ثقب كالكوتا الأسود: سجن صغير أو زنزانة فى كالكوتا، احتجزَ فيها البنغاليون أسرى حرب بريطانيين لمدة ثلاثة أيام بدءًا من يوم 20 يونيو عام 1756 - المترجم.



كانت محاورُ الشبكة الماركنتيلية[323] mercantile العالمية مدنًا ساحلية ذات موانئ، مثل: إدنبرة[324] Edinburgh، لندن London، كينجستون Kingston، نيويورك New york، كيب تاون Cape Town، البصرة Basra، بومباى Bombay، كالكوتا Calcutta. ولم يكن ما يتدفق على طول الممرات البحرية الرابطة بين هذه العواصم metropoles البضائع والذهب فقط. العبيدُ أيضًا عبروا الأطلنطى بالملايين. مئات منهم كانوا يكدحون فى مزرعة جونستون فى جريناد؛ خسر جون (جونستون) قضيةَ المحكمة التى أنهت الاعترافَ القانونى بالعبودية فى إسكتلندا، ولكنه امتلك بليندا Belinda، آخر مَن اعترفت بهم محاكمُ إسكتلندا بوصفها مُسْتَعْبَدة بشكل قانونى. تدفقت الأفكار أيضًا - بما فيها أفكار تحرير العبيد - عبر الشبكة التجارية فى القرن الثامن عشر. مارجريت جونستون Margaret Johnstone اعتنقت اليعقوبيةَ بحماس، ونَجَتْ من السجن فى قلعة إدنبرة Edinburgh Castle، ثم ماتت فى منفاها فى فرنسا. انتسب ويليام جونستون إلى نادى إدنبرة المعروف بجمعية الصّفْوة Select Society، مع آدم سميث Adam Smith وديفيد هيوم David Hume وآدم فِرْجُسن Adam Ferguson، الذين كانوا يُقدِّرون عقلَه تقديرًا كبيرًا. التحق جون ابن ويليام بجمعية إدنبرة لإلغاء تجارة الرقيق الأفارقة

---

[323] الماركنتيلية: مذهب سياسى اقتصادى ساد فى أوربا منذ بداية القرن السادس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر، عِمادُه الاحتكارات التجارية الخارجية - المترجم.

[324] إدنبرة: عاصمة إسكتلندا، على الشاطئ الشرقي بالقرب من بحر الشمال - المترجم.

عَمّاه .Edinburgh Society for the Abolition of the African Slave Trade جيمس وجون عَارَضَا العبوديةَ أيضًا؛ أما ويليام فأخذ صَفّ الجانب الآخر. وجورج راودته فكرةُ دَعْم الثورة الأمريكية[325] American Revolution وأُرْسِلَ إلى المستعمرات فى عام 1778 بوصفه عضوًا في لجنة السلام المنحوسة. أفرادُ عائلة جونستون عرفوا ألكسندر هاملتون[326] Alexander Hamilton وخَصْمَه آرون بور[327] Aaron Burr الذى قام بزيارة إلى منزل بيتي[328] Betty مرة واحدة في إدنبرة[278].

ربما كان آلُ جونستون حالةً متطرفة لعائلة عالَمية. لكن حتى فى أنجوليم Angoulême، وهى بلدة فرنسية ريفية فى شمال بوردو Bordeaux، ارتحلتْ نسبةٌ عالية مدهشة من القاطنين، فى القرن الثامن عشر، أو عاشت خارج فرنسا (اللوحة الاتية).

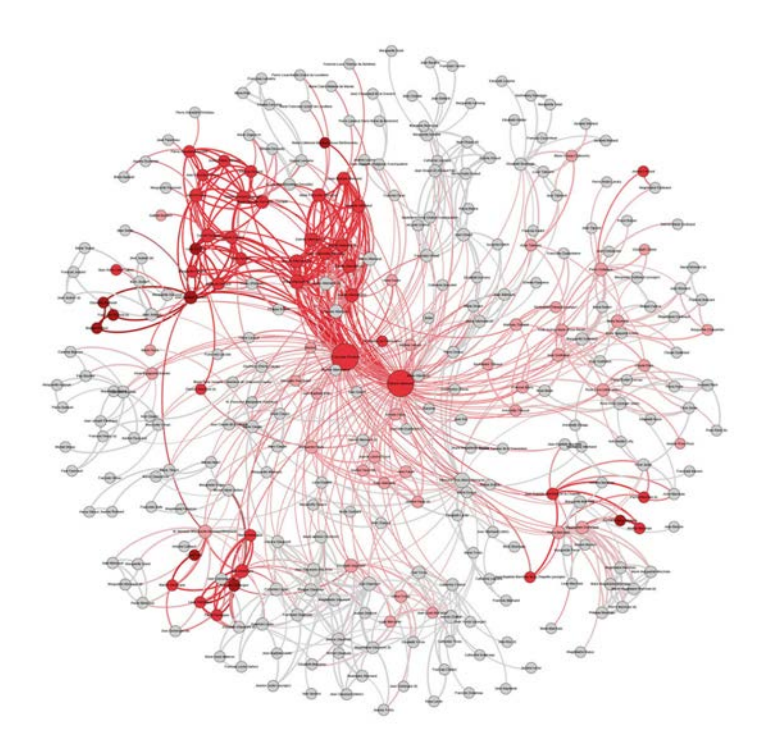
---

[325]الثورة الأمريكية: وقعت أحداثها بين عامىْ 1765 و1783. أدّت فى النهاية إلى استقلال ثلاث عشرة مستعمرة أمريكية عن بريطانيا العظمى، لتصبح الولايات المتحدة الأمريكية - المترجم.

[326]ألكسندر هاملتون: (1755 أو 1757 - 1804)، رجل دولة أمريكى وأحد الآباء المؤسِّسين للولايات المتحدة الأمريكية - المترجم.

[327]آرون بور: (1756 - 1836)، سياسى أمريكى، وثالث نائب لرئيس الولايات المتحدة، تولّى المنصبَ خلال ولاية توماس جيفرسون الأولى - المترجم.

[328]بيتي: صيغة التصغير الشائعة لاسم إليزابيث - المترجم.



19

شبكات التنوير

جعلت الكلمةُ المطبوعة الإصلاحَ ممكنًا، كما استحثّت الثورةَ العلميةَ. ولعله من المفارقة أن التنويرَ مدينٌ بالقدر نفسه - إنْ لم يكن أكثر - للكلمة المكتوبة بـ الطريقة القديمة. لقد نشر الفلاسفةُ أعمالَهم فصار العديد منها متاحًا. ولكن التبادل الأهم للأفكار حَدَثَ عن طريق الرسائل الخاصة. بل إن بقاء الكثير من هذه المراسلات - عشرات الآلاف من الرسائل المتبادلة بين أكثر من ستة آلاف مؤلِف - هو الذي مَكَنَ الباحثين الحديثين من إعادة بناء شبكة التنوير.

نحن نميل إلى التفكير فى عصر التنوير بوصفه ظاهرة كوزموبوليتانية تربط بين الفلاسفة والأدباء فى جميع أنحاء أوربا، من جلاسكو Glasgow [فى إسكتلندا] إلى سان بطرسبرج [فى روسيا]. ولكن يتبيّنُ عند الفحص الدقيق لمراسلات مُفكِّرِى القرن الثامن عشر البارزين أنها أكثر تجمُّعًا على المستوى الوطنى[279]. شبكة فولتير Voltaire أكثر من ألف وأربعمئة مُراسَل، 70% منهم فرنسيون[280]. ونحن نعرف مصدر ووِجْهَة حوالى 12% من رسائل فولتير. أكثر من النصف (57%) أُرْسِلَتْ من باريس وإليها. ومن المؤكد أن فولتير تبَادَلَ الرسائلَ مع جوناثان سويفت Jonathan Swift وألكسندر بوب Alexander pope، ولكن عددها قليل. مُراسَلوه الإنجليز الأساسيون شخصياتٌ مغمورة:

السير إيفيرارد فاوكينر Sir Everard Fawkener، وتاجر حرير، وشاعر غير ذى ذِكرٍ قابَلَه فولتير فى فيرنى Ferney [بلدة فرنسية] هو جورج كيت George Keate.



الشكل: 14 - شبكة مُراسَلِيْ فولتير. وهى شبكة أكثر تمركزًا حول الفرانكونية مما تجعلنا وجهاتُ النظر التقليدية عن التنوير نتوقع أنه حركة دولية.

فولتير أحدُ ثلاثة «محاور» استنارة، والاثنان الآخران هما: جان جاك روسُّو Jacques Rousseau-Jean ، ومُحرِّرُ الموسوعة Encyclopédie جون باتيست لوروند دالمبير Baptiste le Rond d'Alembert-Jean . وقد اتّصفت شبكات فولتير الشخصية بأنها مكوّنات رئيسية فى شبكة أوسع، اعتقد المعاصرون أنها جمعيّة أدبية أو علمية société littéraire ou savante[281]. تمركزت هذه الشبكة الأوسع جغرافيًا حول باريس. %12 من عينة تبلغ تقريبًا ألفين من أعضائها ماتوا هناك، وكذلك %23 ممن أسهموا فى الموسوعة[282]. وُجِدَتْ أيضًا شبكةٌ مُخَلْخَلَةٌ اجتماعيًا، شملت 18 أميرًا وأميرة، و45 دوقًا ودوقةً، و127 ماركيزًا وماركيزة، و113 كونتًا وكونتيسة، و39 بارونًا وبارونة[283].

شكّل الأرستوقراطيون حوالى %0.5 من السكان الفرنسيين فى القرن الثامن عشر، وحوالى خُمْس ما سُمِّى ب«جمهورية الآداب»[329] republic of letters. ولأن الشبكة ارتبطت برؤيتها النقدية للنظام القائم فقد شملت هذه الجمهورية عددًا كبيرًا من كبار المسؤولين المَلَكيين بشكل لافت[284]. ومع أننا نميل إلى افتراض وجود استمرارية كبيرة بين الثورة العِلْمية والتنوير، فقد وُجِدَ عددٌ قليل من العلماء الممارسين للتجارب العلمية فى هذه الشبكة، وأكثرهم أعضاء فى كيانات مثل الأكاديمية الفرنسية Académie française والأ

[329]جمهورية الآداب: جماعة فكرية نشأت أواخر القرن السابع عشر، ضَمّت العلماءَ والأدباءَ عبر الحدود الوطنية، وتألفت فى معظمها من الرجال بسبب القيود المجتمعية على النساء. كانت الرسائل المكتوبة بخط اليد أمرًا ضروريًا للتواصل من مسافات بعيدة، بين أعضائها - المترجم.

أكاديمية المَلَكيّة للعلوم Académie royale des sciences. لقد كانت جمهوريةُ آداب أكثر منها جمهورية أعداد، شبكةُ كاتبى مقالات أكثر منها شبكة مُجرّبين [في المختبرات].

ولا تقول شبكاتُ المراسلة سوى جزء من قصة التنوير، بطبيعة الحال. مَن عرفوا فولتير أو روسُّو أو دالمبير حَرَصُوا على مقابلتهم حِرْصهم على الكتابة إليهم. كانت «جمهوريةُ صالونات» republic of salons أيضًا، ومن هنا لعبت سيداتُ الصالونات salonnières، دورَ وساطة مُهِمًّا أيضًا، فهُنّ النساء اللاتى أمست منازلُهن مراكزَ تبادل اجتماعى، ويرغب فى تلقِّى دعواتهن مثقفون طامحون[285]. ومن النادر أن تُدْعَى حُثالة جِرَب ستريت الأدبية بباريس[330] hacks of Paris's Grub Street. ومع ذلك، وُجِدَتْ «روابط ضعيفة» بين شبكة المستنيرين الرفيعة وشبكة كتّاب الصحافة الصفراء gutter press المُتدنِّين: ثمانية أعضاء ممن يُطْلَقُ عليهم الحُثالة الأدبية literary underground تراسَلوا مع فولتير أو روسُّو أو دالمبير[286].

كلُّ أمةٍ اكتشفت التنويرَ بطريقتها الخاصة. وقد تطوّرت شبكاتُ تفكيرٍ حُرٍّ جديدة فى فجوات مؤسّسات التاج المَلَكى والكنيسة فى إدنبرة، كما حَدَثَ في باريس.

العاصمة الإسكتلندية كانت مقرًّا للمحكمة المدنية العليا Courts of Session ومحكمة العدل العليا High Court of Justiciary، وخزانة الدولة Exchequer، ومحاكم المُفوّضية الثانوية the minor Commissar Courts، والمحاكم

---

[330] حُثالة جِرَب ستربيت الأدبية بباريس: يشير Grub Street إلى شارع فى لندن، حوالى القرن الثامن عشر، عاش فيه عددٌ كبير من كتّاب الأدب المتعثِّرين الذين يشقون طريقهم بصعوبة شديدة فى الحياة الأدبية والثقافية. ثم صار اسم الشارع مصطلحًا يشير إلى كل الكتّاب من هذه النوعية فى أماكن أخرى من أوربا؛ ومنهم كتّاب باريس الصعاليك أو المتعثِّرين أو مَن يُطْلَقُ عليهم «البروليتاريا الأدبية» الذين يعيشون حياةً اجتماعية وأخلا قية مُتردِّية. أميز صفاتهم عدمُ القدرة على الهروب من سيكولوجية الفشل. وفى النظام الفرنسى القديم [قبل الثورة]، كانوا مستبعدين عمومًا من المؤسسات المرموقة. وَلّدَ هذا الوضعُ فيهم كراهيةً نَشِطَة للتسلسل الهَرَمى فى النظام الفرنسى القديم، فمالوا فى أعمالهم الأدبية والصحفية عمومًا إلى ما يُسَمّى كتابات التشهير [اللايْبِل] libelles وتناول قضايا شائكة بأسلوب متطرف. تُوصَفُ أعمالُهم أيضًا بأنها literary underground التى يمكن ترجمتها أيضًا إلى «حُثالة أدبية» أو «ديدان أدبية». كانوا محلّ سخرية فولتير الذى حذّرَ الشبابَ من الانقياد إلى نمطهم فى الكتابة. توجد هذه النوعيةُ من الكتّاب فى كل بقاع العالم، ومنها مصر، ولا يظهرون بقوة إلا فى لحظات الاضطراب الاجتماعى و السياسي المفاجئة - المترجم.

البحرية Admiralty Courts، وFaculty of Advocates[331]، ومَجْمَع بورز المَلَكى[332] Convention of Royal Burghs، ومجلس كنيسة إسكتلندا Assembly of the Church of Scotland، وجامعة إدنبرة Edinburgh University. منذ عام 1751، أصبح آدم سميث أستاذًا جامعيًا (فى جلاسكو وليس فى العاصمة). ومنذ عام 1752، أصبح ديفيد هيوم أمينَ مكتبة كلية المحامين Keeper of the Advocates Library. كانت الرعايةُ والكفالةُ الأرستقراطية مصدرًا آخر حاسمًا لدعم الحياة الفكرية ماديًا فى إسكتلندا، كما كان الشأن فى فرنسا. فبين عامىْ 1764 و1766، اشتغل سميث معلمًا لدوق بوكليوتش Buccleuch الصغير. نادرًا ما كان كبارُ مفكِّرى إدنبرة، كنظرائهم الفرنسيين، ثوريين. ولكنهم لم يكونوا رجعيين.

استنكر معظمُهم اليعقوبيةَ Jacobitism وتبنّوا النظام الهانوفرى [نسبةً إلى مملكة هانوفر] Hanoverian order. (أحد التصميمات المُقترَحَة لنيوتاون إدنبرة[333] Edinburgh's New Town، كان على شكل عَلَم الاتحاد Union Flag)[287].

ومع ذلك، لم يحدث النشاط الفكرى حينئذٍ فى المؤسّسات القائمة، بل فى نوادٍ جديدة وغير رسمية فى المدينة القديمة [أولدتاون] Old Town: الجمعيّة الفلسفية Philosophical Society (تأسّسَتْ عام 1737 بمُسمّى أثقل هو جمعية إدنبرة لتحسين الفنون والعلوم وبخاصة المعرفة الطبيعية Edinburgh Society for Improving Arts and Sciences and Particularly Natural Knowledge)، وجمعية الصّفْوة Select Society (1754-1762). وكما استنكر ديفوتيو فرنسا[334] dévots of France الفلاسفةَ وسعوا إلى محاكمتهم، كذلك اعتبر التقليديون المَشْيخيّون أدباءَ إسكتلندا «شياطين من الجحيم». وفى غضون أجيال قليلة فقط، صار ورثةُ الثورة الكالفينية، فى القرن السادس

---

[331] من المحتمل أن يشير التعبير إلى هيئة مستقلة من المحامين المقبولين بوصفهم ممارسي مهنة المحاماة أمام المحاكم الإسكتلندية - المترجم.

[332] مجمع بورز المَلَكى: جمعية تمثيلية تحمى الامتيازات والمصالح فى البلدات التجارية الرئيسية فى إسكتلندا منذ منتصف القرن السادس عشر وَفْقَ اتفاقية بهذا الشأن - المترجم.

[333] نيوتاون إدنبرة: منطقة مركزية فى إدنبرة، بُنيتْ على مراحل بين عامىْ 1767 و1850 - المترجم.

[334] الديفو: هو الاسم الذى أُطلِقَ فى فرنسا على أنصار السياسة الكاثوليكية الذين يُعارضون البروتستانتيةَ، والمتحالفين مع مَلَكيّة هابْسبورج في الخارج - المترجم.

عشر، الحماسيون المُتشدِّدون، حُرّاسَ مؤسّسة دينية صارمة، هى «كيرك» [الكنيسة الإسكتلندية] Kirk.

إذ حَاكمَ المَجْمَعُ الكنسى المَشْيخىُّ لكنيسة إسكتلندا Presbyterian Synod of the Church of Scotland [القس] جون هوم John Home علانيةً، وجَرّدَه من رُتْبته الدينية، لأنه كتب مسرحية «دوجلاس» Douglas (1757)[335] وهنا، كما فى كل مكان فى أوربا البروتستانتية، أثبتت المطبعةُ نفسُها أنها صندوق باندورا[336] Pandora.

ومثل المستنيرين الفرنسيين، فكّر الأدباء الإسكتلنديون بشكل عالمى، ولكنهم تصرّفوا على الصعيد الوطنى، ويتضح ذلك من مراسلات عشرة إسكتلنديين بارزين، ومنهم هيوم وسميث (انظر الشكل 15)[337] العشرات من الرسائل ذهبت إلى جلاسكو وإدنبرة وجاءت منهما، كما كانت تذهب الرسائل إلى باريس وتأتي منها.

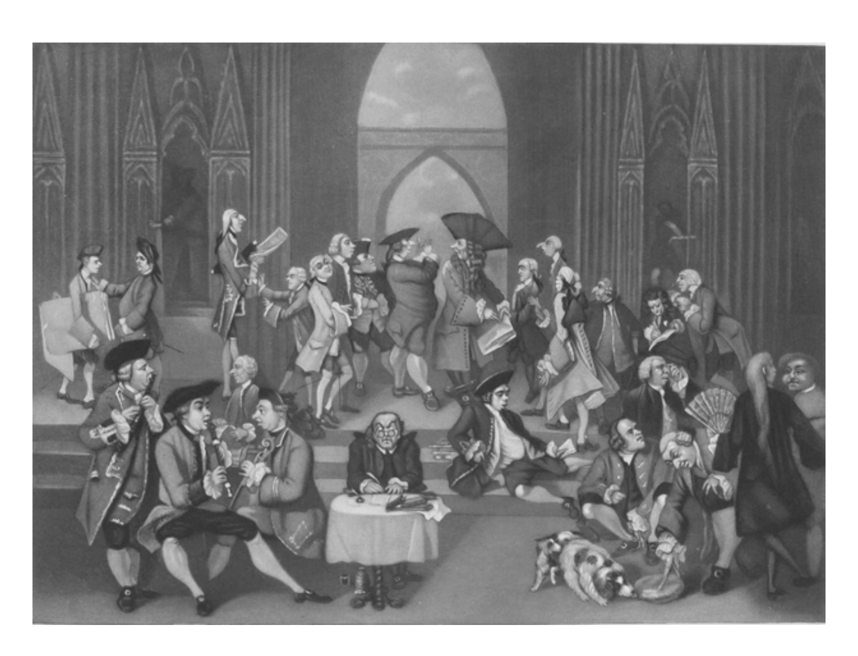
ولكن لندن كانت أهم من جلاسكو: فهذه شبكة بريطانية وليست إسكتلندية. وعلى أية حال، لم يكن التنويرُ مضمارَ مراسلة فقط؛ ولا كانت أضواؤه الرائدة مجرد زملاء قلم [زملاء كتابة]. حين كان يعمل آدم سميث معلمًا لدوق بوكليوتش، زار باريس، حيث قابل (من بين تنويريين آخرين) دالمبير، و الفيزيوقراطى فرانسوا كِينَى François Quesnay، وبنيامين فرانكلين Benjamin Franklin. جمهورية الآداب كانت متنقلةً. وكبار المفكرين، فى القرن الثامن عشر، كانوا في طليعة السائحين أيضًا.

---

335 اعترض شيوخ الكنيسة الإسكتلندية [الكيرك] على هذه الخطوط غير الكالفينية: «الشقاء مصيره؛ ولم يكن ليُلام! ثمة قَدَرٌ فى هذا العالم الغريب. وأىُّ قَدَرٍ هو غير مستحق: فَلْيُخْبِرُنا اللاهوتيون لماذا» - المؤلف.

336 صندوق باندورا: فى الميثولوجيا الإغريقية صندوق حملته باندورا، وبداخله كل شرور البشرية. فُتِحَ الصندوقُ فانطلقت منه كل الشرور، فسارعت باندورا إلى إغلاقه، ولم يبق بداخله سوى فقدان الأمل الذي لم يُصِبْ البشرَ- المترجم.

337 الآخرون هم: هيو بلير Hugh Blair، جيلبرت إليوت Gilbert Elliot (لورد مينتو Lord Minto)، آدم فِرْجُسن Adam Ferguson، هنرى هوم Henry Home (لورد كاميس Lord Kames)، جون هوم John Home، آلان رامسى Allan Ramsay، توماس ريد Thomas Reid، ويليام روبرتسون William Robertson - المؤلف.



الشكل: 15 - محاكاة ساخرة من جيمس سكوت لمدرسة أثينا عند رفاييل، باسم السير جوشوا رينولدز (1751). فشبكة التنوير قامت على السياحة أيضًا ، كما على المراسلات.

بالنسبة إلى مفكرين طموحين وُلِدوا وعبروا المحيطَ، لم يكن ثمة بديل حقيقى، فعلا ً، سوى قضاء بعض الوقت فى بريطانيا العظمى وفرنسا. وقد جسّدَ بنيامين فرانكلين[338] Benjamin Franklin التنويرَ الاستعمارى [الكولونيالى]. فرانكلين المولود الخامس عشر لمهاجر بيوريتانى من نورثامبتونشير Northamptonshire [مقاطعة فى وسط إنجلترا]، عَلّمَ نفسَه بنفسه، وكان مُتعدِّدَ المعارف، فكان يقضى وقتًا فى مختبره بالمنزل كالوقت الذي يقضيه في المكتبة.

فى عام 1727، أسّسَ فرانكلين ال«جونتو»[339] Junto، وهو نادٍ للرجال من أمثاله يتقابلون فيه ويتبادلون الآراء. ثم بعد عامين، بدأ فى إصدار صحيفة «بنسلفانيا جازيت» Pennsylvania Gazette. وفى عام 1731، أنشأ أولَ مكتبة أمريكية برسوم اشتراك. ثم بعد اثنى عشر عامًا، لحقتها مؤسسةٌ

[338]بنيامين فرانكلين: (1706 - 1790)، من أهم وأبرز مؤسِّسى الولايات المتحدة. شخصية رئيسية فى التنوير وتاريخ الفيزياء، مخترع ورجل دولة ودبلوماسى. فى أعوامه الأولى فى بوسطن عمل مع والده فى متجر لصناعة الشموع، ولم تتح له الدراسة بانتظام، ثم عمل في مطبعة أخيه، وحينئذ بدأ يُعَلِّمُ نفسَه بنفسه - المترجم.

[339]الجونتو: نادٍ أقامه بنيامين فرانكلين فى فيلادلفيا، بهدف مناقشة مسائل الأخلاق و السياسة والفلسفة الطبيعية، كما كان فرصةً لتبادل المعرفة فى الشؤون التجارية - المترجم.

جديدة أخرى هى الجمعية الفلسفية الأمريكية American Philosophical Society. وفى عام 1749، أصبح فرانكلين أولَ رئيس لأكاديمية فيلادلفيا ومدرستها الخيرية وكليتها Academy, Charity School and College of Philadelphia. ولكن فيلادلفيا بسكانها الخمسة والعشرين ألفًا فقط لم تكن كإدنبرة، ناهيك عن باريس الأكبر عددًا. قبل عام 1763، لم يكن لدى فرانكلين مَن يُراسِلُهم خارج المستعمرات الأمريكية. ثم بعد رحلته إلى لندن فى تلك السنة، قفز نصيبه ممن كان يَتراسَلُ معهم من غير الأمريكيين من صفر إلى ما يقرب من الرُّبْع. ورغم أنه لم يَتراسَل أبدًا مع نظيره المعاصر له، زمنًا، فولتير، فإن زيارات فرانكلين إلى أوربا كفَلَتْ له أن يصير جزءًا لا يتجزّأ من شبكة التنوير. لقد انتُخِبَ زميلَ الجمعيّة المَلَكيّة Felow of the Royal Society وزميلَ الجمعيّة المَلَكيّة للفنون Felow of the Royal Society of Arts، فى عام 1756. وبالإضافة إلى رحلاته المتعددة إلى لندن، زار فرانكلين إدنبرة وباريس، كما سافر إلى أيرلندا وألمانيا[288]. كل ذلك كان قبل ظهوره بوصفه أحد أولئك المُسْتعمِرين المتمرّدين الراغبين فى الاستقلال عن البلد الأم، الذين يقطعون الروابط الهَرَميّة التى أخضعت المستعمرات الأمريكية لسيادةِ «مَلِكٍ فى برلمان» لندن البعيدة. ومن المفارقة لدى جيل فرانكلين من المفكِّرين الكولونياليين أنْ ظلت لندن «عاصمةُ أمريكا»، حتى لو تنامى استياؤهم من القيود السياسية التي فرضتها عليهم[289].

20
شبكات الثورة

كان دورُ الشبكات حيويًا فى الثورات السياسية الكبيرة أواخر القرن الثامن عشر، كما كان فى الثورات الدينية والثقافية الأسبق. ومرة أخرى، لعبت الكلمةُ المكتوبة والمطبوعة دورًا حاسمًا. لقد دُوّنَتْ فى الكتب والمنشورات والجرائد ، بل فيما لا يُحْصَى من الرسائل المكتوبة بخط اليد أيضًا، المناقشاتُ والحُجَجُ من أجل تغيير سياسى راديكالى، كما ظهرتْ انتقاداتٌ للسلطة المَلَكيّة بشكل واضح. فى رأى «رجال الآداب»، كثيرًا ما يبدو القلمُ أمْضَى من السيف، ويظهر الكاتبُ - شاعرًا ومسرحيًا وروائيًا ومُجادِلا ً - بوصفه أحد أبطال العصر يُؤازرُه ناشرٌ لا يعرف الخوفَ. وما من عجب في أن الضرائب على الصحافة [والمطبوعات] أصبحت هدفًا لغضبٍ تمرُّدى[290]. اتّحدَ المؤلِفون والناشرون أصحاب المطابع فى العالم الغربى معًا فى تعشيقةِ شبكاتٍ اجتماعية حقيقية، عازمين على كتابة طريقهم للخروج من الحُكم الوراثى. فكانت الثورةُ، من بوسطن [فى أمريكا] إلى بوردو [فى فرنسا]، إنجازَ شبكات البارعين فى الكلا م إلى حد كبير، وأبْرعُهم الخُطَباءُ الذين بكلماتهم الصارخة حشدوا الحشود في الساحة وحَرّضوا على مهاجمة أبراج النظام القديم والعَصْف بها.

ولكن الثورات، كى تنجح، تحتاج إلى مقاتلين كما تحتاج إلى كُتّاب. أضِفْ إلى هذا أن الشبكات الثورية لا بد أن تكون مَرنةً؛ حتى لا تنهار بسهولة حين تحْمِلُ عليها السلطةُ الهَرَميّةُ. فى هذا السياق، عُدّتْ حالةُ بول ريفير[340] Paul Revere لفترة طويلة مهمةً. لم يعد أطفال المدارس يتذكرون قصيدة هنرى وادسورث لونجفيلو Henry Wadsworth Longfellow، كلا ولا يذكر أحدٌ الآن فيلمَ الدراما التاريخية «رحلة بول ريفير فى منتصف الليل» Midnight Ride of Paul Revere أحدَ أوائل الأفلام الأمريكية، ولكن تظل القصة مألوفة[291].

---

[340] بول ريفير: (1735 - 1818)، صائغ فضة وحفّار معادن أمريكى وأحد رواد الصناعة، وأحد الوطنيين فى الثورة الأمريكية. اشتهر برحلته الليلية ليُنَبِّه ميليشيا المستوطنين، فى أبريل عام 1775، من قدوم القوات البريطانية قبل معركتىْ ليكسينجتن وكونكورد، وهى الرحلة التى عبّر عنها هنرى وادسورث لونجفيلو فى قصيدته الشهيرة «بول ريفير» عام 1861. ساعد ريفير فى تنظيم جهاز استخبارات وإنذار لمراقبة الجيش البريطانى، وخَدَمَ لاحقًا بوصفه ضابطًا فى ميليشيا ماساتشوستس، ولكنه تسبّبَ فى وضع كارثى أثناء الحرب الثورية الأمريكية، فأنْهِيَتْ خدمتُه العسكرية. بعد الحرب عاد إلى تجارته فى صناعة الفضة، واستغل الأرباحَ فى تمويل مشاريعه فى صَبّ الحديد وصناعة المدافع و المسامير النحاسية. وفى عام 1800، كان أول أمريكى ينجح فى لفِّ النحاس إلى صفائح تُسْتَخْدَمُ في صناعة السفن البحرية - المترجم.

إن عبارة «إذا كان واحد عن طريق البر، وإذا كان اثنان عن طريق البحر»، هى إحدى عبارات عديدة لا تزال ترنُّ، فى إشارة حيوية إلى ريفير من بُرْج كنيسة الشمال:

حوافرُ مسرعة في شارعِ قريةٍ،

شبحٌ في ضوء القمر، جِسْمٌ في الظلام،

ومن تحت الحصى، تلتمع شرارةٌ بلا توقف

أطلقها فرسٌ يطير بلا خوف وبكل رشاقة:

كان ذلك كل شيء! ولكن عبر الظُّلْمة والضوء،

كان يرتحل مصيرُ أمّةٍ هذه الليلة؛

والشرارة التي أطلقها ذلك الفرسُ، أثناء طيرانه،

حوّلت الأرضَ المتأجِّجة إلى شعلةٍ ذات لَهَب.

ونفهم تلقائيًا أن شرارة لونجفيلو الملتهبة هى استعارة تشير إلى عملية نقل ا لأخبار:

عَبْرَ الليل انطلق بول ريفير؛

وعَبْرَ الليل انسربتْ صرختُه التحذيرية

إلى كل قرية ومزرعة في ميدلسِكس،

- صرخةُ مواجهةٍ، لا صرخةَ خوفٍ،

صوتٌ في الظلام، وطَرْقٌ على الباب،

وكلمةٌ لا بد أن تتردد إلى الأبد!

ومع ذلك، وكما لاحظ مالكوم جلادويل Malcolm Gladwell، لا يتضح للوهلة ا لأولى سبب نجاح ريفير، الكبير، فى توصيل معلومةِ زَحْفِ القوات النظامية [البريطانية] إلى بَلْدات شمال غرب بوسطن - ليكسينجتن Lexington وكونكورد Concord - للقبض على قادة المستعمرات جون هانكوك John Hancock وصمويل آدامز Samuel Adams أولا ً، ثم الاستيلاء على أسلحة الميليشيا الاستعمارية ثانيًا. ارتحل ريفير على فَرَسه ثلاثة عشر ميلا ً، وطَرَقَ على الأبواب، وحَذّرَ في كل مدينة من اقتراب الجنود.

لكن أخباره انتشرت إلى أبعد، وبأسرع، مما كان يستطيع، فوصلت إلى لينكولن Lincoln فى الواحدة صباحًا، وإلى سُدْبورى Sudbury فى الثالثة صباحًا، ثم بحلول الخامسة صباحًا وصلت إلى أندوفر Andover على بُعْدِ أربعين ميلا ً

من بوسطن. ولم يتحقق ذلك بأية تكنولوجيا أخرى سوى كلمة من الفم. يقول ديفيد هاكيت David Hackett، فى كتابه عن رحلة ريفير على فَرَسه، إن ريفير «كان استثنائيًا في عبقريته لكوْنه في مركز الأحداث...

ولأنه حَرّكَ أفعالَ آخرين عديدين»[292]. ويقول جلادويل إن ريفير - على عكس ويليام دوز William Dawes (الذى قام برحلة مماثلة) - استطاع أن يجعل «كلمةً من الفم وبائيةً» بسبب «قانون القِلّة» The Law of the Few[293]. فقد كان ريفير أحد تلك الأنواع النادرة: كان «مُوصِّلا ً» Connector، «مولعًا بِ الناس»، و«اجتماعيًا بشكل تلقائى لا يمكن كبْحه»[294]. ولكنه كان أيضًا «مخضرمًا» Maven، مُجَمِّعَ معرفةٍ، كان لديه «أكبر رولوديكس[341] Rolodex فى بوسطن الاستعمارية»، بل كان «مشاركًا بنشاط فى جَمْع المعلومات عن البريطانيين» أيضًا[295].

قصة ارتحال بول ريفير على فَرَسه ليلا ً جذّابة، ولكنها غير مكتملة. فهى تُغْفِلُ أن إخلاص ريفير وصِدْقَه بوصفه رسول المتمرّدين كانا حقيقةً راسخةً فعلا ً بحلول أبريل عام 1775. لم يكن السبب فى ذيوع صيت بول ريفير أنه أحد أفراد الجماعة المهتمة بالأدب ولا أنه نقّاش ماهر، كلا ولا أنه صائغ فضة، بل اشتهر فى نيو إنجلاند New England لتصويره مذبحة بوسطن[342] Boston Massacre المبالغ فيه[296].

وفى يوم 6 أكتوبر عام 1774، ارتحل بول ريفير من بوسطن إلى فيلادلفيا لينقل إلى المؤتمر القارّى[343] Continental Congress، قرارات سوفولك[344] Suffolk Resolves التحريضية، التى دعت إلى عدم دَفْع الضرائب ومقاطعة

---

[341]رولوديكس: جهاز يُستَخْدَمُ لتخزين بيانات الاتصال الجارية - المترجم.

[342]مذبحة بوسطن: حدثت يوم 5 مارس عام 1770، عندما أطلق جنودٌ بريطانيون النارَ على بعض الأمريكيين فقتلوا خمسة منهم. كانت هذه الحادثة من الأحداث المهمة التى أدّت إلى اندلاع الثورة الأمريكية ضد بريطانيا - المترجم.

[343]المؤتمر القارّى أو مؤتمر فيلادلفيا: تجمُّع التقى فيه ممثلون عن ثلاث عشرة مستعمرة، وهم الذين أصبحوا، لاحقًا، أعضاء إدارة الولايات المتحدة الأمريكية خلال حرب الاستقلا ل - المترجم.

[344]قرارات سوفولك: إعلان أصدره يوم 9 سبتمبر عام 1774 قادةُ مقاطعة سوفولك وماساتشوستس، التى تُعَدُّ بوسطن مدينتَها الرئيسية. رفض الإعلانُ قانونَ حكومة ولاية ماساتشوستس، وحَسَمَ قرارًا بشأن مقاطعة البضائع المستوردة من بريطانيا ما لم يتم إلغاء القوانين الجائرة - المترجم.

البضائع البريطانية ردًا على «القوانين غير المحتملة»[345] Intolerable Acts وقانون الكيبيك[346] Quebec Act[297].

ثمّ فى يوم 13 ديسمبر [1774]، قطع ريفير كلّ الطريق إلى بورتسموث Portsmouth ونيوهامبشير New Hampshire، لتحذير لجنة مراسلات البلدة من أن القوات النظامية قد تستولى قريبًا على الأسلحة والذخيرة المُخزّنة فى جزيرة نيوكاسل New Castle Island، قِبَالة بورتسموث هاربور Portsmouth Harbor[298].

وكان ريفير بالفعل فى طريقه إلى كونكورد يوم 8 أبريل ليُحَذِّرَ - قبل أكثر من أسبوع - من أن «القوات النظامية قادمة إلى كونكورد فى اليوم التالى، وإذا جاءوا... فستقع مذبحة»[299].

وفى 16 أبريل (كما ذكر ريفير نفسُه لاحقًا) ارتحل إلى ليكسينجتن ليُحذِّرَ هانكوك وآدمز من أن ضررًا كبيرًا يجرى الإعدادُ له، على قدمٍ وساقٍ، وأن نشر القوات الوشيك «يستهدفهما»[300].

وبالإضافة إلى ويليام دوز، وُجِدَتْ مصادرُ أخرى للاستخبارات بشأن التحرُّكات البريطانية، ناهيك عن أن مواطنى مدن سومرفيل Somerville وكمبريدج ومينوتومى Menotomy سمعوا بتقدُّم القوات، على الرغم من محاولات الجنرال توماس جيج Thomas Gage [الحاكم العسكرى البريطانى لمقاطعة ماساتشوستس فى ذلك الوقت] المستميتة للحفاظ على السرّية[301]. كان ريفير ودوز يعملان معًا، ولا يتنافسان، وكانا أيضًا يرتحلان معًا - إلى جانب رجل ثالث هو الدكتور صمويل بريسكوت Dr Samuel Prescott - من ليكسينجتن إلى كونكورد، طارقين على باب كل بيت ريفي.

قُبِضَ على ريفير فى منطقة مجاورة لمقرّ لينكولن[302]. كان هو الرسول الرابع المطلوب الذى قبضت عليه القوات النظامية [البريطانية]. ولكن ريفير حالفه

---

[345]القوانين غير المحتملة أو القسْرية أو الجائرة: وصفٌ أطلقه الوطنيون الأمريكيون على سلسلة القوانين التى أصدرها البرلمانُ البريطانى عام 1774 بعد حفلة شاى بوسطن، بغرض معاقبة ولاية ماساتشوستس على عصيانهم ورَمْيهم كمية كبيرة من شحنة الشاى فى مياه ميناء بوسطن. وبموجب تلك القوانين، صُودِرَ حقُّ ولاية ماساتشوستس فى الحُكم الذاتى، فاشتعل غضب مستوطنى المستعمرات الثلاث عشرة؛ الأمر الذى أدّى لاحقًا إلى اندلاع الثورة الأمريكية عام 1775 - المترجم.

[346]قانون الكيبيك: يُعْرَفُ أيضًا بقانون أمريكا الشمالية البريطانية لعام 1774، أصدره برلمان بريطانيا العظمى، وحدّد فيه إجراءات الحُكم فى مقاطعة كيبيك بطريقة أشعلت غضب المستوطنين الأمريكيين - المترجم.

الحظُّ فى النّجاة بحياته. فعند لحظةٍ [أثناء التحقيق معه] وَثبَ الضابطُ البريطانى بعصبيةٍ شديدة و«ألصق مسدسَه برأس ريفير» مُهدِّدًا «بتفتيت جُمْجُمَته» إن لم يُجِبْ عن أسئلته. وبمجرد أن أطلق الرصاصَ حَدَثتْ فوضى كبيرة جعلت الجنودَ المُمْسِكين بريفير يتركونه يذهب، دون فَرَسه[303]. وبعد أن سار على أقدامه، وهو يترقّبُ، عائدًا إلى ليكسينجتن، هَالَه أن يجد هانكوك وآدمز لا يزالان يحاولان تقريرَ ما يجب عليهم عمله، بعد ثلاث ساعات من إخباره إياهما بأن القوات النظامية على الأبواب[304]. إذا لم يكن ريفير قد نجح فى العودة إلى كمبريدج، وإذا لم يكن قد نجا من الحروب الثورية Revolutionary Wars ليروى الحكايةَ (فقد عاش حتى الثالثة والثمانين)، لَكان من المشكوك فيه أنْ تشتهر رحلته وتبقى حتى اليوم.

من الممكن فحص شبكة بول ريفير على نحو أدق أيضًا[305]. ففى الحقيقة، ريفير أحدُ وَسيطيْن رئيسييْن - أو رابطيْن ضعيفيْن - بين مجموعات لم يكن من وسيلة أخرى للاتصال بينها، إلى درجة أنها لم تكن لتلتئم معًا فى حركة ثورية دونهما. كانت مستعمرة ماساتشوستس تنمو من الناحية الطبقية بأكثر مما كانت عليه فى فترة ما قبل الثورة. وكانت بوسطن مجتمعًا تتزايد هَرَميّتُه، على نحوٍ أوْجَدَ فجواتٍ كبيرةً بين نُخْبَة «بَرَهمية»[347] Brahmin نبيلة، وطبقة وسطى من الصُّنّاع المَهَرة والمزارعين، وعُمّالٍ فقراء وخَدَمٍ بِالسُّخْرة. العلاقة الوثيقة بين ريفير الصانع الماهر، ودكتور جوزيف وارن Dr Joseph Warren الطبيب، اكتسبت حيويتَها لهذا السبب. وفى بوسطن، وُجِدَتْ خَمْسُ جمعيّات متعاطفة، تقريبًا، مع قضية ال«ويج»[348] Whig:

محفل سانت أندرو St Andrew's Lodge، وهو المحفل الماسونى الذى اجتمع فى جرين دراجون تافِرن [نُزُل التنين الأخضر][349] Green Dragon Tavern؛

---

[347] بَرَهمية: طبقة متفوقة اجتماعيًا وثقافيًا، ولا سيما أفراد الطبقات العُليا فى نيو إنجلاند - المترجم.

[348] ويج، أو الويجيون: فصيل سياسى ثم حزب سياسى فى برلمانات إنجلترا وإسكتلندا وبريطانيا العظمى وأيرلندا والمملكة المتحدة. وبين عامىْ 1680 و1850 تنافس الويجيون Whigs على السلطة مع المحافظين (التوريين) Tories. يُؤيّدُ الويجيون المَلَكيّةَ الدستورية ويعارضون المَلَكيّة المطلقة. ولعبوا دورًا محوريًا فى «الثورة المجيدة» عام 1688، فكانوا أعداء ملوك آل ستيوارت وأدعيائهم ممن ناصَروا الكاثوليكيةَ الرومانية. سيطر الويجيون سيطرةً كاملة على الحكومة عام 1715، وظلوا مهيمنين حتى جاء الملك جورج الثالث إلى العرش عام 1760 وسمح بعودة المحافظين (التوريين). بحلول عام 1784، صار الويجيون حزبًا سياسيًا Whig Party في منافسة مع Tory Party - المترجم.

[349] جرين دراجون تافِرن: منزل عام يُسْتَخْدَمُ مكانًا للاجتماعات ونُزُلا ً أيضًا وحانةً، يقع

ثمّ لويال ناين [المخلصون التسعة][350] Loyal Nine، الذين كانوا نواةَ تنظيم أبناء الحرية[351] Sons of Liberty؛ ثمّ نورث إند كُوْكس [تكتل الطرف الشمالى][352] North End Caucus الذى اجتمع فى ساليوشن تافِرن Salutation Tavern؛ ثمّ لونج رووم كلوب [نادى الغرفة المستطيلة] Long Room Club فى داسيت ألى Dassett Alley؛ ثم لجنة مراسلات بوسطن[353] Boston Committee of Correspondence. ما مجموعه 137 رجلا ً كانوا فى تنظيم أو أكثر من تلك التنظيمات، ولكن أغلبيتهم العظمى (86%) لم تظهر سوى فى قائمة واحدة، على حين لم يظهر أحدهم فى القوائم الخَمْس كلها.

فى يونيون ستريت Union Street فى بوسطن. اشتراه فى عام 1766 ماسونيو محفل القديس أندرو، واستخدموا الطابق الأول لاجتماعاتهم. أما البدروم أو القبو أو الطابق الأ رضى فاستخدمته العديد من الجماعات السرّية مقرًا لاجتماعاتها حتى صار المؤرّخون يطلقون عليه «مقر الثورة»، إذ كان يجتمع فيه جماعة «أبناء الحرية» و«لجنة مراسلات بوسطن» و«تكتل بوسطن» Boston Caucus. تم التخطيط فى هذا المنزل لحفلة شاى بوسطن Boston Tea Party التى صارت أساسًا فيما بعد لما يُسَمّى «حزب الشاى» Tea Party. ومن هذا المنزل أُرْسِلَ بول ريفير (الماسونى) بالأخبار التحذيرية إلى ليكسينجتن وكونكورد فى رحلته الشهيرة. وفى هذا المنزل أيضًا، حَدَثَ التوافقُ على الدستور الا تحادى. هُدِمَ المبنى تمامًا فى عام 1854. ويقع المبنى الجديد الذى يحمل الاسم نفسه فى 11 شارع مارشال في نورث إند، بوسطن - المترجم.

[350]المخلصون التسعة: تسعةُ رجالِ أعمالٍ من الطبقة الوسطى فى بوسطن، اجتمعوا سرًا من أجل التخطيط لاحتجاجات ضد قانون الطوابع Stamp Act الصادر عام 1765. تمكنوا من حشد العامّة ودَفْعهم إلى التظاهر وتزويدهم بالإمدادات كالطعام والشراب أثناء الا حتجاج. ومنهم خرجت جماعةُ «أبناء الحرية» التى قامت لاحقًا بتأسيس «شجرة الحرية» بوصفها مكانًا مركزيا لتجمُّع الوطنيين في بوسطن - المترجم.

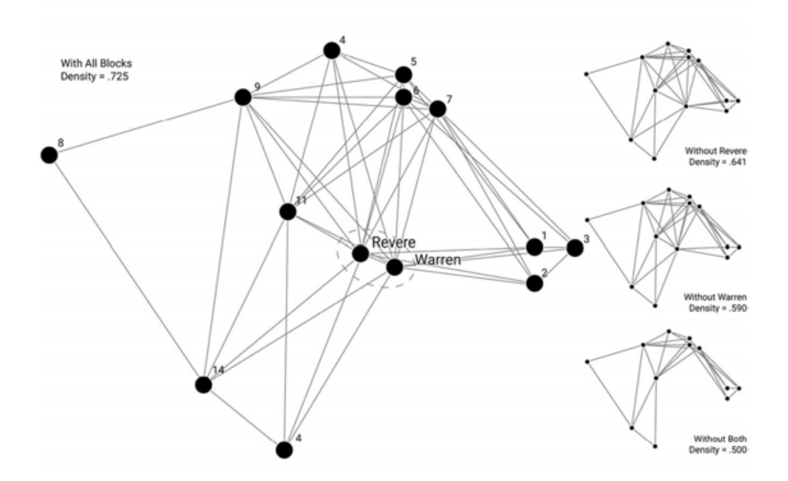
[351]أبناء الحرية: تنظيم سرّى أُنشِئ لحماية حقوق المستوطنين ومحاربة الضرائب التى تفرضها الحكومة البريطانية. لعب دورًا رئيسيًا فى محاربة قانون الطوابع عام 1765. حُلَّ التنظيمُ رسميًا بعد إلغاء القانون، ولكن أُطلِقَ الاسمُ على مجموعات انفصالية محلية فى السنوات السابقة على الثورة الأمريكية - المترجم.

[352]نورث إند كُوْكس: تنظيم سياسى غير رسمى، كان له تأثير كبير فى بوسطن فى الأعوام السابقة على الثورة وما بعدها. وكان هذا أول استعمال لكلمة caucus التى تعنى اجتماعًا لأفراد تجمعهم ميول سياسية للاتفاق على موقف مشترك - المترجم.

[353]لجنة مراسلات بوسطن: لجان المراسلة عمومًا، ومنها لجنة بوسطن، كانت عبارة عن «حكومات ظل» شَكّلها القادةُ الوطنيون فى المستعمرات الثلاث عشرة عشية الثورة الأ مريكية. تولّتْ فيما بينها الردّ على بريطانيا العظمى، وكانت تقوم بالتشاور وتبادل خطط ا لاحتجاج والثورة فيما بينها - المترجم.

جوزيف وارن[354] Joseph Warren، فقط، كان فى أربع مجموعات من الخَمْس؛ وبول ريفير فى ثلاث منها، مثل صمويل آدامز Samuel Adams وبنيامين تشورش Benjamin Church. ولكن، من حيث «التّمرْكزيّة البَيْنية»، كان وارن وريفير الرجلين الرئيسييْن (انظر الشكل 16).

[354] جوزيف وارن: (1741 - 1775)، طبيب أمريكى، لعب دورًا رياديًا فى التنظيمات الوطنية الأمريكية السرّية فى بوسطن، عشية الثورة الأمريكية، وهو الذى جنّد بول ريفير ووِيليام دوز للقيام برحلتهما الشهيرة للتحذير من قدوم القوات البريطانية. شارك وارن فى معركتيْ ليكسينجتن وكونكورد اللتين كانتا افتتاحيةَ الحرب الثورية الأمريكية - المترجم.



الشكل: 16 - الشبكة الثورية فى بوسطن، حوالى عام 1775. لاحِظْ التَمَرْكزيّة البَيْنية لكل من بول ريفير وجوزيف وارن. فإزالةُ أيٍّ منهما أو كليهما سيُقلّلُ كثافةُ الشبكة. وقد جُمّعَ الأفرادُ معًا فى عُقدٍ مفردة طبقًا لعضوية التنظيم المشتركة. ريفير ووارن فقط ينتميان إلى أكثر من تنظيم.

ومن ثم، يكشف تحليل الشبكة عن أن بول ريفير كان نصفَ ثنائىٍّ عَبَرَ التقسيمَ الطبقى فى ماساتشوستس الثورية بين الصُنّاع المَهَرة والمهنيين. ولكن هذا التحليل، رغم أنه ثاقب، لا يستطيع إيضاح أىٍّ التنظيمات التى انتمى إليها ريفير ووارن هى الأهم. التخمين المعقول أن الماسونية Freemasonry هي الشبكة الرئيسية في الثورة الأمريكية.

فى كتاب «الماسونية فى الثورة الأمريكية» Freemasonry in the American Revolution، المنشور فى عام 1924، يقول سيدنى مورس Sydney Morse (وهو نفسه ماسونى) إن الماسونيين «اجتمعوا فى مؤتمر سرّي للقادة الوطنيين» بغرض «الكفاح من أجل الحرية».

وطبقًا لمورس، الماسونيون هم الذين أغرقوا جاسبى[355] Gaspee عام 1772، وهم الذين نظّموا حفلة شاى بوسطن[356] Boston Tea Party، وهم الذين

---

[355]جاسبى أو قضية جاسبى: حَدَثٌ مهم أَرْهَصَ بالثورة الأمريكية، حين قام مجموعة أمريكيين بإشعال النيران فى سفينة بريطانية وإغراقها بالقرب من جاسبى بوينت فى وارويك، رود أيلاند - المترجم.

[356]حفلة شاى بوسطن: مظاهرة عنيفة نظّمها المستعمرون الأمريكيون فى عام 1773 قبل اندلاع الثورة الأمريكية، إذ اعتلى المتظاهرون سطح السفن فى ميناء بوسطن وألقوا بشحنة الشاى فى الماء احتجاجًا على فَرْض البرلمان البريطانى، الذى لم يكن فيه للمستعمرين تمثيل، ضريبة على الشاي - المترجم.

هيمنوا على [الجمعيّات والتنظيمات] والمؤسسات [الوليدة] التى قادت الثورة، بما فيها المؤتمر القارّى[306]. بول ريفير أحدُ الأسماء التى استشهد بها مورس كثيرًا[307].

ورغم تكرار ذِكره فى ثلاثينيات القرن العشرين فى أعمال المؤرّخ الفرنسى بيرنارد فاى Bernard Faÿ، فقد تجاهل هذا الزعمَ لفترة طويلة مؤرّخو الثورة الأمريكية الروّاد[308]. وعندما بحث رونالد هيتون Ronald E. Heaton فى خلفيات «الآباء المؤسِّسين» البالغ عددهم 241، وَجَدَ أن 68 فقط ماسونيون[309]. و8 فقط من 56 مُوقِّعًا على إعلان الاستقلال[357] Declaration of Independence ينتمون إلى محافل ماسونية Masonic lodges[358] وعلى مدى سنوات، سَادَتْ وجهةُ النظر القائلة بأنه «من المشكوك فيه ما إذا كان الماسونيون الأحرار Freemasons، بوصفهم ماسونيين، قد لعبوا دورًا مهمًا فى الثورة الأمريكية»[310]. لكن هذا الاستنتاج نفسه يبدو مشكوكًا فيه. وبغضّ النظر عن أى شىء آخر، يَفترضُ [ذلك الاستنتاج] أن كلّ الآباء المؤسِّسين متساوون فى الأهمية، على حين يكشف تحليلُ الشبكة أن بول ريفير وجوزيف وارن كانا الثورييْن الأهمّ فى بوسطن، وهى المدينة الأهمّ فى الثورة. كما يُقلِّل [ذلك الاستنتاج] أيضًا من أهمية الماسونية بوصفها أيديولوجية ثورية. تشير الأدلة إلى أن الماسونية، فى أقل تقدير، على الدرجة نفسها من أهمية النظريات السياسية العَلمانية، أو أهمية المذاهب الدينية، فى

---

[357]إعلان استقلال الولايات المتحدة: بيان اعتمده المؤتمرُ القارّى الثانى الذى انعقد فى دار ولاية بنسلفانيا، التى تُعْرَفُ الآن ب«قاعة الاستقلال»، يوم 4 يوليو عام 1776، وجاء فيه أن المستعمرات الثلاث عشرة هى ولايات مستقلة ذات سيادة، ولم تعد تحت الحُكم البريطانى، وأنها فى حرب مع بريطانيا العظمى. ثم بدأت هذه الولايات فى اتخاذ خطوة جماعية أولى نحو تشكيل الولايات المتحدة الأمريكية - المترجم.

[358]هؤلاء الثمانية هم: بنيامين فرانكلين من محفل تون تافرن Tun Tavern Lodge فى فيلادلفيا. جون هانكوك John Hancock من محفل سانت أندرو St Andrew's Lodge فى بوسطن. جوزيف هيوز Joseph Hewes الذى سُجِّلَ بوصفه زائرًا ماسونيًا لمحفل يونانيميتى Unanimity Lodge No. 7، إدنتون Edenton، نورث كارولينا North Carolina، فى ديسمبر عام 1776. وليام هوبر William Hooper من محفل هانوفر Hanover lodge، ميسونبورو Masonborough، نورث كارولينا. روبرت تريت باين Robert Treat Payne، حضر المحفل الكبير Grand Lodge فى روكسبوري Roxbury، ماساتشوستس، فى يونيو عام 1759. ريتشارد ستوكتون Richard Stockton أستاذ محفل سانت جون Master of St John's Lodge، برينستون Princeton، ماساتشوستس فى عام 1765. جورج والتون George Walton، محفل سليمان Solomon's Lodge No. 1، سافانا Savannah، جورجيا Georgia. ويليام ويبل William Whipple، محفل سانت جون، بورتسموث Portsmoth، نيوهامبشير New Hampshire - المؤلف.

تحريك الرجال الذين صنعوا الثورة[311].

لقد زوّدت الماسونيةُ عصرَ العقل Age of Reason [عصر التنوير Age of Enlightenment] بأسطورة قوية، وبنية تنظيمية دولية وطقوس دقيقة استهدفت رَبْطَ المُبادِرين معًا بوصفهم أخوةً مجازًا. الماسونيةُ أصولُها إسكتلنديةٌ كالكثير من الأشياء الأخرى التى حوّلت عالَم القرن الثامن عشر. نظّمَ البنّاؤون stonemasons الأوربيون أنفسَهم فى محافل فى العصور الوسطى، ومَيّزوا (كغيرهم من أهل الحِرَف فى العصور الوسطى) بين المبتدئين apprentices، والمَهَرَة journeymen، والخُبَرَاء masters، ولكن هذه التصنيفات التنظيمية لم تأخذ طابعًا مُمَنْهَجًا، إلى حد كبير، قبل أواخر القرن الرابع عشر. فى عام 1598، وُضِعَتْ للمحافل الإسكتلندية Scottish lodges مجموعةُ قواعد جديدة، عُرِفَتْ باسم قوانين شو Schaw Statues، على اسم ويليام شو William Schaw سيّد أعمال البناء الرئيسى Principal Master of Work لدى التاج. ومع ذلك، فحتى منتصف القرن السابع عشر، لم تتطوّر الماسونية إلى شىء أكثر من شبكة فضفاضة تضمُّ نقاباتِ حرفيين مَهَرة، لها محافل فى كِلْوِيننج Kilwinning وإدنبرة تتسع لبنّائين أحرار «فضوليين» أو «مقبولين» (أىْ غير مُمَارسين لمهنة البناء). ثم جاء جيمس أندِرسون James Anderson الأبردينى [نسبةً إلى مدينة أبردين فى إسكتلندا]، بكتابه «دساتير البنّائين الأحرار» The Constitutions of the Free Masons (1723 -)، فقدّم تأريخًا جديدًا للبنّائين الأحرار يعود بهم إلى جلال ما قبل التاريخ. فى مَرْوِيّة أندِرسون[359]، وَهَبَ مهندسُ الكون الأعظم Supreme Architect of the Universe آدمَ مهارات البنّائين الأحرار - الهندسة و«الفنون الآلية» - التى نقلها إلى ذرّيته، وهُم نقلوها بدورهم إلى أنبياء العهد القديم Old Testament.

كان شعبُ الله المختار «بنّائين خيّرين قبل تملُّكهم أرض الميعاد»، وكان موسى «أستاذَهم العظيمَ» Grand Master. وكان إنجاز البنّائين الأحرار الأوائل الأعظم هو هيكل سليمان Solomon العظيم فى القدس، الذى بناه حيرام أبي[360] Hiram Abif، «أعظم إنجازات الماسون على سطح الأرض»[312].

---

[359]لم تَمْضِ هذه المَرْوِيّة دون اعتراض عليها. فمثلا ً، أندرو مايكل رامسى Andrew Michael Ramsay، وهو إسكتلندى آخر، تتبّعَ أصولَ البنّائين الأحرار حتى فلسطين زمن الحروب الصليبية - المؤلف.

[360]حيرام أبى أو حورام أبى أو حيرام أبيف: معمارى فينيقى من صور أرسله أحيرام ملك صور إلى النبى سليمان الحكيم للإشراف على بناء هيكله. اشتهرت الشخصية فى التقاليد الماسونية باسم حيرام أبيف المعمارى الذى يموت وهو يدافع عن سِرّ العمارة فى إشارة

ومثل العديد من الشبكات الناجحة، انطوت الماسونية على مبادئ هَرَمِيّة. إذ انتمى كل البنّائين الأحرار إلى محافل محلية local lodges، ارتبط معظمُها معًا فى ظل مَحْفل أو آخر من المحافل الكبيرة grand lodges التى تشكّلت فى القرن الثامن عشر فى لندن، وإدنبرة، ويورك York، ودبلن Dublin، ولاحقًا على مستوى القارة والمستعمرات الأمريكية. كلُّ مَحْفل له أستاذ master وقيّمون wardens ومسؤولون آخرون. كان الماسونيون المُحتمَلون يُرشّحون للعضوية ويُوافَقُ عليهم بالإجماع، ولكن قبل تلقينهم، بوصفهم «مبتدئين» apprentices، الطقوسَ والأسرارَ الماسونية، يجب أن يَقبلوا الالتزام ب «المسؤوليات» الواردة في «دساتير» أندِرسون.

طقوسُ التلقين نفسها معقدةٌ، وتتضمن إشاراتٍ وقَسَمًا وملابس احتفالية خاصة، وهى أعقد عند الترقِّى إلى درجات أعلى كمَرْتبة بَنّاء من أهل الصّنْعة fellowcraft ومرتبة بَنّاء أستاذ master. وما يُمَيّزُ «المسؤوليات» أنها لم تكن محلّ استشكال. فكل بَنّاء حُرٍّ [ماسونى] يجب أن يكون «رجلا ً خيّرًا، صادقًا، حُرًّا، بالغًا، كتومًا عاقلا ً، وليس عبدًا، ولا امرأة، ولا رجلا ً عديم الأخلاق سَيِّئ السُّمْعة بل حَسَن السلوك». ولا يمكن للماسونى أن يكون «مُلحِدًا غبيًا ولا متحرِّرًا غير متديّن». الماسونيون كلهم متساوون كالأخوة داخل المَحْفل، ومع أن الماسونية لا تعتدُّ «بشرفٍ حَصَلَ عليه رجلٌ من قبل»، فكل أصحاب المكانة الاجتماعية الأعلى حصلوا، غالبًا، على المواقع المرموقة[313].

وكانت تلك صفقةً جيدةً، لأن جزءًا من جاذبية المحافل أنها سمحت للنُّبَلاء و البرجوازيين بالاختلاط معًا. ومن ناحية أخرى، لم يُحْظَرْ على البَنّائين الأحرار المشارَكة فى التمرد السياسى. صحيحٌ أن «دساتير» أندِرسون تنصُّ على أن «البَنّاء الحُرّ مُسالِمٌ خَاضِعٌ للسلطة المدنية، أينما يُقِيمُ أو يَعْمَلُ، وألا يتورط فى خطط خفيّة أو مؤامرات ضد سلام الأمة ورفاهيتها». لكن المشاركة فى تمرُّدٍ لم تكن سببًا صريحًا للطرد من المَحْفل[314].

وعلى الرغم من أن أندِرسون نفسه كاهنٌ مَشْيَخىٌّ، فالذى يمكن استخلاصه من معاييره الدينية الفضفاضة أن الماسونيةَ متوافقةٌ مع الربوبية[361] Deism. بل اعترفت بعضُ المحافل الماسونية الاستيطانية [فى المستعمرات] ب

إلى إخلاصه. ولكن بحثًا حديثًا من داخل الماسونية نفسها يذكر أن حيرام أبيف هو الفرعون المصري سقنن رع وليس الشخص المُرْسَل من قِبَل مَلِك مدينة صور - المترجم.

[361]الرُبوبية: اعتقاد فى وجود كائن أسمى، وعلى وجه التحديد خالق لا يتدخل فى الكون. استُعْمِلَ هذا المصطلح أساسًا لحركة فكرية، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، قبلت وجودَ خالقٍ بالاستناد إلى العقل وحده، ولكنها رفضت الإيمان بألوهية خارقة تتفاعل مع البشر - المترجم.

اليهود[315].

ولكن الماسونيين لم يكونوا مُستعدِّين للمُضىِّ بشكوكهم الدينية إلى أبعد من ذلك فى اتجاه التنوير Enlightenment. ومن هنا، وَقَعَ انقسامٌ فى عام 1751 بين «قدماء» Ancients و«مُحْدَثين» Moderns [داخل الماسونية نفسها]. فُضّلَ القدماءُ طبعةً عام 1738 من «دساتير» أندِرسون، التى ألزمت الماسونيين بالانصياع للتعاليم المسيحية بغضِّ النظر عن المكان الذى يعيشون فيه. أما المُحْدَثون فقضّلوا، على نحو مُشوّش، طبعةً عام 1723 من «الدساتير»، الأولى، التى تحضُّ الماسونيين على اتّباع ديانة موطنهم. هذا الا نشقاقُ بَلَغَ ماساتشوستس [فى الولايات المتحدة] فى عام 1761، بعد حوالى ثمانية وعشرين عامًا من انعقاد أول مَحْفل ماسونى كبير، مَحْفل القديس جون St John، في بوسطن [في الولايات المتحدة].

وبينما أُقِيم هذا المحفل برعاية لندن [إنجلترا]، استمدّ مَحْفل «القدماء» الكبير ، الجديد، وهو محفل القديس أندرو St Andrew، سُلطتَه المرجعية من إدنبرة [إسكتلندا].

ورغم الحِدّة التى اتّسَمَ بها الانقسامُ فى البداية، فلم يستمر؛ إذ اندمج المَحْفلا ن فى عام 1792. ولكنهما عَكسَا فى وقت الثورة انقسامًا اجتماعيًا وسياسيًا حقيقيًا، حيث أصبح مَحْفل القديس أندرو - الذى أسّسه مَن استبعدهم مَحْفلُ القديس جون لأنهم أدنى اجتماعيًا - مَرْتعًا خصبًا للتحريض والفتنة، وبخاصة بعد أن صار جوزيف وارن Joseph warren أستاذَه (ثم لاحقًا الأستاذ الأعظم لمحفل كبير جديد يضمُّ قدماء بوسطن)[316].

وأصبح نُزُل التنين الأخضر [جرين دراجون تافِرن]، الذى اشتراه مَحْفل القديس أندرو فى عام 1764، مقرًا للحركة الثورية فى بوسطن[317]. فثمة إشارة فى دفتر مَحْضَر جلسات المَحْفل لشَهْرىْ نوفمبر وديسمبر عام 1773 إلى وجوب تأجيل الاجتماعات بسبب قِلّة عدد الحاضرين نتيجة مشاركة العديد من الأعضاء فى حفلة شاى بوسطن[318]. وعندما أُعِيدَ دَفْنُ وارن - الذى قُتِلَ فى معركةٍ عام 1775 - رَثاه صديقُه وزميلُه الماسونى بيريز مورتون Perez Morton واصفًا إياه بأنه «وطنى لا مثيل له» ذو أخلاق عالية فى حياته العامة، وبأنه «نموذج للإنسانية» فى حياته الخاصة. لقد سقط وارن صريعَ «قضية الفضيلة والإنسانية»، وإنْ كان ينبغى إحياء ذكراه بوصفه ماسونيًا. ويُؤكِّد مورتون أن «النموذج المشرق الذى أعطاه [وارن بوصفه أستاذًا عظيمًا grand master] هو «العَيْش بحسب البوصلة Compass والا ستجابة للسّاحة Square». ويقول مورتون، رغم انتماء وارن إلى العديد من الجمعيّات [التنظيمات]، «فلم يُقدِّره أىٌّ منها حقّ قدره» كما قدّرته الماسونية.

والحقيقة أن مورتون يُشَبِّه صراحةً موتَ وارن «بأيدى الأشرار» بموت حيرام أبيف، بانى هيكل سليمان (الذى قُتِلَ - طبقًا للتقاليد الماسونية - عندما رفض إفشاء سِرّ أساتذة البَنّائين الأحرار[362] Master Masons[319]).

ريفير أيضًا لم يكن مُصَنّفًا بوصفه بَنّاءً حُرًّا؛ ولكنه صار فى عام 1788 نائبَ الأستاذ العظيم لمَحْفل ماساتشوستس الكبير[320].

لقد انجذب مُنظِّرو المؤامرة وكتّابُ الخيال، منذ فترة طويلة، إلى فكرة أن الماسونيةَ شبكةٌ خفيّة دفعت إلى الثورة الأمريكية. وربما يساعد ذلك على تفسير شكوك المؤرّخين المحترمين. ينبغى ألا نبالغ فى تجانس الماسونية الاستعمارية. ثمة هناك موالون فى محافل بوسطن أيضًا، مثل بنيامين هالويل Benjamin Hallowell، المفوّض الجمركى، وشقيقه روبرت Robert، وكلاهما ينتميان إلى مَحْفل القديس جون، بالإضافة إلى ستة أعضاء على الأقل من مَحْفل القديس أندرو. ولا يمكن تجاهل تَرَكُّزُ القادةِ الثوريين فى محفل القديس أندرو. فأعضاؤه يشملون وارن وريفير، بالإضافة إلى إشَعْياء توماس Isaiah Thomas ناشر جريدة «جاسوس ماساتشوستس» Massachusetts Spy وتقويم نيو إنجلاند New England Alamanac، ووليام بالفرى William Palfrey سكرتير [تنظيم] «أبناء الحرية»، وتوماس كرافتس Thomas Crafts من تنظيم «المُخْلِصين التسعة»[321].

تشكّلَ مَحْفلُ القدماء الكبير من تسعة عشر مَحْفلا ً جديدًا أثناء الحرب الثورية؛ مَحْفل القديس أندرو، وحده، قَبِلَ ثلاثين عضوًا جديدًا فى عام 1777، وخمسة وعشرين فى عام 1778، وواحدًا وأربعين عضوًا على مدى العامين التاليين. فى عَشَاء يونيو عام 1782 استقبل المَحْفلُ أعضاء من مجلس حكومة بوسطن المحلية، والقنصل الفرنسى فى قاعة فانويل[363] Faneuil Hall[322].

ثمّ بعد ثلاثين عامًا، فى يوم 4 يوليو عام 1795، وَضَعَ بول ريفير، وهو يرتدى ملابسَه الماسونية كاملةً، حجرَ أساس مبنى مجلس ولاية ماساتشوستس

---

[362] فى هذا الزمن كان أساتذة البَنّائين الأحرار هم: النبى سليمان الحكيم، وملك صور، وحيرام أبيف، وذلك وفقًا لمَرْويّة جيمس أندِرسون عن تاريخ البَنّائين الأحرار القديم - المترجم.

[363] قاعة فانويل، أو فانويل هول: تقع قُرْب واجهة بوسطن البحرية، ألقى فيها صمويل آدمز وآخرون خطبًا لتأييد الاستقلال عن بريطانيا العظمى. تُعَدُّ القاعة محلا ً مشهورًا فيما يُسَمّى «مسار الحرية»، ويُشَارُ إليها أحيانًا بوصفها «مهد الحرية». هى الآن جزء من سلسلة مواقع مدينة بوسطن التاريخية - المترجم.

Massachusetts State House. حثّ ريفير مستمعيه على «العَيْش حسب بوصلة المواطنين الخَيّرين» من أجل إظهار «عالَم الإنسانية... الذى نرغب فى الترقِّى إلى مستواه معهم، والذى حين نشارك فيه نُقبَلُ فى الهيكل Temple حيث يسود الصمت والسلام». قبل أيام فقط، قال كاهنٌ لريفير وضُبّاطه إن الماسونيين هم «أبناء العقل وتلاميذ الحكمة، وأخوة فى الإنسانية»[323]. وهذا يُوضِّح الانسجامَ فى ذلك الوقت بين الماسونية وبعض رجال الدين فى الجمهورية الباكرة. ولعل نموذج الكاهن الماسونى الجيد، هو الإكليركى الموقّر ويليام بِنْتلى William Bentley، أسقف الأبرشية الذى عاش فى سِلِمْ Salem [إحدى مدن ماساتشوستس التاريخية]. فى عام 1800، زار بِنْتلى بوسطن لحضور إحياء ذكرى وفاة جورج واشنطن[364] George Washington، وتناوَلَ العشاءَ مع رفيقيْه الماسونييْن ريفير وإِشَعْيَاء توماس[324].

بعد ثلاثين عامًا فقط، سيختلف الجوُّ العام تمامًا. فمِن عواقب «صحوة الدين الكبرى» Great Awakening of religion فى نيو إنجلاند New England اندلا عُ مناهَضة عنيفة للماسونية، الأمر الذى أدّى إلى انخفاض حادٍّ فى مبادرات جديدة من قِبَل مَحْفل سانت أندرو وأشباهه[325]. هاهنا، نجد تفسيرًا آخر للتقليل لاحقًا من الدور الماسونى فى الثورة الأمريكية: فالماسونية لم تكن سمةً من سمات تأسيس الجمهورية التى رغب أمريكيو القرن التاسع عشر فى تذكّرها. ومع ذلك، فالدليل الظرفى [غير المباشر] مُلزِم. فبالإضافة إلى كوْن بنيامين فرانكلين أستاذًا عظيمًا لمَحْفله فى فيلادلفيا؛ كان أيضًا ناشر الطبعة ا لأمريكية الأولى من «دساتير» أندِرسون (في عام 1734).

وفضلا ً عن انضمام جورج واشنطن إلى المَحْفل رقم 4 فى فريدريكسبُرْج Fredericksburg بولاية فيرجينيا Virginia وهو فى سنِّ العشرين من عمره، صار فى عام 1783 أستاذًا أيضًا لمَحْفل أليكساندريا Alexandria Lodge No. 22، الذي تشكّل حديثًا [بالولايات المتحدة].

فى التنصيب الرئاسى الأول لواشنطن، يوم 30 أبريل عام 1789، أقسم يمينَ المنصب على الكتاب المقدس بنسخة مَحْفل سانت جون الماسونى رقم 1 في نيويورك St John's Masonic Lodge No. 1 of New York.

أدار عمليةَ القسَمَ روبرت ليفينجستن[365] Robert Livingston مستشار

---

[364]جورج واشنطن: (1732 - 1799)، أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، وقائد عام القوات المسلحة للجيش القارّى أثناء الحرب الأمريكية الثورية، وأحد الآباء المؤسِّسين للو لايات المتحدة - المترجم.

[365]روبرت ليفينجستن: (1746 - 1813)، أحد الآباء المؤسِّسين للولايات المتحدة، وعضو

نيويورك (أعلى منصب قضائى فى الولاية) وماسونى آخر هو أول أستاذ عظيم لمَحْفل نيويورك الكبير. وفى عام 1794، جلس واشنطن أمام الفنان جوزيف ويليامز Joseph Williams، الذى رَسَمَ الرئيسَ مرتديًا الشعارات المَلَكيّة الماسونية الكاملة وهو يُسَوّى حجرَ أساس كابيتول الولايات المتحدة [مقرّ الكونجرس] قبل عام[326]. وقد حَظِى مئزرُ جورج واشنطن بالشُهْرة فى فولكلور الثورة الأمريكية كما حظيت بها رحلةُ بول ريفير من قبل. ومن المشكوك فيه أن أيًّا من الرجلين كان سيتمتع بالتأثير الذى تمتّع به إن لم يكن بسبب عضويته فى الإخوان الماسون Masonic brotherhood. ألقى المؤرّخون اللاحقون ظلالا ً من الشك على الأصول الماسونية لأيقونية خَتْم الولايات المتحدة العظيم[366] the Great Seal of the United States، الذى بات معروفًا عالميًا منذ دَمْجه فى مشروع قانون الدولار عام 1935 [327]. الأكثر من هذا أن عَيْنَ العناية الإلهية الرائية كلّ شىء، التى تُتوّجُ الهرمَ غير المكتمل على الوجه الآخر من الخَتْم تُشْبِه شَبَهًا قويًا العَيْنَ التى تُحدِّق فينا من مئزر واشنطن فى تمثال القرن التاسع عشر، لأول رئيس بملابسه الماسونية (انظر اللوحة الاتية).

لجنة الخمسة التى صاغت إعلان الاستقلال مع توماس جيفرسون وبنيامين فرانكلين وجون آدامز وروجر شيرمان. عُرِفَ باسم «المستشار» بعد شغله المنصب لمدة رُبْع قرن - المترجم.

[366] خَتْم الولايات المتحدة العظيم: خَتْمٌ يُستخدَم لإضفاء الشرعية على وثائق معين صادرة عن حكومة الولايات المتحدة الفيدرالية. اسْتُخدِمَ لأول مرة عام 1782. وطُبِعَ على ظهر عُمْلة الدولار الورقية بدءًا من عام 1935 - المترجم.



لقد تشابَكتْ الثورات العلمية والفلسفية والسياسية فى القرن الثامن عشر؛ لأ
ن الشبكات التى نقلتها كانت متشابكةً. صُنّاع الثورة الأمريكية كانوا رجالا ً
مُتعدِّدى المواهب. ورغم وجود الآباء المؤسِّسين على المحيط الخارجى
للشبكات الأوربية التى أنتجت ثوراتِ العصر العلمية والفلسفية - ورغم
محاكاتهم الحياة الجَمْعيّاتية فى بريطانيا العظمى بمحافلها الماسونية عن
قَصْدٍ - أثبت الآباءُ المؤسِّسون أنهم الرجال الأكثر ابتكارًا فى عصرهم على
المستوى السياسى. فمن نواحٍ عديدة، استهدف الدستورُ الذى انبثق عن مداو
لاتهم فى ثمانينيات القرن الثامن عشر، تأسيسَ نظام سياسى مضاد للهَرَميّة.
لقد ابتكر المؤسِّسون، وهم على وعى كامل بالمصائر التى حلّتْ بالتجارب
الجمهورية فى العالم القديم وفى بواكير أوربا الحديثة، نظامًا يفصل
السلطات عن بعضها ويضمن تداولها، ويُقيّدُ السلطةُ التنفيذية لدى رئيسهم

المنتخَب إلى حدٍّ كبير. فى بداية «الأوراق الفيدرالية»[367] The Federalist Papers، يُحدِّد ألكسندر هاملتون Alexander Hamilton، بوضوح، الخطرَ الرئيسي الذي ستُواجِهُه الولايات المتحدة الوليدة:

فى كثير من الأحيان، يَستتِرُ طموحٌ خطير وراء قِناع الحماسة الخادع لنُصْرة حقوق الشعب أكثر مما يستتر تحت مظهر الحماسة مَنْع الحماسة لاستقرار الحُكم وكفاءته.

وسيُعلِّمنا التاريخُ أن النوع الأول شَقّ طريقًا واضحًا يُمَهّدُ للاستبداد أكثر بكثير مما فعل النوع الثانى، وأنه طريق الرجال الذين أطاحوا بحُريّات الجمهوريات، وأن العدد الأكبر بدأ مسيرته بدَفْع محكمة باسم الشعب؛ فبدأوا ديماجوجيين demagogues وانتهوا طُغاةً مستبدِّين tyrants[328].

وهى الفكرة الرئيسية التى عاد إليها فى عام 1795. يقول هاملتون: «تُخبِرنا مُراجَعةُ تاريخ الأمم بأن كل بلد، فى كل العصور، أشقاه وجودُ رجال يدفعهم طموحٌ شادّ يُوَسْوِسُ لهم بأنهم سيُسْهِمون بتفوُّقهم الخاص وأهميتهم الخاصة... فى الجمهوريات رجالٌ ديماجوجيون متملِّقون أو هائجون، يعبدون الصّنَم - السُلْطة - أينما وُجِدَ... يتاجرون بضَعْفِ الشعب أو نقائصه أو تعصُّباته»[329].

النظام الأمريكى الذى اشتغل بهذه الطريقة أدهش الزوّارَ الأوربيين، ولا سيما القادمين من فرنسا التى أنشأت جمهوريةً فى عام 1792، دامَتْ على وجه التحديد اثنى عشر عامًا. رأى المُنظِّر السياسى والاجتماعى الفرنسى أليكسيس دى توكفيل Alexis de Tocqueville حيويةُ الحياة الجَمْعيّة الأمريكية بموازاة نظام فيدرالى ذى طابع لامركزى، بوصفهما مفتاحىْ نجاح الديمقراطية الجديدة. وكان ما يَلفِتُ النظر حقًا أن نظامًا كهذا نَشَأَ فى المستعمرات التى يسكنها لاجئون متديّنون من بلدٍ تخلّى عن تجربته الجمهورية فى عام 1660. وكما يذكر توكفيل: «بينما صَنّفَ تسلسلُ المكانة الهَرَمىُّ سكانَ البلد الأمّ طبقيًا على نحو ديكتاتورى»، قدّمَ المستعمرون الأمريكيون «مشهدًا جديدًا لمجتمع متجانس في جميع أجزائه».

هذا الطابع المساواتى المُميّز لمجتمع استيطانى مَكّنَ من وجود شبكةِ جمعيّاتٍ مدنيّة كثيفة على نحو فريد، وهذه الشبكةُ - كما يقول توكفيل -

---

[367] الأوراق الفيدرالية: مجموعة مقالات نَشَرَها فى صحيفتين أمريكيتين ألكسندر هاملتون وجيمس ماديسون وجون جاى فى الفترة بين أكتوبر عام 1787 وأغسطس عام 1788، ثم جُمِعَتْ فى كتابٍ بعد إضافة ثمانى مقالات إليها فصار مجموعها 93 مقالا ً، طُبِعَ عام 1788 - المترجم.

مفتاحُ نجاح التجربة الأمريكية. البلدُ الذى وَصَفَه توكفيل فى الجزء الثانى من كتابه «الديمقراطية فى أمريكا» Democracy in America، فى الفصلين الخامس والسادس، هو أول نظام سياسى شَبَكىٍّ. ويؤكِّدُ توكفيل قائلا ً إنه «لا يوجد بلدٌ فى العالم لديه مبدأ الجَمْعيّة principle of association، ونجح في استعماله وتطبيقه في كل الموضوعات تقريبًا، أكثر من أمريكا»:

فإلى جانب الجَمْعيّات الدائمة التى يُحدِّدها القانونُ تحت أسماء البلديّات و المدن والمقاطعات، يتشكلُ عددٌ كبير من الكيانات الأخرى تنفق عليه وتصونه وكالاتٌ من الأفراد [المستقلين عن الحكومة]. يُعَلّمُ المواطنُ فى الولايات المتحدة، منذ مرحلة الطفولة، الاعتمادَ على مجهوداته الخاصة كى يقاوم شرورَ الحياة ومصاعبها؛ فهو ينظر إلى السُلطة الاجتماعية بعدم ثقة وقلق، ويدعو إلى مساعدتها حين يكون غير قادر على الاستغناء عنها... فى الولايات المتحدة، تُؤسّسُ الجَمْعيّاتُ لتعزيز السلامة العامة والتجارة والصناعة والأخلا ق والدين. وما من غايةٍ تقنَطُ الإرادةُ البشرية من تحقيقها عَبْرَ تجميع سلطة ا لأفراد المُتّحدين في المجتمع[330].

لقد رأى توكفيل الجَمْعيّات السياسية فى أمريكا ميزانًا لا غنى عنه لمجابهة خطر الاستبداد [الطغيان] الذى كان أصيلا ً فى الديمقراطية الحديثة، حتى ولو كان استبداد الأغلبية. ومع ذلك، تكمن قوةُ النظام الأمريكى العُظمَى فى جَمْعيّاته غير السياسية:

الأمريكيون من كل الأعمار وكل الظروف وكل العقول مُتّحِدون باستمرار. وبا لإضافة إلى وجود جَمْعيّاتهم التجارية والصناعية التى يشارك فيها الكلُّ، يوجد لديهم أيضًا آلاف الجَمْعيّات الأخرى: دينية وأخلاقية، منها المنشغلة بقضايا كبيرة، ومنها المنشغلة بتوافه الأمور، منها العامة جدًا والخاصة جدًا، ومنها الكبيرة والصغيرة جدًا؛ يستعمل الأمريكيون الجَمْعيّات فى إقامة الحفلا ت والمهرجانات وإحياء الذكرى، وفى إقامة المعاهد التعليمية وفى بناء النُّزُل وجَمْع تبرعات للكنائس، وتوزيع الكتب، وإرسال البعثات التبشيرية إلى خارج البلاد؛ وبهذه الطريقة يُنْشِئون المستشفيات والسجون والمدارس. وأخيرًا، متى وُجِدَتْ قضيةٌ تحتاج إلى إلقاء الضوء على حقيقتها أو تنمية مشاعر دَعْمٍ لنموذج عظيم يُحْتَذى فإنهم يجتمعون[331].

لقد فُتَنَ توكفيل ما رآه [فى الولايات المتحدة] من أبنية سياسية واجتماعية مغايرة لما فى مسقط رأسه فرنسا. فلماذا انتهت الثورة هناك - فى أحد محاور التنوير الحاسمة - إلى نتائج مختلفة مُخيّبة للآمال؟

IV

القسم الرابع

استعادة التسلسل الهَرَميّ

21
الأحمر والأسود

فى رواية ستندال[368] Stendhal «الأحمر والأسود» Le Rouge et le Noir (1830)، يُخطِّطُ جوليان سوريل Julien Sorel لنفسه أن يكون رجل دين، حتى يُحقِّقَ أقصى آماله وأفضلها فى الترقِّى فى فرنسا بعد استعادة مَلَكيّة بوربون[369] Bourbon. لقد آثرَ سوريل - ابن النّجار - نظامَ الجدارة المُتّصِف ب «حياة مهنية منفتحة على الموهبة»، الذى مَيّزَ فترةَ حُكم نابليون بونابرت[370] Napoleon Bonaparte. ثم انتهى إلى نهاية سيئة، ضحيةُ تسلسل هَرَمى اجتماعى صارم فى عصر الاستعادة Restoration era [استعادة مَلَكيّة بوربون] أكثر من كوْنه ضحيةُ مغازلته[371]. لقد أظهر ستندال أنه أكثر تسامحًا

---

[368] ستندال: (1783 - 1842)، اسمه مارى هنرى بيل: من علامات الأدب الفرنسى فى القرن التاسع عشر، قرن الثورة الصناعية والثقافية معًا، أبرز أعماله روايتا «الأحمر والأسود» و «دير بارم». اتسمت أعماله بسخرية بارعة ونفاذٍ نادرٍ إلى أعماق النفس البشرية ونزوع واضح إلى النقد الاجتماعى. من روافده الثرية اهتمامه بالموسيقى وعلاقته الثرية بِ الثقافة الإيطالية. نشأ عن زيارته الشهيرة إلى مدينة فلورنسا ما يُعْرَفُ ب«متلازمة ستندال» Stendhal Syndrome أو «متلازمة فلورنسا»، التى أجاد التعبيرَ عن أعراضها فى كتابه «نابولي وفلورنسا: رحلة من ميلانو إلى ريجيو» - المترجم.

[369] آل بوربون: عائلة مَلَكيّة أوربية، فرع من سلالة الكابيتيون. وحّدَ ملوكُ آل بوربون فرنسا مع مملكة نافارا الصغيرة فى عام 1555 حتى سقطت مَلَكيّتُهم أثناء الثورة الفرنسية، ثم استعادوها لمدة قصيرة بدءًا من عام 1814 (بعد سقوط الإمبراطورية الفرنسية بقيادة نابليون من عام 1804 إلى 1814) حتى أُطيح بهم فى ثورة يوليو عام 1830، ثم حَكمَ فرعُ أورليان من آل بوربون 18 عامًا من عام 1830 حتى بدء اجتياح الثورات جميع أنحاء أوربا عام 1848 - المترجم.

[370] نابليون بونابرت: (1769 - 1821)، قائد عسكرى ترقّى فى المناصب حتى أصبح قنصلا ً عامًا لفرنسا ثم إمبراطور فرنسا من عام 1804 حتى عام 1814، وبذلك تُمثِّل سيرةُ حياته تحقيقًا لنظام الجدارة والاستحقاق. يُسَمّى هذا العقد الأول من القرن التاسع عشر ب «الحروب النابوليونية» التى حقق فيها نابليون لفرنسا مركزًا رئيسيًا على مستوى أوربا بسبب انتصاراته العسكرية المتتابعة. بدأ تدهوره العسكرى إثر هزيمته فى «معركة الأمم» أكتوبر عام 1813، ثم معركة «واترلو» يونيو عام 1815 التى استسلم فيها للبريطانيين ونفوه إلى جزيرة القديسة هيلانة - المترجم.

[371] تُعَدُّ شخصية جوليان سوريل مثالًا نموذجيًا لضحية التراتبات الاجتماعية الصارمة التى تعرضها روايةُ «الأحمر والأسود». ينتمى سوريل إلى الفئة الدنيا فى المجتمع، وكان نابليون بطله المثالى حتى هزيمة جيشه النهائية عام 1815. لم يجد سوريل سبيلا ً للترقّى الاجتماعى سوى الاندراج فى سِلك الرّهْبنة، وخلال دراسته وتهيئته ليصبح قسًا،

مع طبيعة سوريل المتهوّرة من تسامحه مع خُيَلاء آل بوربون. وثمة عبارات د الة فى الرواية، تبدو كالمقتبسة (لكن ستندال هو صاحب العديد منها فى الحقيقة): «لا يوجد سوى نُبْل حقيقى واحد؛ لقب دوق. الماركيز لقب سخيف، [لكن] عند كلمة دوق يلتفت المرء برأسه فورًا». كذلك عبارة: «الخدمة! الموهبة! الجدارة والاستحقاق!». وأيضًا عبارة:

«الانتماء إلى حاشية». ثم وهو «يركب بزيّه الكامل على حصانه قال لنفسه، «لماذا لا أكون وزيرًا، أو رئيس مجلس استشارى، أو دوقًا؟... كمْ وَدَدَتُ أن أقيّد المُجَدِّدين بالسلاسل» [332]. »

لقد ثبَتَ أن محاولة سُلالة آل بوربون المَلَكيّة من أجل استعادة التسلسلات الهَرَميّة فى النظام القديم ancien régime لا يمكن أن تدوم. ففى عام 1830، أطاحت ثورةٌ فرنسيةٌ أخرى بتشارلز العاشر Charles x. ثم بعد ثمانية عشر عامًا، أسقطت ثورةٌ ثالثةٌ خليفتَه حفيد فرع أورليان [من آل بوربون]، لويس فيليب Louis Philippe. وأخيرًا، فى عام 1870، أطاح الغزو الألمانى وثورةٌ أخرى بالإمبراطور نابليون الثالث[372] Napoleon III، الأمر الذى مهّدَ الطريقَ

عُرِضَ عليه أن يكون معلمًا لأبناء عُمْدة إحدى البلدات السيد دى رينال. رأى جوليان فى هذا فرصته للدخول إلى أوساط الطبقة العليا، وعمل دون تردد على إغواء زوجة العُمْدة حتى صارا عشيقين. وبعد انتشار الأقاويل عن علاقتهما تمّ إبعاد سوريل. ثم عَرّفته أحداثٌ بالماركيز دومول الذى عمل عنده سكرتيرًا خاصًا، ولم يتردد فى اغتنام الفرصة الجديدة حين أظهرت ماتيلدا ابنة الماركيز إعجابَها به. وما إن شعر سوريل بأن حلمه بدأ يتحقق حتى وصلت رسالةٌ من عشيقته الأولى مدام دى رينال تُخْبِرُ الماركيزَ بأن سوريل ما هو إلا دون جوان وضيع وانتهازى يسعى إلى الترقِّى والثروة، الأمر الذى أثار غضب سوريل ودفعه إلى إطلاق الرصاص على مدام دى رينال فى مكان عام، ورغم نجاة السيدة حُكِمَ عليه بالإعدام - المترجم.

[372]نابليون الثالث: (1808 - 1873)، هو شارل لويس نابليون بونابرت. بعد صدور قانون فرنسى يقضى بنفى أسرة بونابرت من فرنسا عام 1816، قضى شارل لويس نابليون شبابَه فى إيطاليا وألمانيا وسويسرا، وارتبط بمجموعات ثورية من أمثال الكوربونارى فى إيطاليا. سُجِن إثر محاولته الإطاحة بحكومة لويس فيليب المَلَكيّة (من آل بوربون) فى ستراسبورج (شرق فرنسا) عام 1836 ومحاولته فى بولونيا (فى إيطاليا) عام 1840. فرّ من سجنه إلى إنجلترا عام 1846. وعندما أدّت ثورة 1848 إلى ظهور الجمهورية الفرنسية الثانية عاد إلى فرنسا، وانتُخِبَ رئيسًا من عام 1848 حتى عام 1852، ثم إمبراطورًا تحت اسم نابليون الثالث من عام 1852 حتى عام 1870. بعد لجوء الخديوى إسماعيل إليه بسبب نزاعٍ مع شركة حفر قناة السويس، أصدر نابليون الثالث حُكمًا جائرًا على مصر يقضى بدفع 3,5 مليون جنيه مصرى لشركة حفر قناة السويس. عمل فى بداية حُكمه الإمبراطورى على تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى فرنسا ونجح فى عملية التحديث.

إلى ثالث دساتير الجمهورية الخمسة فى فرنسا وأطولها (حتى ذلك الوقت). ويرجع قدرٌ كبير من سحر هذا العصر فى التاريخ الأوربى إلى هَشَاشة كل محاولة جديدة لإعادة تأسيس النظام المَلَكى. ولكن القرن التاسع عشر كان هو الوقت الذى وُجِدَتْ فيه طاقاتٌ ثورية أطْلَقَتْ لها العنانَ - ببطء وإنْ بثبات - المطابعُ التى احتوتها أبنيةُ السُّلطة الجديدة. فإن لم يكن بعودة آل بوربون، فكيف حَدَثَ هذا؟

لقد حوّلت الثوراتُ القائمة على الشبكة - الإصلاح والثورة العلمية والتنوير - الحضارةَ الغربية تحويلا ً عميقًا. وَعَدَت الثوراتُ السياسية - فى الولايات المتحدة وفرنسا، بل فى جميع أنحاء الأمريكيتين وأوربا أيضًا - بعصر ديمقراطى جديد قائم على مفهوم الأخوة العالمية الذى دَعَتْ إليه الماسونية أولا ً، وابتهج باستحضاره شيللر[373] Schiller فى قصيدته «نشيد الفرح» Ode to Joy.

هذا الوعد لم يتحقق. ولفَهْم السبب فى تغيُّر الأفضلية من الشبكات إلى التسلسلات الهَرَميّة، علينا تجنُّبُ تخيُّلِ وجودِ انقسام زائف بينهما. فقد انطوى التصنيف الطبقى الخانق فى فرنسا، عشرينيات القرن التاسع عشر، على هندسته الشبكية المتميزة. وكما رأينا، معظمُ الشبكات هَرَميّةٌ من بعض النواحى، بسبب أن بعضَ العُقَد أكثرُ مركزيةً من غيرها، أما التسلسلات الهَرَميّة فهى ليست سوى أنواع شبكية خاصة يقتصر فيها تدفُّقُ المعلومات أو الموارد على حوافٍّ معينة من أجل تعظيم تمَرْكزيّة العُقْدَة الحاكمة. ذلك على وجه التحديد ما أحبط جوليان سوريل في فرنسا البوربونية:

قِلّةُ طُرُقِ صعود السُّلم الاجتماعى، الأمر الذى اضطره إلى الاعتماد، بدرجة كبيرة، على بعض الرُّعَاة. أضِفْ إلى هذا أن الفكرة المركزية المهيمنة فى رواية ستندال هى ما تُسَمِّيه نظريةُ الشبكة الثلاثى المستحيل impossible triad. لكى يفوز سوريل بقلب ابنة راعيه الماركيز الأرستوقراطى، ماتيلدا دى مول Mathilde de Mole، تظاهر بتفضيل الأرملة مدام ديفيرفاك Madame de

ساورته الرغبة فى القيام بمغامرات عسكرية خارج حدود فرنسا فى إيطاليا والمكسيك، ولكنه اصطدم بدهاء بيسمارك السياسى والعسكرى والمتفوق فى تكنولوجيا الأسلحة. أُسِرَ نابليون بعد هزيمته فى معركة سيدان وسُجِنَ فى ألمانيا. ثم بعد فترة أُفْرِجَ عنه، وعاد إلى إنجلترا حيث مات - المترجم.

[373] شيللر: (1759 - 1805)، شاعر ومسرحى كلاسيكى وفيلسوف ومؤرّخ ألمانى. يُعَدُّ مع جوته من مؤسِّسى الحركة الكلاسيكية فى الأدب الألمانى، التقى به شيللر فى فايمار بعد دعوة الدوق له بالمجيء إليها - المترجم.

Fervaques. ومع أن سوريل يخطب ودّ كلتا المرأتين فهما عاجزتان عن التواطؤ ضده. ثم حين وَشَتْ به عشيقةٌ سابقة هى مدام دى رينال Madame de Rênal، لوالد ماتيلدا، حاول سوريل قتلها. ثم وهو فى السجن، زارته ماتيلدا ومدام دى رينال كلتاهما على حدة. فى عام 1961، صاغ الناقد الأدبى رينيه جيرار René Girard، تعبيرَ «الرغبة المُقلِّدة» mimetic desire: لم ترغب ماتيلدا في سوريل إلا حين أدركت أنه مرغوب من امرأة أخرى.

الشبكات أبسط فى أنظمتها الهَرَمِيّة، أحيانًا لأن الذين فى الأعلى يُطبِّقون عن عَمْدٍ مبدأ فَرِّقْ واحْكُم، وأحيانًا لأن النظام الهَرَمى لا يكون مهمًا فيه حقًا سوى عدد صغير من المحاور. لقد سعى رجال الدولة إلى إعادة تركيب النظام السياسى فى أوربا بعد ارتفاع مدِّ الحروب الثورية والنابليونية الفرنسية، فاجتمعوا فى مؤتمر فيينا[374] Congress of Vienna وابتكروا شبكةً أخرى بسيطة: «اتحادًا خماسيًا» pentarchy من خَمْس قوى عظمى لديها - بحكم طبيعتها - عدد محدود من الطرق التى تُحَقِّقُ بها التوازنَ. وقد اعتمد نجاح الا تحاد على هذه البساطة نوعًا ما. توازن القوى هذا، كما سنرى، اعْتَبَرَ معظمَ الدول الأوربية غير مهمة؛ فاعتمدت حالة التوازن على العلاقات بين النمسا وبريطانيا وفرنسا وبروسيا وروسيا، هؤلاء الخَمْس فقط (انظر اللوحة الاتية).

---

[374]مؤتمر فيينا: انعقد بحضور سفراء الدول الأوربية فى فيينا فى الفترة من سبتمبر عام 1814 حتى يونيو عام 1815، بهدف تسوية العديد من القضايا الناشئة عن حروب الثورة الفرنسية والحروب النابليونية وتفكّك الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وهو ما أسفر عن إعادة رَسْم الخريطة السياسية للقارة. وُقِّعَتْ وثيقةُ المؤتمر الختامية قبل تسعة أيام من هزيمة نابليون النهائية فى «معركة واترلو» يوم 18 يونيو عام 1815. يُعَدُّ هذا المؤتمرُ المحاولةَ الأولى فى التاريخ الأوربى لاجتماع القوى من أجل التوصُّل إلى معاهدة بدلاً من الاعتماد على تبادل الرسائل بين العواصم المختلفة. أدّت التسوية فى مؤتمر فيينا إلى تشكيل إطار للسياسة الدولية الأوربية استمر حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914 - المترجم.



ولكن إعادة تأكيد النظام الهَرَمى فى القرن التاسع عشر لم تُحبِط الشبكاتِ الفكريةَ والتجارية والسياسية التى نشأتْ فى القرون الثلاثة السابقة. لقد تعايشا معًا.

بل نَمَت الحياةُ الدينية فى العالم البروتستانتى بطريقة أكثر حيويةً وتجزّؤًا، بفضل تعاقب «الصّحوات» و«الإحياءات». يمكن تشبيه الثورة الصناعية - وهى الأكثر تحويلا ً من كل الثورات على مستويات عديدة - بثورات أخرى فى القرن الثامن عشر، كما أنها أيضًا نتاج شبكة المبتكرين، بعضُهم مُدَرّب عِلميًا والبعض الآخر عَلّمَ نفسَه بنفسه أثناء استغراقه فى مسألة ما. وحتى حين فقدت الماسونيةُ أهميتَها بعد عام 1800، شاركتْها فى أهداف التوسُّع وتأسيس فكرة الأخوّة (بالمعنى الأوسع من معنى الأشقاء الضيق) كثرةٌ من الحركات الجديدة، كالاتحادات التجارية، والمنظمات القومية أيضًا، ولا سيما أخويّات الطلبة الألمانية. تمثّلَ الفرقُ فى نُموّ الهَرَميّات المَلَكيّة الأ رستوقراطية والكنَسيّة باطراد أفضل باستمالة كل هذه الشبكات، فسخّرتَ طاقاتها الإبداعية، وطَوّعتها لإراداتها.

22

من الحشد إلى الاستبداد

لم يدرك أحدٌ بالسرعة نفسها ما أدركه إدموند بيرك Edmund Burke من أن الثورة الفرنسية ستكون أكثر دمويةً من الثورة الأمريكية. وبحلول عهد الإرهاب[375] Terror، كان الفرق بين الثورتين غير منكور. فمحاولة استبدال لويس السادس عشر[376] Louis XVI وإحلال «إرادة الشعب» محلّه، أطلقت العنانَ لعُنْفٍ مُهْلِك لم يماثله أيٌّ شىء شُوهِدَ فى فرنسا منذ يوم مذبحة بارثولوميو[377] Bartholomew's Day Massacre عام 1572 (اللوحة الاتية).

---

[375] عهد الإرهاب: فترة امتدت من يوم 5 سبتمبر عام 1793 حتى يوم 28 يوليو 1794 فى فرنسا أثناء الثورة، بسبب الصراع بين الفصائل السياسية المتناحرة من الجيرونديين و اليعقوبيين. اتسمّ عهدُ الإرهاب بأحكام الإعدام الجماعية لمَن وُصِفوا بأنهم «أعداء الثورة»، وراح ضحيتها الآلاف - المترجم.

[376] لويس السادس عشر: (1754 - 1793)، آخر ملوك فرنسا ونافارا، قدّمَ معونةً للثورة الأمريكية عام 1776، فأرسل فرقةً فرنسية بقيادة لافاييت لمساعدة الثوار الفرنسيين. فى عام 1793، حاول الفرار مع زوجته إلى خارج فرنسا، ولكن أُلقى القبض عليهما وتمّ إعدامهما بالمقصلة في باريس تنفيذًا لاقتراح روبسبيير - المترجم.

[377] يوم مذبحة بارثولوميو، أو مذبحة سان بارتيليمى: حدثت فى فرنسا عام 1572، ذُبِحَ فيها البروتستانتيون الفرنسيون على يد السلطات الكاثوليكية بأوامر من الملك تشارلز التاسع ووالدته كاترين دي ميديتشي، خوفًا من سطوة البروتستانتية وانتشارها - المترجم.



بدأ العنف الثورى يوم 21 أبريل عام 1789، مع أعمال شغب فى ضاحية فوبور سانت انطوان Antoine-Faubourg Saint ، حيث تظاهر حوالى 300 شخص لدَعْم الجمعية الوطنية National Assembly التى تَصّبَتْ نفسَها بنفسها، فقتلتهم القواتُ المَلَكيّة. ثم بعد ثلاثة أشهر، فى اشتباك أكثر شهرةً، فُقِدَ حوالى 100 شخص أرواحهم عندما أطلق جنودُ حراسة الباستيل [باستيه][378] Bastille النيرانَ عليهم. ولكن الموائد انقلبت هذه المرة، حين انضمّ بعض الحُرّاس المُدافِعين إلى الحشد الثوري.

ويُعَدُّ قطع رأس قائد الحامية دو فليسيل de Flesselles علامةً تصعيد مهم، كما شَنَقَ العامةُ أيضًا الضابطَ فولون دو دويه Foulon de Doué وزوجَ ابنته بيرتيه دى سوفينيه Bertier de Sauvigny وقطّعوا أوصالهما فى مكان الإضراب يوم 22 يوليو (عُلِّقَ رأسُ الأول وقَلْبُ الثانى على خازوقين يحملهما موكبٌ جَالَ بهما في الشوارع).

ولم يكد الحشد الباريسى يحمل السلاح إلا واجتاحت موجةٌ من الاضطرابات الريفَ الفرنسى أيضًا. فخوفًا من مؤامرة يدبرها النُبَلاء لاستعادة سلطتهم بمعاونة «قُطّاع طرق» غامضين، لجأ الفلاحون فى جميع أنحاء فرنسا إلى العنف ذلك الصيف الذى أصبح يُعْرَفُ باسم «لا جروند بُير» la grande peur (الخوف الكبير). فى البداية، أُحْرِقَت السِّجلات الإقطاعية ونُهِبَتْ أقبيةُ النبيذ. لقد كانت هذه الاضطراباتُ، من حيث نطاقها ومدتها، أكثرَ من مجرد ثورة أو

---

[378] الباستيل: أُنْشِئ فى فرنسا بين عامىْ 1370 و1383 بوصفه حصنًا للدفاع عن باريس وسجنًا للمعارضين السياسيين والدينيين والمحرّضين ضد الدولة. وبمرور السنين أصبح رمزًا للطغيان والظلم وانطلقت منه شرارة الثورة الفرنسية الأولى يوم 14 يوليو عام 1789 - المترجم.

انتفاضة فلاحين. [أضِفْ إلى هذا أن] سُرْعة العَدْوَى التى انتشر بها «الخوف الكبير» اللافتة للنظر - والتى يصعب تفسيرها بالنظر إلى فقر الاتصالات نسبيًا بين أجزاء فرنسا فى ذلك الوقت - ما هى إلا إيضاح آخر لفكرة انتشار الشائعات فيروسيًا دون تكنولوجيا معلومات متطورة[333]. وبالمقارنة مع ما كان سيحدث، يُعَدُّ «الخوف الكبير» حدثًا معتدلا ً.

فعلى الرغم من أن أصحاب الأراضى هُدِّدوا وأُهينوا، لم يُقْتَلْ منهم سوى ثلاثة: نبيلٌ يعمل نائبًا ل الجمعية العامة Estates General [فى ظل النظام القديم]، وموظفٌ اشْتُبِهَ فى كوْنه محتكر الغذاء (فى بالون Ballon، شمال لومون Le Mans)، وضابطٌ فى القوات البحرية (فى لو بوزان Le Pouzin، شمال أفينيون Avignon). ولكن وباء حَرْق القصور المَلَكيّة والإقطاعية كان لافتًا للنظر. ففى أقل من أسبوعين بين يومى 27 يوليو و9 أغسطس هُدِّمَتْ تسعةُ قصور وسُوِّيَتْ بالأرض، وتضرَّرَ ثمانون قصرًا فقط فى مقاطعة دوفينيه Dauphiné جنوب شرق فرنسا[334].

ولا يحتاج الأمر هنا سوى تعداد المذابح الكبرى التى سبقت إرهاب عامىْ 1793 - 1794: مسيرة النساء والهجوم على القصر المَلَكى فى فيرساى Versailles فى أكتوبر عام 1789؛ إطلاق الحرس الوطنى National Guard نيرانه على الحشد عند شامب دو مارس[379] Champ de Mars فى يوليو عام 1791؛ مجازر سبتمبر September Massacres عام 1792 (عندما اقتحم اللامُتَسَرْوِلون [سان كيلوت][380] Culottes-Sans سجونَ باريس وقتلوا المئات من النُّزَلاء)؛ الحرب ضد مكافحى الثوّار فى فونديه[381] Vendée (1793 - 1796).

---

[379]شامب دو مارس أو ساحة دو مارس: ساحةٌ عامّة خضراء تقع فى الحى السابع بباريس بين بُرْج إيفل والمدرسة العسكرية. صُمِّمَتْ فى عام 1751 بغرض التدريبات العسكرية. فى يوم 17 يوليو عام 1791، كانت السّاحةُ مسرحًا لأحداث راح ضحيتها 50 شخصًا فى مظاهرة ضد الملك لويس السادس عشر، عندما أمر الماركيز لافاييت جنودَه بفتح النار على المتظاهرين - المترجم.

[380]اللامُتَسَرْوِلون أو سان كيلوت: تعبيرٌ يشير إلى زيٍّ يُمَيِّزُ الفئات الدنيا الفقيرة فى فرنسا أواخر القرن الثامن عشر، وهم الذين صار الكثيرُ منهم مشاركين شديدى التطرف فى الثورة الفرنسية، ولاحقًا شَكّلوا الجزءَ الأكبر من الجيش الفرنسى أثناء الحروب الثورية الفرنسية بقيادة نابليون - المترجم.

[381]فونديه: إقليم فرنسى، حدثت فيه حربٌ أهلية بين الجيش المَلَكى الإقليمى والجيش الثورى الوطنى، واستمر الوضع هكذا بشكل متقطع حتى ظهور نابليون بونابرت على مسرح الأحداث - المترجم.

ولا ننسى تمرُّد العبيد الدامى فى سان دومانج[382] Domingue-Saint (هاييتى Haiti). الفكرة هى أنه على عكس المستعمرات الأمريكية البريطانية - كما هو الحال فى معظم الثورات منذ ذلك الحين - أدّى التمرد، لا محالة، إلى فوضى anarchy ومن ثمّ إلى استبداد، وهو ما كانت تتوقعه النظرية السياسية الكلاسيكية. إذ بينما طَوّرَ المستعمِرون الأمريكيون شبكاتِ جمعيّاتهم المدنيّة، التى خرجت من رحمها الثورةُ الأمريكية والولاياتُ المتحدة، بُنِى الحشدُ الفرنسى بطريقة مختلفة تمامًا. لجنةُ السلامة العامة[383] Committee of Public Safety فى حد ذاتها ما هى إلا محاولةٌ لتنظيم سفك الدماء غير المنظّم الذى يقوم به الغَوْغَاء الأراذل [كِناى] Canaille: العامّة mob.[335]

ولم يستطع أىٌّ من اليعاقبة Jacobins أو خلفاؤهم فى المجلس الخماسى Directory[384] تحقيقَ الاستقرار، سواء فى العاصمة أو البلاد ككل. وتشهد عمليات القتل الجماعى المُروِّعة، كالإغراق المتعمّد لآلاف من الناس فى نُانت Nantes، على انهيار النظام الاجتماعى والسياسى شِبْه الكامل، وهو ما يمكن مقارنته من حيث الأسلوب بأفظع الأعمال الوحشية فى الثورات العربية Arab revolutions فى عصرنا الراهن [ديسمبر 2010 - 2012]. فباسم يوتوبيا كاذبة false utopia أطلق الساديون sadists العنانَ لسُعار القتل.

الرجل الذى أعاد النظامَ إلى فرنسا (وإن فعل عكس ذلك بالنسبة إلى بقية أوربا) امتلك طاقةً غير طبيعية. كان صعودُ نابليون بونابرت من الغموض[385] الكورسيكى[386] Corsican إلى قيادة سلاح مدفعية الجيش الثورى فى

---

[382] سان دومانج: مستعمرة فرنسية فى جزيرة هيسبانيولا فى الكاريبى منذ عام 1659 حتى عام 1804. انسحبت القوات الفرنسية منها أواخر عام 1803، وأعلنت المستعمرةُ استقلالها تحت اسم هاييتي - المترجم.

[383] لجنة السلامة العامة: أُنشِئتْ فى مارس عام 1793 وسيطر عليها اليعاقبةُ، ثم أُعِيدَتْ هيكلتُها فى يوليو عام 1793. اعْتُبِرت اللجنةُ حكومةَ الأمر الواقع التنفيذية فى فرنسا خلا ل عهد الإرهاب الذي مَثّلَ إحدى مراحل الثورة الفرنسية - المترجم.

[384] Directory: مجلس خُماسى لحُكم فرنسا حلّ محلّ لجنة السلامة العامة بدءًا من عام 1795. ثم أطاح به نابليون بونابرت فى انقلاب 18 بروميير، وأنشأ بدلا ً منه القنصليةَ الفرنسية - المترجم.

[385] بمعنى الجهالة وانعدام الذِّكر - المترجم.

[386] كورسيكا: جزيرة فرنسية فى البحر الأبيض المتوسط، تقع غرب إيطاليا وجنوب شرق فرنسا - المترجم.

إيطاليا - وهى الترقية التى تلقاها فى ذروة عهد الإرهاب - أمرًا ممكنًا بطبيعة الحال، بسبب انهيار النظام الأرستقراطى الذى كان سيغلق عليه الطريق قبل عام 1789.

وشأنه شأن جوليان سوريل، بطل رواية ستندال، كان بونابرت مُتسلِّقًا وزيرَ نساء؛ ولكنه على خلاف سوريل اجتمع له قليلٌ من الحظِّ وتوقيتٌ مناسب فى آنٍ معًا. وما فعله الرجل بمرور الوقت - ومع كل دقيقة استيقاظ - خَرَقَ المألوفَ حقًا. ففى وقت الفوضى، كان مَن صعد قائدٌ صغير: رجل يتولى كلّ مهمة بنفسه. قال العميد [نابليون قائد اللواء]، الذى ترقّى مؤخرًا، فى إحدى رسائله ال 800 التى كتبها فى غضون تسعة أشهر فقط خلال عام 1796: «إنى حزين للغاية من الطريقة التى تُحْمَلُ بها سِتّ عشرة قطعة [من المدفع]». وفى إحداها تذمّر من قائد كتيبة chef de bataillon: «أنا مندهش من أنك غير مبالٍ بتنفيذ الأوامر». «من الضرورى دائمًا أن أقول لك نفس الشىء ثلاث مرات». لقد تراوحتْ رؤيةُ نابليون من إستراتيجية كبيرة - إذ رَسَمَ خطته لغزو إيطاليا فى ذلك الوقت - إلى تفاصيل دقيقة (سجن العريف الذى يتغيّب دون أجازة في الأ ُنتيب Antibes أو فى موقع قارعى الطبول فى ساحة العرض)[336].

من الممكن وصف نابليون بما نُسمّيه الآن المتفانى فى العمل [مُدْمِن عمل] workaholic. كان يعمل سِتّ عشرة ساعة كل يوم. فى أبريل عام 1807 - شَهْر الهدوء غير العادى فى فترة حُكْمه - أرسل 443 رسالة. كان يُمْلِى جميعَ مراسلاته عدا رسائل الحب. قال ذات مرة: «الأفكار تتواتر أسرع، وتتبخر إن لم تُقيِّدْها الحروفُ والسطورُ!». فى إحدى المناسبات، ودون الرجوع إلى دفتر ملاحظاته، أمْلَى على وزير داخليته ما لا يقل عن 517 مادة تُحدِّدُ لوائحَ الأكاديمية العسكرية الجديدة في فونتينبلو Fontainebleau[337].

ومن عادات نابليون العامة قضاءُ عشر دقائق فقط على مائدة العشاء، إلا حين يتناول الطعام مع عائلته فى ليالى الأحد؛ وفى هذه الحالة ربما يبقى لمدة نصف ساعة. ثم حين يغادر المائدةَ يقفز «كالذى مسّه تيارٌ كهربى»[338]. وكما يذكر أحدُ موظّفيه فى طاقم سكرتاريته ممن أثقل العملُ كواهلَهم طول الوقت: «لم يكن ينام سوى غَفَوات قصيرة، الأمر الذى يُرْهِقنا ليلاً ونهارًا»[339]. كان يتنقل مسافرًا بالحيوية نفسها دون هوادة. فى يوليو عام 1807، استقلّ مَرْكبتَه من تيليست Tilist فى بروسيا Prussia إلى سان كلو Cloud-Saint [ضاحية غرب باريس]، فى رحلة استغرقت مئة ساعة دون أن ينفد صبره، ورَفَضَ الاستراحة. وصل فى الساعات الأولى من الصباح، وعلى الفور استدعى مجلسَ وزرائه[340]. بعد عامين، ارتحل من بلد الوليد Valladolid فى إسبانيا إلى باريس، «فكان يَسُوطُ حصانَ مُعَاونه الشخصى وينغز بالمهماز

حصانه في آنٍ معًا».

استغرقت الرحلة منه ستة أيام فقط ليقطع أكثر من 600 ميل[341]. بل وهو يسير على قدميه كان دائمًا فى عجلة من أمره، تاركًا الآخرين يلهثون فى أعقابه. وحتى عندما يستحمُّ أو يحلق لا يُضيّع أىّ وقت: فثمة شخص بالقرب منه دائمًا يقرأ له آخر الصُّحَف الصادرة، ومنها الترجمات عن الصحافة البريطانية المُعادِية دائمًا[342].

طاقته التى لا تعرف الكلَلَ وانتباهُه إلى التفاصيل - على حد سواء - هما اللذان وَضَعَا حدًّا لفوضى الثورة الفرنسية. فجُمِعَت القوانينُ وسُنِّقتْ، وأُصْلِحَ النظامُ النقدى، واسْتُعِيدَت الثقةُ العامة. وإلى جانب تلك الإنجازات المستمرة، وُجِدَتْ ملايين التفاصيل الصغيرة: عددُ مَن سيأخذهم الضباطُ لغزو إنجلترا؛ الزّىُّ الذى قد يرتديه المتمرّدون الأيرلنديون إذا انضموا إلى القضية الفرنسية؛ الحد الأدنى من مياه الشُّرْب الذى يحتاجه العريف بيرنودا Corporal Bernaudat فى الخط الثالث عشر؛ هُويّة عامل المسرح الذى كسر ذراع المُغنّية مادموازيل أوبرى Mademoiselle Aubry فى أوبرا باريس Paris Opéra[343].

لقد شرع نابليون، بإيمانه المَزْهوّ بنفسه فى قيادة فرنسا، بل قيادة كل أوربا كما لو أنها جيش ضخم يقوده، بإرادة قوية هائلة. فى الكثير من النواحى، نابليون هو آخر الحُكّام المطلقين المستنيرين enlightened absolutists: فريدريك فرنسى الكبير French Frederich the Great. ولكنه أيضًا أوّلُ الديكتاتوريين الحديثين modern dictators. فمن الناحية التقنية [التكنولوجية]، لم يكن هناك فرق حقيقى بين قيادة فريدريك لجيشه وقيادة نابليون لجيشه، سوى أن جيش نابليون تحرّكَ على نطاق أوسع[387] وبسرعة أكبر. مُنظِّرا العصر العسكريان الكبيران، كارل فون كلاوزفيتز Carl von Clausewitz وأنطوان أنْرى دو جومينى Henri de Jomini-Antoine ، استخلصا دروسًا مختلفة من نجاح نابليون. ففيما يرى كلاوزفيتز، تكمن عبقرية نابليون فى مقدرته على تركيز قواته بسرعة فى مركز ثقل (Schwerpunkt) الخَصْم، وإلحاق الهزيمة به فى معركة حاسمة، هى المعركة الرئيسية Hauptschlacht. وفيما يرى جومينى، يكمن المفتاح الرئيسى فى

---

[387]وذلك عندما رأى كارل فون كلاوزفيتز Carl von Clausewitz لأول مرةٍ سلوكَ حامل الراية فى معركة فالمى Battle of Valmy عام 1792، ووجد أن 64 ألف رجل فى جانبٍ يقاتلون 30 ألفًا على الجانب الآخر، فى معركة استمرت يومًا واحدًا. وبحلول عام 1813، عندما شارك كلاوزفيتر بوصفه قائدًا عامًا فى معركة لايبزيج Battle of Leipzig، كان 365 ألف رجل يقاتلون 195 ألفًا في معركة استمرت ثلاثة أيام - المؤلف.

قدرة نابليون على استغلال مزايا الخطوط الداخلية المتفوّقة فى العملية (خطوط العمليات lignes d’opérations).

لقد اعتقد جومينى أن نابليون يُطبّق مبادئ عالمية فى الحرب[344]. على حين رأى كلاوزفيتر أن أسلوبَ نابليون فى الحرب مخصوصٌ تاريخيًا بسبب الطريقة التى استغل بها النزعة القومية الشعبية popular nationalism التى أطلَقت لها العنانَ الثورةُ الفرنسية[345]. فى رواية «الحرب والسلام» War and Peace، المنشورة بعد ثمانية وأربعين عامًا من وفاة نابليون فى المنفى على أرض جزيرة سانت هيلينا St Helena البائسة جنوب الأطلنطى، سَخَرَ ليو تولستوى Leo Tolstoy من مطالب نابليون الإمبراطورية. كيف أمكن لرجل واحد أن يرسل مئات الآلاف من الرجال من فرنسا إلى روسيا، وأن يقذف بحيوات ملايين آخرين فى الفوضى والاضطراب؟ لقد فعل نابليون ذلك بِالضبط. كانت المشكلة أن نابليون - لو استثنينا زخارف الحُكم الشرعى التى تَسَتّرَ بها حين استولى على شعارات الممالك المصرية والرومانية و الهابْسبورجية ورموزها - لم يُحقِّق الشىءَ الوحيد الذى تعتمد عليه أنظمة الحُكم الهَرَميّة (وتتمسك به)، ألا وهو: الشرعية.

23

النظام المستعاد

يُعْتَقَدُ بوجه عام أن عصرنا لديه مَيْلٌ نحو الإلغاء وإلحاحٌ عليه. وتتمحور دلالة هذا الإلغاء حول إنهاء ترابط المؤسسات ووحدتها التى استمرت منذ العصور الوسطى... ومن هذا المنبع نفسه تتولّدُ رغبةٌ لا تُقاوَم فى تطوير أفكار ومؤسسات ديمقراطية كبيرة، تتسبّبُ بالضرورة فى التغييرات الكبيرة التى نشهدها.

يُعَدُّ مقالُ ليوبولد فون رانكه[388] Leopold von Ranke المنشور عام 1833 عن «القوى العظمى» فى أوربا عملا ً مؤثِرًا بقوةٍ فى تأريخ القرن التاسع عشر. فإذ بينما ظل العديد من معاصريه مقتنعين بأن الطاقاتِ الثوريةُ التى اجتاحت أوربا من الإصلاح الألمانى إلى الثورة الفرنسية عَصيّةٌ على التأطير، رأى رانكه أن نظامًا دوليًا جديدًا يتشكل، سيكبح هذا المَيْلَ الذى يبدو شاملا ً نحو الإلغاء. يستند هذا النظام إلى ما أسماه اتحادًا خماسيًا بين خَمْس قوى عظمى هي: النمسا، بريطانيا، فرنسا، بروسيا، روسيا.

وقد بدأ هذا النظام فى الظهور أثناء القرن الثامن عشر، ولكنه اصطدم بمحاولة نابليون السيطرة على أوربا. ثم مع هزيمته أمكن استكمال هذا الا تحاد الخماسي:

قدّم قرنُنا نتائج أكثر إيجابيةً، بعيدًا عن مجرد إرضاء نفسه بالتصفية والإ لغاء. فقد اكتمل فيه التحرُّر العظيم، لا بمعنى التصفية بل بمعنى البناء المُوحِّد. فلم يَكْتَفِ بأن أنشأ القوى العظمى فى المقام الأول، بل تجدّدتْ فيه مبادئُ جميع الدول، والدين والقانون؛ كما نَشّطَ مبدأَ الدولة المستقلة... بهذا الصنيع وحده تكمن سمةُ عصرنا المميزة له... [مع الدول والقوميات] يعتمد اتحادُ الكلّ على استقلال كل دولة أو قومية... وأيةُ هيمنة نَشِطَة حاسمة لدولة على أخرى ستؤدّي إلى انهيار الدول الأخرى. ودَمْجُ الدول معًا سيؤدّي إلى تدمير جوهر كل دولة. أما من خلال التطوير المنفصل والمستقل فسينبثق الانسجام[346].

توازن القوى الجديد والمستقر هذا، الذى ابتكره رجالُ الدولة باجتماعهم فى مؤتمر فيينا، كان حقيقةً معترفًا بها عالميًا تقريبًا منذ زمن رانكه. يقول هنرى

---

[388]ليوبولد فون رانكه: (1795 - 1886)، مؤرّخ ألمانى ينتهج الفلسفةُ الوضعية الحديثة. وَضَعَ العديدَ من المعايير للكتابات التاريخية اللاحقة - المترجم.

كيسنجر Henry Kissinger فى كتابه الأول، «عالمٌ مُسْتعاد» A World Restored إن مرحلة السلام النسبى التى تمتعت بها أوربا بين عامىْ 1815 و 1914 كانت بفضل إجراء كبير هو «الشرعية المقبولة عمومًا» لنظام القوى العظمى الخَمْس[347].

وطبقًا للإيضاح الذى يقدِّمه كيسنجر، تحَقّقَ هذا الإنجازٌ بفضل ديبلوماسييْن موهوبيْن: الأمير مترنيتش Prince Metternich وزير الخارجية النمساوى، و اللورد كاسِلْريه Lord Castlereagh نظيره البريطانى. هدف مترنيتش - وهو إعادة بناء نظام شرعى تكون فيه الليبراليةُ Liberalism نفسُها غيرَ شرعية - اختلف جوهريًا عن هدف كاسِلْريه، الذى استهدف فى الأساس وَضْعَ مخطط لتوازن القوى تلعب فيه بريطانيا دور «رُمّانة الميزان» balancer[348].

السببُ الحاسم لنجاحهما وفشل نابليون هو عَجْزٌ نابليون عن إدراك حدوده وتثبيت موقفه عقب زواجه من ابنة إمبراطور النمسا[349]. وتمثّلَ التحدِّي الكبير الذى واجه مترنيتش وكاسِلْريه فى ظهور القيصر ألكسندر الأول[389] Tsar Alexander I بوصفه ثوريًا محتملا ً، يتطلع إلى أن يكون «حاكم أوربا» عقب هزيمة نابليون فى روسيا. كانت النتيجة النهائية نوعًا من النجاح التراجيدي. ففى نهاية المطاف، لا يمكن لبريطانيا أن تلتزم بتأييد نظام مُناهِض لأوربا الثورية من النوع الذى تطلع مترنيتش إلى إيجاده، والذى شَجّعَ القيصرَ على الاعتقاد بأنه من بنات أفكاره. الأزمات السياسية فى إسبانيا ونابولى، ولاحقًا فى بيدمونت Piedmont [أحد أقاليم إيطاليا]، رآها مترنيتش مخاطر تُهدِّدُ النظامَ الجديد؛ أما البريطانيون فرأوها مجردَ مصاعب محلية صغيرة، ربما يكون التدخل فيها مساويًا لعدم توازن ذلك النظام نفسه تمامًا[350].

فى مؤتمر آخر انعقد فى تروباو Troppau [حاليًا أوبافا فى النمسا]، استطاع مترنيتش أن يشرح «معركته ضد القومية والليبرالية» - المحكوم عليها بـ الفشل - بوصفها مشروعًا أوربيًا بدلا ً من أن يكون نمساويًا[351]. وقد رأى كاسِلْريه بوضوح شديد أن روسيا على استعداد للتدخُّل - بالقدر نفسه - إلى جانب القومية إذا وُجِّهَتْ ضد الإمبراطورية العثمانية، كما هو حاصل فى البلقان Balkans. فى يوم 12 أغسطس عام 1822، كاسِلْريه، المتضجِّرُ من النقد اللاذع المُوجّه له من الويجيين Whigs والراديكاليين Radicals، و اليائسُ من ثقله الذى لا يطاق على كاهليه، انتحر بقطع شريانه بسكين جيب صغير. كلُّ ما تبقى بعد مؤتمر فيينا «شرعيةُ المبدأ» - المناهِض للثورة ولفرنسا

---

[389]ألكسندر الأول: (1777 - 1825)، قيصر روسيا الذى سمح باستيراد الكتب من أوربا وإنشاء المطابع الخاصة في إطار عملية تحديث شاملة لجهازه الإداري.

معًا - بوصفه قاعدة «التحالف المقدس» بين النمسا، وبروسيا، وروسيا[352].

ولكن فكرة توازن القوى لم تمت بانتحار كاسِلْريه. وعلى الرغم من وجود «التزام قاريٍّ» من جانب بريطانيا على فترات متقطِّعة فى القرن التالى، فقد كان كافيًا - حتى عام 1914 - لمَنْع أية قوة عظمى فى القارة من تحدِّى شرعية الاتحاد الخماسى الأساسية، كما فعلت فرنسا فى ظل حُكْم نابليون. لقد اعتمد الاستقرار الأوربى فى جوهره على التوازن بين أربع قوى عظمى قارّية، حفظته بريطانيا بتدخُّلات دبلوماسية أو عسكرية من حين إلى آخر. وبعبارات كيسنجر، بريطانيا هى رُمّانة الميزان. والنتيجةُ نظامٌ أوربىٌّ دام حتى نهاية القرن. سقوط أوتو فون بيسمارك[390] Otto von Bismarck وعدم تجديد معاهدة إعادة التأمين السرّى[391] Secret Reinsurance Treaty بين ألمانيا وروسيا - «الخيط الأهم المُنْسَلّ من قماشة نظام التحالفات التداخلية لدى بيسمارك»[353] - هما اللذان جعلا النظامَ جامدًا إلى درجة الهشاشة، بل قابلية الاحتراق[354].

وبطبيعة الحال، قامت البحوث اللاحقة بتعديل هذه الصورة بطرق عديدة. جادل البعض بوجود «تحوُّل» جوهرى فى السياسة الدولية، إذ افترضت القواعدُ القديمة أن الصراع والتنافس أخليا السبيل أمام قواعد جديدة تطمح إلى التناغم وحالة التوازن[355]. وأصرّ آخرون على أن العلاقات القديمة الموسومة بالحقد قد استمرّت؛ و«المصلحة الذاتية الضيقة» فقط هى التى عملت على تفادى نشوب حرب واسعة النطاق[356]. ولكن تبقى النقطة الحاسمة، ألا وهى أن هَرَميّةً جديدة أُنشِئتْ فى فيينا رتّبَت «القوى العظمى» - أولاً الأ

---

[390] أوتو فون بيسمارك: (1815 - 1898)، رجل دولة وسياسى بروسِّى ألمانى، شغل منصب رئيس وزراء مملكة بروسيا بين عامىْ 1862 و1890، وأشرف على توحيد الولايات الأ لمانية وتأسيس الإمبراطورية الألمانية أو ما يُسمّى «الرايخ الألمانى الثانى»، وأصبح أولَ مستشار فى عام 1871. عُرفَ بلقب «المستشار الحديدى»، إذ استعمل بكل مهارة إستراتيجية توازن القوى للحفاظ على ما حققته القيصرية الألمانية من مكاسب فى أوربا. عمل على إحلال السلام للحيلولة دون إثارة حرب تتمكنُ فيها فرنسا، بعد إيجاد حلفاء لها، من استعادة مقاطعتى الألزاس واللورين، فسعى إلى عزل فرنسا عن بقية الدول الأوربية، وبخاصة عن النمسا وروسيا حتى لا يضطر لاحقًا إلى خوض حرب على جبهتين مع روسيا ومع فرنسا. قام فيلهلم الثانى قيصر الإمبراطورية الألمانية، أو غليوم الثانى وفق المصادر العربية، بعزله عام 1890 - المترجم.

[391] معاهدة إعادة التأمين السرى: اتفاقية سِرّية بين ألمانيا وروسيا، كانت جزءًا من شبكة تحالفات بيسمارك المعقدة والمبتكرة لحفظ السلام فى أوربا والحفاظ على هيمنة ألمانيا الا قتصادية والدبلوماسية والسياسية. نَصّتْ على أن يظل كل طرف منهما على الحياد إذا انخرط الطرف الآخر في حرب مع قوة عظمى ثالثة – المترجم.

أربعة المنتصرون فى واترلو Waterloo، ثم (بعد عام 1818) المنتصرون ومعهم فرنسا المهزومة - بغضّ النظر عن الدول الأقل قوةً[357]. ومن ثمّ، ألزمت المادةُ السادسة من التحالف الرُباعى[392] Quadruple Alliance (نوفمبر عام 1815) الموقِّعين بعقد اجتماعات دورية «بغرض التشاور فى مصالحهم، أو النظر فى التدابير والإجراءات... التي يُرَاعَى فيها أكبرُ إفادة لأغراض الدول وازدهارها، والحفاظ على السلام في أوربا»[358].

ربما تشكّتْ إسبانيا وتذمّرتْ بافاريا، ولكنهما لم تمتلكا ما يفعلانه. وقد حذّرَ كاسِلريه من أن تصبح القوى العظمى «مجلسًا أوربيًا لإدارة شؤون العالم». وقد يقلق فريدريك جنتس Friedrich Gentz، سكرتير مترنيتش، من أن هذه «الديكتاتورية» الجديدة ربما تصبح «مصدرًا للتعسُّف والظلم وإزعاج الدويلا ت الأقل مكانة»؛ وهو التخوُّف الذى شاركه فيه أيضًا اللورد الشاب جون رَسِل[393] Lord John Russell. ولكن قادة القوى العظمى اعتادوا تدريجيًا على ممارسة انسجام جماعى[359]. وكما يقول جنتس، بالنظر إلى عام 1815، وَحّدَ نظامُ المؤتمر [الكونجرس]:

كلّ الدول فى اتحاد تحت إشراف القوى العظمى... وتخضع الدول من الفئة الثانية والثالثة والرابعة فى صَمْتٍ، ودون أى شرط سابق، للقرارات التى تتخذها بشكل مشترك القوى الغالبة؛ لقد بدا أن أوربا تُشكِّلُ فى النهاية عائلةً سياسيةً كبيرةً، مُتّحِدةً برعاية مَجْمَع حكماء من إنشائها[360].

وحتى إذا لم يوجد إجماعٌ على بعض القضايا - فكاسِلريه لا يُؤيّد إستراتيجية مترنيتش المُناهِضة للثورة - فثمة توافق ضمنى على مقاومة أى محاولة مستقبلية للهيمنة من جانب طرف واحد والحيلولة دون نشوب حرب شاملة[361]. وبطبيعة الحال، يَتبيّنُ عند الفحص الأدق أن النظامَ أعقدُ وأكثر تطوُّرًا مما كان يعنيه رانكه بالاتحاد الخماسى. فالإمبراطورية العثمانية أكبر من مجرد موضوع سلبى فى سياسة قوة عظمى؛ وهذا على وجه الدقة ما جعل «المسألةُ الشرقية» Eastern Question عسيرةً (وبخاصة مستقبلها)[362].

---

[392] التحالف الرُباعى: معاهدة وَقّعتها فى باريس يوم 20 نوفمبر عام 1818 القوى العظمى، وهى: بريطانيا العظمى، والنمسا، وبروسيا، وروسيا. جدّدوا فيها استعمالَ الأساليب التفاوضية فى العلاقات الدولية الأوربية. تشكلَ هذا التحالفُ لأول مرة فى عام 1813 لمواجهة فرنسا أثناء حُكم نابليون بونابرت - المترجم.

[393] جون رَسِل: (1792 - 1878)، سياسى بريطانى، تولّى رئاسة الوزارة مرتين. يُعَدُّ من كبار ا لأحرار وأول المدافعين عن الإصلاح البرلمانى فى بريطانيا. ساعد على إبقاء بريطانيا على الحياد في الحرب الأهلية الأمريكية - المترجم.

كما نشأت دولٌ جديدة فى القرن التاسع عشر، فبالإضافة إلى الرايخ الألمانى German Reich (أحد الخمسة الكبار الذى تضخّمَ) ومملكة إيطاليا، هناك بلجيكا وبلغاريا واليونان ورومانيا وصربيا أيضًا، الأمر الذى غَيّرَ طبيعةَ الشبكة بأساليب مهمة. لا يمكن لأحد إنكار وجود شىء جديد تأسّسَ، ولا إنكار أنه بدأ يعمل. فخلال قَرْنٍ انْصَرَمَ منذ مستوطنات أوتريخت Utrecht [فى هولندا] (1713 - 1715) حتى انعقاد مؤتمر فيينا [1814 - 1815]، نَشَبَتْ ثلاثة وثلاثون حربًا أوربية شملت بعض القوى الإحدى عشرة المعترف بها فى تلك الفترة أو شملتها كلها (بما فيها إسبانيا والسويد والدنمارك وهولندا وساكسونيا Saxony).

أما على مدى الفترة منذ عام 1815 حتى عام 1914، فنَشَبتْ سبعُ عشرة حربًا من النوع نفسه، ذلك إذا عددنا إسبانيا والسويد قوى عظمى. لقد انخفض احتمال مشاركة أى قوة عظمى فى حرب إلى الثلث تقريبًا[363]. بل نشبت حروبٌ عالمية في القرن الثامن عشر كما نشبت فى القرن العشرين، فحرب السنوات السبع[394] Seven Years’ War هى صراع عالمى حقيقى، ولم تنشب حربٌ عالمية في القرن التاسع عشر.

وبعبارة أخرى، أصبح النظامُ العالمىُّ نظامًا هَرَميًا بشكل واضح، بخمسة محاور تلعب دورًا مهيمنًا. وتترابط هذه العُقدُ الخَمْسُ معًا بتنويعةِ مُرَكّباتٍ مختلفة، بل من الممكن أن تتقاتل فيما بينها، ولكنها لم تدخل كلها فى حرب فى الفترة بين عامىْ 1815 و1914. وعلى الرغم من عدم استقرار النظام بحيث يتجنّبُ الحربَ تمامًا، فإن الصراعات فى الفترة بين واترلو[395]

---

[394]حرب السنوات السبع: جرت معاركها بين عامىْ 1756 و1763، شاركت فيها بريطانيا وبروسيا ودولة هانوفر ضد فرنسا والنمسا وروسيا والسويد وسكسونيا.

ثم دخلت إسبانيا والبرتغال فى الحرب عندما هوجم أحدُ جيوش المقاطعات الهولندية المتحدة فى الهند. امتد نطاق المعارك من أوربا حتى أمريكا والهند. وهناك سببان رئيسيان للحرب هما: المنافسة الاستعمارية بين بريطانيا وفرنسا فى أمريكا؛ النضال فى سبيل السيطرة والنفوذ في ألمانيا التي لم تكن دولة موحّدة آنذاك.

انتهت الحرب بعقد معاهدة باريس عام 1763 التى ثبّتتْ مركزَ بروسيا الجديد بوصفها دولة عظمى، وجعلت بريطانيا الدولةَ الاستعمارية الكبرى فى العالم على حساب فرنسا - المترجم.

[395]واترلو: معركة فاصلة يوم 18 يونيو عام 1815 فى قرية واترلو قرب بروكسل عاصمة بلجيكا، وهى آخر معارك الإمبراطور الفرنسى نابليون بونابرت الذى هُزِمَ فيها هزيمةً غير متوقعة، الأمر الذي جعل الإنجليز يصفونه فيما بعد بالإمبراطور سيّئ الحظ - المترجم.

Waterloo والمارن Marne[396] كانت أقل تدميرًا بكثير من الصراعات التى سبقت هذه الفترة والتى تلتها. وحتى أكبر حرب أوربية فى القرن التاسع عشر - وهى حرب القرم[397] Crimean War (1853 -1856)، التى تبارت فيها بريطانيا وفرنسا ضد روسيا - كانت أصغر نطاقًا من الحروب النابليونية. أضِفْ إلى هذا أن القوى العظمى تداولت إحداها مع الأخرى أكثر مما تصادمت. فبين عامىْ 1814 و1907، انعقدت سبعةُ مؤتمرات وتسعةُ عشر اجتماعًا بين القوى العظمى[364].

صارت الدبلوماسيةُ، التى تخلَّلتها حروبٌ صغيرة، حالةَ الأمور الطبيعية، فى تباين ملحوظ مع العقدين السابقين على عام 1815، حين كان العكسُ تمامًا هو القاعدة. وكما سنرى، لن يكتمل تفسيرٌ لأصول الحرب العالمية الأولى إذا فُشِلَ في إيضاح أسباب توقّف هذه الحالة في عام 1914.

---

[396]المارن: معركة المارن الأولى بين القوات الألمانية من ناحية، والقوات الفرنسية و البريطانية من ناحية أخرى، على نهر المارن بين يومىْ 6 و12 سبتمبر عام 1914، فى الحرب العالمية الأولى، انتهت بانتصار القوات الفرنسية والبريطانية - المترجم.

[397]حرب القرم: تُسَمّى أيضًا «الحرب الشرقية»، اندلعت بين الإمبراطورية الروسية والدولة العثمانية بسبب أطماع روسيا الإقليمية فى شِبْه جزيرة القرم التى كانت مسرح المعارك و المواجهات. وفى عام 1854، انضمت مصر وتونس وبريطانيا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية، انتهت الحرب يوم 30 مارس 1856 بهزيمة الروس وتوقيع اتفاقية باريس - المترجم.

24

عائلة زاكس - كوبورج - جوتا

بعد نابليون، تطلّبَ إعادةُ النظام لأوربا أكثرَ من مجرد هَرَميّة ديبلوماسية جديدة تضع خَمْسَ دول فوق بقية الدول. إذ تحظى بالأهمية نفسها الطريقةُ التى أُعيد بها إضفاءُ الشرعية على مؤسّسة المَلَكيّة نفسها. فى هذه العملية [السيرورة]، غالبًا ما تُجوهِلَ الدورُ الذى لعبته شبكاتٌ من نوع قديم، وعلى الأخص أنساب العائلات المَلَكيّة الأوربية المتشابكة. إذ لعبت إحدى العائلات دورًا حاسمًا فى التوفيق بين مبدأ الوراثة والأفكار الجديدة الخاصة بالحُكم الدستورى التى اعتنقها العديد من ليبراليى القرن التاسع عشر. كوبورج Coburg هى إحدى تلك الدول الألمانية الصغيرة التى تهَدّدَها الانقراضُ عندما اجتاح نابليون الإمبراطوريةَ الرومانية المقدسة Holy Roman Empire وأنشأ كونفدراليةَ الراين[398] Confederation of Rhine. ومع ذلك، تمكّنَ أبناءُ الأرملة الدوقة أوجَسْتا Duchess Augusta من النجاح فى توجيه مسار دقيق بين فرنسا وروسيا، وكُوفِئوا على النحو الواجب عندما أُعِيدت الدوقيةُ إلى ابنها الأكبر، إرنست Ernest، بضغط روسى، فى عام 1807. وفيما عدا ابنة واحدة (صوفى Sophie، التى تزوجت الكونت مينسدورف Count Mensdorff)، تزوّجَ جميعُ أولاد أوجَسْتا ملوكًا أو حققوا مكانةً مَلَكيّة لأنفسهم أو ضمنوها لأولادهم.

إحدى بناتها تزوّجتْ شقيق ألكسندر الأول إمبراطور روسيا؛ والأخرى دوق فورتِمبيرج Württemberg [جنوب غرب ألمانيا]؛ والثالثة تزوّجتْ دوق كِنْت Kent، أحد أشقاء جورج الرابع George IV ملك بريطانيا العظمى. أما أصغر أبناء أوجَسْتا، ليوبولد[399] Leopold، فهو المؤسِّس الحقيقى لآل زاكس - كوبورج. عانى ليوبولد من نكسة شديدة حين ماتت زوجته الأولى الأميرة شارلوت Princess Charlotte، ابنة جورج الرابع، وهى تضع وليدَها فى نوفمبر عام 1817، بعد ثمانية عشر شهرًا فقط من زواجهما. لكن أحواله تبدّلتْ

---

[398] كونفدرالية الراين أو اتحاد دول الراين: تأسّسَ الاتحادُ عام 1806 بعد انتصار نابليون بونابرت فى معركة أوسترليتز على النمسا وروسيا، بهدف تأمين الجبهة الشرقية الفرنسية، تكوّن الاتحادُ في البداية من 16 ولاية ألمانية، ثم انضمّ إليه أخريات - المترجم.

[399] ليوبولد: (1790 - 1865)، أول ملوك بلجيكا، حَكَمَ بين عامىْ 1831 و1865. أسّس لمملكته الحديثة نظامًا برلمانيًا جديدًا، وكان شخصية رئيسية فى الديبلوماسية الأوربية. تصدّى لهجمات ملك هولندا الذى رفض استقلال بلجيكا، بمساعدة من إنجلترا وفرنسا - المترجم.

بعد قبوله لقب «ملك البلجيكيين» King of the Belgians عام 1831، عقب استخفافه من قبل بفكرة قبول عرش اليونان. ثم توالى عَرْضُ العروشِ على أفراد عائلته، إلى درجة أن «نوبةَ ضحك» أصابت ليوبولد فى عام 1843 حين «أكّدَ لى أمريكى ثرى جدًا وصاحب نفوذ، من نيويورك، أنهم يستشعرون حاجة كبيرة إلى حكومةٍ [كذا فى الأصل] تستطيع حمايةَ الممتلكات، وأن أنظار الكثيرين تتجه نحو المَلَكيّة بدلا ً من حُكم الغوغاء السيّئ الذى رأيناه، وأنه يرغب شخصيًا في أن يشغل فرعٌ من عائلة كوبورج مثل هذا الموقع.

وقد سأل [ليوبولد] ابنةَ أخته، أليس هذا تملُّقًا؟»[365]. كانت ابنةُ أخت ليوبولد الملكةُ فيكتوريا Queen Victoria[400].

وكما ذكرتْ جريدةُ التايمز فى عام 1863، يُبَيّنُ تاريخُ عائلة زاكس - كوبورج «أن نجاحًا واحدًا فى حياة الأمراء يُؤدِّى إلى آخر»[366]. أحفاد أوجَسْتا أميرة زاكس - كوبورج لم يشملوا المَلِكةَ فيكتوريا وزوجَها ألبرت Albert فقط، بل فرديناند Ferdinand الذى تزوّج ملكةَ البرتغال، وابنَ ليوبولد، سَميّه ووريثه فى عرش بلجيكا، أيضًا. كما ارتبط أمراء زاكس - كوبورج بمزيد من الروابط بزواجهم من عائلة أورليانز وآل هابْسبورج[401].

وعلاوة على ذلك، لم يكن ابنُ فيكتوريا وألبرت، البِكرُ، الابنَ الوحيد الذى تزوّج زواجًا مَلَكيًّا: فكل أبنائهما التسعة، عدا واحد، تزوجوا زواجًا مَلَكيًّا. فإلى جانب فريدريك وليام ملك بروسيا، يشمل أصهارُ الملكة فيكتوريا: الأمير كريستيان Prince Christian من شليسفيج - هولشتاين Holstein-Schleswig ، والأمير هنرى من باتِنبرج Henry of Battenberg، الذى أصبح شقيقُه ألكسندر Alexander أميرَ بلغاريا Bulgaria. ويشمل زوجاتُ أبنائها: الأميرةَ ألكساندرا Alexandra من الدنمارك، والأميرةَ مارى Marie ابنة القيصر ألكسندر الثانى Alexander II، وأختَ القيصر ألكسندر الثالث Alexander III. وبحلول الوقت الذى وصل فيه نيكولاس الثانى Nicholas II إلى لندن فى زيارته الأولى لإ نجلترا عام 1893، التأمَ شملُ العائلة فيما يشبه قِمّةً دوليةً:

---

[400]الملكة فيكتوريا: (1819 - 1901)، ملكة بريطانيا العظمى منذ يوم 20 يونيو عام 1837 حتى وفاتها. تنتمى فيكتوريا إلى الأسرة الهانوفرية ذات الأصول الجرمانية. سُمِّيت الملكة فيكتوريا ب«أم أوربا» لأن ذريتها تنتسب إلى معظم الأسر المَلَكيّة والأميرية فى أوربا. ويشترك معها فى هذا كريستيان التاسع ملك الدنمارك الذى نال لقب «صِهْر أوربا» بعد أن تزوجت ابنته الكبرى من إدوارد ابن الملكة فيكتوريا - المترجم.

[401]تزوّجَ ليوبولد الأول إحدى بنات لويس فيليب Louis Philippe، وتزوّج ليوبولد الثانى مارى هينريت Marie Henriette أرشيدوقة النمسا، وتزوّجت أخته شارلوت Charlotte الأ رشيدوق سيّئ الحظ ماكسميليان Maximilian إمبراطور المكسيك لفترة وجيزة - المؤلف.

لقد وصلنا إلى تشارنج كروس Charing Cross [فى لندن] وهناك التقينا ب: العمّ بيرتى Bertie [مستقبَلا ً إدوارد السابع Edward VII]، والعمّة أليكس Alix [ألكساندرا من الدنمارك]، وجورجى Georgie [مستقبَلا ً جورج الخامس George V]، ولويزا Louise وفيكتوريا Victoria وموود Maud [شقيقاته، والأ خيرة منهن ستتزوج الأمير كارل Prince Carl من الدنمارك، ولاحقًا هاكون السابع Haakon VII ملك النرويج]...

وبعد ساعتين، وصل آبابا Apapa [كريستيان التاسع Christian IX ملك الدنمارك] وآماما Amama والعمٌ فالديمار Valdemar [من الدنمارك]. إنها لفرصةٌ رائعة اجتماعُ العديد من أفراد عائلتنا معًا...

وفى الساعة الرابعة والنصف ذهبتُ لرؤية العمّة مارى Marie [زوجة ألفريد Alfred دوق زاكس - كوبورج] فى كلارنس هاوس [مقر إقامة مَلَكى] Clarence House، وتناولتُ الشاي فى الحديقة معهما، ومع دوكى Ducky [ابنتهما: فيكتوريا ميليتا Victoria Melita][367].

عندما تزوّجت دوكى [فيكتوريا ميليتا] من إرنست لويس Ernest Louis، وريثِ الدوقية الكبرى هيسّه - دارمشتات Darmstadt-Hesse فى السنة التالية (انظر الشكل 17)، كان الضيوفُ إمبراطورًا وإمبراطورة، وإمبراطورًا وإمبراطورة مستقبَليين، وملكةً، وملكًا وملكة مستقبَليين، وسبعة أمراء، وعشر أميرات، ودوقيْن، ودوقتيْن، وماركيزًا. كلُّهم كانوا أقاربَ.

وبحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، صار للكوبورجيين أعداءهم. ففى أعقاب تنازل ألكسندر الباتنبرجى [نسبةً إلى باتِنبرج] بوصفه أمير بلغاريا[368]، أمكن لهيربرت فون بيسمارك Herbert von Bismarck أن يسخر من «عشيرة» كوبورج. فقال للقيصر: «فى العائلة المَلَكيّة الإنجليزية وفروعها الأقرب، يوجد تقديسٌ لأصل العائلة المُرَكِز، فالملكة فيكتوريا هى الرئيس المطلق لكل فروع عشيرة كوبورج. إنه ارتباط بالأذناب الذين يُظْهِرون علاقةَ الطاعة من على بُعْد. (وهنا يضحك القيصر من سويداء قلبه)»[369].

ولكن العشيرة صمدت وقتًا أطول أمام سلطة البيسماركيين. ففى عام 1894، كان من دواعى سرور الملكة فيكتوريا أن يلقبها القيصرُ المستقبَلى نيكولاس الثانى ب«الجدّة»، بعد أن خَطَبَ آخر حفيداتها أليكس أميرة هيسّه Hesse[370]. ومع «ويلى» Willy (حفيدها ويليام الثانى William II إمبراطور ألمانيا)، بدا لبعض الوقت كما لو أن أحلام ليوبولد الأول تحققت: حَكَمَتْ عائلة زاكس – كوبورج[371]، من أثينا إلى برلين، ومن بوخارست إلى كوبنهاجن، ومن دارمشتات إلى لندن، ومن مدريد إلى أوسلو، ومن ستوكهلم إلى صوفيا Sofia [عاصمة بلغاريا]، بل فى سان بطرسبرج. ثم عندما وُلِدَ فى عام 1894 مَن

سيكون مستقبَلا ً إدوارد الثامن Edward VIII، أصرّتْ فيكتوريا على أن يُسمّى ابنُ حفيدِها عند التعميد ألبرت Albert - كما لو كان ختمًا على المآثر العائلية:

هذا سيكون سِلسال كوبورج، كما كان فى السابق سِلسَال بلانتاجِنِت[402] Plantagenet، وسِلسال تيوْدَر Tudor (العائد إلى أوين تيودر[403] Owen Tudor)، وسِلسال ستيوارت وبرونزويك العائد إلى جورج الأول[404] George I - هو ابن جيمس الأول وهكذا تكون سلالةُ الكوبورج - للإبقاء على البرونزويك وكلِّ ما سبقها وارتبط بها[372].

---

[402] بلانتاجِنِت: أسرة مَلَكيّة نشأت فى إنجو فى فرنسا، ويَستعمل المؤرّخون الحديثون هذا الاسم للإشارة إلي أربع أسر مَلَكيّة هى: الأسرة الأنجوية التى حملت لقب كونت أنجو؛ الأ سرة بعد خسارة أنجو؛ فرع الأسرة المُسمّى أسرة لانكستر؛ فرع الأسرة المُسمّى أسرة يورك. ارتقت عائلة البلانتاجِنِت عرشَ إنجلترا، منذ عام 1154 بصعود هنرى الثانى إلى العرش، حتى عام 1485 عندما تُوفى ريتشارد الثالث. شهدت إنجلترا عدة تحولات فى ظل حُكم البلانتاجِنِت، انتهت إلى تحديد سلطة الملك بالاستناد إلى نظام عدالة متطوّر. فى أثناء ذلك، تشكلت لإنجلترا هُويّة وطنية متميزة خلال صراعها مع الفرنسيين والإسكتلنديين و الويلزيين والأيرلنديين، وأصبحت اللغة الإنجليزية هى اللغة الأساسية. ثم فى القرن الخامس عشر تحدّى النُبلاء الإنجليز الملك هنرى السادس علنًا. وتنافس فرعان من عائلة بِ لانتاجِنِت هما أسرة لانكستر ويورك - فيما يُعْرَفُ باسم «حرب الوردتين» - على خلافة العرش الإنجليزى، وبلغت المعاركُ ذروتها فى عام 1485. أصبح هنرى السابع - من أسرة لا نكستر - ملكَ إنجلترا الذى تزوج من إليزابيث يورك مُنْهيًا بذلك حرب الوردتين، ومُفْتتحًا حُكم أسرة تيودر. عمل آلُ تيودر على تركيز السلطة الملكية متجنِّبين بذلك أخطاء ملوك أسرة بلانتاجِنِت السابقين. سمح الاستقرار الذى حققوه بقيام عصر النهضة الإنجليزية وظهور بريطانيا الحديثة - المترجم.

[403] أوين تيودر: (1400 - 1461)، أحد أفراد الحاشية الويلزية، تزوّج كاترين أرملة هنرى الخامس، وهو جدّ هنرى السابع مؤسِّس سلالة تيودر. شارك والد أوين وأعمامه فى تمرُّد ضد الحكم الإنجليزى ممهدًا الطريق أمام أسرة لانكستر التى خرج منها هنرى السابع مؤسِّس أسرة تيودر - المترجم.

[404] جورج الأول: (1666 هانوفر ألمانيا - 1727 أوسنابروك ألمانيا)، وَسّعَ نطاقَ مُلكِه فى ألمانيا عبر سلسلة من الحروب الأوربية، وحصل على لقب ناخب هانوفر عام 1707. ثم اعتلى العرشَ البريطانى ليُعَدّ أولَ ملك من عائلة هانوفر الألمانية. تقلّصت السلطاتُ المَلَكيّة في عهده، وانتقلت بريطانيا إلى نظام وزاري حديث يقوده رئيسُ وزراء - المترجم.



هنا موضع الشكل رقم: 17 - بيت زاكس - كوبورج - جوتا. الملكة فيكتوريا وأفراد عائلتها فى كوبورج يوم 21 أبريل عام 1894، تجمّعوا لحضور حفل زفاف الأميرة فيكتوريا ميليتا وإرنست لويس دوق هيسّه الكبير، اثنين من أحفادها الأربعين. الجالسةُ إلى يسار الملكة ابنتُها البِكرية فيكتوريا الأرملة إمبراطورة ألمانيا؛ وعلى يمينها يجلس حفيدُها القيصر ويليام الثانى. و الواقف خلف القيصر، بلحية وقبّعة الرامى، قيصرُ روسيا نيقولاس الثانى الذى خَطَبَ لتوّه حفيدةً أخرى من أحفاد فيكتوريا هى أميرة هيسّه أليكساندرا (أليكس) الواقفة إلى جواره. وخلف القيصر إلى اليسار ابنُ الملكة فيكتوريا البِكرى أمير ويلز ولاحقًا الملك إدوارد السابع. وبين الشخصيات الموجودة فى الصف الخلفى حفيدةٌ أخرى من أحفاد الملكة فيكتوريا هى الأ ميرة ماريا التى ستصبح ملكةَ رومانيا فى عام 1914. وأما الأحفاد الذين لم تشملهم الصورةُ فهنّ ملكاتٌ فى المستقبل لليونان والنرويج وإسبانيا. التقط الصورةَ إدوارد أولينهوث Edward Uhlenhuth.

25
عائلة روتشيلد

المُجادِلُ الفرنسى الذى شَبَّه آل زاكس - كوبورج بآل روتشيلد Rothschilds، فى أربعينيات القرن التاسع عشر[373]، اقترب من الصواب دون أن يعرف. إذ ارتبطت هاتان السلالتان، من جنوب ألمانيا، بعلاقة تكافلية تقريبًا، يعود تاريخها إلى اقتران ليوبولد [ابن دوق] زاكس كوبورج، بالأميرة شارلوت فى عام 1816[374].لقد ارتفع آل زاكس كوبورج، بالمهارة والحظ، إلى القمة أثناء الا ضطرابات النابليونية وما بعدها.

أما آل روتشيلد فانحدروا من أصول أكثر تواضعًا، ثم ارتفعوا إلى القمة أيضًا. بين عامىْ 1810 و1836 تقريبًا، تجاوز أبناءُ ماير أمشيل روتشيلد[405] Mayer Amschel Rothschild الخمسةُ حدودَ جيتو فرانكفورت Frankfurt لإحراز موقع قوة جديد منقطع النظير فى المال العالمى. ورغم وجود أزمات اقتصادية وسياسية عديدة ومحاولات منافسيهم اللحاق بهم، فقد ظلوا يحتلون هذا الموقع عندما مات أصغرهم فى عام 1868؛ وحتى بعد ذلك، لم تتقلص هيمنتهم إلا ببطء. بدا إنجازُهم هذا غيرَ عادى فى عيون معاصريهم، إلى درجة أنهم سعوا إلى تفسيره بعبارات غامضة غالبًا. طبقًا لإحدى الروايات التى يرجع تاريخها إلى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، تدين عائلةُ روتشيلد بثروتها لامتلاكهم «تعويذة عِبْريّة». وقد مَكّنت هذه التعويذةُ ناثان روتشيلد[406]Nathan Rothschild، مؤسِّسَ فرع العائلة فى لندن، من أن يصبح «حُوتَ الأسواق المالية في أوربا»[375].

بدأت تُرْوَى قصصٌ مماثلة فى «مستوطنة اليهود فى بالى الروسية»[407].

---

[405]ماير أمشيل روتشفيلد: (1744 - 1812)، الأب المؤسِّس لعائلة روتشيلد، مَصْرفى ألمانى يهودى. تُوفِّى والدُه وهو فى سن الحادية عشر بعد أن دَرَّبَه على كل ما يتعلق بالصِّرافة. بدأ حياته كاتبًا فى مَصْرف أوبنهايمر، ثم ترقّى حتى أصبح شريكًا جزئيًا فى المَصْرف، ولكنه اهتم بإحياء المؤسّسة الصغيرة التى تركها أبوه، متخذًا من الدِّرْع الأحمر الذى كان يعلقه أبوه على الباب لقبًا للعائلة هو «روتشيلد» التى تعنى بالألمانية «الدِّرْع الأحمر». ترك وراءه خمسةً من الأبناء دَرّبَهم بنفسه تدريبًا جيدًا كى يكونوا من جهابذة المال والذهب - المترجم.

[406]ناثان روتشيلد: (1777 - 1836)، رابع أبناء ماير روتشيلد. قيل إنه علم بهزيمة نابليون فى معركة واترلو قبل الحكومة الإنجليزية، فاستغل المعلومةَ فى تحقيق احتكار سوق البورصة - المترجم.

[407]مستوطنة اليهود فى بالى الروسية: منطقة فى بالى بالإقليم الغربى للإمبراطورية

Russian Pale of Jewish Settlement، قُرْب أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر[376].

لقد صنعت عائلة روتشيلد عهدًا جديدًا. فبحلول أواسط القرن التاسع عشر لم يكن يوجد تركيزٌ للرأسمال المالى أكبر من الذى رَاكمَتْه عائلةُ روتشيلد. فمع أوائل عام 1828، تجاوز رأسُ مالهم مُجتمِعًا رأسمالَ أقرب منافسيهم آل بارينج Barings، بترتيب الحجم. التفسير الاقتصادى الضيق لنجاحهم سيؤكد على الابتكارات التى قدموها لسوق الدّيْن الحكومى العالمى، والوسائل التى رَاكموا بها سريعًا رأسمالهم على نحو سمح لهم بالتوسُّع فى أسواق المال التجارى والسلع والسبائك الذهبية وصناعة التأمين. ومع ذلك، من المهم أيضًا فَهْمُ الهيكل المميز الذى أعطوه لأعمالهم، والذى حَكمَتْه فى الوقت نفسه شراكةٌ عائلية صارمة متعدِّدة الجنسية: «اهتمام مشترك عام» ب«بيوت» تتْبَعُ أصلا ً عائليًا واحدًا فى فرانكفورت ولندن وفيينا وباريس ونابولى. لقد قاوم آلُ روتشيلد، إلى حد ما، قوى الطرد المركزى بالتزاوج فيما بينهم. إذ بعد عام 1824، مَالَ آلُ روتشيلد إلى الزواج من آل روتشيلد. فمن بين إحدى وعشرين زيجة لأحفاد ماير أمشيل بين عامىْ 1824 و1877، حَدَثَ ما لا يقل عن خمس عشرة زيجة بين أحفاده المباشرين. ومع أن الزواج بين أبناء العمومة منتشر فى القرن التاسع عشر - وبخاصة بين عائلات أصحاب الأعمال الألمانية اليهودية - فقد كانت زيجاتهم غير عادية. ذكرَ الشاعر هاينريك هاينه[408] Heinrich Heine أن «آل روتشيلد تناغموا مع بعضهم البعض بطريقة ألفت للنظر». «الغريب أنهم يختارون شركاء الزواج من بينهم، وتُشكِّلُ خيوطُ العلاقات بينهم عُقدًا مُركبة سيصعب على مؤرّخى المستقبل حلُها»[377] وتدل إشارات الثقة بالنفس من قبيل «عائلتنا المَلَكيّة» على أن آل روتشيلد أنفسهم كانوا واعين بتناظرهم مع آل زاكس كوبورج[378].

ومن المهم بالقدر نفسه، السرعةُ التى بَنَى بها آلُ روتشيلد شبكتَهم؛ فبالإضافة إلى وكلائهم، والمُموّلين الأقل ارتباطًا بهم فى جميع أنحاء أوربا، وُجِدَ «الأ صدقاءُ فى أعلى المناصب» السياسية. يكتب سالومون Salomon فى أكتوبر عام 1815 قائلا ً: «لعلك تعرف جيدًا، يا عزيزى ناثان، ما تعَوّدَ الوالدُ على قوله عن الالتصاق برجل فى الحُكْم»[379]. ومرةً أخرى: «ولعلك تذكر مبدأ الوالد القائل بضرورة الاستعداد لعمل أى شىء يجعلك على علاقة بشخصية حكومية كبيرة»[380]. ولم يتركهم ماير أمشيل فى حَيْرةٍ من أمرهم بشأن أفضل

الروسية، سُمِحَ لليهود بأن يقيموا فيها، وحُظِرَ عليهم أيةُ إقامة دائمة أو مؤقتة فى أىٍّ من مدن بالي الأخرى. ظل الوضع هكذا منذ عام 1791 حتى عام 1917 - المترجم.

[408]هاينريك هاينه: (1797 - 1856)، شاعر ألماني ينتمي إلى الرومانسية - المترجم.

طريقة للتودُّد إلى مثل هؤلاء السياسيين: «علمنا المرحومُ والدُنا أنه إذا دخل شخص رفيع المنصب فى شراكة مالية مع يهودى فسينتمى إلى اليهود»[381].
فكان من بين أهم عُمَلاء روتشيلد في تلك الفترة:

كارل بودِروس Karl Buderus المسؤول المالى الأكبر لناخب هيسّه - كاسيل Cassel-Elector of Hesse ؛ كارل تيودور فون دالبِرج Carl Theodor von Dalberg المُتنوّر السابق أمير كونفدرالية الراين الكبير من عام 1806 حتى عام 1814؛ ليوبولد [ابن دوق] زاكس كوبورج قرينُ الأميرة شارلوت ولاحقًا ملك بلجيكا؛ جون تشارلز هيريز John Charles Herries المفوض البريطانى الكبير فى أكتوبر عام 1811 ولاحقًا وزير الخزانة ورئيس مجلس التجارة Board of Trade (لفترة وجيزة)؛ تشارلز ويليام ستيوارت Charles William Stewart ماركيز لنْدندِرى Londonderry الثالث وشقيق اللورد كاسِلْريه؛ دوق أورليانز Orléans ولاحقًا لويس فيليب Louis Philippe ملك فرنسا؛ المستشار النمساوى الأمير مترنيتش؛ الأمير إسترهازى Esterházy سفير النمسا فى لندن.

إحدى الطرق الحاسمة التى تودّدَ بها آلُ روتشيلد للنُّخْبة السياسية (وتفوّقوا بها على منافسيهم فى الأعمال والبيزنس) هى امتلاكهم شبكة معلومات واتصالات استثنائية. فى تلك الفترة، كانت الخدمات البريدية بطيئة وغير آمنة: الخطابات المُرْسَلة من باريس إلى فرانكفورت تستغرق ثمانية وأربعين ساعة فى عام 1814؛ أما البريد من لندن فيستغرق أسبوعًا ليصل إلى فرانكفورت؛ وتستغرق الخدمة من باريس إلى برلين ثمانية أيام فى عام 1817[382]. سرعان ما استغنى الأخوة المُتراسِلون عن البريد، واعتمدوا على سُعاتهم الخصوصيين، بمَن فيهم وكلاؤهم فى دوفر Dover [بلدة ساحلية جنوب شرق إنجلترا] الذين سُمِحَ لهم باستئجار مراكب خاصة بأعمال روتشيلد التجارية[383].

واعتُقِدَ لوقتٍ طويل أن ناثان روتشيلد هو أول رجل فى لندن عرف أخبار هزيمة نابليون فى معركة واترلو، بفضل سرعة تمَكّن ساعى روتشيلد من نقل البيان الاستثنائى الخامس والنهائى (الصادر فى بروكسل Brussels [عاصمة بلجيكا] أثناء ليلة 19/18 يونيو) عبر دُنْكيرك Dunkirk [ميناء شمال فرنسا] وديل Deal لإيصاله إلى نيوكورت New Court بعد أربع وعشرين ساعة تقريبًا، وقبل أن ينقله الميجور هنرى بيرسى Major Henry Percy إلى الإيفاد الرسمى فى ولِينجتن Wellington إلى الكابينت Cabinet[384]. بستٍّ وثلاثين ساعة على الأقل.

هذه القصة أحاطتها ظلال الشك، ولكن تبقى حقيقة أن روتشيلد تلقى الأخبار

مبكرًا بما يكفى - حتى لو كان يوم 21 يونيو - «ليستفيد جيدًا بالمعلومات الباكرة... عن النصر». أَرْسَلَ تقريرَ نتائج المعركة فى وقت لاحق على ذلك اليوم مُراسِلٌ لندن إلى جريدة كالِدونيان ميركورى Caledonian Mercury [الإ سكتلندية]، وذَكرَ أن مصدره «الموثوق شخصٌ لديه رسالة من جِنْت Ghent [مدينة بلجيكية شمال غرب بروكسل]، تسلَّمها روتشيلد [كذا]، سمسار بورصة كبير معلوماته هي الأفضل دائمًا»[385].

وبحلول أواسط عشرينيات القرن التاسع عشر، استخدم آلُ روتشيلد سُعاتهم الخصوصيين بشكل منتظم: فى شهر ديسمبر وحده من عام 1820، أرسل بيت روتشيلد بباريس ثمانية عشر ساعيًا إلى كِليه Calais [بلدة شمال فرنسا] (ومنها إلى لندن)؛ وثلاثة إلى ساربروكن Saarbrücken [أقصى غرب ألمانيا مع الحدود الفرنسية]؛ وواحد إلى بروكسل؛ وواحد إلى نابولى[386]. ومنذ عام 1824، استخدم الأخوةُ الحمامَ الزاجل أيضًا، ولم يعتمدوا عليه إلا فى بعض ا لأوقات.

كان لتطوير شبكةِ اتصالٍ سريعة وآمنة عددٌ من الفوائد. أولا ً، أتاحت لآل روتشيلد تقديم خدمة بريدية ممتازة للنُّخْبة الأوربية. ففى لندن عام 1822، تلقى النبيل دو شاتوبريون de Chateaubriand «بَرْقيّة مهمة» من دوقة ديوراس Duras، عبْر «مستشاره من آل روتشيلد»[387].

وبحلول عام 1823، صار «تلقِّى الأخبار من روتشيلد» جزءًا لا يتجزأ من روتين الكونتيسة نَسِلرود Nesselrode[388].

ومن أبرز المتحمسين لخدمة روتشيلد البريدية بعد عام 1840 الشابةُ الملكة فيكتوريا وقرينُها الأمير ألبرت[389]. ثانيًا، عَنَتْ خدمتُهم البريدية السريعة أيضًا أن آل روتشيلد يحتلون موقعًا يُمكِّنهم من تقديم خدمة أخبار فريدة من نوعها. لقد تمكّنوا من نقل الأحداث السياسية الرئيسية، وكذلك المعلومات السرّية والخصوصية، من مدينة إلى أخرى، قبل القنوات الرسمية. وفى عام 1817، سعى جيمس James إلى نقل تفاصيل الأنباء الدبلوماسية الفرنسية من باريس إلى لندن، بحيث تصل إلى شقيقه ناثان قبل وصولها إلى المفوض الفرنسي[390].

وفى عام 1818، «أصاب» الدبلوماسى البريطانى المُوْفَدُ إلى مؤتمر إيكس[409] Aix Congress «كثيرًا» حين استخدم «معلومات ناثان الصحيحة

---

[409] مؤتمر إيكس: عُقِدَ عام 1818 بشأن سحب القوات من فرنسا بعد هزيمة نابليون. وفيه طلب الممثل الفرنسى انضمام فرنسا إلى القوى الأربع الكبار فى ذلك الوقت، فوافقوا مُشكِّلين بذلك اتحادًا خماسيًا من القوى العظمى الخَمْس - المترجم.

بشأن تفاصيل جانبنا ومعرفته بالأشخاص الذين سيُشَكِّلوه، وأعتقد أن بعض أسمائهم لم تُرشّح فى وزارة الخارجية «Foreign Office»[391] وعندما اُغْتيل الدوق دو بيرى duc de Berry (ثالث أبناء الملك الفرنسى، تشارلز العاشر Charles X) فى فبراير عام 1820، كان آل روتشيلد هم الذين أذاعوا القصةَ فى فرانكفورت وفيينا[392]. وعندما ماتت الأميرة شارلوت فى عام 1821، كان آل روتشيلد أيضًا هم الذين نشروا الأخبار ونقلوها إلى باريس[393].

رئيس الوزراء جورج كانينج George Canning لم يُعجِبه انفرادُ آل روتشيلد دائمًا بنشر أخبار تقارير السفارة البريطانية، لكنه لم يستطع تجاهل موضوعات مهمة توفّرت لشبكة معلومات روتشيلد مثل الاستسلام التركى فى أكِرْمِن Ackerman[394].

نقلَ آلُ روتشيلد أيضًا أخبارَ ثورة يوليو عام 1830 الفرنسية إلى اللورد أبردين Lord Aberdeen فى لندن، وإلى مترنيتش فى بوهيميا Bohemia [شمال النمسا][395].

ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يبدأ رجال الدولة والديبلوماسيون أنفسُهم فى استخدام شبكة اتصالات روتشيلد، لأنها أسرع من أنظمة الإرسال الرسمية المستخدمة فى نقل المراسلات الديبلوماسية، ولأن الرسائل ذات الطبيعة غير السرّية يمكن إرسالها من حكومة إلى حكومة بطريقة غير مباشرة عبر المراسلات الخاصة لدى الأخوة روتشيلد.

وبطبيعة الحال، إذا اعتمد آل روتشيلد فى تبادل المعلومات على بيوتهم الخمسة فقط، لَكان النظامُ جِدّ محدود. إذ سرعان ما طَوّروا مجالاً امتدّ إلى أبعد من قواعدهم الأوربية الأصلية. ولأنه لا أحد من أحفاد ماير أمشيل رغب فى (أو سُمِحَ له) بإقامة «فرع عائلى» جديد، فقد تمّ التطوير ببناء مجموعة وكلاء مُختارين، وُظِّفوا بالأجر، للاعتناء بمصالح البنك فى أسواق أخرى: مدريد وسان بطرسبرج وبروكسل بشكل أساسى، ثم نيويورك ونيو أورليانز وهافانا Havana والمكسيك وسان فرانسيسكو لاحقًا. وقد شكّلت خطوطُ الاتصال مع هؤلاء الوكلاء شبكةً معلوماتية وتجارية جديدة[396].

رجال من أمثال أوجست بِلمونت August Belmont فى نيويورك أو دانيل فايسفايلر Daniel Weisweiller فى مدريد، تمتّعا حتمًا باستقلالية كبيرة بسبب بُعْدهم ومعرفتهم المحلية الأكبر؛ ولكنهم ظلوا دائمًا وكلاء روتشيلد أولاً وقبل كل شىء، ولم تُتَحْ لهم فرصة نسيان ذلك. لم تكن هذه الشبكةُ شبكةَ نفوذ رسمى فقط؛ بل كانت بالقدر نفسه من الأهمية شبكة روابط، أكبر وأكثر مرونةً، بالبنوك الأخرى وسماسرة البورصة والبنوك المركزية وصحف الشؤون المالية.

لم يتباطأ المعاصرون عن إدراك انبثاق نوع جديد من السّطْوة المالية. ففى عام 1826، زَعَمَ الليبرالى الفرنسى فنسنت فورنييه فيرنِىّ Vincent Verneuil-Fournier ، ضمن مزاعم عديدة، بأن الحكومة الفرنسية صارت دُمْيةً فاسدةً فى أيدى «أرستقراطية مالية أكثر إجداباً وأقل نُبْلاً من كل الأرستقراطيات»[397]. ثم بعد عامين، قدّمَ النائب توماس دُنْكمب Thomas Duncombe في مجلس العموم البريطاني شكوى بخصوص:

سَطْوة جديدة وهائلة، لم تُعْرَفْ حتى هذه الأيام فى أوربا: سيّد ذو ثروة غير محدودة، يتباهى بأنه حَكَمُ السلامِ والحربِ، وأن رصيد الدول يعتمد على إيماءة منه؛ وأن مراسليه فى كل مكان بلا عدد؛ وأن رُسَله يسبقون رُسَلَ الأمراء السادة، ورُسَلَ السيادات المطلقة؛ وأن وزراء الدولة هو الذى يدفع لهم. وبتوغّله في مجالس وزراء أوربا القارية، يطمح إلى السيطرة علينا...[398].

فى أواسط ثلاثينيات القرن التاسع عشر، نشرت مجلةٌ أمريكية تقييمًا مماثلاً، وإن بعبارات أقل ازدراء: «آل روتشيلد معجبون بصِرَافتهم الحديثة... يُمْسِكون بتلابيب قارة بأكملها بين أيديهم... ولا يتحرك مجلس الوزراء دون استشارتهم»[399].

وذَكرَ كاتبُ اليوميات الإنجليزى توماس رَايكس Thomas Raikes، فى الوقت نفسه تقريبًا، أن: «آل روتشيلد أصبحوا سادةَ أوربا الأقوياء. فمِن مؤسّساتهم المختلفة فى باريس ولندن وفيينا وفرانكفورت ونابولى، حققوا سيطرةً على الصِّرافة الأوربية التى لم يتمكن أى فريق من تحقيقها سابقًا، فصاروا يُمْسِكون بخيوط الموارد [المالية] العامة. فلا دولة ذات سيادة يمكنها اقتراض المال دون مساعدتهم»[400].

وقد أثار رسّامُ كاريكاتير ألمانى مجهولٌ القضيةَ نفسها (وإنْ بوضوح أكبر) عندما رسم كاريكاتيرًا ليهودى غريب الشكل - من الواضح أنه يُصَوِّرُ روتشيلد - بوصفه مضخّة رئيسية Die Generalpumpe (لاعبًا على معنيَىْ الكلمة الألمانية pumpen التى تعنى ضَخّ وأقْرَضَ). روتشيلد، فيما يشير الرسم الكاريكاتوري، آلةٌ عملاقة تضخُّ المالَ حول العالم[401].

التُّهْمة التى تكرّرتْ فى عشرينيات القرن التاسع عشر أن آل روتشيلد متحالفون سياسيًا مع قوى الرّجْعية والاستعادة [إحياء المَلَكيّة]. وطبقًا لأحد المصادر، أصبحوا «الخزانة الكبيرة للتحالف المقدّس[410] Holy Alliance»[402].

---

[410]التحالف المقدس: عقب مؤتمر فيينا (سبتمبر 1814 - يونيو 1815)، قدّمَ قيصر روسيا فكرة إنشاء تحالف مقدس بين الدول الكبرى يقوم على العدل والمحبة اللذين نادى بهما المسيح، بحيث تكون المسيحية هى القاعدة الأساسية فى حل المشكلات والصراعات

وعندما تحدّث الجوّال الألمانى الأمير بوكلر موسكاو Muskau-Pückler عن ناثان، لأول مرة، فى رسالة إلى زوجته، ذَكرَ أنه «نصير رئيسى للتحالف المقدس»[403]. لقد رُسِمَ ناثان كاريكاتوريًا بوصفه سمسارًا يحمى «تحالفًا أجوف»، يريد مَنْعَ اشتعال أوربا سياسيًا[404].

وفى عام 1821، تلقّى تهديدًا بالقتل بسبب «ارتباطه بقوى أجنبية، وبخاصة مساعدته للنمسا، على خلفية خطط تلك الحكومة ضد الحريات في أوربا»[405].

وفى وقت مبكر من أغسطس عام 1820، ذَكرَ مندوب [مدينة] بريمن Bremen [شمال ألمانيا] فى مجلس الكونفدرالية الألمانية[411] German Confederation's Diet المنعقد فى فرانكفورت، أن «النمسا تحتاج إلى مساعدة آل روتشيلد» فى مسيرتها الحالية ضد نابولى، وكانت بروسيا ستنتهى منذ وقت طويل من دستورها إذا لم يُتِحْ لها بيتُ روتشيلد تأجيلَ اليوم الشرير»[406].

وعند الكاتب الليبرالى لودفيج بورنه Ludwig Börne، آل روتشيلد هم «أسوأ خصوم الأمة. فعلوا كل شىء لتقويض أسس الحرية، ولا ريب فى أن معظم شعوب أوربا فى هذا الوقت كانت ستتمتع بامتلاك الحرية لو أن رجالاً من أمثال روتشيلد... لم يُقْرضوا الأوتوقراطيين [المستبدين] لدعم رأسمالهم»[407].

ولكن مثل هذه الأحكام تُبالِغُ فى مدى ولاء آل روتشيلد السياسى لرؤية مترنيتش المتعلقة بالاستعادة المُحافِظة. وكما لاحظ مندوب بريمن إلى فرانكفورت عن حقٍّ:

حققَ هذا البيتُ فعلاً - بمُعامَلاته المالية وعلاقاته المَصْرفية والائتمانية الضخمة - موقعَ سلطة حقيقية؛ فاكتسب إلى حد ما سيطرةً على سوق المال العام، الأمر الذي مَكّنه من إعاقة أو تعزيز حركات الملوك وعملياتهم بل أعظم القوى الأوربية[408].

يمكن لآل روتشيلد التعهُّد بإقراض النمسا إذا كان الثمن مناسبًا. وفى الوقت نفسه يُقْرضون أكثر الدول ليبراليةً أيضًا. وعندما ذَكرَ الإمبراطور النمساوى أن أمشيل روتشيلد «أغنى منى أنا»، لم يكن يتفكّه أو يتظارف تمامًا[409]. يتساءل

الدولية، وكأن الملوكَ الموقِّعين على التحالف مكلّفون من الله بالدفاع عن السلام والنظام. كانت هذه، فى الحقيقة، فكرة كاسِلِريه الخاصة بالاتحاد الخماسى المكوّن من القوى العظمى الخَمْس، بعد هزيمة نابليون النهائية في معركة واترلو - المترجم.

[411] الكونفدرالية الألمانية: اتحاد من 39 ولاية ناطقة بالألمانية فى وسط أوربا تشَكّلَ عقب مؤتمر فيينا عام 1815، لملء الفراغ الذى تركته الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولكنه بلا سلطة تنفيذية أو مركزية - المترجم.

لورد بايرون[412] Lord Byron فى النشيد الثانى عشر من عمله «دون جوان» Don Juan:

«مَن يُمْسِكُ بميزان العالم؟ مَن يحكم/يدير الكونجرس، سواء مَلَكيًّا أو ليبراليًّا؟» ويجيب (بعلامات ترقيم ساخرة): «روتشيلد اليهودى، ورفيقه - المسيحى بارينج Baring». المَصْرفيون هم «لوردات أوربا الحقيقيون»[410]. النقطة الحاسمة أن بايرون رأى روتشيلد مؤثرًا فى أنظمة الحُكم المَلَكيّة والليبرالية على حد سواء. وينجح ألكسندر فايل Alexandre Weill فى صياغة القضية فى مقاله «روتشيلد والدول الأوربية» (عام 1841) Rothschild and the European States: «كان روتشيلد فى حاجة إلى الدولة ليكون روتشيلد»، ولكنه الآن «لم يعد فى حاجة إلى الدولة، أما الدولة فلا تزال محتاجةً إليه»[411].

بعد عام، ذَكرَ المؤرّخ الليبرالى جول ميشيليه Jules Michelet فى جريدته: «يعرف روتشيلد أوربا أميرًا أميرًا، والبورصة سمسارًا سمسارًا. وكلُّ حساباته موجودة فى رأسه، حسابات سماسرة البورصة وحسابات الملوك؛ فيتحدث إليهم دون مراجعة دفاتره. يقول لأحدهم: «سيتحول حسابك إلى الأحمر إذا قمت بتعيين وزير كهذا»[412].

وهنا، ثمة مظهر آخر فى النظام الهَرَمى لم «يُسْتَرْجَعْ» كما أُعِيدَ ترتيبه بعد عام 1815. لعل مجموعةُ القرابة الممتدة التى كوّنت بيت زاكس - كوبورج - جوتا قد منحت النظامَ الجديد شرعيةُ النّسَب الملكى. أما بيت روتشيلد مُحْدَث النِّعْمة - بشبكاته الجديدة فى الائتمان [المالى] والمعلومات - فتعهّدَ بتمويل المَلَكيّة الأوربية.

[412] لورد بايرون: (1788 - 1824)، شاعر بريطاني من رواد الشعر الرومانسي - المترجم.

26

شبكات الصناعة

قبل بلوغ تلك الأعالى، بدأ ناثان روتشيلد حياته المهنية فى بريطانيا بشكل متواضع، فاشترى القماشَ المُصنّع بغرض التصدير إلى القارة. وتُوفِّرُ السِّجلاتُ الباقية من تلك السنوات الباكرة صورةً حيّة للاقتصاد فى مراحل الثورة الصناعية الأولى. بين عام 1799 عندما وصل ناثان إلى إنجلترا لأول مرة، وعام 1811 عندما أنشأ رسميًا شركة إن إم روتشيلد N. M. Rothschild فى لندن، لم يتنقل روتشيلد حول لانكشاير Lancashire فقط، بل تنقل بين نوتِنجهام Nottingham وليدز Leeds وستوكبورت Stockport، وحتى جلاسكو Glasgow أيضًا، بحثًا عن المنسوجات لشَحْنها إلى العملاء فى ألمانيا. ولم يَكْتفِ بشراء القماش الجاهز. إذ قال لاحقًا للنائب توماس فُويل بوكستن Thomas Fowell Buxton:

«بمجرد أن وصلتُ إلى مانشستر Manchester أنفقتُ كلّ أموالى، الأشياء كانت جِدّ رخيصة؛ وحققتُ أرباحًا جيدة. وسرعان ما جنيتُ ثلاث فوائد: المواد الخام، الصباغة، والتصنيع. قلت للمُصنِّع: «سأزوّدُك بالمواد والصَبْغة، وأنت تُزوّدنى بالبضائع المُصنّعة». وهكذا جنيتُ ثلاث فوائد بدلا ً من واحدة ، ويمكنني بَيْعَ البضائع بأرخص من أي أحد»[413].

ومع تكنولوجيا الغزل والنّسْج الجديدة التى سرعان ما انتشرت فى جميع أنحاء شمال إنجلترا ووسط إسكتلندا، ومع العدد الصغير من المُصنِّعين المتنافسين، كانت الفرص لوسيط مُكافِح هائلة. وكما أوضح فى ديسمبر عام 1802:

فى أيام الثلاثاء وأيام الخميس، يجلب النسّاجون الذين يعيشون فى البلد على مسافة عشرين ميلا ً حول مانشستر بضائعهم إلى هنا، عشرين قطعة أو ثلاثين، وآخرون أكثر وآخرون أقل، ثم يبيعونها للتجار بائتمان مدته شهران وثلاثة أشهر وستة أشهر. ولأن بعضهم فى حاجة عاجلة إلى المال، وعلى استعداد للتضحية ببعض الربح، فالذى معه المال يشترى أحيانًا ب 15% أو 20% أقل من السعر المعروض[414].

ثم فى أثناء توسُّع أعمال روتشيلد التجارية حين بدأ فى التصدير إلى شركات أخرى سوى شركات والده، بدأ فى عَرْض أسعار منخفضة بل شروط ائتمانية معقولة أيضًا، مُخْبِرًا المشترى نفسه بأنه يَعتبر أمواله «فى أمان بين يديك كما لو أنها فى جيبى»[415]. وإذا كانت المكافآت كبيرة فكذلك كانت المخاطر. الأ

أسعار ومعدّلات الفائدة تقلّبت بشكل سريع. وفَشِلَ المورّدون فى النقل كما فُشِلَ المشترون فى الدفع غالبًا. ومع انفجار الحرب الاقتصادية بين بريطانيا وفرنسا بعد حَظْر نابليون فى جميع أنحاء أوربا للتجارة مع بريطانيا فى عاميْ 1806 و1807، كان على روتشيلد اللجوء إلى التهريب.

وكالثورات الفكرية والسياسية فى القرن التاسع عشر، كانت الثورةُ الصناعية نتاجَ الشبكات. فلا حاكم أَمَرَ بها، مع أن بعض الإجراءات الحكومية (ولا سيما قوانين التضييق على استيراد القماش من الهند) قد عجّلت بها دون شك. وبا لإضافة إلى شبكات الائتمان كالشبكة التى انتمى إليها ناثان روتشيلد، وُجِدَتْ أيضًا شبكاتٌ رأسمالية، سمحت لأصحاب الأعمال والمستثمرين بتجميع المعلومات والموارد، وشبكاتٌ تكنولوجية مَكّنت من تبادل الإنتاج المُشَجِّع على الابتكارات. لم يستطع جيمس وات[413] James Watt تحقيق تحسيناته على المحرّك البخارى دون الانتماء إلى شبكة شملت البروفيسور جوزيف بلاك Joseph Black من جامعة جلاسكو وأعضاء من جمعية لونار[414] Lunar Society في بِرْمِنجهام أيضًا[416].

كانت معظم شركات تصنيع النسيج صغيرة ويسيرة التمويل نسبيًا، أما المشروعات الرأسمالية الكبيرة كالشركات المساهمة أو شركات التأمين فاعتمدت اعتمادًا كبيرًا على شركات توظيف الأموال[417]. وأُديرَتْ الصادراتُ و الواردات الدولية عن طريق شبكات تجارية، كما كان الحال فى العصر ما قبل الصناعى. وقد لعبت القرابة والصداقة والدين المشترك دورًا فى كل هذه الشبكات. وينطبق الأمر نفسه على تكنولوجيات التصنيع الجديدة التى عبرت الأطلنطى إلى الولايات المتحدة[418]. وكما يبين الشكل 18، لم يكن يوجد رابطٌ مباشر بين جيمس وات وأوليفر إيفانس[415] Oliver Evans، من فيلادلفيا، الذى اخترع محرّك الضغط العالى البخارى. كان يوجد فى الواقع أربع درجات انفصال بينهما[419]. لكن إلحاح الابتكار - «العقلية التحسينية» - انتشر (طبقًا لأ حد العلماء) كما ينتشر المعتقد الدينى تقريبًا[420]. ففى كل مرحلة من مراحل الثورة الصناعية، لعبت الشبكات الدور الحاسم فى نشر العمليات الجديدة، بل

---

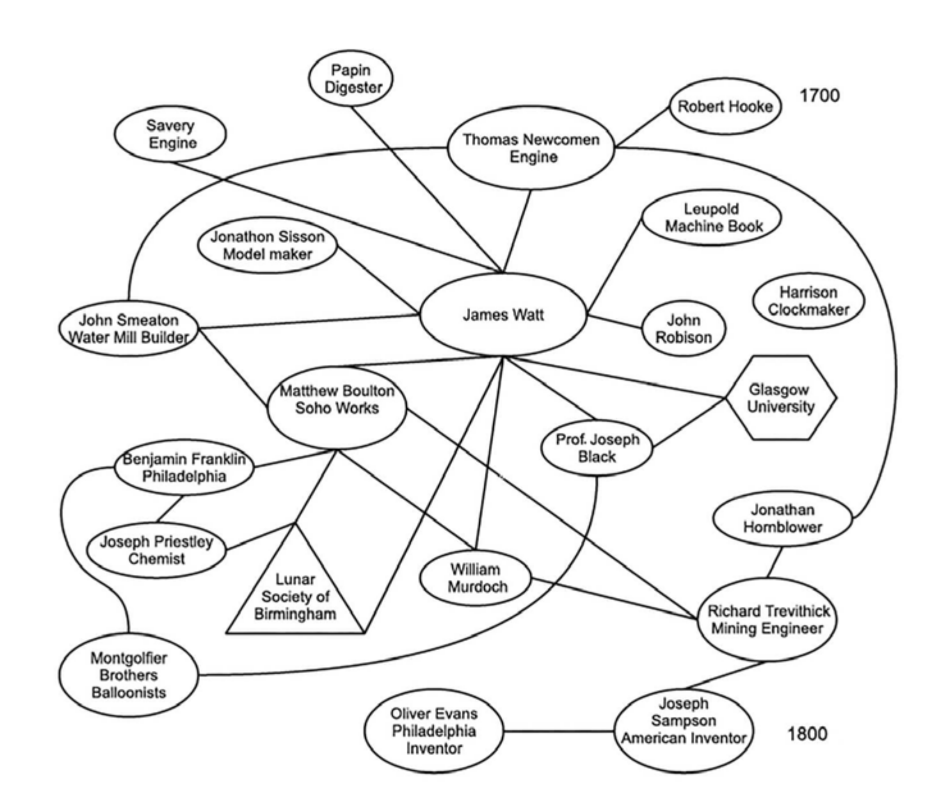
[413]جيمس وات: (1736 - 1819)، مهندس إسكتلندى، أدخل تعديلات على المحرّك البخارى، وصاحب العديد من براءات الاختراع - المترجم.

[414]جمعية لونار: ضَمّتْ رجالَ صناعة وفلاسفة طبيعة ومفكرين، كانوا يجتمعون بانتظام بين عامي 1765 و1813 - المترجم.

[415]أوليفر إيفانس: (1755 - 1819)، مخترع أمريكى وصانع طواحين ومُصَمّم آلات بخارية - المترجم.

الأهمّ فى تجميع القوة العقلية ورأس المال. وكما كان تطويرُ محرّكات بخارية ذات كفاءة متزايدة جهدَ شبكةٍ جماعيًا، لا جهد مخترعين فرديين أبطال، تدين التقدُّماتُ المفاجئة [الاختراقات] اللاحقة فى علم الطيران بالقدر نفسه لـ للأعضاء الرئيسيين فى جمعية المهندسين المدنيين الأمريكية American Society of Civil Engineers، وجمعية المهندسين الميكانيكيين الأمريكية American society of Mechanical Engineers ورابطة تقدُّم العلوم الأ مريكية American Association for the Advancement of Science، وكذلك للأخوين رايت Wright.

فى هذا «العالَم الصغير»، لعب أوكتاف شانوت Octave Chanute، مؤلِّفُ كتاب «التقدُّم فى ماكينات الطيران» Progress in Flying Machines (1894)، دورَ المُوصِّل [الرابط] الأهم: بول ريفير الطائرة الأولى[421].



<u>الشكل: 18 - «شبكة البخار»: جيمس وات، ماثيو بولتون، الشبكة الاجتماعية لتكنولوجيا المُحَرّك البخاري، 1700 - 1800.</u>

اللغز المركزى فى التاريخ البريطانى أثناء عصر التصنيع هو: لماذا لم ترتبط الثورة الاقتصادية بالثورة السياسية؟ ومن الممكن صياغة السؤال بشكل مختلف: لماذا كانت الشبكات الناشئة أواخر القرن الثامن عشر فى إنجلترا وإسكتلندا قوية بما يكفى لاستيلاد التصنيع الحديث، ولم تكن قوية بما يكفى للإطاحة بالتسلسلات الهَرَميّة المَلَكيّة والأرستوقراطية والكنَسيّة فى المملكة المتحدة؟ فى جميع أنحاء القارة الأوربية، فى عام 1848، انفجر الناس الذين يُوقِّعون على عرائض بشأن مظلمة أو شكوى فى موجة ثورية أخرى؛ امتدت هذه المرة إلى برلين وفيينا وأدّت إلى سقوط مترنيتش[422].

ولم يحدث فى بريطانيا ما يشبه ذلك. الخطيب الويجى Whig الشهير هنرى بروجهام Henry Brougham أسّس جمعية نشر المعرفة النافعة Society for the Diffusion of Useful Knowledge وليس جمعية لنشر الأفكار الجمهورية. وحتى الميثاقيين[416] Chartists، نظّموا تجمُّعاتهم واستضافوا بعض العناصر

---

[416]الميثاقيون أو الميثاقية Chartism: حركة عمالية إنجليزية نشطت فى القرن التاسع عشر على أساس المبادئ التى اشتمل عليها «ميثاق الشعب» People’s Charter الذى وضعه الزعيم الراديكالى اللندنى وليم لوفيت Lovett عام 1838. من أبرز هذه المبادئ الا قتراع السرّى وإلغاء شروط المِلكية المفروضة على المُرشّحين لعضوية البرلمان، وجَعْل ولا

الثورية، بالطريقة التي نظّموا بها حملتهم لتوسيع نطاق الانتخاب.

يكمن جانب من التفسير فى أن سياسات القرن الثامن عشر بذلت قصارى جهدها أن تغرس فى «طبقات المجتمع الدنيا» أن أمثال البريطونيين[417] Britons لديهم حصة وطنية في النظام الاجتماعي القائم[423].

أكبر أعمال الشّغَب فى العهد الهانوفرى كانت أعمال شغب جوردون المناهِضة للكاثوليكية Catholic Gordon Riots-anti التى صَوّرها ديكنز Dickens بشكل جِدِّ واضح في روايته «بارنابي رودج»[418] Barnaby Rudge.

الجانب الآخر من التفسير أن النُّخْبَة البريطانية كيّفتْ نفسَها بمهارة كبيرة مع ظروف العصر الصناعى المتغيِّرة بسرعة. فيكتوريا وألبرت كانا - على وجه العموم - ليبراليين فى ميولهما السياسية بطريقة لم يكن عليها أقاربهما فى هانوفر Hanover. أضِفْ إلى هذا أن النُّخْبَةَ المالية الجديدة التى جسّدها آل روتشيلد أكثرُ مرونةً على المستوى السياسى مما كان يُقِّدره العديدون من نقادها.

من الأمثلة الجيدة التى تُوضِّح أسبابَ تفادى بريطانيا للثورة حملاتُ إلغاء تجارة الرقيق والعبودية. بدأت حركة الإلغاء خارج البرلمان فيما بين الأقليات الدينية (ولا سيما الكويكرز Quakers) والمنظمات الجديدة مثل جمعيّة العمل على إلغاء تجارة العبيد Society for Effecting the Abolition of the Slave Trade، ولاحقًا جمعية التخفيف من العبودية وإلغائها تدريجيًا Society for the Mitigation and Gradual Abolition of Slavery. وقد وصلت الحملة إلى مجلس العموم House of Commons فى الوقت الذى بدأت فيه الثورة فى فرنسا. فألقى ويليام ويلبرفورس William Wilberforce كلمته ذات التأثير القوى «عن أهوال تجارة الرقيق» فى مجلس العموم يوم 12 مايو عام 1789، بعد أسبوع واحد فقط من بداية نشاط الجمعية العامة Estates General فى باريس. وقد وَقّعَ ما لا يقل عن 400 ألف شخص على عرائض تطالب بالإلغاء

اية البرلمان عامًا واحدًا - المترجم.

[417]البريطونيون: عِرْقية قديمة تواجَدَتْ فى جزيرة بريطانيا، فكانوا أولَ مَن سكنها. يعود تواجدهم إلى العصر الحديدى البريطانى ما بين عامىْ 1200 و500 ق م، قبل الاحتلال الرومانى لبريطانيا، وقبل وصول القبائل الأنجلوسكسونية. يرى باحثون أن أصولهم تعود إلى بريتانى وأن لهم علاقة ب«البكتيين» فى شرق إسكتلندا وشمالها، وكانوا يتكلمون اللغات السِّلْتية الداخلية، أما بقية العِرْقيات فيُسمّون «ويلزيون» - المترجم.

[418]بارنابى رودج: رواية تاريخية كتبها الروائى البريطانى تشارلز ديكنز، ونشرها عام 1841، تدور أغلب أحداثها أثناء أعمال شغب جوردون عام 1780 - المترجم.

فى عام 1792، وهو ما يقارب حوالى 12% من السكان الذكور البالغين، وفى مانشستر اقتربت النسبة من نصف عدد السكان[424].

ثم فى عام 1816، بَلَغَ عددُ مُوقِّعِى عرائض الاعتراض على استئناف تجارة الرقيق الفرنسية 1,375,000 [425].

كان التحريض [والهياج] أكبر فى عام 1833، عندما تلقّى البرلمان عرائض وَقَّعَ عليها ما يقرب من مليون ونصف شخص، منها عريضةٌ بَلَغَ طولُها نصفَ ميل وقَّعَ عليها 350,000 امرأة وخيّاط معًا، تبنّتها بريسيلا Priscilla ابنة توماس فُويل بوكستن Thomas Fowell Buxton[426].

لقد كانت حركةُ الإلغاء ظاهرةً قائمة على شبكة جديرة بالتصديق. ولكن هذه الشبكة فى المستعمرات الأمريكية لم تُهدِّد بإدخال البلد فى ثورة، على عكس فرنسا. السبب الواضح أن القضية اهتمت بمصالح الناس فى الجزر البريطانية British Isles، بل أبعد أيضًا: بالعبيد الأفارقة والمزارعين فى الهند الغربية. و السبب الثانى أن النُّخْبَة السياسية - رغم سَحْب البساط من تحت قدميها فى تسعينيات القرن الثامن عشر - استجابت بسرعة نسبيًا للضغط البرلمانى غير المعتاد، فألغت تجارةَ الرقيق فى عام 1807، وحرّرَتْ ما يقرب من 800 ألف عبد فى الممتلكات البريطانية فى عام 1833. أما السبب الثالث والأخير فهو أن المزارعين فى الهند الغربية مَثّلوا مجموعة مصالح أصغر من أن تمارس سلطة الفيتو.

لقد احتدم النقاش طويلا ً حول ما إذا كان مُنْتِجو السكر البريطانيون فى الكاريبى يعانون بالفعل من أزمة عشية الإلغاء أم حُرموا من تفوُّقهم الا قتصادى، كذلك اختلف المؤرّخون حول مغزى السرعة التى تحوّلت بها بريطانيا من كوْنها اللاعب المسيطر فى تجارة الرقيق عبر الأطلنطى إلى كوْنها خصمها العلنى النّشِط[427]. ومن الواضح أنه رغم ارتفاع استهلاك السكر فى إنجلترا فقد توَاصَلَ انخفاضُ أسعاره خلال القرن الثامن عشر. كانت أسعار السكر ثابتة بشكل ملحوظ أثناء الحروب الثورية الفرنسية والنابليونية، أثناء تعطُّل الإنتاج بسبب تمرد العبيد فى سان دومانج Domingue-Saint ، وقد عُوّضَ، جزئيًا فقط، بزيادة محصول المزارع فى كوبا Cuba، وموريشيوس [فى المحيط الهندى] والهند؛ ولكنه هبط مرة أخرى قبل عام 1807، وازداد هبوطه بحلول السلام [بعد هزيمة نابليون النهائية فى معركة واترلو].

وبالمقارنة، لم يكن هناك اتجاه نحو الهبوط فى متوسط سعر العَبْد. ومع ذلك، فالحجة القائلة بأن هذه الميول [نحو الإلغاء] تحكّمتْ فى مصير مزارع السكر فى الهند الغربية - أن «الإلغاء أدّى إلى كارثة فى الهند الغربية»[428] - ليست

مقنعة. فمع ارتفاع الطلب على السكر فى جميع أنحاء أوربا، الفُرَصُ الموجودة لاستمرار العبودية فى كوبا، ناهيك عن البرازيل، ستوجد أيضًا بالنسبة إلى المزارع البريطانية التى ارتفعت فيها بالضرورة تكاليفُ العمالة، لكن بسبب الإلغاء دون غيره.

تمثلت المشكلةُ الحقيقية لدى المزارعين البريطانيين فى سرعة تنويع اقتصاد المملكة المتحدة، إذ فَاقَ مستوردو القطن، بغرض التصنيع ثم إعادة تصديره، مستوردى السكر من حيث الأهمية بسرعة كبيرة. فبحلول أواخر عشرينيات القرن التاسع عشر، مثّلت البضائعُ القطنية نصفَ الصادرات البريطانية. وحازت مانشستر، بوصفها عاصمةُ صناعة النسيج البريطانى، نفوذًا سياسيًا فى لندن أكثر مما حازته جامايكا Jamaica، فأمكنها أن تغضّ الطرفَ عن استمرار تجارة العبيد والعبودية فى جنوب الولايات المتحدة، التى تأتى منها حصة لانكشاير المرتفعة من القطن الخام. ناثان روتشيلد - تاجر القطن السابق الذى تحوّلَ إلى مَصْرفى - هو الذى أقرضَ الحكومةَ 15 مليون جنيه إسترلينى لتعويض مُلاك العبيد بعد قانون عام 1833 [429].

وبعد أن شُرّعَ قانونُ تحرير العبيد، تناول ناثان العشاء مع توماس فُويل بوكستن[430]. ثم فى وقت لاحق، لعب أبناء ناثان دورًا رائدًا فى حملة تحرير اليهود فى بريطانيا؛ وستُرقِّى الملكةُ فيكتوريا حفيدَه ناثانيل Nathaniel إلى مجلس اللوردات House of Lords.

فى عام 1815، كانت بريطانيا مجتمعًا غير مساواتى بشكل زائد. كانت ثروةُ الأراضى مركّزةً تركيزًا كبيرًا فى أيدى أرستقراطية الوراثة، أكثر مما فى معظم البلاد الأوربية، بما فيها فرنسا النظام القديم ancien régime. نظام ضريبى مُتَرَدٍّ بشكل غير عادى؛ معظم الدخل الحكومى [الإيرادات] من الضرائب على الاستهلاك؛ معظم الإنفاق يذهب إلى الجيش والبحرية والأثرياء القابضين على المناصب والسّندات الحكومية. ومع ذلك، فلا حركة من الحركات البرلمانية الممتازة أوائل القرن التاسع عشر - لا الإلغاء [إلغاء الرقيق]، ولا حركة الإصلاح الانتخابى التى أعقبته - هدّدت النظامَ القائم تهديدًا حقيقيًا. ذلك أن التسلسل الهَرَمى البريطانى - على خلاف نظيره الفرنسى - عرف متى ينحنى مع الريح. الإلغائيون رأوا ارتقاءَ الملكة فيكتوريا الشابة على العرش فى عام 1837 فرصةً للإصلاح وليس عائقًا أمامه، وكان العاهل الصغير يقترب من تأييد حملتهم تحت الضغط.

تركت المَلِكةُ المهمةَ لزوجها الأمير، الذى ألقى أول خطاب علنى بعد ثلاثة أشهر فقط من زواجهما، فى اجتماع جمعية القضاء على تجارة العبيد. قال الأمير ألبرت: «أشعر بأسف عميق لأن جهود إنجلترا الخَيّرة والمثابرة من أجل

إلغاء هذه التجارة الوحشية فى الكائنات البشرية (تدمير أفريقيا ووصمة عار على جبين أوربا المتحضِّرة فى آنٍ معًا) لم تُؤدِّ بعد إلى أى نتيجة مُرْضية. ولكنى واثق من أن هذا البلد العظيم لن يتراخى مخلصًا فى مساعيه حتى يضع نهايةً أبدية لهذه الأمور البغيضة لدى روح المسيحية وأرقى الأحاسيس في طبيعتنا»[431].

27

من الحُكْم الخماسي إلى الهَيْمنة

فى السنوات التالية لعام 1815، تمّت السيطرةُ على الفوضى التى أُطْلِقَ لها العنان فى تسعينيات القرن الثامن عشر. ورُوِّضت الفوضى الشّبَكيّة فى فرنسا بفرض نظام هَرَمى جديد فى عهد نابليون. أما التحدِّى الثورى الفرنسى للدول الأوربية الأخرى فتُغُلِّبَ عليه بفرض «توافق» جديد تحت إشراف جَمْعى للقوى العظمى الخَمْس، ومن بينها المَلَكيّة الفرنسية المستعادة. وأثناء القرن التاسع عشر، ظلت المَلَكيّةُ الشكلَ السياسى المهيمن فى العالم. وداخل كل دولة أوربية، لم تُسْتَعَدْ شرعيةُ المبدأ الوراثى فقط، بل وُجِدَ أيضًا نموذجٌ جديد للترتيب الطبقى الاجتماعى دخلت به النُّخْبة المَلَكيّة الكوزموبوليتانية فى علاقة تكافلية مع نُخْبة بلوتوقراطية[419] plutocratic جديدة (وسَخِرَت ا لأرستوقراطياتُ الوطنية الأرفع مقامًا بطريقة ناكرة للجميل من كليهما). «الا ستعادة» [استعادة المَلَكيّة]، بهذا المعنى، كانت وَصْفًا ناقصًا، ومَن حاولوا (لا سيما آل بوربون فى فرنسا) العودةَ غير المشروطة إلى النظام القديم لم يستمروا وقتًا طويلا ً.

عقارب الساعة لا يمكنها العودة إلى الوراء. ولا يمكن إيقافها عن التقدم إلى الأ مام. زادت الثورة الصناعية من الدخول والسكان معًا. ولأول مرة فى التاريخ، تَمَتْ مدنُ شمال أوربا الغربية بمعدلات أكبر من مدن آسيا الشرقية. وأثبتت تكنولوجيات التصنيع الجديدة فوائدها العديدة، مع كفاءة إنتاج الملابس. الحرب أيضًا بدأت تكون تصنيعية: سفن مُدَرّعة، وأسلحة أكثر فتكًا. ووقعت ا لاقتصادات الوطنية تحت سطوة الشركات الصناعية الكبيرة بشكل متزايد، فبدأ أصحابها ومديروها، إلى جانب المَصْرفيين الذين يُموِّلونها، فى تشكيل نُخْبة اجتماعية وسياسية جديدة، وإن ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالنظام القديم. صارت خريطةُ العالم بحلول عام 1900 بانوراما إمبراطورية مُلْغِزة: إحدى عشرة إمبراطورية غربية تسيطر على أنصبة غير متجانسة (58%، بشكل عام) من أراضى الكوكب، ناهيك عن سكانها (57%) والناتج الاقتصادى (74%)[432]؛ بل استحوذت الولايات المتحدة على مستعمرات فيما وراء البحار.

---

[419] البلوتوقراطية: تعنى فى الأصل حُكْمَ الأثرياء أو أن تكون الطبقةُ الحاكمة مميزةً بالثراء. ويُستعمَل المصطلحُ بوجه عام للإشارة إلى دلالتين: دلالة تاريخية تتعلق بالدول التى كانت خاضعة لسيطرة سياسية من قِبَل أوليجاركية ثرية؛ وأما الدلالة الثانية فمعاصرة تتعلق ب العملية السياسية الخاضعة لتأثير المال بشكل كبير - المترجم.

لم يكن هذا بكل تأكيد المستقبلَ الذى ارتحل من أجله بول ريفير إلى ليكسينجتن. فاز البريطانيون ذوو السُتْرات الحمراء[420] redcoats. وبحلول عشية الحرب العالمية الأولى، بريطانيا العظمى - المملكة البالغ عدد سكانها 45.6 مليونًا وتزيد مساحتها قليلا ً عن 120 ألف ميل مربع - حَكمَتْ ما يزيد على أكثر من 375 مليون شخص و11 مليون ميل مربع.

ولعل الشىء الأبرز بشأن هذه الإمبراطورية الشاسعة هو توزيعها لثكناتها العسكرية. فى عام 1898، كان يوجد 99 ألف جندى نظامى متمركزين فى بريطانيا، و75 ألف في الهند، و41 ألف فى أماكن أخرى من الإمبراطورية. احتاجت البحريةُ 100 ألف جندي آخر، والجيش الهندي المحلي 48 ألفًا.

وهذا كله يمثل الأجزاء الصغيرة من إجمالى سكان الإمبراطورية. وقد حُكِموا بسهولة أيضًا. بين عامىْ 1858 و1947، وُجِدَ أكثرُ قليلا ً من ألف عضو من «متعهّدى» الخدمة المدنية الهندية[421] Indian Civil Service مقارنةً بإجمالى السكان الذى تجاوز 400 مليون مع نهاية الحُكم البريطانى. ولم يكن هذا التوظيفُ الهيكلى الأساسى فريدًا من نوعه فى الهند. فالنُخْبَةُ الإدارية بأكملها فى الخدمة الاستعمارية الأفريقية، المُوزّعة على عشرات المستعمرات البالغ عدد سكانها حوالي 43 مليونًا، عددُها أكثر قليلا ً من 1,200[433].

فكيف أمكن ذلك؟ وكيف كانت الإمبراطوريةَ الأكبر فى التاريخ العالمى، وفى الوقت نفسه دولةُ حارسٍ ليلىٍّ، على حدِّ التعبير الازدرائى الذى صاغه الا شتراكيُّ الألماني فرديناند لاسال[422] Ferdinand Lassalle في عام 1862؟

---

[420]ذوو السُتْرات الحمراء: منذ منتصف القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر، كان زىُّ الجنود البريطانيين يشتمل على معطف أحمر - المترجم.

[421]الخدمة المدنية الهندية: عُرِفَتْ أيضًا باسم «الخدمة المدنية الإمبراطورية»، وهى الخدمة المدنية العليا للإمبراطورية البريطانية فى الهند البريطانية من عام 1858 حتى عام 1947 - المترجم.

[422]فرديناند لاسال: (1825 - 1864)، أحد مؤسّسى مذهب الاشتراكية الألمانية. نادت حركته بالتضامن مع النظام الإقطاعي الحاكم، وفي الوقت نفسه تحرير العمّال - المترجم.

٧

القسم الخامس

فرسان المائدة المستديرة

28

حياة إمبريالية

فى رواية جون بوشان J ohn Buchan «تسع وثلاثون خطوة»[423] The Thirty Nine Steps - ، توجد منظمةٌ شريرة، عُرِفَتْ باسم الحجر الأسود Black Stone ، تتآمر من أجل سرقة خطط بريطانيا الخاصة ب«استعداد الأسطول العسكرى البريطانى للتحرُّك» [عام 1914]. ثم بعد سلسلة جرائم قتل، وبعد مطاردة من أكثر المطاردات تفصيلا ً فى الأدب الرائج، يُحْبِطُ المؤامرةَ بطلُ بوشان المُحبُّ لوطنه، الذى لا يعرف الكلَلَ، ريتشارد هاناى Richard Hannay. يُعَدُّ بوشان، بعد روديارد كبلينج[424] Rudyard Kipling، أفضلَ كاتب يُمْسِكُ بروح ا لإمبراطورية البريطانية في بواكير القرن العشرين[434].

تُنَظِّمُ روايتُه «تسع وثلاثون خطوة» - كمعظم كتاباته - العالَمَ فى تسلسل هَرَمي عِرْقي:

الإسكتلنديون الأذكياء مفتولو العضلات فى الأعلى أولا ً، يليهم الجنوب أفريقيون الغلاظ، يليهم الأمريكيون العسكريون نوعًا ما، أما الألمان المشتبه فيهم جنسيًا ففى الوسط، واليهود تحت الألمان، ويرقد كلُّ ما عداهم فى القاع تقريبًا[425]. ومع ذلك، وكما هو الحال فى أدب بوشان دائمًا تقريبًا، ليس ا لأبطالُ الحقيقيون فى رواية «تسع وثلاثون خطوة» أفرادًا بل شبكات: جمعيّات سرّية كجمعيّة «الحجر الأسود»، وشرائح نبيلة من السادة الإ مبراطوريين تُشاركُ فى مكافحة التجسُّس: فى هذه الرواية، إسكتلندى عائد من روديسيا Rhodesia [فى جنوب أفريقيا]، وهو أمريكى مستقل وسياسى صاحب أراضٍ.

---

[423] جون بوشان: (1875 - 1940)، روائى ومؤرِّخ إسكتلندى، حاكم كندا العام الخامس عشر. نُشِرَتْ روايته «تسع وثلاثون خطوة» مسلسلةً لأول مرة فى مجلة بلاكوود فى أغسطس وسبتمبر عام 1915 قبل نشرها فى كتاب فى أكتوبر من العام نفسه، وهى أولى خمس روايات تضم شخصية ريتشارد هاناى. اقتُبِسَت الروايةُ فى عدد من الأفلام السينمائية - المترجم.

[424] روديارد كبلينج: (1865 - 1936)، كاتب وشاعر وقاص بريطانى، من أهم أعماله «كتاب ا لأدغال» عام 1894، و«كيم» عام 1901 - المترجم.

[425] إدموند إيرونسايد Edmund Ironside، الجندى الذى قيل إنه الأساس الحقيقى الذى قامت عليه شخصية ريتشارد هاناى الروائية، «أعرب عن مشاعر كراهية خاصة نحو الأي رلنديين واليهود واللاتين و«الأعراق الأدنى»، أيْ معظم الجنس البشري» - المؤلف.

وُلِدَ بوشان فى بيرث Perth عام 1875، ابنًا لكاهن كنيسة إسكتلندا المشيخية الحُرّة Presbyterian Free Church of Scotland، ونشأ فى مقاطعة كيركالدى Kirkcaldy، ثم صعد السُلّمَ المهنى الذى قدّمته المملكةُ المتحدة وإمبراطوريتُها للإسكتلنديين الطموحين منذ زمن جيمس بوزويل[426] James Boswell. وبعد دوامه فى مدرسة هوتشيسن للقواعدHutcheson's Grammar School فى جلاسكو، قرأ ليترا هيومانيورس Literae Humaniores (دورة تعليمية فى الآداب اليونانية والرومانية القديمة، وتُسَمّى أيضًا باسم «جريتس» [العظماء] Greats) فى كلية بريزنوس Brasenose، جامعة أكسفورد، حيث كان طالبًا، فحصل على المركز الأول وفاز برئاسة اتحاد أكسفورد[427] Oxford Union، وهو جمعية نِقاش مرموقة تُواصِلُ تحضيرَ رؤساء وزراء المستقبل من أجل الصراع البرلماني.

وبين عامىْ 1901 و1903 - أثناء حرب البوير[428] Boer War وما بعدها - شغل منصبَ سكرتير سياسى خاص للورد ميلنر Lord Milner، المندوب السامى فى جنوب أفريقيا. ثم تزوج فى عام 1907 زواجًا ملائمًا: سوزان جروسفينور Susan Grosvenor، ابنة عم دوق وِسْتمِنسْتر Westminster. لم يَكْتفِ بوشان بكوْنه مؤلفًا غزير الإنتاج، فقرأ القانون ودُعِيَ إلى المنصة. ثم صار شريكًا فى دار نشر توماس نيلسن وأولاده Thomas Nelson & Sons، كما عمل - لبعض الوقت - مُحرّرًا ل الإسبيكتاتور The Spectator. وأثناء الحرب العالمية الأولى First World War، وبعد نجاته أو إبعاده عن الخط الأمامى لاعتلال صحته، أدار قسم المعلومات Department of Information الجديد، ثم احتل بعد الحرب مقعدًا فى مجلس العموم لمدة ثمانى سنوات بوصفه عضوًا اتحاديًا

---

[426] جيمس بوزويل: (1740 - 1795)، كاتب سيرة ومهندس إسكتلندى، اشتهر بسيرة الحياة التي كتبها عن صديقه الإنجليزي صمويل جونسون - المترجم.

[427] اتحاد أكسفورد: جمعية نِقاش فى مدينة أكسفورد، يُخْتَارُ أعضاؤها من جامعة أكسفورد بشكل أساسى. تأسّست الجمعيّة عام 1823، وأتاحت فرصةً للعديد من السياسيين الناشئين لتطوير مهاراتهم في المناقشة والحصول على السمعة والاتصالات - المترجم.

[428] حرب البوير: تشير لفظة «البوير» إلى مستوطنى جنوب أفريقيا البيض ممن يتحدثون اللغة الأفريكانية، ومعظمهم من أصول هولندية، بالإضافة إلى أقليات أوربية فرنسية وألمانية وغيرها. وما يقصده المؤلف يُعْرَفُ باسم «حرب البوير الثانية» التى اندلعت يوم 11 أكتوبر عام 1899 حتى 31 مايو عام 1902، بين الإمبراطورية البريطانية وجمهوريتىْ البوير (الترانسفال والأورانج)، وانتهت بانتصار الإنجليز. وهى أكبر الحروب التى خاضتها بريطانيا نفقةً فى الفترة بين الحروب النابليونية والحرب العالمية الأولى. يُطْلِقُ عليها «الأ فريكان» حرب الاستقلال الثانية. أما حرب البوير الأولى فاندلعت عام 1880 وانتهت عام 1881 بهزيمة الإنجليز - المترجم.

للجامعات الإسكتلندية. وأثناء كل ذلك، كان يكتب دون كلَل: قصة مثيرة كل عام، بالإضافة إلى تاريخ الحرب الكبرى Great War متعدِّد المجلدات. وجاء تمجيده فى عام 1935، عندما رُفِعَ إلى طبقة النبلاء (بوصفه اللورد تويد سميور من إلسفيلد Lord Tweedsmuir of Elsfield)، وعُيِّن حاكمًا عامًا لكندا .[435]

وباختصار، ترقّى بوشان عبر التسلسل الهَرَمى الإمبراطورى، فصعد أكاديميًا واجتماعيًا ومهنيًا وسياسيًا ثم رسميًا؛ وإن لم يكن صعوده عاليًا كما كان يرجو (نائب الملك فى الهند، أو على الأقل منصب فى الكابينت Cabinet). ولكن حياته المهنية لا يمكن فَهْمُها بمعزل عن الشبكة التى انتمى إليها: «الرّوْضَة» Kindergarten أو «المائدة المستديرة»[429] .Round Table المرتبطة بميلنر. وهى شبكة أخرى من تلك الشبكات التاريخية التى أصبحت سيئة السُمْعة، بفضل كتابات مؤرّخ [جامعة] جورجتاون المؤثِّر كارول كويجلى[430] Carroll Quigley، الذى وصفها بأنها «جمعيّة سرّية ظلت لأكثر من خمسين عامًا،... إحدى أهم القوى فى صياغة السياسة البريطانية الخارجية الإمبريالية، وتنفيذها»[436].

تستهدف هذه الجمعيّة، طبقًا لكويجلى، «توحيد العالم، وفى المقام الأول

---

[429]المائدة المستديرة: تأسّست منظمة «المائدة المستديرة عام 1909، بوصفها رابطة تُرَوّج لاتحاد أوثق بين بريطانيا ومستعمراتها المتمتعة بالحُكم الذاتى. تطورت من «روضة» اللورد ميلنر بإلهام منه، وأما الذى أعطاها الإطارَ التنظيمى فهو ليونيل كورتيس Lionel Curtis، وصار فيليب كير Philip Kerr، المدير السابق لجنوب أفريقيا، سكرتيرَها. فى العام التالى، أصدرت مجلةً رُبْع سنوية تحمل اسمَها، وتتمحور موضوعاتها حول سياسة الإ مبراطورية البريطانية والاتحاد الإمبراطورى البريطانى. ثم فى عامىْ 1910 و1911، قام ليونيل كورتيس بجولة واسعة لضمّ عناصر محلية إلى المنظمة، الأمر الذى أسفر عن تشكيل مجموعات فى كندا وجنوب أفريقيا وأستراليا ونيوزيلندا، أما مجموعة نيوفندلاند فأُنشِئت عام 1912. ثم مع دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى وبداية الترويج ل«عُصْبَة الأمم» عدّلت منظمةُ «المائدة المستديرة» مفهومَها عن الإمبراطورية إلى «كومنولث الأمم». وخلال فترة ما بين الحربين العالميتين، استمرت مجموعاتُ المائدة المستديرة فى الدعوة إلى سياسة تعاون بين دويلات الإمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة - المترجم.

[430]حلقة كويجلى الدراسية عن تطور الحضارات كانت جِدّ رائجة فى كلية الخدمة الخارجية School of Foreign Service فى جامعة جورجتاون Georgetown، حيث كان يُدرّس من عام 1941 حتى عام 1972. (كان من بين طلابه الشابُ بِلْ كلينتن Bill Clinton). وليس من الواضح تمامًا السبب فى أن كويجلى صار مهووسًا بشبكة ميلنر. ومع ذلك، خَلَفيّتُه البوسطن أيرلندية Boston - Irish غَرَسَتْ فيه دون شك كراهيةً داخليةً للإمبريالية البريطانية - المؤلف.

العالم الناطق بالإنجليزية، فى هيكل فيدرالى [اتحادى] مَرْكزُه بريطانيا»، وتمثلَتْ أساليبها فى «التأثير الاقتصادى والسياسى السرّى من وراء الكواليس و... السيطرة على الوكالات الصحفية والتعليم والدعاية»[437].

كتب كويجلى فى أواخر أربعينيات القرن العشرين قائلا ً إن المائدة المستديرة «استطاعت أن تُخْفى وجودَها بنجاح كامل، فالعديدُ من أعضائها ا لأكثر تأثيرًا، الذين اكتفوا بامتلاك الواقع بدلا ً من إظهار السلطة، غيرُ معروفين حتى لطلبة التاريخ البريطاني المتعمِّقين». فهي:

خَطَّطت لغارة جيمسون[431] Jameson Raid عام 1895؛ وتسبَّبَتْ فى حرب البوير Boer War عام 1899 - 1902؛ وأنشأت [منحة] رودس ترست Rhodes Trust وسيطرت عليها؛ وأسّستْ اتحاد جنوب أفريقيا Union of South Africa بين عامىْ 1906 - 1910؛ وأنشأت الدورية الجنوب أفريقية «الدولة» The State فى عام 1908؛ وأصدرت مجلة الإمبراطورية البريطانية «المائدة المستديرة» The Round Table عام 1910، التى لا تزال لسان حال المجموعة؛ وظل لها التأثير الوحيد الأقوى فى كليات أول سولس All Souls وباليول Balliol ونيو كوليج New Colleges فى جامعة أكسفورد لأكثر من جيل؛ وسيطرت على التايمز The Times لأكثر من خمسين عامًا، باستثناء ثلاث سنوات من عام 1919 حتى عام 1922؛ ورَوّجَتْ فكرةَ واسمَ «كومنولث الأمم البريطانى» British Commonwealth of Nations فى الفترة من عام 1908 حتى عام 1918؛ وكان لها التأثير الرئيسى فى إدارة لويد جورج[432] Lloyd George للحرب منذ عام 1917 حتى عام 1919؛ وهيمنت على الوفد البريطانى فى مؤتمر السلام Peace Conference عام 1919؛ وكانت على علا قة بتشكيل عصبة الأمم League of Nations وإدارتها وتشكيل نظام الا

---

[431] غارة جيمسون: فى فترة ما بين حربىْ البوير الأولى والثانية، وعلى وجه التحديد فى عام 1895 حاول المسؤولون الاستعماريون فى مستوطنات جنوب أفريقيا إثارةَ القلاقل داخل جمهورية الترانسفال، مستغلِين العمالةَ البريطانية فى مناجم الذهب، فخططوا لا نتفاضة واسعة النطاق بالتزامن مع إغارة عسكرية بقيادة ليندر ستار جيمسون. لم تتم الا نتفاضة، وفشلت الغارة، وألقت سلطاتُ الترانسفال القبضَ على جيمسون - المترجم.

[432] لويد جورج: (1863 - 1945)، أحد زعماء حزب الأحرار البريطانى. تحوّلَ مع اندلاع الحرب العالمية الأولى من رفضه للعنف إلى مؤيّد قوى للحرب ضد ألمانيا. شغل منصبَ وزير العتاد الحربى منذ عام 1915. وتولى وزارة الحربية عام 1916، ورئيس مجلس وزراء ائتلافى. نجح أثناء مؤتمر السلام بباريس عام 1919 فى التوصل إلى حل وسط بين مثالية الرئيس الأمريكى ويلسون وشروط السلام المتعنِّتة لدى رئيس الوزراء الفرنسى. استقال من المناصب الرسمية عام 1922. زار هتلر عام 1936 وعاد مُثنيًا عليه، إلا أنه سرعان ما تحول إلى ناقد لاذع لمحاولات استرضاء هتلر - المترجم.

انتدابات وإدارته؛ وأسّسَتْ المعهد المَلَكى للشؤون الدولية[433] Royal Institute of International Affairs فى عام 1919 ولا تزال تسيطر عليه؛ وكان لها أحد أقوى التأثيرات الرئيسية فى السياسة البريطانية تجاه أيرلندا وفلسطين والهند فى الفترة من عام 1917 حتى عام 1945؛ وكان لها تأثير جِدُّ مهم فى سياسة استرضاء ألمانيا خلال السنوات من عام 1920 حتى عام 1940؛ وتحكمت - ولا تزال تتحكم إلى حد كبير - فى مصادر تاريخ الإمبريالية البريطانية والسياسة الخارجية منذ حرب البوير، وفي كتابته[438].

ومهما كانت حقيقة هذه الادعاءات اللافتة للنظر، فلم يعد آخرها بكل تأكيد قابلا ً للتطبيق. فالعلماء صاروا يكتبون علانيةً وبنزاهة عن المائدة المستديرة، على حين يواصل مُنظِّرو المؤامرة تكرار مزاعم كويجلي.

---

[433]المعهد المَلَكى للشؤون الدولية: تأسّسَ عقب مؤتمر السلام بباريس عام 1919. منظمة غير حكومية، محايدة، تقوم بتحليل الأحداث الدولية الجارية ومراقبتها وتقديم حقائق عنها لكل المهتمين. من أهم أنشطته برنامج خاص بالشرق الأوسط. وبدأت تغلبُ عليه تسمية «شاثام هاوس» بعد حصوله على المبنى الشهير بهذا الاسم مقرًا له منذ عام 1923 - المترجم.

29

الإمبراطورية

وحتى لو لم تكن المائدة المستديرة تُدِيرُ العالَمَ، فالذى لا يمكن إنكاره أن عددًا جِدّ قليل من البريطانيين يديرون مناطق كبيرة من العالم. ولنكرّرْ: كيف أمكن ذلك؟

يكمن جزءٌ من الإجابة عن هذا السؤال فى الطريقة التى استوعبت بها بريطانيا داخل وجودها الإمبراطورى هياكلَ السلطة المحلية القائمة. فى طنجانيقا Tanganyika [حاليًا دولة فى أفريقيا]، مثلا ً، حاول السير دونالد كاميرون Sir Donald Cameron تعزيز الروابط بدءًا من «الفلاح... حتى رئيس العُمّال، ومن رئيس العُمّال حتى نائب القائد، ومن نائب القائد حتى القائد، ومن القائد إلى مدير المقاطعة». وفى غرب أفريقيا، اعتقد اللورد كيمبرلى Lord Kimberley أنه من الأفضل «ألا يكون له علاقة مع «أهل البلد المتعلِمين» بوصفهم كيانًا. سأتعامل مع الزعماء بالوراثة فقط». ويُصِرُّ جورج لويد قبل ترقيته الجديدة إلى منصب المندوب السامى high commissioner فى مصر على أن «كل الشرقيين يُقدِّرون تقديرًا كبيرًا وجود أمير». وفيما يقول فريدريك لوجارد[434] Frederick Lugard، مهندس الإمبراطورية البريطانية فى غرب أفريقيا، هدفُ الإمبراطورية النهائى «الحفاظُ على الحكومات التقليدية بوصفها حصن أمان اجتماعى فى عالم متغير... و التصنيف المهم حقًا يكون وَفْقَ المكانة الاجتماعية»[439]. لقد اخترع لوجارد نظريةً كاملة لـ«الحُكم غير المباشر»، بحيث يتم الحفاظ على الهيمنة البريطانية بأقل تكلفة ممكنة عن طريق تفويض النُخَب القائمة بكل السلطة المحلية، مع جَعْلِ العناصر الأساسية فى السلطة المركزية (ولا سيما السلاسل المالية) فى أيدٍ بريطانية. ويُعَرّفُ لوجارد الحُكْمَ غير المباشر، فى كتابه «التفويض الثنائى فى أفريقيا الاستوائية البريطانية» The Dual Mandate in British Tropical Africa (1922)، بأنه «الاستخدام المنهجى لمؤسّسات الشعب العُرْفية بوصفها وكلاء الحُكم المحلي»[440].

وعلى قمة كل هذه التسلسلات الهَرَميّة التى أساسها المكانة الاجتماعية،

---

[434] فريدريك لوجارد: (1858 - 1945)، ضابط بريطانى ومسؤول استعمارى. شغل منصب حاكم هونج كونج فى الفترة من عام 1907 حتى عام 1912، وآخر حاكم لمحمية جنوب نيجيريا (1912 - 1914)، وأول مندوب سامٍ (1900 - 1906) لمحمية شمال نيجيريا وآخر حاكم لها (1912 - 1914)، وأول حاكم عام لنيجيريا (1914 - 1919) - المترجم.

يضيف البريطانيون هَرَميّتَهم الإمبريالية المُقوّمةَ لكل شىء. كان بروتوكولُهم فى الهند محكومًا حُكْمًا صارمًا ب«جدارة حق الأولوية»، الذى تألّف فى عام 1881 من ما لا يقل عن سبع وسبعين رُتبة منفصلة. وعلى امتداد الإمبراطورية، لَهَثَ المسؤولون وراء عضوية «وسام القديس ميخائيل والقديس جورج الأكثر تميزًا»[435] Most Distinguished Order of St Michael and St George، سواء من رُتبة سى إم جى CMG (Call Me God)، أو رُتبة كى سى إم جى KCMG (Kindly Call Me God) أو الرُتبة المُدّخرة لطبقة الحُكّام العليا جى سى إم جى GCMG (God Calls Me God). وفيما يُصرّح اللورد كورزون[436] Lord Curzon، وُجِدَتْ «شهيةٌ نَهِمَة [فيما بين] جماعة الناطقين بالإنجليزية فى جميع أنحاء العالم إلى الألقاب وحقّ الصدارة». ويضيف إلى الأوسمة، الأوشحةُ والميداليات المرغوبة بالقدر نفسه. ورغم كل نجاح جون بوشان الدنيوى، فقد عَذّبته غنيمتُه الضئيلة من تلك «الصُنوج الرنّانة على الصدر».

لم تكن الإمبراطورية البريطانية لتصل إلى مثل هذا الامتداد الواسع، ولا أن تستمر فيه طويلا ً كما حدث، بالاعتماد على التسلسل الهَرَمى وحده، ناهيك عن الخُيَلاء. ولم تتلاشَ الشبكات الثورية فى القرن التاسع عشر. بل وُلِدَتْ مع انتشار عقيدة كارل ماركس Karl Marx فيما بين المثقفين والعمال، أكبرُ شبكات العصر الحديث:

الشبكة الاشتراكية socialist network. وازدهرت حركات ثورية أخرى أيضًا، تراوحت ما بين الأناركية anarchism إلى النِّسْوية feminism إلى القومية الراديكالية radical nationalism، فى أواخر القرن التاسع عشر. ولكن أبنية العصر الهَرَميّة - الإمبراطوريات والدول القومية - استطاعت السيطرة على هذه الشبكات بسهولة تامة، حتى عندما لجأت إلى الإرهاب terrorism. وذلك لأن تكنولوجيات الاتصال الجديدة التى أوجدتها الثورةُ الصناعية - السكك الحديدية، البواخر، التلغراف، ولاحقًا الهاتف، فضلا ً عن الخدمات البريدية الوطنية والجرائد - خلقت شبكاتٍ أكبر بكثير من شبكات الاشتراكيين التى نجحت فى الرَبْط بين أشكال تنظيم العمال العديدة المنتشرة فى الا

---

[435]وسام القديس مايكل والقديس جورج الأكثر تميزًا: وسام فى منظومة الشرف البريطانى، أنشأه الملك جورج الرابع ملك بريطانيا عام 1818، يُمْنَحُ لمَن يؤدون خدمات جليلة غير عسكرية للإمبراطورية البريطانية خارج أراضي الوطن - المترجم.

[436]اللورد كورزون: (1859 - 1925)، سياسى بريطانى، شغل منصب الحاكم العام للهند البريطانية فى الفترة من عام 1899 حتى عام 1905، ووزير خارجية بريطانيا من عام 1919 حتى عام 1924 - المترجم.

اقتصادات الصناعية[441]، بل تركت نفسَها للسيطرة المركزية أيضًا.

لقد سَرّعتْ طاقةُ البخار والكابلات الكهربية الاتصالاتِ بشكل واضح. فى أيام المراكب الشراعية، كان الأمر يستغرق ما بين أربعة وستة أسابيع لعبور المحيط الأطلنطى؛ ثم قلّ الوقتُ بعد بناء البواخر إلى أسبوعين فى أواسط ث لاثينيات القرن التاسع عشر، وإلى عشرة أيام فقط فى ثمانينيات القرن التاسع عشر. ثم بين خمسينيات القرن التاسع عشر وتسعينياته، تقلّصَ وقت الرحلة من إنجلترا إلى كيب تاون Cape Town من اثنين وأربعين يومًا إلى ثمانية عشر يومًا. وعلاوة على ذلك، صارت البواخر أكبر وأسرع؛ ففى الفترة نفسها تضاعف متوسط الحمولة الإجمالية تقريبًا. وبالإضافة إلى قِصَر الوقت اللازم لعبور المحيطات من العاصمة إلى أرجاء الإمبراطورية، قلّت التكلفةُ كثيرًا. تقلّصَتْ تكلفةُ الشحن البحرى لمكيال القمح من نيويورك إلى ليفربول Liverpool، إلى النصف بين عامىْ 1830 و1880، ثم تقلّص هذا النصفُ مرة أخرى إلى نصفه بين عاميْ 1880 و1914.

العجائب الأكبر أثارها التلغرافُ. فبعد عام 1866، كان من الممكن نقل معلومات عبر الأطلنطي بمعدل ثماني كلمات في الدقيقة.

تناقَصَ الاتجاهُ نحو جَعْل السيطرة مركزيةً بشكل فورى واضح. فأُقِيمتْ شبكةُ السكك الحديدية البريطانية بعد عام 1826 بحدٍّ أدنى من تدخُّل الدولة: السكك الحديدية التى أقامها البريطانيون فى جميع أنحاء إمبراطوريتهم، أنشأتها شركاتُ القطاع الخاص بدَعْمٍ حكومى سخىٍّ، الأمر الذى ضمن توزيع ا لأرباح على المساهمين. الخط الأول فى الهند، الذى يربط مدينة بومباى Bombay بمدينة ثين Thane، بمسافة واحد وعشرين ميلا ً، افْتُتِحَ رسميًا فى عام 1853؛ وفى أقل من خمسين عامًا، غطّى مسارُ القطار 25 ألف ميل تقريبًا. وهذه الشبكةُ منذ بدايتها ذات أهداف إستراتيجية واقتصادية. وينطبق الأمر نفسه على التلغراف، الذى طُوّرَ بكفاءة فى الهند بحلول عام 1857 ليلعب دورًا حاسمًا فى قَمْع عصيان ذلك العام الذى نظّمه جنود محليون متمرّدون. (قال أحد المتمردين - وهو فى طريقه إلى الإعدام - إن التلغراف هو «السلسلة الملعونة التى شنقتنى»). وأما الاختراق [التقدُّم المفاجئ] الحاسم فى مركزية الاتصالات فكان إنشاءَ كابلات متينة تحت البحر.

والكابلاتُ منتجٌ إمبريالى: نوع من المطاط من مالايا Malaya [البريطانية][437]

---

[437]مالايا البريطانية: يطلق هذا الاسم على مجموعة ولايات فى شِبْه جزيرة المالايو وجزيرة سنغافورة خضعت للسيطرة البريطانية والحُكْم البريطانى غير المباشر بين القرنين الثامن عشر والعشرين - المترجم.

يُسمّى كوتابيركا [أو الطبرخى][438] percha-gutta جَعَلَ صناعةُ الكابلات العازلة ممكنةً؛ فأمكنَ وَضْعُ أول كابل يعبر القنال فى عام 1851، ولحقه أولُ كابل يعبر الأطلنطى بعد خمسة عشر عامًا. وعندما وُضِعَ أولُ خط تلغراف ناجح عَبْرَ الأطلنطى، بَزَغَ فجرُ عصر جديد. فالكابل الذى عَبَرَ من أيرلندا إلى نيوفندلاند[439] Newfoundland، أَوْعَزَ بأن القوة التى ستُهيمن هى عصر التلغراف. وبحلول عام 1880، كان يوجد ما مجموعه 97.568 ميلا ً من الكابلات عبر محيطات العالم، تربط بريطانيا بالهند وكندا وأستراليا، وأفريقيا وأستراليا.

صار من الممكن نقلُ رسالة من بومباى إلى لندن بتكلفة أربعة شلنات للكلمة بقدر مماثل من الدقائق. وعلى حدِّ تعبير تشارلز برايت Charles Bright، رائد التكنولوجيا الجديدة، التلغرافُ هو «منظومة أعصاب العالم الكهربية». وكما قال أحد المعلِّقين الإمبرياليين البارزين، حققت الثورةُ الفيكتورية فى الاتصالات الكوكبية «إعدامًا للمسافة».

وهو ما جعل ممكنًا أيضًا إعدام المسافات الطويلة. وقد أعلنت الديلى تليجراف Daily Telegraph أن «الزمن نفسه صار تلغرافيًا»[442].

المتمرّدون هم الذين تجرأوا على تحدِّي النظام العالمي الإمبريالي.

رغم المزايا الإستراتيجية التى حققتها شبكة الكابلات العالمية، التى تسَارَعَ نموُّها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، فقد ظلت مِلكيتها فى أيدى القطاع الخاص إلى حد كبير. فلم تكن الملكة فيكتوريا هى التى حققت الحلم ببَرْقيات تعْبُرُ الأطلنطى، بل إسكتلندى شغوفٌ بالمغامرة اسمه جون بليندر John Plender.

وُلِدَ بليندر فى وادى ليفين Vale of Leven [بإسكتلندا]، وجمع ثروته الأولى من تجارة القطن فى جلاسكو ومانشستر، ثم حثّته تجربتُه بوصفه تاجرًا ينتظر باستمرار الأخبار من وراء البحار، على الاستثمار أولا ً فى شركة التلغراف المغناطيسى الإنجليزية والأيرلندية English and Irish Magnetic Telegraph Company، ثم فى شركة التلغراف الأطلنطية Atlantic Telegraph Company. وتدهور استثمارُه الثانى عندما تمزّقَ الكابلُ الموضوع [تحت المياه] بشقٍّ الأنفس عام 1858؛ بسبب خطأٍ «كهربائىٍّ كبير» غير مؤهّل،

---

[438]كوتابيركا أو الطبرخى: مادة اللاتكس المتخثّرة فى بعض الأشجار الاستوائية، وتُستخدَم في العَزْل الكهربائي، ولاحقًا في طب الأسنان - المترجم.

[439]نيوفندلاند: مقاطعة على الساحل الأطلنطى الكندى شمال شرق أمريكا الشمالية - المترجم.

أرادَ تحسينَ وضوح الإرسال عن طريق زيادة الجهد الكهربى بعامل أكثر من ثلاثة. حاول بليندر مرة ثانية فى عام 1865، فأدمج شركة التلغراف الأطلنطى فى شركة جديدة هى شركة تركيب التلغراف وصيانته Telegraph Construction and Maintenance Company. فوقعت كارثةٌ للمرة الثانية عندما انقطع كابل معزول بشكل أفضل، ولكنه أثقل بكثير، وغرق فى قاع المحيط، في منتصف المسافة عبْر الأطلنطي.

وبأعصاب هادئةٍ وشَجَاعةٍ كبيرة، أصرّ بليندر وشريكه دانيال جوش Daniel Gooch - مهندس السكك الحديدية الإنجليزى الذى أنشأ شركة جديدة هى شركة التلغراف الأنجلوأمريكية المحدودة Anglo-American Telegraph Company Ltd - على استكمال المشروع، فنجحت المحاولةُ الثالثة. ووَصَفَ جوش - الذى أشرف بنفسه على وَضْعِ الكابل الناجح من الباخرة الشرقية الكبيرة Great Eastern، أكبر باخرة يومها - وَصَفَ البهجةُ التى اسْتُقْبِلَ بها هو وطاقمه عندما وصلوا إلى مدينة هيرتس كونتنت Heart's Content، فى نيوفندلاند:

هناك... كانت الإثارةُ الأكثر جموحًا بطريقة لم أرها من قبل. بدا الجميعُ فرحين بجنون، يقفزون إلى الماء ويصرخون وكأنهم يريدون إسماع صوتهم فى واشنطن.

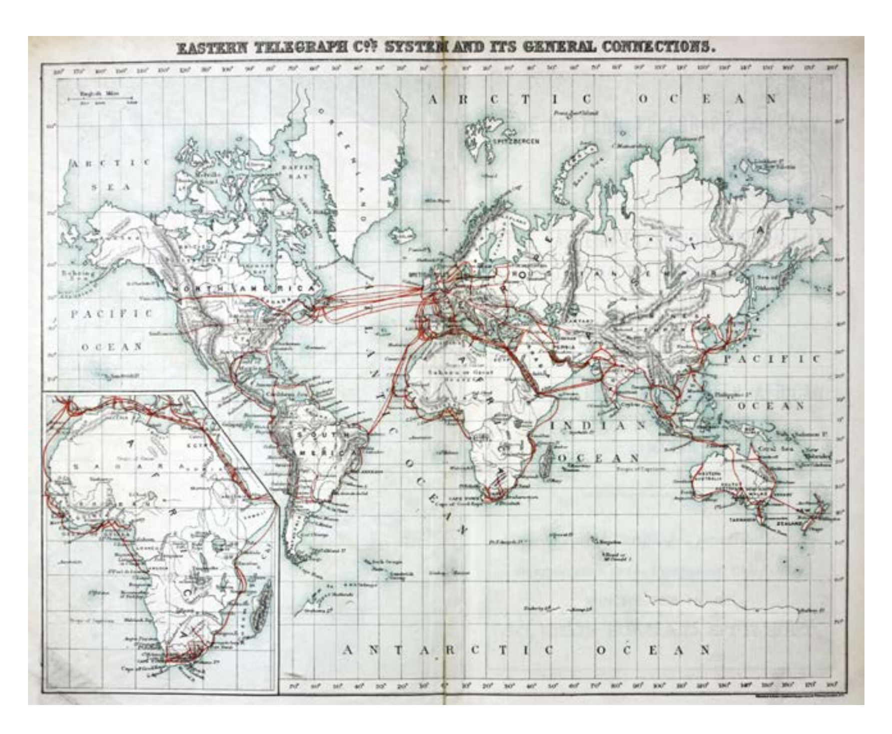
وبمجرد أن لمس الكابلُ الأرضَ أُجْرِيتْ إشارةٌ من الشاطئ، فأطلقت جميعُ السفن فى الميناء نيرانَ مدافعها على سبيل التحية. لا أعرف كم عدد المدافع التى أطلقت التحيةَ، لكن الصخب كان هائلا ً، وسرعان ما أخفى الدخانُ السفنَ عن أعيننا. أصداءُ صوت المدافع بين التلال حول الخليج مَهُولةٌ... وبمجرد وصول [الكابل]...

اسْتُخدِمَ المنزلُ الخشبى بوصفه مكتب تلغراف... فحَدَثَ مشهدُ إثارة جامح آخر. جوانب الكابل القديم بَدَتْ وكأنها مأكولة الطرف؛ وضعها رجل بالفعل في فمه وبدأ يرتشفها[443].

بعد يومين، رأى جوش بعض أفراد طاقمه يقرأون مقال جريدة التايمز Times الرئيسى الذى يحتفى بإنجازهم. «ثم قال أحدهم لآخر: «لقد أحْسَنّا يا بيل لِعرْقنا»، فرَدّ بيل: «نعم لقد أحْسَنّا»، وهو يختال رافعًا رأسه إلى أعلى، بوصتين على الأقل»[444].

فى عام 1868 حين قامت الحكومة البريطانية بتأميم شبكة التلغراف المحلية، لم تحاول تأميم الكابلات العابرة للأطلنطى. ولم يُضِعْ بليندر وقتًا؛ ففى عام 1869 أسّسَ شركة تلغراف فالموث وجبل طارق ومالطة Falmouth, Gibraltar and Malta Telegraph Company، وشركة التلغراف البحرى

البريطانية الهندية Indian Submarine Telegraph Company-British ، و التلغراف البحرى الصينى China Submarine Telegraph. وفى غضون بضع سنوات فقط، اتصلت لندن تلغرافيًا بمالطة والإسكندرية وبومباى وسينغافورة وهونج كونج. وبحلول عام 1872، ربطت شركتان أخريان أسّسهما بليندر بومباى بمدينة أديلايد Adelaide [فى أستراليا] عن طريق سنغافورة. وبعد أن أدمج بليندر العناصر الجوهرية فى إمبراطورية كابلاته المتنامية ليُشكِّل منها شركة التلغراف الشرقى Eastern Telegraph Company، وَاصَلَ التوسُّعَ بلا توقف، فرَبَطَ لشبونة بمدينة بيرنامبوكو Pernambuco فى البرازيل عام 1874، وفى ثمانينيات القرن التاسع عشر وصل إلى أفريقيا. لقد أسّس بليندر اثنتين وثلاثين شركة تلغراف، انتهى الحال بمعظمها إلى كوْنها شركات تابعة لشركة التلغراف الشرقية. وعند وفاته فى عام 1896، كان بليندر يسيطر بشركاته التي يمتلكها على ثلث نظام التلغراف العالمي (الشكل التالي).



المخترعون يُجَرّبون. ورجال الأعمال يستثمرون ويتنافسون. والحكومات تجنى مصالح إستراتيجية. وقد نُظِّمتْ الكياناتُ الدولية - كاتحاد التلغراف الدولي الذي أُنْشِئ عام 1865 - أو على الأقل تناغمت فيما بينها[445].

لكن ما ظهر، فى نهاية المطاف، احتكارٌ ثنائىٌ من القطاع الخاص للإبْراق الدولى: عندما أحرز الأنجلو أمريكان مكانةً بعد عام 1910، سيطرت الشركة ا لأمريكية ويسترن يونيون Western Union على حركة المرور عبر الأطلنطى، أما شركة التلغراف الشرقي Eastern Telegraph فأدارت بقيةُ العالم.

لندن هى محور النظام بأكمله، ولم تكن الحكومة فى حاجة إلى امتلاك الشبكة امتلاكًا مباشرًا، كما لم تكن فى حاجة إلى حُكم ولايات الهند الأميرية حُكمًا مباشرًا. ذلك أن بليندر الليبرالى، ولاحقًا العضو الاتحادى الليبرالى Liberal Unionist فى البرلمان منذ ستينيات القرن التاسع عشر، والحاصل على وسام كى سى إم جى KCMG فى عام 1888 وجى سى إم جى GCMG فى عام 1892، يمكن الاعتماد عليه بوصفه عضوًا كاملا ً تمامًا فى تلك النُّخْبة السياسية البريطانية المهووسة بالمكانة الاجتماعية، التى صَوّرها أنتونى ترولب[440] Trollope بشكل هجائى فى روايته «الطريقة التى نعيش بها الآن» The Way We Live Now (1875).

كان تسلسل الأحداث الذى بدأ من مشروعات بليندر الجريئة، وصولا ً إلى

---

[440]أنتوني ترولب: (1815 - 1882)، روائي بريطاني من العصر الفيكتوري - المترجم.

إنشاء شبكة تلغراف عالمية، هو السمة المميزة للإمبريالية فى القرن التاسع عشر. وقد أدّت عمليةٌ مماثلةٌ - بعض الشىء - إلى تطوير مزارع المطاط فى ما لايا، مصدر الكوتابيركا، التى بدونها تستحيل تقنيًا شبكةُ الكابلات عبر المحيطات. المغامر المشاكس عبر البحار، هنرى ويكهام Henry Wickham، بعد فشله فى التجارة والزراعة، حصل على بذور شجرة المطاط هيفيا برازيلية Hevea brasiliensis من البرازيل وأرسلها إلى لندن. ودَعّمَ جهودَه السير كليمنتس ماركهام Clements Markham، سكرتير الجمعية الجغرافية المَلَكيّة Royal Geographical Society، وتمت عمليات البحث والتطوير الحقيقية فى الحدائق النباتية المَلَكيّة Royal Botanical Gardens فى كيو Kew [جنوب غرب لندن] (ومديرها جوزيف هوكر Joseph Hooker صديق تشارلز دارون Charles Darwin) ومثيلاتها فى سيلان [سيريلانكا] Ceylon وسنغافورة. وتُركَ الاستثمارُ فى مزارع كبيرة جنوب شرق آسيا، ولا سيما ولا يات المالايو Malay States، لرأس المال الخاص. ولم تُشاركْ سلطات المالايو ا لاستعمارية إلا حين انهارت الأسعار بعد الحرب العالمية الأولى[446].

لقد كان السببُ الرئيسى فى صمود الإمبراطورية البريطانية، مع اتساع رقعتها، ما أسبغته من رُتُوشِ سلطةٍ مركزية خفيفة. فرغم أن نظريتَها هَرَميّة - بل صَنّفَ المنظِّرون الفيكتوريون العنصريون، من أمثال جون بوشان، الجنسَ البشرى طبقًا لمستويات ذكاء وراثية - فقد ارتكزت ممارستُها العملية على تفويض الحُكّام المحليين والشبكات الخاصة بسلطة كبيرة. وعلى عكس إمبراطورية نابليون الأوربية قصيرة العمر، لم تكن الإمبراطورية البريطانية تُدَارُ بعبقرية إدارية صُغْرَى، بل أدارها نادٍ من الهُواة المهذبين اللائقين، اعتمد تفوّقُهم - الذى يبدو أنه دون مشقة - على مساعٍ مجهولة بَذَلَها وكلاء محليون ومتعاونون من أهل البلد. أُدِيرَ كلُّ جانب من جوانب التوسُّع البريطانى بهذه الطريقة تقريبًا، بدءًا من المال [الموارد المالية][447] إلى العمل التبشيري[448].

«المكتب الرئيسى» كان فى لندن، ولكن «الرجل فى الموقع» تمتع باستقلالية كبيرة، ما دام لم يُظْهِرْ أيّ علامات على «التأقلم مع الأصل». وفى بعض الحالا ت، انتشر النفوذ البريطاني بلا توجيه مركزي تقريبًا.

ومثال ذلك انتشارُ نظام الرقابة على التعليم الابتدائى فى أمريكا اللاتينية، وهى منطقة حَكمَتْها الإمبرياليةُ غير الرسمية. هذا النظام التعليمى الذى طوّره جوزيف لانكاستر Joseph Lancaster وأندرو بيل Andrew Bell كى يُطَبّقَ فى إنجلترا والهند البريطانية، جَلَبَه إلى أمريكا الجنوبية فى القرن التاسع عشر مجموعةُ سياسيين أمريكيين ذوى أصل أسبانى عرفوه فى لندن، وجيمس طومسون James Thomson الممثل المتنقل لجمعية المدارس الأ جنبية والبريطانية British and Foreign School Society وجمعية الكتاب

المقدس البريطانية والأجنبية British and Foreign Bible Society، و الجمعية الاقتصادية المَلَكيّة لأصدقاء البلد Spanish Real Sociedad Económica de Amigos del País[449].

سار الاتجاه الاقتصادى فى أواخر القرن التاسع عشر، بشكل واضح، نحو زيادة العوائد بالإنتاج واسع النطاق[441].

ففى كل قطاع صناعى تقريبًا، وُجِدَ اتجاهٌ واضح نحو التركيز. نمت الشركات بقدر أقل، وقِلّةٌ منها نمت نموًا هائلا ً. وباستثناءات قليلة بارزة مثل شراكة روتشيلد المَصْرفية، كفّت الشركات الكبرى عن أن تملكها وتديرها عائلاتُ مؤسِّسيها. فعلى ضفاف نهر كلايد River Clyde [فى إسكتلندا]، كالحال فى جميع أنحاء العالم الصناعى، صارت شركاتُ المساهمة[442] joint-stock companies الشكلَ المهيمن على المشروعات الكبيرة[450].

أندرو كارْنِجى[443] Andrew Carnegie المهاجر الإسكتلندى إلى الولايات المتحدة، كان بونابرت الصناعة، وشركة الفولاذ المُسَمّاة باسمه هى إحدى الشركات العملاقة فى العصر الذهبى الأمريكى. يشرح كارْنِجى فى مقال له نُشِرَ عام 1889 قائلا ً:

«الثمنَ الذى يدفعه المجتمع من أجل قانون المنافسة»، كالثمن الذى يدفعه

---

[441]الإنتاج واسع النطاق يعنى انخفاض متوسط التكلفة الكلية على المدى الطويل - المترجم.

[442]شركات المساهمة: شركة يُقسّمُ فيها رأسُ المال إلى أسهم قابلة للتداول. ذات كيان قانونى مستقل عن حَمَلَة أسهمها، أىْ لها شخصية اعتبارية مستقلة عن أصحاب حقوق المِلكية. وتنقسم الشركات المساهمة إلى شركات مساهمة عامة وشركات مساهمة خاصة. و لا يُسْأَلُ الشريكُ في الشركة المساهمة إلا عن قدر حصته في رأس المال - المترجم.

[443]أندرو كارْنِجى: (1835 - 1919)، رجل صناعة أمريكى ومُنشِئ مؤسّسة كارْنِجى. من مواليد إسكتلندا، هاجر مع عائلته إلى بنسلفانيا بالولايات المتحدة وهو فى سن الحادية عشر من عمره. عمل فى البداية خادمًا فى أحد المصانع الصغيرة، ثم انتقل إلى العمل فى شركة سكك حديدية، واقترح على أصحابها تصنيع قاطرات بها أَسِرّة نوم. فى عام 1862، أسّس شركة لبناء الجسور ثم انطلق فى مجال صناعة الفولاذ وضاعف شركاته وأعماله. خلال الأزمة الاقتصادية عام 1892، عرفت شركات كارْنِجى - على عكس مثيلاتها - ازدهارًا، مستفيدةً من بعض التشريعات التى سَهّلَتْ أعمالها. وعندما اندمجت شركات الحديد و الصلب فى عام 1901 ترأس كارْنِجى هذه الإمبراطورية الصناعية الضخمة، لكنه سرعان ما لبث أن اعتزل النشاط الصناعى، واتجه إلى النشاط الثقافى والأعمال الخيرية، فأنشأ فى عام 1905 مؤسسة كارْنِجى الخيرية الثقافية برأس مال عشرة ملايين دولار، وغيرها من المؤسسات ومراكز الأبحاث - المترجم.

فى وسائل الراحة الرخيصة والكماليات، ثمنٌ... كبير؛ لكن مزايا هذا القانون تظل أكبر أيضًا، فنحن مدينون لهذا القانون بتطوُّرنا المادى الرائع، الذى حَسّنَ الظروفَ فى تسلسلها. ويجب علينا، سواء كان القانون نافعًا أم لا، أن نتحدث عنه كما نتحدث عن التغيُّر فى ظروف الرجال... فهو موجود؛ ولا يمكننا تجنُّبه؛ ولا بدائل له نعثر عليها؛ ومع أن القانون ربما يكون قاسيًا أحيانًا بِالنسبة إلى الفرد، فهو أفضل بالنسبة إلى العِرْق، لأنه يضمن البقاء للأصلح فى كل فرع.

لذا، نتقبل التفاوت الكبير فى البيئة، وتركيز الأعمال الصناعية والتجارية فى أيدى القِلّة، ونحتفى بذلك، بوصفها الظروف التى علينا التأقلم معها، وقانون المنافسة بين هذه القِلّة مفيدٌ بل ضروريٌّ لتقدُّم العِرْق مستقبلا ً... هذه الحالة التي تتَعزّزُ في ظلها أفضلُ مصالح العِرْق... تُعْطِي الثروةَ للقِلّة حتمًا[451].

لكن كارْنِجِى لم يَسْعَ إلى تأسيس سُلالة عائلية؛ بل احتقرَ الثروةَ الموروثة، وتبرّع بكل ثروته تقريبًا. شركة كارْنِجِى للصلب Carnegie Steel Company، وهى نفسها نتاجُ اندماج حَدَثَ فى عام 1892، دخلت - بعد تسع سنوات - فى بطن شركة الولايات المتحدة للصلب United States Steel Corporation الهائلة (مع أنها غير احتكارية). ولم يقتصر تركيز رأس المال على مجالىْ التلغراف والصلب. فقد نما النظام المالى الدولى كما تنمو شبكةٌ حرةَ النطاق ذات كمٍّ هائل من الثروة المالية المتركِّزة فى عدد قليل من المراكز المالية، ومنها لندن التي هي أقدم المجموعة[452] primus inter pares.

وانطبق الحالُ نفسُه على الأخبار. لقد بدا العالم للوهلة الأولى مغمورًا بصُحف محلية لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى؛ وأما عند الفحص الدقيق فسنكتشف أن التزويد بالأخبار الوطنية والدولية هَيْمَنَ عليه كارتلٌ[444] cartel يتكون من ثلاث وكالات أخبار أوربية – رويترز[445] Reuters وهافاس[446] Havas ومكتب تلغرافات

---

[444]كارتل: مصطلح لاتينى مشتق من كلمة Charta اللاتينية التى تعنى «ميثاق». والكارتل اتفاقٌ مكتوب غالبًا بين عدد من المشاريع فى فرع معين من فروع الإنتاج، مع الإبقاء على شخصية كل مشروع الاعتبارية من الناحية القانونية والاقتصادية، بحيث لا تندمج المشروعات أو الشركات مع بعضها كما هو الحال فى اتفاقيات الترست Trust التى تتنازل فيها المشاريع عن استقلاليتها. ويختلف الكارتل عن الشركة القابضة Holding Company التى تقوم على أساس المساهمة الفعلية فى رؤوس أموال الشركات التابعة. هناك أنواع من الكارتل، أهمها: كارتل تحديد الأسعار، كارتل تحديد الإنتاج، كارتل تقسيم الأسواق. و الكارتل في عمومه اتحاد احتكاري - المترجم.

[445]رويترز: وكالة أنباء بريطانية عالمية أسّسها عام 1851 رجلُ الأعمال الألمانى الأصل جوليوس رويتر - المترجم.

وولف[447] Wolff's Telegraphischs Bureau - تُعَادُ طباعةُ تقاريرها فى الغالبية العظمى من الصحف[453].

وبحلول أواخر القرن التاسع عشر، كشَفَ العالِمُ الأكاديمى عن علاماتِ مركزيةٍ أيضًا. فشبكة الثورة العلمية، الدولية الواسعة، صارت مع نموها الهائل فى أهمية الجامعات الألمانية[454].

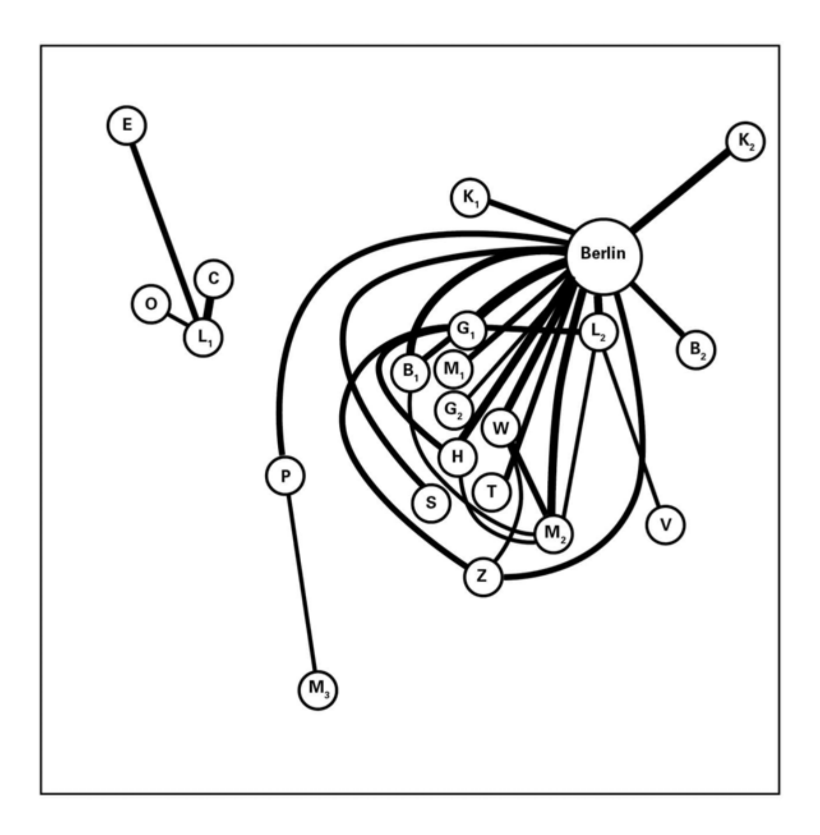
والتعليم الألمانى كان يُقلِّدُ نظامَ الجيش البُروسِّى Prussian army فى صرامة بنيته الهَرَميّة. ففى المدارس الثانوية Gymnasien - مدارس النُّخْبة العليا - يجلس الأولاد في الفصل وَفْقًا لموقعهم في الترتيب الأكاديمي[455].

وفى الجامعات الكبرى - جوتِنجن Göttingen وهايْدلبرج Heidelberg وييِنا Jena وماربورج Marburg وتوبِنجن Tübingen - كان الأساتذةُ كالضبّاط الصارمين يَستبدُّون بطلبتهم فى الدراسات العليا. ومن حيث زيادة جودة البحوث المنشورة وكمِّها فى الحقول التى تراوحت من الأدب الكلاسيكى إلى الكيمياء العضوية، كان النظامُ يعمل [بالصرامة نفسها]. ورغم تخلُّف الإمبراطورية الألمانية عن نظيرتها البريطانية فى الاستحواذ على الأراضى عبر البحار، فقد تقدّمت في العلوم ومن ثمّ الصناعة.

---

[446]هافاس: وكالة إعلامية أسّسها عام 1835 شارل لويس، وبدأت نشاطها فى المغرب عام 1904، ثم تحولت فيما بعد إلى وكالة الأنباء الفرنسية عام 1944 - المترجم.

[447]مكتب تلغرافات وولف: أسّسه برنار وولف رجل الأعمال اليهودى فى برلين عام 1849 - المترجم.



الشكل رقم: 19 - شبكات الممارسة العلمية فى القرن التاسع عشر: هيمنة الجامعات الألمانية. ويقوم الرسم البيانى على أساس الأماكن التى عمل فيها علماء القرن الروّاد.

B1 Bonn, B2 Breslau, C Cambridge, E Edinburgh, G1 Göttingen, G2 Giessen, H Hiedelberg, K1 Kiel, K2 Königsberg, L1 London, L2 Leipzig, M1 Marburg, M2 Munich, M3 Montpellier, O Oxford, P Paris, S Strasbourg, T Tübingen, V Vienna, W Würzburg, Z Zurich.

كانت النُخْبةُ البريطانية منفتحةً نسبيًا. فالأرستقراطيون استثمروا فى السكك الحديدية، وانضموا إلى مجالس إدارة البنوك، وزوّجوا أولادَهم من «المال الجديد» اليهودى أو الأمريكى. أما الحياة فى ظل الرايخ الألمانى German Reich فتميزت بتطعيم الحداثة الاقتصادية ببنية اجتماعية ما قبل صناعية، تحتفظ فيها طبقةُ الأرستوقراطية البروسيّة النبيلة Prussian Junker باليد العليا. وتُذكِرنا دراساتُ المجتمعات الريفية فى وسط أوربا وشرقها فى القرن التاسع عشر بذلك، فلدى النسبة الكبيرة من السكان الأوربيين كانت الحداثةُ احتمالاً بعيدًا، حتى فى عام 1850، وكلما انتقل المرء إلى الشرق أبعد، عاد إلى الوراء فى الزمن أيضًا. فعاشت الجماعات الألمانية خارج الرايخ عالمًا لا يصادفه سكانُ لندن إلا فى حكايات الأخوين جريم

Brothers Grimm[448] فى وادى جَيل النمساوى Austrian Gail، هيمنت أنماطُ «زواج الأقارب البنيوى أو الهَيْكلى» على قرارات الزواج والنَّسَب كما كان الحال منذ القرن السادس عشر[456]. وعلى أراضى بينكِنهوف Pinkenhof الزراعية، فى مقاطعة ليفونيا البلطيقية الروسية[449] Russian Baltic province of Livonia، وُجِدَتْ عائلاتٌ كثيرة تعيش معًا فى أكواخ خشبية تحت إشراف رئيس عُمّال يُوجِّه عملَهم في الحقول الزراعية[457].

ولكن واقع الحال أن التصنيع وإرساء معالِم الديمقراطية - الجارى تحقيقهما لمعظم الألمان مع تأسيس الرايخ فى عام 1871 - طرحا تحديات جوهرية على النظام القديم. فى رواية تيودو فونتانه[450] Theodor Fontane «ستيتشلين» Der Stechlin المنشورة عام 1899، يرمز مصنعُ الزجاج المحلى فى جلوبسو Globsow إلى قرْب انهيار النظام الريفى القديم فى إمارة براندِنبورج[451] Mark of Brandenburg. ويَرْثو الأرستوقراطى القديم دوبسلاف فون ستيتشلين Dubslav von Stechlin قائلا ً:

إنهم... يرسلون [المُقطّرات التى يصنعونها] إلى مصانع أخرى، وعلى الفور تبدأ فى تقطير كل أنواع الأشياء البغيضة داخل هذه البالونات الخضراء: حامض الهيدروكلوريك، حامض الكبريتيك، بخار حامض النيتريك... وكل قطرة تترك ثقبًا محترقًا، سواء فى الكتان أو القماش أو الجلد؛ وفى كل شىء؛ كلُّ شىء محترقٌ وشائِطٌ. وحين أفكر فى أن أهل جلوبسو يلعبون دورًا فى هذا، بل يُوفِّرون بسعادة تامة أدوات إحراق العالم الكبير، يُصيبني الألمُ[458].

---

[448] أثبتت مجموعةُ يعقوب وفيلهيلم جريم Jacob and Wilhelm Grimm عام 1812 من الحكايات الألمانية التقليدية للأطفال - حكايات الأطفال والبيت الخرافية Kinder - und Hausmärchen - أنها من أنجح المنشورات فى القرن التاسع عشر. كان الأخوان عالِمىْ فولكلور جادّيْن، درسا فى جامعة ماربورج Marburg تحت إشراف الفقيه والمؤرّخ القانونى الألمانى البارز كارل فون سافينى Karl von Savigny. فكانا نموذجيْن لجيلهما فى الجَمْع بين الرومانسية والليبرالية والقومية. بل انتُخِبَ يعقوب للجمعية الوطنية National Assembly في وقت ثورات عام 1848 - المؤلف.

[449] ليفونيا: إحدى مقاطعات البلطيق فى الإمبراطورية الروسية، مقسّمة الآن بين جمهوريتيْ لاتفيا وإستونيا - المترجم.

[450] تيودور فونتانه: (1819 - 1898)، روائى وشاعر ألمانى ينتمى إلى واقعية القرن التاسع عشر - المترجم.

[451] براندِنبورج: إمارة ألمانية انتهت بتفكك الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام 1806، وصارت مقاطعةً بروسِيّة في عام 1815 - المترجم.

وقد تعرّضت شبكات الوُجَهاء Honoratioren [من الأرستوقراطية النبيلة]، التى سيطرت عائلاتهم على هياكل السلطة المحلية لأجيال[459]، لهجمات متواصلة من الأحزاب السياسية القومية الجديدة، بل من البيروقراطيات النامية على المستوى القومى والإقليمى والمحلى أيضًا. فَهِمَ السوسيولوجى العظيم ماكس فيبر[452] Max Weber (الذى أدّى به كفاحه، كى يتفوق بوصفه مثالا ً نموذجيًا للأستاذ التيوتونى[453] Teutonic، إلى انهيار عصبى) هذا التقدمَ بوصفه عَقْلنة للعملية السياسية و«نزع الغموض» عن العالم. ولكنه فَطِنَ أيضًا إلى أن سلطة الديماجوجيين ستتمكّنُ من الاشتغال فى مشهد سياسي يتزايد خُلوُّه من الشبكات التقليدية.

---

[452]ماكس فيبر: (1864 - 1920)، عالِم اجتماع ألمانى، أحد مؤسِّسى علم الاجتماع الحديث، من أهم أعماله «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» - المترجم.

[453]التيوتونى: إشارة إلى أيديولوجية عِرْقية شاعت فى أوائل القرن العشرين تعتبر الجرمانَ متفوقين عرقيًا. ومن المحتمل التورية الخفية إلى منظمة فرسان تيوتون الجرمانية التى تأسّست عام 1190 فى عكا لحماية المسيحيين أثناء رحلاتهم إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين، وشاركت فى الحروب الصليبية، والتى صارت بدءًا من عام 1929 منظمة دينية بحتة تمنح الفروسيةَ الشرَفية مقابل الأعمال الخيرية والإسهام الحميد فى المجتمع - المترجم.

30

تايبينج

بينما وَسّعَت الإمبراطورياتُ الأوربية شبكاتِها الحديديةَ والفولاذية المُغلّفة بـ المطاط فوق الأرض وتحت البحر، واجهت السلالاتُ الإمبريالية الباقية على قَيْد الحياة فى العالم الشرقى - وبخاصة آل عثمان ومملكة تشينج[454] Qing - معضلةُ إلى أيٍّ مدى يمكنها محاكاة أساليب الأوربيين. لقد اختلف هيكل السلطة فى إمبراطورية تشينج اختلافًا كبيرًا عن هياكل السلطة فى الإمبراطوريات الغربية. إذ استمرت شبكاتُ القرابة العائلية فى الهيمنة على السلطة المحلية لقرون عديدة[460]. ومع ذلك، وكما رأينا فى الفصل 11، اُخْتير المسؤولون الإمبرياليون على أساس اختبارات كفاءة تنافسية، وهو ما كان من شأنه تنْحية أية ولاءات سوى الولاء الأهم والأكبر للإمبراطور[461].

وللحقيقة، أُطْلِقَ على الصين فى عهد سلالة تشينج الحاكمة «مَلَكيّة بيروقراطية»، يحكمها «رجالٌ تُقدّرُ وظائفهم بالنفوذ والسلطة، والحركية و الحماية داخل نظام هَرَمي»[462].

كان كابوسُ كلّ سلالة تالية تمرُّدًا تقوده شبكةٌ تنشأ من آنٍ لآخر فى المقاطعات. بل وُجِدَ تقليدٌ بين المسؤولين الكونفوشيين، ألا وهو تخيُّل وجودِ تهديد متكرّر من جمعيّة غامضة هى «جمعيّة اللوتس البيضاء» White Lotus Society، التى ضمّتْ مجموعةً من البوذيين العَلْمانيين ترجع أصولهم إلى الناسك الشهير هُويّوان[455] Huiyuan فى عام 402 ميلاديًا. وعلى مدار عهود يوان[456] Yuan ومينج[457] Ming وتشينج، وُجِدَ ميلٌ إلى تعريف أى فكر

---

[454]مملكة تشينج: تُعْرَفُ أيضًا باسم إمبراطورية تشينج العظيمة، آخر ممالك الصين التى حكمت من عام 1644 حتى عام 1912، مع محاولة استعادة قصيرة وفاشلة للحُكم عام 1917. سبقتها في الحُكم أسرةُ مينج، وتلتها جمهوريةُ الصين - المترجم.

[455]هويّوان: (334 - 416)، معلِم بوذى صينى، أسّس معبد دونجلين على جبل لوشان فى مقاطعة جيانجشى. وإليه تنْسِبُ جمعيةُ اللوتس البيضاء نفسَها، التى بدأ أتباعُها فى قيادة حركة تمرد عام 1794 تمكنت حكومةُ تشينج من سَحْقه عام 1804، بعد مقتل حوالى مئة ألف متمرد - المترجم.

[456]يوان: سلالة إمبراطورية أنشأها كوبلاى خان Kublai Khan زعيم قبيلة بورجيجن المنغولية. كانت أول سلالة أجنبية تحكم جميع أنحاء الصين، واستمرت حتى عام 1368 - المترجم.

[457]مينج: سُلالة إمبراطورية من عام 1368 حتى عام 1644، وتعود فى نسبها البعيد إلى سـ

تحرُّرى بأنه تعاليم اللوتس البيضاء White Lotus Teachings، أو «تعاليم هَرْطقية» أو «مسيحية»[463].

وكما اجتاح فرنسا الثوريةَ «خوفٌ كبيرٌ» فى عام 1789، اجتاح الإمبراطوريةَ الصينيةَ - قبل عقدين من الزمان فقط - حالةُ ذعر من «سرقة الروح»، ف القرويون يَتّهمون النُّسّاك الجوّالة المُعْدمين، بل المسؤولين الرسميين، والإ مبراطور أيضًا، بالاستيلاء سحريًا على الأرواح البشرية[464].

وقد نجح الإمبراطور تشيان لونج[458] Qianlong فى استغلال حالة الذعر لصالحه، فأعاد تأكيدَ سلطته على البيروقراطية الإمبراطورية. ولكن هَوَسَ mania سرقة الروح كشَفَ عن ضعف خطير فى النظام، ألا وهو أن المعايير الأ وربية اخترقت كفاءةَ النظام البيروقراطية إلى حدٍّ ما، وأن شرعيته صارت محلّ تساؤل.

كان النظامُ، في القرن التاسع عشر، قويًا بما يكفى لتوسيع حُكْم تشينج شمالا ً وغربًا، إلى أبعد من الأراضى التاريخية الأساسية التى حكمتها سلالةُ مينج وأسلافها[465]، ولكنه أضعف من أن يقاوم الانتهاكات الأوربية، ولا سيما البريطانية، التى بدأت فى أربعينيات القرن التاسع عشر؛ كان النظام قويًا بما يكفى، فقط، للنجاة من أزمة داخلية أقوى من أزمتىْ اللوتس البيضاء وسرقة الأرواح، ألا وهي تمرُّد التايبينج[459] Taiping Rebellion.

لالة أباطرة الصين القدامى هان. حلّتْ محلّ سلالة يوان المنغولية وتلتها سلالة تشينج. حكمت أسرةُ مينج الإمبراطورية مناطقَ شاسعة امتدت إلى كوريا الشمالية ومنغوليا وأقاليم تركستان. تمتعت الصين فى عهدها باستقرار دَامَ لأكثر من 300 سنة، يحميه جيشٌ كبير شمل مليون جندي وأكبر أسطول بحري من نوعه في العالم - المترجم.

[458]تشيان لونج: (1711 - 1799)، رابع إمبراطور من أسرة تشينج. تقلّدَ الحُكْمَ رسميًا يوم 11 أكتوبر عام 1735 حتى فبراير عام 1796، إذ تنحّى عن الحُكْم لابنه الإمبراطور يونج تشينج، ولكنه ظل محتفظًا بالسلطة المطلقة حتى وفاته - المترجم.

[459]تمرُّد التايبينج: حرب أهلية واسعة النطاق فى جنوب الصين، امتدت من عام 1850 حتى عام 1864. قاد التمردَ هونج شيوكوان المُهَرْطِقُ المسيحى المتحوّل عن دينه، الذى ادّعى أنه شقيق يسوع المسيح الأصغر، وزَعَمَ نزول وحى السماء عليه. أنشأ هونج مملكةَ تايبينج السماوية، وحاول مع أتباعه إجراء إصلاحات اجتماعية انطلاقًا من إيمانهم ب «المِلكية المشتركة» وإحلال نمط من أنماط المسيحية محل الديانات الصينية. وفى النهاية ، تمكّنت قوات تشينج من سَحْق المتمردين بمساعدات فرنسية وبريطانية. وفى القرن العشرين، اعتبر الحزبُ القومى الصينى تمردَ التايبينج مصدرَ إلهام. ومَجّدَ الزعيمُ الصينى ماو تسى تونج عملَ متمرّدى التايبينج، ووَصَفَهم بأنهم أبطال ثوريون أوائل حاولوا مناهَضة فساد نظام الإقطاع - المترجم.

لقد تمتعت أوربا فى القرن التاسع عشر بسلام نسبى، كما رأينا. أما الصين فلم تنعم بالسلام. ووفق أى مقياس، تُعَدُّ الحربُ الأهلية التى اجتاحت إمبراطوريةَ تشينج بين عامىْ 1850 و1865 أكبرَ صراع فى القرن التاسع عشر، إذ تسبّبتْ - بشكل مباشر أو غير مباشر - فى موت ما بين 20 و70 مليون شخص، فأهلكت القسمَ الأعظم من السكان الصينيين تقريبًا. كانت أكثر تدميرًا من حرب الحِلف الثلاثى (1864 - 1870)[460] War of the Triple Alliance بين باراجواى والأرجنتين والبرازيل وأوروجواى، أو الحرب الأهلية ا لأمريكية (1861 - 1865) American Civil War، وهما أكبر ثانى وثالث صراع في القرن على التوالي.

لقد دُمِّرت مئاتُ المدن الصينية. وصارت مذابح المدنيين وعمليات الإعدام الجماعى للأسْرى والسجناء هى القاعدة. انتشرت الأوبئة (وبخاصة الكوليرا)، وانتشرت المجاعة فى أعقاب المعارك. تتضاعف أهمية التايبينج فى تاريخ الشبكات ثلاث مرات. الأهمية الأولى أن التمرد نشأ من دعوة دينية جذبت أتباعَها من المجموعات الهامشية فى البداية فقط، ثم سرعان ما انتشرت فيروسيًا عبْر أجزاء كبيرة فى قلب مملكة هان الصينية Han China. الأهمية الثانية ترجع إلى أن التأثيرات الخارجية (ومعظمها بريطانى مرةً ثانية) قد عجّلت بالصراع، ومن ثمّ تسبّبتْ فى هزيمة المتمردين. والأهمية الثالثة تتمثل فى أن تأثير الحرب الأهلية المدمِّر أدّى إلى نزوح حقيقى للصينيين: هجرة بلغت من العِظَم تقريبًا ما بلغه نزوحُ الناس المعاصرين [حينئذٍ] من أجزاء أوربا الأفقر[461]

فاستثارت الهجرة، بدورها، تمردًا أقل عنفًا، وإن كان من بعض النواحى شَعْبويًا، داخل الولايات المتحدة وأماكن أخرى. وهو ما يُعَدُّ عواقب غير مقصودة لأشكال الرّبْط والاتصال الكبرى [حينذاك].

بدأت الثورة [تمرد التايبينج] فى مقاطعة جوانجشى Guangxi، فى أقصى جنوب عاصمة إمبراطورية تشينج، فى أوائل عام 1851، حين توجّه جيشُ

---

[460]حرب الحِلف الثلاثى: تُعْرَفُ أيضًا باسم الحرب العظمى أو حرب الباراجواى. نشبت بين باراجواى ودول الحِلف الثلاثى، الأرجنتين والبرازيل والأوروجواى، بدءًا من عام 1864 حتى عام 1870. وانتهت بهزيمة باراجواى على أيدى الحلف الثلاثى هزيمة نكراء، ولكن الصراع تحول إلى مقاومة تشبه حرب شوارع. يذكر ستيفن بينكر أن الحرب أزهقت أكثر من 60% من سكان باراجواى، الأمر الذى يجعلها الحرب الأكثر تدميرًا فى العصر الحديث - المترجم.

[461]إشارات الهجرة والنزوح، سواء الصينية أو الأوربية، كانت إلى الولايات المتحدة - المترجم.

المتمردين المكوّن من عشرة آلاف شخص إلى القوات الحكومية فى بلدة جينشن J intian (حاليًا جويبينج Guiping).

لعب الدورَ الرئيسىّ، فى البداية، أقليةٌ عِرْقية هى تشوانج Zhuang، شَكّلَتْ ما يقرب من رُبْع جيش التايبينج. ومن جوانجشى اجتاح المتمرّدون نانجينج Nanjing التى اتخذها عاصمةً له هونج شيوكوان Hong Xiuquan الذى نَصّبَ نفسَه «ملكًا سماويًا». وبحلول عام 1853، سيطر المتمرّدون على وادى يانجزى Yangzi بأكمله. كان قادةُ الحركة من خارج النظام outsiders. هونج شيوكوان أحدُ أفراد شعب الهاكا Hakka («الناس الضيوف»)[462]، وهى مجموعة فرعية من الهان[463] Han تسكن جنوب الصين، وتعمل فى زراعة أراضٍ صغيرة المساحة. فشل هونج فى امتحان الخدمة المدنية أربع مرات على المستوى الإقليمى. وأما يانج شيوكنج[464] Yang Xiuqing [شريكه فى قيادة التمرد] فهو تاجرُ حطب من جوانجشي.

من الممكن حكاية قصة تايبينج بوصفها ثورة شعبية ضد سلالة دخيلة يُجسِّدها الإمبراطور شيان فنج[465] (1850 1861-Xian Feng) والإمبراطورة الأرملة سيشي[466] (1835 1908-Dowagar Empress Cixi).

ولأن متمرّدى التايبينج رفضوا ضفيرة المانشو Manchu queue (حَلْق الشعر من الأمام وتضفيره من الخلف)، لُقِّبوا ب«طوال الشعر». وقد اختاروا مقرًا لهم [وعاصمة] نانجينج، لأنها كانت ذات يوم عاصمة المينج. أهدافُهم من بعض النواحى ثوريةٌ، تدعو إلى «المِلْكية المشتركة» ومساواة المرأة (بما فى ذلك

---

[462] الهاكا، أو شعب الهاكا: تعنى حرفيًا «الأ ُسَر الضيوف» أو «الناس الضيوف»، وهم جماعة فرعية من الهان استقرت عبر سلسلة من الهجرات فى جنوب الصين. كانوا مصدرًا للكثير من الاضطرابات والحركات الثورية في الصين - المترجم.

[463] الهان: إثنية الهان أو شعب الهان، إحدى القوميات التى يتكون منها الشعب الصينى وتمثل 92% منه. توجد فى الصين 56 قومية، منها: هان، مان، منغوليا، هوى، التبت، تشوانج، مياو، يي - المترجم.

[464] يانج شيوكنج: (1821 - 1856)، مُنظِّم وقائد في تمرد التايبينج - المترجم.

[465] شيان فينج: (1831 - 1861)، الإمبراطور التاسع من أسرة تشينج، شهد عهدُه تمردَ التايبينج وتمرد النيان وحرب الأفيون الثانية - المترجم.

[466] الإمبراطورة الأرملة سيشى أو الإمبراطورة الأم تسى شي: (1835 - 1908)، أخذت الوصاية على الحاكم الفعلى لسلالة تشينج، وحكمت الصينَ لأكثر من 47 عامًا، بدءًا من عام 1861 حتى وفاتها عام 1908. سجنت الإمبراطور جوانج شى الذى تميز بالعقلية الإصلاحية بسبب إدخاله «إصلاح المئة يوم» عام 1898 - المترجم.

إلغاء رَبْط القدم). ولكن من الصعب الاعتقاد بنجاح حركة التايبينج إن لم توجد مؤثرات خارجية أَضْعَفَتْ، فى الوقت نفسه، حُكْمَ تشينج. المؤثِّرُ الأول تصديرُ شركة الهند الشرقية العدائى للأفيون إلى الصين. والمؤثِّرُ الثانى الأ سلحةُ التى كان الأوربيون على استعداد لبيعها بالتساوى [بين الطرفين المتحاربين].

ولا يمكن تبرير ضراوة السياسة البريطانية إلا بصعوبة شديدة. وقد اعترف اللورد إلجن[467] Lord Elgin قائلا : «من غير دعوة، وبأساليب غير مهذبة دائمًا، كسَرْنا الحواجزَ التى سعت من خلفها الشعوب القديمة إلى الاحتجاب عن العالم دون أسرار، وربما أيضًا بقايا حضاراتهم العَفِنة الآخِذة فى الزوال، في حالة الصين على الأقل»[466].

الذين كانوا أكثر احترامًا للتراث الصينى، بعض الشىء، المُبشِّرون البروتستانت: رجال من أمثال روبرت موريسن Robert Morrison من جمعية لندن التبشيرية London Missionary Society الذى وصل إلى كانتون Canton (جوانزو Guangzhou) فى عام 1807، وويليام ميلن William Milne، المترجم المشارك لأول كتاب مقدس باللغة الصينية نُشِرَ عام 1833. ولكن تأثير المُبشِّرين كان تدميريًا كتأثير بائعي المخدِّرات والأسلحة.

فبعد دخول هونج شيوكوان إلى المسيحية على يد ميلن، استسلم لأوهام دينية بعد إصابته بانهيار عصبى ناجم عن فشله المتكرّر فى امتحان [الخدمة المدنية الإمبراطورية]. اعتقد هونج أنه الأخ الأصغر ليسوع المسيح، وتصوّرَ أن حركته هى «مجتمع عُبّاد اللّه» Society of God Worshippers، فنَصّبَ نفسَه حاكم «مملكة السلام العظيم السماوية» Heavenly Kingdom of Great Peace. أما شريكه، يانج شيوكنج، فزعم أنه صوت اللّه.

وثمة قائد تايبينجى آخر هو هونج رينجان Hong Rengan، عَمّدَه لوثريًا المبشّرُ السويدى تيودور هامبرج Theodore Hamberg، أحد المُبشّرِين الذين نشروا وَصْفًا للتمرد. وأما المبشِّرُ البابتيستى [المعمدانى] Baptist الأمريكى إيسكار جاكوكس روبرتس Issachar Jacox Roberts فصَارَ مستشارًا لكل من

---

[467]اللورد إلجن: (1811 - 1863)، هو جيمس بروس، مدير استعمارى بريطانى وديبلوماسى. شغل منصب حاكم جاميكا، ثم الحاكم العام لمقاطعة كندا، ثم نائب الملك فى الهند. فى عام 1857، عُيّنَ مندوبًا ساميًا فى الصين والشرق الأقصى للمساعدة على فتح الصين و اليابان أمام التجارة الغربية. فى عام 1860، وأثناء حرب الأفيون الثانية فى الصين، أمر بتدمير القصر الصيفى القديم فى بكين. وفى وقت لاحق، أجبر أسرة تشينج على الإذعان لمعاهدة غير متكافئة فأضاف شِبْه جزيرة كولون إلى مستعمرة التاج البريطانى فى هونج كونج - المترجم.

هونج شيوكوان وهونج رينجان. ثمة مُبشِّر متعاطف آخر هو تشارلز تايلور Charles Taylor من البعثة الأسقفية الميثودية الجنوب أمريكية[468] American Southern Methodist Episcopal Mission[467].

وباختصار، كانت حركة التايبينج شكلا ً مُحوّرًا من المسيحية، فبالإضافة إلى تبنّيها بعضَ لغة المسيحية تبنّتْ بعضَ الممارسات المسيحية، ولا سيما المعمودية وتحطيم الأيقونات[469] iconoclasm.

ما لم يكن يتوقّعُه المُبشِّرون مدى السهولة التى اعتنق بها القطيعُ الشرقى العناصرَ الأكثر نضاليةً فى دينهم، كما لو كان المستهدفُ عن عَمْدٍ إعادةَ تمثيل حرب الثلاثين عامًا فى الصين. فى قاعة عرش التايبينج عُلِّقت عبارةٌ لا لَبْسَ فيها أو غموض:

«لقد جاء الأمر من الله بقتال العدو وتوحيد جميع الجبال والأنهار فى مملكة واحدة». ولا شىء أوضح من هذا يُبرِّرُ قرار الإمبراطور يونجشينج[470] Yongzheng فى عام 1724 بطرد موجة المسيحيين السابقة، وأغلبهم من الجيزويت Jesuits الذين وفدوا [إلى الصين] فى القرن السابع عشر. حين ننظر إلى تمرد التايبينج من على مسافة، نجد أنه من الخطأ اعتباره ثورةً مماثلة لتلك الثورات التي شهدتها أوربا في عام 1848.

فعند الفحص الدقيق نجده أشبه بحروب دينية سابقة. فليس هونج شيوكوان ، من بعض النواحى، سوى نسخة صينية أنجح من جان لايدن Jan of Leiden الأنابابتيستي [القائل بتجديد العماد] Anabaptist.

من السهل نسيان مدى اقتراب التايبينج من جَعْل مملكتهم حقيقةً واقعةً. فى عام 1860، استولت قوات التايبينج على هانجتشو Hangzhou وسوتشو

---

[468]جمعية تبشيرية أمريكية تديرها الكنيسة الأسقفية الميثودية، شاركت فى إرسال العُمّال إلى بلاد مثل الصين في أواخر حُكم أسرة تشينج - المترجم.

[469]تحطيم الأيقونات: تدمير متعمّد للأيقونات الدينية وغيرها من الرموز والآثار لدوافع دينية وسياسية. ويُطلَقُ على معتنقيها «الثائرون ضد العقائد التقليدية». وفى المسيحية، حَرّضَ على تحطيم المعتقدات التقليدية الأشخاصُ الذين يتبنون التفسيرَ الحرفى للوصايا العشر التي تُحَرّمُ صُنْعَ «الصور المحفورة» وعبادتها - المترجم.

[470]يونجشينج: (1678 - 1735)، الإمبراطور الخامس من أسرة تشينج. أنشأ حكومةً فعّالة بأقل التكاليف، واستخدم القوةَ العسكرية للحفاظ على مكانة العائلة الإمبراطورية. عُرِفَ عهدُه بالاستبداد والقوة والفعّالية. قام بإصلاحات واسعة فى الإدارة المالية، واتخذ إجراءات صارمة ضد الفساد. شهد عهده تشكيل المجلس الكبير، وهو مؤسسة كان لها تأثير هائل في مستقبل أسرة تشينج - المترجم.

Suzhou. أما فشلُهم فى الاستيلاء على شَنْغهاى Shanghai وتراجعُهم اللاحق إلى نانجينج، فيرجع - فى جانب ليس بالقليل - إلى التدخل الأجنبى الزائد. ففى أغسطس عام 1860، دافعت عن شَنْغهاى قوةٌ من قوات تشينج الإمبراطورية وضباطٌ غربيون بقيادة الأمريكى فريدريك تاونسند وُرد[471] Frederick Townsend Ward.

وبعد موت وُرد، حقق «الجيش المنتصر دائمًا»[472] Ever Victorious Army سلسلةً انتصارات بقيادة الضابط البريطانى تشارلز جوردن المُلقب ب«جوردن الصيني»[473] Charles «Chinese» Gordon.

وحتى أغسطس عام 1871، لم تكن فلول جيش التايبينج بقيادة لى فوشونج Li Fuzhong قد سُحِقتْ تمامًا. تُشْبِه هذه النتيجةُ، من بعض النواحى، انتصارَ الولايات المتحدة United States على الولايات الكونفدرالية[474] Confederacy فى الحرب الأهلية الأمريكية American Civil War. فى الحالتين، اعتزم رجالُ الدولة البريطانية التدخل بجدية إلى جانب التمرد، وإن اتخذ مجرد الاعتراف بالثوار بوصفهم محاربين[475]

471فريدريك تاونسند وُرد: (1831 - 1862)، بحار أمريكى، وجندى اشتهر بخدمته العسكرية في الصين الإمبراطورية أثناء تمرد التايبينج - المترجم.

472الجيش المنتصر دائمًا: جيش إمبراطورى صينى أسّسه الأمريكى فريدريك تاونسند وُرد بمساعدة فيلق ضباط أمريكى أوربى، وتكوّنَ من جنود صينيين مدرّبين على التقنيات و التكتيكات والإستراتيجية العسكرية الأوربية. صار هذا الجيشُ، الذى كافح تمردَ التايبينج، نموذجًا للعسكرية الصينية فى أوقات لاحقة. يرى بعض المُحلِّلين أنه أقرب إلى الميليشيات منه إلى جيش - المترجم.

473تشارلز جوردن: (1833 - 1885)، ضابط بريطانى برتبة لواء. شارك فى حرب القرم، ثم أُلحِقَ بهيئة دولية لترسيم الحدود بين الإمبراطورية الروسية والإمبراطورية العثمانية. وفى عام 1860، شارك فى حرب الأفيون الثانية ومكافحة تمرد التايبينج. وافقت الحكومة البريطانية على قيادته للعمليات العسكرية بعد وفاة الأمريكى فريدريك تاونسند وُرد. وبعد تحقيق النصر، فككَ جوردن قواته العسكرية. منحه الإمبراطورُ الصينى أعلى رتبة عسكرية صينية، ولقّبَ ب«جوردن الصيني» - المترجم.

474الولايات الكونفدرالية: حكومة قامت يوم 8 فبراير عام 1861 شكلتها سِتٌ ولايات فى الجنوب الأمريكى وأعلنت انفصالها عن الولايات المتحدة. رفضت الولاياتُ المتحدة الشمالية هذا الانفصالَ وأعلنت عدم دستوريته، وعلى الفور بدأت الحربُ الأهلية الأ مريكية. ومع أن فرنسا وبريطانيا اعترفتا بالصفة العسكرية للولايات الكونفدرالية الا نفصالية فلم تعترف أيةُ دولة أجنبية بكونها دولة مستقلة - المترجم.

475هذا الاعتراف له قوة قانونية فى القانون الدولى، وهو إعطاء صفة عسكرية للطرف

وفى كلتا الحالتين، اختار البريطانيون دَعْمَ الوضع الراهن. فى الحالة الأ مريكية، اعتمد قرارهم نوعًا ما على تفوق ولايات الشمال الاقتصادى الواضح. وأما فى الحالة الصينية، فعَكسَ قرارُهم الرأىَ القائل بأن بريطانيا - بعد الفوز فى حرب الأفيون الثانية[476] Second Opium War (1856 - 1860) وإذلال الحكومة الإمبراطورية فى بكين Beijing - لها مصلحة فى مساندة إمبراطورية تشينج بوصفها بنيةً ضعيفة يمكن الاعتماد عليها فى تقبُّل تبعية اقتصادية غير رسمية. إن استنكار اللورد بالمرستن[477] Lord Palmerston للتايبينج بوصفهم «متمردين ضد الإمبراطور، بل ضد كل القوانين البشرية وا لإلهية» لم يكن قائمًا على أى احترام كبير لأسرة تشينج، بل على وعى بأن التسلسلات الهَرَميّة الآخِذة فى الأفول لها فوائدُها، وأنها تُمثل أفضلَ توازن ممكن مع الشبكات الثورية.

المُنْشَق دون مَنْحه اعترافًا بكوْنه دولة مستقلة - المترجم.

[476] حرب الأفيون الثانية: اشتعلت بين فرنسا وبريطانيا من جهة وإمبراطورية تشينج الصينية من جهة أخرى. وانتهت بانتصار فرنسا وبريطانيا على الصين وإجبارها على توقيع اتفاقيات مُهينة. دوافع حرب الأفيون الثانية هى نفسُها دوافع حرب الأفيون الأولى التى اندلعت فيما بين عامىْ 1839 و1842 بين المملكة المتحدة والصين بسبب تضارب المصالح التجارية ورغبة بريطانيا فى تقويض قوة الصين. انتهت الحرب الأولى بانتصار بريطانيا وإجبار الصين على توقيع اتفاقيات مُهينة - المترجم.

[477] اللورد بالمرستن: (1784 - 1865)، سياسى بريطانى بدأ حياته مصمم أزياء، ثم تمكنَ لا حقًا من تولِّى منصب وزير خارجية بريطانيا ثلاث مرات، ومنصب رئيس الوزراء مرتين. كان له دور كبير فى توسيع دائرة بريطانيا الدبلوماسية الخارجية. اشتهر بميوله الا ستعمارية - المترجم.

31

«يجب أن يرحل الصينيون»

اتسمت شبكات السفر والاتصال الإمبريالية، فى أواخر القرن التاسع عشر، بانفتاح نسبى، لكوْنها بقيت فى أيدى القطاع الخاص إلى حد كبير. وقد حدّدَت التكلفةُ وحدها، ولا شىء غيرها - فى ستينيات القرن التاسع عشر وسبعينياته - التمكّنَ من عبور المحيط وإرسال برقية؛ ثم اطّرَدَ انخفاضُ أسعار السفر والاتصالات معًا بفضل التقدم التكنولوجى. فى هذه الأثناء، أُتِيحَ لأى شخص يستطيع قراءة جريدة، أو يسمع أحدًا يقرأ بصوت مرتفع، معرفةَ أخبار الخارج. وكان لهذا فوائده الكبيرة؛ فمَن يعيشون فى بؤس، فى أى مكان من العالم، أُتيحت لهم خياراتٌ لم تكن متاحة لأسلافهم: يسمعون عن أماكن أفضل، ويستطيعون الذهاب إليها.

من النادر أن يدفع الفقرُ وحده إلى هجرات جماعية. الذى يدفع إلى الهجرات اضطرابٌ سياسىٌ فى الوطن واحتمالُ وجود مَوْطِن أكثر استقرارًا يمكن الوصول إليه.

وقد هيّأت الفترة بين حوالى عام 1840 وعام 1940 الدافعيْن معًا لما يقرب من 150 مليون شخص يعيشون على طرفىْ الحدود الأوراسية: أوربا و الصين. لقد اندلعت الثورات والحروب، وما صحبهما من أشكال بؤس، بِالتزامن مع انخفاض حاد فى تكاليف السفر. فكانت النتيجةُ نُزوحًا، أو على وجه الدقة ثلاثة نُزُحٍ، كلٌ منها بأعداد متقاربة.

الهجرة الجماعية المشهورة (ما بين 55 و58 مليون شخص) كانت من أوربا إلى الأمريكيتين، وأساسًا إلى الولايات المتحدة.

والأقل شهرة كانت التدفقات الكبيرة من الصينيين والهنود إلى جنوب شرق آسيا وحافة المحيط الهندى وأستراليا (48 إلى 52 مليون شخص)، وتدفُّقات الروس وآخرين إلى منشوريا[478] Manchuria وسيبيريا وآسيا الوسطى (46 إلى 51 مليون شخص)[468].

اللغز التاريخى هو لماذا لم يتدفق الصينيون بأعداد أكبر إلى الولايات

---

[478] منشوريا: تسمية تاريخية تشمل منطقةً جغرافية واسعة فى شمال شرق آسيا. وبالا ستناد إلى تعريف امتدادها تقع منشوريا داخل حدود الصين، أو أحيانًا تنقسم بين الصين وروسيا. ويُشَارُ إلى المنطقة عمومًا بأنها شمال شرق الصين. والمنطقة هى موطن قومية المانشو التي سُمِّيت منشوريا نسبةً إليها - المترجم.

المتحدة.

ورغم أن المحيط الباسيفيكى [الهادى] أوسع بكثير من الأطلنطى فلم يكن العبور من شَنْغهاى إلى سان فرانسيسكو San Francisco مكلِفًا بالدرجة التى تجعله مستحيلا ً؛ والفُرَصُ الاقتصادية فى كاليفورنيا المزدهرة عديدةٌ ومُغْرِيةٌ ماليًا. لم يقف شىء أمام مجموعات المهاجرين الصينيين، شأنهم شأن المجموعات الأيرلندية والإيطالية التى وفدت إلى الساحل الشرقى [للولا يات المتحدة] East Coast، الذى جذب المزيد والمزيد من الناس كى يعبروا المحيط إلى الأرض الموعودة. تكمن الإجابة عن اللغز فى السياسة. فلولا وجود ردِّ فعل شَعْبوى عنيف ضد الهجرة الصينية إلى الولايات المتحدة، لَكان التدفق عبر المحيط الهادى أكبر دون شك، ولَكانت أعدادُ السكان الصينيين الأ مريكيين اليوم أكبرَ أيضًا.

قليلون اليوم يتذكرون اسم دينيس كيرنى[479] Denis Kearney، زعيم حزب عُمّال كاليفورنيا Workingmen's Party of California، وصاحب شعار «يجب أن يرحل الصينيون!». كيرنى نفسه مهاجر أيرلندى إلى الولايات المتحدة، وجزءٌ من حركة الأحزاب المُعادية للمهاجرين nativist parties وأندية «مكافحة الكوولى»[480] Coolie clubs-Anti الساعية إلى إنهاء الهجرة الصينية إلى الولايات المتحدة. يعكس تقريرُ اللجنة الخاصة المشتركة للتحقيق فى الهجرة الصينية Joint Special Committee to Investigate Chinese Immigration، فى عام 1877، روحَ العصر. تلخّصتْ وجهةُ نظر اللجنة فى الآتى: «إما أن يكون ساحلُ المحيط الباسيفيكى [الهادى] منغوليًا أو أمريكيًا». لقد جلب الصينيون معهم عادات الحُكم الاستبدادى: المَيْل إلى

---

[479] دينيس كيرنى: (1847 - 1907)، أيرلندى الأصل، وزعيم عمّال كاليفورنيا وناشط سياسى فى أواخر القرن التاسع عشر. عُرِفَ بآرائه العنصرية ضد المهاجرين الصينيين. اعتاد على إنهاء كل خطاباته الطويلة بعبارة واحدة هى: «ومهما يكن، يجب أن يرحل الصينيون». أسّسَ فى عام 1877 حزبَ عُمّال كاليفورنيا على خلفية الكساد القومى فى الفترة من عام 1873 حتى عام 1878. تمكّنَ الحزب بعد فوزه بعضوية البرلمان من سنّ تشريعات تحرم الصينيين من حق التصويت - المترجم.

[480] مكافحة الكوولى: الكوولى اسم يُطلَقُ على العمالة الرخيصة غير الماهرة، ويشمل أيضًا عُمّالَ النقل والشحن والتفريغ فى الموانى. استغل بعضُ الأمريكيين وجودَ المهاجرين الصينيين بوصفهم عمالةً رخيصة، الأمر الذى هدّدَ مصادر دَخْل العمّال البيض. فى يوم 19 فبراير عام 1862، أصدر الكونجرس الأمريكى السابع والثلاثون قانونًا يحظر على الأ مريكيين توفير عمّال صينيين، كما سعى القانون إلى حماية العُمّال البيض بفرض ضريبة شهرية على أى عامل صينى يمارس أى نشاط فى الموانى وعلى السفن الأمريكية - المترجم.

الكذب فى ساحة المحكمة، إظهار الضّعْف للتهرُب من الضرائب، و«حَجْم دماغٍ لا يكفى... لتوفير قوة دافعة إلى الاستقلال أو الاعتماد على النفس». الأكثر من هذا أن النساء الصينيات يتم «شراؤهن وبَيْعهنّ من أجل الدعارة، ويُعامَلْنَ أسوأ من معاملة الكلاب»، وأما الرجال الصينيون فهم «مُتوحِّشون لا يهتمون بمرضاهم». وسيُعَدُّ مَنْحُ المُواطَنة لمثل هذه الكائنات السُّفلى [الدونية] - فيما يُصرّحُ تقريرُ اللجنة - «تدميرًا عمليًا للمؤسّسات الجمهورية على ساحل المحيط الهادي»[469].

كانت الحقائق على أرض الواقع مختلفة تمامًا، ومن النادر أن يُقالَ هذا. طبقًا ل«الجمعيّة التكافلية الخيرية الصينية»[481] فى سان فرانسيسكو - وهى هيئة اعتبارية مثلّتْ السكانَ الصينيين فى المدينة - توجد أدلةٌ مقنعة على أن الهجرة الصينية كانت نعمةً لكاليفورنيا. فبالإضافة إلى أن الصينيين وَفّروا العمالةَ من أجل السكك الحديدية والمزارع المتنامية بسرعة فى الولاية، حَسّنوا الأحياء التى سَكنوها. وعلاوة على ذلك، لا يوجد دليلٌ على دور صينى غير متجانس فى لعب القمار والدعارة، فى حين أظهرت الإحصائيات أن الأيرلنديين شكّلوا عِبْئًا أكبر من الصينيين على الملجأ الخيرى وبيت الفقراء في المدينة[470].

ومع ذلك، تجمّعَ حول قضية كيرنى ائتلافٌ قوى من «العُمّال والحِرَفيين» ورجالُ أعمال صغار و«جمعياتٌ تعاونية زراعية» Grangers (استهدفوا جميعهم إلقاء عبء الضرائب على المشروعات الكبيرة والأثرياء). وكما ذَكرَ أحدُ المراقبين المعاصرين القَطِنين، استهدفت دعوةُ كيرنى، فى جانب منها، مهاجمةُ البواخر الكبيرة وشركات السكك الحديدية التى تتربّح من تشغيل الصينيين، ناهيك عن مؤسسةٍ ذات حزبين، فاسدةٍ، أدارتْ سياسةُ سان فرانسيسكو، ولم تستهدف الصينيين فقط:

لا الديمقراطيون ولا الجمهوريون فعلوا أيّ شيء للتخلص من هذه الشرور أو تحسين [حياة] الكثير من الناس، ولا يُتَوقّع أن يفعلوا شيئًا. إنهم لا يبحثون إلا عن أماكن أو فُرَص عمل لأنفسهم (فيما يعتقد الناس)، استطاعوا شراءَها دائمًا من خلال شركة قوية. أما العُمّال فيجب أن يساعدوا أنفسهم؛ لا بد أن توجد أساليب جديدة وانطلاقة جديدة... ورغم أن الأحزاب القديمة شجبت الهجرةَ الصينية فى كل مؤتمر عقدته، وصرّحتْ بضرورة وجود تشريع ضدها، فقد

---

[481]الجمعية التكافلية الخيرية الصينية Chinese Consolidated Benevolent Association: تُعْرَفُ أيضًا باسم Six Companies of Chinese. منظمة اجتماعية خيرية لمساعدة الأمريكيين الصينيين - المترجم.

أخفقت مساعيها... وباختصار، كلٌ شيء مُهَيّأٌ لظهور ديماجوجيٍ[482] demagogue. وقد تلطّفَ القدرُ مع أهل كاليفورنيا بأن أرسل لهم ديماجوجيًا معتدلاً، صاخبًا وواثقًا، ولكنه بلا بصيرة سياسية ولا موهبة في البناء[471].

ربما افتقر كيرنى إلى البصيرة و«موهبة البناء»، ومع ذلك لا أحد ينكر ما استطاع هو وأمثاله تحقيقه. فبدءًا من عام 1875، ومع صدور قانون الصفحة[483] Page Law الذى يحظر هجرةَ النساء الآسيويات ل«أغراض فاسقة وغير أخلاقية»، لم يهدأ المُشرّعون الأمريكيون حتى أوقفوا الهجرةَ الصينية إلى الولايات المتحدة تمامًا.

قانون استبعاد الصين The Chinese Exclusion Act الصادر عام 1882، علّقَ هجرةَ الصينيين لمدة عشر سنوات، ووَضَعَ قَيْدَ الاستعمال «شهادات تسجيل» لترحيل العُمّال (تصاريح إعادة الدخول)، الأمر الذى ألزم المسؤولين الصينيين بفحص المسافرين من آسيا؛ وللمرة الأولى فى تاريخ الولايات المتحدة وُجِدَتْ جريمةُ الهجرة غير الشرعية، مع احتمال الترحيل بوصفه جزءًا من العقوبة. يحظر قانونُ فُوران[484] (The Foran Act (1885 «العملَ بعقود أجنبية»، وقد استهدف الشركاتِ الأمريكيةَ التى تستوظف «كووليين» صينيين ودفعت مقابل دخولهم إلى الولايات المتحدة. أما التشريع الصادر عام 1888 فقد منع كلّ الصينيين من السفر إلى الولايات المتحدة باستثناء «المُعلِمين والطلبة والتجار والمسافرين للسياحة». وبوجه عام، صدر بين عامىْ 1875 و1924، أكثرُ من اثنىْ عشر تشريعًا يعمل على تقييد الهجرة الصينية، حتى إلغائها تمامًا[472].

الدرسُ المستفاد من هذه الوقائع جِدُ واضح. ففى الوقت الذى أتاحت فيه شبكاتُ الاتصال والنقل العالمية الهجراتِ الجماعيةَ أواخر القرن التاسع عشر وجعلتها ممكنةً[473]، شَكّلَت الشّعْبويةُ populism ومُعاداة الأجانب navitism شبكاتٍ سياسيةً لمقاومة الهجرات الجماعية. ونتيجة فظاظة دينيس كيرنى

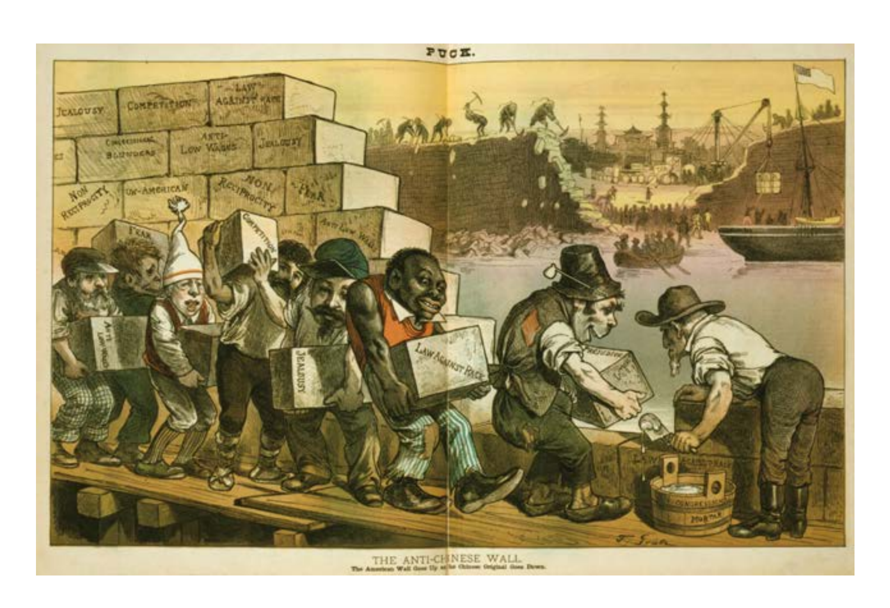
---

[482]الديماجوجى: زعيم سياسى يسعى إلى الحصول على الدعم الشعبى من خلال الاستجابة للرغبات والأحكام الشعبية بدلاً من استعمال الحجة العقلانية - المترجم.

[483]قانون الصّفْحة: أول قانون هجرة فيدرالى مُقيّد فى الولايات المتحدة، صدر يوم 3 مارس عام 1875، يحظر دخول النساء الصينيات إلى أراضى الولايات المتحدة؛ وهو الحظر الذى سيستمر بشكل أشمل مع صدور قانون استبعاد الصين عام 1882 الذى يحظر هجرة الصينيين إناثًا وذكورًا إلى الولايات المتحدة - المترجم.

[484]قانون فوران الصادر عام 1885: إجراء تشريعى يمنع استيراد الأجانب والغرباء بتعاقد أو اتفاق لإنجاز أعمال في الولايات المتحدة - المترجم.

وأحاديثه الرّنانة، أغلق هو وحلفاؤه الحدودَ الأمريكية على طول ساحل الولا
يات المتحدة الباسيفيكى [المحيط الهادى]؛ وقد صوّرهم رسامٌ كاريكاتورى
في هذا الوقت يبنون جدارًا بطول ميناء سان فرانسيسكو (اللوحة التالية).



THE ANTI-CHINESE WALL.

فى خمسينيات القرن التاسع عشرِ وستينياته، سافر حوالى 40% من إجمالى المهاجرين الصينيين إلى ما وراء آسيا، ولكن الأعداد التى وصلت إلى الولا يات المتحدة قليلة نسبيًا. (بين عامىْ 1870 و1880 وَفَدَ 138.941 مهاجرًا صينيًا، بنسبة 4.3% من إجمالى المهاجرين، وهى حصة ضئيلة بالنسبة إلى النُّزوح الأوربي الهائل عبر الأطلنطي في الفترة نفسها)[474].

لقد ضمنت قوانينُ الاستبعاد عدمَ زيادة الهجرة الصينية، وهو ما حدث بكل تأكيد، بل تضاءلت الهجرة حتى توقفت.

الإمبراطوريات الأوربية، بقيادة بريطانيا، جعلت العَوْلمةُ globalization حقيقةً واقعة فى أواخر القرن التاسع عشر. ومع «انعدام» المسافة بسبب تكنولوجيات النقل البحرى والتلغراف الجديدة، وصلت تحرُّكاتُ البضائع و الناس ورأس المال والمعلومات، العالمية، إلى معدّلات غير مسبوقة. ومع ذلك، أثرتْ الشبكاتُ التى ظهرت فى عصر الإمبراطورية - وبخاصة شبكات الهجرة التى خلقت بالسرعة نفسها «إيطاليا الصغيرة» Little Italy و«الحىّ الصينى»[485] Chinatown فى مدن عديدة حول العالم - تأثيراتٍ غير متوقعة فى سياسة أهل البلد الأصليين. ونحن نطلق التسمية العامة «الشّعْبوية» على ردِّ الفعل العنيف ضد حرية التجارة وحرية الهجرة وحرية رأس المال العالمى الذى كان ملمحًا لافتًا فى السياسة الأمريكية والأوربية. ولكن اتّسَمَ كلُّ بلد،

---

[485]الحى الصينى: فى الأصل جيب عِرْقى من الصينيين أو شعب الهان يقع خارج البر الرئيسى للصين، مثلا ً هونج كونج، ماكاو، تايوان. ثم مع نزوح الصينيين الجماعى نشأ حىٌّ صينى فى المناطق الحضرية فى جميع أنحاء العالم، ومن الأمثلة المبكرة على هذا خارج آسيا الحىُّ الصينى فى سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة والحى الصينى فى ملبورن بأستراليا - المترجم.

بل كل منطقة، بنكهته الشّعْبوية المميزة له.

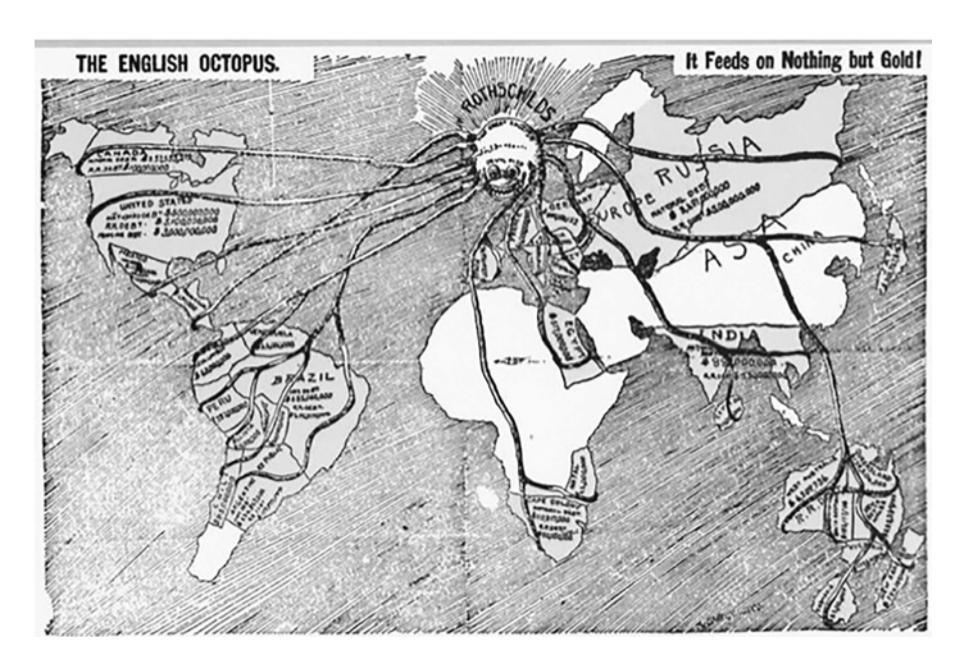
وإذا كان الصينيون قد قوبِلوا بالاستياء على الساحل الغربى West Coast فى سبعينيات القرن التاسع عشر، فقد كان الأيرلنديون هدفًا للاحتقار [على الساحل] الشرقى أيضًا، على حين وَجّه الشّعْبويون الألمانُ والفرنسيون نيرانَهم - بالطريقة نفسها - ضد اليهود المهاجرين من أوربا الشرقية إلى غربها. وبحلول تسعينيات القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين، ومع اندفاع الهجرة اليهودية من بالى الروسية Russian Pale إلى الولايات المتحدة، انتشرت معاداةُ السامية Semitism-anti عبر الأطلنطى. وللمفارقة، استخَفّ خصومُ الهجرة بفقر الوافدين الجُدُد وبالغوا فى قوة زعمائهم المفترضين فى آنٍ معًا. كان الصينيون فى سان فرانسيسكو شديدى الفقر، وفى الوقت نفسه احتكروا أعمال غسيل الملابس وصَبْغها. وكان اليهودُ فى نيويورك سادةَ النظام المالي العالمي، الديدانَ التي تجذب سِلسلتَه.

وما من صور بلاغية تُصَوّرُ تنامى الاعتقاد فى وجود شبكة مال يهودى قوية أفضل من الرسم الكاريكاتورى «الأخطبوط الإنجليزى» The English Octopus المنشور فى كُتيب شَعْبوى عام 1894 بعنوان «مدرسة كوين المالية» Coin's Financial School، كتَبَه ويليام هارفى William H. Harvey، ناقد قاعدة الذهب[486] gold standard ومستشار المرشّح الرئاسى الديمقراطى الشّعْبوى اللاذع الذى لم ينجح ثلاث مرات ويليام جيننجز براين[487] William Jennings Bryan. هنا وُجِدَت الشبكةُ الإمبريالية، التى أُعيد تخيُّلها بطريقةٍ ستُطّلِقُ، فى النهاية، أكثرَ من مجرد خيالات مُعاداة السامية (انظر الشكل 20).

---

[486]قاعدة الذهب: معيار نقدى تتحدّدُ بموجبه الوحدةُ الأساسية للعملة بكمية محددة من الذهب، مع تحويل الأموال الأخرى بلا قيود إلى ذهب، وحرية تصدير واستيراد الذهب لتسوية الالتزامات الدولية - المترجم.

[487]ويليام جيننجز براين: (1860 - 1925)، خطيب وسياسى أمريكى، بَرَزَ بوصفه شخصيةً مؤثِرة فى الحزب الديمقراطى بدءًا من عام 1896، وترشّح ثلاث مرات عن الحزب لرئاسة الولايات المتحدة ولم يفز فى أيٍّ منها. أُطلِقَ عليه لقب «العامىّ العظيم» بسبب إيمانه بحكمة الناس العاديين. شغل منصبَ وزير الخارجية في رئاسة ويلسون - المترجم.



الشكل رقم: 20 - «الأخطبوط الإنجليزي: لا يتغذّى على شيء سوى الذهب!». كاريكاتير ضد روتشيلد، 1894.

32

اتحاد جنوب أفريقيا

من المغالطات الشائعة الاعتقاد بأن ردّة الفعل الشّعْبوية العنيفة، أواخر القرن التاسع عشر، تنطوى على شىء له علاقة بجذور [أصول] الحرب العالمية الأولى First World War. كلا، فلا رابط بينهما إطلاقًا. كان حافزُ الحركات الشّعْبوية على جانبىْ المحيط الأطلنطى الأزمةَ المالية عام 1873. لقد وصلت الفترةُ الشّعْبوية إلى هدفها على مستوى النجاح الانتخابى بحلول منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر. فى ذلك الوقت، استوعبت الأحزابُ السياسية القائمة (وأبرزها الديمقراطيون Democrats فى الولايات المتحدة، و المحافظون Conservatives فى ألمانيا)، بشكل كلى أو جزئى، كلّ السياسات والشواغل الشّعْبوية بتنويعاتها:

سياسة الحماية protectionism، تقييد الهجرة، نظام المَعْدنَيْن[488] bimetallism، مُعاداة السامية. لم يكن الشّعْبويون فى تكوينهم الأصلى إمبرياليين؛ بل على العكس اعتبروا الإمبراطوريةَ مشروعَ نُخَبٍ كوزموبوليتانية يأنفون منها، ويُعرِّفونها تعريفًا صائبًا بأنها الروابط الحميمة بين الإمبريالية imperialism وحرية التجارة وحرية الهجرة وحرية حركة رأس المال، وقاعدة الذهب. لم تكن مشكلةُ الشّعْبويين تشخيصَهم الدّاء: ففى عالم شَبَكىٍّ مُعَوْلَم، تزايَدَ عدمُ المساواة دون شك، لأن العمالة المهاجرة سبّبتْ تآكلَ أجور العُمّال من أهل البلد، على حين ذهبت أرباح تركيزات رأس المال الصناعى ورأس المال المالى financial capital الكبيرة، إلى نُخْبة صغيرة. كانت المشكلة أن العلاجات [الإصلاحات] الشّعْبوية بَدَتْ غيرَ كافية: وكالرسوم الجمركية المفروضة على الواردات، لم يكن لاستبعاد المهاجرين الصينيين تأثيرٌ ملموس فى حياة العُمّال الأمريكيين. وفى الوقت نفسه، فَقدَت انتقاداتُ قاعدة الذهب الكثيرَ من بريقها، لأن اكتشافات الذهب الجديدة الضخمة - ولا سيما فى جنوب أفريقيا - خففّت الضغوطَ الانكماشية التى استحثّت الشّعْبوية، عن طريق خَفْض أسعار متطلبات الزراعة وغيرها من أنشطة العمل الأخرى. وبحلول منعطف القرن، انتقلت المبادرة من الشّعْبويين إلى التقدُّميين progressives أو الديمقراطيين الاشتراكيين Social Democrats كما عُرفوا فى أوربا، إذ تأثّرَ تنظيمُ العمل سريعًا بنظريات كارل ماركس وأتباعه. فجاءت حلول [علاجات] التقدُّميين - التى اشتملت على

---

[488]نظام المَعْدنين: قاعدة تقضى باتخاذ كل من الذهب والفضة أساسًا للنظام النقدى فى دولة ما - المترجم.

ضرائب مباشرة أعلى، ومعاشات تقاعدية من الدولة، وزيادة تنظيم سوق العمل، وإضعاف الاحتكارات الخاصة، ومِلكية المرافق العامة - أكثر إقناعًا وقابليةً للتسويق من حلول الشّعْبويين.

كان التقدُمُ المتواصل لليسار السياسى أكثرَ إثارةً للقلق من المَوْجة الشّعْبوية، لدى جميع نُخَب العالم. المُرْعِبُ بخاصّةٍ الفِرَقُ اليوتوبية المتطرفة التى ازدهرت عند نهاية القرن: فبالإضافة إلى الماركسيين Marxists، هدّدَ الأ ناركيون anarchists والقوميون nationalists أيضًا سلامةَ الإمبراطوريات نفسها، من كورك Cork [فى أيرلندا] إلى كالكوتا Calcutta [فى الهند]، ومن سراييفو[489] Sarajevo [فى البوسنة والهرسك] إلى سايجون[490] Saigon [فى فيتنام الجنوبية]. ولكن مفكِّرى عصر الإمبراطورية الميتروبوليتانيين اعتقدوا أن لديهم الحلّ. تحدّث البعضُ منهم عن «الإمبريالية الليبرالية» liberal imperialism، وآخرون عن «الإمبريالية الاشتراكية» social imperialism، لكن الفكرة الأوسع انتشارًا عند منعطف القرن أن الإمبراطوريات تطمح إلى شيء أسمى من استغلال الأطراف الفقيرة. فإذا تمكّنت من تلبية احتياجات الطبقات العاملة فى المركز الإمبريالى، فعندئذٍ ستتلاشى الأخطارُ الهدّامة على اختلافها.

ألفريد ميلنر Alfred Milner مُنْقِذٌ إمبريالى غير متوقّع. ميلنر ابن الأكاديمية الأ نجلوجيرمانية German-Anglo الذى دَرّسَ الإنجليزيةَ فى جامعة توبِنجن Tübingen، شكّلته من قبل كليةُ باليول Balliol College بجامعة أكسفورد، حيث قرأ العظماء Greats بإشراف بنيامين جويت Benjamin Jowett، وصَادَقَ المؤرّخَ الاقتصادى أرنولد توينبى Arnold Toynbee. آفاقُ مستقبله ا لأكاديمى كانت واعدةً، ولكنه اختار لندن فى محاولة منه أن يلمع فى القانون والصحافة والسياسة، إلى أن وَجَدَ ضالّتَه بوصفه موظفًا كبيرًا، أولا ً بوصفه السكرتير الخاص للاتِّحادى الليبرالى جورج جوشين[491] George Goschen،

---

[489]سراييفو: تعَاقَبَتْ على حُكْمها الإمبراطوريتان النمساوية والعثمانية. كانت هى المدينة ا لأوربية الكبرى الوحيدة التى تضمّ المسجدَ والكنيسةَ الكاثوليكية والكنيسةَ الأرثوذكسية و الكنيسَ اليهودى. كانت معقل العثمانية فى القرن الخامس عشر وأُطلِقَ عليها اسم «مدراس» - المترجم.

[490]سايجون: اسمها الحالى «هو تشى منه»، مدينة كبرى فى فيتنام، كانت عاصمة المستعمرة الفرنسية كوشينشينا. سقطت في أيدي الشيوعيين عام 1976 - المترجم.

[491]جورج جوشين: (1831 - 1907)، رجل دولة ورجل أعمال بريطانى، انتمى فى البداية إلى الحزب الليبرالى، ثم إلى الحزب الاتحادى الليبرالى الذى تأسّسَ فى عام 1886 فى بريطانيا، قبل انضمامه إلى حزب المحافظين بحلول موعد الانتخابات العامة فى عام

ثم وكيل وزارة المالية فى مصر، ثم رئيس مجلس الإيرادات الداخلية[492] Board of Inland Revenue، وهو المنصب الذى ظل فيه لمدة خمس سنوات. لخّص هيربرت إسكويث[493] Herbert Asquith شخصيةَ ميلنر، فيما بعد، قائلا ً إنه «توسُّعى، ومؤمن بسياسة الحماية، مع مَيْله إلى الأمور الاجتماعية والا قتصادية بحسٍّ شِبْه اشتراكي»[475].

وكان هذا نوعًا من الدّهاء. ثم أصبح ميلنر بمفارقة كبيرة، بعد عام 1897، وكيلا ً لأشرس الرأسماليين فى تاريخ الإمبريالية البريطانية، سيسيل رودس[494] Cecil Rhodes، الرجل الذى لم يُميّز بشكل واضح بين تقدُّم إمبراطوريته التجارية والإمبراطورية البريطانية فى أفريقيا، والذى حرّكته أهواء جامحة فيما يتعلق بأفضل تعزيزٍ لمصالح كليهما. طبقًا لكويجلى، أسّسَ رودس فى عام 1891 «مجلس الثلاثة» Junta of Three مع الصحفى ويليام ستيد William T. Stead وأحد رجال الحاشية المَلَكيّة ريجنالد بريت Reginald Brett الذى أصبح لاحقًا الفيسكونت إيشر Viscount Esher. أدار هذا الثلاثىُ «جمعيةَ المنتخب» The Society of the Elect، التى ستساعدها «رابطةُ المعاونين» Association of Helpers[476].

هذه الخُطط بالإضافة إلى مسوّدة رودس الأوليّة، أوعزت لناثانيل روتشيلد - أول فرد فى عائلة روتشيلد يَرْقَى إلى طبقة النبلاء - بأن يُرَسِّخَ فى ذاكرة رودس نسخةً إمبريالية لنظام الجيزويت[495] Jesuit Order[477].

1895 - المترجم.

[492] مجلس الإيرادات الداخلية: يرأسه أمينه المالى، مع أربعة أعضاء آخرين مُعيّنين، أحدهم مسؤول حكومي. يعمل المجلس بشكل مستقل عن إدارة الإيرادات الداخلية - المترجم.

[493] هيربرت إسكويث: (1852 - 1928)، سياسى بريطانى وزعيم حزب الليبراليين. تولّى رئاسةَ الوزراء، وفى عهده اندلعت الحرب العالمية الأولى. اضطر إلى الاستقالة عام 1916 بسبب ضغوط من الرأى العام الذى أبدى ارتيابًا فى كفاءته، فخلفه فى رئاسة الوزراء لويد جورج - المترجم.

[494] سيسيل رودس: (1853 - 1902)، رئيس وزراء مستعمرة الكاب بجنوب أفريقيا، لُقِبَ ب «ملك الألماس»، أنشأ شركةَ دى بيرز التى سيطرت على 90% من تجارة الألماس، وهى تسيطر حاليًا على 60% منه. كان له دور كبير فى غارة جيمسون التى انتهت بفشل عسكرى ذريع استقالَ على إثره - المترجم.

[495] رودس أخبر روتشيلد بأن ممتلكاته ينبغى أن تُستَغَلّ فى تأسيس جمعية نُخْبوية تتفانى من أجل تقدُّم مصالح الإمبراطورية البريطانية. ويكتب روتشيلد قائلا ً: «عند النظر، تشير المسألةُ إلى تبنِّى دستور اليسوعيين إذا أمكن، وإدراج الإمبراطورية الإنجليزية فى الدين

عُيّن ميلنر مندوبًا ساميًا لجنوب أفريقيا عام 1897، فى أعقاب الأزمة التى تلت «غارة جيمسون» الفاشلة ضد جمهورية الأفريكان Afrikaner republic في ترانسفال[496] Transvaal.

وفيما يقول كويجلى، صار الطاقمُ المكوّن من 18 رجلا ً الذين جنّدهم ميلنر، وأطلق عليهم «الروضة» Kindergarten، نواةً إحدى أقوى شبكات القرن العشرين[478].

كان الواقعُ أقلّ إثارةً. الأعضاء الأوائل في طاقم ميلنر هم:

روبرت براند Robert Brand، ليونيل كورتيس Lionel Curtis، جون دوف John Dove، باتريك دُنْكِن Patrick Duncan، ريتشارد فيثام Richard Feetham، ليونيل هيتشنز Lionel Hichens، جى إف (المُلَقّب ب بيتر) بيرى J. F. (Peter) Perry، جيفرى روبِنسن Geoffrey Robinson (لاحقًا دوسن Dawson). ثم انضمّ إليهم بعد عام 1905:

فيليب كير Philip Kerr، الذى أصبح لاحقًا ماركيز لوثيان Marquess of Lothian، ودوجال مالكوم Dougal Malcolm. وثمة أعضاء آخرون شملوا: ليو إمرى Leo Amery، هيربرت بيكر Herbert Baker، جون بوشان John Buchan، جورج كريك George Craik، ويليام ماريس William Marris، جيمس ميستن James Meston، بازل ويليامز Basil Williams، هيو ويندهام Hugh Wyndham الذى أصبح لاحقًا البارون ليكونفيلد الرابع Baron Leconfield[479].

قام ميلنر بتجنيد بيرى وروبِنسن من المكتب الاستعمارى[497] Colonial Office

---

الكاثوليكى الرومانى». النتيجة النهائية كانت مِنح رودس أكسفورد الدراسية Oxford Rhodes Scholarships - المؤلف.

[496]ترانسفال: مقاطعة سابقة تقع فى شمال شرق جنوب أفريقيا، سكنها الأفارقة ذوو البشرة السمراء حوالى عام 1800، ثم احتلها فلاحو البوير القادمين من البلاد الأوربية، وعلى الأخص هولندا، وحوّلوها إلى دولة مستقلة، وأطلقوا عليها الجمهورية الأفريكانية الجنوبية عام 1856. احتلتها بريطانيا العظمى عام 1877، وأدّى اكتشاف الذهب والماس فى عام 1886 إلى قدوم مستوطنين بريطانيين جُدُدٍ فتوترت العلاقاتُ بين البوير وبريطانيا. فى عام 1910، أصبحت ترانسفال جزءًا من جنوب أفريقيا. ولم يعد هناك وجود حالي للمقاطعة بهذا الاسم - المترجم.

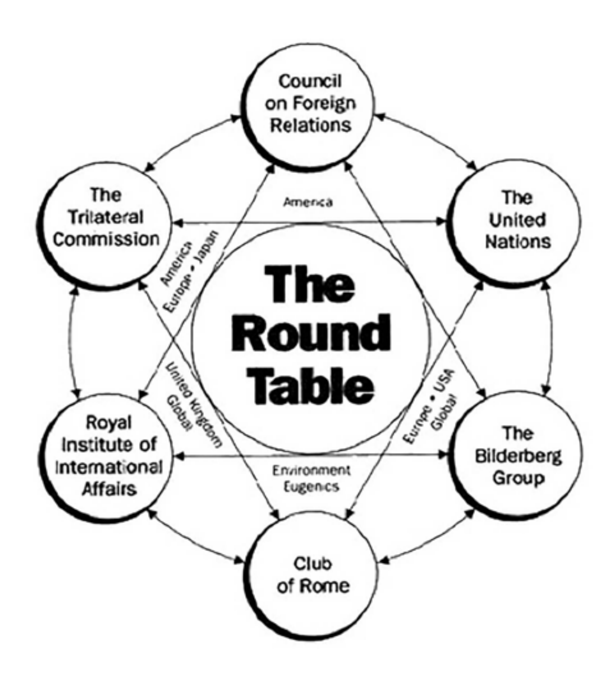
[497]المكتب الاستعمارى: إدارة حكومية تابعة لبريطانيا العظمى، ولاحقًا المملكة المتحدة، أُنشِئ فى البداية للتعامل مع شؤون بريطانيا الاستعمارية فى أمريكا الشمالية، ثم أشرف على العدد المتزايد من المستعمرات البريطانية حول العالم، يرأسه وزير الدولة للمستعمرات المعروف باسم وزير الاستعمار. استمر المكتب الاستعمارى الأول من عام

، حيث كانا يعملان سابقًا معه؛ وبيرى جنّدَ براند؛ ودُنْكِن كان سكرتير ميلنر الخاص فى مجلس الإيرادات الداخلية. أما معظم البقية فجاءوا نتيجةً علاقات بجامعة أكسفورد. بل إن براند وكورتيس ودوف وفيثام وهيتشنز وكير ومالكوم وويليامز وويندهام، درسوا جميعُهم فى الكلية الجديدة New College، التى دَرَسَ فيها ميلنر من قبل. العمل والمعاشرة والعَيْش المشترك - بعد عام 1906 فى مووت هاوس Moot House بباركتاون Parktown جوهانسبرج Johannesburg، المبنى الذى صمّمه هيربرت بيكر - عزّزَت الأواصرَ بينهم؛ فالمجموعة متشابهة من حيث هم زملاء حديثو السن فى كليةٍ بجامعة أكسفورد، يجتمعون للقراءة يوم العطلة[480].

نُقاد ميلنر فى برلمان كيب Cape هم الذين اتهموه ب«إنشاء رَوْضةٍ kindergarten... لحُكم البلاد»[481].

ومع أن هذا الاسم التصق بالمجموعة، فقد آثرَ أعضاؤها اسمًا أكثر رومانسيةً هو «المائدة المستديرة» round table، الذى أصبح عنوانَ مجلتهم [الفصلية] بعد عودة معظمهم إلى لندن.

1768 حتى عام 1782، واستمر المكتب الاستعمارى الثانى من عام 1854 حتى عام 1966 - المترجم.



الشكل: 21 - أسطورة شبكة اللورد ميلنر. وقد روّجَ هذه الرؤيةَ المبالِغ فيها لنفوذ ميلنر المؤرّخُ كارول كويجلى من جامعة جورجتاون. واختيار النجمة ذات المحاور السِّتة ليس مصادفةً، فالتداعيات الدينية السُداسية (مثل نجمة داوود أو خاتم سليمان) تُضيف عاملَ غموض حيوي إلى نظرية المؤامرة.

وبالنسبة إلى مجموعة موظفيين حكوميين لديهم ميول أكاديمية، كانت دائرة ميلنر مستعدة، على نحو لافت، للجوء إلى القوة لتحقيق أهدافها. و الدليل المقنع على هذا أن ميلنر هو الذى دَفَعَ بوتيرة الأحداث نحو الحرب بعد وصوله إلى جنوب أفريقيا.

ففى وقت مبكر من شهر فبراير عام 1898، خَلَصَ إلى أنه «ما من طريق للخروج من المشكلات السياسية... سوى الإصلاح فى ترانسفال أو الحرب»[482]. وفى رسالة عام 1899، حدّدَ أهدافه على النحو الآتى: «الغاية النهائية هى مجتمع من البيض يتمتع بالحكم الذاتى، تدعمه عمالةٌ سوداء تُعَامَلُ معاملةً حسنة وتُحْكَمُ بالعدالة من كيب تاون Cape Town إلى زَمبيزى Zambezi.

ويجب أن يوجد عَلَمٌ واحد، عَلَمُ الاتحاد [جاك الاتحاد][498] Union Jack، فى ظِلِّه تتساوَى الأعراقُ واللغات»[483].

---

[498]علم الاتحاد: ويُعْرَفُ أيضًا باسم «جاك الاتحاد»، تحتفظ به رسميًا أو بشكل شِبْه رسمى بعضُ ممالك الكومنولث. ويُعْرَفُ فى كندا بعلم الاتحاد المَلَكى. يعود التصميم الحالى للعلم إلى عام 1801 - المترجم.

وعند الفحص الدقيق، ما طمح إليه ميلنر هو ابتلاع الأفريكان [الجنوب أفريقيين البيض] بالهجرة من المملكة المتحدة ودولها المستقلة البيضاء المرتبطة بالتاج البريطانى Dominions[499] (فى عام 1900، كتَبَ ميلنر قائلا ً:

«إذا وُجِدَ بعد عشر سنوات من الآن ثلاثةُ بريطانيين مقابل اثنين هولنديين فسيتمتع البلد بالأمن والازدهار. أما إذا وُجِدَ ثلاثةُ هولنديين مقابل اثنين بريطانيين، فسيكون لدينا صعوبة دائمة»)[484].

وما عَنَتْ وعودُ ميلنر بالمعاملة الحسنة والحُكم العادل للسكان السود سوى القهر والإخضاع. دَكرَ كورتيس فى يومياته عام 1901 الآتى: «من نِعَم الله وبركاته أن ينقرض الزنجى، كالهندى الأحمر، قبلنا». ورأى دوف أن «الازدراءَ الوحشى تقريبًا والكراهية لدى معظم الرجال البيض نحو السُود علامةُ صِحّةٍ. فهو يشير إلى عَزْم البيض فى جنوب أفريقيا على ألا يسمحوا بتهجين عِرْقهم»[485].

وقد حدّدَ ميلنر نفسُه، فى إحدى المناسبات، هدفُه بجَعْل جنوب أفريقيا «بلدًا للرجل الأبيض... وليس بلدًا مليئًا بالفقراء البيض، بل بلدًا يعيش فيه عددٌ كبير من السكان البيض حياةً لائقة ومريحة»[486].

يمكننا الآن رؤية إلى أى مدى وَضَعَ نظامُ حُكم ميلنر أسسَ ما سيصبح، فى النهاية، نظامَ تمييزٍ عنصرى بغيض. ولم يكن ميلنر يفكر بهذه الطريقة. فمن وجهة نظره، كان إخضاعُ الأفارقة السود أقلّ أهدافه إثارةً للجدل.

كانت الجائزةُ الكبرى تخفيفَ سلطة الأفريكان[500] Afrikaner و«التأسيس فى جنوب أفريقيا [كما طرح فى عام 1904] لمجتمع متحضّرٍ وتقدُمى وعظيم، من كيب تاون إلى زَمبيزى، مجتمع مستقل فى إدارة شؤونه، ولكنه يظل، بملءِ رغبته، عضوًا فى مجتمع كبير يضمُ الأمم الحُرّة المجتمعة معًا تحت راية العَلَم البريطانى. ذلك هو الهدف من كل جهودى». وستُسْهِمُ جنوبُ أفريقيا المتحدة، بدورها - التى تهيمن عليها بريطانيا - فى «الفكرة الكبرى التى مؤدّاها اتحاد إمبريالى Imperial Unity... أىْ مجموعة دول، جميعُها

---

[499]الدومينيون أو الدول المستقلة البيضاء المرتبطة بالتاج البريطانى: نظام أوجدته بريطانيا لمستعمراتها التى تحتفظ باستقلالها الذاتى مع ارتباطها بالتاج البريطانى. بدأت المملكةُ المتحدة العملَ به منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر - المترجم.

[500]نُذّكِرُ مرةً أخرى بأن «الأفريكان» - بخلاف الأفارقة - هم المنحدرون من المستعمرين الهولنديين فى القرن السابع عشر، بالإضافة إلى أقليات أوربية أخرى فى جنوب أفريقيا - المترجم.

مستقلةٌ فى شؤونها المحلية، ولكنها متحدة معًا للدفاع عن مصالحها المشتركة وتطوير حضارتها المشتركة»[487].

بعد هزيمة البوير Boers فى حرب وحشية، سيق فيها نساؤهم وأطفالهم إلى معسكرات اعتقال مميتة، عمل ميلنر ورجاله الشباب، بلا كلَل، على تحقيق رؤيته. فأنشأوا مجلسًا استعماريًا بَيْنيًا Intercolonial Council، يربط بين ترانسفال ومستعمرة نهر الأورانج[501] Orange River Colony؛ وأدمجوا السككَ الحديدية؛ وأنشأوا اتحادًا جمركيًا؛ ونظَّموا جمعيات الاتحاد الأوثق Closer Union فى كل مستعمَرة، وأشادوا بفوائد اتحاد جنوب أفريقيا South African Union فى منشورات مثل دورية «الدولة» The State؛ وكتبوا أولى مسوّدات ما صار، في النهاية، دستورَ اتحاد جنوب أفريقيا في عام 1910[488].

ومع ذلك، وكما لاحظ أحدُ المؤرّخين البارزين للإمبراطورية البريطانية بحقٍّ، لم تكن رؤية ميلنر لجنوب أفريقيا التى تديرها بريطانيا سوى «خيال إمبريالي جامح»[489].

أسلوب ميلنر الديكتاتورى لم يمنع إحياء السياسة الأفريكانية فى ظل قيادة لويس بوثا[502] Botha Louis وجان سموتس[503] [490] Jan Smuts.

ولم توجد طريقةٌ لجَعْل المستوطنة الإنجليزية الكبيرة تعمل؛ فبسبب وفرة العمالة الأفريقية الرخيصة، وُجِدَتْ بالفعل مشكلة «فقراء من البيض» حتى قبل حرب البوير Boer War[491].

وظهرت التناقضات الداخلية فى «مشروع الإمبراطورية» عندما جلب ميلنر - بطلَبٍ من راندلوردز Randlords - خمسين ألف «كوولى» صينى للعمل فى مناجم الذهب؛ الأمر الذى أطلق العنانَ لعاصفة احتجاج ضد «العبودية الصينية» فى جنوب أفريقيا وبريطانيا معًا. بل أصبحت هذه القضيةُ العصا التى يقرع الليبراليون بها الاتحاديين فى انتخابات عام 1906، وتكفّلتْ

---

[501] مستعمرة نهر الأورانج: هى فى الأصل جمهورية بوير مستقلة ذات سيادة، قامت فى جنوب أفريقيا تحت اسم دولة أورانج الحُرّة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ولا حقًا مستعمرة بريطانية، وحاليًا إحدى محافظات اتحاد جنوب أفريقيا تحت اسم «الولاية الحرة» - المترجم.

[502] لويس بوثا: (1862 - 1919)، سياسى من جنوب أفريقيا، شغل منصب رئيس الوزراء من عام 1910 حتى عام 1919 - المترجم.

[503] جان سموتس: (1870 - 1950)، ابن عائلة هولندية غنية من المستعمرين البيض فى جنوب أفريقيا، كيب تاون. درس القانونَ فى إنجلترا، وشغل منصبَ رئيس وزراء جنوب أفريقيا مرتين بدءًا من عام 1919 - المترجم.

برحيل ميلنر[492].

خَلَفَه اللورد سيلبورن[504] Lord Selborne، الذى قَبِلَ فكرة أن الاتحاد فى ظل قيادة سموتس هو الطريق الوحيد القابل للتنفيذ، فضلا ً عن كوْنه طريقًا لتقليل التدخُّل الليبرالى المُشَوِّش من لندن. لقد تشكلتْ جنوب أفريقيا الحديثة، ولكن ليس بوصفها كندا الجديدة أو أستراليا الجديدة وفق تصورات ميلنر.

فى معظم التاريخ، يُبَالَغُ فى تمثيل النجاح، لأن المنتصرين هم الذين يكتبون عن المهزومين. أما فى تاريخ الشبكات فيحدث العكس غالبًا. فالشبكات الناجحة تتجنّبُ لَفْتَ الانتباه العام؛ والشبكات غير الناجحة تجذب الانتباه، إذ تُؤدِّي سُمْعَتُها السيئة، بدلا ً من إنجازاتها العظيمة، إلى المبالغة فى تمثيلها. وينطبق ذلك على الإلومييناتى [المُتَنوِّرين] فى ألمانيا أواخر القرن الثامن عشر. وينطبق أيضًا على رَوْضة ميلنر ومائدته المستديرة. اتَّهَمَ السياسىُّ الفرنسى الراديكالى جوزيف كايو Joseph Caillaux دائرةَ ميلنر بالتآمر من أجل «إعادة سلطة متداعية للطبقة التى ينتمون إليها وتعزيز سيادة بريطانيا العظمى في العالم».

واشتكى ويلفريد لورييه Wilfrid Laurier، رئيس الوزراء الكندى، من أن كندا «يحكمها مجلسٌ تَشكّلَ فى لندن، عُرِفَ باسم المائدة المستديرة». وحتى رئيس الوزراء [حينئذ] لويد جورج Lloyd George، تحدّث عن اتحادٍ جِدِّ قوى؛ لعله الأقوى في البلاد بطريقته الخاصة»[493].

لكن، لا دليل فى هذا على سلطة الرّوْضة؛ فالعكس هو الصحيح. بل حتى الإمبرياليين المشاركين فى الرّوْضة لديهم شكوك فى ميلنر. استنكرت ناشيونال ريفيو National Review المُحافِظة «الزُّمْرةَ التى تُشجِّع كل قوة طرد مركزى فى الإمبراطورية البريطانية». وبالقدر نفسه، لم تكن جريدة مورنينج بوست Morning Post اليمينية ألطف تجاه ما يُطْلَقُ عليه «كتيبة القصر المثالية، التى يُمَارسُ الوصايةَ عليها انحرافٌ روحىٌ يَتبنّى مسارًا يضرُّ بالمصالح البريطانية فى كل قضية». وقد اقترب رئيس الوزراء الليبرالى، السير هنرى كامبل بانرمن Bannerman-Sir Henry Campbell من الهدف حين أشار، نصف ساخرٍ، إلى دينٍ مِيلنرى. أما كويجلى وورثته الأمريكيون فقد أخطأوا حين فَهموا بشكل حرفى طموحات ميلنر ودائرته، وحين أخذوا بجدية إدانة نقادها لها، غافلين عن ملاحظة أن أحد انتقادات هؤلاء النقاد الرئيسية هى

---

[504]اللورد سيلبورن: (1859 - 1942)، اسمه قبل الترفيع ويليام بالمر، سياسى بريطانى ومدير استعماري - المترجم.

فشل ميلنر الكامل تقريبًا.

الرسل

جامعتا أكسفورد Oxford وكمبريدج Cambridge متشابهتان إلى حد كبير، ولا يمكن للسائح تمييز إحداهما عن الأخرى. ويبدو تنافسُهما القديم، فى نظر الغُرَباء، مستندًا إلى نرجسية الاختلافات البسيطة.

أكسفورد تُسَمِّى فصلها الدراسى الثانى «هيلارى» Hilary، أما كمبريدج فتُسمِّيه «لينت» Lent. طلبة أكسفورد لديهم دروس تعليمية؛ أما نظراؤهم فى كمبريدج فلديهم توجيه وإشراف.

ومثل هذه الاختلافات التافهة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى. ومع ذلك، توجد غالبًا اختلا فات فلسفية عميقة بين الجامعتين. وبكل تأكيد، ليست المسافة الفكرية بينهما أكبر مما كانت قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها. فبينما تصوّرتْ شبكةُ رجال أكسفورد التى كوّنها ميلنر مستقبلا ً نامى العضلات وعسكريًا وإمبرياليًا متباين الجنس، تطلّع نظراؤهم في كمبريدج إلى العكس تمامًا.

الشبكةُ التى نشأت هناك فى كمبريدج وحولها، وهى «رُسُل» كمبريدج[505] Cambridge Apostles، شبكةٌ رقيقة ومُسالِمة وليبرالية ومِثلية الجنس.

تأسّست «جمعية النِّقاش» Conversazione Society [وهى نفسُها رُسُل كمبريدج] فى عام 1820، أسّسها طلبةُ كلية القديس جون St John's College ؛ رغم أنه سرعان ما أصبح مقرُّها التأسيسى كليةَ الثالوث Trinity، أكبر كليات الجامعتين وأغناها. آباء الجمعيّة المؤسِّسون هم:

الشاعر ألفريد تينيسن Alfred Tennyson، وأوسكار براوننج Oscar Browning[494]، وكذلك «الفيلسوف الأخلاقى» هنرى سيدجويك Henry Sidgwick، وفريدريك دينيسن موريس Frederick Denison Maurice اللا هوتى مؤسِّس حركة الاشتراكية المسيحية Christian Socialism[495]. و الجمعية - من بعض النواحى - لها جذورها فى «الأرستقراطية الفكرية» (بتعبير نويل أنان[506] Noel Annan الحديث) فى جامعة كمبريدج: أسماء

---

[505] رُسُل كمبريدج: جمعية نِقاش فكرى فى جامعة كمبريدج، تأسّستْ عام 1820. ويعود أصلُ التسمية إلى عدد مؤسِّسيها الأوائل الاثنى عشر طالبًا، وهو نفس عدد تلاميذ المسيح. معظم الأعضاء طلبة جامعيون، كما يوجد أعضاء من طلبة الدراسات العليا، وأعضاء من هيئة التدريس. اجتذبت الجمعيةُ معظمَ أعضائها من كليات: المسيح، القديس جون، يسوع ، الثالوث، الملك - المترجم.

[506]نويل أنان: (1916 - 2000)، ضابط مخابرات عسكرية بريطانى، ومؤلف وأكاديمى. شغل

مثل كينز Keynes وستريتشى Strachey وتريفليان Trevelyan مُنِحَتْ عضوية تلقائية[496].

ومن نواحٍ أخرى، كانت الجمعيةُ بنظامها الانتخابى الدقيق وطقوسها السخيفة نوعًا ما، مجردَ أخويّة ذكورية من النوع الذى وُجِدَ فى جامعات هارفارد Harvard وبرينستن Princeton وييل Yale فى الفترة نفسها أيضًا. ولكن شيئين ميّزا جمعية النِّقاش. لم توجد جمعية مشابهة فى هذه الفترة اقتصرت على الأمور الفكرية. إذ اُخْتير «الرُسُل» على أساس جدارتهم الفلسفية فى المقام الأول. كما لم توجد جمعية أخرى أدّى فيها الشعورُ بِ التفوق إلى إحساس قوى بالاغتراب alienation عن النظام القائم فى جميع مستوياته تقريبًا. فى أوائل العقد الأول من القرن العشرين، سأل أحدُ الرُسُل رفيقه الرّسول:

هل هذا التفوقُ المعنوى الهائل الذى نشعر به نوعٌ من التوحُّد [مونومِنيا monomania؟»[497]. الجمعيةُ «حقيقةٌ واقعةٌ»، والرُسُل أحبوا السخرية، وأما بقية العالم فهو «استثنائي» [شاذّ] في نظرهم.

حين تزوج الفيلسوف جى. إليس مِكْتاجَرْت J. Ellis McTaggart متأخرًا، سخر قائلا ً إنه لم يَعْدُ أن اتخذ «زوجةً استثنائية». لقد كانوا، بكلمة واحدة، لا يُطاقون.

إجماليًا، وُجِدَ حوالى 255 رسولا ً بين عامىْ 1820 و1914. وبسبب معايير العضوية الرفيعة [المتشدِّدة] لم يوجد، فى بعض السنوات، أىُّ ترشيحات إطلا قًا. فمثلا ً، لم يوجد بين عامىْ 1909 و1912 سوى عضو واحد جديد فقط[498].

يُسَمّى المُجنّدون المُرشّحون «الأجِنّة» embryos، ويُقيّمون فى سلسلة جلسات يُتناوَلُ فيها الشاى بعد الظهر اشتهرت بصعوبتها. وفى مناسبات نادرة، حين يُعتقدُ أن طالبًا جامعيًا مؤهّلٌ، «يُضَمّ» إلى الجمعية، وعندئذٍ يَتوجّبُ عليه حلف يمين السرّية بالدم. بعد ذلك، يُتَوقّع منه حضور اجتماعات الجمعية الأسبوعية مساء كل سبت أثناء الفصل الدراسى، وفى هذه الا جتماعات يقرأ الأعضاءُ أوراقًا بحثية بعناوين من قبيل «الجمال» Beauty أو «الأخلاق فى علاقتها بالسلوك» Ethics in Relation to Conduct، ثم يطرحون أسئلةً (غير مرتبطة بالموضوع تقليديًا) للتصويت عليها [لمناقشتها].

أثناء مسيرته المهنية عمادة بعض الكليات، كما شغل منصب نائب رئيس جامعة لندن، وعضو فى مجلس اللوردات. وهنا، يشير نيل فِرْجسن إلى مقالة أنان الأكثر شهرةً بعنوان «ا لأرستقراطية الفكرية» التى تحدث فيها عن الشبكة القوية التى وحّدَت المثقفين البريطانيين في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين - المترجم.

«الأخ» brother هى صيغة المخاطبة السليمة عندما يتحدث رسول إلى رسول. وأثناء اجتماعهم يتقاسمون وجبة الأنشوجة على رقائق الخبز المحمّص (ويُسَمُّونها «حيتان»)، ويُطْلَقُ على الأعضاء السابقين الذين استقالوا عند التخرُّج «ملائكة» Angels لأنهم يرفرفون بأجنحتهم على مَن لم يتخرّج بعد. وأما وجود علاقات صداقة هيلنستية قوية بين أعضاء من أجيال مختلفة فهو أحد الأشياء التي يعتزّ بها الرُسُل ويفتخرون[499].

وقد واظب الملائكةُ الذين ظلوا فى كمبريدج بوصفهم أكاديميين - فلاسفة من أمثال بِرْتراند رسل Bertrand Russell ووايتهد A. N. Whitehead – على حضور الاجتماعات.

لم تختلف سياسة الرُسُل، فى القرن التاسع عشر، عن سياسة معاصريهم فى أكسفورد. فى عام 1864، قيل إنهم «تُوريون Tory سياسةً، وإنجيليون Evangelical دِينًا»[500]. بل صار عددٌ منهم أعضاءَ مُحافِظين فى البرلمان. 14% من الرُسُل، تقريبًا، أصبحوا أعضاء فى البرلمان أو موظفين حكوميين؛ وانخرط ما بين رُبْعهم وثلثهم في مجال القانون[501].

ولم يوجد أى دليل على مناهَضة الجمعية لاحقًا للإمبريالية قبل عام 1900. بل تنَافَسَ نجومُها البارزون، أحدهم مع الآخر، على مناصب عليا فى الخدمة المدنية الهندية[507] Indian Civil Service، تُمْنَحُ بعد اجتياز امتحان متشدِّد[502].

انقسم الرُسُل بشأن قضية الحكم الذاتى الأيرلندي[508] Irish Home Rule، شأنهم في هذا شأن معظم النُخْبة البريطانية ككل[503].

ولكن الجمعية، منذ سنواتها الأولى، حازت مكانةً مرموقة فعلا ً بسبب راديكاليتها، وإلى حد ما بسبب سرّيتها. وفى أوائل عام 1830، أخذ ريتشارد شيفينكس ترينش Richard Chevenix Trench يُفَنِّدُ الزّعْمَ بأن الرُسُلَ «جمعيةٌ سرّية نشأت بهدف الإطاحة بكل الحكومات القائمة»[504]. ومع ذلك، تمَتْ هذه الروح التخريبية بوضوح أكبر بعد عام 1900، بمجىء جيل جديد

---

[507] الخدمة المدنية الهندية: جزء مما كان يُعْرَفُ فى القرن التاسع عشر ب«الخدمة المدنية ا لإمبراطورية»، التى اقتصرت على النُخْبة البريطانية العليا أثناء الحُكم البريطانى فى الهند منذ عام 1858 حتى عام 1947 - المترجم.

[508] الحُكم الذاتى الأيرلندى: حركة قامت بتنظيم حملات تدعو إلى الحكم الذاتى الأيرلندى داخل مملكة بريطانيا العظمى وأيرلندا المتحدة. ورفض مجلس اللوردات مشروع القانون في عام 1893 - المترجم.

تمحور حول الفيلسوف جي. إي. مور[509] G. E. Moore، سقراط القرن الجديد.

لم يكن مور سياسيًا؛ بل شجّعَ تلامذته على النظر إلى السياسة بعين الا حتقار[505]. انصبّ شغف مور على الفضائل الشخصية. فالكلمات البارزة فى كتابه «مبادئ علم الأخلاق» Principia Ethica، المنشور عام 1903، هي:

الحساسية، العلاقات الشخصية، تحرير العواطف، الغرائز الخلاقة، الصدق مع النفس[506]. فُتَنَتْ هذه الأفكارُ- التى وَجَدَتْ تعبيرَها الأدبى فى روايات رسول آخر هو فورستر E. M. Forster - ثلاثةُ شُبّان متألقين هم: ليتون ستريتشى[510] Lytton Strachey، ليونارد وولف[511] Leonard Woolf، جون مينارد كينز[512] John Maynard Keynes الذى أصبح يوم 28 فبراير عام 1903 الرسول رقم 243[507].

ستريتشى هو ثامن الأبناء العشرة للجنرال سير ريتشارد ستريتشى General Sir Richard Strachey، الذى خَدَمَ فى الهند، وزوجته الثانية إسكتلندية تُسمّى جين ماريا جرانت Jane Maria Grant. كان ليتون بجسده الضئيل وصوته الرّخىّ، ابنًا غير عسكرى على نحو لا يليق بذُرّية جنرال. أما وولف الأ قل توهُّجًا، والمكتئب عادةً، فهو ثالث الأبناء العشرة لسيدنى وولف Sidney Woolf، المحامى اليهودى فى المحاكم العليا. وأما كينز فهو أرستقراطى حقيقى بالمعنى الكمبريدجى: والده، الدون، لا رجاء له سوى فَوْز ابنه البِكرى بكل جائزة تمنحها الجامعة فى الرياضيات. ولكن الرياضيات لم تكن العِلمَ

[509]جورج إدوارد مور: (1873 - 1958)، فيلسوف بريطانى، أثر فى كثير من الفلاسفة البريطانيين المعاصرين، ودافع عن نظريات الفطرة السليمة. كان مدرسًا للفلسفة فى جامعة كمبردج، ومحرّر مجلة العقل لمدة ثلاثين عامًا - المترجم.

[510]ليتون ستريتشى: (1880 - 1932)، كاتب وناقد إنجليزى. عضو مؤسِّس ل«مجموعة بلومزبرى»، ومؤلِف كتاب «الفيكتوريون المرموقون». اشتهر بتأسيسه شكلا ً جديدًا فى كتابة السير الذاتية يجمع بين البصيرة السيكولوجية والتعاطف وخفة الدم والذكاء. كتَبَ سيرةً ذاتية بعنوان «الملكة فيكتوريا» عام 1921، حصل بها على إحدى الجوائز فى إنجلترا - المترجم.

[511]ليونارد وولف: (1880 - 1969)، منظِّر سياسى ومؤلف وناشر وموظف مدنى. زوج الأ ديبة فيرجينيا وولف - المترجم.

[512]جون مينارد كينز: (1883 - 1946)، اقتصادى وكاتب بريطانى ذو شهرة عالمية. عمله الأ شهر على الإطلاق هو «النظرية العامة للعمل والربح والمال». استُغِلَتْ نظرياته بعد الحرب العالمية الثانية فى تأسيس دولة الرعاية. وظلت الأفكارُ الكينزية ممتدةً حتى ثمانينيات القرن العشرين فى إنجلتر والولايات المتحدة. تعرّضَتْ أفكارُه للتطوير فى فرنسا فيما يُعْرَفُ ب«ما بعد الكينزية» - المترجم.

الذي يكترث له الشاب مينارد. كان يكترث بالرجال.

لم يكن ستريتشى وكينز مجرد شاذيْن gay؛ بل كانا مثليى الجنس homosexual بطريقة نضالية، إذ اعتبرا تفضيلهما الجنسى sexual preference أسمى من الغَيْريّة الجنسية heterosexuality المألوفة، وأسمى من إشباع الرغبات بالقنْص المُعادِى للمرأة حين تدخل أىُّ امرأة دائرةَ الرجال ا لاجتماعية الجليلة.

إنه تقليد رسولى يرجع إلى براوننج Browning وكتابه قاموس السِّير الوطنية Dictionary of National Biography، الذى تجرّأ على كتابة أنه عندما «كان فى روما، سَاعَدَ الشبان الإيطاليين، وكذلك الشبان الإنجليز، على الاتجاه نحو الفتحات المرغوبة». وبحلول عام 1903، أصبحت هذه الثقافةُ أبعدَ من أن تكون دُعَابة. تنَافسَ ستريتشى وكينز على شاب مليح فارغ العقل يُسَمّى أرثر هوبهاوس Arthur Hobhouse، فتكفّلا ب«مولده» بوصفه رسولا ً لأسباب جمالية فى المقام الأول. وتفاخرا بتفانيهما فى «السّدوميّة الرفيعة» the Higher Sodomy[513]، الأمر الذى لم يُسْتَبْعَدْ معه ممارستهما الشذوذ مع أفراد من طبقات أدنى كلما سنحت الفرصة.

وبحلول عام 1909، جاءت استعراضاتهما العامة المبتذلة للفت الانتباه بنتائج عكسية[508]. فاستنادًا إلى المراسلات الباكرة بين روبرت بروك Rupert Brooke وجيمس ستريتشى، صارت جمعية النِّقاش تهتم - فى المقام الأول - بالوِصَال الجنسي بدلا ً من الاتصالات الفكرية[509].

وعلى حدِّ تعبير سيدجويك، آمَنَ رُسُلُ الجيل السابق ب«السعى وراء الحقيقة بتفانٍ مطلق وبلا تحفظ وسط مجموعة أصدقاء حميمين»[510]. أما كينز وستريتشي فكانا - بكل بساطة - يسعيان وراء أصدقائهما الحميمين.

لم يكن الرُّسُل كلهم شواذًّا. ولكن نسبة مرتفعة منهم كانوا شواذًّا؛ بمَن فيهم

---

[513]السّدومية [اللواط]: ممارسة الشذوذ الجنسى بطريق الشّرَج أو مع الحيوان [البهيمة]. ويقتصر المصطلح المستمد من قصة «سدوم وعمورية» فى الكتاب المقدس على الجنس الشّرَجى عادةً. وفى إنجلترا، صدر قانون اللواط عام The Buggery Act 1533 - 1533 - عن برلمان إنجلترا فى عهد الملك هنرى الثامن، وهو أول قانون لواط مدنى فى تاريخ البلا د بعد أن كان يُتَعامَلُ مع هذه الجرائم عبر المحاكم الكنَسِيّة. يُعَرّفُ القانونُ اللواطَ أو السّدوميّة بأنها «فِعْل جنسى غير طبيعى ضد إرادة الله والإنسان»، وبقى ساريًا حتى حلّ محلّه قانونُ «جرائم ضد الفرد عام 1828»، وظل الإعدامُ عقوبةَ اللواط فى إنجلترا حتى عام 1861. لكن آخر تنفيذ لحُكْم الإعدام بتهمة اللواط كان فى قضية الشابين جيمس برات وجون سميث من مواطنى لندن اللذين أُعْدِما شنقًا يوم 27 نوفمبر 1835 أمام سجن نيوجيت، ولم يشملهما العفو المَلَكي رغم التماسات زوجتيهما - المترجم.

مَن لم يُرَجِّحوا - مع ذلك - أفكار «الإخوان» الشوادّ الأناوية solipsistic نوعًا ما (من أمثال وولف).

كان الجيلُ الأقدم - فيما يقول ديزموند ماكارثى Desmond MacCarthy فى ورقة قرأها على الجمعية فى ديسمبر عام 1900 - عَبْدًا للمؤسسات القديمة: «الأسرة، والدولة، وقوانين الشرف، إلخ». لكن هذه المؤسسات «فشلت فى إنتاج أدلة مقنعة على سلطتها المرجعية» لدى الجيل الأصغر.

لقد استولت على «كل شيء يتميز بالخصوصية الشخصية»[511].

«اتصِلْ فقط»: هذه هى عبارة الإلزام الحتمى الجديد، وستكون العبارةَ الرئيسيةُ فى تُحْفَة فورستر «نهاية هاوارد»[514] Howard's End (1921). لقد تسمّمتْ شبكةُ جمعية النِّقاش المُرَوْحَنة كتَسمُّم تسلسلات الوايتهول[515] Whitehall الهَرَميّة الجوفاء.

فبعد أن فاز كينز بموقعه فى الخدمة المدنية الهندية ICS سرعان ما ازداد ضجره من المنصب، وأخذ يتشكّى قائلا ً:

الجِدّة بَلِيَتْ الآن. أشعر بالملل تسعة أعشار الوقت، وبالغيظ إلى حد غير معقول فى العُشْر الآخر حين لا أستطيع ممارسة أسلوبى الخاص فى الحياة. ومن المثير للجنون أن يكون لديك ثلاثون شخصًا ينزلون بك إلى مستوى العَجْز الجنسى وأنت متأكد تمامًا من أنك سليم. فكنتُ أُبْدى انشغالا ً كاملا ً واستغراقًا، كشأن المسؤولين، كى أتجنّب أذاهم، وكان هذا مُهْلِكًا قاتلا ً[512].

كانت مُراءاةً من كينز أن يدين زملاءه فى الخدمة المدنية الهندية ICS «خوفًا من تحمُّل المسؤولية». ويعود كينز ناظرًا فى «معتقداته الباكرة» فى عام 1938 فيقطع شوطًا أبعد قائلا ً:

لقد تنصّلنا تمامًا من المسؤولية القانونية المُلْقاة علينا لإطاعة القواعد العامة. وزَعَمْنا الحقّ فى الحُكم على كل حالة فردية وفقًا لمزاياها، والحكمة فى

---

[514]نهاية هاوارد: من تأليف الروائى البريطانى إدوارد مورجان فورستر. تُعالِجُ الرواية المواثيقَ الاجتماعية وقواعد السلوك والعلاقات فى إنجلترا مطلع القرن العشرين. فى عام 1998 احتلت الروايةُ المنزلةَ الثامنة والثلاثين فى قائمة أفضل مئة رواية فى القرن العشرين - المترجم.

[515]قصر الوايتهول: المقر الرئيسى لإقامة ملوك إنجلترا فى لندن. ثم أُطلِق الاسم على الشارع الذى توجد فيه معظمُ المؤسسات الحكومية لحكومة المملكة المتحدة، بجوار المقر - المترجم.

استجابة ناجحة. وكان ذلك جزءًا مهمًا جدًا من إيماننا، الذى استمسكنا به بقوة وضراوة، وهو ما مَثّلَ فى العالم الخارجى صفتَنا المميزة على نحو جلى وخطير. لقد رفضنا الأخلاق المعتادة والأعراف والحِكمة التقليدية [المتوارثة] رفضًا قاطعًا. لِنقلْ إننا كنّا لا أخلاقيين بالمعنى الدقيق للكلمة. وبطبيعة الحال، ما وجدناه ترتيبًا على هذا، نظرنا فيه من حيث القيمة. ولكننا لم نعترف بأى التزام أخلاقي ولا بوازع داخلي نعمل وفقًا له أو نطيعه[513].

ثم كتَبَ فورستر، بعد عام، مُمْسِكًا بالآثار الخطيرة لفلسفة مور عند مَدِّها إلى حدودها القصوى: «إذا كان لى أن أختار بين خيانة بلدى وخيانة صديقى، فآمل أن يكون لدى الشجاعة لخيانة بلدى... من الممكن أن يتعارض حبُّ شخص والإخلاص له مع متطلبات الدولة. وحين يحدث هذا التعارض، أقول فلتسقط الدولة»[514].

وحتى أمام لحظة الحقيقة، فى عام 1914، سَئِمَ بعضُ أعضاء الجمعيّة من كل ذلك. ربما يكون روبرت بروك مثيلَ أدونيس Adonis، لكنه لم يكن شاذًا، وسرعان ما شُوهِدَ بصحبة نساء فابيات[516] [515] female Fabians.

بعد انضمام الفيلسوف النمساوى الأصل لودفيج فتجنشتاين Ludwig Wittgenstein إلى جمعيّة الرُسُل، ألقى نظرةً على الرُسُل وتجنّبَهم تمامًا، فاستقال بعد حضوره اجتماعًا واحدًا. ومع أن ستريتشى أقنعه بسَحْب الا ستقالة، فلم يحضر أىّ اجتماعات بعدئذٍ[516]. ومع اندلاع الحرب [العالمية الأ ولى]، تبخّرت هالةُ السِّحر. فأغلبُ الرُسُل لم يتطوعوا أو يُجنّدوا فى الحرب، باستثناء بروك الذى انضمّ بحماس [إلى الحرب]، على متن سفينة إسعافات طبية فرنسية رَسَتْ فى جزيرة سكايروس Skyros [اليونانية] فى عيد القديس جورج[517] St George's Day، عام 1915؛ ومات مع أشهر الموتى[518]

---

[516]الجمعية الفابية: جمعية إنجليزية تأسّستْ عام 1884، سعى أعضاؤها إلى نشر مبادئ الا شتراكية بالوسائل السِّلمية، بدلا ً من الإطاحة الثورية العنيفة بالأنظمة القائمة. وهى نسخة بريطانية منقحة للاشتراكية تتجنّبُ الرّطانةَ الماركسية عن البروليتاريا وصراع الطبقات واستئصال الرأسماليين وإقامة دولة البروليتاريا. من أبرز أعلامها المفكرُ الا شتراكى الاجتماعى والإنسانى سيدنى ويب وزوجته، والكاتب المسرحى برنارد شو. اسم الجمعية مأخوذ من اسم الجنرال الرومانى «فابيوس» الذى تصدّى ل«هانيبال» عبر عمليات خداع إستراتيجى. فى عام 1920، تعاونت الجمعيةُ الفابية مع حزب العمال البريطانى واستطاعا الفوزَ بالانتخابات ضد تشرشل عام 1945، وبدأت إجراءات تحقيق «دولة الرعاية» التي تغلبت على سوءات الرأسمالية مع الاحتفاظ بها - المترجم.

[517]عيد القديس جورج: يوم 23 أبريل من كل عام، وهو التاريخ المقبول تقليديًا لوفاة القديس فى اضطهاد دقليديانوس عام 303م. وأما بالنسبة إلى الكنائس الأرثوذكسية التى تستعمل التقويم اليولياني فيكون هذا اليوم 6 مايو بالتقويم الميلادي - المترجم.

في التاريخ الإنجليزي[517].

وتوالت الأحداث مع إدخال التجنيد الإلزامى. كينز الذى يعمل فى وزارة المالية، لم يكن يسرى عليه الإعفاء من المشاركة، ولكنه سعى بشكل مُمَنْهَج إلى الإعفاء على أساس الاستنكاف بوازع الضمير. اشتكى إلى دُنْكِن جرانت قائلا ً: «أعمل من أجل الحكومة وأحتقر الأهداف التى أعتقد أنها إجرامية»[518].

وقد استعمل كينز، بصورة شخصية [وسرّية]، نفوذَه وموارده لدعم الرُسُل الآ خرين الذين أعلنوا استنكافهم عن المشاركة فى الحرب بوازع من الضمير، ولا سيما جيمس ستريتشى James Stratchy وجيرالد شوف [519] Gerald Shove، ولكن مساعيه لم تكن كافية بخصوص ليتون ستريتشى Lytton Strachey الذى ترك قصاصةَ جريدةٍ قومية متطرّفة على طبق عشاء كينز ملفوفة برسالة موجزة بسيطة، فى ليلة من ليالى فبراير عام 1916، وَرَدَ فيها: «عزيزى مينارد ، لماذا تبْقى في وزارة المالية؟»[520].

لم تكن شبكةُ الرُسُل الشبكةُ الوحيدة التى فرّقتها الحربُ. فقد اشتركت معها فى العديد من النقاط شبكةٌ فكرية أخرى تفرّعتْ عنها، هى مجموعة بلومزبرى[519] Bloomsbury Group، ولنذكر من أعضائها أربعةً فقط من العشرة: فورستر، كينز، ستريتشي، وولف[521].

وعلى عكس جمعية النِّقاش، اعترفت بلومزبرى بعضوية النساء - ولا سيما الأ ختين ستيفن Stephen، فينِسّا Vanessa وفرجينيا Virginia - بل تمحورت حول الزوجين فينِسّا وكلايف بيل Clive Bell (المقيمين فى 46 جوردون سكوير 46 Gordon Square)، والزوجين فيرجينيا وليونارد وولف Leonard Woolf (الذين انتقلا فى عام 1915 إلى الإقامة فى مدينة ريتشمند Richmond).

---

[518]الإشارة إلى استخدام الألمان لغاز الكلور السام فى معركة إبريس الثانية فى بلجيكا، للمرة الأولى، فى الجبهة الغربية، فى خرق صريح لاتفاقيتىْ لاهاى 1899 و1907. بعدها تُبُودِلَ استخدامُ الغاز من قبل الأطراف المتحاربة حتى صار استخدامه من أكثر الأفعال رعبًا في الحرب العالمية الأولى - المترجم.

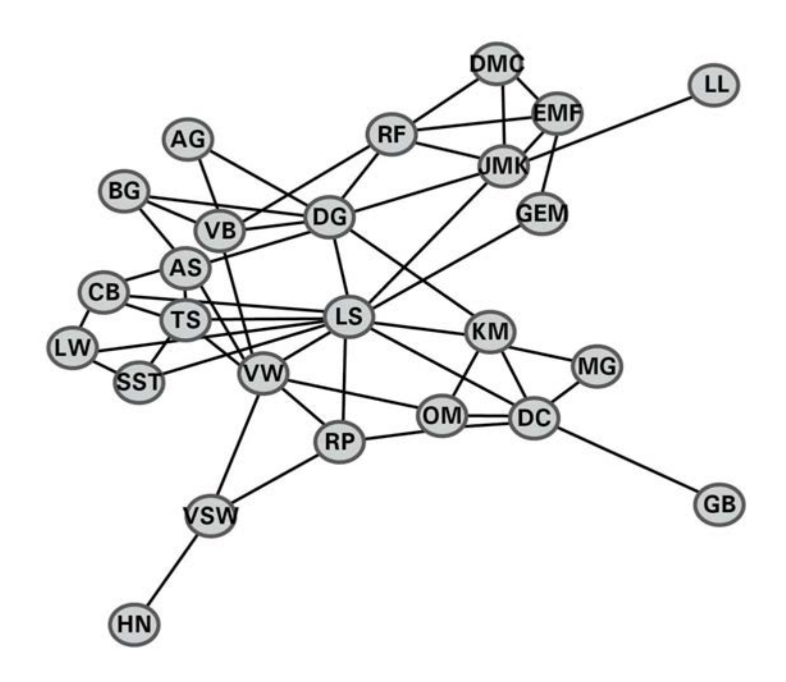
[519]مجموعة بلومزبرى: تشكلَتْ أثناء الحرب العالمية الأولى من مجموعة كتّابٍ وفلاسفة وأدباء وفنانين بريطانيين، بمَن فيهم فرجينيا وولف وكينز وفورستر وليتون ستريتشى. نفى أعضاؤها كوْنَهم جمعية بأى معنى رسمى، بل يجمعهم معًا إيمانٌ راسخ بأهمية الفنون. أثرت أعمالهم ونظرتهم تأثيرًا عميقًا فى الأدب والجماليات والنقد والاقتصاد، وفى المواقف الحديثة نحو الحركة النِّسْوية والدعوة إلى السلام والمواقف الجنسية - المترجم.

لقد دَفَعَ تأثيرُ الحرب العناصرَ الرئيسية فى [شبكة] بلومزبرى - وأغلبهم كتّاب وفنانون - إلى الخروج من لندن، إلى بيت ريفى كبير فى تشارلستن Charleston فى مقاطعة سَاسِكس Sussex [جنوب شرق إنجلترا] التى انتقل للإقامة فيها فينِسّا بيل ودُنْكِن جرانت فى عام 1916. قدّمَ بيتر دولتن Peter Dolton تحليلا ً جديدًا لشبكة بلومزبرى أوضح فيه أن ليتون ستريتشى تمتّع فى عامىْ 1905 و1925 بدرجة تمَرْكزيّة وكذلك تمَرْكزيّة بَيْنية هى الأ على. وفى فترة لاحقة، جاء ترتيب دُنْكِن جرانت وميناردِ كينز وفرجينيا وولف في المنزلة الثانية والثالثة والرابعة بعد ستريتشي[522].

ومع ذلك، السمة التى ميّزت مجموعة بلومزبرى بشكل لافت لم تكن تفضيل أعضائها المشى فى [حدائق] ساوث دوانز South Downs. بل كانت العلاقات الجنسية، شأنهم فى هذا شأن شبكة الرُّسُل، هى التى حدّدَت الشبكة. فبالإ ضافة إلى تَوْمِ دُنْكِن جرانت مع كينز وليتون ستريتشى وأدريان ستيفن Adrian Stephen وفينِسّا بيل، ينام جرانت مع ديفيد جارنيت David Garnett أيضًا. وبالإضافة إلى تَوْمِ فينِسّا بيل مع جرانت، تنام مع روجر فراى Roger Fry أيضًا، وأحيانًا مع زوجها كلايف. أما كينز فينام مع جرانت وجارنيت وستريتشى، وأخيرًا مع راقصة الباليه الروسية ليديا لوبوكوفا Lydia Lopokova.

تعقيدات علاقات الحب داخل مجموعة بلومزبرى كانت بلا نهاية. جارنيت سقط فى حبٍّ من طرف واحد مع فينِسّا بيل. مدام أوتولين موريل Lady Ottoline Morrell [المؤلِفة] وقعت فى المشكلة نفسها مع فيرجينيا وولف؛ و [الرّسامة] دورا كارينجتن Dora Carrington مع ليتون ستريتشى؛ وليتون ستريتشى مع [الرّسام] مارك جيرتلر Mark Gertler؛ ومارك جيرتلر مع دورا كارينجتن.

وكما قال دولتن: «فينِسّا بيل كانت متزوّجة من كلايف بيل، ولكنها عاشت مع دُنْكِن جرانت. أما ليونارد وولف فكان متزوّجًا من فيرجينيا وولف، وكان [الدبلوماسى] هارولد نيكولسن Harold Nicolson متزوّجًا من فيتا ساكفيل ويست West-Vita Sackville ، ولكن فيتا وفرجينيا سقطتا فى حب إحداهما الأخرى»[523].



الشكل رقم:22 - مجموعة بلومزبري حوالي عام 1925. في قلب الشبكة:

Clive Bell (CB), Vanessa Bell (VB), E. M. Forster (EMF), Roger Fry
RF), David «Bunny» Garnett (BG), Duncan Grant (DG), John Maynard)
,(Keynes (JMK), Desmond McCarthy (DMC), Lytton Strachey (LS
.(Leonard Woolf (LW), Virginia Woolf (VW

و«المجموعة الخارجية»:

Turner (SST), Adrian Stephen-Thoby Stephen (TS), Saxon Sydney
AS), Gerald Brenan (GB), Dora Carrington (DC), Angelica Garnett)
AG), Ottoline Morrell (OM), Ralph Partridge (RP), Harold Nicolson)
West (VSW), Mark Gertler (MG), Katherine-HN), Vita Sackville)
.(Mansfield (KM), Lydia Lopokova (LL) and G. E. Moore (GEM

فى رواية «نهاية هاوارد»، تُحاوِلُ المُتأنِّقة مارجريت Margaret إيضاحَ مبادئ مجموعة بلومزبري لزوجها العاميِّ هنري Henry.

«اتّصِلْ فقط! هذا هو كلُّ إرشادها السلوكى. صِلْ العادىّ بالشّغَف، وسيكون كلا هما ساميًا رفيعًا، وعند الذروة سيتجلّى الحبُّ البشرى. لم يعد العَيْشُ شذراتٍ ومِزَقًا. اتّصِلْ فقط، فالبوهيمى والناسك سيموتان مسروقين من العُزْلة التى هي الحياة».

لكن مارجريت، كما يقول فورستر، «فَشِلَتْ». وأما هنرى فلم يكن شعاره «اتّصِلْ فقط» Only connect، بل كان «رَكِّزْ» Concentrate. وقال لها بلهجة

قاطعة: «ليس عندى نِيّة لتبديد قوتى فى هذا النوع من الحياة»[524]. وسيَفهم المرءُ وجهةَ نظره حين يتأمل الوِصَالاتِ الجنسيةَ بين أعضاء مجموعة بلومزبري.

34

أرمجدّون [الكارثة]

كشَفَ فشلُ رَوْضة ميلنر Milner's Kindergarten فى جنوب أفريقيا حدودَ التوسُّع الإمبريالى البريطانى. كذلك بَيّنَ تمزّقُ أوصال [جمعيّة] الرُّسُل و [مجموعة] بلومزبرى أن كمبريدج - وليست أكسفورد - قد فَقدَتْ أىّ تعاطف مع مشروع الإمبراطورية بحد ذاته. فالبريطونيون Britons، فى عام 1914، ذهبوا - دون أن يقولوا شيئًا لرعايا إمبراطوريتهم - إلى الحرب، ردًّا على التحدّىِ الذى فرضه تنامى القوة الاقتصادية وطموح الرايخ الألمانى الجيوسياسى. ويدين انتصارُ بريطانيا النهائى، فى هذه الحرب، بالكثير للاتحاد بين الشعوب الناطقة بالإنجليزية، الذى حَثّ عليه ميلنر ومعاونوه. أستراليا وكندا ونيوزيلندة، بل وجنوب أفريقيا، قدّمتْ كلُّها إسهامات اقتصادية وعسكرية كبيرة للمجهود الحربى البريطانى بين عامىْ 1914 و 1918، بقدر ما قدّمتْ الإمبراطوريةُ ككل والهندُ على وجه الخصوص[525].

ولم تُسْمَعْ مناحات بلومزبرى إلا بعد نهاية الحرب، حين نُشِرَتْ مجادلتان مدمِّرتان: «الفيكتوريون المرموقون» من تأليف ستريتشى Strachey's Eminent Victorians، و«عواقب السلام الاقتصادية» من تأليف كينز Keynes's Economic Consequences of the Peace.

ولا داعى للدخول من جديد، هنا، إلى قاعة المحكمة المكتظة الخاصة بتأريخ الحرب العالمية الأولى[526]. فالمؤرّخون، شأنهم شأن المحامين فى رواية ديكنز «المنزل الكئيب» Dickens's Bleak House، يواصلون نَفْضَ الغبار عن الوثائق (فى قضيةٍ استحقّتْ عن جدارة أحيانًا ما أسماه ديكنز ألمانيا ضد ألمانيا Germany v Germany). ومع ذلك، لن يوجد حُكْمٌ نهائى فى هذه القضية، لأن البحثَ الطويل الذى دامَ قرنًا من الزمان عن «وِزْر الحرب» بحثٌ عديم الجدوى.

لقد اندلعت حربٌ أوربية شاملة عام 1914 لسبب بسيط هو أن النظام الذى أُنْشِىء فى فيينا عام 1815 [الاتحاد الخُمَاسى] قد انهار. والسؤال التاريخى الصحيح الذي يطرح نفسَه لماذا اندلعت الحرب وليس مَن يتحمّلُ وِزْرَها.

مع أوائل العقد الأول فى القرن العشرين، كان الحُكْم الخماسى المكوّن من القوى العظمى الخَمْس قد تطوّرَ إلى خَمْس إمبراطوريات كبرى، كلٌّ منها خرجت بصدوع بسيطة من شبكات التجارة والهجرة والاستثمار والمعلومات، الدولية، التى وصفناها أعلاه. ولفترة من الزمن بعد حرب القرم Crimean War

، بدا أن تسويةً مؤقتة[520] modus vivendi قد نشأت بين التسلسلات الهَرَميّة القديمة الوراثية وشبكات العَوْلمة الجديدة new networks of globalization.

ولعبت الحكوماتُ التى تدير الإمبراطورياتِ الأوربيةَ الكبرى دورَ دولِ حراسةٍ ليلية ذات امتداد [جغرافى] كبير، فألقتْ بالحد الأدنى من المطالب على عاتق اقتصادات السوق التى تتعايش معها: تُصِرُّ على السيطرة على بعض الخدمات البريدية والتلغرافية والسكك الحديدية، بالإضافة إلى الجيوش والقوات البحرية، ولكنها تترك كل شىء آخر فى أيدى القطاع الخاص. عاشت الهَرَميّات المَلَكيّة والإمبريالية فى المدن الأوربية الكبرى، على صِلَةٍ اجتماعية حميمة بنُخَب الائتمان والتجارة والفكر الجديدة؛ بل تزوّجَ حاملو ألقاب الإيرل[521] earl من بنات المَصْرفيين اليهود. وشعر المتفائلون، من أندرو كارْنِجى إلى نورمان إنجِل[522] Norman Angell، بالثقة فى أن الأباطرة لن يكونوا من الحُمْق بحيث يخاطرون بكل ذلك[527].

وقد ثبَتَ أن هذا وَهْمٌ وغرور. فطبقًا لتفسيرٍ كلاسيكىٍّ قدّمه هنرى كيسنجر Henry Kissinger، كفّ الحُكْم الخماسى عن أن يكون مستقرًا، لأنه «مع ألمانيا الموحّدة وغريمتها الدائمة فرنسا، فُقِدَ النظامُ مرونتَه»[528].

بعد عام 1871، اعتمد النظامُ على موهبة بيسمارك Bismarck الدبلوماسية للحفاظ عليه فى حالة توازن. وتمثلت براعة بيسمارك الرئيسية فى معاهدة إعادة التأمين السرّية Secret Reinsurance Treaty التى وَقّعَها مع وزير الخارجية الروسى نيكولاى جيرس Nikolay Girs فى يونيو عام 1887، وبمقتضاها تُوافِقُ ألمانيا وروسيا على الالتزام بالحياد فى حالة دخول أىٍّ منهما فى حرب مع دولة ثالثة، ما لم تُهاجِمْ ألمانيا فرنسا أو تهاجم روسيا الإمبراطورية النمساوية المجرية. وهو ما يُلْزِمُ ألمانيا بالحياد إذا سعت روسيا

---

[520]تسوية مؤقتة أو موديوس فيفاندى: عبارة لاتينية تعنى التعايش السِّلْمى المؤقت أو التوصُّل إلى طريقة توافقية، بمعنى تسوية الخلافات بين أطراف النزاع من أجل استمرار الحياة، ولكنها تنطوى ضمنًا على تأكيد الاختلاف وبقائه إلى حين إيجاد تسوية نهائية - المترجم.

[521]الإيرل: لقب من أصل أنجلوسكسونى يحصل عليه الرجل إنْ كان من طبقة النبلاء، فيُقال «إيرل كذا» نسبةً إلى المكان أو نسبةً إلى اسم العائلة - المترجم.

[522]نورمان إنجِل: (1872 - 1967)، أديب وسياسى بريطانى، التحق بحزب العمال عام 1920، ومَثّله فى البرلمان البريطانى. حصل على جائزة نوبل للسلام عام 1933 عن كتابه المُناهِض للحرب المشهور فى الولايات المتحدة باسم «الوهم الكبير» والمنشور لأول مرة عام 1909 - المترجم.

إلى تأكيد سيطرتها على مضيق البحر الأسود Black Sea Straits، ولكن الهدف الحقيقى كان تثبيطَ الرُّوس عن السعى إلى معاهدة دفاع مشترك مع فرنسا، وهو ما حَدَثَ بالضبط عقب إجبار بيسمارك على الاستقالة، الأمر الذى أدّى إلى عدم تجديد معاهدة إعادة التأمين السرّية. وعلى حدِّ تعبير كيسنجر: «من عجيب المفارقات أن هذا الالتباس، على وجه التحديد، هو الذى حافظ على مرونة حالة التوازن الأوربية. وبالتخلِّى عنه... بدأت سلسلةُ المواجهات المتزايدة التي بلغت ذروتها في الحرب العالمية الأولى»[529].

يقول كيسنجر إنه بعد ذهاب بيسمارك «فاقمَ» نظامُ القوى العظمى من نزاعاته بدلاً من «تخفيفها». وبمرور الوقت، «فَقَدَ القادةُ السياسيون السيطرةَ على تكتيكاتهم»، و«فى النهاية، بدأ التخطيط العسكرى يعمل بمعزل عن الديبلوماسية»[530].

وبكلمات أخرى، نشأ منذ عام 1890، فصاعدًا، احتمال كبير لنشوب صراعٍ تتبارى فيه ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية ضد فرنسا وروسيا. المدهش ليس اندلاع هذه الحرب عام 1914، بل عدم اندلاعها قبل ذلك التاريخ.

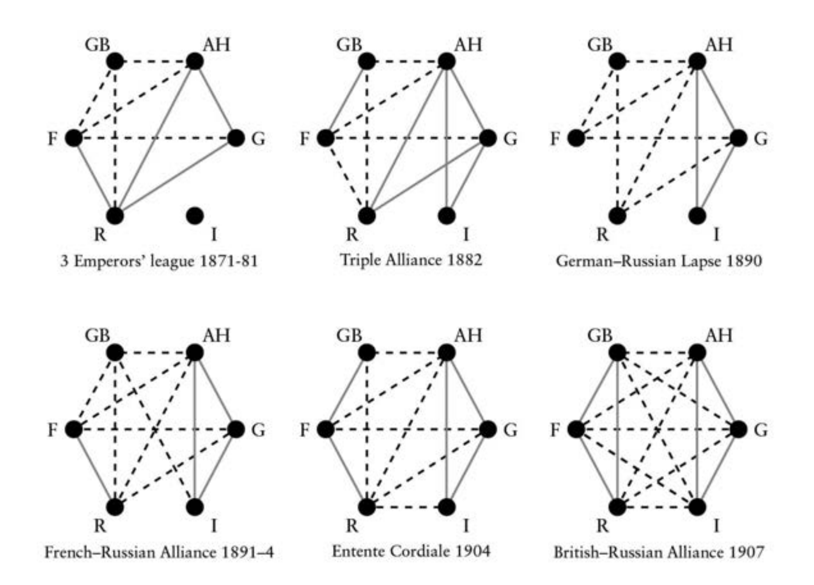
ورغم عدم ألفة منهج كيسنجر بين المؤرّخين، فهو يجد تأييدًا كبيرًا فيما بين علماء السياسة ومُنظِّرى الشبكة. وتدعم الزيادةُ الحادةُ فى عدد الصراعات العسكرية بعد عام 1890 حُجّتَه القائلة بوجود نوع من التغيير فى ذلك الوقت تقريبًا[531].

كذلك أيضًا دعمتها ورقةٌ ممتازة قدّمها عالِمُ الرياضيات تيبور أنتال[523] Tibor Antal والفيزيائيان بول كرابيفسكى Paul Krapivsky وسيدنى ريدنر[524] Sidney Redner، فأوضحوا أن تطوّرَ نظام القوى العظمى بعد عام 1890 كان يمضى - من حيث نظرية الشبكة - بمفارقة عجيبة فى اتجاه «التوازن الا جتماعى»؛ حيث ظهر تحالفان متساويان تقريبًا. التوازن فى هذه الحالة كان «نتيجةً طبيعيةً»، ولكنها ليست جيدة إذا لم يُرْدَعْ طرفٌ من قبل الطرف الآخر (انظر الشكل 23)[532].

---

[523]تيبور أنتال: أستاذ الرياضيات، جامعة إدنبرة، إسكتلندا - المترجم.

[524]سيدنى ريدنر: فيزيائى كندى من مواليد عام 1951، شغل سابقًا رئاسة قسم الفيزياء بجامعة بوسطن. له أعمال بالمشاركة مع زميله فى جامعة بوسطن بول كرابيفسكى، تُرَكِّزُ بحوثُهما على الميكانيكا الإحصائية غير المتوازنة وهيكل الشبكات - المترجم.



الشكل:23 - تطور العلاقة الرئيسية يتغير بين مُحَرّكى الحرب العالمية الأولى، 1892 - 1907.

GB= Great Britain, AH= Austria-Hungary, G= Germany, I= Italy, R= Russia, F= France.

توجد، بطبيعة الحال، تفسيراتٌ بديلة. إحدى الفرضيات أن النظام فَشِلَ لأن القوى العظمى سمحت بأن تجرّها قوى أقلٌ في البلقان إلى الصراع[533]. تعقيد التحالفات الأقل هو الذي زَعْزَعَ استقرارَ النظام[534].

ومع ذلك، لا يُعْقَلُ بكل بساطة أن روابط هذه القوى الأقل مع رومانيا أو اليابان، ناهيك عن إسبانيا أو البرتغال، هى التى قادت القوى العظمى إلى أرْمجِدُّون [ملحمة كبرى] فى عام 1914[535]. لم تكن البلادُ الأقلُّ، مُهِمّةً إلا لأنها أثارت احتمال صراع القوى العظمى.

ضَمّ الإمبراطورية النمساوية المجرية Austro-Hungarian للبوسنة Bosnia عام 1908، ثم اغتيال وريث العرش النمساوى المجرى بعد سِتِّ سنوات - برعاية صِرْبية[525] - أوجدا معًا ظرفًا فريدًا، لأن ثلاث قوى عظمى رأت الحربَ بديلا ً وحيدًا لهَجْمَةٍ ديبلوماسية ساحقة، على عكس ما كان يجرى فى الأ

---

[525] وريث العرش النمساوى من آل هابْسبورج، الأرشيدوق فرانز فرديناند، اغتاله هو وزوجته الشابُّ الصربى جافريلو برينسيب (19 عامًا) المنتمى إلى تنظيم «القبضة السوداء» الذى استهدف إنشاءَ قومية سلافية ومُحارَبة الاحتلال النمساوى المجرى، وكان التنظيم على صلة بكبار رجال الدولة فى صربيا آنذاك، وهو ما أسفرت عنه التحقيقات لا حقًا. وقعت عملية الاغتيال فى سراييفو العاصمة البوسنية فى شارع أبيل يوم 28 يونيو 1914 - المترجم.

أزمات الحرجة السابقة بشأن المغرب أو حروب البلقان السابقة[536].

وجهة نظر فيينا وبرلين كانت معقولةً: بَدَتْ روسيا عازمةً على استغلال الأزمة البوسنية بهدف الإنهاك المتواصل للإمبراطورية النمساوية المجرية Austria - Hungary، إن لم يكن تقطيع أوصالها[537].

وبالنظر إلى أن التالى فى سلالة عرش آل هابْسبورج سَقَطَ ضحيةً ما بدا، بشكل مريب، عملا ً من أعمال الإرهاب ترعاه دولةٌ، كان النمساويون فى موقف جيد ضمن نطاق حقوقهم «وَفْقَ مترنيتش» للمطالبة بتَرْضية من صربيا Serbia. ولم يختلف الإنذار النمساوى الشهير لبلجراد Belgrade [العاصمة الصِّرْبية] اختلافًا كبيرًا عن نوع المطالبة المفروضة على دول الدرجة الثانية في عشرينيات القرن التاسع عشر[526].

وفى الوقت نفسه، لم تعتقد أىٌّ من القوتين الأخريين، فرنسا وبريطانيا، فى وجود حجج قوية تكفى لإثناء القوى الأخرى عن الذهاب إلى حرب على البلقان: الفرنسيون لأنهم صاروا مرتبطين دون تمحيص بتحالفهم مع روسيا، و البريطانيون لأنهم لم يتمكنوا من إيجاد وسيلة لرَدْع ألمانيا لا تُحرّضها على روسيا وفرنسا[538].

وإذا كان أى شخص يستحق اللومَ بصفته الشخصية على فشل النظام فهو وزير الخارجية البريطانى السير إدوارد جراى Sir Edward Grey. فقد كان من المفترض أن تكون بريطانيا قوةَ التوازن فى أزمة من هذا النوع. فى يوم 29 يوليو عام 1914، حذّرَ جراى السفيرَ الألمانى من أن بريطانيا ستتدخل إذا اندلعت حربٌ قارّية، وإذا قُبِلَت الوَسَاطَةُ «فسيكون قادرًا على ضمان كل تَرْضية ممكنة للنمسا؛ إذ لم يعد من الوارد أىُّ تراجع مهين للنمسا، وسيُعاقَبُ الصربيون على أية حال، ويُجْبَرون - بموافقة من روسيا - على إخضاع أنفسهم لرغبات النمسا»[539].

ثم بعد يومين، أخبر الألمانَ بأنه سيُؤيّدُ أىّ اقتراح معقول يتوصلون إليه، وسيخبر فرنسا وروسيا بأن بريطانيا - إذا لم يقبلا هذا الاقتراح - فلن يكون لديها «أكثر من التعامل مع العواقب»[540].

ولكن فى هذه المرة، كان الأوان قد فات، لأن الألمان تلقوا أخبارَ التعبئة الروسية العامة، التى انتهى الوقت معها لأى ديبلوماسية. ونستطيع تخيُّل وزير خارجية أكثر تأثيرًا - كاسِلْريه Castlereagh ربما - يرسل هذه الرسائل قبل أسبوع، فيمنع اشتعالَ الحريق. الحقيقة أن جراى كان ملتزمًا، بشكل

---

[526] وهو لم يكن فى لامعقوليته أو تعسُّفه أكثر من المطالبة التى فرضتها الولايات المتحدة على نظام الحُكْم الأفغاني بعد هجمات 11/ 9 - المؤلف.

شخصي، مع فرنسا وروسيا إلى درجة لا تُمَكِّنه من لعب هذا الدور.

بحلول عام 1914، كان نظام القيادة والسيطرة والاتصال الإمبريالى هو المؤثِّر الحقيقى، الفاعل فى الأحداث، عندما اعتزم الأباطرةُ (أو على الأصح وزراؤهم) الدخولَ فى حرب على قضيتين غامضتين - سيادة البوسنة و الهرسك، وحياد بلجيكا - أدّتا، على مدى أكثر من أربع سنوات، إلى تعبئة ما يزيد على سبعين مليون رجل، سواء كانوا جنودًا أم بحّارة. وفى فرنسا وألمانيا، انتهى الحال بما يقرب من خُمْس السكان قبل الحرب - 80% تقريبًا من الذكور البالغين - إلى ارتداء الزيِّ العسكري.

وقد رَمَزَ إلى انتصار التسلسل الهَرَمى على الشبكات فَشَلُ أحزاب الدولية الثانية الاشتراكية Second International of socialist parties فشلا ً ذريعًا فى مَنْع اندلاع الحرب العالمية الأولى. إذ لم يتمكّن زعماءُ الاشتراكية الأ وربية، حين اجتمعوا فى بروكسل نهاية يوليو عام 1914، من فعل شىء أكثر من الاعتراف بعَجْزهم. وملاحظةُ الكاتب النمساوى الساخر كارل كراوس Karl Kraus التى مفادها أن عام 1914 أصبح ممكنًا بفضل تعايش العروش و التليفونات، هي ملاحظةٌ ثاقبة[541].

لقد استطاع ملوكُ أوربا، المُمَكنون بالتكنولوجيا، تسييرَ رعاياهم من الذكور اليافعين إلى أرْمجِدُّون بمجرد إرسال التلغرافات. والعديد من المُعلِّقين الذين اعتقدوا أن هذه الحرب لن تستمر طويلا ً- ومن بينهم كينز - استهانوا بقدرة الدولة الإمبراطورية على دَعْم مجزرة صناعية استهانةً بالغةً.

فى حرب عالمية ضد الإمبراطورية البريطانية، عانى الرايخ الألمانى من خسارة شديدة، حين قامت سفينة بريطانية فى الساعات الأولى من صباح يوم 5 أغسطس عام 1914، بقطع خمسة كابلات تحت الماء تمتد من مدينة إمدن Emden [فى ألمانيا] إلى مدينة فيجو Vigo [فى إسبانيا] وجزيرة تنريفى Tenerife [كبرى جزر الكنارى فى المحيط الأطلنطى] وجزر الأزور Azores [أرخبيل جزر بركانية بالقرب من البرتغال] والولايات المتحدة. منذ ذلك اليوم فصاعدًا، اضطر الألمان إلى إرسال تلغرافاتهم إلى سفارتهم فى العاصمة واشنطن على الكابلات الأمريكية من السويد أو الدنمارك، وكلاهما يمر عبر محطة ترحيل شركة التلغراف الشرقية Eastern Telegraph Company فى قرية بُرْثكورنو Porthcurno فى كورنوول Cornwall [فى المملكة المتحدة]، حيث يتم اعتراضها وإرسالها إلى غرفة الأميرالية رقم 49، Admiralty's Room 49، لفَكِّ شفرتها. وكما رأينا، سَيطرتْ بريطانيا على شبكات الاتصالات الدولية: فبالإضافة إلى سيطرتها على التلغراف، سيطرت على الأنظمة النقدية والمالية التى كانت لندن محورَها بلا منازع، وعلى

شبكات التجارة البحرية (وإنْ بدرجة أقل). وفشلت ألمانيا فى سدِّ الفجوة من حيث القوة البحرية أيضًا. لذا، لم يوجد سوى عدة مخارج قليلة يأمل عبرها ا لألمان فى تحقيق النصر فى الحرب العالمية الأولى: إما بهزيمة حاسمة للجيوش البريطانية والفرنسية والروسية على الأرض، أو بتعطيل وارداتهم عبر هجوم بالغواصات فى البحر، أو بإيقاع الفوضى والاضطراب فى إمبراطورياتهم بإشعال ثورات داخلها عبْر تنشيط الشبكات المناهضة للإ مبريالية بهدف تمزيق هياكل الإمبراطورية الهَرَميّة. لقد أوشك الألمان، كما سنرى، على النجاح فى النواحى الثلاث جميعها. ولكن أجْرَأ حيلِهم مكرًا كانت المؤامرة الرومانسية التى صَوّرتها ثانيةُ رواياتِ جون بوشان[527] «الرداء الأ خضر»Greenmantle[542] بعد روايته «تسع وثلاثون خطوة».

فى الصفحات الأولى من رواية «الرّداء الأخضر»، يقول رئيس المخابرات البريطانية السير وولتر بوليفِنت Sir Walter Bullivant لريتشارد هاناى: «ثمة جِهَادٌ jehad [كذا] يجرى الإعداد له». ف«الشرق ينتظر إلهامًا. وقد وُعِدَ به. نَجْمٌ آتٍ من الغرب: رجل أو نبوءة أو مؤامرة. والألمان يعرفون، وتلك هى ورقة اللعب التي سيُدْهِلون بها العالَمَ».

تبدو فكرةُ تدبير دعوة ألمانية لاستنهاض المسلمين فى حرب مقدسة holy war ضد الإمبراطورية البريطانية فكرةً بعيدة الاحتمال لدى القارئ الحديث. ولكن المُدْهِشَ والمثيرَ اكتشافُ أن بوشان استلهم روايتَه «الرّداء الأخضر» من أحداث حقيقية.

---

[527]الرّداء الأخضر: ثانية روايات بوشان التى بطلها ريتشارد هاناى، نشرتها لأول مرة دارُ نشر هودر وستوكتون فى لندن عام 1916، وتدور أحداثها أثناء الحرب العالمية الأولى ، على حين تدور أحداث رواية «تسع وثلاثون خطوة» فى الفترة السابقة مباشرة على اندلاع الحرب - المترجم.

VI

القسم السادس

أوْبِئةٌ وزمّارون

35

الرداء الأخضر

فى قصة «زمّار هاملِن ذو الرّداء المُبَهْرَج» Pied Piper of Hamelin، تَستأجِرُ بلدةٌ صائدَ فئران يرتدى ملابس مُلوّنة غريبة، لجَذْب الفئران التى غزت البلدةَ بعيدًا عنها، بالنّفْخ فى مزماره السحرى. تبِعَت الفئرانُ موسيقى الزمّار حتى قادها إلى ريفر فيزر River Weser [نهر فى شمال غرب ألمانيا] القريب من البلدة، وهناك ماتت غرقًا. ثم حين رفض سكانُ البلدة دَفْعَ الأجر المتفق عليه كاملا ً للزمّار، استخدم الحيلةَ نفسَها مع أطفالهم، حتى قادهم إلى كهف. ولم يَرَ أحدٌ من أهل البلدة الأطفالَ مرة أخرى باستثناء ثلاثة. يرجع تاريخ القصة إلى القرن الثالث عشر، وربما استندت إلى أحداث حقيقية لا يتضح منها ما السبب الحقيقى فى فقدان أولئك الأطفال. تذهب إحدى الفرضيات المعقولة إلى أن القصة عن تفشِّى الطاعون الدّبْلىّ[528] bubonic plague، الذى ينتشر عن طريق الفئران، رغم أنه لا ذِكر للفئران فى الرواية الأصلية للقصة؛ إذ أُضِيفت الفئران إلى القصة أواخر القرن السادس عشر.

كان القرنُ العشرون أيضًا زمنَ أوبئة، وزمنَ زمّارين. وكما هو معروف، تزامنتْ المرحلةُ الأخيرة من الحرب العالمية الأولى مع جائحة عالمية: شكلٌ مُمِيت من فيروس الإنفلونزا اجتاح العالمَ، وقتَلَ عشرات الملايين من الناس، ولا سيما الشباب[529] ولكن هذا الوباء لم يكن الوحيد فى السنوات بين عامىْ 1917 و

---

[528]الطاعون الدّبْلى: أو الدُملى أو النّزْفى، أو العقدى، مرضٌ حيوانى المنشأ ينتشر أساسًا بين القوارض الصغيرة والبراغيث التى تحملها. ويُقْصَدُ به الإصابةُ بدخول الطفيليات المُسبّبة للمرض من خلال الجلد وانتقالها عبر الأوعية اللمفية، كما فى الالتهابات التى تُسبّبها البراغيث. وهو واحد من ثلاثة التهابات يُسبِّبها طاعونُ يرسينيا المعروف سابقًا باسم طاعون الباستوريلا. يُعْتَقَدُ أن الطاعونَ الدّبْلى - مع طاعون إنتان الدم والطاعون الرئوى - هو السببُ وراء الموت الأسود الذى اجتاح أوربا فى القرن الرابع عشر وسَبّبَ وفاةَ ملايين السكان. وهو ما ترتّب عليه ارتفاعُ قيمة الأجور بسبب نقص الأيدى العاملة من جرّاء الموت الأسود، ويرى بعض المؤرّخين أن ذلك كان بمثابة نقطة تحوُّلٍ جوهرية فى الا قتصاد الأوربي. يُستَعْمَلُ المصطلحُ ليطلق على الطاعون عمومًا مهما كان نوعه - المترجم.

[529]على غير المعتاد، كانت هذه السلالة النوعية من الأنفلونزا الأكثر فتكًا بالأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين حوالى العشرين والأربعين. ما يُقدّر ب 675,000 أمريكى لقوا حَتْفهم بسبب الأنفلونزا أثناء الوباء، عشرة أضعاف مَن ماتوا فى الحرب العالمية الأولى. ومن بين الجنود الأمريكيين الذين ماتوا فى أوربا، كان نصفُهم ضحايا الأنفلونزا. ولا شك فى أن التعبئة العامة للشباب التى أعقبت دخول الولايات المتحدة الحرب أسهمتْ فى انتشار المرض السريع، الذى هاجم الرئتين وتسبّبَ فى إغراق الضحايا فى دمائهم. وقعت الحالات

.1923

إذ وُجِدَتْ سُلالةٌ متحوّلة من الماركسية Marxism طَوّرها البلاشفةُ الرُّوس[530]، Russian Bolshevikes، اجتاحت الأراضىَ الأوراسية أيضًا. كما أنتجتْ أشكالٌ من القومية nationalism جديدةٌ ومتطرّفةٌ حركاتٍ فاشيةً[531] fascist خبيثةً فى كل بلد أوربى تقريبًا. كانت هذه الأيديولوجياتُ شديدةَ العَدْوى، إلى درجة أنه حتى الإنجليز المحظوظين فى أفْنية جامعة كمبريدج المعزولة قد أُصيبوا بها. وُجِدَ وباءٌ اقتصاديٌّ أيضًا: وباء التضخُّم المفرط، الذى لم يُخَرّبْ ألمانيا فقط، بل النمسا وبولندا وروسيا أيضًا. وفى مواجهة هذه الأ

الأمريكية الأولى فى معسكر الجيش فى كانساس Kansas أوائل عام 1918. وبحلول شهر يونيو، وصلت موجةٌ من الوباء إلى الهند وأستراليا ونيوزيلندة. ثم بعد شهرين، ضَرَبَتْ موجةٌ ثانيةٌ ولايتىْ بوسطن وماساتشوستس، وبريست Brest فى فرنسا، وفريتاون Freetown في سيراليون Sierra Leone بالتزامن - المؤلف.

[530]البلاشفة الرُّوس: تعنى الكلمةُ «الأكثرية»، وهى التى وَصَفَ بها أنصارُ لينين أنفسَهم فى حزب العمل الاشتراكى الديمقراطى الروسى أثناء مؤتمره الثانى عام 1903، وهو الجناح الذى يميل إلى التغيير الثورى، فى مقابل «المناشفة» التى تعنى «الأقلية» القائلين بالتغيير السِّلمى. كوّنَ البلاشفةُ «الجيشَ الأحمر» الذى دخل فى حروب أهلية مع الجيش الأبيض المدعوم من بريطانيا وفرنسا، وانتهت بانتصار البلاشفة الذين قادوا المرحلةُ الثانية من الثورة الروسية فى أكتوبر عام 1917، تحت إمْرة فلاديمير لينين وقائد الجيش الأحمر ليون تروتسكى. يُطلَقُ على المرحلة الثانية اسم «الثورة البُلْشفية» التى جاءت نتيجة تطوير لينين لأفكار ماركس. هذا التطوير يسميه نيل فِرْجسن «السلالة المتحوّلة» - المترجم.

[531]الفاشية: شكل من النزعة القومية المتطرفة يتميز بالسلطة الديكتاتورية والقهر القسْرى للمعارضة والسيطرة القوية على المجتمع والاقتصاد. برزت أولى الحركات الفاشية فى إيطاليا أثناء الحرب العالمية الأولى قبل انتقالها إلى بلدان أوربية أخرى، إذ أتاحت الحربُ المجالَ لتطبيق الفاشية عمليًا من خلال التعبئة العامة الجماعية للمجتمع ككل فيما يُعْرَفُ ب«المُواطنَة العسكرية «military citizenship ،وهو ما نجم عنه صعودُ قوة الدولة القادرة على حشد الملايين من الناس للعمل فى خطوط القتال الأمامية وتوفير الإنتاج الاقتصادى وأشكال الدعم اللوجستى، بالإضافة إلى امتلاك سلطة تدخُّلٍ غير مسبوقة فى حياة المواطنين.

يعتقد الفاشيون أن الديمقراطية الليبرالية قد عفا عليها الزمن، ويرون أن التعبئة الكاملة للمجتمع فى ظل دولة شمولية أحادية أمرًا ضروريًا لإعداد المجتمع للصراع المسلح و التغلب على الصعوبات الاقتصادية، تحت إمْرة زعيم قوى وحكومة عسكرية غالبًا تتألف من أعضاء الحزب الفاشى الحاكم، لتشكيل الوحدة الوطنية والحفاظ على مجتمع منظّم ومستقر. ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وَصَفَتْ بعضُ الأحزاب نفسَها صراحةً بأنها فاشية. وأحيانًا، يُستعمل تعبيرُ «الفاشية الجديدة» لوَصْفِ أحزاب اليمين المتطرف ذات الأ يديولوجيات المشابهة - المترجم.

أوبئة تحوّلَ الناسُ إلى زمّارين بملابس مُبَهْرَجة:

رجال قدّموا قيادةً كاريزمية[532] charismatic وحلولا ً متطرّفة [وعنيفة]. وكالناس فى بلدة هامْلِن [الألمانية] زمن العصور الوسطى، كان الثمنُ الذى دفعه مَن مَكّنوا هؤلاء الزمّارين هو حياةُ أطفالهم.

قبل حدوث كل هذا، كان العالمُ عالمَ إمبراطوريات. وقد نتجَ الصراعُ الذى اندلع بين الإمبراطوريات الأوربية فى صيف عام 1914 - كما رأينا - عن انهيار النظام الدولى الذى ظهر بعد الحروب النابليونية Napoleonic Wars، والذى رَفّعَ شبكةً من القوى العظمى ذات خَمْس عُقدٍ فوق كل الدول الأخرى. وفى محاولة من بريطانيا لتقليص أسباب الحرب إلى عناصرها الأساسية الأولى، أخفقتْ فى لعب دور رُمّانة الميزان، لأن الجَمْعيْن المتنافسيْن - روسيا وفرنسا فى مقابل ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية - ذهبا إلى الحرب بسبب اغتيال نفّذَه إرهابيون صربيون فى أراضٍ عديمة الأهمية، البوسنة والهَرْسك Herzegonina-Bosnia ، استولى عليها مؤخرًا الهابْسبورجيون.

وحين أصبح واضحًا أن الهجوم المُزْمَع من ألمانيا ضد فرنسا استلزم انتهاكَ الحياد البلجيكى، تدخّلتْ بريطانيا إلى جانب فرنسا وروسيا، للحيلولة دون انتصار ألمانيا عليهما، ولم تتدخل بالقدر الذى يحفظ معاهدة 1839[533] المُلْزِمَة بحياد بلجيكا. من الناحية العسكرية، ربما يتمكن الألمان من الفوز فى حرب قارّية، رغم ضَعْف حلفائهم، وقد نجحوا فعلا ً فى إلحاق خسائر مذهلة بالجيش الفرنسى فى الشهور الستة الأولى من الحرب، وكانت الخسائر أكثر مما كان يكفي لإحداث انهيار فرنسي في عاميْ 1870 و1940.

---

[532] الكاريزمية: كلمة يونانية فى الأصل تشير إلى الهبة الإلهية والنِّعمة التى تجعل المرءَ مفضّلا ً لجاذبيته وتأثيره. استُعمِلتْ الكلمةُ فى فجر المسيحية للإشارة إلى قدرات الروح القدس. ماكس فيبر هو أول مَن أعطى المصطلحَ دلالاتِه السياسيةُ الحاليةَ، عندما استعمله للإشارة إلى القدرة التى يتمتع بها شخصٌ للتأثير فى آخرين، بحيث يكون فى مركز قوة ب النسبة لهم، وبحيث يمنحه الواقعون تحت تأثيره حقوقًا تسلُطية. قسّمَ فيبر السلطةَ إلى ث لاثة أنواع هى: أ - سلطة تقليدية تستمد شرعيتها من الأعراف والعادات والتقاليد المستقرة. ب - سلطة قانونية عقلانية تستمد شرعيتها من إيمان المحكومين بدستورية وقانونية مجموعة قواعد وإجراءات مُلْزمة للجميع، وعلى أساسها تُمَارَسُ سلطةُ الحُكم. ج - سلطة كاريزمية تستمد شرعيتها من إيمان المحكومين بقدراتها - المترجم.

[533] معاهدة 1839: تُسَمّى معاهدة لندن الأولى، جاءت نتيجة المفاوضات فى مؤتمر لندن فى الفترة من عام 1838 حتى عام 1839، ووُقِّعَتْ يوم 19 أبريل عام 1839 بين القوى الأ وربية والمملكة المتحدة وهولندا ومملكة بلجيكا. بموجب المعاهدة، اعترفت القوى الأ وربية باستقلال بلجيكا وحيادها، وتنصُ المادةُ السابعة على أن تظل بلجيكا محايدة على الدوام في حالة الحرب - المترجم.

أما موارد بريطانيا التى لا مثيل لها، من حيث المال والتصنيع والشّحْن والقوة البشرية، فكانت كافيةً للحفاظ على استمرار الحرب فى أوربا الغربية رغم الا ستنزاف المتواصل للقدرة القتالية الفرنسية: الحفاظ على استمرار الحرب وليس إنهائها. الحربُ نفسُها كانت عَدْوَى. وقد ضمنت ممتلكاتُ الإ مبراطوريات المتقاتلة، الهائلة عبر البحار، سُرْعَةَ عَوْلَمة الحرب. فانضمّتْ دولٌ أخرى أيضًا: قبل انتهاء عام 1914، دخلت دولةُ مونتنيجرو [الجبل الأسود] Montenegro واليابان والإمبراطورية العثمانية الحربَ. وفى مايو عام 1915، اختارت إيطاليا متأخرًا جانبَ قوات الحلفاء Entente[534]؛ وأما بلغاريا فانضمّت إلى دول المحور Central Powers (ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية). وفى غضون عام 1916، رفعت البرتغالُ ورومانيا السلاحَ إلى جانب قوات الحلفاء.

وفى عام 1917، صارت الولاياتُ المتحدة واحدةً من اثنتى عشرة دولة مُحاربة، والدول الأخرى هى: بوليفيا والبرازيل والصين وكوبا وإكوادور و اليونان وليبيريا Liberia وبنما وبيرو وسيام Siam (الآن تايلاند) وأوروجواى. وقد اصطفّتْ جميعُها ضد دول المحور[543].

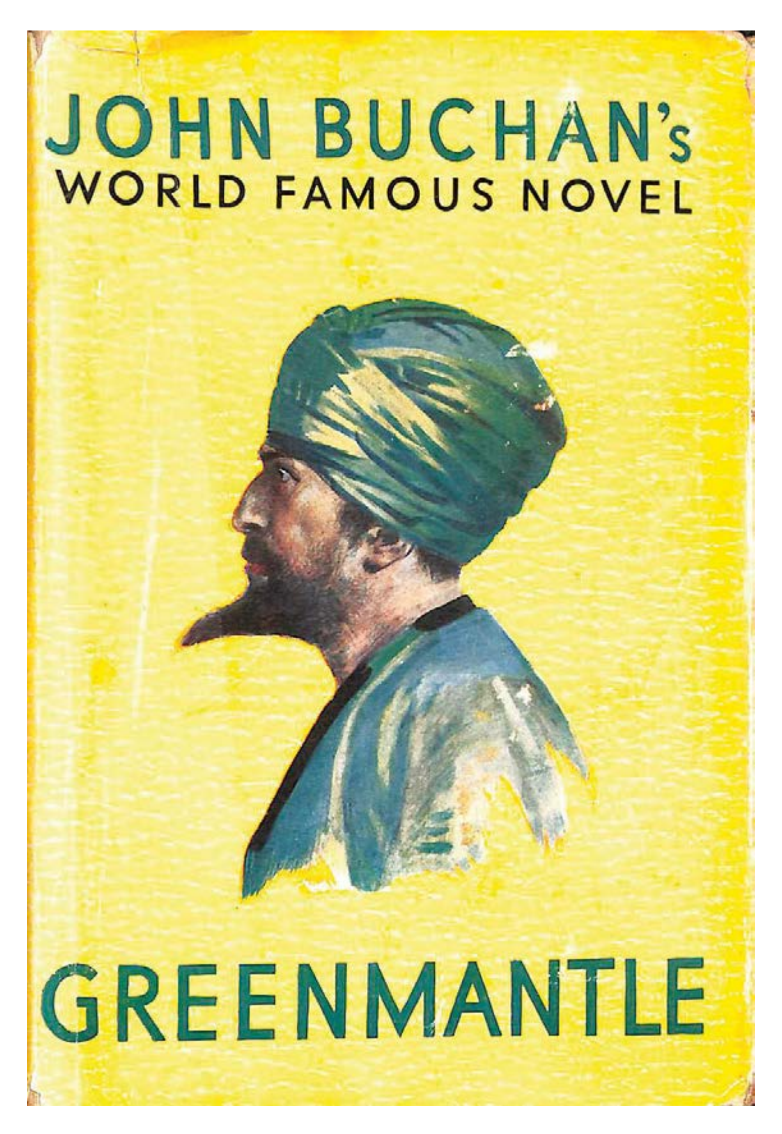
فى السنة الأخيرة من الحرب، حذت حذوها كوستاريكا Costa Rica وجواتيم الا Guatemala وهاييتى Haiti وهندوراس Honduras ونيكاراجوا Nicaragua. وأما فى أوربا فظلت إسبانيا وسويسرا والدول الإسكندنافية محايدةً (انظر اللوحة الاتية).

---

[534]تستدعى كلمةُ Entente - بالإضافة إلى إشارتها إلى قوات الحلفاء - مجموعةَ اتفاقيات بين بريطانيا العظمى وفرنسا عُرفُت باسم الوفاق الودِّى يوم 8 أبريل عام 1904 الذى سَوّى عددًا من النزاعات الاستعمارية الناشبة بينهما، وعُدّ نهايةً لصراعات متقطعة بين الدولتين استمرت زمنًا طويلا ً، كما أنهى حالةَ التسوية المؤقتة بين الدولتين منذ نهاية الحروب النابليونية عام 1815. انضمّتْ روسيا إليهما عام 1907 فيما يُعْرَفُ ب«الحِلف الثلاثى» الذى كان اتحادًا عسكريًا ثلاثيًا من خلال معاهدة سان بطرسبرج. ومهندسُ عملية الإصلاح الإ ستراتيجى بين فرنسا وإنجلترا وزيرُ الخارجية الفرنسى تيوفيل ديلكاسى. أزعج هذا الا تفاقُ ألمانيا التي اعتمدت سياستُها على العَدَاء بين بريطانيا وفرنسا - المترجم.



وحتى قبل أن يصبح المأزقُ العسكرى على الجبهة الغربية Western Front ظاهرًا، بدأت الحكومة الألمانية فى تجريب ما سيَثبُتُ أنه السلاح الحاسم فى الفوز بالحرب. تلخّصَ التصوُّر [الألمانى] فى زَعْزَعة استقرار إمبراطوريات الطرف الآخر بإطلاق العنان لـ«فيروس» إيديولوجى «ideological virus». فسَعَى الألمان، بمساعدة من حلفائهم العثمانيين، إلى إشعال فتيل الجهاد فى جميع أنحاء الإمبراطورية البريطانية، وكذلك الفرنسية[544].



حَبْكة رواية جون بوشان «الرّداء الأخضر» - التى من المحتمل أن تصدم القارئَ الحديث بوصفها إحدى حَبْكاته الأكثر إغرابًا وبُعْدًا - استندت إلى أحداث حقيقية[545].

كان الألمان مُحِقِّين فى أن شيئًا من هذا القبيل سيحدث. ولكن محاولتهم الأولى فى إشعال ثورةٍ فشلت. النقطة الحاسمة أن بعض الأفكار الثورية انتشرت انتشارًا فيروسيًا بين عامىْ 1914 و1918، بمعنى أنها انتشرت بسرعة كافية وأبعد بما يكفى لزَعْزعة استقرار الهَرَميّة الإمبريالية وإسقاطها. ولكن الدعوةَ إلى الجهاد لم تُقوّض الحُكْمَ البريطانى أو الفرنسى فى تلك الأجزاء من العالم المُسْلِم الخاضعة لسيطرتهما، بل الذى حَدَثَ أن الهجوم البريطانى المضاد المتمثل فى رعاية القومية العربية عمل، فى حقيقة الأمر، على تقويض الإمبراطورية العثمانية، بالضبط كما دَمّرت الحملةُ الألمانية لنشر البُلْشفية Bolshevism الإمبراطوريةَ الروسية قبل أن تتمدّدَ غربًا لهَدْم الإ

إمبراطورية الألمانية نفسها. ولفَهْم السبب فى فشل أولى هذه المبادرات، على حين نجحت الثانية والثالثة فاشتعل الوقود قبل الأوان [وأعطى نتائجَ عكسية]، نحتاج إلى تذكر أن الهياكل الشبكية مهمة بقدر أهمية الفيروسات في تحديد سرعة الإصابة بالعَدْوَى ومداها[546].

تنال الأفكارُ الغربية فرصةً أفضل فى النجاح إذا لاقت استحسانًا مَلَكيًا. وقد اتّسمَ القيصر الألمانى، ويليام الثانى[535] William II، بمَسْحة شرقية جعلته يميل بقوة إلى إضفاء صبغة رومانسية على الإسلام. زيارته إلى الشرق الأدنى Near East فى عام 1898 أثّرتْ فيه إلى درجة أنْ تخيّلَ نفسَه «الحاجّ فيلهيلم» Hajji Wilhelm، ووثق فى ابن عمِّه القيصر نيكولاس الثانى Tsar Nicolas II [قيصر روسيا] الذى شعر «بالخجل العميق أمام المسلمين، وأني لو ذهبتُ هناك بلا أيّ دين على الإطلاق فسأتحوّلُ بكل تأكيد إلى مُحمّديٍّ!»[547].

كان هذا النوعُ من الوَلَع بالإسلام [الإسلاموفيليا] Islamophilia موضةً بين العلماء الألمان أيضًا، ولا سيما كارل هاينريك بيكر[536] Carl Heinrich Becker[548]. الأكثر من هذا، وُجِدَتْ أسبابٌ إستراتيجية لجذب الإمبراطورية العثمانية إلى مجال النفوذ الألماني.

ورغم أن الباب العالى Sublime Porte[537] ليس عضوًا فى الحُكم الخماسى وفقًا ل رانكه Ranke، فهو من الناحية العملية جزء لا يتجزأ من شبكة القوى العظمى الأوربية. بل إن مستقبلَه قضيةٌ رئيسية فى ديبلوماسية القرن التاسع عشر:

---

[535]ويليام الثانى أو فيلهيلم الثانى: (1859 - 1941)، أكبر أحفاد الملكة فيكتوريا ملكة المملكة المتحدة، وآخر إمبراطور ألمانى تولى من عام 1888 حتى تنازله عن العرش فى نوفمبر عام 1918. بعد تولِّيه العرشَ الألمانى، أقالَ بيسمارك من منصب المستشار عام 1890. وأدار سياسةَ ألمانيا الخارجية دون استشارة وزرائه، وبطريقة أدّتْ إلى اشتعال الحرب العالمية الأولى - المترجم.

[536]كارل هاينريك بيكر: (1876 - 1933)، مستشرق ألمانى وسياسى، دَرَسَ فى جامعات لوزان وهايدلبرج وبرلين. سافر إلى إسبانيا والسودان واليونان وتركيا قبل حصوله على الدكتوراه عام 1899 - المترجم.

[537]يشير الديبلوماسيون الأوربيون المعاصرون، غالبًا، إلى الحكومة العثمانية باسم «الباب العالى» Sublime Porte. وهى ترجمة فرنسية للتعبير التركى Bâbıâli، («High Gate», or «Gate of Eminent»)، اسم بوابة فى إسطنبول تُؤدِّى إلى مبانى الأقسام الرئيسية للحكومة، بما فيها وزارة الخارجية - المؤلف.

ما يُسَمّى ب«المسألة الشرقية»[538] Eastern Question. لقد أعلن ويليام في عام 1913 قائلا ً: «إما أن يرفرف العَلَمُ الألمانى فوق حصون البوسفور[539] Bosphorus، أو سأعانى من المصير المُؤسِف نفسه الذى لاقاه المَنْفىُ العظيم على جزيرة سانت هيلينا St Helena (تلميحًا إلى بطله، نابليون)[549].

ويبدو أن هناك فرصًا اقتصادية فى تركيا أيضًا، كالمُخطّط الألمانى لإنشاء سكك حديدية تربط برلين ببغداد، وهى أعمال البناء والتركيب التى بدأت بحلول صيف عام 1914 (رغم المصاعب المالية والفنية)[550].

لقد فتنتْ ويليامَ فكرةُ الإسلام بوصفه حليفًا، وأغرته بشكل خاص. فبتشجيع من ماكس فون أوبنهايم[540] Max von Oppenheim - مندوب القنصلية الأ لمانية السامى فى القاهرة - فُتِنَ ويليام بفكرة انقلاب الرّعَايَا المسلمين فى الإ مبراطورية البريطانية عليها بالدعوة إلى الجهاد[551].

وكانت هذه أول مرة يفكر فيها القيصر الألمانى بأن بريطانيا لن تظل محايدةً فى الحرب التى اندلعت فى القارة. لقد استثار ويليام وأغضبه احتمالُ «تطويق ألمانيا»، فدَوّنَ على عجل ما يَرْقَى إلى حَبْكَة رواية «الرّداء الأخضر». «قناصلنا فى تركيا والهند وعملاؤنا، إلخ.، يجب أن يُشْعِلوا العالَم المُحمّدى كلّه بتمرُّد عنيف ضد أمّة أصحاب المتاجر معدومى الضمير المكروهين [يقصد إنجلترا]؛ لأنه إذا كنّا سنجود بدمائنا حتى الموت، فستخسر إنجلترا الهندَ على الأقل»[552].

تبنّى الفكرةَ فى شهر أغسطس هيلموت فون مُولِتْكه[541] Helmuth von

---

[538] المسألة الشرقية: تعبير يشير إلى وجود العثمانيين المسلمين فى أوربا، وضرورة طردهم منها واستعادة القسطنطينية التى سقطت فى أيدى العثمانيين عام 1453، وما لَحِقَ المصالحَ الأوربية من تهديد فى هذه المنطقة بسبب الوجود العثمانى فيها. يدل المصطلح على العَزْم الأوربى لتصفية رجل أوربا المريض (السلطان العثمانى) فى البلقان، وبخاصة بعد النجاح فى طرد المسلمين من شِبْه جزيرة أيبريا بسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس - المترجم.

[539] البوسفور: أو مضيق إسطنبول، يصل بين البحر الأسود وبحر مَرْمَرة، ويُكوّن مع مضيق الدردنيل الحدودَ الجنوبية بين قارتيْ آسيا وأوربا - المترجم.

[540] ماكس فون أوبنهايم: (1860 - 1946)، رحالة وعالِم آثار ودبلوماسي ألماني - المترجم.

[541] هيلموت فون مولتكه الأصغر: (1848 - 1916)، قائد عسكرى ألمانى، تولّى رئاسة الأركان من عام 1906 حتى عام 1914، وهو ابن أخ هيلموت فون مولتكه الأكبر الذى قاد الجيشَ البروسِّىّ إلى النصر فى معركة سيدان عام 1870 ضد الفرنسيين فى الحرب الفرنسية البروسِّية. لم يلتزم مولتكه الأصغر، مع بداية اشتعال الحرب العالمية الأولى يوم 28 يوليو

Moltke، رئيس هيئة الأركان العامة، الذى أصدر مذكرةً بشأن ضرورة «إيقاظ التعصُّب الدينى fanaticism فى الإسلام» لدى السكان المسلمين فى الإمبراطوريات التى تحارب مع الطرف الآخر. وفى أكتوبر عام 1914، ردّ أوبنهايم ب«مذكرة حول تثوير أقاليم أعدائنا الإسلامية» مكوّنة من 136 صفحة على أعلى درجة من السرّية، وَصَفَ فيها الإسلامَ بأنه «أحدُ أهمِّ أسلحتنا»؛ فتَصوّرَ إمكانَ إشعال تمرُّدات دينية فى الهند ومصر، وكذلك فى القوقاز الروسي Russian Caucasus[553].

وأعلن بيكر تهليلَه للفكرة بإصدار كُتيِّب يحمل عنوان «ألمانيا والإسلام» Deutschland und der Islam.

حين نُفِّذَتْ هذه الفكرةُ بَدَتْ أقلَّ روعةً بكثير مما بَدَتْ عليه أولاً. فلم يكن يوجد مجالٌ لاستنتاج متوقَّع سلفًا باحتمال انضمام الإمبراطورية العثمانية إلى دول المحور[554]. بل إن هانس فرايهر فون فانجنهايم[542] Hans Freiherr von Wangenheim، السفير الألمانى، والجنرال ليمان فون زاندرس[543] General Liman von Sanders، رئيس البعثة العسكرية هناك، كانا يتشككان فى فوائد التحالف مع العثمانيين. لكن «الأتراك الشبان»[544] Young Turks -

---

1914، بتطبيق خطة شليفن المعتمدة منذ عام 1905 التى توضِّح البرنامج الدقيق لغزو روسيا وفرنسا فى آنٍ معًا عند إعلان ألمانيا الحرب. وحين هُزِمَ الألمان من الفرنسيين فى معركة المارن الأولى استقال مولتكه من رئاسة الأركان. وقال النقاد العسكريون إن مولتكه الأصغر لم يأخذ من عَمِّه سوى اسمه فقط - المترجم.

[542]هانس فرايهر فون فانجنهايم: (1859 - 1915)، ديبلوماسى ألمانى، تُوفِّى إثر سكتة دماغية شُخِّصَتْ على أنها نتيجة ميول عصبية مفرطة. كان له دور كبير فى تأمين دخول الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب بجانب ألمانيا، فأشرف على تنفيذ الخطة الهادفة إلى إقناع السلطان العثماني بإعلان الجهاد ضد قوات التحالف.

وخلال فترة الإبادة الجماعية للأرمن، أُثيرت اتهاماتٌ بالتواطؤ الألمانى، وبخاصة عدم تدخُّل فانجنهايم الذي انتقد موقفه بحدة السفيرُ الأمريكي في الدولة العثمانية - المترجم.

[543]الجنرال ليمان فون زاندرس: (1855 - 1929)، عسكرى ألمانى خَدَمَ بوصفه مستشارًا وقائدًا عسكريًا للدولة العثمانية - المترجم.

[544]الأتراك الشبان: حركة قومية تركية تشكلتْ أوائل القرن العشرين من المنفيين العثمانيين والطلاب والموظفين المدنيين وضبّاط الجيش، استهدفت إحلالَ حكومة دستورية محلّ النظام المَلَكى الإمبراطورى المطلق، فتمرّدَ أعضاؤها على السلطان عبد الحميد الثانى عام 1908 فيما عُرِفَ ب«ثورة تركيا الفتاة»، الأمر الذى أدّى إلى تأسيس حقبة دستورية ثانية وظهور تعدُّد الأحزاب لأول مرة فى تاريخ البلاد. وبعد عام 1908، بدأت جمعيةُ الاتحاد و الترقِّى - المظلة السياسية لحركة الأتراك الشبان - سلسلةُ إصلاحات سياسية وتحديث عسكرى فى جميع أنحاء البلاد. ثم بدءًا من عام 1911، حدث انقسامٌ داخل الأتراك الشبان،

الذين سيطروا على الإمبراطورية منذ إجبار السلطان عبد الحميد الثانى على إعادة الحُكم الدستورى عام 1908 - كانت لديهم أسباب وجيهة للتحالف مع برلين.

قادة الأتراك الشبان، إسماعيل أنور [أنور باشا][545] Ismail Enver ومحمد طلعت [طلعت باشا][546] Mehmed Taalat، قالا بأن قوى التحالف - بريطانيا وفرنسا وروسيا - لديها نوايا قاتلة بشأن الأراضى العثمانية، أما الألمان و النمساويون فهُم وُسَطاء نزيهون يُؤيّدون استعادةً بعض ممتلكات العثمانيين التي خسروها منذ سبعينيات القرن التاسع عشر[555].

وبتشجيع من القيصر، تمّ التوصُّل على عَجَلٍ إلى تحالفٍ يوم 2 أغسطس[556]. وعلاوة على ذلك، اقتنع أنور ورفاقه تمامًا بإمكان استغلال المشاعر الدينية بوصفها مصدرًا للقوة العثمانية. كما رأوها رابطةً حاسمة بين الأتراك و العرب[557]. كما رأوا أيضًا أنها تُضْفِى الشرعيةَ على حملة إبادتهم الجماعية للمسيحيين داخل الإمبراطورية، ولا سيما الأرمن. وذلك فى الوقت الذى صَرّحَ فيه فانجنهايم - في منتصف أغسطس - قائلاً: «يجرى الإعداد لتثوير العالم الإسلامى الذى أراده جلالتُه. وتُتّخذُ هذه الإجراءات فى سرّية تامة»[558]. كان قلقه الوحيد أن يُلام الألمانُ على أية مذابح تحدث للأرمن[559].

وانتهى الصراع بينهما عام 1913 عندما استولى القادة الكبار - الباشوات الثلاثة بقيادة طلعت - على الحُكم ومارسوا سيطرةً مطلقة على الإمبراطورية من عام 1913 حتى عام 1918، الأمر الذي جعل الحُكم العثماني في هذا التوقيت أقرب إلى ألمانيا - المترجم.

أنور باشا: (1881 - 1922)، قائد عسكرى عثمانى، وأحد قادة حركة تركيا الفتاة. عُيّنَ رئيس أركان الفيلق الثالث بولاية مناستر، وهناك انضمّ إلى جمعية الاتحاد والترقِّى وجذب إليه الجنرال محمود شوكت. شارك فى ثورة 1908 ضد السلطان عبد الحميد الثانى، كما شارك فى حرب طرابلس ضد الإيطاليين، ثم عاد إلى إسطنبول ليصبح وزير الحربية. هزمه الرّوسُ على جبهة القوقاز أثناء الحرب العالمية الأولى، وتوَجّه إلى إسطنبول لقيادة القوات فى معركة جاليبولى. قُتِلَ فى بخارى أثناء الحروب ضد الدولة البُلْشفية فى وسط آسيا عام 1922. وهو أحد الباشوات الثلاثة الذين حكموا الدولةَ العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى - المترجم.[545]

[546]طلعت باشا: (1874 - 1921)، أسّسَ جمعيةَ الحرية العثمانية، وأحد مؤسِّسى جمعية الاتحاد والترقِّى، وأحد أهم صانعى السياسة فى الدولة العثمانية فى الفترة من عام 1908 حتى عام 1918. لعب دورًا مهمًا فى دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى وترحيل الأرمن وإبادتهم الجماعية. بعد الهزيمة فى الحرب، فرّ هاربًا مع جمال باشا وقُتِلَ فى برلين على يد ناشط أرمنى. وجمال باشا هذا، ثالث الباشوات الثلاثة، لعب دورًا قويًا فى القمع العنيف للجمعيات السرّية فى دمشق وبيروت، فأعدم الكثيرَ من الوطنيين القائلين بالقومية العربية في عاميْ 1915 و1916 - المترجم.

فى يوم 14 نوفمبر عام 1914، فى مسجد الفاتح بإسطنبول، قدّم شيخُ الإسلا
م فى الإمبراطورية العثمانية، مصطفى خيرى بك Urgüblü Hayri Bey،
السلطانَ محمد رشاد الخامس[547] Mehmed Reshad V مع سيف النّبى، فى
احتفالٍ أُعْلِنَ فيه رسميًا الجهادَ ضد دول الوفاق [الثلاثي][560].

وفى وجود «حشد هائل» خارج المسجد، قُرئتْ فتوى بصوت عالٍ على هيئة ا
لأسئلة الآتية:

- الرعايا المسلمون فى روسيا وفرنسا وإنجلترا، وفى كل البلاد التى وقفت إلى جانب هذه الدول فى هجماتها البرية والبحرية يُحطِّمون الخلافةُ بهدف القضاء على الإسلام، هل يجب على هؤلاء الرعايا أيضًا أن يشاركوا فى الحرب المقدسة the Holy War ضد تلك الحكومات التي تعتمد عليهم؟

- نعم.

- المسلمون الذين تحت سيطرة إنجلترا وفرنسا وروسيا وسيبيريا والجبل الأ
سود فى الحرب الجارية، ومَن يُقدِّمون المساعدةَ لهذه الدول التى تشنُّ حربًا ضد ألمانيا والنمسا، حلفاء تركيا، هل يستحقون غضب اللّه عقابًا لكوْنهم يَتسبّبون في الإضرار بالخلافة والإسلام ودمارهما؟

- نعم[561].

ولا شك فى أن هذه الفتوى تُمثِّل نوعًا من الجهاد غير مألوف، ما دامت لا تنطبق إلا على كفّارٍ يعيشون فى إمبراطوريات أوربية بعينها، ولا تنطبق على مَن يعيشون فى ألمانيا والنمسا. كما أنها تتضمن أيضًا مهاجمة المسلمين الذين يقاتلون إلى جانب دول الوفاق [الثلاثي][562].

فصار المواطنون البلجيكيون أهدافًا شرعية، أما الأمريكيون الذين يعيشون في تركيا فلم يكونوا كذلك[563].

ومن ناحية أخرى، لا يوجد أيٌّ إنكار للجهود التى بذلتها السلطاتُ العثمانية لنشر الدعوة إلى القتال[564]. الأكثر من هذا أن مكتب استخبارات الشرق Intelligence Office for the Orient فى وزارة الخارجية الألمانية استطاع تجنيد عدد مثير للإعجاب من المتعاونين المسلمين، بمَن فيهم رجل الدين التونسى صالح الشريف التونسى[548] والعالِم المصرى عبد العزيز جاويش[549]

---

[547]محمد رشاد الخامس: (1844 - 1918)، السلطان الخامس والثلاثون للدولة العثمانية، تولى الحُكمَ بعد خلع أخيه عبد الحميد الثانى عام 1909. فى عهده، أحكمت حكومةُ الا
تحاد والترقِّي قبضتَها على السلطة بقيادة الباشوات الثلاثة - المترجم.

[548]صالح الشريف التونسى: (1869 - 1920)، عالِمٌ تونسى، تلقى تعليمَه فى جامع الزيتونة،

رأى ماكس فون أوبنهايم، من زاويته الأفضل فى الاطلاع على الأمور، أن احتمالاتِ الجهاد العالمى ساطعةٌ بشكل مذهل. أوبنهايم، شِرِّيرُ رواية بوشان فى الحياة الحقيقية، هو حفيدُ مَصْرفىٍّ يهودى اسمه زيمون أوبنهايم Simon Oppenheim.

وبعد أن رَسَّخَ اسمَه بوصفه رحّالةً وعالِمَ آثارٍ هاوِيًا[550]، نجح فى استغلال معرفته بالعالَم المُسْلِم فعاشَ حياةً مزدوجة باهرة: فى برلين هو المثقف المُفضّل لدى القيصر، وفى القاهرة تلذّذَ بمُتَع الشرق الغريبة، بما فيها حريمُه. رثا أوبنهايم «مرحلةَ التدهور التى وصل إليها العالَم الإسلامى» مُندِّدًا بإمبراطوريات الوفاق [الثلاثى] فى كتيب صَدَرَ عام 1915 استهدف توزيعَه على نطاق واسع. فى الهند ومصر والسودان، سقط «مئات الملايين من المسلمين» في «قبضة أعداء الله، الإنجليز الكفّار».

سكان المغرب أخضعهم الفرنسيون «أعداءُ الله ورُسُله». المسلمون فى شِبْه جزيرة القرم Crimea والقوقاز وآسيا الوسطى يَكِدُّون تحت نَيْر السِّياط القيصرية. والإيطاليون يضطهدون السنوسى، الطريقة الصوفية والقبيلة فى طرابلس [ليبيا][566].

وقد حان الوقت لكل هؤلاء المسلمين كى يقاتلوهم. نَشَرَ أوبنهايم ومعاونوه العديدَ من الكتيبات، على هذه النّغمَة، بعِدّة لغات[567].

لم يَكْتفِ الألمان بالدعاية المكتوبة. ففى عام 1915، ارتدى أوبنهايم زيًّا بدويًا وبدأ رحلةً من دمشق لنشر رسالته فى ريف سوريا، وذهب أبعد إلى شِبْه جزيرة سيناء وضواحي المدينة [في بلاد الحجاز][568].

قاوَمَ الغزوَ الفرنسى لتونس. تعاون مع مكتب استخبارات الشرق الألمانى أثناء الحرب العالمية الأولى. ونشط فى ميدان مقاومة الاستعمار بالتعاون مع الأمير شكيب أرسلان. له مناظرات دينية فى الحجاز مع أحد أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومناظرة أخرى مع الشيخ محمد رشيد رضا، كما ناظر غيرهما من علماء الدين المتشدِّدين - المترجم.

[549]عبد العزيز جاويش: (1876 - 1929)، شيخ مصرى، وأحد روّاد الإصلاح والعمل الوطنى وأحد مناصرى الخلافة العثمانية، تعلمَ فى الأزهر وتخرّج فى دار العلوم. هاجر إلى تركيا، وبعد سقوط الدولة العثمانية عاد إلى القاهرة. أسّسَ جمعيةَ المواساة الإسلامية. كانت له اتصالات بمكتب استخبارات الشرق الألماني - المترجم.

[550]أوبنهايم هو الذى اكتشف وحَفَرَ موقعًا أثريًا غنيًا فى تلِّ حلف شمال شرق سوريا، موقع دولة المدينة الآرامية القديمة فى جوزانا Guzana أو جوزان Guzan [فى الألف الأول قبل الميلاد] - المؤلف.

وسعى حارسُه كارل بروفر Carl Prüfer إلى إلهاب المشاعر ضد البريطانيين فى مصر. وأما الميجور [الرائد] فريدريك كلاين Major Friedrich Klein فأُوفِدَ إلى جنوب العراق لمقابلة مجتهدى الشيعة Shi'a mujtahids فى كربلا ء والنجف. وبذل القنصل فيلهيلم فاسموس[551] Consul Wilhelm Wassmmuss جهودًا مماثلة في إيران[569].

إدجار بروبستر[552] Edgar Pröbster، القنصل الألمانى فى مدينة فاس المغربية، أُرْسِلَ بغواصّة لإقناع الشيخ السنوسى بالاشتراك فى القتال ضد دول الوفاق؛ كما أُرْسِلَ فى بعثة ثانية لتحريض قبائل الهيبة Hiba والسوس Suss المغربية.

بل أُرْسِلَتْ بعثاتٌ ألمانية إلى السودان والقرن الأفريقي Horn of Africa[570].

الأكثر طموحًا من كل هذا، البعثةُ المُرْسَلة إلى أفغانستان بقيادة أوسكار ريتر فون نيدرماير[553] Oskaar Ritter von Niedermayer ضابط المدفعية البافارى الذى تنقلَ على نطاق واسع فى الشرق، ومعه فيرنر أوتو فون هينتيج[554] Werner Otto von Hentig الديبلوماسى الذى خَدَمَ فى بكين و القسطنطينية وطهران. استهدفت البعثةُ إقناعَ الملك الأفغانى الأمير حبيب الله، بإعلان استقلاله الكامل عن النفوذ البريطانى ودخول الحرب إلى جانب

---

[551]فيلهيلم فاسموس: (1880 - 1931)، ديبلوماسى ألمانى وعميل مخابرات ألمانى. وفقًا للتقارير البريطانية، حاول إثارةَ المتاعب للبريطانيين فى الخليج الفارسى أثناء الحرب العالمية الأولى، بوصفه عضوًا في بعثة نيدرماير - المترجم.

[552]إدجار بروبستر: (1879 - 1942)، ديبلوماسى ألمانى ومستشرق، درس فى جامعة لا يبزيج - المترجم.

[553]أوسكار ريتر فون نيدرماير: (1885 - 1948)، جنرال ألمانى وبروفيسور ارتبط بجامعتىْ ميونيخ وبرلين، وعميل مخابرات من طراز رفيع، يُشَارُ إليه أحيانًا باسم «لورانس الأ لمانى». ذهب إلى بلاد فارس وأفغانستان أثناء الحرب العالمية الأولى لتحريض الأمير حبيب الله خان على مهاجمة الهند البريطانية - المترجم.

[554]فيرنر أوتو فون هنتيج: (1886 - 1984)، ضابط فى الجيش الألمانى ومغامر وديبلوماسى. كلّفه القيصر، وهو برتبة ملازم، برحلة استكشافية إلى آسيا الوسطى، فى إطار ما يُسمّى «اللعبة الكبرى» التى تعود جذورها إلى الخصومات الفيكتورية بين روسيا و الهند البريطانية. فى عام 1909، انضم إلى الخدمة الديبلوماسية الألمانية وشارك مع نيدرماير فى محاولة تجنيد الأفغان والهجوم على الهند البريطانية خلال الحرب العالمية ا لأولى. ورغم انتقاده النظام النازى فقد خدم فيرنر فى الرايخ الثالث، ولعب دورًا أساسيًا فى نقل آلاف اليهود من ألمانيا إلى فلسطين خلال ثلاثينيات القرن العشرين. وفى عام 1935، تعرّض لعدة محاولات اغتيال - المترجم.

دول المحور[571].

صَاحَبَ نيدرماير وهينتيج مجموعةُ أتراك بقيادة الكابتن قاسم أورباى Captain Kazim Orbay، وثلاثةٌ من الثوّار الهنود وعددٌ من رجال قبائل البَشتون [الأفغان] Pashtun حتى وصلا إلى كابول يوم 7 سبتمبر عام 1915. العنصر النهائى فى الإستراتيجية الألمانية هو الجهد المتواصل لإقناع أسرى الحرب المسلمين من جيوش الوفاق [الثلاثى]، الذين جُمِعوا معًا فى معسكر خاص يُسمّى هالبموندلاجر Halbmondlager (معسكر الهلال [كريسنت] Camp Crescent) فى وَنْسدورف Wünsdorf - موقع أول مسجد فى ألمانيا شُيِّدَ بالخشب، على غرار قبة الصخرة في القدس[572].

أُلْقيتْ منشوراتٌ كالتى كتَبَها مُنْشَقٌ يُسمّى الليفتنانت [الملازم] بوكعبويا Lieutenant Boukabouya على خنادق القوات الاستعمارية الفرنسية. ودُرِّبَ الجنودُ الألمان على الصياح عبر الأراضى الحرام بالعربية: «لماذا تحاربوننا؟ نحن إخوانكم، نحن مسلمون مثلكم»[573].

لم تكن هذه الجهودُ فاشلةً. صحيحٌ أن فانجنهايم Wangenheim تشكّكَ فى أن دعوة السلطان الخليفة «لن تنتزع من أمام المواقد الدافئة سوى عدد قليل من المسلمين»[574]. لكن خُطط أوبنهايم Oppenheim لا يمكن استبعادها لمجرد أنها «خيال جامح»[575].

لقد نجحت الدعوة إلى الجهاد - بوصفها أداةً لتحريك مجموعات متنوعة داخل الإمبراطورية العثمانية - على عِدّة مستويات. كتب أنور باشا إلى نقيبزاده طالب بك Nakibzade Talib Bey حاكم البصرة يوم 10 أغسطس عام 1914 قائلاً: «إذا كان خصومنا يريدون تدنيس أرضنا بأقدامهم القذرة فإني واثق من أن الشرف والسؤدد الإسلامي والعثماني سيُبِيدهم»[576].

وقد ثَبَتَ أن هذا صحيح. فالغزو البريطانى المنحوس لجاليبولى[555] Gallipoli كان من المفترض أن ينجح لو أن الإمبراطورية العثمانية لا تزال

---

[555] جاليبولى: بعد تكبُّد القوات الروسية خسائر فادحة أمام الألمان على الجبهة الشرقية، طلب الروس المساعدة من بريطانيا وفرنسا من أجل تخفيف الضغط الألمانى، فبدأ التخطيطُ لشَنّ حملة عسكرية بريطانية وفرنسية مشتركة بهدف احتلال العاصمة العثمانية إسطنبول. بدأت معارك الحملة فى شِبْه جزيرة جاليبولى على مضيق الدردنيل عام 1915. وباءت بالفشل بسبب التكتيكات العسكرية الناجحة التى اتبعها القائد العسكرى العثمانى مصطفى كمال (المعروف لاحقًا باسم كمال أتاتورك)، وعلى إثر النصر لمع نجمُه بين العثمانيين - المترجم.

«رجل أوربا المريض»[556] ولا شك فى أن الدين كان أحدَ مصادر الروح المعنوية التركية فى تلك الحملة الدموية. استثارت الدعوةُ إلى الجهاد أيضًا استجابةً إيجابية قوية لدى القبائل الشيعية فى وسط الفرات - قبائل الفتلة، بنى حسن، بنى حُشيم، الخزاعل - ولدى القبائل فى أدنى الفرات التى سيطر عليها اتحاد المنتفق[557] Muntafiq confederation. ففى يوم 19 نوفمبر عام 1914، كتَبَ المجتهدُ الأعظم محمد كاظين يزدىGrand Mujtahid Muhammad Kadhin Yazdi إلى الشيخ خزعل حاكم المُحمّرة، حاثًّا إياه بصراحة على «بذل كل جهد ممكن لصدِّ الكفار»[577].

ومع ذلك، تظل الحقيقة الماثلة أن الرؤية الألمانية لثورة إسلامية مُعمّمة ضد الوفاق [الثلاثى] قد فشل تحقيقها. لماذا؟ يكمن جزء من الإجابة فى عدم الكفاءة الألمانية من ناحية، وكفاءة مكافحة التجسُّس espionage-counter لدى البريطانيين والفرنسيين من ناحية أخرى. المُستكشِف ليو فروبينيوس[558] Leo Frobenius نجح بالكاد فى الإفلات من القبض عليه أثناء طريقه إلى إريتريا Eritrea، ورَحّلته إلى أوربا السلطاتُ الإيطالية[578]. ألويس موزيل[559] Alois Musil، مستشرق نمساوى، أُرْسِلَ للتودُّد إلى زعماء

---

[556]رجل أوربا المريض: عبارة تصف الإمبراطورية العثمانية بدءًا من أواخر القرن السابع عشر حين فشلت فى حصار فيينا وفتحها عام 1683، فأمست فى القرنين الأخيرين من عمرها تُعْرَفُ باسم «رجل أوربا المريض»، إذ وصلت إلى درجة من الضعف تمنعها من مزيد من الفتوحات التى اعتادتها فى قرونها الأربعة الأولى، بل تمنعها من الدفاع عن ممتلكاتها فى الأطراف العربية ضد الطامحين من الحُكّام المحليين، أو الطامعين الأوربيين مثل فرنسا فى الجزائر وتونس، وبريطانيا فى مصر والخليج. ولكن تنافس الدول الأوربية نفسها فى وراثة رجل أوربا المريض هو الذى أخّرَ موته الطبيعى، بالإضافة إلى صعود السلطان عبد الحميد الثانى إلى عرش الإمبراطورية بدءًا من عام 1876 حتى عام 1909، ولجوئه إلى مساعدة ألمانيا فى تحديث جيشه وإجراء عمليات إصلاح جزئى فى الإدارة ا لإمبراطورية - المترجم.

[557]اتحاد المنتفق: اتحاد عربى كبير فى جنوب ووسط العراق بين قبائل معظمها شيعى - المترجم.

[558]ليو فروبينيوس: (1873 - 1938)، إثنولوجى ألمانى وأركيولوجى وشخصية بارزة فى ا لإثنوجرافيا الألمانية. صَاحَبَ الجيشَ الألمانى أوقاتًا فى الحرب العالمية الأولى لأغراض علمية - المترجم.

[559]ألويس موزيل: (1868 - 1944)، أحد مستشرقى الإمبراطورية النمساوية المجرية، أستاذ جامعى وأحد مشاهير الرحالة الأوربيين الذين قاموا بزيارة شِبْه الجزيرة العربية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، اكتشف فى عام 1898 قصور بنى أمية الصحراوية. عاش فى بلاد الشام وشمال شرق شِبْه الجزيرة العربية، مُتَسَمِّيًا باسم الشيخ

العرب المتناحرين ابن سعود وابن رشيد، ففشل فى مهمته، بل فَهِمَ مقاصدهما بشكل مغلوط تمامًا[579].

وفى إيران، سقط كتابُ شفرة فاسموس فى أيدى البريطانيين، بالإضافة إلى صندوق يحتوى على «آلاف المنشورات التحريضية العنيفة مطبوعة بالإ نجليزية والأوردية والهندوسية والبنجابية ولغة السِّيخ، موجّهة إلى الجيش الهندى»، وتحمل «نداءً خاصًا إلى المُحَمّديين فى هذا الجيش، يَحثُّهم على الا نضمام إلى حرب مقدسة ضد الإنجليز الكفَرَة»[580].

ومع كل هذا، وُجِدَتْ مشكلةٌ أعمق. ففى واقع الحال، لم تلقَ الدعوة إلى الجهاد صدى أبعد من قلب الولايات العثمانية[581].

فعلى سبيل المثال، بعد تأجير عبادان[560] Abadan لشركة النفط الأ نجلوفارسية Persian Oil Company-Anglo ، تجَاهَلَ الشيخُ خزعل دعوةَ المجتهد الأكبر إلى وحدة المسلمين وارتمى فى أحضان البريطانيين. ورغم قلق بعض المسؤولين الفرنسيين، فى البداية، من احتمال تأثّر رعاياهم فى شمال أفريقيا بالدعاية الألمانية، فسرعان ما اتضح أنهم كانوا على استعداد للا عتقاد بأنه «عند رَفْع السلاح من أجل بلدنا» فهُم «يدافعون عن مصالح معتقدهم وشرف أوطانهم وسلامة أراضى الإسلام»، على حدِّ تعبير الليفتنانت [الملازم] سى براهيم Lieutenant Si Brahim موجِّهًا خطابه إلى جنود شمال أفريقيا في آرل[561] [582] Arles.

وفى ليبيا، غُلِبَ السنوسيون على أمرهم فرفعوا السلاح، مقابل المال فقط، وسرعان ما تفرّقوا حين واجهوا مقاومةً بريطانية قوية. وفى أفغانستان، انتظرت البعثةُ الألمانية لمدة أسابيع، حتى دعا الأمير إلى عَقْد لويه جيرجه Loya Jirga [مجلسٍ كبيرٍ] لزعماء القبائل، صَوّتوا فيه للبقاء على الحياد فى الحرب[583].

أما فى الهند، فلم يجد البريطانيون صعوبةً فى إقناع كبار المسلمين - ولا سيما الأغا خان Aga Khan ونواب بهادور دكا [صاحب إمارة دكا] Nawab Bahadur of Dacca ومجلس تحالف الهنود المسلمين Council of the All -

---

موسى الرويلى. صنّف دراساته تحت عناوين مثل: شمال نجد وشمال الحجاز وأخلاق الرّولة وعاداتهم ومرتفعات وتضاريس بلاد الشام - المترجم.

[560] عبادان أو عبدان: مدينة فى خوزستان جنوب غرب إيران على ضفاف نهر شط العرب - المترجم.

[561] آرل: بلدية في إقليم بوش دو رون جنوب فرنسا - المترجم.

india Muslim League - كي يُنَدِّدوا بالدعوة إلى الجهاد بوصفها مؤامرة ألمانية لا تثير سوى السخرية[584].

وباختصار، ثبَتَ أن «الوحدة الإسلامية» التى دعا إليها رجالٌ من أمثال أوبنهايم، قبل الحرب، هى محض سراب. فالكُتيبات والمنشورات لم تستطع تنشيط شبكةٍ لم توجد خارج خيالات المستشرقين Orientalists. الرحّالة البريطانية جيرترود بِل[562] Gertrude Bell، شأنها شأن أوبنهايم، وقد تشابهتْ معه فى بعض النواحى، وَصَفَت الإسلامَ بأنه «تيار كهربى ينقل المشاعر المؤثِرة»، وقالت إن «قوته الفائقة تزداد لكوْنه لا يحتوى على حِسٍّ بقومية إقليمية تعْدِلُ هذه القوة». لكن رجال الإدارة الاستعمارية الأكثر خبرةً انتابتهم الشكوكُ. يقول رونالد ستورز[563] Ronald Storrs السكرتير الشرقى للقنصل العام البريطاني في مصر:

«مكتبُ الهند[564] India Office هو الذى جَعَلَ عقيدةَ الخلافة - عقيدة الحُكم الديني المُوَحِّد للإسلام - عاملا ً مهمًا في السياسة البريطانية»[585].

وحتى هذا يُعَدُّ إجحافًا لـ«أيادى» الهند. يقول هولدرنس[565] T. W. Holderness وكيل وزارة مكتب الهند، فى مذكرة كُتِبَتْ فى شهر يونيو عام 1916: «بالاستناد إلى تاريخ المُحَمّدية Mohammedanism وأحداث الحرب الحالية على حدٍّ سواء... يُبالَغُ فى تقدير أهمية الوحدة الإسلامية بوصفها قوةً

---

[562] جيرترود بِلْ: (1868 - 1926)، باحثة ومستكشفة وعالِمة آثار بريطانية، عملت مستشارة للمندوب السامى فى العراق بيرسى كوكس خلال عقد العشرينيات من القرن العشرين، ولعبت دورًا بالغ الأهمية فى ترتيب أوضاع العراق بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، إذ كانت أهم مساعدة للمندوب السامى البريطانى فى هندسة مستقبل العراق. حين وفاتها شارك الملك فيصل الأول فى تشييع جنازتها ودُفِنَتْ فى مقبرة الإنجليز فى باب المعظم وسط بغداد - المترجم.

[563] رونالد ستورز: (1881 - 1955)، مسؤول فى الخارجية البريطانية والمكتب الاستعمارى. شغل منصب السكرتير الشرقى فى القاهرة، والحاكم العسكرى للقدس وحاكم قبرص وحاكم روديسيا الشمالية - المترجم.

[564] مكتب الهند: إدارة حكومية بريطانية تأسّستْ فى لندن عام 1858 للإشراف على إدارة مقاطعات الهند البريطانية من خلال نائب الملك البريطانى ومسؤولين آخرين. فى عام 1947 أُغْلِقَ مكتب الهند، وانتقلت اختصاصاته ذات الطابع الجديد إلى مكتب علاقات الكومنولث Commonwealth Relations Office المُسَمّى سابقًا Dominions Office - المترجم.

[565] سير توماس ويليام هولدرنس: (1849 - 1924)، أول عضو سابق فى الخدمة المدنية الهندية يُعَيّنُ في منصب وكيل وزارة الخارجية الدائم في مكتب الهند - المترجم.

دافعة». لقد وَضَعَ هولدرنس يدَه بذكاء على «افتقار العالم الإسلامى إلى التماسك، وانقسامه الطائفى وعداواته»، قائلا ً إن المسلمين على وجه الإ جمال «قادتهم القوميةُ بدلا ً من العقيدة»[586]. وقد تبيّن صحةُ هذا فى منطقة جِدِّ مهمةٍ كالحجاز، موقع الأماكن الإسلامية المقدسة مكة والمدينة.

سَعَى الألمانُ إلى تحميس الرعايا المسلمين فى إمبراطوريات خصومهم الثلا ثة وحاولوا جَرّهم إلى تمرُّد دينى. وقد فشلوا، ولا مكان يدل على فشلهم أكثر من مكة نفسها. أما البريطانيون فاكتفوا بتحقيق هدف أكثر محدودية، ألا وهو إقناع رعايا الإمبراطورية العثمانية من العرب بالتخلِّى عن العثمانيين. وقد نجحوا[566].

فحتى قبل أن تبدأ الحرب [العالمية الأولى]، أَرْسَلَ حسينُ بن على، شريفُ مكةٍ ذو الستين عامًا، ابنَه الثانى عبد الله ليخبر البريطانيين بِنيّته فى التمرُّد على أسياده العثمانيين. والشريف حسين ذو النزعة الاجتماعية المُحافِظة، لا يثق كثيرًا فى [حركة] الأتراك الشبان Young Turks فى إسطنبول، ولا فى خططهم التحديثية، بل تُساوِرُه الشكوكُ فى تآمرهم لخَلْعه وإنهاء سيادة عائلته الهاشمية على الحجاز[587].

فى يوم 24 سبتمبر عام 1914، بَعَثَ اللوردُ كيتشنر Lord Kitchener، وزير الحربية Secretary of State for War، رسالةً سرّية عن طريق ستورز فى القاهرة إلى عبد الله ليسأل الشريف حسين إذا كان «هو وأبوه وعرب الحجاز سيكونون معنا أم ضدنا»، إذا انضمت تركيا إلى دول المحور. واختتم الرسالةَ بتلميح جرىء: «لعل العِرْق العربى الحقيقى هو الذى سيتولى الخلافةَ فى مكة أو المدينة، وقد يأتى الخيرُ بعَوْن الله للخروج من كل هذا الشرّ الذى يجري الآن»[588].

الذى دار فى ذهن كيتشنر، على الأرجح، وَضْعُ الشريف حسين فى علاقة خضوعٍ للإمبراطورية البريطانية صارتْ آليةً فى جنوب آسيا وجنوب الصحراء الكبرى بأفريقيا فى القرن التاسع عشر. وهو ما لم يكن يَتصوّرُه الشريف حسين. كانت السلطةُ العثمانية على العرب أبعدَ ما تكون عن كوْنها ميتة [بلا وظيفة][589]، ولكن بديلها ليس السلطة البريطانية بل استقلال العرب. ذلكم هو الخيار الذى جرت مناقشته عندما التقى فيصل، ابن الشريف حسين،

---

[566]نصح خبراءُ بريطانيا من المستشرقين بضرورة التركيز على الشريف حسين فى مكة واستقطابه إلى جانبها بوصفه حليفًا عند اندلاع الحرب. وفى هذه الحالة، مهما كانت نتائج الدعوة إلى الجهاد، فقد ضمنت بريطانيا أن مجرد شَقّ الصفِّ سيكون كفيلا ً بتحاشى أى استقطاب دينى فى الصراع المرتقب، وهذا ما أخذت به الحكومة البريطانية ولم تُضِعْ وقتًا - المترجم.

البِكرى، سِرًّا بمُمَثلى جمعية عربية قومية عسكرية سِرّية هى جمعية «العهد»[567] وحركة الفتاة المدنية[568] Fatat movement-civilian al .

تمحور العرضُ العثمانى بشكل أساسى حول إما الطاعة أو العَزْل. أما العُروبيون Arabists فقدّموا المزيدَ: إذا استطاع الشريفُ حسين إقناعَ البريطانيين بقبول إنشاء دولة عربية كبيرة مستقلة، بالحدود المنصوص عليها فى بروتوكول دمشق[569] Damascus Protocol (وحدود الدولة العربية وَفْقَ البروتوكول هى شِبْه الجزيرة العربية كلها وبلاد النهرين والكثير من سوريا)، فعندئذٍ سينضمون إلى ثورته ضد السلطان ويجعلونه «ملكًا على العرب»

---

[567]جمعية العَهْد: جمعية سرّية أسّسها الضابطُ عزيز المصرى ورفاقه من العسكريين العرب أمثال رشيد عالى الكيلانى ونورى السعيد وجميل المدفعى، للعمل على مناهضة الأتراك و المطالبة باستقلال العرب عن الإمبراطورية العثمانية وعن القوى الأجنبية على حد سواء. وذلك بعد فشل حركتهم فى جمعية «القحطانية الفتاة» السرّية التى طالبوا من خلالها بإص لاح سياسى دستورى على مستوى الإمبراطورية العثمانية ولامركزية الإدارة الإمبراطورية ، أىْ الحكم الذاتى للأقاليم العربية. ولما اصطدموا حينئذٍ بالتعصب للعنصرية الطورانية الغالب على جمعية تركيا الفتاة ونواتها الصلبة لجنة الاتحاد والترقى، فككوا جمعيتَهم «القحطانية الفتاة»، وأسّسوا جمعية «العهد». اعتقلت السلطاتُ العثمانية عزيز المصرى قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بأشهر قليلة وحكمت عليه بالإعدام بتهمة العمالة لإيطاليا ، وقبل التنفيذ تسرّبَ الخبرُ فاشتعلت مظاهرات فى المدن العربية ضد الإمبراطورية العثمانية استغلتها بريطانيا للتودُّد إلى العرب فضغطت على السلطات العثمانية من أجل إلغاء العقوبة وأُفْرِجَ عن عزيز المصري - المترجم

[568]الاسم الصحيح هو جمعية «العربية الفتاة»: جمعيّة سياسية قومية عربية سرّية، لها اتص الات قوية بجمعية العهد. أنشأها مجموعة من الطلاب العرب فى باريس عام 1911 ردّا على جمعية الاتحاد والترقى التركية التى صارت تدعو إلى سياسة التتريك. أثّرت «جمعية العربية الفتاة» فى الفكر القومى العربى ومهّدت للمؤتمر العربى فى باريس عام 1913، وأسهمت فى التمهيد للثورة العربية الكبرى التى انطلقت فى الحجاز عام 1916، ولا سيما بعد أن أصبح جمال باشا حاكمًا على سوريا وبلاد الشام منذ عام 1915 وإطلاقه أحكامًا بالإ عدام على أعضائها فى سوريا. مؤسِّسوها السبعة الأوائل هم: عونى عبد الهادى ورفيق التميمى ومحمد عزة دروزة من فلسطين، محمد البعلبكى ومحمد رستم حيدر من لبنان، جميل مردم بك من سوريا، توفيق السويدي من العراق - المترجم.

[569]بروتوكول دمشق: أرسل الشريفُ حسين ابنَه الملك فيصل بن الحسين إلى دمشق عام 1914 للاتصال بزعماء الحركة القومية العربية ليعرض عليهم الموقف واتصالاته بالإنجليز، واتفقت كلمتهم على قبول عروض الإنجليز وعلى زعامة الشريف حسين للثورة، وأعطى زعماءُ جمعيتىْ «العربية الفتاة» و«العهد» خريطةً تُعيّنُ حدودَ الدولة العربية كى يسعى الشريف حسين على أساسها إلى نَيْل الاستقلال، كما وضعوا مخططًا بالمطالب التى يريدونه أن يتفاوض على أساسها مع الإنجليز، وعُرِفَتْ هذه الحدود والمطالب ب «بروتوكول دمشق» - المترجم.

عندما تضع الحربُ أوزارَها[590].

القرار الخطير الذى اتخذه السير هنرى مكماهون Sir Henry McMahon، المندوب السامى فى مصر، بعد جدل طويل منه على الحدود الدقيقة ل«الخلافة العربية»، تمثّلَ فى جَعْل الصفقة مع حسين بمثابة ردٍّ على الدعوة الألمانية العثمانية إلى الجهاد، وعلى الهلع الناجم عن الهزائم البريطانية المتوالية في معركتيْ جاليبولي[570] وكوت العمارة[591].

وعلى حدِّ تعبير جيلبرت كليتن[571] Gilbert Clayton مدير المخابرات فى دار المندوب السامى بالقاهرة: «إذا نجحنا فى هذا، فسنحرم الألمانَ والأتراكَ من الدّعْم العربى، وسنَحول دون أى احتمالٍ يُمكِّنِهم من الوقوف ضدنا، وضد الفرنسيين والإيطاليين، عَبْرَ جهاد حقيقى يُهَنْدَسُ فى الأماكن المقدسة... وأعتقد أن الأهميةُ الكبرى معقودةٌ الآن على ما أسميه مزايا التحالف «الإيجابية» مع العرب، بعد تجاوز مزايا تنصُّلهم «السلبية» الكبيرة من الألمان والأتراك»[592].

الاتفاق البريطانى مع الهاشميين، بالإضافة إلى اتفاقات منفصلة مع فرنسا على بلاد ما بين النهرين وسوريا[572]، ومع الحركة الصهيونية Zionist

---

[570] معركة جاليبولى سبقت الإشارة إليها، أما معركة «كوت العمارة» فهى قرية على نهر دجلة احتلتها القوات البريطانية بعد احتلال البصرة يوم 23 نوفمبر عام 1914، ثم حاولت التقدم إلى جنوب بغداد، فتصدّتْ لها القوات التركية بمساعدة العشائر حتى اضطرتها إلى التراجع احتماءً بكوت العمارة، وفُرضَ الحصارُ على الكوت مدة 15 شهرًا حتى اضطرت القوات البريطانية إلى الاستسلام يوم 1 مايو 1916 - المترجم.

[571] جيلبرت كليتن:1875 - 1929، ضابط مخابرات عسكرية بريطانى ومدير استعمارى. عمل فى العديد من بلدان الشرق الأوسط أوائل القرن العشرين وأشرف فى مصر، أثناء الحرب العالمية الأولى، بوصفه ضابط مخابرات، على بدء إشعال الثورة العربية بقيادة الشريف حسين. وساعد فى فلسطين وبلاد ما بين النهرين، بوصفه مديرًا استعماريًا، على التفاوض بشأن حدود الدول التى ستصبح فيما بعد إسرائيل والأردن وسوريا والمملكة العربية السعودية والعراق - المترجم.

[572] وافق مكماهون على الحدود التى اقترحها حسين مع الاستثناءات الآتية: يُسْتَبْعَدُ من حُكْمه قيليقية Cilicia (حاليًا فى جنوب شرق تركيا) وتلك «الأجزاء من سوريا الواقعة غرب مناطق دمشق وحمص وحماة وحلب» التى أعلنت فرنسا عن نفوذها فيها، وتأييد المطالب البريطانية فى ولايات بغداد والبصرة فى بلاد ما بين النهرين. وقد اندمجت الخطط الأنجلوفرنسية فى سوريا وبلاد ما بين النهرين فى اتفاقية مايو 1916 الشهيرة بين السير مارك سايكس Sir Mark Sykes وفرانسوا جورج بيكو - François Georges Picot [اتفاقية سايكس بيكو]، التى قدّمت تصوُّرًا كاملا ً لتقسيم الإمبراطورية العثمانية فيما بعد الحرب - المؤلف.

movement لإنشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين، زَرَعَتْ كلُها أساسًا سياسيًا جديدًا للمنطقة التى نعرفها الآن باسم «الشرق الأوسط» Middle East[593]. وسيستمر هذا لمدة قرن.

الثورة العربية التى بدأت يوم 5 يونيو عام 1916 أفسدت لعبةَ الألمان، وقلبت موجةُ الحرب ضد العثمانيين[594].

لكن لفَهْم السبب فى نجاح بريطانيا (مع الدّعْم الفرنسى) حيث فشل الألمان و العثمانيون، نحتاج إلى إدراكِ أكثر من مجرد النجاحات العسكرية الشهيرة التى حققها لُورَنس[573] T. E. Lawrence، النصير البريطانى الأكبر لاستقلال العرب[595]. نحتاج أيضًا إلى إدراك أن لُورَنس كان يعمل مع شبكة ناشطة - شبكة القوميين العرب - فى حين أن أوبنهايم وحلفاءه حاولوا تنشيطَ شبكة مفككة الأوصال تهْجَعُ فى سُبَاتٍ عميق، ألا وهى أمة المسلمين. الخطأ القاتل أن الألمان استخفّوا بمدى ما وصل إليه الوعى العربى من تقويض هياكل الحُكم العثماني الرسمية حتى قبل اندلاع الحرب[596].

لقد أطرى أوبنهايمُ نفسَه بأنه عَرَفَ العالمَ المُسْلِم، ولكنه أخطأ تمامًا فى قراءة نوايا الهاشميين. إن إعلان حرب مقدسة عالمية دون كفالة الأماكن المقدسة لها أولا ً لهو الخطأ الجوهرى الفادح الذى يضارع خطأ التيوتونيين [الجرمان] Teutons الكاريكاتورى فى رواية بوشان؛ فكما استغرق بطل بوشان فى «العَيْش مرتديًا ثياب العرب ومحاكيًا أساسَهم الذهنى»، استطاع لُورَنس فِعْل ذلك.

---

[573]توماس إدوارد لُورَنس: (1888 - 1935)، الشهير ب«لورنس العرب». ضابط بريطانى أنجز مهمته ببراعة خلال الثورة العربية عام 1916. قال عنه تشرشل: لن يظهر له مثيل مهما كانت الحاجة ماسة إليه. لقى مصرعه بسبب سقوطه من على دراجته البخارية يوم 19 مايو 1935 - المترجم.

36

الطاعون

لقد فشلت كل مؤامرات ألمانيا للفوز بالحرب العالمية الأولى، حيلةً ومكرًا، باستثناء مؤامرة واحدة. ف«المؤامرة الألمانية الهندوسية» لإرسال أسلحة إلى القوميين الهنود كان نصيبها الفشل، كذلك غزو الهند من سيام Siam [تايلا ند] الذى مَوّلته ألمانيا. الشحنة الألمانية المكوّنة من 25 ألف بندقية روسية، التى استولت عليها ألمانيا وأرسلتها إلى أيرلندا، لم تصنع ثورةً من انتفاضة عيد الفصح[574] Easter Rising الفاشلة.

والأكثر مدعاةً لليأس من كل هذا، المحاولةُ الألمانية الخَرْقاء لإدخال المكسيك فى الحرب باقتراح استعادة نيومكسيكو New Mexico وتكساس Texas وأريزونا Arizona، وهى التفاصيل التى اعترضتها المخابراتُ البريطانية ونقلتها إلى الولايات المتحدة، لأن التلغرافات الألمانية المارّة عبر الأطلنطى - كما رأينا - لا بد أن تمرّ بمحطة ترحيل بريطانية. أما المؤامرة الألمانية الوحيدة التى نُفِّذَتْ بشكل مكتمل، فقد ثَبَتَ نجاحُها إلى درجة أنها ثَوّرَت العالَمَ كلَّه تقريبًا. هذه المؤامرة هى التخطيط السرّى لإعادة الزعيم البُلْشفى فلاديمير إيليتش لينين Vladimir Ilyich Lenin، الذى كان يقيم فى منفاه بسويسرا، إلى روسيا فى أعقاب ثورة فبراير عام 1917 التى أطاحت بالقيصر نيقولاس الثاني.

بعد أن حذّر ثوريان محترفان يُدعيان ألكسندر هيلبهاند (الملقّب ب بارفوس Parvus) Alexander Helphand وألكسندر كيسكولا Alexander Kesküla من احتمال إصابة عقيدة لينين ب«هزيمة ثورية»، زوّدَت الحكومةُ الألمانية لينين بتذكرة قطار من زيوريخ Zurich إلى بتروجراد Petrograd - عن طريق فرانكفورت وبرلين وزاسنيتس Sassnitz [فى ألمانيا] وستوكهولم - بالإضافة إلى أموال وفيرة، لزَعْزعة الحكومة الجديدة المؤقتة والإطاحة بها[575].

---

[574] انتفاضة عيد الفصح: تمرُّد مسلّح فى أيرلندا أثناء عيد الفصح عام 1916، أرسلت ألمانيا شحنة أسلحة إلى المتمردين، ولكن التمرد فشل بسبب السيطرة البريطانية العنيفة وفَرْض الأحكام العُرْفية وإعدام 15 قائدًا من أصل 16 - المترجم.

[575] تُقدّرُ الأموال بخمسين مليون مارك ذهبى (12 مليون دولار) وُجّهت إلى لينين ومساعديه، الكثيرُ منها غُسِلَتْ عبر عمليات استيراد تجارية روسية أدارتها سيدةٌ تُدْعَى إفجينيا سومينسون Evgeniya Sumenson. ولو عَادَلْنا هذا المبلغ على أساس ارتفاع أجور العمالة غير الماهرة، فهو يساوي حوالي 800 مليون دولار اليوم - المؤلف.

وبدلا ً من اعتقال لينين ومساعديه التسعة عشر بمجرد وصولهم إلى روسيا، كما يستحقون فعلا ً، ترددت الحكومةُ الروسية الجديدة المؤقتة. وتأهّبَ البلاشفة للعمل، فاشتروا مقرًا مركزيًا جديدًا (محل إقامة سابق لراقصة الباليه ماتيلده كِشيسينسكايا Mathilde Kshesinskaya، المَحْظية المَلَكيّة ذائعة الصيت)، واشتروا مطبعة خاصة، ثم قاموا بتوزيع الأموال على الناس لحَثّهم على الانضمام إلى مظاهراتهم. كانت الثورةُ البُلْشفية عمليةً مُموّلة من ألمانيا، وتستخفُ معظمُ الروايات بهذا، وقد ساعد على نجاحها بدرجة كبيرة عدمُ كفاءة الليبراليين الروس[597].

أوْزةُ لينين ينبغى أن تُطبَخَ بعد فشل محاولة الانقلاب البُلْشفى الأولى فى أوائل يوليو وفُضْحِ لينين بوصفه عميلا ً ألمانيًا فى صحيفة جيفوى سلوفو Zhivoe Slovo، وهو ما أدّى إلى اتّهامه رسميًا بالخيانة مع عشرة آخرين من القادة البلاشفة. لكن ألكسندر كيرينسكى Alexander Kerensky، وزير العدل الثورى الاشتراكى Socialist Revolutionary الذى سيطر على الحكومة المؤقتة فى يوم 7 يوليو، أَعْوَزَته غريزةُ القاتل. وبعد أن وَثِقَ فى شخصية غير جديرة بالثقة نهائيًا، رئيس الأركان الجديد، الجنرال لافار كورنيلوف General Lavr Kornilov، الذى خَطَّطَ لانقلاب عسكرى فاشل، أعفاه كيرينسكى من منصبه وسمح للجنة التنفيذية المؤقتة (إسبولكوم Ispolkom) لسوفييت بتروجراد (مجلس العُمّال) أن تمنح البلاشفةَ ما يصل إلى حدِّ العفو. ليون تروتسكى Leon Trotsky، الصحفى المَنْشَفى Menshevik الموهوب[576] الذى لاقى مصيره مع لينين، أُطْلِقَ سراحَه من السجن. وفى الأسبوع الثانى من شهر أكتوبر، وبمجرد تأكّد لينين من إسقاط تهمة الخيانة عنه، عاد من فنلندا Finland التي كان قد فرّ إليها بعد أيام يوليو[577] July Days.

بدأ لينين وتروتسكى وحلفاؤهما المتآمرون على الإطاحة بالحكومة المؤقتة

---

[576]فى المؤتمر الثانى للحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى المنعقد عام 1903 الذى حدث فيه الانشقاق التاريخى إلى بلاشفة (أكثرية) تتبنّى التغيير الثورى العنيف، ومناشفة (أقلية) تتبنّى التغيير السِّلمى، انضمّ تروتسكى أولا ً إلى المناشفة، ثم انفصل عنهم، واتخذ موقفًا مستقلا ً عن كلا الجناحين معًا، إذ وضع ما يُعْرَفُ ب«الثورة الدائمة»، ثم عاد ليشارك مع لينين في ثورة أكتوبر 1917 - المترجم.

[577]أيام يوليو: تشير إلى الأحداث التى وقعت فى بتروجراد فى روسيا، حين شارك الجنود وعمال المصانع فى مظاهرات مسلحة ضد الحكومة الروسية المؤقتة، التى ألقت باللوم على البلاشفة بسبب العنف الجارى فى الشوارع، وفى حملة قمع عنيفة اعتقلت الحكومةُ المؤقتة العديدَ من قادة البلاشفة. وبينما تمكن لينين من الفرار أُلقى القبض على تروتسكى - المترجم.

وتسليم «السلطة إلى السوفييت» يتحركون عَلَنًا، ونادرًا ما كانوا يَتخفّون. فى الساعات الأولى من يوم 25 أكتوبر عام 1917، وعقب محاولة غير مدروسة من كيرينسكى لقمْع البلاشفة مرة أخرى، بدأ البلاشفة فى تنفيذ انقلابهم coup d'état. حاول كلٌ طرف قَطْعَ خطوط الهاتف عن الطرف الآخر، ولكن عدد المؤيّدين المُسلّحين حَسَمَ الموقفَ. كان فى صفِّ الحكومة المؤقتة كتيبةُ الموت النسائية[578] Women's Death Battalion، أما البلاشفة فلديهم الكثير من الرجال ببنادق من نوع بيتر Peter وبول فورترس Paul Fortress، كانوا قد تدرّبوا على استعمالها في قصر الشتاء[579] 598 Winter Palace.

من المعروف الآن أن عددَ القتلى فى ثورة أكتوبر October Revolution أقلُ من قتلى إطلاق الرصاص فى فيلم سيرجى آيزنشتاين[580] Sergei Eisenstein الذي عُرِضَ في احتفالية الذكرى العاشرة بالثورة[581].

ولكن من الخطأ التهوين من أهمية الحدث الأصلى. أولُ شىء مذهل فى الثورة البُلْشفية Bolshevik Revolution السرعةُ التى انتشرت بها. بدأت الشعارات واللافتات البُلْشفية تظهر فى جيش الشمال الروسى يوم 18 أبريل. وبينما استعدّت الحكومةُ المؤقتة لشَنِّ هجوم على جاليسيا[582] Galicia، أبلغ الضبّاط عن أول تفَشٍّ لظاهرة بُلْشفيةِ النجاةِ من ويلات الحرب Shkurnyi

---

[578]كتيبة الموت النسائية: وحدات قتالية نسائية شكلتها الحكومةُ المؤقتة بعد ثورة فبراير فى محاولة منها لإلهام جموع الجنود المُجْهَدين من الحرب لمواصلة القتال فى الحرب العالمية الأولى. وخلال عام 1917، أُنشِئ خمسة عشر تشكيلا ً، منها كتيبةُ الموت الروسية الأولى وهى وحدة منفصلة تُسَمّى كتيبة بتروجراد النسائية الأولى، وكتيبة الموت الثانية في موسكو - المترجم.

[579]قصر الشتاء: يقع فى سان بطرسبرج فى روسيا، وهو المقر الرئيسى لإقامة قياصرة روسيا منذ عام 1732 حتى سقوط الحكم القيصري - المترجم.

[580]سيرجى آيزنشتاين: (1898 - 1948)، منتج أفلام ومخرج روسى، لا تزال أعماله الفنية فى الأيام الأولى لصناعة السينما تؤثِر فى مُخْرجى القرن الحادى والعشرين. عُرِضَ فيلمُه «عشرة أيام هزّت العالم» فى الذكرى العاشرة لثورة أكتوبر الروسية، ثم أُعِيد تحريرُ الفيلم وإصداره دوليًا بعد رواج كتاب جون ريد عن الثورة الروسية - المترجم.

[581]وفى الواقع نشب اقتتالٌ أخطر بكثير فى موسكو، بما فى ذلك الاقتتال التلاحمى الشرس داخل الكريملين - المؤلف.

[582]جاليسيا: معركة كبيرة على الجبهة الشرقية فى الحرب العالمية الأولى، دارتْ بين القوات الروسية والإمبراطورية النمساوية المجرية، فى المنطقة المعروفة ب«أوكرانيا» حـ اليًا - المترجم.

bol'shevizm (التى تبنّاها مَن أرادوا النجاةَ بأنفسهم). واشتكى قائد الجيش الثانى عشر من «هيجان البلاشفة القوى الذين نسجوا أنفسَهم فى عُشٍّ متين» - والصورة موحية[599]. وصلت التعزيزات العسكرية من بتروجراد إلى خط الجَبْهة ومعها لافتات بُلشفية تحمل الشعار «تسقط الحرب والحكومة المؤقتة!»[600]. مُنْشَقٌّ واحد، يُدْعَى سِماشكو A. Y.

Semashko، استطاع تجنيد 500 رجل من أول فوج بندقية آلية First Machine Gun Regiment لصالح القضية البُلشفية[601].

ومع أن هذا الوباء قُيّدَه مؤقتًا فَشَلُ أيام يوليو، فإن اعتقال كيرينسكى لكورنيلوف أعاد ترسيخَ مصداقية البلاشفة لدى الرُّتَبِ العسكرية الدنيا. الجيشُ الخامس ضربته موجةُ انشقاقات. وسيطر «مناديب» البلاشفة على مُعِدّاته التلغرافية. وبَدَا لضبّاط المخابرات العسكرية كما لو أن «موجةً بُلشفية» عَصَفَت بكل قواعد الانضباط[602].

وبنهاية شهر سبتمبر، اشتدّ دَعْمُ حزب لينين فى المدن الروسية الرئيسية بما يكفى لمَنْحه السيطرة على سوفييتات [مجالس][583] soviets موسكو وبتروجراد. وكان الدعم قويًا أيضًا فى القاعدة البحرية كرونشتات[584] Kronstadt وأسطول بحر البلطيق Baltic Fleet. أما فيما بين الفلاحين و القوقاز كثيرى العدد فقد افتقر البلاشفة إلى مؤيّدين، الأمر الذى يساعد على تفسير سرعة انحدار روسيا إلى حرب أهلية حَضَرِيّة ريفية خلال عام 1918[585].

انتقل الفيروس البُلشفى أساسًا بالقطار والتلغراف، وكان الجنودُ والبحارة و

[583]السوفييت: كلمة روسية تعنى «المجلس»، أُطلِقتْ على «مجلس وزراء القيصر» فى الإمبراطورية الروسية، ثم مع أواخر الإمبراطورية صارت تطلق على المجموعات الثورية الروسية، وتأسّسَ أولُ مجلس إبان الثورة العمالية عام 1905. ثم بعد سقوط القيصر، تشكلت المجالس فى كافة أنحاء روسيا عام 1917 فضمّت عمالا ً وفلاحين وعسكريين. وفى الاتحاد السوفييتى السابق أُطلِقتْ الكلمة على مجالس المحليات والأقاليم. أما السوفييت الأعلى فهو برلمان الاتحاد السوفييتى ذو النظام التشريعى الثنائى (نظام المجلسين) - المترجم.

[584]كرونشتات أو كرونستدت: إحدى مدن روسيا، وتقع على جزيرة كوتلين فى الخليج الفنلندي بحر البلطيق - المترجم.

[585]فى انتخابات الجمعية التأسيسية Constituent Assembly يوم 12 نوفمبر عام 1917، فاز الثوّار الاشتراكيون Socialist Revolutionaries بـ40% من مجموع المُصوّتين البالغ 41 مليونًا، فى مقابل 24% للبلاشفة. الفلاحون اعتبروا الثوّارَ الاشتراكيين حزبهم [الحزب الاشتراكي الثوري] - المؤلف.

العُمّال العارفون بالقراءة والكتابة أكثرَ تأثرًا به. الشَرَكُ بالنسبة إلى الألمان أن الوباء البُلشفى - شأنه شأن غاز الخردل[586] mustard gas الذى يُغيِّر اتجاهَه بسبب الرياح - أصاب جنودَهم وبحارتهم وعُمّالهم أيضًا. وعندما صار واضحًا - كما حدث فى صيف عام 1918[587] - أنه حتى الانهيار الروسى الشامل لم يمنع هزيمة دول المحور، أُعْلِنَتْ حكوماتٌ على النمط السوفييتى فى بودابست [المجر] وميونيخ وهامبورج [ألمانيا] أيضًا. ورُفِعَ العلمُ الأحمر أيضًا فوق مباني بلدية جلاسكو [في إسكتلندا] Glasgow City Chambers.

كان لينين يحلم مبتهجًا ب«اتحاد جمهوريات أوربا وآسيا السوفييتية» Union of Soviet Republics of Europe and Asia. وقد صرّح تروتسكى غير مرة بأن «الطريق إلى باريس ولندن يكمن عبْر مدن أفغانستان والبنجاب Punjab و البنغال Bengal»[603].

بل هزّت الإضرابات [والضربات] سياتل Seattle [فى ولاية واشنطن العاصمة] وبوينس آيرس Buenos Aires [عاصمة الأرجنتين] البعيدتين. كان ذلك تَفَشيًّا وبائيًا بروليتاريًا.

الشىءُ المذهل الثانى الطريقةُ التى حَوّلَ بها البلاشفةُ، دون تباطؤ، شبكتَهم

---

[586]غاز الخردل: استخدمه الجيشُ الألمانى لأول مرة فى الحرب العالمية الأولى ضد البريطانيين والكنديين بالقرب من إبريس ببلجيكا عام 1917، وضد الجيش الثانى الفرنسى. ولما استولى البريطانيون عليه من الألمان استخدموه بعد تطويره فى سبتمبر عام 1918 أثناء كسر خط هيندينبيرج، شبكة الدفاع الواسعة التى شيّدها الألمانُ شمال شرق فرنسا. والخردل مركب كيميائى عضوى فى صورة سائل يصدر بخارًا خطرًا يسبب حروقًا وتقرُّحًا فى الجلد، ويسبب القىء والإسهال، ويلحق أضرارًا بالأعين والأغشية المخاطية والرئتين. أخطرُ تأثيراته طويلة الأجل السرطانُ بسبب تلف الحمض النووى، كما أنه يُغيّرُ نظامَ الخلايا الوراثية - المترجم.

[587]الإشارة هنا إلى ثورة نوفمبر 1919/1918 فى ألمانيا التى أنهت القيصريةَ الألمانية فتحوّلت ألمانيا من نظام مَلَكى فيدرالى دستورى إلى جمهورية برلمانية ديمقراطية. بدأت شرارة الثورة يوم 24 أكتوبر عام 1918 عندما أعلن البحارةُ الألمان عصيانَ الأوامر العسكرية الصادرة من القيادة البحرية الألمانية فى ميناء فيلهيلمسهافن. وسرعان ما اجتاحت الاضطراباتُ جميعَ أنحاء الإمبراطورية الألمانية فى غضون بضعة أيام، وأدّت فى النهاية إلى إعلان الجمهورية يوم 9 نوفمبر عام 1918، فتنحّى القيصر فيلهيلم الثانى عن العرش وهرب من البلاد. وخوفًا من اشتعال حرب أهلية لم يُجَرّد الحزبُ الديمقراطى ا لاجتماعى الألمانى النُخْبةَ الألمانية القديمة من سلطاتها وامتيازاتها فأدمجها فى النظام الديمقراطى الاشتراكى الجديد. ومع ذلك، اندلعت أعمال شغب واسعة عُرِفَتْ باسم «انتفاضة سبارتاكوس الشيوعية»، ولكن الجيش والميليشيات القومية استطاعا قَمْعَ انتفاضات اليسار حتى هدأت البلاد تمامًا بحلول أواخر عام 1919 - المترجم.

الثورية إلى نظام هَرَمَيٍّ جديد، أقسى من نظام القيصر القديم على مستويات عديدة.

نما الحزب البُلْشفى Bolshevik Party نموًّا أُسِّيًّا بعد عام 1917، ولكنه بينما كان ينمو متوسِّعًا صار أكثرَ مركزيةً؛ وهى نتيجة توقَّعَها لينين فى ورقته الدعائية قبل الحرب بعنوان «ما الذى ينبغى عمله؟» What is to be Done؟. لقد أضْفَتْ انتكاساتُ عام 1918 شرعيةً على اندفاع لينين فى لعب دور روبسبيير[588] Robespierre، فادّعَى لنفسه سلطات ديكتاتورية استلهمها من روح «الثورة المُعرّضة للخطر». فى يوم 17 يوليو عام 1918، أُطْلِقَ الرصاصُ على القيصر المخلوع وعائلته فى الطابق السفلى من المنزل، حيث كانوا محتجزين فى يَكَترينبورج Yekaterinburg. ثم بعد أربعة أيام، حَدَثَ إعدامٌ جماعي ل 428 اشتراكي ثوري في ياروسلافل[604] Yaroslavl.

وقد أصرّ لينين على أن الطريقة الوحيدة التى تضمن تسليم الفلاحين حبوبهم لتموين الجيش الأحمر Red Army، هى إصدار الأمر بعمليات إعدام تحذيرى[589] لما يُسَمّى «الكولاك»[590] Kulaks، وقد افترض البلاشفةُ أنهم الفلا حون الرأسماليون الجَشِعون الذين يمكن شَيْطَنَتُهم. تساءل لينين: «كيف

---

[588]ماكسيمليان روبسبيير: (1758 - 1794)، مُحامٍ وزعيم سياسى فرنسى. أحد أهم الشخصيات المؤثرة فى الثورة الفرنسية، وأحد الوجوه الرئيسية فى عهد الإرهاب. انتُخِبَ نائبًا لرئيس مجلس الطبقات فى عام 1789 عشية اندلاع الثورة الفرنسية، ثم التحق بـ الجمعية التأسيسية الوطنية. وفى عام 1790، انتُخِبَ رئيسًا لنادى اليعاقبة. فى عام 1792 ، ألحّ على مطلب إعدام الملك لويس السادس عشر وعائلته، وتمّ التنفيذ عام 1793. وسرعان ما انتُخِبَ عضوًا فى «الهيئة التنفيذية العليا» و«لجنة السلامة العامة». أصبح مسيطرًا على الحكومة الفرنسية فى لحظةٍ عاثَتْ فيها البلاد من إضرابات سياسية واجتماعية. وبهدف استعادة النظام وتقليل خطر الغزو الخارجى، بدأ روبسبيير فى القضاء على مَن اعتبرهم «أعداء الثورة»، فأَعْدَمَ معظمَ زعماء الثورة الفرنسية، وآخرين بالآلاف. ثم انتُخِبَ رئيسًا للمؤتمر الوطنى. تخوّفَ عددٌ من كبار أعضاء المؤتمر الوطنى على سلا متهم فدبّروا مؤامرة ضد روبسبيير وأعوانه حتى اقتادوه مع مئة من أتباعه إلى المقصلة، وهو ما أنهى عهدَ الإرهاب - المترجم.

[589]الإعدام التحذيرى exemplary execution: المقصود به تنفيذ عمليات إعدام بهدف تحذير الآخرين من ملاقاة المصير نفسه إنْ لم يمتثلوا، وهو أعنف أنواع التحذير - المترجم.

[590]الكولاك: هم الفلاحون من ذوى الدخل المرتفع مالكو الأراضى الزراعية الأكبر مساحةً، ويليهم «السيريدنياك» وهم الفلاحون من ذوى الدخل المتوسط، ويليهم «بيدنياك» وهم الف لاحون الفقراء، ويرقد فى القاع مَن يُسَمّون «باتراك» الذين لا يملكون أية أراضٍ زراعية ويعملون بالأجرة في أراضي الغير - المترجم.

يمكنك إحداث ثورة دون إطلاق رصاص على مجموعات من الناس؟»[605].

«إذا لم نستطع إطلاق الرصاص على مُخرّب من الحرس الأبيض White Guard، فما الذى تكونه ثورةٌ كبيرةٌ؟ لا شىء سوى كلام وسلطانية هريسة». لقد اقتنع لينين تمامًا بأن البلاشفة لن «يخرجوا منتصرين» إذا لم يُوظِّفوا «أعنف أنواع الإرهاب الثورى»، فدعا صراحةً إلى «إرهاب جماعى ضد الكولاك ورجال الدين والحرس الأبيض». ينبغى «إطلاق الرصاص فورًا» على «تُجّار السوق السوداء».

فى يوم 10 أغسطس عام 1918، أرسل لينين تلغرافًا إلى الزعماء البلاشفة في بينزا Penza [على نهر سورا في روسيا] يتحدث فيه بصوت جهير:

يجب أن تسحقوا انتفاضة الكولاك في مقاطعاتكم الخَمْس بلا رحمة... يجب عليكم ضَرْب المَثل والعِبْرة. اشْنُقوا (وأنا أعنى الشّنْق على رؤوس الأشهاد) ما لا يقل عن مئة من الكولاك المعروفين، الأثرياء مَصّاصى الدماء. ثم انشروا أسماءهم. وخذوا كل محاصيلهم فلا تتركوا شيئًا. حَدِّدوا الرّهائن... افعلوا هذا بحيث يراه الناس مِن على بُعْد مئات الأميال فيرتجفون خوفًا وهم يصرخون قائلين: إنهم يقتلون الكولاك مصّاصِى الدماء وسيستمرون فى قتلهم... جِدُوا للقيام بهذه المهمة أقسى المُنفِّذين وأغلظهم[606].

لقد أكدَ لينين أن الكولاك «مصّاصو دماء، وعناكب، يقتاتون على حساب غيرهم كالخفافيش مصّاصة الدماء». ثم مضت الأمور إلى الأسوأ بعد محاولة اغتيال فاشلة تعرّضَ لها لينين يوم 30 أغسطس قامت بها اشتراكية ثورية تُدْعَى فاني كابْلِن[591] Fanny Kaplan.

فى قلب الاستبداد الجديد، تأسّستْ «لجنة عموم روسيا الاستثنائية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب» Russian Extraordinary Commission for-All Revolution and Sabotage-Combating Counter المعروفة اختصارًا باسم شيكا[592] Cheka.

---

[591]فانى كابْلِن: (1890 - 1918)، هى فانيا يفيموفا كابْلِن، وتُعْرَفُ أيضًا باسم دورا كابْلِن. ثورية اشتراكية روسية أطلقت الرصاصَ على لينين يوم 30 أغسطس عام 1918، مما أدّى إلى إصابته بجروح خطيرة. قُبِضَ عليها مرتديةً ثيابًا سوداء، وكانت لامباليةً بشكل غير عادى. ثم بعد أربعة أيام، أُعْدِمَتْ رميًا بالرصاص فى فناء الكريملين دون أن تعلم إن كانت نجحت في اغتيال لينين أم لا - المترجم.

[592]الشيكا: تأسّستْ هذه اللجنة يوم 5 ديسمبر عام 1917، وهى عبارة عن مجموعة تنظيمات من الشرطة السرّية برئاسة البولندى المتحوّل إلى الشيوعية فيليكس دزيرجينسكى، ثم بحلول أواخر عام 1918 ظهرت لجانُ شيكا عديدة فى مختلف المدن

لقد أنشأ البلاشفةُ نوعًا جديدًا من البوليس السياسى، بقيادة فيليكس دَزرجينسكى[593] Felix Dzerzhinsky، يُمَارسُ القتلَ لمجرد الاشتباه بكل بساطة، دون أى شعور بالذنب أو وَخْزَة ضمير. «الشيكا»، كما أوضح أحدُ مؤسِّسيها، «ليست لجنةَ تحقيقٍ أو محكمة أو قضاء، بل هى جهاز قتالى على الجبهة الداخلية للحرب الأهلية... الشيكا لا تُحاكِم، بل تضْرب. ولا تصفح أو تلتمس أعذارًا، بل تُدمِّرُ كلّ مَن تُمْسِكُ به منتميًا إلى طرف المتراس الآخر»[607].

وتُعْلِنُ الجريدةُ البُلْشفية كِرَاسْنايا جازيتا Krasnaya Gazeta صراحةً: «بلا رحمة، ودون تباطؤ، سنقتل خصومنا بعشرات المئات، بل بالآلاف، ونتركهم غارقين فى دمائهم. ومن أجل دم لينين... ستجرى دماء البرجوازية فيضانات ، المزيد من الدماء قدر الاستطاعة»[608].

ويا لها من سعادةٍ انتابت دَزرجينسكي أن يلتزم بهذا. وَلْنأخذ مثلا ً واحدًا فقط: فى يوم 23 سبتمبر عام 1919، أُطْلِقَ الرصاصُ على سبعة وستين زُعِمَ أنهم من الثوّار المضادين، دون مراعاة أى شكليات من أى نوع. وجاء على رأس القائمة نيقولاى شيبْكين Nikolai Shchepkin، العضو الليبرالى فى الدوما[594] Duma (البرلمان) الذي أُنْشِئ بعد عام 1905.

وقد صيغ إعلانُ إعدامهم بأعنف لغة، فاتّهَمَ شيبْكين وأعوانَه المزعومين ب«الاختباء مثل عناكب متعطشة للدماء، تغزل شِباكها فى كل مكان، بدءًا من الجيش الأحمر إلى المدارس والجامعات»[609].

وبين عامىْ 1918 و1920، بَلَغَ عددُ الإعدامات السياسية التى نُفِّذَتْ 300 ألف حالة إعدام[610]. وقد شملت هذه الإعدامات أعضاء فى أحزاب منافسة، بالإضافة إلى بلاشفة زملاء ممن بلغ بهم التهوُّرُ حدّ الاعتراض على الديكتاتورية الجديدة فى قيادة الحزب. وبحلول عام 1920، كان يوجد بالفعل أكثرُ من مئة معسكر اعتقال kontsentratsionnye lageri من أجل «إعادة تأهيل... العناصر غير الموثوق فيها». وقد اُخْتيرت مواقِعُها بعناية، بهدف تعريض السجناء لأقسى ظروف ممكنة؛ أماكن مثل: دير سابق فى خولموجورى Kholmogory، فى القِفَار الجليدية بمحاذاة البحر الأبيض White Sea. هكذا وُلِدَ الجولاج

الروسية - المترجم.

[593]فيليكس دَزرجينسكى: (1877 - 1926)، لعب دورًا مهمًا فى الثورة الروسية وترأس الشيكا منذ تأسيسها حتى عام 1922 - المترجم.

[594]الدوما: مجلس ذو وظائف استشارية أو تشريعية. أول دوما أنشأه القيصرُ نيكولاس الثانى هو دوما الدولة عام 1905. ورفضه فى غضون 75 يومًا. ثم أُعيد انتخاب الدوما الثاني في غضون ثلاثة أشهر. وتم حلّه عام 1917 أثناء الثورة الروسية - المترجم.

.[595]Gulag

لم يكن جوزيف فيسياريونوفيتش جوجاشفيلى Iosif Vissarionovich Dzhugasshvili - ستالين («الرجل الحديدى»)، بالنسبة إلى زملائه الثوّار - الوريثَ المقصود ل لينين بوصفه قائد (زعيم [فوزد] vozhd) النظام السوفييتى. لقد افتقر ستالين إلى الكاريزما والموهبة التى ميّزت البلاشفةَ الروّادَ الآخرين. وحين جعل لينين منه «سكرتيراً عامًا» للجنة المركزية Central Committee فى أبريل عام 1922، كان يستخفُّ بمهارته البيروقراطية فلم يُقدِّره في هذه الناحية حقّ قدره.

ولأن ستالين هو الشخص الوحيد السيّد على أقوى ثلاث مؤسّسات فى الحزب: المكتب السياسى politburo والمكتب التنظيمى orgburo والأمانة .secretariat

وبوصفه أباراتشيك apparatchik[596] من نوعية أكبر الموظفين حينئذٍ، بدأ فى تأسيس سيطرته بمزيج من الصرامة الإدارية والمَكر الشخصى. فسرعان ما ثبّتَ الموالين له في المحليات، وفي مواقع مهمة في البوليس السرّي.

ثم جَهّزَ مجموعةً من كبار الموظفين عُرفوا باسم نومِنكلاتورا[597] nomenklatura، بحيث (كما قال ستالين فى مؤتمر الحزب الثانى عشر فى أبريل عام 1923) «يستطيع مَن يشغلون هذه المناصب تنفيذ التعليمات، وفَهْم تلك التعليمات، وقبول تلك التعليمات والدّفْع بها إلى حيّز التنفيذ»[611].

وقد منحته هذه الشؤونُ الإدارية سلطةً أكبر بكثير من مجرد الإشراف على نفقات المسؤولين؛ فصار «قِسْمُه السرّى»، المتوارى خلف أبواب مُصفّحة، وكالةً للاستدعاءات والتحقيقات الرسمية داخل الحزب. كما مَنَحَه نظامُ الهاتف الحكومى - vertutshka - ووحدةُ فكِّ شفرة التلغراف سيطرةً على الا

---

[595] الجولاج أو معتقل سيبيريا: معسكرات اعتقال سوفييتية للعمل الإلزامى والسُّخْرة، تعرّضَ المعتقلون فيها لأعنف أشكال القمع والتنكيل. يرجع تاريخها إلى عام 1918 بعد قيام الثورة البُلشفية التى فجّرَها لينين بمعاونة تروتسكى. صار الجولاج من معالم عصر ستالين الدموى. الكلمةُ اختصارٌ بالأحرف الأولى من كلمات «المديرية العامة للمعسكرات والمعتقلا ت» باللغة الروسية - المترجم.

[596] أباراتشيك: تشير الكلمة إلى موظف سياسى بيروقراطى فى الحزب الشيوعى بدوام كامل، وحتى هذا التاريخ كان يُعَدُّ الأباراتشيك من نوعية كبار الموظفين - المترجم.

[597] نومِنكلاتورا: فئة من الموظفين داخل الاتحاد السوفييتى يشغلون مناصب إدارية رئيسية فى مختلف مجالات النشاط، سواء فى الجهاز الإدارى الحكومى أو فى مجالات الصناعة والزراعة والتعليم وغيرها، باعتماد من الحزب الشيوعي - المترجم.

اتصالات، بما فيها سلطة التنصُت [التجسُس] على الآخرين.

ستالين - حاله من حال لينين - نتاجُ شبكةٍ ثورية سرّية. وقد نال نصيبَه من الضوائق والعُسْر حين كان شابًا يتآمر ضد نظام الحُكم القيصرى. إحدى سمات ديكتاتوريى القرن العشرين المميزة لهم أنهم - بسبب جذورهم السرّية - رأوا المؤامرات تُحَاك ضدهم فى كل مكان. الجواسيس والمُخرّبون المزعومون الذين أُدِينوا فى محاكمات علنية - مثل محاكمة شاختى[598] Shakhty Trial (1928) ومحاكمة الحزب الصناعى[599] Industrial Party Trial (1930) ومحاكمة مِترو فيكرز[600] Metro-Vickers Trial (1933) - كانوا ضحايا إجراءات قانونية زائفة لا حصر لها، وخارج نطاق القانون، بطريقة أكثر إثارةً ومَشْهديّة. لقد وَصَفَ نظامُ ستالين أقلّ تذمُرٍ بأنه خيانةٌ أو ثورةٌ مضادة، فأرسل جيوشًا كاملة من المواطنين السوفييت إلى الجولاج. وتُبَيّنُ الملفاتُ المتاحة الآن فى أرشيفات الدولة الروسية Russian State Archives كيف كان يعمل النظام. السيدة بيرنا كلاوودا Berna Klauda سيدة صغيرة السِّن من لينِنجراد Leningrad، وهى أقل من أن توصف بأنها عنصر هدّام. ومع ذلك، حُكِمَ عليها فى عام 1937 بعشر سنوات فى بيرم جولاج Perm Gulag بسبب تعبيرها عن مشاعر مناهضة للحكومة[612].

«التحريض ضد السوفييت» Anti-Soviet Agitation هو أقل الجرائم السياسية التى يُتّهَمُ بها أىٌ شخص. أما أخطر الجرائم فهى تهمة «النشاط

---

[598]محاكمة شاختى: أول محاكمة سوفييتية مهمة منذ قضية الحزب الاشتراكى الثورى عام 1922. ففى عام 1928 اعْتُقِلَتْ مجموعةٌ مهندسين من بلدة شاختى شمال القوقاز بتهمة التآمر مع مالكى مناجم فحم سابقين يعيشون فى الخارج لتخريب الاقتصاد السوفييتى. شكّلتْ محاكماتُ شاختى بدايةَ سلسلةٍ طويلة من الاتهامات ضد الأعداء الطبقيين داخل الاتحاد السوفييتى، وكانت بمثابة السمة المميزة للتطهير العظيم فى ثلا ثينيات القرن العشرين - المترجم.

[599]محاكمة الحزب الصناعى: المُتّهمون فيها مجموعة من العلماء والاقتصاديين و المهندسين السوفييت البارزين. اتُهموا بتشكيل «اتحاد منظمات المهندسين المُناهِضين للسوفييت» أو «الحزب الصناعى»، وحاولوا تدمير الصناعة وشبكة النقل داخل الاتحاد السوفييتى. وفى تطوُرٍ ذى صلة بالقضية قُبِضَ على عدد من الأعضاء البارزين فى أكاديمية العلوم الروسية - المترجم.

[600]محاكمة مِترو فيكرز: أزمة دولية عجّلت باعتقال سِتٍّ رعايا بريطانيين كانوا موظفين فى متروبوليتان فيكرز، وحاكمتهم السلطاتُ السوفيتية علانيةً بتهمة تدمير الاقتصاد و التجسُس. حظيت المحاكمة بتغطية صحفية دولية، وولّدَت انتقادات عامة واسعة النطاق بشأن انتهاكات مزعومة للعملية القانونية. أسفرت المحاكمة عن إدانة المتهمين وترحيلهم نهائيًا بعد ضغوط دبلوماسية مكثفة - المترجم.

المضاد للثورة» Counter-revolutionary Activity ؛ وأسوأها تهمة «النشاط الإرهابى المضاد للثورة» Counter-revolutionary Terrorist Activity ؛ وأما الأسوأ من كل ذلك فهى تهمة «النشاط الإرهابى التروتسكى» Trotskyist Terrorist Activity. بل إن الأغلبية الساحقة ممن حُكِمَ عليهم بارتكاب هذه الجرائم أذنبوا - إنْ عَدَدْناهم مذنبين - بارتكاب جُنَحٍ تافهة [وبسيطة]: التفوُّه بكلمة عن ستالين تحوّلت إلى نكتة سُمِعَتْ بالمصادفة؛ التشكِّى من أحد مظاهر النظام الشمولى، أما الأسوأ فهو اقتراف مخالفة اقتصادية تافهة ك «المضاربة» (شراء بضائع وإعادة بيعها). وبين كل أولئك المعتقلين لم يكن يوجد سوى قِلّة ضئيلة من السجناء السياسيين المعارضين بحقٍّ لنظام الحُكم؛ والأمر الذى له دلالة فى هذا السياق أن المتعلمين تعليمًا عاليًا أكثرُ قليلا ً من 1% من سجناء المعسكرات فى عام 1938؛ وثلثهم أُمِّيون. وبحلول عام 1937، وُجِدَتْ حصصٌ [كوتة] للاعتقالات، بالضبط كما وُجِدَتْ حصصٌ لإنتاج الفولاذ. كانت الجرائم تُؤلَّفُ بكل بساطة لتناسب العقوبات. صار السُّجناء مجرد مُخْرجات outputs، تتحدّثُ عنها ال«إن كيه فى دى»[601] NKVD[602] بوصفها «أرصدة» Accounts (السجناء الذكور) و«كتب» Books (السجينات الحوامل). فى ذروة نظام الجولاج، وُجِدَتْ 476 منظومة لمعسكرات الاعتقال تَوَزّعَتْ فى جميع أنحاء الاتحاد السوفييتى، يتكون كل منها من مئات المعسكرات المُفْرَدة. حوالى 18 مليون رجل وامرأة وطفل مَرُّوا عبر الجولاج، فى ظل حُكم ستالين. مع الوضع فى الحسبان أن ال 6 أو 7 ملايين مواطن سوفييتى الذين أُرْسِلوا إلى المنفى، وعدد السكان الذين جَرّبوا نوعًا من الأشغال الشاقة في ظل حُكم ستالين، قد اقترب من 15%[613].

لم يكن أحدٌ آمنًا. لقد استعمل لينين لأول مرة أسلوب «تطهير» الحزب بشكل دورى، للتخلص من «المتكاسلين ومثيرى الشغب والمغامرين ومُدْمِنى الخمر واللصوص»[614].

---

[601] مفوضية الشعب للشؤون الداخلية: مؤسسة سوفييتية جمعت بين أنشطتىْ الشرطة النظامية والشرطة السرّية، وعملت على التنفيذ المباشِر للإرادة السياسية السوفييتية بما فى ذلك القمع السياسى خلال عهد ستالين. كما أدارت المفوضيةُ نظامَ الجولاج الذى يشمل معسكرات الاعتقال والعمل القسْرى، فضلا ً عن قيامها بأنشطة تجسُّس وخطف واغتيال خارج حدود البلاد، والتأثير فى سياسات داخلية لدول أخرى وإرساء مبادئ الستالينية في الحركات الشيوعية داخل تلك الدول - المترجم.

[602] اختصار ل«مفوضية الشعب للشؤون الداخلية» Narodnyi Kommissariat Vnutrennikh Del. وقد أُعِيدَ تسميةُ الشيكا باسم GPU فى عام 1922، ثم إلى OGPU عام 1923. وفي عام 1934، صارت تُسَمّى اختصاراً NKVD - المؤلف.

أما ستالين، الذى لا يثق فى زملائه الشيوعيين، فقطع - بشكل قهرى - أشواطًا أبعد من ذلك بكثير. فلم تتعرض مجموعاتٌ للاضطهاد بلا رحمة - فى ثلا ثينيات القرن العشرين - أكثر مما تعرّضت له مجموعات البلاشفة القدماء[603] Old Bolsheviks الذين كانوا رفاقَ ستالين فى أيام الثورة والحرب الأهلية، الحاسمة. عاش كبار موظّفى الحزب فى حالة عدم أمان دائم، لا يعرفون متى يسقطون ضحايا لبارانويا ستالين.

اعْتُقِلَ أكثرُهم ولاءً للحزب وسُجِنوا بوصفهم أسوأ المجرمين. واتُّهِمَ المؤمنون المخلصون لعقيدة لينين بأنهم «هَدّامون» موالون للقوى الإمبريالية، أو بأنهم «تروتسكيون» يتحالفون مع أعداء ستالين اللدودين الخَرّايا المَنْفيين (وأولئك هم الذين نجح في قتلهم عام 1940).

ما بدأ بوصفه حملةً على مسؤولين فاسدين أو بلا كفاءة فى عام 1933، تصَاعَدَ بعد مقتل زعيم حزب لينِنجراد Leningrad Party، سيرجى كيروف[604] Sergei Kirov، فى ديسمبر عام 1934، إلى تطهير دموى دائم وتلقائى. قُبِضَ على الرجال والنساء الذين كانوا فى طليعة الثورة، واحدًا تلو الآخر، وواحدةً تلو الأخرى، فعُذِّبوا واستُجْوِبوا حتى دُفِعُوا إلى الاعتراف بإحدى «الجرائم»، ثم اتَّهَموا أقربَ رفاقهم، وفى النهاية قُتِلوا رَمْيًا بالرصاص. بين يناير عام 1935 ويونيو عام 1941، كان يوجد حوالى 20 مليون معتقل فى الاتحاد السوفييتى، نُفِّذَ الإعدامُ فى سبعة ملايين منهم على الأقل. وفى عام 1937 - 1938 وحده، بلغت حصة [كُوتة] «أعداء الشعب» الذين أُعْدِموا 356,105 شخصًا، رغم أن العددَ الفعلي لمَن فقدوا حياتهم أكثرُ من ضعف هذا العدد[615].

ومِن أعضاء اللجنة التنفيذية للأممية [الدولية] الشيوعية Executive

---

[603]البلاشفة القدماء: لقب يُطْلَقُ على أعضاء الحزب البُلْشفى الذين تمتعوا بعضويته قبل ثورة 1917، إذ كان لينين يَعْتبر انتماءَ المرء إلى «حرس الحزب القديم» شرفًا لا يضاهيه شرفٌ. ولكن ستالين أطاح بالكثير من أولئك البلاشفة القدامى فتعرّضوا فى عهده للمحاكمة والترحيل إلى معسكرات العمل القسْرى (الجولاج)، والإعدام بتهمة الخيانة العظمى على يد «المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية» NKVD إبان سنوات التطهير الأ عظم، وقضى بعضُهم الآخرُ نَحْبَه فى ظروف غامضة، أما أفضلهم حظًا فأُبْعِدَ عن الحكومة المركزية وعن البلاد بتعيينهم سفراء بالخارج - المترجم.

[604]سيرجى كيروف: (1886 - 1934)، صديق شخصى لجوزيف ستالين، وزعيم بُلْشفى بارز، ومسؤول فرع الحزب فى لينِنجراد. أُطلِقَ عليه الرصاصُ يوم 1 ديسمبر عام 1934 فى مكتبه. هناك اعتقاد شائع بأن ستالين وعناصر من «المفوضية الشعبية» وراء اغتياله، ولكن لم تثبت أدلةٌ على هذا. اتّخَذَ ستالين من اغتياله ذريعةً لتصعيد القمع وعمليات التطهير داخل الحزب التى وصلت ذروتها أواخر الثلاثينيات المعروفة باسم سنوات التطهير الأ عظم - المترجم.

Committee of the Communist International البالغ عددهم 394 عضوًا فى يناير عام 1936، سقط 223 ضحية الإرهاب [إرهاب النظام] بحلول أبريل عام 1938، كما سقط 41 من إجمالي 68 زعيمًا شيوعيًا ألمانيًا ممن فرُّوا إلى الا تحاد السوفييتي بعد عام 1933[605].

وما عَنَت «الرعايةُ العامة»، فى ذروة إرهاب ستالين، سوى انعدام أمان الحياة الشخصية انعدامًا كاملا ً. فلم يكن أحدٌ بقادر على الشعور بالأمان؛ بمَن فيهم كلُّ الرجال الذين يديرون ال«إن كيه ڤى دى» [مفوضية الشعب للشؤون الداخلية] NKVD. جِنريخ ياجودا[606] Genrikh Yagoda أُعْدِمَ رَمْيًا بالرصاص لأنه تروتسكى فى عام 1938؛ نيكولاى يزهوف[607] Nikolai Yezhov، خليفته فى المنصب، أُعْدِمَ رَمْيًا بالرصاص لأنه جاسوس بريطانى فى عام 1940؛ لا فرينتى بيريا[608] Lavrenti Beria أُعْدِمَ رَمْيًا بالرصاص بعد فترة وجيزة من وفاة ستالين. أما الذين نجوا من هذه الحياة «تحت تهديد السلاح» فلم يكونوا بالضرورة مُمْتَثِلين. لقد حالفهم الحظُّ ليس إلا. كان مِن بين أولئك المعتقلين 53 عضوًا من جمعية لينتجراد للصُّمِّ والبُكم Leningrad Society

---

[605] وهو عام وصول هتلر إلى السلطة في ألمانيا - المترجم.

[606] جِنيريخ ياجودا: (1891 - 1938)، سياسى وثورى شيوعى، شارك فى ثورة أكتوبر عام 1917، تقلَّدَ منصبَ مفوّض الشعب للشؤون الداخلية في الفترة من عام 1934 حتى عام 1936، ثم عددًا آخر من المناصب. فى عام 1937، أُقِيلَ ياجودا من جميع مناصبه الحكومية والحزبية، بتعليمات من ستالين لتقصيره فى عمله، وتمّ التحقيق معه فاعترف بأنه شارك فى عملية اغتيال كيروف وبأنه قاد تحالفًا تروتسكيًا يمينيًا بهدف إسقاط السلطة السوفييتية وإحياء الرأسمالية. وفى عام 1938، أُعْدِمَ ياجودا رمْيًا بالرصاص - المترجم.

[607] نيكولاى يزهوف: (1895 - 1940)، رئيس الشرطة السرّية التابعة لستالين، عُرِفَتْ فترتُه ب«عصر يزهوف» حيث تولى عملية «التطهير الأعظم». عُزِلَ من كل مناصبه بعد أن علم ستالين بتنفيذه عمليات تصفية خارج نطاق التعليمات. خضع يزهوف للتحقيقات بتهمة الخيانة العظمى والجاسوسية والإرهاب، واعترف بأنه نفّذَ عمليات إعدام لحسابه الشخصي. صدر عليه الحُكم بالإعدام رمْيًا بالرصاص - المترجم.

[608] لافرينتى بيريا 1899 - 1953، سياسى سوفييتى، تولى العديد من المناصب الحكومية والحزبية كرئاسة البرلمان ثم المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية.

لعب أدوارًا مهمة خلال الحرب العالمية الثانية. ثم أشرف على صُنْع القنبلة الذرية السوفيتية. صار بيريا، بعد وفاة ستالين فى مارس عام 1953، أحد أفراد «الترويكا» الحاكمة مع مالينكوف ومولوتوف اللذين دبّرا انقلابًا ضده فحُوكِم بتهمة الخيانة، وأُعْدِمَ في 23 ديسمبر عام 1953 - المترجم.

for the Deaf and Dumb. اتُّهموا بُهْتانًا وزُورًا بأنهم شكّلوا «تنظيمًا فاشيًا» وتآمروا مع الاستخبارات [الخدمة السرّية] الألمانية German secret service لتفجير ستالين وآخرين من أعضاء المكتب السياسى بقنبلة يدوية محلية الصُّنْع أثناء استعراض عسكرى للاحتفال بيوم الثورة Revolution Day فى السّاحة الحمراء Red Square. أُعْدِمَ أربعةٌ وثلاثون من أعضاء هذا التنظيم المزعوم رَمْيًا بالرصاص؛ أما بقيّتُهم فأُرْسِلوا إلى معسكرات الاعتقال لمدة عشر سنوات أو أكثر. والقصة الحقيقية أن مدير جمعيّة الصُّم والبُكم أبلغ عن أن بعض أفرادها يبيعون أدوات الزّينة فى القطارات المحلية لتحسين دُخولهم المتواضعة. أدّى هذا البلاغ الرسمى إلى تدخُّل «مفوضية الشعب للشؤون الداخلية». والمدير الذى أبلغ عنهم وَجَدَ نفسَه متورطًا بالتبعية فى مؤامرة مزعومة، وأُعْدِمَ رَمْيًا بالرصاص. فى السنة التالية، توصّلت «مفوضية الشعب للشؤون الداخلية» إلى أن التحقيق الأوّلى [الذى جرى بمعرفة البوليس المحلي] قد اعْتَوَرَته الشُّبهات. على إثر هذا، اعْتُقِلَ أفرادُ البوليس المحلي[616].

بحلول أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، حَوّلَ ستالين الاتحادَ السوفييتى إلى معسكر عبيد هائل، وهو نفسُه قائده. فقد أمكنه وهو جالس فى شرفة بيته الريفى فى سوتشى Sochi إملاء أمر يُرسَلُ تلغرافيًا على الفور إلى موسكو، فيَتحوّلُ إلى مرسوم رسمى، ثم يُوزّعُ على كل التسلسل الهَرَمى فى الحزب الشيوعى السوفييتى Soviet Communist Party، وإذا اقتضى الأمرُ يُوَزّعُ على الأحزاب الشيوعية فى الخارج. ولم يكن يجرؤ المسؤولون المحليون على تجاهل أمْره خوفًا من اكتشاف فشلهم فى تنفيذه لاحقًا، وهو ما سيُؤدِّى حتمًا إلى تعرُّضهم للتحقيق والملاحقة القضائية والإدانة، وربما الإعدام[617].

لقد تألّفتْ سلطةُ ستالين من ثلاثة عناصر متميزة: سيطرة كاملة على بيروقراطية الحزب، وسيطرة كاملة على الاتصالات - بشبكة تليفون الكريملين بوصفها محورًا مركزيًا - وسيطرة كاملة على البوليس السرّى الذى يديره رجالٌ يعيشون هم أنفسُهم فى خوف. ولم يتمكّن طاغيةٌ [مستبد] شرقى من ممارسة مثل هذه السلطة الشخصية الكاملة على إمبراطوريةٍ من قبل، حيث لم يستطع أيُّ تسلسل هَرَمِيٍّ سابق جَعْلَ المشاركة فى الشبكات غير الرسمية - بل الاشتباه في المشاركة - أمرًا خطيرًا على هذا النحو المُرْعِب.

مبدأ الزعيم [القائد]

بدأت الفاشية Fascism أيضًا بوصفها شبكةً، ولا سيما فى ألمانيا التى نما فيها الدّعْم الشعبي لهتلر Hitler نموًّا كبيرًا أثناء الكساد[609] Depression.

معظم أنظمة الحُكم الفاشية - استهلالا ً ب بنيتو موسولينى Benito Mussolini فى إيطاليا - بدأت بأن يُقلِّدَ الملكُ أو الأرستقراطيةُ شخصًا منصبًا ثم سرعان ما تتمركز السلطةُ حوله[610].

أما الاشتراكية القومية National Socialism فتُمثِّلُ حالةً مختلفة. إذ لم تقترب أيةُ أحزاب فاشية من تحقيق النجاح الانتخابى الذى حققه الا شتراكيون القوميون. الفاشيةُ من حيث التصويت الانتخابى ظاهرةٌ ألمانية غير متجانسة؛ عَزّزتها كلُ الأصوات الفردية التى أُدْلِيَ بها فى أوربا لصالح أحزاب فاشية أو أحزاب قومية متطرفة أخرى بين عامىْ 1930 و1935، و المذهل أن 96% منها للناطقين بالألمانية[618].

فى أعقاب التضخُم المفرط عام 1923، انجرف العديدُ من الناخبين بعيدًا عن أحزاب الطبقة الوسطى يمين الوسط ويسار الوسط، مُتحرّرين من وَهْم المساومات بين أصحاب المشروعات والعُمّال التى هيمنت على سياسة فايمار

---

[609] الكساد العظيم أو الكبير: أزمة اقتصادية بدأت مع انهيار سوق الأسهم الأمريكية يوم 29 أكتوبر عام 1929، المُسمّى «الثلاثاء الأسود». كانت لها آثارها المدمِّرة على معظم الدول تقريبًا، فانخفضت التجارة العالمية إلى ما بين النصف والثلثين، كما انخفض متوسط الدخل الفردى وعائدات الضرائب. وتأثرت الصناعات الثقيلة، وتوقفت أعمال البناء تقريبًا، كما تأثر المزارعون بهبوط أسعار المحاصيل إلى الثلثين تقريبًا. استمرت آثار الأزمة على امتداد عقد الثلاثينيات من القرن العشرين. كان من تداعيات الكساد العظيم اضطراباتٌ سياسية دفعت المواطنين اليائسين إلى تأييد أشكال من الديماجوجية وتأويلات ماركسية متطرفة - المترجم.

[610] الإشارة هنا إلى الإستراتيجية التى اتبعها موسولينى، الذى استغل مزاج الشعب الإ يطالى وحالته النفسية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، فقام أولا ً بتحويل الفاشية إلى حركة سياسية منظمة بعد اجتماع ميلانو 1919، ثم بعد دخوله البرلمان فى عام 1921 نجحت الفاشية فى تشكيل فرق مسلحة لإرهاب الفوضويين والاشتراكيين والشيوعيين، وهى الفرق التى تفرّع عنها لاحقًا تنظيم «القمصان السود». وبعد فشل الحكومة القائمة فى ضبط الشارع، لجأ الملك إلى موسولينى لتشكيل حكومة جديدة، فأصبح أصغر رئيس وزراء يوم 31 أكتوبر عام 1922. ومنذ هذه اللحظة بدأ موسولينى عملية تركيز السلطة حوله - المترجم.

Weimar. تكاثرت الأحزاب المُنْشقة splinter parties وجماعات المصالح الخاصة، وهى عملية انشطار بطيئة أرهصتْ بانفجار سياسى عام 1930، عندما قفز سهمُ التصويت للنازى Nazi إلى سبعة أضعاف ما كان عليه عام 1928. كما زادت عضوية الحزب بقدر أُسِّيٍّ مماثل. فى عام 1928، بلغت عضويةُ الحزب النازى [حزب العُمّال القومى الاشتراكى الألمانى] NSDAP، 96,918 عضوًا. وبحلول يناير عام 1933، زادت العضويةُ ثمانيةَ أضعاف إلى 849,009 عضوًا، ونَمَتْ بمُعَامِلٍ يقترب من الثلاثة فى العامين التاليين، لأن الا نتهازيين هرعوا إلى الانضمام إلى الحزب الفائز. استمرت عضوية الحزب فى النمو حتى نهاية الرايخ الثالث Third Reich، من 2.5 مليون فى عام 1935 إلى 5.3 مليون فى عام 1939، و7.1 مليون فى عام 1941 و7.3 مليون فى عام 1943، وأكثر من 8 مليون في مايو عام 1945.

وحذا نموٌ جمهور قُرّاء جريدة الحزب، «الرقيب الوطنى» Völkische Beobachter، حَذْوًا مماثلا ً. فبعد أن وصل عددُ القُرّاء إلى 330 ألف بحلول عام 1933، تجَاوَزَ مليون قارئ بحلول عام 1940، وبِيعَتْ ما يقرب من 1.7 مليون نسخة يوميًا في عام 1944[619].

على عكس الادعاءات القديمة بأن الحزب النازى هو حزب الريف، أو حزب الشمال، أو حزب الطبقة الوسطى، اجتذب الحزبُ تأييدًا حقيقيًا عبر ألمانيا وعبر الطيف الاجتماعى[611] social spectrum. ويفشل التحليلُ على مستوى الدوائر الانتخابية الرئيسية فى الإمساك بهذه النقطة، ويُبالِغُ فى إيضاح الفروق بين المناطق.

تكشف أكثر البحوث حداثةً، القائمة على أصغر وحدة انتخابية (القضاء[612] Kreis)، عن الاتساع الاستثنائي للتصويت للنازي[620].

ثمة خاصّة فركتيلية fractal quality تقريبًا فى الصورة التى تظهر، فكل دائرة انتخابية تُشبه الخريطةُ القومية نوعًا ما، إذ تتوزّعُ نقاط التأييد الساخنة فى جميع أنحاء البلاد (أولدنبرج فى سكسونيا السفلى Lower Saxony، وفرانكونيا العليا والوسطى Upper and Middle Franconia فى بافاريا، والأ جزاء الشمالية فى بادن Baden، والمنطقة الشرقية من بروسيا الشرقية East Prussia).

---

[611]الطيف الاجتماعى: يُقْصَدُ به التركيبة الاجتماعية من أعلاها إلى أدناها مرورًا بما بينهما - المترجم.

[612]القضاء: وجمعها أقْضية، أحد التقسيمات الإدارية فى ألمانيا، ويأتى فى المرتبة الثالثة بعد الولاية والمنطقة الإدارية وقبل البلدية - المترجم.

صحيحٌ أن الأماكن ذات التصويت النازى المرتفع نسبيًا تقع فى الأجزاء الوسطى والشمالية والشرقية، والأماكن ذات التصويت النازى المنخفض نسبيًا تقع فى الجنوب والغرب[621]؛ ولكن النقطة الأهم أن النازيين استطاعوا تحقيق نجاح انتخابى فى بيئة سياسية محلية تقريبًا، وتغطية الطيف الا نتخابى الألمانى بطريقة لم تحدث من قبل، أو لم تحدث منذ ذلك الحين. لم يختلف التصويت النازى بشكل يتناسب مع معدل البطالة أو حصة العُمّال فى السكان. فما يصل إلى الخُمْسَيْن من عدد الناخبين النازيين فى بعض الدوائر كانوا طبقةً عاملة، الأمر الذى أدّى إلى ذُعْر القيادة الشيوعية. وكان العائق المهم الوحيد أمام زيادة التصويت النازى هو المرونة الأكبر نسبيًا لدى حزب الوسط الكاثوليكى Catholic Centre، مقارنةً بالأحزاب التى يؤيدها البروتستانتيون الألمان German Protestants حينئذٍ[622].

وباختصار، كانت الاشتراكية القومية National Socialism حركةً، وقد استطاع هتلر بزعامته الكاريزمية أن ينشرها فيروسيًا بين عامىْ 1930 و 1933. فبدا الأمر، بالنسبة إلى العديد من المُعلِّقين، شبيهًا بصحوة دينية. وكما أوضح ضابطٌ برتبة رقيب من كتيبة العاصفة[613] Sturmabteilung:

«يرتكب خصومنا... خطأً جوهريًا عندما يُساووننا بوصفنا حزبًا بالحزب الا قتصادى Economic Party أو بأحزاب الديمقراطيين أو الأحزاب الماركسية. فكل هذه الأحزاب ليست سوى مجموعات مصالح، تفتقر إلى الروح والروابط الروحية. لقد ظهر أدولف هتلر بوصفه حاملَ دينٍ سياسيٍّ جديد»[623].

لقد طوّرَ النازيون نوعًا طقسيًا من الوعى بالذات، من ملامحه مثلا ً يوم 9 نوفمبر (تاريخ ثورة 1918، وانقلاب بيير هول Beer Hall الفاشل عام 1923) بوصفه يوم الحداد Day of Mourning، الذى اكتمل بالحرائق وسُحُبِ الدخان والمذابح وبقايا ملطخة بالدماء وحتى كتاب شهداء النازى. أما المنضمُّون إلى نُخْبَة شوتزشتافل [وحدات إس إس][614] Schutzstaffel (SS) فيجب عليهم تـ

---

[613]كتيبة العاصفة: جناح شِبْه عسكرى للحزب النازى. لعبتْ دورًا رئيسيًا فى صعود هتلر إلى قمة السلطة. كانت تُكِنُّ عداءً شرسًا لليهود والشيوعيين والرأسماليين وتُمارس العنفَ ضدهم. سُمِّىَ أفرادُ الكتيبة باسم «أصحاب القمصان البنية» نسبةً إلى لون زيّهم العسكرى. أنهى هتلر دورَهم عام 1934 فيما عُرِفَ بـ«ليلة السكاكين الطويلة» أو «عملية الطائر الطنّان» أو ما يُعْرَفُ بالألمانية «روم بوتش»، وهى عملية تطهير نَفّذَ فيها النظامُ النازى سلسلةً من الإعدامات السياسية، وكان معظم القتلى من أصحاب القمصان البُنِّية - المترجم.

[614]شوتزشتافل أو وحدات إس إس: تنظيم تابع للحزب النازى الألمانى، أُنْشِئ عام 1925، وكُلِّفَ بحماية هتلر. وفى عام 1926، وُضِعَ التنظيمُ تحت إمْرَة الجناح العسكرى للحزب النازى المعروف بقسم «الهجوم»، ثم فى عام 1939 أصبحت وحداتُ إس إس شِبْهَ

لاوة التعاليم الشفوية الآتية:

«نحن نؤمن بـالله، نحن نؤمن بألمانيا التى خلقها الله... وبالفوهرر Führer... الذي أرسله الله لنا»[624]..

لم يكن الأمر مجرد حلول هتلر محلّ المسيح، صراحةً تقريبًا فى أيقونية «العبادة البُنِّيّة»[615] وطقسها الدينى. وكما قالت مجلة «الفيلق الأسود» Das Schwarze Korps، الناطقة باسم شوتزشتافل [وحدات إس إس]، يجب أن يذهب أساسُ المسيحية الأخلاقي أيضًا:

«عقيدة الخطيئة الأصلية Original Sin الغامضة... بل تصوُّرُ الخطيئة بأكمله كما تقدِّمه الكنيسة... شىءٌ لا يُطاق بالنسبة إلى رجل من العِرْق النُّورْدى[616]، لأنه لا يتوافق مع أيديولوجية سُلالتنا البطولية»[625].

وقد أدرك خصوم النازية أيضًا طابع الحركة شِبْه الدينى. وكما قال الكاثوليكى الفارّ إيريك فوجلين[617] Eric Voegelin، كانت النازيةُ «أيديولوجيا أقرب إلى بِدْعة فداء مسيحية هنا والآن... مخلوطة بمذاهب ما بعد التنوير المتعلقة بـ التغيير الاجتماعى». ووَصَفَ الصحفىُّ كونراد هايدن Konrad Heiden هتلرَ بأنه «جزء نقى من الروح الجماهيرية الحديثة»، تنتهى أحاديثه دائمًا بـ «بهجة فداء غامرة». كما وَصَفَ أحدُ الديمقراطيين الاشتراكيين نظامَ الحُكم النازي بأنه «مناهِضٌ للكنيسة»[626].

ولكن النازية لم تكن دينًا بالمعنى الحرفى؛ لأن بذورها المؤسّسية التى نبتت منها هى شبكة الحياة العَلْمانية الجماعية [الترابطية] الموجودة فى ألمانيا. كلما كانت الحياةُ الجماعية أكثفَ في بلدة، نما الحزبُ النازي أسرع[627].

عسكرية مستقلة تضطلع بمهام بوليسية. حُظِرَ التنظيمُ فى عام 1945، واعتُبِرَ إجراميًا للدور الذي قام به في الهولوكوست - المترجم.

[615] العبادة البُنِّية: الإشارة إلى كتيبة العاصفة الجناح شِبْه العسكرى للحزب النازى، وسُمِّى أفرادها بـ«أصحاب القمصان البنية» بسبب لون زيّهم العسكري - المترجم.

[616] النُّورْديّة nordicism: أيديولوجية عِرْقية تنظر إلى أهل الشمال بوصفهم مجموعة متفوقة عِرْقيًا. شاعت هذه الأيديولوجية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى شمال غرب أوربا ووسطها وشمالها، وتم اعتناقها فى ألمانيا بوصفها تيوتونية teutonism - المترجم.

[617] إيريك فوجلين: (1901 - 1985)، فيلسوف سياسى أمريكى من مواليد ألمانيا، أستاذ مساعد العلوم السياسية فى جامعة فيينا. هرب إلى الولايات المتحدة بعد دخول القوات النازية إلى فيينا - المترجم.

صار الحزب النازى، كالكنيسة والحزب البُلشفى قبله، أكثر هَرَميّةً كلما نما. فمنذ كتاب «كفاحى» Mein Kampf، آمَنَ هتلر إيمانًا قويًا ثابتًا بمبدأ الزعيم Führerprinzip، وتعلّم أتباعُه «العملَ من أجل الفوهرر [الزعيم] Führer». على قمة الرايخ الثالث Third Reich وَقَفَ هتلر نفسُه؛ تليه نُخْبةُ ضبّاط برتبة ملا زم [ليفتنانت] محلّ ثقة:

رجال من أمثال مارتن بورمان Martin Bormann، وجوزيف جوبلز Joseph Goebbels، وهاينريك هيملر Heinrich Himmler.

ثم يأتى الجولايْتر [زعيم الحزب النازى فى الفرع الإقليمى] Gauleiter، وهم الزعماء الإقليميون الخاضعون للقادة الوطنيين، المسؤولون عن الأقاليم التى تحتل نفس مكانة الولايات الألمانية؛ ثم الكرايْسلايْتر [زعيم المقاطعة] Kreisleiter المسؤول عن مدن كاملة أو مناطق حواضرية [ميتروبوليتانية]؛ ثم أورتسجروبنلايْتر Ortsgruppenleiter وشتوتزبونكتلايْتر Stützpunktleiter وهما زعماء مجموعات محلية.

ويأتى فى أسفل التسلسل الهَرَمى زيلينلايْتر Zellenleiter (قادة الخلايا) وبلوكلايْتر Blockleiter (قادة الأحياء). واعتبارًا من عام 1936، كان يوجد 33 جولايتر، و772 كرايسلايتر، و21,041 أورتسجروبنلايتر وشتوتزبونكتلايتر.

وبحلول عام 1943، ازدادت الأعدادُ نوعًا ما، نتيجة توسُّع الرايخ، إلى 43 جولا يتر، و869 كريسلايتر، و26,103 أورتسجروبنلايتر، و106,168 زيلينلايتر، وما يقرب من 600 ألف قائد مجموعات أحياء[628].

ولكن من الخطأ التفكير فى ألمانيا زمن هتلر بوصفها مجرد هَرَمَ حزبى بـ الطريقة التى كان عليها الاتحاد السوفييتى زمن ستالين. فحيث كان ستالين يُفضِّلُ أسلوبَ السيطرة الوسواسى القهرى، فَضّلَ هتلر أسلوبًا فى الحُكم أكثر فوضويةً chaotic، تنافَسَ من خلاله التسلسلُ الهَرَمىُّ القديم لحكومة الرايخ مع التسلسل الهَرَمى الجديد للحزب، ثم لاحقًا مع التسلسل الهَرَمى الأحدث في خدمة الأمن (Sicherheitsdienst) Security Service.

وقد وَصَفَ المؤرّخون النظامَ بأنه «فوضى بوليكراتية» [فوضى كثرة المسؤولين] polycratic chaos، فأدّت الأوامرُ المبهمة وتداخُلُ الاختصاصات إلى «راديكالية متصاعدة»، أثناء تنافس الأفراد والهيئات على تنفيذ ما اعتبروه رغبات الفوهرر. كانت النتيجةُ خليطًا من عدم الكفاءة والفساد الفاضح وتصاعُدِ العنف ضد كل المجموعات التى اعْتُبِرَتْ خارج «الجماعة العِرْقية» - فوكسجُماينشافت [جماعة الشعب الألمانى أو المجتمع الوطنى الأ لماني] Volksgemeinschaft - ولا سيما اليهود.

38

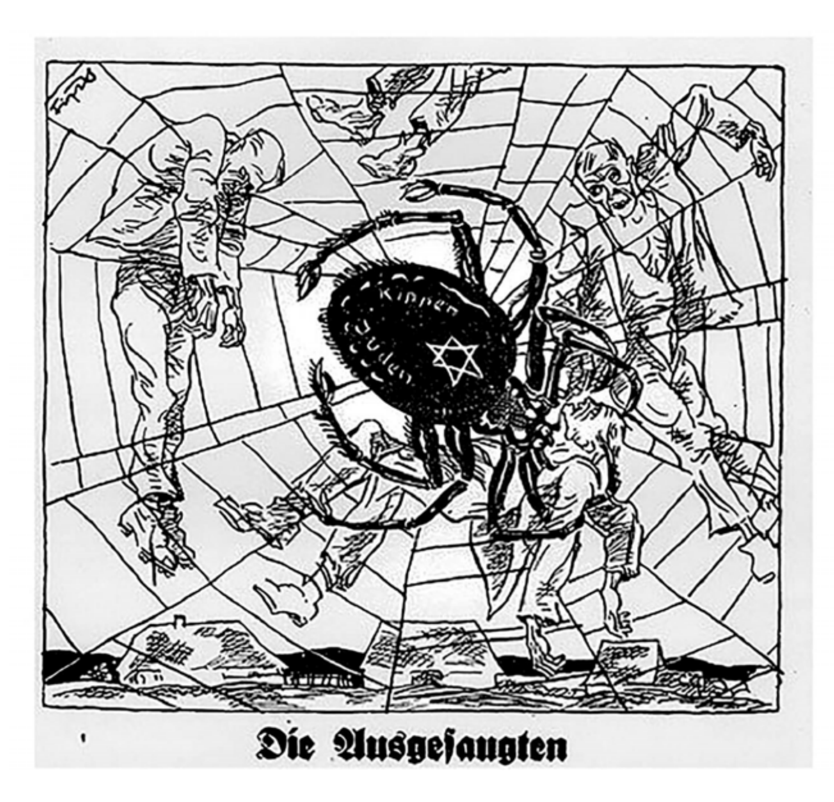
سقوط دولية الذهب

لم تكن معاداة هتلر للسامية شيئًا مبتكرًا. فقد ازدهرت النازية بسهولة فى بلدات صغيرة متشيّعة بتراث عنيف فى معاداة السامية يرجع إلى القرن الرابع عشر[629].

وفى الآونة الأخيرة، كما رأينا، وَجّه الشّعْبويون من اليسار واليمين نيرانَهم بانتظام إلى ما يُسَمّى قوة المال اليهودى المفرطة طوال القرن التاسع عشر، ليس فى ألمانيا فقط. فعلى كلا جانبىْ الأطلنطى، قبل فترة طويلة من عام 1933، سادت نظرياتٌ عنصرية بشأن دُونيّة اليهود أو شَنَاعَتِهم. لكن الجديد الذى جاء به هتلر هو القسوة التى مُورسَتْ بها كراهيةُ اليهود حتى النهاية المريرة المُتمثِّلة في الإبادة الجماعية[630].

ومع ذلك، وقبل فترة طويلة من مناقشة القتل الجماعى بوصفه احتمالاً داخل القيادة النازية، كشَفَ النظامُ الحاكم عن مفارقة. فعلى الرغم من المزاعم المتكررة فى الدعاية النازية القائلة بأن ألمانيا عانت من نَهْب «دولىٍّ للذهب» قام به المَصْرفيون اليهود المتحالفون، بطريقة غامضة ما، مع «البُلْشفية» الدولية الشيوعية «اليهودية» «Jewish Bolshevism» of the Communist Internationa[631]، استطاع نظامُ الحُكم النازى سَلْبَ النُخْبة اليهودية الألمانية ومصادرتها بسهولة كبرى. العنكبوت العملاق الذى استولى عليه النازيون من الشّعْبويين الأمريكيين فى تسعينيات القرن التاسع عشر، ظهر تهديدًا واضحًا على الصفحة الأولى فى جريدة «دير شتورمر» [المهاجم] Der Stürmer، يرتشف دماءَ الحياة من شرايين العُمّال الألمان البائسين الواقعين فى أحابيل شبكة اليهود (انظر الشكل 24).

لكن هتلر تمكّنَ من سَحْقه بكعْبِ حذائه. أحد انتصارات الدعاية النازية أنها حافظت على إيمان الألمان العاديين بوجود مؤامرة يهودية قوية، تستطيع إشعالَ الحرب[632]، فى الوقت نفسه الذى تتحدث فيه باستمرار عن واقع الضّعْف اليهودي.



الشكل رقم: 24 - المَصّاص die Augesaugten. كاريكاتير قومى اشتراكى يُصَوّرُ عنكبوتًا يهوديًا عملاقًا، يَمُصُّ دماءَ الشعب الألماني حتى يتركه ذاويًا.

نُشِرَ في الصفحة الأولى من جريدة «دير شتورمر»، العدد 8، فبراير 1930.

لم تقل نظرية المؤامرة إن اليهود لعبوا دورًا رائدًا فى الاقتصاد الألمانى منذ ث لاثينيات القرن التاسع عشر حتى ثلاثينيات القرن العشرين. ولكنهم لعبوا هذا الدور. فى عالم مقتصر على خدمات مَصْرفية خاصة، لمعت أسماء من أمثال فاربورج Warburg، وآرنهولد Arnhold، وفريدلِندر فولِدز Friedländer - Fulds، وزيمون Simon، وفاينبرج Weinberg، فكانت الأكثر تميزًا. ومن البنوك المساهمة دويتش بنك [البنك الألمانى] Deutsche Bank الذى أداره أوسكار فاسرمان Oskar Wassermann، وبنك دِرسدنر Dresdner Bank الذى أداره هربرت جوتمان Herbert Gutman، بينما سيطر على بنك شركة برلين التجارية Gesellschaft-Berliner Handles كارل فورستنبورج Carl Fürstenburg حتى وفاته عام 1933. أما بنك دارمشتات والبنك الوطنى Darmstädter und Nationalbank (المعروف اختصارًا ب«دانات بنك» Danat - Bank)، الذى أشهر إفلاسه عام 1931، فكان يُديره طوال عشرينيات القرن العشرين يعقوب جولدشمِت Jakob Goldschmidt. ولم يقتصر النفوذ اليهودى على المال. فقد حملت المحلات التجارية الرائدة فى ألمانيا أسماء يهودية مثل فيرتهايم Wertheim وتيتس Tietz[633]. شركة الهندسة الكهربية

Emil الرائدة أسّسها إميل راتناو Gesellschaft-Allgemeine Elektricitäts .Rathenau

كما وُجِدَ العديدُ من أثرياء اليهود الألمان الأقل شهرةً. قبل الحرب العالمية الأ ولى، بينما كانت نسبة اليهود فى السكان الألمان أقل من 1%، بلغ اليهودُ أكثرَ من خُمْس المليونيرات البروسِّيين[634].

الأكثر من هذا، تواجَدَ اليهودُ بكثرة فى مجالس إدارة الشركات الألمانية. ففى عام 1914، كان حوالى 16% من أعضاء مجالس إدارة الشركات العامة الأ لمانية من أصول يهودية، وارتفعت النسبة إلى الرُبْع فى مركز شبكة الشركات، حيث حاز الأفراد ثلاثة مناصب أو أكثر فى مجالس الإدارة. وأكثر من ثلثى الشركات الألمانية الكبيرة كان لديها مدير يهودي واحد على الأقل[635].

ويمكن التدليل بالطريقة نفسها بخصوص القمم العقلية فى الحياة الأكاديمية والفكرية الألمانية، حيث برز اليهود واشتهروا. الاستثناء الواضح كان فى الحياة السياسية، إذ استمر اليهود فى القيام بدور الحد الأدنى. وكما أشار هوجو فالنتين Hugo Valentin في عام 1936:

فى المجالس الوزارية العشرين التى تشكّلت منذ عام 1818 حتى عام 1933، كان يوجد وزيران يهوديان... وأربعة من أصل يهودى... من حوالى 250 وزيرًا... ومن أصل حوالي 250 من أكبر المسؤولين فى وزارات الرايخ، بما فيها وزارات الخارجية وأعضاء المجالس الحكومية، كان يوجد قبل انتصار هتلر خمسة عشر يهوديًا أو رجلا ً من أصول يهودية على الأكثر. عدد وزراء الخارجية اليهود فى الإدارة بين عامىْ 1918 و1933 كان اثنين فقط. ومن أصل حوالى 300 من أكبر المسؤولين فى الوزارات البروسِّية وُجِدَ عشرةُ يهود أو من أصول يهودية. ومن اثنى عشر رئيس مقاطعة Oberpräsidente فى بروسيا، وخمسة وثلاثين حاكمًا Regierungspräsidente، وأكثر من 400 مجلس محلى Landräte... لم يوجد يهودىٌ واحد... ومن بين كل المسؤولين الحكوميين فى ألمانيا [عام 1925] وُجِدَ 0.16% يهودًا؛ ومن بين كبار المسؤولين 0.29% يهودًا؛ ومن بين المسؤولين فى الدرجات الوسطى و الدنيا 0.17% يهودًا[636].

لماذا برز اليهود إذن فى الحياة الاقتصادية الألمانية؟ ألمجرد أنهم أفضلُ تعليمًا فى المتوسط؟ أكانت تمَرْكزيّتُهم الملموسة فى شبكة الشركات الألمانية الكثيفة ذات مجالس الإدارة المتشابكة انعكاسًا، بكل بساطة، لفَرْط تواجدهم فى الصِّرافة، التى أدّت بدورها إلى مناصبهم المتعددة فى مجالس الإدارة؟ أم وُجِدَتْ ميزةٌ خاصة للانتماء إلى جماعة راسخة فى الدين والتراث، الأمر الذى أدّى إلى مستويات ثقة و«اندماج اجتماعى» أعلى؟ يقول باول فيندولف Paul

Windolf في تحليله الرائع لشبكة الشركات الألمانية أوائل القرن العشرين:

لقد اندمج المديرون اليهود وغير اليهود على حد سواء فى تلك المؤسسة الرأسمالية التعاونية («Germany Inc.»). فلم يُنْشِئِ الأفرادُ اليهودُ شبكةً خاصة بهم منفصلة عن شبكة الشركات الإجمالية. وارتبط اليهود وغير اليهود مع بعضهم البعض من خلال مقاعدهم فى مجالس إدارة الشركات الكبيرة. فاندمجا كلاهما فى هذه الشبكة... ورغم وجود اتجاه واضح إلى الاقتصار على المُمَاثِل homophily، ارتبط اليهودُ بغير اليهود أكثر من ارتباطهم بأفراد جماعتهم في المتوسط [637].

تُجْبِرُنا البياناتُ على التراجع عن التفسيرات الأغمض، مثل علم الوراثة أو فوائد التعليم فى حياة العائلة اليهودية أو وجود نوع من «الأخلاق اليهودية» - وفقًا لماكس فيبر Max Weber - أكثر انسجامًا مع روح الرأسمالية من الأخلا ق البروتستانتية. فهذه الحجج تبدو إشكالية أيضًا، ولا سيما أن تزاوج اليهود فى ألمانيا فايمار Weimar Germany من يهود آخرين كان يقلُ تدريجيًا. ففى ألمانيا بصفة عامة، ارتفعت نسبة زواج اليهود من خارج دينهم من 7% عام 1902 إلى 28% بحلول عام 1933. ووصلت إلى أكثر من الثلث فى عام 1915[638]. (النِّسَبُ المئوية المماثلة فى الولايات المتحدة بلغت حوالى 20% في خمسينيات القرن العشرين و52% عام 1990)[639].

ومع أن هامبورج وميونيخ شهدتا أعلى معدلات تزاوج [من خارج الدين]، كانت الأرقام أعلى من المتوسط أيضًا فى برلين وكولونيا Cologne ومدن سكسونية مثل دِرِسْدِن Dresden ولايبزيج Leipzig، بالإضافة إلى بريسلاو Breslau في سيليزيا Silesia[640].

وعندما جمع آرثر روبين[618] Arthur Ruppin بيانات عن مدن أوربية أخرى، لم يجد سوى تِرْيَسته Trieste [شمال شرق إيطاليا] التى حققتْ أعلى معدل تزاوج [خارجى]. ورغم الارتفاع النسبى، تخلّفت المعدلاتُ فى لينَنجراد وبودابست وأمستردام وفيينا عن المعدلات في المدن الألمانية الرئيسية[641].

فمن بين 164 ألف يهودى ظلوا فى ألمانيا عام 1939، كان يوجد 15 ألف شركاء فى زيجات مختلطة[642]. وعندما عَرّفَ النازيون الأطفالَ الناتجين عن الزواج المختلط بأنه هجين Mischlinge، قدّروا أعدادَهم بما يقرب من 300 ألف طفل، مع أن الرقم الحقيقى يقع بين 60 ألف و125 ألف[643]. الأقليات التى

---

[618] آرثر روبين: (1876 - 1943)، عالِم اقتصاد واجتماع ألمانى يهودى التحق بالمنظمة الصهيونية عام 1905، وطُلِبَ منه الذهاب إلى فلسطين لبحث حالة الاستيطان هناك. بعد هذه الرحلة، كرّس كلّ جهوده لتطوير المستوطنات اليهودية - المترجم.

عانت من الاضطهاد لم تُسْتَوْعَبْ اجتماعيًا وجنسيًا من قَبل كما حَدَثَ لليهود ا لألمان عام 1933.

عقب وصول هتلر إلى السلطة، شعر بعض اليهود الألمان بأنهم عالقون فى شبكة اضطهاد، أحيانًا، بل كانوا - فى حقيقة الأمر - ضحايا عدة قوى بيروقراطية مُهَيْكلة هَرَميًّا، ومتنافسة أحيانًا[644].

بدأ [ذلك] بمقاطعة المشاريع التجارية اليهودية، التى حَرّضتْ عليها منظمةُ خ لايا المشروع النازى Nazi Enterprise Cells organization (Nationalsozialistische Betriebszellenorganisation)، وتحالُف موظفى الطبقة الوسطى والحِرَفيين Class Employees and-League of Middle Artisans (Kampfbund für den gewerblichen Mittlestand)، وقطاعات من قسم الهجوم [الجناح العسكري في الحزب النازي] SA [645].

فى هذه المرحلة الباكرة، استُثنيت من حملة الهجوم المشروعات التجارية الكبرى مثل متاجر تيتس Tietz لتجنُّب حدوث اضطراب اقتصادي[646].

وتقدّمت ببطء أيضًا عمليةُ آرْيَنَة Aryanization الشركات اليهودية [جَعْلها ألمانية][647].

تُبَيّنُ تجربةُ المَصْرفى الهامبورجى ماكس فاربورج Max Warburg مأزقَ النُّخْبة التى انتمى إليها. لقد اعتقد اليهود أنهم جزءٌ لا يتجزأ أبدًا من نُخْبة الأ عمال والمشروعات الألمانية. وعندما أذعن الأفراد غير اليهود فى تلك النُّخْبة لاستبعاد اليهود، لم يكن يوجد ما يمكن أن يفعلوه. الاجتماع الأخير الذى حضره فاربورج بوصفه مدير خط الشحن البحرى هامبورج - أمريكا، المشروع الذى أسّسه يهودى آخر هو ألبرت بالين Albert Ballin، اكتنفه صمتٌ مُحْرِج، عندئذٍ تحدّث فاربورج نيابةً عن أعضاء مجلس الإدارة شاكرًا نفسَه على سنوات خدمته ومتمنيًا لنفسه «شيخوخة هادئة، وحظًا سعيدًا، ونِعمًا وبركاتٍ» مع عائلته[648].

وحتى بعد المذابح المنظمة يوم 11 نوفمبر عام 1938، لم تبدأ عملية المصادرة بجدية إلا مع حظر هيرمان جورينج[619] Hermann Göring الرسمى على كل النشاط التجارى اليهودى فى الرايخ[649]. فاليهود الألمان، المسموح لهم بالهجرة، وجدوا أنفسَهم مجزوزين بشكل مُمَنْهَج من قبل السلطات فصُودِرَتْ كلُّ ممتلكاتهم تقريبًا قبل استلام تأشيرات الخروج[650]. ومنذ الأول من يناير

---

[619]هيرمان جورينج: (1893 - 1946)، قائد عسكرى نازى ومؤسِّس الجهاز السرّى (الجستابو) ، وقائد قوات الطيران خلال الحرب العالمية الثانية. بعد هزيمة ألمانيا، أُدين فى محاكمات نورنبيرج بالإعدام. انتحر قبل تنفيذ الحُكم - المترجم.

عام 1939، طُولِبَ اليهودُ بإضافة اسم «إسرائيل» (للذكور) أو «سارة» (للإناث) إلى أسمائهم الأولى، إذا لم تظهر أسماؤهم فى القائمة الرسمية التى تتضمن ا لأسماء «اليهودية المعتادة» والتى أصدرتها وزارة الداخلية. وتزايدَ وَضْعُ اليهود تحت رحمة الجستابو[620] Gestapo، الذى بدأ عملية جَمْعهم معًا فيما يُسَمّى يُودِنهاوزر [منازل يهودية] Judenhaüser[651].

وقبل سبعة أشهر من اندلاع الحرب، فى يوم 30 يناير عام 1939، أوضح هتلر بطريقة مثيرة للرعب ما سيكون عليه مصيرُ اليهود، فى خطاب ألقاه أمام الرايخستاج [البرلمان الألمانى] Reichstag، حدّدَ فيه معالِمَ النظرية التى أقام عليها مُعاداته للسامية:

لمئات من السنين كانت ألمانيا كريمة بما يكفى لاستقبال هذه العناصر [اليهود]، رغم عدم امتلاكهم شيئًا سوى أمراض سياسية وجسدية مُعْدِية. وما يملكونه اليوم امتلكوه بالتربُّح على حساب الأمة الألمانية الطيبة بتلاعبات مقيتة في السوق.

واليوم، نحن لا نسترد سوى حق هذا الشعب... فالأمة الألمانية حُرِمَتْ من جميع مُدّخراتها المتراكمة على مدى سنوات من العمل الصادق الدؤوب، بسبب التضخُّم الذى دَفَعَ إليه اليهودُ ونقّذوه... وقد انتهينا إلى تقرير مَنْعِ توطين شعب غريب فى بلدنا، انتزع لنفسه جميعَ المواقع القيادية فى البلاد، وطَرْدِه... الثقافة الألمانية، كما يُبيّنُ اسمُها وحده، هى ألمانية وليست يهودية، ولهذا سيُعْهَدُ بإدارتها والعناية بها إلى أفراد من أمتنا...

فى العالم مساحةٌ كافيةٌ للمستوطنات، ولكن يجب علينا فى الوقت نفسه، ورغم كل شيء، التخلُّص من الرأى القائل بأن العِرْق اليهودي لم يخلقه الله إلا بغرض الحياة الطفيلية، بنسبة معينة، فى جسد الأمم الأخرى وعملهم الإ نتاجى. سيتوجّب على العِرْق اليهودى أن يُكيّفَ نفسَه وفق النشاط الإنتاجى السليم كما تفعل الأمم الأخرى، أو سيخضع عاجلا ً أم آجلا ً لأزمة مَهُولَة لا تُتَصوّر.

شيء واحد أودُّ قولَه فى هذا اليوم الذى قد لا ينساه آخرون، ولن ننساه نحن الألمان: فى مسيرة حياتى كنتُ مُلْهَمًا، وعادةً ما كان يُسْخَرُ من ذلك. وأثناء فترة كفاحى من أجل السلطة كان العِرْق اليهودى فقط هو الذى يستقبل

---

[620] الجستابو، أو البوليس السرّى الألمانى، أو شرطة الدولة السرّية: تأسّسَ يوم 26 أبريل عام 1933 فى بروسيا، تكوّنَ من ضباط الشرطة المحترفين، ومهمته حماية الدولة وتشكيل قوة ضاربة لمن يتربص بأعمال تخريبية أو تجسُّسية أو خيانة. تحرّكَ حُرًّا بمعزل عن أي مساءلة قانونية. وتولّى أفراده عمليات اغتيال عديدة - المترجم.

نبوءاتى بالتهكم عندما كنتُ أقول إنى سأتولى، ذات يوم، قيادةَ الدولة وقيادةَ الأمة كلها، وعندئذٍ سأصَفِّى المشكلةَ اليهودية ومشكلات أخرى عديدة. وكان تهكمهم صاخبًا، ولكننى اعتقدتُ لبعض الوقت أنهم كانوا يتهكمون على الجانب الآخر من وجوههم. واليوم، سأكون مُلهَمًا مرةً أخرى: إذا نجح المُمَوّلون اليهود الدوليون فى أوربا وخارجها فى إدخال الدول مرةً أخرى فى حرب عالمية، فلن تكون النتيجةُ عندئذٍ بَلشفةُ الأرض وانتصارًا يهوديًا، بل إبادة العِرْق اليهودي في أوربا![652].

لم يكن آل روتشيلد - قبل فترة طويلة - العائلةُ الأغنى فى العالم، ولكنهم ظلوا أشهرَ السلالات اليهودية، أشهرَ بما يكفى لأن يُخصِّص لهم جوزيف جوبلز Joseph Goebbels، وزير الدعاية الألمانى، فيلمًا كاملا ً عنهم. لكن القوة التى نَسَبَها النازيون إليهم ثَبَتَ أنها هَشّةٌ حقًا. فى ألمانيا (حيث توقف البنك منذ فترة طويلة عن أن يكون له فرع)، تمت آرْيَنَة أصول آل روتشيلد[653].

وصُودِرَتْ ممتلكاتُ القِلّة من أفراد العائلة الذين لا يزالون مقيمين فى ألمانيا، بما فيها منزل العائلة التاريخى فى شارع بوكينهايمر لاندشتراس [الطريق السريع] Bockenheimer Landstrasse الذى كان أول العقارات التى اشتراها روتشيلد، عقب تحرير اليهود منذ أكثر من قرن. وبعد ضَمّ ألمانيا للنمسا مباشرةً فى عام 1938، اعْتُقِلَ لويس فون روتشيلد Louis von Rothschild - كبير عائلة فيينا - واقْتيد إلى مقر الجستابو فى فندق متروبول Hotel Metropol[621].

ثم شُوهِدَ رجالُ وحدات إس إس SS وهم ينهبون الأعمال الفنية من محل إقامته الفخم بعد اعتقاله مباشرة تقريبًا[654]. ووُضِعَتْ شركة إس. إم. فون روتشيلد S. M. von Rothschild تحت إدارة الدولة، ثم بِيعتْ لاحقًا إلى بنك ميرك وفينك وشركاه Merck, Finck & CO. وكان من الأصعب بالنسبة إلى الألمان الاستيلاءُ على مصنع الحديد الضخم فيتكوفيتس Witkowitz الذى أسّسه روتشيلد، لأنه كان على الأراضى التشيكية ونُقِلَتْ مِلكيته إلى شركة British Alliance Assurance، لكن هذا العائق زالَ بعد تقسيم تشيكوسلوفاكيا عام 1939، وهو ما جعل الأعمال والمشروعات تحت رحمة الحُكم الألماني المباشر[655].

وفى كل مرة غزت فيها فيالق هتلر إحدى دول أوربا، أفسحت شرعيةُ المصادَرة الزائفة، فى زمن السِّلم، المجالَ أمام نهب بلا كابح. فتمّ الاستيلاء

---

[621]بُنِى الفندقُ فى النمسا بين عامىْ 1871 و1873. ثم اتخذه النازى مقرًا رئيسيًا للجستابو، ودُمِّر خلال الحرب العالمية الثانية - المترجم.

على مجموعة روتشيلد الفنية الواحدة تلو الأخرى، وعلى قَصْرٍ بعد الآخر. وكان المُنظِّر العِرْقى النازى البارز ألفريد روزنبرج Alfred Rosenberg هو مَن بادر إلى تتبُّع هذه المجموعات وسَلْبِها، بحجة أن «آل روتشيلد عائلة يهودية مُعادِية، وجميع مكائدهم لإنقاذ ممتلكاتهم تجعلنا قساةً معهم»[656].

صحيحٌ أن فرديْن فقط من العائلة هَلَكا كنتيجة مباشرة لسياسة الإبادة الجماعية النازية، وذلك لأن معظم أفراد العائلة تمكنوا من الفرار بعيدًا عن أيادي الإمبراطورية النازية: إلى إنجلترا وكندا والولايات المتحدة.

وبعد كل ما كُتِبَ عن شبكة السلطة اليهودية، كانت الشبكات الوحيدة المهمة فعليًا هى الشبكات التى تمكّنت من الهجرة، وقد تشكّلت من روابط عائلية بسيطة غالبًا. وتمتع آل روتشيلد بوجود الكثير من تلك الروابط العائلية. فأكثر أُسَرهم تواضعًا، كان يكفيها وجودُ أحد الأقارب فى موقع جيد. لويس كيسنجر Louis Kissinger المُعلِّم [متواضع الحال] فى مدرسة فورت Fürth، كانت عمّة زوجته التى تعيش فى مقاطعة وِستْشِستر Westchester County بنيويورك، هى التى منحت أولادَه - هاينز Heinz (الذى سيتسمّى لاحقًا باسم هنرى Henry) وفالتر Walter - فرصةَ الحياة فى الولايات المتحدة؛ كان البديل هو الموت فى ألمانيا، كما حَدَثَ لأكثر من اثنى عشر من أقاربهم لم يتمكنوا من الخروج من ألمانيا، أو لن يستطيعوا. ولكن الهجرة إلى الولايات المتحدة حُدِّدَتْ بنظام حصة نسبية [كوتة] صارم: فاليهود الألمان الذين لديهم أقارب فى الولايات المتحدة مستعدون للتكفل بهم ماليًا، هم فقط مَن لهم حق الدخول إلى الولايات المتحدة[657].

أما العائلات الأقل حظًا، فكان أملهم الوحيد للبقاء على قيد الحياة يتوقف على إعانة الغُرَبَاء لهم، بالإضافة إلى أصدقاء الأصدقاء. إرنا زيجيل Erna Segel وأطفالها تواصلوا مع عشرين من الغُرَباء طلبًا لعَوْنِهم، طبقًا لما وَرَدَ فى مذكراتها التفصيلية عن الحياة زمن الحرب فى برلين. وفى ثلاث مناسبات، بادر غُرَبَاء إلى تقديم المساعدة. وفى المقابل، من بين سبعة عشر من معارف إرنا زيجيل القدامى طلبت منهم المساعدة، وُجِدَ ثلاثةٌ فقط على استعداد لتوفير مأوى لأكثر من ليلة واحدة. ولكن المعارف القدامى سَلَكوا مَسْلَك الوسطاء، فقدّموا أسرةَ زيجيل إلى أُنَاسٍ مستعدين لتوفير إقامة طويلة الأجل. فمن بين اثنى عشر اتصال بآخرين انتهت إلى مساعدة طويلة الأمد، لعب المعارفُ القدامى دورَ الوسيط في ستة منها[658].

وللأسف، كانت أُسْرة زيجيل استثناءً. فالذين بقوا على قيد الحياة، أقلُّ من واحد من كلّ عشرة من ال 214 ألف يهودى ألمانى الموجودين فى الرايخ عند اندلاع الحرب. الأغرب من هذا، الحالةُ التى وصفها هانس فالادا Hans

Fallada عام 1947 في روايته «كل شخص يموت بمفرده» Jeder stribt für allein sich، وهى عن أرملة يهودية يحميها أحد الجيران فى المبنى السكنى، قاضٍ مُناهِض للنازية، لكن اضطهدتها أسرةٌ نازية متحمسة، فدفعتْها وحشيتُهم إلى الانتحار في النهاية.

تستحق رواية فالادا (عمله الأخير) إعادة القراءة بسبب البصائر العميقة التى تقدِّمها عن الحياة فى ظل التوتاليتارية [الشمولية] totalitarianism. تستند الرواية إلى حياة أوتو هامبل Otto Hampel الحقيقية، وهو عامل متواضع الحال وغير مُسَيّس، سعى إلى مقاومة نظام الحُكم النازى عقب موت ابنه أثناء اجتياح فرنسا. تلخّصت فكرة هامبل فى أنه إذا ترك بطاقات بريدية، بخطِّ اليد، تشجب نظامَ الحُكم أمام مبانٍ مختارة بعناية وصناديق البريد حول برلين، فسيكون تأثيرُها تحفيزَ الاستياء الشعبى. وعلى مدى أكثر من عام، كتب هامبل وزوجته إليز Elise مئات البطاقات البريدية التى تحتوى على رسائل بسيطة مثل: «أماه! قتل الفوهرر ابنى. أماه! الفوهرر سيقتل أبناءك أيضًا، ولن يتوقف حتى يجلب الحزنَ إلى كل بيت فى العالم». ولكن من شدة الخوف كان كلٌّ مَن يجد البطاقات البريدية يُسلِّمها فورًا إلى السلطات، فتَمكّن الجستابو فى النهاية من تتبُّع كاتبيْها والقبض عليهما. حُوكِمَ هامبل وزوجته فى محكمة الشعب People's Court، وحَكمَ عليهما بالموت القاضي النازي البغيضُ رولاند فرايسلر Roland Freisler[659].

ومع أن فالادا كاتبٌ يرتاب فيه نظامُ الحُكم، فقد ظل فى ألمانيا طوال الفترة النازية، ونقل على نحو لا يمكن نسيانه الطريقةَ التى عَزّلَ بها الحُكمُ النازى الأ فرادَ حتى جعل مجرد الثقة بين الجيران أمرًا فى غاية الخطورة والمجازفة، وهو ما جعل محاولةُ هامبل وزوجته لنشر مُعارَضة فيروسية أمرًا مستحيلا ً. وبكلمات أخرى، كان سِرُّ نجاح التوتاليتارية يكمن فى نزع الشرعية عن كل الشبكات الاجتماعية خارج المؤسسات الهَرَمية للحزب والدولة، وبخاصة الشبكات الطامحة إلى فِعْل سياسى مستقل، أو شَلِّها ووَأدها فى مَنْبتها. «وحيدًا فى برلين» Alone in Berlin هو عنوان أحدث ترجمة إنجليزية للرواية، ويلخص العنوانُ بدقةٍ التّذْرية [بمعنى العَزْل إلى وحدات صغيرة] التى جعلت الرايخ الثالث Third Reich مَرِنًا على هذا النحو [بمعنى عدم قابليته للكسر أو الإطاحة]، حتى بعد أن أصبح واضحًا أن هتلر كان يقود ألمانيا إلى هزيمة كارثية.





Freie Presse!
Postkarte
Fort mit dem Hitler Verreckungs
system!
Der gemeine Soldat Hitler
und seine Bande stürzen uns in den
Abgrund!
Diese Hitler Göring Himmler Goebbels Bande
ist in unsen Deutschland nur Todes Raum
zu gewähren!

الشكل رقم: 25 - وحيدًا في برلين: أُعْدِمَ أوتو هامبل وزوجته إليز يوم 8 أبريل عام 1943، بتهمة «تقويض الروح المعنوية العسكرية والتجهيز لخيانة كبيرة». جريمتهم هي كتابة بطاقات بريدية كالواردة أعلاه: «صحافة حُرّة! بعيدًا عن نظام هتلر التخريبي! العسكري المبتذل هتلر وعصابته يقذفون بنا إلى الهاوية.

الشيء الوحيد الذي تسمح به هذه العصابة هتلر جورينج هيملر جوبلز في ألمانيا بلدنا هو الموت في العَرَاء» (توريةً لموطن النازيين).

39

حلقة الخمسة

ما دامت الأنظمةُ التوتاليتارية [الشمولية] مقيتةً إلى هذا الحد - نظام هتلر ونظام ستالين - فسيظل من الصعب فَهْم أسباب انجذاب أى شخص يعيش فى مجتمع حُرٍّ إلى أيٍّ منهما. لكن الناس انجذبوا. بل الأكثر لَفْتًا للانتباه أن بعض الشبكات الأكثر انغلاقًا فى إنجلترا سمحت بأن يخترقها عملاء الفاشية fascism والشيوعية communism. وكما هو معروف جيدًا، انجذبت بعض قطاعات الأرستقراطية البريطانية إلى هتلر، وفضّلتْ سياسةَ استرضائه بدلاً من مواجهته. وطبقًا ل دوف كوبر[622] Duff Cooper، ندّدَ دوقُ وِسْتمنستر ب«اليهود... وقال إن هتلر، رغم كل شىء، يعرف أننا أفضل أصدقائه»[660]. و الماركيز لوثيان[623] marquess of Lothian، الذى ترعْرَعَ فى «رَوْضة» اللورد ميلنر الجنوب أفريقية، أرستقراطىٌ آخر تعَاطَفَ مع نظام الحُكم النازى، كذلك إيرل آثلون Earl of Athlone الأنجلوجيرمانى (الذى تنازل عن اللقب الألمانى أمير تيك Prince of Teck أثناء الحرب)، لم يتفوّه بكلمة عن وريثة سُفُن الشّحْن نانسى كيونارد Nancy Cunard واتحاد الأختين ميتفورد وديانا[624] Mitford sisters Unity and Diana الذى وصفه هتلر سابقًا بأنه [أىْ ميتفورد] «أعظم رجل فى كل العصور»، وديانا هذه تزوجت الزعيمَ الفاشى البريطانى سير أوزوالد مَوزلى Sir Oswald Mosley فى حفل خاص فى قاعة استقبال جوبلز[661].

وفى فبراير عام 1935، قال لوثيان لقرّاء التايمز إن هتلر أكّد له شخصيًا «أن ما تريده ألمانيا هو المساواة، وليس الحرب؛ وأن ألمانيا تستعد للتخلِّى عن الحرب». فليس الذى يَهُمُّ هتلر أوربا الغربية، بل الاتحاد السوفييتى. ويوضِّح لوثيان أن هتلر «يَعتبر الشيوعيةَ دينًا قتاليًا فى الأساس». وإذا حدثت ذات يوم «محاولةُ تكرار انتصارات الإسلام العسكرية» فس«تُعْتَبَرُ ألمانيا العدوّ

---

[622]دوف كوبر: (1890 - 1954)، سياسى بريطانى من حزب المحافظين، عُيّنَ وزيرًا للإعلام في حكومة تشرشل - المترجم.

[623]الماركيز لوثيان هو فيليب كير، الحائز الحادى عشر على لقب الماركيز لوثيان. من أبرز المدافعين فى أواخر ثلاثينيات القرن العشرين عن سياسة استرضاء ألمانيا، مؤكدًا قسوةَ معاهدة فرساي - المترجم.

[624]ميتفورد هو اسم عائلة الأختين نانسى فريمان وجيسيكا لوسى، عائلة أرستقراطية فى بريطانيا، ثلاثينيات القرن العشرين، اشتهرت بانتماءات فاشية ونازية وشيوعية - المترجم.

المحتمل أو حصن أوربا؟»[662].

جامعة أكسفورد - وبخاصة كلية أول سولس [كلية كل النفوس] All Souls College - وُجِدَ فيها العددُ الأكبر من أولئك الساعين إلى الاسترضاء [سياسة التهدئة مع هتلر]. ولكن لا شيء من كل هذا يضارعُ المصيرَ القاتم الذى لاقته أكثر شبكات كمبريدج انغلاقًا وتمرُّدًا، التى اخترقها جهاز ال كى جى بى[625] [المخابرات السوفييتية] KGB[626].

فى تاريخ الشبكات، لا يوجد ما هو أكثر توجيهًا من جواسيس كمبريدج Cambridge Spies: «الخمسة الرائعون» Magnificent Five، كما عُرِفُوا لدى مُشَغِّليهم فى مركز موسكو[627] Moscow Centre، أو ال«هومينترن» Homintern[628]، اللقب الذى أطلقه عليهم ببراعة موريس بورا Maurice

---

[625]كى جى بى Komitet Gosudarstvennoy Bezopasnosti، أو لجنة أمن الدولة Committee for State Security: هو جهاز المخابرات السوفييتية.

من أهم أدواره نشر شبكة عملاء هائلة فى بريطانيا والولايات المتحدة، وتمكنه من الحصول على سرّ القنبلة الذرية من قلب مشروع مانهاتن، وتسريب التكنولوجيا المتقدمة من الدول الغربية إلى الاتحاد السوفييتى أولا ً بأول بفضل شبكة عملائه فى الأجهزة الحكومية والأمنية أيضًا. ونتيجة لنجاحات الجهاز فى الولايات المتحدة، انتشر فيها ما يُسَمّى «الذّعر الأحمر»، وهو ما دعا السيناتور جوزيف مكارثى إلى قيادة حملات تُشَكِّكُ فى نوايا كل متعاطِف مع الشيوعية، فيما يشبه حملات تفتيش لم يعتدها المواطنون الأمريكيون. وفى بريطانيا، تمكن الجهاز من تجنيد عملاء داخل الاستخبارات البريطانية نفسها من ذوى الرّتب العالية. وبالإضافة إلى أدوار ال كى جى بى الخارجية، تولّى فى داخل الاتحاد السوفييتى مَنْعَ كل الأفكار السياسية المعارضة لفكر الحزب الشيوعى، فيما يُعْرَفُ ب«مكافحة الأيديولوجيات الهدّامة». بعد انهيار الاتحاد السوفييتى، انقسم ال كى جى بى إلى «جهاز الأمن الفيدرالى» و«جهاز الاستخبارات الخارجية» فى الاتحاد الروسى -المترجم.

[626]أعيدت تسمية ال NKVD فتحولت إلى NKGB فى فبراير عام 1941، ثم عادت مرة أخرى إلى التسمية السابقة NKVD فى يوليو عام 1941، ثم عادت إلى اسم NKGB عام 1943. وبعد الحرب، سُمِّيت الوكالة على التوالى باسم MGB (1946)، و1953 (MVD)، وأخيرًا KGB (1954). ولتجنُّب الالتباس، سأشير إليها على طول هذا القسم بال KGB - المؤلف.

[627]مركز موسكو: تسمية أطلقها الروائى جون لو كاريه على مقر الاستخبارات السوفييتية الرئيسى فى موسكو، وبخاصة الإدارات المَعْنية بالتجسُّس الخارجى (زَرْع العملاء) ومكافحة التجسُّس - المترجم.

[628]كلمة homintern مزيج من كلمتىْ comintern التى أسّسها لينين عام 1919 ومعناها الرابطة الدولية للأحزاب الشيوعية وحُلّتْ عام 1943، وكلمة homosexual التى تعنى

Bowra عميد كلية وادام Wadham جامعة أكسفورد. انتمى كل خمسة منهم إلى شبكة تُباهى بتفرُّدها. ولكن هذه الشبكة النُّخْبوية سمحت لنفسها بأن تخترقها المخابرات الروسية اختراقًا كاملا ً، فكان أعضاؤها - لأكثر من خمسة عقود - الذخيرةَ الأثمن فى خدمة الاستخبارات الأجنبية السوفييتية، فأفشوا ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى من الأسرار وأسماء عملاء غربيين لستالين.

ولقد رأينا، فى الفصل السابق، كيف أصبح أعضاء «جمعية النِّقاش» Conversazione Society [جمعيّة الرُّسُل]، بعد عام 1900 تقريبًا، منفصلين عن القيم الفيكتورية جنسيًا وسياسيًا فى آنٍ معًا. وبحلول وقت الحرب العالمية الأولى، اتفقت نسبةٌ كبيرة من «الرُّسُل» مع موقف فورستر القائل بأن الصداقة تأتى فى المنزلة الأولى قبل الولاء للمَلِك والبلد. جيلٌ جديدٌ خطا بهذا الانفصال خطوةً أبعد: من استنكاف الضمير إلى الخيانة. أنتونى بلونت[629] Anthony Blunt «ضُمّ» إلى الجمعيّة عام 1928. وكان، بدوره، راعى جاى بورجيس[630] Guy Burgess بعد أربع سنوات. كلاهما من خريجى كلية ترينيتي Trinity، وكلاهما بارع أكاديميًا، وكلاهما شاذٌّ.

(ورغم أن بورجيس كان متوهِّجَ الرغبة مثل بلونت، فقد كان رزينًا، وقيل إنهما كانا عاشقيْن لفترة من الزمن)[663].

ولكن الحقيقة المهمة تاريخيًا بخصوص بلونت وبورجيس هى أنهما كانا شيوعيين قدّما خدماتهما لستالين عن طيب خاطر.

وبكل تأكيد، لم يكن الرُّسلُ فى حد ذاتهم تنظيمًا شيوعيًا أو حتى اشتراكيًا. فـ الماركسية انتشرت فى كمبريدج ثلاثينيات القرن العشرين، عبر مجموعة متنوعة من الكيانات الطلابية السياسية العَلَنية - أبرزها جمعية جامعة كمبريدج الاشتراكية Cambridge University Socialist Society، التى

مِثْليّ الجنس (شاذ) - المترجم.

[629] أنتونى بلونت: (1907 - 1983)، مؤرّخ فنى بريطانى وأستاذ تاريخ الفن فى جامعة لندن. اعترف فى عام 1968 بعد حصوله على حصانة من الملاحقة القضائية بأنه كان جاسوسًا سوفييتيًا - المترجم.

[630] جاى بورجيس: (1911 - 1963)، ينتمى إلى عائلة ثرية من الطبقة الوسطى، تلقّى تعليمه فى كلية ترينيتى والكلية البحرية المَلَكية وغيرهما فى جامعة كمبريدج. عمل منتجًا فى وكالة بى بى سى، ولفترة قصيرة من الوقت ضابط مخابرات بدوام كامل قسم الا ستخبارات الأجنبية MI6، قبل انضمامه إلى وزارة الخارجية. جنّدته المخابرات السوفييتية عام 1935. وتسبّب فى تعطيل وإحباط عميق على مستويات عديدة فى وزارة الخارجية البريطانية وفى العلاقات الأنجلوأمريكية. تُوفِّى فى الاتحاد السوفييتى عام 1963 - المترجم.

اخترقها الحزب الشيوعى فى بريطانيا العظمى Communist Party of Great Britain، وبتشجيع من نبلاء ماركسيين من أمثال الاقتصادى موريس دوب[631] Maurice Dobb من مقاطعة بِمبروك Pembroke [في ويلز].

ولكن الرُّسُل كانوا أكثر من مجرد مُمَثلين لروح العصر. فمِن بين الواحد والثلا ثين رسولا ً «المُنْضمِّين» بين عامىْ 1927 و1939، وُجِدَ ما لا يقل عن خمسة عشر شيوعيًا، منهم جون كورنفورد[632] John Cornford وجيمس كلوجمان[633] James Klugmann وليو لونج Leo long ومايكل ستريت[634] Michael Straight وأليستر واتسن[635] 664 Alister Watson.

وعكست الموضوعات التى كانت تُناقَشُ، مساء كل سبت، اتجاه الجمعية إلى التسييس: جاء موضوع بورجيس الذى عرضه للنقاش، فى يوم 28 يناير عام 1933، بعنوان «هل الماضي علامةُ إرشادٍ؟» Is the Past a Signpost؟665.

وبورجيس هذا ناشطٌ بأكثر من طريقة. حين كان طالبًا جامعيًا، ساعد فى تنظيم إضراب موظَّفى التغذية فى كلية ترينيتى، كما ساعد فى تنظيم إضراب آخر لسائقى أتوبيسات جامعة كمبريدج. لم يكن «الملائكة» من الجيل السابق مدركين لما يحدث لجمعيّتهم التى كانت، فى يوم من الأيام، غير مُسَيّسة. ولكنهم حين احتجُّوا لم يُدَوّنُ صوتُهم في أي محضر جلسة.

ليس كل جواسيس كمبريدج رُسُلا ً بالطبع. بورجيس هو الذى كان يحلم بتنظيم «حلقة من خمسة»، محاكيًا الخلايا الشيوعية المُناهِضة للنازية التى نشطت في ألمانيا النازية666.

كان السوفييت يعرفون أفضل من تجنيد خمسة عملاء فى تنظيم واحد. ومع ذلك، كانوا على استعداد للتجنيد من شبكة أوسع من التى ينتمى إليها بلونت

---

[631] موريس دوب: (1900 - 1976)، عالِم اقتصاد بريطانى فى كمبريدج وزميل كلية ترينيتي. يُذْكرُ بوصفه من أبرز خبراء الاقتصاد الماركسيين في القرن العشرين - المترجم.

[632] جون كورنفورد: (1915 - 1936)، شاعر إنجليزى وشيوعى، من أحفاد تشارلز داروين - المترجم.

[633] جيمس كلوجمان: (1912 - 1977)، كاتب شيوعى بريطانى بارز والمؤرّخ الرسمى للحزب الشيوعي البريطاني - المترجم.

[634] مايكل ستريت: (1916 - 2004)، ناشر وروائي وراعٍ للفنون - المترجم.

[635] أليستر واتسن: (1908 - 1982)، عالِم رياضيات بريطانى، عضو حلقة تجسُّس كمبريدج - المترجم.

وبورجيس. فالعميلان السوفييتيان ويلى مونزنبرج Willi Münzenberg وإرنست هنرى Ernest Henri بدآ بالفعل «اكتشاف الموهبة» فى كمبريدج أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، ولكن عميلا ً يُسمّى أرنولد الألمانى[636] Arnold Deutsch هو الذي حققَ أحلام بورجيس[667].

لم يبدأ الألمانى (واسمه الكودى لدى ال كى جى بى هو أوتو OTTO) مع رسول، بل مع كيم فيلبى Kim Philby، رجل ترينيتى الذى لم يكن أكاديميًا من الدرجة الأولى. وُلِدَ فيلبى فى الهند، وسُمِّى باسم بطل كتاب كيبلنج Kipling الأشهر، «كيم» Kim، وكان ابن عضو سابق فى الخدمة المدنية الهندية Indian Civil Service صار مستشارًا لابن سعود فى المملكة العربية السعودية، التى «توطّن» فيها بعد تحوُّله إلى الإسلام. ولعل السوفييت رأوا إمكان تحوُّل آخر. بعد كمبريدج، نزولا ً على اقتراح موريس دوب، ذَهَبَ فيلبى إلى فيينا للعمل من أجل منظمة إغاثة العمال الدولية بدعم شيوعى backed International Workers Relief Organization-Communist .

وهناك قابل ليتزى فريدمان Litzi Friedmann وتزوجها، وهى أولى زوجاته الأ ربع. وقدمته فريدمان إلى الألماني، الذى جنّده وأعطاه الاسم الكودى SÖHNCHEN (الولد الصغير Sonny)[668].

ثم رشّحَ له فيلبى صديقه فى كمبريدج دونالد ماكلين Donald Maclean، واسمه الكودى WAISE (اليتيم Orphan). وضِمْن شبكة التجسُّس التى كوّنها ا لألمانى وتنامت بسرعة، صديقُ ماكلين أيضًا، وهو جيمس كلوجمان (واسمه الكودى MER)، وبسبب اشتهاره بأنه شيوعى لم يكن باستطاعته أكثر من التجسُّس على الجواسيس الآخرين. وبطريقة ما، خَمّنَ بورجيس أن ماكلين كان يعمل لصالح السوفييت؛ ووفقًا لأحد التقارير، كان يجب على الألمانى تجنيد بورجيس حتى لا يتكلم. مُنِحَ بورجيس الذى لا يَشْبَعُ نَهَمُه الاسمَ الكودي MÄDCHEN (فتاة Girl)[669].

ثم قام بورجيس بتجنيد زميله الرسول بلونت (وسُمِّى اسمًا كوديًا لا خيال فيه هو توني TONY)، وكان يُدَرّسُ حينئذٍ في كلية ترينيتي[670].

وجَنّدَ بلونت، بدوره، مايكل ستريت (واسمه الكودى نايجل NIGEL)، وهو أمريكى ورسول أيضًا والرئيس المنتخب للاتحاد[671]. ثم رشّحَ بلونت تلميذَه جون كيرنكروس John Cairncross، طالب كلية ترينيتى الجامعى من أصل

---

[636]أرنولد الألمانى: يهودى تشيكى تألق فى مسيرته الأكاديمية، تمكنَ الألمانى من ترسيخ أقدامه فى لندن دون إثارة شكوك حوله لأنه كان ابن عم مؤسِّس سلسلة سينما أوديون Odeon - المؤلف.

إسكتلندى، واسمه الكودى موليير MOLIÈRE (وهو اختيار غريب، لأن كيرنكروس نشر مقالات أكاديمية عن الكاتب المسرحى الفرنسى موليير)[672].
وثمة مُجنّدٌ آخر - جُنِّدَ فى جمعية الرُّسُل وفى ال كى جى بى، بالتزامن تقريبًا - هو ليو لونج الذي شَغّله بلونت بوصفه عميلا ً بديلا ً[673].

وأخيرًا، أُضِيفَ أليستر واتسن إلى كشف رواتب ال كى جى بى. سيلاحظ القارئُ المنتبه أنهم أكثر من جواسيس كمبريدج الخمسة. لقد كانوا على الأقل تسعة.

تلخّصت إستراتيجية الألمانى فى وجوب تنصُّل جميع أعضاء «حلقة الخمسة» من الماركسية، مع ضرورة سعيهم إلى مواقع فى المؤسسات الحكومية أو الاقتراب منها.

السمة الملحوظة فى حالة جواسيس كمبريدج هى سهولة تنصُّلهم مما كانوا يؤمنون به. فى عام 1937، تظاهر فيلبى بأنه فاشىٌ متعاطف يُغَطِّى أخبار القوميين Nationalists فى الحرب الأهلية الإسبانية Spanish Civil War، أولا ً بوصفه صحفيًا مستقلا ً، ثم بعدئذٍ بوصفه مراسلا ً لجريدة التايمز[674].

ونحن نعرف الآن أنه أُرْسِلَ إلى إسبانيا جزءًا من مؤامرة سوفييتية لاغتيال فرانكو Franco[675]. أما ماكلين فطُلِبَ منه التخلِّى عن كتابة أطروحته الماركسية [الأكاديمية] كى يتقدم بطلب للحصول على وظيفة فى وزارة الخارجية. قُبِلَ ماكلين فى الخارجية عام 1935، رغم تقرير يفيد بأنه «لم يتخلص تمامًا» من آرائه الشيوعية[676].

أما كيرنكروس فكان شيوعيًا منذ دراسته فى السوربون Sorbonne، قبل التحاقه بكمبريدج. وقد قبلته وزارة الخارجية، هو أيضًا، دون اعتراض أو تشكيك. فى عام 1934، سافر بورجيس إلى برلين وموسكو، والتقى ب أوسيب بياتنيتسكى Osip Pyatnitsky رئيس إدارة الاتصال الدولى فى الأممية الشيوعية Communist International’s International Liaison Department[677].

ولكن بورجيس، بعد تلقيه أوامر من الألمانى، تظاهر بأنه تخلّى عن الشيوعية واعتنق النزعة المُحافِظة conservatism، سعيًا للحصول على وظيفة فى المكتب المركزى لحزب المحافظين Conservative Central Office، وانتهى به الأمر إلى عمله مساعدًا شخصيًا لعضو البرلمان الثّورى جون مَكْنَمارا الملقّب ب «جاك» John «Jack» Macnamara الذى شاركه ميوله الجنسية. وبهذه الكفاءة ساعد بورجيس على تجنيد توم ويلى Tom Wylie، السكرتير الخاص لوكيل وزارة الحرب الدائم، السير هربرت كريدي Sir Herbert Cready[678].

ومنذ أواخر عام 1936، استوظفت هيئة الإذاعة البريطانية [بى بى سى] بورجيس منتجًا لبثِّ الأحداث الجارية؛ فكانت أعظمُ أعمال بورجيس الفذّة [فى هذه الفترة] تمكينَ عميل ال كى جى بى السرّى إرنست هنرى Ernest Henry من نقل محادثة لصالح[679] جبهة الحلفاء الثانية[637].

وفى يوم 11 يناير عام 1939، انضمّ بورجيس إلى القسم دى Section D (اختصارًا ل Destruction [«الهدم»]، أو على نحو أدق Dirty Tricks [«الخدع القذرة»] فى خدمة المخابرات السرية Secret Intelligence Service (SIS، و المعروف أيضًا بالمكتب السادس MI6، مع أنه كان رسميًا فى إدارة القسم الأجنبى بوزارة الإعلام Ministry of Information’s Foreign Division Directorate[680].

وأما مايكل ستريت فطُلِبَ منه مغادرة كمبريدج والعودة إلى الولايات المتحدة، متظاهرًا بالحزن لوفاة صديقه وزميله الرسول جون كورنفورد فى الحرب الأهلية الإسبانية. وتم التعاقد معه ليتولى كتابة خطابات الرئيس فرانكلين روزفلت Franklin D. Roosevelt، وحصل على مناصب فى وزارة الداخلية Department of the Interior ووزارة الخارجية the State Department [بالولايات المتحدة الأمريكية].

لماذا فعلوا ذلك؟ الإجابة البسيطة هى أنهم جميعًا رجالُ مبدأٍ، أفْزَعَهم صعودُ الفاشية، وخاب أملهم فى سياسة الاسترضاء، ورأوا ستالين بوصفه المُعادِلَ المعقول الوحيد لهتلر. ومع ذلك، لم يكن لدى أحدهم أية شكوك بشأن يوم 23 أغسطس عام 1939، عندما أُعْلِنَ ميثاقُ ريبنتروب - مولوتوف Ribbentrop - Molotov Pact[638]. (ويلشمان جرونوى ريس Welshman Goronwy Rees خرّيج أوكسفورد الذى أضافه بورجيس إلى قائمة الألمانى، هو فقط الذى استنتج الاستنتاج الصحيح). أما بقية جواسيس كمبريدج فكانوا نشطين، ولا

---

[637]الجبهة الثانية للحلفاء: فى نوفمبر عام 1943، اجتمع ستالين وتشرشل ورزفلت فى طهران لمناقشة الإستراتيجية العسكرية وأوربا ما بعد الحرب. وفى هذا الاجتماع، طالَبَ ستالين الحلفاءَ بفتح جبهة ثانية في أوربا - المترجم.

[638]اتفاق ريبنتروف - موتولوف أو الاتفاق الألمانى السوفييتى: معاهدة عدم اعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفييتى وُقِّعَتْ فى موسكو يوم 23 أغسطس عام 1939، وتقضى بـ التزام ألمانيا النازية والاتحاد السوفييتى بالحياد فى حالة تعرُّض أحد الطرفين للهجوم من طرف ثالث. تضمنت المعاهدة بروتوكولا ً سرّيًا يُقسِّم شمالَ أوربا وشرقها إلى مناطق نفوذ سوفييتية وألمانية ترقُّبًا لإعادة الترتيب السياسى والحدودى لهذه الدول. نُقِضَتْ المعاهدةُ يوم 2 يوليو عام 1941 حين أقدمت ألمانيا على غزو الاتحاد السوفييتى - المترجم.

سيما فى الفترة التى كان فيها هتلر وستالين فى جانب معًا، وعلى الجانب الآ خر تقف بريطانيا العظمى.

وبعد عمل فيلبى مراسلا ً للتايمز فى فرنسا عام 1940، رَفَضَه مكتب الاتصا لات فى بلتشلى بارك Code and Cypher School at Bletchley Park، لكن بفضل بورجيس عُرِضَتْ عليه وظيفة فى قسم العمليات القذرة بخدمة المخابرات السرية Section D, SIS. وعندما ضُمّ القسم دى إلى إدارة تنفيذ العمليات الخاصة[639] (Special Operations Executive (SOE الجديدة، اسْتُبْعِدَ بورجيس لكن بقى فيلبى بوصفه مُدرّبًا، ومن موقعه هذا استمر فى تزويد موسكو بتقييمات السياسة في المملكة المتحدة.

ثم نُقِلَ في وقت لاحق إلى القسم 7 فى خدمة المخابرات السرية SIS. كان كلوجمان أيضًا فى إدارة تنفيذ العمليات الخاصة (القسم اليوغسلافى). وأما جون كيرنكروس ففى بلتشلى بارك. وأما بلونت فبعد أن رفضه، فى البداية، سلاحُ المخابرات العسكرية Intelligence Corps بسبب ميوله الشيوعية قبل الحرب، تحسّسَ طريقه إلى المكتب الخامس[640] MI5 (الخدمة السرّية البريطانية Britain's Security Service)، بفضل دَعْم صديقه فيكتور روتشيلد Victor Rothschild - وهو أيضًا رسول وكذلك رجل كلية ترينيتى ونظير العالِم - الذى تقبّل رَغْم بلونت الواهن بأنه اهتمّ بالماركسية من حيث تعلّقها بتاريخ الفن فقط[681].

وبمجرد أن سَلّمَ وثائقَ المكتب الخامس MI5 وكذلك المعلومات السرّية عن الترتيب الألماني للمعركة، الذى تلقاه من ليو لونج، بدأ العمل فى المكتب 14 بوزارة الحرب[641] War Office's MI14 section. وفى أواخر عام 1940، جنّدَ

---

[639] إدارة تنفيذ العمليات الخاصة: تنظيم استخباراتى بريطانى يتبع القوات المسلحة تشكلَ يوم 22 يوليو عام 1940، بدمج ثلاث منظمات سرّية قائمة، هدفها الأول التجسُّس و التخريب والاستطلاع فى أوربا المحتلة، ثم لاحقًا فى جنوب شرق آسيا المحتلة، ضد قوى المحور، ولمساعدة حركات المقاومة المحلية. أُخْفِيَتْ تحرُّكات أفرادها وراء لافتات مدنية عديدة - المترجم.

[640] المكتب الخامس MI5: مخابرات حربية بريطانية، وظيفته الأساسية حماية الأمن الداخلى، ولكنه قد يضطلع بأدوار خارجية تساعده على إنجاح مهامه الداخلية. وهو بوجه عام جزء من آلة الاستخبارات البريطانية، بجانب كل من المكتب السادس MI6 وإدارة الا تصالات الحكومية وإدارة مخابرات الدفاع. وتخضع جميعها لإدارة لجنة المخابرات المشتركة - المترجم.

[641] المكتب 14: أحد مكاتب المخابرات العسكرية البريطانية بوزارة الحرب أثناء الحرب العالمية الثانية، مسؤول عن كل ما يتعلق بألمانيا - المترجم.

بلونتُ بورجيسَ فى خدمة المخابرات السرية SIS، رغم اتخاذ قرار بعدم جَعْلِه ضابطًا فيها[682].

حجمُ إسهام جواسيس كمبريدج فى المجهود الحربى السوفييتى مذهلٌ. وقد أَمْسَتْ لندن، فى عام 1941، محلّ إقامة ال كى جى بى الوثير، فحَصَلَ على ما يقرب من 9 آلاف وثيقة مُصَنّفة [سرّية]. وبين عامىْ 1941 و1945، زَوّدَ بلونتُ بمفرده مركزَ موسكو ب 1,771 وثيقة[683].

وفى يوم 26 مايو، قبل أحد عشر يومًا من غزو الحلفاء لنورماندى Normandy، زوّدَ بلونتُ السوفييتَ بخطة الخداع الكاملة الموضوعة بوصفها جزءًا من ال أوفرلورد[642] Day-OVERLORD (D)، (وعلى ما يبدو) بِ المراجعات الشهرية لعمليات المخابرات البريطانية ضد دول المحور التى كانت تذهب إلى تشرشل[684]. فيلبى (وقد صار اسمه الكودى ستانلى STANLEY) نَقلَ أيضًا إلى مُشَغِّليه «المُكاتبات الأصلية» التى تضم كل عملاء خدمة المخابرات السرية SIS، وتُرْضِى تلهُّفَ موسكو إلى دليل على أن لندن كانت تُخَطِّطُ سرًّا لسلام منفصل مع الألمان[685].

وقد أخبر بورجيس الروسَ بتفاصيل محادثات روزفلت وتشرشل فى كازابلانكا [الدار البيضاء] فى يناير عام 1943، بما فيها قرارهما بتأجيل غزو فرنسا حتى عام 1944، كما نَقلَ معلومات استخباراتية عن خطط الحلفاء تجاه بولندا بعد الحرب. فى الأشهر الستة الأولى من عام 1945، قدّمَ بورجيس ما لا يقل عن 289 وثيقة «سرّية للغاية» من وزارة الخارجية[686].

ثم عُيِّنَ بورجيس، بعد نهاية الحرب والانتخابات العامة البريطانية، مساعدًا شخصيًا للسياسى الشاب من حزب العمل هيكتور مَكنيل Hector McNeil وزير الدولة فى وزارة الخارجية، وهو منصب أتاح له الوصول إلى مادة على أعلى مستوى، ولا سيما الأوراق السياسية المُعَدّة لمؤتمر موسكو الذى يضم دول التحالف الأربعة. وقد سُلِّمَ كلٌّ هذا إلى مُشَغِّليه السوفييت. وهكذا كان جواسيسُ كمبريدج ناجحين طول الوقت، إلى درجة - وهنا المفارقة الصارخة - أنْ كفّ سادتُهم السوفييت عن الثقة فيهم، مُقْنعين أنفسَهم ببارانويا ستالينية معتادة أن عملية كمبريدج بأكملها ما هى إلا خدعة بارعة [من البريطانيين][687].

لماذا كان من اليسير على السوفييت اختراق الاستخبارات البريطانية؟ الإ جابة البسيطة هى وجود نقص مزمن فى مكافحة التجسُّس. وكما يعرف

---

[642]أوفرلورد: الاسم الكودى لغزو شمال غرب أوربا فى الحرب العالمية الثانية من قبل قوات الحلفاء، أما ال «دي - داي» فهو يوم الهبوط - المترجم.

خبراء التجسُّس السوفييتى جيدًا، لم تكن عملياتُ التحقُّق الدقيق قبل الحرب فى بريطانيا للقبول فى الخدمة المدنية كافيةً للكشف عن الأشخاص الذين تظاهروا بالابتعاد عن الشيوعية، كما فعلت حلقة الخمسة Ring of Five.

كان يوجد قسمُ مكافحة تجسُّس، هو القسم ڤى بخدمة الاستخبارات السرّية SIS's Section V، لكن عندما ضغط فيكتور روتشيلد لإلحاق أنتونى بلونت به ، كانت النتيجةُ سيئةً فى ظل عدم وجود مكافحة تجسُّس[688]. مدير المكتب الخامس MI5، السير فيرنون كيل Sir Vernon Kell الهَرِمُ، قال فى أواخر عام 1939 إن النشاط السوفييتى فى المملكة المتحدة «غير موجود، من حيث التآمر والاختراق الاستخباراتي والسياسي على السواء»[689].

أما روجر هولِس Roger Hollis - الذى شغل لاحقًا منصب المدير العام للمكتب الخامس (1956 - 1965) - فقد انتقد فشل خدمة المخابرات السرّية فى مراقبة التهديد السوفييتى والشيوعى، لسبب وجيه: فى عام 1944، نجح فيلبى (على نحو لا يُصَدّق) فى أن يكون مديرًا لقسم جديد هو Section IX مُخَصّص لمكافحة التجسُّس السوفييتى والشيوعى[690]. لكن هولِس تعَامَى عن خطايا خدمته من إغفال وعمولة إلى درجة الاشتباه طول الوقت فى كوْنه هو نفسه «الرجل الخامس» Fifth Man (كما كان روتشيلد).

وحتى فى ديسمبر عام 1946، كان ال إيه فور A4 - القسم المُكلّف بمراقبة الموظفين الديبلوماسيين السوفييت - يضم خمسة عشر فردًا فقط، وبدون سيارة[691]. وكما ذكر فيلبى نفسه لاحقًا، ما كان يحميه هو ورفاقه الخونة [العملاء] «عَجْزٌ عقلى حقيقى أصَرّ على اعتقادٍ مُفادُه أن أعضاء محترمين فى المؤسسة لا يمكنهم اقتراف مثل هذه الأفعال»[692]. وبهذا المعنى، اخْتُرِقَت الشبكةُ الأوسع: شبكة نُخْبة المدارس وأوكسفورد وكمبريدج، شبكة «الولد القديم» old boy.

ابتداءً من عام 1945، بدأت الأدلة تتجمّع، مؤدِّيةً - فى النهاية - إلى كشف جواسيس كمبريدج. انشقاق إيجور جوزينكو[643] Igor Gouzenko، موظف التشفير الخاص بالمخابرات العسكرية السوفييتية، فى أوتاوا Ottawa سبتمبر عام 1945، هو الذى افتتح عملية الكشف. فقال إن السوفييت اخترقوا مؤسّسات كندية عديدة، بل حصلوا على عيّنات من اليورانيوم

---

[643]إيجور جوزينكو: (1919 - 1982)، موظف تشفير بالسفارة السوفييتية فى كندا، ومقرها العاصمة أوتاوا، انشق يوم 5 سبتمبر عام 1945 ومعه 109 وثيقة خاصة بأنشطة التجسُّس السوفييتى فى الغرب؛ الأمر الذى اضطر رئيس الوزراء الكندى حينئذٍ إلى استدعاء لجنة مَلَكيّة للتحقيق في التجسُّس في كندا - المترجم.

المستخدم فى القنابل الذرية الأمريكية، بفضل آلان نون ماى[644] Alan Nunn May الفيزيائى الذى كان معاصرًا لماكلين فى قاعة ترينيتى Trinity Hall [قاعة لقاء الطلبة في كلية ترينيتي][693].

وفى قسم مكافحة التجسُّس السوفييتى والشيوعى SIS's Section IX، كان فيلبى فى موقع يسمح له بتخفيض صلاحيات الملقاط spycatcher جين آرشر[645] Jane Archer بعد نقلها من المكتب الخامس MI5 [إلى المكتب السادس MI6]. وعندما حاول عميلٌ سرّى سوفييتى آخر، هو كونستانتين فولكوف Konstantin Volkov، ضابط ال كى جى بى فى إسطنبول، الا نشقاقَ، بقصد واضح منه لكشفِ بورجيس وماكلين - تدخّلَ فيلبى وأمّنَ عملية توقيف فولكوف وترحيله إلى موسكو. وألمح فيلبى لماى بأنه منزعج من تقصيرها[694].

وبعَقلَةٍ واضحة عن هذا التخريب المُمَنْهَج، رَقّى جهازٌ خدمة المخابرات السرية SIS فيلبى مرةً أخرى، ليصبح - هذه المرة - مُمَثلَ الوكالة فى العاصمة الأهم فى العالم: واشنطن. بل الأغربُ تعيينُ ماكلين مديرًا للمكتب الأمريكى فى وزارة الخارجية البريطانية. وجاءت ترقية ماكلين بعد تعرُّضه لانهيار عصبى كامل أثناء عمله مستشارًا ومديرًا لقسم المحفوظات فى السفارة البريطانية بالقاهرة، حين قام هو ونديمه فى السُّكر فيليب توينبى Philip Toynbee، بتحطيم محتويات شقة فتاتين تعملان فى السفارة الأمريكية وتمزيق ملابسهما الداخلية إربًا فى نوبة سُكرٍ. ولا أحد فى لندن تَشكّكَ فى أن سلوك ماكلين، متزايد الشذوذ، كان نتيجةُ ضغط حادٍّ، بعد محاولتين غير ناجحتين لقطع ارتباطاته بموسكو. ولم ينتبه أحدٌ عندما وَصَفَ نفسَه - وهو فى حالة سُكرٍ شديد - بأنه «النسخة الإنجليزية من ألجير هيس[646] Alger Hiss»:

---

[644]آلان نون ماى: (1911 - 2003)، فيزيائى بريطانى، زَوّدَ الاتحادَ السوفييتى أثناء الحرب العالمية الثانية بأسرار البحوث الذرية البريطانية والأمريكية - المترجم.

[645]جين آرشر: (1898 - 1982)، عُرفَتْ أولا ً باسم جين سيسمور، ثم جين آرشر بعد زواجها عام 1939. أول ضابطة فى خدمة المخابرات السرّية البريطانية عام 1929. مسؤولة عن التحقيقات فى كل ما يتعلق بالاستخبارات السوفييتية. وحين انضمت إلى المكتب السادس قام كيم فيلبى - رئيسها حينئذٍ - بتقليل نشاطها التحقيقى حتى لا يتعرض للانكشاف - المترجم.

[646]ألجير هيس: (1904 - 1996)، مُحاضِر ومؤلِف أمريكى، تدرّجَ فى مناصب أمنية وحكومية ودولية مهمة. اتُهِمَ بالتجسُّس لصالح الاتحاد السوفييتى عام 1948، وتمت إدانته - المترجم.

الشامة الشيوعية الأشهر على خَدِّ وزارة الخارجية الأمريكية[695].

وأما بورجيس فيظل الحالةَ الأكثر إثارةً للحيرة. فحتى لو لم يكن جاسوسًا سوفييتيًا، فإن معاقرته للخمر وتعاطيه المخدِّرات واضطرابه - ناهيك عن سلوكه الجنسى الجانح الشاذِّ - تستوجب إطلاقَ النار عليه. ولكنه بدلاً من ذلك، ظل يحظى بوظائف جديدة: قسم بحوث الإعلام بوزارة الخارجية Foreign Office Information Research Department عام 1947، وقسم الشرق الأقصى Far Eastern Department، ثم فى أغسطس عام 1950 سفارة واشنطن Washington Embassy بوصفه سكرتيرًا ثانيًا. وطوال هذا الوقت تقريبًا، حافظ صديقُ بورجيس، جاى ليدل Guy Liddell نائب المدير العام للمكتب الخامس MI5، بكل ثقة على أنه «لم يكن من الأشخاص الذين يَتعمّدون تمريرَ معلومات سرّية إلى أطراف غير مصرّح لهم بالحصول عليها». بل يمكن القول بأن الخمسة كانوا فى أوج أهميتهم للسوفييت عند اندلاع الحرب الكورية Korean War. كان بورجيس يقيم مع فيلبى فى واشنطن، ويعمل بمثابة ساعٍ لفاليرى ماكاييف Valeri Makayev فى نيويورك. وأما كيرنكروس فمِن موقعه فى أقسام الدفاع فى وزارة المالية Defence Divisions of the Treasury، زَوّدَ موسكو - فى هذه الأثناء - بتفاصيل عن برنامج القنبلة الذرية البريطانية[696].

ووصل التّبَجُّح بفيلبى أن اقترح على ليدل أنه يستطيع الجَمْعَ بين تمثيل خدمة المخابرات السرية SIS وSS (المكتب الخامس MI5) فى واشنطن[697]. وكان هذا منه شكلاً من أشكال حيله الدفاعية. فهو يعرف أن الشبكة تتعرّضُ لضغوط قوية بالتدريج. فبالإضافة إلى حصول الأمريكان على معلومات استخباراتية جديدة من المُنْشقِّين، كانوا يحصلون على معلومات وفيرة من اعتراض رسائل الاستخبارات السوفييتية وفكِّ شفرتها ببرنامجهم فينونا Venona[647]. وحين تحققَ فيلبى من أن ماكلين هو الجاسوس الذى تم كشفه وتسميته ب هومر HOMER أثناء الاعتراض وفكِّ الشفرة، أبلغه فيلبى بوَسَاطة بورجيس، فأُعيد إلى لندن بعد نوبة أخرى من السلوك الفاضح. بورجيس أبلغ بلونت أيضًا[698].

وفى منتصف ليل الجمعة، 25 مايو عام 1951، وَفّقَ عملية إخلاء دَبّرها باحترافية يورى مودِن Yuri Modin، الضابط المسؤول عنهما فى لندن، تمكن

---

[647] فينونا: برنامج لمكافحة التجسُّس وفك شفرة الرسائل السوفييتية، أطلقته خدمةُ مخابرات الإشارة التابعة لجيش الولايات المتحدة من يوم 1 فبراير عام 1943، واستمر حتى يوم 1 أكتوبر عام 1980. وبعد انتهاء عمله عام 1980 ظل المشروع سرًّا حتى عام 1995 - المترجم.

ماكلين وبورجيس من الهرب من منزل ماكلين فى تاتسفيلد Tatsfield إلى سَوثامبتن Southampton، حيث أبحرا على متن قارب المتعة فاليز Falaise إلى سانت مالو Malo-Saint - وهى خدمة لم تكن تتطلب جوازات سفر - ثم انطلقا بالقطار من رين Rennes إلى باريس Paris إلى بيرن Berne، وهناك زَوّدتهما السفارةُ الروسية بجوازات سفر مزيّفة. ومن زيوريخ Zurich استقلّ الرجلان الطائرةَ المتجهة إلى ستوكهولم Stockholm عبْر براغ Prague، ولكنهما فى العاصمة التشيكية [براغ] استقلا الطائرةَ المتجهة إلى موسكو. لقد طار اثنان من الطيور الخمسة، بسبب افتقار قسم مكافحة التجسُّس بالمكتب الخامس MIS إلى الموارد التى تُمكِّنه من مواصلة المراقبة فى أجازة نهاية الأ سبوع[699].

وأما فيلبى فقد وَضَعَه المكتبُ الخامس MI5 (ناهيك عن ال إف بى آى[648] FBI وال سى آى إيه[649] CIA) تحت أنظاره. اسْتُدْعِى من واشنطن (بإلحاح أمريكى) وأُحِيل إلى التقاعد رسميًا. وأُجْرِيَتْ معه مقابلةٌ واسْتُجْوِبَ، ولكنه استمر فى العمل بتشجيع من المدافعين عنه فى خدمة المخابرات السرية SIS. وفى عام 1955، وعلى أساس الاستخبارات الأمريكية، اتُّهِمَ بأنه الرجل الثالث Third Man فى جريدة صانداى نيوز Sunday News بنيويورك وفى مجلس العموم House of Commons. ولكنه تلقّى حمايةً من حكومة أنتونى إيدن Anthony Eden، وكذلك من نيكولاس إليوت Nicholas Elliott داخل المكتب السادس MI6 ومن جيمس أنْجِلتن James Angleton فى ال سى آى

---

[648] إف بى آى، أو مكتب التحقيقات الفيدرالى: وكالة حكومية تابعة لوزارة العدل الأمريكية ، مهمتها الاستخبارات الداخلية وتطبيق القانون فى الدولة، ولها سلطة قضائية على أكثر من 200 جريمة فيدرالية. تأسّست الوكالةُ عام 1908 تحت اسم «مكتب التحقيقات»، ثم تغيّرَ اسمُها إلى الاسم الحالي عام 1935 - المترجم.

[649] سى آى إيه، أو وكالة المخابرات المركزية الأمريكية: تأسّستْ عام 1947، وهى الوكالة المستقلة الوحيدة التي تقدِّم تقاريرها إلى مدير الاستخبارات القومية.

وظيفتُها جمع المعلومات عن الحكومات الأجنبية والشركات والأفراد، ثم تحليلها فى ضوء معلومات أخرى واردة من مكاتب استخبارات أخرى داخل الولايات المتحدة. وبطلب من رئيس الولايات المتحدة، تنفِّذُ الوكالةُ أو تُشْرِفُ على أنشطة سرّية وبعض العمليات التكتيكية، فيُمكنها مثلا ً ممارسة نفوذ سياسى أجنبى من خلال أقسامها التكتيكية مثل »شعبة الأنشطة الخاصة«. وحاليًا، تقوم الوكالة بأدوار هجومية متزايدة، بما فيها عمليات سرّية شِبْه عسكرية. ثم تحوّلَ مؤخرًا أحدُ أكبر أقسام الوكالة (مركز العمليات المعلوماتية (من التركيز على مكافحة الإرهاب إلى العمليات الإلكترونية الهجومية. وهذا التحول له أهميته في ضوء ما سيطرحه نيل فِرْجسن في القسم التاسع من الكتاب الحالي - المترجم.

إيه CIA.

وبكل وقاحة وتبجُّح، عقد فيلبى مؤتمرًا صحفيًا فى غرفة معيشة أمه قائلا ً للصحافة: «آخر مرة تحدثتُ فيها إلى شيوعى، وأنا أعرفُ أنه شيوعى، كانت فى عام 1934»[700]. وما لا يُصَدّقُ أن معظم زملائه السابقين يعتقدون ذلك، رغم ورود أدلة تفصيلية جديدة من برنامج فينونا تُفيد بأنه العميل السوفييتى واسمه الكودى ستانلى STANLEY، فضلا ً عن شهادة أدلى بها المُنْشق عن ال كى جى بى أناتولى جوليتسِن Anatoli Golitsyn وفلورا سولومن Flora Solomon، التى حاول فيلبى تجنيدها لصالح الجانب السوفييتى قبل الحرب. وحتى زوجة فيلبى الثانية، إيلين Aileen، صارت تشتبه فيه. (ووفقًا لأحد أصدقائهما، قالت له على العشاء ذات ليلة: «أعرف أنك الرجل الثالث!»). القسوة التى مارسها عليها بشكل مُمَنْهَج، بالإضافة إلى إدمانها الكحول، أدّيَا بها إلى الموت في ديسمبر عام 1957[701].

ومع كل هذا، سُمِحَ له بالانتقال إلى بيروت، حيث عمل صحفيًا ومَصْدرًا غير رسمى للمكتب السادس MI6. وبكل تبجُّح، اغتنم أولَ فرصة لاستئناف العمل لصالح السوفييت. وعندما كشَفَ المكتبُ السادس MI6 فيلبى استنادًا إلى معلومات جديدة تم الحصول عليها فى عام 1961 - 1962، «اعترف» لإليوت، مُدّعيًا أنه قطع الاتصالَ مع الروس فى عام 1946. ثم أتيح له الهرب إلى موسكو في يناير عام 1963 [702].

لعل أعظمَ الألغاز بشأن جواسيس كمبريدج - بل الأعظم من استمرارهم وقتًا طويلا ً دون انكشاف - قِلّةُ أوهامهم عن النظام الذى يخدمونه. فى موسكو، واصل بورجيس سلوكه المعتادَ، الشُرْب وتعاطى المخدرات وإحداث الفوضى، صارخًا من آنٍ لآخر «أكره روسيا» أمام الميكروفونات المزروعة فى شقته. ورأيه عن موسكو أنها «مثل جلاسكو فى ليلة سَبْتٍ أيام العصر الفيكتوري»[703].

كتَبَ فيلبى مذكرات مؤيّدة للسوفييت تحت إشراف ال كى جى بى، ودخل فى علاقة غرامية مع مِليندا ماكلين Melinda Maclean، وحاول الانتحارَ فى عام 1970، وتزوج زوجته الرابعة، امرأة روسية. وحين تسلّمَ وسامَ لينين Order of Lenin، شبّهه بوسام الفروسية: «أحد أفضل الأوسمة»[704].

لكن ما أثار غضبه هو أنه لم يكن أكثر من مجرد «عميل» داخل ال كى جى بى. مات بورجيس فى أغسطس عام 1963 بفشل كبدى. ماكلين أيضًا أدمن الشرابَ حتى الموت. وأما كبد فيلبي فاستمر بطريقة ما حتى عام 1988.

الآخرون انحدروا إلى خيار الهروب إلى جنة العُمّال. قال بلونت ل مُودِن بعد هروب بورجيس وماكلين: «أعرف تمامًا كيف يعيش رجالك، وأؤكد لك أنه من

الصعب بالنسبة لي، بل مما لا يُطَاقُ تقريبًا، أن أعيش هذه المعيشة»[705].

وبعد اعتراف مايكل ستريت بأن بلونت جنّدَه حين كان طالبًا فى كلية ترينيتى، اعترف بلونت للمكتب الخامس MI5 فى عام 1964؛ رغم أنه لم يكن مكشوفًا صراحةً حتى نوفمبر عام 1979.

(فى مذكراته، التى لم تُنْشَرْ حتى عام 2009، قال بلونت إنه ندم - كما لم يندم من قبل - على عمله لصالح المخابرات السوفييتية، واصفًا إياه بأنه «أكبر غلطة فى حياتى»). وأخيرًا، كيرنكروس كشَفَتْه وثائقُ تحت يده وَرَدَ فيها أن بلونت فشل فى الانتقال من شقة بورجيس، ولكن الأدلة ضده لم تكن تكفى لا عتقاله، فأُحيل إلى التقاعد، بطريقة مُتكتِّمة، وسُمِحَ له بالبحث عن عمل أكاديمى فى الولايات المتحدة. ثم اعترف فى عام 1964 للمكتب الخامس MI5 بأنه تجسّسَ لصالح السوفييت، ولكنه رفض العودة إلى المملكة المتحدة، متقبلا ً وظيفة فى منظمة الأغذية والزراعة العالمية التابعة للأمم المتحدة فى روما. وفى عام 1970، حصل على حصانة من الملاحقة القضائية. ولكنه حتى عام 1982 لم يؤكد أنه «الرجل الخامس» Fifth Man. ولم يُعْلَنْ عن ذلك حتى عام 1990، بعد سنوات من التكهُّنات الجامحة التى اتّهمت خطأً ما لا يقل عن عشرة آخرين من خريجى كمبريدج باتصالاتٍ استخباراتية، بمَن فيهم هولِس وروتشيلد[706].

هكذا، لم يُحاكمْ أو يُدَان أىٌّ من جواسيس كمبريدج، ناهيك عن أن يُسْجَنَ أحدُهم؛ على عكس ما حَدَثَ لجورج بليك George Blake، الجاسوس السوفييتى الذى لم تكن له أى اتصالات بالمؤسسة الحكومية، والذى صَدَرَ عليه حُكْمٌ باثنين وأربعين عامًا لما اقترفه من جرائم.

40

مقابلة قصيرة

كانت عبارةُ «اتّصِلْ فقط» - بدلا ً من عبارة «انشَقّ فقط» - شعارَ الرُسُل فى يوم من الأيام. أما داخل الاتحاد السوفييتى زمن ستالين، الذى خَدَمَه بإخلاصٍ جواسيسُ كمبريدج، فقد كان أقلُ تواصلٍ [أو اتصالٍ] مُمِيتًا، أو يقترب من كوْنه مُمِيتًا. فى ليلة من ليالى شهر نوفمبر فى مدينة لييننجراد Leningrad، بعد أشهر من نهاية الحرب، قابل فيلسوفٌ من جامعة أكسفورد هو إشَعْياء برلين[650] Isaiah Berlin الشاعرةَ الروسية آنّا أخماتوفا[651] Anna Akhmatova.

---

[650] إشعياء برلين: (1909 - 1997)، منظِّر اجتماعى سياسى روسى بريطانى، وفيلسوف ومؤرّخ أفكار وباحث ليبرالى، وأستاذ النظرية السياسية والاجتماعية فى جامعة أكسفورد. عمل خلال الحرب فى الخدمة الدبلوماسية البريطانية. ونال جائزة القدس عام 1979 لكتاباته عن الحرية الفردية - المترجم.

[651] آنا أخماتوفا: (1889 - 1966)، اسم مستعار ل آنا أندرييفنا جورينكو، من أبرز شاعرات روسيا، ومن أشهر المؤثرين فى الشعر الروسى. تُرْجِمَتْ أعمالها إلى العديد من اللغات - المترجم.



إشَعْياء برلين والشاعرةَ الروسية آنّا أخماتوفا.

كان اللقاءُ، لكليهما، لقاءً لا يُنْسَى: نوعًا من التواصل الفكرى والروحى العفيف، الخالى من المحتوى السياسى. ولكن المقابلة دَمّرتْ حياةَ أخماتوفا تقريبًا. من الصعب العثور على مثالٍ للتوتاليتارية [الشمولية]، النظام الهَرَمى المطلق، أوضح من هذا. مثقفان لم يستطيعا مناقشة الأدب فى شقة خاصة دون أن يهتم ستالين نفسه اهتمامًا شخصيًا وخبيثًا بالحدث فيستخدمه بوصفه دليلا ً على تبرير المزيد من ممارسته الاضطهاد.

عاشت أخماتوفا لفترة طويلة تطاردها سحابةُ الشك. عُرِفَتْ آنا أندرييفنا جورينكو [آنا أخماتوفا] Anna Andreevna Gorenko، بوصفها شاعرةً مشهورةً قبل الثورة. وأُعْدِمَ زوجُها الأول الكاتب القومى الرومانسى نيكولاى جوميليف[652] Nikolay Gumilev، لنشاطه المُعادِي للسوفييت عام 1921[707].

---

[652]نيكولاى جوميليف: (1886 - 1921)، شاعر وناقد أدبى وضابط عسكرى روسى، أعدمته الشيكا عام 1921 - المترجم.

أظلمت السّحابةُ بعد تلقِى ديوانها الشعرى الرابع Anno Domino MCMXXI؛ حين أشار أحدُ النقاد إلى صورة بطلتها «المزدوجة» أو «المتناقضة»: «نصف «عاهرة» يُلْهِبُها الشّغفُ، ونصف «راهبة» تتضرع إلى الله لنَيْل غفرانه». وكتَبَ ناقدٌ آخر قائلا ً إن كل روسيا انقسمت بين أتباع ماياكوفسكى[653] Mayakovsky وأتباع أخماتوفا، وهو ما يعنى ضمنًا، وعلى نحو فيه إدانة، أن أخماتوفا مُحافِظةٌ فى مقابل ثورية فلاديمير ماياكوفسكى[708]. انقطعت أعمالها عن النشر بعد عام [709]1925. ثم بعد عشر سنوات، قُبِضَ على ابنها ليف جوميليف[654] Lev Gumilev وزوجها الثالث نيكولاى بونين[655] Nikolai Punin. وبناءً على نصيحة صديق، هو الكاتب بوريس باسترناك[656] Boris Pasternak، كتَبَتَ التماسًا يائسًا ومباشرًا إلى ستالين، تتوسّلُ إليه كى يُطْلِقَ سراحَ «الشخصين الوحيدين القريبين لي».

وبأعجوبة، وافق ستالين على تلبية استرحامها، فأشّرَ على رسالتها يأمر بإطلا ق سراح الرجلين[710]. ثم اعْتُقِلَ جوميليف ثانيةً فى مارس عام 1938، وحُكِمَ عليه بعشر سنوات فى معسكر العمل فى القطب الشمالى فى نوريلسك Norilsk، مستعمرة فى أقصى شمال العالم [أقصى شمال سيبيريا][711]. ورغم أن أخماتوفا قد رُدّ إليها اعتبارها لفترة وجيزة عام 1939، فقد فوجِئت بردِّ

---

[653]مايا كوفسكى: (1893 - 1930)، كاتب وشاعر روسى، والده من أصول تترية وأمه من أصول أوكرانية. تعرّفَ فى موسكو على الفكر الماركسى وشارك فى نشاطات حزب العمل ا لاشتراكى الديمقراطى الروسى. من أشهر قصائده «غيمة فى سروال». انتحر يوم 14 أبريل عام 1930 بعد فشله فى حياته العاطفية وعدم تحقيق الثورة لطموحاته وأحلامه - المترجم.

[654]ليف جوميليف: (1912 - 1992)، مؤرّخ سوفييتى وإثنولوجى وأنثروبولوجى، أحد المؤرّخين الروس الأكثر تأثيرًا فى القرن العشرين. أُعْدِمَ والدُه وهو فى سن السابعة. اعتقلته المفوضيةُ الشعبية للشؤون الداخلية عام 1935، ثم أُعيد اعتقاله مرة أخرى وحُكِمَ عليه بالسجن لمدة خمس سنوات عام 1938. بعد خروجه من السجن انضمّ إلى الجيش الأ حمر وشارك فى معركة برلين. أُعيد اعتقاله مرة أخرى عام 1949 وحُكِمَ عليه بعشر سنوات في معسكرات الاعتقال - المترجم.

[655]نيكولاى بونين: (1888 - 1953)، باحث وكاتب فنى روسى، قام بتحرير العديد من المجـ لات - المترجم.

[656]بوريس باسترناك: (1890 - 1960)، كاتب وشاعر روسى، اشتهر فى الغرب بروايته المؤثِّرة عن الاتحاد السوفييتى «الدكتور زيفاجو». مُنِحَ على إثرها جائزة نوبل للآداب عام 1958، ولكنه رفضها. حُوِّلَتْ روايتُه إلى فيلم سينمائى عام 1965 من إخراج ديفيد لين وبطولة عمر الشريف وجولي كريستي. حصد الفيلم خمس جوائز أوسكار - المترجم.

فعل عنيف خاطفٍ على نَشْرةٍ لمختارات من قصائدها (بعنوان «من ستة كتب» From Six Books عام 1940):

أمر مدير الحزب فى لينجراد أندريه جدانوف[657]Andrei Zhdanov، بمصادرة الكتاب، مُتّهمًا «قصائد أخماتوفا بالانغماس في الفسق والرذيلة»[712].

كتَبَت الشاعرةُ معظمَ قصائد هذه المجموعة، خلال الفترة بين عاميْ 1935 و 1940، عن الإرهاب Terror و«قدّاس الموتى» Requiem، رَوَتْ فيها بِلَوْعَةٍ وأسى آلامَ وعذاب الملايين الذين فقدوا أحِبّاءهم بسبب طغيان ستالين واستبداده عديم الرحمة[713].

ليس غريبًا أن تنشأ علاقةٌ وجدانية قوية بين أخماتوفا والفيلسوف الإنجليزى الشاب اللامع. وُلِدَ برلين فى ريجا Riga [عاصمة لاتفيا إحدى دول بحر البلطيق] لعائلة يهودية ثرية عام 1909، وبوصفه طفلا ً نابهًا قبل الأوان شَاهَدَ الثورةَ الروسية Russian Revolution، ولكن آل برلين اختاروا مغادرةَ ا لاتحاد السوفييتى عام 1920، وبعد عام استقروا فى لندن. ثم تلقى برلين تعليمَه فى كليتىْ سانت بول St Paul وكوربوس كريستى Corpus Christi، بجامعة أكسفورد. ورغم انغماسه فى الفلسفة بوصفه أكاديميًا شابًا، لم يفقد اتصاله بجذوره الروسية. فقادته مهاراته اللغوية إلى وظيفة مؤقتة هى سكرتير أول السفارة البريطانية فى موسكو صيف عام 1945. وفى زيارة بـ رلين إلى لينجراد، بصحبة بريندا تريب Brenda Tripp مديرة المجلس الثقافى البريطانى British Council تعرّف إلى أخماتوفا فى متجرٍ لبيع الكتب المستعملة يمتلكه جينادي راكلين[714] Gennady Rakhlin.

ثم دَعَتْه أخماتوفا يوم 14 نوفمبر عام 1945 إلى شقتها فى فونتَنى دوم Fontanny Dom، قصر آل شِرِميتيف Sheremetevs الرائع فيما مضى، على قناة فونتانكا Fontanka. انتهى هذا اللقاء الأول بسرعة نوعًا ما، وبشكل مضحك. ثم قام برلين بزيارة ليلية ثانية لأخماتوفا قبل عودته إلى موسكو فى العشرين من نوفمبر. كانت الزيارة بعد منتصف الليل، وكانا بمفردهما، فأخذا بأطراف الحديث. أخبرها عن أصدقائها المُشَرّدين فى الأرض الذين فَرُّوا كعائلته منذ الثورة:

---

[657]أندريه جدانوف: (1896 - 1948)، سياسى ومفكر ومُنظِّر ثقافى بارز، من أشهر مفكرى الحزب الشيوعى فى الحقبة الستالينية. طرح مبدأه المشهور، مبدأ جدانوف، الذى ينص على تسخير كل الإمكانات الفنية والإبداعية لمواجهة الثقافة البرجوازية. اعتُبِرَتْ أفكاره تيارًا عُرِفَ باسم «الجدانوفية». زال أثره بعد وفاة ستالين. وتُوفِّى عام 1948 فيما يُعْرَفُ بـ«مؤامرة الأطباء اليهود» الذين تعمّدوا إهمال صحة قياديي الحزب الشيوعي - المترجم.

الملحن آرتور لوريه Artur Lurié، الشاعر جورجى أداموفيتش Georgy Adamovich، فنان الفُسَيْفساء بوريس أنريب Boris Anrep، سيدة المجتمع البارزة سالومى أندرونيكوفا Salome Andronikova. أما هى فحَكتْ له عن طفولتها في البحر الأسود Black Sea وزيجاتها، وحُبِّها للشاعر أوسيب ماندلستام[658] Osip Mandelstam (الذى مات فى الجولاج عام 1938)، ثم ألقت بصوتها بعضَ المقاطع من قصيدة بايرون Byron الطويلة «دون جوان» Don Juan (بإنجليزية [مكسّرة]، أتبَعَتْها بمختارات من قصائدها، بما فيها قصيدة لم تنتهِ منها بعنوان «قصيدة بلا بطل» Poem without a Hero و «قدّاس الموتى» Requiem، اللتين قرأتهما من مخطوطة.

استمرت مناقشاتهما الأدبية - عن تشيخوف Chekhov وتولستوى Tolstoy ودوستوفسكى Dostoevsky وكافكا Kafka وبوشكين Pushkin وألكسندر بلوك Alexander Blok ومارينا سفيتيفا Marina Tsvetaeva وباسترناك Pasternak، وحشد من الشعراء الآخرين الأقل منزلةً - استمرت حتى وقت متأخر من صباح اليوم التالي، وترَكتْ في كليهما أثرًا لا يُمْحَى.

تجاذبا أطراف الحديث فى الموسيقى أيضًا. ولا شىء يمكنه إيضاح مدى تدمير نظام الحُكم السوفييتى للشبكات الأدبية والفنية فى أوربا قبل عشرينيات القرن العشرين أفضل من أن أخماتونا - شأنها شأن باسترناك الذى قابله برلين أيضًا - لم تكن تعرف أىّ شىء تقريبًا عن أحدث أعمال الكتّاب و الفنانين الذين عرفتهم من قبل، ناهيك عن أعمال الفنانين والأدباء الجُدُد. أنْ تكون شاعرًا فى روسيا زمن ستالين معناه أن تكون شبكةً معزولةً [مفردة]. لقد اندهش برلين من أن أخماتوفا لا تزال متواجدةً، فقد كتب لاحقًا يقول: «كان الأمر كما لو كنتُ دُعِيتُ فجأةً لمقابلة الآنسة كريستينا روزيتى[659] Miss Christina Rossetti».[715]

كان برلين زائرَها الأجنبىّ الثانى، فقط، منذ الحرب العالمية الأولى. لو أنها غادرت روسيا قبل صعود ستالين لانضمت إلى [مجموعة] بلومزبرى Bloomsbury. وكما اعتَرَفَتْ أخماتوفا لبرلين، كانت «عُرْضةً للوقوع فى الحب بسهولة». لقد شاركت بلومزبرى اهتمامًا مفرطًا ب«شخصيات الآخرين وأفعالهم...

---

[658] أوسيب ماندلستام: (1891 - 1938)، كاتب وشاعر روسى، اعتقلته حكومة ستالين أثناء التطهير الكبير في ثلاثينيات القرن العشرين - المترجم.

[659] كريستينا روسيتى: (1830 - 1894)، شاعرة إنجليزية كتبتْ مجموعةً متنوعة من القصائد الرومانسية والعاطفية - المترجم.

الأمر الذى ضَاعَفَ من بصيرتها الحادّة بالمركز الأخلاقى لكل من الشخصيات و المواقف... بالإضافة إلى عنادٍ دوجماطيقى فى تعْتِ الدوافع والنوايا». كانت حياتُها بأسرها، فيما يتأملها برلين، «إدانةً متواصلة للواقع الروسى». لكنها «لم تكن لترحل: كانت مستعدةً للموت فى بلدها، ولا تُبالى بالأهوال المدّخَرة؛ فهى لن تتخلى عن بلدها أبدًا»، رغم أن «لينتجراد لم تكن بعد الحرب سوى مقبرة ضخمة، مدفن لأصدقائها؛ بَدَتْ لينتجراد كالغابة المحترقة، أشجارُها القليلة المُتفحِّمة جعلت الخرابَ أكثرَ خرابًا».

التقيا مرةً أخرى [أخماتوفا وبرلين] لقاءً قصيرًا يوم 5 يناير عام 1946، قبل رحيل برلين عن روسيا. ولم يندهش حين أعطته مخطوطًا فى حجم عملها السابق، «القصيدة التى شَكّلتْ فيما بعد ثانيةَ قصائدِها فى المجموعة التى حملت عنوان «سينك» Cinque... و[التى] كانت فى صورتها الأولى، إلهامًا مباشرًا من لقائنا السابق». لم يكن اللقاءُ أقلّ تأثيرًا بالنسبة له. فقد كتَبَ لاحقًا يقول إنه «أثّرَ فىّ بشكل عميق وغيّرَ نظرتى للأمور تغييرًا كبيرًا». لقد اعتقد أن جلالَ رَوْنَقِها وشِعْرَها «عملٌ من أعمال العبقرية والتفرُّد». قال فيما بعد إن لقاءهما منحه الإحساسَ بالرجوع إلى «وطنه». ولعله كان الحافزَ الذى حوّله بعيدًا عن الفلسفة إلى تاريخ الفكر السياسى، فاستكمل أفضل أعماله فى الدفاع عن الحرية الفردية، ومُناهَضة الحتمية التاريخية. «لم تكن علاقة حبٍّ عادية»، كما كتَبَ أحدُ المُعلِّقين. «لم يكن بينهما علاقة جنسية. فلا بد أنه أحدُ أنقى اللقاءات بين شخصيتين إنسانيتين فيما يُعْرَفُ. عقلان فائقان، بدا للوهلة الأولى أنهما يتشاركان معًا فى دَفْعِ أحدهما الآخر إلى أعلى ذروة الحُبِّ والفَهْم المتبادل بطريقة لم تحدث لأيّهما من قبل. بل لعل لقاءَهما مثالٌ فريدٌ من نوعه ne plus ultra، مثالٌ أفلاطونيٌ للتواصل الإنساني»[716].

وقد أظهرت أخماتوفا، كما كتَبَ باسترناك إلى برلين فى العام التالى، افتتانًا ببرلين: «كل كلمة ثالثة تتفوّه بها هى أنْتَ. هكذا بشكل درامى وغامض! مثلا ً ذات ليلة، ونحن فى التاكسى أثناء العودة من لقاء مسائى أو حفل استقبال، كانت مُسْتثارة ومُتْعَبة، وإلى حد ما غارقةً فى سحابةِ حزنٍ (أو سَكْرانة) فقالت بالفرنسية: قال صديقنا notre ami (أنْتَ)، أو وَعَدَ، إلخ، إلخ.»[717]. «سينك» [فى مجموعتها الشعرية] هو دون شك البطل الذى أوحى به برلين[718]. وقد خَمَّنَ البعضُ أنها رأت فى برلين - أيضًا - البطلَ الحاضر عبر غيابه فى «قدّاس الموتى»[719]، رغم أن التضمين «الثالث والأخير» فى تحفة أخماتوفا الإبداعية - «قصيدة بلا بطل» Poem without A Hero - لم يُقْصَدْ به برلين وحده:

كفى، لقد تجمّدتُ في خوف جِدِّ طويل،

لذا سأستدعي الآن موسيقى الشاكون لباخ،
وعلى أنغامها سيأتي لي رجل.
ليس زوجي،
ولكن ما سنحققه معًا
سيقضُّ مَضْجَعَ القرن العشرين.
تلقيتُه خطأً كمصير خفيٍّ
لامَسَني ودَنَا معه الأسوأ من كل شيء.
على طول قناة فونتانكا سيمشي،
آتيًا في وقت متأخر عبر الليل والضباب،
سيشرب نبيذي مُستقبِلا ً العامَ الجديد.
وسيتذكر ليلةَ عيد الغطاس،
وشجرة القَيْقب، وومضات شموع الزفاف،
والقصيدة في تحليقها المميت.
لن تأتي به، يَحْمِلُني، زهرةُ الربيع الأولى،
ولا صلواتُ الحبِّ الحلوة، ولا حتى خاتم - بل الموتُ سيأتى به يَحْمِلُنى هذه الليلة[720].

وكما يشير السطر الأخير، كانت عواقبُ لقاءات أخماتوفا مع هذا «الضيف من المستقبل» (عبارة من قصيدتها «عام 1913» (The Year 1913) كارثيةً. وبالنظر إلى سِجلِّ أخماتوفا الحافل ومكانة برلين الرسمية، لم يكن مستغربًا أن يظهر - بشكل غير متوقع وغير لائق - الفاسقُ المستهترُ ابنُ رئيس الوزراء راندولف تشرشل Randolph Churchill خارج مسكن أخماتوفا بمناسبة زيارة برلين الأ ولى[721].

ربما لم يتفوّه ستالين بكلمات من قبيل «هكذا تستقبل راهبتُنا الجواسيسَ البريطانيين»، ولكنه افتراض معقول فى أجواء ما بعد الحرب المشحونة[722]. فى غضون أيام، قامت الشرطة السرّية بتركيب ميكروفونات بطريقة غير احترافية فى سقف منزل أخماتوفا. وأجبروا امرأةً بولندية كانت تُتَرْجِمُ أعمالَها على إعطائهم تفاصيل عن زيارات برلين[723]. لم يَرْدَدْ تعرُّضُ أخماتوفا للخطر إلا فى إبريل التالى، عندما قبلت دعوةً لقراءة شعرها فى مجلس النقابات House of Unions فى موسكو. الاستقبال الحافل من الجمهور، الذى

تكرّرَ في لينن‍جراد بعد أربعة أشهر، أفزعها، ولسبب وجيه[724].

تم تكثيف المراقبة عليها وعلى أصدقائها. وتدخّلَ ستالين مرة أخرى، لكن هذه المرة ليس لإنقاذها بل للمشاركة فى النقد الأدبى، فذَكَرَ أن المرء بإمكانه أن يَعُدّ قصائد أخماتوفا ما بعد الثورية الجيدة «على أصابع اليد الواحدة»[725].

وفى يوم 14 أغسطس، أصدرت اللجنةُ المركزية Central Committee قرارًا «على صفحات مجلتىْ زفيزدا [النجمة الحمراء] Zvezda ولينن‍جراد Leningrad يهاجم مُحرّريهما لنشرهم أعمالا ً «ضارّة أيديولوجيًا» لإخماتوفا والكاتب الساخر ميخائيل زوتشينكو Mikhail Zoshchenko. ثم نُدِّدَ بكلا المؤلِفيْن تنديدًا شديدَ اللّهجة فى اجتماع اتحاد كتّاب لينن‍جراد، من قِبَلِ عدوِّ أخماتوفا القديم جدانوف، الذى دَفَعَه ولقّنه جورجى ألكسندروف Georgi Alexandrov رئيسُ قسم الدعاية فى اللجنة المركزية، وقد أغراه بالتصرُّف على هذا النحو استنكارٌ أبداه موظفٌ فى قسمه[726]. كانت كلماتُ هجوم جدانوف كاشفةً:

ما أعمال أخماتوفا إلا شِعْر امرأة أرستقراطية مُدلّلة، تتأرجح بشكل مسعور بين المَخْدَع والكنيسة... ومن الصعب القول ما إذا كانت راهبةً أم امرأةً ساقطةً؛ لعل الأفضلَ القولُ بأنها مزيجٌ منهما، فرغباتُها وصلواتُها متشابكةٌ مُتداخلةٌ... مِزاجُ العزلة واليأس هذا، الغريبُ على روح الأدب السوفييتى، يتخلل أعمالَ أخماتوفا كلها... أعمالُ أخماتوفا شأنٌ من شؤون ماضٍ بعيد؛ غريبةٌ على الحياة السوفييتية ولا يمكن احتمالها على صفحات مجلاتنا... ولا تزرع شيئًا سوى الكآبة والمعنويات المنخفضة [المزاج العَكِر المنقبض] و التشاؤم والرغبة فى الهروب من مشكلات الحياة الاجتماعية والنشاط، إلى ع الم التجارب الشخصية الصغير الضيّق[727].

كان كلُّ شىء فى الدولة الشمولية [التوتاليتارية] محظورًا، حتى التجارب الشخصية.

أُهِينَتْ أخماتوفا وتعرّضت للإذلال علانيةً، ولكنها لم تُعْتَقَلْ بسبب تدخُّل برلين ، وعُلِّقَ مؤقتًا معاشُها المتواضع وحصّتُها التموينية[728].

ولم يعد من الممكن وجود أى اتصالات بينها وبين برلين. فلم يعلم برلين أن ابنها ليف - الذى أُطلِقَ سراحُه من الجولاج كى يحارب بوصفه مدفعجيًا مضادًا للطائرات فى «الحرب الوطنية العظمى»[660] Great Patriotic War - قد اعْتُقِلَ مرة أخرى فى عام 1949، وحُكِمَ عليه بعشر سنوات أخرى فى

---

[660]الحرب الوطنية العظمى: تعبير مستعمل فى روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتى السابقة بوصفه المقابل لتعبير «الحرب العالمية الثانية» - المترجم.

معسكرٍ فى كازاخستان. كلا، ولا سمع عن إعادة اعتقال زوجها الثالث بونين وموته فى الجولاج[661] فى عام 1954، مع الانفراجة الطفيفة التى أعقبت وفاة ستالين، رآها مجموعةُ طلبة بريطانيين، منهم الشاب هارى شُكمان Harry Shukman، فى دار كُتّاب لينتجراد Leningrad House of Writers. اعْتَقدَتْ أخماتوفا أن برلين قد أرسلهم، ولكنه فى الواقع لم يكن يعرف شيئًا عن هذه الزيارة[729]. وعندما نشرت جريدة نيو ريبابليك New Republic تقريرًا مثيرًا عن مقابلة برلين بأخماتوفا، اعتمل في داخله غضبٌ شديد[730].

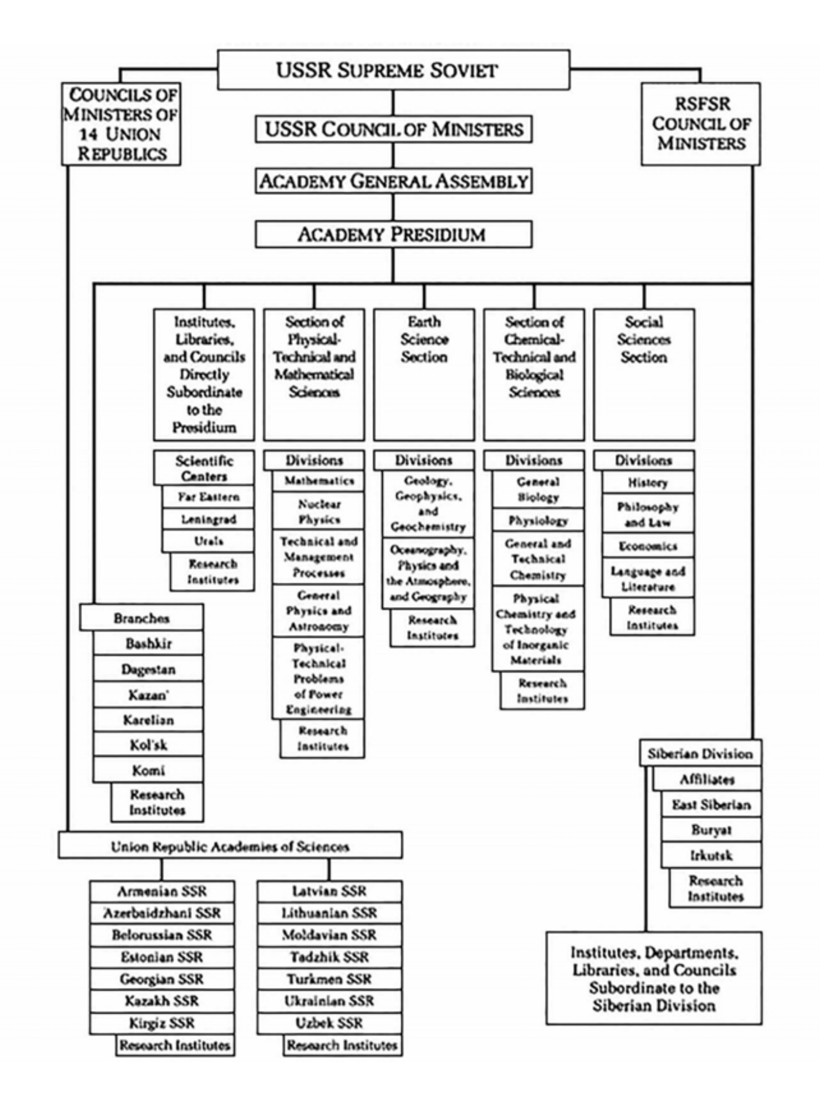
وكان سيغضب برلينُ أكثر إذا عرف أن الكاتب، مايكل ستريت، هو أحدُ طلبة كمبريدج، الذين أقنعهم أنتونى بلونت بالتجسُّس لصالح السوفييت. بعد ثلاثة أعوام، فى أغسطس عام 1956، عندما عاد برلين إلى روسيا أبلغته أخماتوفا، عبْر باسترناك، بأنها لا تريد مقابلته لأن ابنها - الذى أُطلِقَ سراحُه مؤخرًا - سيعانى، ولو أنهما (بشكلٍ غير منطقى نوعًا ما) تحدثا مرة واحدة بالتليفون. لم تكن الظروفُ مواتيةً، لأن برلين قد تزوّج مؤخرًا، ومن الواضح أن هذا الخبر جاء بمثابة الصدمة لشاعرة رومانسية عريقة[731].

بعد تسع سنوات، زارتْ أخماتوفا جامعةَ أكسفورد للاحتفال بمَنْحها شهادة فخرية، وكانت زيارتُها مفعمةً بمشاعر الأسى. وقالت أخماتوفا بكل جدية لبرلين إن لقاءهما - الذى أغضب ستالين جدًا - قد «افتتح الحرب الباردة Cold War، فغَيّرَ تاريخَ البشرية». لم يتجادل برلين - وهو ليس بعاشقٍ مواجهةٍ - مع امرأة نصف محطّمة ومتقدِّمة في العمر[732].

لقد أخْلَصَ برلينُ طول الوقت للروح الأصلية فى جمعيّتىْ نِقاش وبلومزبرى، التى خانتها شِلّةُ مُعاصريه البذيئة فى كمبريدج، رغم عدم انتمائه إلى هاتين الشبكتين.

---

[661]ليو Leo عمٌ برلين، مواطن سوفييتى، اعْتُقِلَ أيضًا عام 1952، قُبِضَ عليه ضمن مجموعة واتُّهِمَ بالانتماء إلى حلقة جاسوسية بريطانية. وتحت وطأة التعذيب، اعترف بأنه كان فعلا ً جاسوسًا بريطانيًا. وبعد قضائه عامًا فى السجن، أُطلِقَ سراحه بعد وفاة ستالين، ولكنه بدأ يعانى من أزمة قلبية بعد ذلك بوقت قصير حين مَرّ بأحد جلاديه فى الشارع - المؤلف.



الشكل: 26 - التنظيم السوفييتى للعلوم فى ظل حُكم ستالين («منظومة البحث في أكاديمية العلوم باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية»).

41

إيلا في مدرسة إصلاحية

كان منتصفُ القرن العشرين ذروةَ التسلسل الهَرَمى. ورغم انتهاء الحرب العالمية الأولى بانهيار ما لا يقل عن أربع سُلالات إمبراطورية عظمى - آل رومانوف Romanov، آل هابْسبورج Habsburg وآل هُوهِنْزولرن Hohenzollern، آل عثمان Ottoman - فقد حلّتْ محلّها على الفور «دولٌ إمبراطوريةٌ» empire states جديدة وأقوى جَمَعَتْ بين اتساع الإمبراطورية والإصرار على التجانس العِرْقى اللغوى والأوتوقراطية [حُكْم الفرد المطلق] autocracy. لقد شهدت ثلاثينياتُ القرن العشرين وأربعينياتُه صعودَ أشد الدول مركزيةً وسيطرةً (الاتحاد السوفييتى فى عهد ستالين، وهتلر الرايخ الثالث، وجمهورية ماوتسى تونج Mao Zedong الشعبية)؛ بل نمت الدول الديمقراطية العظمى أيضًا بطريقة أكثر مركزيةً من حيث هياكلها الإدارية، استجابةً للكساد وبداية صراع عالمي آخر.

وأدّت الصراعاتُ المُرَكّبة بين عامىْ 1939 و1945، التى أسميناها الحرب العالمية الثانية، إلى تعبئة غير مسبوقة للشباب. ففى جميع أنحاء اليابسة الأ وراسية وأمريكا الشمالية وأستراليا، تلقّى الذكورُ من سن المراهقة إلى سن الث لاثين أوامرَ استدعاء للتجنيد فى القوات المسلحة. أكثر من 110 مليون شخص خدموا فى القوات العسكرية للدول المُتحاربة، كل الذكور تقريبًا. ومع انتهاء الحرب، كان رُبْع القوى العاملة البريطانية يرتدى الزىّ الرسمى، و18% من القوى العاملة الأمريكية و16% من القوى العاملة السوفييتية. نِسَبٌ كبيرة من هذه الجيوش الهائلة لم تعد إلى البيت [الوطن]. كان إجمالى القتلى من العسكريين فى الحرب العالمية الثانية حوالى 30 مليون (وعدد القتلى من المدنيين كان أعلى). جندى من كل أربعة جنود ألمان فُقدَ حياته؛ وكان معدّلُ القتلى فى الجيش الأحمر Red Army مرتفعًا. هكذا، قاد زمّارو أوربا المُبَهْرَجون جيلا ً من الشباب اليافع إلى حَتْفِه.

ولكن الجيوش لم تكن وحدها أكبر التنظيمات الهَرَميّة فى أواسط القرن العشرين، بل هيمنت التسلسلاتُ الهَرَميّة أيضًا فى المجالات الاقتصادية والا جتماعية والسياسية. المُخطِّطون المركزيون حَكموا، سواء عملوا فى الحكومات أو الشركات الكبرى، وسواء كانت مهمتهم التدمير [والهدم] أم الإ نتاج [والبناء]. فى الولايات المتحدة، حدّدَ ألفريد سلون[662] Alfred sloan

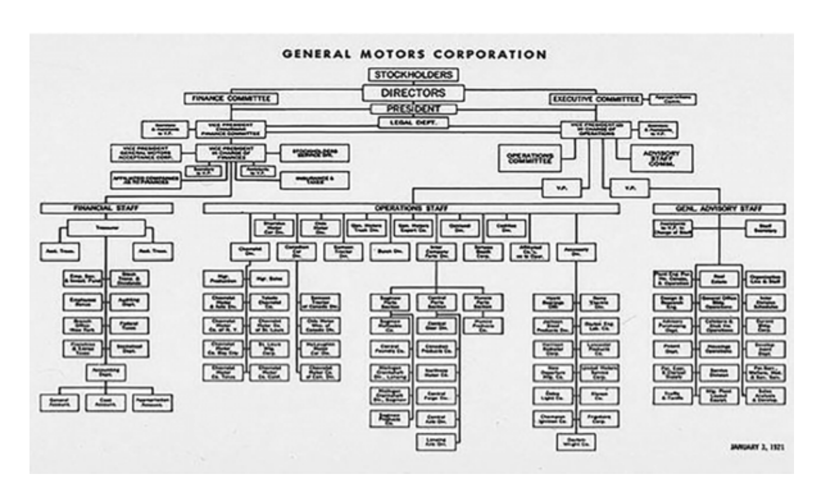
---

[662]ألفريد سلون: (1875 - 1966)، رجل أعمال أمريكى فى صناعة السيارات، خَدَمَ لفترة

رئيسُ مجلس إدارة شركة جنرال موتورز General Motors نموذجَ الشركة متعددة الأقسام[663] form corporation-M ، الذى صار بسرعة كبيرة قالبًا لتنظيم الشركات في جميع أنحاء العالم المتقدِّم (انظر الشكل 27).

طويلة بوصفه رئيس مجلس إدارة شركة جنرال موتورز ومديرها التنفيذي - المترجم.

[663] إم فورم أو النموذج متعدد الأقسام multi - divisional form: بنية تنظيمية تنقسم من خلالها الشركةُ إلى وحدات شِبْه مستقلة يتم توجيهها والتحكّم فيها وفق أهداف المركز العامة. ولكن تُتْرَكُ معظمُ القرارات للأقسام المستقلة بحيث تكون كلٌ شركة فرعية مسؤولةً عن إنتاجها وتعظيم أرباحها - المترجم.



الشكل رقم: 27 - «دراسة تنظيمية» لشركة جنرال موتورز، أعدّها ألفريد سلون.

وقد أُعِيدَ تشكيلُ النظام الدولى بشكل هَرَمى أيضًا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. فمن الناحية النظرية، تمتعت كل الدول القومية بتمثيل متساوٍ فى الأمم المتحدة United Nations. ومن الناحية العملية، بَرَزَ نظامان للتحالف العسكرى، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، بوصفهما عضويْن مُهَيْمِنَيْن. وجلس معهما فى مجلس الأمن UN Security Council ثلاثةُ منتصرون آخرون فى الحرب: بريطانيا، والصين، و(بشكل لا يُصدّقُ) فرنسا التى كانت أولى الأراضى التى احتلتها دولُ المحور Axis powers. ورغم أن الحرب الباردة جعلت مجلسَ الأمن طريقًا مسدودًا - أو «غرفةٌ مظلمة بلا رؤية»، كما أطلق عليه ديبلوماسىٌ فنزويلىٌ بشكل لا يُنْسَى - فقد طُبِّقَ قالبُ فيينا[664] من حيث المبدأ، ونشأ اتحادٌ خُمَاسي جديد يتكون من خَمْس قوى عظمى.

وبدا طبيعيًا أن ينقل الرجالُ الذين قاتلوا فى الحربين العالميتين بعضَ أساليب العمليات التى تعلموها، وهم بالزىّ العسكرى، إلى الحياة المدنية. ولكن خبرة الحرب التقليدية واسعة النطاق لا تُقدِّم تفسيرًا كافيًا للأبنية التى تبدأ من الأعلى إلى الأسفل فى العديد من تنظيمات أواسط القرن العشرين. فثمة أيضًا ظرفٌ تكنولوجى فَضّلَ السيطرةَ من أعلى. كان الكاتب الفيينى الساخر كارل كراوس Karl Kraus على حقٍّ فى إشارته إلى أن تكنولوجيا الاتصالات فى منتصف القرن العشرين أفادت التسلسلاتِ الهَرَميّةُ إفادةً كبيرة.

---

[664] الإشارة إلى مؤتمر فيينا سبتمبر عام 1814 حتى يونيو عام 1815، وما نشأ على إثره من تحالف مقدس أدّى إلى حُكم خماسى للعالم بقيادة الدول المنتصرة على نابليون فى معركة واترلو [سبق ذكر التفاصيل في هوامش سابقة] - المترجم.

فرغم أن الهاتف والإذاعة خلقا دون ريب شبكات جديدة هائلة، فقد كانت شبكاتٍ مُهَيْكلةً بنظام البنية ذات المحور والفروع spoke structure-hub التى يَسْهُلُ نسبيًا قطعها أو اختراقها أو السيطرة عليها. فكالجرائد والسينما و التلفزيون، لم يكن الراديو تكنولوجيا شبكية حقيقية، لأنه ينطوى بوجه عام على اتصال أحادي الاتجاه:

مِن مُزوِّدٍ بالمحتوى إلى المستمع. أما مَن استخدموا تكنولوجيا لاسلكية للتحدُّث فقد اعْتُبِروا بوجه عام كرَنْكات cranks (هُواة الأثير radio hams)[665]؛ إذ لم تكن التكنولوجيا ناجحةً تجاريًا. ولسبب وجيه، وَصَفَ جوزيف جُوبِلز الراديو بأنه «سلاح الدولة التوتاليتارية الروحى». وأضاف ستالين قائلا ً إن التليفونَ هديةُ اللّه للمتنصِّتِين.

من المهم ملاحظة أن هذه التكنولوجيات أعارت نفسَها أيضًا للسيطرة الا جتماعية فى المجتمعات الأكثر حريةً. ففى الولايات المتحدة - التى أُطلِقَتْ فيها الاتصالاتُ الهاتفية العابرة للقارات يوم 25 يناير عام 1915[733] - سرعان ما أصبح نظامُ الهاتف تحتَ سيطرة الاحتكار الوطنى عبر شركة ثيودور فايل «التليفون والتلغراف الأمريكى» Theodore Vail's AT & T[734]. ورغم بقاء شبكة الولايات المتحدة الأمريكية (المعروفة باسم «نظام بيل» Bell System، على اسم المخترع ألكسندر جراهام بيل Alexander Graham Bell المولود فى إدنبرة) غير مركزية بدرجة كبيرة من حيث الاستخدام (فى عام 1935، أقل من 1.5% من المكالمات الهاتفية عبرت خطّ دولة واحدة)، فقد كانت من حيث المِلكية والتوحيد القياسى التكنولوجى [المعايرة التكنولوجية] نظامًا واحدًا وحيدًا[735].

أعلن فايل قائلا ً إن «التنافس يعنى صراعًا وحربًا صناعية؛ يعنى خلافًا ونزاعًا»[736]. وتمثلت رؤيتُه فى الآتى: «نظام سِلكى عالمى لنقل المعلومات كهربيًا (اتصالات مكتوبة أو شخصية)، من كل شخص فى كل مكان إلى كل شخص فى كل مكان آخر، نظام عالمى واسع النطاق كنظام الطرق السريعة الذى يمتد من باب كل شخص إلى باب كل شخص آخر»[737]. وقد تعرّضَ فايل بكل سهولة لإشراف حكومى على الشبكة - لأنه كان مُعاديًا لأى ابتكار [وتجديد] يأتى من خارج احتكاره المطلق[738]. بدأ التنصُّت على الهاتف - وهو أمر يتيحه بكل بساطة أىُّ نظام يعمل وَفْقَ نظام تبديل الدائرة الكهربية - فى

---

[665] هُواة الأثير أو هواة الراديو أو لاسلكى الهواة: تخاطُبٌ بين الهواة باستخدام أجهزة الراديو اللاسلكية، وهى هواية منتشرة على مستوى العالم يبلغ عدد ممارسيها خمسةُ ملا يين شخص ما بين مُمارس ومُستمِع. ولها جمعيات واتحادات تنظِمها، ولها قوانينها وموجاتها الخاصة المختلفة عن موجات الإذاعات العامة - المترجم.

تسعينيات القرن التاسع عشر، وحَكَمَتْ بدستوريته المحكمةُ العليا Supreme Court فى قضية مُهرّب مدينة سياتل روى أولمستيد[666] Roy Olmstead، الذى أُدِين بأدلة أفاد بها التنصُّتُ على خطِّ التليفون. ولهذا سوابقه. ففى عام 1865، رُخِّصَ لخدمة البريد فى الولايات المتحدة الأمريكية مصادرة مواد فاحشة [داعرة]، وبطبيعة الحال لا يمكن اكتشافها إلا بفتح البريد الخاص. وتوصّلت المخابرات العسكرية الأمريكية إلى اتفاق مع ويسترن يونيون Western Union لاعتراض البرقيات المشتبه فيها فى عشرينيات القرن العشرين، رغم رفْضِ وزير الخارجية هنرى ستيمسن Henry L. Stimson، فى عام 1929، قراءة ما تم اعتراضه من الكابلات العسكرية اليابانية، استنادًا إلى أسسٍ نزاهةٍ عتيقة، صاغها على النحو الآتي:

«لا يقرأ السادةُ الأفاضل [الرجالُ المحترمون] بريدَ بعضهم البعض». بيرل هاربور[667] Pearl Harbor وكل ما تلاه جَرَفَ مثل هذه الوساوس فى غياهب النسيان.

وأجْرَتْ وكالةُ الأمن القومى National Security Agency، التى أُنْشِئَتْ فى عام 1952، تمشيطات واسعة النطاق لحركة تلغراف الولايات المتحدة الأ مريكية، فى محاولة منها للقبض على جواسيس سوفييت. وفى الوقت نفسه ، كان لمكتب التحقيقات الفيدرالى Federal Bureau of Investigation، بقيادة إدجار هوفر J.

Edgar Hoover، مطلق الحرية فى التنصُّت على خطوط التليفون. مثلا ً، فى يوم 19 أكتوبر عام 1963، أَذِنَ المحامى العام [النائب العام] روبرت كينيدي Robert F.

Kennedy لمكتب التحقيقات الفيدرالى [إف بى آى] ببدء التنصُّت على

---

[666]روى أولمستيد: (1886 - 1966)، أحد أشهر المُهرّبين فى منطقة شمال غرب المحيط الهادى أثناء الحظر الأمريكى. كان ملازمًا سابقًا فى إدارة شرطة سياتل، وبدأ التهريب وهو فى الخدمة الشرَطية. حين افتُضِحَ أمرُه فُصِلَ. فتفرغ لعملياته فى تهريب الكحول. ومن خلال التنصُّت على مكالماته التليفونية تُوصِّلَ إلى أدلة لاعتقاله ومقاضاته رغم الاستئناف في المحكمة العليا التي حكمت بشرعية التنصت في هذه الحالة - المترجم.

[667]بيرل هاربور، أو العملية «زد» كما يسميها اليابانيون: غارة جوية مباغتة نفذتها البحرية ا لإمبراطورية اليابانية يوم 9 ديسمبر عام 1941 على الأسطول الأمريكى القابع فى المحيط الهادى في قاعدته البحرية فى ميناء بيرل هاربور بجزر هاواى. غيّرَ هذا الحدثُ مجرى التاريخ وأجبر الولايات المتحدة التى كانت تتبنّى سياسة الانعزال على دخول الحرب العالمية الثانية التي انتهت بثأر عنيف - المترجم.

خطوط تليفون القس مارتن لوثر كينج، الابن[668]، Rev Martin Luther King, Jr.، في منزله ومكتبه، وهو برنامج مراقبة استمر حتى يونيو عام 1966[739].

لم تكن الإذاعة مركزية تمامًا على هذا النحو، ويرجع الفضل فى ذلك جزئيًا إلى مقاومة هربرت هوفر Herbert Hoover للسيطرة الفيدرالية على موجات الأثير أثناء عهده بوصفه وزيرًا للتجارة. مَنَحَ قانونُ البثِّ الإذاعى Radio Act لعام 1927 مفوضيةَ الإذاعة الفيدرالية Federal Radio Commission (FRC) السلطةَ لتقسيم الأثير وتحديد الأطوال الموجية ومستويات طاقة البثِّ ومواقعه وعدد ساعاته لمَن يريدون الحصول على تراخيص تشغيل محطات إذاعية[740].

وبعد سبع سنوات، تولّى كيانٌ جديد، هو مفوضية الاتصالات الفيدرالية Federal Communications Commission، هذا الدورَ. منذ تلك اللحظة فصاعدًا، مُنِحَت التراخيصُ لمدة ثلاث سنوات، وتمكّن المذيعون من إقناع المفوضية الجديدة بأن محطتهم ستقوم بدور «الملاءمة العامة أو المصلحة العامة أو الضرورة العامة»، وهى المعايير التى لم تكن تنطبق على الجرائد. ونتيجة لذلك، قُيِّدَتْ حريةُ الكلام على الهواء تقييدًا كبيرًا بوَسَاطة المُنظِّمين والمصالح التجارية (لأهمية الإعلانات بوصفها مصدرًا للإيرادات)[741].

ورغم تخوُّف مفكرين عديدين من أنْ تُطوِّرَ الولاياتُ المتحدة ميولاً شمولية [توتاليتارية] فى أوائل حقبة الحرب الباردة، فقد وُجِدَ بالطبع فرقٌ كبير بين الحياة الأمريكية والحياة السوفييتية. إذ تمتع المواطنون الأمريكيون البيض بكل الحقوق المدنية والسياسية التى كفلها الدستور، فأمكنهم تحدِّى تدخُّلات الحكومة فى المحاكم إذا أرادوا ذلك. وأما بالنسبة إلى العديد من الأمريكيين السود، فكانت مزايا الحياة فى الولايات المتحدة الأمريكية USA، مقارنةً بالحياة فى الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية USSR، أقلّ وضوحًا، وهى نقطة لعبت عليها الدعايةُ السوفييتية بأسلوب نفاقى. فكانت النتيجةُ المباشرة [الطبيعية] للانسياق الاجتماعى، فى أواخر أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته وبواكير ستينياته، تمييزًا عنصريًا ذا طابع مؤسّسى. لذلك، كان الأمريكيون من أصل أفريقى أكثرَ عُرْضَةً [من غيرهم] للوقوع في مخالفة نظام العقوبات، كما هو الحال الآن.

وربما يكفى مثال واحد لإيضاح هذه النقطة. فى يوم 10 أبريل عام 1933،

---

[668] مارتن لوثر كينج الابن: (1929 - 1968)، زعيم أمريكى من أصول أفريقية وناشط سياسى إنسانى كافحَ سِلميًا من أجل إنهاء التمييز العنصرى. حصل على جائزة نوبل للسلام. تم اغتياله يوم 4 أبريل عام 1968 - المترجم.

أصدر جورج دبليو سميث George W. Smyth، قاضى مقاطعة ويستشستر Westchester، حُكمًا على فتاة «ملوّنة» تبلغ من العمر 15 عامًا تُسمّى إيلا فيتزجيرالد Ella Fitzgerald بالإيداع فى مدرسة تأهيل الفتيات بولاية نيويورك New York State Training School for Girls الواقعة فى هُدْسن Hudson، بولاية نيويورك، لأن إيلا «عنيدة ولا تطيع أوامرَ أمّها العادلة و القانونية». ولم تكن المؤسّسةُ مريحةً. وعندما ابتكر يعقوب مورينو Jacob Moreno أول «سوسيوجرام» عام 1933، ساعد على تفسير كثرة الهاربات من المدرسة (انظر المقدمة). فحتى نظرية الشبكة، فى ثلاثينيات القرن العشرين، لعبت دور البانوبتيكون panopticon[669] ولحُسْن الحظِّ، هربت إيلا إلى مانهاتن Manhattan وصارت نجمةً فى مجال الغناء. أما نظراؤها الروسيات فكُنّ يُعامَلْنَ بوحشية أكبر.

لقد اشتهر المجتمع الأمريكى فى القرن التاسع عشر بثراء حياته الجَمْعيّاتية حقًا. بل فَهِمَ أليكسيس دي توكفيل ذلك بوصفه أحد أسس نجاح البلد ونجاح الديمقراطية، كما ذكرنا آنفًا. ولكن السهولة التى تشكّلَتْ بها الشبكاتُ الا جتماعية فى الولايات المتحدة خلقت ثغراتٍ استغلّتها - بلا تباطؤ - شبكةٌ أجنبية وَفَدَتْ إلى البلاد أثناء تدفُّق المهاجرين الكبير من جنوب إيطاليا فى أواخر القرن التاسع عشر وبواكير القرن العشرين: شبكة المافيا Mafia. وقد صُوّرتْ هذه العمليةُ بشكل ساحر فى رواية ماريو بوزو[670] Mario Puzo «العَرّاب» [الأب الروحى] The Godfather، والأفلام المستندة إليها. لم يكن الفيلم خياليًا تمامًا، بكل تأكيد[671].

فقد وُجِدَتْ بالفعل «خَمْسُ عائلات» سيطرت على الكثير من لَعِب القمار و القروض بفوائد فاحشة، وحماية التهريب، والتهريب فى النطاق الحَضَرى لولا ية نيويورك (أثناء الحَظْر Prohibition). ترجع أصولُ هذه العائلات إلى

---

[669]البانوبتيكون: ابتكره المنظِّر الشمولى [التوتاليتارى] جيرمى بنتام Jeremy Bentham أواخر القرن الثامن عشر، وهو عبارة عن سجن أو مأوى يمكن فيه لحارس واحد ملاحظة جميع السجناء دون أن يكونوا قادرين على معرفة ما إذا كانوا مراقبين أم لا - المؤلف.

[670]ماريو بوزو: (1920 - 1999)، كاتب وروائى أمريكى، اشتهر بروايته عن المافيا «العَرّاب» أو «الأب الروحى»، التى اقتبسها وأخرجها للسينما المخرجُ فرانسيس فورد كوبولا - المترجم.

[671]بعد مشاهدة الفيلم قال سامى جرافينو الملقّب ب«الثور» Sammy «the Bull» Gravano: «تركتُ الفيلمَ مذهولا ً... أقصد أنى سرحت خارج المسرح. لعله خيال فنى، ولكنه بالنسبة لى كان حياتنا. إنه أمر لا يُصدّقُ. أتذكر الحديث إلى العديد من الشباب، الذين تفاعلوا بالأسلوب نفسه بالضبط» - المؤلف.

جماعات المهاجرين من جنوب إيطاليا الذين استقروا فى ليتل إيطالى Little Italy عند الطرف الشرقى الأدنى وشرق هارلم Harlem فى ولاية مانهاتن Manhattan. استندت شخصية فيتو كورليونى Vito Corleone الأدبية، بقدرٍ، إلى فرانك كوستيلو Frank Costello (المولود فى فرانسيسكو كاستيجليا Francesco Castiglia) كبير عائلة لوتشيانو/جينوفيز Luciano/Genovese، وبقدرٍ آخر إلى كارلو جامبينو Carlo Gambino كبير عائلة جامبينو Gambino.

ومن الواضح أن المطرب جونى فونتانى Johnny Fontane كان هو فرانك سيناترا Frank Sinatra. استندت العصاباتُ اليهودية أيضًا إلى شخصيات حقيقية: فاستندت شخصية مُشغِّل كازينو لاس فيجاس Las Vegas الشرس مو جرينى Moe Greene إلى بنيامين سيجال الملقّب ب«باجسى» Benjamin «Bugsy» Siegal، واستند العقل المدبّر هايمان روث Hyman Roth إلى ماير لانسكى Meyer Lansky. لم يُبالِغْ بوزو [مؤلِف الرواية] كثيرًا فى اتساع نفوذ المافيا فى الولايات المتحدة. فقبل الحرب العالمية الثانية، كوّنَ لانسكى وسيجال «اللجنة» The Commission مع سالفاتور لوتشيانو الملقّب ب«لاكى» Salvatore «lucky» Luciano فى محاولة لفرض نوع من الحُكم المركزى على العائلات الخَمْس فى نيويورك، بل وعلى الجريمة المنظّمة فى جميع أنحاء أمريكا أيضًا. انتهى عهد لوتشيانو بشكل مؤثِّر عام 1936، عندما قُبِضَ عليه وتَجَحَ النائبُ العام (ولاحقًا الحاكم) توماس ديوى Thomas E. Dewey فى مقاضاته بتهمة تشغيل أعمال الدعارة. ولكن سرعان ما احتلّ مكانه كوستيلو. وبحلول خمسينيات القرن العشرين، شاركت عائلاتُ مافيا عديدة أيضًا فى أعمال مشروعة بدءًا من الترفيه إلى الكازينوهات فى كوبا ما قبل الثورة، كما شاركت في العمل المنظّم والسياسة.

فعلى سبيل المثال، لجأت حملةُ جون كينيدى John F. Kennedy إلى طلب مساعدة المافيا لهزيمة ريتشارد نيكسون فى عام 1960، بل تَشَارَكَ كينيدى مع رجل عصابة شيكاغو سام جيانكانا Sam Giancana فى عشيقة واحدة هى جوديث كامبل إكسنر Judith Campbell Exner. وبين أغسطس عام 1960 وأبريل عام 1961، سعت وكالةُ المخابرات المركزية CIA إلى اغتيال فيدل كاسترو Fidel Castro باستخدام رجال مافيا ماهرين فى القنص. (وليس من الراجح مسؤولية المافيا عن اغتيال كينيدى، وهى نظرية مؤامرة أثبتت مقاومةً كبيرة لكل من التحقيق الرسمى والفحص العلمى الدقيق. ولحُسْن الحظِّ، قاوَمَ بوزو غوايةَ إدراجها في روايته).

ومع ذلك، وُجِدَ ميلٌ إلى المبالغة فى رُقِيِّ المافيا تنظيميًا، وعلى وجه التحديد لقِلّة وجود مستندات موثوقة حول عملياتها، ناهيك عن قِلّة أعضاء

المافيا الذين انتهكوا قانون الصمت omertà (الذى يُعَادِلُ «الرجولة» بمعناها التقليدى)، والذى يحظر على الأعضاء خيانةُ زملائهم وإفشاء الأسرار للسلطات حتى عند تعرُّضِهم لآلام الموت. فى عام 1963، كشف جوزيف فالا تشى Joseph Valachi عن أن الأعضاء لا يُفَضِّلون الحديثَ عن المافيا بل عن كوزا نوسترا Cosa Nostra - «شيئنا» [أمْرنا] our thing - عندما أدْلَى بشهادته أمام لجنة التحقيقات الفرعية الدائمة المنبثقة عن لجنة تحقيقات مجلس الشيوخ الخاصة بالشؤون الحكومية Permanent Subcommittee on Investigations of the Senate Committee on Government Operations. ثم بعد واحد وعشرين عامًا، وَصَفَ المخبرُ الإيطالى البرازيلى توماسو بوشيتا Tommaso Buscetta للنيابة العامة الأمريكية البنيةَ الهَرَميّة فى عائلة مافيا نموذجية: الرئيس فى القمة (رب البيت [كبير العائلة] capofamiglia أو مُمَثِّلها ووكيلها rappresentante)، ويأتى تحته مباشرة الذراعُ الأيمن [كابو باستونى] capo bastone أو [سوتو كابو] sotto capo، يليه مَن يُقدِّمون المشورةَ للزعيم، واحد أو أكثر من المستشارين (المستشار consigliere).

أما الدرجات الأدنى فنُظِّمَتْ فى صورة مجموعات، تتألف كل مجموعة من عشرة جنود (decina) [ديسينا] (soldati, operai or picciotti)، يقود كلا ً منها رئيسُ العَشرة [كابوديسينا] capodecina. أما جيوفانى بروسكا Giovanni Brusca عضو المافيا الصقلية الملقّب ب«إيل بوركو» Il Porco، الذى قَتَلَ النائبَ العام المناهض للمافيا جيوفانى فالكونى Giovanni Falcone فى عام 1992، فقد أدْلَى بشهادته بعد القبض عليه فى عام 1996، فوَصَفَ طقوسَ انضمامه إلى المافيا فى عام 1976. دُعِى بروسكا إلى «وليمة» فى منزل ريفى، وفى مواجهته جلس سبعةُ أعضاء من المافيا حول مائدة عليها طبنجة وخنجر وصورة قديس. وبعد أن أكّدَ بروسكا التزامَه بحياة الجريمة، وَخَزَ أكبرُ الأعضاء السبعة إصبعَه بإبرة وطلب منه أن يُلَطِّخَ صورةَ القديس بدمه، ثم أشعل فيها النار قائلا ً: «إذا خُنْتَ كوزا نوسترا [أمْرَنا]، فسيحترق لحمُك مثل هذا القديس». أمثالُ هذه القصص رائعةٌ بلا شك، ولكن ما مدى مصداقيتها؟ أحد الاحتمالات أن هذه الأبنيةَ والطقوس حديثةٌ نسبيًا، هذا إنْ وُجِدَتْ أصلا ً.

المافيا فى الأصل ثقافةٌ أو طريقةُ حياةٍ، نشأت من خصوصيات التاريخ الصّقلى. والكلمة مشتقة من الصفة مافيوزو mafiusu (التى تعنى التفاخر العدوانى أو التبجُّح)، ويدور حول أصل الكلمة نقاشٌ غير محسوم منذ فترة طويلة (ولعل أصلها عربى، من بقايا الحُكم الإسلامى). اسْتُعْمِلَت الكلمةُ فى عام 1865 عنوانًا فى مسرحية مغمورة هى I mafiusi dila Vicaria (The Mafiosi of the Vicaria)، ثم استعملها بشكل رسمى للمرة الأولى الأ

أرستقراطىٌ التوسكانى الكونت فيليبو جوالتيريو Count Filippo Gualterio بعد عامين.

لكن التعبير الذى يُفَضِّلُ الصقليون استعماله هو «الجمعيّة الفَخْرية» the Honoured Society (Onorata Società). وقد وَصَفَ المؤرّخ دييجو جامبيتا Diego Gambetta هذه الجمعية بأنها، فى جوهرها، «تكتل احتكارى [كارتل] cartel يتكوّن من شركات الحماية الخاصة»[742].

نشأ أواخر القرن التاسع عشر عقب اندماج صقلية فى مملكة إيطاليا - فى الواقع إمبراطورية بيمونتى [أو بيمونتيسى] Piedmontese empire - فى وقتٍ لم تكن توجد فيه قواتُ شرطة، فاعتمد مُلاك الأراضى على جيوش خاصة لحماية ممتلكاتهم ومحاصيلهم. ثم تطوّرت [هذه الجيوش الصغيرة] إلى نظام عام لتنفيذ العقود المُبْرَمة، مع إقرار القتل بوصفه عقوبة لأى انتهاك للعقود المتفق عليها. ثم نشأت «جمعياتٌ» [تنظيمات] مماثلة فى جميع أنحاء جنوب إيطاليا: تنظيم كامورا[672] Camorra، الذى يعمل فى إقليم كامبانيا Campania، تنظيم نِدْرانجيتا[673] Ndrangheta فى كالابريا Calabria، وساكرا كورونا يونيتا[674] Sacra Corona Unita فى إقليم بوليا Apulia. ويكشف الفقر المستقرٌ فى هذه المناطق عن أن هذه التنظيمات ليست القواعد الأمثل للنظام الاجتماعي.

ولكن إطلاق صفة «تنظيمات» عليها قد يكون مضلِلا ً. يؤكِّدُ المؤرّخ و السياسى باسكوالى فيلارى Pasquale Villari، من نابولى، فى كتابه «رسائل جنوبية» Lettere Meridionali المنشور فى منتصف سبعينيات القرن التاسع

---

672 كامورا: تنظيم إجرامى نشأ فى نابولى مطلع القرن التاسع عشر، يُعْتَقدُ أن نشأته أقدم من هذا التاريخ. تنبع جذورُه من أفقر المناطق الشعبية في نابولي.

وللنساء مواقع مهمة في بنيته التنظيمية بسبب تعدد الاعتقالات والاغتيالات - المترجم.

673 نِدْرانجيتا: تنظيم إجرامى إيطالى يتركز فى كالابريا، تمكنَ من أن يصبح تنظيم الجريمة الأقوى فى إيطاليا أواخر تسعينيات القرن العشرين وأوائل القرن الحالى، رغم كوْنه غير مشهور خارج إيطاليا مثل تنظيم «كوزا نوسترا» [المافيا الصقلية]، ورغم كوْنه ذا أصول ريفية مقارنةً بتنظيمىْ «كامورا» فى نابولى و«ساكرا كورونا يونيتا» فى بوليا. يتعاون تنظيمُ نِدْرانجيتا فى كثير من الأحيان مع تنظيم «كوزا نوسترا» فى صقلية - المترجم.

674 ساكرا كورونا يونيتا، أو التاج الموحّد المقدس: منظمة إجرامية على غرار المافيا، تنشط فى بوليا جنوب إيطاليا، وعلى وجه التحديد فى مناطق برينديزى وليتشى وتارانتو - المترجم.

عشر، قائلا ً: «ليس لدى المافيا مبادئ مكتوبة، فهى ليست جمعية سرّية، بل تآلفًا تشَكَّلَ بتَوَلُّدٍ عَفْوى»[743]. وبهذه العَفْوية التى كانت عليها المافيا فى صقلية ثَبَتَ أنه من السهل نسبيًا التخلص منها أثناء فترة الحُكم الفاشى عندما كان سيزار مورى Cesare Mori هو «الحاكم الحديدى» Iron Perfect لباليرمو 1925) Palermo-1929)[744].

وبعد سقوط صقلية فى يد الحلفاء صيف عام 1943، قيل إن حكومة الحلفاء العسكرية Allied Military Government تآمرت - بطريقة ما - مع المافيا لا ستعادة سلطتها القديمة على الجزيرة، ولعب «لاكى» لوتشيانو دورَ الوسيط في هذه العملية. أقوال من هذا القبيل لا أساس لها من الصحة.

الحقيقة أن ضبّاط الحلفاء قدّموا تقييمات عالية ثاقبة النظر لثقافة الإجرام حين واجهوها، حيث عاودت الظهور من مكان اختبائها نفسه أثناء حُكم موسولينى. وعلى سبيل المثال، فى أكتوبر عام 1943 قال نائب القنصل الأ مريكى فى باليرمو الكابتن سكوتن Capt. W. E. Scotten: ليست المافيا كيانًا مركزى التنظيم، بل هى أقرب إلى شبكة، يرتبط أفرادُها معًا بميثاق الشرف و السرّية. كتَبَ سكوتن يقول: «نادرًا ما توصف المافيا بأنها تنظيم هيكلى يتسلسل فيه القادةُ هَرَميًا»:

[المافيا] تنظيم أفقى أكثر منه رأسىٌ. المافيا تحالفُ مجرمين، والرابطُ المشترك بينهم مصلحتُهم المتبادلة فى إحباط أى تدخُّل من السلطات. [المافيا] مؤامرة ضد قوات القانون تتخذ شكلها الأساسى من خلال مؤامرة الصمت المعروفة باسم أوميرتا [قانون الصمت] omertà، قانون مفروض على ضحاياه، وعلى عامة الناس الذين أُجْبِروا من ثمّ على أن يكونوا متواطئين بالإ كراه. المافيا هى - بمعنى ما - أكثر من تحالف، فهى نظام اجتماعى وطريقة حياة ومهنة أيضًا. ولذا، تكمن الصعوبة، من وجهة نظر الشرطة، فى طبيعة المافيا الخاصة نفسها. فإذا كانت تنظيمًا هيكليًا، فسيؤدى التخلص التدريجى من قادتها، من الأعلى إلى أسفل، إلى انهيارها»[745].

وبينما كافحت قوات الاحتلال للتعامل مع المشكلات الإدارية الهائلة فى مرحلة ما بعد الفاشية، وصقلية ما بعد الصراع، واجه مسؤولون من أمثال سكوتن واقعًا مريرًا: فقد افتقروا إلى الموارد اللازمة للتخلص من هذه الثقافة الغريبة والعنيفة. بل تطلّبَ الأمرُ منهم التعايشَ معها نسبيًا من أجل استعادة نظامٍ فى الجزيرة من أىّ نوع كان. ولدى الكاتب البريطانى نورمان لِويس Norman Lewis انطباعات مماثلة[746].

ظهر نشاط المافيا فى المدن الأمريكية، من عشرينيات القرن العشرين حتى ستينياته. ورغم تغطية الصحف الملتهبة لـ«تنظيم القتل»، كانت العائلاتُ

التى صُوِّرتْ فى رواية «الأب الروحى» [العَرّاب] أقربَ إلى أصولها الصقلية من حيث الممارسة، بمعنى أن أنشطتها لامركزية نسبيًا. فلم يوجد قائدٌ لجميع القادة capo de tutti capi. وبمجرد أن حاولت عائلات المافيا إضفاء طابع هيكلي على نظامها، فقد فعلت ذلك بالطريقة التي فهمها سكوتن بالضبط.

كانت الفترةُ الزمنية التى صَوّرتها رواية «الأب الروحى»، بهذا المعنى، فترةَ الغطرسة، عندما حاولت الجريمة المنظمة أن تكون أكثرَ تنظيمًا وأقلَّ إجرامًا فى آنٍ معًا. ثم حين أصبح قانونُ المنظمات الفاسدة التى تمارس الابتزاز Racketeer Influenced and Corrupt Organizations Act (المعروف اختصارًا بقانون ريكو RICO Act)[675] قانونًا ساريًا فى عام 1970، انهارت المافيا الأمريكية بسهولة لافتة. ففى غضون ثمانينيات القرن العشرين، أُدين ثلاثةٌ وعشرون زعيمًا من جميع أنحاء البلاد، ومعهم ثلاثة عشر من مساعديهم وثلاثةٌ وأربعون قائد مجموعة. لقد وقعت الشبكة فى خطأ قاتل حين صُوِّرَ تسلسلُها الهَرَمي في الأفلام.

وفى الوقت الذى ازدهرت فيه شبكاتٌ غير قانونية واخترقت النُّخْبةَ السياسية الأمريكية، تعرّضت الشبكاتُ القانونية تمامًا للمضايقة من السلطات. حين بدأ الأمريكيون السود حملتَهم من أجل الحصول على حقوق مدنية متساوية، واجهوا مستويات قمع قانونى مروّعة، بل وخارج القانون. لقد نبعت حركة الحقوق المدنية من قلب الكنائس السوداء والمجامع السوداء و الفروع الجنوبية ل الجمعية الوطنية للنهوض بالمُلوّنين National Association for the Advancement of Colored People التى تأسّست عام 1909[747].

هذه الجذور المؤسّسية العميقة، على وجه التحديد، هى التى جعلت من الصعب إيقاف الحركة. إذ تتم صيانة هذه الشبكات وتجديدها كل يوم أحد. قال مارتن لوثر كينج: «الفترات التى كنّا ندعو فيها إلى اجتماعات جماهيرية، حين كنّا نطلب متطوعين، تشبه شبهًا كبيرًا تلك الفترات التى كان يدعو فيها راعى الكنيسة [القس] الحاضرين كى ينضموا إلى الكنيسة صباح كل أحد فى كنائس الزنوج. فكان يَفِدُ الناسُ للانضمام إلى جيشنا بالعشرين والثلاثين والأربعين شخصًا»[748].

وأما التنصُّتُ على هاتف مارتن لوثر كينج المنزلى فكان مجردَ جزء بسيط من

---

[675]قانون ريكو: قانون فيدرالى لمكافحة الجريمة المنظمة فى الولايات المتحدة الأمريكية، ويسمح بعقوبات مدنية على أنشطة الابتزاز التى تتم بوصفها جزءًا من مشروع إجرامى مستمر - المترجم.

حملة مستمرة لعَرْقلة حركة الحقوق المدنية ودَحْرها. ولكن هذه الحملة فشلت فى النهاية. وفى المقابل، ناضل الأمريكيون البِيض فى هذه الفترة [نفسها] لتنظيم الاحتجاجات، كما يتضح ذلك من مظاهرات ضريبة الممتلكات عام 1957 في ولاية لوس أنجلوس Los Angeles.

فرغم انتشار استياء عام من الضرائب الأعلى المفروضة هذا العام، تلاشت حملة المُعارَضة، بسبب افتقار ضواحى لوس أنجلوس إلى نوعية الشبكات الا جتماعية والقيادة التي انبثقت من كنائس السود في الجنوب[749].

ولم يفقد الأمريكيون رغبتَهم فى التواصل الشبكى. فقد شهد منتصف القرن صعود إحدى أنجح الشبكات الاجتماعية فى التاريخ الأمريكى: شبكةُ مساعدةٍ ذاتيةٍ للسّكارى، هى «مُدْمِنو الخمر المجهولون» Alcoholics Anonymous (AA). أسّسها فى أكرون Akron بولاية أوهايو Ohio عام 1935 سمسارُ بورصة نيويوركى يُدْعَى ويليام ويلسن William Wilson (الشهير ب «بِلْ دبليو» Bill W.)، وطبيب أكرون روبرت سميث Robert Smith («الدكتور بوب» Dr Bob)، قدّمَتْ شبكةُ مُدْمِنِى الخمر مسارًا من اثنتى عشرة خطوة للعودة إلى الاعتدال، ولكن قوتها الحقيقية تكمن فى نتائج الشبكة العلاجية عبر اجتماعات منتظمة يعترف فيها المُجتمِعون بتجاربهم فى الإدمان ويتشاركون الخبرات[750].

ومع أن اللقاء الأول بين ويلسن Wilson وإِبِّى ثاكر Ebby Thacher، وهو مُدْمِن خمر آخر، لم يكن على درجة الأهمية الثقافية للقاء إِشَعْيَاء برلين وآنا أخماتوفا، فقد كان الحافةَ الأولى فيما سيصبح بعد ذلك شبكةً عالمية[676].

يقول ويلسن: «بدأت أفكارى تتسابق، كلما تخيّلتُ سلسلةً ردود الفعل بين مدمني الخمر، أحدهم ينقل هذه الرسالة وهذه المبادئ إلى الذي يليه»[751].

الميزة اللافتة فى شبكة مدمنى الخمر المجهولين AA كانت، ولا تزال، طابعَها شِبْه الدينى وغير السياسى تمامًا. (الشبكةُ فى الواقع ثمرةُ مجموعة أكسفورد Oxford Group المسيحية الإنجيلية). ولو أن أى شخص أبلغ إدجار هوفر[677] J. Edgar Hoover بأن إدمانَ الكحول مرتبطٌ بطريقة ما بالشيوعية، لَكانت وُضِعَتْ اجتماعاتُ مُدْمِنِى الخمر المجهولين تحت المراقبة على الفور. وفى

---

[676]يوجد اليوم ما يقرب من 115,000 مجموعة مدمن كحول مجهولين مسجلين بأكثر من 2 مليون عضو في أكثر من 150 دولة - المؤلف.

[677]إدجار هوفر: (1895 - 1972)، رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالى الأمريكى، منذ عام 1924 حتى وفاته. استغل منصبه فى جمع ملفات سرّية تخص القادة السياسيين داخل الو لايات المتحدة، وهو ما جعله يتمتع بنفوذ واسع - المترجم.

الواقع، مالت مجموعاتُ [شبكة] مُدْمِنِى الخمر المجهولين الأقدم إلى استبعاد الأشخاص غير المحترمين اجتماعيًا بغضِّ النظر عن إدمانهم، بمَن فيهم (كما ذكرَ ويلسن ساخرًا) «المتسوّلون والمتشرّدون ونزلاء الملاجئ والمسجونون و الشواذّ وغريبو الأطوار، والنساء الساقطات». وحتى عام 1949 لم تحسم المنظمةُ مسألةَ قبول أى شخص يُعْربُ عن «رغبته فى التوقّف عن الشُرْب»، بغضّ النظر عن العوامل الأخرى[752].

لقد كانت أمراضُ الدول التوتاليتارية، شأنها شأن السمات الاستبدادية الأكثر اعتدالا ً الناشئة فى [دول] ديمقراطيات العصر نفسه، حافزًا على إساءة استخدام الكحول. لم يكن جواسيس كمبريدج هم فقط الذين يشربون الخَمْر كالسمك. فإنسانُ أواسط القرن العشرين، الساقطُ فى فِخاخ سلاسل سيطرة هَرَميّة غير متسامحة، والخائفُ من الانضمام إلى شبكات اجتماعية قد تُفَسّرُ بأنها تخريبية - هذا الإنسانُ لم يجد عزاءً ولا سلوى إلا فى زجاجات الخمر. فى روسيا السوفييتية كان الدواءُ المُفَضّلُ هو الفودكا. وفى ألمانيا النازية، حيث ضُحِّى بإنتاج الكحوليات من أجل إعادة التسلُح، فُضِّلَتْ عقاراتٌ أغرب، مثل البيرفيتين Pervitin (ميثامفيتامين methamphetamine[678]والإ يودوكال[679] Eudokal (مشتق من المورفين morphine)[753].

وفى الولايات المتحدة بعد الحظر، اسْتُهلِكت المشروباتُ الروحية بكمّيات تبدو اليوم مذهلةً. أجيال ما بعد الحربين العالميتين دخّنوا أيضًا التوباكو tobacco [التّبْغ] بمعدلات انتحارية. ولكن العزاء الذى قدّمته مثل هذه المُنبّهات كان عابرًا.

فى رواية ألدوس هكسلى «عالم جديد شجاع»[680] Aldous Huxley's Brave

---

[678]البيرفيتين أو الميثامفيتامين: عقار ذو تأثير عقلى يزيد من اليقظة والانتباه والطاقة بـ النسبة إلى المراهقين، لكن الجرعات الأعلى تُسبِّب هوسًا مصحوبًا بالنشوة ومشاعر الثقة بـ النفس وزيادة الرغبة الجنسية. يؤدِّى إدمانه إلى متلازمة ما بعد الانسحاب، بما فيها تلف القلب والأوعية الدموية فضلا ً عن الأضرار النفسية - المترجم.

[679]الإيودوكال: عقار ينتمى إلى فئة الجدول الثانى فى بعض البلاد وإلى فئة الجدول الأ ول في بلاد أخرى، يعمل مباشرةً على الجهاز العصبي - المترجم.

[680]ألدوس هكسلى: (1894 - 1963)، كاتب إنجليزى، له تأثير واضح على جوروج أورويل. وروايته «عالم جديد شجاع» كتبها عام 1931، ونُشِرَتْ فى العام التالى مباشرةً. تنتمى إلى فئة ديستوبيا الخيال العلمى وتتناول الحياةَ فى المستقبل، حيث يسيطر العلم على البشر وتختفى المشاعر، ويقوم النظام بالسيطرة على الناس من خلال المخدرات، والسيطرة على التكاثر من خلال إنتاج أطفال محدّدى الوظائف والرغبات فى مجتمع سعيد ولكنه عديم الحرية - المترجم.

New World (1932)، حتى المخدِّرات تحكّمتْ فيها الدولةُ الفوردية العالمية Fordist World State، بجانب كل شىء آخر، بدءًا من تحسين النسل وانتهاءً بالقتل الرحيم؛ فكان مصيرُ المُنْشَق برنارد ماركس Bernard Marx [فى رواية هكسلى] الإبعادَ والنفى. وفى رواية أورويل «1984»[681] Orwell's Nineteen Four-Eighty المنشورة عام 1949، لم تُتَحْ أدنى فرصة لنجاح وينستن سميث Winston Smith فى تحدِّى حُكم الأخ الكبير Big Brother الصارم لإيرستريب وان[682] Airstrip One؛ فكان مصيرُه التعذيبَ وتعرُّضه لغسيل مخ.

على هذا النحو، سُحِقَ عددٌ كبيرٌ من أبطال الروايات فى أواسط القرن العشرين، بدءًا من جون يوساريان فى رواية جوزيف هيلر[683] Joseph Heller's John Yossarian مرورًا ب إيفان دينيسوفيتش فى رواية ألكسندر سولجنيتسين[684] Alexander Solzhenytsin's Ivan Denisovich، وانتهاءً ب أليك ليماس فى رواية جون لو كاريه[685] John le Carré's Alec Leamas؛ وهى حالة الإدمان التى جَسّدها على نحو لا يُنْسَى الممثلُ السينمائى، مدمن الخمر، ريتشارد بُرْتن[686] Richard Burton. إن ما بدأ بوصفه موجةَ أوبئةٍ

681جورج أورويل: (1903 - 1950)، هو إريك آرثر بلير، صحفى وروائى بريطانى، حذّرَ من غياب العدالة الاجتماعية وعَارَضَ الحُكمَ الشمولى. تدور أحداث روايته «1984» فى إير ستريب وان (بريطانيا العظمى سابقًا)، وهى مقاطعة فى دولة عظمى تُدْعَى أوشينيا، فى عالم لا تهدأ فيه الحرب والرقابة الحكومية والتلاعب بالجماهير. ويُجَسِّدُ «الأخ الكبير» فى الرواية طغيانَ النظام وقمة التلاعب بالمشاعر والفكر عبر اللغة. أما الشخصية التى تحلم بإضرام ثورة على نظام الأخ الكبير فهي وينستن سميث - المترجم.

682إيرستريب وان: إشارة فى رواية أورويل «1984» إلى بريطانيا العظمى. وهى عبارة استعملها الأمريكيون أثناء الحرب العالمية الثانية للإشارة إلى بريطانيا، وتعنى: حاملة طائرات غير قابلة للغرق - المترجم.

683جون يوسارين: شخصية خيالية، بطل رواية جوزيف هيلر الساخرة «كاتش 22» - Catch 22 - المترجم.

684إيفان دينيسوفيتش: بطل رواية سولجنيتسين «يوم واحد فى حياة إيفان دينيسوفيتش»، نُشِرَتْ الروايةُ عام 1962، وتتناول تفاصيل يومٍ فى حياة معتقل أيام حُكم ستالين - المترجم.

685أليك ليماس: بطل رواية جاسوسية بعنوان The Spay Who Came in from the Cold من تأليف الكاتب البريطانى جون لو كاريه، تتناول أساليب التجسُّس التى لا تتوافق مع قيم الديمقراطية - المترجم.

686ريتشارد بُرْتن: (1925 - 1984)، ممثل بريطانى ويلزى. رُشِّحَ لأوسكار سبع مرات ولم يفز. ومع أواخر الستينيات كان نجمَ شباك، وأعلى أجر ممثل. زوجته الثانية إليزابيث

أيديولوجية من صُنْع الإنسان انتهى إلى انتشار لأمراض قصور الكبد وأعطال رئوية [مُمِيتة].

تايلور. تُوفِّي بسبب أعطال في الكبد ناتجة عن إدمانه الكحوليات – المترجم.

VII

القسم السابع

تملك الأحراش

42

السلام الطويل

تركت الإمبراطورياتُ الكبرى المنظّمة هَرَميًّا، التى خاضت الحرب الباردة Cold War ضد بعضها البعض، مساحةً صغيرة لتكوين شبكات فيما بين مواطنيها، ما دامت شخصيتهم غير سياسية بالمرة. ولكن حربًا أخرى كانت تدور بعيدًا عن العاصمة الإمبريالية الأمِّ، حيث تقِلُّ سيطرةُ المُخطِّط المركزى. ولم تكن هذه الحربُ العالمية الثالثة Third World War قتالاً برؤوس نووية تخترق طبقات الجو، بل بأسلحة شِبْه آلية فى أحراشٍ ما صار يُعْرَفُ بالعالم الثالث Third World. فى تلك الأحراش البعيدة عن شبكات السكك الحديدية والطرق والتلغراف، حُرِمَتْ القوى العظمى من التحكم والسيطرة والاتصالات التي كانت تعتمد عليها.

وقد أدّى انكشافُ محدودية قدرات الدول العظمى فى بلاد نائية وفقيرة - أدّى جدليًا إلى إبراز أزمةٍ فى أبنيتها السياسية المحلية. فشهدت سبعينياتُ القرن العشرين وثمانينياته عودةَ الشبكات من جديد وانهيارًا فى التسلسلات الهَرَميّة، بَلَغَ ذروته فى التفكّك السريع للاتحاد السوفييتى وإمبراطوريته فى أوربا الشرقية Eastern Europe. والحقيقة أن هذه الفترة نفسها التى شهدت مَوْلد الإنترنت Internet تثير احتمالاً مُغْريًا بأن التكنولوجيا أمالَتْ مرةً أخرى توازنَ القوى، هذه المرة على حساب الدولة التوتاليتارية وأذْرُعِها التسلّطية. ولكن العملية التاريخية لم تكن، كما سنرى، خالصةً تمامًا هكذا. فبدلاً من كوْن الإنترنت سببًا فى أزمة أواخر القرن العشرين، يبدو أنه كان نتيجةَ انهيار السلطة الهَرَميّة.

لقد ناقش مؤرّخو الحرب الباردة منذ فترة طويلة سببَ بقائها باردةً؛ وبكلمات أخرى: لماذا لم تدخل الولايات المتحدة حربًا مع الاتحاد السوفييتى، كما دخلت المملكة المتحدة مع الرايخ الألمانى حربًا مرتين؟ الإجابة الشائعة أن ظهور الأسلحة النووية أثار مخاطر عالية، فكان رجالُ الدولة فى واشنطن وموسكو أكثرَ تجنُّبًا للمخاطر من نظرائهم فى لندن وبرلين عامىْ 1914 و 1939.

ثمة مدخل آخر يتمثل فى استقرار شبكات الحلفاء بعد عام 1945 أكثر من أى وقت قبله. إذ كوّنت القوتان العُظْميان كلتاهما شبكاتٍ من الحلفاء كبيرةً وكثيفةً ومستقرةً نسبيًا، جَمَعَتْ بين التزامات الدفاع المشترك والتكامل التجارى. فبين عامىْ 1816 و1950، وَصَلَ عددُ حلفاء كل دولة منهما أكثر قليلاً من 2.5 فى المتوسط. أما فى الفترة من عام 1951 حتى عام 2003

فكان المتوسط أكثر من أربعة أضعاف (10.5)[754].

وتشير تفاصيل أخرى إلى أن التجارة تنمو عند تقليل الصراع[755]. فمن المثير ل لاهتمام أنّ تزايُدَ التحالفات الأمنية لأغراض إستراتيجية قد سَبَقَ نُموّ التجارة فى هذه الدول[756]. ولا شك فى أن تأثيرات شبكة من هذا النوع [الاتفاقيات] قد لعبت دورًا ما. ولكن الصفة المائزة لكل الاتفاقيات تقريبًا - العسكرية والا قتصادية - فى فترة الحرب الباردة كانت بنيتَها الهَرَميّة. فحتى إذا لم تتوصل القوى العظمى فى مجلس الأمن UN Security Council إلى تسوية، فقد تمكّنت مجموعاتُ قوى أخرى من التوصُّل إلى توافق: مثلا ً، الدول السِّتّ الأ صلية الموقِّعة على اتفاقية روما[687] Treaty of Rome عام 1957، أو الأعضاء الأصليون فى «مجموعة السبعة» group of seven، التى بدأت فى عام 1974 بوصفها اجتماعًا غير رسمى للمسؤولين الماليين فى أكبر خمسة اقتصادات في العالم: الولايات المتحدة، المملكة المتحدة، ألمانيا الغربية، اليابان، فرنسا.

ومع ذلك، لا معنى لفكرة الحرب الباردة بوصفها «سلامًا طويلا ً» إلا إذا حصرنا انتباهنا فى هذه البلاد المتقدِّمة. أما إذا نظرنا إلى العالم ككل، فستكون الفترةُ من خمسينيات القرن العشرين حتى ثمانينياته أيّ شىء سوى السلام فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. كانت الحروبُ الأهلية داءً مُزْمِنًا فى تلك المناطق من العالم، وكثيرًا ما اشتعلت وزادت حِدّتُها، بسبب تلقِّى المجموعات المتحاربة مساعدات عسكرية من القوى العظمى، فتصرّفَتْ بوصفها وكلاء عنها[757].

كانت الحرب الباردة أيضًا فترة ثورات وانقلابات بسبب تفكّكِ الإمبراطوريات الأوربية العابرة للبحار. ونشأ تصوُّرٌ مُفاده أن هذه الأزمات السياسية مُعْدِية، ا لأمر الذي وَلّدَ فكرةَ «تأثير الدومينو»[688] [758] domino effect.

فكما قال الرئيس دوايت أيزنهاور Dwight Eisenhower عقب الهزيمة الفرنسية فى معركة دين بيان فو Dien Bien Phu على أيدى تحالف فيت

---

[687]اتفاقية روما أو معاهدة روما: شكلتْ فى عام 1957 نواةَ التكتل الاقتصادى الأوربى، وبموجبها تأسّست المجموعةُ

الأوربية الاقتصادية الأولى CEE التى التزمت بإنشاء سوق أوربية مشتركة وخلق تكتل اقتصادى وسياسى اندماجى بين الدول الأوربية قبل أن تتحول إلى ما يُعْرَفُ حاليًا بالا تحاد الأوربي - المترجم.

[688]تأثير الدومينو: تفاعل تسلسلى يحدث عندما يُسبِّبُ تغييرٌ صغير تغييرًا مماثلا ً بجواره ، وهكذا دواليك فى تسلسل خطى. يُستعمَلُ المصطلحُ فى السياسة والمال بشكل مجازى - المترجم.

مينه[689]Vietminh في الهند الصينية:

«لديك صفٌّ من قطع الدومينو. وأنت تنقرُ أولَ قطعة فيه... ما سيحدث للقطعة الأخيرة يقينًا أنها ستسقطُ سريعًا».

إذا كانت تحالفات الحرب الباردة قد أوْجَدَتْ شبكاتٍ محورية ذات فروع hub - spoke-and ، فإن تأثير الدومينو قد هَدّدَ العُقَدَ الخارجية فى هذه الشبكات بالعَدْوَى. ويتطلب حفظُ قطع الدومينو من السقوط مجموعةً مهارات عسكرية خاصّة، ستُعْرَفُ باسم «مكافحة التمرُّد» insurgency-counter ، ولعل التسمية الأوضح هى ما أطلقه أحدُ رُوّادها: «حرب الأحراش» jungle .warfare

---

[689]تحالف فيت مينه: تحالف بين المجموعات الشيوعية والقومية فى فيتنام، تشكلَ عام 1941 بهدف السعى إلى استقلال فيتنام عن فرنسا ومعارضة الاحتلال اليابانى أثناء الحرب العالمية الثانية. وقعت معركة «دين بيان فو» بين مارس ومايو عام 1954، وانتهت بهزيمة القوات الفرنسية هزيمةً شاملة أثّرَتْ على المفاوضات الجارية فى جينيف بين عدة دول حول مستقبل الهند الصينية - المترجم.

43

الجنرال

يرسم سى. إس. فورستر C. S. Forester فى روايته «الجنرال»[690] (1936) The General، بورتريهًا صارخًا لشخصية جنرال بريطانى نموذجية من جيل الحرب العالمية الأولى، يُجَسِّدُ التسلسلَ الهَرَمىّ الصارم فى فترة أواسط القرن العشرين. فشخصيتُه:

لافتةٌ للنظر [حتى] فى اختياره لمرؤوسيه، نزولا ً إلى القيادات الأصغر. فالرجال المطلوبون لا يهابون المسؤولية، طاقتُهم دائمة وإرادتُهم حديدية، ويمكن الاعتماد عليهم لأداء دورهم فى خطة المعركة بلحمهم ودمائهم؛ تلك كانت صفات رجاله ورجال رجاله. هؤلاء الرجالُ، فقيرو الخيال، ضروريون لتنفيذ سياسة عسكرية بلا خيال، ابتكرها رجلٌ بلا خيال. وعلى ضوء خطة الحملة المرسومة، كان أيٌ شىء غريب أو إبداعى محلّ ارتياب. فكل جنرال أراد أتباعًا من الضبّاط يطيعون الأوامر بدقة لا تُرْعِبُهم المصاعبُ أو الخسائر أو المخاوف أبدًا؛ وكل جنرال عَرَفَ ما سيُتَوَقَّعُ منه (ووافق عليه)، وحَرِصَ على أن يكون تحت قيادته عسكريون يُتَوَقَّعُ منهم الشىءُ نفسُه. فعند الاضطرار إلى استعمال القوة الغاشمة لن يُنفِّذَها منهجيًا إلا رجال على هذه الشاكلة، يندرجون في النظام دون أيّ تهاون[759].

من الصعب العثور على وَصَفٍ لنظام هَرَمى أفضل من هذا. ولكن بحلول أربعينيات القرن العشرين، تعلّمَ الجيشُ البريطانى British Army، عبْر تجربة مريرة، ضرورةَ وجود نوعية قيادة مختلفة، أكثر دينامية. لقد رأى البريطانيون ، خلال حربين عالميتين، أن فعّالية الجيش الألمانى الاستثنائية لم تعتمد على التنفيذ الصارم لخطط المعركة، بل على لامركزية صُنْع القرار، وعلى المرونة وسط ضباب الحرب[760].

فى عام 1940، مثلا ً، استغلّت الدبّاباتُ [المَرْكبات الهجومية المصفّحة] الألمانية German Panzers الهائمةُ الاتصالاتِ اللاسِلكيةَ وشبكةَ الطرق الفرنسية للتوغّل بِحُرّية خلف خطِّ العدو الأمامى، الذى انهار بعدئذٍ فى فوضى. كلما تعذّرَ الوصول إلى ساحة المعركة، من المهم أن يتحرّرَ الضبّاطُ (وجنودهم) من قيود السيطرة والقيادة المركزية. ولا توجد حملاتٌ عسكرية

---

[690]الجنرال: تدور أحداث الرواية أثناء الحرب العالمية الأولى من خلال الجنرال البريطانى هربرت كورزون الذى أدار معارك وشارك فى مذابح بلا معنى، ثم انتهت مسيرته فى آخر الأمر إلى عجوز طاعن في السن على كرسي متحرك - المترجم.

فعلت ذلك بشكل أوضح من الحملات التى شُنّتْ فى آسيا ضد اليابانيين. وفى حملة بورما[691] Burma، ظهر نوع جديد من الجنرالات البريطانيين يُناقِضُ تمامًا الجنرال بليمب[692] Blimp ذى الإرادة الحديدية والخيال الفقير. كانت «الغرابةُ والإبداعية» في الأحراش محلّ تقدير ومكافأة.

والتر كوليير ووكر[693] Walter Colyear Walker، ابن مُزارع شاى فى ولاية آسام Assam [شمال شرق الهند]، وُلِدَ عام 1912، وكان صغيرًا فلم يشهد مذبحتىْ سوم[694] Somme وإيبرس[695] Ypres. كان ووكر مشاكسًا طوال حياته إلى درجةٍ أوْقعته في الخطأ. فحين كان تلميذًا فى المدرسة فى إنجلترا، تبنّى رؤيةً تقول بأن أفضلَ طريقة لمواجهة البَلطجة والتسلُط توجيهُ

---

[691] حملة بورما: سلسلة من المعارك فى مستعمرة بورما البريطانية، التى كانت مسرح عمليات الحرب العالمية الثانية جنوب شرق آسيا بين القوات البريطانية والصين، بدَعْمٍ من الولايات المتحدة الأمريكية، ضد القوات اليابانية والتايلاندية والجيش الوطنى الهندى. تولّى اليابانيون تدريب ما يُعْرَفُ بجيش استقلال بورما الذى بدأ الهجمات الأولى ضد القوات البريطانية - المترجم.

[692] الجنرال بيلمب: شخصية كارتونية بريطانية قدّمها رسامُ الكاريكاتير ديفيد لو David Lowلأول مرة عام 1934، يُمَثّلُ بها رجلَ الحرب البريطانى النمطى القوى ولكنه فقير الخيال - المترجم.

[693] والتر ووكر: (1912 - 2001)، قائد عسكرى بريطانى فى الهند البريطانية، نجح بشكل بارز فى خمسينيات القرن العشرين خلال فترة طوارئ المالايا، وبرز بوصفه مدير عمليات عسكرية فى بورنيو من عام 1962 حتى عام 1965. تولّى بعد رجوعه إلى إنجلترا مناصب عسكرية فى وسط وشمال أوربا. وفى وقت لاحق، أثار جدلا ً من خلال إنشائه منظمة «ا لإغاثة المدنية» الطوعية التي جذبت مئة ألف عضو - المترجم.

[694] معركة السوم: فى الحرب العالمية الأولى بين القوات الألمانية وقوات الحلفاء على ضفتىْ نهر السوم فى فرنسا فى الفترة من 1 يوليو حتى 18 نوفمبر عام 1916. بدأت المعركة بهجوم شَنّته القوات البريطانية والفرنسية ضد القوات الألمانية المحتلة، ولم يحقق الهجوم البريطانى الفرنسى أهدافه رغم التوغّل فى الأراضى الفرنسية المحتلة لمسافة 6 أميال. انتهت المعركةُ بخسائر فادحة لكلا الطرفين. وتُعَدُّ من المعارك الأكثر دمويةً - المترجم.

[695] إبرس: الإشارة هنا إلى معركتىْ إبرس الأولى (19 أكتوبر - 22 نوفمبر 1914) وإبرس الثانية (22 أبريل - 15 مايو 1915). وهى سلسلة اشتباكات خلال الحرب العالمية الأولى بـ القرب من مدينة إبرس البلجيكية بين القوات الألمانية وقوات الحلفاء المكوّنة من القوات البلجيكية والفرنسية والبريطانية وقوة استكشافية كندية.

شهدت هذه الاشتباكاتُ أولَ استخدام ألماني للغاز السامّ - المترجم.

«لَكمة إلى يسار الأنف ثم الفكِّ على التوالي».

وفى أكاديمية ساندهيرست العسكرية المَلَكيّة[696] Sandhurst انتابته مشاعرُ غيظ أثناء التدريب العسكرى، فتعطّشَ إلى إطلاق النار من بندقيته بدلاً من الاكتفاء بمجرد تنظيفها. وبوصفه ضابطًا فى فرق الجوركا 8/1[697] Gurkhas 8\1، خَدَمَ بامتياز فى العمليات ضد فقير إيبى[698] Faqir of Ipi فى وزيرستان Waziristan، حيث صار خبيرًا فى تكتيكات الكمائن. تولّى ووكر فى عام 1944 قيادةَ الجوركا 8/4، التى حوّلها بعد شهرين من إعادة التدريب إلى قوة قتالية هائلة، فحصل على وسام الخدمة المتميزة[699] DSO.

كان البريطانيون يتعلمون نوعًا جديدًا من الحروب. اقرأ ما يُسمّى «كتاب الأ حراش» Jungle Book الدليل المنشور عام 1943: «تُبَيّنُ التجربةُ ضرورةَ أن تكون القيادةُ غيرَ مركزية حتى يتمكنَ القادةُ الأحدث سنًّا من مواجهة المواقف التى يجب عليهم فيها اتخاذ القرار والتصرُّف بوحى من مسؤوليتهم الشخصية بلا تباطؤ...»[761].

كانت هذه عقيدةَ ووكر. وبعد الحرب، وبوصفه ضابط الأركان العامة فى كوالا لمبور Kuala Lumpur، أُسْنِدَتْ إليه مهمةُ تدريبِ ما يُعْرَفُ ب«فيريت فورس» [وحدة مكافحة التمرد][700] Ferret Force، وهى مزيج من البريطانيين و الجوركا والصينيين وقوات داياك[701] Dyak المحلية.

---

[696]أكاديمية ساندهيرست العسكرية المَلَكيّة: كلية عسكرية بريطانية تأسّست عام 1802، وهى مركز تدريب أساسى لضبّاط الجيش البريطانى. مدة الدراسة فيها 44 أسبوعًا - المترجم.

[697]الجوركا: أفواج عسكرية تم تشكيلها في الهند البريطانية - المترجم.

[698]فقير إيبى: (1897 - 1960)، هو الحاج ميرزالى خان، عاش فى قرية إيبى شمال وزيرستان، منطقة جبلية شمال غرب باكستان بالقرب من الحدود الأفغانية. وفيها بدأ حملةَ حربِ عصاباتٍ ضد الإمبراطورية البريطانية - المترجم.

[699]وسام الخدمة المتميزة: وسام عسكرى بريطانى يُمْنَحُ لضباط الجيش والبحرية - المترجم.

[700]تشكّلتْ وحدةُ مكافحة التمرد ردًّا على التمرد الشيوعي في جزر المالايا - المترجم.

[701]داياك: قبائل الداياك أو شعب الداياك هم السكان الأصليون فى جزيرة بورنيو بين إندونسيا وماليزيا. ولا يزالون يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم منذ 3000 عام. يَلقون دعمًا من الاتحاد الأوربي، حاليًا، بطريقة تعمل على زيادة التوتر مع الغالبية المسلمة - المترجم.

وفى عام 1948 - 1949، بينما أغرق الإرهابيون الشيوعيون مالايا[702] Malaya فى حالة طوارئ، قادَ ووكرُ مركزَ تدريب القوات البَرّية فى الشرق الأقصى Far East Land Forces Training Centre مؤسِّسًا ما صار يُعْرَفُ لاحقًا ب مدرسة حرب الأحراش Jungle Warfare School فى كوتا تينجى Kota Tinggi [فى ماليزيا][762]. وحُفِظَت التعاليمُ المنبثقة عن المدرسة فى كتاب بعنوان «إدارة مكافحة العمليات الإرهابية فى مالايا» The Conduct of Anti - Terrorist Operations in Malaya، فصار دليلا ً عمليًا لمكافحة التمرد لدى الجيش البريطاني[763].

تكمن فكرة الدليل الرئيسية فى أن الهدفَ النهائى من الإجراء العسكري ضمانُ «ألا تُعَرْقِلَ هجماتُ حربِ العصابات عمليةَ الحُكم السياسى الشرعى»[764]. وهو ما يعنى - عمليًا - استئصالَ الشيوعيين بلا رحمة، على أساس تنسيقِ عمليةِ جَمْع المعلومات (بين كل من البوليس والقوات العسكرية)، ونَشْر دوريات مكافحة صغيرة وكمائن مُحْكمَة التخطيط[765]. فى عام 1958، كان ووكر مسؤولا ً عن العملية نمر Operation Tiger، التى فيها قضت الفرقةُ 99 جوركا على بقايا الشيوعيين الناشطين في ولاية جوهر Johore [في ماليزيا].

وقد أعلن ووكر لاحقًا: «رجل من رجال فرعى الخاص Special Branch أكدَ أن الإرهابيين الشيوعيين CTs سيأتون، وبعد 28 يومًا جاءوا وقُتِلوا فى الأ رض السّبِخة». الرجال الذين يَكمُنون صابرين فى الحَرّ القائظ لمدة أربعة أسابيع لا يُقدّرون بثمن، من وجهة نظر ووكر. وقد اشتعل غضبه حين أُخْبِرَ بخطة يجرى الإعداد لها فى لندن لتخفيض أعداد فرق الجوركا الرسمية، التى تزيد عن عشرة آلاف، إلى أربعة آلاف[766].

قال ووكر مستعملا ً استعارةَ الدومينو: «مالايا هى الحصن الأخير ضد الشيوعية فى هذا الجزء من العالم. وإذا سقطت مالايا فلن يمكن إصلاحُ الموقف في جنوب شرق آسيا»[767].

فى أحراش بورنيو[703] Borneo الكثيفة - ثالث أكبر جزيرة فى العالم - أثبتَ ووكر وجهةَ نظره تلك. ففى بورنيو التى لا توجد فيها سكك حديدية، وتقريبًا لا توجد طرقٌ، وممراتُ الهبوط فيها قليلةٌ ولذا فهى ثمينةٌ، كانت عملية صُنْع القرار بشكل غير مركزى هى الفِعْل الوحيد الممكن. بعد تقسيم الجزيرة بشكل

---

[702]مالايا: مستعمرة سابقة فى جنوب شرق آسيا تتكوّن من جنوب شِبْه جزيرة المالايو وبعض الجزر المجاورة بما فيها سنغافورة. احتلها الهولنديون والبرتغاليون والبريطانيون. وهي تشكل الآن جزءًا من اتحاد ماليزيا المعروف باسم غرب ماليزيا - المترجم.

[703]بورنيو: جزيرة ضمن مجموعة جزر الملايو - المترجم.

تعسُفى بين الإمبراطوريتين البريطانية والهولندية، لم يعد للجزيرة من حدود داخلية كبيرة سوى بين الأراضى البريطانية فى ساراواك [سراوق] Sarawak وبروناى Brunei وشمال بورنيو، وبورنيو الإندونيسية (الهولندية سابقًا) المعروفة باسم كاليمنتان Kalimantan. وتمثلت الخطةُ البريطانية، التى تستهدف مَخْرَجًا رشيقًا، فى دمج ساراواك وبروناى وشمال بورنيو مع مالايا وسنغافورة Singapore لتكوين اتحاد ماليزيا Federation of Malaysia. ولكن قبل تنفيذ ذلك، نَشَبَ تمرُدٌ مدعوم من إندونيسيا ضد الاندماج المُخطّط له فى بروناى، فبدأ فى أبريل عام 1963 ما يُعْرَفُ ب الكونفرونتازى [المواجهة] Konfrontasi، فى الوقت الذى عَبَرَتْ فيه القواتُ الإندونيسية الحدودَ إلى شرق ساراواك، ودمّرتْ مركزَ الشرطة فى تيبيدو Tebedu بالقرب من كوتشينج Kuching.



الشكل رقم: 28 - الجنرال سير والتر ووكر، بطل تمرد المواجهة فى بورنيو، رائدُ مكافحة التمرد. كانت قاعدته المبدئية «تمَلُّك الأحراش».

كان سوكارنو[704] Sukarno، رئيس إندونيسيا، يحلم ببناء إندونيسيا العظمى، التى تشمل بورنيو كُلّها على الأقل. ومهمة والتر ووكر، قائد القوات البريطانية وبورنيو (ثم لاحقًا مدير العمليات)، هى تبديد هذا الحلم بأقل تكلفة. وعن أسلوبه فى قيادته الجديدة، كتَبَ ووكر توجيهات استنادًا إلى خبرته فى طوارئ مالايا[705] Malayan Emergency، واضعًا ما أسماه «مُقوّمات النجاح الستة»:

---

[704]أحمد سوكارنو: (1901 - 1970)، أول رئيس لإندونيسيا بعد الاستقلال منذ يوم 17 أغسطس 1945. وكى يتغلب سوكارنو على محاولات زرْع الفوضى وإعادة الاحتلال بعد إعلان استقلال إندونيسيا عن الاحتلال الهولندى، تبنّى نظامًا أوتوقراطيًا سُمِّى ب «الديمقراطية المُوجّهة Guided Democracy «فى عام 1959، بدلا ً من الديمقراطية البرلمانية. نحّاه عن الحُكم سوهارتو، أحدُ جنرالاته، بعد تفكيك الحزب الشيوعى الإ ندونيسي عام 1967 - المترجم.

[705]طوارئ مالايا: تعبير أطلقته الحكومة الاستعمارية على حرب العصابات التى جرت فى فترة ما قبل استقلال اتحاد مالايا وما بعده من عام 1948 حتى عام 1960، والطرفان المتحاربان هما قوات الاتحاد المسلحة تساندها بريطانيا ضد جيش التحرير الوطنى الذراع العسكرى للحزب الشيوعى فى مالايا. أما التعبير الذى يستعمله جيش التحرير الوطنى فهو «حرب التحرير الوطنية المُعادية لبريطانيا». تعود جذور التواجد البريطانى ا لاستعماري إلى استغلال القصدير والمطاط في المنطقة وفرض النفوذ - المترجم.

عملياتٌ موحّدةٌ؛ معلوماتٌ دقيقةٌ فى الوقت المناسب وهو ما يعنى جهازًا استخباراتيًا من الدرجة الأولى؛ سرعةٌ وحركةٌ ومرونةٌ؛ تأمينُ قواعدنا أينما كانت ومهما تكون (مطار، قاعدة متحرّكة، إلخ)؛.... السيطرةُ على الأحراش [و] الفوزُ بقلوب الناس وعقولهم، وبخاصة السكان الأصليين[768].

كان هذا بيانًا [مانيفستو] للحرب الشّبَكيّة، المناقِضة للأسلوب الهَرَمى الصارم فى عمليات الجيش البريطانى القديم. و«المهارة المشترَكة» هى كلمةُ ووكر المُفَضّلة.

فالدرس الرئيسى الذى تعلّمه فى مالايا هو: أهمية «وحدة القوات المسلحة نفسها، والوحدة بين القوات المسلحة والبوليس، وبين قوات الأمن ككل والإ دارة المدنية»، و«التخطيط المشترك والعمليات المشتركة فى كل الأوقات وعلى جميع المستويات»[769]. نُظِّمَتْ مقرّاتُ الجيش والقوات الجوية والبحرية معًا، وأُلْزِمَتْ جميعُها بالعمل الوثيق مع السلطات المدنية والبوليس[770]. وشَبَّهَ ووكر هيكلَ القيادة الجديد ب«سلطة ثلاثية - مدنية وبوليسية وعسكرية - تخضع جميعها لتوجيه واحد من مدير العمليات العسكرية»، ووظيفتُه «التأكّدُ من أن النظام يعمل كذراعىْ المقصّ، لا يخضع أحدهما للآخر بل يُهَيّئُ كلٌّ منهما نجاحَ الآخر»[771]. تكاملت الاتصالات أيضًا تكامل تكنولوجيا الراديو فى ذلك الوقت[772].

وعلى الأرض، جاء تركيز ووكر على «الحركة والمرونة المتكاملتين»[773]. وفى المناطق الأمامية، كان ثلثا أية حامية عسكرية على الأقل «يخرج فى دور هجومى دائمًا، ويسيطر على الأحراش ومسارات الكمائن نهارًا وليلا ً، بحيث لا يعرف العدو أين نوجد، فيكون عُرْضَةً دائمًا لاحتكاكنا به والهجوم عليه». المفتاح الرئيسي الذي صاغه بطريقة جِدِّ لافتة هو امتلاك الأحراش:

لا يمكن تحقيق نتائج بمجرد الهجوم وإطلاق النيران على العدو ثم العودة إلى القاعدة. لقد توجّبَ عليه أن يلعب لعبته الخاصة، بالعَيْش فى الأحراش لأ سابيع طويلة، وكسْب قلوب الناس وعقولهم، وزَرْع عملائنا فى القرى المعروفة بعدائها لنا. فى هذه الظروف، لا بد أن تحمل قاعدتك على ظهرك، وتتألف هذه القاعدةُ من لوح بلاستيكى فى وزن الرّيشة، وجورب ممتلئ بالأ رز وجيب ممتلئ بالذخيرة. الأحراش يجب أن تنتمى إليك؛ ولا بد أن تتملّكها؛ لا بد أن تتحكم فيها وتسيطر عليها[774].

التجديدات الثلاثة الفعّالة التى وَظّفَها ووكر هى: استطلاع الحدود والقوات الخاصة والهليكوبتر. أما الأعوان من المناطق الحدودية فمُهِمُّون. وعلى حدِّ تعبير جي.

بى. كروس J. P. Cross، الضابط الذى تولّى تدريبَهم، «إذا أمكن لأناس

الحدود أن يبقوا فى وَضْعٍ يشعرون معه بأنهم يقومون بدور نشيط وإيجابى فى دفاعهم وأن الحكومة تُعَضِّدُ مساعيهم، فستفشل حركة الكونفرونتازى [المواجهة] Confrontation. لذا، كان مستطلعو الحدود ضروريين لتحقيق النصر»[775].

تمثلت رؤيةُ ووكر فى أن «الكشّافة المتجولة فى المقدمة مثل الشاشة، فهى عيون وآذان القوات التقليدية، كالعقرب. وهذا يستلزم الإتيان بهم من المؤخرة، ثم يخلعون أحذية الأحراش الدالة عليهم، ويذهبون دون بنادقهم، كى يَظهروا بمظهر فلاح أو صياد سمك أو تاجر أو حَطّاب، إلخ». وهو يُدَرّبُ رجالَه على الاختلاط، وعلى تذكّر أى أثر يَدُلُّ على نشاط عدائى، وتعقّب العدو «باستخدام تكتيكات حركية متقطِّعة بالتراجع إلى الخلف ثم التتبُّع، والتقاط الشاردين منهم، مع ترْك علامات يَفْهَمُ منها بقيّتُهم ما يمكن أن يجري لهم»[776].

كان مَن يعملون مع مستطلعى الحدود بانتباه ويقظة حوالى سبعين رجلا ً من قوة الخدمات الجوية الخاصة 22 SAS Regiment؛ ودورُ المستطلعين «العَيْشُ بين الناس وكسْبُ ثقتهم ومساعدتهم فى الأمور الطبّية وغيرها»، على حين يقومون ب«استطلاع الغارات»[777].

وأخيرًا، قام ووكر بالاستفادة الكاملة من طائرات الهليكوبتر الموضوعة تحت تصرُّفه (ليس أكثر من ثمانين طائرة) لنَقْلِ الأسلحة الأثقل على وجه السرعة، من نقطة ساخنة إلى أخرى، كى يعطى انطباعًا لدى الخَصْم بوجود مدفعية ثقيلة في كل قاعدة أمامية[778].

قِلّةٌ تتذكرُ، اليوم، هزيمةَ الكونفرونتازى [المواجهة] Konfrontasi فى [أحراش] بورنيو الأكثر ظلامًا. كانت هزيمةً كاملةً. وكما قال ووكر: «امتلاكُ أحراشٍ تَرْبو على الألف ميل والسيطرة عليها، حتى عمق مئة ميل، أمام هذا العدو، وسَحْقه فى كل مرة حاول فيها الإغارة، لم يكن إنجازًا قليلا ً حققته 13 كتيبة»[779].

وكانت الخسائرُ محدودةً: فُقِدَت القواتُ البريطانية والكومنولث 114 قتيلا ً و181 مصابًا فقط، مقارنةً بخسائر إندونيسية يقينية تصل إلى 590 قتيلا ً و 222 جريحًا و771 أسيرًا. وتكمن أهمية انخفاض الخسائر عند المقارنة بين ما حدث فى بورنيو وما كان يحدث فى الوقت نفسه على بعد 700 ميل شمالا ً فى فيتنام Vietnam، حيث كانت القوات الأمريكية فى المراحل الأولى مما سيَثبتُ أنه المجهود المكلِف بشكل كارثى، وغير الناجح فى النهاية، للحفاظ على استقلال فيتنام الجنوبية. وكما ذَكرَ ووكر فى مقالة منشورة عام 1969، كان هدفُه فى بورنيو «مَنْعَ تصعيد الصراع إلى حرب مفتوحة open war، مماثلة لتلك الحرب فى فيتنام الجنوبية اليوم». وقد حقق هدفَه بكسْب

«الجولات الافتتاحية فى معركة الأحراش»، وبكسْب «المعركة النفسية فى النجوع والقرى ذات الشعوب القبليّة فى أعالى البلاد»[780]. ولم يكن ووكر يستطيع تحقيق ذلك إلا بامتلاك الأحراش أولا ً، لأن:

جيشًا يَتنقلُ سرًا، فى مجموعات صغيرة غالبًا، قادمًا فى موعد المعركة الدقيق، لا يمكن أن يقع فى كمين. وتلك هى الطريقة التى كان يتنقل بها الفيت كونج[706] Viet Cong عادةً. وهى الطريقة التى تعلّمَ جنودُنا التنقلَ بها، فطبّقوها بأفضل مما يفعل الخَصْم. لقد تفوقوا فى حرب العصابات فى كل مرحلة من مراحل اللعبة بالتدريب الجيد القائم على خبرة عمليّاتية[781].

وكما سنرى (فى الفصل 50)، استغرق الأمرُ من الجيش الأمريكى جيلا ً كى يتعلم فنّ الحرب الشّبَكيّة هذا؛ لكن الجيش الأمريكى سوف يَشنُّها فى أحراش خرسانية [العراق بعد هجمات 9/11]، وليس فى غابات استوائية مطيرة تملّكها، ذات يومٍ، والتر ووكر.

44
أزمة التعقيد

«مَن لا يعرفون سوى إنجلترا، ماذا يعرفون عن إنجلترا؟». هكذا تساءل كيبلنج Kipling بشكل لافت فى [مقاله] «العَلَمُ الإنجليزى» The English Flag.

بالنسبة إلى المحاربين الإمبرياليين من أمثال والتر ووكر، الذين لم يعرفوا إنجلترا بالمرة، كانت المشكلةُ مختلفةً. لقد عرف ووكر الأحراش. أما البلد الذى عاد إليه فى عام 1965، عندما عُيّن نائب رئيس الأركان Deputy Chief of Staff لقوات الحلفاء فى وسط أوربا Allied Forces Central Europe، فكان مجهولا ً له terra incognita. مناصِبُه فى باريس، وبرونسوم Brunssum فى هولندا، وأخيرًا كولسوس Kolsås فى النرويج، كانت وظائف بيروقراطية

---

[706]الفيت كونج: الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام المعروفة باسم الفيت كونج، نشطت بين عامىْ 1954 و1976. وسببُ ظهورها انقسامُ فيتنام إلى جنوب وشمال جرّاء اتفاقيات جنيف عام 1954 وإعلان نظام نجو دين ديم تكوين جمهورية فيتنام الجنوبية بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية. فبدأت حربُ عصابات طاحنة فى عام 1957 بقيادة رجال الفيت كونج ضد نظام ديم. وفى عام 1959، قررت حكومة فيتنام الشمالية مساعدة الفيت كونج. فتدخّلت الولايات المتحدة بدءًا من عام 1961 عسكريًا. أشار إليهم المؤلف بغرض إظهار نجاح البريطانيين فى مالايا مقابل إخفاق الأمريكيين مع الفيت كونج فى فيتنام الجنوبية - المترجم.

بلا أى مَجْدٍ. ثم بوصفه رئيسَ أركان [قائدًا أعلى] لقوات الحلفاء فى شمال أوربا Allied Forces Northern Europe (من عام 1969 حتى تقاعده عام 1972)، رأى أن مهمته هى التحذير من مواجهةٍ [كونفرونتازى] سوفييتية وشيكة فى الدول الإسكندنافية (فنَشَرَ لاحقًا كتابين عن الموضوع، تحت عنوانيْن لا لَبْس فيهما: «الدُبُّ عند الباب الخلفى» The Bear at the Back Door، و«الدومينو القادم» The Next Domino).

وهو ما لم يجعله مُحَبّبًا لدى السياسيين فى لندن، الذين اكتشفوا فى ذلك الوقت فوائدَ تخفيف العداوة مع السوفييت، وبخاصة أنه سيمنحهم المُبرّرَ للمزيد من تقليل نفقات الدفاع.

قضى الجنرالُ فى رواية فورستر فترةَ تقاعده على كرسى متحرك، بطريقة مثيرة للشفقة، يلعب البريدج. أما والتر ووكر فلم يكن من نوع الجنود القدامى الذين يختفون من المشهد. ففى يوليو عام 1974، كتَبَ رسالةً إلى صحيفة ديلى تليجراف Daily Telegraph يُحذِّرُ فيها من «حصان طروادة الشيوعى بيننا، برفاقه المسافرين الذين يَشقّون طريقهم كالديدان حاملةً اليرقات فى أمعائها»، ودعا إلى «قيادة دينامية نشطة استنهاضية... أعلى من السياسة الحزبية»، لـ«إنقاذ» البلاد.

رأى ووكر الجيشَ الجمهورى الأيرلندى[707] Irish Republican Army - الذى كان يُعِيثُ فسادًا وقتئذٍ بسيارات مُفَخّخة واغتيالات فى البَرّ الرئيسى البريطانى - بوصفه تنظيمًا شيوعيًا أماميًا. يقول ووكر: «ينبغى إعلان أن أيرلندا الشمالية منطقةُ عمليات حقيقية، أو حتى منطقة حرب، يخضع فيها القتلة المحتملون الذين يحملون السلاح أو يستخدمونه لمحاكمة عاجلة وللإ

---

[707] الجيش الجمهورى الأيرلندي: منظمة شِبْه عسكرية تأسّستْ فى عام 1919، بوصفها وريثةً لمنظمة قومية فدائية تأسّست عام 1913 تُسَمّى «المتطوعون الأيرلنديون». يسعى الجيش الجمهورى الأيرلندى إلى تحرير أيرلندا الشمالية من الحُكم البريطانى وإعادة توحيدها مع الجمهورية الأيرلندية. ومنذ لحظة التأسيس، مرّت المنظمة بمراحل عديدة دموية غالبًا فى مواجهة بريطانيا من أجل الاستقلال، وصولا ً إلى اتفاقية «بلفاست» فى تسعينيات القرن العشرين. أما المرحلة المشار إليها فى السياق الحالى فهى نهاية ستينيات القرن العشرين حين اندلعت أحداث عنف فى أيرلندا الشمالية على إثر مطالبة الكاثوليك - وهم الأقلية - بالانفصال عن بريطانيا والحصول على حقوقهم المدنية والسياسية والوحدة مع جمهورية أيرلندا، فهاجمهم البروتستانت الأيرلنديون الموالون للحكم البريطاني.

وتدخّلَ الجيش الجمهورى الأيرلندى في الصراع فحدثت مواجهات عنيفة مع الجيش البريطاني، بالإضافة إلى عمليات تفجير لأهداف مدنية في لندن نفسها.

وامتدت العمليات حتى منتصف السبعينيات - المترجم.

إعدام». وحين سألته جريدة إيفيننج نيوز Evening News عمّا إذا كان سيستولى الجيشُ على الحُكم فى البلاد، أجاب قائلا ً: «قد تختار البلادُ الحُكمَ بالبندقية بدلا ً من الفوضى». وبحجة دَعْم أميرالى [عميد] الأسطول البحرى السير فاريل بيج Sir Varyl Begg، ومارشال [مشير] سلاح الجو المَلَكى البريطانى السير جون سليسَر Sir John Slessor، أنشأ ووكر تنظيمَ «مكافحة الفوضى» anti-chaos الذى عُرف فى البداية باسم «يونيسَن» [التزامن][708] Unison، ثم لاحقًا باسم «الإغاثة المدنية» Civil Assistance. هدفُ هذا التنظيم المُعلَن خلقُ قوة «من الرجال الموثوق فى إخلاصهم ورجاحة عقلهم» للحفاظ على الخدمات العامة الأساسية فى حالة حدوث إضراب عام. ارتاب ووكر فى أن رئيس الوزراء هارولد ويلسن[709] Harold Wilson هو نفسه شيوعى - فالرجل الرابع Fourth Man والخامس Fifth Man لم يُتَوَصّلْ إلى تحديدهما بعد [فى هذا الوقت][710] - فاجتذبه إينوك باول[711] Enoch Powell، من بين مُحافِظين عديدين، إلى مجموعته المُعارضة للهجرة والاندماج مع أوربا. وبلا تردُّدٍ، اتخذ ووكر جانبَ الزعيم الروديسى إيان سميث[712] Ian Smith، فقام بسِتِّ زيارات إلى نظام الحُكم العنصرى فى

---

[708]التزامن: المقصود هنا تزامن القول والعمل - المترجم.

[709]هارولد ويلسن: (1916 - 1995)، سياسى بريطانى من حزب العمال، تولى رئاسة الوزراء مرتين، انتهج أسلوبًا اشتراكيًا معتدلا ً، ومع ذلك رأى مؤرّخو حزب العمال أن سنوات منصبه هى فرص ضائعة لإصلاحات كبرى، على حين يرى آخرون أنه تمكنَ من إدارة قضايا سياسية صعبة بمهارة تكتيكية عالية - المترجم.

[710]الإشارة هنا إلى أعضاء حلقة الخمسة: جواسيس كمبريدج - المترجم.

[711]إينوك باول: (1912 - 1998)، سياسى إنجليزى وأديب كلاسيكى وعالِم لغوى وشاعر وأستاذ لغة يونانية قديمة. خَدَمَ في أحد مكاتب الاستخبارات البريطانية.

وشغل منصب عضو المحافظين فى البرلمان. اكتسب شهرةً واسعة فى عام 1968 عندما ألقى خطابًا مثيرًا للجدل حول الهجرة - المترجم.

[712]إيان سميث: (1919 - 2007)، سياسى بريطانى، تولى منصب رئيس وزراء روديسيا من عام 1964 حتى عام 1979. تقع روديسيا فى جنوب أفريقيا، ونشأت على أنقاض المستعمرة البريطانية السابقة «روديسيا الجنوبية». فى الفترة التى تولى فيها إيان سميث - من الأقلية البيضاء - تشكيلَ الحكومة، اندلعت حربُ عصابات وحشية مع اتحاد شعب زيمبابوى الإفريقى بقيادة روبرت موجابى وحركة زابو بقيادة جوشوا نكومو، فاضطر رئيس الوزراء إيان سميث إلى إقرار ديمقراطية ثنائية العِرْق، ولكن فشلت الحكومة المؤقتة فى وقف إراقة الدماء. فى أبريل عام 1980، أُعْلِنَ استقلالُ روديسيا باعتراف بريطانيا والأمم المتحدة تحت اسم جمهورية زيمبابوي - المترجم.

جنوب أفريقيا، واتهم المِثليين [جنسيًا] ب«استخدامهم فتحة المجارى الرئيسية فى الجسم البشرى بوصفها مَلْعبًا». (فى كتابه Who’s Who يُعَدِّدُ وسائله الترفيهية التي يصفها بأنها «عادية»)[782].

ولكن السخرية من كل شىء كانت يسيرةً للغاية. فوُصِفَ منزلُ ووكر فى سومرست Somerset بأنه « Eglises- Deux - les -Lambrook » (تلميحًا إلى المنتجع الريفى للرئيس الفرنسى السابق شارل دى جول Charles de Gaulle: Èglises- Deux - les -Colombey). ولم ينفع ووكر أن يكون أحدُ أنصاره العَلَنيين الممثلَ الكوميدى مايكل بِنتين Micheal Bentine فى برنامج «ذا جون شو»[713] The Goon Show سابقًا، الذى صار لاحقًا مُقدِّمًا فى عرض للأطفال بعنوان «بوتى تايم» Potty Time على شبكة تلفزيون تيمز Thames Television.

فى المسلسل التلفزيونى «سقوط وصعود رجينالد بيرين[714]» The Fall and Rise of Reginald Perrin (1976-1979)، كانت شخصيةُ جيمى، شقيق ريجي، محاكاةً ساخرةً مضحكةً لنموذج ووكر:

ريجي: مَن ستحاربه حين تنفخ بالونتك؟

جيمى: [سأحارب] قوى الفوضى. [سأحارب] هادمى القانون والنظام. [سأحارب] الشيوعيين، الماديين، التروتسكيين، التروتسكيين الجُدُدِ، التروتسكيين المُستخفِين، قادة النقابات، قادة النقابات الشيوعية، الملاحدة، اللاأدريين، الشوادّ طويلى الشعر، الشوادّ قصيرى الشعر، مُخرّبى الممتلكات، مثيرى الشَغَب، مشجعى كرة القدم، ضبّاط التدريب المخنثين، المغتصبين، الكاثوليك، الكاثوليك المخرّبين، الجرّاحين الأجانب - قاطعى الرؤوس المحتفظين بها، الذين ينبغى إيداعهم مستشفى الأمراض العقلية - ويدجوود بين Wedgwood Benn [سياسى بريطانى من حزب العمال]، بانك روك[715] punk rock، شَمّامى الروائح الطيّارة، «برنامج بلاى فور توداى» Play For

---

[713]برنامج إذاعي كوميدي بريطاني من إنتاج إذاعة BBC - المترجم.

[714]مسلسل تلفزيونى كتبه ديفيد نوبس، يتناول حياة عائلة من الطبقة الوسطى فى الضواحى، من خلال شخصية ريجينالد بيرن الملقب ب«ريجى»، يعمل مديرًا عامًا فى شركة «حلويات الشمس المشرقة»، ونظرًا إلى عدم جدوى وظيفته يندفع إلى ممارسة سلوكيات غريبة - المترجم.

[715]بانك روك: نوع من الموسيقى متفرّع من الرُوك، متذمِّر ومُعارض ويرتبط بالفوضوية، ظهر بدءًا من عام 1976 فى الولايات المتحدة والمملكة المتحدة قبل أن ينتشر فى أرجاء العالم – المترجم.

Today، مالكى الأراضى بوضع اليد، كلايف جنكينز Clive Jenkins [رئيس اتحاد العمال البريطانى]، روى جنكينز Roy Jenkins [سياسى ومؤرّخ وعضو فى حزب العمال البريطانى]، [لعبة] آب جنكينز Up Jenkins، المطاعم الصينية - لماذا تُحَاطُ قلعة وندسور Windsor Castle [فى مقاطعة بيركشاير ا لإنجليزية] بالمطاعم الصينية؟

ريجي: هل هذا كل شيء؟

جيمي: نعم.

ريجى: فهمت. أتعرف أى نوع من الأشخاص ستجتذبه إليك؟ [ستجتذب] البَلْطجية، الصبية المتشردين، المرضى النفسيين، رجال البوليس المفصولين، حُرّاس الأمن، حُرّاس الأمن المفصولين، العنصريين، المهاجمين العنصريين، مُهاجِمِى الشذوذ، مُهاجِمِى الصينيين، مُهاجِمِى المُهاجِمين، مُهاجِمِى أى شخص، أميرالايات المؤخِّرة [فى سلاح البحرية]، أميرالايات الكوير queer، نائب الأميرالاى، الفاشيين، الفاشيين الجُدُدِ، الفاشيين المُستخفِين، المخلصين ، المخلصين الجُدُدِ، المخلصين المُستخفِين.

جيمي: حقًا؟ أعتقد أن التأييد قد يكون صعبًا.

هكذا انتهى سيد حرب الأحراش عَلَفًا لكُتّاب المسلسلات الكوميدية. أما ووكر الحقيقى فقد اختفى من المشهد بشكل أكثر مأساوية، ضحية عمليتين غير ناجحتين في الفخذ تركتاه مُعاقًا.

ورغم كل تلك السّخَافات، كان رجال من أمثال والتر ووكر على صواب فى أن شيئًا ما فاسِدٌ وعَفِنٌ فى دولة إنجلترا، فإن لم يكن مؤامرةً شيوعيةً وَفْق تصوراتهم المحمومة، فعلى الأقل التحرُّر الاجتماعى والجنسى الذى أدانوه. لقد عانت بريطانيا فى أواسط سبعينيات القرن العشرين من حالة فوضى حقًا: معدل تضخُّم من أعلى المعدلات فى العالم المتقدِّم، واضطراب صناعى منتشر.

الكلبية[716] cynicism التافهة التى جعلت الكوميديا التلفزيونيةُ جيدةً فى

---

[716]الكلبية: مذهب يونانى قديم، يرى مؤسِّسه فى القرن الرابع قبل الميلاد أن الشخص الحكيم هو الذى يحتقر كل الرغبات المألوفة فى الحياة لأنه لن يستطيع مهما فعل إشباعها؛ فلا يتقيد بأية التزامات تجاه المجتمع أو الدولة أو الأسرة لأن هذه الالتزامات تُولِّد رغباتٍ لا يمكن إشباعها. وفى القرن التاسع عشر، تغيّر مفهوم الكلبية ليعنى «سلبية شديدة» وارتيابًا عامًا فى نزاهة دوافع الآخرين. وفى الأحاديث اليومية العادية لدى الغربيين يُوصَفُ الشخص الذى يسخر من الفكرة القائلة بوجود الخير فى الطبيعة البشرية بأنه كلبى - المترجم.

ذلك الوقت، جعلت الحياةَ اليومية أيضًا فى المملكة المتحدة سيئةً. لم تكن المشكلةُ «قوى الفوضى»، بل كانت انهيارَ الدولة البريطانية المركزية التى شُيِّدتْ في فترة الحروب العالمية.

وبالنسبة إلى معظم النُّخْبة المدنية فى بريطانيا - الموظفين المدنيين فى الوايتهول[717] Whitehall، وكذلك السادة فى أكسفورد وكمبريدج، وحاملىْ ألقاب «العظيم والخَيِّر» - بدا درسُ الانتصاريْن فى عامىْ 1918 و1945 واضحًا:

ما كان يشتغل هو التخطيط المركزى. فى فترة ما بعد الحرب، بدا كلٌّ بيروقراطى صاحبَ خطة مرسومة، وتُفَعِّلُ من المركز السياسى، وليس على المحليّات سوى تنفيذها[783]. فكل شىء تطلَّبَ تخطيطًا، بدءًا من السكن إلى الرعاية الصحية، ومن حليب المدرسة إلى الكهرباء المائية الإسكتلندية. وكان يُضْرَبُ المثل على الثقة بالنفس لدى التكنوقراط فى ذلك الوقت بال مونياك MONIAC (كمبيوتر الدخل النقدى الوطنى التناظرى the Monetary National Income Analogue Computer)، وهو جهاز هيدروليكى صمَّمَه النيوزيلندى بِلْ فيليبس Bill Phillips بغرض محاكاة تأثيرات السياسة الاقتصادية الكينزية فى اقتصاد المملكة المتحدة. وحتى سبعينيات القرن العشرين، لم يكن قد بدأ يتضح أن أفضلَ الخطط، فى وقت السِّلم، عُرْضَةٌ للسقوط فى مستنقع الركود والفساد. فالتخطيط بأسلوب الحداثة العليا high-modernist planning عاثَ فسادًا كبيرًا من كل الأنواع، بدءًا من الزراعة الجماعية السوفييتية[718] collectivization of Soviet agriculture حتى بناء برازيليا[719] Brasilia وقرى العائلة الممتدة [يوجاما][720] ujamaa الإلزامية فى تنزانيا. ومع ذلك،

---

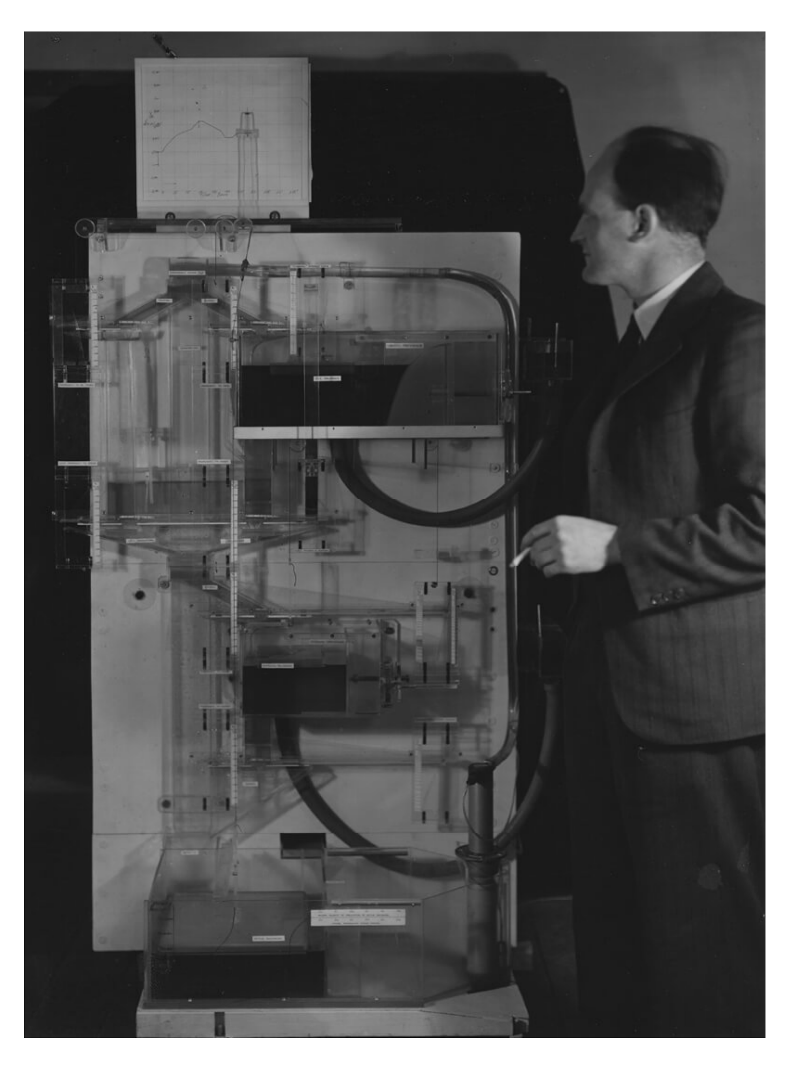
[717]وايتهول: شارع فى مدينة وِسْتمِنِسْتر وسط لندن. مركز حكومة المملكة المتحدة حيث توجد فيه معظم مؤسّسات الحكم ومقر رئاسة الوزراء. وفيه قصر «وايتهول» الذى كان مقرًا لإقامة ملوك إنجلترا قديمًا - المترجم.

[718]الزراعة الجماعية: إنتاج زراعى جماعى، نفّذته الحكومة السوفييتية بدءًا من أواخر عشرينيات القرن العشرين وفق سياسة دَمْج قَسْرى لأسر الفلاحين الفردية فى مزارع جماعية تُسَمّى كولخوز kolkhozes يُشَارُ إليها بوصفها مثالا ً على الزراعة الجماعية الإجبارية، فى مقابل الكيبوتس الإسرائيلى الذى يُشَارُ إليه بوصفه مثالا ً على الزراعة الجماعية الطَّوْعية - المترجم.

[719]برازيليا: العاصمة الثالثة للبرازيل، بُنيت عام 1960، نفّذها المعمارى البرازيلى أوسكار نيماير والمُصَمِّم لوسيو كوستا - المترجم.

[720]يوجاما أو الأسرة فى اللغة السواحيلية: مفهوم أساسى فى سياسات التنمية الاجتماعية والاقتصادية في تنزانيا بعد استقلالها عن بريطانيا عام 1961 - المترجم.

يمكن الإبقاء دائمًا على مثل هذه الكوارث، ولو لوَأْدِ أى نوع من المعارضة. لكن بسبب ضَعْفها وتداعيها، يمكن تحدِّي النظام المُخطِّط والطَّعْن فيه[784].



الشكل رقم: 29 - ويليام فيليبس مع جهاز المونياك (كومبيوتر الدخل النقدى الوطنى التناظرى)، نموذج هيدروليكى لاقتصاد المملكة المتحدة صُمِّمَ فى إنجلترا عام 1949.

كانت مشكلة المُخطِّطين أن النظام الهَرَمى الذى كان مناسبًا تمامًا لنشاط الحرب الشاملة - وهو نشاط اتصف باحتكار الشراء monopsony حيث الدولة هى المشترى الوحيد، وبالتوحيد القياسى حيث الهدم أبسط كثيرًا من البناء - لم يكن مناسبًا بالمرة للمجتمع الاستهلاكى consumer society. لقد وُعِدَ مَن شاركوا فى الحربين العالميتين بالنصر والازدهار. ومن الناحية العملية، لا يمكن تحقيق ذلك إلا إذا تُركتْ ملايين الأُسَر حُرّةً فى الاختيار من مليارات الخيارات، التى تُلبّيها مئات الآلاف من الشركات. والنتيجةُ تزايدُ التعقيد، حيث «تصبح التفاعلاتُ الجانبية أهمّ بكثير، والحدودُ بين النُّظُم الفرعية داخل أي تنظيم... أكثرَ سيولةً»[785].

وكما يقول الفيزيائي يانير باريام[721] Yam-Yaneer Bar :

«مجموعة الأفراد الذين يسيطر على سلوكهم الجَمْعى فردٌ واحد لا يمكن أن يسلكوا بطريقة أعقد من الفرد الذى يمارس السيطرة عليهم». طُبِّقتْ خطةٌ خَمْسية فى الاتحاد السوفييتى زمن ستالين، حين كان الفرد أكثر قليلا ً من الترس فى نظام زراعة جماعى، وإنتاج صناعى ثقيل، وحرب شاملة، واستعباد عقابى. وكان من الطبيعى أن تنهار فى بريطانيا زمن هارولد ويلسن. وكمبدأ عام: حين يصبح تعقيدُ المطالب المُلْقاة على عاتق الأنظمة البشرية الجَمْعية... أكبرَ من إنسان فرد... لا يعود التسلسل الهَرَمى بقادر على فرض علاقات متبادلة/تناسق ضرورى على الأفراد. فبدلا ً من ذلك، تكون التفاعلات والآليات [الميكانيزمات] المميزة للشبكات بأنظمتها المعقدة تعقيد المخ البشري هي الضرورية»[786].

يتجلى الانتقالُ إلى عالَم أكثر شبكيةً بطرق وفيرة فى سبعينيات القرن العشرين. ولم يكن الحافزُ تكنولوجيًا بقدر ما كان تنظيميًا. فريدريك هايك[722] Friedrich Hayek أولُ مَن أعاد اكتشاف فكرة آدم سميث القديمة القائلة بضرورة تفوُّق النظام التلقائى للسوق على «أى نظام يتحقق بتنظيم عَمْدى». وكما يذكر هايك:

«الإبقاء على ضرورة التخطيط العَمْدى للمجتمع الحديث لأنه صار معقدًا جدًا، ينطوى لهذا السبب عينه على مفارقة، ويُعَدُّ نتاجًا لفَهْم مغلوط تمامًا... الحقيقة بالأحرى أنه بإمكاننا الحفاظ على نظام التعقيد هذا... من خلال دَعْم القواعد المؤدِّية إلى تشكيل نظام تلقائي وتحسينها بطريقة غير مباشرة»[787].

ثمة آخرون تبيّنوا لأنفسهم هذا الطريق الشاق. فى شركة فورد موتور Ford Motor Company، بدأ كبار المسؤولين التنفيذيين يلاحظون أن حجمَ المعلومات التى يجب عليهم التعامل معها جِدُّ هائل، فى لحظةٍ صارت فيها خطوطُ التجميع مُحْكمةً للغاية بحيث تقتضى التغييراتُ البسيطةُ فى تصميم سيارةٍ انقطاعاتٍ طويلةً في الإنتاج. لقد «صارت جيدة جدًا»[788].

فوَجَدَت التكتلاتُ المتكاملة رأسيًا نفسَها تحت ضغط الانفراط فيما أطلق

---

[721] يانير باريام: من مواليد عام 1959، فيزيائى أمريكى، والمدير المؤسِّس لمعهد نيو إنجلا ند للنُّظُم المعقدة - المترجم.

[722] فريدريك هايك: (1899 - 1992)، اقتصادى ومنظِّر سياسى نمساوى بريطانى، وأكثر أعضاء المدرسة النمساوية فى الاقتصاد تأثيرًا. عُرِفَ بدفاعه عن الليبرالية الكلاسيكية و الرأسمالية القائمة على السوق الحر، ونقده للفكر الاشتراكى والجماعى أواسط خمسينيات القرن العشرين. حصل على نوبل في الاقتصاد مناصفةً عام 1974 - المترجم.

عليه المؤرّخون الاقتصاديون «ثورة السوق الثانية»[789]، لأنها ليست بقادرة على التنافس مع مزيد من المنافسين الأمهر والأكثر رشاقة الذين يستعينون بمصادر خارجية فى سلاسل إمدادهم supply chains[790]. وقد عمل على تسريع التحول عن التسلسل الهَرَمى وعىٌ مُتنامٍ لدى النُخَب السياسية الغربية بأن الرخاء سيزيد أيضًا بزيادة التجارة الدولية.

أحلام أواسط القرن بالاكتفاء الذاتى استسلمت لعصر سعيد مفعم بالثقة، يمكن فيه استثمار ميزة النسبية مرة أخرى. ظهر مصطلح «العَوْلمة» globalization - الذى يُعَرّفُ بأنه «عالمية النطاق والتطبيق» - لأول مرة فى قاموس ميريام وبستر Webster-Merriam فى عام 1951[791]. وفى عام 1983، نشر ثيودور ليفيت[723] Theodore Levitt مقالته المؤثِّرة عن «عَوْلمة الأسواق» The Globalization of Markets فى دورية هارفارد بيزنس ريفيو Harvard Business Review[792].

ومع ذلك، ليس من الصحيح تمامًا أن الخطة القومية تراجعت أمام السوق العَوْلمى. فكما أشار والتر باول[724] Walter Powell فى مقاله المُنَوّر عام 1990 ، يمثل ازدهارُ شبكات الأعمال على المستويين القومى والدولى معًا شيئًا أكثر من مجرد انتصار الأسواق على المؤسسة الهَرَميّة. يقول باول: «فى الأسواق تكون الإستراتيجية المعيارية هى الدفع نحو أصعب صفقة رابحة ممكنة فى تبادل فورى. وفى الشبكات، الخيار المُفضّل غالبًا هو خلق مديونية واعتماد [ثقة] على المدى الطويل»[793]:

فى أساليب الشبكة لتخصيص الموارد، لا تحدث الصفقات عبر تبادلات منفصلة ولا بأمر إدارى، بل من خلال شبكات الأفراد المشاركين فى أفعال تبادلية وتفضيلية يدعم بعضها بعضًا. الشبكاتُ معقدةٌ: فهى لا تنطوى على معايير سوق واضحة، ولا على أبويّة التسلسل الهَرَمى المألوفة. الفرضيةُ الأساسية فى العلاقات الشبكية هى اعتماد طرف على موارد يسيطر عليها طرفٌ آخر، وتحقيق المكاسب عن طريق تجميع الموارد. ومن حيث المبدأ، يوافق أطراف الشبكة على التخلِّى عن الحق فى متابعة مصالحهم الخاصة

---

[723] ثيودور ليفيت: (1925 - 2006)، اقتصادى أمريكى وأستاذ فى كلية التجارة بجامعة هارفارد، ورئيس تحرير مجلة هارفارد بيزنس ريفيو. فى عام 1983، اقترح تعريفًا لهدف الشركة هو خلق العميل والإبقاء عليه بدلا ً من مجرد كسب المال - المترجم.

[724] والتر باول: من مواليد عام 1951. عالِم اجتماع أمريكى معاصر، أستاذ التعليم و السوسيولوجيا والسلوك التنظيمى وعلوم الإدارة والهندسة والاتصالات بجامعة ستانفورد وكلية ستانفورد للدراسات العليا منذ عام 1999. اشتهر بإسهاماته فى النظرية التنظيمية، و لا سيما النظرية المؤسّسية الجديدة ونظرية الشبكة - المترجم.

على حساب الآخرين[794].

وهذا له مزاياه الواضحة، فهو دون شك ترتيبٌ أكثر مرونةً من التسلسل الهَرَمى. ولكنه ينطوى أيضًا على قدر من التواطؤ بين أفراد الشبكة ضد الوافدين الجُدُد[795].

كان لهذه الفكرة آثارها المهمة على محاولات تكييف القطاع العام مع بيئة سبعينيات القرن العشرين الجديدة. لقد اتضح بما يكفى أن التسلسل الهَرَمى المركزى - الذى يُجسِّده «رجلٌ من الوايتهول» عارفٌ بكل شىء ولكنه عاجز - لم يعد يعمل. وكان الأقلُ وضوحًا اندراجَ قوى السوق فى احتكارات طبيعية أو مفروضة أُنْشِئتْ أيام «التأميم» nationalization الذهبية. صار مصطلح الفن هو «الخَصْخَصَة» privatization بدءًا من أوجُستو بينوشيه[725] Augusto Pinochet فى شيلى Chile، إلى مارجرت تاتشر Margaret Thatcher فى بريطانيا. وأما من حيث الممارسة العملية، فمالت التسلسلاتُ الهَرَميّة إلى ترْك مكانها لشبكات قوية الترابط بدلا ً من الأسواق التنافسية[796].

كان من الأوهام الدائمة أن «قوى السوق» تضع فى حسبانها مؤسسات مستعصية مثل هيئة الخدمات الصحية الوطنية National Health Service أو السكك الحديدية البريطانية British Rail. لكن الحاصل أن الخطط العظيمة أخْلَتْ مكانها لشبكاتٍ وَحّدَتها روابطُ الثقة وإعطاء الهدايا[797]. وكانت النتائجُ بوجه عام أفضلَ، بمعنى أن الخدمات [المرافق] العديدة التى خُصْخِصَتْ صارت أكفأ، أما «الكوانجو» [هيئات إدارية شِبْه حكومية] quangos و«الدوائر السحرية» المسؤولة عنها فلم يكن لها من أملٍ في التمتع بشرعية شعبية.

---

[725] أوجستو بينوشيه: (1915 - 2006)، رئيس شيلى الثلاثون منذ عام 1974 حتى عام 1990، ديكتاتور عسكري - المترجم.

45

شبكة السلطة عند هنري كيسنجر

لا شيء يوضح فعّالية النظام الشّبَكى الناشئ، وفى الوقت نفسه غير الرسمى [بمعنى عدم اندراجه فى قنوات النظام الرسمية]، أفضل من مجرى حياة هنرى كيسنجر Henry Kissinger. شَقّ كيسنجر - اللاجئ من ألمانيا النازية - طريقه بوصفه طالبًا فى التاريخ والفلسفة والجغرافيا السياسية geopolitics أثناء خدمته فى الجيش الأمريكى، حتى صار أحدَ أساتذة هارفارد Harvard العديدين الذين استقطبتهم الحكومة [الأمريكية] خلال الحرب الباردة. فجاء تعيينُه مستشارًا للأمن القومى أثناء رئاسة ريتشارد نيكسون Richard Nixon فى ديسمبر عام 1968 مفاجأةً للعديد من الناس (ولكيسنجر نفسه)، لأنه حُسِبَ - طوال العقد السابق - على نيلسون روكفلر Nelson Rockefeller، المنافس الأرستقراطى لنيكسون داخل الحزب الجمهورى Republican Party. وقد أعرب الرئيس السابق أيزنهاور Eisenhower، وهو على فراش المرض، عن ارتيابه فى التعيين. إذ هَتَفَ عندما سمع باختيار نيكسون له: «ولكن كيسنجر أستاذ [جامعى]. أنت تطلب من الأساتذة دراسةَ المشكلات، ولكنك لا تضعهم فى موقع المسؤولية عن أى شىء»[798]. ولم يكن هذا الرأى سوى عدم تقدير للأستاذ الذي نحن بصدده.

وصل كيسنجر إلى البيت الأبيض White House بحساسية زائدة تجاه البيروقراطية، شاركه فيها الرئيسُ الجديد. (بدأت هذه الحساسية فى الجيش ، الذى حصل فيه على أقل رُتبَة رغم قيامه بدور قوى بوصفه عميل مكافحة تجسُّس[726] intelligence-counter ، واستمرت هذه الحساسية طوال فترة وجوده فى هارفارد، لأن موهبتَه الحقيقية تكمن فى إنشاء مؤسسات جديدة بدلا ً من الانحناء لكبار أعضاء هيئة التدريس والعُمَدَاء). كتَبَ فى أطروحته للدكتوراه قائلا ً: «روح السياسة وروح البيروقراطية على طرفىْ نقيض». «جوهر السياسة هو عَرَضيّتُها [احتماليتُها]؛ ويعتمد نجاحها على صحة التقدير الذى هو فى جانب منه حدسىٌ. أما جوهر البيروقراطية فهو إيثار السلامة؛ ويكمن نجاحها فى تكييف الأمور وفق هدف محدّد... وتُؤدِّي

---

[726] عميل مكافحة التجسُّس: شخص تكون كل مهمته معرفة ما يفعله العدو ويخطط للقيام به، وفي الوقت نفسه مَنْع وصول الجواسيس إلى المعلومات.

ويحوز هذا العميل أعلى التصاريح الأمنية للتعامل مع جهات متعددة استخباراتية ومدنية داخل البلاد. من مهماته بالإضافة إلى الكشف والتحديد والمكافحة، استغلالُ أو تحييدُ الخَصْم - المترجم.

محاولةُ تدبير السياسة بطريقة البيروقراطية إلى التكييف الذى يسقط فى أحبولة الأحداث الراهنة»[799].

كان كيسنجر يشكو، على مدى خمسينيات القرن العشرين وستينياته، من مَيْل كل رئيس إلى «مواجهة الأمر الواقع[727] faits accomplis بالبيروقراطية فيُصَادِق عليه أو يُلَطِّفه، الأمر الذي يعوق التفكيرَ الحقيقي في البدائل»[800].

ويذكر كيسنجر، فى مقالة منشورة عام 1966 بعنوان «الهيكل الداخلى و السياسة الخارجية» Domestic Structure and Foreign Policy، أن البيروقراطية الحكومية «بذلت جهدًا مُتعمّدًا لاختزال العناصر وثيقة الصلة بِ المشكلة إلى مستوى الأداء المتوسط». وهذا بحد ذاته مشكلةٌ، ذلك أن «ما تُعرّفه البيروقراطيةُ بوصفه روتينيًا لا يُعالِجُ النطاقَ الأهم فى القضايا؛ أو يَثبت أن أسلوبها المعتاد فى اتخاذ إجراء، لا علاقة له بالمشكلة». وفى الوقت نفسه، وُجِدَ مَيْلٌ إلى «تنافسات بيروقراطية» بين الأقسام [الإدارية]، بوصفها الوسيلة الوحيدة لتوليد القرارات؛ أو مَيْلٌ لدى عناصر البيروقراطية المختلفة إلى وَضْعِ «سلسلةِ قواعدِ عدمِ تعدِّى أحدها على الآخر، ومن ثمّ تقليص دور صانع القرار إلى دور مَلِك دستورى يسعى بين الناس بالخير». ما لم يفهمه معظمُ الناس عن الخطابات الرئاسية التى تتناول السياسة الخارجية، فيما يقول كيسنجر، هو أنها تستهدف عادةً «تسويةَ نقاشٍ داخلى فى واشنطن»[801].

فى ربيع عام 1968، وقبل أشهر فقط من عَرْض وظيفة مستشار الأمن القومى على كيسنجر، ذهب إلى حدِّ القول بأنه «لا توجد سياسة خارجية أمريكية»، وإنما «سلسلة تحرُّكات تسعى إلى نتيجة محدّدة»، وهى تحرُّكات «لم تكن تُخَطِّط للوصول إلى هذه النتيجة»، «وتحاول الهيئاتُ البحثية والا ستخباراتية، سواء الخارجية أو الداخلية، إضفاءَ عقلانية واتساق عليها... تفتقر إليهما بكل بساطة».

ويقول كيسنجر إن «أعلى مستوى تفكير يحدث» فى الإدارة الحكومية، يأتى من «مستوى البيروقراطية المتوسط - مستوى الأمين المساعد ومستشاريه المباشرين...

وعدا ذلك، يَمتصُّ التشغيلُ اليومى للآلة معظمَ الطاقة». فى ظل هذه الظروف، «لا تُتّخذ القراراتُ حتى تظهر بوصفها مسألةً إدارية»[802].

أفضلُ مثال على حجة كيسنجر فشلُ إستراتيجية الولايات المتحدة الذريع

---

[727]الأمر الواقع: شىء حَدَثَ بالفعل أو حُسِمَ قبل أن يسمع المتأثرون به شيئًا عنه، فلا يترك لهم خيارًا سوى التكيُّف معه - المترجم.

فى فيتنام. فهو يكتب بعد عدة زيارات إلى فيتنام الجنوبية قائلا ً: لا يوجد «شيء يُسَمّى...

سياسة فيتنام؛ لا يوجد سوى مجموعة من برامج الوكالات الفردية المهتمة بفيتنام. وهذه البرامج قد تنسجم فيما بينها أو تتعارض إذا وُجِدَ صراعٌ بين الوكالات العاملة ميدانيًا، حسب الأحوال». وبذلك وُجِدَتْ ثلاثُ مشكلات. المشكلة الأولى: كان النظام يعمل حين توجد وكالتان متعارضتان، كلٌ وكالة منهما تقف على جانب من جوانب القضية؛ ويفشل الأمر عندما تُخَصّصُ مجموعةٌ صغيرة لا تلْقى معارَضةً كى تتولّى العمل. المشكلة الثانية: لا يوجد تخطيطٌ لأنه لا أحد لديه الوقت للتخطيط («فالتخطيط يعنى حَدْسًا وتخميناتٍ بشأن المستقبل وحالاتٍ افتراضيةً. وهم مشغولون بالحالات الواقعية التى يُحْجِمون عن معالجتها وَفْقَ حالات نظرية»). المشكلة الثالثة: صُنّاع السياسة مُبْتَلون ب«عدم شعور فطرى بالأمان» لأنهم يفتقرون إلى خبرة مستشاريهم؛ ولذا يلجأون إلى «البحث عن توافق [إجماع] إدارى». وقد أدّى كلٌ هذا إلى نتائج كارثية عندما سعت الولايات المتحدة إلى التفاوض من أجل إنهاء الصراع مع الفيتناميين الشماليين المُتَعنِّتين بدرجة كبيرة. كان هناك إغراء دائم فى واشنطن بعدم اتخاذ قرار بالمرة، وانتظار «ما يعرضه الطرف الآخر» بعد بداية التفاوض.

لهذا، فى فترات الدبلوماسية التمهيدية، موقفنا صارمٌ ومتشدِّدٌ، لكن هذا الموقف يتغير بسرعة عندما يُعيّنُ مُفاوِضٌ، يتصرف بوصفه ناطقًا بلسان الطرف الآخر.

ولا تتمثل مشكلته فى الاهتمام بالصورة الشاملة، وإنما يهتم بنجاح المفاوضات. ويمكنك القيام بمفاوضات ناجحة عندما تضع فى حسبانك ما يقوله الطرف الآخر بجدية[803].

وكما يقول كيسنجر: «البرَجْماتية pragmatism والبيروقراطية امتزجتا لإ نتاج أسلوب دبلوماسى يتصف بالصلابة أثناء التمهيد للمفاوضات الرسمية، ثم حين تبدأ المفاوضات نرى اتكالا ً زائدًا على الاعتبارات التكتيكية»[804].

ذلكم هو نقد البيروقراطية الذى أدّى بكيسنجر ومجموعة من أقرانه فى هارفارد إلى تقديم مشورة للرئيس المُنْتَخب الجديد بعدم تعيين رئيس موظفين [فى البيت الأبيض][728] chief of staff قوى، مُخوّل بالتحكم فيما

---

[728]رئيس موظفى البيت الأبيض أو كبير الموظفين فيه: هو الموظف الأعلى رُتبةً فى البيت الأبيض، ويترأس المكتب التنفيذى لرئيس الولايات المتحدة، وأحد كبار مساعدى الرئيس. أُنشئ المنصب عام 1946 تحت اسم «مساعد الرئيس» ثم تغيّرَ إلى الاسم الحالى عام 1961. وهو يعمل، بوجه عام، من خلف الكواليس لحل المشاكل والتوسط فى النزاعات،

يصل إلى الرئيس. كانوا يقولون إن الرئيس التنفيذى [رئيس البلاد] الناجح يحتاج إلى المَزْج بين «عناصر التسلسل الهَرَمى وتوزيع قنوات الوصول إليه». ومن الأفضل كثيرًا [فى هذه الحالة] تعيين مستشار إستراتيجى رئيسى بأوسع نطاق مسؤوليات ممكن[805].

فهل وَضَعَ كيسنجرُ نفسَه فى الحسبان عند تقديمه هذه النصيحة؟ على الأ غلب لا؛ إذ حين كتَبَ ذلك، كان أقصى ما يمكنه الأمل فيه نائب أمين عام إذا عَرَضَ نيكسون على روكفلر وزارة الدفاع Department of Defence. ومع ذلك ، كان دورُ كبير الإستراتيجيين هو الدورُ الذى سرعان ما وَجَدَ نفسَه يلعبه فى كل شيء بالاسم، وإنْ يكن بتفويض رسمي في السياسة الخارجية فقط.

مَالَ معظمُ الكُتّاب الذين درسوا مجرى حياة كيسنجر اللاحقة فى واشنطن إلى تفسير تنامى نفوذه السريع، سواء للأفضل أو للأسوأ، بعلاقته الوثيقة بنيكسون أو بموهبته فى الاحتراب الداخلى البيروقراطى الذى أدانه بوصفه أكاديميًا. ولكن هذا التفسيرَ يتغافل عن السمة الأمْيَز فى طريقة عمل كيسنجر. فبينما استمر مَن حول كيسنجر فى الالتزام بقواعد البيروقراطية الهَرَميّة التى استوظفتهم، كرّسَ كيسنجر منذ البداية جزءًا كبيرًا من طاقته لبناء شبكة تمتد أفقيًا فى جميع الاتجاهات إلى أبعد من اهتمامات مسؤولى الحكومة الفيدرالية Washington Beltway[729]:

إلى الصحافة، بل وصناعة الترفيه داخل الولايات المتحدة، ولعل الأهم إلى حكومات أجنبية رئيسية عبر مجموعة «قنوات خلفية» متنوعة. وقد توفّرَ كيسنجر على هذه المهمة بمقدرته الفطرية على الدخول فى علاقات وجدانية ، وكذلك فكرية، مع أشدِّ محاوريه تحفُّظًا، وهى مهارة شحذها قبل فترة طويلة من تعيين نيكسون له.

وكما رأينا (فى الفصل 40)، تميّزَ النظامُ السوفييتى بتدميره المنهجى للشبكات الخاصة وعَزْل الأفراد، وقد استمر ذلك لفترة طويلة بعد وفاة ستالين. لقاءان بين آنّا أخماتوفا وإشَعْياء برلين كلّفاها أغلى ما عندها. بل فى

ومعالجة مختلف القضايا قبل تقديمها لرئيس البلاد. من أخطر مهامه الإدارية التحكم فى المعلومات الواردة إلى البيت الأبيض، ومن أخطر مهامه الاستشارية إسداء المشورة و النصح لرئيس البلاد بشأن قضايا داخلية وخارجية، وفى المسائل الإدارية. وهو ما يعنى فى النهاية تركيز الوصول إلى الرئيس فى قناة واحدة. يناظِرُ هذا المنصبَ فى مصر ما يُسَمّى ب«رئيس ديوان الجمهورية» - المترجم.

[729]بيلتواى واشنطن: تعبير أمريكى يُستعمَل للإشارة إلى الأمور المهمة، أو التى تبدو مهمة، فى نظر مسؤولى الحكومة الأمريكية فى واشنطن. وفى الأصل البيلتواى طريق سريع يحيط بالعاصمة واشنطن - المترجم.

أواخر ستينيات القرن العشرين، عندما قابل المواطنون السوفييتُ الأمريكيين - ونادرًا ما كان يحدث هذا بطبيعة الحال - كان عليهم أن يأخذوا حذرهم.

وكانت مؤتمرات باجواش[730] Pugwash للعلماء استثناءً نادرًا. واليوم، بعد حصول منظمة باجواش على جائزة نوبل للسلام فى عام 1995، تُعَدُّ باجواش مرادفًا لنزع السلاح وتسوية الصراع عبر ما يُسَمّى «اتِّباع مسارىْ الدبلوماسية»[806].

ولكن مؤتمرات باجواش أثناء الحرب الباردة اتّسَمَتْ بطابع أكثر التباسًا، لأن ا لأكاديميين السوفييت الذين حضروها كان يجب أن توافق عليهم أولا ً اللجنةُ المركزية فى الحزب الشيوعى Central Committee of Communist Party، بل وأحيانًا البوليتبورو [المكتب السياسي] Politburo[807].

وبهذا المعنى، «كان لدينا، نحن [العلماء الأمريكيين] خطٌّ اتصال مباشر مع الحكومة السوفييتية من خلال باجواش»[808]، على حدِّ تعبير الفيزيائى فيكتور فايسكوبف[731] Victor Weisskopf. أما الرأى الأقل إيجابية فهو أن المؤتمرات «لعبت دور مَنَصّات صوتية مُعادِية للدعاية الأمريكية ومؤيّدة للدعاية السوفييتية»[809].

حين حضر كيسنجر، لأول مرة له، مؤتمر باجواش المنعقد فى ستو Stowe، بو لاية فيرمونت Vermont [أصغر الولايات الأمريكية]، فى عام 1961، اختبر بنفسه الدعايةَ والتبادل الهادف معًا. فى البداية، تمسّك المندوبون السوفييت بخطِّ الحزب، ولكن كيسنجر تمكّنَ من تجريد البعض منهم بروح دعابته المشهور بها.

فمثلا ً، اقترب من كيسنجر المؤرّخُ الروسى فلاديمير كفوستوف[732] Vladimir Khvostov والفيزيائى إيجور تام[733] Igor Tamm، قبل مغادرتهما

---

[730]باجواش: تأسّسَتْ منظمة مؤتمر باجواش للعلوم والشؤون الدولية عام 1957 فى باجواش بكندا، بعد نشر بيان رَسل - أينشتاين عام 1955. وهى منظمة دولية تحاول جَمْعَ العلماء والشخصيات العامة للعمل على تقليل مخاطر النزاعات المسلحة وإيجاد حلول لتهديدات الأمن العالمي - المترجم.

[731]فيكتور فايسكوبف: (1908 - 2002)، عالِم فيزياء نمساوى المولد أمريكى الجنسية. بَرَعَ في الفيزياء النظرية، وقاد القسمَ النظري في مشروع مانهاتن - المترجم.

[732]فلاديمير كفوستوف: (1905 - 1972)، مؤرّخ روسي - المترجم.

[733]إيجور تام: (1895 - 1971)، فيزيائى روسى حصل على جائزة نوبل بالمشاركة عام 1958 - المترجم.

إلى المطار، وسألاه مجموعةَ أسئلة مهمة رسميًا عن سياسة الولايات المتحدة نحو برلين. هل ضمان الأمم المتحدة للحقوق الأمريكية فى برلين الغربية مقبول؟ فرَدّ كيسنجر بأن الولايات المتحدة «لن توافق على وَضْعٍ يمكن أن تُغيّره الأغلبيةُ كل عام فى الجمعية العامة General Assembly. أما تام فتساءل عن ضمان لمدة خمس سنوات.

قلتُ إنها مدة قصيرة جدًا. ثم تساءل عمّا إذا كانت المدة عشر سنوات. فأجبتُ بأنه إذا استمر ذلك فسأقترحُ مئةً وخمسين عامًا، وربما أمكننا التقابل في المنتصف.

فضحك وقال إننا نفهم أحدنا الآخر». أحبّ الهومو سوفييتيكس[734] Homo Sovieticus هذا النوعَ من حضور البديهة[810]. فى لحظاتٍ على هذه الشاكلة، كانت باجواش شبكةً فريدة تعمل عبْر الستار الحديدي[735] Iron Curtain.

بعد خمس سنوات، فى مؤتمر باجواش فى منتجع سوبوت Sopot البولندى، اندهش كيسنجر من عنف القدْح السوفييتى فى الصين. قال له عالِمُ الرياضيات السوفييتى ستانيسلاف إيميليانوف Stanislav Emelyanov أثناء رحلة بالقارب إلى ميناء جِدَانِسك Gdansk: «لم تعد الصين شيوعيةً، لقد صارت فاشيةً». «لم يُذَكِّره الحرسُ الأحمر[736] Red Guards بشىء قدر تذكيره بالشباب أيام هتلر[737]».

---

[734]هومو سوفييتيكس: إشارة ساخرة ونقدية إلى الشخص السوفييتى العادى الملتزم. أشاع هذا المصطلحَ الكاتبُ والسوسيولوجى ألكسندر زينوفييف فى كتاب يحمل هذا العنوان - المترجم.

[735]الستار الحديدى: يشير إلى سياسة العزلة التى انتهجها الاتحاد السوفييتى السابق بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة بإقامة الحواجز التجارية والرقابة الصارمة، التى عزلت البلا د - ودول أوربا الشرقية السائرة فى فَلَكِه - عن بقية العالم. أول مَن استعمل التعبيرَ ونستون تشرشل. ومرّتْ هذه العزلة بمراحل من القوة والفتور حتى تراخت تمامًا مع أواسط ثمانينيات القرن العشرين عند تطبيق نظام البروسترويكا (الإصلاح الاقتصادى) و الجلاسنوست (الانفتاح) أثناء رئاسة جورباتشوف - المترجم.

[736]الحرس الأحمر: حركة اجتماعية شِبْه عسكرية طموحة، حشدها ماو تسى تونج عامىْ 1966 و1967، تمخّضت عن منظمة شبابية ثورية مسلحة بدعم من ماو شخصيًا، واستغلها فى الدعاية وتدمير رموز الماضى ما قبل الشيوعى. حُلّتْ رسميًا مع نهاية عام 1968 - المترجم.

[737]الإشارة إلى استعراضات شباب الحزب النازى فى المناسبات السنوية المؤيدة لهتلر - المترجم.

الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى لهما مصلحة مشتركة فى مَنْع التوسُّع الصينى». اعترف إيميليانوف صراحةً بأنه لم يرَ الحكومةَ السوفييتية مرتبكةً منذ أعقاب حديث خروتشوف Khrushchev[738] عن محو الستالينية de – Stalinization[811].

ومن خلال باجواش، تسلَّمَ كيسنجر دعوةً للذهاب من بولندا إلى براغ Prague [عاصمة تشيكوسلوفاكيا][739]، وهناك قابَلَ أنتونيون شْنيدارك Antonín Šnejdárek، المدير السابق لعمليات الاستخبارات التشيكية فى ألمانيا، الذى صار مدير معهد السياسة الدولية والاقتصاد Institute of International Politics and Economics فى البلاد. التقى الرجلان مرةً أخرى فى فيينا فى الاجتماع السنوى لمعهد الدراسات الإستراتيجية Institute for Strategic Studies الذى تأسّس فى لندن. حذّرَ التشيكىُّ صراحةً كيسنجر من أن السوفييت ليس لديهم نيّة صادقة لمساعدة الأمريكان فى تخليص أنفسهم من فيتنام. بل قال إن الأزمة فى جنوب شرق آسيا قد تنتهى إلى كوْنها «ذريعةً مريحة [بالنسبة إلى موسكو] لتشديد سيطرتها على أوربا الشرقية». (لم يدرك كيسنجر ذلك، ولكن مناقشاته الصريحة مع شْنيدارك كانت بحد ذاتها إيحاءً [إنذارًا] ب ربيع براغ[740] Prague Spring القادم، ذوبانًا سياسيًا اعْتَقَدَ التشيكيُّ أنه لن يكون مقبولا ً في الكريملين Kremlin[812]).

اللقاء الأكثر إيحاءً وكشفًا من بين كل تلك اللقاءات حَدَثَ فى يناير عام 1967، عندما عاد كيسنجر إلى براغ. فمرةً أخرى، حذّره شْنيدارك، من أن موسكو «صارت أكثر حساسيةً بشأن تنامى حرية الحركة فى بلدان أوربا الشرقية، ولا سيما الجهود التشيكية لتقليل اعتمادهم على موسكو». لكنه أدهشَ كيسنجر الآن بمسألة أن كيسنجر عليه أن يعترف «لم يخطر على بـ ـالى»: إذ اعتقد أن «صفقة أمريكية صينية قَيْد التجهيز». وعندما استشعر شنيدارك اندهاشَ الأمريكى، أخذ يوضح:

---

[738] خروتشوف: (1894 - 1971)، زعيم شيوعى ورجل دولة سوفييتى، حَكمَ الاتحادَ السوفييتى فى الفترة من عام 1953 حتى عام 1964. تميّزَ حُكمُه بمعاداة الستالينية وبإرساء الدعائم الأولى لسياسة الانفراج الدولي والتعايش السلمي - المترجم.

[739] تفككتْ تشيكوسلوفاكيا سِلْميًا يوم 1 يناير عام 1993 إلى جمهورية التشيك وجمهورية سلوفاكيا - المترجم.

[740] ربيع براغ: مرحلة فى تاريخ الجمهورية الاشتراكية التشيكوسلوفاكية، حاول خلالها الحزبُ الشيوعى التشيكوسلوفاكى انتهاجَ سياسة إصلاحية أقرب إلى الديمقراطية عُرفتْ باسم «الاشتراكية ذات الوجه الإنسانى»، بدأت فى يناير عام 1968، وعلى إثرها حَدَثَ اجتياحٌ عسكري للبلاد من قبل حلف وارسو بقيادة الاتحاد السوفييتي - المترجم.

لقد حمل السوفييتُ الهجومَ الصينى عليهم [وهو ملمح أساسى فى ثورة ماو الثقافية] على محمل الجد. لم يتمكّنوا من ترويض أنفسهم على تقبُّل نهاية الوحدة الاشتراكية، ناهيك عن تحدّي مكانتهم بوصفهم المفسِّرين الرئيسيين لـ اللينينية Leninism. لذا، لم يكن حجم محاولتهم للتأثير فى التطورات الصينية الداخلية مفهومًا دائمًا. لقد أيّدوا جهاز الحزب ضد ماو Mao...

وتهوّرَ الماويون Maoists، بدورهم، فـ«طردوا السوفييت من الصين. وما سيجعلهم يشعرون بالأمان ليس أقل من قطع العلاقات مع الاتحاد السوفييتى تمامًا».

لقد بَدَت الثورة الثقافية Cultural Revolution وكأنها صدع أيديولوجى، فبدا الصينيون ماركسيين أكثر راديكاليةً. لكن:

مهما كانت حماسة ماو الأيديولوجية، فستُجْبِره المادةُ البشرية المتاحة أمامه على التوجُّه القومى؛ على افتراض أنه لا يزال مسؤولا ً عن حركته. ورغم حديث الماويين الجامح، فمن الواضح أنهم أكثر مرونة نحو الولايات المتحدة من خصومهم. سيتوجّبُ عليهم إغلاق الصين، على أية حال، لإعادة تشكيل السلطة الحكومية، ولعل التوصل إلى معاهدة عدم اعتداء مع الولايات المتحدة ربما يناسب هذا التخطيطَ تمامًا. هم يكرهون الولايات المتحدة أيضًا ؛ لكن... لا يمكن لأي شيوعي أن ينسى تحالف هتلر - ستالين.

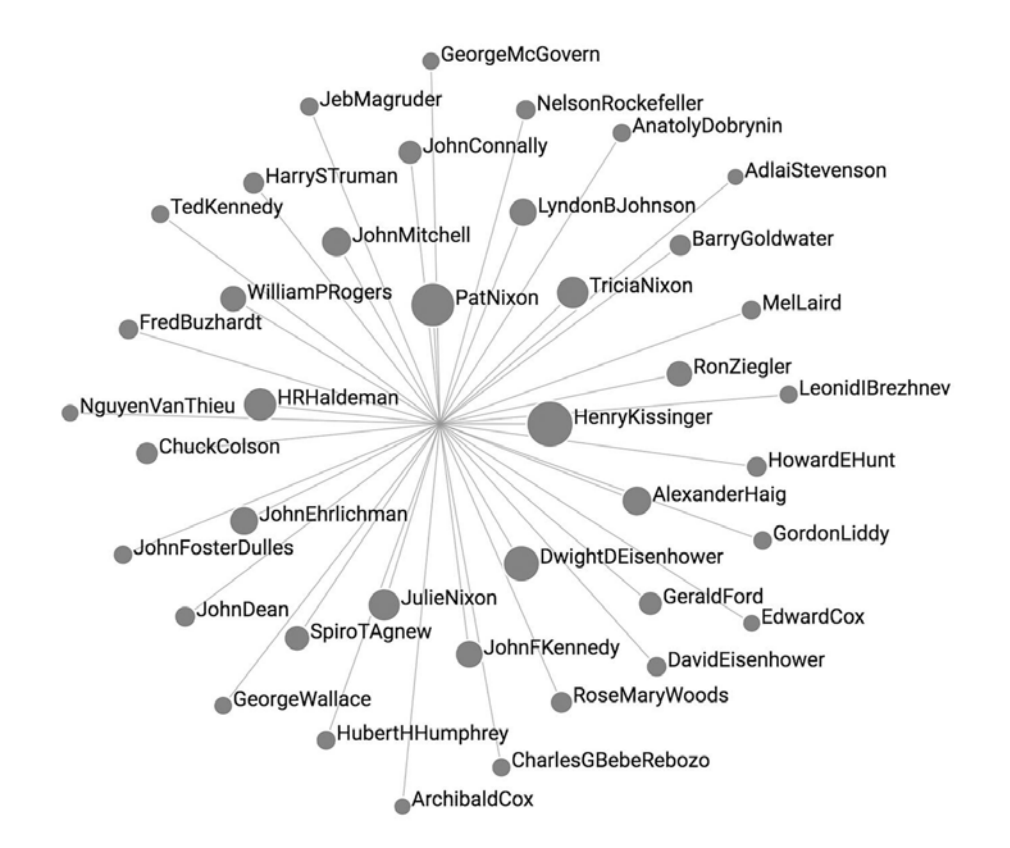
«تحالف جونسون - ماو» Mao pact-Johnson هذا، سيناريو ينذر بالخطر من وجهة نظر تشيكية، لأنه «إذا توصلت الولايات المتحدة إلى تسوية مع الصين فسيشتد الضغط [السوفييتى] فى أوربا». وخوفًا من العزلة، سيقوم السوفييت بتضييق الخناق على ما أسماه شْنيدارك، بأسلوب غير مباشر، «آفاق النمو القومى فى أوربا الشرقية». كان كيسنجر مندهشًا؛ ولكن تخوُّفَ مُضيفِه التشيكى من «صفقة الولايات المتحدة مع ماو» بدا «حقيقيًا وعميقًا»[813].

وقد تكهّنَ باحثون لوقت طويل بأن الفَهْم الإستراتيجى الأمريكى للانفتاح على الصين من شأنه تحويل المشهد الجيوسياسى فى عام 1972. لم يكن الأمريكيون هم الذين فكروا فى ذلك أولا ً، بل مفكرون إستراتيجيون من الكتلة السوفييتية هم الذين تنبأوا بعالَم جديد يَنتج عن الانشقاق الصينى السوفييتي، قبل أكثر من أربع سنوات من زيارة نيكسون التاريخية للصين.

ابتداءً من يناير عام 1969، شرع كيسنجر فى تطبيق بعض الدروس التى تعلمها بوصفه أكاديميًا ومثقفًا عامًا، وبخاصة درس أن الشبكات غير الرسمية يمكنها توفير قنوات ديبلوماسية تتفوق على وزارات الخارجية والسفارات. وعلى سبيل التمهيد لكتابة المجلد الثانى من حياة كيسنجر، حاولتُ رَسْمَ

شبكة كيسنجر استنادًا إلى جميع المذكرات المنشورة المتعلقة بفترة عمله فى الحكومة. وهذا يُوفِّرُ خريطةً أولية لشبكاته وشبكات الآخرين كما يتذكرها كيسنجر نفسه ومعاصروه فى الحكومة. تُصَوِّرُ الرسومُ البيانية أدناه الشبكات الذاتية لدى ريتشارد نيكسون وهنرى كيسنجر استنادًا إلى مذكراتهما؛ أما شبكة إدارات نيكسون وفورد Ford الذاتية فتستند إلى كل مذكرات أفراد الشبكة؛ وتُبَيِّنُ شبكةُ إدارات نيكسون وفورد المُوجّهةُ عددَ مرات ذِكْر الأفراد البارزين لبعضهم البعض في مذكراتهم[814].

فى الرسوم البيانية الثلاثة الأولى (الأشكال: 30, 31, 32)، تُمَثِّلُ الأهميةُ النسبية بالقُرْب من عُقْدَة «الأنا» المركزية (فى الرسم البيانى الثالث [32] هُويّات كل الأفراد الذين كتبوا مُذكرات) وبنطاق العُقْدَة، فى آنٍ معًا. أما فى الرسم البيانى الرابع (الشكل 33)، فنستطيع أن نرى مَن ذَكروا وكَمْ مرة فعلوا ذلك تقريبًا من خلال القُرْب المتبادل وعَرْض الحافّة واتجاه السهم.



الشكل رقم: 30 - شبكة الأنا عند ريتشارد نيكسون، على أساس مذكراته.

تُمَثِّلُ هذه الطريقةُ نقطةً بدايةٍ لمزيد من الاستكشاف الشامل. وهي فى الأصل دراسة من خلال الاستعادة والتمثيل: من حيث المبدأ، نرى هنا أهمية الأفراد النسبية فى سنوات نيكسون وفورد بوصفهم أعضاء فى الإدارتين يتذكرون علاقاتهم ويريدونها أن تُتَذَكَّرَ، وبخاصة فى فترة تمزّقها بسبب فضيحة ووترجيت[741] Watergate Scandal. ولا شك فى أن صورةً مختلفةً، نوعًا ما، ستنبثق من رسوم بيانية تعتمد على مصادر مختلفة[742]. وتُفيد هذه

---

741 فضيحة ووترجيت: أثناء معركة تجديد رئاسة نيكسون فى عام 1972، قرّرَ نيكسون التجسُّسَ على مكاتب الحزب الديمقراطى المنافِس فى مبنى ووترجيت. وفى يوم 17 يونيو عام 1972 أُلقى القبض على خمسة أشخاص بمقر الحزب الديمقراطى وهم ينصبون أجهزة تسجيل مُموّهة. كان البيت الأبيض قد سجّلَ فعليًا 64 مكالمة، فتفجرت أزمةٌ سياسية كبيرة وتوجّهَتْ أصابع الاتهام إلى نيكسون فاستقال وحُوكِمَ - المترجم.

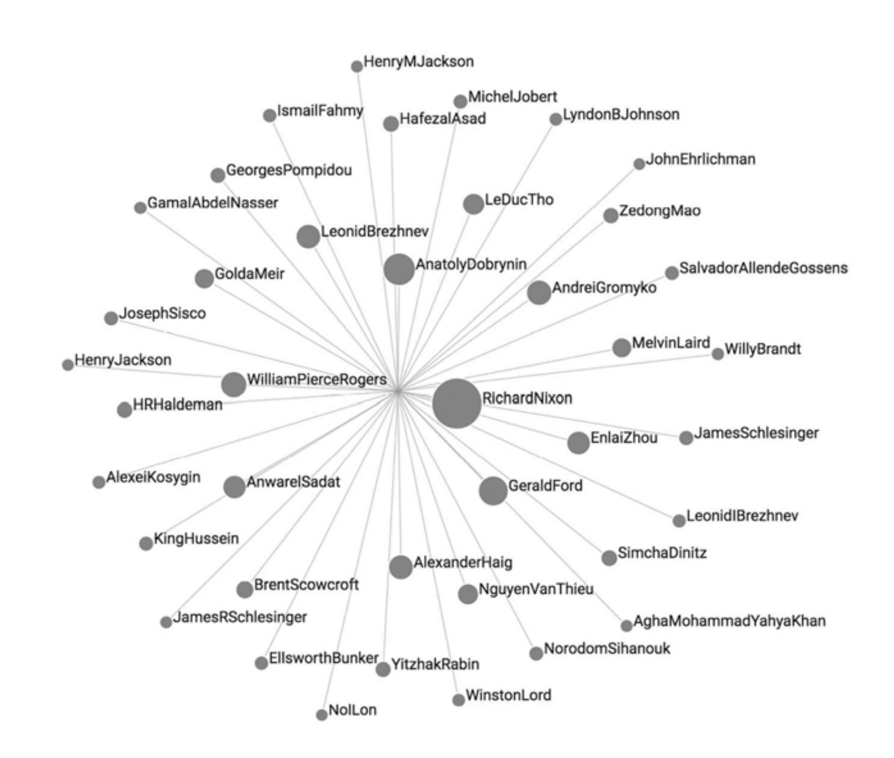
742 على سبيل المثال، فى «القياس الكمِّى لكيسنجر - Quantifying Kissinger» الأطروحة التى يجرى العمل عليها فى جامعة سيتى بنيويورك - تحاول ميكى كوفمان Micki Kaufman تقديم تحليل شبكى لمراسلات كيسنجر فى أرشيف الأمن القومى National Security Archive’s Kissinger Correspondence، وهى مجموعة تتألف من أكثر من 18 ألف وثيقة. تُبَيِّن ميكى، من بين أشياء أخرى، أن شبكة كيسنجر اتّسَعَتْ بعد تعيينه وزيرًا

الرسومُ البيانية فى إيضاح بعض الفوائد المنهجية بالنسبة إلى مؤرّخ تحليل الشبكة الاجتماعية.

أولا ً، لدينا هنا تصحيحٌ قيّمٌ لأى افتراضات، ربما تكون مُغْرية، بشأن «المُهِمِّين» فى فترة نيكسون - فورد. كيسنجر غزير العلاقات، وهو مُهِمٌّ لنيكسون بقدر أهميته لزوجته، وثانى أهم عضو فى الإدارتين، ويتفوق على فورد الذى أصبح الرئيس [بعد نيكسون من عام 1974 حتى عام 1977]. وأما التالى من حيث التمَرْكزية البَيْنية (انظر الشكل 33) فيأتى مساعدُ نيكسون [رئيس موظفى البيت الأبيض] هالدمان H. R. Haldeman، يليه فورد ومستشارُ البيت الأبيض جون دين John Dean.

كما احتلّ مرتبةً أعلى، على هذا الأساس، جون إيرليتشمان John Ehrlichman (مساعد الرئيس للشؤون الداخلية)، ووزير الخزانة جون كونالى John Connally، والرئيس المستقبلى جورج دبليو بوش George H. W. Bush، وألكسندر هيج Alexander Haig (مساعد كيسنجر ثم نائب هالدمان وخليفته بعد ووترجيت).

للخارجية، بل إن شبكاته الشخصية أيضًا - بوصفها متميزة عن القنوات البيروقراطية المؤسّسية - سهّلَتْ إدارته لأحداث جيوسياسية رئيسية فى ذلك الوقت مثل الحرب العربية الإسرائيلية عام 1973، والحرب الفيتنامية، والانفتاح على الصين، والإجراء العسكرى فى كمبوديا، والجهود الديبلوماسية لحلّ حرب الغابة الروديسية Rhodesian Bush War - المؤلف.



الشكل رقم: 31 - شبكة الأنا عند هنري كيسنجر، على أساس مذكراته.

من اللافت للنظر، أيضًا، أن عددًا كبيرًا من المَوْتَى يلوح فى أفق كُتَّاب المُذكرات. ليندُن جونسُن Lyndon Johnson (الذى تُوفِّى فى يناير عام 1973) هو الشخصيةُ الثالثة - بعد نيكسون وكيسنجر - الأكثرُ ذِكرًا فى كل المُذكرات مجتمعةً، ويأتى جون كينيدى John F. Kennedy فى الترتيب السابع (الشكل 32).

ثم يأتى الرؤساء الأسبق دوايت أيزنهاور (المُتَوفَّى فى مارس عام 1969) وفرانكلين روزفلت Franklin D. Roosevelt وهاري ترومان Harry S. Truman (المُتَوفَّى فى ديسمبر عام 1972) بوصفهم الأفرادَ الأكثرَ ذِكرًا فى الترتيب العاشر والسادس عشر والحادى والعشرين. ويأتى تشرشل فى الترتيب الثالث والخمسين، وستالين فى الرابع والخمسين. ولعل المُطَمْئِنَ بالنسبة إلى المؤرّخ أن يجد كُتّابَ السير الذاتية يعودون غالبًا إلى الفترات التى تسبق خدمتهم فى الحكومة، ولو على سبيل الإشارة إلى الشخصيات المؤثِّرة في شبابهم الأول.

هنا موضع الشكل رقم: 32 - شبكة الأنا فى إدارتى نيكسون وفورد، على أساس مذكرات كل أعضاء الإدارتين.

ثالثًا، نحن نرى الاختلاف بين «العالم طبقًا لنيكسون» و«العالم طبقًا لكيسنجر». كانت دائرةُ نيكسون الداخلية (الشكل 30) دائرةَ رجلٍ خبرتُه فى الرئاسة محصورةٌ داخل جدران البيت الأبيض، إلى حد كبير. وبالإضافة إلى

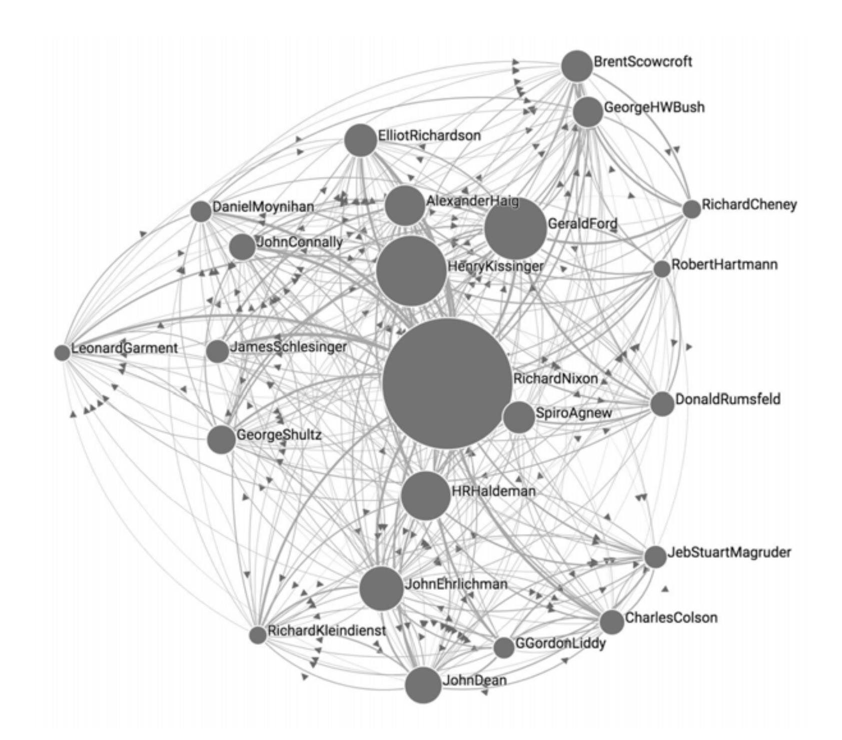
زوجته وبناته، يشير نيكسون فى مذكراته إلى كيسنجر وأيزنهاور (الذى كان نيكسون نائبًا له) وهالدمان وإيرليتشمان وهيج، إشاراتٍ كثيرةً. أما كيسنجر فيذكر الزعماءَ الأجانب الرئيسيين بالقدر نفسه الذى يذكر به الرؤساءَ الذين خَدَمَ معهم، أكثر مما فَعَلَ وزيرُ الخارجية الذى سبقه فى هذا المنصب ويليام روجرز William Rogers (الشكل 31). الشىء الألفت للانتباه هو القادة الأجانب الواردون كثيرًا في مذكرات كيسنجر:

جاء فى المرتبة الأولى السوفييت (سفيرهم فى واشنطون أناتولى دوبرنين Anatoly Dobrynin، وزير خارجيتهم إندرى جروميكه Andrei Gromyko، رئيسهم ليونيد بريجْنيف Leonid Brezhnev)، ثم يليهم رئيسُ الوزراء الصينى تشو إنلاى[743] Zhou Enlai، والرئيس المصرى أنور السادات. وبغضِّ النظر عن بريجْنيف ودوبرنين، يأتى أجنبىٌّ آخرُ فقط من بين الأربعين شخصًا الأكثر ذِكرًا عند نيكسون هو: نجوين فان ثيو Nguyen Van Thieu رئيس فيتنام الجنوبية.

ومن بين الأربعين المُتَربّعين على القمة عند كيسنجر كان ستةُ عشر فقط أمريكيين. وبطبيعة الحال، سنتوقع من مستشار الأمن القومى ووزير الخارجية أن يقضى وقتًا أطول مما يقضيه الرئيس مع الأجانب؛ هذه طبيعة الوظيفة. ولكن من الصعب تصديق أن أى حائز لهذين المنصبين لا يتعب ولا يَكلُّ من السفر والتفاوض.

---

[743]تشو إنلاى: (1898 - 1976)، أول رئيس وزراء لجمهورية الصين الشعبية، بدءًا من أكتوبر عام 1949 حتى وفاته فى يناير عام 1976. عمل فى ظل حكم ماو تسى تونج، وقام بدور فعال فى تعزيز سيطرة الحزب الشيوعى وتشكيل السياسة الخارجية وتنمية الصين اقتصاديًا - المترجم.



الشكل رقم: 33 - الشبكة الموجّهة فى إدارتى نيكسون وفورد، تُصَوّرُ اتجاه وتردُّد ذِكْر أعضاء الإدارتين أحدهما للآخر في مذكراتهم.

أثناء وجود كيسنجر فى منصبه، ظهر على غلاف مجلة التايم Time ما لا يقل عن خمس عشرة مرة. وطبقًا لما نُشِرَ عنه فى المجلة عام 1974، يَردُ عنه: «رجلٌ لا يستغنى عنه العالم... الرجل المناسب فى المكان المناسب فى الوقت المناسب»؛ رغم اتهامه بأنه يُولِى «اهتمامًا بمبادئ أكثر من مبادئ أخرى»[815].

ولا بد من افتراض أن نفوذ كيسنجر وسُمْعته كانا نتاجًا لنباهته الفكرية واجتهاده، بالإضافة إلى علاقاته الكثيرة غير العادية. وكانت الديبلوماسية المكوكية جزءًا من ذلك.

ومع براعة كيسنجر فى رَفْع الكُلفة بينه وبين الصحفيين، فنادرًا ما ذَكرَهم فى مذكراته، رغم وثاقة صداقاته بالأخوين ألسوب Alsop brothers، ستيوارت Stewart وجوزيف Joseph، وكاتب العمود الصحفى توم بريدن Tom Braden. وكما قالت التايم Time، «حافظ كيسنجر بدقة على الطقوس المطلوبة من المرؤوس الذى يتلقى الأوامر من القائد الأعلى» فى اللحظة التى كانت تنهار فيها رئاسةُ نيكسون. فظلت العلاقةُ «الرسمية والمستقيمة، بدلا ً من الشخصية»، مع نيكسون حيويةً بشكل مؤسّسى حتى استقالته

النهائية[744].

وكما ذكرت التايم، يمتلك كيسنجر «إحساسًا منضبطًا بالتسلسل الهَرَمى»[816]. ولكن الأهمّ من كل ذلك علاقاتُه الأخرى فى شبكةٍ شملت الكرةَ الأرضية، بما فيها «شبكة الولد القديم» التى ضمّتْ مشاركين سابقين فى سيمنارات كيسنجر الصيفية فى جامعة هارفارد. قال أحد مساعديه، لم تذكر التايمُ اسمَه: «كان كيسنجر يبحث دائمًا عن الشاب الذى يمكنه تقديم خدمة». وقال «صديقٌ ومُعْجَبٌ» من واشنطن» إن «الكثير من الأبواب فُتِحَتْ له». كانت الشبكةُ شرطًا سابقًا لديبلوماسية «التفاعل المتسلسل»[745] chain reaction، وهو تعبير استعمله نائب رئيس الوزراء الإسرائيلى يجال ألون Yigal Allon. ذلك ما يُبرّرُ الادعاء بأن «تأثير كيسنجر فى العالم أكبر من تأثير أى شخص آخر»[817].

ضَعْضَعةُ التسلسلِ الهَرَمى [بمعنى إضعافه التدريجى] وتقوية الشبكات، التى مَيّزَت سبعينيات القرن العشرين، كانت لها فوائد عديدة. فمن وجهة نظر كيسنجر، قلّلتْ هذه الاتجاهات بشكل كبير من مخاطر نشوب حرب عالمية ثالثة Third World War: فكانت رغم كل شىء الأساسَ المنطقى الرئيسى لتكرار الحوار كثيرًا مع الاتحاد السوفييتى (وكذلك بدء الاتصال مع جمهورية الصين الشعبية People's Republic of China). وقد لخّصَ معاصرو كيسنجر سياستَه الخارجية في كوْنها «انفراجًا»[746] détente.

كان كيسنجر يُفَضِّلُ الحديثَ عن «الترابط» [التضامن بين الدول] interdependence. فى ديسمبر عام 1973، قال كيسنجر فى لندن: إن «نظامًا دوليًا جديدًا» قد حَلّ محلّ «هَيْكل السنوات التالية على الحرب مباشرةً»: نظام يقوم على «مفارقة زيادة الاعتماد المتبادل mutual dependence وازدهار الهُويّات القومية والإقليمية»[818].

---

[744] بسبب إدانته في فضيحة ووترجيت - المترجم.

[745] التفاعل المتسلسل: سلسلة تفاعلات يتسبّبُ فيها سلوكٌ تفاعلى أو ثانوى مُحْدِثًا استجابات إضافية. فى التفاعل أو رد الفعل المتسلسل، تؤدّى ردودُ الفعل الإيجابية إلى تكبير تسلسل الأحداث تلقائيًا. وما يعادِلُ هذا الوضعَ، بشكل مجازى، «كرةُ الثلج» التى تتضخم بفعل طاقة الجاذبية المُختزنة فيها حتى تصل فى النهاية إلى ما يُسَمّى «تأثير كرة الثلج» - المترجم.

[746] بمعنى تخفيف التوتر فى العلاقة بين الدول، وظهر ذلك واضحًا فى العلاقة مع الاتحاد السوفييتي، ومع الصين، وفيما بين مصر وإسرائيل - المترجم.

ثم أشار بعد ثلاثة أشهر إلى أن «أزمة الطاقة»[747] energy crisis هى أحد «آلا
م ولادة الترابط العالمي»[819].

وفى أبريل عام 1974 كان «تحدِّى الترابط» The Challenge of Interdependence عنوانَ خطابه؛ وبحلول عام 1975 صار الترابطُ «حقيقةً مركزية فى ديبلوماسيتنا». ففى أكتوبر عام 1974، كان كيسنجر قد حَذّر قائ
لا ً: «إذا لم نعترف بأهمية ترابطنا، فستَتفكّكُ حضارتُنا الغربية بلا شك»[820].

وأيّده أكاديميون ممن كانوا زملاءه فى الجامعة، من أمثال ريتشارد كوبر Richard Cooper وجوزيف ناى Joseph Nye، فألّفوا كتبًا فى الموضوع[821]. وقد وَجَدَ الاعتمادُ المتبادل تعبيرَه المؤسّسى مع الاجتماع الأول للجنة الثلا
ثية[748] Trilateral Commission فى بيت روكفلر[749] Rockefeller estate فى بوكانتيكو هيلز Pocantico Hills عام 1973، والاجتماع الأول ل «مجموعة السِّتة» Group of Six (بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، اليابان، الولايات المتحدة، وألمانيا الغربية) في رُمْبوييه Rambouillet [في فرنسا] عام 1975.

وقد اختارت صحيفة نيويورك تايمز New York Times أن تحتفل بمرور مئتىْ عام على إعلان الاستقلال Bicentennial of the Declaration of Independence بافتتاحية عنوانها «يوم الترابط» Interdependence Day[822]. وهو التصور الذى تبنّاه بحماس الرئيس جيمى كارتر[750] Jimmy Carter

---

[747]أزمة الطاقة المُشار إليها هى الأزمة الناتجة عن حَظْر النفط عام 1973، الذى فرضته الدول العربية المُصَدِّرة للبترول على كل البلاد التى ساعدت إسرائيل أثناء حرب أكتوبر، وبصفة خاصة الولايات المتحدة الأمريكية وهولندا. كان لهذا الحظر تداعياتٌ خطيرة على الولايات المتحدة وأوربا الغربية وأستراليا. ومنذ هذه اللحظة، بدأت الولايات المتحدة فى تقليل اعتمادها على الغير عبر إستراتيجيات عديدة - المترجم.

[748]فى إطار الخطة الأصلية للجنة الثلاثية، تتألف اللجنةُ التنفيذية من أربعة وثلاثين مندوبًا: أربعة عشر من المجموعة الاقتصادية الأوربيةEEC ، تسعة من اليابان، تسعة من الو
لايات المتحدة، اثنان من كندا. وهو ما يُعَدُّ نكرانًا للذات من جانب الأمريكيين، لأن اقتصاد الولايات المتحدة كان لا يزال أكبر من اقتصاد دول المجموعة الاقتصادية الأوربية فى ذلك الوقت - المؤلف.

[749]بيت روكفلر: يُعْرَفُ المنزلُ أيضًا باسم «كايكويتkykuit »، ويتكون من أربعين غرفة، فى قرية بوكانتيكو هيلز، وهى قرية صغيرة فى بلدة «ماونت بليزانت» بولاية نيويورك. كان البيتُ موطنًا لأربعة أجيال من عائلة جون روكفلر الذى أسّس شركة «ستاندرد أويل» العاملة فى النفط، فصار من كبار الرأسماليين الأمريكيين. يُعَدُّ البيتُ الآن مَعْلَمًا تاريخيًا وطنيًا - المترجم.

[750]جيمى كارتر: من مواليد عام 1924، سياسى أمريكى وعضو بالحزب الديمقراطى.

ومستشاره للأمن القومي زبِجْنيو برجينسكي[751] Zbigniew Brzezinski.

ومع وجود فوائد للعَيْش فى عالم أكثر ترابطًا، كانت هناك تكاليف. يقول برجينسكى فى كتابه «بين عصرين» Between Two Ages: «المدينة العَوْلمية» الجديدة التى خلقها «عصرٌ تكنيترونىٌ» technetronic age هى «شبكةُ علاقات مترابطة، متوترة وموّارة ومُتشنِّجة ومُتجزّئة»[823]. وكل هذا صحيح بأكثر من معنى.

أثناء النصف الأول من الحرب الباردة، استطاعت القوى العظمى السيطرةَ على تدفُّقات المعلومات بتصنيع الدعاية أو رعاية الدعاية، وفَرْز أو مراقبة أىِّ شىء يُعْتَبَرُ ضارًا. واكتنفت حساسيةٌ قوية كلّ فضيحةِ تجسُّسٍ وانحراف؛ وكلُّ ما كان يحدث فى معظم الحالات هو تمرير معلومات مُصَنّفة [سرية] من دولة إلى أخرى. ثم تغيّرَ هذا أيضًا فى سبعينيات القرن العشرين. إذ بدأ تسريب الوثائق الرسمية، فوصلت إلى أيدى الجمهور فى الغرب عبْر الصحافة الحرّة، ابتداءً من عام 1971 مع ما يُسَمّى «أوراق البنتاجون» Pentagon Papers التى سَرّبها دانيل إلزبيرج[752] Daniel Ellsberg ل نيويورك تايمز؛ وحدث ذلك أيضًا (وإن بدرجة أقل بكثير) فى الكتلة السوفييتية Soviet bloc من خلال أدب الساميزدات[753] samizdat، وأشهره رواية ألكسندر

الرئيس التاسع والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة من عام 1977 حتى عام 1981. أنشأ وزارةً مستقلة للطاقة. وَقّعَ على اتفاقية كامب ديفيد ومعاهدة قناة بنما - المترجم.

[751] زبجنيو برجينسكى: (1928 - 2017)، أستاذ السياسة الخارجية الأمريكية فى كلية بول نيتز للدراسات الدولية المتقدمة بجامعة جون هوبكنز بولاية واشنطن، ومستشار مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية. عمل مستشارًا للأمن القومى لدى الرئيس الأمريكى جيمي كارتر في الفترة من عام 1977 حتى عام 1981 - المترجم.

[752] دانيل إلزبيرج: من مواليد عام 1931 بشيكاغو. ناشط ومحلل عسكرى وعالِم اقتصاد وكاتب أمريكى. أثناء فترة عمله فى مؤسسة «راند» قام بتسريب دراسة فائقة السرّية أجرتها وزارة الدفاع الأمريكية حول عملية صناعة القرار الأمريكى فى حرب فيتنام، عُرِفَتْ باسم «أوراق البنتاجون» - إلى صحيفة نيويورك تايمز وغيرها من الصحف. على إثرها أُدين بموجب قانون التجسُّس مع توجيه تُهْمَتىْ السرقة والتآمر يوم 3 يناير عام 1973، ثم سقطت جميع التهم يوم 11 مايو من العام نفسه لسوء التصرف الحكومى وجَمْع الأدلة بطريقة مخالفة للقانون. اعترض على الغزو الأمريكى للعراق وتظاهر ضده. نال إلزبيرج جائزة رايت ليفيلهوود عام 2006. واشتهر بصياغته ل«مفارقة إلزبيرج» التى تُعَدُّ من الأمثلة المهمة فى «نظرية القرار». يدعم إلزبيرج موقع ويكيليكس وتشلسى مانِنْج وإدوارد سنودن - المترجم.

[753] الساميزدات: طريقة فى الكتابة والنشر مارسها المنشقون فى الاتحاد السوفييتى ودول

سولجينتسين «أرخبيل الجولاج»[754] Alexander Solzhenitsyn's Gulag Archipelago. وقد غدّت التسريبات إلى وسائل الإعلام، بدورها، تصعيدًا كبيرًا للاحتجاج الاجتماعى فى حرم الجامعات والمدن الداخلية، الأمر الذى جعل أوائل سبعينيات القرن العشرين محمومةً تغلى، مقارنةً برُبْع القرن الهادئ بعد عام 1945. وعلى وجه الإجمال، شارك ما يقرب من 400 مجموعة مختلفة بصورة من صور الاحتجاج فى الولايات المتحدة بين ستينيات القرن العشرين وثمانينياته:

فما بدأ بحملة من أجل الحقوق المدنية للأمريكيين من أصل أفريقى، سرعان ما شمل حملات من أجل حقوق المرأة وحقوق الأمريكيين الأصليين وحقوق الشواذِّ والسُّحاقيات، بالإضافة إلى حملات ضد الحرب الفيتنامية والأسلحة النووية والفقر والتلوث الصناعي[824].

ولم يكن نيكسون وكيسنجر - شأنهما شأن معظم أفراد الجيل الذى شارك فى الحرب العالمية الثانية - صَبوريْن مع هذه المجموعات، بل شبّه كيسنجر الطلبةَ الراديكاليين الذين قابلهم فى هارفارد، أواخر ستينيات القرن العشرين، بـ الطلبة الألمان الذى حضروا تجمُّعات نورمبيرج[755] Nuremberg Rallies فى أوائل ثلاثينيات القرن العشرين[825].

ومع ذلك، غامر نيكسون فى الصباح الباكر يوم 9 مايو عام 1970، بالخروج من البيت الأبيض لمواجهة مجموعة من الطلبة المُحتجِّين الذين عسكروا حول نصب لنكولن التذكارى Lincoln Memorial، فى محاولةِ تواصلٍ غير معهودة من رجل اشتهر بانطوائيته وتفضيله عدم الاختلاط بالناس. قال لهم:

آسف أنهم قد فاتهم ذلك [مؤتمره الصحفى فى اليوم السابق] لأنى حاولتُ شرح... أن أهدافى فى فيتنام كانت كأهدافهم: إيقاف القتل، إنهاء الحرب، إحـ

الكتلة الشرقية تحديًا للرقابة على الكتابات المُعارضة، فكان الكاتبُ يطبع ما يريد بنفسه ويُمرّره من قارئ إلى آخر، ومَن يُقبَض عليه يتعرض لعقوبات قاسية. يلخص فلاديمير بوكوفسكى فكرة الساميزدات بقوله: «أُبْدِعها بنفسى وأحرّرها وأطبعها وأوزّعها وأُسْجَنُ بسببها» - المترجم.

[754] أرخبيل الجولاج: تدور الرواية حول القمع فى الاتحاد السوفييتى من عام 1918 حتى عام 1956، وتستند إلى الرسائل المكتوبة والشفوى لحوالى 257 سجينًا، بالإضافة إلى خبرة الكاتب الشخصية - المترجم.

[755] تجمُّعات نورمبيرج: حدثت سنويًا فى مقر الحزب النازى فى نورمبيرج، مُورسَتْ فيها أنشطةُ الدعاية للحزب النازى. وزادت بشكل كبير بعد صعود هتلر إلى السلطة فى عام 1933 - المترجم.

لال السلام.

لم يكن هدفُنا الوصولَ إلى كمبوديا بما كنا نفعله، بل الخروج من فيتنام.

لم يَبْدُ أن ثمة شيئًا، فَهُم لم يستجيبوا. كان رجائى ألا تتحول كراهيتهم للحرب، التى أستطيع فهمها جيدًا، إلى كراهية مريرة لنظامنا كله وبلدنا، ولكل شيء ترمز إليه بلدنا.

قلتُ، وأنا أعرفكم، إن معظمكم يعتقد أننى رجل عسكرى تُخْبوى. ولكنى أريدكم أن تعرفوا أني أتفهّمُ ما تشعرون به[826].

لعل نيكسون قد فهم ما يشعر به المُحتجُّون. أما هم فلم يفهموا من على البُعْد ما كان يشعر به أو يهتم به، على حدِّ إيضاحاتهم اللاحقة للصحفيين الذين سارعوا بالتوافد إليهم.

وقبل فترة طويلة من سقوط نيكسون ضحية سلوكه الخفى الذى أزاحت عنه الستارَ جريدةُ واشنطن بوست Washington Post - وكذلك ضحية ضَعْفه بوصفه شبكةً معزولةً، ذات عدد جِدِّ قليل من الأصدقاء فى المؤسسات التى يُفْتَرَضُ أن تنقذه - كان كيسنجر يفهم أن الشبكات أقوى من هَرَميّات الحُكم الفيدرالى. كان كيسنجر يعرف الطلبة المُحتجّين جيدًا، بما يكفى لعدم إضاعة وقته معهم. فخلال سنوات فورد، قام بجولة فى البلاد، وألقى خُطَبَه على جماهير الغرب الأوسط Midwestern فى محاولة لشرح تصوره الإستراتيجى لجمهور أوسع، رغم أن جولته لم تنجح سوى نجاح محدود فقط. وكانت أبرزُ إنجازات كيسنجر عَزْلَ نفسه عن العنصر المُهْلِك فى شبكة نيكسون: المجموعة التى دبّرت مَهْلَكة ووترجيت. ويحتاج هذا، بحد ذاته، إلى عبقرى فى الشبكات يعرف، على وجه التحديد، العُقَدَ التى عليه تجنُّب الاتصال بها. قامت سلطة كيسنجر على شبكة عَبَرَتْ حدودَ البلاد، بل حدود المهنة أيضًا، ودامت لفترة طويلة بعد ترْكه العمل الحكومى فى عام 1977، وقد أضفى عليها طابعًا مؤسّسيًا من خلال شركة استشارات هى كيسنجر أسوشِتس[756] Kissinger Associates، كما حافظ عليها بالسفر المستمر تقريبًا، والا جتماعات والتقاربات ودعوات العشاء.

وعلى النقيض من ذلك نيكسون، فبعد أن ترك السلطةُ التنفيذية تقلّصَتْ سلطتُه إلى حد كبير، فتعرّضَ لجلسات تحقيق فى الكونجرس واجترأت الصحف عليه اجتراءً كبيرًا. ولم يوجد مستشارُ أمن قومى أو وزير خارجية

---

[756]كيسنجر أسوشِتس: شركة استشارات جيوسياسية دولية، مقرُّها نيويورك. أسّسَها وأدارها هنرى كيسنجر عام 1982. تساعد الشركةُ عملاءَها على تحديد الشركاء الإ ستراتيجيين وفُرَص الاستثمار وتقديم المشورة لهم بشأن العلاقات الحكومية - المترجم.

بعد كيسنجر، مهما كانت موهبته، يمكن مقارنة إنجازه بما حَقّقه كيسنجر.

46

في الوادي

لماذا انزلقت هياكلُ السلطة الهَرَميّة إلى أزمة فى سبعينيات القرن العشرين؟ قد يُفترَضُ أن الإجابة عن السؤال - كما اعتقد برجينسكى Brzezinski - لها علاقة بالتكنولوجيا. من الصحيح، يقينًا، أن السبعينيات كانت عقدَ ميلاد الكمبيوتر الشخصى والإنترنت. ولكن أزمة السلطة الهَرَميّة سبقت انتشارَ الشبكات الإلكترونية فى الولايات المتحدة. بل علاقة السببية هنا معكوسة؛ ذلك أن تراخى السيطرة المركزية، على وجه التحديد، هو الذى جعل ثورةَ تكنولوجيا المعلومات الأمريكية ممكنةً.

لقد بات واضحًا، بالنسبة إلى كل دول العالم، أن شبكات عصر الإنترنت Internet Age المعلوماتية والتجارية والاجتماعية، الجديدة، تفرض تحديًّا عويصًا، ولكن حجم هذا التحدّى لم يظهر إلا تدريجيًا. وبادئ ذى بدء، استهدف إنشاءُ التكنولوجيات الشبكية تعزيزَ حالة الأمن القومى. كانت المُهِمّةُ المُكلَفُ بها بول بِران[757] Paul Baran، الباحث فى مؤسسة راند[758] RAND، عام 1964، تطويرَ نظام اتصالى ينجو من هجوم نووى سوفييتى. اقترح بِران ثلاثةَ هياكل ممكنة لهذا النظام. فهو إما أن يكون «مركزيًا»، ذا محور رئيسى واحد وفروع متعددة؛ أو «غيرَ مركزى» ذا مكونات عديدة ترتبط معًا بعدد من الروابط الضعيفة الحُرّة؛ أو «انتشاريًا» مثل الشّعِيريّة lattice أو التّعْشيقة mesh[759].

والخيار الأخير هو الأكثر مرونةً من الناحية النظرية، لأنه ينطوى على مقاومة تدمير عُقَدٍ كثيرة، وهو نموذج بِران المُفَضّلُ لما صار «شبكة وكالة المشاريع

757بول بِران: (1926 - 2011)، مخترع ومهندس شبكات أمريكى من أصل بولندى - المترجم.

758أنشأ مؤسسةَ «راند»، فى الأصل، قائدُ سلاح طيران الجيش الأمريكى فى أكتوبر عام 1945، للبحث فى أسلحة المستقبل، ثم فُصِلَتْ مؤسسة راند («للبحث والتطوير») عن شركة دوجلاس للطائرات Douglas Aircraft بعد ثلاث سنوات بوصفها كيانًا غير ربحى تُمَوّله الحكومةُ والقطاع الخاصُ بشكل مشترك.

وبوصفه مديرًا إستراتيجيًا فى راند، كتَبَ هيرمان كان Hermann Kahn كتابَه الكلاسيكى «عن الحرب الثيرمونووية» (On Thermonuclear War (1960 - المؤلف.

759وهما كلمتان تعنيان بالدرجة الأولى تنظيمًا شبكيًا - المترجم.

البحثية المتقدِّمة» (أربانِت)[760]

.[827](Advanced Research Projects Agency Network (ARPANET

من الناحية العملية، لا يستمر هذا الهيكل [البنية] structure - وهنا تكمن المفارقة - إلا من خلال تخطيط مركزى. وكما أشار مِلفين كَنْواى[761] Melvin Conway فى عام 1968 - فى ورقة بحثية، لها أثرها، بعنوان «كيف تخترع اللجان؟» How Do Committees Invent؟ - يوجد قانونٌ يُصمِّمُ أنظمةُ الا تصال:

«الهياكلُ التنظيمية organizations التى تُصمِّم النُّظُمَ systems (بمعناها الواسع المستعمل هنا) مُقيّدَةٌ بإنتاج تصاميم هى عبارة عن نُسَخ لأبنية الا تصال فى هذه الهياكل التنظيمية»[828]. فمثلما رأى كيسنجر خَلَلَ البيروقراطية الحكومية الوظيفى عندما تُواجِه تحدياتٍ إستراتيجيةً كبرى، لاحظ كَنْواى - مُحلِّلُ النُّظُم بخبرته في تقلُّص الدفاع الحكومي - الآتي:

تميل هياكلُ النُّظُم الكبيرة إلى التفكُّك أثناء النمو والتطوُّر النوعى، أكثر مما تميل النُّظُم الصغيرة. وتنطبق هذه الملاحظة بشكل لافت للنظر على نُظُم المعلومات العسكرية الكبيرة فى الأعوام العشرة الماضية... [وعلى] بعض الموضوعات الأعقد التي ابتكرها عقل الإنسان...

لماذا تتفكَّك النُّظُم الكبيرة؟ تحدث هذه العملية في ثلاث خطوات...

أولا ً، أدرك المُصمِّمون الأوائل أن النظام سيكون كبيرًا، مع وجود ضغوط معينة فى هيكله التنظيمى، تجعل من المتعذّر مقاومة إغراء تعيين العديد من الناس لجهد التصميم.

ثانيًا، تطبيق الحكمة التقليدية فى الإدارة على هيكل تنظيمى ذى تصميم كبير يؤدِّي إلى تفكُّك بنيته التواصلية.

ثالثًا، يضمن مفهوم التشاكل homomorphism أن هيكل النظام سيعكس

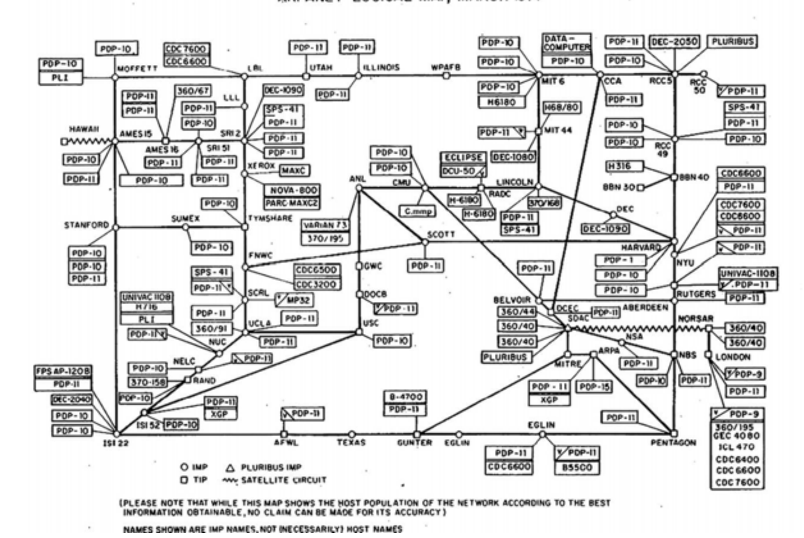
---

[760] أربانِت: من أوائل شبكات نقل البيانات باستخدام تقنية تبديل الرُّزَم. ربطت الشبكةُ بين عدد من الجامعات البحثية فى الولايات المتحدة لأغراض علمية وأكاديمية. وهى النواة الأ ولى لشبكة الإنترنت، وأول شبكة بيانات تستخدم حزمةَ بروتوكولات الإنترنت. خضعت فى البداية لإشراف وزارة الدفاع الأمريكية لأغراض عسكرية. شارك مع بول بِران فى اختراعها وإنشائها ليونارد كلينروك ولُورَنس روبرتس والباحث البريطانى دونالد ديفيس – المترجم.

[761] مِلفين كَنواى: مُبَرْمِج وعالِم حاسوب، عُرِفَتْ عبارته الواردة هنا ب«قانون كونواى» - المترجم.

التفككَ الحاصل في تصميم التنظيم[829].

لذا، من المهم للغاية [معرفة] أن ما صار يُسَمّى «الإنترنت» لم يُصَمّمْ بهذه الطريقة، بل نشأ بصورة عَفْوية وعضوية تقريبًا، من خلال أكاديميين ومهندسيْ كمبيوتر من القطاع الخاص بدلا ً من المُخططِين العسكريين.



الشكل رقم: 34 - تصميم شبكة أربانِت، 1969.

فى يوم 29 أكتوبر عام 1969، حَدَثَ أولُ اتصال بين كمبيوتر وكمبيوتر آخر، حين أرسل أربانِت Arpanet رسالةً غير مكتملة بين معهد ستانفورد للأبحاث Stanford Research Institute وجامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس University of California Los Angeles[830].

ثم بعد عامين، تجاوزَ عددُ العُقد فى الشبكة أربعين عُقدةً، تربط بين الجامعات والشركات الخاصة. وانتشرت شبكاتٌ مماثلةٌ فى كل مكان آخر (هِبنت Hepnet، سبان Span، تِلِنت Telent، وغيرها)، بحيث صار التحدِّى، بحلول عام 1974، رَبْطَ هذه الشبكات معًا من خلال «شبكة» واحدة. كانت سبعينياتُ القرن العشرين وقتَ الابتكار اللامركزى المحموم، وأسهم كلٌّ تقدّم جديد فى عملية الدّمْج: نظام تشغيل يونكس Unix أدّى لاحقًا إلى نظامىْ لينكس Linux وفرى بى إس دى FreeBSD؛ فكرة البريد الإلكترونى بأسماء وعناوين يفصل بينها الرمز @؛ أول برنامج بريد إلكترونى (MSG) مزوّد بخيارات «replay» و «forward»؛ أول مُوْدَم modem. وقد تزامنت هذه التطورات مع تنامٍ أُسِّىٍّ - لا يمكن إيقافه - لقوة المعالجة فى الكمبيوتر طبقًا لـ«قانون مور»[762] Moore's

---

[762] جوردون مور Gordon E. More أحدُ المؤسِّسين المشاركين لشركة إنتل Intel، لاحظ فى عام 1965 أن عدد الترانزستورات transistors لكل بوصة مربعة على شريحة الدوائر المتكاملة يتضاعف كل عام. وتوَقَّعَ أن يستمر هذا المعدل، لكنه عَدّلَ توقُّعَه فى عام 1975، فأشار إلى أنه سيتضاعف كل عامين بعد عام 1980.

ولا مجال هنا لمزيد من التفاصيل عن التطورات فى قوة الحَوْسبة التى رافقت تطور الإنترنت؛ يكفي القول بأن «قانون مور» لا يزال مستمرًا منذ ذلك الوقت تقريبًا - المؤلف.

.Law

ولكن التطور الأهم هو ما نَصّ عليه فينتُن سِرف الملقب ب«فِنْت» Vinton (Vint) Cerf) وروبرت كان Robert Kahn من أن شبكة الشبكات the network of networks ينبغى ألا تنطوى على سيطرة مركزية، وينبغى ألا تُحْكمَ بأى تطبيق معين أو رُزْمة بيانات[763] data packet محدّدة[831].

وقد توخّى بروتوكولهما لبَرْمجية آى بى TCP/IP[764] أن تتواصل جميع شبكات الكمبيوتر إحداها مع الأخرى، بغضّ النظر عن الاختلافات فى بنيتها الداخلية. وهو ما صار حقيقةً واقعةً يوم 1 يناير عام 1983، عندما تحوّلت الأ ربانِت إلى [برمجية آي بي] IP/TCP [832].

ثم بعد عامٍ جاءت خوادم أسماء النطاقات Domain Name Servers (DNS)، التى أتاحت لعناوين «آى بى» IP الرقمية أن تكون لها أسماء يسهل استدعاؤها URL[765] وبحلول عام 1987، وُجِدَ ما يقرب من 30 ألف شخص على ما يُشَارُ إليه الآن باسم «الإنترنت» the Internet.

لم يكن الإنترنت مُخَطَّطًا له؛ لقد نما. إن الأبنية التحتية العالمية الهائلة التى نستخدمها اليوم، بأليافها البصرية الخَطِّية حول العالم، والتى تُزَوّدُ عمودَها الفِقَرى الشَبَكى الوطنى شركاتُ الاتصال عن بُعْد مثل شركة إيه تى آند تى AT & T، وعددٌ لا يُحْصَى من مزوّدى خدمة الإنترنت، والتى تنتهى عند ملا يين المُستخدِمين - هذه الأبنية بدأت متواضعةً. ولم تُصَمّمْها سلطةٌ مركزية، ا لأمر الذي يُفَسِّرُ عدمَ وقوعها في مزالق قانون كَنْواي[766] Conway's Law.

---

[763] رُزْمة بيانات: وحدة بيانات تُوضَعُ فى حزمة واحدة وتنتقل عبر مسار شبكة معين. تُستخدَم حِزَمُ البيانات فى عمليات إرسال بروتوكول الإنترنت آى بى IP للبيانات عبر الويب، وفي أنواع الشبكات الأخرى - المترجم.

[764] ال IP: لكل كمبيوتر متصل بالإنترنت عنوان فريد هو IP خاص به، يأخذ شكلَ متوالية محددة من الأرقام - المترجم.

[765] نظرًا إلى صعوبة تذكّر عناوين آى بى الرقمية التى نزورها يوميًا على الشبكة، تم تحويل سلاسل الأرقام إلى كلمات، وهى عملية تتولاها خوادم أسماء النطاق، فحين تزور أحدَ مواقع الويب فكل ما تحتاجه هو معرفة عنوانه URL الخاص به، وتتذكر أجهزة الكمبيوتر ا لأرقام بسهولة فتُحَوّل ال URL إلى IP يمكن للكمبيوتر فَهْمُه. ومن ثمّ، تقوم خوادم أسماء النطاق بوظيفة خدمة الدليل كدليل الهاتف الكلاسيكي - المترجم.

[766] قانون كونواى هو: «الهياكلُ التنظيمية organizations التى تُصمّم النُظُمَ systems مُقَيّدَةٌ بإنتاج تصاميم هى عبارة عن نُسَخ لأبنية الاتصال فى هذه الهياكل التنظيمية» - المترجم.

ولا يوجد ترخيصٌ، أو إذنٌ، لإضافة شىء جديد أو حذف شىء قديم، بل لا ضرورة لوجوده أصلا [833]. فلا يوجد مستودع مركزى تُسَجّلُ فيه بنيةُ الإ نترنت الشاملة [هيكله العام]. بل لا يمكن فى حقيقة الأمر رَسْمُ خريطة هذه البنية. يُحَدِّدُ برينتن Brinton وتشيانج Chiang المفاهيم الأساسية الثلاثة الكامنة خلف الإنترنت على النحو الآتي:

أ - تبديل الرُزَم packet switching[767]، حيث تُتَشَارَكُ الموارد بدلا ً من تخصيصها.

ب - هَرَميّة مُوزّعة، تنتشر عبرها السيطرةُ فى شرائح الشبكة المختلفة جغرافيًا، و ج - التّجْزىء إلى وحدات، تنقسم فيها المهامُّ إلى طبقات وظيفية مختلفة، تُدَارُ بشكل منفصل[834].

ونحن المُستخدِمين نعتبر أمرًا مفروغًا منه المدى الذى يُزَوّدُنا به الإنترنت من سلطات واسعة، فنُوَجِّه بكل سلاسةٍ رُزَمَ المعلومات التى نريد إرسالها أو استقبالها عبر أقصر المسارات، باستخدام رسائل ارتجاعية وفق ظروف الشبكة وتفادى التكدُّس[835]. ولم يكن بمقدور إدارة [جِهَة] واحدة تصميم مثل هذا النظام المعقد.

تعمل «شبكة الويب العالمية»[768] World Wide Web، التى تطوّرَتْ فى ثمانينيات القرن العشرين بوصفها شكل المرور الرئيسى فى الإنترنت، بطريقة مماثلة[836].

بدأت هذه الرؤية مع الأكاديمى تيم بِرْنرز لى[769] Lee-Tim Berners ، الذى يعمل فى المنظمة الأوروبية للبحوث النووية European Organization for Nuclear Research (CERN)، والذى ابتكر برنامجًا يُسَمّى إنكوَيَر ENQUIRE لمساعدة علماء فيزياء الجُسَيْمات على الاستمرار فى بحوثهم. وفى مارس

---

[767]تبديل الرُزَم: طريقة لنقل البيانات المُرْسَلَة عبر شبكة رقمية على شكل رُزَم بيانات، فتُوجّه المعلوماتُ إلى وِجْهتها حتى تستخدمها التطبيقاتُ البرمجية. وهى الطريقة التى بدأها بول بِران فى مطلع الستينيات مناقضًا المفاهيم السائدة حينذاك وأهمها التخصيص السابق لعرض النطاق - المترجم.

[768]شبكة الويب العالمية أو اختصارًا «الويب»: نظام معلومات على الإنترنت يتيح ربط المستندات بمستندات أخرى عن طريق روابط النص التشعُّبى hypertext links ، الأمر الذى يتيح للمُستخدِم البحثَ عن المعلومات بالانتقال من مستند إلى آخر. أُنشِئت خلال النصف الثاني من ثمانينيات القرن العشرين - المترجم.

[769]تيم بِرْنرز لى: من مواليد عام 1955. مهندس وعالِم حاسوب بريطانى، وأستاذ علوم الحاسوب في جامعة أكسفورد. اشتهر باختراعه «الويب» - المترجم.

عام 1989، نشر بِرْنرز لى مقترحًا بإصدار عالمى للبرنامج، أسماه فى البداية «ماش» [تعشيقة أو شبكة] Mesh، قبل أن تطرأ له تسميتُه «وورلد وايد ويب» World Wide Web. فكان بِرْنرز لى مُبْتَكِرَ أدوات اتصالات الويب العالمية الحالية:

HyperText Markup Language (HTML), Hypertext Transfer Protocol (HTTP) and Uniform Resource Locator (URL).

وفى غضون بضع سنوات، سمحت شفرة الكمبيوتر مفتوحة المصدر بانتشار سريع لمتصفحات الويب سهلة الاستخدام مثل موزيك Mosaic، ونتسكيب نافيجاتر Netscape Navigator. وشأن الإنترنت فى تناميه وتطوّره، كان الويبُ نتاجَ تطوُّرٍ عضوى، وليس سيطرة مركزية. إنها شبكة تكون العُقدُ فيها صفحاتِ ويب أنشأها المُستخدِمُ، والحوافٌ روابطَ تَشَعُّبية hyperlinks تسمح لنا بالتنقل من صفحة إلى أخرى، فى اتجاه واحد عادةً فقط (بمعنى أن الصفحة المُتّجَه إليها لا تحتوى بالضرورة على رابط تَشَعُّبى يُعِيدُك إلى الصفحة التي بدأت منها)[837].

وكالإنترنت، كان ذلك نتاجَ عمل العديد من الأيدى: [ملفات تعريف الارتباط] cookies، و[مكوّنات إضافية] ins-plug ، وسلاسل ونصوص مُلصَقة، ابْتُكِرَتْ كلُّها لإدارة التعقيد المتنامى فى النظام. ومثل الإنترنت، كان الويبُ ضخمًا على نحو لا يمكن الإحاطة به، إذ لا يوجد مُحَرِّكُ بحثٍ يُمَكِّنُنا من استكشاف الويب حتى تُؤرْشِفَ كلّ صفحاته، رغم معرفتنا بأن نواته البنيوية هي مُكوِّنٌ عملاق مترابط بشكل كثيف لعُقدٍ يمكن الوصول إليها على نحو تبادلي[838].

حذّرَ أيزنهاور Eisenhower الأمةَ فى خطابه الأخير عام 1960، من القوة المفرطة ل«التعقيد الصناعى العسكرى». ولم يكن يوجد ما يدعو إلى القلق. فلو كان قويًا فعلا ً، لمَنَعَ بكل تأكيد النموّ الأ ُسِّيّ للإنترنت وشبكة الويب العالمية أو أضْعَفَه على الأقل. لعل ميزةَ الولايات المتحدة الأكثر لفتًا للانتباه، فى سبعينيات القرن العشرين، إمكانُ حدوث مثل هذا الابتكار اللامركزى، رغم كل المتاعب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى نربطها عادةً بتلك الفترة. الشباب المشدود إلى «وادى السِّليكون»[770] Silicon Valley - التسمية التى أُطلِقتْ على وادى سانتا كلارا Santa Clara Valley فى عام 1971 - حملوا معهم مواقف جيلهم المُناهِضة للاستبداد. فعندما أصدر الكونجرسُ

---

[770] وادى السِّليكون: هو المنطقة الجنوبية من خليج سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا، الو لايات المتحدة الأمريكية. اشتهر بهذا الاسم لوجود عدد كبير من مُنْتِجِى ومُطوِّرى شرائح السِّليكون (الدائرة المتكاملة) المستعملة فى التكنولوجيا المتقدِّمة. يضم حاليًا جميع أعمال التقنية العالية فأصبح اسمه مرادفًا للتقنية العالية - المترجم.

قانونَ آداب الاتصالات[771] Communications Decency Act عام 1996 - محاولته الأولى لتنظيم اتصالات الإنترنت بفرض غرامة على نشر مواد إباحية أونلاين - كان من المناسب أن يكتب ردّ وادى السِّليكون (فى صورة رسالة إلكترونية) شاعرُ فرقةِ جريتفول ديد[772] Grateful Dead الغنائىُّ السابق جون بيري بارلو[773] 839 John Perry Barlo.

كان إعلانُه «إعلانَ استقلال الفضاء الإلكترونى» Declaration of the Independence of Cyberspace، موجّهًا إلى «حكومات العالم الصناعى، أنتم تُضْجِرون عمالقةُ اللحم والصلب»:

لقد جئتُ من الفضاء الإلكترونى، موطن العقل الجديد. وبالنيابة عن المستقبل، أطلبُ منكم يا مَن أنتم من الماضى أن تتركونا وشأننا. فأنتم غيرُ مُرحّبٍ بكم بيننا.

ولا سيادة لكم حيث نلتقي ونجتمع.

ليس لدينا حكومةٌ مُنْتَخَبَة، ومن غير المحتمل أن يكون لدينا هذه الحكومة، لذا أخاطبكم بسلطة ليست أكبر من السلطة التى تتحدث بها الحريةُ دائمًا. أُعْلِنُ أن الفضاءَ الاجتماعى العالمى الذى نبنيه فضاءٌ مستقل عن الاستبداد الذى تسعون إلى فَرْضه علينا. ليس لكم الحق الأخلاقى فى حُكْمنا، كلا ولا تحوزون أية أساليب في التطبيق، تجعل لدينا سببًا حقيقيًا للخوف [منكم]...

الفضاء الإلكترونى لا يقع داخل حدودكم. ولا تعتقدوا أنكم يمكنكم بناؤه، وكأنه مشروع بناء عام. أنتم لا تستطيعون. إنه عمل من أعمال الطبيعة، ويُنَمِّي نفسَه بأفعالنا الجَمْعيّة...

---

[771] قانون آداب الاتصالات: أول محاولة جديرة بالذكر من كونجرس الولايات المتحدة الأ مريكية لتنظيم المواد الإباحية على الإنترنت. نُقِدَ في أول قضية عام 1997.

ويعالِجُ القانون فى صيغته النهائية نقطتين: الأولى، تنظيم الفاحشة حين تكون متاحة للأ طفال، والفُحْشَ فى الفضاء الإلكترونى؛ والنقطة الثانية تتعلق بأن مُشَغِّلِى خدمات الإ نترنت ليسوا ناشرين، ومن ثمّ ليسوا مسؤولين عن كلمات أو أفعال الأطراف الأخرى التى تستخدِمُ خدماتهم - المترجم.

[772] جريتفول ديد: فرقة روك أمريكية، تأسّستْ عام 1965 فى بالو ألتو بكاليفورنيا. تتميز الفرقة بالانتقائية فتدمج بين عناصر من موسيقى الروك والبلوز والإنجيل وموسيقى الجاز وغيرها - المترجم.

[773] جون بيرى بارلو: (1927 - 2018)، شاعر وكاتب مقالات ومُدوّن وناشط إنترنت أمريكى. عضو في الحزب الجمهوري - المترجم.

الفضاء الإلكترونى يتكون من مُعامَلات وعلاقات، ومن التفكير نفسه، تحتشد كلها مثل موجة دائمة فى شبكة اتصالاتنا... نحن خلقنا عالمًا يمكن للجميع الدخول إليه دون امتيازات أو تحيُّزات يمنحها العِرْقُ أو القوة الاقتصادية أو القوة العسكرية أو محل الميلاد.

نحن خلقنا عالمًا يمكن فيه لأى شخص، فى أى مكان، أن يُعبِّرَ عن معتقداته، مهما كانت فرديتها [وغرابتها]، دون خوف من الإكراه على الصمت أو الامتثال.

مفاهيمُكم القانونية عن المِلْكية والتعبير والهُويّة والحركة والسياق لا تنطبق علينا... وإجراءاتُكم العدائية والاستعمارية المتزايدة تُنْزِلنا منزلةَ عاشقى الحرية وحق تقرير المصير، السابقين، الذين رفضوا سُلطات حُكم القوى البعيدة الجهولة[840].

رغم رؤى مُتطرّفى الطلبة الأكثر حماسةً فى سبعينيات القرن العشرين، لم توجد ثورةٌ فى الولايات المتحدة. ولكن كما أوضحت رسالةُ بارلو الإلكترونية الشهيرة، كان الإنترنت هو الثورة. أو هكذا بدا. حققت مؤسّسةُ الحدود الإلكترونية Electronic Frontier Foundation، التى أنشأها بارلو وغيره من الأحرار الإلكترونيين، انتصارَها الأول الكبير فى عام 1997 حين ألغت المحكمةُ العليا Supreme Court قانونَ آداب الاتصالات لأنه ينتهك التعديلَ الأول First Amendment [لدستور الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1791][841].

كانت حكومة الولايات المتحدة قد شاركت، على نحو مصغّر، فى أعمال مجموعة مهندسىْ شبكة الإنترنت[774] Internet Engineering Task Force (IETF)، التى اعتبرها مبدعوها حكومةَ الإنترنت الوحيدة الضرورية. وعلى حدِّ تعبير ديفيد كلارك David D. Clark، مهندس بروتوكول الإنترنت: «نحن نرفض الملوك والرؤساء والانتخابات. ونؤمن ب: توافق تقريبى وشفرة تشغيل»[842] فى ذلك الصباح المشرق والمتفائل، توقّفَ بعضُ علماء الكمبيوتر أو مهندسى البرمجيات ليتساءلوا عمّا سيفعلونه، على وجه الضبط، إذا صار الإنترنتُ مسرحَ جريمة.

ثم اتضح بالفعل أن يوتوبيا الفضاء الإلكترونى - كيوتوبيا جنة عدن - فيها حَيّتُها وخُطّائُها: لاعبو اللعبة الشريرة غزوا «الأبراجَ الحصينة متعدِّدةَ

---

[774]مجموعة مهندسىْ شبكة الإنترنت: جمعية دولية تضم المُصمِّمين والمُشغِّلين والمُصنِّعين والباحثين العاملين فى مجال تطوير بنية شبكة الإنترنت وتحسين أدائها. بدأت الجمعية نشاطها بدعم من الحكومة الفيدرالية للولايات المتحدة الأمريكية عام 1986. ولكنها بدءًا من عام 1993، اتجهت إلى العمل بوصفها هيئة لتطوير المعايير تحت إشراف مجتمع الإنترنت، وهي منظمة دولية غير ربحية تشرف على سياسات الإنترنت - المترجم.

المُستخدِمين» للسطو على الصور التشخيصية أو الرمزية avatars [الدالة على هُويّة] لاعبين آخرين، وتبِعَهم على الفور مجرمون فى العالم الحقيقى انتهزوا بكل سهولة الفرص المتاحة للتزوير [أو الاحتيال]، تقريبًا بمجرد أن بدأ المال في تغيير الأيدي أونلاين[843].

ولم يبقَ الفضاءُ الإلكترونى بعيدًا عن الحكومة لفترة طويلة. ففى يناير عام 1998، أرسلَ جون بوستل Jon Postel المدير الأول ل إيانا أو هيئة تعيين أرقام الإنترنت[775] (Internet Assigned Numbers Authority (IANA)، رسالةً إلكترونية إلى ثمانية من المُشَغِّلين الاثنى عشر لخوادم أسماء منطقة الجذر[776] servers-regional root name فى الإنترنت، موجِّهًا إليهم تعليمات بتغيير مُشَغِّل [خادم] server منطقة الجذر إلى خادم إيانا، بدلا ً من خادم نِتورك سوليُشنز Network Solutions, Inc، وهو سجل نظام أسماء النطاقات[777] DNS الأصلى الذى أنشأته وكالةُ أنظمة معلومات الدفاع[778] (Defense Information Systems Agency (DISA فى سبتمبر عام 1991.

وفى غضون بضعة أيام، أصدرت إدارة المعلومات والاتصالات عن بُعْد فى وزارة التجارة [الأمريكية] «اقتراحًا لتحسين الإدارة التقنية لأسماء وعناوين ا لإنترنت»[844]. وأنشأتْ مؤسسةً جديدة غير هادفة للربح تُسَمّى مؤسسة الإ نترنت لتعيين الأسماء والأرقام Internet Corporation for Assigned

---

[775]إيانا أو هيئة تعيين أرقام الإنترنت (سجل نطاق المستوى الأعلى): منظمة مسؤولة عن تنسيق بعض العناصر الأساسية التى تحافظ على سلاسة الإنترنت. ولأن شبكة الإنترنت ليس لها تنسيق مركزى، كانت إيانا هى المسؤولة عن الإشراف على تخصيص عناوين بروتوكولات الإنترنت ونظام أسماء النطاقات، إلخ. - المترجم.

[776]خوادم أسماء منطقة الجذر: مسؤولة بشكل مباشر عن الاستجابة لطلبات التسجيل فى منطقة الجذر وتلبية طلبات أخرى عن طريق عرض قائمة بخوادم الأسماء الرسمية لنطاق المستوى الأعلى الملائم، وهذا النوع من الخوادم جزء من بنية الإنترنت التحتية - المترجم.

[777]نظام أسماء النطاقات Domain Name System (DNS): نظام يُخزّن معلومات تتعلق بأسماء نطاقات الإنترنت في قاعدة بيانات لامركزية على الإنترنت.

يُشكِل حجرَ الزاوية فى عمل الإنترنت لأنه يربط المعلومات بأسماء النطاقات وترجمتها حتى تصل إلى الحواسيب والخوادم عبر بنية الإنترنت التحتية - المترجم.

[778]وكالة أنظمة معلومات الدفاع: تُعْرَفُ باسم وكالة اتصالات الدفاع، تتألف من عسكريين ومدنيين فيدراليين ومتعاقدين، مهمتها توفير تكنولوجيا المعلومات والاتصالات للرئيس ونائبه ووزير الدفاع وكل الأجهزة المَعْنية بالدفاع عن الولايات المتحدة - المترجم.

(Names and Numbers (ICANN مجلسًا تمثيليًا على مستوى عالمى وإدارى من المديرين لإدارة إيانا، بموجب عقد مع وزارة التجارة وتحت إشرافها. ما قد بدأ بوصفه أربانِت [شبكة نقل بيانات]، لم يستطع الانحراف عن سلطان أبيه: العمّ سام[779] Uncle Sam.

وبهذا المعنى، كان إعلانُ الاستقلال Declaration of Independence، الذى أعلنه بارلو، حِبْرًا على ورق في غضون عامين من ظهوره.

---

[779] العمّ سام: رمز ولقب شعبى يُطْلَقُ على الولايات المتحدة الأمريكية. ويعود الاسم إلى القرن التاسع عشر، وعلى وجه التحديد، حرب عام 1812، عندما كان الجزار الأمريكى صمويل ويلسن يُزوّد القوات الأمريكية ببراميل مليئة بلحم البقر ومطبوع عليها حرفى U.S.؛ أىْ الولايات المتحدة فى إشارة إلى أنها مِلك الدولة، ولكن الجنود أطلقوا عليه اسم العم سام، على أساس أن حرف U اختصار ل Uncle والحرف S اختصار ل Sam – المترجم.

سقوط الإمبراطورية السوفييتية

يقع معهد علوم التحكّم الآلى Institute of Cybernetics فى ضواحى مدينة كييف Kiev [عاصمة أوكرانيا]. فهناك، بدءًا من عام 1972، حاول فيكتور جلوشكوف[780] Viktor Glushkov تصميمَ شبكةِ الإنترنت السوفييتى، واسم مشروعه بالكامل هو: «نظام جميع الدول الآلى لجَمْع المعلومات ومعالجتها من أجل المحاسبة والتخطيط وإدارة الاقتصاد الوطنى باتحاد الجمهوريات ا لاشتراكية السوفييتية» The All-State Automated System for the Gathering and Processing of Information for the Accounting, Planning and Governance of the National Economy, USSR.

ففى أوكرانيا التى تسيطر عليها الشيوعية، توَفّرَ قدرٌ من الروح التى حَرّكتْ وادى السِّليكون. تخيّلَ جلوشكوف وزملاؤه أرضًا تُسَمّى «سايبَرتونيا» Cybertonia، سيَحكمها مجلسٌ من الروبوتات، وقائدهم الأعلى روبوت يعمل بـ الساكسفون. كان جلوشكوف يعرف أن نظامه الآلى [الأوتوماتى] - كى يقبله الكريملين - يجب أن يتشكل وَفْق بنية الاقتصاد السوفييتى المُوجّه، الهَرَميّة، ثلاثية المستويات. وحتمًا، سيَتعيّنُ وجودُ محور كمبيوتر مركزى فى موسكو، سيرتبط بمئتىْ عُقْدَة وسطى فى المدن السوفييتية الكبرى، التى سترتبط بدورها ب 20 ألف كمبيوتر مُوزّع على الأطراف عبر مواقع إنتاج رئيسية. ولكن، بينما ستُسيطر موسكو على مَن يُمْنَحُ له حق الوصول إلى الشبكة، تصوّرَ جلوشكوف أن أى مُستخدِم، مُصرّح له، سيكون قادرًا على الاتصال بأى مُستخدِم آخر عبر الشبكة دون إذن مباشر من العُقْدَة الأم.

هل يمكن أن تعمل شبكة إنترنت سوفييتية من هذا النوع؟ يبدو هذا محلّ شكٍّ. وعلى أية حال، لم تتم محاولة التجربة، ليس لأن أعضاء المكتب السياسى [البوليتبورو] فى موسكو اكتشفوا التهديد المحتمل لسُلطتهم الذى يمثله مُقترَح جلوشكوف، بل لأن وزير المالية فاسيلى جَربوزوف Vasily Garbuzov وَأدَ المشروع في مَهْده بسبب التكلفة[845].

ونحن نعرف الآن كلّ ما نعرفه عن أمراض نقص القيمة subtracting-value فى الاقتصاد السوفييتى سبعينيات القرن العشرين، نتذكر جاهدين إجماعًا

---

[780]فيكتور جلوشكوف: (1923 - 1982)، عالِم رياضيات سوفييتى، والأب المؤسِّس لتكنولوجيا المعلومات فى الاتحاد السوفييتى، له تأثير كبير فى العديد من مجالات علوم الكمبيوتر النظرية بما فيها نظرية البَرْمَجة والذكاء الاصطناعي - المترجم.

حَدَثَ فى واشنطن على احتمال سيادة الشيوعية على الرأسمالية في النهاية. فى طبعة عام 1961 من كتاب الاقتصادى بول ساميولسُن[781] Paul Samuelson الأكثر مبيعًا، توَقَّعَ أن الاقتصاد السوفييتى سيتجاوز الاقتصادَ الأمريكي في الفترة بين عاميْ 1984 و1997.

ولا يزال يؤَكِّدُ فى طبعة كتابه عام 1989 أن «الاقتصاد السوفييتى هو دليل على أن الاقتصاد الاشتراكى الموجّه - خلافًا لما كان يعتقده العديدُ من المُتشكِّكين سابقًا - يقوم بدوره بل يزدهر». وكما قال تقريرُ وكالة الأمن القومى NSA فيما بعد: «لا توجد تقديرات رسمية ذكرت احتمال انهيار الشيوعية حتى انقلاب عام 1989»[846]. ومع ذلك، كان من الواضح لأى زائر نبيهٍ للاتحاد السوفييتى أن شيئًا ما خاطئٌ فى الاقتصاد المُوجّه. السلعُ الاستهلاكية جودتُها رديئةٌ وناقصةٌ فى السوق. وفى المصانع العتيقة، انتشر الاختلاسُ وإدمان الكحول والتغيُّب عن العمل. ومن الصعب تصديق أن أى تحكّم إلكتروني سيمكنه إنقاذ مثل هذا النظام المختل اختلالاً جوهريًا.

لم يُتَرْجِمْ معظمُ المواطنين السوفييت حالةَ الفوضى الناتجة إلى نشاط سياسى، بل ترجموها إلى قَدَريّة ومزيد من الفكاهة السوداء. وأما فى أجزاء أوربا الشرقية التى خضعت للحُكم السوفييتى المباشر أو غير المباشر، نتيجةً للحرب العالمية الثانية، فكان الأمر مختلفًا. إذ بدأ المُنشقّون يُجَرّبون تنظيمَ أنفسهم، وشجّعَتْهم على هذا التزاماتٌ تعهّدَ بها القادةُ السوفييت (ولم يَفوا بها) لدَعْم حقوق الإنسان فى اتفاقيات هَلسنكى Helsinki [عاصمة فنلندا]، الأخيرة.

واكتشف مَن يعيشون تحت الحُكم الشيوعى - لأول مرة منذ ثلاثينيات القرن العشرين - أنهم يستطيعون تشكيلَ شبكات دون المخاطرة بحياتهم وحياة عائلاتهم. ولم تزدهر الجمعيات الطَوْعيّة المستقلة فى أى مكان أسرع من ازدهارها فى بولندا. كان التحدِّى بناءَ شبكة الشبكات - نوع من الإنترنت السياسى political Internet - يسمح لليبراليين العَلمانيين فى الجامعات بالتحالف مع الرومان الكاثوليك Roman Catholic ومُعارضى النظام من الطبقة العاملة[847].

نما حجم شبكة المُعارَضة إلى حوالى40% بين عامىْ 1969 و1977، بالإضافة إلى سِتِّ مجموعات جديدة بما فيها مجموعة النقابات الحُرّة Free Trade Unions (WZZ)؛ كما نمت بالكثافة نفسها مجموعاتٌ مدنية وليبرالية

---

[781] بول ساميولسُن: (1915 - 2009)، اقتصادى أمريكى، مَارَسَ التدريسَ فى الجامعات و المعاهد الأمريكية، وعمل مستشارًا للعديد من الهيئات الحكومية الأمريكية - المترجم.

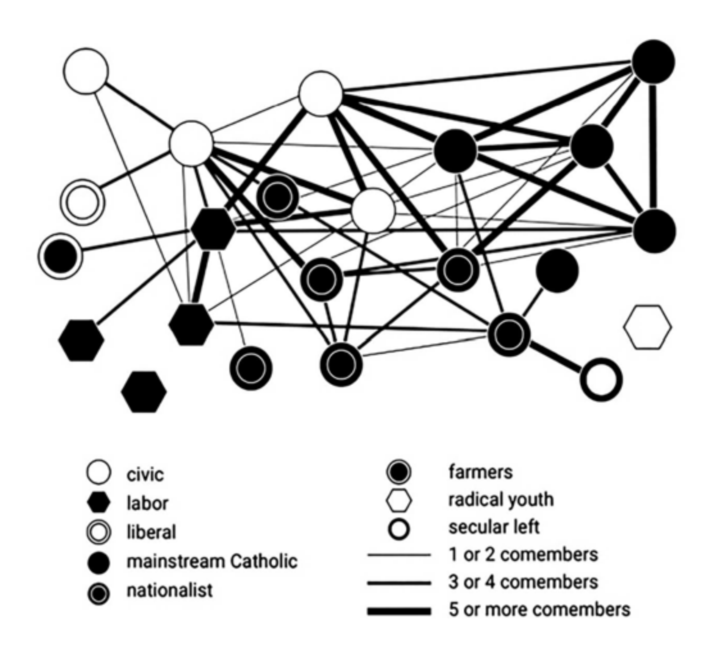
وكاثوليكية وقومية وراديكالية، ترابطت فيما بينها أوثق الترابط. وبحلول عام 1980، ومع التحفيز الذى أثارته زيارةُ البابا يوحنا بولس الثانى Pope John Paul II فى العام السابق، نمت الشبكةُ مرةً أخرى، باتحاد جديد هو «تضامن» Solidarity الذي صار المحورَ المسيطرَ[848].

ولا شك فى أن فرض الأحكام العُرْفية [القانون العسكرى] martial law فى ديسمبر عام 1981 قد مزّق الشبكةَ، إذ اعْتُقِلَ العديدُ من العُقَد الرئيسية أو فرّوا إلى خارج البلاد.

ولكن الجنرال فويتشخ ياروزلسكى[782] General Wojciech Jaruzelski لم يكن ستالين. فعندما وافقت الحكومة على إجراء محادثات مع «تضامن» فى فبراير عام 1989، أعادت الشبكةُ بناءَ نفسها فنَمَتْ بسُرْعَةِ التقاطِ الأنفاس.

---

[782]فويتشخ ياروزلسكى: (1923 - 2014)، جنرال وسياسى بولندى، وآخر رئيس شيوعى في البلاد - المترجم.



الشكل رقم: 35 - شبكات المعارضة البولندية، 1980 - 1981. اعتمد نجاحُ نقابة التجارة الحُرّة «تضامن» (العُقد السداسية السوداء فى الوسط يسارًا)، جزئيًا، على الاتصال بالعديد من الجمعيات السياسية الأخرى.

الثوراتُ، كما رأينا، ظاهرةٌ شبكيةٌ. ومع كل يوم يمرٌ فى عام 1989 دون حملة قَمْع، يضعف عَزْمُ أنظمة الحُكم فى أوربا الشرقية، فتتصاعد أعدادُ مواطنيها المُستعدِّين للمخاطرة باحتجاج عَلنى. فى بودابست [عاصمة المجر]، فى شهر مايو، قرّرَ الشيوعيون المجريون Hungarian Communists فتحَ حدودهم مع النمسا. وانتهز اتحادُ «تضامن» الفرصةَ حين انطلق حوالى 15 ألف مواطن من ألمانيا الشرقية عبر تشيكوسلوفاكيا Czechoslovakia إلى المجر لقضاء «العطلة»، فيما كان فى الحقيقة رحلةً فى اتجاه واحد [بلا عودة] إلى الغرب. وفى يونيو، فاز «تضامن» فى الانتخابات البولندية وشرع فى تشكيل حكومة ديمقراطية. وفى سبتمبر، حذا الشيوعيون المجريون حَذْوَ المثال البولندى فوافقوا على إجراء انتخابات حُرّة. ثم فى الشهر التالى، بينما تأهّبَ إيريك هونيكر[783] Erich Honecker للاحتفال بالذكرى السنوية الأربعين لجمهورية ألمانيا الديمقراطية، تدفّقَ مئاتٌ ثم آلافٌ ثم عشراتُ الآلاف ثم مئاتُ الآلاف من الناس إلى الشوارع فى لايبزيج Leipzig، وهم يهتفون فى البداية «نحن الشعب» Wir sind das Volk، ثم عَدّلوا هتافَهم إلى «نحن شعب

---

[783] إيريك هونيكر: (1912 - 1994)، سياسى ألمانى قادَ جمهوريةَ ألمانيا الديمقراطية (ألمانيا الشرقية) بصفته أمين عام حزب الوحدة الاشتراكية منذ عام 1971، كما تولّى رئاسة الدولة منذ عام 1976 بعد تخلِّى فيلى شتوف عن المنصب، وظل رئيسًا حتى سقوط جدار برلين عام 1989 - المترجم.

واحد» Wir sind ein Volk. وهنا، أيضًا، ترابطت شبكاتٌ محلية من المعارضة مع بعضها البعض بسرعة، وبعضها يستند إلى الكنيسة، رغم أن عناصر الثورة من الجناح اليسارى واليمينى كانت أقل اتصالا ً ببعضها مما كان عليه الحال في بولندا[849].

ثم فى يوم 9 نوفمبر عام 1989، أَخْبِرَ الصحفيون المرتبكون فى برلين الشرقية East Berlin بأن «قرارًا اتُّخِذَ يُمكِّنُ جميعَ المواطنين من مغادرة البلاد من خلال نقاط عبور حدودية رسمية... وسيُنَفَّذُ على الفور»، فدفعت هذه الأ خبارُ طوفانًا من البرلينيين الشرقيين إلى نقاط التفتيش الحدودية. ولأن الحُرّاس ليست لديهم أوامر واضحة فقد اختاروا ألا يقاوموا. واضطرت كلُّ نقاط التفتيش إلى فتح العبور بحلول منتصف الليل. كلُّ الدومينو سَقَطَ، ولكنه سَقَطَ هذه المرة فى الاتجاه المعاكس لما تَخوّفَ منه أيزنهاور، واستمرت قِطَعُ الدومينو فى السقوط بشكل أفضل على امتداد عامَيْن. فبعد انقلاب موسكو الفاشل فى أغسطس عام 1991، انهار الاتحادُ السوفييتى نفسُه، تاركًا خلفه اتحادًا روسيًا Russian Federation ممزقًا من دول البلطيق وأوكرانيا وروسيا البيضاء [بيلاروس] Belarus وثلاث جمهوريات قوقازية كبيرة وخَمْس «ممرات» فى آسيا الوسطى. وفى الإطار الزمنى نفسه، تفكّكتْ يوغسلافيا Yugoslavia، ومعها البوسنة والهرسك Herzegovina-Bosnia مُتعدِّدة الأعراق، فتمزّقت كلُّها. أما فى بكين Beijing فالتزم الحُكّامُ الشيوعيون بسيناريو عامىْ 1956 و1968، فأرسلوا دباباتهم لسَحْق احتجاجات يونيو 1989 الشعبية في بكين[784].

ولم يكن هذا التفاعلُ الأوراسى المتسلسلُ عملا ً من أعمال شبكات المعارضة السياسية فقط؛ بل دَفَعَتْ إليه شبكاتُ التلفزيون أيضًا. فى المرحلة الأولى من ثورة ألمانيا الشرقية، تأجّجَت المُشارَكة فى الاحتجاجات بالتغطية التلفزيونية التى تولّتها ألمانيا الغربية، إذ تمكنَ معظمُ مواطنى ألمانيا الشرقية GDR من مشاهدة ما يحدث على شاشات تلفزيوناتهم. وذلك باستثناء دَغْل واحد فقط من أدغال «وادى الظلمات» - المنطقة الجنوبية الشرقية حول درسدن Dresden والجزء الشمالى الشرقى من البلاد القريب من جرايفسفالد Greifswald - حيث لم يستطع الناسُ استقبالَ قنوات إرسال ألمانيا الغربية

---

[784]احتجاجات يونيو 1989 فى بكين المعروفة ب«حادثة الرابع من يونيو»، أو مظاهرات ساحة تيانِنْمِن: سلسلة مظاهرات وطنية فى الصين بدأت يوم 15 أبريل، وظلت تتصاعد حتى وصلت ذروتها فى يوم 4 يونيو، حين احتل طلبة الجامعة الصينيين ساحة تيانِنْمِن مطالبين بالديمقراطية والإصلاح. فأُعْلِنت الأحكامُ العُرْفية واتخذت السلطاتُ قرارَ إخلاء السّاحة بالقوة - المترجم.

التلفزيونية[850].

وبالقدر نفسه من الخطورة على النظام السوفييتى كانت شبكاتُ التمويل الغربية، التى نَمَتْ باطرادٍ طوال ثمانينيات القرن العشرين نتيجة تحرير سوق رأس المال وإدخال تكنولوجيا الكمبيوتر. ولم يكن من قبيل المصادفة أنْ عانت أنظمةُ الحُكم فى أوربا الشرقية (باستثناء رومانيا) سكراتِ موتها، بعد سنوات قليلة فقط من بداية اقتراضها أموالا ً طائلة من البنوك الغربية. فقد كانت هذه البنوك من بين المؤسسات الأولى التى بدأت - بشكل مُمَنْهَج وعلى نطاق واسع - فى استغلال تكنولوجيات المعلومات الجديدة التى طَوّرها وادى السِّليكون. ويُنْتَسَى هذا التطورُ أحيانًا، عند التأريخ لثمانينيات القرن العشرين المائل، بشكل غير ملائم، إلى التعويل على بعض القادة الأبطال فى انهيار الشيوعية: جورباتشوف Gorbachev، ريجان Reagan، تاتشر Thatcher ، البابا the Pope.

هؤلاء الأفراد مُهِمُّون بلا شك، ولكنهم حققوا أهدافهم عندما تجاوبوا مع التنامى المتسارع لشبكة المال الدولى. ولم تكن واشنطن أو لندن المحورَ الأ هم فى هذه الشبكة، ناهيك عن أن تكون روما. لقد كان المحورُ الأهمُّ منتجعَ تزلُّجٍ صغير فى كانتون جراوبُنْدن canton of Graubünden السويسرى: دافوس Davos.

48

انتصار رَجُل دافوس

عندما أرسل جون بيرى بارلو رسالتَه الإلكترونية - التى تحدّثَ فيها عن «إعلا ن استقلال الفضاء الإلكترونى» إلى الشبكة فى دليل عناوينه على الإنترنت - تصادف أن محلّه المكانى المناسب هو دافوس. وبوصفه مُشاركًا فى المنتدى الاقتصادى العالمى World Economic Forum، كان بارلو شَبَكيًّا على المستوى الإلكترونى والاجتماعى فى آنٍ معًا. تأسّسَ المنتدى الاقتصادى العالمى عام 1971 بتوصية من أكاديمى ألمانى، تلقّى تدريبًا فى هارفارد، يُدْعَى كلاوس شُواب[785] Klaus Schwab، صَاحِبُ فكرة أن وجود مؤتمر منتظم لقادة التجارة الدولية يمكنه تحقيق رؤيته لـ«الشركات بوصفها صاحبة مصلحة فى مجتمع عَوْلمي، بالتعاون مع الحكومة والمجتمع المدني»[851].

وقد وُصِفَت الثمرةُ بأنها «جنّة الأسماء المُنْتقاة» المأهولة بالرؤساء التنفيذيين لشركات متعدِّدة الجنسيات وسياسيين مختارين، بل أيضًا بـ«محافظى البنوك المركزية، ومديرى الصناعة، وعمالقة صناديق الاستثمار، ومُتكهّنين متشائمين، وعلماء فيزياء فلكية، ورهبان وحاخامات، ومُعالِجى التكنولوجيا وأمناء متاحف، ورؤساء جامعات، ومُدوّنين استثماريين، وسَلِيلى عائلاتٍ نُبَلا ء»: «دافوس يُشْبِه الكونجرسَ، المصنعَ، قبّةُ المورمن المُعلّقة [أو خيمة المورمن][786] Mormon Tabernacle، البستانَ البوهيمى[787] Bohemian

---

[785]كلاوس شُواب: من مواليد عام 1938 بألمانيا. حائز على الدكتوراه فى الاقتصاد و الهندسة والإدارة العامة. اقتصادى ورجل أعمال يعيش فى سويسرا، وتعمل معه زوجته هيلدا فى مشاريعه. أسّسَ عام 1971 المنتدى الاقتصادى العالمى الذى تطور لاحقًا حتى صار شراكةً دولية لرجال الأعمال والسياسة والفكر. وفى عام 1989، أسّس شُواب مع زوجته «مؤسسة شُواب للمشروعات الاجتماعية» ومقرها جنيف بسويسرا. وفى عام 2004، أسّسَ «منتدى قادة العالم من الشباب» بهدف جمع أكثر من ألف شاب تحت سن الأ ربعين ممن يعملون فى مختلف المجالات لتشجيعهم على التعاون من أجل تغيير العالم - المترجم.

[786]خيمة المورمن أو القبة المعلقة: تقع فى ساحة تمبل بمدينة سولت ليك بولاية يوتا Utah غرب الولايات المتحدة الأمريكية. بُنيت الخيمةُ بين عامىْ 1864 و1867 بوصفها مقرًا لا جتماعات «كنيسة قديسى الأيام الأخيرة ليسوع المسيح،» وهى اجتماعات نصف سنوية. وبدءًا من عام 200، نُقِلَت الاجتماعاتُ إلى مقر آخر بسبب زيادة عدد الحاضرين. كانت الخيمةُ موطنَ جوقة المعبد ذات الشهرة العالمية فى ساحة تمبل. وكانت مقرًا سابقًا لأ وركسترا يوتا السيمفونية حتى بناء قاعة أبرافانيل. أُغْلِقَت الخيمةُ فى عام 2005 لتجديدها حتى تكون أكثر قدرة على مقاومة الزلازل، ثم أعيد افتتاحها عام 2007 بتكريس

Grove، «أرقى حفلة عشاء فى العالم»، النظامَ المالى، فيسبوك، مهرجانَ الرجل المحترق[788] Burning Man، معسكرَ تدريب، مدرسةً عليا، لوس أنجلوس[789] Loes Angeles، كوجو[790] Quogue.

دافوس بَصَلَةٌ، شريحةُ كيك، دُمْيةٌ روسيةٌ». بفضل شُواب، يستحق دافوس عن جدارةٍ الاسمَ الذي سَمّى به توماس مان[791] Thomas Mann ذات مرة الجبل الذى تعلوه الأبراج: الجبل السحرى der Zauberberg, the Magic Mountain. وبفضل دافوس، يستطيع شُواب الزّعْمَ (بتسلسلٍ يلى كيسنجر

من الكنيسة - المترجم.

[787]البستان البوهيمى: أرضُ مُخَيّمٍ فى مونتى ريو بولاية كاليفورنيا، تابعة ل«النادى البوهيمى». فى منتصف شهر يوليو من كل عام، يستضيف البستانُ البوهيمى معسكرًا يضم أهمّ رجال العالم وأعظمهم سلطةً. يُشاعُ أن بعض الطقوس تُقامُ فى المعسكر مثل عبادة صخرة كبيرة تشبه طائر البومة، وقتل طفل صغير طعنًا أو حرقًا، وجلوس الرجال عُراةً. يوجد مقطع فيديو سَرّبه الصحفىُ أليكس جونز بعد أن صوّرَ الطقوس مستخفيًا - المترجم.

[788]مهرجان الرجل المحترق: مهرجان سنوى يُعْقَدُ فى صحراء الصخرة السوداء المنعزلة فى منطقة بليك روك [البحيرة الجافة] شمال ولاية نيفادا بالولايات المتحدة الأمريكية. يستمر المهرجان لمدة أسبوع، وتتخذ منطقةُ المهرجان شكلا ً نصف دائرى. جاءت التسمية من ممارسة طقس حَرْق تمثال رجل خشبى مساء يوم السبت. يرجع أصل هذا الطقس إلى عام 1986 عندما قام رجلان بوهيميان من سان فرانسيسكو، هما لارى هارفى وجيرى جيمس، بحرق دُمْية خشبية على شاطئ بيكر بيتش، فاجتذب هذا التقليدُ العديدَ من الناس. ثم بحلول عام 1990 نقل المشاركون فى هذا الطقس المهرجانَ إلى صحراء ولا ية نيفادا - المترجم.

[789]لوس أنجلوس: أكبر مدن ولاية كاليفورنيا، وتقع غرب الولاية على ساحل المحيط الهادى. اسم المدينة مأخوذ من اللغة الإسبانية، ويعنى «الملائكة»، كما أنه اختصارٌ لاسمها ا لإسبانى الذى يعنى: «قرية السيدة العذراء ملكة ملائكة نهر بورسيونكولا». تزدهر فيها صناعة الطائرات، وصناعة السينما فى حى هوليوود. فى عام 1992، عاشت المدينة صدامات دموية عنيفة على خلفية قضية رودنى كينج السائق الأسود الذى اعتدى عليه أربعة رجال بيض من شرطة لوس أنجلوس - المترجم.

[790]كوجو: منطقة تاريخية بولاية نيويورك، ولعل المقصود بالإشارة «نادى شاطئ كوجو» الذي يُعَدُّ أحد أغلى أماكن قضاء الأجازات السنوية في العالم بأسره - المترجم.

[791]توماس مان: (1875 - 1955)، روائى ألمانى، حصل على جائزة نوبل فى الآداب عام 1929 - المترجم.

مباشرةً) بأنه «الرجل الأفضل اتصالا ً على الكوكب [أو ربما الأفضل]»[852].

أولئك الذين يسخرون من المنتدى الاقتصادى العالمى - [كما فى الاقتباس السابق مباشرةً] - يُقلِّلون من سُلطة الشبكات ويَستخِفّون بها. فعلى مدى تاريخ المنتدى، لم تحْظَ خطبةٌ بأهمية تاريخية أعمق من خطبة ألقاها فى يناير عام 1992 سجينٌ سياسىٌ أُطلِقَ سراحُه مؤخرًا فى الطرف الآخر من الأ رض. يقول هذا السجين السياسى للحاضرين فى المؤتمر، وقد أنْصَتَ إليه شُوَاب بانتباه واستحسان: «إن ترابطنا يفرض علينا جميعًا الاجتماع لتدشين انطلاق [هجوم] كوكبى global offensive من أجل التنمية والازدهار وبقاء الإ نسان». وكما يقول المُتحدِّثُ: «من الضرورى أن يحدث تحريكٌ كبير للموارد من الشمال إلى الجنوب»؛ لكن ليس «بوصفه عملا ً من أعمال الخير، أو محاولة لتحسين حياة مَن لا يملكون بإفقار مَن يملكون». ثم بدأ المُتحدِّثُ فى تعداد أربع خطوات ينبغي على بلده القيام بها:

معالجة... مشكلة الديون، وقضية الانخفاض المستمر فى سعر السلع التى تُصَدِّرُها البلادُ الأفقر، وفَتْح الأسواق أمام بضائعها المُصنّعة.

ضمان نموّ بلدنا... وهو ما سيقتضى تنميةً سريعةً ومستدامةً بجَلب رأس المال أو الاستثمار الثابت، اعتمادًا على مصادر داخلية وخارجية معًا لتمويل هذا الاستثمار.

[إنشاء] قطاع عام لا يختلف عن مثيله في بلاد كألمانيا وفرنسا وإيطاليا.

إتاحة آفاق صالحة للمستثمرين الموجودين فى هذه القاعة، سواء الجنوب أفريقيين أو الدوليين[853].

كان المُتحدِّثُ هو نِلسُن مانديلا[792] Nelson Mandela، وجوهرُ ما قاله واضحٌ بقدر ما هو مذهل: فمِن أجل اجتذاب رأس المال الأجنبى إلى البلد الذى أُعِدّ لتولِّى المسؤولية فيه، ستتخلّى الشخصيةُ الرائدة عن أحد الالتزامات

---

[792]نِلسُن مانديلا: (1918 - 2013)، سياسى وثورى جنوب أفريقى مُناهِض لسياسة الفصل العنصرى والسياسات الاستعمارية فى جنوب أفريقيا. شغل منصبَ رئيس جنوب أفريقيا بين عامىْ 1994 و1999. قبل هذا، مكث مانديلا فى السجن سبعة وعشرين عامًا إثر إدانته بالتخريب والتآمر لقلب نظام الحُكم عام 1962، فحكمت عليه محكمةُ ريفونيا بالسجن مدى الحياة. يُصَنِّفُ مانديلا بوصفه قوميًا أفريقيًا وديمقراطيًا اشتراكيًا، ويتعرض للانتقاد لتعاطفه مع الإرهاب والشيوعية.

حصل على جائزة نوبل للسلام عام 1993، وعلى ميدالية الرئاسة الأمريكية للحرية، وعلى وسام لينين من الاتحاد السوفييتى. وكلمته فى دافوس ألقاها فى يناير عام 1992 - المترجم.

الرئيسية التى أقرّها المؤتمرُ الوطنى الأفريقى African National Congress فى ميثاق الحرية[793] Freedom Charter عام 1955: تأميم الصناعات الرئيسية في جنوب أفريقيا[854].

ورغم عضوية مانديلا فى الحزب الشيوعى الجنوب أفريقى South African Communist Party وقت سجنه عام 1962، فلم يكن شيوعيًا عاديًا. كتَبَ فى يومياته ذات مرةً، مشيرًا إلى تلقيه مراسلات من القائد الإسرائيلى مناحيم بِجين Menachem Begin، ومقاتل حرب العصابات فى البوير Boer دیانیس رَيتس Deneys Reitz، وكذلك من تشى جيفارا Che Guevara وماو تسى تونج Mao Zedong، قائلا ً: «يجب علينا القيام بدراسة شاملة لكل الثورات، بما فيها الثورات التي فشلت».

نظرية الجناح العسكرى الثورية التى تبنّاها «رمح الأمة»[794] ANC (Umkontho we Sizwe) الذى تأسّسَ فى عام 1961، كانت أمْيلَ إلى نظرية فيدل كاسترو Fidel Castro منها إلى نظرية لينين Lenin[855].

وأثناء سنواتِ سَجْنِ مانديلا الطويلة فى جزيرة روبن[795] Robben Island غَيَرّ فلسفتَه فى نواحٍ عديدة، ولكنه تشبّثَ بفكرة التأميم والسيطرة على قمم الاقتصاد. وعندما حاول السفير البريطانى روبن رنّيك Robin Renwick، فى عام 1990، التحدُّثَ معه عن التأميم، ردّ مانديلا: «إنه فكرتكم» - فى إشارة منه إلى البند الرابع فى دستور حزب العمال البريطانى British Labour Party ، الذى يُلْزِمُ الحزبَ ب«المِلْكية العامة لوسائل الإنتاج والتوزيع والتبادل، و[ب] أفضل نظام يمكن تحقيقه فى الإدارة الشعبية والسيطرة على كل صناعة أو خدمة»[856].

لماذا تخلّى مانديلا عن آخر بقايا اشتراكيته بعد عامين فقط؟ هو نفسُه

---

[793]ميثاق الحرية: بيان بالمبادئ الأساسية ل«تحالف مؤتمر جنوب أفريقيا» الذى تألّفَ من «المؤتمر القومى الأفريقى» و«مؤتمر الديمقراطيين الجنوب أفريقيين» و«مؤتمر الشعب المُلوّن». تميّزَ الميثاقُ بعبارته الافتتاحية: «سيحكم الشعب» - المترجم.

[794]رُمْح الأمة: تنظيم أسّسه مانديلا مع آخرين عام 1961، عقب رفض الحكومة القيام بإصلاحات دستورية، وعقب مذبحة شاربفيل في إقليم الترانسفال.

تأسّسَ التنظيمُ بوصفه جناحًا عسكريًا لحركة المؤتمر الوطنى الأفريقى. تميزت هجماته بأسلوب حرب العصابات. واتُّهِمَ فى ظل الحرب الباردة باشتغاله لحساب السوفييت فصنّفته الولايات المتحدة وبريطانيا والدول الغربية عمومًا بأنه منظمة إرهابية محظورة. ادّعَى الموسادُ أنه تولّى تدريب مانديلا على السلاح والتخريب عام 1962 - المترجم.

[795]جزيرة روبن: تقع في خليج الجدول، كيب تاون جنوب أفريقيا - المترجم.

اعترف بتأثير رحلته إلى دافوس. وكما قال لاحقًا: «جئتُ إلى الوطن لأقول: أيها الشباب، يجب أن نختار. إما استمرارنا فى التأميم ولن نحصل على أى استثمار، أو تعديل موقفنا ونحصل على الاستثمار»[857].

ثم ذَكرَ لاحقًا فى عام 2000، كيف أنه أثناء «تنقّله فى جميع أنحاء العالم وسماعه آراء رجال أعمال بارزين واقتصاديين بارزين بشأن كيفية تنمية الا قتصاد»، «اقتنع بحُرّية السوق وآمَنَ بها»[858] ومع ذلك، قُدِّمَتْ تفسيراتٌ أخرى. فبالنسبة إلى مَن على يساره فى حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى ANC، من أمثال رونى كاسرلز Ronnie Kasrils، كان «القرارُ ضد التأميم صفقةً فاوستية»[796] مع العالم الأبيض الذي يبيع فقراءَ جنوب أفريقيا»[859].

وزَعَمَ الصحفىُ أنتونى مونتِرو Anthony Monteiro أن مانديلا «أجرى محادثات سرّية مع نظام الحُكم الأبيض قبل إطلاق سراحه»، فوافق فى ذلك الوقت المبكر على التخلِّي عن التأميم[860].

أما الطريقة الألطف لعرض وجهة النظر نفسها فهى القول بأن مانديلا (وتابو مبِكى[797] Thabo Mbeki، الذى سيخلفه لاحقًا فى رئاسة البلاد) اعتنى عنايةً بـ الغة برجال الأعمال فى جنوب أفريقيا - وأبرزهم هارى أوبنهايمر Harry Oppenheimer - الذين قدّمتهم له الزعيمةُ هيلين سُزمان[798] Helen Suzman البيضاء المُناهِضة للفصل العنصري[861].

ثمة نظرية بديلة تقول بأن تخلِّى مانديلا جاء نتيجة ضغط صندوق النقد الدولى International Monetary Fund الذى أدّى إلى تغيير السياسة العامة: «للحصول على قرض قيمته 850 مليون دولار... ألزَمَتْ جنوبُ أفريقيا نفسَها بـ التقشُّف والَلبْرَنة [التحوُّل إلى الليبرالية] liberalization والخَصْخَصَة»[862].

وطبقًا لـ نَيومى كلاين[799] Naomi Klein، «غُذّيِ حزبُ المؤتمر الوطنى الأ

---

[796]الفاوستية هنا إشارة إلى أن الصفقة تحالف مع الشيطان - المترجم.

[797]تابو مبِكى: من مواليد عام 1942 بجنوب أفريقيا. رئيس جمهورية جنوب أفريقيا الحادى عشر منذ عام 1999 حتى عام 2008، خلفًا لنِلسُن مانديلا. طالبه حزبُه بالاستقالة إثر تدخّله في عمل القضاء أثناء محاكمة نائبه الأسبق جاكوب زوما بتهم فساد - المترجم.

[798]هيلين سُزمان: (1917 - 2009)، ناشطة ومناهضة سياسية للفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا، لعبت دورًا فى تحسين أوضاع أعضاء حزب المؤتمر الوطنى فى السجون، بمَن فيهم نِلسُن مانديلا رغم تحفظها على سياساته الثورية - المترجم.

[799]نَيومى كلاين: من مواليد عام 1970. كاتبة وصحفية سياسية ومؤلفة أفلام تسجيلية كندية، تتميز بمناهضتها للسياسات النيوليبرالية، وتكتب فى الجارديان بصورة غير

أفريقى بجرعات ثابتة من الأفكار النيوليبرالية» عبْر صندوق النقد الدولى IMF، ومن خلال «مدارس التجارة وإدارة الأعمال الأجنبية، والبنوك الا ستثمارية، ومراكز بحوث السياسات الاقتصادية، والبنك الدولى World Bank»، ناهيك عن «محامين واقتصاديين وأخصائيين اجتماعيين شَكّلوا الا نتشارَ السريع ل«التحوٌل» الصناعي»[863].

وفى روايات أخرى [لتفسير تخلِّى مانديلا]، يُقالُ إن مارجرت تاتشر Margaret Thatcher ووزير الخارجية الأمريكية جيمس بيكر James Baker، هما اللذان حوّلا مانديلا عن مبادئه الاشتراكية.

(بخصوص التأميم، يُقالُ إن بيكر أبدى التعليق الآتى لمانديلا: «كل ما فى الأ مر أن التأميم صار قبعةً قديمة الآن»)[864].

منتظمة، وفي جرائد أخرى - المترجم.



الشكل رقم: 36 - نيلسون مانديلا مع كلاوس شُواب فى دافوس، فى يناير عام 1992، عندما أسقط مانديلا التأميم من برنامج [حزب] المؤتمر الوطنى الأ فريقي.

جاءت رحلة مانديلا إلى دافوس فى لحظة حاسمة من لحظات تاريخ جنوب أفريقيا. أفْرِجَ عن مانديلا في فبراير عام 1990. وفى غضون ستة أشهر، صار الحزبُ الشيوعى الجنوب أفريقى SACP شرعيًا، وعُلِّقَ الجناحُ العسكرى لحزب المؤتمر الوطنى الأفريقى. ولكن الطريق، مع نهاية عام 1991، كان لا يزال طويلا ً أمام جنوب أفريقيا لإيجاد حكومة مُنْتَخَبَة ديمقراطيًا. فحتى عام 1993 لم تكن جَرَتْ عمليةُ التفاوض متعدِّدة الأحزاب التى أنتجت، فى النهاية، دستورًا ديمقراطيًا؛ ولم تحدث أولُ انتخابات حُرّة حتى أبريل عام 1994. وقد اعتقد العديد من المُلاحِظين أن الحرب الأهلية هى النتيجة الأرجح احتمالا ً من الانتخابات الحُرّة لإنهاء الفصل العنصرى. ومع ذلك، لم يكن الساسةُ الغربيون أو البلوتوقراط [المُتنفِّذون بسبب ثرواتهم][800] plutocrats هم الذين أقنعوا مانديلا بتغيير موقفه من التأميم.

---

[800]البلوتوقراطية: أحد أشكال الحُكم تكون فيه الطبقةُ الحاكمة متميزةً بالثراء. وللمصطلح استعمالان هما: الأول ذو دلالة تاريخية عند الإشارة إلى الدول القديمة التى حكمتها أوليجاركيات ثرية مثل بعض المدن فى اليونان القديمة، وجمهوريات التجار الإيطالية مثل جنوة وفلورنسا والبندقية. وأما الاستعمال الثانى فله دلالة سياسية معاصرة، حيث يحمل معنى ازدرائيًا وانتقاصيًا عند الإشارة إلى العملية السياسية الخاضعة لتأثير المال بشكل كبير وغير متكافئ - المترجم.

فعلى حدِّ تعبير الوزير المستقبلى تيتو مبوينى[801] Tito Mboweni (الذى رافَقَ مانديلا إلى دافوس)، كان الذين أقنعوه هم مندوبو الصين وفيتنام فى المنتدى الاقتصادى العالمى. لقد قالوا لمانديلا: «نحن نسعى حاليًا إلى خَصْخَصَة مشروعات الدولة ودعوة المؤسسات الخاصة إلى اقتصاداتنا». «نحن حكومات الحزب الشيوعى وأنتَ زعيمُ حركة تحرير وطنى. لماذا تتحدث عن التأميم؟»[865].

وكان لهذا أثره. لماذا اهتم مانديلا بنصيحة وزير الصناعة الهولندى، وهو مندوب آخر فى دافوس تَصَحَه بعدم زيادة مِلكية الدولة؟ كان مانديلا قد قضى لتوّه ما يقرب من الثلاثين عامًا حبيسًا فى سجون الأفريكان الناطقين بـ الهولندية Dutch-speaking Africaners[866] . وكانت الشبكة التى انتمى إليها، طوال هذه الفترة، إحدى أنجح شبكات القرن العشرين: شبكة الشيوعيين الدولية.

ما جعل دافوس حاسمةً اندماجُ هذه الشبكة الأقدم فى دولية رأسمالية جديدة ابتكرها كلاوس شوُاب، وهو الاندماج الذى جعل ممكنًا للحكومات الصينية والفيتنامية أن تتبنّى إصلاحات اقتصادية قائمة على السوق.

---

[801]تيتو مبوينى: من مواليد عام 1959، أول أسود يشغل منصب الحاكم الثامن لبنك الاحتياط الجنوب أفريقي. حَلَفَ اليمينَ وزيرًا للمالية في أكتوبر عام 2018 – المترجم.

49

إفلاس بنك إنجلترا

ثمة خللٌ خطير فى الروايات التى تشرح انهيارَ الشيوعية وهبوط الاشتراكية، وصعود العَوْلمة globalization بوصفها مؤامرة شِرِّيرة دبّرتها قوى رأسماليةٌ متعدِّدةُ الجنسية ومتعدِّدةُ الأطراف، ضد حركات التحرير فى العالم الثالث Third World.

الخلل هو أن شبكة المال العَوْلمى لم يكن لديها أىُّ شىء متماسك سياسيًا يُسَمّى «مذهب الصّدْمة»[802] shock doctrine. فإذا كان هناك مالٌ يمكنه عمل ذلك، فقد أصاب حكومةُ المحافظين البريطانية بقدر ما أصاب الثوريين الاشتراكيين الجنوب أفريقيين. ولا شىء يوضح هذه النقطة أفضل من الأحداث التى وقعت فى لندن بعد ثمانية أشهر فقط من تخلِّى مانديلا عن التأميم فى دافوس [يناير 1992]. الشخص الذى غاب عن حضور المنتدى الاقتصادى العالمى فى ذلك العام هو مدير صندوق الاستثمار [المحفظة الوقائية] hedge fund جورج سُورَس George Soros، والذى لم يبدأ فى الحضور بانتظام حتى عام 1995. ورغم أن سُورَس وَضَعَ نفسَه على الطريق ليصبح أغنى رجال العالم، فبوصفه لنفسه بأنه «وسيطٌ استثمارىٌّ» صار شخصيةً غامضةً نسبيًا. لقد اشتهر سُورَس، فى سبتمبر عام 1992، بأنه الرجل الذى «أفلس بنكَ إنجلترا»، و[أخلّ ب] آلية سِعْر الصّرْف الأوربى[803]

---

[802] مذهب الصّدْمة أو صعود رأسمالية الكوارث: تعبيرٌ يُطْلَقُ على السياسات الاقتصادية النيوليبرالية كالخَصْخَصَة وتحرير التجارة وخَفْض الإنفاق الاجتماعى التى أطلقتها مدرسةُ شيكاغو فى الاقتصاد ومنظِّرُها مِلْتن فريدمان الأستاذ بقسم العلوم الاقتصادية بجامعة شيكاغو. تقوم نظرية فريدمان على استغلال الأزمات التى تمر بها المجتمعات - سواء كانت انقلابًا أم هجومًا إرهابيًا أم انهيارًا للسوق أم حربًا أم تسونامى - من أجل إحداث تغيير نيوليبرالى بفرض سياسات اقتصادية لم يكن يقبلها المجتمع لو كان فى حالته العادية. بدأ تأثير نظرية فريدمان فى السياسات الاقتصادية مع نهاية السبعينيات فى المملكة المتحدة والولايات المتحدة، ثم امتدّ إلى الدول الشيوعية. وفى عام 2009، أصدرت الكندية نِيومى كلاين كتابًا بعنوان The Shock Doctrine، تفَنِّدُ فيه نظريةَ مِلْتن فريدمان وتكشف الآثارَ المدمِّرة للعلاج بالصدمة على الشعوب. ظهر مصطلح «العلاج بالصدمة» فى سياق أبحاثٍ فى الطب النفسى بدَعْمٍ من وكالة الاستخبارات الأمريكية فى خمسينيات القرن العشرين - المترجم.

[803] آلية سعر الصّرْف الأوربى: نظام وضعته المجموعة الاقتصادية الأوربية فى عام 1979، بوصفه جزءًا من النظام النقدى الأوربى EMS ، للحدِّ من تقلبات أسعار الصّرْف وتحقيق الاستقرار النقدى فى أوربا، فى إطار التحضير لاتحاد اقتصادى ونقدى وعملة موحّدة هى

.[867](European Exchange Rate Mechanism (ERM

لم تكن الاشتراكيةُ وحدها عُرْضَةً للخطر أثناء نموّ الأسواق المالية العالمية بمعدّلات أكبر وأكثر تكاملا ً [واندماجًا] خلال عقديْ ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته. إن الجَمْع بين رَفْع القيود (وبخاصةٍ إلغاء سعر الصّرْف وضوابط رأس المال) والحَوْسبة (ولا سيما خلق تدفُّقات أسرع للمعلومات و الصفقات عبر الحدود)، يعنى أن أى مشروع سياسى يقوم على سيطرة هَرَميّة هو مشروع هَشٌ.

فكرة الوحدة الأوربية الجامعة - شأنها شأن فكرة أخويّة الطبقة العاملة العالمية - كانت لها جذورها فى القرن التاسع عشر. ولكن تطوّرَت الفكرةُ - بعد تجارب أواسط القرن العشرين المُحْيِطة - من حلم طوباوى إلى برنامج تكامل [اندماج] اقتصادي عملي[868].

بدأ تطبيق الفكرة بإنشاء «مجموعة» لتنظيم إنتاج وتسعير الفحم والصُلْب فى سِتٍّ دول أوربية هى: ألمانيا الغربية، فرنسا، إيطاليا، بلجيكا، هولندا، لوكسمبورج. ثم نشأ عن معاهدة روما Treaty of Rome عام 1957 المجموعةُ الاقتصادية الأوربية European Economic Community وتخفيضُ الرسوم الجمركية وتأسيسُ اتحاد جمركى بين هذه البلاد. فازدهرت التجارةُ بينها بسرعة قبل تشكيل المجموعة الاقتصادية الأوربية واستمر ازدهارها بعد تشكيلها، كما نَمَت التجارة العالمية بوجه عام. ولكن التكامل الاقتصادى نما ببطء فى نواحٍ أخرى. ففى مجال الزراعة، أعاق نموّ السوق المتكامل - بشكل إيجابى - استمرارُ أشكال الدعم الوطنى حتى حلّتْ محلّها السياسةُ الزراعية المشتركة[804] Common Agricultural Policy. وفى مجال التصنيع، استمرت الحكومات الوطنية أيضًا فى مقاومة المنافسة الأوربية الجامعة بدَعْم القطاعات الحسّاسة سياسيًا أو بفرض حواجز غير جمركية. ولم يتعرّضْ مجال الخدمات لمثل هذه الممارسات، وذلك لأن الخدمات أقل تداولا ً عبر الحدود الوطنية من السلع [والبضائع]. كان الاستثناءُ من هذه القاعدة الخدماتِ الماليةَ، التى تكاملت واندمجت بطريقة جديدة تمامًا خلال ستينيات القرن العشرين، ببَيْعِ سندات الشركات طويلة الأجل[805] وسندات

اليورو، وهو ما حَدَثَ يوم 1 يناير 1999 - المترجم.

[804]السياسة الزراعية المشتركة: تتكفل فى الاتحاد الأوربى بتوفير نظام دَعْم زراعى وغيره من البرامج. قُدِّمَتْ لأول مرة عام 1962، وخضعت لعدة تغييرات بعد انتقادات عديدة بسبب تكلفتها وآثارها البيئية والإنسانية - المترجم.

[805]سندات الشركات: سند صادر عن شركة لجمع التمويل لأسباب متنوعة مثل العمليات

القطاع العام لمستثمرين أثرياء نسبيًا[869].

وكان صعودُ ما يُسَمّى بسوق ال«يوروبوند» [سندات اليورو][806] Eurobond خطوةً مبكِّرة فى اتجاه العَوْلمة المالية financial globalization[870]. بل كان ميلاد اليوروبوند تقدُّمًا مفاجئًا كبيرًا فى تاريخ التكامل [والاندماج] الأوربى أيضًا، وهو ما لم يتوقعه - إلى حد كبير - رجالُ الدولة والتكنوقراطُ الذين صُوِّروا بوصفهم «قِدِّيسى» سنوات تكوين الاتحاد الأوربى European Union أو «آبائه المؤسِّسين»[871].

لقد كان نتيجةً تلقائيةً لإبداع فواعل القطاع الخاص ومُمَثِّليه، بقدرٍ من مساعدة السلطات النقدية البريطانية المُتساهِلة. وفى غضون سنوات قليلة، تحوّلَ تكوينُ هذا السوق وازدهارُه إلى سوق رأسمالى أوربى، صَاغَ روابطَ مؤسّسية جديدة تمامًا وشبكاتٍ جديدةً تمامًا عبر الحدود الوطنية، و المَصْرفيون هم الذين حققوا هذا وليس السياسيين. ولا شك فى أن دافعهم الرئيسي هو الربح.

ومع ذلك، لم يَعتبره مهندسو سوق اليوروبوند مجرد وسيلة لكسب المال فقط ، بل أداةً فعّالة لتعزيز التكامل السياسى فى أوربا. وعلى وجه الخصوص، قدّروا أن تكامل السوق الرأسمالى الأوربى سيُمَهّدُ الأرضَ لعضوية بريطانيا فى المجموعة الاقتصادية الأوربية. أما الفرنسيون فتخوّفوا من أن ينتهى بهم المطاف إلى دَعْم الجنيه الإسترلينى إذا انضمت بريطانيا إلى المجموعة ا لاقتصادية الأوربية EEC، إذ كان يُتَوقَّعُ أن تزيد العضويةُ ميزانَ مدفوعات المملكة المتحدة الضعيف سوءًا؛ وهو ما كان سببًا رئيسيًا لاعتراض الرئيس شارل ديجول Charles de Gaulle على عضوية بريطانيا فى عامىْ 1963 و 1967.

الحجة المضادة التى أوضحها بالتفصيل روّادُ سوق اليوروبوند أن الفرنسيين لا يمكنهم استبعاد بريطانيا إلى أجلٍ غير مُسمّى إذا أعادت لندن تأسيسَ نفسِها بوصفها مركزًا ماليًا للمُعامَلات فى أوربا بعُمْلات غير الجنيه الإ سترليني[872].

ما إن نجحت بريطانيا فى الانضمام إلى المجموعة الاقتصادية حتى بدأ

الجارية أو عمليات الاندماج والاستحواذ أو لتوسيع المشروعات، وينطبق المصطلح عادةً على أدوات الدّيْن طويل الأجل - المترجم.

[806]اليوروبوند: سندات اليورو هي سندات دولية صدرت لأول مرة عام 1963 - المترجم.

مَصْرفيون من أمثال زيجموند فاربورج[807] Siegmund Warburg - أحد مهندسى سوق اليوروبوند الرئيسيين - فى مناقشة إمكان التكامل النقدى، بدءًا بإنشاء وحدة حساب (واقترح أن تُسَمّى «عُمْلة اليورو» Euro moneta) تقوم على أساس سلة عُمْلات وطنية مختلفة[873].

أداء بريطانيا الاقتصادى تخلّلته، فيما بعد الحرب، أزماتُ الجنيه الإسترلينى المتكرّرة. ومَن فُضّلوا تكاملَ أوربا لأغراض الاستثمار والخدمات المالية اعتبروا الحاجةَ المتكرّرة إلى إعادة تنظيم العُمْلة أكثرَ من مجرد عائق مزعج. لقد بَدَتْ تقلُّباتُ أسعار الصّرْف عائقًا آخر على الطريق السريع نحو الوحدة الأ وربية.

كانت فكرةُ اتحاد نقدي أوربى، بحد ذاتها، نتاجَ شبكة مفكرين معظمُهم هولنديون وفرنسيون وألمان[808]. ولكن ثمة مفارقة معينة، ألا وهى أن شبكة المفكرين - وبعضُهم اقتصاديون أكاديميون وبعضُهم بيروقراطيون - صَمّمَتْ هذا المشروعَ الهَرَمىّ للغاية، بإنشاء بنك مركزى واحد للدول القومية غير المتجانسة التى شكّلت المجموعةُ الاقتصادية الأوربية. ويكمن التفسيرُ المهم لذلك المشروع فى تركيبة النُّخْبة الفرنسية الحاكمة، المترابطة معًا بعلاقات قوية: فكلُّهم تقريبًا تدرّبوا فى مدارس عُلْيا grandes écoles (وبخاصة مدرسة التكنولوجيا المتعدِّدة [الإيكول بوليتكنيك][809] École Polytechnique والمدرسة الوطنية للإدارة[810] (École Nationale d'Administration التى تُدِيرُها هيئاتٌ كبيرةٌ [فى الدولة] grands corps (التفتيش المالى Inspection des Finances، مجلس الدولة Conseil d'État، ديوان المحاسبة

---

[807]زيجموند فاربورج: (1902 - 1982)، مَصْرفى إنجليزى ألمانى وأحدُ أفراد عائلة فاربورج الشهيرة، لعب دورًا مهمًا في تطوير الأعمال المَصْرفية التجارية - المترجم.

[808]ستُنْشَرُ رسوماتٌ جرافيكية ل«شبكة الآباء المؤسِّسين» فى مجلد قادم بعنوان «آباء اليورو المؤسِّسون: أفراد وأفكار فى تاريخ الاتحاد النقدى الأوربى The Founding » Fathers of the Euro: Individuals and Ideas in the History European Monetary Union,تحرير: كينيث دايسن Kenneth Dyson وإيفو مايس Ivo Maes - المؤلف.

[809]مدرسة التكنولوجيا المتعدِّدة: تخضع لإشراف صارم من وزارة الدفاع الفرنسية، وتقبل طلبتَها من تلاميذ الأقسام التحضيرية فى المدارس الفرنسية العليا، بعد اجتيازهم اختبارات قبول دقيقة - المترجم.

[810]المدرسة الوطنية للإدارة: من أعرق المدارس العليا الفرنسية، ومن أكثرها نخبويةً. تقوم بانتخاب كبار المسؤولين الفرنسيين وتدريبهم، ولا بد أن يكون المُرشّحين للدراسة فيها من خريجي أفضل المدارس العليا في البلاد - المترجم.

Cour des Comptes، كور دي مين[811] Corps des Mines).

أما مَن اختاروا العملَ فى القطاع الخاص فظلوا مترابطين ترابطًا وثيقًا عبر شبكة الصداقة والتزاوج وعضوية النوادى مثل لوسييكل[812] Le Siècle و المحافل الماسونية، التى يرجع العديد منها إلى ما قبل الثورة الفرنسية French Revolution. ومنذ سبعينيات القرن العشرين، صار ما بين ثلث ونصف وزراء الحكومة الفرنسية أعضاءَ فى لوسييكل بغضّ النظر عن الا نتماء الحزبى، بذروة بلغت 72% فى حكومة إدوار بالادور Édouard Balladur (1993-1995).

ويضمن النظامُ المعروف باسم بونتوفلاج[813] pantouflage دورانَ «الباب الدوّار» للموظفين المدنيين داخل المجال المَصْرفى والصناعى وخارجه. ومن ثمّ، رُبِطَتْ شركاتُ القمة الأربعين معًا بنظام مجالس إدارة متشابك، يعمل معظمُ مديريه في أكثر من مجلس إدارة آخر[874].

وبالنسبة إلى ما يُسَمّى إينارك [خريجو المدرسة الوطنية للإدارة] énarques، كانت فكرةُ عُمْلة أوربية موحّدة جذّابةً بشكل لا يُقاوَمُ؛ ذلك أنهم رأوا فى إنشاء بنك مركزى أوربى طريقةً مؤسّسية لاحتواء تنامى هيمنة ألمانيا الا قتصادية. ذلكم هو السبب الجوهرى وراء معاهدة ماستريخت[814] Treaty of

---

[811]كور دى مين: هيئة فنية كبرى فى الدولة الفرنسية تضم مهندسى الدولة فى مجالات مختلفة، وترتبط بالوزارة الفرنسية المسؤولة عن الاقتصاد والصناعة والعمالة. تستهدف الهيئةُ اجتذابَ الطلبة الفرنسيين اللامعين فى الفيزياء والرياضيات لتدريبهم على الوظائف التنفيذية في الدولة - المترجم.

[812]لوسييكل: نادٍ اجتماعى للنُّخْبة الفرنسية، يجتمع أعضاؤه مرةً كل شهر لتناول العشاء فى نادى السيارات الفرنسى فى ساحة الكونكورد بباريس. أسّسه عام 1944 الصحفى و الماسوني الفرنسي جورج بيرارد كولين - المترجم.

[813]بونتوفلاج: مصطلح يشير إلى ممارسة يقوم بها الموظفون الحكوميون رفيعو المستوى للحصول على عمل فى مؤسسة خاصة. وهم عادةً ممن تدرّبوا فى مدرسة البوليتكنيك أو المدرسة الوطنية للإدارة. وفى السياقات الأمريكية، تُعْرَفُ هذه الممارسةُ ب«الباب الدوّار». وغالبًا ما ينظر الجمهورُ إليها بشكل سلبي - المترجم.

[814]معاهدة ماستريخت: هى الاتفاقية المؤسِّسة للاتحاد الأوربى، تمّ الاتفاق عليها فى مدينة ماستريخت الهولندية عام 1991، ووُقِّعَتْ يوم 7 فبراير عام 1992.

أدخلت المعاهدةُ عدةَ تغييرات على قوانين المجموعة الأوربية القائمة منذ نهاية الخمسينيات التى كانت تُشكِّلُ نواةَ الاتحاد الأوربى، وحسب البند 47 من المعاهدة فإن الا تحاد الأوربى يُكمِّلُ المجموعةَ الأوربية ولا يلغيها. شَكّلت المعاهدةُ أيضًا أساسَ الدستور الأ وربي الذي اتُفِقَ عليه لاحقًا عام 2004 - المترجم.

Maastricht.

ومن وجهة النظر الألمانية المتطلِّعة، الاتحاد النقدى هو الثمن الذى يَتعيّن دَفْعُه مقابل الموافقة الفرنسية على توحيد ألمانيا: فهو الدليل، كما قال المستشار الألمانى هيلموت كول Helmut Kohl أكثر من مرة، على أن قادة ألمانيا يضعون أوربا أولا ً، ثم ألمانيا ثانيًا.

ولدى بريطانيا نُخْبتُها الحاكمة أيضًا. فى ستينيات القرن العشرين، أشاع الصحفيان هنرى فيرلى Henry Fairlie وأنتونى سامبسُن Anthony Sampson الاسمَ المُزْدَرَى الذى أطلقه تايلور[815] A. J. P Taylor: «المؤسّسة»[816] The Establishment. ولكن الطبقة الحاكمة البريطانية، رغم ارتباط أفرادها معًا بروابط مدرسية قديمة وأوشحة من أوكسبريدج[817] Oxbridge، كان مقدارُ عدم تجانسها أكبرَ من نظيرتها الفرنسية.

ولا شىء يوضح ذلك أفضل إيضاح من حكومات تاتشر Thatcher فى ثمانينيات القرن العشرين: فبالإضافة إلى أن رئيسَ الوزراء امرأةٌ من مقاطعة لينكولنشاير[818] Lincolnshire (وإنْ حَمَلَتْ درجةً من أوكسفورد)، وُجِدَ فى

---

[815]ألان جون بيرسفال تايلور: (1906 - 1990)، أحد المؤرّخين البريطانيين المتخصصين في سرد الدبلوماسية البريطانية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

اشتهر بمحاضراته التلفزيونية التى جمع فيها بين الصرامة الأكاديمية والجاذبية الشعبية - المترجم.

[816]المؤسسة: تدل الكلمة على فعل التأسيس بمعنى خلق شىء وإيجاده وعلى نتيجة الفعل معًا. وتُطلَقُ على كل نظام سياسى اجتماعى اقتصادى قائم فى مكان ما بكل إيجابياته وسلبياته. ويدخل في نطاقها: نظام الدولة وأهل الحُكم، وطريقة الوصول إلى الحُكم سواء كانت مشروعة أم غير مشروعة، وسلطات الحُكم وضوابط هذه السلطات، والأحزاب القائمة إنْ وُجِدَتْ، ووسائل إجراء اللعبة السياسية سواء كانت مقبولة أم مرفوضة. تتميز المؤسسة باستقلاليتها عن العناصر الداخلة فى تكوينها، بمعنى أنها تضيف إليها شيئًا جديدًا لم يكن موجودًا فيها من قبل. فتُعَبّر المؤسسةُ عن إراداتٍ عِدّةٍ متجسِّدة فى إرادة واحدة وسلطةِ قرارٍ واحد، وتختلف فى هذا عن مفهوم العقد أو التعاقد. تنقسم «المؤسسة» إلى مجموعتين: مؤسسات مادية ملموسة، ومؤسسات معنوية مجردة كأنساق المعايير والقيم التى تنظِّمُ حياةَ جماعةٍ ما. توجد عِدّةٌ نظريات مختلفة لـ«المؤسسة» وفق المدارس والاتجاهات الفكرية - المترجم.

[817]أوكسبريدج: تُستَعْمَلُ الكلمة للإشارة إلى جامعتىْ أكسفورد وكمبريدج معًا فى مقابل الجامعات البريطانية الأخرى، من أجل تأكيد المكانة الاجتماعية والفكرية الأعلى التى تتمتع بها النُخْبَة التي تلقت التعليم في أي منهما - المترجم.

[818]لينكولنشاير: وتنطق أيضًا «لِنكَنْشِر». تقع فى شرق إنجلترا، ويغلب عليها الطابع الزراعى

مجلس وزرائها [الكابِنِتْ] cabinet ما يكفي من الوزراء ذوى خلفيات يهودية لإلهام النِّكات عن «الإستونيين القدماء»[819] Old Estonians.

كان زيجموند فاربورج ومَصْرِفه الاستثمارى S. G. Warburg & Co. (إلى جانب الفرع الأقدم لبنك ناثان ماير روتشيلد N. M. Rothschild)، حاضنًا لبعض ألمع التاتشريين، وكما قال هو فى عام 1972، من الواضح أنه «لا يمكن تصور وجود اتحاد اقتصادى ونقدي دون اتحاد سياسى. وأعتقد أن بيسمارك Bismarck كان يتحدث دائمًا عن «أوّلِيّة السياسة على الاقتصاد» das primat der politik ueber die wirtschaft، وهذا صحيح اليوم بقدر صِحّته فى عصره»[875].

ففى ثمانينيات القرن العشرين، كان المحافظون هم الذين لَبْرَنوا liberalized مدينةُ لندن وبَشّروا بإحياء الرأسمالية البريطانية. أيّدَ المحافظون التكاملَ التجارى الأوربى، بل هَنْدَسوا القانونَ الأوربى الموحّد Single European Act لتحرير التجارة عام 1986. ولكنهم اختلفوا في دعمهم للاتحاد النقدي.

وحتى آلية سعر الصّرْف الأوربى ERM اشتغلت، فى المرحلة الانتقالية، ضد رؤية تاتشر القائلة بأن الحكومات لا تستطيع «تحجيم السوق»[820]. وإلى جانب مثل هذه الاعتراضات الاقتصادية، وُجِدَ اعتراضٌ سياسى. فلا سياسيو حزب العُمّال أو حزب المحافظين أرادوا الانضمام إلى نظام يفرض عليهم إخضاع سياستهم فى الاقتصاد الكلى[821] macroeconomic policy للبنك الا تحادى الألمانى. ورغم أن الحرب العالمية الثانية قد انتهت قبل أربعة وثلاثين عامًا من انتقال تاتشر إلى [رقم] 10 داونِنْج ستريت [مقر إقامة رئيس الوزراء الرسمية فى لندن] 10 Downing Street، فإن ذكرى «الحرب» ماثلةٌ فى الأ ذهان. فأُجْبِرَ الوزيرُ نيكولاس ريدلى Nicholas Ridley، من حزب المحافظين،

- المترجم.

[819] الإستونيون القدماء: مجموعة عِرْقية فنلندية تتحدث اللغة الإستونية، استوطنوا منطقة إستونيا بعد تراجع بحيرة الجليد البلطيقية لأول مرة منذ عشرة آلاف سنة. تقع جمهورية إستونيا الحالية في منطقة بحر البلطيق شمال أوربا - المترجم.

[820] فى خطاب حول «مبادئ التاتشرية The Principles of Thatcherism»، أُلقى فى سيول Seoul يوم 3 سبتمبر عام 1992، عبّرَتْ تاتشر عن رأيها بإيجاز قائلةً: «إذا كنتَ بالتحكّم المصطنع فى أسعار الصّرْف بين الدول تحاول تحجيمَ السوق، فسرعان ما ستكتشف أن السوق يحجمك، وبقوة» - المؤلف.

[821] سياسة الاقتصاد الكلى: يتم تنفيذها عادةً من خلال مجموعتين من الأدوات، مالية ونقدية، لتحقيق استقرار الاقتصاد - المترجم.

على الاستقالة فى يوليو عام 1990 لقوْله بصوتٍ عالٍ ما يعتقده الكثيرون فى سريرة أنفسهم: مشروع الاتحاد النقدى «ابتزازٌ [واحتيال] ألمانى، صُمِّمَ للسيطرة على أوربا بأسرها». وتُزَوِّدُ مجلةُ سِبِكْتيتَر[822] Spectator المحاورةَ التى ظهر فيها هذا السطرُ برسم كاريكاتورى لريدلى وهو ينتزع شارب هتلر ويضعه على وَجْه كول [هيلموت كول المستشار الألماني حينئذٍ].

ثم بحلول أواسط ثمانينيات القرن العشرين، ضَغَطَ محافظُ بنك إنجلترا Bank of England واتحادُ الصناعة البريطانية Confederation of British Industry (CBI)، كلاهما، على بريطانيا للانضمام إلى آلية سعر الصّرْف الأوربى ERM. بل اعتقد وزيرُ المالية نايجل لوسن Nigel Lawson اعتقادًا جازمًا بأن «السعى وراء» المارك الألمانى يعنى سعيًا ضمنيًا وراء رَفْع سعر الصّرْف. وفى يوليو عام 1989، عندما هَدّدَ لوسن ووزير خارجية تاتشر جيفرى هاو Geoffrey Howe، كلاهما، بالاستقالة إذا لم تنضم بريطانيا إلى آلية سعر الصّرْف الأوربى، وافقت تاتشر فى النهاية من حيث المبدأ، وأرجأت الانضمامَ الفعلى حتى أكتوبر عام 1990. عند هذه المرحلة، تحمّسَ مؤيّدو آلية سعر الصّرْف الأوربى غاية الحماس للمُضىّ قُدُمًا، خشيةَ أن تُغيّرَ تاتشر رأيَها، ذلك أنه لم توجد دراسةٌ جادة لسعر الصّرْف المركزى فى الوقت الذى كانت ستندرج فيه بريطانيا ضمن نظام آلية سعر الصّرْف الأوربى، وهو سعر رأى بعضُ «المتشكِّكين فى اليورو» أنه أعلى فى القيمة (2.95 مارك ألمانى مقابل الجنيه). ولم يكن تنازل تاتشر هذا، كافيًا لإنقاذها.

ففى يوم 28 نوفمبر عام 1990، حلّ محلّها وزيرُ خارجيتها جون ميجور John Major، عقب انقلاب داخل حزب المحافظين قادَه المؤيّدون لأوربا.

استخفّ ميجور وأنصارُه بِعَزْم نظرائهم الأوربيين على الإسراع باتحاد نقدى بل وسياسى. فاقترحوا إعادةَ تسمية الكيان نفسه ب«الاتحاد الأوربى» European Union وصياغةَ معاهدة تأسيس جديدة والتوقيع عليها. وذَكَرَ لاحقًا وزيرُ الخارجية البريطانى نورمان لَمونت Norman Lamont قائلاً بهَلَعٍ واضح: «أثناء مفاوضات معاهدة ماستريخت، سمعتُ للمرة الأولى السياسيين الأوربيين يتناقشون بصراحة وحماسة من أجل إنشاء دولة أوربية»[876].

ولم يكن ميجور متحمسًا. كتَبَ فى وقت لاحق قائلاً: «لم أكن أرغب فى رؤية عُمْلة موحّدة». «كما لم أكن أودُّ الآثارَ السياسية الناتجة عن اتحاد نقدى»[877]. اتخذ ميجور قرارًا بأن بريطانيا ينبغى أن تُوَقِّعَ على معاهدة

---

[822]سِبِكْتيتَر أو المُشاهِد: مجلة بريطانية أسبوعية عن السياسة والثقافة والشؤون الجارية - المترجم.

ماستريخت، وإلا سيَستَعْدِى أوربا القارية بل وعُصبْة المؤيّدين لها داخل حزبه المحافظين، ولكنه استرضاءً للمُتشككّين فى اليورو سيُصِرُّ على انسحاب بريطانيا من العملة الموحّدة والفصل الاجتماعي[823] [878] Social Chapter.

كانت المخاطرُ السياسية عاليةً. واضطر ميجور إلى مواجهة انتخابات عامة فى أبريل عام 1992. لقد فَهِمَ مفاوضو ماستريخت الآخرون هذا، ولكنهم شعروا بالاستياء عندما عَرَضَ ميجور ولَمونت - كما قال لَمونت - «وثيقةً طويلة تفصيلية ودقيقة، بصورة قانونية كاملة، تُحدِّدُ كلّ بنود المعاهدة التى لن تُطبّقَ على المملكة المتحدة، فأغلقا البابَ أمام أي تفسيرات بديلة»[879].

لقد رفض لَمونت وميجور بكل بساطة التفاوض: إما أن تقبل الدول الأخرى إعفاء بريطانيا أو لن تُوَقِّعَ بريطانيا. وقد آتتْ هذه الصرامةُ ثمارَها فى الوطن. مانشيت جريدة ديلى تليجراف Daily Telegraph يعلن: «نُوّاب الحزب الثُورى [حزب المحافظين] في المجلس يهتفون لنجاح ميجور في ماستريخت»[880].

ووُقِّعَت المعاهدةُ الجديدة يوم 7 فبراير عام 1992. أنجز الفرنسيون وَعْدَهم بعُمْلة واحدة؛ ويستطيعون العَيْش بدون عضوية بريطانيا، ودون الدنماركيين الذين تحَقّقَ لهم أيضًا خيارُ عدم المشاركة، وتأهّبوا لألمانيا الجديدة المتضخِّمة التى أُغْلِقَ فى وجهها الباب. وبعد شهرين فقط، حققَ ميجور بصعوبة نصرًا محدودًا (وغير متوقّع إلى حد كبير) في الانتخابات البريطانية.

بذلك صار نظامُ آلية سعر الصّرْف الأوربى ERM منزلاً فى منتصف الطريق بين التعويم الحُرّ لأسعار الصّرْف والعُمْلة الموحّدة التى لم تنضم إليها كلُّ البلا د المُشاركة عندما بدأ العمل بها بعد سبع سنوات منذ ذلك التاريخ. وكان الأمر كذلك بالنسبة إلى البنوك المركزية الوطنية الاثنى عشر للحفاظ على عُمْلاتها الخاصة ضمن نطاقات أو قيود تجارية متفق عليها. ثم بحلول أغسطس عام 1992، أيقظ مأزقُ العديدِ من أعضاء آلية سعر الصّرْف الأوربى الشكوكَ فيما إذا كان يمكنهم فعل بذلك. ففى هذا الوقت، بدأت العواقب الاقتصادية لتوحيد ألمانيا تجعلهم يُجَرّبون بأنفسهم. فإعطاء الألمان الشرقيين هديةً لمِّ الشَمْل مرة واحدة، سيُحوّلُ «ماركاتهم الشرقية» إلى ماركات ألمانية غربية أقوى بكثير بنسبة واحد لواحد. وكانت النتيجةُ زيادةَ القوة الشرائية لألمانيا الشرقية وإفاقة النقود الألمانية من سَكّتتها الدماغية، فى الوقت الذى كانت فيه معظمُ الصناعة الألمانية الشرقية غيرَ تنافسية بطريقة تدعو إلى اليأس[881]. فكان لا بد من استثمارات ضخمة فى ألمانيا الشرقية لجَعْل بنيتها

---

[823] الفصل الاجتماعى: بروتوكول فى نهاية معاهدة ماستريخت يضع أهدافًا سياسية اجتماعية لتحسين ظروف المعيشة والعمل، ورَفَضَ جون ميجور التوقيعَ عليه - المترجم.

التحتية الصناعية مطابقةً للمعايير الغربية، وكذلك مدفوعات البطالة الكبيرة وغيرها من أشكال النقل من الغرب إلى الشرق. فكانت النتيجةُ اندفاعًا قويًا نحو الاستثمار والإنفاق الحكومى، مُوِّلَ الكثيرُ منه بالاقتراض. وهو ما أدّى بدوره إلى ارتفاع الأسعار والأجور الألمانية.

وقد خَقّفَ خطرُ التضخم الألماني من الصراع بين أدوار البنك الاتحادى الألمانى Bundesbank المحلية وأدواره الأوربية. يتمثل دوره المحلى فى مسؤوليته القانونية بوصفه الحامى لقوة المارك الألماني الشرائية؛ وأما دوره الأوربى فهو كوْنه المرتكز الواقعى لآلية سعر الصّرْف الأوربى. استجاب البنك الاتحادى الألمانى، وهو يواجه التضخُّمَ الألمانى، لطفرة الوحدة [الألمانية] برَفْع أسعار الفائدة الأساسية التى يُقْرِضُ بها البنوكَ الألمانية. فمن حضيض ما قبل الوحدة البالغ 2.5%، ارتفع معدّلُ الخصم[824] discount rate بخطوات مدروسة إلى ذروته البالغة 8.75% في أغسطس عام 1992.

وبات من الواضح قِلّةُ اهتمام البنك الاتحادى الألمانى بدوره الأوربى بوصفه مرتكز آلية سعر الصّرْف الأوربى. وهى أنباء سيئة للأعضاء الآخرين فى نظام آلية سعر الصّرْف الأوربى. فألغت معظمُ الدول الأعضاء، بما فيها المملكة المتحدة وفرنسا وإيطاليا، جميعَ القيود على التدفّقات المالية عبر حدودها بحلول عام 1990. إذا لم ترفع [هذه الدول] أسعار الفائدة أيضًا، فسينتقل رأسُ المال المتحرّك إلى ألمانيا بحثًا عن عوائد أعلى. والمشكلة أن المملكة المتحدة وفرنسا وإيطاليا لم تتمتع بزيادة، مقارنةً بألمانيا. فكانت اقتصاداتهم تهبط و البطالة ترتفع.

بل عانت بريطانيا من ركود في عام 1991.

توفّرَ مُحفّزٌ أزمةٍ فى يوم 2 يونيو عام 1992، عندما رفض الناخبون الدنماركيون - فى استفتاءٍ - معاهدةَ ماستريخت بشكل غير متوقع[882]. وفى الأول من يوليو، أعلن الرئيس فرانسوا ميتِران François Mitterrand أن استفتاءً فرنسيًا سيجرى يوم 20 سبتمبر[883]. وإذا رفض الفرنسيون، أيضًا، ماستريخت فستكون المعاهدةُ الجديدة فى حُكْم الميتة[884]. سرعان ما أشارت استطلاعات الرأي إلى احتمال حدوث ذلك فعلاً[885].

---

[824]معدل الخصم: هو المعدل المستخدم لقياس القيمة الحالية للتدفقات النقدية المستقبلية. ومن المفترض أن يعكس معدلُ الخصم معدلَ العائد المنتظر أو المتوقع الحصول عليه مقابل الاستثمار فى نشاط ما. ويُقدّرُ معدلُ الخصم عادة بقياس تكلفة الفرصة البديلة للتدفقات النقدية المُتخلى عنها فى الوقت الحالى مقابل الحصول على تدفقات نقدية مستقبلية - المترجم.

وكان هذا اللايقين السياسى بمثابة أنباء سيئة بالنسبة إلى بريطانيا. لقد اختار جون ميجور الخروج من العُمْلة الموحّدة، ولكنه استثمر قدرًا كبيرًا من الرأسمال السياسى فى ماستريخت. وعلاوة على ذلك، كان ميجور وزيرًا للمالية حين اختارت بريطانيا الدخولَ فى نظام آلية سِعْر الصّرْف الأوربى. وآخِرُ شىء يريده، بلا شك، تعليقَ التزامه على تثبيت العُمْلة. ألقى ميجور ولَمونت، كلاهما، خُطَبًا يستنكران فيها أيّ احتمال لتخفيض قيمة العُمْلة[886]. فلم يتلقيا دعمًا لموقفهما فى فرانكفورت يُخَفِّفُ قلقهما. وفى أربع مناسبات فى صيف عام 1992، أبدى موظفو البنك الاتحادى الألمانى تعليقات انتقاصية بشأن العُمْلات الأخرى، فى نظام آلية سِعْر الصّرْف الأوربى، تناقلتها الصحافة[887].

وفى يوم 10 يونيو، أجرى رئيسُ البنك الاتحادى الألمانى، هيلموت شليزنجر Helmut Schlesinger، مقابلةً تحدّثَ فيها صراحةً عن إعادة تنظيم [تخطيط] محتملة لعُمْلات نظام آلية سعر الصّرْف الأوربى قبل الانتقال النهائى إلى اتحاد نقدي[888].

واحتجّ ميجور ولَمونت على المستشار [الألمانى] كول، ولكن دون جدوى[889]. وفى يوم 16 يوليو، فى حفل استقبال صيفى فى 10 داونِنْج ستريت [مقر رئاسة الوزراء البريطانية]، وفيما بعد على عشاء استضافته جريدة صنداى تايمز Sunday Times، أكّدَ ميجور بمزيج من «التمنِّى والتبجُّح» أنه فى غضون خَمْس أو عشر سنوات، «سيصبح الجنيه الإسترلينى من بين أقوى العُمْلات في العالم، وربما أقوى من المارك الألماني»[890].

وفى اليوم التالى، رفع البنك الاتحادى الألمانى معدّله فى الخَصْم، وهى خطوة مشروعة للحدِّ من التضخُّم الألمانى؛ وفى الوقت نفسه صَرّحَ المتحدثُ باسم البنك الاتحادى الألمانى («بشكل لا يُصَدّقُ» كما قال لَمونت) بأن «قوى السوق ربما تُجْبِرُ العُمْلات الأضعف على تخفيض قيمتها فى النهاية»[891].

وفى يوم 26 أغسطس، سعى لَمونت، وهو على بُعْد خطوات من مبنى وزارة المالية فى الوايتهول، إلى إزالة أى «ذَرّة شكٍّ فى الجنيه» فتعهّدَ ب«فعل كل ما هو ضرورى» للحفاظ على موقف الجنيه الإسترلينى أو تعلو قيمته بما يعادل 2.778 مارك ألماني وفق نظام آلية سعر الصّرْف الأوربي[892].

بعد ظهر ذلك اليوم، دعا إيان بلندرليث Ian Plenderleith، مدير بنك إنجلترا Bank of England المسؤول عن الأسواق النقدية، كبارَ المسؤولين فى البنوك

الأربعة الكبيرة إلى شارع ثردنيدل[825] Threadneedle Street لكشف النقاب عن خطة دَعْم الجنيه الإسترليني بإقراض أكثر من 7.25 مليار جنيه بعُمْلات أجنبية، وبخاصة المارك الألماني (خطة أُعْلِنَ عنها على الملأ بعد ثمانية أيام)[893].

وفي وقت لاحق من اليوم نفسه، أعرب لَمونت عن قلقه من أن عضوًا في مجلس إدارة البنك الاتحادي الألماني اعتقد أن هناك «احتمالاً لإعادة التنظيم ضمن نظام آلية سعر الصرّف الأوروبي»[894]. وبعد أربعة أيام، حصلت رويترز Reuters على نسخة سابقة من خطاب مسؤول البنك الاتحادي الألماني نُصّ فيه على أن إعادة تنظيم آلية سعر الصرّف الأوروبي قد أُجِّلَتْ لأربع سنوات ل«أسباب اللياقة»، مما يعني أنها لا يمكن أن تُؤجّل لفترة أطول[895].

كان واضحًا لدى السياسيين البريطانيين، المُفْعمين بذكريات شَعْبوية من أربعينيات القرن العشرين، مَن الخَصْمُ: الألمان[896]. في الأسبوع الأول من سبتمبر، لعب لَمونت دورَ المُضيف في اجتماع وزراء المالية الأوروبيين في باث[826] Bath. وقرّرَ لَمونت - وقد امتلأ بعبق أصالة المكان الإنجليزية - أن يضع شليزنجر [رئيس البنك الاتحادي الألماني] تحت أقصى ضغط. وغضب شليزنجر مهتاجًا من «سَرْسَعة» لَمونت فهدّدَ بالخروج، واضطر وزير المالية الألماني تيو فايجل Theo Waigel أن يُثْنيَه عن عَزْمه[897].

وعند مرحلة ما، تذمّرَ شليزنجر قائلاً: «لم يحدث أبدًا في تاريخ البنك الاتحادي الألماني أنْ تعرّضنا لضغط كبير كالذي تُمَارسُه علينا الآن»[898]. (فعَلّقَ لَمونت ساخرًا: «ربما لم يَعِش الحياةَ كلّها»)[899].

في نهاية الاجتماع، وبينما كان يَهِمُّ الوزراءُ بالمغادرة، ثأرَ شليزنجر [من سخرية لَمونت] بأنْ قدّمَ لزوجته عُلْبَةَ تقديمٍ تحتوي على ثلاثين ماركًا ألمانيًا من الفضة. (ذكر لَمونت فيما بعد قائلاً: «عليّ أن أعترف بأن عباراتٍ غير لطيفة عن الماركات الثلاثين الفضية تردّدَتْ أصداؤها في ذهني»)[900].

استمرت الحربُ الكلامية لمدة أسبوع تالٍ، فعارَضَ شليزنجر، بشكل قاطع، تلميحَ لَمونت بأن خَفّضَ سعر الفائدة الألمانية بات وشيكًا[901]. وفي يوم 15 سبتمبر، أجرى رئيسُ البنك الاتحادي الألماني مقابلةً مع جريدة مالٍ ألمانية هي هانْدِلسبلات Handelsblatt، قال فيها إنه «لا يَستبعد احتمالَ تعرُّض عُمْلة

---

[825] أحد تسعة شوارع في لندن تلتقي عند بنك إنجلترا - المترجم.

[826] باث: إحدى أهم المدن السياحية البريطانية، وتقع في جنوب غرب إنجلترا. تشتهر بحماماتها الاستجمامية والعلاجية. وفيها الموقع الأثري ستونهنج المُدْرَج ضمن قائمة التراث العالمي بمنظمة اليونسكو - المترجم.

أو عُمْلتين للضغط قبل الاستفتاء فى فرنسا، حتى بعد إعادة التنظيم وخَفْضِ أسعار الفائدة الألمانية»[902].

التعليق المنشور بوصفه حديثًا غير مباشر سرعان ما نُشِرَ على الإنترنت، لأن شليزنجر أصَرّ على تفضيل الاقتباسات المباشرة. وأصرّ ميجور على استدعاء شليزنجر من على مائدة العشاء كى يَتنصّلَ من التقرير [الصحفى]، فكانت النتيجةُ الوحيدة تصريحًا رسميًا من البنك الاتحادى الألمانى بأن النص لم يكن «مُرخّصًا»[903].

ولكن لُمونت بتوبيخه الألمان اكتسب العدوّ الخطأ. فبحلول يوم 10 سبتمبر، توصّلَ الألمانُ إلى شروط ضرورة إعادة تنظيم عامة داخل آلية سعر الصّرْف ا لأوربى، مع خَفْضِ سعر الفائدة الألمانى. لكن هذه الرسالة لم تصل إلى الحكومة البريطانية، وذلك لأن وزير المالية الفرنسى جون كلود تريشيه J ean - Claude Trichet حُدِّدَ له (على ما يبدو) تجنُّب إعادة التنظيم هذه أساسًا، قبل وقت قصير من الاستفتاء الفرنسي على ماستريخت.

الأغلب أن ما بدا عَرْضًا متاحًا، كان بالنسبة إلى بريطانيا، وكذلك إيطاليا، تخفيضًا لقيمة العُمْلة، وهو خيار رَفَضَه ميجور، رغم أنه عندما تقدّمَ الإ يطاليون، وحدهم، زادَ الضغطُ على الجنيه الإسترلينى فقط[904]. ولم تكن عُمْلا ت آلية سعر الصّرْف الأوربى، فقط، تحت الضغط ذلك الصيف. ففى يوم 8 سبتمبر عَوّمَتْ فنلندا عُمْلَتَها التى انخفضت على الفور 14%. وفى اليوم التالى، رفع البنكُ المركزى السويدى سعرَه بين عشية وضحاها إلى 75% لدَرْءِ خَفْضِ قيمة العُمْلة. ثم ارتفع السعر لاحقًا إلى 500% قبل استسلامه فى النهاية[905].

أما الدولار الذى تميّزَ بأسعار فائدة أمريكية قصيرة الأجل فى أدنى مستوياتها لمدة ثلاثين عامًا، فكان يقترب أيضًا من المارك الألمانى ذى العائد المرتفع. وعندما عَلّقَ كبيرُ موظّفى البيت الأبيض على الموقف قائلا ً «نحن فى وضع يائس، تحت رحمة الأسواق»، كان أقربَ إلى الحقيقة من نظرائه فى داونِنْج ستريت[906].

لم يكن المؤشّرُ الحقيقى ما قاله شليزنجر بحد ذاته، بل كيف رَدّتْ الأسواقُ على كلماته. وقد أبدى أحد موظفى بنك إنجلترا الملاحظة الآتية: «لم يرَ الجيل الحالى فى البنك شيئًا كهذا من قبل». «إنه كما لو كان انهيارًا ثلجيًا فى الطريق إلينا»[907].

عَقِبَ الأزمة، سَلّطتْ وسائلُ الإعلام البريطانية الضوءَ على فكرة أن رجلا ً واحدًا هو الذى أفْلَسَ بنكَ إنجلترا: جورج سُورَس George Soros. وهو ما يُعَدُّ تفويتًا لما أراده تقريبًا ميجور ولُمونت عندما ألقيا باللائمة على رجل آخر

هو هيلموت شليزنجر[827].

الأفراد لا يَتسبَّبون فى الأزمات المالية، بل يُسَبِّبُها القطيعُ، كما فَهِمَ سُورَس. وُلِدَ سُورَس فى المجر، وفَرَّ لاجئًا من النازية، وتخرّجَ فى مدرسة لندن للاقتصاد London School of Economics، ثم أسّسَ صندوقَ الكوانتم[828] Quantum Fund وصناديق استثمار أخرى، تشاركية، بدأت بحوالى 5 مليون دولار فى عام 1969، وبلغت حوالى 5 مليار دولار فى عام 1992، من خلال مراهنات مالية[829] كبيرة ذات عوامل ربْح متكافئة.

لقد عرف سُورَس جيدًا أن نظام أسعار الصّرْف الثابتة سيقع تحت ضغط إذا وُجِدَتْ فروقٌ كبيرة وثابتة فى أداء الدول الأعضاء الاقتصادى. ولكنه كان يعرف أيضًا أن مجموعته الاستثمارية وصناديق الاستثمار الأخرى، المرتبطة بها، إذا راهنت بما يكفى من القوة ضد عُمْلة ما، فستهبط قيمتُها بغضِّ النظر عن «الأصول» الاقتصادية. لقد اعتقد سُورَس، بفخرٍ غير تقليدى فى مقاربته للاقتصاد، أن «الانعكاسية» reflexivity تلعب دورًا رئيسيًا فى الأسواق المالية. وكما قال في كلمة ألقاها في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا عام 1994:

«الانعكاسيةُ فى حقيقة أمرها آليةٌ لردود الفعل ذاتُ اتجاهين، حيث يساعد الواقعُ على تشكيل تفكير المُشاركين، ويساعد تفكيرُ المُشاركين على تشكيل الواقع»[908].

النقطة الحاسمة أن سُورَس بمفرده لم يكن ليستطيع عمل ذلك. نَوّه ذات مرة قائلاً: «فى معظم الأحيان، أَتبَعُ التيارَ، بل أُدْرِكُ طول الوقت أنى عضو فى مجموع، وكلِّى انتباهٌ ويقظةٌ لنقاط الانقلاب... وفى معظم الوقت يتغلب التيارُ؛ وأحيانًا فقط تُصحّحُ الأخطاءُ. وفى بعض اللحظات فقط ينبغى للمرء

---

[827] اشتكى ميجور بمرارة من أن البنك الاتحادى الألمانى حارب المُضاربين ضد الفرنك «بطريقة لم تحدث فى حالة الجنيه الإسترلينى». فبالإضافة إلى تسهيل التدخُّل الهائل، «اشتركت فرنسا وألمانيا فى التصريح بأن تغييرات سعر الصّرْف لم تكن مُبرّرة»، وهو ما طلبت المملكةُ المتحدة إيضاحَه ولكنها لم تتلقّ ردًا. وكما أشارت الإيكونومِست Economistبشكل صحيح، لم يكن الفرنك - بأى مقياس مالى ذى صلة - عُرْضَةً للانخفاض مثل الجنيه. بل كان أقلّ من الجنيه الذي كانت قيمته مرتفعة - المؤلف.

[828] صندوق الكوانتم: مجموعة استثمارية لإدارة الأصول أسّسها سورس مع آخرين عام 1973، وهى المجموعة الاستثمارية المسؤولة عن خفض قيمة الجنيه الإسترلينى فى اليوم الذي انهار فيه بنك إنجلترا، المشهور بيوم «الأربعاء الأسود» - المترجم.

[829] المراهنة المالية: مراهنة على ارتفاع سعر أداة مالية فى وقت لاحق مقارنةً بسعرها الحالي - المترجم.

أن يمضي عكس التيار... [ليكون] على رأس المنحنى»[909].

وكما رأينا، بلغت أصولُ مجموعة الكوانتم التى يُديرها خمسةُ مليارات دولار عام 1992. أما الاحتياطى الدولى لبنك إنجلترا الذى يبلغ 44 مليار دولار - وهو أكبر ثمانية أضعاف تقريبًا - فيَنْضاف إليه احتياطى أى بنوك مركزية أخرى عُضْوة فى نظام آلية سعر الصّرْف الأوربى اختارت التدخُّلَ إلى جانب بريطانيا. لو لعب سُورَس ضد بنك إنجلترا بمفرده لَكان خسر. ومن ناحية أخرى، قَدّرَ الاحتياطيُّ الفيدرالى Federal Reserve أن قيمة التداول اليومى فى أسواق الصّرْف الأجنبى العالمية قد زاد من 58 مليار دولار عام 1986 إلى 167 مليار دولار عام 1992 [910] وعلى حدِّ تعبير الإيكونومِست Economist:

«احتياطى الخزانة البريطانية المُطَمْئِنُ، على ما يبدو، لم يكن شيئًا مقارنةً بقوة لهب السماسرة»[911]. ومن ثمّ، مفتاح أعمال سُورَس الرئيسى هو الحصول على كتلة مستثمرين حَرجَة ليزيد بها سعرَ التجارة نفسها التى ينتويها. ولم يكن ذلك بالعمل الصعب، لأن سُورَس جزء من شبكة مستثمرين مماثلين له في التفكير.



ستان درُكينمِلر وجورج سُورَس

وفى حقيقة الأمر، مَن ساعد سُورَس وشريكه ستان درُكينمِلر Stan Druckenmiller على تدبير التجارة هو روبرت جونسن Robert Johnson مدير بنك بانكِرز ترَست Bankers Trust[912].

فكما أوضح جونسن، النقطةُ الحَرِجَة هى أن عُمْلات آلية سعر الصّرْف الأوربى تبقى داخل نطاقات ضيقة نسبيًا: لم يكن من الممكن رَفْع قيم العُمْلات على المارك مهما حدث، فإذا باع السماسرةُ الجنيهَ قصير الأجل[830] وخسروه فلن يخسروا الكثير. وإذا راهنوا وربحوا فسيتأهّبون للفوز بصفقة كبيرة: خَمّنَ جونسن أن نقص القيمة يمكن أن يبلغ 20%[913].

كانت هذه المناقشة لتحقيق أقصى قدر من الالتزام. ومن المؤكد أن درُكينمِلر اقتنع بأن الجنيه ستنخفض قيمته، ولكنه تردّدَ فى المقدار الذى يُراهِنُ به. فردّ سُورَس بهدوء: «لو أنك أردت هذا... فَلْتذهبْ إلى أقصى مدى [اقطع عِرْق وسَيّح دمه]»: اقتراض أكبر قدر ممكن بالجنيه قصير الأجل[914].

---

830 بخصوص العُمْلة قصيرة الأجل [البيع المكشوف]، أنت تقترض هذه العملةَ من خلال وسيط، ثم تبيعها بسعرها الجارى، فتستدين المالَ من أجل بَيْعه. وإذا هبط سعرُ الصّرْف فى وقت لاحق، فستشترى القدرَ نفسَه من العُمْلة بالسعر الجديد المنخفض وتُعيده إلى الوسيط. الفرق بين السعر الأعلى الذى استدنت به من أجل بَيْع العملة والسعر الأقل الذى دفعته لشرائها هو ربْحُك. أما إذا ارتفعت قيمة العُمْلة فستضطر إلى دَفْع القدر الذى اقترضته بالسعر الجديد الأعلى لإعادته إلى الوسيط، ومن ثم تخسر المال - المؤلف.

ورغم كل شىء - كما قال سُورَس - «كانت العلاقة بين المخاطرة والمكافأة مُبشِّرة للغاية»، فلماذا يتراجعون عن ذلك؟[915] بروح الإثارة العالية هذه، بدأ سُورَس ودرُكينمِلِر يقترضان أقصى ما يمكنهما الحصول عليه من الجنيهات ليقوما بأكبر مراهنة في حياتهما المهنية.

ولكن النقطة الرئيسية - كما أشار جونسن - أنهما لم يُراهِنا بمفردهما: «خرجتُ من هناك ولا شك عندى إطلاقًا فى أننا كنا نمضى إلى ما هو أبعد، فأنا أعرف أن آخرين في البنوك، ومِن أمثالنا، سيُقلِّدوننا»[916].

وكما صارت كلماتُ شليزنجر «غير المأذون بتداولها» منذ ظهر الثلاثاء السابق علنيةً يوم الأربعاء، 16 سبتمبر، تصَاعَدَ البَيْعُ المكشوف[831] Short Selling للجنيه.

وقد عبّرَ لَمونت، وهو ينتظر بقلق للتحدُث مع رئيس الوزراء، عن أسفه لكوْننا «نخسر مئات الملايين من الدولارات كل بضع دقائق». وحاول بنك إنجلترا عَبَثًا إيقاف التدفُّق[917].

فى الساعة الحادية عشر صباحًا، أعلن البنك أن الحد الأدنى لسعر الإقراض سيرتفع إلى 12%. وبعد ما يزيد قليلا ً عن ثلاث ساعات رُفِعَ السعرُ إلى 15%، ولكن اعتبارًا من اليوم التالى. ولم يكن من شأن مثل هذه الإجراءات المُتهوِّرة سوى تحريض سُورَس[918].

وحين أعلن لَمونت أنه سيقترض 15 مليار دولار إضافية للدفاع عن الجنيه الإسترلينى، كان سُورَس «يضحك لأن هذا المقدار هو ما كُنّا نريد بَيْعَه»[919]. ولكن سُورَس لم يصل إلى هذا الحدِّ؛ إذ وصل إلى ما يقرب من 10 مليار دولار عند وقت الإغلاق. فى ذلك المساء، وبينما كان رُوّادُ المسرح (وكنتُ مِن بينهم) يستمتعون بمشاهدة أوبرا فيردى «قوة القدر» Verdi’s The Force of Destiny فى دار الأوبرا الوطنية الإنجليزية English National Opera، دعا لَمونت إلى مؤتمر مُرْتجَل فى فناء وزارة المالية الرئيسى ليعلن أن المملكة المتحدة «عَلّقتْ» مشاركتَها فى نظام آلية سعر الصّرْف الأوربى[920]. وعلى الرغم من تخفيض قيمة الليرة [الإيطالية] الرسمية فى وقت سابق داخل آلية سعر الصّرْف الأوربى، استُبْعِدَت الليرةُ أيضًا فى اليوم نفسه[921].

---

[831]البَيْع المكشوف، أو البَيْع الفارغ: بَيْع ورقة مالية قبل تملُكها بهدف شرائها لاحقًا بقيمة أقل، وعندئذٍ يكون الربح هو الفرق بين سعر البَيْع المكشوف وسعر الشراء بعد خصم الفائدة التى يدفعها المستثمر نظير اقتراض الورقة المالية فى الفترة ما بين البَيْع والشراء. تُستخدَمُ سياسةُ البَيْع المكشوف إذا توقّعَ المستثمرُ هبوطَ سعر ورقة مالية كسهم تجارى أو سند فى المستقبل القريب، وهى سياسة معاكسة لسياسة الشراء بغرض الربح من ارتفاع ا لأسعار في المستقبل القريب الذي يُسَمّى long selling - المترجم.

لقد ادّعَى مُنَظِّرو المؤامرة أن جورج سُورَس محورٌ فى شبكة قوية وكبيرة. فطبقًا لتفسير يحبس الأنفاس، سُورَس «هو الوجه المرئى لشبكة مصالح م الية خاصة سِرّية، هائلة وشريرة، تسيطر عليها عائلاتُ أوربا االمَلَكية الأ رستقراطية الرائدة، مركزها بريطانيا.

بيت وِنْدسور[832] House of Windsor... شُيِّدَتْ على حُطَام الإمبراطورية البريطانية بعد الحرب العالمية الثانية». ويُزْعَمُ أن هذه الشبكة تمتد من الملكة Queen وآل روتشيلد، وصولا ً إلى «سمسار المعادن والسلع الأساسية المُتّهم الهارب مارك ريتش Marc Rich من بلدة زُوجْ Zug بسويسرا، ومُوَزّع الأسلحة والسلع السرّى الإسرائيلى شول أيزنبرج Shaul Eisenberg، وضابط الموساد القذر رافي إيتَن Dirty Rafi Eytan[922].

وهذا كله هُرَاء. الشبكةُ الحقيقية التى ينتمى إليها سُورَس - «الشبكة الا قتصادية الأكبر والأعقد» التى أشار إليها فى مقابلة صحفية - هى شبكة صناديق الاستثمار التي تسعى إلى كسب المال بطرق متماثلة[923].

وكما ذكر درُكينمِلر: «لقد سعينا فعلا ً إلى ذلك، ونواصل السعى والسعى مثل أرنب إنرجايزر Energizer bunny... لذا، أيٌّ شخص لديه عقل سيسأل سمسارَه: ما الذى يحدث بحق الجحيم؟ وأنا أعرف أن الناس يتكلمون. إنها مجموعة الكوانتم». فى بعض الحالات - ولا سيما [صندوق استثمار] لويس بيكَن Louis Bacon - تَبَادَلَ سورس ودرُكينمِلر معلومات عبر الهاتف.

وشارك مديرو صندوق استثمارات آخرون فى أعمالٍ شملت بروس كوفنر Bruce Kovner مؤسِّس ورئيس كاكستن Caxton، وبول تيودر جونز Paul Tudor Jones. لم يكن تواردُ الخواطر telepathy ضروريًا.

نَتَجَ اتساعُ نطاق البَيْع المكشوف عن جهود البنوك التى كانت تُقْرِضُ صناديقَ الاستثمار الأموالَ[924] أدار دُنكان بالسبَو Duncan Balsbaugh مكتبَ تداول

---

[832]بيت وندسور: الاسم الأصلى «زاكس - كوبورج - جوتا»، سلالة من أصل جرمانى تحكم فى بريطانيا. ذلك أن ملكة بريطانيا فيكتوريا تزوجت من أحد أقربائها، الأمير ألبرت من بيت زاكس - كوبورج - جوتا، الذى حكمت أسرته دوقية سكسونيا فى ألمانيا، وأسفر زواجهما عن تسعة أبناء حملوا لقب زاكس - كوبورج - جوتا. وأول مَن حمل هذا اللقب فى بريطانيا الملك إدوارد السابع الذى اعتلى العرش عام 1901. ثم تغيّر الاسم الأصلى إلى لقب «وِندسور» فى عام 1917، بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى التى صارت فيها بريطانيا فى مواجهة مباشرة مع ألمانيا. ونظرًا لما شكلته الدلالات الجرمانية من حرج مع تنامى الشعور القومى البريطانى ضد الألمان، صدر مرسوم خاص وقّعَه الملك جورج الخامس اتخذت بمقتضاه العائلة لقب «وِندسور»، وهو اسم أحد القصور التى أقامت فيها العائلة - المترجم.

الدخل الثابت لصالح مورجان ستانلى Morgan Stanley فى لندن. وكما ذكر لاحقًا، يعنى طلبُ سُورَس للاستثمار أنه «جُنِّدَ للمساعدة فى مؤامرة الا نقضاض على امرأة مُسِنّة - سيدة شارع ثردنيدل العجوز Old Lady of Threadneedle Street، المعروفة باسم «بنك إنجلترا».

«خَزّنَ» سُورَس كلّ مقتنياته تقريبًا من السندات الأوربية بوصفها ضمانًا للحصول على النقد الذى كان يقترضه للبَيْع المكشوف فى السوق الفورى spot market[833] وبالإضافة إلى تمويله، «نحن وراء سُورَس كظِلِّه» على حدِّ تعبير بالسبَو. وذَكرَ أيضًا أنه وُجِدَ «سلاحُ فرسان خلف مبيعات الجنيه (وغالبًا تشغيل أمامى[834]) فى مجموعة الكوانتم: صناديق استثمار مثل تيودر Tudor ، وبيكَن Bacon، وكوفنر Kovner، ناهيك عن حشد من بنوك مُقْرضة... هَرَسَتْ كلُّها الجنيه»[925].

واتَّبَعَتْ بنوكٌ أخرى مبادرةَ صناديق الاستثمار، مثل: سيتيكورب Citicorp، مورجان J. P. Morgan، كيميكال بانكِنج Chemical Banking، بانكِرز ترَست Bankers Trust، تشيس مانهاتن Chase Manhattan، فِرست شيكاغو First Chicago، بنك أمريكا Bank America[926]. فلم يكن لدى السيدة العجوز [بنك إنجلترا] أيُّ فرصة.

لقد كان اغتصابًا ماليًا جماعيًا.

الانخفاضُ الحادُّ فى قيمة الجنيه البالغ 15% الذى أعقب الاستسلام البريطانى فى يوم «الأربعاء الأسود» Black Wednesday حَوّلَ سُورَس إلى كمٍّ هائلٍ من الأموال[835]. وقد اعترف سُورَس، فى مقابلة مع صحفى جريدة التايمز أناتولى كالِتسكى Anatole Kaletsky - «بجفول إحراجى لم يستطع أن يُخْفِى تمامًا نوعًا من الارتياح النفسى المزعج» - بأن صناديقه الأربعة حققت حوالى مليار دولار من البَيْع المكشوف؛ وأن أرباحه من مجموعة توابع

---

[833] السوق الفورى أو السوق النقدى: هو سوق مالى لتداول الأدوات أو السلع المالية بطريقة التسليم الفوري - المترجم

[834] التشغيل الأمامى :frontrunning بمعنى تعامُل صُنّاع السوق مع المعلومات التى يقدمها وسطاؤهم ومُحَلِّلو الاستثمار قبل تزويد عملائهم بها - المترجم.

[835] لم تصبح مراهنةُ سُورَس معرفةً عامة حتى يوم 24 أكتوبر، عندما نشرت صحيفة ديلى ميل Daily Mail مقالةً بعنوان «حققتُ مليارًا بانهيار الجنيه I Made a Billion as the Pound Crashed.» ومع القصة التى نشرتها الجريدة صورةُ سُورَس مبتسمًا ومُمْسِكًا بكأس فى يده. الصخب الذى أعقب ذلك على عتبة مقر إقامة سُورَس فى لندن دفعه إلى سرد روايته للأحداث لأناتولي كالِتسكي - Anatole Kaletsky المؤلف.

[مالية] أخرى، مثل سعر الفائدة الآجل[836]. interest rate futures والبَيْع المكشوف لليرة الإيطالية، كان مليار دولار آخر[927].

فيما بعد، زعم سُورَس أن نهاية الجنيه الإسترلينى كانت «ستحدث بالطريقة نفسها تقريبًا حتى إذا لم أُولد أنا»[928]. والحق إن سُورَس يتحمل نظريًا المسؤولية عن 10 مليار دولار من إجمالى خسارة الاحتياطيات البريطانية البالغة 27 مليار دولار[929].

ولكن الحقيقة أن المجهود الجماعى الذى بذلته شبكة سُورَس هو الذى أدّى إلى انهيار ثبات السعر. وكما قال سُورَس لكالِتسكى، كان ذلك «أحدَ أكبر العوامل فى السوق»، ولكن ليس السوق كله. لقد اتّبَعَ سُورَس التيارَ[930]. وهو ما يمكن أن يحدث بالسهولة نفسها التى حَدَثَ بها، بدونه: «لأننى إنْ لم أقم بهذا الدور، فشخصٌ آخر كان سيقوم به»[931].

فازتْ شبكةُ سُورَس. فمَن خَسِرَ؟ قَدّرت وزارةُ مالية المملكة المتحدة تكلفةَ «ا لأربعاء الأسود» عام 1997 ب3.4 مليار جنيه إسترلينى، ثم بعد ثمانى سنوات صُحِّحَ الرقمُ لينخفض إلى 3.3 مليار جنيه إسترلينى. وقَدِّرَتْ خسائرُ بنك إنجلترا التجارية فى أغسطس وسبتمبر ب 800 مليون جنيه إسترلينى، ولكن ارتفعت الخسارة الرئيسية لدافعى الضرائب لأن انخفاض قيمة العُمْلة جعلهم يُحقِّقون ربحًا بطريقة ما[932].

الإضرار بسُمْعة البنك هو الذى استمر وقتًا أطول، رغم كوْنه آخر تنظيم هَرَمى يمكن أن يجعله ينهار ما أطلق عليه الصحفىُّ الأمريكى توم فريدمان Tom Friedman اسم «القطيع الإلكترونى». ومن ناحية أخرى، عَمِلَ انهيارُ ثبات سعر المارك الألمانى على إنقاذ اقتصاد المملكة المتحدة. خُفِّضَتْ بسرعة أسعارُ الفائدة قصيرة الأجل، بحيث كانت بحلول يناير عام 1993 أقلّ من 6%، هُدْنة مريحة لدولةٍ تعرّضتْ بقوة لتعديل سعر القروض العقارية. تعَافَى الا قتصادُ[933].

لم تكن الكارثةُ اقتصاديةً بل سياسية: زادت فجيعةُ الحكومة، سواء انضمت إلى نظام آلية سعر الصّرْف الأوربى أم لا، فى المقام الأول، تصريحاتُها المتصلِّبةُ خلال صيف عام 1992 بأنها ستدافع عن الجنيه حتى النهاية، ثم استسلامُها الأخير المُهين يوم 16 سبتمبر - كلٌ ذلك دَمّرَ بصورة دائمة سُمْعةَ حزب المحافظين من حيث الكفاءة الاقتصادية[934].

---

[836] سعر الفائدة الآجل: عقد آجِلٌ يتضمن أداةً [مالية] أساسية تدفع الفائدةَ. ويسمح سعر الفائدة الآجل للمشترى والبائع بإغلاق سعر الأصل حامل الفائدة بتاريخ مستقبلى - المترجم.

لم يتعافَ موقفُ حكومة ميجور فى استطلاعات الرأى، وفى الأول من مايو عام 1997 - ورغم أربع سنوات من النمو المزدهر - انهزم الثُّوريون المنهارون على أيدى حزب العمل الذى جُدِّدَ بقيادة تونى بلير Tony Blair باتِّباع نموذج نِلسُن مانديلا، فتخلَّى عن «المِلكية العامة لوسائل الإنتاج» بوصفها هدفًا جوهريًا في سياسته العامة.

وأما بالنسبة إلى مشروع التكامل الأوربى، فقد حَدَثَ شىءٌ مثير للدهشة. استخلص بعضُ الاقتصاديين الأمريكيين من هزيمة آلية سعر الصّرْف الأوربى أن المُضىّ قدمًا - نحو اتحاد نقدى كامل - سيكون وَصْفةً لكارثة اقتصادية، وربما لصراع أوربى أيضًا. لم تكن هذه وجهة نظر جورج سُورَس. قال سُورَس إن «النجاة الوحيدة»:

هى عدم وجود نظام سعر صرف إطلاقًا، بل عُمْلة واحدة فى أوربا، كما فى الولايات المتحدة. فهذا من شأنه أن يضع السماسرة من أمثالى خارج البيزنس ، ولكنى سأكون مسرورًا لقيامى بهذه التضحية... أتوقع فترةً من الاضطراب الهائل فى أوربا الشرقية، وهذه الفوضى خارج البوابات ستدفع بقوةٍ نحو الا تحاد الأوربي.

القومية فى الشرق قوية جدًا الآن، إلى درجة أنها الشىء الوحيد الذى تواجهه أوربا الموحّدة [وتتغلب عليه]. وإذا لم تتعايش أوربا معًا فسوف تستنسخ الحربُ معظمَ الاتحاد السوفييتي السابق.

وعندما سُئِلَ عن إخلاص الألمان للمارك الألمانى، أجاب: «إذا تمّ التصديق على ماستريخت، فسأضاربُ ضد البنك الاتحادي الألماني»[935].

استنتجت جريدةُ الإيكونومِست أيضًا أن أزمة آلية سعر الصّرْف الأوربى كانت حجةً للاتحاد النقدى بدلا ً من أن تكون ضده[936]. وهكذا، استنتج المُنتصِرُ فى أزمة عام 1992 الاستنتاجَ الخاطئ منها. قادةُ أوربا القارية سيحرثون فعلا ً، وبلا هوادة، أرضَ الاتحاد النقدى، بحيث صار اليورو مع بداية عام 1999 حقيقةً واقعةً، عُمْلةً أوربيةً واحدة يديرها البنك المركزى الأ وربى European Central Bank الفيدرالى. وبفعلهم هذا، كشفوا عن إيمانهم الراسخ بقوة الأبنية الهَرَميّة حتى فى عصر تكاثر الشبكات المتسارع. فى عام 1992، امتلك جورج سُورَس الأحراش، ولكن الأحراشَ امتلكت السياسيين. وفى السنوات التى تلت عام 1999، الشىءُ الوحيد الذى تَغَيّرَ أن الأحراش نَمَتْ بسرعة أكبر وأكثف، وبلا تسامح أكبر مع بُناة الهرم المُتحجِّرين.

VIII

القسم الثامن

مكتبة بابل

50

2001/11/9

يبدو القرنُ الحادى والعشرون، على نحو متزايد، وكأنه تنفيذٌ لقصة خورخى لويس بورخيس القصيرة «مكتبة بابل» Jorge Luis Borges's The Library of Babel.

يتخيّلُ بورخيس فى قصته وجود مكتبة تحوى كلّ الكتب المكتوبة من قبل وكلّ الكتب التى من الممكن كتابتها. ومع وجود معلومات لا نهائية تحت تصرُّف الرجال، نجدهم يتأرجحون بسرعة من النشوة [الشعور بالخِفّة و النشاط] إلى الجنون. فبعضهم يقع أسيرَ «إعجاب تنسُّكى صحى» ل«التخلص من الأعمال غير المُجْدية»، الأمر الذى يؤدِّى إلى «إهلاك ملايين الكتب بلا معنى». وآخرون يبحثون عن الكتاب الواحد الذى يحتوى على «الصيغة والخلاصة الوافية الكاملة لكل الكتب الأخرى»، أو يبحثون عن أمين المكتبة الذى قرأ ذلك الكتاب، فصار «مثيل الإله». فى بعض أجزاء المكتبة الواسعة، «ينبطح الرجالُ أمام الكتب ويُقبِّلون صفحاتها بطريقة همجية، ولكنهم لا يعرفون كيف يفكّون شفرةَ حرف واحد». وفى أجزاء أخرى، «أوبئة ونزاعات هرطقية وارتحالات تنحطُّ حتمًا إلى قطع الطرق، أهلَكتْ معظمَ السكان»[937]. يبدو عالمُ القرن الحادي والعشرين وكأنه تحققٌ هائل لرؤية بورخيس.

الحدث الذى عَرّفَ سنوات هذا القرن الأولى كان هجومًا على شبكات المال و النقل فى الولايات المتحدة بوَساطة مجموعة شباب مسلمين من الأفضل فَهْمها بوصفها شبكةً مُعادية للمجتمع. ورغم تسمية مُخطِّطى 11 سبتمبر باسم «القاعدة»، فقد كانوا ضعيفى الصلة بشبكة الإسلام السياسى الأوسع، الأمر الذي يساعد على إيضاح السبب في أنهم استطاعوا الإفلاتَ من كشْف أمرهم.

لقد وُجِدَتْ عبقريةٌ شريرةٌ وراء ما فعله المُهاجِمون فى 11 سبتمبر عام 2001. فقد استهدفوا، أساسًا، محاورَ المجتمع الشّبَكى الرئيسية، المتزايدة فى أمريكا، مستغلين نقاطَ الضعف الأمنية التى أتاحت لهم تهريبَ أسلحة بدائية (قواطع حادة) على أربع طائرات رُكاب متجهة إلى نيويورك وواشنطن، العُقدتَين الرئيسيتين - على التوالى - للأنظمة المالية والسياسية فى الولايات المتحدة. وباختطاف الطائرات، والاستيلاء على مراكز التحكّم، ثم التحليق بها مباشرةً إلى مركز التجارة العالمى World Trade Center والبنتاجون Pentagon، حققَ نشطاءُ القاعدة أكبرَ انقلاب فى تاريخ الإرهاب. فهم لم يكتفوا بتوليد جَوٍّ من الخوف فى الولايات المتحدة استمر لعدّة أشهر؛ بل الأهم أنهم عجّلوا باستجابة غير تماثلية من إدارة الرئيس جورج بوش George W. Bush التى فعلت الكثير بكل تأكيد - تقريبًا - على مدى السنوات التالية

لتقوية قضية الإسلام السلفي Salafist Islam، وليس إضعافها.

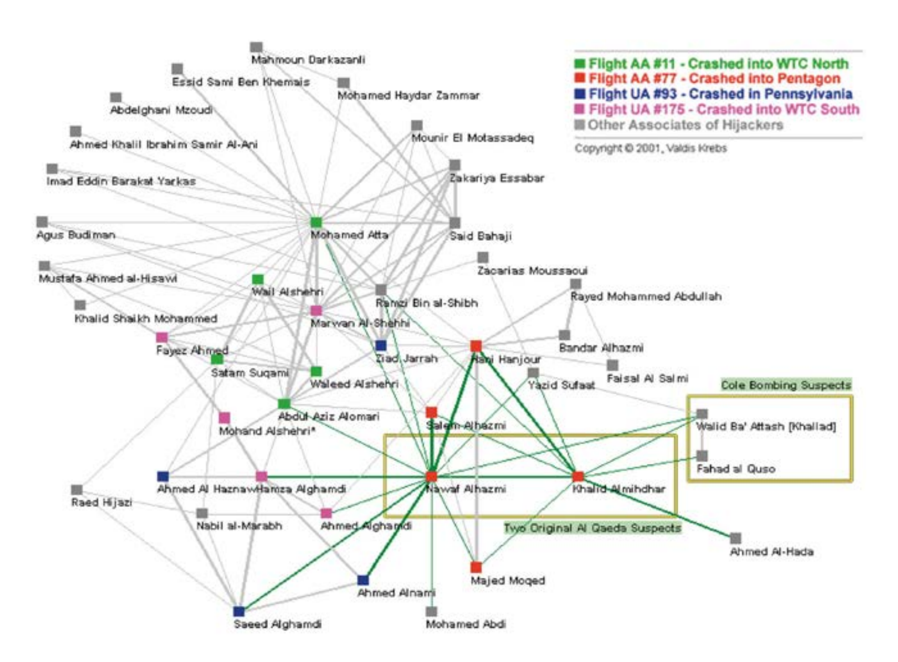
بَدَا نظامُ النقل الجوى والنظامُ المالى هدفين مثاليين لهجمات من هذا النوع. إذ نما كلاهما بشكل أعقد مما كانا عليه فى الماضى القريب. ولعب كلاهما دورًا حاسمًا فى عملية العَوْلمة التى نُظِرَ إليها على نطاق واسع، بحلول عام 2000، من جانب اليساريين وكذلك الإسلاميين، بوصفها تجسيدًا جديدًا للإمبريالية الأمريكية[938].

كان لدى المُهاجِمين أيضًا سببٌ وجيه للأمل فى أنه بتدمير مثل هذه العُقد المهمة، وفى الوقت نفسه توليد ذُعْرٍ عام، ربما يخلقون اضطرابًا متتاليًا [تسلسليًا] يمتد إلى شبكات أخرى[939].

المُهاجِمون أنفسُهم شكّلوا شبكةً. وقد بَيّنَ فالديس كريبس Valdis Krebs مستشار كليفلاند Cleveland [مدينة فى ولاية أوهايو] الذى عمل على نفقته وبمفرده فى أعقاب الهجمات مباشرةً، واستخدم بَرْمجيةً تُسمّى إنفلو InFlow مُصَمّمة لتحليل شبكات الشركات - بَيّنَ أن محمد عطا[837] هو العُقْدَة الحاسمة في شبكة 9/11 (انظر اللوحة الاتية).

---

[837]محمد عطا: (1968 - 11 سبتمبر 2001)، مصرى. مُخطِط هجمات 11 سبتمبر، وأكبر المنفِّذين سنًا (33)، مسؤول عن ارتطام طائرة الرحلة رقم 11 بالبرج الشمالى لمركز التجارة العالمي - المترجم.



عطا هو الذى كان على اتصال بستة عشر من الخاطفين التسعة عشر، وكذلك بخمسة عشر شخصًا آخرين متصلين بهم. ومن بين كل أعضاء الشبكة، حاز عطا أعلى تمَرْكُزيّة بَيْنية، وكذلك النشاط الأعلى (عدد المرات التى اتصل فيها بآخرين) والقُرْب (قدرته على الاتصال المباشر بآخرين دون وسيط).

أما نواف الحازمى[838] Nawaf Alhazmi، أحد مختطفى طائرة الرحلة 77 الأمريكية، فجاء فى المرتبة الثانية بعد عطا من حيث التَمَرْكُزيّة البَيْنية، وهو ما يشير إلى أنه ربما كان أحدَ مُخطِّطى العملية. ولو اعتُقِلَ عطا بطريقة ما، قبل 9/11، فقد كان من السهل على مروان الشحى[839] Shehhi-Marwan Al أن يتولى دورَه القيادي[940].

وما لاحظه كريبس أن السمةَ المميزة لشبكة 9/11 افتقارُها إلى روابط اجتماعية بالعالم الأوسع. فأفراد المجموعة متلاحمون، وتدرّبَ الكثيرُ منهم معًا فى أفغانستان، فكان المتآمرون بلا روابط ضعيفة كالتى تُمَيّزُ الشبكات الاجتماعية العادية. وعلاوةً على ذلك، لم يتواصل المُخطِّطون فيما بينهم بعد وصولهم إلى الولايات المتحدة: كانوا شبكةً متناثرة، باتصالاتٍ حافظوا على أن تكون فى حدِّها الأدنى. وبهذا المعنى، شبكتهم هى فعلا ً شبكة مُعادية

---

[838]نواف الحازمى: (1976 - 11 سبتمبر 2001)، سعودى. مسؤول عن ارتطام طائرة الرحلة 77 بمبنى البنتاجون - المترجم.

[839]مروان الشحى: (1978 - 11 سبتمبر 2001)، من دولة الإمارات العربية المتحدة. أصغر الطيارين الأربعة فى هجمات 11 سبتمبر، مسؤول عن ارتطام طائرة الرحلة رقم 175 بالبرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي - المترجم.

للمجتمع: غير مرئية، كما ينبغى للشبكات السرّية حين تريد تجنُّب اكتشاف أمرها[941].

بالنسبة إلى كريبس، اتضح بإدراك متأخِّرٍ ما الذى كان يحدث. لكن هل رُصِدَتْ الشبكةُ سابقًا؟ يقول كريبس: «للفوز فى هذه المعركة ضد الإرهاب، يجب على الأخيار بناء شبكةِ تبادُلِ معلومات وتكوين معرفة أفضل من الأشرار»[942]. وقد وُجِدَتْ بالفعل شبكةٌ من هذا النوع فى عام 2001، على هيئةِ مشروعٍ تابع للجيش يُسَمّى إيبول دِنجَر[840] Able Danger، سعى إلى رسم خريطة ل «القاعدة» ب«تحديد الروابط والأساليب من خلال كمٍّ بيانات ضخم». تتمثل ا لإشكالية فى أنه بسبب مشكلة «كيفن بيكن»[841] Kevin Bacon - التى تشير إلى وجود أقل من سِتِّ درجات انفصال بين كل شخص فى الولايات المتحدة - ارتفعت أعدادُ الأشخاص الذين حُدِّدوا بوصفهم إرهابيين محتملين إلى مئات الآلاف إنْ لم يكن ملايين[943]. لقد بلغ طول بعض الرسومات البيانية للشبكة التى صَمّمتها هيئةُ إيبول دِنجَر عشرين قدمًا، فضلا ً عن عدم وضوحها بسبب صِغَر الحجم عند الطباعة[944]. وخلص كريبس نفسه إلى أنه لا بديل عن العنصر البشرى الاستخباراتى فى الحرب على الإرهاب؛ عدا ذلك لن يكون هناك سوى غَرَقٍ في بيانات ضخمة[945].

فى أعقاب هجمات 9/11، وبينما كان يَخِفُّ الرعبُ تدريجيًا، بدأ بعض متخصِّصى علوم الشبكة فى القول بأن القاعدة شبكة ضعيفة للغاية. فبسبب طابعها السرّى ومُعاداتها للمجتمع لا يمكنها تجنيد أشخاص جُدُدٍ وتدريبهم بسهولة[946].

كان كلُّ شىء يتيح القول بأن قوة القاعدة تكمن - نوعًا ما - فى لامركزيتها[947]، لكن إذا لم يستطع أسامة بن لادن Osama bin Laden إصدارَ أمْرٍ بهجومٍ كبيرٍ ثانٍ على الولايات المتحدة، فما الفائدة من وجود هيكل شَبَكى من هذا النوع؟

---

[840]إيبول دِنجَر: هيئة سرّية للتخطيط العسكرى بإمْرة قيادة العمليات الخاصة الأمريكية ووكالة استخبارات الدفاع، أُنشِئتْ فى أكتوبر عام 1999 بتوجيه من رئيس هيئة الأركان المشتركة هيو شيلتن، بغرض تفعيل عمليات جمع المعلومات عن الإرهاب الدولى. وخلص تحقيقٌ أجرته لجنةُ الاستخبارات بمجلس الشيوخ الأمريكى إلى أن إيبول دِنجَرْ لم تستطع تحديد محمد عطا ولا أىٍّ من العناصر المشتركة فى تنفيذ هجمات 9/11 قبل التنفيذ - المترجم.

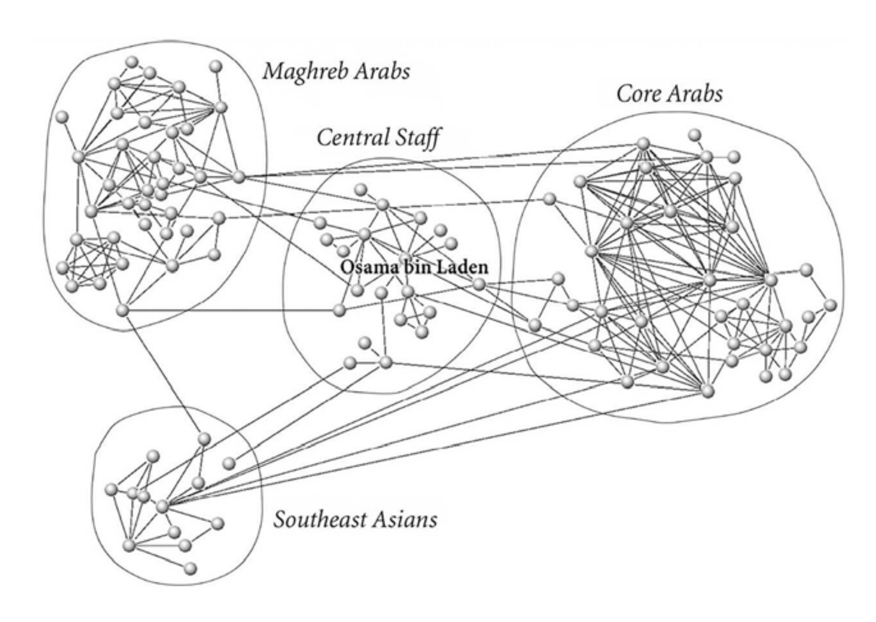
[841]مشكلة كيفن بيكن: لعبة اخترعها أربعة طلاب من كلية أولبرايت عُرِفَتْ باسم «سِتّ درجات كيفن بيكن» على اسم الممثل الشهير كيفن بيكن، وأصدر مبتكروها كتابًا يحمل العنوان نفسه بتقديم الممثل كيفن بيكن (مفهوم سِتّ درجات انفصال وتاريخه مشروحٌ سابقًا) - المترجم.

.[948]

وما دامت قد عُزِلَتْ قيادةُ القاعدة فى مكان ما داخل باكستان - بعد الغزو الأ مريكى لأفغانستان والإطاحة بنظام طالبان - فكل المطلوب هو تعقُّبه وقَطْع رأس التنظيم[949].

عَقَدَ بعضُ العلماء مقارناتٍ بشبكات إجرامية سرّية، مثل شبكة كافيار Caviar network وعصابة تهريب الحشيش والكوكايين فى مونتريال تسعينيات القرن العشرين، رغم ملاحظتهم وجود مركزية أكبر فى الشبكات الإجرامية مقارنةً بالشبكة الإرهابية[950]. يكمن الفرق الأهم بينهما فى أن العصابات الإ جرامية لم تُوحِّدْها أيديولوجيةٌ مشتركة بالطريقة التى وَحّدَتْ أعضاءَ «القاعدة». ورغم عدم اتصال مُهاجِمى 9/11 بالشبكة السلفية الأوسع، فقد انتموا إليها فكريًا، وكانوا مستعدين للموت فى سبيل إيمانهم الدينى. وبكلمات أخرى، كانت توجد شبكةٌ جهادية أكبر بكثير، وكان تنظيمُ القاعدة داخلها مُكوِّنًا ضعيف الاتصال للغاية. تألفتْ تلك الشبكة الأوسع من رجال التقوا بوصفهم مجاهدين وترابطوا معًا أثناء الحرب السوفييتية الأفغانية: أعضاء الجماعة الإسلامية جنوب شرق آسيا؛ والأنصار فى التجمُّعات العربية في أوربا والشرق الأوسط[951].

ما وجده القادةُ الغربيون مُحيِّرًا أن «حربهم على الإرهاب»، الانتقامية، اقتضت تركيزًا محدودًا على أولئك الإسلاميين الذين شاركوا بأنفسهم فى العنف، فقط. وهو ما يعنى التغافلَ عن أن شبكاتِ الإرهابيين النُشَطاء الصغيرة مُضَمّنةٌ فى شبكات أشخاص أكبر بكثير تعاطفوا مع الإرهابيين دون الانخراط فى العنف بأنفسهم[952]. الشباب لا يصبحون إرهابيين لمجرد نزوة. فهم يحتاجون إلى تعَرُّضٍ مستمر لوَعْظٍ متطرف وإلى التورُّط فى شَرَكِ شبكةِ نشاطٍ سلفيٍّ[953].



الشكل رقم: 37 - الشبكة السلفية العالمية، 2004: مُخطّط تقريبي.

عندما تُهاجِمُ شبكةٌ مُوزّعةٌ تسلسلا ً هَرَميًا، يَرُدُّ التسلسلُ الهَرَمى بطرق تتناسب معه بطبيعة الحال. فى أعقاب هجمات 9/11 مباشرةً، اتخذ الرئيسُ جورج دبليو بوش George W. Bush وأعضاء رئيسيون فى إدارته، مسؤولون عن الأمن القومى، سلسلةً قراراتٍ غير محسوبة، جعلت الشبكةَ الإسلامية تنمو. لقد حَثّ الرئيسُ - وهذا صحيح - على ارتجال خطة سريعة للإطاحة بنظام الحُكم فى أفغانستان لإيوائه القاعدة. ثم أقنعه نائبُه ديك تشينى Dick Cheney ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد Donald Rumsfeld - وهذا خاطئ - بأن الهجمات أوجدت ذريعةً لتدخُّل عسكرى ثانٍ، للإطاحة بصدام حسين فى العراق[842]، رغم غياب الدليل على وجود علاقة سببية بين العراق وهجمات 9/11.

وفى الوقت نفسه، أنشأ بوش وزارةً جديدة للأمن الداخلى Department of Homeland Security لمكافحة أى هجمات مستقبلية على الولايات المتحدة. وكتَبَ جون أركويلا John Arquilla فى جريدة لوس أنجلوس تايمز Los Angeles Times أوائل أغسطس 2002، قبل اتضاح أن العراق سيتم غزوه، مشيرًا بصراحة إلى مساوئ هذا النهج:

فى حربٍ شبكيةٍ، كالتى نجد أنفسَنا فيها الآن، لا يعنى القصفُ الإستراتيجى

[842] فى يوم الهجمات نفسه، قال رامسفيلد إن «ردّ الولايات المتحدة سيدرس مجموعةً واسعة من الخيارات والإمكانات. وقال الوزير إن ميوله كانت ضَرْبَ صدام حسين فى الوقت نفسه، وليس أسامة بن لادن فقط» - المؤلف.

شيئًا، فمعظم الشبكات لا تعتمد على قائد عظيم أو حتى عدة قادة كبار لدَعْمها وتوجيهها... و[إنشاء] وزارة أمن داخلي على مستوى الكابِنِتْ... هي زلّةٌ كبيرة ثانية. التسلسلُ الهَرَمي أداةٌ خرقاء عند مواجهة شبكة رشيقة: الشبكات تحارب الشبكات، والدبابات تحارب الدبابات كما كان يحدث في الحروب السابقة... الشبكة التي نحتاجها لا يمكن تشكيلها أو دَعْمها بتعليقات قَسْرِية مُفادها أنك «معنا» أو «ضدنا»[954].

وهو ما يعني درجةَ تشاؤم عالية بخصوص ما سيتحقق من الأمن القومي. من بين 109 مؤامرة معروفة بروابطها الجهادية لاستخدام العنف ضد الوطن الأمريكي بين يناير عام 1993 وفبراير عام 2016، تُقِّدَتْ ثلاثُ عشرة فقط، وذلك بفضل الدمج بين المراقبة والمعلومات الواردة من المخبرين[955]. ومع ذلك، كان أركويلا على حق في ناحية واحدة. في أواخر عام 2001، بدا تنظيمُ القاعدة يشبه جمعيةً سرّية من طراز قديم، اضطرت إلى العمل بوصفها شبكة مُعادية للمجتمع، وتستطيع القيام بأعمال عنف مذهلة ولو عَرَضيًا فقط. ولكن بعد غزو العراق بقيادة أمريكية، تطوّرت توابعُ التنظيم في العراق فصارت شبكةً أكبر وأكثر تأثيرًا، لأنها استغلت الفوضى التي أعقبت الإطاحةَ بنظام صدام الهَرَمي الوحشي فهَيّجَتْ صراعًا طائفيًا. وكانت النتيجةُ تمردًا دمويًا يستطيع أيُّ شخص على معرفة بتاريخ العراق التنبُّؤَ به بسهولة. (وقد حَلّ بالمحتلين البريطانيين في عام 1920 شيءٌ مماثل تمامًا). لقد تطلّبَ الأمرُ من العسكرية الأمريكية عِدّةَ سنوات مُحْبِطة كي تتعلّم متأخرًا جدًا الدروسَ التي تعلّمها والتر ووكر ومعاصروه في أحراش جنوب شرق آسيا، قبل فترة طويلة.

كان جون نيجل John Nagl ضابطًا في الجيش الأمريكي، وبوصفه حاصلاً على منحة رودس Rhodes Scholar، كتب أطروحةَ دكتوراه يقارن فيها بين الصراعات في مالايا وفيتنام، وقال فيها إن البريطانيين تكيّفوا مع ضرورات حرب الأحراش، أما الأمريكيون فلم يتأقلموا[956].

نيجل هو أحد مؤلِّفي ما صار لدى الجيش الدليل الميداني لمكافحة التمرُّد 24-Counterinsurgency Field Manual (FM 3)، بإشراف جنرالين حالِمَيْن أدركا الضرورةَ المُلِحّة إلى دليل من هذا النوع:

الجنرال ديفيد بِترَيوس David Petraeus والجنرال جيمز ماتِس James Mattis. بدأ العملُ على الدليل الميداني في أكتوبر عام 2005 بعد عودة بِترَيوس من جولة خدمته الثانية في العراق. ثم صَدَرَ في ديسمبر من العالم التالي[957]. السمةُ الألفت للانتباه في الدليل نقاشُه المتكرّر لما يتصف به التمرد من طابع شَبَكِيٍّ.

فمثلاً، كدّ المؤلفون للتمييز بين التمردات ذات «البنية الهَرَميّة المنهجية» و

التمردات ذات «البنية الشبكية». كل نموذج منهما ينطوى على نقاط قوته ونقاط ضَعْفه، لكن التمرد الشَبَكىّ يميل إلى «التعافى والتأقلم والتعلُّم بسرعة»، كما أنه عصىٌّ على إقناعه بقبول تسوية تفاوضية «لأنه لا يوجد شخص واحد أو مجموعة صغيرة فى موقع المسؤولية»[958]. بدأ الدليل الميدانى فى تثقيف الجيش الأمريكى بشأن نظرية الشبكة، إلى حدٍّ لافت للنظر، فشَرَحَ مفاهيمَ مثل كثافة الشبكة[843] density network، ودرجة التمَرْكُزيّة والتمَرْكُزيّة البَيْنية[959]. وفى الطبعة الأولى من الدليل، كان يوجد ملحقٌ بعنوان «تحليل الشبكة الاجتماعية»[960] Social Network Analysis.

يدين الدليلُ الميدانى بأكثر من مجرد دَيْنٍ صغير لعمل كولونيل [عقيد] فى الجيش الأسترالى اسمه ديفيد كيلكولن David Kilcullen، كان مُعَارًا إلى البنتاجون فى عام 2004. كتَبَ كيلكولن ورقةً بعنوان «الأدوات الثمانى و العشرون: أساسيات مكافحة التمرد» Eight Articles-Twenty : Level Counterinsurgency-Fundamentals of Company ، يقول فيها إن «بناءَ شبكاتٍ محلّ ثقة trusted networks» هو المعنى الحقيقى لعبارة «قلوب وعقول»:

إذا نجحتَ بمرور الوقت فى بناء شبكات ثقة، فستنمو هذه الشبكات كـ الجذور فى السكان، مُزيحةً شبكات الخصم، الأمر الذى يُخْرِجُه إلى العَرَاء لمحاربتك، واختطاف المبادرة. هذه الشبكات تشمل الحلفاء المحليين وزعماء المجتمع وقوات الأمن المحلية، والمنظمات غير الحكومية، وغيرها من الفواعل غير الحكوميين المتعاطفين أو المحايدين فى منطقتك، ووسائل الإعلام... فالإجراءات التى تساعد على بناء شبكات الثقة تخدم قضيتك. أما الإجراءات التى تُقوّضُ الثقةَ أو تُعطِّلُ - مثل قتل أهداف رفيعة المستوى - فتساعد الخصمَ[961].

الفكرة الرئيسية أن الجهاد العالمى الذى كانت تحاربه الولايات المتحدة وحلفاؤها استند إلى شبكة اجتماعية موجودة سلفًا تتكون من «علاقات زواج ، وتدفقات أموال، وعلاقات خريجين وروابط رعاية». والإرهاب هو مجرد أحد الأنشطة المشتركة التى تُشاركُ فيها الشبكة، أما الجوهر فهو «شبكة الرعاية»[962]. ولكن فى الوقت نفسه، اكتسب الجهادُ العالمى خصائصَ شبيهة بـ الدولة بسبب تزايد أهمية تنظيم العنف:

---

[843] كثافة الشبكة: تُسَمّى الأشياء المتصلة فى الشبكة عُقْدَة، والعُقْدَة قد تكون شخصًا أو جهاز كمبيوتر أو نصًا تشعُّبيًا. أما «كثافة الشبكة» فتصف حصّة الاتصالات الاحتمالية فى الشبكة التى هى اتصالات فعلية (مصطلحات الشبكة الأخرى مشروحة فى هوامش سابقة) - المترجم.

فى التمرُّد المُعَوْلم، تسلسلُ المتمرّدين الهَرَمى يُوازى دولةً افتراضية؛ ولكنه لا يسيطر على أراضٍ أو سكان، بل يمارس سيطرةً على أنظمة مُوَزّعة السلطة تُمثِّلُ مُجتمِعةً معًا العديدَ من عناصر سلطة الدولة التقليدية. إنه أيضًا دولة زائفة: دولة كاذبة، كيان حاكم يعمل كالدولة، لكنه ليس دولةً من حيث الشرعية القانونية أو السياسية. وعلاوة على ذلك، فهو ليس تسلسلاً هَرَميًّا واحدًا بل شبكة فيدرالية تتكون من أنظمة مترابطة تعمل بوصفها «دولة متمرّدة»، وتتنافس مع حكومات العالم[963].

ومن بين التكتيكات التى أوصى بها كيلكولن لهزيمة هذه الدولة الوليدة «إشراكُ النساء المحايدات أو المتعاطفات» بسبب أهميتهن فى دعم شبكات المتمردين؛ وإطلاق «شبكة مضادة» فائقة بعمليات استخباراتية، «يمكن أن تُولِّدَ زخمًا مُمِيتًا يَتسبّبُ فى انهيار شبكات التمرد بطريقة كارثية»؛ و«خَنْق الشبكة بِعَزْل المتمردين عن الناس»؛ واعتراض الروابط الضعيفة فى شبكة التمرد[964].

لقد أصبح هذا قاعدةً ل«إستراتيجية أناكوندا»[844] Anaconda Strategy لدى بِترَيوس، لمحاصرة وخَنْق «القاعدة» في شبكة العراق[965].

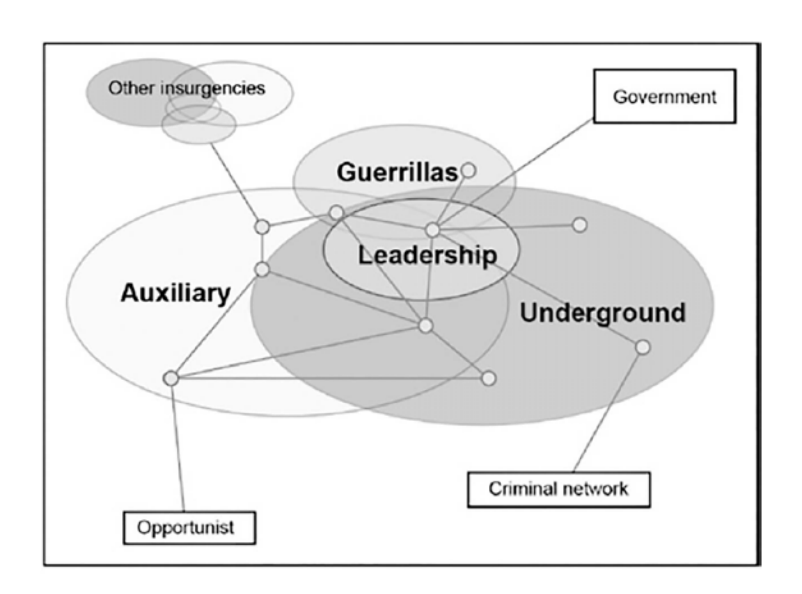
لقد تعلّم الجيشُ الأمريكى درسَه جيدًا، وإن يكن متأخرًا. أثناء مرحلة «الا ندفاع» الأمريكى الحاسمة فى العراق عام 2007، لخّصَ الجنرال ستانلى مَكريستَل[845] Stanley McChrystal ما تعلّمه فى العراق. «لمواجهة انتشار شبكة أبى مصعب الزرقاوى [زعيم تنظيم القاعدة فى العراق]، كان علينا محاكاةُ توزّعِها ومرونتها وسرعتها. وبمرور الوقت، «بدأت شبكةٌ فى هزيمة شبكةٍ»، وهو ما أصبح تعويذةَ القيادة وملخصًا من ثمانى كلمات لجوهر تصورنا العمليّاتى»[966]. هكذا، توصّلَ الجنود الأمريكيون إلى كيفية تملُّك أحراش العراق الخرسانية فى مرحلة ما بعد صَدّام. وفى أفغانستان أيضًا، حدثت عمليةُ تَعَلُّمٍ مؤلمة على نحو مماثل. تجربة إميل سيمبسن Emile Simpson بوصفه ضابطًا فى الجوركا Gurkha أقنعته بأن الاتجاه العام - بينما لا تزال تحدث حروب تقليدية ثنائية الاتجاه - يمضى نحو صراعات متعددة ال لاعبين، تكون فيها مثاليةُ كلاوزفيتز Clausewitz عن النصر الحاسم فى

---

[844]إستراتيجية أناكوندا: يرجع أصل التسمية إلى خطة أناكوندا التى طبّقها جيشُ الاتحاد ا لأمريكي لقمع الكونفدرالية في بداية الحرب الأهلية الأمريكية - المترجم.

[845]ستان «ستانلى» مَكريستَل: من مواليد عام 1954، جنرال متقاعد فى جيش الولايات المتحدة الأمريكية، لعب الدورَ الرئيسى فى قتل أبى مصعب الزرقاوى زعيم تنظيم القاعدة في العراق - المترجم.

ساحة المعركة أمرًا بعيد المنال. النصر فى صراعات من هذا النوع يُساوى تحقيقَ الاستقرار السياسى[967]. كانت مكافحة التمرد بوصفها نشاطًا سياسيًا تُتِيحُ أحيانًا وجودَ حالات يُعَدُّ فيها ضمانُ مستوى هدوء من شبكة متمردة مُفضّلا ً على تدميرها.



الشكل رقم: 38 - التمردات الشبكية: رسم تخطيطي من «دليل الجيش لمكافحة التمرد» (طبعة عام 2014).

51

2008 / 9 / 15

كانت آثارُ 9/11، من نواحٍ عديدة، أقلّ تدميرًا للنظام المالى والسياسى الأ مريكى مما كان يأمل فيه تنظيم القاعدة بكثير. صحيح أنه حَدَثَ تعطيلٌ لنظام الدّفع[846] payment system، وإغلاق لمدة أسبوع واحد لتداول الأسهم [بورصة نيويورك New York Stock Exchange]، وانخفاض حاد فى أسعار الأ سهم [والأوراق المالية]، وقفزة فى التقلبُات المالية. كما أبطأ تعليقُ النقل الجوى أيضًا عمليةَ دورة المقاصّة [فحص الشيّكات] وغيرها من أشكال المُعامَلات غير الإلكترونية. أما أثر الهجمات الاقتصادى فكان محدودًا، لأن المؤسسات الكبرى مؤهلةٌ بشكل جيد جدًا لمثل هذا الاحتمال، وبَادَرَ الا حتياطى الفيدرالى Federal Reserve دون تردد للحفاظ على سيولة السوق. وفى غضون أسابيع، تم تجاوز الأزمة المالية[968]. حُصِرَت التكلفةُ الإجمالية للهجمات من حيث الأضرار فى الممتلكات، وقُدِّرَت الخسائرُ فى الأرباح بما بين 33 و36 مليار دولار[969].

وكان قرار إدارة بوش بغزو العراق - وهو ما لم تكن تتوقعه قيادة القاعدة - هو الذى زاد هذه التكاليف لتصل إلى الضِّعْفين، لو تقبّل المرء أعلى تقديرات تكاليف «الحرب على الإرهاب»[970]. لقد كان ما يستهدفه بن لادن أكثرَ من تفاعل تسلسلى، حيث تُؤثِر الصدمةُ الأولية للهجمات تأثيرًا متتاليًا عبر النظام الاقتصادى الأمريكى. ويشير عدم حدوث هذا إلى أن الشبكةَ الرأسمالية الأ مريكية أكثرُ مرونةً مما توقّعَه الجهاديون.

كانت انقطاعاتُ الشبكة تصورًا مألوفًا بحلول عام 2001. فى عام 1996، حَدَثَ انقطاعٌ رئيسى فى التيار الكهربى غرب الولايات المتحدة، فعندما فشل خط كهرباء واحد فى ولاية أوريجن Oregon تعثّرت مئات الخطوط ومولِّدات الكهرباء، مما أدّى إلى انقطاع الخدمة عن 7.5 مليون شخص. وفى العام التالى، انخفضت عملية التصنيع بكاملها فى شركة تويوتا Toyota إلى النصف، بعد حريق دَمّرَ مصنع المُوَرّد الوحيد لمكبح الفرامل، الأمر الذى هدّدَ عمليات حوالى 200 مُوَرّد آخر[971]. وقبل أشهر فقط من 9/11، وعلى وجه التحديد يوم 18 يوليو عام 2001، شبّ حريقٌ فى نفق سكك حديدية فى بُلْتِمور Baltimore تسبّبَ فى تباطؤ واسع فى سرعات الإنترنت، لأنه أحرق

---

[846]نظام الدّفع: أيُ نظام يُستخدَم لتسوية المعامَلات المالية من خلال تحويل القيمة النقدية ، ويشمل المؤسسات والأدوات والأشخاص والقواعد والإجراءات والمعايير والتقنيات التي تجعل مثل هذا التبادل ممكنًا - المترجم.

كابلات الألياف البصرية التى تنتمى إلى عدد من مُزوّدى خدمة الإنترنت الرئيسيين Internet Service Providers. وقد حَدَثَ شىءٌ مشابه فى سبتمبر عام 2003، عندما تحطمت شبكةُ الطاقة الإيطالية بأكملها (باستثناء جزيرة سردينيا Sardinia) بعد سقوط شجرة على خط الجهد العالى بين إيطاليا وسويسرا. متتالية كبرى حدثت فى نوفمبر عام 2006، حين فشل كابل كهربائى واحد فى شمال غرب ألمانيا فتَسبّبَ فى انقطاعات امتدت إلى البرتغال[972]. كان النظامُ المالى، فيما يبدو، شبكةً أكثر مرونةً من شبكة الكهرباء الأوربية، إن لم يكن من الإنترنت نفسه.

وقد ثبَتَ أن هذا وهمٌ. إفلاس بنك ليمان برادرس Lehman Brothers فى يوم 15 سبتمبر عام 2008 أطلق العنانَ لأزمة من أكبر الأزمات المالية فى التاريخ، وأوشك - أكثر من أى حدث آخر منذ انهيار بورصة وول ستريت Wall Street عام 1929 - على التسبُّب فى انقطاع عالمى فى نظام الائتمان الدولى. وعلاوة على ذلك، التكاليفُ الاقتصادية الكلية للأزمات المالية العالمية أكبرُ - دون شك - من تكاليف الحرب على الإرهاب، وبخاصة لو تخيّل المرء المُخْرَجات التى كانت ستوجد إذا استمر الاقتصاد العالمى دون انقطاعات على طول مساره. (تتراوح التقديرات المعقولة للولايات المتحدة وحدها من 5.7 تريليون دولار إلى 13 تريليون دولار، مقارنةً بأعلى تقدير لتكلفة الحرب على الإرهاب تريليون دولار)[973]. وباختصار، تجَاوَزَ 9/15، إلى حد كبير، الاضطرابَ الناجم في السنوات السبع السابقة على 9/11.

ويمكن تلخيص أسباب الأزمة المالية فى ستة عناوين. صارت البنوك الرئيسية تعانى نقصًا خطيرًا فى رأس المال، فاستغلت الثغرات المنتظمة لزيادة نِسَب الرّفْع المالى leverage ratios. أُغْرِقَت الأسواقُ بأوراق مالية مدعومة بالأ صول مثل التزامات الديون ذات الضمانات التى أساء وسطاء التسعير تقدير سعرها بشكل فادح.

وسمح الاحتياطى الفيدرالى للسياسة النقدية بأن تكون فضفاضة جدًا بين عامىْ 2002 و2004. وخلق السياسيون حوافز اقتصادية حمقاء للأمريكيين الفقراء ليصبحوا مالكى منازل. ويبعت المشتقات المالية[847] derivatives مثل مقايضة التخلُّف عن سداد الائتمان على نطاق واسع، على أساس نماذج

---

[847] المشتقات المالية: أدوات مالية تستمد قيمتها من أداء أصل حقيقى أو مالى أو من أداء أحد المؤشرات السوقية. ويشمل الأصلُ الحقيقى السلعَ الدولية كالذهب والنفط والمعادن والقمح والأرز، إلخ. أما الأصول المالية فتشمل الأوراقَ المالية كالأسهم والسندات. وتساعد المشتقات المالية على نقل المخاطر المالية بين الأطراف المتعاقدة عبر الأسواق المالية المنظمة أو الموازية - المترجم.

مخاطر غير واقعية. وفى النهاية، ساعدت تدفقات رأس المال من الأسواق الناشئة، ولا سيما من الصين، إلى الولايات المتحدة، على تضخيم فقاعة العقارات الأمريكية الحقيقية[974]. ويُقال إن الأزمة بدأت عندما انفجرت هذه الفقاعة: انخفاض أسعار المساكن والتخلُّف المتصاعد عن سداد قروض العقارات أظهرا علاماتٍ على ضائقة مالية فى أواخر عام 2006. ولكن إفلاس [بنك] ليمان برادرس - فى الساعة 1.45 من صباح يوم الاثنين 15 سبتمبر - هو الذى حوّلَ الضائقةَ إلى ذُعْرٍ عالمى. مسار الشركة الأم أعقبته إجراءاتُ إفلاس ما يقرب من ثمانين شركة تابعة فى ثمانى عشرة دولة أجنبية. فى إجراءات ا لإفلاس الرئيسى، رُفِعَتْ حوالى 66 ألف دعوى - تتجاوز 873 مليار دولار - ضد ليمان. كانت تلك هى «حالة الإفلاس الأكبر والأعقد، والمتعدِّدة الوجوه، و البعيدة المدى، على نحو لم تمرّ به الولايات المتحدة من قبل»[975]. ومع ذلك، رأى خبراءُ الاقتصاد فى الاحتياطى الفيدرالى Federal Reserve، على نحو لا يُصدّقُ، أنه لا يوجد سبب لتوقع الركود. «لا أعتقد أننا نشهد تغيرًا كبيرًا فى الأفق الأساسى»، هذا ما قاله الاقتصادي ديفيد ستوكتن David J. Stockton، رئيس الاحتياطى الفيدرالى، للجنة الأسواق المفتوحة الفيدرالية Federal Open Markets Committee (FOMC) فى يوم 16 سبتمبر، «وبكل تأكيد القصة الأبعد من تخميننا هى... أننا لا نزال نتوقع انتعاشًا تدريجيًا فى نمو الناتج المحلى الإجمالى على مدى العام القادم». وستسخر الأحداثُ من هذا الكلام، ومن تصريحات مشابهة[976].

عدد قليل من الحاضرين فقط، فى القاعة، قدّرَ - فى هذه المرحلة الباكرة - الطبيعة الحقيقية لموقف الاحتياطى الفيدرالى. وبكلمات موحية لإريك روزنجرن Eric S. Rosengren مدير الاحتياطي الفيدرالي في بوسطن:

أعتقد أنه من السابق لأوانه معرفة إذا كان ما فعلناه مع ليمان صوابًا. فبالنظر إلى أن وزارة المالية لم تكن ترغب فى وضع أموال فيه، ما حَدَثَ هو أننا لم يكن لدينا خيار. ولكننا قمنا بمراهنة محسوبة. إذا كان لدينا تشغيل لصناديق سوق المال[848] money market funds أو إذا... أُغلِقَ سوقُ الريبو repo market، فإن المراهنة قد لا تبدو جيدة تمامًا. أعتقد أننا فعلنا الصواب بالنظر إلى القيود التى كانت علينا. وآمل أن نتجاوز هذا الأسبوع... ينبغى ألا نكون في موقف نراهن فيه على الاقتصاد في مؤسسة أو مؤسستين[977].

وحتى يوم 29 أكتوبر، لم يكن بن برنانكى Ben Bernanke، رئيس الاحتياطى

---

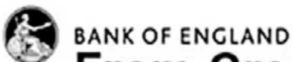
[848] صندوق سوق المال: صندوق مشترك مفتوح العضوية يَستثمر فى سندات الدّيْن قصيرة الأجل مثل سندات الخزانة الأمريكية والورقة التجارية، ويُعْتَبَرُ آمنًا مثل الودائع البنكية التي توفِّر عوائد أعلى - المترجم.

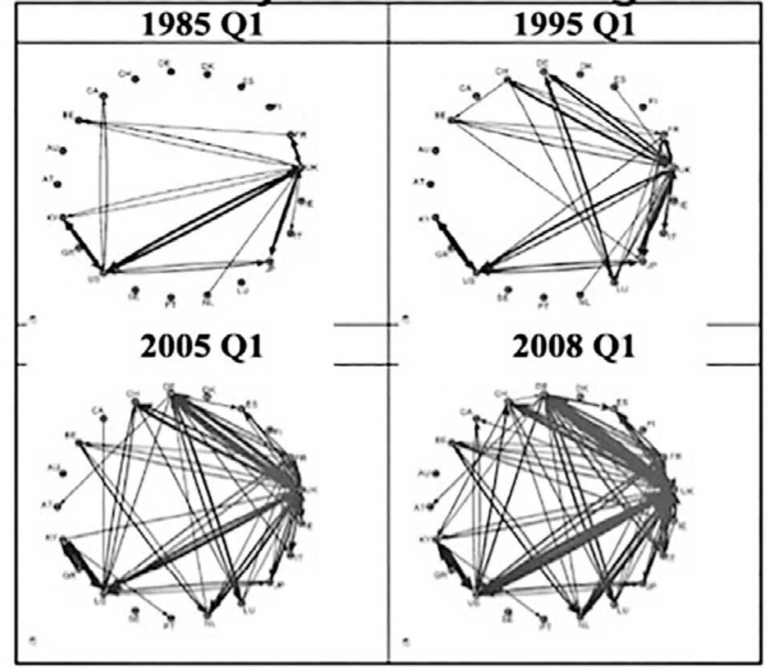
الفيدرالى، قد أعطى أول تلميحاته إلى احتمال أنهم كانوا فى أزمة مماثلة لأ زمة ثلاثينيات القرن العشرين[978]. وفى منتصف ديسمبر، فقط، ذهب عضو آخر من «لجنة الأسواق المفتوحة الفيدرالية» إلى حدِّ القول صراحةً «إننا لدينا معدلات تخلُّف [عن السداد] أكبر بكثير من معدلات الكساد العظيمThe Great Depression»[979].

ما فشل فى فَهْمه الاحتياطى الفيدرالى أن بنك ليمان برادرس نفسه كان محورًا حاسمًا فى شبكة مالية دولية نَمَتْ على نحو أكبر وأكثف من أى وقت مضى فى فضاء العشرين عامًا الماضية، بفضل الجمع بين العَوْلمة والإنترنت، رغم أن المدير التنفيذى لبنك ليمان، ديك فولد Dick Fuld، كان جزءًا من شبكة معزولة فى وول ستريت، وغير محبوب من أقرانه (بمَن فيهم وزير المالية هنرى بولسن Henry Paulson الرئيس التنفيذى السابق ل جولدمان ساكس Goldman Sachs). كان أحدُ القِلّة من محافظى البنوك المركزية الذين يقدِّرون أهمية هذا التغيير الهيكلى هو أندرو هَلدين Andrew Haldane محافظ بنك إنجلترا، الذى قال بأن نظام تكييف معقد قد تمّ إنشاؤه، مَالَ إلى تضخيم التقلبات الدورية[980].

استندت فكرة هَلدين إلى عمل جون هولِند John Holland وآخرين عن الأ نظمة المعقدة التى لديها - بخلاف كوْنها مجرد أنظمة معقدة - مَيْلٌ إلى التغيُّر بطرق غير متوقعة. وهذه «الخصائص الناشئة» هى الشىء الغائب عن نموذج الاقتصاديين في الاحتياطي الفيدرالي[981].

وببساطة كاملة، تُهْمِلُ معاييرُ الاقتصاد الكلى بنيةَ الشبكة. فلا أحد لاحظ أن الشبكة المالية العالمية قد أصبحت متصلة بما يكفى لأن تنتقل ضائقةٌ بطريقة متتالية سريعة من مؤسسة إلى مؤسسات عديدة، بل الشبكةُ متناثرةٌ بما يكفى لأن تكون مؤسساتٌ متنوعةً تنوعًا ضعيفًا ومُؤمّنةً بشكل غير كافٍ ضد فشل نظيرتها[982].





الشكل رقم: 39 - بالونات الرّبْط الشبكى فى النظام المالى الدولى، من عرض أندرو هَلدين عام 2011.

الاحتياطى الفيدرالى هو نفسه أحد مهندسى الأزمة المالية العالمية بتباهيه وتفاخره الوهمى بما حققه من «اعتدال كبير» قبل بضع سنوات من وقوع الكارثة. ولكن بسبب ثقة رئيس الاحتياطى الفيدرالى بِرنانكى، ضمنت السرعةُ التى طُبّقَ بها دروسَ الكساد العظيم أن تكون العواقب الاقتصادية أقل حدة بكثير مما كان فى ثلاثينيات القرن العشرين. فبشراء كل أنواع الأ صول فى المرحلة الأولى من «التيسير الكمى»، ثم كميات كبيرة من السندات الحكومية فى المرحلتين الثانية والثالثة، ساعد الاحتياطى الفيدرالى على احتواء الأزمة. وهو ما حقق نصرًا لنظام الإدارة النقدية الهَرَمى، واعترافًا بأن الشبكة المالية العالمية لو تُركتْ لنفسها فلن تُصْلِحَ نفسَها، ولكن السبب الرئيسى فى عدم وجود كساد عظيم ثانٍ هو تدخُّل وزارة المالية الأمريكية - بعد إخفاق ليمان - في مَنْع المزيد من حالات إفلاس مالي كبرى.

عمليات إنقاذ الشركات مثل شركة التأمين العملاقة AIG والبنوك الأخرى الكبيرة، التى تلقت أكثر من 400 مليار دولار فى إطار برنامج إنقاذ الأصول المتعثرة Troubled Asset Relief Program، كانت حاسمةً فى وقف تفاعل

تسلسلى للإفلاس الذى بدأ فى 9/15. وهذه الشركات نفسها التى استمرت فى أن تدفع لكبار موظفيها مكافآت من سبعة أرقام، استثارت النقدَ على نطاق واسع[983].

ولا يندهشنّ الجمهور. فالنظام المالي كان شبكةً بأكثر من طريقة.

لطالما كانت نُخْبةُ رجال الأعمال الأمريكيين مجموعةً مترابطة مع البنوك بوصفها المصدر الرئيسى للروابط بين قطاعات الاقتصاد المختلفة، بما فيها عالمُ السياسة[984]. ولعل الإيضاح الجيد لكيفية اشتغال النظام الأمريكى هو سيرة حياة فيرنون جوردن[849] Vernon Jordan، الابن، فهو محامٍ أمريكى من أصل أفريقى مُتمدِّن حَقّقَ سُمْعتَه بوصفه محامى حقوق مدنيّة فى ولاية جورجيا Georgia فى السنوات الأخيرة من التمييز العنصرى. فى عام 1972، دُعِىَ جوردن إلى الانضمام إلى مجلس سَلانيز Celanese [شركة تكنولوجية]، وهى مشروع صناعى متنوع، رئيس مجلسها جون بروكس John W. Brooks ، الذى رشّحه بعدها للانضمام إلى مجلس إدارة بانكرز ترَست أوف نيويورك Bankers Trust of New York. ومن خلال مدير آخر لبانكرز ترَست، هو ويليام إلينجهاوس William M. Ellinghaus، أُلحِقَ بمجلس إدارة متجر جى. سى. بِنى J. C. Penney فى عام 1973. وفى السنة التالية، التحق بمجلس إدارة زيروكس Xerox، حيث خدم مع أرشى مكاردِل Archie R. McCardell، رئيس زيروكس، وهوارد كلارك Howard L. Clark المدير التنفيذى لشركة أمريكان إكسبرس American Express، وكان مكاردِل رئيس مجلس إدارتها أيضًا.

وبتأييد من مكاردل وكلارك كليهما، انضم جوردن إلى مجلس إدارة أمريكان إكسبرس فى عام 1977. وفى عام 1980، انضمّ إلى مجلس إدارة شركة التبغ آر. جى. رينولدس R. J. Reynolds، ثم فى العام التالى ترك منصبه فى الرابطة الحضرية الوطنية National Urban League للانضمام إلى شركة المحاماة الدولية الأمريكية Akin Gump Strauss Hauer & Feld، مكتب واشنطن في دالِس Dallas [985].

صداقة جوردن الحميمة ب يِلْ كلينتون Bill Clinton، الذى التقى به لأول مرة من خلال NUL [الرابطة الحضرية الوطنية] فى عام 1973، أصبحت ذات أهمية سياسية كبيرة لكلينتون الذى انتُخِبَ رئيسًا عام 1992، حيث أصبح

---

[849]فيرنون جوردن: من مواليد عام 1935، معروف بأنه شخصية مؤثرة فى الحياة السياسية الأمريكية، ويستعرض المؤلِف سيرة حياته المهنية - المترجم.

جوردن حَلّال المشاكل السريع له، فى سلسلة فضائح [جنسية] أشهرها قضية مونيكا لويِنْسكى Monika Lewinsky. وفى عام 1999، ترك جوردن [شركة المحاماة الدولية] أكين جامب ستراوس لينضم إلى فرع نيويورك فى لِزارد Lazard، مديرًا لبنك الاستثمار والأصول[986].

وعلى سبيل المقارنة، اتّبَعَتْ مسيرةُ حياة تيموثى جايتنر[850] Timothy Geithner مسارًا مختلفًا. والدته دِبورا موور Deborah Moore منحدرة من ميفلاور[851] Mayflower. درس فى كلية دارتموث Dartmouth College. وقبل التحاقه بالخدمة الحكومية، عمل فى مؤسسة كيسنجر أسوشِيتس Kissinger Associates. ولكنه بوصفه رئيسًا [للبنك] الاحتياطى الفيدرالى فى نيويورك أصبح جايتنر مرتبطًا اجتماعيًا ومهنيًا بأفراد النُخْبَة المالية. فعلى سبيل المثال، من خلال عضويات جايتنر المشتركة فى مؤسسات غير ربحية مثل نادى نيويورك الاقتصادى[852] Economic Club of New York أو مجلس العلاقات الخارجية[853] Council on Foreign Relations، كانت لديه صلات شخصية بكبار المديرين أو التنفيذيين لحوالي 21 شركة مالية.

وطبقًا لإحدى الدراسات فى الاقتصاد القياسى، كانت هذه الصلاتُ قيّمةً، ففى الشركات التى ارتبط جايتنر بها رأى أسعار أسهمها تقفز عندما أُعْلِنَ يوم 21 نوفمبر عام 2008 أن جايتنر سيكون وزيرَ المالية فى إدارة باراك أوباما[987]. لم يكن يعنى ذلك أيّ مخالفة أو عدم لياقة، بل اعتبار الاقتراب من السلطة

---

[850]تيموثى جايتنر: من مواليد عام 1961، مَصْرَفى وسياسى وعالِم اقتصاد من الولايات المتحدة. يشغل حاليًا منصب رئيس شركة واربورج بينكوس، وهى شركة مساهمة خاصة، أما سيرة حياته قبل ذلك فيستعرضها المؤلف - المترجم.

[851]ميفلاور: اسم السفينة التى أقلّتْ الروّادَ الإنجليز الأوائل إلى أمريكا عام 1620، والتى بُنيَتْ عام 1610. كانت ذات ثلاث أشرعة وطابقين، غادرت من إنجلترا فى أغسطس عام 1620، ومعها سفينة أخرى اسمها «سبيدول»، وبعد وصولها إلى ماساتشوستس غادرت أمريكا يوم 15 أبريل 1621 عائدةً إلى إنجلترا. ولا يعرف المؤرّخون ما الذى حَدَثَ للسفينة على وجه اليقين بعد عودتها إلى إنجلترا. أما السفينة المحفوظة الآن فى بليموث بولاية ماساتشوستس فهي ميفلاور 2 التي بُنِيَتْ على شكل السفينة الأصلية - المترجم.

[852]نادى نيويورك الاقتصادى: منظمة أمريكية غير ربحية وذات عضوية، وغير حزبية، تهتم بمناقشة القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية - المترجم.

[853]مجلس العلاقات الخارجية: منظمة فى شكل خلية تفكير أمريكية مستقلة. يستهدف تحليل سياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية والوضع السياسى العالمى، تأسّسَ عام 1921، مقرُّه الرئيسى فى نيويورك وله مكتب فى واشنطن. أعضاؤه من طبقة رجال ا لأعمال والسياسة والاقتصاد - المترجم.

مُهمًا، وبخاصة فى وقت الأزمة. بعد أن لعب جايتنر دورًا رئيسيًا فى بنك الا
حتياطى الفيدرالى فى المرحلة الأولى من الأزمة، تولى دَفَّةَ وزارة المالية فى
وقتٍ لم يصل فيه الاقتصاد بعد إلى الحضيض. سيكون المستثمرون سُذّجًا
إذا لم يُعَلِّقوا أهميةً أيًا كان وعيهم بالفروق فى الترابط السياسى بين
الشركات المالية. لقد سقط ديك فولد [المدير التنفيذى لبنك ليمان براذرس] لأ
نه كان عُقدَةً معزولة نسبيًا في الشبكة.

52

الدولة الإدارية

كشفت الأزمة المالية عن خصيصة أخرى فى النظام المالى. فعلى الورق، البنوك هى الكيانات الأعلى تنظيمًا فى النظام المالى. ومع ذلك، فشلت الهيئاتُ العديدة المسؤولة عن تنظيمها وأنشطتها فى توقّع احتمال سقوطها كـالدومينو فى أزمة السيولة. ولعل تفسير ذلك يكمن فى انحطاط الحكومة الفيدرالية إلى ما يُسَمّى دولة «إدارية»[854] administrative or managerial state، هَرَميّة وبيروقراطية فى طريقة عملها، وتتفانى فى توليد ضوابط، أعقد من ذي قبل، أنتجت عَكْسَ ما كان يُقصَدُ منها.

يمكن تتبع ولادة الدولة الإدارية بالرجوع إلى أوائل سبعينيات القرن العشرين، حين بدأ الكونجرس فى التخطيط لوكالات تنظيمية جديدة مثل وكالة حماية البيئة Environmental Protection Agency ولجنة حماية المستهلك Consumer Product Safety Commission.

كان القانون الأمريكى للوائح الفيدرالية The US Code of Federal Regulations (CFR) يتكون من حوالى 23 ألف صفحة فى عام 1950. ثم زاد حوالى 21 ألف صفحة بين عامىْ 1951 و1970، ثم زاد 62 ألف صفحة بين عامىْ 1971 و1990، ثم 40 ألف صفحة أخرى بين عامىْ 1991 و2010[988]. فى ظل إدارة جورج دبليو بوش، وسّعَ الكونجرس اللائحة الفيدرالية الخاصة بالتعليم الابتدائى والثانوى (قانون عدم ترْك أى طفل No Child Left Behind Act عام 2001)، وتمويل الانتخابات (قانون إصلاح الحملات الانتخابية عام 2002 Feingold Campaign Reform Act-the McCain)، وحَوْكمة الشركات (Oxley Act of 2002-the Sarbanes)، والحفاظ على الطاقة (the Energy Independence and Security Act of 2007). ومع ذلك، لم توجد إدارةٌ استحدثت تشريعات ولوائح أكثر عددًا من إدارة أوباما Obama فى فترة رئاسته الأولى[989].

---

[854]الدولة الإدارية: مفهوم مستعمل فى نقد الديمقراطية الإجرائية الحديثة فى الدول الغربية. ويكتسب المصطلح سياقًا ازدرائيًا بوصفه مظهرًا من مظاهر التراجع الغربى، حيث يحل المرسوم الإدارى محلّ القانون، ويحل استبداد السلطة التنفيذية محلّ الفيدرالية، وتحل الدولة غير المحدودة محلّ الحكومة المحدودة.

وفى هذه الحالة، يعمل النظام باسم الأهداف المجردة كالمساواة أو الحقوق، ويستعمل زَعْمَه بالتفوق الأخلاقى وقوة الضرائب وإعادة توزيع الثروة من أجل البقاء فى السلطة - المترجم.

ومن الممكن رواية تاريخ رئاسة أوباما، بإيجاز، بوصفه سلسلة من التعهُّدات بزيادة التوظيف («الحافز»)، وتقليل مخاطر الأزمة المالية، وتوفير تأمين صحى شامل؛ وقد أنتج كلٌّ تعهُّدٍ منها توسُّعًا كبيرًا فى الدولة الإدارية. إصلاح وول ستريت The Wall Street Reform وقانون حماية المستهلك Consumer Frank-Protection Act (Dodd) وصلا إلى 848 صفحة، وترتّبَ عليهما إنشاءُ هيئتين جديدتين هما مجلس مراقبة الاستقرار المالى Financial Stability Oversight Council ومكتب الحماية المالية للمستهلكConsumer[990] Financial Protection Bureau. قانون حماية المريض وتيسير الرعاية الصحية (المعروف اختصارًا ب أكا ACA)the Patient Protection and Affordable Care Act بلغ مجموعُ صفحاته 961 صفحة (مع قانون الرعاية الصحية والإصلاح التعليمى)، ونتج عنه إنشاءُ المجلس الاستشارى المستقل للتسديد Independent Payment Advisory Board. بل الأكثر إرهاقًا والأعقد ، التشريعُ الذى صيغ لسَنّ الشراكة عبر المحيط الهادى Trans Pacific Partnership، وهو اتفاق تجارى بين اثنتى عشرة دولة تُطِلُّ على المحيط الهادى. كان هذا التشريعُ أكثرَ من 5,554 صفحةً، واحتوى على أكثر من مليوني كلمة، وعندما طُبِعَ بَلَغَ طولُه ما يقرب من ثلاثة أقدام.

والأكثر من هذا أن قانون الرعاية الصحية الأمريكى [أوباما كير] Obamacare ودود - فرانك Frank-Dodd أنتجا أفواجًا كبيرة من اللوائح. بعد تمرير قانون الأكا [حماية المريض وتيسير الرعاية الصحية] ACA أنتجت الهيئاتُ الحكومية أكثرَ من مئة لائحة نهائية تُوضِّح كيف سيتم تطبيق القوانين الجديدة. دود - فرانك وَجّه المُنظِّمين [واضعى اللوائح] إلى وَضْعِ أكثر من 400 قاعدة جديدة. وطبقًا لأحد التقديرات، يمكن للقانون أن يزيد القيودَ التنظيمية للصناعة المالية بما يقرب من الثلث حين تكتمل هذه العملية[991].

ولإعطاء فكرة عن حجم وباء اللوائح التنظيمية، افترضْ أن كل صفحة من الصفحات ال 10,535 للوائح الرعاية الصحية فى السجل الاتحادى Federal Register تحتوى على 1,100 كلمة. فبجمعها تصل إلى أكثر من 11 مليون كلمة. وعلى سبيل المقارنة، تكوّنَت الوثيقة العظمى [مَجْنا كارتا][855] Magna Carta من ورقة واحدة مخطوطة [من الرّق] بأقل من 4 آلاف كلمة. والمُسوّدة ا لأصلية للدستور الأمريكى US Constitution كانت أكثر قليلا ً (4,543 كلمة). وتألَفَ إعلان الاستقلال Declaration of Independence من 1,458 كلمة فقط.

---

[855]مَجْنا كارتا أو الوثيقة العظمى: وثيقة إنجليزية عن الحريات فى إنجلترا، صدرت لأول مرة عام 1215 - المترجم.

فما القوى المسؤولة عن صعود الدولة الإدارية؟ ولماذا انحطّتْ واشنطن إلى صورة الدولة البيروقراطية المتضخِّمة التى تخيّلها، ذات مرة، فرانس كافكا Franz Kafka؟ ربما تتمثل الإجابة البسيطة فى خطأ رجال القانون و البيروقراطيين، ولكن هؤلاء الأشخاص وُجِدوا طول الوقت، كما يعرف قرّاءُ ديكنز Dickens جيدًا.

الإجابة الأكثر معقولية بالأحرى أن ذلك هو الثمن الذى ندفعه اليوم لإخفاقات الماضى. ولعل ما قتل الحكومةَ التمثيلية وسيادةَ القانون فى العديد من بلدان القرن العشرين كان عدمَ الاهتمام بالتفاصيل. لعل «مُبسِّطون مُرْعِبون»، مثل هتلر، انتصروا لأن أدوات مثل دستور جمهورية فايمار Weimar Republic - رغم كوْنه ليس قصيرًا، ببنوده ال 181 وحوالى 10 آلاف كلمة - لم يمنع صراحةً رجالاً من النمسا بشوارب تشبه فرشاة الأسنان، وسجل جنائى وميول نحو الإبادة الجماعية، من أن يعتلوا منصب المستشارية [المستشار الأ لمانى]. ومع ذلك، ربما يكون أفضل تفسير هو التدهور [الفساد] الجوهرى فى معايير كل من التشريع والحُكم الذى نراه فى كل ديمقراطية تقريبًا، بغضّ النظر عن تواريخها المختلفة في القرن العشرين[856].

ويسيل تيار جارف من الإسهاب لأن السياسيين المحترفين يهتمون بالعَزْل أكثر من اهتمامهم بالمضمون، والميديا لا تكفُّ عن العواء من أجل ضرورة عمل «شىء ما» بعد كل حادث مؤسف، وجماعات الضغط تتأكد من أن منشوراتها تحمى المصالح الراسخة التى تُخَدِّمُ عليها، ويستفيد رجال القانون من كل هذه الفوضى المؤسفة[992].

ينبغى أن تقلقنا العواقب بأكثر مما يحدث، لأنها تمتد إلى أبعد من مجرد قوانين مُمِلّة نسأم من قراءتها. فأولاً، الميزة يحظى بها مَن هم داخل المؤسسة، فهم وحدهم يستطيعون تحمُّل «الالتزام» الكبير تجاه إدارات لا غنى عنها لعبور بحر الإطناب. ثانيًا، هناك مخاطرة عدم استقرار النظام، التى تنمو مع كل زيادة فى التعقيد الكلى. وأىُّ شخص يعتقد أن النظام المالى العالمى قد أصبح أكثر استقرارًا بتشريعات مثل دود - فرانك شخصٌ متفائلٌ. فالعكس هو الصحيح، لأن كل لائحة جديدة تُقَلِّلُ قدرةَ السلطات على التعامل مع مشكلة العَدْوَى [الانتشار الفيروسى] (بمعنى أن السلطات تشتغل على أساس مسؤوليات قصيرة الأجل غير مضمونة)[993]. وفى الوقت نفسه، تتآكل

---

[856]قبل قرن من الزمان، طبقًا لأندرو هَلدين، أصدر بنك إنجلترا خطابًا واحدًا فى السنة. وفى عام 2016 وحدها، أدلى بثمانين حديثًا، وأصدر اثنتين وستين ورقة عمل، وما يقرب من مئتى وثيقة تشاور، وما دون المئة مُدَوّنَة بقليل، وأكثر من مئة تحقيق إحصائى؛ وهو ما يبلغ مجموعه أكثر من 600 منشور وحوالي 9 آلاف صفحة - المؤلف.

شرعيةُ السياسة الديمقراطية ذاتها، كما يقول فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama، لأن «مجموعات المصالح... قادرة على شراء السياسيين بإسهامها فى الحملات الانتخابية وممارسة الضغط»، وهى العملية التى وصفها فوكوياما بأنها repatrimonialization[857] [994]. المؤسسات السياسية متصلِّبة وغير قابلة للإصلاح على ما يبدو:

المَجْمع الانتخابى electoral college، النظام التمهيدى primary system، القواعد الغامضة لمجلس الشيوخ، إلخ. المحاكم أيضًا تُشاركُ أكثر من اللازم فى صُنْع السياسة العامة والإدارة. ومع ذلك، لا توجد لدى أى أحد خطة متماسكة لإصلاح أي من هذا[995].

ليس التعقيدُ بضاعةً رخيصة، بل مكلِّف للغاية فى حقيقة الأمر. وقد وَجَدَت الدولةُ الإدارية حلا ً يسيرًا لمشكلة زيادة حجم «الخَيْرات» العامة دون عمل زيادات متناسبة فى الضرائب، فيتم تمويل الاستهلاك الحكومى الجارى بالا قتراض. وفى الوقت نفسه، بينما يتضاعف الدّيْن الفيدرالى تقريبًا، استخدمت إدارةُ أوباما صلاحياتها التنظيمية لجمع الأموال بطرق جديدة:

مثلا ً، أكثر من 100 مليار دولار من خلال «تسويات» التحقيقات فى ممارسات القروض العقارية المَصْرفية، و20 مليار دولار من برنامج تعويض تسرُّب النفط فى خليج المكسيك [عام 2010] (كما تدخلت أيضًا فى «إدارة الإ فلاسات» فى شركة جنرال موتورز General Motors وكرايسلر Chrysler بـ النيابة عن الحلفاء السياسيين)[996].

ولكن ذرائع الدولة الإدارية تفرض أعباء على القطاع الخاص، الأمر الذى يُقلِّلُ فى النهاية من معدل النمو وخلق الوظائف[997]. اللامساواة فيما بين الأجيال فى المال العام ونمو التنظيم [اللائحى] المتضخِّم وتدهور سيادة القانون وتآكل المؤسسات التعليمية - أدّى هذا كله مُجتمِعًا معًا إلى «انحطاط كبير» في الأداء الاقتصادي والتماسك الاجتماعي على حدٍّ سواء (كما سنرى) [998].

وباختصار، تُمَثِّلُ الدولةُ الإدارية تكرارًا أخيرًا للهَرَميّة السياسية: نظامٌ يتقيأ قواعدَ ويُوَلِّدُ تعقيدًا ويُقوّضُ الازدهارَ والاستقرار معًا.

---

[857] نظام فى التسلسل الهَرَمى الاجتماعى يستخدم فيه المسؤولون السياسيون وأتباعُهم مواردَ الدولة من أجل ضمان ولاء عموم السكان، على نحو يجعل الذين لديهم علاقات هم الذين يملكون وحدهم السلطة الحقيقية. وتمتد هذه العلاقات من مستويات عالية جدًا فى هياكل الدولة إلى الأفراد فى القرى الصغيرة. ويترتب على ذلك تآكل المؤسسات السياسية وسيادة القانون - المترجم.

53

ويب 2.0

وبينما كانت الدولة الإدارية تشقُّ طريقها وتسير فيه نحو أزمة النظام الهَرَمى النهائية، كان العالَم الشَّبَكى يجتاز مرحلةً انتقالية كبيرة. أطلق عليها خُبَراءُ تكنولوجيا المعلومات «Web 2.0» [«ويب 2.0»][858]، وهو عنوان مؤتمر استضافه ناشرُ الإنترنت الرائد تيم أورايلي Tim O'Reilly في عام 2004.

تمحورت فكرةُ أورايلى حول الحفاظ على صيغة «المصدر المفتوح» فى الشبكة العنكبوتية العالمية World Wide Web فى بواكيرها. وقد احتفظت ويكيبيديا Wikipedia - بإدخالاتها الموسوعية المؤلَّفة جَمْعيًا - بهذه الروح. وبذلك يتميز أيضًا أىُّ موقع ويب يعتمد على محتوى يُنْشِئه المُستخدِمُ. وطبقًا لأورايلى، ابتكارات مثل [ملخص الموقع الغنى] RSS[859] و[واجهة بَرْمَجة التطبيقات] API[860] أثرت فى «النشر المتزامن للبيانات، وليس التحكم فيما يحدث عندما يصل إلى الطرف الآخر من الاتصال... [-] وهو انعكاس لمبدأ [العلاقة بين] طرفين[861] end principle- to -the end »[999].

لذا، تكون برامجُ الحاسب software فى حالة «بيتا الدائم» perpetual

---

[858] ويب 2.0: مصطلح يشير إلى مجموعة التقنيات الجديدة والتطبيقات الشبكية التى أدّتْ إلى تغيير سلوك الشبكة العالمية: الإنترنت. وسُمِعَت الكلمةُ لأول مرة فى دورة نقاش بين شركة أورايلى ميديا الإعلامية ومجموعة ميديا لايف الدولية لتكنولوجيا المعلومات في مؤتمر تطوير ويب المنعقد في سان فرانسيسكو - المترجم.

[859] ملخّص الموقع الغنى: وسيلة لتمكين البرمجيات والنُّظُم المختلفة من استخدام المحتوى الذى تنشره غيرُها من النُّظُم والتطبيقات لتمكين المُستخدِمين من متابعة آخر أخبار المواقع دون الحاجة إلى زيارة كل موقع على حدة - المترجم.

[860] واجهة بَرْمَجة التطبيقات: الهدف الرئيسى منها توفير قائمة من الوظائف المستقلة تمامًا عن الآلية التي نُفِّذَتْ بها، لتتيح للآخرين التواصل معها من خلال أي آلية أخرى - المترجم.

[861] مبدأ الطرفين أو مبدأ العلاقة بين الطرفين: هو، فى شبكات الكمبيوتر، هيكل بنيوى مُستعمَل فى تصميم الشبكة وتطبيقاتها، بحيث تتواجد الميزات المرتبطة بالتطبيقات العاملة فى الشبكة عند الطرفيات وليس فى العُقد التى تُشَكِّلُ بنيةَ الشبكة كالمُوجِّهات و البوابات. ويقوم هذا المبدأ على افتراض أساسى هو عدم إضافة الميزات إلى كل عُقد الشبكة لتجنُّب استهلاك مواردها، وإضافة الميزات إلى الطَّرَفِيّات فقط - المترجم.

beta[862]، مفتوحةُ المصدر، بل ومفتوحة ليُعيد مُستخدِمون آخرون هندستَها[1000]. المعيار الذهبي كان [نظام تشغيل] لينكس Linux:

«نظام تشغيل من طراز عالمى» تشكّلَ «من إسهامات عدة آلاف من المطوّرين»، على حدِّ تعبير المُبرْمِج التحرُّرى إريك ريموند Eric Raymond، مُؤلِّف مانيفستو المصدر المفتوح، «الكاتدرائية والبازار» The Cathedral and the Bazaar[1001].

فى ال«بازار» مجموعة عالمية كبيرة من المُبَرْمِجين المتطوعين يعملون بشكل تعاونى لتحديد الإصابات وإصلاحها، ومن ثم يُحسِّنون على نحو مطرد البرامج[1002]. وقد صاغ ريموند قانون لَيْنس Linus's Law، على اسم لَيْنس تورفَلدس Linus Torvalds المُطوّر الرائد (ولكنه ليس المالك) لنظام التشغيل لينكس Linux، وينصُّ على:

إذا توفَّرَت قاعدة كافية من المُجرّبين والمُطوّرين المتعاونين فستُوصَفُ كلُّ مشكلة تقريبًا بسرعة ويتم إصلاحها». (وبصيغة أبسط: «إذا توفَّرَ العددُ الكافى من العيون فستنتهي كلُّ العِلل البرمجية بإيجاد حلول لها»)[1003].

فى كوميونة المُطوّر الافتراضية، «المقياس الوحيد المتاح للنجاح التنافسى هو السُمْعة فيما بين أنداد المرء»، فلا توجد مأساةُ العموم[863]، لأنه مع البرامج مفتوحة المصدر «ينمو العشب أطول حين يكثر الرعي»[1004].

توقَّعَ ريموند واثقًا أن الحركة مفتوحة المصدر س«تُحقِّقُ هدفُها الأساسى بشأن البرمجيات فى غضون من ثلاثة إلى خمسة أعوام (بحلول الأعوام 2003 - 2005)»[1005]. وقد خاب أمله.

بعد الابتكار والفوضى الإبداعية جاء التسويق والتنظيم. وهذا على أية حال المُتَّبَعُ فى الثورات التكنولوجية السابقة[1006]. أما فى حالة الإنترنت فقد حدث التسويق؛ ولم يحدث التنظيم إطلاقًا. مات حُلمُ المصدر المفتوح مع صعود الا

---

[862] بيتا الدائم: يعنى الحفاظ على البرمجيات أو النظام فى مرحلة التطوير التجريبى لفترة ممتدة أو غير محددة من الزمن. ويستخدمه المُطوّرون عندما يستمرون فى إصدار مَيْزات جديدة لم تُجرّب بشكل كامل - المترجم.

[863] الإشارة إلى مقال عالم البيئة [الإيكولوجى] جاريت هاردِن Garrett Hardin المنشور عام 1968 بعنوان «مأساة العموم» The Tragedy of Commons الذى قدّم حجةً على السيطرة السكانية العالمية مُستشهدًا بمثال قرية الفلاحين الذين يتمتعون بالوصول غير المقيّد إلى ا لأرض المشاع، ثم سرعان ما يجعلونها بورًا مليئة بالنفايات عبر الإفراط فى الرعى. نشأت الفكرةُ فى الأصل مع الاقتصادى الفيكتورى ويليام فورستر لويد William Forster Lloyed - المؤلف.

احتكارات الأحادية monopolies والاحتكارات الثنائية duopolies التى نجحت فى صَدِّ تدخُّل الدولة الإدارية. شركة مايكروسوفت Microsoft وشركة أبل Apple أسّستا ما يقترب من احتكار ثنائى للبرمجيات، واقتطعت مايكروسوفت نصيبًا كبيرًا من سوق الحَوْسبة الشخصية. ولأن الشركتين تأسّستا فى المرحلة الأولى من ثورة الشبكة، فى عامىْ 1975 و1976، فقد استجابتا بشكل مختلف للفرص التي يقدمها الإنترنت.



بِلْ جيتس وستيف جوبز

سعت مايكروسوفت إلى رَبْطِ نظام تشغيلها الويندوز Windows بمتصفِّح الويب الخاص بها إنترنت إكسبلورر Internet Explorer، وقد أدّت هذه الإستراتيجية إلى تفكُّك الشركة تقريبًا[864] ورغم تفوق نظام تشغيلها، من نواحٍ عديدة، على نظام تشغيل بِلْ جيتس Bill Gates، فَضّلَ ستيف جوبز رئيس مجلس إدارة أبل Apple's Steve Jobs المنافَسةُ بتنويع الهاردوير [عتاد الحاسوب] الذى تبيعه أبل، فأضاف إلى الكمبيوتر المكتبى الأصلى Mac desktop مُشغِّلَ موسيقى (iPod, 2001)، لابتوب (Macbook, 2006)، هاتفًا ذكيًا (iPhone, 2007)، تابْلِت (iPad, 2010)، وتش (Apple Watch, 2014).

تكمن عبقرية جوبز فى الجمع بين تصميم منتجات مُغْرية ونظام برمجيات مغلق ومحتوى رقمى تُصْدِره حصريًا أبل ستور Apple Store وآى تونس ستور iTunes Store.

جاءت المرحلة الثانية من ثورة تكنولوجيا المعلومات بعد عشرين عامًا من

---

[864] فى يوم 3 أبريل عام 2000، حَكَمَ القاضى توماس بِنفيلد جاكسن Thomas Penfield Jackson بأن مايكروسوفت قد ارتكبت جريمة الاحتكار الأحادى ومحاولة الاحتكار و الرّبْط، فى خرقٍ واضح لقانون شيرمان لمكافحة الاحتكار. وفى يوم 7 يونيو عام 2000، أمرت المحكمة بحلّ الشركة. ولكن محكمة الاستئناف رفضت أحكام القاضى جاكسن، وتوصّلت الشركةُ إلى تسوية مع وزارة العدل - المؤلف.

موجة الابتكار التى أنتجت إم إس دوس MS – DOS[865] وماك أوس Mac OS. أهم الشركات الجديدة التى تأسّسَتْ فى أواسط تسعينيات القرن العشرين هي:

أمازون Amazon، إى باى eBay، جوجل Google. الشركة الأولى أسّسها بائع كتب أونلاين فى سياتل Seattle [فى واشنطن]. والشركة الثانية - وتُسَمّى أصلاً «مزاد ويب» Auction Web - كانت سوق مزادات أونلاين فى سان خوسيه San Jose [في كاليفورنيا].

وأما الشركة الثالثة - المُسمّاة على اسم العدد الناتج عن الرقم 10 وأمامه 100 صفر the number googol - فهى أداة بحث على الإنترنت أُعِدّتْ فى جراج فى مِنلو بارك Menlo Park [فى كاليفورنيا]. كلٌ مؤسِّس من هؤلاء الثلاثة كان، بمعنى ما، من الخارج [دخيلاً]:

جيف بيزوس Jeff Bezos، ابنٌ لأُمٍّ فى سنّ المراهقة من تكساس، وتبنّاه زوج أمه الكوبى؛ أما بيير أوميديار Pierre Omidyar فوُلِدَ فى باريس لمُهاجِريْن إيرانييْن؛ وأخيرًا سيرجى برين Sergey Brin، من مواليد موسكو ليهوديين هاجرا من الاتحاد السوفييتى عام 1979. لارى بيج Larry Page، فقط، بدأ بوصفه مطلعًا على علوم الكمبيوتر: كان والداه يُدرّسان فى هذا المجال. وقد انجذب كل هؤلاء الرجال إلى الساحل الغربى للولايات المتحدة، حيث ترسّخت جامعة ستانفورد وترسّخ وادى السِّليكون بوصفهما محورًا عالميًا للابتكار فى تكنولوجيا المعلومات. فهل خَطّطوا ليصبحوا مليارديرات؟ ربما، لا. لقد جاء نجاح شركاتهم بوصفه مفاجأة. (بيج وبرين أوشكا على بَيْع جوجل لشركة إكسايت Excite مقابل 750 ألف دولار فى عام 1999). ولكن بعد النجاة من انهيار الدوت. كوم[866] the dot.com stock bust فى هذا العام، حصلت الشركات الثلاث جميعها على تقييمات تفقأ العين.

الطرح العام الأوّلى (IPO initial public offering) لشركة جوجل فى يوم 19 أغسطس عام 2004 أعطاها قيمةً سوقية أكثر من 23 مليار دولار. وتفسيرُ

---

[865] إم إس دوس: نظام تشغيل أصدرته شركة مايكروسوفت، فى ثمانى إصدارات ثم توقفت عن تطويره عام 2000، وأحلّتْ محلّه إصدارات مختلفة من نظام التشغيل ويندوز - المترجم.

[866] انهيار الدوت كوم أو انفجار فقاعة الدوت كوم: تُعْرَفُ أيضًا ب«الفقاعة التقنية». هى فقاعة اقتصادية تعرّضَتْ لها الشركاتُ المستندة إلى الإنترنت، حيث فشلت العديد من شركات التسوّق عبر الإنترنت. بدأت من عام 1995 واستمرت حتى أول الألفية الجديدة - المترجم.

هذه الزيادة الكبيرة فى القيمة بسيطٌ. ففى عام 2000 بدأت جوجل فى بَيْع إعلانات مرتبطة بكلمات البحث الرئيسية، على أساس الجمع بين عروض الأ سعار و«نسبة النقر» click – throughs[867].

وبحلول عام 2011 كان هذا مصدرَ%96 من إيرادات الشركة. ثم مَكنَ التدفقُ الهائل لإيرادات الإعلانات شركةَ جوجل من التوسُّع فى اتجاهات متعددة، فأطلقت خدمة البريد الإلكترونى (Gmail, 2004)، ونظام تشغيل (Android, 2007) ومتصفِّح ويب (Chrome, 2008)؛ ثم ضمّتْ سلسلةً من شركات أخرى، بدءًا من كيهول Keyhole التى أصبحت فيما بعد جوجل إرث Google Earth، تلتها أورتشين Urchin التى أصبحت جوجل أنالِتكس Google Analytics، وجراند سِنْترَلGrand Central التى أصبحت جوجل فويس Google Voice. ثم أضيف يوتيوب YouTube فى عام 2006، وموتورولا موبِلِتى Motorola Mobility فى عام 2012 (رغم أنها بِيعت لاحقًا)، وديب مايند DeepMind فى عام 2014. مهمةُ جوجل الأصلية: «تنظيمُ المعلومات حول العالم، وجَعْلها متاحةً للجميع ومفيدةً». وكان شعارها غير الرسمى: «لا تكن شِرِّيرًا». وأدق وصف لطريقتها فى العمل بعد عام 1999: «احْصُلْ على ثروة من الإعلان واستثمرها بجرأة».

ويتضح التناقض بين المثال والواقع اتضاحًا أكبر فى حالة شركة شبكات التواصل الاجتماعى التى ظهرت فى موجة الابتكار الثالثة أواسط العقد الأ ول من القرن الحادي والعشرين.

ال«سِتّ درجات» هى التى فازت؛ وحاز أصحابها على براءة اختراع أصلية فى وصف خدمة الشبكات الاجتماعية أونلاين المعتمدة على دعوات بالبريد ا لإلكترونى وقاعدة بيانات للأعضاء المُتّصِلين. ولكن ريد هوفمان Reid Hoffman - مبتكر موقعىْ الويب فريندستر Friendster ولينكدِن LinkedIn - ومارك بينكوس Mark Pincus - مُصَمِّم ترايب دوت نت Tribe.net - اشتريا براءة اختراع (مقابل 700 ألف دولار) لضمان عدم احتكار شبكات التواصل الا جتماعى[1007]. لكنهما لم يَحسبا تمامًا حساب مارك زوكربيرج Mark Zuckerberg.

لم تكن مرحلةُ الدراسة الجامعية بهارفارد بعيدةً عن البلاغة المثالية. بيان مهمة أعضاء فيسبوك، المُسَمّى ب«الكتاب الأحمر الصغير» Little Red Book

---

[867] نسبة النقر: نسبة المُستخدِمين الذين ينقرون على رابط معين إلى العدد الإجمالى من المُستخدِمين الذين يَردون إلى الصفحة أو البريد الإلكتروني أو الإعلان - المترجم.

(إجلالا ً للرئيس ماو)[868]، ينصُ على:

«لم يُبْتكرْ فيسبوك أصلا ً ليكون شركةً. لقد أُنْشِئ لتحقيق مهمة اجتماعية، أ لا وهي جَعْلُ العالم أكثر انفتاحًا واتصالا ً»[1008].

وفى عام 2004، فى مقابلة مع الجريدة الطلابية هارفارد كريمزن Harvard Crimson، بعد خَمْسة أيام فقط من إطلاق فيسبوك، صَرّحَ زوكربيرج بأنه لم يُنْشِئ الموقعَ بقصد كسب المال: «لن أبيع عنوان البريد الإلكترونى لأى شخص». ثم أعلن فى عام 2007 قائلا ً: «المئة سنة الماضية حدّدتها وسائل ا لإعلام mass media، وفى المئة سنة القادمة لن تُدْفَعَ المعلوماتُ إلى الناس، بل ستكون تشاركيةً بين ملايين الاتصالات التي يحوزها الناس»[1009].

فلماذا هَزَمَ فيسبوك منافسيه الآخرين على تاج شبكات التواصل الاجتماعى؟ أولا ً، استفاد زوكربيرج من [تأثير] علامة هارفارد التجارية. فقدّمَ المُستخدِمون الأوائل أسماءهم وعناوين بريدهم الحقيقية، فما دُمْتَ طالبًا فى جامعة هارفارد لا يوجد ما يدفع إلى إنشاء اسم مستعار. ثم من خلال شبكة خريجى جامعة هارفارد، قُدِّمَ زوكربيرج إلى دون جرايم Don Graham مدير شركة واشنطن بوست Washington Post Company، الذى عَرَضَ عليه الاستثمار من خلال الشركة والعمل في مجلس إدارتها[1010].

ثانيًا، تجَاوَزَ زُوكربيرج مَن اعتقدوا خطأً أن الموقع سيفقد جاذبيتَه إذا فُتِحَ لأ شخاص ليسوا فى الكلية، ثم دَفَعَ لاحقًا إلى جَعْله متاحًا لغير الناطقين بالإ نجليزية من خلال أداة ترجمة[1011].

ثالثًا، كان زوكربيرج سريعًا فى رؤية احتمال عمل إضافات ons-add مثل إلحاق الصور tagging-photo وتنبيه المُستخدِمين حين يحدث الإلحاق، و التصور الأعقد بكثير ل«خُلاصة أخبار الأصدقاء» News Feed المعتمد على مشاركة المعلومات عن أنشطة الأصدقاء[1012].

رابعًا، على عكس موقع ماى سبيس MySpace [للتواصل الاجتماعى]، يتيح فيسبوك لمُستخدِميه إنشاء تطبيقات apps داخل فيسبوك، وهو قرار أثبت رواجًا كبيرًا لألعاب فيسبوك مثل فارم فِلِ Farmville التى انتشرت[1013]. وثمة تطور آخر فى المصدر المفتوح يتمثل في الآتى: السياسة العامة الجديدة أتاحت للمُستخدِمين بَيْع إعلاناتهم المُمَوّلة[1014].

---

[868] الكتاب الأحمر الصغير: كتيبٌ طُبِعَ بكل لغات العالم، يتضمن مقتطفات من أقوال الرئيس ماو تسى تونج، وَصَلَ عددُ نُسَخِه المليار تقريبًا. يُعَدُّ من أهم الكتب التى رسّختْ الفكر الماوي بوصفه التطور الثالث للماركسية اللينينية - المترجم.

سَعْىُ زوكربيرج إلى إيرادات الإعلان عَجّلَ بالتمهيد لأجهزة بيكن[869] Beacon ، التي أتاحت للشُّرَكاء الوصول إلى المنصة[1015].

كانت مهمةُ شرل ساندبرج[870] Sheryl Sandberg جَعْلَ الانتقال إلى نموذج إيرادات الإعلان نجاحًا، وذلك عندما أصبحت كبيرةَ مسؤولى تشغيل فيسبوك ، فضلا ً عن دورها الرئيسى فى جوجل بين عامىْ 2001 و2008. ويكمن الفرق الحاسم فى الآتى: «بينما كان جوجل... يساعد الأشخاص فى العثور على الأشياء التى قرّروا شراءها بالفعل، فسيساعدهم فيسبوك على تقرير ما يريدونه، بتمكين المُعْلِنين من إرسال رسائل تستهدف المُستخدِمين، مُناسِبةً لتلبية تفضيلاتهم التي كشفوا عنها بالفعل عبْر نشاطهم على فيسبوك[1016].

فى البداية، حقّقَ ذلك دخلا ً ضعيفًا عند قياسه ب«التكلفة لكل ميل» (التكلفة لكل ألف عرض إعلانى)[1017]. وبمجرد إدراج الإعلانات بسلاسة فى «خُلاصات أخبار» News Feeds المُستخدِمين على تطبيق الهاتف المحمول فيسبوك، صعدت الشركة على الطريق نحو أرباح هائلة[1018].

الأمر الخارق الذى جعل زوكربيرج مليارديرًا هو الانفجار غير المتوقع فى استخدام الهاتف المحمول، مدفوعًا بآي فون أبل الابتكاري والإدماني.

لم يخترع فيسبوك الشبكاتِ الاجتماعيةُ. فكما رأينا، الشبكاتُ الاجتماعية قديمةٌ قِدَم الإنسان العاقل. كل الذى فعله فيسبوك - بإنشائه خدمة مجانية للمُستخدِم وغير مقيّدة بالجغرافيا أو اللغة - هو إنشاء أكبر شبكة اجتماعية لم تُعْرَفْ من قبل. وفى الوقت الذى أكتب فيه، لدى فيسبوك 1.17 بليون مُستخدِم نَشِطٍ يوميًا و1.79 بليون مُستخدِم يقوم بتسجيل الدخول مرة واحدة على الأقل شهريًا. ولا تشمل هذه الأرقام مشاركة الصور على فيسبوك وتطبيق التراسل إنستجرام Instagram[1019].

فى الولايات المتحدة، تصل نسبة مُستخدِمى الإنترنت من البالغين بين أعمار 18 و29 إلى 82%؛ وبين أعمار 30 و49 تصل إلى 79%؛ وبين أعمار 50 و64 تصل النسبة إلى 64%؛ و48% لأعمار 65 سنة فما فوق. إذا كانت هناك سِتُّ

---

[869] بيكن: جهاز لاسلكى صغير يستخدم تقنية البلوتوث لإرسال حزمة بيانات صغيرة. يُعَدُّ أحد تقنيات «إنترنت الأشياء»، ويُقْصَدُ بإنترنت الأشياء جيل الإنترنت الجديد الذى يتيح التفاهم بين الأجهزة المترابطة مع بعضها - المترجم.

[870] شرل ساندبرج: أمريكية من مواليد عام 1969. أول امرأة تنضم إلى مجلس إدارة فيسبوك عام 2012. شغلت فى أغسطس عام 2013 كبيرة مسؤولى تشغيل فيسبوك, وقُدِّرتْ ثروتها فى عام شغلها المنصب بحوالى مليار دولار أمريكى. قبل ذلك كانت مسؤولة المبيعات والعمليات عبر الإنترنت في جوجل - المترجم.

درجات انفصال للبشرية ككل، فبالنسبة إلى مُستخدِمى فيسبوك صار متوسط الرقم الآن 3.57 [1020].

ولا يثير الدهشة أن شبكة فيسبوك تُظهِرُ التجمُّعَ على أساس جغرافى، لأن معظم دائرة الصداقة لدى الناس تنطوي على مكوِّن محلي كبير[1021].

ولكن فيسبوك ينتصر على المسافات بعدد من الطرق لافت للنظر. مجرد القُرْب من مُستخدِمين آخرين ليس أفضل مُنْبِئ باحتمال انضمام المرء إلى فيسبوك؛ ف«الاهتداء» هو وظيفة موقع المرء فى الشبكات الاجتماعية المتعدِّدة الموجودة[1022].

يتصف المُستخدِمون بالاقتصار على المُمَاثِل homophily: المتشابهون، من حيث الاهتمامات المشتركة وأنماط الشخصية، يتجمّعون معًا كما هو الحال دائمًا، وربما توجد حلقة تغذية [ارتجاع] تجعل المُستخدِمين المتشابهين مُتّصِلين أكثر عبْر استخدام فيسبوك[1023]. من الممكن أيضًا تعريف الجماعات المهاجرة إلى الولايات المتحدة بأنها مكوِّنات مميزة للشبكة[1024]؛ ومن اللافت ل لانتباه وجود تنوع كبير في استخدام فيسبوك بين المجموعات العِرْقية[1025].

وفى أوربا، رغم القلق المتزايد من عودة القومية nationalism، فإن فيسبوك يُنَمِّى التكاملَ: كل صيف، عندما يسافر أوربيون إلى بلاد أوربية أخرى فى أيام العطلة، يرتفع عدد أصدقاء فيسبوك عبر البلاد. فارتفعت نسبةُ الصداقات الجديدة داخل أوربا عبر الدول من أقل من 2% فى يناير عام 2009 إلى أعلى من 4% فى أغسطس عام 2016[1026]. اللافت للنظر أيضًا هو قدرة شبكة فيسبوك على نشر الأفكار، و«نقل العناصر الثقافية» [ميمات] memes، وحتى العواطف، بشكل مُعْدٍ وعبْر التجمُّعات الشبكية من خلال روابط ضعيفة[1027].

وكأى شىء يحظى برواج كبير، يجد فيسبوك منتقديه الذّامِّين فيه. كتب الصحفى جوناثان تِبَر Jonathan Tepper قبل وقت قصير من إلغائه حسابه على فيسبوك، قائلا ً: «فيسبوك يبيع انتباهَ المُستخدِمين للمُعْلِنين من كل أنحاء العالم. ويعرف فيسبوك كل شىء تقريبًا عن حياتهم وعائلاتهم وأصدقائهم... فيسبوك أيضًا منصّةٌ بُنِيَتْ على العَرْض والتلصُّص، حيث يقوم كلُّ المُستخدِمين بكتابة أنفسهم لإظهار الجانب الأكثر استحسانًا وهم يتجسّسون بهدوء على أصدقائهم».

وبغضِّ النظر عن زيادة الصداقة - فيما يقول تِبَر - فهو يُقلِّلُ من قيمة الصداقة الواقعية ويَحِلُّ محلّها[1028].

ولا ريب فى أن اقتصادات فيسبوك بعيدةٌ كل البعد عن أيديولوجيته

اليوتوبية. اقتصادات فيسبوك شبيهة باقتصاد المُزَارَعة[871] sharecropping economy، الذى يُزَوِّدُ العديدَ من الناس بالأدوات اللازمة للإنتاج، ولكنه يُرَكِّزُ العوائد فى أيدى القِلّة منهم»[1029]. ولنقل بفجاجة، فى فيسبوك «المُستخدِمُ سلعةٌ».

لقد وَعَدَ فيسبوك بخَلْق عالم متواصل من مُستخدِمى الإنترنت. ولكن بِنْيتَه لا تحقق المساواة إلى حد كبير. فيسبوك لديه 15,724 موظف وقرابة ال 2 مليار مُستخدِم، ولكن القِلّة القليلة فقط هى التى تمتلك فعليًا أسهمًا فى فيسبوك. زوكربيرج نفسه يمتلك أكثر من 28% من حصة الشركة بأسهم بي Shares-B .

شركاؤه المؤسِّسون دوستين موسكوفيتس Dustin Moskovitz، وإدواردو سافرين Eduardo Saverin، وكريس هيوز Chris Hughes، يمتلكون معًا أقل من 13%. المستثمران الأولان شون باركر Sean Parker وبيتر ثيل Peter Thiel يمتلكان 6.5% من الإجمالى. مستثمران آخران من الأوائل - شركة إكسيل بارتنرز Accel Partners التابعة لمؤسسة سِليكون فالى فينشر فوند Silicon Valley Venture Fund، وشركة الإنترنت الروسية ديجيتال سكاى تكنولوجى Digital Sky Technologies - تمتلكان على التوالى 10% و5.4%. ثم خمسة كيانات أخرى فقط - ثلاث شركات في وادى السِّليكون ومايكروسوفت وجولدمان ساكس - تملك أكثر من 1% [1030]. وعلى حدِّ تعبير أنطونيو جارسيا مارتينيز Antonio García Martínez:

«كل مَن يدّعى أن الوادى هو الجدارة هو شخص استفاد من ذلك غاية الا ستفادة بوسيلةٍ لا جدارة فيها كالمصادفة والعضوية فى جماعة ذات امتياز أو بفعلٍ خفيٍّ من أفعال الخداع»[1031].

وبكلمات أخرى: الشبكة الاجتماعية العالمية، هى نفسها مملوكةٌ لشبكة مقتصرة على أعضاء داخل وادي السِّليكون.

إن عواقب ما بعد المصدر المفتوح source- open -post الاجتماعية تميل نحو الاحتكارات الثنائية (مايكروسوفت وأبل) وما يقترب من الاحتكارات الأ حادية (فيسبوك، أمازون، جوجل)، على نحو ينطوى على مفارقة. العالمُ مُتّصِلٌ كما لم يحدث من قبل، وهو ما لا يَمَلُّ المُصَفِّقون لهذه الشركات من قَوْله أبدًا. ومع ذلك، العالمُ غيرُ متساوٍ (من بعض النواحى)، كما لم يحدث على

---

[871] المُزَارَعة: فى الأصل مُعامَلَةٌ على الأرض ببعض ما يخرج منها، بمعنى إعطاء الأرض لمَن يزرعها مقابل نصيب من خراجها كالنصف أو الثلث أو بحسب الاتفاق.

وتنطوي المزارعة بهذا المعنى على التعاون والتشارك بين مالك الأرض ومُزارعها - المترجم.

مدى قرنٍ [ماضٍ].

ستةٌ من أغنى ثمانية رجال فى العالم هم: بِلْ جيتس (تُقدّرُ ثروته الشخصية ب 76 مليار دولار)؛ كارلوس سليم Carlos Slim (50 مليار دولار)؛ وجيف بيزوس (45 مليار دولار)؛ مارك زوكربيرج (45 مليار دولار)؛ لارى إليسن Larry Ellison (44 مليار دولار)؛ مايكل بلومبيرج Michael Bloomberg (40 مليار دولار).

تكوّنَتْ ثرواتُهم، على التوالى، من البرمجيات والاتصالات والبيع بالتجزئة على الإنترنت، والشبكات الاجتماعية، وبرمجيات المشروعات وبيانات البيزنس[1032].

وليس السبب فى ثرائهم أنهم «نجومُ» العالم فى مشروعات تجارية أو صناعية، بل أسّسَ كلٌّ منهم شيئًا قريبًا من الاحتكار الأحادى. ففى حالة فيسبوك، أكثر من مليار شخص يستخدمون ويندوز مايكروسوفت ويوتيوب وأندرويد، ولا ننسى تطبيق التّراسُل واتس آب WhatsApp الذى حصل عليه فيسبوك عام 2014. وتستطيع هذه الكيانات شِبْه الاحتكارية توليدَ عوائد هائلة للمساهمين الرئيسيين في المدى المنظور[1033].

ولنَضربْ مثالاً واحدًا: من المتوقع زيادة حصة جوجل وفيسبوك المشتركة من جميع الإعلانات الرقمية فى عام 2017 إلى 60%. جوجل لديها 78% من البحث الأمريكى فى الإعلانات. وفيسبوك لديه ما يقرب من خُمْسَىْ الإعلانات المعروضة أونلاين[1034].

وتُتَرْجَمُ هذه الهيمنة إلى إيرادات ضخمة. من المتوقع أن يربح فيسبوك 16 مليار دولار من عَرْض الإعلانات أونلاين فى عام 2017. البيزنس يُقيّمُ اليوم بحوالى 500 مليار دولار، تشمل كمًّا نقديًا مهولاً [كاش بايل] cash pile[872]، بما يجعل زوكربيرج جاهزًا لشراء أىِّ منافِس محتمَل فى مرحلة مبكرة (مثل إنستجرام الذى لديه اليوم 600 مليون مُستخدِم، وواتس آب الذى لديه أكثر من مليار مُستخدِم)[1035]. وذلك بالإضافة إلى فوائد هيمنة الإعلان الأخرى. ففى 25 ألف عملية بحث عشوائية على جوجل، تظهر إعلاناتُ منتجات جوجل في نافذة بارزة أكثر من 90% من الوقت[1036].

تبدو الحالةُ الراهنة مذهلةً عندما يفكر المرء فى الوظائف التى تُؤدّيها هذه الشركات. جوجل هى، فى الأساس، مكتبة عالمية هائلة، متى ذهبنا للبحث. أمازون بازارٌ عالمى هائل، حيث يذهب المزيد والمزيد مِنّا للشراء. فيسبوك

---

[872]كاش بايل: كمٌّ كبير من المال تملكه شركةٌ، وتستخدمه فى شراء شركات أخرى أو أصول - المترجم.

نادٍ عالمىٌّ هائلٌ. وليست الوظائف الشبكية المتنوعة التى تُؤدِّيها هذه الشركات بجديدة؛ الحاصل فقط أن التكنولوجيا جعلت الشبكاتِ ضخمةً وسريعةً جدًا فى آنٍ معًا. لكن الفرق الأكثر إثارة للاهتمام أن المكتبات و النوادى الاجتماعية فى الماضى لم تكن تربح المال من الإعلان: كانت المكتبات والنوادى [فى الماضى] غير ربحية، وتُموّلُ من التبرعات أو الا شتراكات أو الضرائب. الواقع الثورى حقًا أن مكتبتنا العالمية ونادينا العالمى مُزيّنان بلوحات [إعلانية]، وكلما أخبرناهما عن أنفسنا، أصبح الإعلانُ أكثرَ فعّالية، فيُرْسِلاننا إلى بازار بيزوس [أمازون] بوتيرة متزايدة. وليس اعتباطًا أن تتكوّنَ كلمةُ سِرّ المستثمر من اجتماع الحروف الأولى لكلٍ من فيسبوك Facebook وأمازون Amazon ونيتفليكس Netflix (شركة أفلام أونلاين) وجوجل Google؛ ألا وهى كلمة FANG [التى تعنى: ناب، مخلب، شَوْكة]. ويعود الفضل إلى تأثير «ملاءمة الثراء»[873] richer- get -fit ، بما يجعل تكنولوجيا المعلومات العالمية [شبكة] حُرّة النطاق free-scale : تكنولوجيا تُهيمن عليها مَحَاوِرٌ فائقةُ الترابط connected hubs-super ، قليلةُ العدد، حتى لا تقلّ عائداتُ البيزنس[1037].

تبدو ممارسة فيسبوك، فى سَعْيه الذى لا هوادة فيه للهيمنة على السوق، على طرفىْ نقيض من دعايته. فتَرقِّى زوكربيرج من مُطوّر فى غرفة سكن [جامعية] إلى الرئيس التنفيذى زوك Chairman Zuck كان سريعًا بشكل ملحوظ.

قال فى عام 2008: «يشبه فيسبوك - فى كثير من النواحى - الحكومةُ أكثر مما يشبه شركةً تقليدية. نحن لدينا هذا المجتمع الكبير من الناس، ونضع سياسات واقعية أكثر مما تفعل شركاتُ تكنولوجيا أخرى»[1038]. «الكتاب الأحمر الصغير» يدين بأكثر من مجرد نسبته إلى ماو؛ فنغمتُه نغمةُ طليعةٍ ثورية واعية بنفسها: «السريعُ يَرِثُ الأرضَ»[874] «العظمة والراحة نادرًا ما يتعايشان». و: «تغيير طريقة تواصُلِ الناس تُغيّرُ العالم دائمًا»[1039].

بعد عام 2008، بدأت المُلصقات على حوائط المقر تُرَجِّعُ صدى الدعاية التوتاليتارية [الاستبدادية]: «تحَرّكْ وكُنْ جريئًا!» PROCEED AND BE BOLD!، «ارْتفِعْ أعلى من رأسك!» GET IN OVER YOUR HEAD!، «ليكُنْ لك تأثيرا!»

---

[873]بمعنى أن العُقدَة ذات الملاءمة الأعلى تحصل على روابط بمعدل أعلى من العُقد الأقل م لاءمة - المترجم.

[874]«السريعُ the quick يَرِثُ الأرضَ» بدلاً من عبارة السيد المسيح «الوديعُ the meek يَرِثُ الأرضَ» - المترجم.

«MAKE AN IMPACT!»[1040].

ويُقالُ إن زوكربيرج «لا يريد أن يَحْكُمَ فيسبوك فقط، بل يريد أن يَحْكُمَ، بمعنى ما، البنيةَ التحتية للاتصالات المتطوّرة على ظهر الكوكب»[1041]. بل تنتشر تكهُنات بأنه ربما يفكر فى الترشُح لرئاسة الولايات المتحدة[1042]. ولكن عقلية مؤسِّس فيسبوك تبدو أكثرَ عَوْلميةً وأقلّ ديمقراطيةً مما قد يُتَوَقَّعُ من قابضٍ على هذا المنصب. فكما لاحظ أحد الموظفين السابقين، وهو يتذكّرُ العديدَ من الموظفين الذين اختاروا ارتداء قمصان فيسبوك الزرقاء للعمل: «القمصان البُنِّية Brownshirts[875] صارت قمصانًا زرقاء Blueshirts، فكنّا جميعًا جزءًا من كتيبةِ عاصفةِ Sturmabteilung الميديا الاجتماعية الجديدة»[1043].

ولا ريب فى خطأ هذا التشبيه، لأن زوكربيرج يبدو مُخْلِصًا فى رؤيته ل «مجتمع عَوْلمى» مُتّصِل. فى فبراير عام 2017، نَشَرَ زوكربيرج مقالةً يقول فيها إن دورَ شركته تعزيزُ المجتمعات المحلية «ذات المعنى والهدف»، وزيادة «الأمان» (عن طريق فَلْترة المحتوى المُعَدِّى بالكراهية)، وتشجيع تنوُّع الأفكار، ورعاية المشاركة المدنيّة، على مستوى عالمى. كتب يقول أيضًا: «يستطيع فيسبوك بوصفه أكبر مجتمع عالمى، أن يُقدِّمَ القدوة والنموذج لطريقة اشتغال حَوْكمة المجتمع على نطاق واسع»[1044].

السؤال الحقيقى هو: إلى أىِّ مدى تكون هذه الرؤيةُ لمجتمع عالمى رؤيةً واقعية؟ وإلى أىِّ مدى تُؤدِّى عواقبُ فيسبوك - وأمثاله - غيرُ المقصودة إلى اتجاه عكسيٍّ تمامًا[1045].

---

[875] القمصان البُنِّية: تشير إلى «كتيبة العاصفة» Sturmabteilung، الجناح شِبْه العسكرى للحزب النازى الذى لعب دورًا رئيسيًا فى صعود أدولف هتلر إلى السلطة، والذى روّجَ للعداء الشرس تجاه اليهود والشيوعيين والرأسماليين, وقد سُمِّىَ أفرادُ الكتيبة باسم «أصحاب القمصان البنية» نسبةً إلى لون زيّهم العسكرى. أنهى هتلر دورَهم عام 1934 فيما عُرِفَ ب «ليلة السكاكين الطويلة» أو «عملية الطائر الطنّان» أو ما يُعْرَفُ بالألمانية «روم بوتش»، وهى عملية تطهير نَفّذَ فيها النظامُ النازى سلسلةً من الإعدامات السياسية، وكان معظم القتلى من أصحاب القمصان البُنِّية - المترجم.

54

انحلال وتفكك

بحلول عام 2010، صار العالمُ على شفا ثورتين، تقود كلا ً منهما تأثيراتُ تكنولوجيا المعلومات إلى حد كبير. الثورة الأولى هى ثورة ارتفاع التوقّعات فى العالم النامى developing world. والثورة الثانية هى ثورة انخفاض التوقّعات فى العالم المتقدِّم developed world. نشأت الثورة الأولى عن انخفاض عدم المساواة فى العالم ككل. ونشأت الثورة الثانية عن ارتفاع عدم المساواة داخل عدد من البلاد المهمة، ولا سيما الولايات المتحدة. ومن الخطأ نسبةُ كل التغيير إلى التكنولوجيا، كذلك من الخطأ نسبتُه إلى العَوْلَمة، ذلك أن العمليتين لا يمكن الفصل بينهما بطريقة لها معنى. التحليل الأدق أن النمو السريع لشبكة عالمية فائقة هو الذى قادَ بشكل رئيسى الثورةَ، كما أن هذه الظاهرة - مُرَكّب التغيير التكنولوجى والتكامل العالمى - هى التى جعلت العالَمَ ككل أكثرَ «تسَطُّحًا» flat، وفى الوقت نفسه جعلت المجتمعَ الأمريكى (بتعبير تشارلز موري[876] Charles Murray) «مُفَكّكًا».

طبقًا لدراسةٍ يُسْتَشْهَدُ بها على نطاق واسع، قام بها أوكسفام [اتحاد المنظمات الخيرية الدولى لمكافحة الفقر] Oxfam، ثروةُ أغنى 1% من الناس أكبرُ من بقية العالَم مُجْتمِعًا. فى عام 2015، طبقًا لأوكسفام، ثروةُ 62 شخصًا فقط تُعادِلُ ثروة 3.6 مليار شخص: «النصف السُّفْلى» للبشرية. وهذا النصف السفلى تلقّى - منذ مطلع القرن - 1% فقط من إجمالى الزيادة فى الثروة العالمية، في حين ذَهَبَ 50% من هذه الزيادة إلى ال 1% الذين على القمة[1046].

يصل كريدي سويس [مَصْرف سويسرى] Crédit Suisse إلى أرقام مماثلة: يُقَدِّرُ البنكُ أن حصة الثروة العالمية فى أيدى ال 1% الذين على القمة وصلت إلى 50% فى عام 2015. ويملك حوالى 35 مليون مليونير أكثرَ من 45% من كل ثروة العالَم؛ ويملك 123,800 شخص أكثرَ من 50 مليون دولار، ويملك 44,900 شخص أكثرَ من 100 مليون دولار، ويملك 4,500 شخص أكثرَ من 500 مليون دولار[1047]. أقلُّ من نصف كلِّ المليونيرات يعيشون فى الولايات المتحدة، حيث الربح التراكمى فى الدخل الحقيقى ل 0.01% الذين على القمة، منذ عام 1980، هو 542% (استنادًا إلى حسابات الاقتصاديَيْن إيمانويل سِيز Emmanuel Saez وتوما بيكيتى Thomas Piketty). وبالنسبة إلى كل

---

[876]تشارلز مورى: من مواليد عام 1943، عالِم سياسة أمريكى ومؤلِّف وكاتب عمود صحفى - المترجم.

أمريكي من ال 90% وأقل، انخفض الدخلُ الحقيقى قليلا ً فى الفترة نفسها[1048].

متوسط دخل الأسرة الأمريكية فى عام 1999 كان 57,909 دولارًا. وفى عام 2015 كان 56,516 دولارًا[1049]. ذلكم هو التسلسل الهَرَمى الأخير فى العالم اليوم: هَرَميّةُ الثروة والدّخْل تشكّلَتْ على هيئة مَبْنَى له قاعدة عريضة جدًا وبُرْج طويل ورفيع جدًا.

ومع ذلك، توجد ثلاثة محاذير مهمة. أولا ً، استنادًا إلى بيانات المَسْح الأ مريكى لتمويل المستهلك US Survey of Consumer Finance، الزياداتُ فى حصص ال 1% الذين على القمة وال 0.1% الذين على القمة فى الثروة و الدخل معًا، ليست كبيرةً تمامًا كما زعم بيكيتى وسِيز[1050]. ثانيًا، عدد الأ شخاص فى قائمة فوربس[877] Forbes 400 الموضوعون على هذه القائمة بقوة الثروة الموروثة انخفض بشكل مُطّرد فى الوقت الحاضر: من 159 شخصًا فى عام 1985 إلى 18 شخصًا فقط فى عام 2009[1051] دورةُ رأس المال على القمة لم تكن أعلى. ثالثًا، نمو الطبقة الوسطى العالمية - ما يُفَضِّلُ الماركسيون تسميته ب«البرجوازية» - يُعَدُّ تغييرًا اجتماعيًا عميقًا يُضارعُ عُمْقَ تراكم الثروة لدى ال 1%.

فقد نَمَت الطبقةُ الوسطى الصينية، بين عامىْ 2000 و2015، بما يقرب من 38 مليونًا، وباستعمال المُحدِّد نفسه نَمَت الطبقةُ الوسطى الأمريكية أيضًا بمعدل 13 مليونًا. وفى جميع أنحاء العالم، نَمَت الطبقةُ الوسطى فى الحجم بمعدل 178 مليونًا، وهو ما يعني 31% زيادة منذ عام 2000[1052].

وطبقًا لأحد التقديرات، انخفض مُعامِل جينى[878] Gini coefficient لقياس عدم المساواة العالمية من 69 فى عام 2003 إلى 65 فى عام 2013، وسينخفض أكثر إلى 61 فى عام 2035[1053]. باختصار، الأدلةُ مُقْنِعةٌ بأن توزيع الدخل العالمى صار أقلّ فى عدم مساواته كثيرًا منذ عام 1970، ومن المرجح استمرار الانخفاض[1054]. السائق الأكبر لهذا هو بَرْجَزة embourgeoisement الصين، ولكن هذا ليس سوى حوالي خُمْس القصة العالمية[1055].

التفسير التقليدى أن العَوْلمة قَلَّلَتْ عدمَ المساواة العالمى، بمعنى أن النمو السريع جدًا للصين واقتصادات أخرى ناشئة لم يكن ممكنًا دون زيادة تدفقات

---

[877] فوربس: شركة نشر ووسائل إعلام أمريكية، وأبرز منشوراتها مجلة فوربس الشهرية التي تهتم بإحصاء الثروات ومراقبة نمو المؤسسات المالية حول العالم - المترجم.

[878] مُعامِل جينى: من المقاييس الأهم والأكثر انتشارًا لقياس عدالة توزيع الدخل القومى، ويتميز بأنه يعطي قياسًا رقميًا لعدالة التوزيع - المترجم.

المشروعات وتدفقات رأس المال التى حدثت بعد سبعينيات القرن العشرين. وقد ساعدت زيادة الهجرة الدولية أيضًا، فى الإطار الزمنى نفسه، على تقليل عدم المساواة، بانتقال الناس من اقتصادات أقل إنتاجية إلى اقتصادات أكثر إنتاجية. ولكن من غير المتصور وجود الكثير من المشروعات والاستثمار عبر الحدود والهجرة دون الابتكارات التكنولوجية التى ناقشناها أعلاه، كما أن القفزات التكنولوجية إلى الأمام كانت ستكون أقل، وأبعد عن بعضها، دون المكوّنات الآسيوية الصُنْع وسلاسل الإمداد العالمية الرخيصة. والزيادة الأكبر فعلا ً فى تدفقات المعلومات الدولية هى التى جعلت إعادةَ التوزيع العالمية الأكفأ لرأس المال والعمل ممكنةً.

النقطة الحاسمة هى حدوث تحسين كبير فى الشروط النسبية وفى الشروط الثابتة، على مدى الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية، لدى معظم الناس فى العالم. وعند تفسير الثورات فى العالم النامى، فسيتضمن التفسيرُ تأثيرَ ارتفاع التوقّعات.

ومع ذلك، تنطوى العَوْلَمة على آثار مختلفة تمامًا بالنسبة إلى الدّخْل وتوزيع الثروة داخل العديد من البلاد. من المعتاد الاعتقاد بأن ما يُسَمّى «مخطط الفيل» elephant chart [879] يُوَضِّحُ هذه النقطة، وهو مخطط ابتكره برانكو ميلانوفيتش Branko Milanovic وكريستوف لاكنر Christoph Lakner، يُصوّران به الطبقةَ العاملة والطبقةَ الوسطى فى الاقتصادات المتطورة بوصفهما خاسرتيْن بسبب العَوْلمة[880].

وفى حقيقة الأمر، الفيل فى الغرفة يترك الغرفة تمامًا إذا عَدّلَ المرءُ التغييرات فى حجم البلد وأسْقطَ اليابانَ والاتحادَ السوفييتى السابق و الصينَ من البيانات[1056]. ورغم ذلك، ثمة شىء ما سَيّئٌ بالنسبة إلى الطبقة العاملة والطبقة الوسطى الأمريكية، وربما الطبقة الوسطى فى بعض البلاد الأ وربية أيضًا[1057]. فلا ريب أن المنافسة الآسيوية دمّرَتْ عددًا كبيرًا من الوظائف فى مجال الصناعة فى الولايات المتحدة[1058]. فمَن ترنّحوا فى الولا يات المتحدة أثناء الأزمة المالية، وبعدها، أصابهم التشاؤمُ من مستقبلهم

[879] مُخطط الفيل: سُمِّى بهذا الاسم لأنه يتخذ شكل الفيل، ابتكره لاكنر وميلانوفيتش فى كتابهما: «عدم المساواة العالمية: نحو نَهْج جديد لعصر العَوْلَمة» - المترجم.

[880] يُعيّنُ المخطّطُ متوسطَ نصيب الفرد من دخل الأسرة لكل نسبة مئوية من توزيع الدخل العالمى، ويزعم إيضاح أن المجموعات بين ال 10% و70% نسبة مئوية، مع المجموعات فى النسبة المئوية الأخيرة، حققت أوضاعًا أفضل بكثير بين عامىْ 1998 و2008 من المجموعات بين 70% وال 100%. ويُشْبِه الخطٌّ فيلا ً، بظَهْر مُنْحنٍ ورقبة منخفضة وزلومة منتصبة - المؤلف.

بدرجة كبيرة، رغم نجاح برامج الرعاية الاجتماعية - الذى لم يُنوّه به أحدٌ - فى تخفيف آثار «الركود الكبير» على أصحاب الدّخْل المنخفض. ما يقرب من خُمْسى الأمريكيين، فى مَسْحٍ أجراه معهد مَكينزى العالمى McKinsey Global Institute عام 2016، أيّدوا بقوة إحدى العبارتين الآتيتين: «وَضْعى المالى أسوأُ مما كان عليه قبل خمس سنوات»، و/أو «وَضْعى المالى أسوأُ من وَضْع والدىّ، عندما كانا فى مثل عمرى». هؤلاء كانوا أكثر تشاؤمًا نحو مستقبلهم ومستقبل أولادهم المالي.

وقد ألقى هؤلاء المتشائمون باللائمة الكبرى على الهجرة والسلع الأجنبية و «العمالة الأجنبية الرخيصة»، لأنها على التوالى «تُدَمِّرُ ثقافةَ مجتمعنا وتماسكه»، «الأمر الذى يُؤدِّى إلى فقدان الوظائف المحلية» و«خَلَق منافسة غير عادلة للأعمال والمشروعات داخل الوطن»[1059].

هذا التشاؤمُ متجذّرٌ فى أبعد من مجرد ركود الدخول الحقيقية. ربما انخفض الحراكُ الاجتماعي في الولايات المتحدة، أو لم ينخفض[1060].

لكن من الواضح وجود شىء ما خاطئ. ففى كل أرجاء العالم المُتقدِّم، ينخفض معدل الوفيات ويرتفع طول العمر، لكن ليس فى أمريكا البيضاء (غير اللاتينية)، ولا سيما فيما بين الأمريكيين البيض فى منتصف العمر الذين لم يمتد تعليمهم أبعد من المدرسة الثانوية. بالنسبة إلى هذه المجموعة، التى تتراوح أعمارها بين 45 عامًا و54 عامًا، ارتفع معدّلُ الوفيات من حالات التسمم (ومعظمها بسبب إفراطٍ فى جرعة المخدرات) إلى أكثر من أربعة أضعاف بين عامىْ 1999 و2013، من 14 إلى 58 كل مئة ألف شخص، فى حين ارتفع معدّلُ الوفيات الناجمة عن أمراض الكبد المزمنة والتليُّف الكبدى بنسبة 50%، وتوقّفَ الانخفاضُ فى معدّل الوفيات الناجمة عن أمراض القلب. حين استمر معدّلُ وفيات البيض فى الانخفاض حتى معدّله قبل عام 1999 بانخفاض 1.8% كل سنة، أمْكنَ تجنُّب ما يقرب من نصف مليون حالة وفاة في الفترة من عام 1999 حتى عام 2013.

شخصٌ واحدٌ من كل ثلاثة بِيض غير لاتينيين، تتراوح أعمارُهم بين 45 عامًا و 54 عامًا أبْلَغَ عن ألم مفاصل مُزْمِن، وشخصٌ واحدٌ من كل خمسةٍ أبْلَغَ عن آلام رقبة، وشخصٌ واحدٌ من كل سبعة أبْلَغَ عن ألم عِرْق النِّسا[1061]. ولا يمكن تفسير هذه الاتجاهات التى استمرت خلال عام 2015، بعبارات اقتصادية بسيطة من قبيل: مؤشرات الدخل عند الأمريكيين غير البيض فى أوضاع مماثلة ليست بأفضل حالا ً، لكنهم لا يعانون من تلك الزيادات فى اعتلال الصحة ومعدّل الوفيات. التفسير الأفضل المتاح هو أن «الضررَ المتراكم على مدى الحياة، فى سوق العمالة، وفى الزواج والإنجاب، وفى الصحة، ناجمٌ عن تدهور

تدريجي في فُرَص سوق العمالة»[1062].

ومن المحتمل أن الأمريكيين البيض فى منتصف العمر، الأكثر بؤسًا، هم الذين يتعاطون المخدرات أو يشربون الخمر حتى يذهبوا بأنفسهم إلى القبور مبكرًا. المَخْرج غير الانتحارى للقوى العاملة، التى اختارت فوائدَ عجز الضمان الا جتماعى[881] Social Security Disability، يساعد على تفسير السبب فى انخفاض مشاركة القوى العاملة من الذكور، فى سنِّ الرُّشد، بشكل حاد فى الو لايات المتحدة، أكثر من أماكن أخرى[1063]. فى ضوء ذلك، يُعَدُّ الاضطرابُ السياسى الذى حدث فى الولايات المتحدة عام 2016 ثورةً بسبب انخفاض التوقعات.

لعل الطريقة الصحيحة لفَهْم العلاقة بين الشبكات وعدم المساواة - على حدِّ تعبير مؤلِّفى ورقةٍ تفتح آفاقًا جديدة فى الموضوع - أن «عدم المساواة فى الشبكات الاجتماعية تُعَزّزه الأسواقُ فى حالة المُكَمِلات، ولكنه ينخفض فى حـ الة البدائل»[1064].

عندما وَصَلَ التحرُّرُ الاقتصادى إلى شبكات الطبقة العاملة فى بومباى Bombay [فى الهند]، كانت الشبكةُ والسوقُ بديلين، بمعنى أن السوق يُنحِّى الشبكةَ بعَرْض خياراتٍ جديدة أمام الأفراد المترابطين [المُتّصِلين] بشكل ضعيف.

فكانت النتيجةُ انخفاضَ عدم المساواة. لكن حين حصل صيّادو السمك فى كيرالا Kerala [فى الهند] على هواتف محمولة، أكمَلَت الشبكاتُ والسوقُ أحدَهما الآخر، لأن صيّادى السمك المُتّصِلين بشكل أفضل كانوا أقدر على الا ستفادة من فُرَص السوق. وفى هذه الحالة، كانت النتيجةُ عدمَ مساواة أكبر[1065].

وينطبق هذا الإطار عالميًا أيضًا. العَوْلَمة جلبت السوقَ إلى العُمّال والفلاحين فى الصين، الذين كانوا حتى تلك اللحظة غير مُتّصِلين بالعالم ومُحاصَرين داخل نظام هَرَمىٍّ جامد أنشأه ماو Mao. وهو ما قَلّل عدمَ المساواة. أما فى الولايات المتحدة فأكمَلَت الشبكاتُ والأسواقُ أحدَهما الآخر، لأن الأمريكيين المُتّصِلين بشكل أفضل جَنوا معظمَ أرباح العَوْلَمة؛ وهو ما أقرّه تقريرُ البنك الدولي في عام 2017[1066].

وقد يوجد العديد من الأسباب للتشكيك فى الدليل المستنبط من المَسْح الا

---

[881] عجز الضمان الاجتماعى: تدفع التأمينات الاجتماعية فوائد العجز للفرد ولأفراد معينين من أسرته، إذا عمل لفترة طويلة ولديه حالة طبية منعته من العمل، أو من المتوقع أن تمنعه من العمل - المترجم.

اجتماعى الأمريكى العام US General Social Survey للانكماش الكبير فى الشبكات الاجتماعية التقليدية، الذى يُعْزَى بعضُه إلى صعود الشبكات الإلكترونية وأجهزة الموبايل التي تُشجِّعُ استخدامَ هذه الشبكات[1067].

وفى الحقيقة، لا يوجد دليلٌ مُقنِع على أن زيادة استخدام الإنترنت تُؤدِّي إلى مشاركة اجتماعية محلية أقل؛ فربما العكسُ هو الصحيحُ[1068]. ورغم ذلك، من الصعب إنكارُ تميُّز العقدين أو العقود الثلاثة السابقة بزيادة الاستقطاب الاجتماعى والسياسى. كانت السماتُ البارزة فى هذه العملية انكماشًا ملحوظًا فى شبكات المناقشة الأساسية لدى الأمريكيين، التى تشمل أفرادًا من غير العائلة أقل مما كان فى الماضى[1069]، وانزواء مؤسّسات التواصل الشبَكى التقليدية، كالتي تمركزت حول الكنائس والجمعيّات التطوعية المحلية[1070].

55

الثورة بقيادة تويتر Tweeting the Revolution

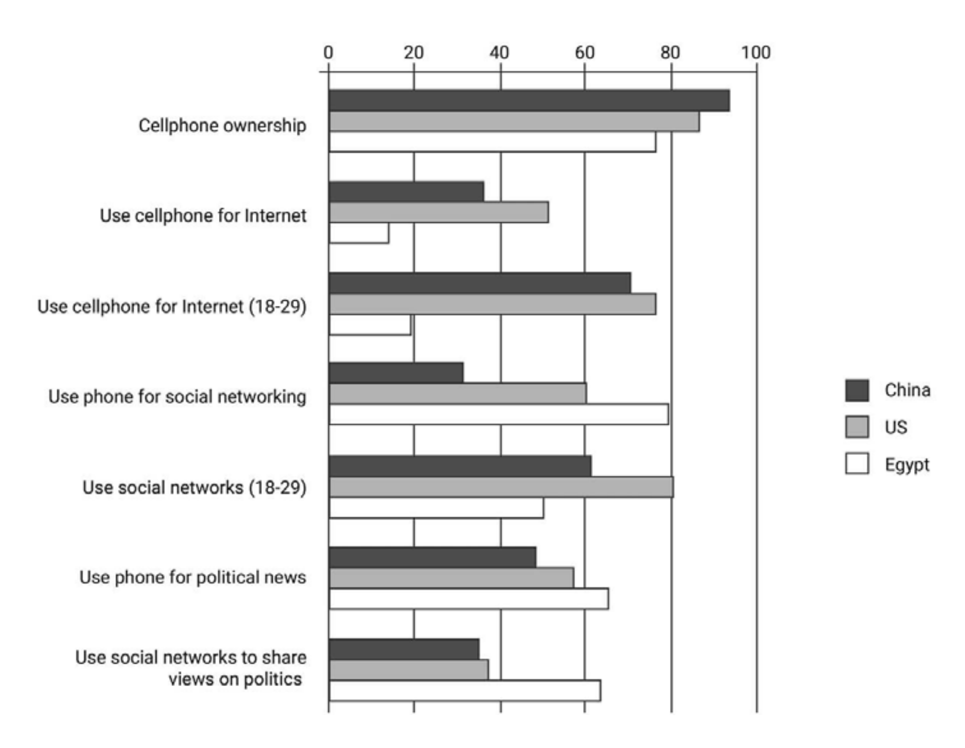
كما تُبيّنُ حالةُ صيّاد كيرالا، يكمن المُتغيّرُ الحاسم الذى جَعَلَ التغييراتِ الا جتماعيةَ شديدةَ الانفجار أوائل القرن الحادى والعشرين، فى النموّ الهائل للهاتف المحمول. كانت الابتكاراتُ فى الهواتف المحمولة مصادفةً سعيدة [هبةً من السماء] لشركات الاتصالات التقليدية مثل إيه تى آند تى[882] AT & T وفيرايزن[883] Verizon (سابقًا بيل أتلانتك Bell Atlantic ونينكس NYNEX) ونظرائها حول العالم[1071].

ورغم وجود تنافس بين مُصنِّعى الهواتف (بفضل المقاييس الكبيرة التى وضعتها جوجل عند إنشائها نظام التشغيل Android بوصفه منافِسًا لنظام تشغيل أبل iOS)، فلم يوجد سوى تنافس محدود بين مُزوّدى الشبكة، لذلك بقيت الاشتراكاتُ مرتفعةً نسبيًا. وأبقاها الطلبُ العام مرتفعةً. وكما يُبيّنُ الشكلُ 40، ارتفعت معدلاتُ اقتناء الهاتف المحمول عام 2010، فى مجتمعات مختلفة اقتصاديًا اختلاف الولايات المتحدة والصين ومصر، ورغم تخلُّف مصر من حيث اعتماد الهاتف الذكى smart phone، فإن استخدام الهواتف للتواصل الشّبَكى الاجتماعى وتشارُك الأخبار السياسية كان أكثرَ تقدُّمًا فيها[1072]. مع الهواتف المحمولة، بل أكثر مع الهواتف الذكية، ظلت شبكاتُ التواصل الاجتماعي أونلاين طول الوقت.

---

[882] إيه تى آند تى: شركة اتصالات أمريكية تأسّست عام 1983، تعمل فى مجال الاتصالات، تقوم بتوفير الخدمات الرقمية التي تحتاجها أجهزة التلفاز والهاتف والإنترنت - المترجم.

[883] فيرايزن: أكبر شبكة اتصالات متنقلة فى الولايات المتحدة الأمريكية، تأسّسَتْ عام 2000 - المترجم.



الشكل رقم: 40 - استخدام الهواتف المحمولة والشبكات الاجتماعية فى الصين والولايات المتحدة ومصر، 2010.

إذا كان فيسبوك قد أشبع، فى البداية، حاجةُ الإنسان إلى الثرثرة، فقد أشبع تويتر Twitter - الذى تأسّسَ فى مارس 2006 - حاجتَه النوعية إلى تبادل الأ خبار، وغالبًا (وليس دائمًا) أخبار سياسية. بحلول عام 2012، نَشَرَ أكثرُ من مئة مليون مُستخدِم 340 مليون «تويتة» tweets يوميًا.

لكن هل سيقود تويتر الثورة؟ لم يعتقد مالكوم جلادويل[884] Malcolm Gladwell ذلك، وهو يُحلِّلُ فشلَ الثورة الإيرانية «الخضراء» عام 2009. فمن وجهة نظره، ليست الميديا الاجتماعية social media بديلا ً عن شبكات النُشَطاء القديمة من النوعية التي أطاحت بالشيوعية في أوربا الشرقية[1073].

أما فى جوجل، فكان لدى إريك شميت[885] Eric Schmidt وجارد كُوين[886]

[884]مالكوم جلادويل: من مواليد عام 1963، صحفى كندى إنجليزى، ومؤلِف أربعة كُتُبٍ تصدّرَتْ جميعُها قائمةَ نيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعًا - المترجم.

[885]إريك شميت: من مواليد عام 1955، رئيس شركة جوجل ومديرها التنفيذى السابق، وعضو سابق في مجلس إدارة شركة أبل – المترجم.

[886]جارد كُوين: من مواليد عام 1981، ينتمى إلى أسرة يهودية أمريكية. حصل على ماجستير الفلسفة فى العلاقات الدولية من جامعة أكسفورد، ويجيد اللغة العربية بطلاقة . يشغل حاليًا منصب الرئيس التنفيذى لشركة چيجسو Jigsaw) واسمها السابق أفكار

Jared Cohen وجهةُ نظرٍ مختلفة. في مقالة ثاقبة النظر نُشِرَتْ في نوفمبر عام 2010، قالا إن الحكومات س«تُفاجَأ حين تُشَارِكُ أعدادٌ كبيرة من مواطنيها، لا يتسلّحون بأيِّ شيء سوى الهواتف المحمولة، في تمرُّدات مُصَغّرة mini-rebellions تتحدّى سلطةَ هذه الحكومات»[1074].

«الفعل الحقيقي» فيما أسمياه «حالة التواصل» أو «الحَوْزَة المترابطة»، يوجد في «المكاتب المكتظة في القاهرة»، وكذلك «في شوارع طهران. فمِن هذه الأ ماكن وغيرها، يحشد النُشَطاءُ والمهووسون بالتكنولوجيا الناسَ في «احتجاجات خاطفة» [تجمّع مفاجئ][887] flash mobs سياسية تهزُّ الحكوماتِ القمعيةَ هَزًّا، ويبنون أدواتٍ جديدةً تفلت من جدرانِ الحماية والرقابة، فينقلون وينشرون عبر تويتر صحافةً أونلاين جديدة، ويكتبون مشروع قانون حقوق الإنسان في عصر الإنترنت»[1075].

لقد انتصر جوجل على جلادويل؛ وليس هذا بالمستغرب لأن الدليل على تأييد أطروحة شميت - كوين كان يتراكم على مدى سنوات، بالهواتف المحمولة و الميديا الاجتماعية التي تلعب أدوارًا مهمة في الأزمات السياسية في بلاد متنوعة تنوّع مولدوفا[888] Moldova والفلبين وإسبانيا، بل المقاطعة الصينية شينجيانج Xinjiang [1076].

جوجل Google Ideas.(ضمّته كوندوليزا رايس لوزارة الخارجية ضمن طاقم تخطيط السياسات كأصغر عضو في تاريخ الحكومة الأمريكية (24 عامًا حينئذٍ). ركّزَ كوين على مكافحة الإرهاب والتطرف وشؤون الشرق الأوسط وجنوب آسيا والشباب والتكنولوجيا . في عام 2008 أدار كوين خطةً رسمتها وزارةُ الخارجية الأمريكية، سُمِّيَتْ «تحالف الحركات الشبابية»، تُركِّزُ الخطةُ على كيفية استخدام المواقع الإلكترونية الاجتماعية مثل «فيسبوك» بوصفها أداةً لتعزيز التنظيمات والنشاطات الشبابية في الأنظمة القمعية . وحسب نيويورك تايمز، يُعَدُّ كوين أحدَ المُصَمِّمين الرئيسيين لما عُرِفَ عام 2010 ب «صناعة الدول في القرن الحادي والعشرين» مع ريتشارد بولي وآخرين في وزارة الخارجية الأمريكية.

يوصف كوين بأنه مهندس الديمقراطية الرقمية والثورات المخملية. كوين واحد من مئة مُغَيّر للعبة game changers - المترجم.

[887]احتجاج خاطف أو تجمُّع مفاجئ: مجموعة من الناس تتجمّع بشكل مفاجئ في مكان ويقومون بأفعال غير اعتيادية لفترة وجيزة ثم يتفرقون، يغلب على أفعالهم الترفيه و التسلية أو نشاط فني. اكتسب هذا النوع من التجمعات مؤخرًا أهدافًا احتجاجية - المترجم.

[888]مولدوفا: دولة أوربية ذات نظام جمهوري، تقع شرق أوربا بين أوكرانيا ورومانيا - المترجم.

الأزمة المالية وفترات الركود التى سبّبتها، جَعَلَت شرعيةَ الحكومات فى جميع أنحاء العالم تتآكل. ومع ذلك، لم يتأثر النظامُ الهَرَمىُّ الراسخ فى الولا يات المتحدة أو حتى فى أوربا بهذه القوى الجديدة أولا ً. فالأحداث الثورية revolutionary events التى اجتاحت الشرقَ الأوسط وشمالَ أفريقيا، بدءًا بتونس فى ديسمبر عام 2010 - وهى الأحداث المُسَمّاة تسمية مغلوطة «الربيع العربى» Arab Spring - سهّلَتْها بكل تأكيد أنواعٌ مختلفة من تكنولوجيا المعلومات، حتى لو كانت قناة الجزيرة التلفزيونية، وليس فيسبوك أو تويتر، هى التى نقلت أخبار الثورات إلى غالبية العرب. وكما حدث فى أوربا بعد عام 1917، انتشرت الثورةُ كالوباء مستغلةً الشبكات القائمة. قال الرئيس اليمنى [على عبد الله صالح] للمراسلين قبل خَلْعه من السلطة: «هذا فيروس، وليس جزءًا من ميراثنا، ولا من ثقافة الشعب اليمنى. إنه فيروس جاء من تونس إلى مصر. وفى بعض المناطق، تكون رائحةُ الحُمّى كالأنفلونزا. فبمجرد جلوسك مع شخص مصاب ستُصَاب»[1077].

وصارت مُراقَبة هشتاجات تويتر Twitter hashtags وسيلةً لتوقُّع المظاهرات أثناء الأحداث الثورية التي جَرَفَتْ حسني مبارك عن السلطة في مصر[1078].

وبطريقة مشابهة، استخدم الثوّارُ فى كييف Kiev الذين أطاحوا بالرئيس الأ وكرانى فيكتور يانوكوفيتش Viktor Yanukovych عام 2014، الشبكاتِ الا جتماعيةَ لتنظيم احتجاجاتهم فى الميدان ونَشْر انتقاداتهم ليانوكوفيتش وأتباعه المقرّبين [حاشيته]. ومن حديقة جيزى Gezi Park قُرْب ميدان تقسيم فى إسطنبول [تركيا 2013]، إلى شوارع ساو باولو São Paulo [فى البرازيل]، اجتاحت الاحتجاجاتُ العالَمَ. وبغضّ النظر عن الهدف من غضب المُحْتجِّين، فقد اتّبَعَتْ أساليبُهم قواعدَ لعبة شميت - كُوين[1079].

سارع الفيلسوفُ الإسبانى مانويل كاستيلس[889] Manuel Castells إلى الا حتفال بالقوة الثورية التى ينطوى عليها «مجتمع الشبكة»، والتى خلقت حركاتٍ شعبيةً كبيرة كان من المستحيل بكل بساطة «أن تحشد المشتبهَ بهم المعتادين»[1080].

كان الاستنتاجُ الذى استخلصه البعضُ أن المزيد والمزيد من الدول السُّلْطوية الفاسدة ستضطر - تحت هذه الضغوط - إلى أن تصبح «حكومات ذكية» smart governments شفّافة ومُتجاوِبة، فتستغل التكنولوجيا حتى تكون أكفأ وأكثر مسؤوليةً وقابليةً للحساب. ثم أخيرًا، سينتهى المطافُ بكل دولة

---

[889]مانويل كاستيلس: من مواليد عام 1942، عالِم اجتماع إسبانى ينشغل بالبحث فى مجتمع المعلومات والعَوْلَمة - المترجم.

إلى ما انتهت إليه جمهورية إستونيا[890] Estonia رائدة الديمقراطية الإلكترونية[891] e – democracy[1081].

ولكن من السذاجة افتراض أننا كُنّا نشهد فجر عصر جديد من مُستخدِمى الإنترنت الأحرار المتساوين، فيه تُمَكِنُ التكنولوجيا الكلّ من قَوْل الحقيقة للسلطة.

فالإنترنت ينطوى على أصوله [الأولى] فى التعقيد الصناعى العسكرى، كما رأينا. ومن المحتمل بدرجة كبيرة، دائمًا، أن يكون للأمن القومى الأولويةُ على تمكين المواطنين عند استغلال إمكانات الشبكة الاجتماعية لخدمة الحكومة. هجماتُ 9/11 ومتاعبُ الحكومة الأمريكية فى العراق خلقتا حافزًا واضحًا لإدارة بوش وخليفتها على حد سواء. لقد تعلَّم ستان مَكريستَل Stan McChrystal فى العراق أنه عند مكافحة التمرد يتطلب الأمرُ شبكةً لتهزم شبكةً[1082].

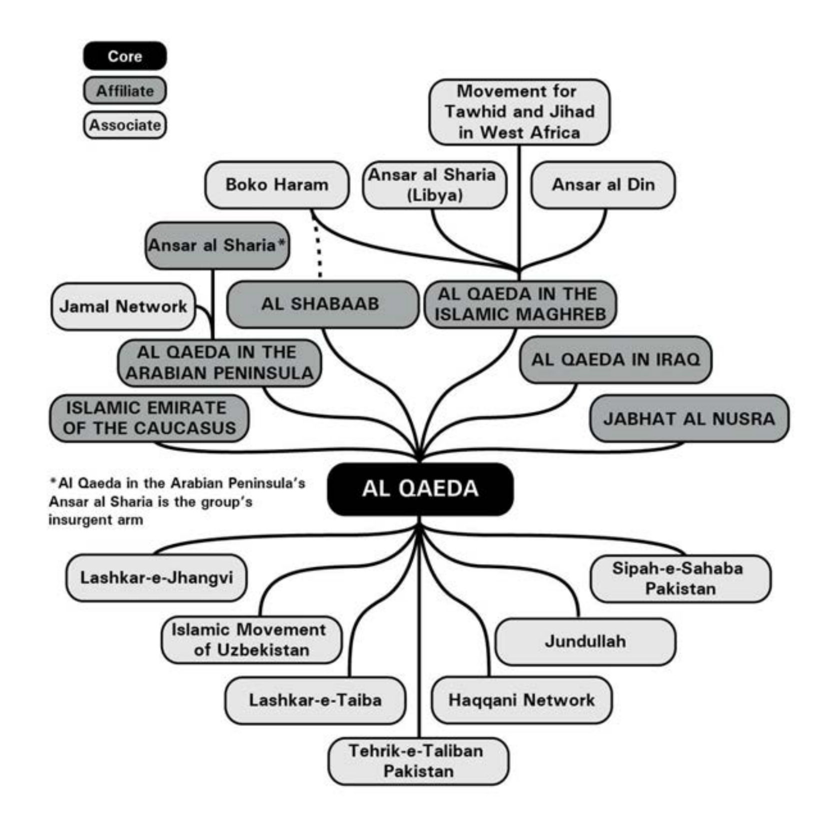
وينطبق الأمر نفسه على مكافحة الإرهاب. لقد تعامل المُحلِّلون فى وكالة الاستخبارات مع [تنظيم] القاعدة بوصفه «شبكة الشبكات»، فى حوالى سبع مناطق إقليمية أو وطنية[1083].

وكانت هذه الشبكةُ «متكيّفةً ومعقدةً ومَرِنةً»، وتُصَمِّمُ على إلحاق المزيد من الإرهاب والدمار ب«الأراضى» الأمريكية[1084]. وقد تولَّدَتْ لدى السياسيين الأمريكيين حوافزُ قوية للثأر من التنظيم بقَطْع رأسه وتفكيكه، لمَنْع هجمات مستقبلية، واستعراض القوة أيضًا. فسَعَتْ وكالةُ الأمن القومى National Security Agency، ابتداءً من عام 2007، إلى تطبيق مبدأ مَكريستَل على نطاق عالمي.

---

[890]إستونيا: دولة ذات نظام جمهوري، تقع في منطقة بحر البلطيق شمال أوربا - المترجم.

[891]الديمقراطية الإلكترونية: ظهر المصطلح فى منتصف تسعينيات القرن العشرين، ويُقصَدُ به استعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصال، وأبرزها الإنترنت، فى تحسين العمل الديمقراطي في بلد ما - المترجم.



الشكل رقم: 41 - شبكة القاعدة من وجهة النظر الأمريكية، 2012.

كان من المتوقع أن تحاول الدولةُ الهَرَميّة استمالةُ مالكى الشبكات من القطاع الخاص. وقد انكشفت المحاولة. ابتداءً من عام 2007، بدأ قسم عمليات المصدر الخاص (Special Source Operations SSO) بوكالة الأمن القومى NSA فى طلب اتصالات الإنترنت [أونلاين] من تسع شركات أمريكية كبرى على الأقل، بوصفه جزءًا من برنامج مراقبة البيانات الكبيرة data-big ، الذى يحمل الاسمَ الكودي «بريزم»[892] PRISM.

وتولتْ أعمالَ الاعتراض وحدةُ تكنولوجيا اعتراض البيانات فى إف بى آى [مكتب التحقيقات الفيدرالى] FBI's Data Intercept Technology Unit، مستفيدةً من أن نسبة كبيرة من بنية الإنترنت التحتية المادية موجودة فى الولايات المتحدة. وفى ظل قانون حماية أمريكا Protect America Act، و المادة 702 من قانون تعديلات محكمة مراقبة الاستخبارات الأجنبية لعام

---

[892] بريزم: برنامج تجسُّس رقمى مصنّف بأنه سرّى للغاية شغّلته وكالةُ الأمن القومى الأ مريكية منذ عام 2007. يتيح البرنامجُ مراقبة الاتصالات الحية والمعلومات المخزّنة على شبكة الإنترنت، ويستهدف داخل الولايات المتحدة وخارجها. تمكنَتْ وكالةُ الأمن القومى ا لأمريكية (بمعاونة أجهزة أمنية أخرى) من الدخول المباشر إلى الخوادم الخاصة لمُزَوّدى الخدمة: مايكروسوفت، ياهو، جوجل، أبل، فيسبوك، يوتيوب، سكايب، وغيرها - المترجم.

Foreign Intelligence Surveillance Court Amendments Act of 2008 2008، كانت هذه الأعمالُ قانونيةً، ولم يكن لدى الشركات من خيار سوى الا متثال. ويُفْتَرَضُ من الناحية الرسمية أن تكون المراقبة للمواطنين الأجانب الذين قد يُشَكِّلون تهديدًا للأمن الأمريكى، بل إن أىّ مواطن أمريكى على اتصال بشخص من هذا النوع سيكون عُرْضة للوقوع فى مصيدة وكالة الأمن القومى، على شرط أن يكون أحدُ الأطراف فى تبادل بريد إلكترونى أو مكالمة سكايب Skype call أو نقل ملفات أو تبادل على فيسبوك - على أرض أجنبية. المشاركون فى برنامج «بريزم» هم: فيسبوك، يوتيوب، أمريكا أونلا ين AOL، سكايب، أبل؛ لكن كمّ المعلومات الأكبر جُمِعَ من: ياهوو، جوجل، مايكروسوفت. وفى عام 2012، بلغ إجمالى عدد طلبات بيانات مُستخدِم فيسبوك، الواردة من جميع الوكالات الحكومية، ما بين 9 آلاف و10 آلاف طلب ، اهتمّت الطلبات أيضًا بحسابات المُستخدِمين، بما يصل إلى ضِعْف هذا العدد تقريبًا. وبدأ مَسكّلار MUSCULAR - وهو برنامج موازٍ لبرنامج «بريزم» - فى التقاط مباشِر للبيانات غير المشفرة داخل «سُحُب» clouds جوجل وياهو الشخصية. شاركت شركتا الهاتف، إيه تى آند تى AT & T وفيرايزن Verizon، أيضًا، مع وكالة الأمن القومي في المراقبة[1085].

فى نظر «دولة الأمن القومى» (وهى شبكةٌ بيروقراطيين منطوية على نفسها من ناحية الممارسة)[1086]، كان برنامجُ «بريزم» استجابةً منطقية للتهديد الشبَكى، ولا يختلف فى نوعه عن التنصُّت على المكالمات الهاتفية فى ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، أو التجسُّس الروتينى الذى قامت به وكالةُ الاستخبارات المركزية CIA ضد الحكومات المُعادِية والصديقة على السواء. ومن الغباوة تصوُّرُ عدم افتضاحِ تدخُّلٍ حكومى هائل من هذا النوع فى عصر الشبكات، ومن الغباوة أيضًا تصوُّرُ أنه لن يُقابَلَ بدوره باستخدام الأ دوات نفسها. فى ديسمبر عام 2006، بدأ موقع إلكترونى يُسَمّى ويكيليكس Wikileaks فى نَشْر وثائق سرّية [مُصَنّفة] classified أونلاين، تتعلق معظمها بإدارة (أو سوء إدارة، فيما رأى مؤسِّسُ الموقع جوليان أسانج[893] Julian Assange) الحروب فى أفغانستان والعراق. ولأن الهدف الرئيسى من

---

[893]جوليان أسانج: أسترالى من مواليد عام 1971، مبرمج كمبيوتر، ومحرّر موقع ويكليكس. اشتهر منذ عام 2010 عندما نشر الوثائق التى أمدته بها تشلسى مانِنْج عن ممارسات الجيش الأمريكى فى العراق وأفغانستان التى تشمل القتل الجماعى وسجلات حرب أفغانستان وسجلات حرب العراق. أسانج هارب من مذكرة اعتقال بريطانية، وأصدرت السويد مذكرة توقيف دولية ضده. حصل على حق اللجوء من الإكوادور، وبقى فى سفارتها فى لندن منذ 2012. حصل على الجنسية الإكوادورية فى عام 2017 - المترجم.

التسريبات الأولى كان إدارةَ بوش، لم تتردّد الصحف الليبرالية كالجارديان Guardian فى الترويج لموقع ويكيليكس بوصفه مصدرًا شرعيًا. فمِن بين «المُخْبِرين» الذين أمدُّوا ويكيليكس بالوثائق العميلةُ الخاصة برادلى مانِنْج Bradley Manning[894] (المُلَقّبة لاحقًا ب تشلسى Chelsea) فى الجيش الأ مريكى. وفى يونيو عام 2013، حَدَثَ خَرْقٌ أكبر حين بدأ متعاقد تقنى فى وكالة الأمن القومى NSA، هو إدوارد سنودن[895] Edward Snowden، بتسريب ذخيرة ضخمة من الوثائق، بما فيها تفاصيل برنامج بريزم، لصحيفتىْ جارديان وواشنطن بوست. وقد حاولت مكاتبُ الاتصالات الحكومية بالمملكة المتحدة[896] UK Government Communications Headquarters (GCHQ) تدميرَ مُحرّكات الأقراص الصلبة hard drives فى مكاتب صحيفة الجارديان، فلم تزدْ محاولاتُهم الطينَ إلا بِلّة.

لقد بدا أن ثمة تسريبات فاقت بكثير تسريبَ دانيل إلزبيرج Daniel Ellsberg لأوراق البنتاجون[897] Pentagon Papers. شَمَتَ الليبراليون فى افتضاح أمر وكالة الأمن القومى، ورفضوا المزاعم بأن الاستخبارات المستندة إلى برنامج بريزم قد منعت هجمات إرهابية. ولكن الإحراج الحقيقى عانته الشركاتُ

---

[894] برادلى مانِنْج أو تشلسى مانِنْج: أمريكية من مواليد عام 1987، عملت محلِّلة استخبارات فى القوات البرية الأمريكية بعد التحاقها بوحدة عسكرية أمريكية بالقرب من بغداد عام 2009. ثم أُدينت بعدة جرائم وفقًا لقانون التجسُّس الأمريكى، بالإضافة إلى جرائم أخرى، بعد تسريبها أكبر كمّ من الوثائق السرّية فى تاريخ الولايات المتحدة الأ مريكية. كُشِفَتْ من خلال اعتراض أحد معارفها لحسابها الشخصى فأبلغ عنها المخابرات ا لأمريكية. خَفّفَ الرئيسُ الأمريكى أوباما الأحكام الصادرة ضدها إلى سبع سنوات فقط من تاريخ اعتقالها في مايو 2010. والآن هي مُفْرَج عنها - المترجم.

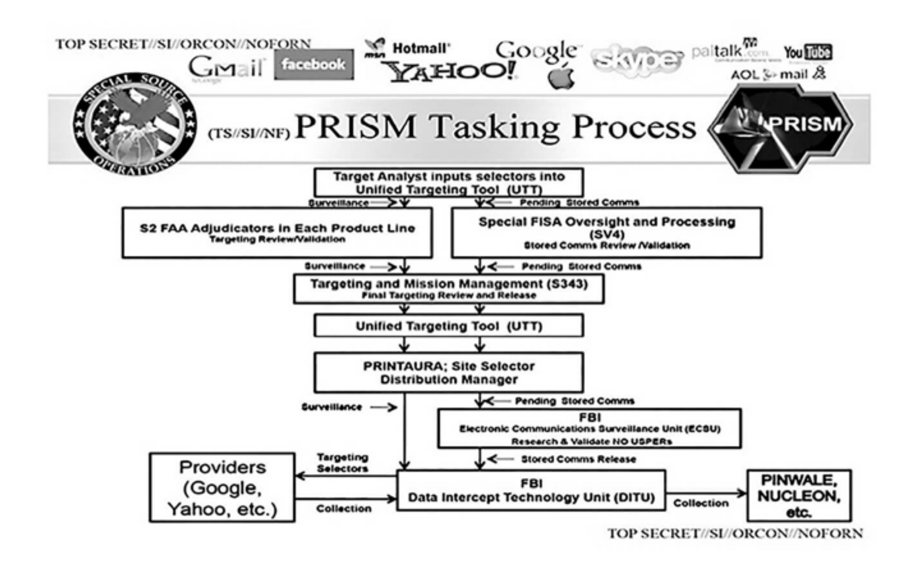
[895] إدوارد سنودن: أمريكى من مواليد عام 1983، محترف كمبيوتر وموظف سابق فى وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ومتعاقد تقنى مع وكالة الأمن القومى. سَرّبَ وثائقَ مُصَنّفة من وكالة الأمن القومى لجرائد أمريكية وألمانية شهيرة فى يونيو 2013. نُظِرَ إليه بوصفه بطلا ً وبوصفه منشقًا خائنًا. أدّتْ تسريباته إلى إثارة جدل واسع حول المراقبة الجماعية والتوازن بين الأمن القومي وخصوصية المعلومات - المترجم.

[896] مكاتب الاتصالات الحكومية بالمملكة المتحدة: وكالة استخبارات ووكالة أمنية بريطانية تأسّسَتْ عام 1919 - المترجم.

[897] أوراق البنتاجون: هو الاسم المُعْطَى لدراسة وزارة الدفاع الأمريكية عن التدخُّل السياسى والعسكرى فى فيتنام من عام 1945 إلى عام 1967. سبق الحديث تفصيلا ً عن إلزبيرج - المترجم.

الشعبية - مثل ياهو وجوجل ومايكروسوفت، ناهيك عن فيسبوك - التى تعاونت مع «دولة الأمن القومى» المُخيفة، فضلا ً عن أن العملية بأكملها جَرَتْ أحداثها واستمرت، رغم انتخاب باراك أوباما، العزيز على قلوب الليبراليين، رئيسًا. ولم تكتفِ وكالةُ الأمن القومى، فى ظل رئاسة أوباما، بجَمْع بيانات وَصْفية لمكالمات هاتفية ل 120 مليون مشترك فى فيرايزن، بل جمعت عبْر برنامج بريزم محتوى البريد الإلكترونى والصوتى والدردشات النصية والمرئية لعدد غير معلوم من الأمريكيين أيضًا. وبين أبريل عام 2011 ومارس عام 2012 - وفقًا لبيانات وكالة الأمن القومى الداخلية التى سَرّبَها سنودِن - وَقَعَ 2,776 خَرْقًا للقواعد التي تحكم مُرَاقَبَةَ المواطنين[1087].

كان كل شىء ملائمًا لمارك زوكربيرج كى يشكو من أنه «مضطربٌ ومُحْبَطٌ للغاية بسبب الأخبار المتكررة عن سلوك الحكومة الأمريكية»، بل صَرّحَ معتدًّا بنفسه: «عندما يعمل مهندسونا بلا كَلَلٍ لتحسين الأمن، نتخيّلُ أننا نحميك من المجرمين، وليس من حكومتنا»[1088]. وليس من الممكن أنه لم يكن عارفًا بما كان يجري.



الشكل رقم: 42 - شريحة مُصَنّفة [سرّية] نشرتها ويكيليكس تصف برنامج المراقبة بريزم فى وكالة الأمن القومى الأمريكية. لاحِظْ بنية المُخَطّط الهرميّة.

لم يكن مفيدًا لإدارة أوباما تزامنُ تسريبات سنودن مع افتضاح فشل استخدامها المُخْزى للتكنولوجيا فى برنامج مُصَمّم لفائدة المواطنين الأمريكيين. وكما كشفت انتخابات عام 2008، ظل السياسيون والناخبون أسرى مفردات ما بعد الحرب [العالمية الثانية] التى تعهّدَ بها سياسيون سابقون بتوفير سلع عامة إضافية، بل «توفير وظائف»، دون زيادة كبيرة فى نفقات الحكومة من خلال الضرائب. فانخفضت شعبيةُ الرئيس أوباما بشكل أسرع، عندما عجزت الحكومة الفيدرالية عن الوفاء بهذا التعهّد وانكشف عجزها بشكل أوضح.

وتُلَخِّصُ أوجهُ القصور فى الموقع الإلكترونى الحكومى المخصص للرعاية الصحية www.HealthCare.gov المشكلةُ الجوهريةُ من نواحٍ عديدة: فى عصر الفانج FANG[898] يتوقع المستهلكون وظائف أساسية من المواقع الإلكترونية. قيل إن تكلفة إنشاء موقع معطوب أكبر من إنشاء آى فون أصلى بضعف أو أربعة أضعاف. وتحدّثَ مُقدِّم البرنامج التلفزيونى ذا ديلى شو The Daily Show، جون ستيوارت Jon Stewart، عن مئات الآلاف من المُستخدِمين المُحْبَطين حين تهَكّمَ على وزيرة الصحة والخدمات البشرية كاثلين سيبليوس Kathleen Sebelius قائلا ً:

[898]فانج: هى الحروف الأولى من كلمات (فيسبوك، أمازون، نيتفليكس، جوجل)؛ وتعنى الحروف الإنجليزية الأربعة مجتمعةً: ناب، شوكة، مخلب - المترجم.

«سأقوم بتحميل فيلم، وقمْ أنت بالتسجيل في أوباما كير [قانون الرعاية الصحية الأمريكية]، ثم نرى مَن سينتهي أولاً»[1089].

هذه المصائب وَضَعَتْ شركات التكنولوجيا أمام خيار. هل ينبغى أن تنأى بنفسها عن هَرَميّة واشنطن[899]؟ هذا ما انتهجه الرئيس التنفيذى لشركة أبل، تيم كوك Tim Cook، عندما رفض الامتثال لطلب مكتب التحقيقات الفيدرالى FBI وتنفيذ أمر قضائى بفَتْحِ آى فون iPhone ينتمى إلى الإرهابييْن سيد رضوان فاروق وتاشفين مالك، اللذين قتلا أربعة عشر شخصًا فى سان برناردينو San Bernardino في ديسمبر 2015[900].

النّهْجُ البديل انتهجته شركةُ جوجل التى أكدت التزامها ب«تعزيز حرية التعبير على الإنترنت وحماية الخصوصية»[1090]، على حين تقرّبَ موظّفوها إلى السلطة التنفيذية أكثر من أى شركة تكنولوجية أخرى. زار موظّفو شركة جوجل وموظّفو الكيانات المرتبطة بها البيتَ الأبيض White House 427 مرة أثناء رئاسة أوباما. وقابل المسؤولون التنفيذيون الكبارُ فى جوجل الرئيسَ 21 مرة على الأقل. وفى عام 2016 وحده، أنفقت الشركةُ 15.4 مليون دولار على جماعات الضغط[1091].

---

[899] هَرَميّة واشنطن: الإشارة إلى نظام الحُكم الأمريكي المتسلسل هَرَميًا - المترجم.

[900] هجوم سان برناردينو بولاية كاليفورنيا: قام سيد رضوان فاروق (28 عامًا) وتاشفين مالك (امرأة 27 عامًا) بإطلاق نار عشوائى على مركز خدمات لذوى الإعاقة العقلية، أدّى إلى مقتل 14 شخصًا وإصابة 24 شخصًا. والدافع غير معروف - المترجم.



الشكل رقم: 43 - حكومة كبيرة لديها مشكلة صغيرة: انهيار موقع الرعاية الصحية الحكومي في عام 2013.

ثمة مشكلة أخرى فى إستراتيجية وكالة الأمن القومى. من المحتمل أن برنامجها فى المراقبة قد ساعد على مَنْع المزيد من هجمات القاعدة. فالأدلة التى وَفَّرها سنودن لا تكفى لاستنتاج أن برنامج بريزم كان عديمَ الفائدة. ولكن الضرر الذي لحق بسُمْعة الولايات المتحدة - ولا سيما فى نظر حلفائها - فاق بكل تأكيد أيةَ فوائد مهما كانت. ففى أعقاب تسريبات سنودن، خضعت الولايات المتحدة لضغوط أجنبية من أجل إنهاء إشراف وزارة التجارة [الأمريكية] على آيكان[901] ICANN، التى صارت الآن تحت إشراف «مجموعة عالمية من أصحاب المصلحة المُتعدِّدين»[1092].

وعلى أية حال، تستطيع الشبكاتُ التكيُّفَ بأسرع من التسلسلات الهَرَميّة. وكما توقّعَ بعض المُحلِّلين، تأقلم الجهاديون مع إستراتيجية مكافحة الإرهاب الهَرَميّة بتَحَوُّرهم من شبكة القاعدة المغلقة نسبيًا إلى شىءٍ أفضلُ وَصْفٍ له هو «سِرْب» [سورم] swarm[1093]. ما لم يتوقعه أحدٌ فى أول اندفاعة ل «الحرب العالمية على الإرهاب» أن أشد المعارضين لرؤية الحداثة الغربية [الجهاديين وأفراد القاعدة] تعلّموا كيف يستخدمون تكنولوجيات [تقنيات] وادي السِّلِيكون للدّفْع بقضيتهم إلى الأمام.

احتفلت إدارةُ أوباما بتصفية أسامة بن لادن فى مايو 2011 بوصفه اختراقًا

---

[901] آيكان: شركة الإنترنت للأرقام والأسماء الممنوحة، أو آيكان، ومقرها كاليفورنيا. تختص بتوزيع وإدارة عناوين آى بى وأسماء المجال وتخصيص أسماء المواقع العليا فى جميع أنحاء العالم، كما تقوم بإدارة الموارد الرئيسية للبنية التحتية للشبكة - المترجم.

كبيرًا. وفى الواقع، كان ذلك مجردَ تأكيد لأيلولة القاعدة إلى الزوال. فى هذا الوقت [بعد التصفية]، فقدت قيادةُ التنظيم روحَ المبادرة بالنسبة إلى توابع التنظيم فى العراق، فتحوّلتْ [التوابع] من الهجمات المباشرة على أهداف أمريكية إلى استهداف الشيعة العراقيين، وجعلت تأثيرَها فى «توحُشِها»[1094]. ولا ريب فى أن الجيش الأمريكى قد ألحق أضرارًا جسيمة بشبكة الزرقاوى أثناء «اندفاعه القوى». ولكن إدارة أوباما أنْهَتْ وجودَ الجيش الأمريكى فى العراق قبل استكمال ذلك العمل. ويُعَدُّ هذا القرارُ أولَ سلسلة التخبُّطات [الأمريكية] الفادحة. ثم دعمت إدارةُ أوباما حكومةَ رئيس الوزراء نورى المالكى[902] التى يهيمن عليها الشيعة، حتى وهى تنفخ فى نيران الغضب السنى. ثم طرد الرئيسُ بلا تردد مَكريستَل بسبب تعليقات طائشة أدلى بها مساعدُه، انتهى بها المطاف إلى صفحات مجلة رولينج ستون Rolling Stone. وحين سُئِلَ الرئيسُ أوباما عن مجموعة جديدة تُسَمّى الدولة الإسلامية فى العراق والشام (ISIS-Islamic State of Iraq and al Sham)، وَصَفَهَا بأنها نسخة إسكواش ناشئين من القاعدة. ثم فى النهاية، برَفْضه التدخُّلَ الفعّال حين انزلقت سوريا إلى حرب أهلية، خَلَقَ أوباما مزيدًا من الفراغ الذى أمكن لتنظيم الدولة الإسلامية أن يتمدد فيه[1095].

اختلف تنظيم الدولة الإسلامية ISIS اختلافًا جوهريًا عن القاعدة فى أربعة جوانب. قامت أيديولوجيته على الزّعْم بأن قائده، أبا بكر البغدادى، قد أعاد تأسيس الخلافة Caliphate فى يوم 29 يونيو عام 2014. لغة إعلان البغدادى على الإنترنت تُرَجِّعُ، من بعض النواحى، صدى الدعوة إلى الجهاد التى أطلقها النظام العثمانى فى مرحلة باكرة من الحرب العالمية الأولى قبل مئة عام. يقول الإعلان: «لا يجوز لمَن يؤمن بالله أن ينام دون أن ينصر قائده بالسيف حتى يصبح الخليفةُ ويُسَمّى أمير المؤمنين». وكانت هذه دعوةً إلى حَمْل السلاح، موجّهةً إلى كل المسلمين:

فسارعوا أيها المسلمون وتجمّعوا حول خليفتكم، حتى تعودوا إلى ما كنتم عليه لِعُهُودٍ، ملوك الأرض وفرسان الحرب. تعالوا إلى حيث تُكرّمون وتُبجّلون، إلى العَيْش أسيادًا أعِزّة. واعلموا أننا نقاتل على دينٍ وَعَدَ الله ُ بنصره. نحن نقاتل من أجل أمّةٍ مَنَحَها الله ُ الشّرَفَ والتبجيل والقيادة ووعدها ب...

---

[902] نورى المالكى: عراقى من مواليد عام 1950. معارض عراقى شيعى فى زمن رئاسة صدام حسين، وبعد فراره من حُكم بالإعدام أصبح فى الخارج أحدَ كبار قادة حزب الدعوة الإسلامية الشيعى. بعد اجتياح العراق تعاون المالكى مع الولايات المتحدة الأمريكية. تولى رئاسة الوزراء العراقية بين عامىْ 2006 و2014، وخلفه فى المنصب حيدر العبّادى من 2014 حتى 2018 - المترجم.

التمكين والقوة على الأرض. تعالوا أيها المسلمون إلى شرفكم، إلى نصركم. وو الله، إذا كفرتم بالديمقراطية والعَلمانية والقومية وبكل نفايات الغرب وأفكاره، وسارعتم إلى دينكم وعقيدتكم، فوالله لتَمْلِكُنّ الأرضَ، وسيَدِينُ لكم الشرقُ و الغربُ. هذا وَعْدُ الله لكم...

وتالله، لا نجد لكم أيّ عُذْرٍ شرعى لتبرير نكوصكم عن تأييد هذه الدولة... وإذا تخليتم عن الدولة أو شَنَنْتُمْ حرباً عليها فلن تضروها. لن تضرُّوا سوى أنفسكم... فيا جنود الدولة الإسلامية، أمرنا الله (تعالى) بالجهاد ووعدنا... ب النصر..[1096].

ولكن المختلفَ فى عام 2014، عدمُ وجود حلفاء كفَرَة بوصفهم جزءًا من إستراتيجية إقليمية محسوبة، لا يطولهم الجهاد.

هدفُ تنظيم الدولة الإسلامية فى العراق والشام، النهائى، تحقيقُ نهاية الزمان apocalypse: فلم يكن طموحُ التنظيم نصرًا تقليديًا، بل تحقيق نبوءة إسلامية هي أرْمَجِدُّون في دابق[903] Armageddon at Dabiq.

ثانيًا، طَبّقَ تنظيمُ الدولة الإسلامية فى العراق والشام ما كان يَعِظُ به بحَرْفية شرسة. وعلى حدِّ تعبير جرَيم وود Graeme Wood، شكّلَتْ أيديولوجيةُ التنظيم ما اعْتُبِرَ «التزامًا صادقًا بإعادة الحضارة إلى بيئة القرن السابع الشرعية، وفى نهاية المطاف تهْيئة نهاية الزمان». كتَبَ وود فى مارس عام 2015 قائلا ً: الواقع «أن الدولةَ الإسلامية إسلاميةٌ. إسلاميةٌ جدًا... فلا أحد جَرّبَ أقسى من تطبيق الشريعة الصارمة بالعنف. هذا ما كان يبدو عليه الأمر» ؛ وعلى وجه التحديد الاسترقاق وبَتْر الأطراف وجَزّ الرؤوس [الذّبْح]، والرّجْم والصّلْب[1097].

ثالثًا، كان تنظيمُ الدولة الإسلامية فى العراق والشام شبكةً مفتوحة المصدر open- source -network ، ولم يَكْتفِ بنَشْر أيديولوجيته بطريقة مُمَنْهَجة، بل كان يستعرض أيضًا أفظع أشكال العنف التحذيرى[904] exemplary violence عبْر عشرات الآلاف من حسابات تويتر المترابطة فيما بينها، والمرتبطة أيضًا ب فيسبوك ويوتيوب[1098].

---

[903]أرمجدون فى دابق: تقع مدينة دابق فى شمال سوريا على بُعْد أربعين كيلومترًا شمال شرق حلب. وفى التصور الإسلامى لنهاية الزمان، يُعْتَقَدُ أن «دابق» أحدُ موقعين محتملين لمعركة مَلْحمية بين الغزاة المسيحيين والمسلمين المدافعين ستنتهى بانتصار المسلمين وبداية نهاية الزمان. يَعتقد تنظيمُ الدولة الإسلامية أن دابق هى مكان المعركة الملحمية الحاسمة مع قوى مسيحية من الغرب - المترجم.

[904]العنف التحذيري: استعراضُ عنفٍ حقيقي بغرض التخويف وبثِّ الرعب - المترجم.

ومن بعض النواحى، صارت عملياتُ التنظيم الإعلامية مصدرَ مرونته الكبرى، فى مواجهة حملة متواصلة لاغتيال قائده[1099]. وأخيرًا، نُظِّمَ تنظيمُ الدولة الإ سلامية بطريقة مختلفة تمامًا عن القاعدة. ففى الشرق الأوسط، طمح إلى أن يكون دولةً إقليمية حقيقية، تمحو حدودَ اتفاقية سايكس - بيكو Sykes - Picot القديمة، قبل قرن من الزمان[1100]. وعلى نطاق أوسع من البلاد ذات الأ غلبية المسلمة، من شمال أفريقيا إلى جنوب آسيا، نشأتْ تنظيماتٌ فرعية مُنْتَسِبَة. ففى الغرب، سَعَى التنظيمُ إلى بناء شبكة مجاهدين جديدة أكثر مرونةً، أَغْرَتْ ما يقرب من 15 ألف شخص من الأشد حماسًا للقدوم إلى المَوْصِلِ والرّقّة[1101]، بل تشجيع آخرين على شَنّ هجمات عنيفة عشوائية فى المدن الغربية. وتُلَخِّصُ دعوةُ الشيخ أبى محمد العدنانى للمسلمين فى البلاد الغربية أن يُمْسِكوا بكافرٍ و«يُهَشِّموا رأسه بحَجَرٍ» - تُلَخِّصُ الأسلوبَ البدائى للعملية على الأرض[1102].

ولكن التمثيل البيانى لشبكة مؤيّدى تنظيم الدولة الإسلامية فى العراق و الشام، على الإنترنت [أونلاين]، تكشف عن قدر كبير من التطور فى أثير [الإ نترنت][1103]. إذ تُعيد مجموعةُ «مُجَاهِدِى الميديا» تشكيلَ نفسها دومًا، باستخدام حسابات متعددة، مثل حشد النحل المندفع أو سِرْب الطيور، لتفادي إغلاق الحسابات[1104].

ومن المدهش نوعًا ما، أن تحليل التَمَرْكزية البَيْنية للعُقَدِ فى شبكة تنظيم الدولة الإسلامية، يكشف الدورَ الرئيسي الذي تلعبه النساءُ في التنظيم[1105].

كان رَدُّ إدارة أوباما على تنظيم الدولة الإسلامية محاولةَ قَطْع رأسه decapitation، كما قَطَعَتْ رأسَ تنظيم القاعدة. ولم يطرأ على ذهن أحد احتمالُ أن الخَصْمَ الذى يواجهونه الآن هو شبكةٌ «بلا رأس» acephalous network أو بلا قيادة، بمعنى أنه ليس أسهل فى القتل من الهيدرا hydra مُتعدِّدة الرؤوس في الميثولوجيا اليونانية القديمة[1106].

وفى الوقت نفسه، مضى الرئيسُ بأسلوبه فى رَفْض أيديولوجيا تنظيم الدولة الإسلامية، بإلحاح متكرّر على أنه «لا يتماشى مع الإسلام». ومقتنعًا بأن الاعتراف بحَرْفية قراءةِ مجموعةٍ للقرآن سيُضْفِى شرعيةً على «الإسلا موفوبيا»، أصدر أوباما تعليمات للمسؤولين بألا يشيروا إلى الإسلام إطلاقًا، وأن يُرَكِّزوا على «مكافحة التطرف العنيف». وبترددٍ كبيرٍ، وافق على إصدار ا لأمر بشَنّ هجمات على معاقل تنظيم الدولة الإسلامية فى أعقاب الضجة التى أثيرت بعد الإعدامات السادية لرهائن أمريكيين وبريطانيين فى عام 2014[1107].

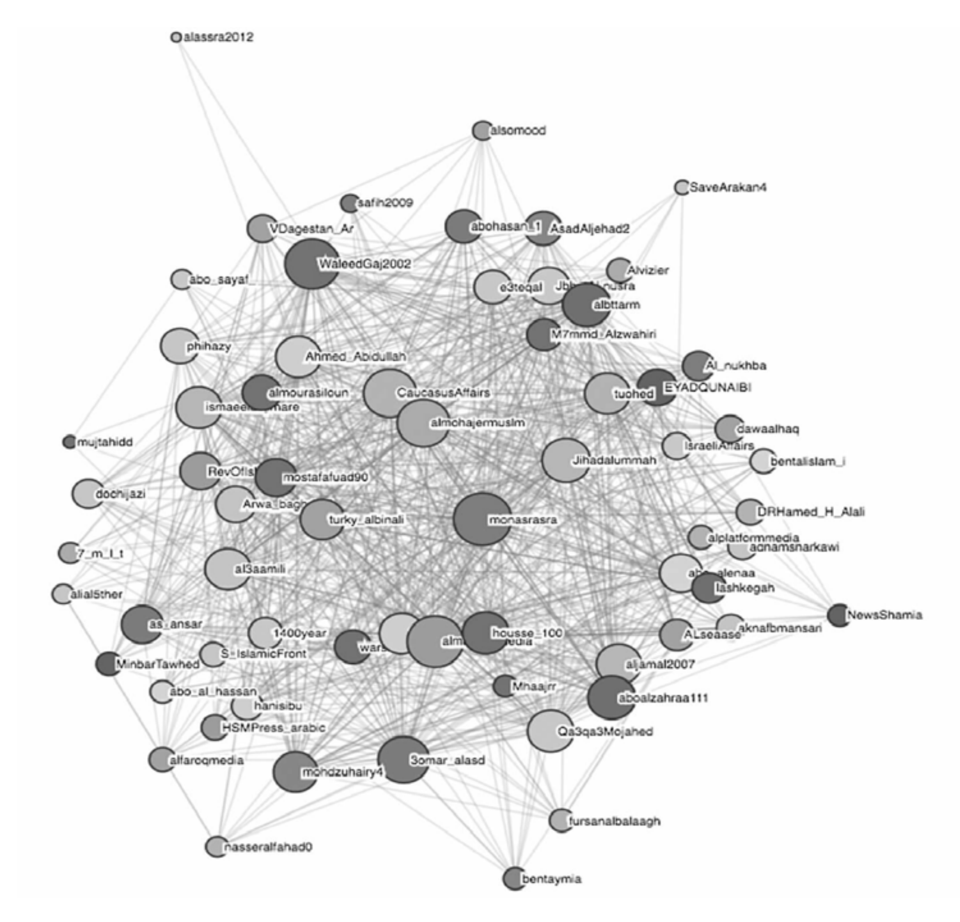
ونتيجة هذه الأخطاء، وَجَدَ العالَمُ نفسَه فى قبضة وباء الإرهاب الإسلامى.

فعلى مدى الأعوام الستة الماضية، كان عام 2014 هو الأسوأ من حيث الإ رهاب، إذ عانت ثلاث وتسعون دولة من هجمات إرهابية نَتَجَ عنها ما يقرب من 33 ألف قتيل. العام الأسوأ الثانى هو عام 2015، إذ سقط فيه ما يزيد عن 29 ألف قتيل. فى ذلك العام، كانت أربعُ مجموعات إسلامية راديكالية مسؤولةً عن ثلاثة أرباع جميع القتلى بسبب الإرهاب، وهى: الدولة الإسلامية، بوكو حرام، طالبان، القاعدة[1108].

وقد نَفّذَ تنظيمُ الدولة الإسلامية فى العراق والشام أكثرَ من مئة هَجْمة فى شهر[1109]. ورغم أن البلاد ذات الأغلبية المسلمة تعانى من العنف الجهادى أكثر من غيرها، فقد تعرّضَ الغربُ للهجوم على نحو متزايد. شَنّت التوابعُ الفرعية لتنظيم الدولة الإسلامية فى البلاد الغربية أربعًا وستين هَجْمة فى عام 2015، بما فيها مجازر باريس Paris (130 قتيل) [فرنسا]، وأورلاندو Orlando (49 قتيل) [بولاية فلوريدا][1110].

وفى أسبوع واحد، وأثناء كتابة هذا الفصل، شُنّتْ هجماتٌ فى أنتورْب Antwerp [فى بلجيكا] ولندن وباريس. ولولا اليقظة المستمرة لأجهزة الأمن الغربية لكانت أعداد القتلى أكثر مما فى السنوات العشر الماضية. ففى عام 2015/2014، تزايدت الاعتقالاتُ المرتبطة بالإرهاب فى المملكة المتحدة أكثر من أي سنة منذ عام 2000[1111].

وبشكل إجمالى، وُجِدَتْ 135 حالة بريطانية مرتبطة بالإرهاب منذ عام 1998، نجمت عنها 264 إدانة، وقد تضاعف تقريبًا معدل جرائم الإرهاب منذ عام 2010[1112]. ورغم ذلك، لا يمكن لهذا الجهد المكثف أن يأمل فى استباق كل جهادي.



الشكل رقم: 44 - ستة وستون موقعًا «من أهم مواقع الجهاد ودعم الجهاد و المجاهدين على تويتر» كما أوصى المُدَوّنُ الجهادى أحمد عبد الله عام 2013. كثافة شبكة الرسم البيانى تقارب 0.2، وهو ما يعنى أن حوالى 20% من كل الروابط التى يمكن أن توجد من الناحية النظرية موجودة بالفعل. كان هذا هو نظام تداول مقاطع الفيديو البشعة التي أصدرها تنظيم الدولة في عام 2014.

المشكلة هى أن شبكة تنظيم الدولة الإسلامية فى العراق والشام تتحدّى التكتيكات التقليدية فى مكافحة الإرهاب. وخلافًا للاعتقاد الشائع، ليس ذلك بسبب اعتماد الشبكة على «الذئاب المنفردة» lone wolves، التى يصعب اكتشافها بطبيعة الحال. فهجمات باريس فى نوفمبر عام 2015[905] كانت عمليةً جيدة التخطيط، شارك فيها حوالى ثمانية عشر شخصًا بالإضافة إلى

[905] هجمات باريس 2015: سلسلة هجمات إرهابية منسّقة، شملت عمليات إطلاق نار جماعى وتفجيرات انتحارية واحتجاز رهائن، مساء يوم 13 نوفمبر فى باريس، وعلى وجه التحديد فى مسرح باتاكلان وشوارع بيشا وأليبار ودى شارون. أعلن تنظيم الدولة الإ سلامية أن هذه الهجمات رَدٌّ على التدخّل العسكرى الفرنسى فى سوريا. وأعلن فرانسوا هو لاند أن الهجمات خُطِطَ لها فى سوريا ونُظِمَتْ فى بلجيكا وجرى تنفيذها على الأراضى الفرنسية بتواطؤ فرنسي - المترجم.

المُهاجِمين التسعة[1113] وعلى أية حال، لا يصبح أيٌ شخص جهاديًا من تلقاء نفسه، بمجرد تصفُّح الإنترنت.

الجهاد تسبقه دائمًا دعوةٌ؛ وهى عملية ذات طابع متطرف غير عنيف - ولكنها سامّةٌ - تُحَوِّلُ المُجْرِمَ الصغير إلى مُتعصِّب شرس[1114]. وتتخذ شبكةُ الدعوة أشكالا ً عديدة مختلفة. فى المملكة المتحدة، لعب الدورَ الرئيسى تنظيمٌ عُرِفَ باسم المهاجرون The Emigrants. ويوجد العديدُ من التنظيمات المرئية بشكل أقل - المراكز الإسلامية وأئمتها الغامضون - التى تنشر السمّ فى العقل بكل هِمّة وحماس[1115]. وتبدو استطلاعاتُ مواقف المسلمين البريطانيين مُطَمْئِنةً للوهلة الأولى. فما يقرب من 90% ممن أُجْرَى عليهم الاستطلاعَ بوليسى إكستشانج[906] Policy Exchange فى عام 2016 أدانوا الإرهاب. وأقل من واحد من كل عشرة اعتبروا الإسلاموفوبيا «مشكلةً كبيرةً»، و7% فقط قالوا إنهم لا يشعرون بمشاعر انتماء قوية إلى المملكة المتحدة. وقال ما يُقاربُ نصفَ الذين أُجْرى عليهم الاستطلاعُ إنهم لا يريدون الاندماج بشكل كامل مع غير المسلمين فى كل مظاهر الحياة، وفُضّلوا قدرًا من الانفصال فى «التعليم المدرسي والقوانين».

وحين سُئِلوا عمّا إذا كانوا سيُؤيّدون تطبيقَ الشريعة الإسلامية أجاب 43% ب «نعم». وقال خُمْسَا العَيّنة إنهم يُفضِّلون التعليمَ القائم على الفَصْل بين الجنسين. وأيّدَت الأغلبيةُ الواضحة ممن شملهم الاستطلاعُ فى جنوب البلاد جَعْلَ الحجاب أو النقاب جزءًا من الزيّ المدرسى للبنات. وعَارَضَ واحدٌ من كل عشرة، من إجمالى العيّنة، حَظْرَ تلقِّى الدروس التى «تُرَوّجُ وجهات نظر متطرفة، أو تُعَدُّ غيرَ متوافقة مع القيم البريطانية الأصيلة». الأكثر إثارةً للقلق من كل هذا، أن ما يقرب من ثلث العيّنة (31%) يعتقدون أن الحكومة الأ مريكية مسؤولة عن هجمات 9/11. وأكثر الناس يلومون «اليهود» على هجمات 9/11 (7%)، فى مقابل مَن قالوا بأنه عمل من أعمال القاعدة (4%)[1116].

لا يوجد أيٌ دارس جادٍّ للإسلام يؤمن بأن مثل هذه المواقف هى نتاج حرمان اجتماعى يمكن تغييره بتوفير وظائف أو توفير رعاية اجتماعية أجود[1117]. و لا يشارك أيٌ شخص فى حرب إلكترونية (أونلاين) ضد تنظيم الدولة الإسلا مية يتخيل أن الضغط على تويتر لإلغاء حسابات الموالين للتنظيم سيُحقق أكثر من نتائج محدودة[1118]. وقد انتقلت الثرثرة الجهادية بالفعل إلى مواقع:

---

[906] بوليسى إكستشانج: مؤسّسة فكرية بريطانية، مؤثِّرة فى اليمين، مقرُّها لندن، أُنْشِئت عام 2002. وتلقى البحوثُ والدراسات والنقاشات التى تُنتِجُها اعتبارًا لدى الحكومة البريطانية - المترجم.

Telegram، وJustPaste it، وVkontake، وشبكة التواصل الاجتماعى الروسية[1119].

وقد صَمّمَتْ الحكومة البريطانية إستراتيجية لمكافحة الإرهاب - CONTEST - ل«مَنْع» الناس من أن يصبحوا إرهابيين أو داعمين للإرهاب. وفَرَضَ قانونُ الأمن ومكافحة الإرهاب Terrorism and Security Act-Counter لعام 2015 على الشرطة والسجون والسلطات المحلية والمدارس والجامعات أن «تمنع الناسَ من الانجراف إلى الإرهاب». كما تعهّدت رئيسةُ الوزراء تيريزا ماى[907] Theresa May ب«مواجهة الأيديولوجيا المتطرفة وتحدِّيها بشكل منهجى»[1120]. وبسبب ذلك، ندّدَ بها المجلسُ الإسلامى البريطانى Muslim Council of Britain وحزب التحرير وكيدج CAGE ولجنة حقوق الإنسان الإسلامية، بمساعدةٍ وتحفيزٍ من الرفاق في اتحاد المعلمين القومي[1121].

ولكن الحقيقة هى أن المَنْع لم يكن مُثمِرًا. فالمشكلة هى صعوبة إيقاف شبكة من هذا النوع عن الازدهار، شبكة يمكنها أن تعمل حتى من داخل السجون. أظهرت الأرقامُ التى نشرتها وزارة العدل فى فبراير أن عدد المسلمين فى السجون (المُدانين بكل أنواع الجرائم) تضَاعَفَ إلى أكثر من 12,255 بين عاميْ 2004 و2014. واحدٌ من كل سبعة سجناء في إنجلترا وويلز مُسْلِمٌ[1122].

ولن تختفى هذه المشكلة، ومأزق فرنسا يوضح الأسباب. فما لا يقل عن 8% من السكان مسلمون، وهو ما يتوقع مركز بيو للأبحاث Pew Research Center أنه سيكون مصير بريطانيا بحلول عام 2030[1123]. تُقدِّرُ السلطاتُ الفرنسية أن لديها 11,400 إسلامى راديكالى، وهو عدد أكبر من أن يوضَعَ تحت المراقبة. وطبقًا ل فرهاد خسروخافار Farhad Khosrokhavar، يُشَكِّلُ المسلمون ما يصل إلى 80% - 70 من النزلاء فى السجون الواقعة على أطراف المدن الفرنسية، و40% من جميع المسجونين الفرنسيين الذين تتراوح أعمارهم من 18 إلى 24 عامًا[1124].

وطبقًا لبيانات رسمية، صَامَ 27% من نزلاء السجون الفرنسية شهرَ رمضان فى عام 2013[1125]. ارتفاع الهجرة إلى أوربا من شمال أفريقيا والشرق الأوسط وجنوب آسيا - ولا سيما وصول أكثر من مليون طالب لجوء سياسى ومُهاجِر اقتصادى إلى ألمانيا فى عام 2015 - يزيد الوضعَ تعقيدًا. ويُفضِّلُ أغلبية

---

[907] تيريزا ماي: من مواليد عام 1956. سياسية من حزب المحافظين البريطانى. رئيسة وزراء المملكة المتحدة منذ 13 يوليو 2016، خلفًا لديفيد كاميرون. ثانى امرأة تتولى رئاسة الوزراء فى تاريخ بريطانيا بعد مارجرت تاتشر، وثالث سياسى بريطانى يتولى المنصب دون انتخابات رسمية. صاحبة أطول مدة خدمة بوصفها وزيرة للداخلية فى حكومة ديفيد كاميرون، منذ عام 1892 - المترجم.

الناس من البلدان المَصْدر الشريعةُ الإسلامية: على سبيل المثال، 84% من الباكستانيين و91% من العراقيين. ومن بين هؤلاء المُؤيّدين للشريعة، يُؤيّدُ ثلاثةُ أرباع الباكستانيين وأكثرُ من خُمْسَي العراقيين قَتْلَ المُرْتدِّ[1126].

ومن الراجح أنه حتى لو دُحِرَ تنظيمُ الدولة الإسلامية فى العراق وسوريا، فستظل شبكتُه فى الفضاء الإلكترونى، وفى الغرب، على قَيْدِ الحياة: بيئة سامّة تتكاثر فيها العناصر الثقافية [الميمات] لفكرة الدعوة، وتُحوّلُ خاسرًا بعد خاسر إلى سَبَبٍ للاستشهاد القاتل.

56

2016 / 11 / 9

لا يتصل معظمُ الناس بالإنترنت كى يشاركوا فى احتجاجات خاطفة flash mobs أو مشاهدة قَطْع الرؤوس. الناس تتصل بالإنترنت للدردشة، والتسوق، ومشاركة الصور، ومشاركة النِّكات، ومشاهدة مقاطع فيديو قصيرة لأهداف كرة قدم أو قطط لطيفة أو الجنس. وتجعلنا كلُّ هذه المسارات العصبية التى أنتجها التطورُ مُعَرّضين بشكل لا يُقاوَمُ لمثيرات متتالية تُوَلِّدُها التويتات و التّكزات من مجموعة أصدقائنا الإلكترونيين. تُلبِّى الشبكاتُ احتياجاتِنا المتعلقةَ بالمكوث وحيدًا وأمْداء انتباهنا القصير (140 حرفًا) وتَهَمَنا الذى لا يشبع، على ما يبدو، لأخبار المشاهير الذين جعلهم التلفزيون مشهورين. ذلكم ما يُعْطِى الديمقراطيةُ الحديثة نكهتها المميزة. فما الذى يستطيع أن يُرَكِّزَ انتباهَنا، ولو لفترة وجيزة، على سؤال مُرْهِق عن الطريقة التى تُحْكَمُ بها، أو مَن يَحْكُمنا؟ حين نتحدث عن «الشّعْبوية» populism اليوم[1127]، لا نعنى شيئًا أكثر من سياسة مسموعة ومفهومة بالنسبة إلى رجل الشارع؛ أو على وجه الدقة إلى رجل وامرأة يستلقيان على أريكتهما، ويتنقل انتباهُهما بشكل متقطع من شاشة التلفاز المسطحة إلى اللابتوب إلى الهاتف الذكى إلى التابْلِت ثم العودة إلى التلفزيون؛ أو رجل وامرأة فى العمل يجلسان إلى كمبيوتر على سطح المكتب، ولكنهما يتبادلان رسائل شخصية مثيرة على هاتفهما الذكي، في الغالب.

صار العديد من الناس فى البلاد المتقدمة يَتّصلون بالإنترنت [أونلاين] فى كل ساعة من ساعات استيقاظهم. يقول أكثرُ من خُمْسَىْ الأمريكيين إنهم يراجعون بريدَهم الإلكترونى والنصوص وحساباتهم على الميديا الاجتماعية باستمرار[1128].

فى أربع سنوات حتى مايو 2016، قفزت نسبةُ انتشار الهواتف الذكية فى المملكة المتحدة من 52% إلى 81% من عدد السكان البالغين. تسعة من كل عشر بريطانيين، تتراوح أعمارهم بين 18 عامًا و44 عامًا، يمتلكون هاتفًا ذكيًا. وهم يُراجِعون هذه الأجهزة بشكل قَسْرى، سواء فى البيت أو العمل أو فيما بينهما. ويستخدم أكثرُ من الثلثين أجهزتهم حتى أثناء تناول الطعام مع عائلا تهم. وعندما ينامون فقط يضعون الأجهزةَ جانبًا، لصعوبة اصطحابها معهم إلى النوم. وأكثرُ من نصف أصحاب الهواتف الذكية البريطانيين يُراجِعون هاتفَهم فى غضون ثلاثين دقيقة قبل إطفاء الأنوار ليلا ً، ورُبْعهم قبل خَمْس دقائق من إطفائها، وواحدٌ من كل عشرة قبل إطفاء الأنوار مباشرةً. النسبةُ

نفسُها من الناس يلتقطون هاتفهم بمجرد الاستيقاظ، والثلث يُراجِعُ هاتفه فى غضون خَمْس دقائق بعد الاستيقاظ، والنصفُ خلال رُبْع ساعة بعد الا ستيقاظ[1129].

وليس الأمريكيون بأقل تعلُّقًا. ففى عام 2009، الأمريكى العادى لديه اتصالٌ على الهاتف المحمول 165 يومًا فى السنة، واتصال بالرسائل النصية 125 يومًا فى السنة، واتصال بالبريد الإلكترونى 72 يومًا فى السنة، واتصال رسائل فورية 55 يومًا فى السنة، ومواقع شبكية اجتماعية 39 يومًا فى السنة[1130]. بحلول عام 2012، صار الأمريكيون يُراجِعون هواتفهم المحمولة 150 مرة فى اليوم. وبحلول عام 2016، صار الأمريكيون يقضون فى المتوسط خَمْسَ ساعات يوميًا على هواتفهم. لن تكتمل نظريةٌ عن تمرُّد شعبى يجتاح أوربا و الولايات المتحدة فى السنوات بعد عام 2008، إذا فشلت النظريةُ فى إدراج هذا التحوُّل المُدْهِش فى المجال العام، وهو تحوُّلٌ يجوز وَصْفُه بأنه اجتياح شامل للمجال الخاص.

ولا شك فى أن القفزات الكبيرة فى تأييد الشّعْبويين من اليسار واليمين على السواء، ترْجِعُ جزئيًا إلى ثورة انخفاض التوقّعات الاقتصادية الموصوفة أعلاه [1131]. ولا شك فى أن رَدّ الفعل الثقافى العنيف ضد التعددية الثقافية multiculturalism جزءٌ لا يتجزأ من الثورة على اقتصادات العولمة[1132]. وكما يقول رينى دَيْرستا Renee DiResta، يختلف الحشد الرقمى فى العقد الأول من القرن الحادى والعشرين اختلافًا جوهريًا عن الحشد فى ثلاثينيات القرن العشرين الذي فُتَنَ إلياس كانيتي[908] Elias Canetti واستثارَه:

1 - الحشد يريد أن ينمو دائمًا، وهو يستطيع ذلك دائمًا متحرّرًا من القيود المادية.

2 - داخل هذا الحشد توجد مساواةٌ؛ ولكن توجد أيضًا مستوياتُ خداع وشَكٍّ ومناورة أعلى.

3 - يُولَعُ الحشدُ بالكثافة؛ والهُويّات الرقمية يمكن تعبئتها على نحو أوثق.

4 - الحشد يحتاج وِجْهَةً؛ ونقرات التحفيز تجعل الوِجْهات يسيرةً كثيرةً[1133].

مَن يُعَلِّقون آمالَهم على «حكمة» الحشود، فيتخيّلون بسذاجةٍ سياسةً حميدةً «مصدرُها الحَشْدُ»، يحتاجون إلى إيقاظ عنيف. فكما لاحظ باحثان فى

---

[908] إلياس كانيتى: (1905 - 1994)، روائى وكاتب مسرحى وباحث ألمانى. كان يهتم بـ السياسة والفلسفة وعلم الاجتماع والعلوم. حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1981 - المترجم.

الشبكات:

«عند وجود سلطة اجتماعية، تعتمد أفعالُ الناس على بعضهم البعض، الأمر الذى يُمزّق الفرضيةُ الأساسية خلف حكمة الحشود. عندما تنساق الحشود إلى ترابطها، تدين بنشر المعلومات للجموع الغفيرة، حتى لو كانت غير صحيحة»[1134].

حين نرى انتخابات الرئاسة الأمريكية لعام 2008 من منظور عام 2017 تبدو لنا وكأنها حدثت فى ماضٍ بعيد. جون مَكين John McCain، المرشح الجمهورى المهزوم، كان لديه 4,492 متابع على تويتر و625 ألف صديق فيسبوك فقط. وقد اعترف بأنه لم يكن لديه حساب بريد إلكترونى ولم يَستعمل الإنترنت[1135].

لقد ضربته الأزمةُ المالية، ووقف حزبُه مكتوف اليدين أمام لَوْمه عليها، عبْر أولى الحملات الإلكترونية على الشبكات الاجتماعية. أما باراك أوباما فكان لديه أربعة أضعاف أصدقاء مَكين على فيسبوك، وستة وعشرون ضِعْفًا من المتابعين على تويتر. والذى صَمّمَ موقعَ أوباما على الإنترنت (www.barackobama.com) هو كريس هيوز Chris Hughes، الشريك المؤسِّس ل فيسبوك، وثبَتَ أنه مُحَرّك حيوى للرسائل ولجَمْع التبرعات أيضًا. وقد ابتهجت النُخَبُ الليبرالية على كلا الساحلين لهزيمة مَكين: عجوز مخضرم أبيض لديه سنوات خبرة فى واشنطن هَزَمَه شابٌ رابط الجأش، «مُنَظِّمٌ اجتماعى»[909] community organizer، أمريكى من أصول أفريقية، وعضو مجلس الشيوخ لفترة واحدة. قِلّةٌ فقط لاحظت سمتين مُقلِقتين فى التنافس [الرئاسى]. الأولى، ينشأ الاقتصارُ على المُمَاثِل homophily فى الشبكات الاجتماعية عن الاستقطاب عندما تصبح السياسةُ موضوعَ المناقشة، فوجهات نظر الأفراد تكون أكثر تطرفًا فى «غرفة الصدى»[910] echo chamber التى تحتوى على انحيازات مشتركة[1136]. السمة الثانية أن فيسبوك أداةٌ فعّالة للغاية فى التحريك السياسى، وبخاصة عندما يُستخدَمُ لاستهداف شبكات محلية غير رقمية، ولم يظهر هذا بشكل منهجى حتى انتخابات

---

[909] مُنَظِّمٌ اجتماعى: شخص يمارس عملية تنظيم الأفراد المتقاربين فى منظمة تعمل من أجل مصلحتهم الشخصية المشتركة، بهدف توليد قوة اجتماعية تستطيع التأثير على صانعي القرار الرئيسيين بمرور الوقت في عدد من القضايا - المترجم.

[910] غرفة الصدى: وَصْفٌ مجازى للحالة التى تُضَخّمُ فيها المعتقداتُ والآراءُ وتُعَزّزُ من خلال التواصل والتكرار داخل نظام مغلق، الأمر الذى يزيد من حِدّة الاستقطاب السياسى والا جتماعى والتطرف. وينشأ عن تأثير هذا الصدى والتجانس الحاصل على الإنترنت فى وسائل التواصل الاجتماعي ما يُسَمّى «القبلية الثقافية» cultural tribalism - المترجم.

الكونجرس الِتّصْفية في عام 2010 [1137].

لم تفت هذه الآثار على دومينيك كامينجز Dominic Cummings مهندس النصر فى حملة «التصويت بالمغادرة» Vote Leave فى استفتاء عام 2016 على عضوية بريطانيا فى الاتحاد الأوربى. لقد اهتم كامينجز منذ فترة طويلة - بشكل فريد تقريبًا فى الطبقة السياسية البريطانية - بالتاريخ، الذى درسه فى أوكسفورد، وبالتعقيد والشبكات أيضًا. وكان عليه - بميزانية محدودة (10 مليون جنيه إسترلينى) فقط، وفترة محدودة (عشرة أشهر) - أن يحارب «صُنّاع القرار على قمة التسلسل الهَرَمى المركزى» الذين عارضوا جميعهم تقريبًا «بريكست» [«انسحاب المملكة المتحدة من الاتحاد الأوربى»][911] Brexit، بل عليه محاربة السياسيين غير المنضبطين فى فريقه أيضًا.

تكدّست الخلافات والمصاعب ضد المغادرة Leave. قال كامينجز إن التصويت بالمغادرة كان من بين مفاتيح انتصاره المحدودة: «ما يقرب من مليار إعلان رقمى استهدافى»، واستطلاع تجريبى، وبيانات أعدّها فريقٌ علمىٌ من «فيزيائيين بارعين للغاية»، ووَعَدَ بمبلغ 350 مليون جنيه إسترلينى لتحسين الخدمات الصحية مع الوعيد بزيادة عدد المهاجرين المسلمين إذا انضمت تركيا - إلماحًا إلى شعارات كاذبة «أظهرت التجاربُ أنها الأكثر تأثيرًا» فى إقناع الناس بالتصويت على المغادرة. بالنسبة إلى كامينجز، لم يكن البريكست نصرًا لليمين الشّعْبوى بالمرة، لأن حملته جمعت عَمْدًا بين الجناح اليمينى وعناصر من اليسار (الوعيد بمزيد من المهاجرين المسلمين لو انضمت تركيا إلى الاتحاد الأوربى، والوعد بمزيد من المال لصالح الخدمة الصحية الوطنية National Health Service لو غادرت بريطانيا الاتحاد). وكما أشار ديفيد جودهارت David Goodhart قبل سنوات، معارضة الهجرة ودعم دولة الرعاية موقفان متكاملان فى حقيقة الأمر[1138]. وبالأحرى، فيما يقول كامينجز ، البريكست انتصارٌ ل«نظام صحى وفعّال» ل«القانون العام الإنجليزى الذى يسمح بتصحيح الأخطاء سريعًا ودائمًا» - انتصارٌ على «نُظُم غير صحية وغير فعّالة مثل الاتحاد الأوربى ووزارات الوايتهول الحديثة... المركزية والهَرَميّة للغاية»، العاجزة - لهذا - عن حل المشكلة بكفاءة[1139].

البريكست، باختصار، انتصارٌ للشبكة - وعلوم الشبكة network science - على

---

[911]بريكست أو انسحاب المملكة المتحدة من الاتحاد الأوربى: هو هدف العديد من الأشخاص وجماعات الضغط والأحزاب السياسية منذ انضمام المملكة المتحدة للسوق الأوربية المشتركة عام 1973 الذى نتج عنه الاتحاد الأوربى. وفى استفتاء عام 2016 صوّتَ52% على مغادرة المملكة المتحدة للاتحاد الأوربي - المترجم.

هَرَميّة المؤسسة البريطانية. فإذ بينما كان ديفيد كاميرون David Cameron وجورج أوزبورن George Osborne يقودان حملةً تقليدية، فركّزوا كلّ نيرانهم على المخاطر الاقتصادية المترتبة على مغادرة الاتحاد الأوربى، استخدم كامينجز ما أسماه «نظام تجميع مقاصد الناخبين»[912] Voter Intention Collection System (VICS)، وفيسبوك، لتوصيل رسالة فيروسية viral message[913] بأن الأمر يستحق تحمل تكلفة اقتصادية مقابل «استعادة السيطرة». وكما يذكر كامينجز:

«قمنا بعمل العديد من الإصدارات المختلفة للإعلانات، واختبارها، وإسقاط الأ قل فعالية، وتقوية الأكثر فعالية، من خلال عملية تنقيح مستمر»[1140]. وقيل إن هذه التقنيات أتاحتها لكامينجز شركةُ تحليل بيانات يملكها الأمريكى روبرت مِرْسر Robert Mercer مدير صندوق استثمارى [محفظة وقائية] hedge fund ، هي شركة كمبريدج أنالِتيكا[1141] Cambredge Analytica.

كان البريكست بمثابة بروفة لانتخابات الرئاسة الأمريكية عام 2016. ف المؤسسة السياسية فى الولايات المتحدة - كمثيلتها فى بريطانيا - سلّمت بأن الطرق القديمة ستكون كافية. ورغم إنفاق مئات الملايين من الدولارات على الدعاية التقليدية، كافحت حملات جيب بوش Jeb Bush وهيلارى كلينتن Hillary Clinton لإتاحة أى اتصال مع قطاعات كبيرة من مؤيّدى حزبهما. فى ا لأشهر الأولى من عام 2016، كان قطب العقارات الشهير بنيويورك واشتراكى ولاية فِرْمونت Vermont المشاكس مُتّصِلا ً [دونالد ترامب].

ومرة أخرى، الشبكات غير المُهَيْكلة نسبيًا تحدّت الهَرَميّات ذات الطراز القديم: تحدّت الأحزابَ المؤسّسية التى قال عنها علماءُ السياسة إنها «تحسم» مثل هذه التنافسات، بل تحدّت أيضًا السلالات الحاكمة - بوش وكلينتن - التى هيمنت سياسيًا منذ ثمانينيات القرن العشرين. بدأ دونالد ترامب Donald Trump وبِرْنى ساندرز Bernie Sanders حملتهما بوصفهما من الخوارج[914]

---

[912]فيكس أو نظام تجميع مقاصد الناخبين»: عبارة عن قاعدة بيانات على الإنترنت استخدمها الناشطون فى حملة بريكست لتحديد الأماكن المستهدفة. وكان الفيكس هو الأ ول من نوعه الذى يتضمن نموذجًا ديموغرافيًا تفاعليًا يستند إلى الشارع الجغرافى ويُوَجِّه الناشطين إلى الشوارع التي تدعم مغادرة الاتحاد الأوربي.

كان عاملا ً مهمًا في نجاح التصويت بالمغادرة - المترجم.

[913]الرسالة الفيروسية: المقصود رسالة تنتشر بين مُستخدِمى الإنترنت انتشارًا سريعًا ك الفيروس - المترجم.

[914]الخوارج: بمعنى الدخلاء على النظام السياسى القائم بأعرافه وتقاليده المتبعة -

outsiders، فعبّرا عن عدائهما لهَرَميّة واشنطن والأيديولوجيات التفسيرية - عَداء المهاجرين، الحماية، الاشتراكية - التى اعتُبِرَتْ منذ فترة طويلة وراء شحوب الديمقراطية الأمريكية. مع ساندرز الذى وُوُجِه بنظام «المفوّضين الكبار»[915] delegates-super المُصَمّم لزيادة سيطرة النُخْبَة فى الحزب الديمقراطى Democratic Party، أُعِدّ المسرحُ لمواجهة شافية بين هيلارى كلينتن - مُجَسِّدة الهَرَميّة السياسية المؤسسية - وترامب الذى عاملته المؤسّسةُ «بطريقة حَرْفية ولكن ليس بجدية» وفق صياغة سلينا زيتو Salena Zito المُوْحِية[1142]. والسبب فى أن عدد الناخبين الضرورى قد حمله على محمل الجد، ولم يعامله بطريقة حَرْفية، أن شبكةَ ترامب حُرّةُ النطاق، فقامت على أساس الجمع بين التنظيم الذاتى والتسويق الفيروسى [بمعنى ا لانتشارى السريع]، فتفوّقت على حملة هيلارى كلينتن المُنَظّمة هَرَميًّا وشديدة التعقيد. لم تكن حملة هيلارى كلينتون تفتقر إلى الشبكات. بل عانت من وجودها المفرط تقريبًا. كانت هناك «شبكة المانحين والأصدقاء والحلفاء و المستشارين» - «شبكة هائلة الحجم لجَمْع التبرعات» - يعود تاريخها إلى أيام مجد زوجها. وُجِدَتْ أيضًا [حملة الصياغة والتجهيز] «تجهيز هيلارى» Ready for Hillary، التى «بَنَت الحماسةَ على مستوى القواعد الشعبية... وزودت كلينتن بشبكة عبر الولايات»[1143].

كانت هناك أيضًا «شبكة واسعة من المستشارين المتطوعين والمُشكِّكين المحترفين»، وخُبَراء فى السياسة العامة بدرجات علمية من كلية الحقوق بجامعة ييل Yale Law School، هذه الشبكة حرّكتْ بقوةٍ النقاطَ ذات القيمة ا لانتخابية الدنيا[1144]. لكن مدير حملة هيلارى كلينتن، روبى موك Robby Mook، أوقف [حملة] «تجهيز هيلارى»، واستبعد مديرى مقرّاتها المحلية. ومع إرسال النُشَطاء السياسيين الكبار لسدِّ الثغرات فى الولايات المُلَقّبة ب «العوالى» ubers، تضَخّمَ تأثير الحملة الإجمالى[1145]. الغائبُ عن كل هذا التعقيد حقيقةٌ بسيطةٌ، ألا وهى أن المرشّحةَ كانت تتصل بناخبيها الرئيسيين بفعالية أقل كثيرًا من منافسها الأخطر [ترامب].

الدور الحاسم الذى لعبته الميديا الاجتماعية [على الإنترنت] فى انتخابات عام 2016، بدا واضحًا، حتى لو ظل التلفزيون أهمّ بالنسبة إلى الناخب العادى[1146]. ما يقرب من نصف الأمريكيين استخدموا فيسبوك وغيره من مواقع الميديا الاجتماعية لمتابعة أخبار عن الموضوع، وكان الاستخدام

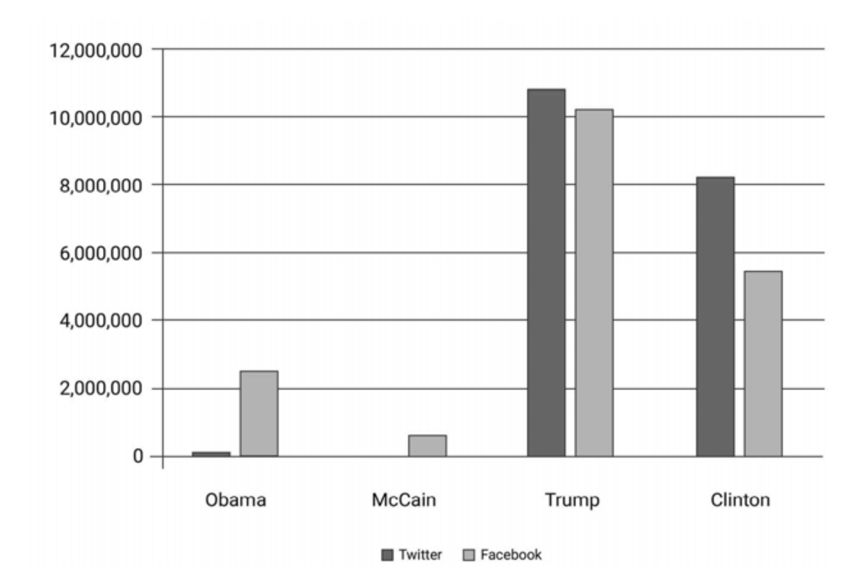
المترجم.

[915] المفوّضون الكبار أو المندوبون الكبار فى الحزب الديمقراطى هم غير المُنْتخَبين الذين لهم حق دعم أي مرشح رئاسي في مؤتمر الحزب - المترجم.

مرتفعًا بوجه خاص من الناخبين تحت سن الخمسين[1147]. وحوالى ثلث مُستخدِمى الميديا الاجتماعية عَلّقوا أو ناقشوا أو نشروا [بوستات] حول موضوع السياسة، رغم وجود رأى واسع الانتشار يقول بأن مناقشات الميديا ا لاجتماعية كانت أقل تحضرًا من مثيلاتها فى أماكن أخرى[1148]. ومع ذلك، كانت النقطة الحاسمة فى المرحلة النهائية من الانتخابات (بعد مؤتمرات الحزب) أن مرشحًا واحدًا لديه حضور على الميديا الاجتماعية أكبر من المرشّح الآخر. ترامب لديه 32% من المتابعين على تويتر أزيد من هيلارى كلينتون، و87% من المؤيّدين على فيسبوك أزيد منها[1149]. قبل أيام قليلة من ا لانتخابات، كان لدى ترامب 12 مليون «لايك» على فيسبوك، بفارق 4 مليون عن هيلاري كلينتون[1150].

لقد تفوق ترامب أيضًا على هيلارى كلينتون بقياس الاهتمام على فيسبوك، وقد فعل ذلك فى كل ولاية على حدة. (الناس فى ولاية مِسيسيبى Mississippi اهتموا بترامب أكثر من هيلارى كلينتون بفارق اثنى عشر ضِعْفًا، بل حتى فى نيويورك وُجِدَ أنه أكثرُ إثارةً للاهتمام منها بثلاثة أضعاف). الولا يات المُتأرجِحة، التى ستحسم، فى وسط غرب الولايات المتحدة [الغرب الأ وسط الأمريكى] Midwest أشارت جميعُها إلى مقاصدها بوضوح عبر فيسبوك. وأنبأت بياناتُ تويتر بقصة مماثلة. من يوم 11 إلى يوم 31 مايو عام 2016، منشورات [بوستات] posts ترامب على تويتر أُعِيدَ نَشْرُها retweet [ريتويت] 6 آلاف مرة فى المتوسط، أما تغريدات [تويتات] tweets هيلارى كلينتن فأُعِيدَ نَشْرُها 1,500 مرة فقط[1151].

نجحت حملة ترامب فى استخدام يوتيوب بطريقة فعّالة أيضًا؛ وخير مثال على ذلك حملة الهجوم الدعائية النهائية الموجّهة ضد النُخْبَة العالمية: كلينتون، سُورَس، جولدمان ساكس[1152]. وفى المقام الأول، استفادت حملة ترامب، كحملة «التصويت بالمغادرة» البريطانية، استفادةً كاملة من طاقة فيسبوك الدعائية التجريبية، بإجراء عشرات الآلاف من المُتغيّرات لتحديد أفضلها تأثيرًا في الناخبين المستهدفين[1153].



هنا موضع الشكل رقم: 45 - متابعو الميديا الاجتماعية من المرشحين للرئاسة في انتخابين رئاسيين، 2008 و2016.

وهاكمُ الحالة الجارية المُفْعَمة بالسخرية: منذ المرحلة الأولى [فى الانتخابات] انحاز وادى السِّليكون إلى هيلارى كلينتن. فمَنَحَ موظّفو جوجل حملةَ هيلارى 1.3 مليون دولار، مقارنةً ب 26 ألف دولار فقط لحملة ترامب. وزَوّدَ إريك شميت Eric Schmidt بقاعدته التحضيرية حملةَ هيلارى كلينتن ببيانات الدعم[1154].

أما مارك زوكربيرج فواجه ثورةً داخلية حين نَشَرَ ترامبُ بوستَ post دعوته إلى «إنهاء شامل وكلى للمسلمين داخل الولايات المتحدة» على فيسبوك، وزَعَمَ موقعُ جِزمودو Gizmodo الإلكترونى أن فيسبوك يتلاعب بالموضوعات الشائعة للحدِّ من شُهْرَة ترامب[1155]. زوكربيرج نفسُه لم يُخْفِ ازدراءَه الشخصي لآراء ترامب[1156].

ولكن الشبكات التى بذل زوكربيرج وشميت جهودًا كبيرة لبنائها كى تُسْتخدَمَ فى ترويج أفكار الرجلين معًا وشركائهما فى العمل، وَجَداها مثيرةً للاشمئزاز، فضلا ً عن أنها أعانت حملةَ ترامب فى جَمْع التبرُّعات[1157]. وحتى لو تمكّنَ جوجل وفيسبوك، بطريقة ما، من حظر [مَنْع] ترامب، فسيُحوِّلان مرورًا أزيد إلى شبكات أخرى، مثل منصات الرسائل المجهولة فى مواقع فورشان 4Chan وإيتتشان 8Chan، مسقط رأس حركة «اليمين البديل»[916] right-alt

---

[916]حركة اليمين البديل: تجمُّعٌ غير مترابط نوعًا ما، وغير محدد نوعًا ما، من الأمريكيين البيض القائلين بالقومية، والقائلين بالانفصالية، والمُعادين للسامية، والقائلين بالنازية الجديدة، والقائلين بالفاشية الجديدة، والقائلين بالكونفدرالية الجديدة، والقائلين بإنكار

.movement

مُتصيّدو الإنترنت trolls من اليمين البديل أمثال مات بريناردMatt Braynard، وتشارلز جونسن Charles Johnson، ومحرّر شبكة بريتبارت[917] Breitbart الإخبارية على الإنترنت مَيْلو يانوبولوس Milo Yiannopoulos المولود فى بريطانيا، تفاخروا لاحقًا بأنهم وشبكتَهم دفعوا بدونالد ترامب إلى المنصب من خلال عناصر «شِيتْبوستنج»[918] shitposting تتنقل بسهولة مثل: ضفدع كرتوني، وPepe وinsult cuck (اختصارًا ل cuckold)[1158].

ولا شك فى وجود تنسيق وثيق بين حملة ترامب وشبكة اليمين البديل: فريق فى بُرْج ترامب Trump Tower استخدم ذادونالد سوبريديت[919] TheDonald subreddit بوصفه قناةً بين فورشان والويب الرئيسى. من خلال هذه القنوات شُوّهَتْ سُمْعةُ هيلارى كلينتن فوُصِفَتْ بأنها «المُرَشّحة الأكثر فسادًا على الإطلاق»، واتُّهِمَ مديرُ حملتها بالتورط فى حلقة استغلال جنسى لـلأطفال - غير موجودة - تتخذ من مطعم بيتزا واشنطن مقرًّا لها[1159].

ولا يزال يوجد جدلٌ ساخن حول الدور الكبير الذى لعبته شركة كمبريدج أنالِتيكا Cambridge Analytica في انتصار ترامب[1160]. من المحتمل أن تنميطَها «السيكولوجى» للناخبين الأفراد أقلُّ أهميةً مما عَنَاه ضمنًا رئيسُها التنفيذى ألكسندر نيكس Alexander Nix[1161]. ولكن ما ليس محل خلاف أنّ تعاونَ حملة ترامب مع اليمين البديل جلب معاداةَ السامية Semitism-anti مرة أخرى إلى السياسة الأمريكية بطريقة لم تشهدها منذ ثلاثينيات القرن العشرين[1162]. ومع ذلك، لم يكن هذا هو السبب في فوز ترامب.

لعل الجانب الأكثر إيلامًا فى انتخابات عام 2016 بالنسبة إلى سادة وادى

المحرقة/الهولوكوست، ومُنَظِّرِى المؤامرة، وغيرهم من مجموعات الكراهية اليمينية. وُصِفَتْ معتقداتُ اليمين البديل بأنها انعزالية وتتبنى سياسة الحماية ومُعادية للسامية وتتداخل مع النازية الجديدة، ومُعادية للأجانب والإسلام، ومُناهِضة للنِّسْوية - المترجم.

[917] شبكة بريتبارت: موقع إلكترونى إخبارى أمريكى، تأسّسَ عام 2007. ينتمى إلى حركة اليمين البديل. ينشر العديدَ من نظريات المؤامرة والقصص المضلِلة عَمْدًا - المترجم.

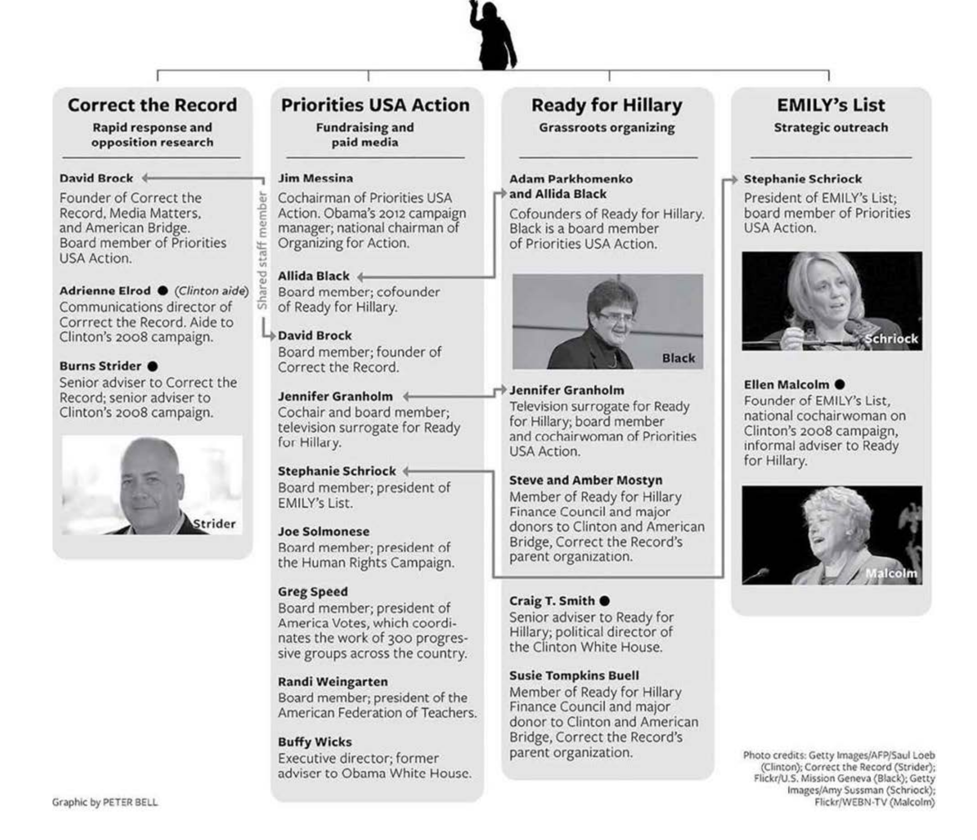
[918] شيتبوستنج: إغراق منتدى على الإنترنت أو شبكة تواصل اجتماعى إلكترونية بمحتويات عدائية وساخرة، وفى بعض الحالات استهداف تعطيل المناقشات أو جَعْل الموقع غير صالح للزوّار العاديين - المترجم.

[919] ذادونالد سوبريديت: موقع يخلق فيه المشاركون مناقشات وميمات تدعم الرئيس الأمريكى دونالد ترامب. أُنشِئ فى يونيو عام 2015 بعد إعلان حملة ترامب الرئاسية. اتهمته وسائل الإعلام بأنه يستضيف نظريات المؤامرة ومعاداة السامية - المترجم.

السِّليكون هو الطريقة التي اسْتُخْدِمَتْ بها شبكاتُهم لنشر قصص غير حقيقية:

«الأخبار المزيفة» التى اشتكى منها مرارًا ترامب، حتى وهو ينشر أكاذيب لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى. فى سبتمبر، نقل فيسبوك قصةً زائفة عن أن ترامب تلقى تأييدًا من البابا[1163]. وفى نوفمبر، أعطى جوجل دون قصد أعلى موضع لزَعْمٍ كاذبٍ بأن ترامب فاز في التصويت الشعبي[1164].

وهذا أيضًا ساعد ترامب. ومن القصص الإخبارية الزائفة، المشهورة، التى ظهرت فى الأشهر الثلاثة قبل الانتخابات، قصصُ عَداء ضد ترامب تمت مشاركتها على فيسبوك 8 مليون مرة؛ وقصص عَداء ضد هيلارى كلينتن تمت مشاركتها 30 مليون مرة[1165]. وما يقرب من رُبْع الروابط المنشورة على تويتر فى عيِّنة من 140 ألف مُستخدِم فى ولاية ميشيجان Michigan، أثناء الأيام العشرة السابقة على يوم 11 نوفمبر، كانت روابط لقصص أخبار زائفة[1166].



<u>الشكل رقم: 46 - حملة هيلاري كلينتون عام 2016: بنية هَرَميّة فاشلة.</u>

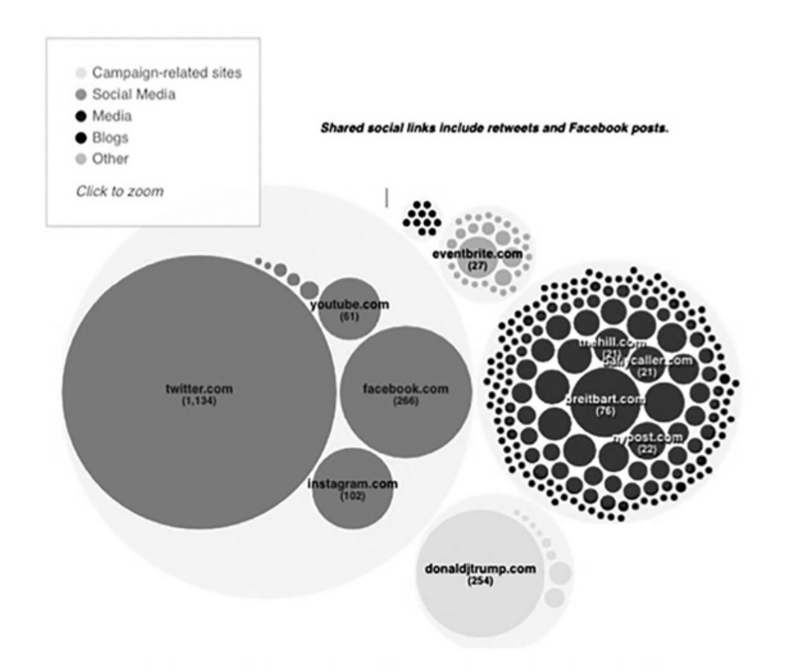
انتخاباتُ عام 2016 أحدُ الانتخابات الأندر فى التاريخ الأمريكى؛ أندر من نتيجة استفتاء البريكست أيضًا. لو أن أقل من 39 ألف ناخب فى ثلاث ولا يات مُتأرجِحة (ميشيجان، بنسلفانيا Pennsylvania، ويسكونسن Wisconsin) أدلوا بأصواتهم لهيلارى كلينتون بدلا ً من ترامب لفازت هيلا رى فى المَجْمع الانتخابى Electoral College وكذلك بالتصويت الشعبى. وسيتجادل المؤرّخون بلا نهاية حول أى عددٍ لانهائى من المُتغيّرات هو العدد الحاسم، كما لو أن كل الأشياء الأخرى كانت ستظل متساويةً إذا تغيّر مُتَغَيّرٌ واحد فقط.

ورغم ذلك، ثمة حقيقة قهرية، ألا وهى أنه دون استغلال الشبكات الاجتماعية عبر المنصّات الإلكترونية، لم يكن دونالد ترامب يستطيع أن يكون رئيس الولا يات المتحدة. ففى حملةٍ انتخابيةٍ، ما قبل الإنترنت، كان ترامب سيناضل دون شك لمنافسة هيلارى كلينتن، لأنه يفتقر إلى موارد تمويل حربِ استنزافٍ قديمة الطراز فى الدعاية التلفزيونية. وربما يُقال إن الشبكات الاجتماعية أتاحت له حملةً أكفأ بكثير، وفوضويةً رغم تنظيمه الظاهر لها، ولكن هذا القول يتغاضى عن النقطة الحاسمة. تُبيّنُ خريطةُ الولايات المتحدة الانتخابية أن ترامب كسب «ترامبلاند» Trumpland - فالمقاطعات التى صَوّتتْ له

تصل إلى 85% من أراضى الولايات المتحدة - أما هيلارى كلينتن ففازت بما يمكن أن يُسَمّى أرخبيل هيلارى Hillary Archipelago. فقد تركّزَ تأييدها بدرجة كبيرة فى المناطق الحَضَرية الكبرى [الميتروبوليتانية] على الساحلين، فى حين انتشر تأييد ترامب عبر قلب المدن والبلدات والمجتمعات الريفية. وهذا يشير إلى مفارقة:

هيلارى كلينتون كان ينبغى أن يكون لها أفضلية فى انتخابات شَبَكيّة، ففيها تجد مؤيّديها الأكثر تركيزًا وكثافةً والأصغر سنًا. وقد وُجِدَتْ مفارقةٌ مماثلةٌ فى حالة استفتاء البريكست: تحَقّقَ النصرُ لحملة مُناهَضة الاتحاد الأوربى من خلال الناخبين الأكبر سنًا، المتركِّزين غالبًا فى «المقاطعات» الويلزية والإنجليزية، وليس فى المدن الكبرى. إذا كانت الشبكات الاجتماعية مفتاحًا رئيسيًا إلى السياسة الشّعْبوية، فلماذا كانت المجموعاتُ ذات الاحتمال الأقل تواجدًا على فيسبوك - كسُكّان الريف الأكبر سنًا - احتمالَ تصويتها أكبر لشَعْبوي؟[1167].

هناك تفسير. لا شك فى أن الميديا الاجتماعية قد استخدمها كامينجز ونظيره فى حملة ترامب، ستيفن بانون Stephen K. Bannon، بكفاءة وفعالية أكبر من خصومهما. ولكن الحملات الشّعْبوية لم تكن لتنجح إذا لم تكن الميمات التى نشرتها قد انتشرت أبعد فى منتديات غير إلكترونية حيث يلتقى الناس العاديون، وحيث الصداقات الحقيقية بدلا ً من الزائفة (كالتى على فيسبوك): الحانات والبارات. وهذا بدوره لم يكن ليحدث إذا لم يتردد صدى هذه الميمات.



الشكل رقم: 47 - شبكة الميديا الإلكترونية لدى ترامب، 2016.

فى مكتبة بابل Library of Babel التى هى الإنترنت Internet، الكثيرُ مما يقرأه المرء لا يمكنه الوثوق به. وهذا هو السبب فى أن أعمق الشبكات الا جتماعية هى الشبكات المحلية والاجتماعية النزعة [بمعنى مخالطة الناس فى الحياة الواقعية]. لذا، لم تُحْسَم التنافساتُ السياسية فى عام 2016، فى مكتبة بابل، وإنما فى النُّزُل الناطق بالإنجليزية Speaking-English Hostelry. الإنترنت اقْتَرَحَ؛ والحانات حَسَمَتْ. لكن ما الذي جاءوا به؟

IX

القسم التاسع

57

ميتروبوليس

يُصَوّرُ فريتس لانج[920] Fritz Lang فى فيلمه السينمائى الكلاسيكى الصامت عام 1927، «ميتروبوليس»[921] Metropolis، سقوطَ نظام هَرَمِىٍّ على أيدى شبكة متمرّدين. ميتروبوليس هى مدينة ناطحاتِ سحابٍ شاهقة كالأبراج. وعلى القمة فى أعلى هذه الناطحات، تعيش نُخْبَةٌ ثرية بقيادة الأوتوقراطى [المستبد] جو فريدرسن Joh Fredersen فى شقق بنتهاوس[922] penthouse ضخمة. أما فى الأسفل فتكدح طبقةُ عُمّال [بروليتاريا] proletariat فى مصانع تحت الأرض.

فريدرسن القائد المستبد لديه ابنٌ منغمس فى الملذات، شَاهَدَ الابنُ ذات يوم حادثةً فى أحد المصانع، فانتبه إلى بؤس حياة طبقة العُمّال وما تعانيه من مخاطر.

فكانت النتيجةُ ثورةً عنيفةً ألحقت بطبقة العُمّال كارثةً غير مقصودة: فعندما حَطَّمَ العُمّالُ مولِّداتِ الطاقة تعطّلَتْ مضخات المياه، وغمرت أماكنَ معيشتهم.

ولعلنا نتذكر بشكل جيد الروبوت الأنثوى، شبيه البطلة ماريا Maria، فى فيلم «ميتروبوليس». وقال لانج إن زيارته الأولى إلى نيويورك هى التى ألهمته

---

[920] فريتس لانج: (1890 - 1976)، مخرج وكاتب سيناريو وممثل ومنتج نمساوى أمريكى. ينتمى إلى المدرسة التعبيرية الألمانية فى السينما. لقبَه معهدُ الفيلم البريطانى بلقب «سيد الظلام» - المترجم.

[921] الفيلم الصامت «ميتروبوليس»: أشهر أفلام فريتس لانج فى مرحلته التعبيرية، وأكثر الأفلام الصامتة تكلفةً فى زمنه. أصدره لانج قبيل هجرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية. يُعَدُّ الفيلمَ الأيقونةُ الذى ألهم لاحقًا تأسيسَ النوع السينمائى المعروف ب«فيلم نوار» أو «الفيلم الأسود .film noir «يُصَنّف فيلم ميتروبوليس حاليًا ضمن فئة أفلام الديستوبيا - المترجم.

[922] شقة بنتهاوس: تكون عادةً فى الطابق الأعلى أو الطوابق العلوية من مبنى مكوّن من شُقق، وأهمُّ ما يميزها إلى جانب ارتفاعها الشاهق كالبُرْج ميزاتُ الترف.

نشأت فكرة الشقق البنتهاوس فى عشرينيات القرن العشرين المعروف ب«عقد العشرينيات الصاخب»، وبخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية، عندما وَلّدَ النموُّ الاقتصادى والثراء الناتج عنه طفرةً فى الإنشاءات المعمارية فى مدينة نيويورك. ارتفاع شقق البنتهاوس الشاهق يعطيها صفةَ الإطلالة من أعلى كما لو من بُرْج مُرَاقبة – المترجم.

عمل هذا الفيلم. إذ رأى أن ناطحات السحاب فى مانهاتن Manhattan تعبيرٌ معمارى كامل عن مجتمع غير متساوٍ [ظالم] بشكل مُزْمِن. معاصرو لانج، ولا سيما قُطب الميديا اليمينى ألفريد هيوجنبرج Alfred Hugenberg، اكتشفوا فى [الفيلم] تيمةً شيوعية ضمنية (رغم أن زوجة لانج، التى شاركت فى كتابة سيناريو الفيلم، كانت قوميةً ألمانية راديكالية، وانضمّتْ فيما بعد إلى الحزب النازى Nazi Party). وأما اليوم فعند مشاهدة فيلم «ميتروبوليس»، نجده يتجاوز بوضوح أيديولوجيات أواسط القرن العشرين السياسية. فبتلميحات الفيلم الدينية المتعددة، التى تبلغ ذروتها فى الخلاص، يُعَدُّ الفيلم حداثةً ذات طابع ميثولوجي.

السؤالُ الواضح الذى يطرحه الفيلم وثيقُ الصلة بالحاضر الراهن كما كان وثيقًا بزمنه: كيف يمكن لمجتمع متحضِّر ومتقدِّم تكنولوجيًا أن يتجنّبَ كارثةً حين لا تُحقِّقُ عواقبُ هذا المجتمع المساواةَ؟

ومع ذلك، يوجد سؤال أعمق تطرحه تيمة فيلم لانج الضمنية: مَن يفوز فى النهاية، الهَرَميّة أم الشبكة؟ لا يأتى التهديد الأكبر للنظام الاجتماعى الهَرَمى، فى فيلم ميتروبوليس، من فيضان المياه الذى أغرق أماكن العُمّال تحت الأ رض، بل يأتى من التآمر السرّى بين العُمّال. فلا شىء يثير حنق فريدرسن وغضبه أكثر من معرفته بأن ثمة مؤامرة دُبِّرَتْ فى سراديب المدينة التحتية دون علمه.

بمصطلحات اليوم، ليس التسلسلُ الهَرَمى مدينةً واحدةً، بل الدولة ذاتها، دولة فائقة مُهَيْكلةٌ رأسيًا تطوّرَتْ عن جمهوريات ومَلَكيّات أوربا الحديثة فى بواكيرها.

ومع أن الولايات المتحدة ليست الأمةُ الأكبر عددًا من حيث السكان فى العالم ، فهى بكل تأكيد الدولة الأقوى فى العالم، مهما كانت أهواء نظامها السياسى. وأقرب منافس لها، جمهورية الصين الشعبية People's Republic of China، التى تُعَدُّ نوعًا من الدولة مختلفًا بشكل عميق، فإذ بينما يوجد فى الولايات المتحدة حزبان رئيسيان، يوجد فى جمهورية الصين الشعبية حزب واحد، وواحد فقط. وتتأسّسُ حكومةُ الولايات المتحدة على الفصل بين السلطات، و لا سيما استقلال القضاء. أما جمهورية الصين الشعبية فتُخْضِعُ كلَّ المؤسسات الأخرى، بما فيها المحاكم، لأوامر الحزب الشيوعى Communist Party. ومع ذلك، الدولتان كلتاهما جمهوريتان، ذواتا هياكل إدارةٍ رأسية متشابهة تقريبًا، و لا تختلفان تمامًا من حيث تركيزات السلطة فى أيدى الحكومة المركزية الوثيقة الصلة بسلطات الولاية والسلطات المحلية. ومن الناحية الاقتصادية، يتقارب النظامان دون شك، فالصين تسعى، أكثر من أى وقت مضى، إلى تبنِّى

آليات السوق، بينما يزيد الحُكمُ الفيدرالى الأمريكى - فى السنوات الأخيرة - من السلطة القانونية والتنظيمية للهيئات العامة على المنتجين والمستهلكين زيادةً مُطّردة. والأمر الذى يُزْعِجُ التحرُّريين فى اليسار واليمين على السواء، أن الحكومة الأمريكية تمارس سيطرةً ومراقبةً على مواطنيها بطرق أقرب وظيفيًا إلى معاصرتها الصين منها إلى أمريكا زمن الآباء المؤسِّسين[923] Founding Fathers. فى هذه النواحى، تشايمريكا [كايمريكا][924] Chimerica ليست تشايميرا [كايميرا][925] chimera. تبدو هذه الاقتصادات كالأضداد فأحدهما اقتصادُ تصديرٍ والآخر اقتصادُ استيرادٍ، أحدهما اقتصادُ ادِّخارٍ والآ خر اقتصادُ استهلاكٍ[1168].

ولكن منذ الأزمة المالية نشأ تقاربٌ معيّن. فاليوم، فقاعة العقارات[926] real estate bubble، والرّفْع [المالى] المفرط[927] excessive leverage، وبنوك الظل[928] shadow banks – وتكنولوجيا «وحيد القرن»[929] technology

---

[923]الآباء المؤسِّسون للولايات المتحدة هم أشخاص من المستعمرات البريطانية الثلاث عشرة فى أمريكا الشمالية قادوا الثورة الأمريكية ضد الإمبراطورية البريطانية وأسّسوا الو لايات المتحدة. كما يشير التعبير بصورة أضيق إلى مَن وقّعوا على إعلان الاستقلال الأ مريكى أو مَن حضروا الاجتماع الدستورى - المترجم.

[924]تشايمريكا كايمريكا :chimerica مصطلح صاغه نيال فِرْجُسن وموريتز شولاريك لوصف علاقة التكافل بين الصين والولايات المتحدة (أمريكا)، مع إشارة عَرَضية إلى كائن خرافى يُسَمّى «تشايمرا» كايميرا .chimera ويشير المصطلح إلى التكافل الاقتصادى مع احتوائه على عناصر سياسية - المترجم

[925]تشايمرا أو كايميرا أو الخَيْمَر: كائن حىٌ يمتلك تجمُّعين أو أكثر من الخلايا المتميزة جينيًا نشأت فى لاقحات مختلفة مرتبطة بالتكاثر الجنسى. ويحتفظ كل تجمُّع من الخلايا بصفته الخاصة. ويكون الحيوانُ الناتج خليطًا من الأنسجة - المترجم.

[926]فقاعة العقارات: فقاعة اقتصادية تحدث بشكل دورى فى سوق العقارات المحلية و العالمية بسبب زيادة سريعة فى سعر سوق العقارات يعقبها انخفاضٌ. وتُعَدُّ أخطر من فقاعات سوق الأوراق المالية - المترجم.

[927]الرّفْع المالى المفرط أو الرافعة المالية: يُشار إليها أحيانًا فى المملكة المتحدة وأستراليا ب«الاستثمار». والرافعة المالية هى أىُّ تقنية تتضمن استخدامَ الأموال المقترَضة فى شراء أحد الأصول مع توقُّع أن يتجاوز الدخلُ من الأصل بعد الضرائب وتقدير قيمة سعر ا لأصل القيمةَ المقترَضة. وما يحدث فى الواقع أن تكاليف الاقتراض تتجاوز الدخل من الأ صل، مما يعنى المخاطرة - المترجم.

[928]بنوك الظل أو نظام الظل المَصْرفى: مجموعة وُسطاء ماليين يُسَهّلون الائتمانَ (الإقراض والاقتراض) عبر النظام المالى العالمى، ولا يخضعون للإشراف التنظيمى كالبنوك الرسمية - المترجم.

[929]تكنولوجيا وحيد القرن: شركة ناشئة خاصة تبلغ قيمتها أكثر من مليار دولار. مصطلح صاغه عام 2013 الرأسمالى المغامر آيلين لى للإشارة إلى النُدْرة الإحصائية لهذه المشاريع، وهى نُدْرة يمثلها الكائن الأسطورى وحيد القرن. أما الشركة التى يزيد رأسمالها عن 10

unicorns - نجدها فى الصين China كما نجدها فى أمريكا America. فى الجيل الأول من تشايمريكا Chimerica 1.0، الأضدادُ تتجاذب. وفى الجيل الثانى Chimerica 2.0 الزوجان الغريبان يصبحان متشابهين على نحو غير عادي، كما يحدث عادةً في الزواج.

إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية وجمهورية الصين الشعبية، تأتى من حيث هَرَميّة الدول القومية الجمهوريةُ الفرنسية French Republic والاتحادُ الروسى The Russian Federation ومملكةُ بريطانيا العظمى وأيرلندا الشمالية المتحدة [المملكة المتحدة] United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland. وهم الأعضاء الخمسة الدائمون فى مجلس الأمن بالأمم المتحدة United Nations Security Council، ومن ثمّ فَهُم فوق كل الأعضاء ال 188 الآخرين فى الأمم المتحدة. والأمم المتحدة هى المؤسّسة التى تتساوى فيها كلُّ الدول، ولكن بعضَها أكثرُ مساواةً من الأخريات. ومن الواضح ، مع ذلك، عدم كفاية هذا الوصف لنظام العالم الراهن. فمن حيث القدرة العسكرية، توجد نُخْبةٌ أخرى من القوى النووية، أكبر قليلا ً، تنتمى إليها - بالإ ضافة إلى «الخمسة الدائمين» P5 - الهندُ وإسرائيل وباكستان وكوريا الشمالية. وتطمح إيران إلى الانضمام إلى هذه النُّخْبة. أما من حيث القوة الا قتصادية، فيختلف التسلسلُ الهَرَميُّ مرة أخرى:

مجموعة الدول السبع Group of Seven (كندا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، اليابان، المملكة المتحدة، الولايات المتحدة) كانت تُعَدُّ، فيما مضى، الاقتصادات المهيمنة فى العالم، ولكنها اليوم تُعَدُّ ناديًا أقلّ هيمنةً نسبيًا نتيجة صعود ال«بريكس» BRICS (البرازيل B، روسيا R، الهند I، الصين C، جنوب أفريقيا S) ، وهى ما يُسَمّى أكبر «الأسواق الناشئة». وتشكلتْ مجموعةُ العشرين Group of 20 فى عام 1999 لجَمْع معظم اقتصادات العالم الكبيرة معًا، ولكن مع تمثيل زائد للأوربيين (فالاتحاد الأوربى عضو فى حد ذاته، بالإضافة إلى الأ عضاء الأربعة الأكبر فيه).

ولكن التفكير فى العالم، وفق هذه الحدود فقط، يعنى تجاهلَ تحوُّله العميق الذي تسبّبَ فيه تكاثرُ الشبكات غير الرسمية على مدى الأربعين سنة الماضية.

فالصورة - التعقيد والترابط الاقتصادى المستند إلى رَسْم بيانى شبكى - تُحدِّدُ بدقة التطوُّرَ المعقد نسبيًا لجميع اقتصادات العالم من حيث التقدم التكنولوجى، بالإضافة إلى الاتصال عبْر التجارة والاستثمار العابر للحدود. ويعرض هذا الرسم البيانى بكل وضوح معمارًا هَرَميًا بسبب توزيع الموارد و

مليار دولار فتشير إليها كلمة ديكاكورنdecacorn ، وأما التى تُقدّرُ قيمتها بأكثر من 100 مليار دولار فتُسَمّى هِكتوكورن - hectocorn المترجم.

القدرات الاقتصادية فى العالم وَفْقَ قانون القوة[930] power law والتفاوت الكبير فى الانفتاح الاقتصادى بين الدول. ومع ذلك، سيتضح أيضًا أنها شبكةٌ معظمُ عُقدِها مُتّصِلةٌ ببقية العالَم عبْر أكثر من حافةٍ أو حافتيْن[1169].

السؤال الرئيسى هو: إلى أى مدى تطرح شبكة التعقيد الاقتصادى هذه تهديدًا لنظام الدول القومية العالمى الهَرَمى، مقارنةً بالتهديد الذى طرحته مؤخرًا شبكات التعقيد السياسى على التسلسلات الهَرَميّة السياسية المحلية المؤسّسية، وعلى وجه التحديد عام 2011 فى الشرق الأوسط، وعام 2014 فى أوكرانيا، وعام 2015 فى البرازيل، وعام 2016 فى بريطانيا وأمريكا؟ ولنَصُغ السؤال بطريقة أبسط: هل يمكن لعالَم شَبَكى أن يحوز نظامًا؟ يجيب البعضُ كما رأينا ب«نعم»[1170]. ولكنى، على ضوء التجربة التاريخية، أشُكُّ فى ذلك غاية الشك.

---

[930]قانون القوة فى الإحصاء هو علاقة وظيفية بين كمّيتين، بحيث يؤدّى التغيُّر النسبى فى كمية واحدة إلى تغيُّر نسبى فى الأخرى - المترجم.

58
انقطاع الشبكة

طبقًا للمأثور، سُئِلَ المهاتما غاندى[931] Mahatma Gandhi مرةً من أحد الصحفيين عمّا يظنه بالحضارة الغربية. فأجاب إنه يعتقد أنها مشروع صالح. ومن الممكن قَوْل الإجابة نفسها عن النظام العالمى world order. يقول هنرى كيسنجر فى كتابه الذى يحمل هذا العنوان [«النظام العالمى»]، إن العالم يعيش حالةً محفوفة بالمخاطر، على وشك فوضى دولية. وثمة أربعة تصوُّرات متنافسة للنظام العالمى: تصور أوربى، تصور إسلامى، تصور صينى، تصور أمريكى؛ وكل تصوُّر منها فى مرحلة تغيير كامل[932] metamorphosis مختلفة عن الآخر، إن لم يكن اضمحلالا ً وانحلالا ً decay. ومن ثم، لا توجد شرعية حقيقية لأى من هذه التصورات. ومن خصائص هذا اللانظام العالمى الجديد، الناشئة، تشكيلُ كتل إقليمية، وربما يتصاعد خطرُ الاحتكاك بينها إلى نوع من الصراع واسع النطاق، مقارنة بأصوله وتدميريته الاحتمالية في الحرب العالمية الأولى First World War. ويتساءل كيسنجر:

«هل يتحرك العالم نحو تكتلات إقليمية تقوم بدور الدول وَفْقَ النظام الويستفالى[933] Westphalian system؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل سيأتى التوازن بعدئذٍ، أم سيؤدِّى ذلك إلى اختزال عدد اللاعبين الرئيسيين فى قِلّة قليلة تغدو صلابتُها حتميةً وتُعيد مخاطرَ أوائل القرن العشرين، عبْر تكتلات مُهَيْكلة بطريقة غير مَرِنة يُحاوِلُ أحدُها مواجهةَ الآخر بجسارة؟»[1171]. إجابة كيسنجر عن هذا السؤال محمّلة بنذير الشرّ:

[ما يجب أن نخشى منه] ليس حربًا كبيرة بين الدول... التطورُ إلى مجالات نفوذٍ محدّدٌ بهياكل داخلية [محلية] خاصة وأشكال حُكم؛ مثلا ً النموذج الويستفالى يُناقِضُ التصوّرَ الإسلامى الراديكالى. وعند حوافِّ كل مجالٍ

---

[931] المهاتما غاندى: (1869 - 1948)، سياسى هندى وزعيم روحى أثناء حركة استقلال الهند عن بريطانيا. رائد الساتياجراها، أيْ المقاومة اللاعنفية، التى ألهمت الكثيرَ من حركات الحقوق المدنية والحرية فى جميع أنحاء العالم. استعمل العصيانَ المدنى اللاعنفى حين كان محاميًا مغتربًا في جنوب أفريقيا - المترجم.

[932] تشير الكلمة إلى تغيير كامل فى الشكل والهيكل والجوهر - المترجم.

[933] النظام الويستفالى: هو مبدأ القانون الدولى القائل بأن لكل دولة سيادة على أراضيها وشؤونها الداخلية. وتعود أصول هذا النظام إلى سلسلة معاهدات «سلام ويستفاليا» التى وُقِّعَتْ بعد مفاوضات طويلة بين شهرى مايو وأكتوبر عام 1648 فى ويستفاليا، فأنهت الحروبَ الدينية الأوربية التى تسبّبت فى موت الملايين – المترجم.

سيقع المجالُ فى إغراء اختبار قوته ضد كياناتٍ أنظمةٍ أخرى يَعُدُّها غيرَ شرعية... وعندما يحين الوقتُ ستنحطُّ توتراتُ هذه العملية إلى مناورات لإ حراز مكانة أو أفضلية على نطاق قاريٍّ أو حتى عالمى. الصراع بين المناطق [أو الأقاليم] أكثر تدميرًا من الصراع بين الدول [أو القوميات][1172].

هذه نظرية مشابهة لبعض النظريات عن أصول الحرب فى عام 1914 [الحرب العالمية الأولى]: شبكة سلطة غير مستقرة ظَهَرَ أن لديها القدرةَ على إحداث «انتقال حَرِجٍ» استجابةً لاضطراب طفيف.

وعلى العكس مِمّن يزعمون (على أساس قراءة مغلوطة لإحصاءات الصراع) أن العالم يصير أكثرَ سِلْميةً بشكل مُطّرد، وأن «الحروب بين الدول... قد عفا عليها الزمن»[1173]، يقول كيسنجر إن كوكبةَ القوى العالمية المعاصرة قابلةٌ للا شتعال بدرجة عالية. أولا ً، بينما «يصير النظام الاقتصادى الدولى عَوْلَميًا... تظل بنيةُ العالَم السياسية قائمةً على أساس الدولة القومية»[934].

ثانيًا، نحن نسكت عن تكاثر الأسلحة النووية إلى أبعد من «نادى» الحرب الباردة، ومن ثمّ «تتضاعَفُ احتمالات المواجهة النووية». وأخيرًا، نحن لدينا أيضًا عالَمًا جديدًا قوامُه الفضاءُ الإلكترونى الذى شَبَّهه كيسنجر ب«حالة الطبيعة» عند هوبز Hobbes، حيث يكون «عدمُ التماثل وحالةٌ غريزية من اللا نظام العالمى مَبْنِيّة داخليًا فى العلاقات بين... القوى»[1174]. هنا، وفى المقابلا ت [الصحفية] الأخيرة، أوْجَزَ كيسنجر الخطوطَ العريضة لأربعة سيناريوهات عَدّها المُحفِّزات الأرجح لاشتعال حريق واسع النطاق:

1 - تدهور العلاقات الصينية الأمريكية، فيتعثر البلدان فيما يُسَمّى «فخ ثيوسيديديس»[935] Thucydides Trap القائل بأن التاريخ يُحدِّد لكل قوة قائمة وكل قوة صاعدة ما تُواجِهُه[1175]؛

2 - انهيار العلاقات بين روسيا والغرب، بسبب عدم تفاهم متبادل، وهذا ممكن من خلال:

3 - انهيار القوة الصلبة الأوروبية، وذلك بسبب عجز قادة أوربا الحديثة عن

---

[934] وكان هذا التوتر باديًا للعيان فى الأزمة المالية عام 2008، عندما كانت البنوك الدولية «منتعشة عالميًا ولكنها ميتة محليًا» (كما لاحظ ببراعة محافظُ بنك إنجلترا مِرْفين كِنج (Mervyn King - المؤلف.

[935] الإشارة إلى مناقشة ثيوسيديديس ل تاريخ الحرب البيلوبونى History of the Peloponnesian War، التى تتناول حربًا فى القرن الخامس قبل الميلاد بين الإمبراطورية الأثينية وإسبرطة بوصفها حتميةً بمعنى ما، بسبب «تنامى قوة أثينا وجرس الإنذار الذى دقته عند لاكديمون] Lacedaemon مؤسِّس إسبرطة وفقًا للأساطير اليونانية، والمقصود إسبرطة]» - المؤلف.

تقبُّل أن الديبلوماسية دون تهديد معقول بالقوة هي مجرد هواء ساخن؛ و/أو

4 - تصاعُد الصراع فى الشرق الأوسط بسبب استعداد إدارة أوباما، من وجهة نظر الدول العربية وإسرائيل، لتسليم الهيمنة في المنطقة لإيران الثورية.

أحدُ هذه التهديدات أو اجتماعها معًا، فى ظل غياب إستراتيجية أمريكية متماسكة، أمرٌ يُهَدِّدُ بتحويل مجرد اللانظام إلى صراع واسع النطاق[1176].

لا يمكن تجاهل تحذير كيسنجر أو معاملته باستخفاف. فالعالَمُ اليوم يُشْبِه شبهًا كبيرًا شبكةً عملاقة على شفا انقطاع كارثي cataclysmic outage.

فى أسبوع عادى أوائل عام 2017، نَشَرَ رئيسُ الولايات المتحدة تويتةً [تغريدةً] تقول بأن وكالاته الاستخباراتية سرّبَتْ، بشكل غير قانونى، معلومات مُصَنّفة [أىْ سرّية] إلى صحيفة النيويورك تايمز عن اتصالات حملته الانتخابية مع الحكومة الروسية، وأصرّ على أن القصة ما هى إلا «أخبار زائفة» fake news. فى هذه الأثناء، بعد التدخُّل فى انتخابات الرئاسة الأمريكية بواسطة ويكيليكس وجيش إلكترونى من المُتصيّدين والبوتات trolls and bots (ما قد يُسَمّى جيش إل إى دى LED Army)[936]، نشر الكريملين صواريخ كروز جديدة فى خَرْقٍ لمعاهدة الحدِّ من الأسلحة النووية متوسطة المدى المُوقّعة عام 1987 the 1987 Intermediate-Range Nuclear Forces Treaty، وأرْسَلَ سفينةَ التجسُّس فيكتور ليونوف Viktor Leonov لاستطلاع قاعدة غواصات أمريكية فى نيو لندن New London، بولاية كونيتيكت [كونِكْتِكت] Connecticut. وعلى الجانب الآخر من الأطلنطى، انتاب القلقُ السياسيين الفرنسيين والألمان - على حد سواء - من تدخُّلٍ روسىٍّ فى انتخاباتهم الوشيكة. ولكن، رغم كل ذلك، كانت القصة الكبيرة فى أوربا، ذلك الأسبوع، هى تجريسُ نَجْم يوتيوب فيليكس كيلبرج المُلَقّب ب«بيو دى باى» Felix «PewDiePie» Kjellberg البالغ من العمر 27 عامًا، الذى أدّى تحرُّشُه بمعاداة السامية إلى إلغاء الصفقات التى عقدها مع جوجل Google وديزنى Disney[937].

[936]ترول وبوت: الترول متصيّدٌ إلكترونى يتدخل بهدف زَرْع الخلاف فى المناقشة أو تحويل وِجْهتها الأصلية بنشر عناصر وهمية أو وجهات نظر مثيرة بهدف تعطيل جماعة المتناقشين على الإنترنت. أما البوت أو روبوت الإنترنت فهو تطبيق بَرْمجى يعيد نشر العناصر الموجودة فى أماكن أخرى، ولذا مهامه بسيطة ومتكرّرة، ولكن فائدته تكمن فى المعدل الأسرع من معدل الشخص بمفرده - المترجم.

[937]قبل وقت قصير من هذه الأزمة، كان لدى قناة بيو دى باى على اليوتيوب أكثر من 50 مليون مشترك. ورغم أنه من مواليد السويد فإن بيو دى باى يعيش فى برايتن Brighton [جنوب شرق بريطانيا] مع صديقته الإيطالية، ويشير إلى متابعيه بكلمة «بروس» Bros،

وفى هذه الأثناء أيضًا، نَشَرَتْ ما تُسَمّى الدولة الإسلامية دليلا ً إلكترونيًا للدعاية، تشرح فيه لمؤيّديها كيفية توظيف حالة جُوع صناعة الأخبار إلى «النقرات» [الكليكات] clicks لإطلاق «صواريخ إعلامية» تُؤيّدُ تنظيمَ الدولة ا لإسلامية فى العراق والشام. ويكشف تقريرٌ [إعلامى] عن المدارس الواقعة تحت سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية فى العراق وسوريا عن أن التلاميذ يُطْلَبُ منهم حسابُ عدد مسلمى الشيعة أو «غير المؤمنين» الذين يمكن أن يَقتلهم مُفجِّرٌ انتحارى. وكما لو كان لمساعدة التلاميذ فى العثور على الإجابة، فُجّرَ إرهابىٌّ من تنظيم الدولة الإسلامية نفسَه داخل ضريح صوفى مزدحم في سيوان [سيهون] Sehwan بباكستان، فقتل ما لا يقل عن 75 شخصًا.

وفى ذلك الأسبوع نفسه، وَرَدَ [إعلاميًا] أن الحكومة الصينية خَفّفتْ رقابتَها على الميديا الاجتماعية، وذلك لأن نشرات المُدوّنات blogposts غير المُفَلْترة ستجعل من الأسهل على السلطات مراقبة المعارَضة [والمخالفات]. وفى سيول Seoul [عاصمة كوريا الجنوبية]، قُبِضَ على وارثِ إمبراطورية سامسونج للإلكترونيات Samsung Electronics لشُبْهة الرّشوة، وهو أحدثُ ضحيةٍ لفضيحة الفساد التى أطاحت برئيسة كوريا الجنوبية بارك جن هى hye-Park Geun ، وصديقتها الغامضة تشوى سون سيل sil-Choi Soon ، ابنة مؤسِّس كنيسة الحياة الأبدية Eternal Life. وأخيرًا، فى مطار كوالالمبور Kuala Lumpur الدولى، قامت أنثى برَشِّ غاز الأعصاب VX المُمِيت على وجه كيم جونجنام Kim Jongnam، الأخ غير الشقيق لديكتاتور كوريا الشمالية كيم جونج يون[938] Kim Jong Un. وعلى قميصها مطبوعٌ حروف «LOL» التى تُمَثّل أوائل حروف كلمات مَوْقِع دَرْدَشَة على شبكة الإنترنت العالمية[1177].

سيبدو الضحكُ بصوت عالٍ ردّ فعل خاطئ. فالعَوْلمة فى أزمة. والشّعْبوية تُواصِلُ المسيرةَ. والدول السُلطوية تتصاعد. وفى الوقت نفسه، تُواصِلُ التكنولوجيا - لا محالة - تقدُمَها إلى الأمام، مُهدِّدَةً بجَعْل معظم البشر زائدين عن الحاجة أو مُعمِّرين، أو كليهما. فما الذى نفهمه من كل هذا؟ فى محاولة الحصول على إجابات، يلجأ العديد من المُعلِّقين إلى عقد مقارنات تاريخية

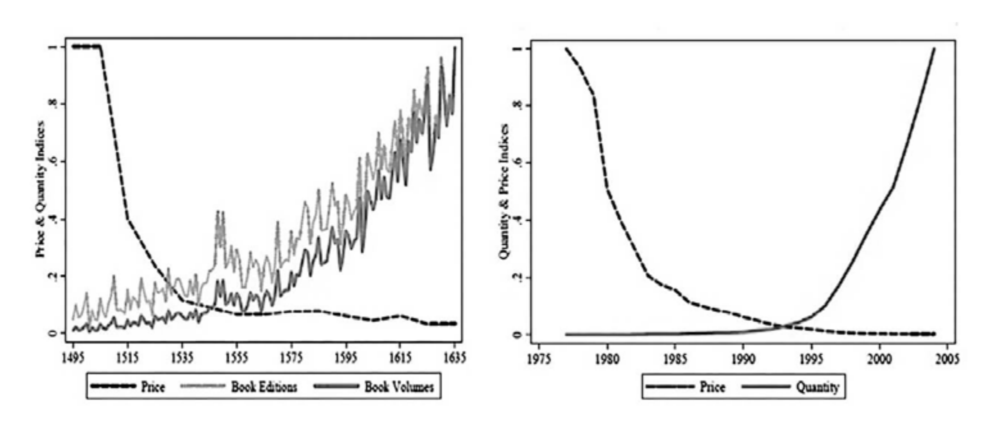
التي استعارها من موسيقي الراب الأفريقية الأمريكية.

وينبغى عدم الخلط بينه وبين مَيْلو يانوبولوس Milo Yiannopoulos، مع أن كليهما صَبَغَ شعرَه باللون الأشقر - المؤلف.

[938]كيم جونج يون: من مواليد عام 1983، زعيم كوريا الشمالية منذ عام 2011 خلفًا لوالده - المترجم.

فجّة. فعند البعض، دونالد ترامب هو هتلر، ويُوشِكُ على إعلان ديكتاتورية أمريكية[1178]. وعند آخرين، ترامب هو نيكسون، وسيُلاحَقُ قضائيًا فى القريب العاجل[1179]. ولكن عام 1933 أو عام 1973 لا يعودان من جديد. التكنولوجيا المركزية سَهّلَت الحُكْمَ الشمولى [التوتاليتارى]، وجعلته ممكنًا فى ثلاثينيات القرن العشرين. ثم بعد أربعين سنة صار من الصعب كثيرًا أن ينتهك رئيسٌ مُنْتَخَبٌ ديمقراطيًا القانونَ، دون عقاب. فى سبعينيات القرن العشرين، كانت وسائل الإعلام [الميديا] لا تزال تتألفُ من عدد قليل من شبكات التلفزيون و الجرائد ووكالات الأنباء. وفى أكثر من نصف العالَم، خضعت هذه الأدوات للسيطرة المركزية. ومن المستحيل فَهْم العالَم اليوم دون فَهْم مدى تغيُّره الكبير نتيجة تكنولوجيا المعلومات الجديدة. لقد صار هذا التغيُّرُ حقيقةً بَدَهِيّةً. والسؤال الحاسم هو كيف غيّرت تكنولوجيا المعلومات الجديدة العالَمَ ؟ الإجابة هى أن التكنولوجيا قامت بتقوية هائلة [وتمكين] لكل أنواع الشبكات المتصلة بهياكل السلطة الهَرَميّة التقليدية، ولكن عواقب هذا التغيير ستَحْسِمُها هياكلُ هذه الشبكات وخصائصها الناشئة وتفاعلاتها.

وكما رأينا، التأثير العالمى للإنترنت يجد بعضَ نظائره فى التاريخ بأفضل مما يجد تأثيرُ الطباعة فى أوربا القرن السادس عشر. الكمبيوتر الشخصى والهاتف الذكى مَكّنا الشبكات بقدر ما مكّنتها المنشوراتُ والكتبُ فى زمن لوثر. بل إن مسارات إنتاج الكمبيوتر الشخصى وسِعْره فى الولايات المتحدة بين عامىْ 1977 و2004 يشبهان بدرجة كبيرة مسارات إنتاج الكتب المطبوعة وسِعْرها فى إنجلترا من عام 1490 حتى عام 1630 (انظر الشكل 48)[1180]. فى عصر الإصلاح Reformation وما بعده، تم تحسين الاتصال وتعزيزه أضعافًا مضاعفة بارتفاع نسبة عارفى القراءة والكتابة، بحيث تمكّنَتْ نسبةٌ متزايدة من السكان من الوصول إلى كل أنواع الأدب المطبوع، بدلا ً من الاعتماد على الخُطَباء والوُعّاظ لتَلَقي الأفكار الجديدة.



الشكل رقم: 48 - أسعار وكميات الكتب (1490 - 1630) والكمبيوتر الشخصى (1977 - 2004).

توجد ثلاثُ اختلافات رئيسية بين عصرنا الشَبَكى والعصر الذى أعقب ظهورَ الطباعة الأوربية. الاختلاف الأول الأوضح، أن ثورتنا الشبكية أسرعُ بكثير وأكثر امتدادًا على المستوى الجغرافى من موجة الثورات التى أطلقتها المطبعة الألمانية. ففى مسافة زمنية أقل بكثير مما قطعها 84% من البالغين فى العالم ليصبحوا عارفين بالقراءة والكتابة، اكتسبت نسبةٌ كبيرة من البشرية التمَكُّنَ من الإنترنت.

فى الآونة الأخيرة، عام 1998، حوالى 2% فقط من سكان العالم كانوا أونلا ين. واليوم، تبلغ النسبةُ شخصين من كل خَمْسة. سرعةُ التغيير من حيث الكمِّ والمدى أسرعُ بكثير من فترة ما بعد جُوتِنبرج: ما استغرق قرونًا بعد عام 1490 استغرق عقودًا فقط بعد عام 1990. وكما رأينا، بدأ جوجل حياته فى جراج فى مِنلو بارك Menlo Park [بولاية كاليفورنيا] عام 1998. واليوم، لديه القدرة على معالجة أكثر من 4.2 مليار طلبِ بحثٍ يوميًا. وفى عام 2005، بدأ يوتيوب من غرفة أعلى محل بيتزا فى سان ماتيو San Mateo [بولاية ك اليفورنيا]. واليوم، يتيح للناس مشاهدة 8.8 مليار فيديو يوميًا. فيسبوك كان حلمًا فى جامعة هارفارد منذ ما يزيد قليلا ً على عشر سنوات. واليوم، لديه ما يقرب من 2 مليار مُستخدِم يقومون بتسجيل الدخول مرة واحدة على الأ قل في الشهر[1181]. أما عدد البريد الإلكتروني الذي يُرْسَلُ يوميًا فيبلغ مئة مرة.

العالَمُ مُتَّصِلٌ، حقًا، كما لم يحدث من قبل. وقد يكون معدّلُ نمو الشبكة العالمية بطيئًا، من حيث أعداد مُستخدِمى الإنترنت الجُدُدِ ومالكى الهواتف الذكية الجُدُدِ كل عام، ولكنه لا يُظْهِرُ أيةَ علامة على التوقف. وأما فى جوانب أخرى - مثلا ً، التحول من النص إلى الصورة والفيديو، ومن لوحة المفاتيح [الكيبورد] إلى الميكروفون - فالعدد يتسارع. الأ ُمِّية ستكفُّ فى النهاية عن أن تكون عائقًا أمام الاتصال.

ولا تقتصر هذه الثورة التكنولوجية على البلاد المتقدمة. فمن حيث الاتصال، ينضمُّ فقراءُ العالم بسرعة. فى 20% من الأسر الأفقر فى العالم، ما يقرب مِن سبع أسرة مِن كل عشر أُسَر لديهم هواتف محمولة. شركة الاتصالات الهندية بهارتى إيرتل Bharti Airtel لديها قاعدة عملاء كبيرة تُضارِعُ سكانَ الولايات المتحدة. بل يتجاوز عددُ مُستخدِمِى الإنترنت فى الهند الآن عددَ مُستخدِميه فى أمريكا. واستغرق الأمرُ ثمانيةَ أعوام كى تمتلك كلُّ الأسر الكينية هواتف محمولة. واستغرق أربعَ سنوات فقط بالنسبة إلى نظام الدفع من خلال خدمة Pesa-M الرائدة فى شركة سفاريكوم Safaricom كى يصل العدد إلى 80% من الأُسَر[1182]. وحتى الصومال الفقيرة والفوضوية، ارتفعت نسبةُ تغلغل الهواتف المحمولة فيها من 5% إلى 50% خلال خَمْس سنوات[1183]. من الواضح أن تزويد فقراء العالم بهواتف محمولة أسهل من تزويدهم بماء نظيف؛ ولعلها حجةٌ مُقنِعة لتَرْك توفير المياه النظيفة للقطاع الخاص بدلاً من حكومات ضعيفة وفاسدة[1184].

ثانيًا، تختلف عواقب توزيع ثوْرَتِنا، تمامًا، عن عواقب بواكير الثورة الحديثة. فأوربا القرن الخامس عشر لم تكن مكانًا مثاليًا لتطبيق حقوق الملكية الفكرية، التى وُجِدَتْ هذه الأيام فقط، حين تحتكر طائفةٌ التكنولوجياتِ بشكل سرّى. ولم تخلق المطبعةُ مليارديرات: جُوتِنبرج لم يكن جيتس (بحلول عام 1456 أفلس جُوتِنبرج تمامًا). وعلاوة على ذلك، مجموعة فرعية فقط من الوسائط [الميديا]، أمْكنَها من خلال المطبعة - الجرائد والمجلات - أن تسعى إلى كسب المال من الإعلان، أما المجموعة الأهمُّ فأمْكنَها من خلال الإنترنت أن تكسب المال. ومع ذلك، توقعت قِلّةٌ من الناس أن الشبكات العملاقة التى أتاحها الإنترنت لن تُحَقِّقَ المساواةَ، رغم دعايتها القائلة بإضفاء طابع ديمقراطى على المعرفة. فُشِلَ جيلٌ - أصغر الباحثين عن الثروة - أُزيحَ من الصراع فى تعلُّم درسٍ مُفادُه أن الشبكات غير المنظّمة لا تحدُّ من عدم المساواة، بل الحروب و الثورات والتضخّمات الكبيرة وأشكال أخرى من مُصادَرة المِلكية هى التى تُقلِّلُ من عدم المساواة[1185].

ولا شك فى أن الابتكار خفّضَ تكاليفَ تكنولوجيا المعلومات. فعلى الصعيد العالمى، انخفضت تكاليفُ الحَوْسَبة والتخزين الرقمى بمعدلات سنوية تبلغ 33% و38% سنويًا بين عامىْ 1992 و2012[1186]. ومع ذلك، على عكس آمالِ مَن تخيّلوا بازارًا كبيرًا من التطبيقات الجماعية [المعتمدة على الحشود] crowd-sourced applications ، تطَوّرَ الإنترنتُ إلى شبكة هائلة حُرّة النطاق، مُزَوّدة بمحاور فائقة الاتصال[1187]. وتزايدت احتكاراتُ القِلّة oligopolies فى عالمىْ الهاردوير hardware والسوفتوير software، وكذلك فى التزويد بالخدمة والشبكات اللاسلكية. العلاقة بين شركة إيه تى آند تى

AT & T التى لا يَتعكرُ صَفْوها على ما يبدو، وبين شركة أبل Apple بعد تجديدها تمامًا، تُوضِّحُ حقيقةً قديمة:

إذا تُركت الشركاتُ حُرّةً فستسعى إلى الاحتكار الأحادى monopoly أو الا حتكار الثنائى duopoly أو احتكار القِلّة oligopoly. بل حتى الشركات الملتزمة بإتاحة شبكة [ويب] ذات «بنية مفتوحة» open architecture web - مثل أمازون وفيسبوك وجوجل - تسعى إلى سُلطة احتكار أحادى فى قطاعاتها: التجارة الإلكترونية والشبكات الاجتماعية والبحث[1188]. الحَوْكمة و التنظيم الضعيفان [الفقيران] يُفسِّران الفروقَ الضخمة فى الخدمة الخَلَويّة cellular service[939] وتكاليف الإنترنت بين البلاد[1189]. كما يُفَسِّران أيضًا السببَ فى أن عددًا صغيرًا من البلاد يهيمن على المعلومات وصناعة تكنولوجيا الاتصالات (رغم أنه من اللافت أن الولايات المتحدة تحتل المرتبة السابعة - خلف أيرلندا وكوريا الجنوبية واليابان والمملكة المتحدة - من حيث الأهمية النسبية لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات في اقتصادها ككل)[1190].

تُفسِّرُ هذه الديناميـاتُ السببَ فى أن مِلكيةَ الشبكة الإلكترونية العالمية مُرَكّزةٌ جدًا. بينما كنتُ أعمل على هذا الكتاب، قُدِّرَت القيمةُ السوقية[940] لجوجل (أو بالأحرى الشركة الأم التى أُعِيدَ تسميتها باسم ألفابِت[941] Alphabet Inc.) ب 660 مليار دولار. ويملك حوالى 11% من أسهمها، بقيمة 106 مليار دولار، مؤسِّساها لارى بيج[942] Larry Page وسيرجى برين[943] Sergey Brin. وتقترب قيمة فيسبوك السوقية من 441 مليار دولار؛ ويملك مؤسِّسُها مارك زوكربيرج 28% من أسهمها بقيمة 123 مليار دولار. ورغم ظهورهم بمظهر المؤيّدين الكبار للمساواة، نجد الشبكاتِ الاجتماعيةَ «غيرَ عادلة وإقصائية

---

[939] الخدمة الخَلَويّة: شبكةُ اتصالٍ يكون آخرُ رابطٍ فيها لاسلكيًا. وتُوَزّعُ الشبكةُ على مساحات أرضية تُسَمّى الخلايا يخدم كلٌّ منها جهازَ إرسال واستقبال ثابت، واحد، على الأ قل. ويوجد عادةً ثلاثةُ مواقع للخلايا أو محطات إرسال واستقبال قاعدية، وتُوفِّرُ هذه المحطاتُ الأساسية تغطيةَ الشبكة التى يمكن استخدامها لإرسال الصوت والبيانات وأنواع المحتوى الأخرى. تتميز بأن اجتماع الخلايا يُوفِّر تغطيةً على مساحات جغرافية واسعة - المترجم.

[940] القيمة السُوقية :market capitalization هى القيمة السوقية لأسهم الشركة القائمة و المتداولة علنًا، وتساوى سعر السهم مضروبًا فى عدد الأسهم القائمة - المترجم.

[941] ألفابِت: شركة أمريكية قابضة لشركة جوجل ومجموعة الشركات التابعة لها، أسّسها عام 2015 لارى بيج وسيرجى برين، ويرأسها لارى بيج - المترجم.

[942] لارى بيج: من مواليد عام 1973، رجل أعمال أمريكى، أسّسَ مع سيرجى برين شركة جوجل، وحاليًا شركة ألفابِت التى يرأسها - المترجم.

[943] سيرجى برين: من مواليد عام 1973، عالم حاسوب أمريكى روسى الأصل. أسّسَ مع لا رى بيج شركة جوجل، وحاليًا شركة ألفابِت - المترجم.

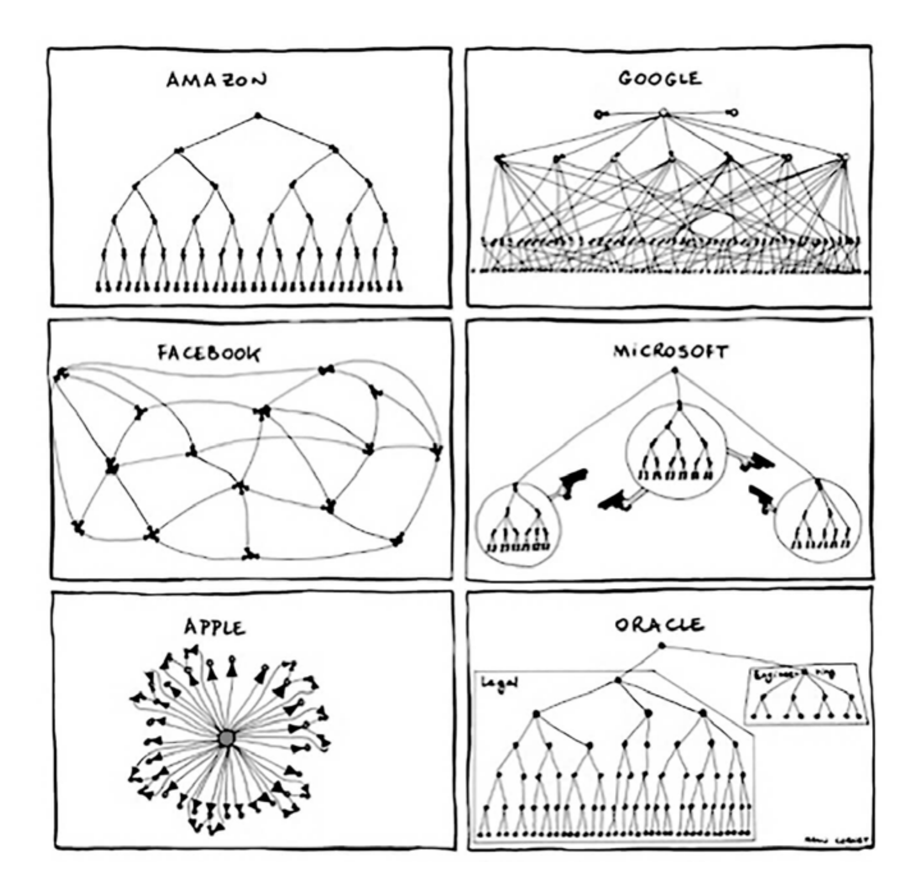
بطريقة متأصِّلة».

وبسبب الميل إلى الإلحاق التفضيلى [التمييزى] - المَيْل إلى محاور جيدة الا تصال للحصول على اتصال أفضل - تأتى «حقيقة الشبكة الاجتماعية» النهائية من إنجيل القديس متّى (انظر المقدمة)[1191]. فالآن، على عكس ما كان فى الماضى، يوجد نوعان من الناس فى العالم: مَن يملكون الشبكات ويُدِيرونها، ومَن يستخدمونها فقط. ويُواصِلُ سادةُ الفضاء الإلكترونى التجاريون تملُّقَ ومداهنة سطح عالم مُستخدِمى الإنترنت بكلمات لا تتجاوز الشفاه، أما من حيث الممارسة فشركات مثل جوجل مُنَظَّمَةٌ هَرَميًا، حتى لو كانت «مُخَطَّطات الهيكل التنظيمى»[944] Charts.org مختلفة تمامًا عن مثيلاتها فى جنرال موتورز على أيام ألفريد سلون[945] Alfred Sloan.

---

[944] مُخطَّط الهيكل التنظيمى أو organizational chart: رَسْمٌ بيانى للتنظيم فى الاقتصاد والإدارة يُبيّنُ أقسامَ الشركة أو المؤسسة والعلاقات الوظيفية بين مختلف الأقسام وتوزيع المسؤوليات - المترجم.

[945] ألفريد سلون: (1875 - 1966)، رجل أعمال أمريكى فى صناعة السيارات، خَدَمَ فترةً طويلة بوصفه رئيس مجلس إدارة شركة جنرال موتورز ومديرها التنفيذى - المترجم.



الشكل رقم: 49 - مُخططات شبكة ساخرة لشبكات التكنولوجيا الأمريكية الرئيسية.

فى المجتمعات التقليدية، كان ظهور قوى السوق يُمَزّقُ غالبًا شبكاتِ الوراثة، ومن ثمّ يُعَزّزُ الحِراكَ الاجتماعى ويَحُدُّ من عدم المساواة. حُكم الجدارة[946] meritocracy يسود.

أما عندما تكون الشبكات والأسواق متحيّزة، كما فى عصرنا، فسينفجر عدم المساواة على هيئة عوائد من تدفق الشبكة الساحق تدخل فى جيوب أهلها الذين يملكونها. والحق إن الأثرياء جدًا من الشباب الذين يمتلكون الشبكات الحديثة يميلون إلى أن تكون لهم آراء سياسية يسارية نوعًا ما.

(وبيتر تيل Peter Thiel استثناء نادر: تحرُّرى libertarian مال إلى الشّعْبويين فى عام 2016). ومع ذلك، ستُرَحِّبُ قِلّةٌ منهم بالنِّسَب الإسكندنافية لضريبة الدخل الشخصى، ناهيك عن ثورة تدعو إلى المساواة. يَتلذّذُ سادةُ الإنترنت بكوْنهم أغنياء، تقريبًا بقدر ما تلذّذَ ذئابُ ما قبل أزمة وول ستريت Wall

946 حُكم الجدارة أو الميريتوقراطية، أو حُكم الأخيار أو مجتمع الجدارة: نظام إدارى وسياسى تُسْنَدُ فيه التكليفات والمسؤوليات على أساس «الاستحقاق» القائم على الذكاء و التعليم عبر اختبارات وأساليب تقييم متنوعة - المترجم.

Street منذ عقد ماضٍ، رغم أن استهلاكهم أقل وضوحًا من وخزات ضميرهم. من الصعب تخيُّل أحد المَصْرفيين الاستثماريين يتبع نموذج سام ألتمان[947] Sam Altman رئيس شركة واى كومبيناتور Y Combinator، الذى انطلق فى رحلة حجٍّ إلى أمريكا الوسطى كما لو كان يكفر عن نتيجة انتخابات عام 2016[1192]. ولكن سان فرانسيسكو San Francisco التى عاد إليها ألتمان ظلت على حالها: مدينة عدم المساواة مثل ميتروبوليس، ناهيك عن التشوُّهات التى تجعل السكن اللائق باهظ الثمن على نحوٍ شديد السُّخْف. (امتلاك مِلكية ثابتة يأتى فى المرتبة الثانية بعد المِلكية الفكرية بوصفها مُحدِّدَ عدم المساواة فى الثروة، ولكن السكن الأكثر قيمةً لا يكون بالصدفة الأقربَ من التجمعات الجغرافية التى يتوفر فيها آى بى [عنوان بروتوكول الإنترنت] IP[948] الأكثر قيمةً).

وشركات التكنولوجيا الكبيرة التى على استعداد لتقديم الملايين من سائقى التاكسى والشاحنات الذين يعتزمون تغييرها بالسيارات دون سائق، هى شكل من أشكال الدخل الأساسى. العزاء الوحيد هو أن أكبر مالكى الأسهم فى شركات فانج FANG [فيسبوك، أمازون، نيتفليكس، جوجل] مستثمرون مؤسّسيون أمريكيون، وبقدر ما يُديرون مدّخرات الطبقة الوسطى الأمريكية، منحتهم هذه الطبقةُ - لهذا السبب - حصةً كبيرة فى أرباح صناعة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات. ولكن الأهلية [الجدارة] المهمة أن المستثمرين الأجانب يمتلكون 14% على الأقل من القيمة المالية للشركات الأمريكية الكبرى، وفى حالة شركات ذات مبيعات خارجية كبيرة (مثل شركة أبل التى تكسب حوالى ثلثى عائداتها من الخارج)، فمن المؤكد أن الأهليةَ أكبرُ تقريبًا[1193]. ومع ذلك، لا يوجد دارسٌ جادٌ للأسواق الرأسمالية سينسب إلى هؤلاء المستثمرين الأجانب ذرةً من التأثير في الحَوْكمة المؤسّسية للشركات.

ثالثًا، وأخيرًا، كان للطباعة تأثير فى تمزيق الحياة الدينية فى المسيحية الغربية Western Christendom[949] قبل أن تُمَزّقَ أىّ شىء آخر. وعلى النقيض من ذلك، بدأ الإنترنت بتمزيق التجارة؛ وفى الآونة الأخيرة فقط، بدأ فى تمزيق السياسة ومَزّقَ فعليًا دينًا واحدًا فقط، هو الإسلام. فقد كانت

---

[947] سام ألتمان: من مواليد عام 1985، رائد أعمال أمريكى ومستثمر ومُبرمِج ومُدَوِّن - المترجم

[948] آى بى أو عنوان بروتوكول الإنترنت: هو المُعَرِّف الرقمى لأى جهاز مرتبط بشبكة معلوماتية تعمل بحزمة بروتوكولات الإنترنت، سواء كانت شبكة محلية أم شبكة الشبكات الإنترنت. ويقابل عنوان آى بى مثلا ً فى شبكات الهاتف رقم الهاتف - المترجم.

[949] يشير المصطلح إلى «العالم المسيحى السياسى» بوصفه هيمنة ثقافية غير رسمية تمتعت بها المسيحية فى الغرب - المترجم.

الشبكات، كما رأينا، مفتاحًا رئيسيًا لما حَدَثَ فى السياسة الأمريكية عام 2016.

فوُجِدَتْ شبكةٌ من الدعم الشعبى بَنَتْها حملةُ ترامب - التى بَنَتْ نفسَها - على منصّات فيسبوك، وتويتر، وبريتبارت Breitbart. أولئك كانوا الرجالَ والنساءَ «المنسيين» الذين نهضوا يوم 8 نوفمبر لكسر شوكة «المصالح الخاصة العالمية» و«المؤسسة السياسية الفاسدة والفاشلة» التى جَسّدتها مُنافِسةُ ترامب [هيلارى كلينتن] فيما زُعِمَ. ثمة دور لعبته الشبكةُ الجهادية أيضًا، لأن الهجمات الإرهابية التى نفّذتها توابعُ تنظيم الدولة الإسلامية، أثناء عام الا نتخابات، أضفت مصداقيةً على تعهُّدات ترامب بأن «يُفرّغ شبكات دَعْم الإسلام الراديكالي في هذا البلد»، وأن يَحظر هجرةَ المسلمين.

ولأن ترامب رجلٌ ثرىٌ يستطيع، مع ذلك، لعب دور الديماجوجى[950] الواثق من نفسه، فقد جَسّدَ بنفسه مفارقةُ العصر الرئيسية. ترامب أوليجاركى ثانوى وعلامة تجارية رئيسية فى آنٍ معًا. فكما يُقال: «لم يوجد رئيسٌ أمريكى تولّى المنصب بشبكة عملاقة من الأعمال والاستثمارات والاتصالات المؤسّسية كالتى كدّسَها دونالد ترامب»، ذات روابط تجارية معروفة ب 1,500 شخص ومنظمة[1194]. وفى الوقت نفسه، نجحت حملة ترامب - حيث فشل خصومه - فى استغلال شبكات وادي السِّليكون، الأمر الذى أفزع الأشخاصَ الذين امتلكوا الشبكات واعتقدوا أنهم أيضًا يسيطرون عليها. وقد كان كرْبُهم فى الأسابيع التالية على الانتخابات ملموسًا. سَعَتْ جوجل فى البداية إلى إقناع الإدارة الجديدة، بالتراجع عن أوامرها التنفيذية التى تحدُّ السفرَ والهجرةَ إلى الولايات المتحدة من بلاد بعينها ذات أغلبية مسلمة[1195]. وتغيّبَ مارك زوكربيرج عن لقاء مع الرئيس الجديد حَضَرَه كبارُ المديرين التنفيذيين فى شركات التكنولوجيا الأخرى. ولعل ما أراحه نوعًا ما أن مظاهرةً نسائيةً ضد ترامب نظّمَتْ نفسَها أيضًا من خلال فيسبوك[1196].

ومن الصعب تصديق أنه لن يوجد فى النهاية نوع من الصدام بين إدارة ترامب وشركات تكنولوجيا المعلومات والاتصال الكبيرة، وبخاصة إذا ألغت الإدارةُ قرارَ سَلَفِها فى عام 2015 بأن لجنة الاتصالات الفيدرالية Federal Communications Commission ستُنَظِّمُ الإنترنت بوصفه منفعةً عامة مثل شبكة السكك الحديدية أو التليفون القديمة. يبدو أن هناك صراعَ مصالح واضحٌ بين شركات الاتصالات والكابلات ومنصّات تردُّدات النطاق الجشعة

[950]الديماجوجى أو الغوغائى: زعيم سياسى فى دولة ديمقراطية يخاطب المشاعر و المخاوف والتحيزات الفكرية لدى عموم الناس من أجل الحصول على السلطة والترويج لأفكار سياسية أو دوافع سياسية محددة. يُستعمَلُ هذا الأسلوب غالبًا فى فترات الانتخابات مصحوبًا بوعود كاذبة أو غير عملية لكسب التأييد - المترجم

ومُزوِّدى المحتوى مثل شركة نيتفليكس Netflix - على مسألة «حيادية الشبكة» (القاعدة أن جميع أجزاء البيانات ينبغى أن تُعامَلَ على حد سواء، بغضِّ النظر عن محتواها أو قيمتها)[1197]. إجراء مكافحة الاحتكار ضد شركات فانج FANG ربما يكون خطوة ترامب التالية.

ومع ذلك، يوجد تشابه واضح من ناحيتين بين عصرنا والفترة الثورية التى أعقبت ظهور الطباعة. تكنولوجيا المعلومات الحديثة - شأنها شأن المطبعة - حَوّلت السوقَ - فى الآونة الأخيرة، بتسهيل المشاركة (أىْ الإيجارات قصيرة الأجل) فى السيارات والشقق - كما حَوّلت الفضاءَ العام أيضًا. لم يحدث من قبل أن اتصل الكثيرُ جدًا من الأشخاص معًا فى شبكة فورية الاستجابة، تنتشر عبرها «الميمات»[951]. بأسرع من الفيروسات الطبيعية[1198]. ولكن الفكرة أنّ جَعْلَ العالم كله أونلاين، من شأنه أن يخلق يوتوبيا مُستخدِمى الإنترنت - أن الكلّ متساوون فى الفضاء الإلكترونى - يوتوبيا ليست سوى خيال [فانتازيا] دائمًا، كرؤية مارتن لوثر الوهمية عن «كهنوت كل المؤمنين». الحقيقة هى أن الشبكة العالمية صارت آليةً لانتقال كل أنواع الهوس mania والفزع panic، تمامًا كما أدّى الجَمْعُ بين الطباعة ومحو الأمية إلى زيادة انتشار الطوائف الألفية [القائلة بالعصر الألفى السعيد] وجنون العِرافة لفترة من الوقت. وحشيةُ تنظيم الدولة الإسلامية تبدو أقلّ تميزًا عند مقارنتها بأشكال وحشية بعض الحكومات والطوائف فى القرنين السادس عشر و السابع عشر[1199]. ارتفاع مستويات العنف السياسى تبدو معقولةً أيضًا فى الولا يات المتحدة وربما فى أجزاء من أوربا[1200]. ثانيًا، كما حدث أثناء عصر الإصلا ح وبعده، يشهد عصرُنا تآكلَ السيادة على الأرض [المحلية أو الإقليمية][1201]. فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، غرقت أوربا فى سلسلة حروب دينية لأن القاعدة المنصوص عليها فى صلح أوجسبورج Peace of Augsburg(عام 1555) - لكل منطقة دِينُها - احْتُرِمَتْ أساسًا من خلال خَرْقها. وفى القرن الحادى والعشرين، نشهد ظاهرةً مماثلة هى تصاعد التدخُّل فى الشؤون الداخلية للدول ذات السيادة.

وبعد كل هذا، وُجِدَتْ شبكةٌ ثالثة شاركت فى انتخابات عام 2016 الأمريكية، هى شبكة المخابرات الروسية. أثناء عملى فى هذا الكتاب، كان من الواضح أن الحكومة الروسية بذلت قصارى جهدها لتحقيق أقصى قدر ممكن من تدمير سُمْعة هيلارى كلينتن باختراق حواسيبها وحواسيب حملتها،

---

[951]مثلا ً، فى سبتمبر عام 2009، نُسِخَ برنامج أوباما كير من قبل مئات الآلاف من مُستخدِمى فيسبوك، وقَدّمَ بعضُهم (حوالى واحد من كل عشرة) تغييراتٍ طفيفةً فى الصياغة: «ينبغى ألا يموت أحدٌ لأنهم لا يستطيعون توفير رعاية صحية، وينبغى ألا يُكْسَرَ أحدٌ بسبب مرضه. إذا وَافَقْتَ فبرجاء نشر هذا بوصفه حالتك لبقية اليوم» - المؤلف.

واستخدام موقع ويكيليكس الإلكترونى بوصفه قناةً لتمرير الوثائق المسروقة إلى وسائل الإعلام الأمريكية[1202]. وزيارة موقع ويكيليكس تعنى دخول غرفة كأس هذه العملية. وهى هنا «أرشيف إيميل هيلارى كلينتن» Hillary Clinton Email Archive، و«إيميلات بودِستا» The Podesta Emails. ليست كلُّ الوثائق المُسَرَّبة أمريكيةً، بكل تأكيد. لكنك ستبحث عَبَثًا عن التسريبات المظنون أنها تُحْرِجُ الحكومةَ الروسية. جوليان أسانج لا يزال يتوارى فى سفارة الإكوادور فى لندن، ولكن الحقيقة هى أنه يعيش ضيفًا كريمًا على الرئيس فلاديمير بوتين فى أرض سايبريا[952] Cyberia الغريبة، فى منطقة الشَّقَق التي يسكنها عملاءُ روسيا الإلكترونيون [أونلاين].

القراصنة hackers والمُتصيّدون rolls الروس يُهَدِّدون الديمقراطيةَ الأمريكية كما هَدّدَ الآباءُ اليسوعيون الإصلاحَ الإنجليزى English Reformation: تهديد من الداخل بدون رعاية. «نحن عند مفترق طرق»، طبقًا للأميرالاى مايكل روجرز Admiral Michael S. Rogers، رئيس وكالة الأمن القومى NSA و القيادة الإلكترونية للولايات المتحدة[953] US Cyber Command[1203]. صارت ا لأنشطةُ الإلكترونية على رأس قائمة التهديدات لدى مدير الاستخبارات القومية. وموقع ويكيليكس هو مجرد جزء صغير من التحدِّى. البنتاجون Pentagon وحده يُبْلِغُ بأكثر من 10 مليون محاولة تدخُّل كل يوم[1204].

وبطبيعة الحال، معظم ما تُسمِّيه الميديا [وسائل الإعلام] «هجمات إلكترونية» attacks-cyber ليس سوى محاولات للتجسُّس. ومن أجل إدراك القوة الكاملة لحرب إلكترونية [سايْبِرانية]، لا بد أن يتخيّل المرءُ هجومًا يُغلق جزءًا حيويًا فى شبكة الطاقة الكهربية الأمريكية. سيناريو كهذا ليس ببعيد. فقد نُفِّذَ شىءٌ مماثل فى ديسمبر عام 2015 فى نظام الكهرباء الأوكرانى، الذى أصيب بنوع من برمجيات الكمبيوتر الخبيثة[954] malware يُسَمّى الطاقة

---

[952] الكلمة مزيج من سيبيريا الروسية والفضاء السايبرانى (الإلكترونى) - المترجم.

[953] القيادة الإلكترونية للولايات المتحدة: تابعة لوزارة الدفاع الأمريكية، مهمتها توحيد اتجاه العمليات الإلكترونية. تتعاون مع شبكات الأمن الوطنى، ويديرها فى الوقت نفسه مديرُ وكالة الأمن القومى منذ إنشائها. كانت مهمتها فى البداية دفاعية، ولكنها تُعَدُّ حاليًا قوة هجومية. ارتفعت إلى مستوى قيادة مُحاربة كاملة ومستقلة فى مايو 2018 - المترجم.

[954] البرمجيات الخبيثة :malware اختصار لكلمتين هما .malicious software والبرمجية الخبيثة يتم تضمينها عمْدًا فى الحاسوب لعَرْقلة تشغيله أو جَمْع معلومات أو الوصول إلى أنظمة التشغيل. تُستخدَم البرمجيات الخبيثة، عادةً، ضد الحكومات، أو تستخدِمُها الحكوماتُ لسرقة المعلومات التجارية أو الشخصية أو المالية. كما تُستخدَم ضد الأفراد لجَمْع معلومات مثل أرقام الهُويّة الشخصية وبطاقات الائتمان وكلمات السرّ. ومنها برامج خبيثة مُعْدِية كالفيروسات والديدان - المترجم.

المظلمة [بلاك إنرجي] Black Energy[955].

وقد أدرك علماء الكمبيوتر إمكانات الحرب الإلكترونية التخريبية منذ أيام الإنترنت الأولى. فى البداية، كان القراصنة المراهقون هم الذين يَتسبّبون فى الأذى والتدمير:

مهووسون من أمثال روبرت تابان موريس[956] Robert Tappan Morris، الذى كاد أن يُدَمِّرَ شبكةَ الإنترنت فى نوفمبر عام 1988 عندما أطلق دودةً برمجية شديدة العَدْوَى[1205]، أو «مافيا بوى»[957] Mafia Boy، وهو كندى يبلغ من العمر 15 عامًا أغلق موقعَ ياهو في فبراير عام 2000.

ومن الفيروسات الأولى التى كشفت عن مخترعيها الشبان: بلاستر Blaster، برين Brain، مِليسّا Melissa، آى لاف يو Ilove you، سلامر Slammer، سوبيج Sobig[1206]. ولا يزال العديد من الهجمات الإلكترونية ينفذها فواعلُ غير تابعين للدولة: مُخَرّبون فى سنّ المراهقة، أو مجرمون، أو «قراصنة تكنولوجيون» hacktivists[958]، أو تنظيمات إرهابية. (هجوم 21 أكتوبر عام 2016، على مُزوّد خدمة أسماء النطاقات داينمِك نيتورك سيرفيسس إنك. Dynamic Network Services Inc، باستخدام كاميرات ويب صينية الصُّنْع بوصفها «بوتات» bots، هذا الهجوم لا شك فى أنه حالة من حالات التخريب[1207]. ولكن التطور الألفت للانتباه فى عام 2016 هو صعود سايْبِريا Cyberia.

اضطرت الولايات المتحدة - بوصفها الدولة التى أنشأت الإنترنت - إلى المبادرة بالحرب الإلكترونية، أيضًا. بدأ ذلك فى وقت مبكر من إدارة ريجان Reagan الأولى[1208].

---

[955] الطاقة المظلمة أو بلاك إنرجى: برمجية خبيثة زُرعتْ فى أنظمة المعلومات لثلاث شركات توزيع طاقة فى أوكرانيا، فتعطلت إمدادات الكهرباء مؤقتًا. وهو ما يُعَدُّ أول هجوم إلكترونى ناجح على شبكة كهرباء - المترجم.

[956] روبرت تابان موريس: من مواليد عام 1965، رائد أعمال وعالم حاسوب أمريكى. اشتهر بصُنْع «دودة موريس»، وحُوكِم بسبب إطلاقها على شبكة الإنترنت، فكان أولَ شخص يُدان بموجب «قانون الاحتيال وإساءة استخدام الحاسوب». انضمّ فى وقت لاحق إلى أعضاء هيئة التدريس فى قسم الهندسة الكهربائية وعلوم الحاسوب بمعهد ماساتشوستس للتقنية وحصل على التثبيت الوظيفى عام 2006. عمل فى وكالة الأمن القومى، وأسهم فى تصميم نظامىْ مولتكس ويونكس - المترجم.

[957] مافيا بوى: اسمه الحقيقى مايكل كالس، من مواليد عام 1986. أطلق سلسلةَ هجماتِ حرمان من الخدمة فى فبراير عام 2000، وهو طالب فى المرحلة الثانوية - المترجم.

[958] القرصان التكنولوجى: يقوم باختراقٍ ونشاطٍ فى آنٍ معًا، إذ يَستخدم التكنولوجيا فى الترويج لأجندة سياسية أو تغيير اجتماعى - المترجم.

فأثناء غزو العراق عام 2003، اخترق جواسيسُ الولايات المتحدة الشبكاتِ العراقيةَ، وأرسلوا رسائل تحثُّ الجنرالات على الاستسلام[1209]. ثم بعد سبع سنوات، أطلقت الولاياتُ المتحدة وإسرائيلُ فيروسًا [أو دودةً] ستوكسنت Stuxnet[959] ضد منشآت التخصيب النووى فى إيران[1210]. لم تكن المشكلة مجرد أن دولتين استطاعتا لعب هذه اللعبة. المشكلة هى أنه لا أحد يعرف كم عدد مَن يستطيعون اللعب وبأى عدد من الألعاب الإلكترونية. فى السنوات الأخيرة، وَجَدَت الولاياتُ المتحدة نفسَها تحت هجوم إلكترونى من إيران وكوريا الشمالية والصين.

ولكن هذه الهجمات وُجِّهَتْ ضد شركات (وبخاصة سونى بيكتشرز Sony Pictures)، وليس ضد حكومة الولايات المتحدة. الرُّوسُ هم أول مَن شَنّوا حربًا مُباشِرة ضد حكومة الولايات المتحدة، سعيًا منهم إلى تعويض هبوطهم العسكرى والاقتصادى النسبى، باستغلال «احتمالات غير متناظرة واسعة» يُقدِّمها الإنترنتُ ل«تقليل قدرة الخَصْم القتالية»[1211]. وقد تعلَّموا فنونَ الهجوم الإلكترونى بالهجمات على إستونيا وجورجيا وأوكرانيا. ولكن الكريملين، فى عام 2017، شَنّ هجومًا مستمرًا على النظام السياسى الأمريكى، مستخدمًا بالإضافة إلى ويكيليكس المُدوِّنَ الرومانى جوتشيفر تو بوينت زيرو Guccifer 2[960]، بوصفهما وكلاء له[1212].

ولنترك جانبًا مسألة ما إذا كان التدخُّلُ الروسى قد حَسَمَ الانتخابات لصالح ترامب أم لا، فى مقابل الأخبار الزائفة التى نوقشت فى الفصل السابق؛ يكفى القولُ بأن التدخُّلَ ساعده، ومن المحتمل أن كل الأخبار الزائفة والحقيقية

---

[959] ستوكسنت: دودة حاسوب تصيب نظام الويندوز. ويتفق العديد من الخبراء على أن «ستوكسنت» مُصَمّمٌ لضرب هدف صناعى محدّد، بالهجوم على برنامج «سيماتيك وين سى سى» أو ما يُسَمّى ب«نظام سكادا) SCADA «التحكّم الإشرافى وجَمْع المعطيات)، وهو البرنامج الذى صمّمته شركة سيمنز الألمانية لاستخدامات متعددة، منها إدارة المفاعلات النووية. يقوم ستوكسنت، بعد الاختراق، بالتفتيش عن علامة فارقة تتعلق بأنظمة صَمّمتها شركةُ سيمنز الألمانية، وعند العثور عليها يقوم بتفعيل نفسه ويبدأ فى تخريب المنشأة المستهدفة بالعبث فى أنظمة التحكم عن طريق إعادة برمجة «وحدات التحكم المنطقى القابلة للبرمجة PLC «وإخفاء التغييرات التى تم تنفيذها. عُثِرَ على ستوكسنت فى المنشآت الإيرانية. وتوجد فى هذا السياق نظريتان حول المهمة التى قام بها ستوكسنت: الأولى نظرية لانجنر الذى يعتقد أن الهدف هو مفاعل بوشهر النووى بغرض التجسُّس ونقل المعلومات إلى حاسوب مركزى فى ماليزيا. والثانية نظرية ريجر الذى يرى أن الهدف هو مفاعل نطنز لتخصيب اليورانيوم، ومهمةُ ستوكسنت وفق هذه النظرية تخريبيةٌ - المترجم.

[960] جوتشيفر تو بوينت زيرو: هو الذى اخترق شبكة الكمبيوتر التابعة للحزب الديمقراطى الأمريكى. وَرَدَ اسمُه فى لوائح الاتهام فى فبراير 2018 بوصفه الشخصيةَ التى شَغّلتْها الاستخباراتُ العسكرية الروسية - المترجم.

التى دمرت سُمْعة هيلارى كلينتن نُشِرَتْ دون تورُّط روسيا. ولنُترك جانبًا أيضًا الأسئلة والقضايا التى لم تُحَلّ بعد، المتعلقة بعدد أعضاء حملة ترامب المتورطين فى العملية الروسية، ومقدار ما كانوا يعرفونه[1213]. النقطة الحاسمة هى أن موسكو لم تُرْدَعْ. ويرى المتخصِّصون فى الأمن القومى أن عدمَ الرّدْع سمةٌ من سمات عديدة فى الحرب الإلكترونية المثيرة للحيرة. فمتخصِّصو الأمن القومى الذين اعتادوا على النظريات الأنيقة عن «التدمير المتبادل المؤكّد» التى تطورت أثناء الحرب الباردة، يجتهدون بشقّ الأنفس من أجل تطوير مذهب [مبدأ] لشكل صراعٍ مختلف تمامًا، يوجد فيه ما لا يُحْصَى عدَدُه من المهاجمين الذين يصعب تحديدُ العديد منهم، وبدرجات متعددة من التدميرية. وقد لاحظ ويليام لين William Lynn - نائب وزير الدفاع - أن «الصاروخ يأتى بعنوان مُرْسِله، أما فيروس الكمبيوتر فلا». ويرى جوزيف ناى Joseph Nye عميد مدرسة كينيدى بهارفارد Harvard's Kennedy School، أن الرّدع من الممكن إنقاذه، وهذا صحيح فقط، إذا كانت الولايات المتحدة على استعداد لضرب مثال فى البدء بالعدوان. الخيارات الثلاثة الأخرى التى يقترحها ناى هى: رَفْع مستوى أمن الإنترنت؛ محاولة «عَرْقلة» المعتدين المحتملين بالمساومة وغيرها من العلاقات (بحيث ترتفع تكلفة هجماتهم الإلكترونية)؛ وَضْع مُحرّمات عالمية على الإنترنت أقرب إلى المحرّمات التى ثبّطَتْ (فى الغالب) استعمالَ الأسلحة البيولوجية و الكيماوية[1214].

هذا التحليل ليس مريحًا. فبالنظر إلى العدد الهائل من المُعْتدِين الإلكترونيين يبدو الدفاعُ محكومًا بالتأخُّر عن الهجوم، الأمر الذى يقلب المنطق العسكرى التقليدى. فقد أثبت الروس أنهم لا يُبالون بالعَرْقلة ولا بالمحرّمات، وإن كانت الصينُ أكثرَ قابلية لنهج ناى. بل تبدو الحكومة الروسية مستعدة للدخول فى شراكات مع مجرمين مُنظّمين سعيًا إلى تحقيق أهدافها[1215].

ما مدى تخوُّفنا من سايْبِريا؟ ترى آن مارى سلوتر Marie Slaughter-Anne أن عالَمنا فائقَ الشبكية - مع وضع كل شىء فى الحسبان - مكانٌ حميدٌ و«الولايات المتحدة... ستجد تدريجيًا المعنى الذهبى لسلطة الشبكة[1216]». توجد حقًا كلُّ أنواع التهديدات الشبَكية («الإرهاب... المخدرات، الأسلحة، الاتجار بالبشر... تغيُّر المناخ وانخفاض التنوع البيولوجى... حروب المياه وانعدام الأمن الغذائى... الفساد، غسيل الأموال والتهرُّب الضريبى... الأمراض الوبائية»)، لكن إذا استطاع قادة أمريكا أن «يفكروا فى ترجمة تحالفاتِ رُقْعةِ الشطرنج إلى محاور اتصال وكفاءة» فقط، فسيكون كلُّ شىء قويمًا. وتقول إن المفتاح الرئيسى هو تحويل التسلسلات الهَرَميّة إلى شبكات، فيتحول

الناتو[961] NATO إلى «محور فى شبكة شراكات أمنية، ومركز للتشاور حول قضايا الأمن الدولى»، ثم إصلاح مجلس الأمن الدولى وصندوق النقد الدولى والبنك الدولي بفَتْحِها أمام «فواعل أحدث»[1217].

تحتاج مؤسسات النظام العالمى التى أُنْشِئت بعد الحرب العالمية الثانية إلى أن تتحول تمامًا إلى «محاور نظام مُسَطَّح [أفقى]، أسرع وأكثر مرونةً، نظام يعمل على مستوى المواطنين وعلى مستوى الدول معًا»، وأن يُدْمِجَ داخله «فواعلَ شبكات الإنترنت والشركات والمدنيين والجمهور، الأخيار». والمثال الذى تقدِّمه سلوتر هو «اتفاقية العُمَد العالمية للمناخ والطاقة» Global Covenant of Mayors for Climate and Energy التى تربط وتصل بين أكثر من 7.100 مدينة حول العالم[1218]. والمثال الآخر هو شراكة الحكومة المفتوحة Open Government Partnership التى أطلقتها إدارةُ أوباما عام 2011، و التى تشمل الآن سبعين دولةً ملتزمة ب«الشفافية والمشارَكة المدنية وقابلية المحاسبة»[1219]. أما إيان كلاوس Ian Klaus، زميل سلوتر سابقًا فى وزارة الخارجية، فيرى القوةَ في شبكةِ مدنٍ عالمية[1220].

هل يمكن أن ينضمّ «فواعل أخيار» معًا فى شبكة جيوسياسية جديدة، تُوجِّه «مهارتها الشّبَكية» ضد الفواعل الأشرار؟ يتشكك جوشوا كوبر رامو Joshua Cooper Ramo فى هذا. ويتفق مع سلوتر فى أن «التهديد الجوهرى للمصالح الأمريكية ليس الصينَ أو القاعدة أو إيران؛ بل تطوُّر الشبكة نفسها». ولكنه أقل تفاؤلا ً بشأن سهولة محاربة التهديد. الدفاعُ الإلكترونى متخلِّفٌ عشر سنوات عن الهجوم الإلكترونى، ليس أقله بسبب نسخة ثالوث مستحيل جديدة: «أنظمة سريعة أو مفتوحة أو آمنة، بل ميزتان من الثلاث فى كل مرة»[1221].

ويمكن تلخيص التهديد الواقع على النظام العالمى فى الصيغة الآتية: «شبكات سريعة جدًا X ذكاء صناعى X صناديق سوداء X طبقة جديدة X انضغاط الزمن X موضوعات يومية X أسلحة»[1222]. يُقَدِّمُ رامو فى كتابه «الحاسّة السابعة» The Seventh Sense، تصورًا لإقامة «بوابات» حقيقية وافتراضية أمام الروس ومُجْرمى الإنترنت ومُخرّبى الشبكة من المراهقين وغيرهم من الأشرار. ولكن رامو نفسه يقتبس ثلاث قواعد لأمن الكمبيوتر ابتكرها خبيرُ الشفرة بوكالة الأمن القومى روبرت موريس Robert Morris: «القاعدة الأولى: لا تمتلك كمبيوتر. القاعدة الثانية: لا تُشَغِّله. القاعدة الثالثة: لا

[961] الناتو: حلف شمال الأطلسى، ويُعْرَفُ اختصارًا ب«الناتو». تأسّسَ فى عام 1949 استنادًا إلى معاهدة شمال الأطلسى المُوقّعة فى واشنطن يوم 4 أبريل من العام نفسه. يتكون من 29 بلدًا عضوًا مستقلا ً من جميع أنحاء أمريكا الشمالية وأوربا. وهو منظومة دفاع مشترك ردًا على أى هجوم من أطراف خارجية - المترجم.

تستخدمه»[1223]. إذا استمررنا جميعًا فى تجاهل هذه الأوامر القطعية الجديدة - ولا سيما قادتنا، ومعظمهم لم يتمكن من إدخال عاملىْ تأمين لحسابات بريدهم الإلكتروني - فكيف ستحجب أيةُ بواباتٍ أمثالَ أسانج وجوتشيفر؟

يجرى حاليًا سباق التسلُّح الفكرى لابتكار قاعدة تأمين إلكترونى تقبل التطبيق. ومن غير المحتمل أن يتوصل إليها أولئك الغارقون فى التفكير التقليدى بشأن الأمن القومى. لعل الهدف الحقيقى ليس رَدْعَ الهجمات أو الثأر من المُهاجمين، بل تنظيم جميع الشبكات المختلفة التى يعتمد عليها مجتمعُنا بحيث تكون مَرِنةً [صامدة]؛ أو لعل الأفضل «مكافحة الهشاشة fragile-anti ، وهو مصطلح صاغه نسيم طالب[962] Nassim Taleb لوَصْفِ نظامٍ ينمو بشكل أقوى حين يتعرض للهجوم[1224].

وأولئك - من أمثال طالب - الذين يعيشون فى عالمِ إدارة المخاطر المالية، شهدوا فى عام 2008 مدى الهشاشة التى كانت عليها الشبكة المالية الدولية: فَشَلُ بنكِ استثمارٍ واحدٍ جَعَلَ نظامَ الائتمان العالمى ينهار بأكمله تقريبًا. أما بقيتنا فعَالِقون مع مَصْرفيين وتُجّار: فكُلُنا الآن متواصلون كما كُنّا منذ عقد س الف. وكالشبكة المالية، تقع شبكاتنا الاجتماعية والتجارية وشبكات البنية التحتية تحت هجوم متواصل من الحمقى والأشرار، ولا نملك سوى القليل جدًا مما يمكننا القيام به لرَدْعِهم. أفضل ما نستطيع فعله هو تصميم شبكاتنا وبناؤها بحيث يمكنها الصمود أمام ويلات سايْبِريا Cyberia. وذلك يعنى مقاومة إغراءِ بناءِ تعقيدٍ، عندما تكون البساطة (كما فى حالة التنظيم المالى) هى الخيار الأفضل[1225]. وتعنى البساطةُ - فى المقام الأول - فَهْمَ هياكل الشبكات التي نبتكرها.

عندما تُزالُ نِصْفُ عُقدِ رَسْمٍ بيانىٍّ عشوائىٍّ يُصَوِّرُ شبكةً فى حجم معظم شبكات عالمنا الحقيقى، فستُدمَّرُ الشبكةُ. ولكن حين نقوم بالإجراء نفسه ضد نموذج حُرّ النطاق من حجم مماثل، «فإن العنصر المُتَّصِلَ العملاق يُقاومُ حتى بعد إزالة أكثر من 80% من العُقد، ويكون متوسط المسافة داخله [أىْ بين العُقد] هو عمليًا المتوسط نفسه الذى كان عند البداية»[1226]. وهذه فكرةٌ حيوية مهمة لمَن يُصَمِّمون شبكاتٍ مكافحةً للهشاشة فى مواجهةِ هجومٍ متعمَّد ومُوجَّه.

---

[962]نسيم طالب: لبنانى أمريكى من مواليد عام 1960، تلقى تعليمه فى جامعتىْ باريس وماساتشوستس. دكتوراه العلوم الإدارية، وأكاديمى متعدد المعارف، له إسهام ابتكارى فى «المشتقات المالية المعقدة»، وصاحب «نظرية البجعة السوداء» التى يحاول فيها التعامل مع الصدفة والعشوائية واللامعلوم والأحداث النادرة غير المتوقعة بطريقة تُمَكِّننا من العيش فى إطارها. وبعد مروره بمجالات معرفية متعددة، يعمل نسيم طالب الآن أستاذًا جامعيًا فى هندسة المخاطرة بمعهد البوليتكنيك جامعة نيويورك - المترجم.

59
فانج[963]، بات[964]، الاتحاد الأوربي

فى مارس عام 2017، هاجمت لجنةُ الشؤون الداخلية بمجلس العموم House of Commons Home Affairs Committee [برلمان المملكة المتحدة]، بقيادة رئيستها إيفيت كوبر[965] Yvette Cooper، هاجمت شركات جوجل وفيسبوك وتويتر لعدم قيامها بما يكفى للرقابة على الإنترنت نيابةً عنهم. اشتكتْ كوبر من أن فيسبوك فَشِلَ فى رَفْع صفحة بعنوان «حَظْر الإسلام» Ban Islam. وكما قالت: «نحتاج منكم أن تفعلوا المزيد، وأن تتحملوا مزيدًا من المسؤولية الاجتماعية لحماية الناس»[1227]. وفى الأسبوع نفسه، كشف وزير العدل الألمانى هايكو ماس Heiko Maas عن مشروع قانون سيفرض غراماتٍ تصل إلى 50 مليون يورو على الشبكات الاجتماعية التى تفشل فى حذف «كلمات تحُضُ على الكراهية» أو تنشر «أخبارًا زائفة». وعلى حدِّ تعبيره: «يُحْذَفُ القليل جدًا من المحتوى غير القانوني، ولكنه لا يُحْذَفُ بالسرعة الكافية»[1228].

يمكن للمرء أن يجادل لصالح الرقابة على المحتوى البغيض وضده. ومن الممكن أن يتعجب من أن الشركات والوكالات الحكومية تنفق المال على الإعلان الإلكترونى عشوائيًا، إلى درجة وَضْع شعاراتها بلا تمييز على مواقع جهادية. ومع ذلك، لا يعنى القولُ بأن شركتىْ جوجل وفيسبوك ينبغى أن تمارسا الرقابة تنازلا ً عن المسؤولية، بل هو دليل على سذاجة غير عادية. وكما لو أن هاتين الشركتين ليستا قديرتين بما يكفى، فيريد السياسيون الأوربيون - على ما يبدو - منحهما القدرة على الحدِّ من حرية مواطنيهم فى التعبير.

هناك ثلاث نقاط جوهرية يجب فَهْمُها بشأن ثورة تكنولوجيا المعلومات.

---

[963] نُذَكِّرُ مرةً أخرى بأن كلمة «فانج FANG» تمثل الحروفَ الأولى من أربع كلمات هى: فيسبوك F وأمازون A ونيتفليكسN وجوجل. Gوهى الشركات الأمريكية العاملة فى مجال تكنولوجيا المعلومات والإنترنت. وتعنى هذه الحروفُ الأولى مجتمعةً معًا: «ناب» و «شوكة» و«مخلب» - المترجم.

[964] كلمة «بات BAT «تمثل الحروفَ الأولى من كلمات: بايدو Baiduوعلى بابا Alibaba وتينسِنت Tencentوهى الشركات الصينية العاملة فى مجال تكنولوجيا المعلومات والإنترنت التى تُنَاظِرُ فى وظائفها الشركات الأمريكية المذكورة فى الهامش السابق. وتعنى هذه الحروف الأولى مجتمعةً معًا: «خفاش»، «تبّوت»، «هرواة»، بالإضافة إلى احتوائها على معنى «الضّرْب» - المترجم.

[965] إيفيت كوبر: بريطانية من مواليد عام 1969، سياسية من حزب العمال البريطانى، وعضوة برلمان المملكة المتحدة، شغلت العديد من الوظائف الحكومية - المترجم.

الأولى هى أنها بكاملها إنجاز أمريكى تقريبًا، وإن يكن بإسهامات من علماء الكمبيوتر الذين توافدوا إلى وادى السِّليكون من كل أنحاء العالم، والمُصنِّعين الآسيويين الذين خفّضوا تكاليف الهاردوير [عتاد الكمبيوتر المادى] hardware.

ثانيًا، أهم شركات التكنولوجيا الأمريكية هي المهيمنة الآن بشكل غير عادي.

ثالثًا، تُتَرْجَمُ هذه الهيمنةُ، كما رأينا، إلى كميات هائلة من الأموال. وأما بقية العالم في مواجهة هذه الثورة الشّبَكية الأمريكية، فلديه خياران:

الإذعان والتنظيم أو المَنْع والتنافس. وقد اختار الأوربيون الخيارَ الأول. ستَبْحَثُ دون جدوى عن مُحَرّكِ بحثٍ أوربىٍّ، وبائع تجزئة أوربى على الإنترنت، وشبكة تواصل اجتماعى أوربية. أكبرُ شركة إنترنت مقرُّها الاتحاد الأوربى هى سبوتيفَى Spotify: شركة خدمات تجارية للموسيقى والفيديو مقرُّها ستكهولم وأُنْشِئت عام 2006 [1229]. لقد توغل فانج FANG فى الاتحاد الأوربى؛ وكل ما يمكن أن تفعله المفوضيةُ الأوربية[966] European Commission مضايقةُ عمالقة الولايات المتحدة بتوصيات مكافحة الاحتكار، وفواتير ضريبية بأثر رجعى، وقواعد أكثر صرامة بشأن الخصوصية وحماية البيانات، ناهيك عن حقوق التوظيف[1230].

وقد رَادَ الأوربيون الطريقَ بترسيخ قاعدة أن الشركات الأمريكية لا يمكنها العمل على أراضيهم بشكل مستقل عن القانون الوطني أو الأوربي.

الفرنسى مارك كنوبل Marc Knobel هو الذى رَسّخَ فكرةَ أن ياهو Yahoo لا يمكنه الإعلان عن تذكارات النازى[967] Nazi memorabilia فى مواقعه الخاصة بالمزادات العلنية أونلاين، لا بسبب أن الخادمَ [السيرفر] الذى يدخل عَبْره المُستخدِمون الفرنسيون إلى الموقع موجودٌ فى أوربا (فى ستكهولم) فقط، بل لأن ياهو لم يكن عاجزًا (كما قيل) عن تمييز المُستخدِمين الفرنسيين

---

[966] المفوضية الأوربية: ذراع تنفيذى للاتحاد الأوربى، ولها دور تكميلى فى المهام التشريعية والتنفيذية، ومسؤولة عن اقتراح القوانين والتشريعات وتطبيق القرارات و المعاهدات الصادرة عن الاتحاد الأوربى، بالإضافة إلى الإدارة اليومية لشؤون الاتحاد. يُعَيّنُ المجلسُ الأوربي رئيسَ المفوضية بموافقة البرلمان الأوربي.

وتنص المادة 211 من معاهدة روما على ثلاث مهامٍّ رئيسية تقوم بها المفوضية، هى: الإشراف على المعاهدات وتنفيذها فى جميع دول الاتحاد الأوربى من الناحية القانونية؛ دور قانونى؛ دور تنفيذى - المترجم.

[967] تذكارات النازى: مواد وعناصر ذات أصل نازى، جمعتها متاحف أو أفراد. ويأتى معظمها ممن خدموا فى ظل النازى. تشمل هذه العناصر ميداليات ونياشين، والشعارات النازية، وغيرها من بقايا زمن هتلر - المترجم.

من غيرهم، أيضًا[1231]. وأقرّ عددٌ من الدول الأوربية - فرنسا، بل بريطانيا وألمانيا أيضًا - قوانين تفرض على مُزوّدى خدمة الإنترنت Internet Service Providers حَجْبَ محتوى محظور (كالصور الإباحية التى تستخدم الأطفالَ) حتى لا يراها مواطنوهم. ولكن النُخَب السياسية الأوربية صارت تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الشركات الأمريكية، مثل فيسبوك، للقيام بالرقابة نيابةً عنها ، فتتغافل [هذه النُخَبُ] - على ما يبدو - عن مخاطر أن «معايير المنتديات» على فيسبوك ربما تنتهي إلى أن تكون أكثر تشدُدًا من القانون الأوربي[1232].

وعلى النقيض من الأوربيين، اختار الصينيون المنافسةَ. وهو ردُ فعل لم يكن يتوقعه الأمريكيون، الذين افترضوا أن بكين ستحاول بكل بساطة «السيطرةَ على الإنترنت»، وهى محاولة شبّهَها الرئيسُ بِلْ كلينتن Bill Clinton ب «محاولة دَقِّ مسمار من الجيلى فى الحائط»[1233]. كتَبَ أكاديمى أمريكى فى عام 2003 قائلا ً:

«الإنترنت شبكةٌ مَسامِّية [يسهل اختراقها]... وإذا كان الناس فى الصين يريدون الحصول على معلومات من مواقع فى وادى السِّلِيكون، فإن أقدر الحكومات سيصعب عليها الضغط لإيقافهم»[1234]. وليس هذا صحيحًا تمامًا. فبكل تأكيد توجد رقابةٌ.

منذ عام 2012، عندما أصبح لُوْ وى[968] Lu Wei مسؤولا ً عن المجموعة المركزية الرائدة للشؤون الإلكترونية[969] Central Leading Group for Cyberspace Affairs زادت الصينُ من كفاءة جدار الحماية العظيم[970] Great Firewall الذى يمنع الوصول إلى عشرات الآلاف من المواقع الإلكترونية الغربية، فضلا ً عن مشروع الدِرْع الذهبى[971] Golden Shield الذى يَتولّى

---

[968] لو وى: من مواليد عام 1960، سياسى صينى. شغل منصب نائب رئيس قسم الدعاية فى الحزب الشيوعى الصينى، ورئيس المكتب العام ل«المجموعة المركزية الرائدة للشؤون الإلكترونية». صنّفته مجلة التايم عام 2015 ضمن أكثر مئة شخصية نفوذًا فى العالم - المترجم.

[969] المجموعة المركزية الرائدة للشؤون الإلكترونية: أصدرت اللجنةُ المركزية للحزب الشيوعى فى الصين قرارًا بإنشائها فى نوفمبر عام 2013. ومهمتها إدارة القضايا المتعلقة بـ الإنترنت. تحولت فى مارس عام 2018 إلى لجنة تُسَمّى لجنة الأمن الإلكترونى و المعلوماتى المركزى - المترجم.

[970] جدار الحماية العظيم: مجموعة إجراءات قانونية وتقنية تفرضها جمهورية الصين الشعبية لتنظيم الوصول إلى شبكة الإنترنت محليًا، وهو جزء من عملية رقابة الإنترنت فى الصين الهادفة إلى حجب عدد من مواقع الإنترنت الأجنبية، ومراقبة حركة البيانات من الإنترنت وإليه. وإلى جانب دور جدار الحماية فى الرقابة، لعب دورًا فى تنشيط حركة التجارة الداخلية عبر الإنترنت من خلال رعاية الشركات المحلية - المترجم.

[971] الدرع الذهبى: مشروع متفرع من جدار الحماية العظيم لمراقبة الإنترنت. تُديره وزارة ا

مراقبة الإنترنت، والمدفع العظيم[972] Great Cannon الذى يمكن استخدامه في الهجوم على مواقع مُعادِية.

المدوّناتُ المُصَغّرة microblogs والشبكات الاجتماعية مثل سينا ويبو[973] Sina Weibo مُراقَبةٌ بإحكام شديد، مع أحكام بالسجن للمُدانين بنَشْر معلومات زائفة أو تخريبية على الإنترنت. ولنضرب مثلا ً واحدًا على كيفية عمل السلطات الصينية، فى سبتمبر عام 2016 أجبرت الحكومةُ [شركة] نِتْ إيز[974] NetEase على إغلاق كل منتدياتها على الإنترنت، باستثناء المتعلقة بـ العقارات والمنازل[1235]. ورغم تسامح الحكومة مع قدر كبير من النقد المُوجّه لها على الإنترنت، سرعان ما أغلق المُراقِبون كلّ الدعوات إلى أى إجراء جماعي غير رسمي[1236].

ومع ذلك، ليست الرقابةُ مفتاحَ الردِّ الصينى على العصر الشبكى. كان جوهرُ ا لإستراتيجية - بوسائل معقولة وكريهة معًا - الحدّ من وصول شركات تكنولوجيا المعلومات الأمريكية الكبيرة إلى السوق الصينى وتشجيع أصحاب الأعمال والمشاريع المحليين على بناء ردٍّ صينى على فانج Fang. وبينما قبلت ياهو ومايكروسوفت «الانضباطَ الذاتى» الذى تفرضه الحكومةُ[1237]، انسحبت جوجل من الصين فى عام 2010 بعد مشاحنات متكرّرة مع السلطات الصينية بسبب رقابتها وهجماتها [اعتداءاتها] على حسابات Gmail الخاصة بنُشَطاء حقوق الإنسان.

ومنذ سَجّل فيسبوك اسمَ النطاق www.facebook.cn فى عام 2005، حاول ترسيخَ أقدامه فى الصين، ولكنه حُظِرَ فى عام 2009، عندما اتُّهِمَتْ شركاتُ الميديا الاجتماعية بإثارة اضطراب فى شينجيانج Xinjiang المُسْلِمة أساسًا[1238].

والخلاصة أن الإنترنت فى الصين اليوم يُهَيْمِنُ عليه بات BAT [الحروف الأ ولى للشركات الصينية الآتية]: بايدو[975] Baidu (مُحَرّك البحث [الصينى] الذى

لأمن العام الصينية، بدأ تشغيله فى نوفمبر عام 2003 - المترجم.

[972]المدفع العظيم: نظام هجومى منفصل، ذو تصميم وقدرات مختلفة. تستخدمه الصين لإ طلاق هجمات الحرمان من الخدمة، ولديه القدرة على مراقبة حركة مرور الويب، وتوزيع البرمجيات الخبيثة فى الهجمات التى يَشُنُّها، بطريقة مماثلة لنظام كوانتم إنسِرْت Quantum Insert الذى تستخدمه وكالة الأمن القومى الأمريكية - المترجم.

[973]سينا ويبو: موقع إلكترونى صينى، تأسّسَ عام 2009، هجين من فيسبوك وتويتر - المترجم.

[974]نِتْ إيز: شركة صينية، من أكبر مُزَوّدَات خدمة الإنترنت فى الصين، وتُدير موقع ويب - المترجم.

[975]بايدو: مُحَرّك بحث صينى انطلق يوم 18 يناير عام 2000. مُصَنّف رقم واحد فى الصين

أسّسه روبين لى[976] Robin Li عام 2000)؛ على بابا[977] Alibaba (مجموعة قابضة رَدّ بها جاك ما[978] Jack Ma على أمازون، تأسّستْ فى عام 1999)؛ تِنْسِنت[979] Tencent (الذى ابتكره قبل عام، ما هِواتِنج[980] Ma Huateng، وهو معروف بتطبيق التراسل وي تشات WeChat).

هذه التكتلات أكثر بكثير من مجرد استنساخات لنظائرها الأمريكية؛ فكل منها أظهرت نفسَها بوصفها مُبتكرة ومبتكِرة؛ وهى كبيرة فى حجمها ونطاقها كنظيراتها الأمريكية، بقيمة سوقية تزيد على 473 مليار دولار وعائدات سنوية تُقدّرُ ب 20 مليار دولار. وى تشات WeChat يستخدمه 86% من مُستخدِمى الإنترنت الصينيين، ويُحَوّلُ بسرعة فائقة بطاقةَ العمل الآسيوى، لمرة واحدة إلزامية، إلى رموز استجابة سريعة وسهلة [رموز كيو آر] QR codes[981].

تجاوزت عائداتُ مجموعة على بابا فى الصين عائداتِ أمازون فى الولايات المتحدة عام 2015؛ وحِصّتُها من إجمالى إيرادات البيع بالتجزئة فى الصين (التي تتجاوز 6%) هي ضِعْفُ حصة أمازون في الولايات المتحدة[1239].

وغنىٌ عن القول إن وادى السِّليكون يُكشِّرُ عن أنيابه لكوْنه خارج السوق

والرابع عالميًا من حيث عدد الزيارات. شعار بايدو هو: «بايدو يعرف الصينيين أفضل، أو أفضل من غيره». يُعَدُّ بايدو الردّ الصينى على جوجل - المترجم.

[976] روبين لى: من مواليد عام 1968، رائد أعمال إنترنت صينى، درس إدارة المعلومات فى جامعة بكين، وعلوم الكمبيوتر فى جامعة نيويورك. أسّسَ مع إريك شو محرّك البحث بايدو. عُيّنَ فى أغسطس 2014 رئيسًا مشاركًا لفريق عمل استشارى مستقل يعمل على ثورة البيانات من أجل تنمية مستدامة فى الأمم المتحدة - المترجم.

[977] مجموعة على بابا: شركة قابضة صينية فى حوزة القطاع الخاص الصينى، تكسب معظم إيراداتها من النشاط التجارى عبر الإنترنت الذى يشمل مُحرّك بحث للتسوق وخدمات الحَوْسبة وخدمات الدفع عبر الإنترنت وتجارة الجملة والتجزئة، بالإضافة إلى سوق عام يهدف إلى تسهيل التجارة بين الشركات والأفراد والتجار على الصعيدين الدولى والصينى. أُنشِئت مجموعةُ على بابا عام 1999، وتُعَدُّ الردّ الصينى على أمازون - المترجم.

[978] جاك ما: من مواليد عام 1964، رجل أعمال صينى، ورئيس تنفيذى سابقًا لمجموعة على بابا. أول رجل أعمال صينى آسيوى يظهر على غلاف مجلة فوربس الأمريكية - المترجم.

[979] تِنْسِنت: شركة صينية متعددة الجنسيات تأسّستْ عام 1998، متخصصة فى الخدمات و المنتجات المرتبطة بالإنترنت والترفيه والذكاء الاصطناعى والتكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعى فى الصين - المترجم.

[980] ما هِواتِنج: من مواليد عام 1971، يُعْرَفُ أيضًا باسم بونى ماPony Ma ، رجل أعمال صينى، مؤسِّس ورئيس تنفيذى لشركة تِنْسِنت، أكبر شركات الاستثمار والتكنولوجيا والإ نترنت فى آسيا، مُصَنّف ضمن كبار رجال الأعمال فى العالم - المترجم.

[981] رمز الاستجابة السريع كيو آر: اسم العلامة التجارية لنظام مصفوفة الرموز الشريطية ثنائى الأبعاد (الباركود) – المترجم.

الصينى الضخم. لم يفقد زوكربيرج الأمل بعد، سواء بإجراء مقابلات صحفية بلغة الماندارين[982] Mandarin السهلة، أو حتى الركض عبر دخان ساحة تيانِنْمِن[983] Tiananmen Square، ولكن تجربة أوبر Uber الأخيرة لم تُشَجِّعه. فى العام الماضى، بعد تكبُّد خسائر تزيد على مليار دولار فى السنة رَفَعَ أوبر العَلَمَ الأبيض [راية الاستسلام]، متقبِّلا ً أنه لم يستطع التغلب على شركة ديدى تشوكسِنج[984] Didi Chuxing الصينية التى تعمل فى بيزنس مشارَكة الركوب[1240]. ويرجع ذلك جزئيًا إلى رشاقة تحرُّك ديدى الكبيرة وجيوبها الأ عمق، كما يرجع جزئيًا أيضًا إلى التغييرات التنظيمية [الحكومية] التى استهدفت إعاقة شركة أوبر في السوق الصيني[1241].

إن إحباطَ الشركات الأمريكية بهذه العوائق وغيرها أمرٌ مفهوم. ولكن من الصعب ألا يتأثر وادى السِّليكون وانتصاراته بالطريقة التى انتهجتها الصين. فـ الصين لم تكن ذكيةً من الناحية الاقتصادية فقط، بل كانت ذكيةً من الناحية السياسية والإستراتيجية أيضًا. «الأخ الكبير»[985] Big Brother، فى بكين، لديه الآن البيانات الكبيرة big data التى يحتاجها لإغلاق التبويبات أمام مُستخدِمي الإنترنت الصينيين.

وفى الوقت نفسه، إذا أرادت وكالة الأمن القومى [الأمريكية] NSA جَمْعَ بيانات وصفية metdata من المملكة الوسطى Middle Kingdom[986] فعليها أن تتغلب على جدار الحماية الصيني العظيم.

لا تزال الحكمة التقليدية فى الغرب أن العصر الشبَّكى غير ملائم، ومُعَادٍ لحُكْم الحزب الشيوعى الصينى بقدر ما كان غير ملائم ومعاديًا للاتحاد

---

[982] الماندارين: اسم يطلق على مجموعة اللغات التى يتحدث بها الصينيون فى المناطق الشمالية الغربية والجنوبية الغربية فى جمهورية الصين الشعبية - المترجم.

[983] ساحة تيانِنْمِن: من أشهر الساحات فى بكين العاصمة الصينية. شهدت مظاهرات طلابية عارمة عام 1987، ولكن الأكبر منها مظاهرات عام 1989 التى امتد أثرها إلى ساحات صينية أخرى التى قمعها النظام الصينى بشدة - المترجم.

[984] ديدى تشوكسِنج: شركة صينية مقرُّها بكين، تُقدِّم خدمات ركوب سيارات الأجرة و السيارات الخاصة ومشاركة الركوب الجماعى ومشاركة الدراجات وتقديم الطعام للمُستخدِمين فى الصين عبر تطبيق الهاتف الذكى. تأسّست ديدى تشوكسِنج بدعم من شركتي الإنترنت الرئيسيتين في الصين، تِنْسِنت وعلي بابا.

وفى عام 2017، طوّرت ديدى إصدارًا إنجليزيًا لتطبيقاتها وخدماتها وأطلقته فى المكسيك وأستراليا واليابان - المترجم.

[985] الأخ الكبير: إشارة إلى شخصية «الأخ الكبير» فى رواية جورج أورويل «1984»، سبق الحديث عنها فى هامش سابق - المترجم.

[986] المملكة الوسطى: ترجمة تقليدية لكلمة Zhōngguó التى تشير إلى الصين - المترجم.

السوفييتي.

ولكن يوجد مَن يفترضون جدلا ً أن الأمر مختلف[1242]. فالحزبُ [الشيوعى الصينى] نفسُه شبكةٌ متطوّرةٌ، تتبادل العُقدُ فيها الاتصالَ عبْر حوافزِ حماية ومُناصَرة [رعاية وكفّالة] ورابطة أقران أو زملاء عمل متعاونين. فمثلا ً، من ناحية التّمَرْكزيّة البَيْنية، شى جِنْپِنْج Xi Jinping [رئيس جمهورية الصين الشعبية] أقوى من أى زعيم صينى منذ جيانج زيمين Jiang Zemin [الرئيس الصينى الأسبق]، وأقوى بكثير من دِنج شياو پِنْج Deng Xiaoping [الرئيس الذى قاد الصين نحو اقتصاد السوق] الذى يُقارنُه به أحيانًا، على سبيل الخطأ، المُعلِّقون الغربيون[1243].

يسمح التحليل الشبكى لدارسى الحكومة الصينية بالابتعاد عن النظريات التبسيطية الخاصة بالفصائل [الزُّمَر] وإدراك براعة الجوانسى [الجوانشى] الحديث modern guanxi[987]. فيُشَدِّدُ تشينج لى Cheng Li[988] على أهمية روابط الإرشاد والتوجيه فى صعود شى Xi إلى السلطة؛ أىْ العلاقات بين كبار شخصيات الحزب ومُساعِدي الرئيس (الميشو mishu[989]).

أما من يُميّزون بين «معسكر جيانج - شى Xi-Jiang » النُّخْبوى و«معسكر هو - لى Li-Hu » الشّعْبوى فيبالغون فى التقسيم الصارم إلى فصائل. شى Xi نفسُه ترقّى من كوْنه سكرتيرًا لوزير الدفاع آنذاك جِنْج بياو Geng Biao، إلى مناصب على مستوى المقاطعة والإقليم فى هيبى Hebei وفوجيان Fujian وتشيجيانج Zhejiang وشَنغهاى Shanghai، حيث بَنَى شبكةً من المستشارين والناصحين والمُرْشِدين المُخْلصين، تضمنت شخصياتٍ مختلفةً اختلاف «التكنوقراطى الاقتصادى» ليو هى Liu He و«الصقر العسكرى المحافظ» ليو يوان Liu Yuan[1244].

---

[987] الجوانسى أو الجوانشى: تُعَبِّرُ الكلمةُ فى الثقافة الصينية عن رؤية فى العقيدة الكونفوشية، ترى الفردَ جزءًا من المجتمع ومجموعةً من العلاقات الأسرية والهَرَمية و الودية، مع التأكيد على الالتزامات الضمنية المتبادلة والمعاملة بالمثل والثقة التى هى أساس شبكات الجوانشى. وهو المفهوم نفسه السارى فى المجتمع الصينى الحديث فى ع لاقته بالعصر التكنولوجى الراهن، وكذلك فى الحزب الشيوعى الصينى. لذا، آثرتُ التعريبَ بدلا ً من ترجمة الكلمة إلى «علاقات حديثة» - المترجم.

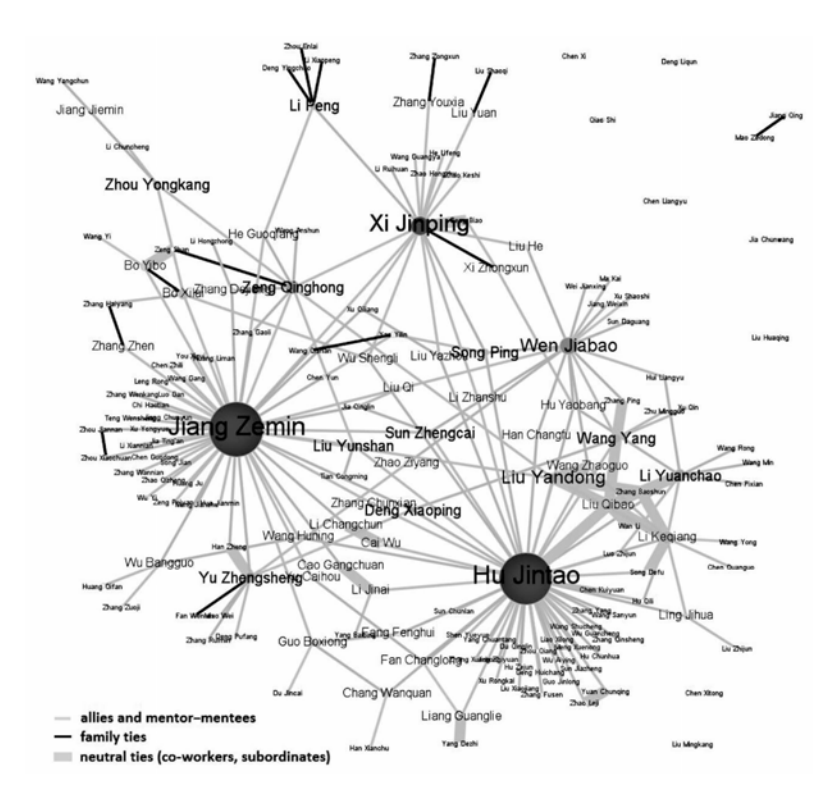
[988] تشينج لى: من مواليد عام 1956، أكاديمى صينى متخصِّص فى سياسة النُّخْبة الصينية والمجتمع الصينى المعاصر، ويُعَدُّ سلطةً مرجعية بارزة فى السياسة الصينية، وبخاصة ديناميات القيادة وتغييرات القادة الصينيين على مرّ الأجيال - المترجم.

[989] ميشو: تشير الكلمة فى سياق الحزب الشيوعى الصينى إلى الأمناء وحاملى الأسرار الذين لا يُقصِّرون فى إبداء نصائحهم فى الوقت نفسه - المترجم.

وكما تقول فرانسيسكا كِيلَر[990] Franziska Keller، تُفْهَمُ الصينُ فَهْمًا أفضل من خلال شبكات الإرشاد والتوجيه هذه، أكثر مما تُفْهَمُ بوصفها فصائل. وأما شبكات شى Xi الأخرى المهمة فتشمل شبكةً مكوّنة من أفراد قيادة المجموعات الصغيرة التابعين له[1245] والشبكةُ التى تربط الشركات بالبنوك بوَسَاطة سوق السّنَدات[1246].

---

[990] فرانسيسكا كيلر: من مواليد عام 1981، سياسية ألمانية وعضوة فى البرلمان الأوربى - المترجم.



الشكل رقم: 50 - شبكة أعضاء اللجنة المركزية فى الحزب الشيوعى الصينى. حجم العُقْدة يتناسب مع عدد الروابط [الاتصالات] (الدرجة)، وحجم الاسم يتناسب مع التمركزيّة البَيْنية. لاحِظْ أن الروابط بين المُوجّهين والمتلقين أهم بكثير من الروابط العائلية.

وبعيدًا عن إرادة دَقِّ مسمار جيلى فى الجدار، يستفيد النَّهْجُ الصينى فى الميديا الاجتماعية بشكل متزايد مما تكشفه المُدوّنات المُصَغّرة microblogs عن اهتمامات المواطنين وانشغالاتهم. عندما نَقّبَ باحثون من هونج كونج و السويد والولايات المتحدة فى بيانات أكثر من 13 مليار منشور فى المُدوّنات المصغّرة على موقع سينا ويبو Sina Weibo بين عامىْ 2009 و2013، فُوجِئوا بوجود 382 ألف منشور يُلْمِحُ إلى صراعات اجتماعية، و2.5 مليون منشور ذَكرَ احتجاجاتٍ شعبيةً كالإضرابات.

والفرضية هى أن السلطات صارت تستخدم الميديا الاجتماعية لمراقبة المعارضة، بقدر ما تستخدمها لضَبْط الفساد. ومما له دلالة [هنا] أن ال 680 موظّفًا عامًا المُتّهَمين بالفساد على موقع ويبو Weibo، الذين وُجِّه لهم اتهامٌ رسمي في النهاية، ذُكِروا عشر مرات تقريبًا أكثر ممن لم يُوَجّه لهم اتهام[1247].

مُعالَجة بيانات أخرى - 1,460 موظفًا عامًا حُقِّقَ معهم بسبب الفساد بين عامىْ 2010 و2015 - قدّمَتْ مزيدًا من النظرة الثاقبة للشبكات التى تديرها الصين، ومنها شبكة «النمور والذباب» tigers and flies (أىْ: كبار المجرمين وصغار

المجرمين) الذين أصبح سوءُ سلوكهم هدفًا رئيسيًا من أهداف حكومة شى جِنْپِنْج[1248]. لقد مَكّنَ وجودُ تكنولوجيا المعلومات والكمبيوتر بكين من بناء نظام «ائتمان اجتماعى» social credit، مماثل للائتمان المالى financial credit فى الغرب، «يسمح للجدير بالثقة أن يتنقل فى كل مكان تحت السماء، أما فاقد الثقة فلن يخطو خطوة واحدة»[1249]. وقد رَسّخَت الصينُ بالفعل أنظمةُ هوكو hukou (تسجيل الأسر) ودانجان dang'an (السجلات الشخصية) ، وبرامج لمكافأة العُمّال وكوادر الحزب الأكفاء. وإدماج هذه [السجلات] مع البيانات التى تستخلصها السلطاتُ من شركات بات BAT سيُوفِّرُ نظامًا للضبط الاجتماعى أبعد من أحلام الدول التوتاليتارية [الشمولية] أواسط القرن العشرين.

وفى الوقت نفسه، يبدو قادةُ الصين أبرعَ فى «حِرْفة الويب» webcraft من نظرائهم الأمريكيين. فبينما يُرَجّحُ انتهاءُ الشراكة عبر المحيط الهادى[991] Trans Pacific Partnership بسبب تراجع الدعم الأمريكى من قبل إدارة ترامب، نجد مبادرات صينية مثل بيلت Belt وروود Road والبنك الآسيوى للا ستثمار فى البنية التحتية[992] Asian Infrastructure Investment Bank تجذب بشكل مستمر مشاركين جُدُدًا. والاختبار الرائع للنّهْج الصينى سيكون إلى أى مدى تستطيع الصينُ القفزَ أعلى من الولايات المتحدة فى التنمية السريعة لقطاع التكنولوجيا المالية.

منذ الأزمنة القديمة، استغلت الدول قدرتها على احتكار إصدار العُمْلة، سواء خُتِمَت العُمْلة برَسْم المَلِك، أو أوراق نقدية تُصَوّرُ رؤساء سابقين، أو إدخالات إلكترونية على شاشة. ومع ذلك، فإن العُمْلات الرقمية القائمة على سلسلة الكُتَل [بلوك تشين] blockchain مثل بيتكوين Bitcoin[993] أو إيثريوم

---

[991]الشراكة عبر المحيط الهادى: اتفاق شراكة اقتصادى إستراتيجى متعدِّد الأطراف، يهدف إلى زيادة تحرير اقتصادات منطقة آسيا والمحيط الهادى. وحين تمكنت الدول المُشاركة من إنهاء مفاوضاتها والتوصل إلى اتفاق شامل فى أكتوبر 2015، أعلن ترامب بمجرد تولِّيه رئاسة الولايات المتحدة أن بلاده تعتزم الانسحاب من معاهدة الشراكة الاقتصادية العابرة للمحيط الهادى - المترجم.

[992]البنك الآسيوى للاستثمار فى البنية التحتية: أسّسته الصين عام 2014 برأس مال 50 مليون دولار أمريكى، ويضم أكثر من 35 دولة مُساهِمة، ليس من بينها الولايات المتحدة الأ مريكية التى تخشى أن يُنافِسَ البنكَ الدولى وصندوقَ النقد الدولى - المترجم.

[993]بيتكوين: عملة إلكترونية تُتَدَاول عبر الإنترنت فقط، دون وجود فيزيائى لها، وتعمل دون مستودع مركزى ودون هيئة تنظيمية مركزية تقف خلفها، وتتم المعاملات بشبكة «الند للند» بين المستخدمين دون وسيط، باستخدام التشفير، فهى عملة مُشَفّرة، بمعنى أنها تعتمد على مبادئ التشفير فى جميع مراحلها. ويتم التحقق من هذه المُعامَلات عن طريق عُقد الشبكة وتسجيلها فى دفتر حسابات موّزع وعام يُسَمّى «سلسلة الكُتَل». حَدَثَ

Ethereum[994] تُقدِّمُ العديدَ من المزايا المتفوقة على العُمْلة الورقية كالدولار الأمريكي أو الين الصيني.

بيتكوين بوصفه وسيلةً للدّفْع - وبخاصة فى المُعامَلات عبر الإنترنت - أسرع وأرخص من بطاقة الائتمان أو حوالة مَصْرفية. ولأن بيتكوين مُستودَعُ قيمةٍ، فهو ينطوى على العديد من سمات الذهب الرئيسية، ولا سيما الإمداد المحدود. وبوصفه وحدةَ حساب، فهو غير مستقر، وذلك لأنه أصبح موضوع مُضَارَبة جذّاب:

الذهب الرقمى. وأسوأ ما فيه أنه يُهْدِرُ بشكل غير عادى مواردَ الكمبيوتر لكوْنه «يُعَدّنُ» أو «يُجَزّأ» ويُوَثّق[1250]. ومن ناحية أخرى، تكنولوجيا دفتر الحسابات الموزّع [ويُسَمّى سلسلة الكُتَل أو بلوك تشين] تحلُّ مشكلةَ الموثوقية والأمن، بحيث يعمل بيتكوين أيضًا بوصفه تكنولوجيا تراسُل فى مأمنٍ من الغش والاحتيال، وأما الإيثريوم فيمكنه أَتمَتَة إنفاذ العقود، دون الحاجة إلى المراقبة البيروقراطية الباهظة الثمن، التى هى جزء لا يتجزأ ومُكلِّف من نظام المدفوعات الوطنية والدولية القائم[1251]. وباختصار، «يُوَزّعُ الائتمانُ وتُضْفَى عليه صفةُ الشخصية وصفةُ الاجتماعية... دون الحاجة إلى مؤسّسة مركزية للتصديق»[1252]. وبطبيعة الحال، ليست السلطات الصينية مستعدة للتخلى عن نظام مدفوعاتها لصالح بيتكوين، شأنها فى هذا شأن عدم تخلِّيها عن نظامها فى التاكسى لأوبر. بل تنزعج السلطات الصينية من أن 40% من شبكة بيتكوين العالمية أنتجها «مُنقِّبون» [مُعَدِّنون] صينيون، وأن ما يقرب من ثلاثة أرباع صفقات بيتكوين تمّتْ فى بورصة بيتكوين فى الصين BTCC (Bitcoin China)[995]. ومع ذلك، تُقدِّرُ بكين بوضوح قوةَ البلوك تشين [سلسلة الكُتَل] blockchain بوصفها تكنولوجيا. وهذا هو السبب فى أن بنك الصين الشعبى People’s Bank of China، وعددًا من حكومات المقاطعات، أوْشَكا على إطلاق «عُمْلة رسمية مُشَفّرة» official crypto - currency - قد تُسَمّى بيتيوان Bityuan - فى مقاطعة أو مقاطعتين فى المستقبل القريب[1253].

أولُ تداول لها يوم 3 يناير عام 2009 - المترجم.

[994] إيثريوم: منصة عامة مفتوحة المصدر تعتمد على «سلسلة الكُتَل»، وتقوم بدور «العَقد الذكى» الذى يُسَهِّل إبرام التعاقدات على الإنترنت. بدأ إصدار المنصة وتشغيلها يوم 30 يوليو عام 2015 - المترجم.

[995] BTCC: أول بورصة بيتكوين فى الصين، مقرُّها هونج كونج، تأسّسَتْ فى يونيو عام 2011، معظم عملائها من السوق المحلية. ولديها ما يقرب من 150 موظف فى عام 2018 - المترجم.

وربما تتفوق سنغافورة على بكين فى سباق تقديم أول عُمْلة رسمية مُشَفّرة، ولكن بكين ستتفوق بكل تأكيد على واشنطن[1254]. إذا نجحت التجارب الصينية فستمثل بدايةً حقبةٍ جديدة فى التاريخ النقدى، وتحدِّيًا خطيرًا لمستقبل الدولار بوصفه العُمْلة الدولية الرئيسية.

60
الساحة والبرج مرة ً ثانية ً

يبدو الأمر أحيانًا كما لو أننا مُدانون لمحاولة فَهْم زمننا بأطر مفاهيمية ترجع إلى أكثر من نصف قرن ماضٍ. فمنذ الأزمة المالية، والعديد من الاقتصاديين يُعيدون تدويرَ أفكار جون مينارد كينز John Maynard Keynes، المُتوفَّى عام 1946، بطريقة اختزالية. ويخلط كُتّابُ السياسة الأمريكية والأوربية بين الشّعْبويةَ populism والفاشية fascism، كما لو كان عصر الحروب العالمية هو التاريخ الوحيد الذي درسوه.

ويبدو مُحلِّلو العلاقات الدولية متشبثّين بمعجمٍ يُؤرّخُ للمرحلة نفسها تقريبًا: الواقعية أو المثالية، الاحتواء أو الاسترضاء، الرّدْع أو نزع السلاح. «التلغراف الطويل» Long Telegram الذى كتبه جورج كِنَنْ George Kennan[996] أُرْسِلَ قبل شهرين فقط من وفاة كينز؛ كتاب هيو تريفور روبر[997] «أيام هتلر الأخيرة» Hugh Trevor Roper' Last Days of Hitler نُشِرَ في السنة التالية.

وقد حَدَثَ كلٌ ذلك منذ سبعين سنة. عصرنا الحالى يختلف اختلافًا عميقًا عن أواسط القرن العشرين. دول القيادة والسيطرة القريبة من حدِّ الاكتفاء الذاتى ، التى خرجت من الكساد Depression، والحرب العالمية الثانية وأوائل الحرب الباردة التى توجد اليوم - إنْ وُجِدَتْ على أية حال - ليست سوى ظلال باهتة لذواتها السابقة. البيروقراطيات والآلات الحزبية التى تُديرها [هذه الدول]، فى حُكم الميتة أو تعانى من اضمحلال وتفسُّخ. والدولة الإدارية administrative state فى تجسدُها الأخير. اليوم، خَلَقَ الجَمْعُ بين الابتكار التكنولوجى والتكامل الاقتصادى الدولى أشكالا ً شَبَكيّة جديدة تمامًا لم يكن ليحلم بها كينز أو كِنَنْ أو تريفور روبر، بدءًا من عالم الجريمة السُّفْلى حتى «العالم الفوقي» المُرَوْحَن في دافوس.

قال وينستن تشرشل Winston Churchill إنه «كلما أمكنك النظر إلى الوراء، أمكنك النظر إلى الأمام». ونحن أيضًا لا بد أن ننظر إلى الوراء أبعد، ونسأل

---

[996] جورج كِنَنْ: (1904 - 2005)، سياسى أمريكى فى «قسم الشؤون الخارجية للولايات المتحدة»، ومخطِط السياسات الخارجية فى أواخر أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته ، ومهندس الحرب الباردة بدعوته إلى احتواء الاتحاد السوفييتى التى نشرها فى مجلة الشؤون الخارجية - واشتهرت باسم «مقال المجهول The X Article «أو التلغراف الطويل - تحت عنوان «مصادر التحكم فى الاتحاد السوفييتى» - المترجم.

[997] هيو تريفور روبر: (1914 - 2003)، مؤرّخ بريطانى لبواكير بريطانيا الحديثة وألمانيا النازية. نَشَرَ فى عام 1947 كتابَ «أيام هتلر الأخيرة» الذى يُعَدُّ ثمرة مهمته بوصفه ضابط مخابرات بريطانية عام 1945 - المترجم.

أنفسَنا السؤالَ الآتي: هل من المحتمل أن يُكرّرَ عصرُنا تجربةُ الفترة التى تلت عام 1500، عندما أطلقت ثورةُ الطباعة موجةً ثورية وراء موجة ثورية؟[1255] هل الشبكات الجديدة تُحَرّرُنا من أغلال الدولة الإدارية، كما حَرّرَت الشبكاتُ الثورية فى القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر أسلافَنا من أغلال الهَرَميّة الروحية [الدينية] والزمنية؟ أم هل ستنجح الهَرَميّات المؤسّسية فى عصرنا، بأسرع من سابقاتها الإمبراطورية [الإمبريالية]، فى ضَمّ الشبكات وإدراجها في الرذيلة القديمة، رذيلة شَنّ الحروب؟

اليوتوبيا الليبرتارية [التحرٌرية] libertarian utopia التى يَتبنّاها مُستخدِمو ا لإنترنت الأحرارُ المتساوون - وجميعهم مُتّصِلون ببعضهم البعض ويتشاركون كلّ البيانات المتاحة بأقصى قدر من الشفافية وبأقل قدر من إعدادات الخصوصية - لها جاذبيةٌ مُحَقّقة وبخاصة عند الشباب. ومِن الرومانسى تخيُّلُ أن يثور مُستخدِمو الإنترنت هؤلاء - كالعُمّال فى فيلم لانج «ميتروبوليس» - عَفْويًا ضد نُخَب العالم الفاسدة، ثم يطلقون العنانَ لقوة الذكاء الصناعى كى يُحَرّرَهم من كدْح العمل وشقائه، أيضًا. مَن يحاولون التطلع إلى الأمام دون النظر إلى الوراء يسقطون بسهولة فى فَخّ هذا النوع من التفكير بالتمنِّى. منذ أواسط تسعينيات القرن العشرين، وعلماء الكمبيوتر، وغيرهم، يتخيّلون إمكان وجود «دماغ عالمى» global brain: «كائن كوكبى فائق» ذو تنظيم ذاتى[1256]. فى عام 1997، تطلّع مايكل دِرْتوزوس[998] Michael Dertouzos إلى عصر «سلام بمساعدة الكمبيوتر»[1257].

وكتَبَ متحمِّسٌ آخر فى عام 2000 قائلا ً: «تفتح تكنولوجيات المعلومات الجديدة آفاقًا جديدة لحاصل جَمْع غير صفرى». ويبدو أن كاترين هيلز[999] N. Katherine Hayles كانت منتشيةً تقريبًا، وهى تقول إن الحكومات التى لن تستجيب بسرعة للامركزية س«تُعاقَبُ... بسرعة»[1258].. وفى عام 2006 قالت: «بوصفنا سُكّان شبكات مُتّصِلة عالميًا، نحن منضمُّون فى دَوّامة تعاونية ثورية دينامية مع آلات ذكية ومع أنواع بيولوجية أخرى نتشارك معها الكوكب». هذه الدّوّامة التصاعدية المتميزة ستُنتج فى النهاية «مجالا ً إدراكيًا»[1000] cognisphere جديدً[1259]. ثم بعد ثلاث سنوات، تصوّرَ إيان توملِن

---

[998]مايكل دِرْتوزوس: (1936 - 2001)، أكاديمى يونانى، أحد رواد مجالات التكنولوجيا المتنوعة، كان أستاذًا فى قسم الهندسة الكهربية وعلوم الكمبيوتر فى معهد ماساتشوستس - المترجم.

[999]كاترين هيلز: من مواليد عام 1943، ناقدة أدبية أمريكية - المترجم.

[1000]cognisphere: تعبير يَصِفُ الطرقَ التى من خلالها يتعايش البشر والآلات عبر أنظمةِ تدَفُّقِ بياناتٍ مُعقدةٍ - المترجم.

«أشكالا ً لا نهائية من الاتحادات بين الناس... تتجاوز... الاختلافات فى الدين والثقافة، تنقل تعاطُفًا وتعاونًا عالميًا حيويًا لبقاء الكوكب»[1260]. ثم يعلن قائلا ً: «ستكون غرائزُ البشر الاجتماعية المتعلقة بتلاقى الأفكار وتشَارُكِها الشىءَ الوحيدَ الذى يحفظ عِرْقنا من تدميره لنفسه، ذات يومٍ»[1261]. ويكتب مؤلِفٌ آخر قائلا ً إن «المعلوماتية» ستكون موجةَ العَوْلمةِ الثالثة[1262]. سيُنْتِجُ «جيلُ الويب الثالث web 3.0 نسخةً معاصرةً من «انفجار كمبرى» Cambrian explosion[1001]»، وسيعمل بوصفه «قوةً مُوجِّهة لذكائنا الجَمْعيٍ"»[1263]. Ian Tomlin

وبطبيعة الحال، لدى سادة وادى السِّليكون كلُّ الحوافز لإضفاء طابع رومانسى على المستقبل. يطلع علينا بِلاجى سرينيفاسِن Balaji Srinivasan برؤى مُسْكِرَةٍ عن جيل ألفىٍّ يتعاون فى «سُحُب» [كلاودز] clouds الكمبيوتر، جيل متحرّر من الجغرافيا، يدفع أحدُهم للآخر بعُمْلات رمزية رقمية، جيل متحرّر من أنظمة الدولة فى الدّفْع. حين تحدّث مارك زوكربيرج فى حفل الخريجين بهارفارد عام 2017، طلب من الخريجين الجُدُد أن يشاركوا فى «خَلْق عالمٍ يكون فيه لدى الجميع إحساسٌ بالهدف: يتحمّلون معًا مشروعات كبيرة ذات مغزى، ويُعيدون تعريفَ المساواة كى يكون لدى كل شخص حريةُ السعي وراء هدف، وبناء مجتمع عبر العالم».

ولكن زوكربيرج يُجَسِّد بنفسه عدمَ مساواة اقتصادات النّجْم. معظم العلاجات التى يتصورها لعدم المساواة - «دخل أساسى عالمى، رعاية صحية للأطفال بأسعار معقولة، رعاية صحية لا ترتبط بشركة واحدة... تعليم متواصل» - لا يمكن أن تتحقق على الصعيد العالمى، بل غير قابلة للتطبيق إلا بتنفيذ سياسات وطنية من خلال دولة الرعاية الاجتماعية القديمة فى القرن العشرين. وعندما يقول إن «نضال عصرنا» هو بين «قوى الحرية والانفتاح و المجتمع العالمى ضد قوى الاستبداد والعُزْلة والقومية»، فهو يبدو ناسيًا كمْ كانت شركتُه مفيدةً لقوى الاستبداد والعُزْلة والقومية[1264].

لا تعطينا تواريخ علم المستقبل أىّ سبب يجعلنا نَتوقّعُ تحَقُّقَ أى شىء من رؤية وادى السِّليكون اليوتوبية. إذا استمر قانون مور Moore's Law فى العمل، فينبغى أن تكون الكمبيوترات قادرةً على محاكاة الدماغ البشرى بحلول عام 2030. لكن لماذا نتوقع ذلك ولدينا نوعية النتائج اليوتوبية المُتخيّلة في الفقرة السابقة؟

[1001]انفجار كمبرى: زمن جيولوجى قديم يعود إلى 542 مليون سنة، ظهرت فيه بشكل مفاجئ مُسْتَحَاثّاتُ أسلاف الحيوانات المألوفة ضمن السجل الأحفورى الأرضى، وهو ما يمثل الحدث التطورى الأهم فى تاريخ الحياة على سطح الأرض - المترجم.

قانون مور كان يعمل فى الأوقات الأبكر بعد أن اخترع تشارلز بابيج Charles Babbage «المُحَرِّك التحليلى» Analytical Engine[1002] قبيل وفاته فى عام 1871، وكان يعمل بلا ريب منذ الحرب العالمية الثانية. ولا يمكن القول حاليًا بوجود تحسُّن أُسِّىٍّ متناسب فى إنتاجيتنا ناهيك عن سلوكنا الأخلاقى بوصفنا نوعًا [عاقلاً]. بل توجد حالةٌ قويةٌ مُفادُها أن الابتكارات فى الثورات الصناعية الأولى كانت أنْفَعَ للبشر من الثورات التى حدثت مؤخرًا[1265]. وإذا كانت العاقبة الرئيسية للروبوتات المتقدِّمة والذكاء الصناعى هى البطالة واسعة النطاق[1266]، فستنخفض بكل تأكيد الفرصُ أمام أغلبية الجنس البشرى[1267] كى تتوفَّرَ بلا شكوى على أنشطة ترفيهية غير مؤذية، سعيًا من أجل بعض الدخل الأساسى الكافى بالكاد. التوتاليتارية [الشمولية] القائمة على المُسَكِّنات التى تخيّلها ألدوس هكسلى Aldous Huxley هى وحدها التى ستجعل مثل هذا التنظيم الاجتماعى قابلاً للتحقق[1268]. و النتيجة الأكثر رجحانًا هى تكرار الاضطرابات العنيفة التى أغرقت، فى النهاية، العصرَ الشَّبَكيّ العظيمَ السابق في فوضى الثورة الفرنسية[1269].

والأكثر من هذا، لا يمكن تجاهل الشك فى أن القوى غير الحميدة - رغم كل الضجة اليوتوبية - قد تعلمت بالفعل كيف تستخدم مجال الإدراك الجديد وتُسِيئ استخدامَه لصالحها. من الناحية العملية، يعتمد الإنترنت فى تشغيله على كابلات بحرية وأسلاك ألياف بصرية وروابط أقمار صناعية ومستودعات هائلة مليئة بالخوادم [السيرفرات]. ولا توجد يوتوبيا بشأن مِلكية تلك البنية التحتية، ولا بشأن الترتيبات الاحتكارية التى تجعل مِلكية مَنَصّات الويب الرئيسية مُرْبِحةً إلى هذا الحد [الذى رأيناه]. الشبكاتُ الجديدة الواسعة النطاق صارت ممكنةً، ولكنها - كشبكات الماضى - هَرَميّةٌ فى هيكلها، وذاتُ أعداد صغيرة من المحاور فائقة الاتصال مُشَيّدة كالبُرْج على كتلة هائلة من العُقَد المتناثرة المُتَّصِلة ببعضها. ولم يعد مجردَ احتمالٍ أن تَسْتَخْدِمَ هذه الشبكةَ أوليجاركياتٌ فاسدةٌ أو متعصِّبون دينيون لشَنِّ نوعية جديدة من الحروب فى الفضاء الإلكترونى لا يمكن التنبّؤ بها. فهذه الحرب بدأت. وتشيرُ مؤشِّرات المخاطر الجيوسياسية إلى أن حربًا تقليدية أو حتى نووية أمرٌ غير مستبعد[1270]. وليس بالمستبعد أن «الكائن الكوكبى الفائق» الذى ابتكره دكتور سترينجلوف Dr Strangeloves[1003] بوَسَاطة الذكاء الصناعى، قد يجرى

[1002] المحرّك التحليلى: حاسوب ميكانيكى صَمّمه عالِم الرياضيات الإنجليزى تشارلز بابيج - المترجم.

[1003] دكتور سترينجلوف، أو كيف تعلّمتُ ألا أقلق وأحبُّ القنبلة: فيلم سينمائى صدر عام 1964، يستند إلى رواية بيتر جورج «الإنذار الأحمر». يدور الفيلم حول نشوب حرب نووية عَرَضية، يفقد فيها الإنسانُ السيطرةَ على زمام الأمور وعلى التكنولوجيا التى تهيمن على

مندفعًا مسعورًا، ذات يوم، يقتل الناسَ، ظنًا منه بأن العِرْقَ البشرى - وهذا صحيح - أكبرُ تهديد لبقاء الكوكب نفسه على المدى البعيد، فيُبِيد الكثيرَ منّا[1271].

قال أفن ويليامس[1004] Evan Williams، أحدُ مؤسِّسى تويتر، فى مايو عام 2017:

«اعتقدتُ أن الجميع يمكنه التحدُّث وتبادل المعلومات والأفكار بحُرّية، وأن العالم سيكون هو المكان الأفضل تلقائيًا». «لقد كنتُ مُخطئًا فى ذلك»[1272]. يُعَلِّمنا التاريخُ أن الثقة فى إدارة الشبكات للعالم ما هى إلا وَصْفَةٌ لإغراقه فى الفَوْضَى [الأناركية] anarchy: ففى أحسن الأحوال ستنتهى السلطة إلى أيدى المُتنوِّرين [الإلوميناتى]؛ بل ستنتهى على الأرجح إلى أيدى اليعاقبة Jacobins. ويميل البعضُ اليوم إلى «التهليل مرّتين على الأقل للأناركية [الفوضوية][1005] anarchism»[1273]. أما مَن عاشوا أثناء حروب تسعينيات القرن الثامن عشر والعقد الأول من القرن التاسع عشر فتعلموا درسًا مهمًا، وهو الدرس الذى علينا تعلُّمه من جديد: إن لم نكن راغبين فى عَيْش زَوْبَعة ثورية وراء أخرى، فمن الأفضل فَرْض نظام هَرَمِىٍّ على العالَم ومَنْحه بعض الشرعية. فى مؤتمر فيينا Congress of Vienna[1006] وافقت القوى العظمى الخَمْس على إقامة نظام من هذا النوع، وقد وَفَّرَ الحُكْمُ الخماسى الذى شكّلوه استقرارًا ملحوظًا حتى مطلع القرن التالي.

ثم ها نحن أولاء، بعد أكثر من مئتى عام، نواجه الخيار نفسه. وأما مَن يُفضِّلون عالمًا تُديره الشبكاتُ فلن ينتهى بهم الحال إلى تحقُّق يوتوبيا أحلامهم عن الاتصال ببعضهم البعض، بل إلى عالَمٍ منقسم بين فانج Fang [الشبكات الأمريكية] وبات BAT [الشبكات الصينية]، عالَمٍ تنتابه كلُّ الأمراض التى ناقشناها أعلاه، فتستغل شبكاتٌ فرعيةٌ [بديلة] خبيثةٌ فُرَصَ الشبكة

البشر. يُعَدُّ الفيلمُ مثالاً على عبث الحرب النووية وجنون الحمقى الذين يديرونها. يتميز أسلوب المعالجة فى الفيلم بالسخرية بما جعله يحقق نجاحًا شعبيًا كبيرًا - المترجم.

[1004] أفن ويليامس: من مواليد عام 1972، رجل ريادة أعمال أمريكى. صافى الثروة: 1.7 مليار دولار فى عام 2018 - المترجم.

[1005] الأناركية أو اللاسلطوية أو الفوضوية: بغضِّ النظر عن تنوُّع الترجمات العربية للمصطلح، الأناركية هى فلسفة سياسية تدعو إلى إقامة مجتمعات ذاتية الحُكْم من خلال مؤسّسات تطوعية وتعاونية دون تسلسل هَرَمى؛ بمعنى الدعوة إلى مجتمع بلا دولة وبلا مؤسسات الدولة الهَرَميّة. وداخل الأناركية أو اللاسلطوية توجد مذاهب عديدة، ولكن القاسم المشترك بينها تلك الفلسفة - المترجم.

[1006] مؤتمر فيينا: انعقد فى الفترة من سبتمبر عام 1814 حتى يونيو عام 1815 من أجل تسوية العديد من القضايا الناشئة عن حروب الثورة الفرنسية والحروب النابليونية وتفكك الإمبراطورية الرومانية المقدسة (سبق ذكره تفصيلاً فى هامش سابق) - المترجم.

العالمية World Wide Web في نَشْر ميمات وأكاذيب شبيهة بالفيروس.

البديل هو أن يعترف اتحادٌ خماسى آخر من القوى العظمى بأن مصلحتَه المشتركة مقاومةُ انتشار النزعة الجهادية jihadism والإجرام والتخريب الإ لكترونى، ولن نقول شيئًا عن التغير المناخى. فى أعقاب هجوم واناكراى WannaCry الإلكتروني عام 2017، كان يجب على الحكومة الروسية فَهْم أنه لا يمكن لأية دولة أن تأمل فى السيطرة على سايْبِريا Cyberia لوقت طويل: ف البرمجيات الخبيثة التى طَوّرَتْها وكالةُ الأمن القومى الأمريكية NSA - بوصفها سلاحًا إلكترونيًا يُسَمّى إيترنال بلو EternalBlue - سرقته وسَرّبته مجموعةٌ تُسَمِّى نفسَها «وُسطاء الظل» [شادو بروكِرز] Shadow Brokers[1007].

وقد أخذ باحث بريطانى على عاتقه إيجاد «مفتاح القتل» [أو الإيقاف الطارئ] kill switch، ولكن بعد إصابة مئات الآلاف من الحواسيب، بما فيها الأجهزة الأ مريكية والبريطانية والصينية والفرنسية والروسية. ما الذى يمكن أن يوضح بشكل أفضل من هذا المصلحةُ المشتركة بين القوى العظمى فى مكافحة أناركية الإنترنت[1008] Internet anarchy؟ لقد أنشأ مهندسو نظام ما بعد 1945 - بشكل ملائم - أساسًا مؤسّسيًا لحُكم خُمَاسِىّ جديد، يتكون من الأ عضاء الدائمين فى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، وهى مؤسسة تحتفظ بكل مقوّمات الشرعية المهمة. وسواء استطاعت هذه القوى العظمى الخَمْس أن تُقدِّمَ قضيةً مشتركة مرة أخرى أم لا، كما فعل أسلافهم فى القرن التاسع عشر، فهذا هو السؤال الجيوسياسي الكبير في عصرنا الراهن[1274].

منذ ستة قرون، فى [مدينة] سيينا Siena[1009]، [نجد] بُرْج دِلْ مانجيا Torre

---

[1007] شادو بروكِرز أو وُسطاء الظل: مجموعة قَرْصنة ظهرت لأول مرة فى صيف عام 2010. نشرت العديدَ من التسريبات التى تحتوى على أدوات قَرْصنة من وكالة الأمن القومى الأ مريكية، بما فيها عملية «مآثر يوم الصفر» التى تستهدف جدران الحماية الإلكترونية فى بِ لاد عديدة. ونسبت مجموعةُ شادو بروكرز التسريبات إلى إيكوَشن جروب (مجموعة التوازن Equation Group (التى يقال إنها على اتصال بوحدة عمليات إلكترونية ذات طبيعة خاصة فى وكالة الأمن القومى الأمريكى - المترجم.

[1008] أناركية الإنترنت أو الأناركية الإلكترونية أو إنترنت أناركى: ممارسةُ فلسفةِ الأناركية السياسية عبر الإنترنت من خلال ما يُعْرَفُ ب«كريبتو أناركيزم» أو «الأناركية المُشَفّرة»، حيث يَستخدم الأناركيون المُشَفّرون برنامجًا تشفيريًا للتهرُّب من الاضطهاد والمضايقة أثناء إرسال المعلومات وتلقيها عبر شبكات الكمبيوتر لحماية خصوصيتهم وحريتهم السياسية والاقتصادية. وبسبب برنامج التشفير يصعب التتبع - المترجم.

[1009] سيينا: مدينة فى وسط إيطاليا، قريبة من فلورنسا عاصمة إقليم توسكانا. تشتهر سيينا بساحتها «دِلْ كامبو» وبُرْجها «دِلْ مانجيا» المُطل على الساحة.

والمدينة قريبة أيضًا من مدينة بيزا التي فيها بُرْج بيزا المائل - المترجم.

del Mangia الملحق بقصر بابليكو Palazzo Publico يُلْقِى ظلا ً طويلا ً على ساحة دِلْ كامبو Piazza del Campo، وهى فضاء مكانى شبيه بِـ المَرْوحة كان يتحول إلى سوق ومكان للاجتماع وحلبة سباق مرتين فى العام. ارتفاع البُرْج [دل مانجيا] يثير الانتباه: فهو يصل بالضبط إلى ارتفاع كاتدرائية مدينة سيينا نفسه، الكائنة على أعلى تلٍّ فى المدينة، برمزية واضحة إلى تكافؤ التسلسلات الهَرَميّة الزمنية والروحية[1275]. ومنذ قرن، رُمِزَ فى فيلم لانج «ميتروبوليس» إلى السلطة الهَرَميّة بناطحات سحاب مانهاتن التى لا تزال تُلْقِى بظلالها على جنوب سنترال بارك Central Park[1010] وشرقه معظم أوقات النهار[1276]. عندما بُنِيت الأبراجُ الكبيرة الأولى فى نيويورك، بدا أنها فُرَضَتْ بشكل متناسب مكانًا للشركات [والمؤسسات] الهَرَميّة التى هيمنت على الاقتصاد الأمريكي.

وعلى النقيض من ذلك، تجتّبَتْ شركاتُ التكنولوجيا المسيطرة اليوم [البناءَ] الرأسىّ. مقرٌ فيسبوك فى مِنلو بارك Menlo Park [إحدى مدن مقاطعة سان ماتيو بولاية كاليفورنيا]، الذى صَمّمه فرانك جيرى Frank Gehry[1011]، هو حَرَمٌ مترامى الأطراف لمكاتب مكشوفة وساحات خضراء؛ وعلى حدِّ تعبير مارك زوكربيرج: «قاعة واحدة تناسب آلاف الناس»، أو (على نحو أدق ربما) رَوْضة هائلة للمهووسين. مبنى شركة أبل الرئيسى الجديد «أبل بارك» Apple Park فى كبيرتينو Cupertino [إحدى مدن مقاطعة سانتا كلارا بولاية كاليفورنيا] يشبه سفينةً فضائية دائرية ضخمة من أربعة طوابق فقط (فوق الأرض)، «مركز للإبداع والتعاون» صَمّمه الراحل ستيف جوبز Steve Jobs ونورمان فوستر Norman Foster وجوناثان أيف Jonathan Ive، كما لو أنه لاستضافة شبكة network تشبه الشّعيرية lattice، كلٌ عُقدة مساوية للأخرى، ذات عدد موحّد من المحاور، وثمة مطعم واحد فقط[1277].

مقرٌ جوجل الجديد فى ماونتن فيو Mountain View [إحدى مدن مقاطعة سانتا كلارا بولاية كاليفورنيا]، يقع وسط مجموعة من «الأشجار والمناظر الطبيعية والمقاهى ومسارات للدراجات»، سيتكوّنُ من «هياكل كالكتل خفيفة الوزن يمكن نقلها بسهولة»، كما لو أن المقرّ مُشَيّد من الليجو [لعبة تركيب]

[1010] سنترال بارك: حديقة كبيرة فى مانهاتن بولاية نيويورك، تبلغ مساحتها 3,4 كم - المترجم.

[1011] فرانك جيرى: من مواليد عام 1929. مهندس معمارى كندى أمريكى يهودى. أحد أهم المعماريين المعاصرين. أكثرُ تصاميمه شهرةً قاعةُ احتفالات والت ديزنى فى لوس أنجلوس، ومتحف جوجنهايم بإسبانيا. صار عدد من مبانيه بما فيها منزله الخاص عوامل جذب عالمية - المترجم.

Lego، ويقع فى مَحْميّة طبيعية: مكتب بدون قواعد أساس أو تخطيط لطوابق، يُحاكِى تطوّرَ الشبكة المستمر التى يستضيفها[1278]. أما وادى السِّليكون فيُفضِّلُ الاستلقاءَ أرضًا، ليس خوفًا من الزلازل فقط؛ فعمارته الأفقية تعكس حقيقة أنه المحور الأهم في الشبكة العالمية: ساحة العالَم.

ولكن على جانب الولايات المتحدة الآخر - فى الجادّة الخامسة بمدينة نيويورك سيتى New York City's 5th Avenue - يلوح فى الأفق مبنى مكوّنٌ من ثمانية وخمسين طابقًا [بُرْج ترامب] يمثل تراثًا [تقليدًا] تنظيميًا مختلفًا تمامًا[1012]. ولا شخص فى العالم لديه قولٌ فى الاختيار بين الأناركية الشّبَكيّة والنظام العالمي سوى صاحب هذا البُرْج المظلم، الغائب.

[1012] الطابق العلوى عُلِّمَ برقم «68»، لأن الرجل الذى يحمل المبنى اسمَه يُبْقِى على كوْنه مبنى من 68 طابقًا. ومع ذلك، فالطوابق من السادس إلى الطابق الثالث عشر فى برج ترامب Trump Tower لا توجد ببساطة - المؤلف.

تعقيب

الساحة والبرج الأصليان: الشبكات والتسلسلات الهرمية فى سيينا القرن الرابع عشر[1013].

كى يتضح السببُ فى اختيارى لعنوان هذا الكتاب «السّاحة والبُرْج» The Square and the Tower، لا بد أن يأتى القارئ معى إلى مدينة سيينا Siena. امْشِ عبر ساحة دِل كامبو Piazza del Campo التى تتخذ شكل الصّدَفة حتى قصر بابليكو Palazzo Pubblico، ستجد نفسَك تمرُّ تحت ظلال بُرْج دِلْ مانجيا Torre del Mangia ذى الأجراس بكل عظمته المُلوكيّة. ولا مكان آخر فى العالم سيُريك نَهْجيْن فى التنظيم البشرى متجاوريْن على هذا النحو الرائع[1014]، وهما نَهْجا التنظيم اللذان عرضتُهما فى هذا الكتاب: فمِن حولك، صُمِّم فضاءٌ عامٌ من أجل كل أنواع التفاعل البشرى غير الرسمى تقريبًا؛ ومِن أعلاك بُرْجٌ مهيب قُصِدَ به الرمز إلى السلطة العَلمانية وإسقاط ظلها على السّاحة. فكرة هذا الكتاب الرئيسية أن التوترَ بين الشبكات المُوزّعة والنُظُم الهَرَميّة قديمٌ قدم البشرية نفسها.

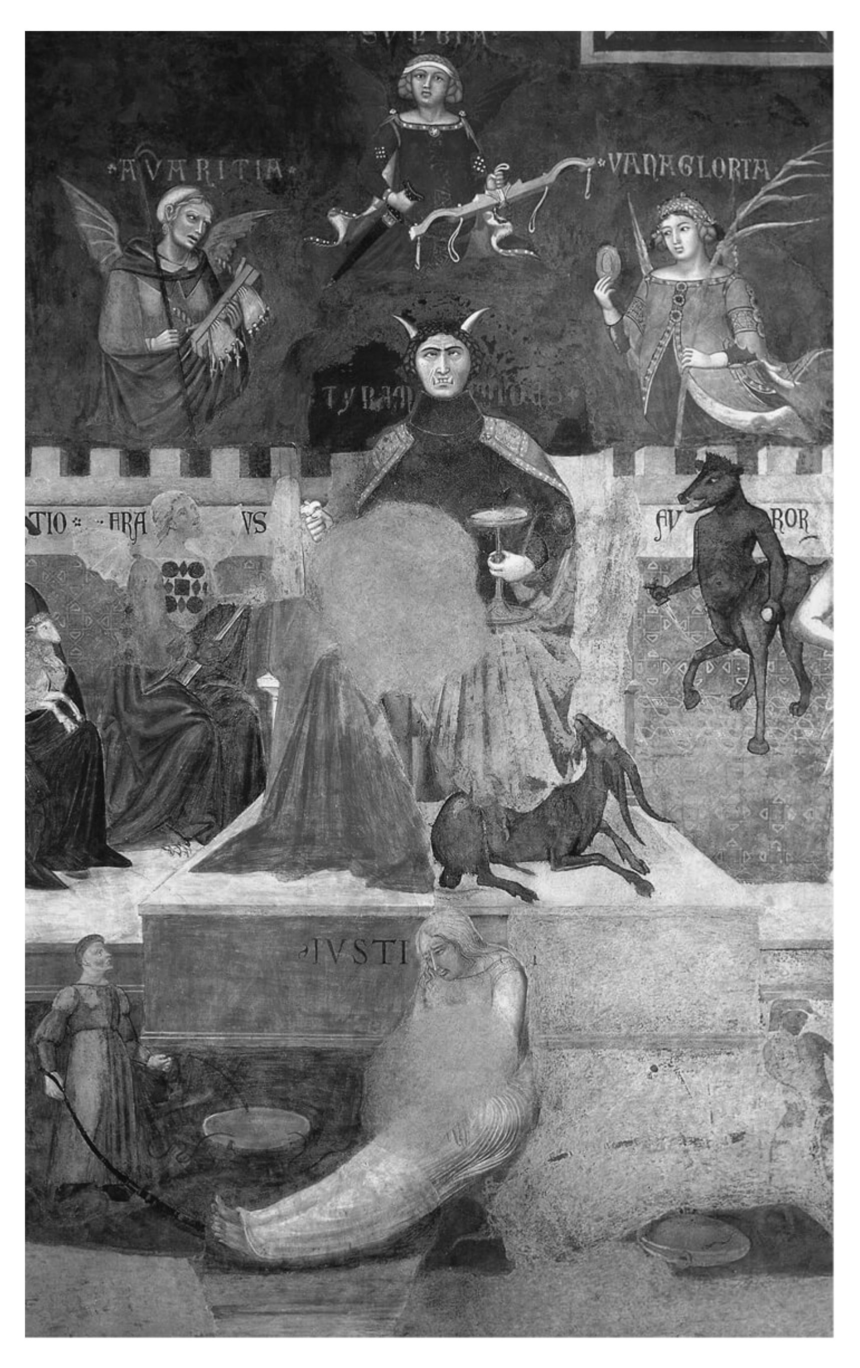
فالتوتر بينهما قائم بغضِّ النظر عن حالة التكنولوجيا، وإن أثّرت التكنولوجيا فى أيهما له اليد العليا. تُجَسِّدُ مدينةُ سيينا هذه الفكرةَ، لأن معمار ساحتها وبُرْجها يسبق تاريخَ ظهور المطبعة فى أوربا. بُنِى بُرْج دِلْ مانجيا فى القرن الرابع عشر مع قصر بابليكو، الذى تم الانتهاء منه فى عام 1312. كما بُنِيَت السّاحة المرصوفة أيضًا في القرن الرابع عشر[1279].

كثيرٌ من الناس اليوم يُخطئون فى التفكير حين يعتقدون أن الإنترنت قد غيّرَ العالم تغييرًا جوهريًا. ليس الإنترنت - كما ذكرتْ معظمُ قرارات المحكمة العليا بالولايات المتحدة مؤخرًا - سوى «ساحة عامة حديثة» modern public square، على حدِّ تعبير القاضى أنتونى كينيدى Anthony Kennedy[1280]. مشكلات عام 2017 ليست جديدة هكذا، كما نودُّ أن نتصور. هل نزوع الرئيس إلى الحُكم الاستبدادى يُنذِرُ بنهاية الجمهورية؟ هل من المحتمل أن يتصاعد الانقسام الاجتماعى والسياسى إلى صراع أهلى؟ هل من المحتمل أن يقود التحدِّى الذى يطرحه تزايدُ السلطة إلى سلطة جَبْرية، إلى حرب؟ ستبدو مثل

[1013] سيينا القرن الرابع عشر: يستعمل فِرْجُسن هنا التعبير الآتى«Trecento Siena» ، وتشير الكلمة إلى القرن الرابع عشر فى التاريخ الثقافى الإيطالى - المترجم.

[1014] نَهْجا التنظيم البشرى المتجاوران هما: الأفقى المُسَطّح الشّبَكى الذى ترمز إليه السّاحة، والرأسى المرتفع الهَرَمى الذى يرمز إليه البُرْج - المترجم.

هذه الأسئلة مألوفة لدى الرجال الذين شيّدوا برج دِلْ مانجيا. وإذا ساوَرَك الشكُّ فى هذا، ادخُلْ إلى قصر بابليكو، واصعَدْ إلى طابقه الثانى. هناك، على جدران قاعة التسعة Sala dei Nove، ستجد دليلا ً مذهلا ً على أن الثنائيةَ الضدية بين الشّبكة والتسلسل الهَرَمي فكرةٌ قديمة.



الشكل رقم: 51 - رؤية لورينزيتى للتسلسل الهَرَمى الخبيث [الشرير]، حيث نُصِّبَ التيراميدُ الشيطانىُّ. وفوق الطاغية يرفرف الجشعُ والغرورُ والخُيَلاء. وتحت قدميه تسقط العدالةُ معصوبةَ العينين مغلوبة على أمرها.

تُعَدُّ اللوحات الجدارية التى رسمها أمبروجيو لورينزيتى Ambrogio Lorenzetti[1015] فى قاعة التسعة من بين أعظم إنجازات الفن الإيطالى فى

[1015]أمبروجيو لورينزيتى: (1290 - 1348)، رسام إيطالى ينتمى إلى مدرسة سيينا فى الرسم - المترجم.

القرن الرابع عشر. رأيتُها للمرة الأولى عندما كنتُ طالبَ دراسات عليا مُقْلِسًا أواسط ثمانينيات القرن العشرين. وقد أثّرتْ فى نفسى تأثيرًا عميقًا، ورغم ظروفى العسيرة اشتريتُ نسختين من مستنسخات مَشاهِد لورينزيتى. وأظن أنها الصور الأولى التى اشتريتُها فى حياتى، وعلّقتُها شغوفًا بها أثناء تعاقب الدراسة - فى أكسفورد وهارفارد وستانفورد - رغم كوْنها رخيصة ويصعب فُكٌ مغاليقها. وعلى نحو لا يدركه الحسُّ، وتقريبًا بتغلغلها فى دخيلة نفسى، أثّرَتْ فى تفكيرى. بل لعلها السبب أن التمعت سيينا فى ذهنى حين كنت أحاول إيجاد عنوان لهذا الكتاب.

كان الهدف من اللوحات الجدارية أن تُلهِمَ المسؤولين التسعة المُنْتخَبين الذين حَكموا جمهورية سيينا ذلك الوقت. كل منهم يحكم لمدة شهرين فقط، وأثناء هذه الفترة يعيش التسعة فى القصر، بعيدًا عن عائلاتهم؛ وبكلمات أخرى منفصلين عن الشبكات العائلية التى هيمنت على دول المدينة states-city ا لإيطالية فى وقت عصر النهضة Renaissance. وفى قاعة مجاورة أكبر، قاعة المجلس Sala del Consiglio، يجتمع المجلس العام السيينى (السلطة التشريعية). لكن التسعة - طبقًا لدستور المدينة المكتوب - تنفيذيون، ويتولون القضاءَ (فى القضايا الدنيوية [العَلمانية]. وقد صُمِّمَت اللوحاتُ الجدارية التى رُسِمَتْ بين فبراير عام 1338 ومايو عام 1339، لتذكير التسعة بأنهم على المحكِّ دائمًا حين يتخذون قراراتهم.

تُزَيّنُ اللوحاتُ الجدارية ثلاثةَ جدران فى قاعة التسعة؛ وأما الرابع، الجدار الجنوبى، الذى فيه النافذة الوحيدة فى القاعة، فليس مُزيّنًا[1281]. أَدِرْ ظَهْرَك إلى النافذة فسترى على الجدار الأيسر (الغربى) الجداريةَ المعروفة لدى المعاصرين باسم «الحرب» War. وتُواجِهُك على الجدار الشمالى اللوحةُ المعروفة للعلماء باسم «رمز الحكومة الخيّرة» Allegory of Good Government، التى قُصِدَ منها بوضوح أن تكون المحورَ، لأنها أفضل اللوحات إضاءة[1282]. وعلى يمينك، على الجدار الشرقى، جداريةٌ تُسَمّى «السلام» Peace.

تناقَشَ العلماءُ طويلا ً حول مصادر إلهام لورينزيتى. ولسنوات عديدة، كان يُعْتقدُ أن اللوحات الجدارية قُصِدَ منها تجسيد أفكار العدالة فى أعمال أرسطو Aristotle (الأخلاق النيقوماخية Nicomachaean Ethics) والقديس توما الأكوينى Saint Thomas Aquinas (الخُلاصة اللاهوتية Summa Theologica). الدّيْن الأوضح كان للكاتب الفلورنسى فى القرن الثالث عشر برونيتو لاتينى Brunetto Latini[1016]، مؤلِّف كتاب Li Livres dou trésor

---

[1016]برونيتو لاتينى: (1220 - 1294)، كاتب وفيلسوف ومستشار لجمهورية فلورنسا فى

(C1260-65) ومختصره Tesoretto. وقد حدّدتْ أحدثُ التفسيرات [الجداريات لورينزيتى] الأصولَ الفلكية للكثير من الإشارات الرمزية، وكذلك ا لإيحاءات الخفية لتاريخ توسكانا (وبخاصة التنافس بين مدينتىْ سيينا وبيزا).

الأوصاف الباكرة، كأوصاف لورينزو جِبيرتى Lorenzo Ghiberti[1017] من أوائل القرن الخامس عشر، تشير إلى أن القصدَ الأصلى من اللوحات ببساطة إظهارُ التناقض بين «ما يحدث أثناء الحرب» و«ما يحدث فى وقت السلام [مثلا ً] كيف تسافر قوافل التجار... بأقصى درجات الأمان، وكيف يترك التجار بضائعهم فى الغابة، وكيف يرجعون إليها». فى خطبة أُلقِيت بعد تسعين عامًا تقريبًا من اكتمال اللوحات الجدارية، وصفها الفرنسيسكانى سِنْت برناردينو[1018] Saint Bernardino بأنها بكل بساطة «السلام والحرب» la pace e la guerra:

<u>عندما أنتقل إلى السلام، أرى نشاطًا تجاريًا؛ أرى الرقصات، أرى المنازل يجرى إصلاحها؛ أرى الكروم والحقول التى تُحرَثُ وتُزرَعُ، وأرى الناس يذهبون إلى الحمامات العامة على ظهر الخيول، وأرى البنات ذاهبات إلى الزواج، وأرى قطعان الخراف، إلخ. أرى رجلا ً يُشنَقُ من أجل الحفاظ على العدالة المقدسة. ولهذا [السبب] يعيش الجميع فى سلام مقدس ووئام. ثم حين أنتقل إلى [اللوحة] الأخرى، لا أرى تجارةً؛ ولا أرى رقصات؛ [أرى] القتل؛ فلا منازل يتم إصلاحها بل مُهَدّمة ومحروقة؛ والحقول لا تُحرَثُ؛ وكروم العنب تُقطَعُ؛ ولا يوجد بَذرٌ للحبوب؛ الحمامات لا يدخلها أحدٌ ولا توجد مسرّاتٌ، لا أرى أحدًا يخرج. النساء!</u>

<u>الرجال! الرجل يموت والمرأة تُغتَصَبُ، والقطعان فريسةٌ [للحيوانات المفترسة]؛ الرجال يقتل بعضهم بعضًا غَدرًا؛ العدالة تسقط على الأرض، موازينُها مُهَشّمة، وهى مقيّدة، يداها ورجلاها مقيّدة. وكل شىء يتم بـ الخوف. نهاية العالم، فى الفصل الثالث عشر، تُقدِّم الحربَ على صورة وحش يخرج من البحر بعشرة قرون وسبعة رؤوس، مثل فَهْد، وبأقدام دُبٍّ. ماذا</u>

القرن الثالث عشر. ويُعَدُّ المنظِّر السياسى لفلورنسا، إذ يشرح فى أعماله فلسفةً سياسية عَلمانية تهتم بالخطاب وبلاغته فى العمل السياسى - المترجم.

[1017] لورينزو جِبيرتى: (1378 - 1455)، فنان إيطالى من بدايات عصر النهضة، اشتهر بأعماله فى النحت وتصنيع المعادن - المترجم.

[1018] سِنْت برناردينو: (1380 - 1444)، كاهن إيطالى ومُبشِّر فرنسيسكانى. اشتهر بمواعظه الشعبية ضد السحر والقمار ووأد الأطفال واللِّواط (الشذوذ الجنسى) واليهود والرِّبَا. قدّسته الكنيسة الكاثوليكية باسم «رسول إيطاليا» لجهوده فى إحياء العقيدة الكاثوليكية فى إيطاليا خلال القرن الخامس عشر - المترجم.

تعنى هذه القرون العشرة إن لم تكن التناقض مع الوصايا العشر Ten Commandments؟ [الوحش] ذو الرؤوس السبعة يظهر كالفهد، بسبب الخطايا السبع المُهْلِكات، ويرمز إلى الغدر والخيانة؛ وأقدام الدُبّ هي الأقدام المليئة بالثأر والانتقام. ولكنك بالتسامح تُنهِي الحربَ وتقضي عليها[1283].

لا بد من فَهْم مصطلحىْ «السلام» و«الحرب» - كما تشير هذه الفقرة - بصورة عامة، لا بمعنى العلاقات بين الدول عند تولستوى، بل من خلال تناقض أقدم بين الانسجام الأهلى والصراع الأهلى الناشئ ربما عن حكومة استبدادية [طغيانية]. تُلخِّصُ لوحةُ «رمز الحكومة الخيِّرة» تلخيصًا جيدًا تحققًا تصويريًا لمفهوم شِفيتاس[1019] civitas بوصفه شكلا ً أساسيًا للجماعة الإنسانية»[1284]. ويُقصَدُ من مشاهد السلام فى الحضر والريف على الجدار الشرقى تصوير كل منافع دولة المدينة ذات الحُكم الرشيد well- governed city -state . أما الجدار المقابل فهو النقيض الذي يُصَوِّرُ كلّ تكاليف سوء الحُكم.

زَوّدَ لورينزيتى الجداريةُ الرمزية الرئيسية بالتعليق الإيضاحى المفيد الآتى: «هذه الفضيلة المقدسة [العدالة]، أينما حَكمَتْ، تحثُّ على توحيد نفوس كثيرة [من المواطنين]، فهم يجتمعون معًا لتهيئة «الصالح العام أو الخير المشترك» Common Good، لسَيِّدهم؛ الذى - كى يحكم دولته - لا يُحوِّلُ عينيه عن وجوه الفضائل المتألِّقة الجالسة حوله. من أجل ذلك، تُقدّمُ إليه عند الانتصار الضرائبُ والتّقدِماتُ ويخضع له سلطانُ البَلَدات؛ فتأتى بلا حربٍ كلُّ ثمرة مدنِيّة على النحو الوافى: مفيدة وضرورية وممتعة». على الجانب الأيسر من الجدار، تجلس العدالةُ تُظلِلُها الحكمةُ السماوية، وبجانبها ملاكٌ أحمر وملاكٌ أبيض يمثلان صور العدالة التبادلية والتوزيعية عند أرسطو. أما الذى يلوح فى الأفق ضخمًا على الجانب الأيمن فهو بطريرك بلِحْيَةٍ، فى قصدٍ واضح إلى تجسيد كومنولث سيينا نفسه (الخير المشترك أو الصالح العام)[1285]. والذى على يمينه (يسار الرائى) هو غصن زيتون مُسْترخٍ فى اليد، تشخيص شهوانى تقريبًا للسلام، والتشخيصات الأكثر صرامةً للجَلَد ورجاحة العقل[1286]. وعلى جانبه الآخر الشّهامةُ والاعتدالُ وعدالةٌ (أخرى). وفوق الجميع يرفرف الإيمانُ والإحسان والأمل[1287].

ولكن الأهم من ذلك فى الرؤية الحديثة، التشخيصات الكائنة تحت هذا الصّفّ من الفضائل المدنيّة. ف«الوئام» Concord يجلس عند أقدام تجسيد

[1019]شِفيتاس :civitas مصطلح لاتينى شاع فى روما القديمة، ويشير إلى جسم اجتماعى من المواطنين يجمعهم معًا القانونُ الذى يمنحهم مسؤوليات من جهة وحقوق المواطنة من جهة أخرى. وهو ما يجعل من اجتماعهم معًا مجتمعًا مدنيًا يقوم على أساس العقد أو الا تفاق الذى يمثله القانون. ومن هنا، يأتى تصور «دولة مدينة قانونية Legal city - state » - المترجم.

العدالة الأكبر، يليه أربعة وعشرون ممثلا ً لعموم الناس، مواطنون أثرياء جاء منهم التسعة. ومن اللافت للنظر أن كل واحد منهم يُمْسِكُ حبلا ً، يتكون من جديلتين، تُكوّنان موازين العدالة، يُضَفِّرهما الوئامُ. ويمرُّ هذا الحبلُ من خلالهم إلى تشخيص الخير المشترك أو الصالح العام، فيُمْسِكه بمعصمه الأيمن[1288] ويرى كونتن سكينر[1020] Quentin Skinner أن هذا يحسم قضيةَ أن المقصودَ من اللوحة احتفالٌ بحُكم ذاتى جمهورى، وأنها مثال على الزّعم اللاتينى بأن «خَيْرَ الناس» يقتضى «مقعدًا ينبغى أن يُمْسِكه ممثلو العامّة أنفسُهم»[1289]. ومن الممكن القول أيضًا إن تصويرَ لورينزيتى لحبلٍ يربط النُّخْبة المدنيّة معًا، ويربطهم بمبادئ العدالة والكومنولث نفسه، حدْسٌ بِالتصور الحديث لشبكة اجتماعية وسياسية حقًا[1290].

تُخاطِرُ تفسيراتٌ من هذا القبيل باشتمالها دائمًا على مفارقة تاريخية. فمن الواضح تمامًا أن لورينزيتى يجعل القوةَ العسكرية الضاربة جزءًا لا يتجزأ من الحكومة الصالحة: الفرسان فى بُرْجٍ مُصَفّح فوق المواطنين الأثرياء بل فوق أَسْراهم من الحرب المقيّدين معًا بحبل آخر. ولكن المُشَاهِدَ الحديث لن يفوته غيابُ الجنود عن تصويرين على الجدار الشرقي للمدينة الآمنة وريفها.

وقد قيل بشكل مقنع إن منظر المدينة على الجدار الشرقى يمثل «رؤيةً حَرْفيّة» للتصوير التمثيلى للسلام على الجدار الشمالى[1291]. المدينة المقصودة بكل وضوح هى سيينا؛ فنحن نرى الكاتدرائية duomo أعلى الزاوية اليسرى، والبوابة الرومانية فى الوسط قريبًا من بوابة تَلامونى Talamone[1292]. تلك هى مدينة سيينا المثالية، التى تُجَسِّدُ «انسجامًا كونيًا للحياة الجماعية». ومرةً أخرى، يكتب الفنانُ لنا ما يُفتَرَضُ أن نراه:

<u>أدِرْ عينيكَ كى تُطَالِعها، فأنتِ الحاكمةُ، وأنتِ المُصَوَّرةُ هنا [العدالة]، المُتَوّجَةُ لِفَضِيلتها، الواجبةُ على كل أحد. انْظُرْ كم عدد الخيرات المستمدة منها، وكم هى حياة المدينة هانئة وآمنة حين تحْفَظُ العدالةَ التى تبُزُّ ما عداها. العدالة تحرس مَن يُجِلُّونها وتدافع عنهم، فتُغَذّيهم وتُطْعِمُهم... تُكافِئ مَن يفعلون الخيرَ وتُعاقِبُ الأشرارَ عقابًا مستحقًا.</u>

قد تؤدِّى نظرة مُتعجِّلة إلى استنتاج خاطئ مُفاده أن الرخاء الاقتصادى هو الفائدة الوحيدة من الحُكم العادل. فكما لاحظ سِنْت برناردينو، ليست كلُّ النشاطات فى المدينة تجاريةً. فنحن نرى أيضًا مُعلِّمًا يُعلِّم تلاميذَه، مثلا ً، وأما المجموعة الوسطى فى المقدمة فهم الراقصون، ومن الواضح أنهم (على

[1020]كونتن سكينر: من مواليد عام 1940، مؤرّخ بريطانى، وأستاذ التاريخ فى كمبريدج، من الشخصيات المهمة فى تاريخ الفكر السياسى. وحاليًا، مدير مشارك لمركز دراسة تاريخ الفكر السياسى فى جامعة كوين مارى، لندن - المترجم.

الرغم من المظاهر الأولية) شباب يشاركون فى رقصة شعبية - تُعْرَفُ باسم تريبوديوم tripudium - تعبيرًا عن فرحهم بدولة السلام. كما يُصَوّرُ مشهدُ السلام فى الريف الصيدَ أيضًا، بالإضافة إلى التجارة والزراعة. ونطالع فى أعلى يسار اللوحة التعليق الآتى: «دون خوف، يتنقل كلُّ رجل بحُرّية فيَحْرُث ويَبْذُر الحبّ، ما دام هؤلاء الناس يحفظون سيادةَ السيّدة [العدالة]، فهى التى تُجَرّدُ الأشرارَ من كل قوة».

وإلى جانب كل هذا، تقف المدينة التى مزّقتها الحربُ، مُصوّرةً على الجدار الغربى فى تناقض صارخ. وكما تُهَيْمِنُ الصور التمثيلية على الجدار الشمالى، فكذلك على الجدار الغربى لدينا التيراميد Tyrammide، مَسْخ بعين شيطانية له قرون وأنياب، وخنجر فى يده اليمنى، يطأ بقدمه ماعزًا. وفوق الطاغية [المستبد] يُحَلِّقُ الجشعُ والكبرياء والخُيَلاء. وإلى اليسار القسوةُ والخيانة والاحتيال؛ وإلى اليمين الغضبُ والانقسام - ينشر نفسَه بمنشار نجار - والحرب[1293]. وأما عند قدم الطاغية فتسقط العدالةُ معصوبةً مغلوبةً على أمرها. ومع أن الكثيرَ من الجزء السفلى من هذه اللوحة تالِفٌ، نستطيع أن نتبيّن مشاهدَ القتل والاعتداء وتدمير الممتلكات.

ونطالع التعليقَ الآتى: «لأن كل واحد لا يبحث إلا عن خَيْره الشخصى، تخضع العدالةُ فى هذه الأرض للطغيان: من أجل ذلك، لا يمرُّ أحدٌ على طول هذا الطريق إلا وهو خائف على حياته... ما دامت توجد السرقاتُ خارج بوابات المدينة وداخلها»[1294].

والمقصودُ بهذه المدينة غير السعيدة مُنَافِسَةُ مدينة سيينا: مدينة بيزا Piza[1295]. ولكن الأرجح أن المقصودَ بها تجسيدُ كل ما لم تكُنه مدينةُ سيينا: أيُّ مدينة ترضخ لحُكم أوتوقراطى [استبدادى]، تُحْرَمُ من السلام والرخاء. ففى الجزء السفلى [التالف] من اللوحة، كانت توجد تجسيداتٌ لأباطرة مستبدين (نيرو Nero[1021]، كاراكلا[1022] Caracalla، جيتا Gaeta، أنطيوخس Antiochus)[1296].

لقد تعاطفتْ تُحَفُ لورينزيتى الفنية، فى زمنها، تعاطفًا ملحوظًا مع دولة المدينة المستقلة، وعَادَت النظامَ المَلَكىّ والإمبراطورىّ. ومن الصعب القول

[1021] نيرو، أو نيرون: (37 - 68)، خامس وآخر أباطرة الرومان من العائلة اليوليوكلودية. حَكَمَ الإمبراطورية الرومانية من عام 54 حتى عام 68. تفشّتْ فى عهده الانقلابات والاغتيالات والإعدامات السياسية - المترجم.

[1022] كاراكلا: (188 - 217)، إمبراطور رومانى حَكَمَ من عام 211 حتى عام 217. قتل أخيه وكلّ مَن له صلة به كى ينفرد بحكم الإمبراطورية. استولت عليه فكرةُ تقليد الإسكندر المقدونى فغزا الإسكندرية وقتل ما يزيد على عشرين ألف من أهلها بسبب قصيدة هجاء قيلت فيه. اغتاله قائدُ حرسه كى يستولى على الحكم - المترجم.

بأن الفنان كان نبىّ العصر الشبَكى الذى سيبزغ بعد قرن ونصف تقريبًا؛ ولكن من المؤكد أنه كان سابقًا لزمنه عندما رَبَطَ رَبْطًا صريحًا الحكومةَ المستندة إلى حُكم القانون بالرخاء الاقتصادى والتلاحم الاجتماعى. ولا بد من تذكر أن أوربا فى ذلك الوقت، بل معظم أوراسيا، هيمنت عليها أشكالٌ متنوعة من الحُكم الاستبدادى. فقد تزامَنَ عصرُ مدينة سيينا الذهبى، الممتد من حوالى عام 1260 حتى عام 1348، مع صعود الإمبراطورية المغولية وسقوطها. وكان ذلك هو الوقت الذى سافر فيه تُجّار مدينة سيينا إلى مدينة تبريز Tabriz [فى إيران] لشراء الحرير من آسيا الوسطى، وهو أيضًا الوقت الذى استقبل فيه البابا مبعوثين من إمبراطور أسرة يوان، توغون تيمور[1023] Toghon Temür[1297].

ثمة إسهام آخر أسهم به لورينزيتى فى تزيين قصر بابليكو، ولكنه مفقود منذ فترة طويلة، وهو عبارة عن كرة أرضية دائرية قطرها ستة عشر قدمًا، تُظْهِرُ مدينةَ سيينا في مركز شبكة تجارية تمتد عبر أوراسيا[1298].

المأساة أن هذه الشبكة التجارية، على وجه التحديد، هى التى ستُوَفِّرُ النواقلَ التى نقلت الموت الأسود Black Death. إذ ضرب الطاعون الدّبْلى مدينة سيينا فى عام 1348، بعد أقل من عقد على اكتمال جدارية السلام والحرب، ويُقَالُ إن لورينزيتى كان أحدَ ضحاياه. انتهت أيام مدينة سيينا الذهبية[1299]. ولكن بقيت اللوحاتُ الجدارية فى قاعة التسعة ما يقرب من سبعمائة عام، لتُذَكِّرَنا بأن مشكلات الحرب والسلام - والحُكم الصالح والحُكم الطالح - ليست مشكلات جديدة.

التكنولوجيات تأتى وتذهب. ويظل العالمُ عالمَ السّاحات squares والأبْراج towers.

[1023] توغون تيمور: (1320 - 1370)، إمبراطور منغوليا من أسرة يوان التى أسقطتْ حُكمَها أسرةُ مينج فى الصين - المترجم.

ملحق الرسم البيانى للشبكات الاجتماعية فى فترة نيكسون - فورد استعملتُ فى الفصل 45 تحليلَ الشبكة الاجتماعية social network analysis لفَحْص دور هنرى كيسنجر Henry Kissinger فى إدارتىْ نيكسون Nixon وفورد Ford، وبصورة أعمّ العلاقات داخل هاتين الإدارتين، مُستخدِمًا كلّ المذكرات التى كتبها ونشرها أفرادُ هاتين الإدارتين بوصفها مصادر. ولعل القرّاء المهتمين بتحليل الشبكة الاجتماعية يريدون معرفةً أزيد عن الرسومات البيانية من رقم 30 حتى 33، التى هى جزء من مشروع بحثى عن الشبكات ا لاجتماعية يجرى تنفيذه حاليًا بالتعاون مع مانى رنْكن كروز Manny Rincon - Cruz، وجزء من مشروعي المتصل عن حياة هنري كيسنجر.

ترسم معظمُ مشروعات تحليل الشبكة الاجتماعية العلاقاتِ بطريقة ثنائية بسيطة - سواء وُجِدَ اتصالٌ بين فاعليْن أو لم يوجد - فى شكل مصفوفة ثنائية. وتقوم معظم المناهج الحَوْسبية فى تحليل الشبكة الاجتماعية على أمثال هذه المصفوفات، لأن معظم المعطيات من الأوساط الأكاديمية (كالتى يُنتجها علماءُ الاجتماع وعلماءُ السياسة) كانت من هذا النوع لفترة طويلة، وفى الآونة الأخيرة فقط تنامت منصّات الميديا الاجتماعية بسرعة، فبدأتْ في توفير المزيد من البيانات الأدق.

وحتى مع ذلك، بُسِّطَت المعطياتُ المعقدة كى تتيح للباحثين استعمالَ النّهْج الثنائى. وبالنسبة إلى المؤرّخ، يُعَدُّ هذا أمرًا إشكاليًا، لأننا نهتم اهتمامًا كاملا ً بأنواع العلاقات المختلفة بين الأفراد. والأكثر من هذا، أن النّهْج الثنائى يميل، فى المجموعات متوسطة الحجم، إلى الكشف عن اتصال كل فرد بكل فرد آخر تقريبًا، الأمر الذى يقترب من كوْنه نتيجةً عديمة القيمة. لا يستطيع تحليلُ الشبكة الاجتماعية التمييزَ بسهولة بين الحب والكراهية على الأقل فى الحقل السياسى، حيث يصعب التمييز بين الصداقة والعداوة. ومع ذلك، من الممكن تحديد الأهمية النسبية للعلاقات.

ما لا يقل عن نصف الأفراد - إلا قليلا ً- مِمّن قاموا بأدوار مهمة فى إدارتىْ نيكسون وفورد كتبوا مذكرات تُغَطِّى فترتهم التى قضوها فى الحكومة. ولتحديد مصادرنا، قمنا أولا ً بإعداد قائمة لأعضاء مجلس الوزراء بالبيت الأ بيض، ثم أضَفْنا عددًا من الأفراد على مستوى وزارى فرعى، ونوّاب الوزراء فى الوزارات الرئيسية، وأىّ شخص ذا مصادر وكتابات فى مكتبة نيكسون التذكارية، وأىّ عضو فى الإدارتين كتَبَ كتابًا عن سنوات نيكسون وفورد إذا وُجِدَ على نظام مكتبة ستانفورد وأمازون والفهرس العالمي WorldCat[1024].

[1024] الفهرس العالمى WorldCat: مشروع فهرس موحّد تابع لمركز المكتبة الرقمية على الإ نترنت، أُطْلِقَ يوم 21 يناير 1998 - المترجم.

ومن هذه القائمة الرئيسية استخدمنا، مرة أخرى، ستانفورد وأمازون و الفهرس العالمى لتحديد كل كتاباتهم. ثم بدأنا عملية الاستبعاد. المذكرات المعتمَدة هى المذكرات التى غطت كلّ فترة تولِّى الفرد منصبًا فى البيت الأ بيض. فمثلا ً، استبعدنا كتاب كيسنجر عن إنهاء الحرب الفيتنامية. كما استبعدنا أيضًا الكتبَ التى ليست مذكرات أو ذكريات، والكتب التى كُتِبَتْ أساسًا بوصفها مصادر أولية.

لقد استخدمنا هذه الكتابات لمقاربة مدى تذكّر الفواعل أفرادًا آخرين لعبوا دورًا فى سياسة العصر وفى أثناء فترة عملهم فى الإدارتين. الظاهرة الأ ساسية التى كنا نحاول الإمساك بها فى تحليلنا هى عدد الأحداث المنفصلة التى تذكّرَ فيها كاتبٌ فاعلا ً تاريخيًا آخر. واعتمدنا على العمل الدقيق الذى بذله المؤلِّفون والمحرّرون والناشرون فى فَهْرَسة المذكرات، بوصفه وثيقةً. فكان حجرُ البناء لقاعدة بياناتنا عددَ الصفحات التى ذُكِرَ فيها فاعلٌ فى كلِّ كِتاب مذكرات.

ويوجد بشكل واضح تفاوتٌ كبير فى طول المذكرات والمدى الذى تغطيه وعدد الكلمات التى يضعها الناشرون لمتوسط كل صفحة. تناولَ بعضٌ من كُتّابنا حياتهم بأكملها، وتناول آخرون مُدّتهم التى قضوها فى الحكومة. وكى نسمح بمثل هذا التفاوت، تجنّبْنا معيارًا مطلقًا لمدى تكرار ظهور فرد فى كِتاب مذكرات لأن ما نريد معرفته هو مدى أهمية فاعل محدد فى مذكرات الكاتب نسبةً إلى فواعل إدارتىْ نيكسون وفورد فى الشبكة الاجتماعية. فأخذنا عددَ الصفحات التى ذُكِرَ فيها شخصٌ وقسّمناه على إجمالى عدد المرات التى ذَكرَه فيها كلُّ كُتّاب مذكرات إدارة نيكسون وفورد. بعض المذكرات زادت على مجلد واحد، وكتَبَ بعض المؤلِّفين أكثر من كِتاب مذكرات. فى كلتا الحالتين، اعتبرناهما نصًا واحدًا، وهكذا بالنسبة إلى كل عضو فى كل إدارة منهما جمعنا عددَ مرات وُروده عبر المجلدات أو الكتب. وقد أنتج هذا لنا عددًا فى المتوسط (0,1)، استخدمناه فى حساب قوة الا تصال بين الكاتب والشخص المذكور.

نطاقُ العُقد فى رسوماتنا البيانية قِيسَ إلى عدد المرات التى ذُكِرَ فيها شخصٌ. وبالنسبة إلى رَسْمنا البيانى للشبكة الاجتماعية (رقم 33)، فهو يتوافق مع درجة التمركزية الواردة لذلك الشخص، وتُحْسَبُ بإضافة عدد كل ا لاتصالات الواردة بذلك الشخص. وهذا يمثل فى الأساس حِصّةَ تردُّدٍ عادية لكل مَن ذَكرَهم كلُّ كُتّاب إدارة البيت الأبيض. وحَسَبْنا التمركزيةَ البَيْنية باستخدام حوافٍّ مُوجّهة ومُرجحة بدلا ً من مجرد استخدام ثنائية الحافّة المُتّصِلة أو غير المُتّصِلة، كما هو الحال في معظم الدراسات.

وقد استخدمنا فى تصويراتنا المرئية حزمةً برامج ثرى دى D3، حيث تتناسب المسافةُ فى الرسوم البيانية للذات الثلاثية مع حجم العُقد. وليس لمسافة العُقد وترتيبها فى الرسم البيانى الاجتماعى (رقم 33) معنى جوهرى، وتعتمد على تخطيط مُوجّه بالقوة في برنامج ثرى دى D3. والنُسَخُ المنشورة فى هذا الكتاب هى لقطاتُ شاشةٍ لأداءات دينامية من خادم الويب web server لدينا.

ثمة خلل واحد واضح فى نَهْجِنا، ألا وهو أن كلٌ عضو فى إدارتىْ البيت الأ بيض، أثناء ولاية نيكسون وولاية فورد، لم يكتب مذكراتٍ. والإغفال الملحوظ - ملحوظ لأن آخرين ذكروه بشكل متكرر نسبيًا - هو جون ميتشل John N. Mitchell[1025] المُدّعِى العام المخلص لنيكسون. ميتشل هو المُدّعى العام الوحيد فى تاريخ الولايات المتحدة الذى حُكِمَ عليه بالسجن، وهو مصير عاناه عندما رفض الدخول فى أية صفقة مع جهات التحقيق فى فضيحة ووترجيت.

رفض ميتشل أيضًا أن يكتب مذكرات من منطلق ذلك الشعور نفسه بالولاء. ومع ذلك، التوزيع غير الخطى لمرات الذِّكْر - اللافت للنظر - يعنى أنه حتى إضافة العديد من المذكرات «المفقودة» لن يُغَيّرَ سوى القليل فى مدى تأثير الشخص من حيث درجة التمركزية أو التمركزية البَيْنية. تبدو شبكةُ نيكسون - فورد الاجتماعية، شأنها شأن عدد من الشبكات الاجتماعية الأخرى التى ناقشناها في هذا الكتاب، محكومةً بقانون السلطة.

وأخيرًا، ينبغى التأكيد على أن الرسومات البيانية الخاصة ب نيكسون - فورد، ليست تمثيلات لتردُد [تكرار] الاتصالات بين الأفراد أو كثافتها، وهو نوع من القياسات يستعمله السوسيولوجيون والسيكولوجيون لفحص رابطة اجتماعية. فرسوماتنا البيانية تسعى إلى الإمساك بأهمية وجود فرد فى مذكرات فرد آخر؛ أو على الأقل الأهمية التى أراد كاتبُ المذكرات أن ينقلها إلى القارئ. ومن الممكن أن يختلف توزيع قيم الترددُ والكثافة اختلافًا كاملا ً إذا وُجِدَ شخصٌ لديه أدلةٌ ومصادر تفصيلية كافية لبناء هذه القيم.

[1025]جون ميتشل: (1913 - 1988)، ضابط ومحامى أمريكى وعضو فى الحزب الجمهورى. تولى منصب نائب عام الولايات المتحدة من عام 1969 حتى عام 1972 فى إدارة ريتشارد نيكسون. أحد أقرب أصدقاء نيكسون الشخصيين. حُكِمَ عليه بالسجن عام 1977 بسبب عدة جرائم ارتكبها فى فضيحة ووترجيت - المترجم.

تعريف المؤلف

نِيَل فِرْجسن أكاديمى بريطانى، من مواليد جلاسكو، إسكتلندا، المملكة المتحدة، 18 أبريل 1964. يقيم حاليًا فى واشنطن الولايات المتحدة الأ مريكية.

1 - مؤرّخ بريطانى متخصص فى التاريخ الدولى، والتاريخ الاقتصادى و المالي، والتاريخ الإمبريالي البريطاني والأمريكي.

2 - أستاذ التاريخ بجامعة هارفارد، وأستاذ زائر بعدد من الجامعات، وزميل في العديد من المعاهد والمراكز البحثية.

3 - تأثر ب: نورمان ستون، تايلور، كينيث كلارك، ميلتن فريدمان، ديفيد لا ندس.

4 - من أعماله منفردًا وبالاشتراك مع آخرين:

.The Cash Nexus, 2001

.Colossus and Empire, 2004 War of the World, 2006

.The Ascent of Money, 2008

.Civilization: The West and the Rest, 2011

. 1968: The Idealist, Volume I, 2015-Kissinger: 1923

5 - حصل على العديد من الجوائز: جائزة بنيامين فرانكلين عام 2010؛ جائزة هايك عام 2012؛ جائزة لودفيج إيرهارد عام 2013؛ جائزة آرثر روس بمجلس العلاقات الخارجية عام 2016.

تعريف المترجم

حسام فتحى نايل أكاديمى مصرى، من مواليد حىّ العمرانية بمحافظة الجيزة، 3 يوليو 1972. تلقى تعليمه الثانوى بمدرسة «الأورمان الثانوية النموذجية» بحىّ الدقى، ثم الجامعى بقسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب جامعة القاهرة.

1 - ماجستير ودكتوراه الآداب فى النقد الأدبى الحديث [دراسات التفكيك]، كلية الآداب جامعة القاهرة.

2 - مدرّس النقد الأدبي بالمعهد العالي للنقد الفني، أكاديمية الفنون بالقاهرة.

3 - خبير مجمع اللغة العربية بالقاهرة، لجنة الأدب.

4 - عضو التحرير ب«ألف - مجلة البلاغة المقارنة»، الصادرة عن الجامعة الأ مريكية بالقاهرة.

5 - من أعماله فى التأليف: (دروس التفكيك: الإنسان والعدمية فى الأدب المعاصر - دار التنوير بيروت القاهرة تونس، الطبعة المُحَدّثة 2014).

6 - من أعماله فى ترجمة التفكيك: (أيان ألموند، التصوف والتفكيك: درس مقارن بين ابن عربى ودريدا - المركز القومى للترجمة بالقاهرة، طبعة أولى 2011)، و(تيموثى كلارك، المعتمد الأدبى فى التفكيك: هيدجر، بلانشو، دريدا - المركز القومى للترجمة بالقاهرة، طبعة أولى 2011)، و(جون إليس، ضد التفكيك - المركز القومى للترجمة بالقاهرة، طبعة أولى 2012)، و(جاك دريدا، بول دى مان، وآخرون: مداخل إلى التفكيك «البلاغة المعاصرة»، تحرير وترجمة - الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، الطبعة المصرية الأولى الكاملة والمنقحة 2013).

7 - من أعماله فى ترجمة العلوم الاجتماعية والسياسية: (كارل بوبر، المجتمع المفتوح وأعداؤه / 2 / هيجل وماركس - دار التنوير بيروت القاهرة تونس، طبعة أولى 2015)، و(شارك فى تحرير طبعة مزيدة ومنقحة لكتاب جان جاك روسو «العقد الاجتماعى أو مبادئ الحقوق السياسية»، ترجمة عادل زُعيتر، بترجمة مقالين شارحين فى أول الكتاب وهوامش شارحة أسفل متن الترجمة - دار التنوير بيروت القاهرة تونس، 2015)، و(صمويل هنتنجتون، النظام السياسى فى مجتمعات متغيرة، تصدير فوكوياما - ترجمة كاملة مزوّدة بإيضاحات، دار التنوير بيروت القاهرة تونس، الطبعة الأولى 2017)، و (سايمون تورمى، نهاية السياسة التمثيلية - المركز القومى للترجمة بالقاهرة،

الطبعة الأولى 2019).

8 - من أعماله فى ترجمة التأمّل الفلسفى والنقد الثقافى: (إلين سكارى، جسد متألم: صنع العالم وتفكيكه، المركز القومى للترجمة بالقاهرة، طبعة أولى 2018).

9 - حائز على جائزة الدولة التشجيعية فى الدراسات الإنسانية عام 2014 عن ترجمته كتاب (جون إليس: ضد التفكيك)؛ وعلى جائزة الشارقة للإبداع العربى (الإصدار الأول) الدورة السادسة 2003/2002، الجائزة الأولى فى مجال القصة عن مجموعته القصصية «مدارات عمياء».

10 - عضو الجمعية المصرية للمأثورات الشعبية.

11 - عضو اتحاد الكُتّاب المصري.

الفهرس

Contents

[1] Agethen, *Geheimbund und Utopie*, 72.
[2] Markner, Neugebauer-Wölk and Schüttler (eds.), *Korrespondenz des Illuminatenordens*, xxi.
[3] Van Dülmen, *Society of the Enlightenment*, 110f. Krueger, *Czech, German and Noble*, 65.
[4] Markner, Neugebauer-Wölk and Schüttler (eds.), *Korrespondenz des Illuminatenordens*, xiv.
[5] Over 2,000 according to some sources, e.g. Krueger, *Czech, German and Noble*, 65. In fact, only 1,343 names of Illuminati are known for sure: see the list at https://projekte.uni-erfurt.de/illuminaten/Mitglieder_des_Illuminatenordens and Schüttler, *Mitglieder des Illuminatenordens*.
[6] Van Dülmen, *Society of the Enlightenment*, 105f.
[7] More details of aristocratic membership in Melanson, *Perfectibilists*.
[8] Agethen, *Geheimbund und Utopie*, 76.
[9] Ibid., 234f.
[10] Israel, *Democratic Enlightenment*, 748ff. On Bode's important contribution, not least as a record-keeper, see Simons and Meumann, ' "Mein Amt ist geheime gewissens Correspondenz und unsere Brüder zu führen" '.
[11] Israel, *Democratic Enlightenment*, 751.
[12] Ibid., 300f.
[13] Ibid., 842; Krueger, *Czech, German and Noble*, 66.
[14] See Hofman, 'Opinion, Illusion and the Illusion of Opinion'.
[15]. See e.g. Payson, *Proofs of the Real Existence*.
[16] Hofstadter, *Paranoid Style*.
[17] McArthur, ' "They're Out to Get Us" ', 39.
[18] Massimo Introvigne, '*Angels & Demons* from the Book to the Movie FAQ – Do the Illuminati Really Exist?', http://www.cesnur.org/2005/mi_illuminati_en.htm.
[19] http://illuminati-order.com/; http://illuminati-order.org/newworldorder/.
[20] Robert Howard, 'United States Presidents and The Illuminati/Masonic Power Structure', 28 September 2001: http://www.webcitation.org/5w4mwTZLG.
[21] See e.g. http://theantichristidentity.com/barack-obama-illuminati.htm.
[22] Wes Penre, 'The Secret Order of the Illuminati (A Brief History of the Shadow Government)', 12 November 1998 (updated 26 September 2009).
[23] See e.g. Oliver and Wood, 'Conspiracy Theories'.
[24] Ibid., 959.
[25] Ibid., 956.
[26] Ibid.
[27] See e.g. https://www.infowars.com/george-soros-illuminati-behind-blm/.

[28] Oliver and Wood, 'Conspiracy Theories', 964.
[29] Knight, 'Outrageous Conspiracy Theories', 166.
[30] Swami et al., 'Conspiracist Ideation in Britain and Austria'.
[31] Livers, 'The Tower or the Labyrinth'.
[32] Landes, 'The Jews as Contested Ground'.
[33] Massimo Introvigne, '*Angels & Demons* from the Book to the Movie FAQ – Do the Illuminati Really Exist?' http://www.cesnur.org/2005/mi_illuminati_en.htm.
[34] Markner, Neugebauer-Wölk and Schüttler (eds.), *Korrespondenz des Illuminatenordens*; Wäges and Markner (eds.), *Secret School of Wisdom*.
[35] Roberts, *Mythology of the Secret Societies*, vii.

[36] Margit Feher, 'Probe into Deaths of Migrants in Hungary Uncovers "Vast Network"', *Wall Street Journal*, 12 October 2016.
[37] Herminia Ibarra and Mark Lee Hunter, 'How Leaders Create and Use Networks', *Harvard Business Review*, January 2007.
[38] Athena Vongalis-Macrow, 'Assess the Value of Your Networks', *Harvard Business Review*, 29 June 2012.
[39] Lauren H. Cohen and Christopher J. Malloy, 'The Power of Alumni Networks', *Harvard Business Review*, October 2010.
[40] Andrew Ross Sorkin, 'Knowledge is Money, But the Peril is Obvious', *The New York Times*, 26 November 2012. See Enrich, *Spider Network*.
[41] See Andrew Haldane, 'On Tackling the Credit Cycle and Too Big to Fail', January 2011: http://www.iiea.com/event/download_powerpoint?urlKey=andrew-haldane-on-fixingfinance.
[42] Navidi, *Superhubs*, esp. xxiv, 83f., 84f., 95, 124f.
[43] https://www.youtube.com/watch?v=vST61W4bGm8.
[44] 'Assessing Russian Activities and Intentions in Recent US Elections', 6 January 2016: http://apps.washingtonpost.com/g/page/politics/the-intelligence-community-report-on-russian-activities-in-the-2016-election/2153/.
[45] Donald J. Trump, speech on 15 August 2016: https://assets.donaldjtrump.com/Radical_Islam_Speech.pdf; speech at AIPAC, 21 March 2016: http://time.com/4267058/donald-trump-aipac-speech-transcript/.
[46] Ito and Howe, *Whiplash*.
[47] Ramo, *Seventh Sense*, 92.
[48] Adrienne Lafrance, 'The Age of Entanglement', *The Atlantic*, 8 August 2016.
[49] Khanna, *Connectography*.
[50] Castells, *Rise of the Network Society*, 508.

[51] Friedland, 'Electronic Democracy'. See also Boeder, 'Habermas's Heritage'.
[52] Schmidt and Cohen, *New Digital Age*,7.
[53] Grewal, *Network Power*,294.
[54] Anne-Marie Slaughter, 'How to Succeed in the Networked World', *Foreign Affairs*, (November/December 2016), 76.
[55] Slaughter, *Chessboard and the Web*, KL 2893–4.
[56] Khanna, *Connectography*,139.
[57] See Kissinger, *World Order*,347.
[58] Martin Belam, 'We're Living Through the First World Cyberwar—But Just Haven't Called It That' , *Guardian*,30 December 2016.
[59] Harari, *Homo Deus* ,344 ,395.
[60] Harari, *Sapiens*, KL 6475.
[61] See e.g. Vinod Khosla, 'Is Majoring in Liberal Arts a Mistake for Students?' *Medium*,10 February 2016: https://medium.com/@vkhosla/is-majoring-in-liberal-arts-a-mistake-for-students-fd9d20c8532e.

[62]. West, *Scale*. See also Strogatz, 'Exploring Complex Networks'.
[63] Watts, 'Networks, Dynamics, and the Small-World Phenomenon', 515.
[64] West, 'Can There be a Quantitative Theory', 211f.
[65] Caldarelli and Catanzaro, *Networks* ,23f.
[66] Dittrich, *Patient H.M.*
[67] Christakis and Fowler, *Connected*,97.
[68] Vera and Schupp, 'Network Analysis', 418f.
[69]. Jackson, 'Networks in the Understanding of Economic Behaviors', 8.
Liu, King and Bearman, 'Social Influence'.[70]
[71] Henrich, *Secret of Our Success* ,5.
[72] Dunbar, 'Coevolution of Neocortical Size'.
[73] Christakis and Fowler, *Connected*,239.
[74] Tomasello, 'Two Key Steps'.
[75] Massey, 'Brief History', 3–6.
[76] McNeill and McNeill, *Human Web*,319–21.
[77] Jackson, Rodriguez-Barraquer and Tan, 'Social Capital and Social Quilts'.
[78] Banerjee et al., 'Gossip'.
[79] https://www.youtube.com/watch?v=nLykrziXGyg.
[80] See e.g. *Othello*, II, 3, and III, 4; *All's Well That Ends Well*, IV, 3.
[81] *Oxford English Dictionary.*
[82]See http://www.nggprojectucd.ie/phineas-finn/.

[83] Massey, 'Brief History', 14.
[84] Laura Spinney, 'Lethal Weapons and the Evolution of Civilisation', *New*

Scientist ,2886) 2012 ,(46– 9.
[85] Dubreuil, *Human Evolution* ,178 ,186 ,202.
[86] Turchin et al., 'War, Space, and the Evolution of old World Complex Societies'.
[87] Gorky, *My Universities* ,69.
[88] See most recently Acemoglu and Robinson, *Why Nations Fail*.
[89] Boisot, *Information Space* and *Knowledge Assets*.
[90] Powell, 'Neither Market nor Hierarchy', 271f.
[91] Rhodes, 'New Governance'.
[92] Thompson, *Between Hierarchies and Markets*.
[93] Boisot and Lu, 'Competing and Collaborating in Networks'.

[94] Caldarelli and Catanzaro, *Networks* ,9.
[95] See Heidler et al., 'Relationship Patterns'.
[96] Moreno, *Who Shall Survive?* xiii, lxvi.
[97] Crane, 'Social Structure in a Group of Scientists'.
[98] James E. Rauch, review of Jackson, *Social and Economic Networks*, **in** *Journal of Economic Literature* ,48 ,4 (December 2010), 981.
[99] Leskovec, Huttenlocher, and Kleinberg, 'Signed Networks in Social Media'.
[100] McPherson et al., 'Birds of a Feather', 419.
[101] Currarini et al., 'Identifying the Roles of Race-Based Choice and Chance'. See also Moody, 'Race, School Integration, and Friendship Segregation'.
[102] Vera and Schupp, 'Network Analysis', 409.
[103] Milgram, 'Small-World Problem'.
[104] Watts, *Six Degrees* ,134. See also Schnettler, 'Structured Overview'.
[105] Barabási, *Linked,* 29.
[106] Jennifer Schuessler, 'How Six Degrees Became a Forever Meme', *The New York Times* ,19 April 2017.
[107] Jackson, Rogers and Zenou, 'Connections in the Modern World'.
[108] Davis, Yoo and Baker, 'The Small World of the American Corporate Elite'.
[109] Lars Backstrom, Paolo Boldi, Marco Rosa, Johan Ugander, and Sebastiano Vigna, 'Four Degrees of Separation', 22 June 2012: https://research.fb.com/publications/four-degrees-of-separation/.
[110] Smriti Bhagat, Moira Burke, Carlos Diuk, Ismail Onur Filiz, and Sergey Edunov, 'Three and a Half Degrees of Separation', 4 February 2016: https://research.fb.com/three-and-a-half-degrees-of-separation/
[111] Granovetter, 'Strength of Weak Ties'.
[112] Granovetter, 'Strength of Weak Ties Revisited', 202.
[113] See also Tutic and Wiese, 'Reconstructing Granovetter's Network Theory'. Recent research using Facebook data largely confirms Granovetter's thesis: Laura K. Gee, Jason Jones and Moira Burke, 'Social Networks and Labor

Markets: How Strong Ties Relate to Job Finding on Facebook's Social Network', 13 January 2016: https://research.fb.com/publications/social-networks-and-labor-markets-how-strong-ties-relate-to-job-transmission-on-facebooks-social-network/.
[114] Liu, King, and Bearman, 'Social Influence'.
[115] Watts and Strogatz, 'Collective Dynamics of "Small-World" Networks'.
[116] Watts, 'Networks, Dynamics, and the Small-World Phenomenon', 522.
[117] Powell, 'Neither Market nor Hierarchy', 301, 304.
[118] Calvó-Armengol and Jackson, 'The Effects of Social Networks on Employment and Inequality'.
[119] Smith-Doerr and Powell, 'Networks and Economic Life'.
[120] Bramoullé et al., 'Homophily and Long-Run Integration'; Jackson and Rogers, 'Meeting Strangers and Friends of Friends'.
[121] Greif, 'Reputation and Coalitions in Medieval Trade' and 'Contract Enforceability and Economic Institutions'.
[122] Coleman, 'Social Capital'.
[123] Burt, *Structural Holes*, KL 46–9.
[124] Burt, *Brokerage and Closure* ,7. See also Burt, *Neighbor Networks.*
[125] Burt, 'Structural Holes and Good Ideas', 349f.
[126] Carroll and Teo, 'On the Social Networks of Managers', 433.
[127] Harrison and Carroll, 'Dynamics of Cultural Influence Networks', 18.
[128] Goldberg et al., 'Fitting In or Standing Out?' 2f.
[129] Berger, *Contagious*. See also Sampson, *Virality*.
[130] For a good discussion see Collar, *Religious Networks* ,13f.
[131] Katz and Lazarsfeld, *Personal Influence*.
[132] Hill, 'Emotions as Infectious Diseases'.
[133] Dolton, 'Identifying Social Network Effects'.
[134] Christakis and Fowler, *Connected* ,22.
[135] Kadushin, *Understanding Social Networks* ,209f.
[136] Nahon and Hemsley, *Going Viral.*
[137] Centola and Macy, 'Complex Contagions'.
[138] Watts, *Six Degrees* ,249.
[139] Rosen, 'The Economics of Superstars'.
[140] Barabási and Albert, 'Emergence of Scaling in Random Networks'.
[141] Barabási, *Linked* ,33–4 ,66 ,68f., 204.
[142] Ibid., 221.
Ibid., 103, 221.[143]
[144] Dolton, 'Identifying Social Network Effects'.
[145] Strogatz, 'Exploring Complex Networks'.
[146] Cassill and Watkins, 'Evolution of Cooperative Hierarchies', 41.

[147] Ferguson, 'Complexity and Collapse'.
[148] Padgett and McLean, 'Organizational Invention and Elite Transformation'.
[149] Padgett and Powell, *Emergence of Organizations and Markets*, KL 517f.
[150] Loreto et al., 'Dynamics and Expanding Spaces'.
[151] Barabási, *Linked*, 113–18.
[152] Ibid., 135.
[153] Castells, 'Information Technology, Globalization and Social Development', 6.
[154] Mayer and Sinai, 'Network Effects, Congestion Externalities'.
[155] Amy Zegart, 'Cyberwar', TEDxStanford: https://www.youtube.com/watch?v=JSWPoeBLFyQ.
[156] Michael McFaul and Amy Zegart, 'America Needs to Play Both the Short and Long Game in Cybersecurity', *Washington Post*, 19 December 2016.
[157] See e.g. Heylighen, 'From Human Computation to the Global Brain' and 'Global Superorganism'.
[158] See e.g. Bostrom, *Superintelligence*.
[159] Slaughter, 'How to Succeed in the Networked World', 84f.; Slaughter, *The Chessboard and the Web,* KL 2642–3, 2738.
[160] Allison, 'Impact of Globalization'.
[161] Ramo, *Seventh Sense*, 82, 118, 122.
See e.g. Tomlin, *Cloud Coffee House*.[162]
[163] Fukuyama, *Great Disruption*, 224. See also Fukuyama, *Origins of Political Order*, 13f., and *Political Order and Political Decay*, 35f.
[164] Dominic Cummings, 'Complexity, "Fog and Moonlight", Prediction, and Politics II: Controlled Skids and Immune Systems', blog post, 10 September 2014: https://dominiccummings.wordpress.com/2014/09/10/complexity-fog-and-moonlight-prediction-and-politics-ii-controlled-skids-and-immune-systems/.
[165] On eigenvector centrality, see Cline and Cline, 'Text Messages, Tablets, and Social Networks', 30f.
[166] Bennett, *History Boys*.
[167] Agethen, *Geheimbund und Utopie*, 70f.; Israel, *Democratic Enlightenment*, 828f. Cf. Stauffer, *New England and the Bavarian Illuminati*, 142–228.
Wäges and Markner (eds.), *Secret School of Wisdom*, 14.[168]
[169] Ibid., 15.
[170] Van Dülmen, *Society of the Enlightenment*, 55f.
[171] See Schüttler, 'Zwei freimaurerische Geheimgesellschaften'. This ferment culminated in 1782 at the *Konvent* of German lodges held in Wilhelmsbad.
[172] Hataley, 'In Search of the Illuminati'.
[173] Israel, *Democratic Enlightenment*, 836.
[174] Van Dülmen, *Society of the Enlightenment*, 106ff.
[175] Markner, Neugebauer-Wölk and Schüttler (eds.), *Korrespondenz des*

Illuminatenordens, xxiii.
[176] Hataley, 'In Search of the Illuminati'. See also Markner, Neugebauer-Wölk and Schüttler (eds.), *Korrespondenz des Illuminatenordens*, xix.
[177] Details of the 'New Plan for the Order' of Dec. 1782 are in Agethen, *Geheimbund und Utopie* ,75f. Cf. Wäges and Markner (eds.), *Secret School of Wisdom*, passim, and https://projekte.uni-erfurt.de/illuminaten/Grade_und_Instruktionen_des_Illuminatenordens.
[178] Wäges and Markner (eds.), *Secret School of Wisdom* ,13.
[179] Agethen, *Geheimbund und Utopie* ,112f.
[180] Simons and Meumann, ' "Mein Amt ist geheime gewissens Correspondenz und unsere Brüder zu führen" '.
[181] Wäges and Markner (eds.), *Secret School of Wisdom* ,31ff.
[182] Israel, *Democratic Enlightenment* ,831f.
[183] Ibid., 841.
Agethen, *Geheimbund und Utopie* ,82.[184]
[185] Meumann and Simons, 'Illuminati', col. 881.
[186] Melanson, *Perfectibilists*, KL 913.
[187] Simons and Meumann, ' "Mein Amt ist geheime gewissens Correspondenz und unsere Brüder zu führen" '.
Cassill and Watkins, 'Evolution of Cooperative Hierarchies'.[188]
[189] Tomasello, 'Two Key Steps'.
[190] Smail, *Deep History*.
[191] McNeill and McNeill, *Human Web*.
[192] Dubreuil, *Human Evolution* ,191.
[193] Turchin at al., 'War, Space, and the Evolution of old World Complex Societies'.
[194] Spinney, 'Lethal Weapons and the Evolution of Civilisation'.
[195] Gellner, *Nations and Nationalism* ,10. See Ishiguro, *Buried Giant*.
[196] Cline and Cline, 'Text Messages, Tablets, and Social Networks', 29.
[197] Cline, 'Six Degrees of Alexander', 68f.
[198] Tainter, 'Problem Solving', 12.
[199] Allen and Heldring, 'Collapse of the World's Oldest Civilization'.
[200] Malkin, *Small Greek World*.
[201] Syme, *Roman Revolution* ,4 ,7f.
[202] Frankopan, *Silk Roads*, KL 118.
[203] Christian, 'Silk Roads or Steppe Roads?'
[204] Scheidel, 'From the "Great Convergence" to the "First Great Divergence" '
[205]Stark, 'Epidemics, Networks, and the Rise of Christianity'.
[206] Harland, 'Connections with Elites in the World of the Early Christians', 391.
[207] Collar, *Religious Networks*.
[208] Fukuyama, *Origins of Political Order* ,273.

[209] Ibid., 141–5
[210] Ibid., 141–5
[211] Jackson, Rogers and Zenou, 'Connections in the Modern World'.
[212] Barnett, (ed.), *Encyclopedia of Social Networks*, vol. I, 124.
[213] For more on this subject, see Ferguson, *Civilization*.
[214] Padgett and Ansell, 'Robust Action and the Rise of the Medici'.
[215] Padgett, 'Marriage and Elite Structure in Renaissance Florence', 92f.
[216] Padgett and McLean, 'Organizational Invention and Elite Transformation', 1463 ,1467 ,1545.
[217] Ibid., 1545. See also Padgett and Powell, *Emergence of Organizations and Markets* ,810–14 ,855–60 ,861–7.
[218] Cotrugli, *Book of the Art of Trade* ,3f.
[219] Ibid., 24.
[220] Ibid., 24.
[221] Ibid., 5.
[222] Ibid., 6.
[223] Ibid., 57.
[224] Ibid., 7.
[225] Ibid., 7
[226]Rodrigues and Devezas, *Pioneers of Globalization*.
[227] Chang, *Sino-Portuguese Trade* ,62
[228] Wills (ed.), *China and Maritime Europe* ,336
[229] Wade, 'Melaka in Ming Dynasty Texts', 34.
[230] Sen, 'Formation of Chinese Maritime Networks'.
[231] Wade, 'Melaka in Ming Dynasty Texts', 51.
[232] Wills (ed.), *China and Maritime Europe* ,39
[233] Smith, 'Networks, Territories, and the Cartography of Ancient States', 839f., 845.
[234] Garcia-Zamor, 'Administrative Practices', 152–64. See also Heady, *Public Administration* ,163f.
[235] Fukuyama, *Political Order and Political Decay* ,249–51.
[236] Burbank and Cooper, *Empires in World History* ,163–6.
[237] Morrissey, 'Archives of Connection'.
[238] Barnett (ed.), *Encyclopedia of Social Networks*, vol. II, 703f.
[239] Katarzyna et al., 'Genome-Wide Patterns of Population Structure'.
[240] Zuñiga, Jean-Paul, 'Visible Signs of Belonging'.
[241] Dittmar, 'Information Technology and Economic Change'
[242] Naughton, *From Gutenberg to Zuckerberg* ,15–21
[243] Pettegree, *Brand Luther* ,334.
[244] Dittmar and Seabold, 'Media, Markets, and Radical Ideas'

[245]Elizabeth Eisenstein, quoted in Gleick, *The Information*,399
[246] Ahnert and Ahnert, 'Protestant Letter Networks in the Reign of Mary I', 6.
[247] Ibid., 27f.
[248] Ahnert and Ahnert 'Metadata, Surveillance, and the Tudor State'
[249]For a new and comprehensive account, see Eire, *Reformations*.
[250] Adamson, *Noble Revolt*.
[251]Owen, *Clash of Ideas in World Politics*,34f.
[252] Owen, *Clash of Ideas in World Politics*,34f.
[253] Cantoni, Dittmat and Yuchtman, 'Reformation and Reallocation'.
[254] Dittmar, 'Welfare Impact of a New Good'.
Dittmar, 'Ideas, Technology and Economic Change'.[255]
Dittmar, 'Welfare Impact of a New Good'.[256]
[257] Taylor et al., 'Geohistorical Study of "the Rise of Modern Science" '.
[258] Hatch, 'Between Erudition and Science', 51, 55.
[259] Ibid., 55.
[260] Edelstein et al., 'Historical Research in a Digital Age', 411–13.
[261] Lux and Cook, 'Closed Circles or Open Networks?'
[262] From the 1661 Royal Charter:
http://royalsociety.org/uploadedFiles/Royal_Society_Content/about-us/history/Charter1_English.pdf
[263] Rusnock, 'Correspondence Networks', 164.
[264] Lux and Cook, 'Closed Circles or Open Networks?' 196f.
[265] Carneiro et al., 'Enlightenment Science in Portugal'.
[266] Lamikiz, *Trade and Trust*,152.
[267] See Gestrich and Beerbühl (eds.), *Cosmopolitan Networks*, and Caracausi and Jeggle (eds.), *Commercial Networks*.
[268] Hancock, 'Trouble with Networks', 486–8.
[269] Ibid., 489.
[270] Erikson and Bearman, 'Malfeasance and the Foundations for Global Trade'.
[271] Erikson, *Between Monopoly and Free Trade,* figure 5.
[272] Erikson and Bearman, 'Malfeasance and the Foundations for Global Trade', 219.
[273] Erikson, *Between Monopoly and Free Trade,* 19.
[274] Ibid., 26.
Erikson and Bearman, 'Malfeasance and the Foundations for Global Trade', 226f.[275]
[276] Rothschild, *Inner Life of Empires*.
[277] Ibid. See also http://www.fas.harvard.edu/~histecon/innerlife/index.html
[278] http://www.fas.harvard.edu/~histecon/innerlife/geography.html.
[279] Edelstein et al., 'Historical Research in a Digital Age', 405.

[280] Comsa et al., 'French Enlightenment Network', 498.
[281] Ibid., 502.
[282] Ibid., 507.
[283] Ibid., 511.
[284] Ibid., 513.
[285] Goodman, 'Enlightenment Salons'. See also Goodman, *Republic of Letters* and (for a somewhat different view) Lilti, *World of the Salons*.
[286] Comsa et al., 'French Enlightenment Network', 530.
[287] Danskin, ' "Hotbed of Genius" ', 11.
[288] Arcenas and Winterer, 'Correspondence Network of Benjamin Franklin'.
[289] Winterer, 'Where is America in the Republic of Letters?
[290] Starr, *Creation of the Media*.
[291] Fischer, *Paul Revere's Ride*, KL 102–4.
[292] Ibid., KL 128–33.
[293] Gladwell, *Tipping Point* ,32 ,35.
[294] Ibid., 56f.
[295] Ibid., 59f.
[296] Wood, *American Revolution*, KL 568–9.
[297] Middlekauff, *Glorious Cause*, KL 4437–45. See also Borneman, *American Spring*, KL 439–51.
[298] Borneman, *American Spring*, KL 81–96.
[299] Ibid., KL 1707–14.
[300] Ibid., KL 1930–39.
[301] Middlekauff, *Glorious Cause*, KL 4800–4824.
[302] Ibid., KL 4825–31.
[303] Borneman, *American Spring*, KL 2096–2138.
[304] Ibid., KL 2175–81.
[305] Han, 'Other Ride of Paul Revere'.
[306] York, 'Freemasons', 315.
[307] Morse, *Freemasonry and the American Revolution* ,23 ,37 ,41 ,46 ,50 ,52 ,62, 64f

Bailyn, *Ideological Origins* [308]

[309] York, 'Freemasons', 318.
[310] Ibid., 325.
[311] Clark, *Language of Liberty*
[312] York, 'Freemasons', 320.
[313] Ibid., 320.
[314] Ibid., 328
[315] Hackett, *That Religion* ,198f.
[316] York, 'Freemasons', 323.

---

[317] Hodapp, *Solomon's Builders* ,66f.
[318] I am grateful to Joe Wäges for providing me with the relevant pages of the minute book for 30 November and 16 December 1773. The earlier meeting was adjourned 'on account of the few Brethren present (NB; Consignees of Tea took up the Brethren's Time)'. A contemporaneous drawing of the Green Dragon bears an inscription that reads: 'Where we met to Plan the Consignment of a few Shiploads of Tea. Dec. 16, 1773.' It is signed 'John Johnson, 4 Water Street, Boston'.
[319] York, 'Freemasons', 326.
[320] Hackett, *That Religion* ,198f.
[321] Bullock, *Revolutionary Brotherhood* ,106f.
[322] Ibid., 112f.
[323] Ibid., 152f.
[324] Ibid., 156
[325]Ibid., 301.
[326] Alexander Immekus, 'Freemasonry', http://www.mountvernon.org/digital-encyclopedia/article/freemasonry/.
[327] Patterson and Dougall, *Eagle and Shield.*
[328] Hamilton, *Complete Works*, KL 84174–8.
[329] Ibid., KL 35483–7.
[330]Ibid., Book I, chapter 12
[331] Ibid., Book II, chapter 5.

[332] Stendhal, *The Red and the Black*, KL 4034, 7742–3, 8343–5.
[333]. Tackett, 'La grande peur'.
[334] Lefebvre, *Great Fear* ,207ff.
[335] See in general Andress (ed.), *Oxford Handbook of the French Revolution.*
[336] Roberts, *Napoleon*, KL 1586–91, 2060–65.
[337] Ibid., KL 9658–84.
[338] Ibid., KL 9645–8.
[339] Ibid., KL 9651–7.
[340] Ibid., KL 9505–10.
[341] Ibid., KL 10215–19.
[342] Ibid., KL 9658–84.
[343] Ibid., KL 6981–7, 7015–21, 9239–48.
[344] Shy, 'Jomini'.
[345] Clausewitz, *On War*, Book 8, ch. 6B.
[346] Ranke, 'Great Powers'.
[347] Kissinger, *World Restored*, KL 102–19.
[348] Ibid., KL 702–8. For a thorough discussion of Castlereagh's suicide, see Bew,

Castlereagh, ch. 21
[349]Kissinger, *World Restored*, KL 1606–8.
[350]Ibid., KL 5377–8, 5389.
[351] Ibid., KL 5396–9.
[352] Ibid., KL 6398–6400.
[353] Ibid., 179
[354] Ibid., 80, 82
[355]. Schroeder, *Transformation*, vii
[356]. Slantchev, 'Territory and Commitment'.
[357] Clark, *Hegemony in International Society*.
[358] Holsti, 'Governance Without Government', 156.
[359] Clark, *Hegemony in International Society*,94–6.
[360] Holsti, 'Governance Without Government', 152ff.
[361] Ibid., 155f.
[362] Ibid., 157.
[363] Ibid., 164. See also Levy, *War in the Modern Great Power System*, table 4.1.
[364] Hinsley, *Power and the Pursuit of Peace*,214n.
[365] Leopold to Victoria, 15 December 1843, in Benson and Esher (eds.), *Letters of Queen Victoria*, vol. I, 511.
[366] *The Times*,16 March 1863.
[367]. Nicholas, diary, 18 June 1893, in Maylunas and Mironenko, *Lifelong Passion*.
[368] See Corti, *Alexander of Battenberg*.
[369] Herbert von Bismarck, memorandum, 25 July 1888, in Dugdale (ed.) *German Diplomatic Documents*, vol. I, 365.
[370] Nicholas, diary, 12 April 1894, in Maylunas and Mironenko, *Lifelong Passion*.
[371] See Bernstein (ed.), *Willy–Nicky Correspondence.*
[372]. Royal Archives, Windsor, Geo. V., AA. 11, 2, Victoria to George [future George V], 26 June 1894.
[373] Dairnvaell, *Histoire édifiante et curieuse*,8.
[374] For details see Ferguson, *World's Banker*,166f., 207, 294, 404, 409, 411, 530.
[375] Anon., *Hebrew Talisman*,28ff.
[376]. Iliowzi, *'In the Pale'.*
[377]. Prawer, *Heine's Jewish Comedy*,331–5.
[378]. Rothschild Archive London (henceforth RAL), T20/34, XI/109/48/2/ 42, Nathan, Paris, to his brothers, 4 September, probably 1844.
[379] RAL, XI/109/2/2/149, Salomon, Paris, to Nathan, London, 21 October 1815.
[380]. RAL, XI/109/2/2/153, Salomon and James, Paris, to Nathan, London, 25 October 1815.
RAL, T63 138/2, Salomon and James, Paris, to Nathan, London, 22 October

1817.[381]
RAL, T29/181; XI/109/0/7/21, Carl, Frankfurt, to Salomon, 23 August 1814; RAL, T63/28/1, XI/109/8, Carl, Berlin, to his brothers, 4 November 1817.[382]
[383] RAL, T5/29, Braun, (James's clerk in) Paris, to James, London, 13 September 1813.
Rothschild, *Shadow of a Great Man*,135–7.[384]
Cathcart, *News from Waterloo*.[385]
Gille, *Maison Rothschild*, vol. I, 187f.[386]
Chateaubriand, *Correspondance générale*, vol. III, 663f.[387]
Quennell (ed.), *Private Letters of Princess Lieven*,237.[388]
[389] Davis, *English Rothschilds*,132f.
[390] RAL, T27/280, XI/109/7, James, Paris, to Salomon and Nathan, 18 June 1817.
Kynaston, *City*, vol. I, 54f.[391]
Corti, *Rise*,242.[392]
Serre, *Correspondance du comte de Serre*, vol. IV, 249.[393]
[394] Aspinall (ed.), *Letters of King George IV*, vol. III, 175.
[395] Corti, *Rise*,424f., 427f.
[396]. Liedtke, *N. M. Rothschild & Sons*.
Fournier-Verneuil, *Paris: Tableau moral et philosophique*,51–2 ,64f.[397]
[398] Anon., *Annual Register, 1828*,52.
Quoted in Glanz, 'Rothschild Legend in America', 20.[399]
Kynaston, *City*, vol. I, p. 90f.[400]
[401] Cowles, *The Rothschilds,* 71.
Capefigue, *Grandes opérations*, vol. III, 103.[402]
Pückler-Muskau, *Briefe*,441.[403]
Rubens, *Anglo-Jewish Portraits*, p. 299.[404]
The Times,15 January 1821.[405]
Schwemer, *Geschichte*, vol. II, 149ff.[406]
[407] Balla, *Romance*, pp. 191ff.
Schwemer, *Geschichte*, vol. II, pp. 149ff.[408]
[409] RAL, XI/82/9/1/100, Amschel, Frankfurt, to James, Paris, 30 April 1817.
[410] Byron, *Don Juan*, Canto XII, verses 4–10.
[411] Reeves, *Rothschilds*,101.
[412] Gille, *Maison Rothschild*, vol. I, 487.
[413] Buxton (ed.), *Memoirs*,354.
[414]. RAL, I/218/I, Nathan to J. A. Matti, Frankfurt, 29 December 1802.
[415] RAL, I/218/36, Nathan to Sichel & Hildesheimer, Frankfurt, 17 October 1802.
[416] Moon, *Social Networks in the History of Innovation and Invention*, KL 492–4.
[417] Pearson and Richardson, 'Business Networking in the Industrial Revolution',

659f.

[418] Lamoreaux et al., 'Beyond Markets and Hierarchies', 16.

[419] Moon, *Social Networks in the History of Innovation*, KL 498–504.

[420] The idea comes from the economic historian Anton Howes: http://antonhowes.tumblr.com/post/143173119024/how-innovation-accelerated-in-britain-1651–1851.

[421] Moon, *Social Networks in the History of Innovation*, KL 2128–37.

[422] For a network study of 1848 that focuses on petition-signers in the city of Esslingen in Württemberg, see Lipp and Krempel, 'Petitions and the Social Context of Political Mobilization', 169.

[423] Colley, *Britons*.

[424] Davis, *Inhuman Bondage*, 235.

[425]. Drescher, 'Public Opinion and Parliament', 64.

Davis, *Inhuman Bondage*, 245.[426]

[427] See the seminal work of Williams, *Capitalism and Slavery*, which is now outdated. A more compelling recent account is Ryden, 'Does Decline Make Sense?'

Williams, *Capitalism and Slavery*, 150.[428]

[429] Loewe (ed.), *Montefiore Diaries*, vol. I, 97ff.

[430] Buxton (ed.), *Memoirs*, 353ff.

[431] Dimock, 'Queen Victoria, Africa and Slavery'.

[432] The eleven were: Austria–Hungary, Belgium, France, Germany, Italy, Netherlands, Portugal, Spain, Russia, the United Kingdom and the United States. Author's calculations, based on data in the *Statesman's Yearbook*.

[433]. See in general Ferguson, *Empire*.

[434] See in general Lownie, *John Buchan*.

[435] Cannadine, 'John Buchan'.

[436] Quigley, *Anglo-American Establishment*, 3.

[437] Ibid., 49.

[438] Ibid., 4f.

[439] Cannadine, *Ornamentalism*, 124.

[440] Ferguson, *Empire*, 230.

[441] Ansell, 'Symbolic Networks'.

[442] Standage, *Victorian Internet*, 97.

[443] Gooch (ed.), *Diaries*, 26 July 1866, 143f.

[444] Ibid., 147.

[445] Spar, *Ruling the Waves*.

[446] Jackson, *Thief at the End of the World*, 170. See also Dean, *Brazil and the Struggle for Rubber*.

[447] Klaus, *Forging Capitalism*.

[448] Lester, 'Imperial Circuits and Networks'.
[449] Vera and Schupp, 'Bridges over the Atlantic'.
[450] Ingram and Lifschitz, 'Kinship in the Shadow of the Corporation'.
[451] Carnegie, 'Wealth'.
[452] See Flandreau and Jobst, 'Ties That Divide'.
[453] Tworek, 'Magic Connections'.
[454] Taylor, Hoyler and Evans, 'Geohistorical Study',
[455] Heidler et al., 'Relationship Patterns'.
[456] Brudner and White, 'Class, Property and Structural Endogmany'.
[457] Plakans and Wetherell, 'Kinship Domain in an East European Peasant Community', 371.
[458] Fontane, *Stechlin*,77.
[459] See Lipp, 'Kinship Networks'.
[460] Campbell and Lee, 'Kin Networks'.
[461] Keller, ' "Yes, Emperor" '.
[462] Kuhn, *Soulstealers*,220.
[463] Ter Haar, *White Lotus Teachings*, esp. 239f.
[464] Kuhn, *Soulstealers*,228f.
[465] Duara, *Culture, Power and the State*.
[466] Platt, *Autumn in the Heavenly Kingdom*,43.
[467] Taylor, *Five Years in China*. See also Cooke, *China*,106–8.
[468] McKeown, 'Chinese Emigration', table 1, 156.
[469] United States Congress, *Report of the Joint Special Committee*, iv–viii.
[470] Gibson, *Chinese in America*,281–373.
[471] Bryce, 'Kearneyism', vol. II, pp. 385–406.
[472] See Lee, *At America's Gates*, ch. 1.
[473] Moretti, 'Social Networks and Migrations'.
[474]Lee, *At America's Gates*,25.
[475] Oxford and Asquith, *Memories and Reflections*,213f.
[476] Quigley, *Anglo-American Establishment*,3.
[477] Ferguson, *World's Banker*, ch. 27.
[478] Quigley, *Anglo-American Establishment*, ch. 4.
[479] May, 'Milner's Kindergarten'.
[480] Ibid.
[481] Nimocks, *Milner's Young Men*,44.
[482] Ibid., 18.
[483] Ibid., 19.
[484] Ibid., 20.
[485] Magubane, *Making of a Racist State*,300f.
[486] Louw, *Rise, Fall, and Legacy of Apartheid*,15.

[487] Quigley, *Anglo-American Establishment*, ch. 4.
[488] Louw, *Rise, Fall, and Legacy of Apartheid*, 10.
[489] Darwin, *Empire Project*, 217–54.
[490] Marks and Trapido, 'Lord Milner and the South African State', 73.
[491] Ibid., 69–71.
[492] Louw, *Rise, Fall, and Legacy of Apartheid*, 12.
[493] Nimocks, *Milner's Young Men*, viii–ix.
[494] Levy, *Moore*, 65–122.
[495] Allen, *Cambridge Apostles*, 86.
[496] Levy, *Moore*, 22–5.
[497] Skidelsky, *Keynes*, vol. I, 118.
[498] Ibid., 240.
[499] Lubenow, *Cambridge Apostles*, 69; Allen, *Cambridge Apostles*, 21.
[500] Allen, *Cambridge Apostles*, 1.
[501] Lubenow, *Cambridge Apostles*, 148. See table 3.1.
[502] Ibid., 176.
[503] Ibid., 190f.
[504] Allen, *Cambridge Apostles*, 20.
[505] Levy, *Moore*, 7.
[506] Ibid., 296.
[507] Skidelsky, *Keynes*, vol. I, 115.
[508] Ibid., 127f., 235.
[509] Hale (ed.), *Friends and Apostles*.
[510] Skidelsky, *Keynes*, I, 116.
[511] Ibid., 134f.
[512] Ibid., vol. I, 181.
[513] Ibid., vol. I, 142f.
[514] Forster, *What I Believe*.
[515] Skidelsky, *Keynes*, vol. I, 239f.
[516] McGuinness, *Wittgenstein*, 95f., 118, 146–50.
[517] Hale (ed.), *Friends and Apostles*, 284.
[518] Skidelsky, *Keynes*, vol. I, 319.
[519] Lubenow, *Cambridge Apostles*, 194.
[520] Skidelsky, *Keynes*, vol. I, 324.
[521] Ibid., 243f., 247.
[522] Dolton, 'Identifying Social Network Effects'.
[523] Ibid.
[524] Forster, *Howard's End*, 214.
[525] For more detail see Offer, *First World War*.
[526] For a compelling recent account, see Clark, *Sleepwalkers*.

[527] Schroeder, 'Economic Integration and the European International System'.
[528] Kissinger, *World Order*,78.
[529] Ibid., 233.
[530] Ibid., 80, 82.
Thompson, 'Streetcar Named Sarajevo', 470[531]
Antal, Krapivsky and Redner, 'Social Balance on Networks', 135[532]
[533] Gartzke and Lupu, 'Trading on Preconceptions'.
[534] Vasquez and Rundlett, 'Alliances as a Necessary Condition of Multiparty Wars', 15.
[535] Maoz, *Networks of Nations,* 38f.
[536] Lebow, 'Contingency, Catalysts and Non-Linear Change', 106f.
[537] Trachtenberg, 'New Light on 1914?'
[538] Schroeder, 'Necessary Conditions', 183., 191f.
[539] Lichnowsky to Foreign Office, 29 July 1914, quoted in Trachtenberg, 'New Light on 1914?'
[540] Grey to Goschen, 31 July 1914, quoted in Trachtenberg, 'New Light on 1914?'
[541] Karl Kraus, *Die Fackel*, vol. 22 (1920), 23.
[542] Buchan, *Greenmantle*, KL 118– 37.
[543] Chi et al., 'Spatial Diffusion of War', 64f.
[544] See in general Hopkirk, *Like Hidden Fire*.
[545] Al-Rawi, 'Buchan the Orientalist'.
[546] Keller, 'How to Spot a Successful Revolution in Advance'.
[547] McMeekin, *Berlin– Baghdad Express* ,15– 16f.
[548] Habermas, 'Debates in Islam', 234– 5.
[549] Berghahn, *Germany and the Approach of War*,138ff.
[550] McMurray, *Distant Ties*, KL 1808– 21.
[551] Landau, *Pan-Islam*,94– 8.
[552] Geiss, *July 1914*, doc. 135.
Motadel, *Islam and Nazi Germany's War*,19f[553]
McMurray, *Distant Ties*, KL 1826– 38[554]
[555] Ibid., KL 1850– 56.
[556] Rogan, *Fall of the Ottomans* ,40f.
[557] Rogan, 'Rival Jihads', 3f.
[558] McMeekin, *Berlin– Baghdad Express* ,87
[559] Ibid., 376, n.8.
[560] Ibid., 124.
[561] 'The Ottoman Sultan's Fetva: Declaration of Holy War', 15 November 1914 in Charles F. Horne (ed.), *Source Records of the Great War,* vol. III (New York: National Alumni, 1923): http://www.firstworldwar.com/source/ottoman_fetva.htm.

[562] Motadel, *Islam and Nazi Germany's War*,19.
[563] McMeekin, *Berlin– Baghdad Express* ,125.
[564] Schwanitz, 'Bellicose Birth', 186– 7.
[565] Motadel, *Islam and Nazi Germany's War*,21– 5.
[566] McMeekin, *Berlin– Baghdad Express* ,135. See also Morgenthau, *Secrets of the Bosphorus* ,110.
[567] Landau, *Pan-Islam*,98; Zürcher, *Jihad and Islam in World War I*,83.
[568]. McKale, 'British Anxiety'.
[569] Al-Rawi, 'John Buchan's British-Designed Jihad'.
[570] McKale, 'British Anxiety'.
[571] Motadel, *Islam and Nazi Germany's War*,21– 5.
[572] Gussone, 'Die Moschee im Wünsdorfer "Halbmondlager" '.
[573] Fogarty, 'Islam in the French Army', 25f.
[574] Trumpener, *Germany and the Ottoman Empire* ,117f.
[575] McMeekin, *Berlin– Baghdad Express* ,283.
[576] Zürcher, 'Introduction', 24. See also Aksakal, ' "Holy War Made in Germany?" ' and 'Ottoman Proclamation of Jihad'.
[577] Rutledge, *Enemy on the Euphrates* ,33– 7.
[578] McKale, 'Germany and the Arab Question', 249f., n.13.
[579] Ibid., 238f.
[580] Al-Rawi, 'John Buchan's British-Designed Jihad'.
[581] Schwanitz, 'Bellicose Birth', 195f.
[582] Fogarty, 'Islam in the French Army', 31– 3.
[583] Ahmad, 'Great War and Afghanistan's Neutrality', 203– 12.
[584] Rogan, 'Rival Jihads', 6– 7.
[585] Darwin, *Empire Project* ,295– 7.
[586] McKale, *War by Revolution* ,171.
[587] McKale, 'British Anxiety'.
[588] Rutledge, *Enemy on the Euphrates* ,33– 7.
[589] Cleveland and Bunton, *History of the Modern Middle East* ,132f.
[590] Rogan, *Fall of the Ottomans* ,280f.
[591] McKale, 'British Anxiety'.
[592] McKale, 'Germany and the Arab Question', 246; Rogan, 'Rival Jihads', 14– 16.
[593] Rogan, *The Arabs* ,150f.
[594] Ibid., 151f.
[595] McKale, 'British Anxiety'.
[596] McKale, 'Germany and the Arab Question', 244.
[597] McMeekin, *Russian Revolution* ,127– 36
[598] Ibid., 206f.
[599] Ibid., 155f.

[600] Ibid., 163.
[601] Ibid., 174.
[602] Ibid., 195f.
[603] Figes, *People's Tragedy*,703.
[604] McMeekin, *Russian Revolution*,260ff.
[605] Figes, *People's Tragedy*,630.
[606] Volkogonov, *Lenin*,69f.
[607] Figes, *People's Tragedy*,631.
[608] Leggett, *Cheka*,108.
[609] Ferguson, *War of the World*,206.
[610] Service, *Twentieth-Century Russia*,108.
[611] Kotkin, *Stalin*, vol. I, 433.
[612] Ferguson, *War of the World*,152.
[613] Applebaum, *Gulag*.
[614] Service, *Twentieth-Century Russia*,117f.
[615] Ferguson, *War of the World*,210.
[616] Ibid., 211–14.
[617] Kotkin, *Stalin*, vol. II.
[618] Calculated from the data in Laqueur, *Fascism* table 15, and Larsen, et al., *Who Were the Fascists?* table 1.
[619] Herf, *Jewish Enemy*, KL 463–9.
[620] The definitive work is Falter, *Hitlers Wähler*.
[621] O'Loughlin, Flint and Anselin, 'Geography of the Nazi Vote'.
[622] Ferguson, *War of the World*,239.
[623] Burleigh, *Third Reich*,116.
Ibid., 194.[624]
[625] Ibid., 259
[626] Ibid., 5.
Satyanath, Voigtländer and Voth, 'Bowling for Fascism'.[627]
[628]Herf, *Jewish Enemy*, KL 347–65.
[629] Voigtländer and Voth, 'Persecution Perpetuated'.
[630] Miller Lane and Rupp (eds.), *Nazi Ideology before 1933*, KL 168–77.
[631] Ibid., KL 165–216.
[632] Herf, *The Jewish Enemy*, KL 81–9. See also Cohn, *Warrant for Genocide*.
Friedländer, *Nazi Germany and the Jews*,77f.[633]
[634] See in general Mosse, 'Die Juden in Wirtschaft und Gesellschaft', and *Jews in the German Economy*.
[635] Windolf, 'German-Jewish Economic Elite', 137, 157.
[636] Valentin, *Antisemitism*,198f.
Windolf, 'German-Jewish Economic Elite', 158f. See also 152, 155.[637]

[638] Meiring, *Christlich-jüdische Mischehe*, table 1.
[639] Jones, *In the Blood* ,158ff.
[640] Ruppin, *Soziologie der Juden*, vol. I, 211f.; Hanauer, 'Jüdische-christliche Mischehe', table 2; Della Pergola, *Jewish and Mixed Marriages* ,122–7.
[641] Ruppin, *Soziologie der Juden*, vol. I, 211f.
[642]. Burleigh and Wippermann, *Racial State* ,110.
[643] Burgdörfer, 'Juden in Deutschland', 177.
[644] Raab, 'More than just a Metaphor'.
[645] Friedländer, *Nazi Germany and the Jews* ,19.
[646] Ibid., 24.
[647] Ibid., 234.
Ibid., 25–6.[648]
[649] Ibid., 259–60; Barkai, *From Boycott to Annihilation* ,75.
[650] Barkai, *From Boycott to Annihilation* ,152f.
[651] Ibid., 153.
[652] Baynes (ed.) *Speeches of Adolf Hitler*, vol. I, 737–41.
[653] Kopper, 'Rothschild family', 321ff.
[654] Nicholas, *Rape* ,39.
Heimann-Jelinek, ' "Aryanisation" of Rothschild Assets'.[655]
[656]. Details are in Nicholas, *Rape*.
[657] Ferguson, *Kissinger*, vol. I, 72, 80.
[658] Düring, 'Dynamics of Helping Behaviour'.
[659] Fallada, *Alone in Berlin*.
[660]Cooper, *Diaries* ,274.
[661] See in general Bloch, *Ribbentrop*.
[662] Lord Lothian, 'Germany and France: The British Task, II: Basis of Ten Years' Peace', *The Times* ,1 February 1935.
[663] Lownie, *Burgess* ,29.
[664] Deacon, *Cambridge Apostles* ,103
[665] Lownie, *Burgess* ,34f.
[666] Andrew and Gordievsky, *KGB* ,206 ,209.
[667] Ibid., 193ff.
[668] Andrew, *Defence of the Realm* ,169ff.
[669] Lownie, *Burgess* ,54.
[670] Deacon, *Cambridge Apostles* ,107f.
[671] Ibid., 115, 134.
[672] Andrew and Gordievsky, *KGB* ,216.
[673] Ibid., 221.
[674] Macintyre, *Spy Among Friends* ,44ff.
[675] Andrew and Gordievsky, *KGB* ,213.

[676] Ibid., 184.
[677] Ibid., 213.
[678] Lownie, *Burgess* ,55.
[679] Ibid., 136.
[680] Ibid., 96
[681] Andrew, *Defence of the Realm* ,270; Andrew and Gordievsky, *KGB* ,300.
[682] Andrew, *Defence of the Realm* ,270.
[683] Lownie, *Burgess* ,130; Andrew, *Defence of the Realm* ,272.
[684] Andrew, *Defence of the Realm* ,280 ,289.
[685] Andrew and Gordievsky, *KGB* ,296f.
[686] Lownie, *Burgess* ,131 ,147.
[687] Ibid., 132, 160; Andrew, *Defence of the Realm* ,272 ,280.
[688] Andrew, *Defence of the Realm* ,219 ,261.
[689]. Ibid., 268.
Ibid., 341; Andrew and Gordievsky, *KGB* ,297.[690]
[691] Andrew, *Defence of the Realm* ,281 ,333.
[692] Macintyre, *Spy Among Friends* ,144.
[693] Andrew, *Defence of the Realm* ,339ff.
[694] Ibid., 343.
[695] Ibid., 422.
[696] Andrew and Gordievsky, *KGB* ,399f.
[697] Andrew, *Defence of the Realm* ,422f.
[698] Ibid., 420– 24.
[699] Ibid., 424.
[700] Ibid., 431.
[701] Ibid., 432– 5, rebuts Peter Wright's claims that there was a cover-up only explicable in terms of higher-level Soviet penetration of British intelligence.
[702] Ibid., 436.
[703] Macintyre, *Spy Among Friends* ,291.
[704] Andrew and Gordievsky, *KGB* ,6.
[705] Andrew, *Defence of the Realm* ,429.
Andrew and Gordievsky, *KGB* ,429 ,436 ,439ff., 707[706]
McSmith, *Fear and the Muse Kept Watch*, KL 5069– 70[707]
[708] Ibid., KL 5109– 19.
[709] Ibid., KL 5138.
[710] Ibid., KL 5139– 55.
[711] Ibid., KL 5158– 60
[712] Ibid., KL 5185– 97.
[713] Berlin, *Enlightening*, KL 2139– 42.
[714] Berlin, *Letters* ,599f

[715] For Berlin's detailed recollection of the encounter, written thirty-five years after the fact, see Berlin, *Personal Impressions*, KL 4628–4998.
[716] Hausheer, 'It Didn't Happen'.
[717] Ignatieff, *Berlin*, KL 3252–79.
[718] She can be heard reading 'Cinque' in this recording from her visit to Oxford in June 1965, a year before her death: https://podcasts.ox.ac.uk/anna-akhmatova-reading-her-poems-about-isaiah-berlin-oxford-1965
[719] Dalos, *Guest from the Future*, 7, 86.
[720] Akhmatova, *Word that Causes Death's Defeat*, 152.
[721] McSmith, *Fear and the Muse Kept Watch*, KL 5271. Preposterously, Churchill wanted Berlin's help as a translator to help him obtain ice for some caviar he had acquired.
[722] Dalos, *Guest from the Future*, 67.
[723] Ignatieff, *Berlin*, KL 3252–79.
Dalos, *Guest from the Future*, 67f.[724]
[725] McSmith, *Fear and the Muse Kept Watch*, KL 5354–68.
Ibid., KL 5352.[726]
Berlin, *Enlightening*, KL 2056–74. See also Dalos, *Guest from the Future*, 59–61.[727]
[728] Berlin, *Enlightening*, KL 1047–56, 1059–69.
[729] Ignatieff, *Berlin*, KL 3284–3350; McSmith, *Fear and the Muse Kept Watch*, KL 5399–5414.
[730] Berlin, *Enlightening*, KL 10773–4, 10783–10806, 10818–64, 10865–71.
[731] Ibid., KL 16680–82; Dalos, *Guest from the Future*, 124–7, 133.
[732] Dalos, *Guest from the Future*, 64f.
[733] MacDougall, 'Long Lines'.
[734] See in general Wu, *Master Switch*.
MacDougall, 'Long Lines', 299, 308f., 318[735]
[736] Wu, *Master Switch*, 8.
[737] Ibid., 9.
[738] Ibid., 113.
[739] Christopher Wolf, 'The History of Electronic Surveillance, from Abraham Lincoln's Wiretaps to Operation Shamrock', Public Radio International, 7 November 2013.
[740] Starr, *Creation of the Media*, 348.
[741] Ibid., 363f.
[742] Gambetta, *Sicilian Mafia.*
[743] Jonathan Steinberg, 'Capos and Cardinals', *London Review of Books*, 17 August 1989.
[744] Duggan, *Fascism and the Mafia*.

[745] Scotten, 'Problem of the Mafia'. I am indebted to my student Frank Tamberino for this reference. See Tamberino, 'Criminal Renaissance'.
[746]. Lewis, 'The Honored Society', *New Yorker*,8 February 1964, 42– 105, and the longer *Honoured Society*. Also illuminating, the same author's *Naples '44*.
[747] McAdam, *Political Process and the Development of Black Insurgency*,90.
[748] Ibid., 129
[749] Jackson et al., 'Failure of an Incipient Social Movement', 36.
[750] See Kurtz, *Not-God*; White and Kurtz, 'Twelve Defining Moments'; Makela et al., (eds.), *Alcoholics Anonymous*; Kelly and Yeterian, 'Mutual-Help Groups'.
[751] Kurtz, *Not-God*,64.
[752] White and Kurtz, 'Twelve Defining Moments', 44f.
[753] Ohler, *Blitzed*.
[754] Jackson and Nei, 'Networks of Military Alliances', 15279. See also Levina and Hillmann, 'Wars of the World', Lupu and Traag, 'Trading Communities', and Maoz, 'Network Polarization'.
[755] Dorussen and Ward, 'Trade Networks'.
[756] Haim, 'Alliance Networks and Trade', 28.
[757] Johnson and Jordan, 'Web of War'.
[758] Keller, '(Why) Do Revolutions Spread?'
[759] Forester, *The General*,222.
[760] Samuels, *Command or Control*; Gudmundsson, *Stormtroop Tactics*.
[761] Marston, 'Lost and Found in the Jungle', KL 2065.
[762] Pocock, *Fighting General*, KL 1537– 77.
[763] Mumford, *Counter-Insurgency Myth*,37f.
[764] Beckett and Pimlott, *Counter-Insurgency*,20.
[765] Strachan, 'British Counter-Insurgency from Malaya to Iraq', 10.
[766] Pocock, *Fighting General*, KL 2113– 33.
[767] Ibid., KL 2204– 9.
[768] Walker, 'How Borneo was Won', 11.
[769] Ibid.
[770] Tuck, 'Borneo 1963– 66', 98f.
[771]. Walker, 'How Borneo War Won', 19.
[772] Ibid., 9f.
[773] Ibid., 10.
[774]. Ibid., 14.
[775] Cross, *'Face Like a Chicken's Backside'*,142f.
[776] Ibid., 157.
[777] Rosentall, ' "Confrontation": Countering Indonesian Insurgency', 102.
[778] Beckett and Pimlott, *Counter-Insurgency*,110.
[779] Walker, 'How Borneo Was Won', 12.

[780] Ibid., 9.
[781] Ibid., 17.
[782] 'General Sir Walter Walker', *Daily Telegraph*, 13 August 2001.
O'Hara, *From Dreams to Disillusionment*.[783]
[784] Scott, *Seeing Like a State*, 348.
Bar-Yam, 'Complexity Rising', 26.[785]
See Bar-Yam, *Dynamics of Complex Systems*, 804–9.[786]
[787] Quoted in Thompson et al. (eds.), *Markets, Hierarchies and Networks*, 297.
[788] Barabási, *Linked*, 201.
[789] Lamoreaux et al., 'Beyond Markets and Hierarchies', 43f.
Ibid., 48f.[790]
[791] Chanda, *Bound Together*, 248.
[792] Theodore Levitt, 'The Globalization of Markets', *Harvard Business Review* (May 1983).
[793] Powell, 'Neither Market nor Hierarchy', quoted in Thompson et al. (eds.), *Markets, Hierarchies and Networks*, 270.
Ibid., 271f.[794]
[795]. Ibid., 273f.
[796] Rhodes, 'New Governance', 665.
[797] Thompson, *Between Hierarchies and Markets*, 133.
[798] Ferguson, *Kissinger*, xiv.
[799] Ibid., 310.
[800] Ibid., 502.
[801] Ibid., 728.
[802] Ibid., 806.
[803] Ibid., 807.
[804] Ibid., 841.
[805] Ibid., 849.
[806] 'Principles, Structure and Activities of Pugwash for the Eleventh Quinquennium, 2007–2012': https://en.wikipedia.org/wiki/Pugwash_Conferences_on_Science_and_World_Affairs
[807] Evangelista, *Unarmed Forces*, 32f.
[808] Ibid., 33.
Staar, *Foreign Policies*, 86.[809]
[810] Ferguson, *Kissinger*, 505.
[811] Ibid., 736.
[812] Ibid., 740.
[813] Ibid., 746f.
[814] See Appendix.

[815]. 'Superstar Statecraft: How Henry Does It', *Time* ,1 April 1974.
[816] Ibid.
[817] Ibid.
[818] Sargent, *Superpower Transformed* ,158.
[819] Ibid., 159.
[820] Ibid., 176.
[821] Notably Cooper, *Economics of Interdependence*, and Keohane and Nye, *Power and Interdependence*.
[822] 'Interdependence Day', *The New York Times* ,4 July 1976.
[823] Brzezinski, *Between Two Ages*.
[824] Bearman and Everett, 'Structure of Social Protest', 190f.
[825] Henry A. Kissinger, 'The Need to Belong', *The New York Times* ,17 March 1968.
[826] http://www.pbs.org/newshour/bb/white_house-july-dec11-nixontapes_11-25/.
[827] Barabási, *Linked* ,147.
[828] Conway, 'How Do Committees Invent?'
[829] Ibid.
[830] Caldarelli and Catanzaro, *Networks* ,37.
[831] Naughton, *From Gutenberg to Zuckerberg* ,45f.
[832] Caldarelli and Catanzaro, *Networks* ,38.
[833] Newman, *Networks* ,19f.
[834] Brinton and Chiang, *Power of Networks* ,245.
[835] Ibid., 297.
[836] On the forerunners to the World Wide Web, see Hall, 'Ever Evolving Web'.
[837] Castells, *Rise of the Network Society* ,63f. See also Newman, *Networks* ,5.
[838] Caldarelli and Catanzaro, *Networks* ,39f., 43f.
[839] Garton Ash, *Free Speech*, KL 494–496.
[840]

https://w2.eff.org/Censorship/Internet_censorship_bills/barlow_0296.declaration.
[841] Goldsmith and Wu, *Who Controls the Internet?* ,21.
[842] Ibid., 24.
[843]Ibid., 15.
[844] Ibid., ch. 3.
Benjamin Peters, 'The Soviet InterNyet', *Aeon* ,17 October 2016.[845]
[846] National Security Agency, 'Dealing with the Future: The Limits of Forecasting', 100:
http://www.nsa.gov/public_info/_files/cryptologic_quarterly/limits_forecasting.pdf.

Osa, *Solidarity and Contention*,117f.[847]

[848]. Ibid.,165.

[849]. Malcolm Gladwell, 'Small Change: Why the Revolution Will Not Be Tweeted', *New Yorker*,4 October 2010.

[850] Grdesic, 'Television and Protest in East Germany's Revolution', 94.

[851] Navidi, *Superhubs* ,95.

[852] Nick Paumgarten, 'Magic Mountain: What Happens at Davos?' *New Yorker*,5 March 2012.

[853] https://www.weforum.org/agenda/2013/12/nelson-mandelas-address-to-davos-1992/.

[854] Paul Nursey-Bray, 'The Solid Mandela', *Australian Left Review* (June 1992), 12–16.

[855] Barnard and Popescu, 'Nelson Mandela', 241f.

[856] Sampson, *Mandela* ,427.

[857] Ibid., 429.

[858]. Jake Bright, 'Why the Left-Leaning Nelson Mandela was such a Champion of Free Markets', 6 December 2013: http://qz.com/155310/nelson-mandela-was-also-a-huge-champion-of-free-markets/

[859] Ronnie Kasrils, 'How the ANC's Faustian Pact Sold Out South Africa's Poorest', *Guardian* ,24 June 2013: https://www.theguardian.com/commentisfree/2013/jun/24/anc-faustian-pact-mandela-fatal-error.

[860] Anthony Monteiro, 'Mandela and the Origins of the Current South African Crisis', 24 February 2015: https://africanamericanfutures.com/2015/02/24/mandela-and-the-origins-of-the-current-south-african-crisis/. See also Monteiro, 'Nelson Mandela: The Contradictions of His Life and Legacies', *Black Agenda Report* ,12 November 2013: http://www.blackagendareport.com/content/nelson-mandela-contradictions-his-life-and-legacies.

[861] Sampson, *Mandela* ,428. See also Gumede, *Thabo Mbeki* ,81–4.

[862] Ken Hanly, 'Mandela and Neo-Liberalism in South Africa', 18 December 2013: http://www.digitaljournal.com/news/politics/op-ed-mandela-and-neo-liberalism-in-south-african/article/364193. See also Danny Schechter, 'Blurring Mandela and Neo-Liberalism', 14 December 2013: http://www.truthdig.com/report/print/blurring_mandela_and_neoliberalism_20131214. Cf. Schechter, *Madiba A to Z*, KL 1619–61.

[863]. Klein, *Shock Doctrine* ,216f.

[864] Landsberg, *Quiet Diplomacy of Liberation*, 107–10.

[865] Andrew Ross Sorkin, 'How Mandela Shifted Views on Freedom of Markets', *The New York Times* ,9 December 2013. See also Barnard and Popescu, 'Nelson

Mandela', 247.
[866] Sampson, *Mandela* ,428f.
[867] This section draws on Ferguson and Schlefer, 'Who Broke the Bank of England?'
[868] Stevenson, 'First World War and European Integration'.
[869] For more details, see Ferguson, 'Siegmund Warburg, the City of London and the Financial Roots of European Integration'.
[870] For an introduction, see Kerr, *History of the Eurobond Market*.
[871] Milward, *European Rescue of the Nation-State*.
[872] Schenk, 'Sterling, International Monetary Reform and Britain's Applications'.
Ferguson, *High Financier* ,229.[873]
[874] Granville, Cruz and Prevezer, 'Elites, Thickets and Institutions'.
[875] Ferguson, *High Financier* ,230.
[876] Lamont, *In Office* ,124.
[877] Major, *Autobiography* ,271f.
[878] Ibid., 275f.
[879] Ibid., 284.
[880]. Ibid., 288.
[881] Soros, *George Soros on Globalization* ,131.
[882] Eichengreen and Wyplosz, 'Unstable EMS', 85.
[883] Lamont, *In Office* ,201.
[884] Major, *Autobiography* ,313. See also 'Nearer to No', *Economist,* 29 August 1992.
[885] Major, *Autobiography* ,313– 15 ,325.
Lamont, *In Office* ,212f., 227.[886]
[887] Ivan Fallon, 'John Major's Days of Pain: The Sterling Fiasco', *Sunday Times*, 20 September 1992.
[888] 'Sterling Knocked by EMU Worries', *The Times,* 10 June 1992.
[889] Major, *Autobiography* ,316 ,325.
[890]. Stephens, *Politics and the Pound* ,219.
[891] Lamont, *In Office* ,216.
[892] Ibid., 227f.
[893] Peter Kellner, David Smith and John Cassidy, 'The Day the Pound Died', *Sunday Times* ,6 December 1992.
[894] Lamont, *In Office* ,228.
[895] Matthew Lynn and David Smith, 'Round One to Lamont – Norman Lamont', *Sunday Times,* 30 August 1992.
[896] Lamont, *In Office* ,229.
[897] 'Schlesinger's Schadenfreude – Diary', *The Times,* 18 September 1992.
[898] Peter Kellner, David Smith and John Cassidy, 'The Day the Pound Died',

Sunday Times ,6 December 1992.
[899] Lamont, *In Office* ,236.
[900] Ibid., 238.
[901] Colin Narbrough and Wolfgang Munchau, 'Another Innocent Gaffe from the Bundesbank', *The Times* ,10 September 1992; David Smith, 'Lamont's Troubles in Triplicate', *Sunday Times,* 13 September 1992.
[902] Philip Webster, 'Bundesbank Chief Raises Spectre of Devaluation', *The Times,* 16 September 1992; Christopher Huhne, 'Inside Story: The Breaking of the Pound', *Independent on Sunday* ,20 September 1992. Cf. Major, *Autobiography* ,329.
[903] Lamont, *In Office* ,244f.
[904] Peter Kellner, David Smith and John Cassidy, 'The Day the Pound Died', *Sunday Times* ,6 December 1992; Robert Chote and Nicholas Timmins, 'Pound Faces Toughest Test after EC Bows to Markets: German Interest Rate to Fall as Lira is Devalued in ERM Rescue', *Independent,* 13 September 1992.
[905] Eichengreen and Wyplosz, 'Unstable EMS', 107.
[906] 'Forever Falling?' *Economist,* 29 August 1992.
[907] Christopher Huhne, 'Schlesinger: A Banker's Guilt', *Independent,* 1 October 1992.
[908] Soros, 'Theory of Reflexivity', 7.
[909] Soros, *Soros on Soros* ,12
[910] Mallaby, *More Money Than God* ,435.
[911] 'A Ghastly Game of Dominoes', *Economist,* 19 September 1992.
[912] Mallaby, *More Money Than God* ,156f.
[913] Abdelal, 'Politics of Monetary Leadership', 250.
[914] Duncan Balsbaugh, 'The Pound, My Part in Its Downfall and Is It Time to Fight the Central Banks Again?' *IFR Review of the Year 2015*: http://www.ifre.com/the-pound-my-part-in-its-downfall-and-is-it-time-to-fight-the-central-banks-again/21223291.fullarticle. For other accounts with somewhat different figures, see Kaufman, *Soros* ,239; Mallaby, *More Money Than God,* 435. See also Drobny, *Inside the House of Money* ,274f.
[915] Soros, *Soros on Soros* ,22. See also Soros and Schmitz, *Tragedy of the European Union* ,59f.
[916] Kaufman, *Soros* ,239. Emphasis added.
[917] Lamont, *In Office* ,249.
[918] Anatole Kaletsky, 'How Mr Soros Made a Billion by Betting against the Pound', *The Times* ,26 October 1992.
[919] Ibid.
[920] Mallaby, *More Money Than God* ,160– 66.
[921] Eichengreen and Wyplosz, 'Unstable EMS', 60.

[922] Engdahl, 'Secret Financial Network'.
[923] Flavia Cymbalista with Desmond MacRae, 'George Soros: How He Knows What He Knows, Part 2: Combining Theory and Instinct', *Stocks, Futures and Options* ,9 March 2004.
[924] James Blitz, 'How Central Banks Ran into the Hedge', *Financial Times* ,30 September 1992.
[925] Balsbaugh, 'The Pound, My Part in Its Downfall'.
[926] Thomas Jaffe and Dyan Machan, 'How the Market Overwhelmed the Central Banks', *Forbes* ,9 November 1992. See also Mallaby, *More Money Than God*, 435.
[927] Kaletsky, 'How Mr Soros Made a Billion'.
[928] Soros, *Soros on Soros* ,82.
[929] Lamont, *In Office* ,259.
[930]. Slater, *Soros* ,180.
[931] Ibid., 181.
[932] Roxburgh, *Strained to Breaking Point* ,163; Matthew Tempest, 'Treasury Papers Reveal Cost of Black Wednesday', *Guardian* ,9 February 2005.
[933] Johnson, 'UK and the Exchange Rate Mechanism', 97f.
[934] Major, *Autobiography* ,312, Lamont, *In Office* ,285.
[935] Kaletsky, 'How Mr Soros Made a Billion'.
[936] 'Half-Maastricht', *Economist,* 26 September 1992.
[937] Borges, 'Library of Babel'.
[938] On the powerful developmental effects of the international air transport network, Campante and Yanagizawa-Drott, 'Long-Range Growth'. On the tendency of the American system to produce delays even in normal conditions, see Mayer and Sinai, 'Network Effects'.
[939] Calderelli and Catanzaro, *Networks* 40f.
[940] Thomas A. Stewart, 'Six Degrees of Mohamed Atta', *Business 2.0*, December 2001.
[941] Krebs, 'Mapping Networks of Terrorist Cells', 46–50.
[942] Ibid., 51.
[943] Jeff Jonas and Jim Harper, 'Effective Counterterrorism and the Limited Role of Predictive Data Mining', *Policy Analysis* ,11 December 2006.
[944] Patrick Radden Keefe, 'Can Network Theory Thwart Terrorists?' *The New York Times* ,12 March 2006.
[945]. Valdis Krebs, 'Connecting the Dots: Tracking Two Identified Terrorists', Orgnet, 2002–8: http://www.orgnet.com/prevent.html.
[946] Oliver, 'Covert Networks'.
[947] Marion and Uhl-Bien, 'Complexity Theory and Al-Qaeda'.
[948] Eilstrup-Sangiovanni and Jones, 'Assessing the Dangers of Illicit Networks',

34.
[949]. Minor, 'Attacking the Nodes', 6.
[950] Morselli, Giguère and Petit, 'The Efficiency/Security Trade-off'. See also Kahler, Miles, 'Networked Politics.' See also Kenney, 'Turning to the "Dark Side" ' and Kahler, 'Collective Action and Clandestine Networks'.
[951] Sageman, *Understanding Terror Networks* ,96f. See also 135–71.
[952]. Berman, *Radical, Religious, and Violent* ,18.
[953]. Ibid., 17.
[954]. John Arquilla, 'It Takes a Network', *Los Angeles Times* ,25 August 2002.
[955] National Consortium for the Study of Terrorism and Responses to Terrorism (START), 'Jihadist Plots in the United States, Jan. 1993–Feb. 2016: Interim Findings' (January 2017).
[956] Nagl, *Learning to Eat Soup with a Knife*.
[957]. Army, *U.S. Army/Marine Corps Counterinsurgency Field Manual*.
[958] Army, *Insurgencies and Countering Insurgencies*, section 4, paragraphs 6 and 7.
[959] Ibid., section 4, paragraphs 20 and 21.
[960] Army, *U.S. Army/Marine Corps Counterinsurgency Field Manual*, Appendix B.
[961] Kilcullen, *Counterinsurgency* ,37.
[962] Ibid., 183.
[963] Ibid., 200.
[964] Ibid., 4f., 10, 40, 197.
[965] David Petraeus, 'The Big Ideas Emerging in the Wake of the Arab Spring', Belfer Center, Harvard Kennedy School of Government (2017).
[966] McChrystal, *My Share of the Task* ,148. Details of how McChrystal and his team hunted down and killed Zarqawi, destroying his network in the process, are in chapters 11–15.
[967] Simpson, *War from the Ground Up* ,106.
Neely, 'The Federal Reserve Responds'.[968]
[969] Ibid., 40.
[970] Crawford, 'U.S. Costs of Wars'.
[971] Watts, *Six Degrees* ,23.
[972] Caldarelli and Catanzaro, *Networks* ,36f., 42, 95.
[973] United States Government Accountability Office, 'Financial Crisis Losses'.
[974]. See Ferguson, *Ascent of Money*.
[975] Financial Crisis Inquiry Commission, *Financial Crisis Inquiry Report*, KL 8518–21.
[976] http://www.federalreserve.gov/monetarypolicy/fomchistorical2008.htm: FOMC meeting transcript, 16 September 2015, 20.
[977] Ibid., 51.

[978]. Ibid., 28– 29 October 2008, 118.
[979] Ibid., 15– 16 December 2008, 12.
[980] Andrew Haldane, 'On Tackling the Credit Cycle and Too Big to Fail', Bank of England presentation, January 2011, slide 13.
[981] Ramo, *Seventh Sense* ,136f. See also 42– 4.
[982] Jackson, Rogers and Zenou, 'Economic Consequences of Network Structure'. See also Elliott, Golub and Jackson, 'Financial Networks and Contagion'.
[983]. Louise Story and Eric Dash, 'Bankers Reaped Lavish Bonuses During Bailouts', *The New York Times* ,30 July 2009.
[984] Davis et al., 'Small World', 303.
[985] Ibid., 320.
[986] Michelle Leder, 'Vernon Jordan Gets a Big Payday from Lazard', *The New York Times* ,15 March 2010.
[987] Acemoglu et al., 'Value of Connections in Turbulent Times'. According to the authors' estimates, 'Over the next ten trading days, financial firms with a connection to Geithner experienced a cumulative abnormal return of about 12 percent (relative to other financial sector firms).'
[988] DeMuth, 'Can the Administrative State Be Tamed?' 125.
[989] Patrick McLaughlin and Oliver Sherouse, 'The Accumulation of Regulatory Restrictions Across Presidential Administrations', Mercatus Center, 3 August 2015.
[990] Patrick McLaughlin and Oliver Sherouse, 'The Dodd– Frank Wall Street Reform and Consumer Protection Act May be the Biggest Law Ever', Mercatus Center, 20 July 2015.
[991] McLaughlin and Greene, 'Dodd– Frank's Regulatory Surge'.
[992] Howard, *Life Without Lawyers*.
[993] Scott, *Connectedness and Contagion.*
[994] Fukuyama, *Political Order and Political Decay* ,208.
[995] Ibid., 35f. See, however, Howard, *Rule of Nobody*, and White, Cass and Kosar, *Unleashing Opportunity*.
[996] DeMuth, 'Can the Administrative State Be Tamed?' 151.
[997] See e.g. McLaughlin and Sherouse, *Impact of Federal Regulation*; Patrick A. McLaughlin, 'Regulations Contribute to Poverty', Testimony to the House Committee on the Judiciary, Subcommittee on Regulatory Reform, Commercial and Antitrust Law, 24 February 2016.
[998] Ferguson, *Great Degeneration.*
Naughton, *From Gutenberg to Zuckerberg* ,224.[999]
Ibid., 227.[1000]
Raymond, *The Cathedral and the Bazaar* ,21.[1001]
[1002] Ibid., 57f.

[1003] Ibid., 30.
[1004] Ibid., 125.
[1005] Ibid., 194.
[1006] Spar, *Ruling the Waves* ,369f.
[1007] Kirkpatrick, *Facebook Effect* ,74.
[1008] http://benbarry.com/project/facebooks-little-red-book. On the author of the Little Red Book, see http://www.typeroom.eu/article/ben-barry-used-be-called-facebook-s-minister-propaganda.
[1009] Kirkpatrick, *Facebook Effect* ,247.
[1010] Ibid., 109.
[1011] Ibid., 185, 274–7.
[1012] Ibid., 154–7, 180ff., 188.
[1013] Naughton, *From Gutenberg to Zuckerberg* ,106.
[1014] Kirkpatrick, *Facebook Effect* ,222–6.
[1015] Ibid., 251.
[1016] Ibid., 259.
[1017] García Martínez, *Chaos Monkeys* ,275–80 ,298f.
[1018] Ibid., 482–6.
[1019] Alex Eule, 'Facebook Now Has 1.2 Billion Daily Users. Really', *Barron's* ,2 November 2016.
[1020] Smriti Bhagat, Moira Burke, Carlos Diuk, Ismail Onur Filiz, and Sergey Edunov, 'Three and a Half Degrees of Separation', 4 February 2016: https://research.fb.com/three-and-a-half-degrees-of-separation/.
[1021] Lars Backstrom, Paolo Boldi, Marco Rosa, Johan Ugander, and Sebastiano Vigna, 'Four Degrees of Separation', 22 June 2012: https://research.fb.com/publications/four-degrees-of-separation/
[1022] Ugander et al., 'Structural Diversity in Social Contagion'.
[1023] Lillian Weng and Thomas Lenton, 'Topic-Based Clusters in Egocentric Networks on Facebook', 2 June 2014: https://research.fb.com/publications/topic-based-clusters-in-egocentric-networks-on-facebook/. See also Youyou et al., 'Birds of a Feather'.
[1024] Amaç Herdağdelen, Bogdan State, Lada Adamic and Winter Mason, 'The Social Ties of Immigrant Communities in the United States', 22 May 2016: https://research.fb.com/publications/the-social-ties-of-immigrant-communities-in-the-united-states/.
[1025] Jonathan Chang, Itamar Rosenn, Lars Backstrom and Cameron Marlow, 'Ethnicity on Social Networks', *Association for the Advancement of Artificial Intelligence*) 2010).
[1026] Ismail Onur Filiz and Lada Adamic, 'Facebook Friendships in Europe', 8 November 2016: https://research.fb.com/facebook-friendships-in-europe/.

[1027] Eytan Bakshy, Itamar Rosenn, Cameron Marlow and Lada Adamic, 'The Role of Social Networks in Information Diffusion', 16 April 2012: https://research.fb.com/publications/the-role-of-social-networks-in-information-diffusion/; Lada A. Adamic, Thomas M. Lenton, Eytan Adar and Pauline C. Ng, 'Information Evolution in Social Networks', 22 May 2016: https://research.fb.com/wp-content/uploads/2016/11/information_evolution_in_social_networks.pdf; Adam D. I. Kramer, 'The Spread of Emotion via Facebook', 16 May 2012: https://research.fb.com/publications/the-spread-of-emotion-via-facebook/

[1028] Jonathan Tepper, 'Friendships in the Age of Social Media', 14 January 2017: originally published on http://jonathan-tepper.com/blog/.

[1029] Naughton, *From Gutenberg to Zuckerberg*, 194f.

[1030] Data from http://whoownsfacebook.com/.

[1031] García Martínez, *Chaos Monkeys*, 229.

[1032] 'Who Are the 8 Richest People? All Men, Mostly Americans', *NBC News*, 16 January 2017.

[1033] Wu, *Master Switch*, 318

[1034] Shannon Bond, 'Google and Facebook Build Digital Ad Duopoly', *Financial Times*, 15 March 2017.

[1035] Farhad Manjoo, 'Why Facebook Keeps Beating Every Rival: It's the Network, of Course', *The New York Times*, 19 April 2017.

[1036] Robert Thomson, 'Digital Giants are Trampling on Truth', *The Times*, 10 April 2017.

[1037] Ramo, *Seventh Sense*, 240ff.

[1038] Kirkpatrick, *Facebook Effect*, 254.

[1039] http://benbarry.com/project/facebooks-little-red-book.

[1040] García Martínez, *Chaos Monkeys*, 355.

[1041] Kirkpatrick, *Facebook Effect*, 319.

[1042] Nick Bilton, 'Will Mark Zuckerberg be Our Next President?' *Vanity Fair*, 13 January 2017.

[1043] García Martínez, *Chaos Monkeys*, 263f.

[1044] Mark Zuckerberg, 'Building Global Community', 16 February 2017: https://www.facebook.com/notes/mark-zuckerberg/building-global-community/10154544292806634.

[1045] For a sceptical view, see Morozov, *Net Delusion*.

[1046] Oxfam, 'An Economy for the 1%'.

[1047] Crédit Suisse Research Institute, *Global Wealth Databook 2015* (October 2015).

[1048] Piketty and Saez, 'Income Inequality', with figures updated to 2015.

[1049]. U.S. Census Bureau, Current Population Survey, Annual Social and

Economic Supplements: https://www.census.gov/data/tables/time-series/demo/income-poverty/historical-income-households.html
[1050] Bricker et al., 'Measuring Income and Wealth'.
[1051] Agustino Fontevecchia, 'There Are More Self-Made Billionaires in the Forbes 400 Than Ever Before', *Forbes* ,3 October 2014.
[1052] Credit Suisse Research Institute, *Global Wealth Databook 2015* (October 2015). 'Middle class' is defined here as having wealth between $50,000 and $500,000. For a different definition, based on income, which arrives at a rather larger global middle class numbering 3.2 billion, see Kharas, 'Unprecedented Expansion'.
[1053] Hellebrandt and Mauro, 'Future of Worldwide Income Distribution'.
[1054] Sala-i-Martin and Pinkovskiy, 'Parametric Estimations'.
[1055] Milanovic and Lakner, 'Global Income Distribution'.
[1056] Corlett, 'Examining an Elephant'.
[1057] Rakesh Kochhar, 'Middle Class Fortunes in Western Europe', Pew Research Center, 24 April 2017.
[1058] Autor et al., 'Untangling Trade and Technology'.
[1059] Dobbs et al., *Poorer Than Their Parents*.
[1060] Chetty et al., 'Is the United States Still a Land of Opportunity?'
[1061] Case and Deaton, 'Rising Morbidity'.
[1062] Case and Deaton, 'Mortality and Morbidity'.
[1063] Nicholas Eberstadt, 'Our Miserable 21st Century', *Commentary* ,28 February 2017.
[1064] Gagnon and Goyal, 'Networks, Markets, and Inequality', 23.
[1065] Ibid., 3.
[1066] World Bank Group, *Digital Dividends* ,3.
[1067] Paik and Sanchargin, 'Social Isolation'.
[1068] Keith Hampton, Lauren Sessions, Eun Ja Her, and Lee Rainie, 'Social Isolation and New Technology', *Pew Internet & American Life Project* (November 2009), 1–89: http://www.pewinternet.org/2009/11/04/social-isolation-and-new-technology/.
[1069]. Ibid., 70.
[1070] See in general Murray, *Coming Apart*.
[1071] Wu, *Master Switch* ,250.
[1072] Pew Research Center, 'Global Publics Embrace Social Networking', 15 December 2010.
[1073] Malcolm Gladwell, 'Small Change: Why the Revolution Will Not Be Tweeted', *New Yorker* ,4 October 2010.
[1074] Schmidt and Cohen, 'Digital Disruption'.
[1075] Ibid.

[1076] Ibid. See also Shirky, 'Political Power of Social Media', 1. On the limits of digital social networks as agents of political change, see Shirky, *Here Comes Everybody* and Tufekci, *Twitter and Tear Gas*.
[1077] Hill, 'Emotions as Infectious Diseases'.
[1078] Hal Hodson, 'I Predict a Riot', *New Scientist* ,2931 ,21 August 2013, 22.
[1079] Debora MacKenzie, 'Brazil Uprising Points to Rise of Leaderless Networks', *New Scientist* ,2923 ,26 June 2013. See in general Barbera and Jackson, 'Model of Protests'.
[1080] Ramo, *Seventh Sense* ,105.
[1081] Sten Tamkivi, 'Lessons from the World's Most Tech-Savvy Government', *Atlantic* ,24 January 2014.
[1082] For the relevance of this insight to other conflicts, see Staniland, *Networks of Rebellion.*
[1083] Simcox, *Al-Qaeda's Global Footprint*.
[1084] Zimmerman, *Al-Qaeda Network.*
[1085] Wu, *Master Switch* ,250.
[1086] Glennon, 'National Security', 12.
[1087] Barton Gellman, 'NSA Broke Privacy Rules Thousands of Times per Year, Audit Finds', *Washington Post* ,15 August 2013.
[1088] https://www.facebook.com/zuck/posts/10101301165605491.
[1089] Lloyd Grove, 'Kathleen Sebelius's Daily Show Disaster: Jon Stewart Slams Obamacare Rules', *Daily Beast* ,8 October 2013.
[1090] Schmidt and Cohen, 'Digital Disruption'.
[1091] Cecilia Kang, 'Google, in Post-Obama Era, Aggressively Woos Republicans', *The New York Times* ,27 January 2017
[1092]. Gautham Nagesh, 'ICANN 101: Who Will Oversee the Internet?' *Wall Street Journal* ,17 March 2014
[1093]. Enders and Su, 'Rational Terrorists'
[1094]. Scott Atran and Nafees Hamid, 'Paris: The War ISIS Wants, *New York Review of Books* ,16 November 2015
[1095]. David Ignatius, 'How ISIS Spread in the Middle East: And How to Stop It', *Atlantic* ,29 October 2015
[1096]. Karl Vick, 'ISIS Militants Declare Islamist "Caliphate" ', *Time* ,29 June 2014.
[1097] Graeme Wood, 'What ISIS Really Wants', *Atlantic*, March 2015.
[1098] Berger and Morgan, 'ISIS Twitter Census'. See also Joseph Rago, 'How Algorithms Can Help Beat Islamic State', *Wall Street Journal* ,11 March 2017.
[1099] Craig Whiteside, 'Lighting the Path: The Story of the Islamic State's Media Enterprise', *War on the Rocks* ,12 December 2016.
[1100] Wood, 'What ISIS Really Wants'
[1101]. UN Security Council, 'In Presidential Statement, Security Council Calls for

Redoubling Efforts to Target Root Causes of Terrorism as Threat Expands, Intensifies', 19 November 2014: www.un.org/press/en/2014/sc11656.doc.htm. See also Spencer Ackerman, 'Foreign Jihadists Flocking to Syria on "Unprecedented Scale" – UN', *Guardian,* 30 October 2014

[1102]. Wood, 'What ISIS Really Wants'.

[1103] Bodine-Baron et al., *Examining ISIS Support*.

[1104] Fisher, 'Swarmcast'. See also Ali Fisher, 'ISIS Strategy and the Twitter Jihadiscape', CPD Blog, 24 April 2017: http://uscpublicdiplomacy.org/blog/isis-strategy-and-twitter-jihadiscape

[1105] John Bohannon, 'Women Critical for Online Terrorist Networks', *Science* ,10 June 2016.

[1106] MacGill, 'Acephalous Groups'.

[1107] Even Obama's critics struggled to offer a coherent response to ISIS. For a conventional military/political counter-terrorism strategy, with no mention on cyberspace, see Habeck et al., *Global Strategy for Combating Al-Qaeda*.

[1108] Institute for Economics and Peace, *Global Terrorism Index 2016: Measuring and Understanding the Impact of Terrorism,* 4

[1109]. START, *Patterns of Islamic State-Related Terrorism, 2002–2015* (August 2016).

[1110] Institute for Economics and Peace, *Global Terrorism Index 2016,* 43.

[1111] Byrne, *Black Flag Down* ,18–20.

[1112] Stuart, *Islamist Terrorism*.

[1113] Rukmini Callimachi, Alissa J. Rubin and Laure Fourquet, 'A View of ISIS's Evolution in New Details of Paris Attacks', *The New York Times* ,19 March 2016.

[1114] Ali, *Challenge of Dawa*. See also Sookhdeo, *Dawa*.

[1115]. Stuart, *Islamist Terrorism: Key Findings* ,2 ,9 ,11 ,18.

[1116] Frampton et al., *Unsettled Belonging*.

[1117] Scott Atran and Nafees Hamid, 'Paris: The War ISIS Wants, *New York Review of Books* ,16 November 2015.

[1118] Berger and Morgan, 'ISIS Twitter Census'.

[1119] John Bohannon, 'How to Attack the Islamic State Online', *Science* ,17 June 2016. See also Berger and Perez, 'The Islamic State's Diminishing Returns on Twitter', and Wood, *Way of the Strangers* ,287.

[1120] http://www.bbc.com/news/uk-34568574.

[1121] Sutton, 'Myths and Misunderstandings'.

[1122] http://www.telegraph.co.uk/news/uknews/terrorism-in-the-uk/11546683/Islamist-extremists-in-prison-revolving-door-as-numbers-soar.html.

[1123] Pew Research Center, *Future Global Muslim Population.*

[1124] Laurence and Vaisse, *Integrating Islam* ,40f. See also Khosrokhavar, *L'Islam*

dans les prisons. See also Scott Atran and Nafees Hamid, 'Paris: The War ISIS Wants', *New York Review of Books*, 16 November 2015.
[1125] Antoine Krempf, '60% des détenus français sont musulmans?' Replay Radio, 26 January 2015.
[1126] Pew Research Center, *World's Muslims*.
[1127] For a defence of populism, see Roger Kimball, 'Populism, X: The Imperative of Freedom', *New Criterion* (June 2017).
[1128] Deena Shanker, 'Social Media are Driving Americans Insane', *Bloomberg*, 23 February 2017.
[1129] Deloitte, *No Place Like Phone*.
[1130] Hampton et al., 'Social Isolation and New Technology'.
[1131] Funke et al., 'Going to Extremes'.
[1132] Inglehart and Norris, 'Trump, Brexit, and the Rise of Populism'. See also Daniel Drezner, 'I Attended Three Conferences on Populism in Ten Days', *Washington Post*, 19 June 2017.
[1133] Renee DiResta, 'Crowds and Technology', RibbonFarm, 15 September 2016: http://www.ribbonfarm.com/2016/09/15/crowds-and-technology/.
[1134] Brinton and Chiang, *Power of Networks*, 207.
[1135]. 'Mobilising Voters through Social Media in the U.S., Taiwan and Hong Kong', Bauhinia, 15 August 2016.
[1136] Pentland, *Social Physics*, 50f.
[1137] Bond et al., '61-Million-Person Experiment'.
[1138] Goodhart, *Road to Somewhere*.
[1139] Dominic Cummings, 'How the Brexit Referendum Was Won', *Spectator*, 9 January 2017.
[1140] Dominic Cummings, 'On the Referendum #20: The Campaign, Physics and Data Science', 29 October 2016: https://dominiccummings.wordpress.com/2016/10/29/on-the-referendum-20-the-campaign-physics-and-data-science-vote-leaves-voter-intention-collection-system-vics-now-available-for-all/
[1141] Carole Cadwalladr, 'Revealed: How U.S. Billionaire Helped to Back Brexit', *Guardian*, 25 February 2017. Simon Kuper, 'Targeting Specific Voters is More Effective and Cheaper than Speaking to the Public on TV', *Financial Times*, 14 June 2017.
[1142] Salena Zito, 'Taking Trump Seriously, Not Literally', *Atlantic*, 23 September 2016.
[1143] Allen and Parnes, *Shattered*, KL 256–7, 566–9, 599–601, 804–6.
[1144] Ibid., KL 2902–4.
[1145] Ibid., KL 3261–73, 3281–5, 3291–3301.
[1146] Allcott and Gentzkow, 'Social Media and Fake News'.

[1147] Shannon Greenwood, Andrew Perrin and Maeve Duggan, 'Social Media Update 2016', Pew Research Center, 11 November 2016. See Mostafa M. El-Bermawy, 'Your Filter Bubble is Destroying Democracy', *Wired* ,18 November 2016.
[1148] Maeve Duggan and Aaron Smith, 'The Political Environment on Social Media', Pew Research Center, 25 October 2016.
[1149] Mobilising Voters through Social Media in the U.S., Taiwan and Hong Kong', Bauhinia, 15 August 2016.
[1150] Erin Pettigrew, 'How Facebook Saw Trump Coming When No One Else Did', *Medium* ,9 November 2016.
[1151]. Pew Research Center, 'Election Campaign 2016: Campaigns as a Direct Source of News', 18 July 2016, 15.
[1152] https://www.youtube.com/watch?v=vST61W4bGm8.
[1153] https://www.wired.com/2016/11/facebook-won-trump-election-not-just-fake-news/.
[1154] Cecilia Kang, 'Google, in post-Obama Era, Aggressively Woos Republicans', *The New York Times* ,27 January 2017.
[1155] 'Facebook Employees Pushed to Remove Trump's Posts as Hate Speech', *Wall Street Journal* ,21 October 2016.
[1156] Farhad Manjoo, 'Algorithms with Agendas and the Sway of Facebook', *The New York Times* ,11 May 2016.
[1157] Issie Lapowsky, 'Here's How Facebook Actually Won Trump the Presidency', *Wired* ,15 November 2016.
[1158] Elizabeth Chan, 'Donald Trump, Pepe the Frog, and White Supremacists: An Explainer', Hillary for America, 12 September 2016.
[1159] Ben Schreckinger, 'World War Meme', *Politico*, March/April 2017.
[1160]. Hannes Grassegger And Mikael Krogerus, 'The Data That Turned the World Upside Down', Motherboard, 28 January 2017.
[1161] Nicholas Confessore and Danny Hakim, 'Bold Promises Fade to Doubts for a Trump-Linked Data Firm', *The New York Times* ,6 March 2017.
[1162] Issie Lapowsky, 'The 2016 Election Exposes the Very, Very Dark Side of Tech', *Wired* ,7 November 2016.
[1163] Zeynep Tufekci, 'Mark Zuckerberg is in Denial', *The New York Times* ,15 November 2016.
[1164] Richard Waters, 'Google Admits Giving Top Spot to Inaccurate Claim on Trump Votes', *Financial Times* ,15 November 2016.
[1165] Allcott and Gentzkow, 'Social Media and Fake News'.
[1166] David Blood, 'Fake News is Shared as Widely as the Real Thing', *Financial Times* ,27 March 2017.
[1167] Boxell et al., 'Is the Internet Causing Political Polarization?'

[1168] The original essay on this theme was Niall Ferguson and Moritz Schularick, 'Chimerical? Think Again', *Wall Street Journal*, 5 February 2007. We revisited it in ' "Chimerica" and the Rule of Central Bankers', ibid., 27 August 2015. The idea inspired Lucy Kirkwood's 2013 play of the same name.
[1169] So far as I am aware, this has never been done. Relevant data can be found at http://globe.cid.harvard.edu/.
[1170] See for example Barnett (ed.), *Encyclopedia of Social Networks*, vol. I, 297. The optimistic case is laid out by Slaughter, *The Chessboard and the Web*.
[1171] Kissinger, *World Order*, 93f.
[1172]. Ibid., 371.
[1173] Steven Pinker and Andrew Mack, 'The World is Not Falling Apart', *Slate*, 22 December 2014. For a critique of Pinker's book, *Better Angels*, see Cirillo and Taleb, 'Statistical Properties'. See for a reply Steven Pinker, 'Fooled by Belligerence: Comments on Nassim Taleb's "The Long Peace is a Statistical Illusion" ': http://stevenpinker.com/files/comments_on_taleb_by_s_pinker.pdf.
[1174] Kissinger, *World Order*, 340, 347, 368.
[1175] See Allison, *Destined for War*.
[1176] Jeffrey Goldberg, 'World Chaos and World Order: Conversations with Henry Kissinger', *Atlantic*, 10 November 2016.
[1177] Niall Ferguson, 'The Lying, Hating Hi-Tech Webs of Zuck and Trump are the New Superpowers', *Sunday Times*, 19 February 2017.
[1178] See e.g. Snyder, *On Tyranny*.
[1179] See e.g. (published on the same day) Jennifer Senior, ' "Richard Nixon", Portrait of a Thin-Skinned, Media-Hating President', *The New York Times*, 29 March 2017; Jennifer Rubin, 'End the Nunes Charade, and Follow the Russian Money', *Washington Post*, 29 March 2017.
[1180] Dittmar, 'Information Technology and Economic Change'.
[1181] McKinsey Global Institute, *Playing to Win*, 11.
[1182] World Bank, *Digital Dividends*, 95.
[1183]. Ibid., 207.
[1184] Ibid., xiii, 6.
[1185] Schiedel, *Great Leveler*.
[1186] World Bank, *Digital Dividends*, 217.
[1187] Alexis C. Madrigal, 'The Weird Thing About Today's Internet', *Atlantic*, 17 May 2017.
[1188] Thiel, *Zero to One*.
[1189] In the developing world, mobile-phone service costs vary from nearly $50 a month in Brazil to single digits in Sri Lanka. The price of Internet for a megabit per second is around 300 times higher in landlocked Chad than in Kenya: World Bank, *Digital Dividends*, 8, 71, 218.

[1190] Ibid., 13.
[1191] Charles Kadushin, 'Social Networks and Inequality: How Facebook Contributes to Economic (and Other) Inequality', *Psychology Today*, 7 March 2012: https://www.psychologytoday.com/blog/understanding-social-networks/201203/social-networks-and-inequality.
[1192] Sam Altman, 'I'm a Silicon Valley Liberal, and I Traveled across the Country to Interview 100 Trump Supporters – Here's What I Learned', *Business Insider*, 23 February 2017: http://www.businessinsider.com/sam-altman-interview-trump-supporters-2017-2.
[1193] 'As American as Apple Inc.: Corporate Ownership and the Fight for Tax Reform', Penn Wharton Public Policy Initiative, Issue Brief 4, 1: https://publicpolicy.wharton.upenn.edu/issue-brief/v4n1.php.
[1194] Sandra Navidi, 'How Trumpocracy Corrupts Democracy', Project Syndicate, 21 February 2017.
[1195] Cecilia Kang, 'Google, in post-Obama Era, Aggressively Woos Republicans', *The New York Times*, 27 January 2017; Jack Nicas and Tim Higgins, 'Silicon Valley Faces Balancing Act between White House Criticism and Engagement', *Wall Street Journal*, 31 January 2017.
[1196]. Issie Lapowsky, 'The Women's March Defines Protest in the Facebook Age', *Wired*, 21 January 2017; Nick Bilton, 'Will Mark Zuckerberg be Our Next President?' *Vanity Fair*, 13 January 2017.
[1197] World Bank, *Digital Dividends*, 221–7.
[1198] Lada A. Adamic, Thomas M. Lenton, Eytan Adar and Pauline C. Ng, 'Information Evolution in Social Networks', 22–25 February 2016: https://research.fb.com/wp-content/uploads/2016/11/information_evolution_in_social_networks.pdf.
[1199] James Stavridis, 'The Ghosts of Religious Wars Past are Rattling in Iraq', *Foreign Policy*, 17 June 2014.
[1200] Turchin, *Ages of Discord*.
[1201] Maier, *Leviathan 2.0*.
[1202] Mark Galeotti, 'The "Trump Dossier," or How Russia Helped America Break Itself', *Tablet*, 13 June 2017.
[1203] Fareed Zakaria, 'America Must Defend Itself against the Real National Security Menace', *Washington Post*, 9 March 2017.
[1204] Nye, 'Deterrence and Dissuasion', 47.
[1205] Ramo, *Seventh Sense*, 217f.
Caldarelli and Catanzaro, *Networks*, 95–8, 104f.[1206]
[1207] Drew Fitzgerald and Robert McMillan, 'Cyberattack Knocks Out Access to Websites', *Wall Street Journal*, 21 October 2016; William Turton, 'Everything We Know about the Cyberattack That Crippled America's Internet', Gizmodo, 24

October 2016.
[1208] Fred Kaplan, ' "WarGames" and Cybersecurity's Debt to a Hollywood Hack', *The New York Times* ,19 February 2016.
[1209] Nye, 'Deterrence and Dissuasion'.
[1210] Ken Dilanian, William M. Arkin and Cynthia Mcfadden, 'U.S. Govt. Hackers Ready to Hit Back If Russia Tries to Disrupt Election', NBC, 4 November 2016.
[1211] Nathan Hodge, James Marson and Paul Sonne, 'Behind Russia's Cyber Strategy', *Wall Street Journal* ,16 December 2017.
[1212] For the most recent WikiLeaks release, see Zeynep Tufekci, 'The Truth about the WikiLeaks C.I.A. Cache', *The New York Times* ,9 March 2017.
[1213]
[1214] Bonnie Berkowitz, Denise Lu and Julie Vitkovskaya, 'Here's What We Know So Far about Team Trump's Ties to Russian Interests', *Washington Post* ,31 March 2017.
[1215] Nye, 'Deterrence and Dissuasion', 44– 52, 63– 7.
[1216] Anne-Marie Slaughter, 'How to Succeed in the Networked World', *Foreign Affairs*, (November/December 2016), 80.
[1217] Slaughter, 'How to Succeed', 84f.; Slaughter, *The Chessboard and the Web*, KL 2738.
[1218] Slaughter, 'How to Succeed', 86.
[1219] Slaughter, *The Chessboard and the Web*, KL 2680– 84.
[1220]. Ian Klaus, 'For Cities of the Future, Three Paths to Power', *Atlantic* ,19 March 2017.
[1221] Ramo, *Seventh Sense* ,182.
[1222]. Ibid., 233.
[1223]. Ibid., 153. See also Clarke and Eddy, *Warnings* ,283– 301.
[1224] Taleb, *Antifragile*.
[1225] Arbesman, *Overcomplicated*.
[1226] Caldarelli and Catanzaro, *Networks* ,97.
[1227] Daniel Martin, 'Shaming of Web Giants', *Daily Mail* ,15 March 2017.
[1228] Guy Chazan, 'Germany Cracks Down on Social Media over Fake News', *Financial Times* ,14 March 2017.
[1229] GP Bullhound, *European Unicorns: Survival of the Fittest*) 2016).
[1230] Adam Satariano and Aoife White, 'Silicon Valley's Miserable Euro Trip is Just Getting Started', *Bloomberg Business Week* ,20 October 2016; Mark Scott, 'The Stakes are Rising in Google's Antitrust Fight with Europe', *The New York Times* ,30 October 2016; Philip Stephens, 'Europe Rewrites the Rules for Silicon Valley', *Financial Times* ,3 November 2016.
[1231] Goldsmith and Wu, *Who Controls the Internet?* ,5ff.
[1232] For a different view, see Hafner-Burton and Montgomery, 'Globalization and

the Social Power Politics.'

[1233] Bethany Allen-Ebrahimian, 'The Man Who Nailed Jello to the Wall', *Foreign Policy*,29 June 2016.

[1234] Spar, *Ruling the Waves*,381.

[1235]. Guobin Yang, 'China's Divided Netizens', Berggruen Insights, 6, 21 October 2017.

[1236] King et al., 'Randomized Experiment'.

[1237] Goldsmith and Wu, *Who Controls the Internet?*,96.

[1238] Emily Parker, 'Mark Zuckerberg's Long March into China', *Bloomberg*,18 October 2016; Alyssa Abkowitz, Deepa Seetharaman and Eva Dou, 'Facebook Is Trying Everything to Re-Enter China—and It's Not Working', *Wall Street Journal*, 30 January 2017.

[1239] Mary Meeker, 'Internet Trends 2016—Code Conference', Kleiner Perkins Caufield Byers, 1 June 2016, 170f.

[1240] Kirby et al., 'Uber in China', 12.

[1241] William Kirby, 'The Real Reason Uber is Giving Up in China', *Harvard Business Review*,2 August 2016.

[1242] See e.g. Eric X. Li, 'Party of the Century: How China is Reorganizing for the Future', *Foreign Affairs*,10 January 2017, and Bell, *China Model*.

[1243] Keller, 'Networks of Power', 32; Keller, 'Moving Beyond Factions', 22.

Li, *Chinese Politics*,332 ,347f.[1244]

[1245] Jessica Batke and Matthias Stepan, 'Party, State and Individual Leaders: The Who's Who of China's Leading Small Groups', Mercator Institute for China Studies (2017).

[1246]. Lin and Milhaupt, 'Bonded to the State'.

[1247] 'Chinese Censors' Looser Social Media Grip "May Help Flag Threats" ', *South China Morning Post*,13 February 2017.

[1248]. 'Visualizing China's Anti-Corruption Campaign', ChinaFile, 21 January 2016.

[1249] 'Big Data, Meet Big Brother: China Invents the Digital Totalitarian State', *Economist*,17 December 2016.

[1250] Nick Szabo, 'Money, Blockchains and Social Scalability', Unenumerated, 9 February 2017.

[1251] Ibid.

[1252] Haldane, 'A Little More Conversation'. See also Bettina Warburg, How the Blockchain will Radically Transform the Economy', TED talk, November 2016.

[1253] David McGlauflin, 'How China's Plan to Launch Its Own Currency Might Affect Bitcoin', Cryptocoins News, 25 January 2016; 'China is Developing Its Own Digital Currency', Bloomberg News, 23 February 2017. Details of the PBOC plan at http://www.cnfinance.cn/magzi/2016-09/01-24313.html and http://www.cnfinance.cn/magzi/2016-09/01-24314.html.

1254 Deloitte and Monetary Authority of Singapore, 'The Future is Here: Project Ubin: SGD on Distributed Ledger' (2017). See in general Bordo and Levin, 'Central Bank Digital Currency'.
1255 For a suggestive comparison with the Renaissance, see Goldin and Kutarna, *Age of Discovery*.
1256 Heylighen and Bollen, 'World-Wide Web as a Super-Brain'. See also Heylighen, 'Global Superorganism'.
1257. Dertouzos, *What Will Be*.
1258 Wright, *Nonzero* ,198.
1259 Hayles, 'Unfinished Work', 164.
1260 Tomlin, *Cloud Coffee House* ,55.
1261 Ibid., 223.
1262 Spier, *Big History and the Future of Humanity* ,138–83.
1263 Naughton, *From Gutenberg to Zuckerberg* ,207 ,236.
1264 Mark Zuckerberg, 'Commencement Address at Harvard', *Harvard Gazette*, May 25, 2017.
1265 Gordon, *Rise and Fall of American Growth*. For an optimistic view, see Schwab, *Fourth Industrial Revolution*.
1266 Acemoglu and Restrepo, 'Robots and Jobs'.
1267 World Bank, *Digital Dividends* ,23 ,131.
1268 Caplan, 'Totalitarian Threat'.
1269 For a historically based prediction of an upsurge in violence in the United States, see Turchin, *Ages of Discord*.
1270 Caldara and Iacoviello, 'Measuring Geopolitical Risk'.
1271 Bostrom, *Superintelligence*. See also Clarke and Eddy, *Warnings*, esp. 199–216.
1272 David Streitfeld, ' 'The Internet Is Broken': @ev Is Trying to Salvage It', *New York Times* ,20 May 2017.
1273 Scott, *Two Cheers*.
1274 Niall Ferguson, 'Donald Trump's New World Order', *The American Interest* (March/April 2017), 37–47.
1275 Steinhof, 'Urban Images', 20.
1276 https://www.nytimes.com/interactive/2016/12/21/upshot/Mapping-the-Shadows-of-New-York-City.html?_r=1.
1277 Steven Levy, Inside Apple's Insanely Great (Or Just Insane) New Mothership', *Wired* ,16 May 2017.
1278 Facebook: http://mashable.com/2015/03/31/facebook-new-headquarters-photos/#0dtktL9aMgqH; Apple: http://www.fosterandpartners.com/news/archive/2017/02/apple-park-opens-to-employees-in-april/; Google:

https://googleblog.blogspot.com/2015/02/rethinking-office-space.html.

[1279] Joseph Polzer, 'Ambrogio Lorenzetti's "War and Peace" Murals Revisited: Contributions to the Meaning of the "Good Government Allegory"', *Artibus et Historiae*, 23, 45 (2002), 64. For background, see Timothy Hyman, *Sienese Painting: The Art of a City-Republic (1278–1477)* (New York: Thames & Hudson, 2003).

[1280] Charles Duan, '"Internet" or "internet"? The Supreme Court Weighs In', *Motherboard*, 22 June 2017.

[1281] Polzer, 'Ambrogio Lorenzetti's "War and Peace" Murals', 69.

[1282]. Ibid., 70.

[1283] Nirit Ben-Aryeh Debby, 'War and Peace: The Description of Ambrogio Lorenzetti's Frescoes in Saint Bernardino's 1425 Siena Sermons', *Renaissance Studies*, 15, 3 (September 2001), 272–86.

[1284] Jack M. Greenstein, 'The Vision of Peace: Meaning and Representation in Ambrogio Lorenzetti's *Salla della Pace* Cityscapes', *Art History*, 11, 4 (December 1988), 504.

[1285] The black and white colours of his robe are those of the *Balzana*, Siena's standard; the she-wolf and her suckling twins at his feet allude to Siena's supposedly ancient Roman origin; the inscription on his shield is taken from Siena's official seal: Polzer, 'Ambrogio Lorenzetti's "War and Peace" Murals', 71.

[1286] Ibid., 86.

[1287] Quentin Skinner, 'Ambrogio Lorenzetti's Buon Governo Frescoes: Two Old Questions, Two New Answers', *Journal of the Warburg and Courtauld Institutes*, 62 (1999), 1–28.

[1288] Polzer, 'Ambrogio Lorenzetti's "War and Peace" Murals', 71. See also C. Jean Campbell, 'The City's New Clothes: Ambrogio Lorenzetti and the Poetics of Peace', *Art Bulletin*, 83, 2 (June 2001), 240–58.

[1289] Skinner, 'Ambrogio Lorenzetti's Buon Governo Frescoes', 14.

[1290] Polzer, 'Ambrogio Lorenzetti's "War and Peace" Murals', 82.

[1291] Greenstein, 'The Vision of Peace', 498.

[1292] Ibid., 494; Polzer, 'Ambrogio Lorenzetti's "War and Peace" Murals', 70.

[1293] Skinner, 'Ambrogio Lorenzetti's Buon Governo Frescoes'.

[1294] Diana Norman, 'Pisa, Siena, and the Maremma: A Neglected Aspect of Ambrogio Lorenzetti's Paintings in the Sala dei Nove', *Renaissance Studies*, 11, 4 (December 1997), 314.

Norman, 'Pisa, Siena, and the Maremma', 320.[1295]

[1296] Greenstein, 'The Vision of Peace', 503f.

[1297] Roxann Prazniak, 'Siena on the Silk Roads: Ambrogio Lorenzetti and the Mongol Global Century, 1250–1350', *Journal of World History*, 21, 2 (June 2010), 177–217.

[1298] Ibid., 180, 185, 188f.
[1299] Debby, 'War and Peace', 283.